سلسلة كنوز الأزهريين

الفتوحات الوهبية

بشرح الأربعين النووية

للعلامة المتقن الشيخ

إبراهيم بن مرعي الشَّبْراخيتي

المالكي الأزهري، المتوفى سنة ١١٠٦هـ

للنشر والتوزيع
كشيدة

سلسلة كنوز الأزهريين



بشرح الأربعين النووية

للعلامة الشيخ

إبراهيم بن مرعي الشَّبْراخيتي

المالكي الأزهري، المتوفى سنة ١١٠٦هـ

١/١١/٢٠٢٣م
١٧/ربيع الآخر/١٤٤٥هـ



الشبراخيتي، إبراهيم بن مرعي بن عطية، (٠٠٠-١٦٩٤).
الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين النووية/ لإبراهيم بن مرعي الشبراخيتي -
الشرقية: كشيدة للنشر والتوزيع، ٢٠١٨.
٦٦٤ ص؛ ٢٤ سم (سلسلة كنوز الأزهريين).
تدمك ٥ ٠١١ ٨٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١. الحديث -شرح.
٢. الحديث - الأربعون حديثا.
أ- العنوان ٢٣٧, ٣

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م
كشيدة للنشر والتوزيع

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٨/٨٠١٣

الترقيم الدولي ISBN
978-977-848-011-5

الناشر: كشيدة للنشر والتوزيع
العاشر من رمضان - مصر
info@kasheeda-publishing.com
www.kasheeda-publishing.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، المتفضل على عباده بجلائل النعم ودقائقها، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نعمة الله الكبرى ورحمته للخلائق أجمعين، وبعد..

فلما كانت السنة النبوية مفسرة ومفصلة لكتاب الله الكريم، اندرجت تحت مظلة الحفظ الإلهي المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وتبارى حفاظ الأمة وأئمتها في تسجيل السنة النبوية الشريفة، وتوثيق متونها وأسانيدها، وجمع ذلك في الدواوين الحديثية المختلفة، من صحاح وسنن ومسانيد وغيرها.

اعتنى حفاظ الأمة كذلك بالأحاديث المتعلقة بموضوع واحد، كأحاديث الأحكام، وأحاديث الشمائل، وأحاديث الخصال الموجبة للظلال، وما إلى ذلك، وجمعوا هذه الأحاديث المختارة في مؤلفات حديثية مستقلة، كان منها الأربعينيات[1] التي اعتنى فيها أصحابها بجمع أربعين حديثا طمعًا في نوال ما أخبر به المصطفى ﷺ بقوله: (من حفظ على أمتي أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله في زمرة الفقهاء والعلماء).

وتعد "الأربعون" التي جمعها الإمام النووي[2] من أشهر تلك الأربعينيات، حيث تلقتها الأمة بالقبول، وحظيت بعناية العلماء والدارسين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتجلى ذلك في كثرة ما كتب حولها من شروح، كان منها شرح المؤلف نفسه، الإمام النووي، وشرح ابن فرح الإشبيلي (ت ٦٩٩هـ)، وشرح ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ)، وشرح ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، وشرح ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ)، وغير ذلك من الشروح.

ولم يكن علماء الأزهر الشريف بمعزل عن هذه الحفاوة والعناية بالأربعين النووية، فتناولها العديد من علمائه بالشرح والتقرير، واشتهر من تلك الشروح الأزهرية:

- شرح الشيخ أحمد بن حجازي الفشني (ت ٩٧٨هـ)، وهو الشرح المسمى: "المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية".

---

(١) ذكر الإمام النووي أمثلة لتلك الأربعينيات في كتابه، انظر ص ٩٣

(٢) انظر ترجمته التي كتبها العلامة الشبراخيتي في مقدمته، ص ١٢-١٦

- شرح الشيخ إبراهيم بن مرعي الشبراخيتي (ت ١١٠٦هـ)، وهو هذا الشرح الذي نقدمه اليوم ضمن سلسلة "كنوز الأزهريين"، والمسمى "الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين النووية".

- شرح الشيخ عبد المجيد الشرنوبي (ت ١٣٤٨هـ)[١].

***

التعريف بالعلامة الشبراخيتي[٢]:

برهان الدين، أبو إسحق، إبراهيم بن مرعي بن عطية، الشبراخيتي: الفقيه الإمام العمدة المتفنن المحقق القدوة، الشيخ الفاضل والعالم العامل، من أفاضل المالكية بمصر.

أخذ عن العلامة الأجهوري، وبه تفقه، وعن الشيخ يوسف الفيشي، ومحمد البابلي وغيرهم من علماء هذه الطبقة. وأخذ عنه جماعة منهم الشيخ علي النوري، والشيخ إبراهيم الجمني، والشيخ علي بن خليفة المساكني، والشيخ حمد المكني.

له مؤلفات منها: شرح على مختصر خليل في مجلدات، وشرح على العشماوية، وشرح على الأربعين النووية رزق فيه القبول، وشرح على ألفية السيرة العراقية.

مات غريقا بالنيل وهو متوجه إلى رشيد سنة ١١٠٦هـ [١٦٩٤م].

***

شرح الشبراخيتي للأربعين النووية:

اعتمدنا بصورة أساسية في إخراج هذا الإصدار على نسختين للشرح:

١- النسخة المخطوطة المحفوظة بجامعة الملك سعود بالرياض، برقم ٢١٣,٦ حديث، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١١٧٤هـ.

٢- النسخة المطبوعة بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٤هـ، وبهامشها كتاب "المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية" للفشني.

إضافة إلى ذلك، وفي بعض المواضع التي يكون السياق فيها غير مستقيم، أو يبدو فيها أن

(١) صدر عن كشيدة للنشر والتوزيع بعنوان "شرح الأربعين النووية" ضمن سلسلة "تراث الأزهريين".

(٢) انظر: شجرة النور ت١٢٥٤، اليواقيت الثمينة ٩٦/١، معجم المؤلفين ٧٢/١، الأعلام ج١/ ص٧٣، و"شبراخيت" هي أحد مراكز محافظة البحيرة بمصر.

هناك تصحيفا ما في النَّسخ، كنا نلجأ إلى المراجع وأمهات المصادر وغيرها من الكتب التي يشير إليها العلامة الشبراخيتي، للتأكد من صحة النص، وإثبات ما قد يكون هناك من سقط أو تصحيف، مع الإشارة إلى ذلك في الهامش.

***

وفي هذا الشرح النفيس للأربعين النووية، التزم العلامة الشبراخيتي منهجية عرض موحدة، تقوم على النقاط التالية:

- التعريف بالراوي الأعلى: حرص العلامة الشبراخيتي على أن يبدأ شرحه لكل حديث بالتعريف بالراوي الأعلى، وذكر شيء من مناقبه، وعدد ما روي عنه من أحاديث وما جاء منها في الصحيحين.

- شرح مفردات وعبارات الحديث بصورة مستفيضة: ينتقل الشارح بعد ذلك إلى مفردات وعبارات الحديث متناولا إياها بصورة تفصيلية، بادئا بضبط ما يلزم من ألفاظ، وبيان لغاتها المختلفة، وتعريف ما يحتاج من المفردات إلى تعريف، وبيان المعاني المختلفة التي ترد بها بعض الألفاظ في القرآن واللغة، ليخلص من ذلك إلى معنى العبارات المختلفة، معرجا على إعراب بعض من تلك العبارات.

وحرص العلامة الشبراخيتي في بيانه لمعاني عبارات الأحاديث على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مع مزيد عناية بذكر الروايات الأخرى المختلفة لبعض العبارات.

حرص الشارح أيضا على الاستئناس كثيرا بحكايات ومواقف صلحاء الأمة سلفا وخلفا، إبرازًا لمعاني العبارات، وبيانًا واقعيًّا لأثرها.

- إدراج نكت وتنبيهات وفوائد: كثيرا ما كان العلامة الشبراخيتي يدرج بعض التنبيهات والفوائد والنكت، إزالةً لشبهة، أو استكمالاً لفائدة، أو غير ذلك.

- التعريف بأصحاب الدواوين الحديثية: ويختم العلامة الشبراخيتي شرح كل حديث دوما بالتعريف بصاحب الديوان الحديثي الذي ورد فيه الحديث، مع ذكر شيء من مناقبه، وقد يعرج على بعض الفوائد الحديثية، كتفسيره مثلا لقول الإمام الترمذي "حديث حسن صحيح" [الحديث الحادي عشر]، أو ذكر ما للحديث من منزلة عظيمة، كقوله مثلا "وهو أصل عظيم في السلوك إلى الله تعالى ومعرفته ومحبته وطريقته" [الحديث الثامن والثلاثون].

***

تبرز من خلال الشرح أيضا مجموعة من السمات الكاشفة عن التكوين الأزهري للعلامة الشبراخيتي، والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

- النَّفَسُ الصوفي المعتدل: ويتجلى ذلك من خلال كثرة الاقتباس عن أئمة الصوفية وساداتهم، كالجنيد، وسري السقطي، وبشر الحافي، والتستري، والشبلي، وإبراهيم بن أدهم، ومعروف الكرخي، وذي النون المصري، والقشيري، والغزالي، وابن عطاء الله، وغيرهم. يبرز أيضا هذا النفس الصوفي في حديث الشبراخيتي في مواضع كثيرة عن المقامات والمعرفة ومراقبة النفس والسلوك إلى الله تعالى.

- المذهبية الفقهية: يعد الشيخ الشبراخيتي من أئمة المالكية، ويشير بصورة واضحة إلى ذلك بقوله في كثير من المواضع: "وقال إمامنا مالك". تتجلى مالكيته أيضا في كثرة نقله عن فقهاء المالكية كشراح مختصر خليل، وشراح الرسالة القيروانية، وغيرهم.

- عقيدة أهل السنة والجماعة كما تبلورت في المذهب الأشعري: ويتضح ذلك من خلال تقريره لمذهب الأشاعرة فيما يستعرضه من مسائل العقيدة، كمسألة خلق قدرة الطاعة عند العبد (ص١١٤)، ومسألة الاستثناء في الإيمان (ص٢٣٠)، وغيرها من مسائل علم الكلم.

***

وختاما نقول: إنه لمن دواعي سرورنا في كشيدة للنشر والتوزيع أن نوفق لنشر هذا الشرح النفيس للأربعين النووية، داعين المولى عز وجل أن يوفقنا لنشر المزيد من كنوز الأزهريين، وأن يتقبلها منا، ويقبلنا بها في سلك خُدّام حبيبه ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الناشر

إيهاب أحمد محمد علي

الفتوحات الوهبية

بشرح الأربعين النووية

للعلامة الشبراخيتي

المالكي الأزهري، المتوفى ١١٠٦هـ

[مقدمة الشارح]

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ
وبه نَستعينُ

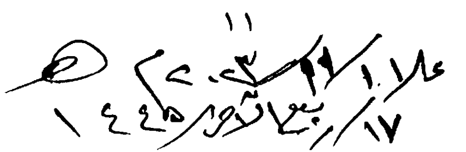
الحمدُ للهِ الَّذي وَفَّقَ لِحمْلِ الحديثِ مَن اصطفاهُ مِنَ الأنامِ، وهَدَى مَن ارتضاهُ لِفهمِ ما فيهِ مِنَ الأحْكامِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له المَلِكُ العلَّامُ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الَّذي أُوتِيَ جوامِعَ الكلِمِ وبدائعَ الحِكَمِ العِظامِ، صلَّى اللهُ علَيْه وعلَى آلِه وصحابتِه الكِرامِ، صلاةً مُتضاعِفةً مُترادِفةً علَى ممرِّ الشُّهورِ والأعوامِ، وسلَّمَ تسليمًا.

وبعدُ،

فيقولُ العبدُ الفقيرُ الضعيفُ المُلتجِئُ إلى مولاهُ القويِّ اللَّطيفِ، إبراهيمُ بنُ مرعيِّ بنِ عطيةَ الشبراخيتي المالِكيُّ -سَتَرَ اللهُ عيوبَه، وغَفَرَ ذنوبَه، وبلَّغَه في الدارَيْنِ مطلوبَه-:

إنَّ أوْلَى ما أُنفِقَتْ فيه نفائسُ الأعمارِ، وصُرِفَتْ إليْه جواهرُ الأفكارِ، واستُعمِلتْ فيه الأسماعُ والأبصارُ حديثُ رسولِ اللهِ ﷺ، وكانتِ "الأربعون" التي ألَّفَها وليُّ اللهِ العلَّامةُ مُحيي الدِّينِ أبو زكريَّا يَحيى بنُ شرفِ الدِّينِ النوويُّ مِنْ جوامعِ كلامِه ﷺ المُشتمِلةِ علَى أبلغِ المعاني وأحكمِ المباني حتَّى وُصِفَ أكثرُها بأنَّ علَيْه مدارَ الإسلامِ وابتناءَ الأحكامِ؛ فلذا عنَّ لي أنْ أكتبَ علَيْها شرحًا، مُتمثِّلًا بقولِ القائلِ:

أَسِيرُ خَلْفَ رِكَابِ النُّجْبِ ذَا عَرَجٍ * مُؤَمِّلاً جَبْرَ مَا لَاقَيْتُ مِنْ عِوَجِ
فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا * فَكَمْ لِرَبِّ السَّمَا فِي النَّاسِ مِنْ فَرَجِ
وَإِنْ ظَلِلْتُ بِقَفْرِ الْأَرْضِ مُنْقَطِعًا * فَمَا عَلَى أَعْرَجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ



جَعَلَهُ اللهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، مُحَصِّلًا لِلْفَوْزِ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَنَفع به في الحياةِ وبعدَ المماتِ، إنَّه قريبٌ مُجيبُ الدعواتِ، وسمَّيتُه:

"الفُتوحاتِ الوهبيَّةَ بشرحِ الأربعينَ النوويَّة"

ثم إنَّه يَنبغي أنْ يُنبَّه علَى المصنِّفِ بالتعريفِ، وذلك بذكرِ نَسَبِه وبعضِ مآثرِه علَى وجهٍ لطيفٍ؛ لأنَّه كانَ عَلَمًا بينَ أقرانِه، فريدًا في عصرِه وأوانِه، فنقولُ:

ترجمة الإمام النووي

هو يَحيى بنُ شرفِ بنِ مُرِي -بضمِّ الميمِ وكسرِ الرَّاءِ كما وُجِد مضبوطًا بخطِّه- ابنِ حسنِ بنِ حسينِ بنِ محمدِ بنِ جمعةَ بنِ حِزامٍ -بكسرِ الحاءِ المُهمَلةِ وبالزَّاي المُعجمة- الحزاميُّ النوويُّ ثم الدمشقيُّ.

والنوويُّ نسبةٌ لِنَوى، والنسبةُ إليها بحذفِ الألِفِ على الأصلِ، ويَجوزُ كَتْبُها بالألِفِ عَلى العادةِ، وقدْ أقامَ الشيخُ بدمشقَ نحوًا منْ ثمانيةٍ وعشرينَ سنةً، واستدلَّ ابنُ المباركِ[1] بقولِ مَنْ قالَ: مَنْ أقامَ ببلدٍ أربعَ سنينَ نُسِبَ إِلَيْها. وُلِدَ في العشْرِ الأُوَلِ منَ المحرَّمِ سنةَ إحدى وثلاثينَ وستِّمائةٍ، وقيلَ: في العشْرِ الأوسطِ منْه سنةَ ثلاثينَ وستِّمائةٍ، وهذا هو المُعتمَدُ.

ونوى قريةٌ منْ قُرى دمشقَ، ونَشَأَ بها، وقرأَ القرآنَ. ولله دَرُّ القائلِ حيثُ قالَ:

لَقِيتِ خَيْرًا يَا نَوَى * وَوُقِيتِ مِنْ أَلَمِ النَّوَى
فَلَقَدْ نَشَا بِكِ عَالِمٌ * للهِ أَخْلَصَ مَا نَوَى
وعَلَا عُلَاهُ وَفَضْلُهُ * فَضْلَ الْحُبُوبِ عَلَى النَّوَى

فلَمَّا بَلَغَ سبعَ سنينَ، وكانتْ ليلةُ السابعِ والعشرينَ منْ شهرِ رمضانَ نامَ جنْبَ والدِه، فانتبَهَ نحوَ نصفِ اللَّيلِ وأيقظَه، وقالَ: يا أبتِ، ما هذا النُّورُ الذي قدْ ملأَ الدارَ؟ فاستيقظَ أهلُه جميعًا، فلمْ يَرَوْا شيئًا، فعرفَ والدُه أنَّها ليلةُ القدرِ.

(١) أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، ولد سنة ١١٨، وجمع بين العلم والزهد، له كتاب في الجهاد وهو أول من صنف فيه، والرقائق، توفي سنة ١٨١. انظر: تاريخ بغداد (١٠/١٥١)، وفيات الأعيان (٣/٣٢)، سير أعلام النبلاء (٧/٣٦٥).

فلَمَّا بلغَ عشْرَ سنينَ، وكانَ بنوى الشيخ يس بنُ يوسفَ المراكشيُّ[1]، منْ أولياءِ اللهِ تَعالى، فرأى الصبيانَ يُكْرِهونَه علَى اللَّعبِ، وهو يَهرَبُ منهم، ويَبكي لإكراهِهم، ويقرأُ القرآنَ في تلك الحالِ، قالَ: فوقعَ في قلْبي محبتُه، وجعلَه أبوه في دُكَّانٍ يشتغلُ بالبيعِ والشراءِ عنِ القرآنِ، قالَ الشيخُ يس: فأتيتُ الذي يُقرِئُه القرآنَ، فوصَّيْتُهُ به، وقلتُ له: هذا الصبيُّ يُرجى أنْ يكونَ أعْلَمَ أهلِ زمانِه وأزهدَهم، ويَنتفعَ الناسُ به، فقال: أمُنجِّمٌ أنتَ؟ فقلتُ: لا، وإنما أنطقَنيَ اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ بذلِكَ، فذَكَرَ ذلك لوالِدِه، فحَرَصَ علَيْه إلى أنْ خَتَمَ القرآنَ وقدْ ناهزَ الاحتلامَ.

قالَ الشيخُ: فلَمَّا كانَ عُمري تسعَ عشرةَ سنةً قَدِمَ بي والدي إلى دمشقَ سنةَ تسعٍ وأربعينَ، يعني وستِّمائةٍ، فَسكَنْتُ المدرسةَ الرواحيةَ[2]، وبَقِيتُ نحوَ سنتَيْنِ لمْ أضعْ جَنْبي إلى الأرضِ، وكانَ قُوتي بها جرايةَ المدرسةِ لا غيرُ، قالَ بعضُهم: وكانَ يتصدَّقُ منها أيضًا.

ومنْ قوَّةِ يقينِه ملازمتُه لحيَّةٍ عظيمةٍ في بيتِه بالرواحيةِ، ويَراها كُلَّ قليلٍ تَخرُجُ إليْه، ويُقدِّمُ لَها لُبابًا تأكلُه، حتى إنَّ بعضَهم رآه في غفلةٍ، وهو يُطعمُها اللُّبابَ، فقالَ له: يا سيِّدي، ما هذه؟! وخافَ! فقالَ هذه خَلْقٌ مِنْ خلْقِ اللهِ، لا تَضرُّ ولا تنفعُ، أسألُكَ باللهِ تَكتمُ ما رأيتَ، ولا تُحدِّثْ أحدًا.

قالَ: وحفظْتُ "التنبيهَ" في أربعةِ أشهرٍ ونصفٍ، وبقيَّةَ "المهذب" في باقي السنةِ، قال: فلَمَّا كانتْ سنةُ إحدى وخمسينَ حَجَجْتُ معَ والدي، وكانتِ الوقفةُ بالجمعةِ، وكانتْ رحلتُنا مِنْ أوَّلِ رجبٍ، فأقمتُ بمدينةِ النَّبيِّ ﷺ نحوًا مِنْ شهرٍ ونصفٍ، قالَ والدُه: ولَمَّا توجَّهْنا للرحيلِ مِنْ نَوَى أخذَتْه الحُمَّى إلى يومِ عرفةَ، ولمْ يتأوَّهْ قطُّ، فلَمَّا عُدْنا إلى نَوَى، ونَزَلَ إلى دمشقَ صُبَّ علَيْه العِلْمُ صَبًّا.

(١) ياسين بن عبد الله، المقرئ، الحجام، الأسود، كان صاحب كرامات، وقد حجَّ أكثر من عشرين مرَّة، توفي سنة ٦٨٧، ودفن بمقبرة باب شرقي. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٦٠١/١٥)، وشذرات الذهب (٤٠٣/٥).

(٢) بانيها هو زكي الدين أبو القاسم، التاجر المعروف بابن رواحة، المتوفى سنة ٦٢٢، كان أحد التجار ذوي الثروة، وقد ابتنى المدرسة الرواحية داخل باب الفراديس (شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي ولصيقه) ووقفها على الشافعية، وفوض تدريسها ونظرها إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري، وله بحلب الشهباء مدرسة أخرى مثلها. [الدارس في تاريخ المدارس ج١/ص١٩٩]

قالَ الشيخُ: ومَرِضْتُ بالمدرسةِ الرواحيةِ، فَبَيْنا أنا في بعضِ اللَّيالي في الصُّفَّةِ الشرقيَّةِ منْها، ووالدي وإخواني وجماعةٌ مِنْ أقاربي نائمونَ إلى جَنْبي إذْ نَشَطَني اللهُ تعالى وعافاني مِنْ ألَمي، فاشتاقتْ نفْسي إلى الذِّكْرِ، فجعلتُ أُسبِّحُ، فَبَيْنَا أنا كذلكَ بيْنَ السِّرِّ والجهرِ إذا بشيخٍ حسنِ الصُّورةِ، جميلِ المنظرِ، يتوضَّأُ على حافَّةِ البركةِ وقتَ نصفِ الليلِ أوْ قريبًا منْه، فلَمَّا فرَغَ مِنْ وُضوئِه أتاني، وقالَ لي: يا ولَدي، لا تذكرِ اللهَ تعالى، تُشوِّشُ على والدِكَ وإخوانِكَ ومَنْ في هذهِ المدرسةِ، فقلتُ له: يا شيخُ، منْ أنتَ؟ فقالَ: أنا ناصحٌ للشاردِ عنِّي، فوقعَ في نفسي أنَّه إبليسُ، فقلتُ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، ورفعتُ صَوْتي بالتَّسْبيحِ، فأعرضَ عنِّي، ومَشَى إلى ناحيةِ بابِ المدرسةِ، فتَبِعْتُه فوجدْتُه مُقْفَلًا، وفَتَّشْتُها فلمْ أجدْ فيها أحدًا غيرَ مَنْ كانَ فيها، فقالَ والدي: ما خبرُكَ؟ فأخبرتُه، فجَعَلُوا يَتعجَّبونَ، وقَعَدْنا كُلُّنا نُسبِّحُ ونَذْكُرُ.

قالَ ابنُ العطَّارِ[1]: وأخْبَرَني الشيخُ القدوةُ وليُّ الدينِ ابنُ الحسينِ قالَ: مَرِضْتُ فعادَني الشيخُ محيي الدِّينِ، فلَمَّا جَلَسَ عندي جَعَلَ يتكلَّمُ في الصَّبرِ، فلَمَّا تكلَّمَ جعَلَ الألَمُ يذهبُ قليلًا قليلًا حتَّى زالَ، فعَرَفْتُ أنه ببركتِه.

وكانَ شديدَ الوَرَعِ والزُّهْدِ، صابرًا على خُشونةِ العيشِ حتى إنَّ رجلًا منْ أصحابه قَشَّرَ خيارةً ليُطعمَه إيَّاها فامْتَنعَ مِنْ أكلِها، وقالَ: أَخْشى أنْ تُرطِّبَ جِسْمي، وتَجلِبَ النَّومَ. وكانَ لا يَدخُلُ الحمَّامَ، وقَلَعَ ثوبَه ففَلَّاه بعضُ الطلبةِ، وكانَ فيه قُمَّلٌ، فَنَهَاهُ، وقالَ: دَعْهُ.

وكانَ تارِكًا لجميعِ مَلاذِّ الدُّنيا، ولمْ يتزوَّجْ، ولا يأْكُلُ في اليومِ والليلةِ إلَّا أكلةً واحدةً بعدَ العشاءِ مما يُؤْتى به مِنْ عندِ أبوَيْه، ولا يَشربُ إلَّا شربةً واحدةً عندَ السَّحَرِ، ولا يَشْرَبُ المُبَرَّدَ، أي المُلْقى فيه الثَّلْجُ، وكانَ لا يَجْمعُ بينَ إدامَيْنِ، ولا يأكلُ اللَّحْمَ إلَّا عندَما يتوجَّهُ إلى نَوَى، وكانَ يَلْبَسُ ثوبَ قطنٍ وعمامةً سنجابيةً، ولمْ يَتناوَلْ فواكهَ دمشقَ لِشُبهةٍ فيها، قالَ ابنُ العطَّارِ: فسألْتُه عنِ ذلكَ، فقالَ دمشقُ كثيرةُ الأوقافِ وأملاكِ مَنْ هو تحتَ الحَجْرِ والتصرُّفِ، وهي لا

---

(١) علي بن إبراهيم بن داود بن سَلمان بن سليمان، أبو الحسن، علاء الدين ابن العطار، باشر مشيخة المدرسة النورية مدة ٣٠ سنة، وله مصنفات، منها: الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، وتحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين، وغيرها، توفي سنة ٧٢٤. انظر: الدرر الكامنة (٤/٤)، وشذرات الذهب (٨/١١٤).

تَجوزُ إلَّا علَى وجهِ الغبطةِ، والنَّاسُ لا يَفعَلونَها. وقالَ الشيخُ تقيُّ الدِّينِ السبكيُّ(١): ما اجتمعَ بعدَ التَّابعِينَ المجموعُ الذي اجتمعَ في النَّوويِّ.

ووُجِدَ في مجموعٍ بخطِّ الشيخِ شمسِ الدِّينِ النَّوويِّ أنَّ بَوَّابَ الرواحيَّةِ حَكى وقالَ: ذَهَبَ الشيخُ في اللَّيلِ، فتَبِعْتُه، فانفتحَ البابُ بغيرِ مفتاحٍ، فخرجَ، ومَشَيْتُ معَهُ خطواتٍ، فإذا نَحنُ بمكَّةَ، فأحرمَ الشيخُ، وسَعَى ثم طافَ، وسَعَى ثم طافَ إلى أثناءِ اللَّيْلِ، ورَجَعَ فمَشَيْتُ خلْفَه، فإذا نَحنُ بالرواحيَّةِ.

قالَ الذهبيُّ(٢): وتَوَلَّى مشيخةَ دارِ الحديثِ الأشرفيَّةِ(٣) بعدَ موتِ أبي شامةَ سنةَ خمسٍ وستِّينَ، وفي البلدِ مَنْ هو أسنُّ منه وأعْلى سندًا، فلمْ يأخذْ مِنْ معلومِها شيئًا إلى أنْ ماتَ، ولَمَّا مَرِضَ مَرَضَ الموتِ اشْتَهى التفاحَ، فجيءَ لهُ بهِ فلمْ يأكلْه، فلَمَّا ماتَ رآهُ بعضُ أهلِه، فقالَ: ما فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فقالَ: أَكْرَمَ نُزُلِي، وتَقَبَّلَ عَمَلي، وأوَّلُ إقرائي جاءَني التفاحُ.

وتوفِّيَ يومَ الأربعاءِ رابعَ عشرَ رجبٍ سنةَ ستٍّ وسبعينَ وستِّمائةٍ، ودُفِنَ بِبلَدِه، طيَّبَ اللهُ مضجَعَه. روِيَ أنَّه أنشدَ أبياتًا عندَ الوفاةِ، منْها هذانِ البَيْتانِ، وزِيدَ ما بعدَهما:

تَبَاشَرَ قَلْبِي فِي قُدُومِي عَلَيْهِمُ * وَبِالسَّيْرِ رُوحِي يَوْمَ تَسْرِي إِلَيْهِمُ
وَفِي رِحْلَتِي يَصْفُو مُقَامِي وَحَبَّذَا * مُقَامٌ بِهِ حَطُّ الرِّحَالِ لَدَيْهِمُ
وَلَا زَادَنِي إِلَّا يَقِينِي بِأَنَّهُمُ * لَهُمْ كَرَمٌ يُغْنِي الْوُفُودَ عَلَيْهِمُ

---

(١) الإمام تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي السبكيِّ الشافعي، ولد بسبك العبيد (من أعمال المنوفية بمصر) غرَّة صفر سنة ٦٨٣، وولي قضاء الشام سنة ٧٣٩. واعتل، فعاد إلى القاهرة، من كتبه: الدر النظيم، والسيف المسلول على مَن سبَّ الرسول، وشفاء السقام في زيارة خير الأنام، والابتهاج في شرح المنهاج، وغير ذلك، تُوفِّي سنة ٧٥٦. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر (٤/٨١)، والوافي للصفدي (٢١/١٦٦).

(٢) الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي، ولد سنة ٦٧٣، أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وله تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها: دول الإسلام، وتاريخ الإسلام الكبير، وسير أعلام النبلاء، والكاشف، وميزان الاعتدال، وغيرها، توفي سنة ٧٤٨. انظر: الدرر الكامنة (٥/٦٦)، طبقات الشافعية للسبكي (٩/١٠٠).

(٣) بسفح جبل قاسيون، بناء الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل. [الدارس في تاريخ المدارس، ١/٣٦]

واشتُهِرَ أنَّ الخَضِرَ عليه السلام كانَ يجتمعُ به، قالَ بعضُ الأخيارِ: إنَّه رَأى فيما يَرى النائمُ راياتٍ كثيرةً، قالَ: وسَمِعْتُ نوبةً تَضربُ فعَجِبْتُ مِنْ ذلك، فقلتُ: ما هذا؟ فقيلَ لي: الليلةَ قطبُ يَحيى النَّوويِّ، فاستيقَظْتُ مِنْ مَنامي، ولَمْ أكنْ أعرفُ الشيخَ، ولا سمعتُ به قبْلَ ذلكَ، واتفقَ أنِّي دخلتُ المدينةَ، يَعني في حاجةٍ، فذَكَرْتُ ذلكَ لِشخصٍ، فقالَ: الشيخُ في دارِ الحديثِ في الأشرفيَّةِ، وهو الآنَ جالسٌ فيها لِلميعادِ، فاستدلَلْتُ علَيْها، ودَخلْتُها فوجدْتُه جالسًا فيها، وحولَه جماعةٌ، فوَقَعَ بصرُه عليَّ، فنَهَضَ قائمًا إلى جِهتي، وتَرَكَ الجماعةَ، ومَشى إلى طرفِ إيوانِها ولم يتركْني أكلمُه، وقالَ: اكتُمْ ما مَعَكَ ولا تُحدِّثْ به أحَدًا، ثُمَّ رَجَعَ إلى موضعِهِ، ولَمْ أكنْ رأيتُه قبْلَها، ولَمْ أجتمعْ به بَعْدَها.

وحَكى اليافعيُّ[1] في آخرِ الحكايةِ الثانيةِ والثلاثينَ مِنْ روضِ الرياحينِ فيما بيَّنَه: أنَّ الشيخَ خَطِفَ سارقٌ عِمامتَه وهَرَبَ، فتبِعَه الشيخُ يَعْدُو خلْفَه، ويقولُ: "ملَّكْتُكَ إيَّاها، قُلْ: قَبِلْتُ"، والسارِقُ ما عندَه خبرٌ مِنْ ذلك.

***

(١) أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني ثم المكّي، ولد سنة ٦٩٨، نسبته إلى يافع من حمير، من كتبه: روض الرياحين في حكايات الصالحين، وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ونشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، والدر النظيم في خواصّ القرآن العظيم، توفي سنة ٧٦٧. انظر: طبقات الشافعية (٣٣/١٠)، وطبقات الأولياء (٥٥٧/١).

[مقدمة الإمام النووي]

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، ..

الكلام على البسملة

وقدِ افتتحَ -رحِمَهُ اللهُ- كغيرِهِ بقولِه (**بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ**) اقتداءً بالكتابِ العزيزِ، وعمَلًا بقولِه ﷺ: (كُلُّ أمرٍ ذي بالٍ -أي شأنٍ- يُهتَمُّ به شرعًا لا يُبدَأُ فيه بـ"بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ" فهو أَبْتَرُ) وفي روايةٍ (أَقْطَعُ)، وفي روايةٍ (أَجْذَمُ)[1]، بالجيمِ والذَّالِ المُعجَمةِ، وفي بعضِ الرِّواياتِ: (بحمدِ اللهِ)[2]، وهو منَ التشبيهِ البليغِ في العيبِ المنفِّرِ.

ومَعْنى الجميعِ أنَّه ناقِصٌ قليلُ البركةِ أو مقطوعُها، وإنْ تمَّ وكمُلَ حِسًّا، فلا يَرِدُ ما قِيلَ: إنَّا نَرَى كثيرًا مِنَ الأمورِ التي يُبدأُ فيها بـ"بسمِ اللهِ" لمْ تَتِمَّ، ونَرى أمورًا بالعكسِ، وخَرَجَ بذي البالِ الحرامُ والمكروهُ. وفي وصفِ الأمرِ بذي البالِ فائدتانِ:

الأُولى: رعايةُ اسمِ اللهِ حيثُ يُبتدأُ به في الأمورِ التي لها شأنٌ وخطرٌ.

والثانيةُ: التيسيرُ عَلى الناسِ في عدمِ طلبِها في مُحقَّراتِ الأمورِ.

(١) أخرجه بهذه الألفاظ الحافظ الرهاوي في "الأربعين" كما في "شرح النووي على مسلم" (٤٣/١)، والخطيب في "الجامع" (٦٩/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وحكم الحافظ ابن حجرٍ في "الفتح" (٢٢٠/٨) بتوهين إسناده.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧١٢) [مسند المكثرين من الصحابة- مسند أبي هريرة]، وأبو داود (٤٨٤٠) [كتاب الأدب- باب الهدي في الكلام]، والنَّسائي في "الكبرى" (١٠٢٥٥) [كتاب عمل اليوم والليلة- ما يستحب من الكلام عند الحاجة]، وابن ماجه (١٨٩٤) [كتاب النكاح- باب خطبة النكاح]، و ابن حِبَّان" (١) [باب ما جاء في الابتداء بحمد الله تعالى- ذكر الإخبار عما يجب على المرء من ابتداء الحمد لله في أوائل كلامه] و (٢) [ذكر الأمر للمرء أن تكون فواتح أسبابه بحمد الله لئلا تكون أسبابه بترا]، وغيرهم من حديث أبي هريرة.

وحديث: (كُلُّ أَمْرٍ ذِي بالٍ...) ورد بألفاظ مختلفة أصحُّها: (بحَمْدِ اللهِ)، و(بذِكْرِ اللهِ) وقد أفرد بالتصنيف واعتنى به الحفَّاظ بين مُصحِّح ومُضعِّف وجمعوا طُرُقَه وألفاظه، انظر: "تخريج أحاديث الكشاف" للزيلعي (٢٢/١-٢٣)، و"الأجوبة المرضية" للسخاوي (١٨٩/١)، و"الأقاويل المفصَّلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة" لسيدي محمد بن جعفر الكتاني، و"الاستعاذة والحسبلة" فيمن صحَّح حديث البسملة للسيِّد أحمد بن الصِّدِّيق الغماريِّ.

وأوردَ أنَّ البسملةَ أمرٌ ذو بالٍ، فتحتاجُ إلى سَبْقِ مِثْلِها، ويتسلسَلُ!! وأُجيبَ بأنَّ المُرادَ الأمرُ الذي يُقصَدُ لذاته بحيثُ لا يكونُ وسيلةً لِغيرِه، وأوردَ عليه طَلبُها في الوضوءِ مَعَ أنَّه غيرُ مقصودٍ لِذاته دونَ الصلاةِ مَعَ كونِها مقصودةً لِذاتِها!!

والأَوْلى أنْ يقالَ: إنَّها كما تُحصِّلُ البركةَ لِغيرِها تُحصِّلُ مثلَ ذلكَ لِنفسِها أيضًا، كالشاةِ مِنْ أربعينَ تُزكِّي نفْسَها وغيرَها.

والباءُ لِلاستعانةِ متعلقةٌ بمضمرٍ يُحتمَلُ أنْ يكونَ اسمًا، وأنْ يكونَ فِعْلًا عامًّا أو خاصًّا، مُقدمًا أو مؤخرًا، والأَوْلى أن يكونَ فعلًا وأنْ يكونَ خاصًّا، وأنْ يكونَ مؤخَّرًا، أما أولويةُ الفعليَّةِ؛ فلأنَّ العملَ لِلأفعالِ بالأصالة، وأمَّا أولويَّةُ كونِه خاصًّا؛ فلأنَّ التاليَ لَها في كُلِّ محلٍ يُعَيِّنُ العاملَ المحذوفَ، ولِذا يُضمِرُ كُلُّ فاعلٍ ما تُجْعَلُ التسميةُ مبدأً له.

قالَ الشيخُ سعدُ الدِّين[1]: لا خفاءَ أنَّ العاملَ المُضمَرَ هو الفِعْلُ النَّحويُّ، والتسميةُ إنَّما جُعلَتْ مبدأً للفعلِ الحسيِّ، ففي الكلام حذفُ مضافٍ أي لفظِ ما جُعلَتِ التسميةُ مبدأً له. اهـ. أيْ فيُضمِرُ المُسافِرُ "أُسافِرُ"، والآكِلُ "آكُلُ".

وأمَّا أولويَّةُ التأخيرِ فلأنَّ المقصودَ الأهمَّ البداءةُ بِاسمِه تعالى ردًّا عَلى الكُفَّارِ في ابتدائِهم بأسماءِ آلهتِهِمْ، ولأنَّه أدلُّ عَلى الاختصاصِ.

وأُوردَ عَلى أنَّ التقديمَ لِلاختصاصِ قولَهُ تَعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فإنَّهُ لوْ كانَ التقديمُ مفيدًا لذلكَ لَوَجَبَ أنْ يُؤخَّرَ الفعلُ، ويُقدَّمَ ﴿باسم ربك﴾؛ لأنَّ كلامَ اللهِ تعالى أحقُّ برعايةِ ما تَجبُ رعايتُه، وأجيبَ بأنَّ الأهمَّ فيه القراءةُ؛ لأنَّها أوَّلُ ما نزَلَ.. إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، فكانَ الأمرُ بالقراءةِ أهمَّ باعتبارِ هذا العارضِ، وإنْ كانَ ذِكْرُ اللهِ أهمَّ في نفْسِه، وبأنَّ

---

(١) الإمام الكبير مسْعُود بن عمر التفتازانيُّ، صاحب التصانيف المشهورة المعروف بسعد الدِّين، ولد بتفتازان في صفر سنة ٧٢٢، وأخذ عن أكابر أهل العلم في عصره كالعضد وطبقته، وفاق في كثيرٍ من العُلوم وطار صيته واشتهر ذكره ورحل إليه الطلبة. من مُصنَّفاته: شرح تلخيص المِفتاح، وشرح رسالة الشمسية، وشرح العقائد، والحاشية على تفسير الكشَّاف، تُوفِّي في محرم سنة ٧٩٢، وقيل ٧٩١. انظر "الدرر الكامنة" لابن حجر (١١٢/٦)، و"البدر الطالع" للشوكاني (٣٠٣/٢).

﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿اقْرَأْ﴾ الثاني، ومَعْنى ﴿اقْرَأْ﴾ الأَوَّلِ "أوجِدِ القراءَةَ" مِنْ غيرِ اعتبارِ تعديتِهِ إلى مقروءٍ، كما في "فلانٌ يُعطي"، والجوابُ الأَوَّلُ لِلزَّمخشريِّ[1]، والثاني لِلسَّكَّاكيِّ[2].

قالَ ابنُ عادلٍ[3]: وفي الثاني نَظَرٌ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ على هذا الجوابِ أنْ يَكونَ ﴿اقرَأْ﴾ الثَّاني تَوكيدًا للأوَّلِ، فيكونَ قدْ فُصِلَ بمعمولِ المؤكَّدِ بيْنَه وبيْنَ ما أكدَّه معَ الفصْلِ بكلامٍ طويلٍ. اهـ.

وأجيبَ عنْ ذلك بأنَّه لا يَمتنعُ الفصْلُ بينَ المؤكِّدِ والمؤكَّدِ ولو بأجنبيٍّ، ألَا تَرى أنَّ قولَهُ ﴿كُلُّهُنَّ﴾ توكيدٌ للنُّونِ في قولِه: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ معَ الفصْلِ بقولِه: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١].

ويُبحَثُ في هذا الجوابِ بأنَّ التأكيدَ هُنا مَعْنويٌّ، وما نحنُ فيه لفظيٌّ، وربَّما يجوزُ في الأوَّلِ الفصْلُ دونَ الثاني؛ لأنَّه لمَّا كانَ التأكيدُ في اللَّفظيِّ موافقًا للأوَّلِ في لفظِهِ ومَعْناهُ، فالفصْلُ بيْنَهُما كالفصْلِ بينَ أجزاءِ الكلمةِ، ولا كذلك المعنويُّ، وبأنَّ الثاني لا يَصلُحُ أنْ يَكونَ توكيدًا؛ لأنَّ الأوَّلَ عامٌّ، والثاني خاصٌّ؛ إذِ الأوَّلُ أمرٌ بإيجادِ القراءةِ مُطلقًا، والثاني بقراءةٍ مقيَّدةٍ، ونظيرُه ﴿الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢].

وكُسِرتِ الباءُ، ومِنْ حقِّ الحروفِ المُفرَدةِ أنْ تُفتَحَ، قالَ البيضاويُّ[4]: لِاختصاصِها بلزومِ الحَرْفيَّةِ والجرِّ. اهـ.

---

(١) محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري، أبو القاسم، ولد سنة ٤٦٧، وكان إمامًا في النحو واللغة، صنَّف التصانيف البديعة منها: الكشَّاف في تفسير القرآن، لم يصنَّف قبله مثله، والفائق في تفسير الحديث، وأساس البلاغة، وغيرها، تُوفِّي سنة ٥٣٨. انظر: إنباه الرواة للقفطي (٣/٢٦٥)، ووفيات الأعيان (٥/١٦٨).

(٢) العلامة سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي، ولد سنة ٥٥٥، كان بارعا في فنون شتى خصوصا المعاني والبيان، من مصنفاته: مفتاح العلوم، ورسالة في علم المناظرة، تُوفِّي سنة ٦٢٦. انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية للقرشي (٢/٢٢٥)، وبغية الوعاة للسيوطي (٢/٣٦٤).

(٣) العلامة المفسر سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقيّ، صاحب التفسير الكبير: "اللباب في علوم الكتاب"، توفي بعد سنة ٨٨٠. انظر: الأعلام (٥/٥٨)، وهدية العارفين (١/٧٩٤).

(٤) ناصر الدِّين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي قاضي القضاة البيضاوي الشافعي، له مُصنَّفاتٌ منها: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول وغيرها، توفِّي سنة ٦٩١، وقيل ٦٨٥. انظر: طبقات الشافعية للسبكي (٨/١٥٧)، وطبقات المفسرين للداودي (١/٢٤٨).

قالَ بعضُهم مُبيِّنًا لِلتعليلِ المَذكورِ: لاختصاصِها مِنْ بينِ حروفِ الجرِّ بمجموعِ أمرَيْنِ: **كونِها** مُلازِمةً لِلحَرفيَّةِ، وكونِها مُلازمةً لِلجرِّ، لا تُوجَدُ بِدونِه، وفي كُلٍّ مِنهُما مُناسبةٌ لِلكسرِ، **أمَّا الجرُّ** فلِمُوافقةِ حركتِها أثَرَها، وأمَّا الحَرْفيَّةُ فلاقتضائِها السُّكونَ الَّذي هو عدمُ الحركةِ، وكونِ الكسرِ بمنزلةِ العدمِ لِقلَّتِه حيثُ لا يُوجَدُ في الأفعالِ ولا في غيرِ المُنصرِفِ مِنَ الأسماءِ، ولا في الحروفِ إلَّا نادرًا كـ"جَيْرِ". وإنَّما جَعلْنا المقتضيَ للعدولِ إلى الكسرِ اختصاصَها بمجموعِ الأمرَيْنِ، **ولمْ** نَجعلْ كُلَّ واحدٍ مِنهُما وجْهًا مُقتضيًا عَلى حدتِه لِئلَّا يُنتقَضَ لزومُ الحَرْفيَّةِ بواوِ العطفِ **وفائِه**، فإنَّهما لازمانِ لِلحَرْفيَّةِ، ولُزومُ الجرِّ بكافِ التشبيهِ، إذْ هيَ لازمةٌ له، وإنِ انفكتْ عنِ الحَرْفيَّةِ.

فإنْ قِيلَ: فكُلٌّ مِنْ واوِ القَسَمِ وتائِه لازمٌ لِلحَرْفيَّةِ والجرِّ معًا، وليسَ مبنيًّا على الكسرِ فلْينتقضْ بهما؟! أُجيبَ بأنَّ هذه ليستْ عِللًا حقيقيَّةً، وإنَّما هِيَ مُناسَباتٌ وحِكَمٌ لا **يَلزَمُ** اطِّرادُها ولا انعكاسُها، وقالَ بعضُهم: إنَّ عملَهما لَمْ يكنْ بطريقِ الأصالةِ، بلْ بطريقِ النِّيابةِ عنِ الباءِ لِحملِهما علَيْها.

وحُذِفتِ الألفُ مِنْ "بسمِ اللهِ" لكثرةِ الاستعمالِ، ولِذا لَمْ تُحذَفْ مِنْ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وغيرِه، وطوِّلَتِ الباءُ عِوضًا عنْها، ولأنَّهم أرادوا أنْ لا يُفتتَحَ كلامُ اللهِ إلَّا بحرفٍ مُعظَّمٍ مُطوَّلٍ.

و(**الاسْمُ**) عندَ البصريِّينَ أصلُه "سُمو" بضمِّ أوَّلِه أو بكسرِه، فهو مِنَ الأسماءِ التي حُذِفتْ أواخرُها لكثرةِ الاستعمالِ، وبُنِيَتْ أوائلُها على السكونِ، وأُدخِلَ عليها مُبتدأً بها همزةُ الوصلِ؛ لأنَّ مِنْ دأبِهم أنْ يَبتدِئوا بالمُتحرِّكِ، ويَقِفوا على الساكِنِ، واشتقاقُه مِنَ السُّمُوِّ -أيْ بضمِ السِّينِ وكسرِها-، وهو العُلُوُّ. وأمَّا عِندَ الكوفيِّينَ، فأصلُه "وَسم" بفتحِ الواوِ، وحُذِفتِ الواوُ، وعُوِّضَ عنْها بهمزةِ الوصْلِ، واشتقاقُه عندَهم مِنَ السِّمةِ، وهيَ العلامةُ، وأُيِّدَ مذهبُ البصريِّينَ بأنَّ الحذفَ في الأواخرِ أوْلَى.

قالَ أبو العباسِ ابنُ عطاءٍ[1]: الباءُ بِرُّه لِأرواحِ الأنبياءِ بإلهامِ الرسالةِ والنبوَّةِ، والسِّينُ سِرُّه

(١) العارف بالله تعالى تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندراني الشاذلي، كان المتكلِّم على لسان الصوفية في زمانه، له تصانيف منها: الحكم العطائية، وتاج العروس، ولطائف المنن في=

معَ أهلِ المعرفةِ بإلهامِ القدرةِ والأنسِ، والميمُ مِنَّتُه على المؤمنينَ بدوامِ النَّظرِ إلَيْهم بعينِ الشَّفقةِ والرحمةِ. وقالَ أبو بكرِ ابنُ طاهرٍ[1]: الباءُ بِرُّهُ لِلعارفين، والسِّينُ سَلامُهُ علَيْهم، والميمُ مَحبَّتُه لهم. وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ[2]: الباءُ بقاؤه، والسِّينُ سَناؤه، والميمُ مُلكُه.

وإضافتُه للجلالةِ مِنْ إضافةِ العامِّ للخاصِّ. و(اللهُ) علَمٌ على الذَّاتِ الواجبِ الوجودِ المستحقِّ لِجَميعِ المحامدِ، وأصلُه عندَ البصريِّينَ "إلَه" فدخلتْ عليه "أل" فاجتمعَ همزتانِ، بيْنَهما ساكِنٌ غيرُ حصينٍ، وهو اللّامُ، فصارَ كأنَّه اجتمعَ همزتانِ فحُذفتِ الثانيةُ، ونُقلتْ حركتُها لِلّامِ السَّاكنةِ قبْلَها، فاجتمعَ لامانِ متحرِّكانِ، فأُسْكِنَتِ الأُولى؛ لأنَّه حقُّها، وأُدغمتْ في الثانيةِ وفُخِّمتْ، وإنَّما لمْ تُحذَفِ الهمزةُ الأولى لأنَّها مُجتلبةٌ لِسكونِ اللَّامِ. وعندَ الكوفيِّينَ "لاه" فأُدخلَ علَيْه الألِفُ واللَّامُ، وأُدغِمَ وفُخِّمَ، وأصلُ لاه "لوه"، تحرَّكتِ الواوُ وانفتحَ ما قبْلَها فقُلبتِ أَلِفًا، وهو أعرفُ المعارفِ.

وحَكَى ابنُ جنِّي[3]: أنَّ سيبويهِ[4] رُئيَ بعدَ موتِه في المنامِ فقِيلَ له: ما فَعَلَ اللهُ بكَ؟ فقالَ: خيراً، وذَكَرَ كرامةً عظيمةً، فقِيلَ له: بِمَ؟ فقالَ: بقولي "إنَّ اسمَ اللهِ تعالى أعرفُ المعارفِ". وبه يُقيِّدُ قولُ النُّحاةِ: أعْرَفُ المعارِفِ الضَّميرُ.

=مناقب المرسي وأبي الحسن، وغيرها، تُوفِّي سنة ٧٠٩. انظر الدرر الكامنة (١/٣٢٤)، والديباج (١/٢٤٢).

(١) أبو بكر محمد -وقيل عبدالله- بن طاهر الأبهري، كان من أقران الشبلي، يتكلَّم على علم الظاهر والحقيقة. تُوفِّي في حدود سنة ٣٣٠. انظر: طبقات الصوفية للسلمي (ص ٢٩٥)، وتاريخ الإسلام (٧/٦٢٠).

(٢) الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين؛ ولد سنة ٨٠، وكان من سادات أهل البيت، وفضلُه أشهر من أن يذكر، تُوفِّي سنة ١٤٨. حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/١٩٢)، ووفيات الأعيان (١/٣٢٧)، وسير أعلام النبلاء (٦/٣٦٢).

(٣) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، كان مِن أئمَّة الأدب والنحو، مِن تصانيفه: اللمع، وسر صناعة الإعراب، والخصائص، والكافي في شرح قوافي الأخفش، وغيرها، تُوفِّي سنة ٣٩٢. انظر: الوافي بالوفيات للصفدي (١٩/٣١١)، وإنباه الرواة للقفطي (٢/٣٣٥)، ووفيات الأعيان (٣/٢٤٦).

(٤) عمرو بن عثمان بن قَنْبَر، مولى بني الحارث بن كعب، قدم البصرة لطلب الآثار والفقه، ثمَّ صحب الخليل بن أحمد، فبرع في النحو، وصنَّف كتابه في النحو، لم يصنف قبله ولا بعده مثله، ورد بغداد وتوفي سنة ١٨٠. انظر: "طبقات النحويين" لأبي بكر الإشبيلي (رقم ٢٢)، "أخبار النحويين البصريين" للسيرافي (ص ٣٨)، و"تاريخ بغداد" للخطيب (رقم ٦٦٥٨).

والمختارُ أنَّه ليسَ بمشتقٍّ، ورُئِيَ الخليلُ بنُ أحمدَ[1] بعدَ موتِه فقِيلَ لَهُ: ما فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ قالَ: غَفَرَ لي بقولي في اسمِه "إنَّه غيرُ مشتقٍّ".

وقيلَ: إنه مشتقٌّ مِنْ "أَلِهَ يأْلَه" كـ"عَلِمَ يَعْلَم" إذا تعبَّدَ، وقيل: إذا تَحَيَّرَ؛ لأنَّ العقولَ تتحيَّرُ في معرفتِه وفي عظمتِه، وقيلَ: غيرُ ذلك. قالَ بعضُهم: وحيثُ ذُكِرَ الاشتقاقُ في أسماءِ اللهِ فالمرادُ به أنَّ المعنى ملحوظٌ في ذلك الاسم، وإلَّا فشرطُ المشتقِّ أنْ يكونَ مسبوقًا بالمشتقِّ منْه، وأسماءُ اللهِ تعالى قديمةٌ؛ لأنَّها من كلامِه، على أنَّ الاختلافَ المذكورَ إنما هو في لفظةِ "إله" لا في الجلالةِ.

و(**الرحمنِ الرحيم**) صفتانِ مُشبَّهتانِ بُنِيَتا للمُبالَغةِ، وفِعْلُه "رَحِمَ" بالكسرِ كـ"غَضْبَان" مِنْ "غَضِبَ"، وهو مُتعَدٍّ كـ"رَحِمَكَ اللهُ"، والصفةُ المُشبَّهةُ إنما تُبنى مِنَ اللَّازمِ كـ"ظَرِيف" و"شَرِيف" مِنْ "ظَرُفَ" و"شَرُفَ"، لتنزيلِ "رَحِمَ" المتعدِّي منزلةَ اللَّازم أو بجعْلِه لازمًا بنقلِه إلى "فَعُلَ" بالضمِّ، والفرقُ بينَ ما تَنَزَّلَ منزلةَ اللَّازمِ، وما جُعِلَ لازمًا أنَّ الأوَّلَ مُتعَدٍّ للمفعولِ لكن بقطعِ النَّظرِ عنْ مفعولِه لفظًا وتقديرًا، كما في "فلانٌ يُعْطِي" ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٠] فـ"رَأَيْتَ" الأَوَّلُ لازمٌ أيْ "أَوجَدْتَ الرؤيةَ" بخلافِ ما جُعِلَ لازمًا فإنه يُعتَبرُ غيرَ متعدٍّ، ولا مفعولَ له أصلًا.

والرحمةُ في اللغة رِقَّةٌ في القلبِ وانعطافٌ يقتضي التفضُّلَ والإحسانَ، وهذا المعنى محالٌ في حقِّه تَعالى، فهي في حقِّه بِمَعْنى الإنعامِ أو إرادتِه، فهي صفةُ فعْلٍ على الأوَّلِ، وصفةُ ذاتٍ على الثاني.

و"الرَّحْمَنُ" أبلغُ مِنَ "الرَّحِيم"؛ لأنَّ زيادةَ البناءِ تدلُّ على زيادةِ المَعْنى، كما في "قَطَعَ" و"قَطَّعَ" بتخفيفِ أحدِهما وتشديدِ الآخرِ، وذلك إنما يُؤخَذُ تارةً باعتبارِ الكمِّيَّةِ أي الإفرادِ،

(١) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي، ولد سنة ١٠٠، كان من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه، له كتاب العين، ومعاني الحروف، وجملة آلات العرب، وتفسير حروف اللغة، وكتاب العروض، توفي سنة ١٧٠. انظر: أخبار النحويين للسيرافي (ص ٣١)، إنباه الرواة للقفطي (١/ ٣٧٦).

وأخرى باعتبارِ الكيفيَّةِ أي الصفاتِ، فعَلى الأَوَّلِ قيل: يا رحمنَ الدُّنيا؛ لأنَّه يعمُّ المؤمنَ والكافرَ، ورحيمَ الآخرةِ؛ لأنَّه يخصُّ المؤمنَ، وعلى الثاني قيلَ: يا رحمنَ الدُّنيا والآخرةِ، ورحيمَ الدُّنيا؛ لأنَّ النِّعَمَ الأُخرويَّةَ كُلَّها جِسامٌ، وأمَّا النِّعمَ الدنيويَّةَ فجليلةٌ ودقيقةٌ.

ونُقِضَ كونُ زيادةِ البناءِ دالةٌ على زيادةِ المعنى بـ"حَذِرٍ" فإنَّه أبلغُ مِنْ "حَاذِرٍ"، وأجيبَ بأنَّ ذلك أكثريٌّ لا كليٌّ، وبأنَّ ذلك عندَ اتحادِ نوعِ المُشتقَّاتِ.

قالَ الزمخشريُّ: ومما طَنَّ على أُذُني أنَّهم يُسمُّونَ مَرْكَبًا مِنْ مَراكِبِهم بـ"الشُّقْدُف"، وهو مَرَكَبٌ خفيفٌ ليس فيه ثِقَلٌ، فجاءَ أهلُ العراقِ فقلتُ في طريقِ الطائفِ لرجلٍ منهم: ما اسمُ هذا المحملِ؟ أردتُ المحملَ العراقيَّ، فقالَ: أليسَ اسمُه الشُّقْدُفَ؟ قلتُ: بلى، قالَ: فهذا اسمُه الشُّقْداف، فزادَ في بناءِ الاسمِ لزيادةِ المُسمَّى.

وإنما قُدِّمَ "الرَّحْمَن" والقياسُ يقتضي الترقِّيَ لِتقدُّمِ رحمةِ الدنيا، لأنه صارَ كالعَلَمِ فلا يُوصفُ به غيرُه تَعالى، بلْ قيلَ: إنه عَلَمٌ، وأمَّا قولُ الشَّاعرِ:

وأَنْتَ غَيْثُ الْوَرَى لَا زِلْتَ رَحْمَانَا [1]

فأجابَ عنه الزمخشريُّ بأنَّ ذلك مِنْ شدَّةِ تعنُّتِهم في كُفرِهم. قالَ التاجُ السبكيُّ[2]: وهو غيرُ سديدٍ؛ لأنَّه لا يُفيدُ جوابًا، بلْ ذَكَرَ السببَ الحاملَ لَهُمْ عَلى الإطلاقِ، والجوابُ السديدُ أنَّ المختصَّ به تعالى هو المعرَّفُ باللَّامِ دونَ غيرِه.

***

---

(١) لرجل من بني حنيفة يمدح مسيلمة الكذاب، وتمام البيت:

سموت بالمجد يا بن الأكرمين أبا * وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

(٢) الإمام العلامة قاضي القضاة عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي تاج الدين أبو نصر، ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي، مولده سنة ٧٢٨، أفتى ودرَّس، وولي قضاء دمشق أربع مرات، وتولَّى خطابة الجامع الأموي بدمشق، وصنَّف عدَّة مصنَّفات منها: شرح مختصر ابن الحاجب، وشرح منهاج البيضاوي، وجمع الجوامع في الأصول، والتوشيح في الفقه، وطبقات الشافعية، والأشباه والنظائر، وغير ذلك، تُوفي سنة ٧٧١. انظر: "الوافي بالوافيات" للصفدي (١٩/ ٢١٠)، و"البدر الطالع" للشوكاني (١/ ٤١٠).

تنبيهات

الأوَّلُ: قالَ أبو بكرِ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ(١): الرحمنُ بنِعَمِ الدُّنيا مِنَ المالِ والأهلِ والولدِ، والرحيمُ بنِعَمِ الدِّينِ مِنَ المعرفةِ والإيمانِ والشهادةِ. وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ: الرحمنُ للمُرادِينَ، والرحيمُ للمُريدِينَ. وقيلَ: الرحمنُ بنِعَمِه الباطنةِ، والرحيمُ بنِعمِه الظاهرةِ. وقيلَ: الرحمنُ بالدَّفعِ، والرحيمُ بالنَّفعِ.

الثَّاني: نَقَلَ الدمامينيُّ(٢) في حاشيةِ البخاريِّ عنْ بعضِ المُتأخِّرينَ أنَّه قالَ: صفاتُ اللهِ تعالى الَّتي على صيغةِ المبالغةِ كـ"رَحِيم" و"غَفُور" كُلُّها مجازٌ؛ إذْ هيَ موضوعةٌ للمُبالغةِ، ولا مُبالَغةَ فيها؛ لأنَّ المبالغةَ هيَ أنْ تُثبتَ للشيءِ أكثرَ ممَّا له، وإنَّما يكونُ ذلك فيما يَقبلُ الزيادةَ والنقصَ، وصفاتُه تعالى مُنزَّهةٌ عنْ ذلك، قالَ: وهيَ فائدةٌ حسنةٌ. اهـ.

ولا شكَّ أنَّ هذا إنَّما يأتي تفريعًا على أنَّ هذه الأسماءَ صفاتٌ، فإنْ قُلْنا إنَّها أعلامٌ فلا يَرِدُ ذلك؛ لأنَّ العَلَمَ لا يُقْصَدُ مدلولُه الأصليُّ مِنْ مُبالَغةٍ ولا غيرِها.

الثَّالثُ: "الرَّحْمَن الرَّحِيم" فيهما سبعةُ أوْجُهٍ جائزةٌ: رفعُهما، ونصبُهما، وخفضُهما، ورفعُ الأوَّلِ معَ نصبِ الثاني، وعكسُه، وخفضُ الأوَّلِ معَ رفعِ الثَّاني أو نصبِه، ووجهانِ ممتنِعانِ: رفعُ الأوَّلِ أو نصبُه معَ خفضِ الثَّاني لامتناعِ الإتباعِ بعدَ القطعِ.

***

فائدةٌ

روِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنه قالَ لِمَنْ قالَ تَعِسَ الشيطانُ: (لا تَقُلْ ذلك فإنه يَتعاظمُ عندَه،

---

(١) أبو بكر بن عبد الله المزني صحب النبي ﷺ، ونزل البصرة بعد ذلك وله بها عقب. انظر: الطبقات الكبرى (٣١/٧).

(٢) العلامة النحوي بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن سليمان القرشي المخزومي الإسكندري الدماميني، ولد سنة ٧٩٠ بالإسكندرية، تفقَّه وعانى الآداب، ففاق في النحو والنظم والنثر والخط ومعرفة الشروط، وناب في الحكم، ودرس بعدة مدارس، وتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو، وله من التصانيف: تحفة الغريب في حاشية مغني اللبيب، وشرح البخاري، وشرح التسهيل، وشرح الخزرجية، وجواهر البحور في العروض، وغيرها، توفي بكلبرجا من الهند سنة ٨٣٧، وقيل: ٨٣٨. بغية الوعاة للسيوطي (٦٦/١).

ولكنْ قُلْ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم" فإنه يَصغُرُ حتى يَصيرَ أقلَّ مِنَ الذُّبابِ)[1].

ورويَ أنَّ موسى -علَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مَرِضَ، واشتدَّ وجعُ بطنِه، فَشَكَى إلى اللهِ تعالى فدلَّه على عُشْبٍ في المفازةِ، فأَكَلَه فعوفِيَ بإذنِ اللهِ، ثم عاودَه ذلك المرضُ في وقتٍ آخرَ فأَكَلَ ذلك العشبَ فازدادَ مرضُه، فكلَّمَ ربَّه فقالَ: يا ربِّ أكلتُه أوّلًا فانتفعتُ به، وأكلتُه ثانيًا فضرَّني، فقالَ له: لأنَّكَ في المرَّةِ الأولى ذهبتَ منِّي إلى الكلأ فحَصَلَ لَكَ الشِّفاءُ، وفي المرةِ الثانيةِ ذهبتَ منْكَ إلى الكلأِ، أمَا علِمْتَ أنَّ الدُّنيا سُمٌّ قاتِلٌ وترياقُها اسمي.[2]

***

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، ..

الكلام على الحمدلة

(الْحَمْدُ للهِ) مَصْدَرُ "حَمِدَ"، وهو لغةً الوصفُ بالجميلِ على الفعلِ الجميلِ الاختياريِّ على وجهِ التعظيم، سواءٌ كانَ في مقابلةِ نعمةٍ أو لا، وسواءٌ تعلَّقَ بالفضائلِ أيِ الصفاتِ الَّتي لا يَتعدَّى أثرُها للغيرِ كالحُسْنِ واللَّطافةِ، أم بالفواضلِ أيِ الصفاتِ المُتعدِّي أثرُها إليه كالإنعامِ والتعظيمِ والشجاعةِ.

وعُلِمَ منْ قولِنا "الوصف" أنَّه لا يَكونُ إلَّا بالكلامِ؛ لأنَّ الوصفَ قولُ الواصفِ، فمورِدُه أيْ محلُّه خاصٌّ، ومُتعلَّقُه أي السببُ الباعثُ إلَيْه عامٌّ، ولا حاجةَ لزيادةِ "على وجهِ التعظيم"؛ لأنَّ مَنْ أثنَيْتَ علَيْه بجميلِ صفاتِه فقدْ عظَّمْتَه، ولا حُجَّةَ في قولِه تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] لخروجِ ذلك بـ"الجميلِ"؛ إذْ لمْ تكنْ صفةُ الكافرِ إذْ ذاكَ العزَّ والكرَمَ، بلْ ضدَّهما وهو الذِّلَّةُ والإهانةُ.

(١) أخرجه أحمد (٢٠٥٩١) [أول مسند البصريين- حديث رديف النبي]، وأبو داود (٤٩٨٢) [كتاب الأدب- باب لا يقال خبثت نفسي]، والنَّسائيُّ في "الكبرى" (١٠٣١٢) [كتاب عمل اليوم والليلة- ما يقول إذا عثرت به دابته]، والحاكم (٤/٢٩٢) [كتاب الأدب- لا تقولوا تعس الشيطان]، وغيرهم من حديث رجل كان رديف رسول الله ﷺ.

(٢) لم أجده مسندا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية، وذكره الرازي في التفسير (١/١٥٢).

وأوردَ على قيدِ الاختيارِ وصْفُه تعالى بصفاتِه الذَّاتيَّةِ كالعلمِ والقدرةِ والإرادةِ؛ لأنَّ تلك الصفاتِ ليستْ بأفعالٍ، ولا يوصَفُ ثبوتُها بالاختيارِ!! وأجيبَ بأنَّها لمَّا كانتْ مبدأً لأفعالٍ اختياريَّةٍ كانَ الحمدُ عليْها باعتبارِ تلك الأفعالِ.

وأمَّا الحمدُ عُرْفًا فهو فِعْلٌ يُنبِئُ عنْ تعظيمِ المُنْعِمِ بسببِ كونِه مُنعِمًا، سواءٌ كانَ ذلك الفعلُ قولًا باللِّسانِ بأنْ يُثني عليه به، أو اعتقادًا بالقلبِ بأنْ تَعتقِدَ اتصافَه بصفاتِ الكمالِ، أو عملًا وخدمةً بالأركانِ والجوارحِ بأنْ يُجهِدَ نفسَه في طاعتِه، فمَوْرِدُهُ عامٌّ، وهو اللِّسانُ وغيرُه، ومُتعلَّقُه خاصٌّ، وهو النِّعمةُ، وهذا هو الشكرُ لُغَةً.

وأمَّا اصطلاحًا فهو صرفُ العبدِ جميعَ ما أنْعَمَ اللهُ به علَيْه مِنَ السَّمْعِ والبصرِ وغيرِهما إلى ما خُلِقَ لأجلِه مِنَ الطَّاعاتِ، كأنْ يَصرِفَ البصرَ إلى الاطلاعِ على ما في مصنوعاتِه مِنْ دقائقِ الصُّنعِ العجيبِ والحكمةِ الأنيقةِ، ويَصْرِفَ القلبَ إلى التفكرِ فيها والاستدلالِ بها على وجودِ الصَّانعِ وصفاتِه، بأنْ يَستدِلَّ بوجودِ الأثرِ على وجودِ المُؤثِّرِ، وبإتقانِ الأثرِ وإحكامِه على عِلْمِ المُؤثِّرِ وقُدرتِه، وكأنْ يَصرِفَ السَّمْعَ إلى تلقِّي ما يُنبِئُ عنْ مرضاتِه مِنَ الأوامرِ والنواهي، وقِسْ على ذلك سائرَ النِّعمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، ولِعزَّةِ هذا المقامِ قالَ تَعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

و"ال" في "الْحَمْدُ" للاستغراقِ، وقيلَ للجنسِ، وحُكِيَ عنِ الشَّيْخِ أبي العباسِ المرسي[١] -نَفَعَنا اللهُ به- أنَّه قالَ: قلْتُ لابنِ النَّحاسِ النَّحويِّ[٢]: ما تَقولُ في الألِفِ واللَّامِ مِنَ "الحَمْدُ

(١) الشيخ العارف الكبير أبو العباس، أحمد بن عمر بن محمد الأندلسي المرسي الأنصاري، ولد سنة ٦١٦، نزل الإسكندرية، وخلف الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وكان له مجلسٌ عظيمٌ في المعارف والحقائق والرقائق، وله كرامات عِدَّة، تُوفي ٦٨٦، ومقامه مشهور يُزار. انظر: "الوافي" للصفدي (١٧٣/٧)، و"طبقات الأولياء" لابن الملقن (ص ٤١٨)، و"لطائف المنن" لابن عطاء الله.

(٢) العلامة أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المعروف بالنحاس، كان عالما بالنحو حاذقا، غزير الرواية، كثير التأليف؛ من مصنفاته: معاني القرآن، وإعراب القرآن، وناسخ القرآن ومنسوخه، واشتقاق أسماء الله عز وجل، وتفسير أبيات كتاب سيبويه، والكافي في النحو، وغيرها، توفي سنة ٣٣٨. تاريخ بغداد (٤٨/٢١)، تاريخ ابن يونس (١٩/١)، إنباه الرواه (١٣٦/١).

لله"، أَجنسيَّةٌ هيَ أمْ عهديَّةٌ؟ فقالَ: يا سيِّدي، قالوا: إنَّها جنسيَّةٌ، فقلتُ له: الذي أقولُه إنَّها عهديَّةٌ، وذلك أنَّ اللهَ تعالى لمَّا عَلِمَ عَجْزَ خلْقِه عنْ كُنْه حمده حَمِدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ في الأزلِ نيابةً عنْ خلقِه قبلَ أنْ يَحمَدوه، ثم أمرَهم أنْ يَحمَدوه بذلك الحمدِ، فقالَ يا سيِّدي: أُشهدُكَ أنَّها عهديَّةٌ. وهذا مَعْنًى حَسَنٌ.

وقدَّمَ الحمدَ على الجلالةِ لاقتضاءِ المقامِ مزيدَ اهتمامٍ بِهِ، وإنْ كانَ ذِكْرُ اللهِ أهمَّ في نفْسِهِ، كَمَا مرَّ في ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

واختارَ المصنِّفُ الجملةَ الاسميَّةَ؛ لأنَّها مُفتتَحُ الكتابِ العزيزِ، ولأنَّها تَدلُّ على الدوامِ والثبوتِ، فإنْ قيلَ: حَمْدُ العبادِ حادثٌ، واللهُ تعالى قديمٌ، ولا يَجوزُ قيامُ الحادثِ بالقديمِ، فما مَعْنى حَمْدِ العبادِ له تعالى؟ فالجوابُ أنَّ المرادَ به تعلُّقُ الحمدِ، ولا يَلْزَمُ مِنَ التعلُّقِ القيامُ، كتعلُّقِ العِلْمِ بالمعلومِ.

وجَمَعَ بينَ الابتداءِ بالبسملةِ والحمدلةِ عملًا بالرِّوايتَيْنِ السابقتَيْنِ، وإشارةً إلى أنَّه لا تعارضَ بيْنَهما؛ إذِ الابتداءُ حقيقيٌّ وإضافيٌّ، فالحقيقيُّ حَصَلَ بالبسملةِ، والإضافيُّ بالحمدلةِ، وقدَّمَ البسملةَ عملًا بالكتابِ والإجماعِ.

***

تنبيهاتٌ

الأوَّلُ: اختُلِفَ في الفاضلِ منَ الحمدِ[1] فقيلَ: "الحمدُ للهِ بجميعِ محامدِه كُلِّها، ما عَلِمْتُ مِنْها، وما لَمْ أعلمْ، على جميعِ نِعَمِهِ كُلِّها، ما عَلِمْتُ مِنْها، وما لَمْ أعلمْ"، زادَ بعضُهم: "عددَ خلقِه كُلِّهم، ما عَلِمْتُ منهم، وما لَمْ أعلمْ"، وقيلَ: "اللَّهمَ لا أُحصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيْتَ على نفسِكَ"، وقيلَ: "الحمدُ للهِ حمدًا يُوافي نِعَمَه ويكافئُ مزيدَه"، وفي روايةٍ: "الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ حمدًا يُوافي نِعَمَه.." إلخ، وقيلَ: "ليسَ كمثلِه شيءٌ".

---

(١) مسألة أفضل الحمد ذكرها الإمام النووي في روضة الطالبين (١١/٦٦)، وقال: "ليس لها دليل يعتمد"، وانظر تفصيل الكلام على هذه المسألة ورواياتها في التلخيص الحبير (٤/٣١٦).

ويَنبني على ذلك فرعٌ، وهو ما إذا حَلَفَ المُكَلَّفُ لَيحمَدنَّ اللهَ بأفضلِ المحامدِ! ومنْ أرادَ أنْ يخرُجَ مِنَ الخلافِ فَلْيحمَدنَّ اللهَ بجميعِها، وسيأتي في الحديثِ الثالثِ والعشرينَ شيءٌ مِنْ هذا أيضًا، ولو حَلَفَ لَيُثنِيَنَّ على اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أحسنَ الثناءِ يَقولُ: "لا أُحصي ثناءً علَيْكَ، أنتَ كما أثنَيْتَ على نفسِكَ"[1]، زادَ بعضُهم: "فلكَ الحمدُ حتى تَرضى"[2].

الثَّاني: قالَ ابن ناجي[3]: الحمدُ للهِ ثمانيةُ أحرفٍ، وأبوابُ الجنةِ ثمانيةٌ، فمَنْ قالَها فُتِحتْ له أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ.

الثَّالثُ: قالَ ابنُ عطيةَ[4]: اختلَفَ العلماءُ: هلِ الأفضلُ قولُ العبدِ "الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ"، أو قولُ "لا إلهَ إلَّا اللهُ"، فذَهبَتْ طائفةٌ إلى الأوَّلِ؛ لأنَّ في ضِمْنِه التوحيدَ، ففي قولِه "الحمدُ للهِ" توحيدٌ وحمدٌ، وفي قولِه "لا إلهَ إلَّا اللهُ" توحيدٌ فقطْ، واحتجُّوا بما رُوِيَ من حديثِ أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: (مَنْ قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ كُتِبَ له عشرونَ حسنةً، وحُطَّ عنه عشرونَ سيئةً، ومَنْ قالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، كُتِبَ له ثلاثونَ حسنةً، وحُطَّ عنه ثلاثونَ سيئةً)[5]، وذَهَبَتْ طائفةٌ إلى الثاني؛ لأنَّها تَنفي الكُفْرَ، وعلَيْها يُقاتَلُ

(١) أخرجه مسلمٌ (٤٨٦) [كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود]، وغيره من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا.

(٢) ذكر الإمام النووي في الأذكار (ص ٢٠٤) عن بعض أئمَّة الشافعية: قالوا: ولو حلف ليثنينّ على الله تعالى أحسنَ الثناء، فطريق البرّ أن يقول: لا أحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك. وزاد بعضُهم في آخره: فلك الحمد حتى ترضى. وقوله: (لك الحمد حتى ترضى) أخرجه الطبرانيُّ في الدعاء (١٧٢٥) [باب فضل التسبيح والتحميد] وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعا، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١)، والبيهقي في الشعب (٤٢٦٦)، وغيرهما من كلام الحسن البصري.

(٣) قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني: ولي القضاء في عدة أماكن، وله تآليف معوَّلٌ عليها في المذهب، منها شرح على الرسالة، وشرحان على المدونة كبير وصغير، وشرح على الجلاب، واختصر معالم الإيمان في علماء القيروان، وغير ذلك، تُوفِّي بالقيروان سنة ٨٣٧. نيل الابتهاج (٣٦٤/١)، وشجرة النور (رقم ٩٠٦).

(٤) شيخ المفسِّرين، أبو محمد عبد الحق، ابن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، ولد سنة ٤٨٠، وكان فقيهًا عارفًا بالأحكام والحديث والتفسير بارعًا في الأدب، من كتبه "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تُوفِّي سنة ٥٤٢. انظر "السير" للذهبي (٤٠١/١٤)، و"طبقات المفسرين" للسيوطي (٦٠/١).

(٥) أخرجه أحمد (٨٠١٢) [مسند المكثرين من الصحابة- مسند أبي هريرة]، والنَّسائيُّ في "اليوم والليلة" (٨٤٠) [ذكر ما اصطفى الله جل ثناوه من الكلام]، والبزَّار كما في "كشف الأستار" (٣٠٧٤) [كتاب الأذكار- باب=

الخلقُ، واحتجُّوا بقولِه ﷺ: (مفتاحُ الجنةِ لا إلهَ إلَّا اللهُ)[1]، قالَ ابنُ عطيةَ بعدَ أنِ اختارَ هذا، والحاكمُ بذلكَ: قولُ النبيِّ ﷺ: (أفضلُ ما قُلْتُه أنا والنبيُّونَ مِنْ قَبْلي: لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه، لا شريكَ لهُ)[2].

***

معاني كلمة "رب"

(رَبِّ) يَحتمِلُ معانيَ ثلاثةً: الأوَّلُ: كونُه اسمَ فاعلٍ، وأصلُه "رَابِب"، أُدغمتْ إحدى الباءَيْنِ في الأخرى، وحُذِفتْ ألِفُه لكثرةِ الاستعمالِ. ورُدَّ بأنَّه خلافُ الأصلِ. الثَّاني: أنَّه صفةٌ مشبَّهةٌ، وأصلُه "رَبَبَ" على وزنِ "سَمِعَ". الثَّالثُ: كونُه مصدرًا بمعنى أصلِ التربيةِ، وهي تبليغُ الشيءِ شيئًا فشيئًا إلى الحدِّ الذي أرادَه المربِّي.

ثم سُمِّيَ به السيدُ المُطاعُ؛ ومنه قولُه تَعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] أيْ عندَ سيِّدِكَ، والمعبودُ؛ ومنه ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ [فصلت: ٣٠]، والمَالِكُ؛ ومنه قولُه تَعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦]، وقولُه ﷺ لرجلٍ: (أَرَبُّ إبلٍ أَنْتَ أَمْ رَبُّ غَنَمٍ؟ فَقَالَ: مِنْ كُلٍّ آتَانِي اللهُ فأَكثرُ وأطيبُ)[3]، وقولُ صفوانَ لِأبي سفيانَ: لَأنْ يُرَبِّبَنِي رجلٌ مِنْ قريشٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يُرَبِّبَنِي رجلٌ مِنْ هوازنَ، والمعبودُ أيْ بغيرِ حقٍّ؛ ومنه قولُ الشَّاعرِ:

=في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسناد صحيح، وفيه: (فمَن قال: سُبحان الله، كُتب الله له عشرين حسنةً، أو حَطَّ عنه عشرين سيئةً، ومن قال: الله أكبر، فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله، فمثل ذلك ...) الحديث.

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٠٢) [تتمة مسند الأنصار- حديث معاذ بن جبل]، والبزَّار (٢٦٦٠) [مسند معاذ بن جبل]، والطبرانيُّ في "الدعاء" (١٤٧٩) [باب فضل قول: لا إله إلا الله]، وابن عديٍّ في "الكامل" (١٣٥٦/٤) [ترجمة: شهر بن حوشب الأشعري]، وغيرهم من حديث معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، ولفظ أحمد: (مَفَاتِيحُ الجَنَّةِ شَهَادَةُ أن لا إِلَهَ إلَّا اللهُ)، وإسناده ضعيف انظر "مجمع الزوائد" للهيثمي (١٦/١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) [أبواب الدعوات]، وغيره من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، وروي مرسلًا عن طلحة بن عبيد الله بن كريز. وضعَّفه الترمذيُّ بحماد بن أبي حميد، ونقل الحافظ المنذريُّ في "الترغيب" (٤١٩/٢) عن الترمذيِّ أنه قال: «حديث حسنٌ غريبٌ»، فلعله مِن اختلاف نسخ الترمذيِّ كما نصَّ عليه علماء المصطلح، فيكون قد حسَّنه بشواهده؛ لأنه ضعَّفه هنا بحماد بن أبي حميد.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: ابن زيدان في مسنده (٣٦)، والحكيم الترمذيُّ (٣٠٩/١) [الأصل الرابع والستون]، وغيرهما من حديث عوف بن مالك الجشمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، والحديث مرويٌّ في السُّنن بلفظٍ آخر.

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرأْسِه * لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

والمُرَبِّي، ومنه "الرَّبَّانِيُّونَ" سُمُّوا بذلك لِتمسُّكِهم بالرَّبِّ، أو لأنَّهم يُربُّونَ المُتعلِّمينَ بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه، أيْ بالتدريجِ، ولمَّا ماتَ ابنُ عباسٍ قالَ محمدُ بنُ الحنفيةِ[1]: ماتَ ربَّانيُّ هذهِ الأمةِ. والمُصلِحُ، ومنه الحديثُ: (أَلَكَ نِعْمَةٌ تَرُبُّهَا؟)[2] أيْ تُصْلِحُهَا، وقيلَ سُمِّيَ الربَّانيُّونَ بذلك لِقيامِهم بالكُتُبِ وإصلاحِهم لَها.

ويَصِحُّ إطلاقُه بالمعاني الخمسةِ علَى اللهِ تعالى إلَّا أنَّه بالثلاثةِ الأُوَلِ مِنْ صفاتِ الذَّاتِ، وبالباقي مِنْ صفاتِ الفِعْلِ. ويُطلَقُ على الصَّاحبِ، ومِنْه قولُه تعالى حكايةً عنْ سيدِنا يوسفَ عليه السلام: ﴿إِنَّه رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

وذَكَرَ الحسينُ بنُ الفضلِ[3] أنَّ في "الرَّبِّ" قولًا شاذًّا، وهو أنَّ الربَّ بمعنى الثَّابتِ، مِنْ قولِهم: رَبَّ بالمكانِ، وأَرَبَّ به، وألَبَّ به، أيْ: أقامَ به. وفي الحديثِ (أنَّه كانَ يَتعوَّذُ باللهِ مِنْ فقرٍ مُرِبٍّ أو مُلِبٍّ)[4]، قالَ الشَّاعِرُ: "رَبٌّ بِأَرْضٍ مَا تَخَطَّاهَا غَنَمٌ".

واعلمْ أنَّ وجوهَ تَربيتِه تعالى لخلقِه لا يُحيطُ بها غيرُه -سبحانه وتعالى- فمِنْها تربيتُه النُّطفةَ إذا وقعتْ في الرَّحِمِ حتى تَصيرَ عَلَقَةً، ثمَّ تَصيرَ مُضْغَةً، ثُمَّ يَصيرَ منها عظامٌ وغضافيرُ ورباطاتٌ وأوتارٌ وأوردةٌ وشرايينُ، ثم يَتصلَ بعضُها ببعضٍ، ثم يَصيرَ في كُلٍّ قوَّةٌ خاصةٌ كالبصرِ والسَّمعِ والنُّطقِ، كذا في ابنِ حَجَرٍ[5].

---

(١) السيد الإمام أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، أخو الحسن والحسين، وأمه: خولة بنت جعفر الحنفية، توفي سنة ٨١. الطبقات لابن سعد (٦٧/٥)، سير أعلام النبلاء (١١٠/٤).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٥٦٧) [كتاب البر والصلة والآداب- باب في فضل الحب في الله]، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: (هلْ لكَ عليه مِن نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ...) الحديث.

(٣) العلامة المفسر اللغوي أبو علي الحسين بن الفضل بن عمير البجلي الكوفي، ثم النيسابوري، إمام عصره في معاني القرآن، توفي سنة ٢٨٢. انظر: سير أعلام النبلاء (٤١٦/١٣)، طبقات المفسرين للسيوطي (ص ٤٨)

(٤) ذكره ابن قتيبة في "تأويل مختلف الحديث" (ص ٥٢).

(٥) أي في شرحه على الأربعين، وهو شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، مولده في محلة أبي الهيتم (من إقليم الغربية بمصر) سنة ٩٠٩. له تصانيف كثيرة، منها: تحفة المحتاج لشرح المنهاج، وشرح الأربعين النووية وأشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، والمنح المكية في شرح همزية البوصيري.=

وقولُه غضافيرُ -بالضادِ المُعجَمةِ- جَمْعُ غضفورٍ، وهو أَلْيَنُ مِنَ العَظْمِ، وأَصْلَبُ مِنْ غيرِه، أيْ سائرِ الأعضاءِ، ومنفعتُه إيصالُ العظام بالأعضاءِ اللَّيِّنة؛ لئلَّا يتأذَّى اللَّيِّنُ بمجاورةِ الصُّلبِ بلا واسطةٍ، ويَليهِ العصبُ، وهو جسمٌ أبيضُ لَدْنٌ لَيِّنٌ صَعْبُ الانفصالِ لِلَدْنه؛ سَهْلُ الانعطافِ لِلينِه، ومنفعتُه إتمامُ الحِسِّ والحركةِ لِلأعضاءِ. والرِّباطاتُ جمعُ رباطٍ، وهو جسمٌ يُشبهُ العصبَ، لا حسَّ له. والأوتارُ جمعُ وَتَرٍ، وهو جِسْمٌ يَنبُتُ مِنْ أطرافِ اللَّحم شِبهُ المفصلِ -وعبارةُ القانونِ[1]: "شبهُ العصبِ"- يَصِلُ بينَ العظامِ؛ إذْ لا يُمكِنُ اتصالُها بالعصبِ لِلُطفه وصلابتِها، ولَا بِهِ معَ الرباطِ لعدمِ زيادةِ حجمِه به زيادةً تَبلُغُ ذلك. والأوردةُ جَمْعُ وريدٍ، وهيَ العروقُ غيرُ الضوارِبِ، ونباتُها منَ الكبدِ، ومنفعتُها توزيعُ الدَّمِ على الأعضاءِ. والشرايينُ جمعُ شِرْيانٍ -بكسرِ المعجمةِ وسكونِ الرَّاءِ وتحتيَّةٍ-، ونباتُها من القلبِ ومنفعتُها ترويحُ القلبِ، ونفضُ البخارِ عنه، وهي العروقُ الضوارِبُ. اهـ مُلخَّصًا منْ شرحِ النقايةِ للجلالِ السيوطيِّ[2].

ويختصُّ المُحلَّى بـ"ال" دونَ المضافِ باللهِ تعالى، وقولُ الجاهليةِ للملكِ مِنَ النَّاسِ "الرَّبُّ" مِنْ كُفرِهم. قالَ القُرْطُبيُّ[3] في تفسيرِ سورةِ الفاتحةِ: متى دخلتِ الألفُ واللَّامُ على "رَبٍّ" اختصَّ باللهِ تعالى؛ لأنَّها للعهدِ، وإنْ حُذفتَا صارَ مشتركًا بينَ اللهِ تعالى وبينَ عبادِه. اهـ. وهو مخالفٌ لِقولِ البيضاويِّ. ولا يُطلَقُ على غيرِه إلَّا مُقيَّدًا كقولِه ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، فإنَّ قضيةَ الأولِ أنَّ الممنوعَ منهُ إنَّما هو المعرَّفُ فقطْ، وأمَّا المُنكَّرُ فلا منعَ منهُ وإنْ لمْ يكنْ مُقيَّدًا، وقضيةُ الثَّاني منعُ المُنكَّرِ أيضًا حيثُ لمْ يُقيَّدْ، وهو الذي يُصارُ إليه.

=جاور بمكة وتوفي بها ودفن بالمعلاة سنة ٩٧٤. انظر النور السافر (١/٢٥٨)، والإعلام (١/٢٣٤).

(١) القانون في الطب لابن سينا.

(٢) شيخ الإسلام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي الشافعي، ولد سنة ٨٤٩، برَّز في جميع الفنون وفاق الأقران وصنَّف التصانيف المفيدة، كالجامعين في الحديث، و"الدر المنثور" في التفسير، والإتقان في علوم القرآن، و"نقاية العلوم" وشرحه "إتمام الدراية لقراء النقاية"، وغير ذلك كثير، تُوفِّي سنة ٩١١. شذرات الذهب (١٠/٧٤)، والأعلام (٣/٣٠١).

(٣) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، القرطبي، من كبار المفسرين. من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، توفي سنة ٦٧١. انظر: الديباج (٢/٣٠٠)، طبقات المفسرين للداودي (٢/٦٩)

قال بعضُهم: وفي لفظِ "رَبٌّ" خصوصيةٌ لا توجَدُ في غيرِه مِنْ أسمائه تعالى، وهي أنَّكَ إذا قرأتَه طردًا كانَ منْ أسماءِ اللهِ تعالى، وإذَا قلَبْتَه كانَ من أسمائه تعالى وهو "بَرٌّ" -بفتحِ الباءِ- بمعنى "مُحسِن".

***

الخلاف في ماهية العالمين

(الْعَالَمِينَ) جمعُ "عالَم" بفتحِ اللامِ، اسمٌ لِمَا يعلمُ به غيرُه، وهو مشتقٌّ من العِلْمِ فيختصُّ بذَوِيه على ما يَأْتي، أو العَلَامةُ؛ لأنَّه علامةٌ على موجدِه وأنَّه مُتصفٌ بصفاتِ الكمالِ، وإنما جُمِعَ لتحقُّقِ شمولِه لِكُلِّ جِنْسٍ مما سُمِّيَ به.

واختُلِفَ في "الْعَالَمِينَ"، فقال قتادةُ والحسنُ ومجاهدٌ: هم جميعُ المخلوقاتِ. وقالَ الفرَّاءُ وأبو عبيدةَ: هم عبارةٌ عَمَّا يَعقِلُ، وهم أربعُ أممٍ: الإنسُ والجنُّ والملائكةُ والشياطينُ، ولا يُقالُ للبهائمِ عالَمٌ.

وقالَ مُقاتِلٌ: هم ثمانونَ ألفَ عالَمٍ، نصفُها في البَرِّ، ونصفُها في البحرِ. وقالَ الضحَّاكُ: ثلاثُمائةٍ وستونَ عالَمًا حفاةٌ عراةٌ لا يَعرِفُون خالقَهم، وستونَ عالَمًا يَلبسونَ الثِّيابَ.

وقالَ ابن المسيبِ: للهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ألفُ عالَمٍ، ستُّمائةٍ في البحرِ، وأربعُمائةٍ في البَرِّ. وقالَ وهب: ثمانيةَ عشرَ ألفَ عالَمٍ، الدُّنيا عالَمٌ منْها، وما العمرانُ في الخرابِ إلَّا كَفُسطاطٍ ضُرِبَ في الصحراءِ.

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ: إنَّ للهِ تعالى أربعينَ ألفَ عالَمٍ، الدُّنْيا مِنْ شرقِها إلى غربِها عالَمٌ واحدٌ[1].

ونُقِلَ أيضًا عن أُبَيٍّ أنه قالَ: "الْعَالَمِينَ" هم الملائكةُ، وهم ثمانيةَ عشرَ ألفَ ملَكٍ، منْهم أربعةُ آلافٍ وخمسُمائةِ ملَكٍ بالمشرقِ، وأربعةُ آلافٍ وخمسُمائةِ ملَكٍ بالمغربِ، وأربعةُ آلافٍ وخمسُمائةٍ بالكنَفِ الثَّالِثِ منَ الدُّنيا، وأربعةُ آلافٍ وخمسُمائةٍ بالكنَفِ الرابعِ مِنَ الدُّنْيا، معَ كُلِّ

(١) ذكره الثعلبيُّ في تفسيره (١/١١٢).

ملَكٍ مِنَ الأعوانِ ما لا يَعلَمُ عددَهم إلَّا اللهُ تعالى، ومِنْ ورائِهم أرضٌ بيضاءُ كالرُّخام، عرضُها مسيرةُ الشَّمسِ أربعينَ يومًا، طولُها لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى، مملوءةٌ ملائكةً يُقالُ لهم الروحانيُّونَ، لهم زجَلٌ بالتسبيحِ والتهليلِ، لو كُشِفَ عنْ صوتِ أحدِهم لَهَلَكَ أهلُ الأرضِ مِنْ هولِ صوتِه، مُنتهاهم إلى حَمَلةِ العرشِ[1].

وقالَ مُعاذٌ النحويُّ[2]: هم بَنُو آدمَ فقطْ. وقالَ أبو الهيثم خالدُ بنُ يزيدَ: هم الإنسُ والجنُّ لقولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ورواه ابنُ جبيرٍ عن ابنِ عباسٍ[3]. وقالَ أبو عمرِو بنُ العلاءِ[4]: هم الروحانيُّونَ، وهو مَعْنى قولِ ابنِ عباسٍ: "كُلُّ ذي روحٍ دَبَّ على وجهِ الأرضِ". لكنْ قالَ الشارحُ الهيتمي: تخصيصُه بذي الروحِ أو بالناسِ أو بالثقلَيْنِ والملائكةِ أو بالثلاثةِ معَ الشياطين أو ببني آدمَ أو بأهلِ الجنةِ والنارِ أو بالروحانيِّينَ يَحتاجُ لدليلٍ.

وقالَ كعبُ الأحبارِ[5]: لا يُحصي عددَ العالَمينَ أحدٌ إلَّا اللهَ -سبحانه وتعالى-، قالَ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

و"ال" في "العالَمين" للاستغراقِ، ومنعَ ابنُ مالكٍ[6] كونَ "العالمين" جمعًا لـ "عالَم"، وقالَ: بلْ هو اسمُ جَمْعٍ له، لِئلَّا يلزمَ أنَّ المفردَ أعمُّ من جمعِه لِاختصاصِ "العالَمينَ" بالعقلاءِ وشمولِ

(١) أخرجه الثعلبيُّ في تفسيره (١١١/١)، إلا أنه قال: «الكهف» بدلًا من «الكنف».

(٢) شيخ النحو معاذ بن مسلم الهرّاء، كان يبيع الثياب الهرويّة، فسمّى بذلك؛ نحوي كوفي، وهو أستاذ الكسائي، توفي سنة ١٨٧. انظر: إنباه الرواة (٢٨٨/٣)، وسير أعلام النبلاء (٤٨٢/٨).

(٣) قول معاذ، وأبي الهيثم، وابن عبّاس ذكرها الثعلبيُّ في تفسيره (١١١/١).

(٤) شيخ القُرَّاء أبو عمرو بن العلاء زبّان بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري، إمام أهل البصرة في القراءة والنّحو، قدوة في العلم باللّغة. أخذ عن جماعة من التابعين، وهو أحد القراء السبعة، توفي سنة ١٥٤، وقيل غير ذلك. تاريخ دمشق (١١٩/٦٧)، وإنباه الرواة (١٣١/٤)، ووفيات الأعيان (٤٦٦/٣).

(٥) كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، من مسلمة أهل الكتاب أدرك النبي ﷺ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق ويقال في خلافة عمر، وكان من أوعية العلم مات في آخر خلافة عثمان سنة ٣٤. تاريخ دمشق (١٥١/٥٠)، تذكرة الحفاظ (٤٣/١).

(٦) شيخ النحاة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، ولد سنة ٦٠٠، ساد في فنّي النحو والقراءات وانتُفع به مع ديانته، وصنَّف مُصنَّفات جليلة منها التسهيل، والكافية، وشرحها، والألفية، والعمدة، وشرحها، وشرح أبنية الأفعال، تُوفِّي سنة ٦٧٢. انظر: "العقد المذهب" لابن الملقن (٣٧١/١).

العالَمِ لهم ولغيرِهم، فهو نظيرُ قولِ سيبويهِ: ليسَ "أَعْرَاب" -لكونه لا يُطلَقُ إلّا على البدوي- جَمْعًا لـ "عربٍ" لشمولِه له وللحضريِّ، وجوابُه منْعُ اختصاصِ العالَمينَ بالعقلاءِ، بل يَشمَلُ غيرَهم، كما صرَّحَ به الراغبُ[1]، وإنما غُلِّبوا في جمعِه بالواوِ والنونِ لشرفِهم، وعلى التنزيلِ وأن العالمين خاصٌّ، فهو جمعٌ لعالَمٍ مرادًا به العاقلُ فلا محذورَ حينئذٍ.

***

قَيُّومِ السَّمواتِ والأرضين، ..

(قَيُّوم) وزنُه "فَيْعُول" مِنَ القيامِ، وحينئذٍ فأصلُه "قَيْوُوم" بواوَيْنِ قبْلَهما ياءٌ ساكِنةٌ، فأُبدِلتِ الواوُ الأولى ياءً، وأُدغِمتْ في الياءِ الساكنةِ، فصارَ "قَيُّوم".

واختُلِفَ في معناه فقالَ قتادةُ: معناه القائمُ بتدبيرِ خَلْقِه، وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: معناه القائمُ على كُلِّ نفْسٍ بما كسبتْ، وقالَ ابنُ عباسٍ: معناه الدائمُ الوجودِ الذي لا يَحولُ ولا يزولُ، وقيلَ العالِمُ بالأشياءِ.

وقالَ القُشيريُّ[2]: معناه الدائمُ القائمُ بتدبيرِ خلقِه وحفظِهم، وهو أحسنُ الأقوالِ وأجمعُها، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وعليْه فمَعْنى القيُّوم في وصفِه تعالى أنه المدبِّرُ والمُتَوَلِّي لجميعِ الأمورِ التي تَجري في العالَمِ، والحافظُ لها، ومَعْنى قيُّوم السمواتِ والأرضينَ مقيمُهما وموجِدُهما وحافِظُهما.

---

(١) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم، المعروف بالراغب الأصفهاني، اشتهر بالتفسير واللغة. أصله من أصفهان، وعاش ببغداد. من كتبه تحقيق البيان في تأويل القرآن، ومحاضرات الأدباء، والذريعة إلى مكارم الشريعة، والأخلاق، والمفردات في غريب القرآن، وهو من أهم الكتب المفسرة لألفاظ القرآن. توفي سنة ٥٠٢. سير أعلام النبلاء (١٨/١٢٠)، والوافي بالوفيات (١٨/١٢٠) وبغية الوعاة للسيوطي (٢/٢٩٧).

(٢) الإمام الزاهد القدوة الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيري الخراساني النيسابوري الشافعي، الصوفي المفسِّر، ولد سنة ٣٧٦، كان علَّامةً في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة، وصنَّف التفسير الكبير، والرسالة في رجال الطريقة، وتوفِّي سنة ٤٦٥. انظر: تاريخ بغداد للخطيب (١١/٨٣)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٣٥٩)، وطبقات الشافعية للسبكي (٥/١٥٣).

وقالَ عبدُ القاهرِ[1]: إنْ أخَذْنا القيُّومَ منْ معنى القيام على النفوسِ بأرزاقِها وآجالِها والجزاءِ لَها على اكتسابِها، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] كانَ من أوصافه المشتقَّةِ من أفعاله، ولَمْ يكنْ منْ صفاته الأزليَّة، وإنْ أخذْناهُ مِنْ مَعْنى الدَّائمِ لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥] أيْ مواظبًا مُديمًا للقيام، كانَ من صفاتِه الذاتيَّة؛ لأنَّه يكونُ مِنْ مَعْنى الباقي، وبقاؤه صفةٌ أزليَّةٌ. اهـ. وفيه أربعُ لغاتٍ "قَيُّوم" بتشديدِ الياءِ، و"قَيْؤُم" بالهمزةِ، و"قَيِّم" و"قَيَّام"، وبهما قُرِئَ شاذًّا.

(**السَّمٰوات**) جمعُ "سماءٍ"، وهيَ الجِرمُ المعهودُ، وتُطلَقُ على كُلِّ مُرتفِعٍ، وقدَّمَها لِشرفِها وعلوِّ مكانِها، وجَمَعَها لِتَبايُنِ أجناسِها، قالَ الأستاذُ القُشيريُّ: الأُولى موجٌ مكفوفٌ، والثَّانيةُ مِنَ النُّحاسِ، والثَّالثةُ مِنَ الفضةِ، والرابعةُ مِنَ الذَّهبِ، والخامسةُ مِنَ الياقوتِ، والسادسةُ مِنَ الزُّمُرُّدِ، والسابعةُ مِنَ النُّورِ، والعرشُ من جَوْهرةٍ خَضْراء، والكرسيُّ مِنَ النُّورِ. وقالَ الربيعُ بنُ أنسٍ: السماءُ الدُّنيا موجٌ مكفوفٌ، والثانية مَرْمَرةٌ بيضاءُ، والثالثةُ من حديدٍ، والرابعةُ مِنْ نُحاسٍ، والخامسةُ مِنْ فضةٍ، والسادسةُ من ذهبٍ، والسابعةُ من ياقوتةٍ حَمْراءَ. وجاءَ عنْ سلْمانَ الفارسيِّ، لكنْ بسندٍ واهٍ: السماءُ الدُّنيا من زُمُرُّدةٍ خضراءَ، والثانيةُ من فضةٍ، والثالثةُ من ياقوتةٍ حمراءَ، والرابعةُ من دُرَّةٍ بيضاءَ، والخامسةُ من ذهبٍ، والسادسةُ من ياقوتةٍ خضراءَ، والسابعةُ من نورٍ.[2]

الكلام عن ماهية السماوات والأرضين

(**وَالْأَرَضِينَ**) -بفتحِ الراءِ، وقدْ تُسكَّنُ- جمعُ "أرض"، مؤنَّثةٌ، وكانَ حقُّ الواحدِ منها "أرضَة"، لكنْ لَمْ يَقولوه، وجمعُها بالياءِ والنُّونِ شاذٌّ، قيلَ: وإنَّما جُمِعتِ جَمْعَ العقلاءِ جبراً لِنقصِها بعدمِ ظهورِ علامةِ التأنيثِ فيها، وهيَ مشتقَّةٌ مِنْ "أرَضَتِ الفُرجةُ" إذَا اتسعتْ، فسُمِّيَتْ أرضًا لِاتساعِها، ولا عبرةَ بقولِ مَنْ قالَ: سُمِّيَتْ أرضًا لأنَّها تُرَضُّ بالأقدامِ؛ لأنَّ الرضَّ مكررُ الضادِ،

(١) العلامة أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني الشافعي النحوي المتكلم، واضع أصول البلاغة، من مصنفاته: المغني في شرح الإيضاح، وإعجاز القرآن، والمفتاح، وشرح الفاتحة، وغيرها، توفي سنة ٤٧١. إنباه الرواة (١٨٨/٢)، وطبقات الشافعية للسبكي (١٤٩/٥).

(٢) ذكره المقدسي في "البدء والتاريخ" (٦/٢).

ولا همزةَ فيه. وجمعُها -وإن كان خلافَ ما في الآياتِ- لرعايةِ الفواصلِ وللإشعار بأنَّ الأصحَّ أنَّهن سبعٌ لقولِه تَعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: ١٢] أيْ في العددِ لا في الهيئة والشكلِ فقطْ، فهي سبعٌ طباقٌ، بينَ كُلِّ طبقَتَيْنِ كما بينَ السماءِ والأرضِ خلافًا للضحَّاك الذي زَعَمَ: أنَّه لا فتقَ فيها.

ويدلُّ لِكَوْنِها سبعَ طباقٍ الحديثُ المُتَّفقُ عليه: (من ظلم قِيدَ -بِكسْرِ القاف أي: قدْرَ- شبْرٍ من أرضٍ طُوِّقهُ مِنْ سبعِ أرضينَ)(١)، وزعْمُ أنَّ المرادَ "مِنْ سبعِ أقاليمَ" خروجٌ عنِ الظَّاهرِ لغيرِ دليلٍ، ولا وجهَ لتحمُّلِ شِبْرٍ لم يأخذْه ظلمًا بخلافِ طباقِ الأرضِ فإنَّها تابعةٌ ملكًا وغصْبًا، وفي حديثِ البيهقيِّ: (اللهُمَّ ربَّ السَّمواتِ السَّبْعِ وما أظلَلْنَ وربَّ الأرضين السبْعِ وما أقْلَلْنَ)(٢).

وإنَّما أفردتْ في القرآنِ لاتحادِ جنسِها، وهو الترابُ، وذَكَرَ بعضُهم أنَّ الحكمةَ في إفرادِها في القرآنِ ثقلُ جمعِها لفظًا، وخصَّ السمواتِ والأرضينَ بالذكرِ؛ لأنَّ المُقرَّ والمُنكرَ يَعترفُ بهما لقولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

فإنْ قلتَ: ما الحكمةُ في خلقِ السماءِ بغيرِ عمدٍ؟ وما الحكمةُ في خلقِها قبلَ الأرضِ؟ فالجوابُ -كما قالَ النيسابوريُّ-: خلقَها قبلَ الأرضِ ليُعلمَ أنَّ فعلَه خلافُ أفعالِ الخلقِ؛ لأنَّه خلقَ أوَّلًا السقفَ ثم الأساسَ، ورفعَها على غيرِ عمدٍ ليدلَّ على قدرتِه، وجَعَلَ لها سبعةَ أبوابٍ: بابُ المطرِ، وبابُ الرزقِ، وبابُ التدبيرِ، وبابٌ تنزلُ منه الملائكةُ والروحُ، وبابُ صعودِ الأعمالِ، وبابٌ تنزلُ منه الملائكةُ بالبشارةِ، كما قالَ تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠]، وبابُ الرحمةِ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٤٥٣) [كتاب المظالم والغصب- باب إثم من ظلم شيئا من الأرض]، ومسلمٌ (١٦١٢) [كتاب المساقاة- باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها]، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه النَّسائيُّ في "الكبرى" (٨٧٧٥) [كتاب السير- الدعاء عند رؤية القرية التي يريد دخولها]، و"عمل اليوم والليلة" (٥٤٣) [ما يقول إذا رأى قرية يريد دخولها]، والطحاويُّ في "شرح مشكل الآثار" (٢٥٢٩) [بيان المشكل من قوله: ورب الشياطين وما أضلت]، وابن حبَّان (٢٧٠٩) [باب المسافر- ذكر ما يقول المسافر إذا رأى قرية يريد دخولها]، والحاكم (٤٤٦/١) [كتاب المناسك- الدعاء عند رؤية قرية يريد دخولها]، وغيرهم من حديث صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصحَّحه الحاكم.

فإنْ قيلَ: لَمَ جعلَها خضراءَ؟ ومنْ أيِّ شيءٍ خضرتُها؟ قيلَ: إنما جعلَها خضراءَ لتكونَ أوفق للبصرِ؛ لأنَّ الأطباءَ يأمرونَ بإدمانِ النظرِ إلى الخضرةِ ليكونَ قوةً للبصرِ. قالَ الغزاليُّ[1] -رحمَهُ اللهُ-: وفي النظرِ إلى السماءِ عشرُ فوائدَ، منها أنه يَصرفُ ويُذهِبُ السَّوادَ، ويُقوِّي البصرَ، وزينةٌ للنَّاظرينَ، وعِنْدَكَ منَ الانشراحِ بقدرِ ما في بيتِكَ منَ السماءِ.

وأمَّا خضرتُها فقيلَ: مِنْ جبلِ "ق"؛ لأنَّه من زُمُردٍ أخضرَ، وهو خلفُ مغيبِ الشمسِ بِسَنَةٍ، وخضرةُ السماءِ منه، وقيلَ: خضرتُها مِنَ الصخرةِ التي تحتَ الأرضِ السُّفْلى تحتَ الثورِ، المشارِ لها بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦].

وجعلَ اللهُ الشمسَ طباخةً للثمارِ والفواكهِ، ولولا الشمسُ ما نَبَتَ زرعٌ ولا خرجتْ فواكهُ، وجعلَها تطبخُ مِنْ فوقُ، والناسُ يَطبخونَ بالنَّارِ مِنْ تحتُ، وجعلَ القمرَ طبَّاخًا لسائرِ ألوانِ الفواكهِ، وجعلَ اللهُ في الشمسِ منَ الخواصِّ أنَّها تُذبلُ الوردَ، وتجفِّفُ القصبَ والورقَ، وتجمِّدُ المِلْحَ، وتُرطِّبُ بدنَ الإنسانِ إذَا نامَ في الشمسِ، وتجعلُ الماءَ حارًّا، والبطيخَ باردًا، وتُبيِّضُ الثيابَ، وتُسوِّدُ وجوهَ القصَّارين.

***

تنبيه

الأرضُ العُلْيا أفضلُ مما تحتَها لاستقرارِ ذريةِ آدمَ فيها، ولانتفاعِنا بِها، ودَفْنِ الأنبياءِ بها، وهي مهبطُ الوحيِ وغيرِه من الملائكةِ، قاله في كشفِ الأسرارِ[2].

---

(١) شيخ الإسلام وحجة الأنام محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي أبو حامد الغزالي، اختلف إلى دروس إمام الحرمين وجدَّ في الاشتغال حتَّى تخرَّج في مُدَّة قريبة وصار من الأعيان في زمن أستاذه، له مُصنَّفاتٌ مشهورةٌ: منها: إحياء علوم الدِّين، والبسيط والوسيط والوجيز والخُلاصة وهذه الأربع في الفقه، وله المُسْتَصْفى في أصول الفقه، وبداية الهِدَايَة، وتهافت الفلاسفة، وغيرها كثير، وفضله وعُلاه شهير، توفي سنة ٥٠٥. انظر ترجمته في: "طبقات الشافعية" للسبكي (١٩١/٦)، و"الوافي بالوافيات" للصفدي (٢١١/١)

(٢) هذه الفقرة وما سبقها من فقرات متعلقة بماهية السماوات مستقاة من كتاب "كشف الأسرار عما خفي علي الأفكار" لشهاب الدين أحمد بن عماد بن يوسف الأقفهسي (ت٨٠٨هـ).

ونُقِلَ عنْ بعضِهم أنَّ السماءَ الدُّنْيا أفضلُ مما سواها لقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥].

قالَ الجلالُ السيوطيُّ: قلتُ: قدْ وَرَدَ الأثرُ بخلافِه، أخرجَ عثمانُ بنُ سعيدِ الدارميُّ في كتابِ الرَّدِّ على الجهميةِ عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "سيِّدُ السمواتِ السماءُ التي فيها العرشُ، وسيِّدُ الأرضينَ التي نحنُ عليها"[1].

وقدْ رُفِعَ للعلامةِ السيوطيِّ -رحمَه اللهُ- سؤالٌ صورتُه:

يَا عَالِمَ الْعَصْرِ لَا زَالَتْ أَنَامِلُكُمْ * تَهْمِي وَجُودُكُمُ نَام مَدَى الزَّمَنِ
لَقَدْ سَمِعْتُ خِصَامًا بَيْنَ طَائِفَةٍ * مِنَ الأَفَاضِلِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَاللُّسُنِ
فِي الْأَرْضِ قَدْ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ وَهَلْ * بِالْعَكْسِ جَا أَثَرٌ يَا نُزْهَةَ الزَّمَنِ
فَمِنْهُمُ قَالَ إِنَّ الْأَرْضَ مُنْشَأَةٌ * بِالْخَلْقِ قَبْلَ السَّمَا قَدْ جَاءَ فِي السُّنَنِ
وَمِنْهُمُ مَنْ أَتَى بِالْعَكْسِ مُسْتَنِدًا * إِلَى كَلَامِ إِمَامٍ مَاهِرٍ فَطِنِ
أَوْضِحْ لَنَا مَا خَفِي مِنْ مُشْكِلٍ وَأَبِنْ * نَجَّاكَ رَبُّكَ مِنْ وِزْرٍ وَمِنْ مِحَنِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍ * مَاحِي الضَّلَالَةِ هَادِي الْخَلْقِ لِلسُّنَنِ

فأجابَ -رحمَهُ اللهُ- بما صورتُه:

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الأَفْضَالِ وَالْمِنَنِ * ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمَبْعُوثِ بِالسُّنَنِ
الْأَرْضُ قَدْ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَا كَمَا * قَدْ قَصَّهُ اللَّهُ فِي حم فَاسْتَبِنِ
وَلَا يُنَافِيهِ ما فِي النَّازِعَاتِ أَتَى * فَدَحْوُهَا غَيْرُ ذَاكَ الْخَلْقِ لِلْفَطِنِ
فَالْحَبْرُ أَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ أَجَابَ بِذَا * لَمَّا أَتَاهُ بِهِ قَوْمٌ ذَوُو لُسُنِ
وابْنُ السُّيُوطِي قَدْ خَطَّ الْجَوَابَ لِكَيْ * يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ وَالْآثَامِ وَالْفِتَنِ

قالَ القاضي عياضٌ[2]: وليسَ في غِلَظِ الأرضِ وطبقاتِها وما بيْنَهما حديثٌ ثابتٌ.

(١) "الرد على الجهمية" للدارمي (٩٠).

(٢) العلّامة القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض، اليحصبي السّبتيّ المالكي الحافظ، كان إمام وقته في=

ثمَّ إنَّ الأرضَ وردتْ في القرآنِ لمعانٍ:

معاني "الأرض" في القرآن

الأولُ: أرضُ الجنةِ كقولِه -تعالى-: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤]، يعني أرضَ الجنةِ.

والثَّاني: الأرضُ المقدَّسةُ بالشامِ كقولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٧١]، يَعني الأرضَ المقدَّسةَ.

والثَّالثُ: أرضُ المدينةِ خاصّةً كقولِه تعالى في العنكبوتِ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، يعني أرضَ المدينةِ.

الرابعُ: أرضُ مكةَ خاصَّةً كقولِه تعالى في الرَّعْدِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، قالَ بعضُهم يعني ذهابَ العلماءِ.

الخامسُ: أرضُ مصرَ كقوله تعالى في يوسفَ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]، وكذا قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]، يعني أرضَ مصرَ.

السادسُ: أرضُ العربِ كقولِه تعالى في المائدةِ ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، وكقولِه في الكهفِ: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤]،يعني أرضَ العربِ.

السابعُ: جميعُ الأرضينَ كُلِّها كقولِه تعالى في هود: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

***

=الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، وُلد سنة ٤٧٦، وَلِيَ قضاء سبتة مدَّة، ثم قضاء غرناطة، وصنَّف التصانيف البديعة، منها: الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، وترتيب المدارك، وشرح حديث أُمِّ زرع، وجامع التاريخ، وغيرها، تُوفِّي سنة ٤٥٥. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٤٨٣)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبيِّ (٢٠/٢١٢)،

مُدبِّر الخلائق أجمعين، ..

(مُدبِّرِ) أمورِ (الْخَلَائِقِ) جَمْعُ "خليقةٍ" بمعنى مخلوقةٍ، وتَرِدُ بمَعْنى الخُلُقِ والطَّبيعةِ، ومنهُ:

وإن تَكُ قَدْ ساءتْكِ مِنّا خليقةٌ * ... البيت[1]

وبمعنى الجَديرةِ قالَ الشاعرُ: "خَليقَتُهُ بِكُلِّ مَدْحٍ خَلِيقَةٌ" أيْ طبيعتُه بكُلِّ مدحٍ جديرةٌ.

والمرادُ الأوَّلُ أيْ مُصَرِّفُ أمورِ الخلقِ بقدرتِهِ عَلى وفقِ مَشيئتِهِ مِنْ إيجادٍ وإعدامٍ وإعطاءٍ ومنعٍ وغيرِ ذلكَ عَلى ما تَقتضيهِ حكمتُه البالغةُ، ولا يَحسُنُ أنْ يُقالَ: مدبِّرُ الخلائقِ عَلى حسَبِ ما تقتضيهِ المَصلَحةُ؛ لأنَّ في الخلقِ مَنْ عاقبتُهم النَّارُ، وهُمُ الكفَّارُ، إلَّا أنْ يُرادَ تدبيرُ الخلائقِ في الدُّنيا فيصِحُّ؛ لأنَّ عمومَ رحمتِهِ تعالى اقتضتْ إفاضةُ المصالحِ الدنيويَّة عَلى المؤمنِ والكافرِ. وأمَّا حَمْلُ الخلائقِ عَلى أنَّهُ جَمْعُ "خليقةٍ" بمعْنى الخُلُقِ والطبيعةِ فهو خلافُ الظاهرِ.

والتدبيرُ في صفاتِ البشرِ التفكُّرُ في عواقبِ الأُمورِ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، ومعْناهُ أفَلا يَتفكَّرون في معانيه، يُقالُ: تدبَّرتُ الأمورَ إذا تفكَّرْتُ في عَواقبِها، ولا يُوصَفُ الإلهُ -سبحانهُ وتَعالى- بالتفكُّرِ في الأمورِ، فإنه لم يَزلْ عالِمًا بها قبلَ وقوعِها. واختلَفوا في تأويلِ قولِه -عَزَّ وَجَلَّ- في صفةِ الملائكة: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، فمِنْهم مَنْ قالَ: معناهُ أنَّها تَأتي بالتَّدبيرِ مِنْ عندِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، ومنْهُمْ مَنْ قالَ: معناهُ أنَّهم يُحَدِّثونَ بالوحي عنِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ. قالَ أبو عبيدٍ[2]: يُقالُ دبَّرتُ الحديثَ، أي حدَّثتُ به عنْ غيْري، فالمدبِّراتُ أمرًا المحدِّثونَ عن اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بأمرِهِ ونَهيهِ وإخبارِهِ، وفي الحديثِ (أما سمعت عن معاذ بن جبل تدبره عن رسول الله ﷺ)[3].

(١) لامرئ القيس من معلقته المشهورة، وتمام البيت:

وإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ * فسُلِّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأديب الفقيه المحدث، صاحب التصانيف الكثيرة في القراءة والفقه واللغة والشعر. قرآ القرآن على الكسائي وإسماعيل بن جعفر وعبد الله بن المبارك، وتفقه على الشافعي. ولد بهراة، وتوفي بمكة سنة أربع وعشرين ومائتين، وله من التصانيف: كتاب الأموال، وكتاب الناسخ والمنسوخ.

(٣) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٩٨/٢)، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

وإنَّما جَمَعَ الخلائقَ لِيُعلَمَ أنَّ التدبيرَ إليهِ في العالَمِ العلويِّ والسفليِّ مِنْ أعْلى العرشِ إلى ما تحتَ الثَّرى، لا يشغلُه شأنٌ عنْ شأنٍ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]. فإنْ قيلَ: إذا كانَ تدبيرُ الإلهِ نافذًا في السماءِ والأرضِ وما بيْنَهما فلِمَ انْتَهى التدبيرُ إلى الأرضِ في الذِّكرِ؟ فالجوابُ أنَّ "إلى" بمَعنى "مَعَ" كما في قولِه تعالى: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وفي قولِه: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فهو مِنْ بابِ دخولِ الحدِّ في المحدودِ، فهو المدبِّرُ لِلأرضِ والسماءِ وما بيْنَهما.

(أَجْمَعِينَ) تأكيدٌ ناصٌّ على شمولِ تدبيرِهِ -سبحانَهُ وتَعالى- لِكُلِّ مخلوقٍ، أوْ أُتِيَ به للتَّسجيعِ.

***

باعثِ الرسل -صلاتُه وسلامُه عليهم- إلى المُكلَّفين، ..

(بَاعِثِ) أيْ مُرسِلِ -لُطفًا منه وفضلًا منه تعالى لا وجوبًا خلافًا للمعتزلة- مشتقٌّ مِنَ البعثِ، وهو الإرسالُ كما في قوله تَعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقولِه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا﴾ [يونس: ٧٤]، ويُطلَقُ بمعنى النَّشْرِ والإحياءِ بعدَ الموتِ، ومنه قولُه -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[البقرة: ٢٥٩]، وقولُه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]، وكذلك البعثُ مِنَ النَّومِ أيِ الإيقاظُ، ومنه قولُه -عَزَّ وَجَلَّ- في حقِّ أصحابِ الكهفِ: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، ويُطلَقُ بِمعْنى الإثارةِ والإنهاضِ يُقالُ: "بعثَ فلانٌ بعيرَهُ فانبَعثَ" أيْ أثارَه فثارَ ونهضَ.

تعريف الرسول

(الرُّسُلِ) جمعُ "رسولٍ"، وهو مِنَ البَشَرِ إنسان حُرٌّ ذَكَرٌ، أكملُ مُعاصِريه غيرِ الأنبياءِ عقلًا وفطنةً وقوةَ رأيٍ وخَلْقًا -بالفتحِ-، وعقدةُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُزيلتْ بدعوتِه عندَ الإرسالِ كما في الآيةِ[1]، معصومٌ ولوْ مِنْ صغيرةٍ سهوًا، ولو قبْلَ النُّبوةِ على الأصحِّ، ..

---

(١) ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥-٢٨].

.. سليمٌ من دناءةِ أبٍ وخَنَا أُمٍّ وإنْ عَلَيَا، ومِنْ مُنفِّرٍ كعَمًى وبَرَصٍ وجُذام، ولا يَرِدُ بلاءُ أيوبَ وعَمَى يعقوبَ بناءً على أنَّهُ حقيقيٌّ لِطروئه بعدَ الإنباء، والكلامُ فيما قارَنه، والفرقُ أنَّ هذا مُنفِّرٌ بخلافه فيمَن استقرتْ نُبُوَّتُهُ، ومنْ قِلَّةِ مروءةٍ كأكلٍ بِطَرِيقٍ، ومِنْ دناءةِ صنعةٍ كحِجامةٍ، أُوحِيَ إليه بشرعٍ، وأُمِرَ بتبليغِهِ، وإنْ لَمْ يكنْ له كتابٌ ولا نسخٌ كيوشَعَ، فإن لم يُؤمَرْ فنبيٌّ فقطْ، فبيْنَهُما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ.

وهو أفضلُ منَ النَّبيِّ إجماعًا لِتميُّزِهِ بالرِّسالةِ الَّتي هيَ -عَلى الأصحِّ- أفضلُ مِنَ النُّبوَّةِ خِلافًا لابنِ عبدِ السلام[1]، ووجْهُ تفضيلِ الرسالةِ عَلى النُّبوةِ -كما قالَ القرافي[2]- أنَّ الرسالةَ تُثمِرُ هدايةَ الأمةِ، والنبوة قاصرةٌ على النبيِّ، فنِسبتُها إلى النُّبوَّةِ كنِسْبةِ العالِمِ إلى العابِدِ.

ثم إنَّ مَحلَ الخلافِ فيهما معَ اتِّحادِ محلهما وقيامِهما معًا بشخصٍ واحدٍ، أمَّا معَ تعدُّدِ المحلِ فلا خلافَ في أفضليةِ الرِّسالةِ عَلى النُّبوَّةِ فقطْ، ضرورةَ جمعِ الرِّسالةِ لها معَ زيادةٍ.

ولمَّا كانتِ الصلاةُ على الأنبياءِ مطلوبةً إذا ذُكِروا لقولِه ﷺ: (صَلُّوا عَلى النَّبِيِّينَ إذا ذَكَرتُمُوهُم فإنَّهُم بُعِثوا كما بُعِثْتُ)[3] رواه ابنُ عساكرَ، قالَ:

(صَلاتُهُ) أيْ رحمتُه المقرونةُ بتعظيمٍ، وخُصَّ لفظُها بهم تعظيمًا لهم وتمييزًا لِرُتْبَتِهِم على غيرِهم. وتنظيرُ بعضِ الشُّرَّاحِ في تَفسيرِهم لَها بالرَّحمةِ؛ لأنَّها عُطِفتْ عَليْها في ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ

(١) سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي، ولد سنة ٥٥٧، من كتبه: التفسير الكبير، والإلمام في أدلة الاحكام، وقواعد الشريعة، وقواعد الأحكام في إصلاح الأنام، وغيرها توفي سنة ٦٦٠. طبقات الشافعية للسبكي (٨/٢٠٩)، ورفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (ص ٢٣٩).

(٢) العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي الصنهاجي المصري، له مصنفات جليلة في الفقه والأصول، منها: أنوار البروق في أنواء الفروق، والإحكام في تمييز الفتاوي عن الأحكام وتصرف القاضي والإمام، وغير ذلك. توفي سنة ٦٨٤. انظر: الوافي بالوفيات (٦/١٤٦)، وشجرة النور (رقم ٦٦١).

(٣) أخرجه الخطيب في "التاريخ" (٨/١٠٥) [ترجمة: الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن الحارث]، والسبكي في "طبقات الشافعية" (١/١٨٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وأخرجه العقيليُّ في "الضعفاء" (٤/٥٩) [ترجمة: محمد بن حجر بن عبد الجبار بن وائل]، وابن عساكر في "التاريخ" (٦٢/٣٩١) [ترجمة: وائل ابن حجر]، وغيرهما من حديث وائل بن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قصة إسلامه.

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، ولأنَّها مستحيلةٌ في حقِّه تعالى، وتصويبُه أنَّها المغفرةُ غيرُ سديدٍ؛ لأنَّها أخصُّ مِنْ مطلقِ الرَّحْمةِ، وعطفُ العامِّ على الخاصِّ صحيحٌ مفيدٌ، ولأنَّ المرادَ بها كما مرَّ في حقِّه تعالى غايتُها كسائرِ الصِّفاتِ المستحيلِ ظاهرُها عليه تعالى، كذا في شرحِ الهيتميِّ، نَعَمْ يردُ أنَّ الرحمةَ فِعْلُها متعدٍّ، والصلاةُ فِعْلُها قاصرٌ، ولا يَحْسُنُ تفسيرُ القاصرِ بالمتعدِّي، كذا قيلَ، وفيه بَحْثٌ، وفي بعضِ النُّسَخِ "صَلَواتُه" بالجمعِ.

(**وَسَلَامُه**) اسمُ مصدرٍ بمعنى تسليمِهِ، أي تحيتُه أو تسليمُهُ إيَّاهم من كُلِّ آفةٍ ونقيصةٍ.

(**عَلَيْهِمْ**) كلمةُ "عَلى" هنا مُجرَّدةٌ عنِ المضَرَّةِ كما في قولِه تَعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فلا يَرِدُ أنَّ الصلاةَ بمعْنى الدُّعاءِ، وإذَا استُعمِلَ الدعاءُ مع كلمةِ "على" يكونُ لِلمضَرَّةِ مَعَ أنَّه يمكنُ التفريقُ بينَ "صَلَّى عَلَيْه" و"دَعَا عَلَيْه".

بيان المكلَّفين

(**إِلَى**) متعلقٌ بـ"بَاعِثٍ"، (**الْمُكَلَّفِينَ**) جَمْعُ "مُكَلَّفٍ"، وهو العاقِلُ البالِغُ مِنَ الإنسِ، وكذا مِنَ الجنِّ بالنسبةِ لنبيِّنا ﷺ؛ إذْ هو مرسَلٌ إليهم إجماعًا خِلافًا لِمَنْ وَهَمَ فيه، كما بيَّنه السبكيُّ في فتاويه، وأمَّا بقيةُ الرُّسلِ فلمْ يُرسَلْ أحدٌ منهم إليهم، كما قالَهُ الكلبيُّ، ورُوِيَ عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "وأمَّا حُكْمُ سُليمانَ فيهم وإطاعتُهُم له فليس مِنْ جِهةِ رِسالتِه، بَل لِكَونه وَلِيَّ عليهم، فكان له عليهم تسلُّطٌ بالمُلكِ"، وإيمانُهم بالتوراةِ كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] لا يدلُّ على أنَّهم كانوا مُكلَّفينَ به لجوازِ إيمانِهم به تبرعًا منهم، وليس منهم رسولٌ عنِ اللهِ -تعالى- عندَ جماهيرِ العلماءِ، وأمَّا قولُه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمرادُ به من أحدِكم، وهو الأكثرُ على حدِّ قولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦].

وكذا مِنَ الملائكةِ بالنسبةِ لنبيِّنا أيضًا؛ لأنَّه مرسلٌ إليهم على الأصحِّ عندَ جمعٍ من المُحقِّقينَ كما يدلُّ عليه خبرُ مُسلِمٍ: (وأُرسِلْتُ إلى الخلقِ كافَّةً)[1].

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٥٢٣) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

زاد السبكيُّ أنه مرسلٌ إلى جميعِ الأنبياءِ والأممِ السابقةِ، وأنَّ قولَه: (بُعثْتُ إلى الناسِ كافَّةً)(1) شاملٌ لهم منْ لدنْ آدمَ إلى قيامِ الساعةِ، بل أخَذَ بعضُ المُحقِّقين بعمومِه حتَّى للجماداتِ، واستدلَّ له بشهادةِ الحَجرِ والشجرِ له ﷺ(2). قالَ الحافظُ السيوطيُّ: وأزيدُ منْ ذلكَ أنَّه مرسلٌ إلى نفسِه. وقولُ الرَّازي في تفسيرِه ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1] الشاملِ لهم(3): "أجمعنا" -عَلى أنَّ المرادَ الإنسُ والجنُّ دونَ الملائكة- مردودٌ ومؤوَّلٌ بأنَّ مُرادَه إجماعُ الخَصْمَيْن؛ إذ "أجمعنا" إنما يُقالُ لذلك غالبًا لا إجماعَ كلِّ الأُمَّةِ، على أنَّ هذا لا يؤخذ مِنْ مثلِ الرَّازي، بل مِنْ مِثلِ ابنِ المُنْذرِ وابنِ جريرٍ.

وأما غيرُ نبيِّنا فغيرُ مرسلٍ إليهم قطعًا. ومعنى إرسالِه للملائكةِ، وهم معصومونَ، أنهم كُلِّفوا بتعظيمِه والإيمانِ به وإشهارِ ذكرِه، وَلِلْجَمَادَاتِ أنَّه رَكَّبَ فيها إدراكاتٍ لِتؤمنَ به ولِتخضعَ له، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44] أيْ حقيقةً بلسانِ المقالِ كما قالَه الحافظُ ابنُ عبدِ البَرِّ(4) والقاضي عياضٌ، والسهيليُّ(5) في "الرَّوْضِ الأنفِ" في غزوةِ أُحدٍ، وابنُ المنيرِ،

(1) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (438) [كتاب الصَّلاة]، ومسلمٌ (523) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة]، وغيرهما من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) أمَّا شهادة الحجر: فمنها ما أخرجه مسلم (2277) [كتاب الفضائل- باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة]، وغيره من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (إنِّي لأعْرِفُ حَجرًا بمكة كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ قبلَ أنْ أبعثَ إنِّي لأعْرِفُه الآنَ).

وأمَّا شهادة الشجر: فمنها ما أخرجه الدارميُّ (18) [باب ما أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ من إيمان الشجر به، والبهائم، والجن]، وابن حِبَّان (6505) [باب المعجزات- ذكر شهادة الشجر للمصطفى ﷺ بالرسالة]، وأبو يعلى (5662) [مسند عبد الله بن عمر]، والطبرانيُّ (431/12) [حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر]، وغيرهم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وفيه: (ومن يشهد على ما تقول؟ قال: هذه السلمة، فدعاها رسول الله ﷺ، وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخدُّ الأرض خدًّا، حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثًا فشهدت ثلاثًا أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها ...) الحديث.

(3) أي الشامل لأقوال من سبق ذكرهم.

(4) حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي: ولد سنة 368 وطلب الحديث قبل مولد الخطيب بأعوام، ومصنفاته غاية في الإفادة منها: "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، و"الاستذكار"، و"الاستيعاب" في تراجم الصحابة، و"جامع بيان العلم وفضله"، وغيرها، توفي سنة 463. انظر: وفيات الأعيان (66/7) وتذكرة الحفاظ للذهبي (1013).

(5) الحافظ عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن الحسين بن سعدون الخثعمي السهيلي الأندلسي المالقي، =

والسيوطيُّ في حاشيةِ الموطأِ وغيرُهم، وهو المعوَّلُ عليه، لا بلسانِ الحالِ خلافًا للبيضاويِّ في سورةِ الإسراءِ.

إذا تقرَّرَ هَذا فإطلاقُ المُصنِّفِ بعثَ الرُّسلِ إلى المكلَّفينَ ليسَ المرادُ به عمومَهُ كما عرفتَ، فإنْ قلتَ: تكليفُ الملائكةِ من أصلِه مُختَلَفٌ فيه، فالجوابُ كما قالَ الشارحُ الهيتميُّ أنَّ الحقَّ تكليفُهم بالطَّاعاتِ العمليَّةِ، قالَ اللهُ تعالى ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] بخلافِ نحوِ الإيمانِ؛ لأنَّه ضروريٌّ فيهم، فالتكليفُ به تحصيلُ الحاصلِ، وهو محالٌ.

***

تنبيهات

الأولُ: ذَكَرَ ابنُ جماعةَ[1] أنَّ المكَلَّفينَ ثلاثةُ أقسامٍ: قسمٌ مكَلَّفٌ من أولِ الفطرةِ قطعًا، وهم الملائكةُ وآدمُ وحوَّاء، وقسمٌ لمْ يُكَلَّفْ من أولِ الفطرةِ قطعًا، وهم أولادُ آدمَ، وقسمٌ فيه نزاعٌ، والظاهرُ أنهم مكلَّفونَ من أولِ الفطرةِ، وهم الجنُّ.

الثاني: قالَ في شرحِ الترغيبِ والترهيبِ ما نصُّه: سُئِلَ النوويُّ هلْ يأجوجُ ومأجوجُ مِنْ ولدِ آدمَ وحوَّاء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؟ وكمْ ثبتَ أنه يعيشُ كلُّ واحدٍ منهم؟ فأجابَ: هم ولدُ حوَّاء وآدمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عندَ أكثرِ العلماءِ، وقيلَ: إنهم من ولدِ آدمَ من غيرِ حوَّاء، فيكونونَ إخوانَنا من الأبِ أيْ أنهم خُلِقوا من منيٍّ خرجَ منْ آدمَ في غيرِ حالِ الجماعِ ووقعَ في الأرضِ، وخُلِقوا منه، ولمْ يَثْبُتْ في قدْرِ أعمارِهم شيءٌ. ونقلَ ابنُ عبدِ البرِّ الإجماعَ على أنَّهم منْ ولدِ يافثَ بنِ نوحٍ، وأنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن يأجوجَ ومأجوجَ هلْ بلغتْهم دعوتُكَ يا رسولَ اللهِ؟ ..

=ولد سنة ٥٠٨، وتصدَّر للإقراء والتدريس وجمع بين الرواية والدراية، له من المصنَّفات: الروض الأُنف، والإعلام بما في القرآن من الأسماء والأعلام، وشرح آية الوصية، ومسألة السر في عور الدجال، وغيرها. توفي سنة ٥٨١. الوافي للصفدي (١٨/١٠٠)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (رقم ١٠٦٤).

(١) قاضي القضاة العلّامة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، ولد سنة ٦٣٩، جمع بين علم الفقه والحديث، وتقضَّى بمصر والشام، وصنَّف تصانيف منها: المنهل الرويّ في الحديث النبوي، وتحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ومختصر في السرة النبويّة، وغرر البيان لمبهمات القرآن، وغيرها، توفِّي سنة ٧٣٣. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر (٤/٥)، وأعيان العصر للصفدي (٤/٢٠٨).

.. فقالَ: (جُزتُ ليلةَ أُسْرِي بي فدعوتُهُم فلم يُجيبوا فهُم مِن أهلِ النارِ)(١)، وصرَّحَ بأنَّ الصحيحَ أنه لمْ يُرسَلْ إليهم، وأنهم من ذريةِ آدمَ بدليلِ حديثِ (إنَّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامةِ: يا آدمُ أخرج بعثَ النار ...) الحديث(٢)، وروى الطبرانيُّ أنَّه ﷺ قالَ: (يأجوجُ لها أربعُمائة أميرٍ، وكذلك مأجوجُ، لا يموتُ أحدُهم حتى يَنظُرَ إلى ألفِ فارسٍ مِن وَلَدِه)(٣)، انتهى المرادُ منه.

وانظرْ -عَلى هذا الصحيحِ مِنْ أنه لم يُبعثْ إليهم- لَمَ عُذِّبوا، وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ودعوى أنه أَرسَلَ إليهم غيرَهُ خِلافُ ما يَظهَرُ من كلامِ الجماعةِ، وكيفَ يدعوهم مع أنه لمْ يُرسَلْ إليهم؟!

***

.. لهدايتِهم وبيانِ شرائعِ الدين، ..

(لِهِدَايَتِهِمْ) مصدرٌ مضافٌ للفاعلِ أوِ المفعولِ، أيْ لأجلِ إرشادِهم ودلالتِهم إيَّاهم عَلى سلوكِ سبيلِ الهُدى وتجنُّبِ طريقِ الرَّدَى.

قالَ المولى سعدُ الدينِ التفتازانيُّ في شرحِ العقائدِ: والمشهورُ أنَّ الهدايةَ عندَ المعتزلةِ هي الدلالةُ الموصلةِ إلى المطلوبِ، وعندَنا الدلالةُ على طريقٍ تُوصلُ إلى المطلوبِ، سواءٌ حصلَ الوصولُ والاهتداءُ أو لم يَحصُلْ. اهـ. وكلٌّ مِنَ القولَيْنِ منقوضٌ، أمَّا الأوَّلُ فمنقوضٌ بقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وأمَّا الثاني فمنقوضٌ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، واحتمالُ التجوزِ مشتركٌ.

(١) أخرجه نعيم بن حماد في "الفتن" (١٦٥٣)، وابن مردويه في "التفسير" كما في "الدر المنثور" للسيوطيِّ (٤٥٨/٥) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٣٣٤٨) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب قصة يأجوج، ومأجوج]، ومسلمٌ (٢٢٢) [كتاب الإيمان- باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار]، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (٣٨٥٥) [باب العين- من اسمه علي]، وغيره من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والهاديةُ مِنْ كلِّ شيءٍ أَوَّلُه وما يَتقدَّمُ منه، ولهذا قِيلَ: أقبلتْ هوادي الخيلِ؛ إذْ مدَّتْ أعناقَها، وأمَّا الَّذي رُويَ أنه ﷺ (خرجَ في مرضِه يُهادي بينَ اثنَيْن)[1] فمعناهُ أنَّه يَميلُ بيْنَهما ويعتمدُ عليْهما مِنْ ضعفِه، وكلُّ من فَعَلَ ذلك بأحدٍ فهو يُهاديه، وتَهادتِ المرأةُ في مِشْيَتِها إذا تمايلتْ، وفي أمثالِ العربِ في مَعْنى الهدايةِ قولُهم: "أهْدى مِنَ الإنسانِ إلى فيه"، و"أهْدَى من يدٍ إلى فم"، و"أهْدَى من قطاةٍ"، و"أهْدَى من حمامةٍ"؛ لأنَّ القطاةَ والحمامةَ يَسيرانِ مِنْ وَكْرَيْهِمَا ومَنْهَلَيْهِمَا مسافةَ أيامٍ كثيرةٍ ثم يَهتديانِ إليْهِما.

واللَّامُ في كلامِ المصنفِ لبيانِ حكمةِ الإرسالِ وغايتِه لا لِلْعلَّةِ الباعثةِ عليه؛ لأنَّ أفعالَه تعالى لا تُعلَّلُ بالأغراضِ لما يَلْزَمُ عَلى ذلك الذي ذَهَبَ إليه المعتزلةُ -قَبَّحَهم اللهُ- مما هو مقرَّرٌ في محلِّه، والهدْيُ يتعدَّى بنفسِه وبحرفِ الجرِّ، يُقالُ: هداهُ الطريقَ وإِلى الطَّريقِ، أي دلَّه عليْه.

(وَبَيَانِ) البيانُ والتبيينُ عبارةٌ عن الظهورِ بعد الخفاءِ، وذلك بأنَّهما مُشتقَّانِ من البينونةِ والإبانةِ، وهيَ عبارةٌ عنِ التَّفريقِ بين أمرَيْنِ مُتصلَيْنِ، فإذَا حَصَلَ في القلبِ اشتباهُ صورةٍ بصورةٍ ثم انفصلتْ إحْدَاهما عنِ الأُخرى فقدْ حَصَلَتِ البينونةُ، فلهذا سُمِّيَ بيانًا وتبيينًا.

تعريف الشريعة وتعريف الدين

(شَرَائِعِ) جمعُ "شريعةٍ"، فعيلةٌ بمعنى مفعولةٍ، وهي لغةً: مشرعةُ الماءِ أي موردُه الَّذي لِلشَّاربِ، واصطلاحًا: ما شَرَعَه اللهُ لِعبادِهِ مِنَ الأحكامِ، مِنْ "شَرَعَ" بِمَعْنى بَيَّنَ، وبِمَعْنى سَنَّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣]، أي سَنَّ.

(الدِّينِ) هو لغةً: يُطلَقُ عَلى أمورٍ، منها الطاعةُ ومنه قولُ زهيرٍ:

لِئنْ حَللْتَ بوادٍ في بَنِي أَسَدٍ * في دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بينَنَا فَدَكُ

أرادَ في طاعةِ عمرٍو. والجزاءُ ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، أي جزاءَهم الحقَّ الذي وُعِدوا به، وقولُه تَعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦]،

---

(١) متفقٌ عليه؛ مخرَّجٌ في عِدَّة مواضع في الصحيحين منها ما أخرجه البخاريُّ (٦٦٤) [كتاب الأذان- باب: حد المريض أن يشهد الجماعة]، ومسلمٌ (٤١٨) [كتاب الصلاة- باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر]، وغيرهما من حديث السيِّدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بلفظ: (يهادي بين رجلين).

أي الجزاءُ لواقعٌ يومَ القيامةِ، والحسابُ ومنه قولُه تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦] أي الحسابُ الصحيحُ، وقولُه تَعالى: ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي لَمجزيُّون، وقالَ لبيدٌ:

حَصَادُكَ يَوْمًا مَا زرَعْتَ وَإِنَّمَا * يُدَانُ الْفَتَى يَوْمًا بِمَا هُوَ دَائِنُ

ومنْ كلامِ العربِ "كما تدينُ تُدانُ" أي كَما تُجازي تُجازَى. والتوحيدُ ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] أي التوحيدُ، وبِمَعْنى المِلَّةِ ومنه قولُه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ويُعبَّرُ به عنْ داءٍ من أدواءِ القلبِ، ومنه قولُ الشَّاعرِ:

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْ سَلْمَى وَقَدْ وُجِعَا

والْعَادَةُ وَالْعَمَلُ، ومنه قولُه:

[تقولُ] إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي * أَهَذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي [1]

والوضينُ لِلهودجِ بمنزلةِ البطانِ للقَتَبِ[2]، والحزام للسَّرْجِ. والسياسةُ، ومنه قولُ ذي الأصبعِ:

وَلَا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي

والحالُ، ومنه قولُ النَّضرِ بنِ شميلٍ: سألتُ أعرابيًّا عنِ شيءٍ فقالَ: لوْ لَقِيتَني على دينٍ غيرِ هذا لأَخبرتُكَ، أيْ عَلى حالٍ غيرِ هَذا. والقَهْرُ والخُضوعُ، ومنه قولُ العربِ: دِنتُه فدَانَ، أي قَهرتُه فَخضَعَ.

واصْطِلاحًا: "وضعٌ إلهيٌّ سائقٌ لِذَوِي العقولِ باختيارِهم المحمودِ إلى ما هو خيرٌ لَهُمْ بالذاتِ". فخَرَجَ بقولِه: "إلهيٌّ" الأوضاعُ الصناعيَّةُ، وبقولِه: "سَائِقٌ" الوضعُ الإلهيُّ غيرُ السائقِ كإنباتِ الأرضِ وإمطارِ السماءِ، وقولِه: "لِذَوِي العقولِ" الحيواناتُ المختصةُ بالاختيارِ، وبقولِه:

(١) من قول المثقب العبدي حكاية عن ناقته عندما رآها في حال من الجهد والكلال:

إذا ما قمتُ أرحلُها بليل * تأوَّهُ آهةَ الرَّجلِ الحزينِ

تقول إذا درأتُ لها وضيِّني * أهذا دينه أبدا وديني

أكلَّ الدّهر حلٌّ وارتحال * أما يُبقي عليّ ولا يقيني

(٢) القَتَبُ رحْل صغير على قدر سنام البعير، والبطان: حزامٌ يشد على البطن، والوضينُ: بطانٌ عريض منسوج من السيور، ودرأتُ: شددْتُ.

"باختيارِهم" الأوضاعُ السائقةُ لا بالاختيارِ كالوجدانيَّاتِ، وبقوله: "الْمَحْمُودِ" الكفرُ، وقوله: "بالذاتِ" متعلقٌ بـ"سائق"، أي أنَّ الوضعَ الإلهيَّ بذاتِه سائقٌ؛ لأنَّه ما وُضِعَ إلا كذلكَ، ويُمكِنُ تعلُّقُه بالخيرِ، ومعناهُ أنَّ ذلكَ الخيرَ -وهو ما وَضَعَه الكريمُ- بذاتِه خيرٌ.

والإضافةُ في "شَرائعِ الدينِ" بيانيَّةٌ؛ لأنَّ ما شَرَعَه اللهُ تعالى لِعبادِهِ مِنَ الأحكامِ هو الدِّينُ، ويصحُّ أنْ تكونَ عَلى مَعْنَى اللَّامِ بأنْ يُرادَ بالشرائعِ الأحكامُ، وبالدِّينِ المِلَّةُ والإسلامُ، وفي إثباتِهِ الشرائعَ لِلدِّينِ استعارةٌ تخييليَّةٌ، ويصحُّ أنْ تَكونَ مِنْ إضافةِ المُشبَّهِ بهِ إلى المُشبَّهِ فيكونَ تشبيهًا مؤكَّدًا، أي وبيانِ الدِّينِ الذي هو لِعُذوبتِهِ كالشريعةِ كمَا قالَ الشاعرُ:

والرِّيحُ تَلْعَبُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى * ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

***

.. بالدلائلِ القطعيةِ وواضحاتِ البراهين.

الكلام على الدليل القطعي

(**بِالدَّلَائِلِ**) متعلقٌ بـ"بيان"، جمعُ "دلالة" -بتثليثِ الدَّالِ- بمعنى الدليلِ، قالَ ابنُ قاسم[1] في الآياتِ البيِّناتِ: الدليلُ بزنةِ فَعيل، وفَعيلٌ جمعُه على فَعَائِل غيرَ مَقيسٍ، وأجيبَ بأنَّه يُحتَمَلُ أنْ يُرادَ بالدلائلِ جمعُ دلالةٍ، والدلالةُ تَصدُقُ على الدليلِ كمَا قالَ المحليُّ، وجمعُه على دلائلَ حينئذٍ مَقيسٌ.

والدليلُ في اللغةِ المُرشِدُ إلى المَطْلوبِ، وفي اصطلاحِ أهلِ الميزانِ: ما يَلْزَمُ مِنَ العلمِ به العلمُ بشيءٍ آخرَ. وفي اصطلاحِ أهلِ الأصولِ: ما يمكنُ التوصلُ بصحيحِ النظرِ فيه إلى علمٍ أو ظنٍّ، فالأوَّلُ كالنصوصِ المُثْبِتةِ للبعثِ والحسابِ، والثَّاني كخبرِ (إنما الأعمال بالنيات)[2].

---

(١) العلامة شهاب الدّين أحمد بن قاسم العبّاديّ القاهريّ الشافعيّ، فاق الأقران، وسارت بتحريراته الرّكبان، ومن مصنّفاته: حاشية على شرح جمع الجوامع المسماة بالآيات البيّنات، وحاشية على شرح الورقات، وحاشية على المختصر في المعاني والبيان، وحاشية على شرح المنهج، توفي سنة ٩٩٤. انظر: الكواكب السائرة للغزي (١١١/٣)، وشذرات الذهب لابن العماد (٦٣٦/١٠، ٦٣٧).

(٢) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (١) [باب بدء الوحي- كيف كان بدء الوحي]، ومسلمٌ (١٩٠٧) [كتاب الإمارة- باب قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنية)] من حديث عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذَهَبَ أكثرُ المُتكلِّمينَ إلى أنَّه لا يُستعملُ الدليلُ إلَّا فيما يُؤدِّي إلى العلم، وأمَّا ما يُؤدِّي إلى الظَّنِّ فليسَ بدليلٍ، ثم هو -كما قال الزركشيُّ في البحرِ- ثلاثةُ أقسام: سمعيٌّ وعقليٌّ ووضعيٌّ، فالسمعيُّ كالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، والعقليُّ ما دلَّ بنفسِه كدلالةِ الحدوثِ على المُحدِثِ، والوضعيُّ ما دلَّ بإسنادِه كالعبارةِ الدالَّةِ على المعاني.

ووَصَفَها بقولِه: (**القَطْعِيَّةِ**) وهي الأدلةُ المؤدِّيةُ للعلم لِيُخرِجَ الدلائلَ الظنيَّةَ، ووُصِفتِ المؤدِّيةُ لِلْعلم بالقطعيَّةِ؛ لأنَّها تَقطَعُ معارضةَ الخَصْمِ، أو للقطعِ بمقدماتِها نحو: كلُّ إنسانٍ جسمٌ، وكلُّ جسمٍ مُركَّبٌ، فالإنسانُ مُركَّبٌ.

قالَ الشارحُ الهيتميُّ: فإنْ قُلْتَ: أكثرُ أدلةِ الشريعةِ ظنيةٌ؛ لأنَّ مُقدِّماتِها كذلك، نحو: الطمأنينةُ رُكْنٌ في الصلاةِ وكلُّ رُكْنٍ واجبٌ، والوضوءُ عبادةٌ وكلُّ عبادةٍ يُشترط لَها النيَّةُ، فكان يَنبغي له حذفُ "القطعيَّة"! قُلْتُ: إنَّما صارتْ ظنيَّةً بالنسبةِ إلَيْنا، بخلافِها لِمَنْ سَمِعَها مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فإنَّها بالنِّسْبةِ إليه قَطْعِيَّةٌ.

والكلامُ إنما هو في بيانِ الرسلِ للشرائعِ، وذلك جميعُه قَطْعيٌّ، ويصحُّ أنْ يُرادَ بدلائلِهم معجزاتُهم الدالةُ على صدقِهم، وكُلُّها قطعيَّةٌ لاستفادتِها من دليلٍ مؤلَّفٍ من مُقدِّمتَيْنِ قطعيَّتَيْنِ نحو: الرسلُ جاءوا بالمعجزاتِ، وكلُّ مَنْ جاءَ بالمعجزاتِ صادقٌ، فالرسلُ صادقونَ، أمَّا الصُّغرى فضروريَّةٌ حسيَّةٌ، والكبرى ضروريَّةٌ عقليَّةٌ؛ إذِ المعجزةُ خارقةٌ للعادةِ، وخرقُها لا يَقدرُ علَيْه إلَّا اللهُ -سبحانَهُ وتَعالى- وهو لا يُؤيِّدُ بذلك كاذِبًا، وقدْ أيَّدَهم بها فلمْ يَكونوا كاذِبينَ بل صادِقينَ.

(**وَوَاضِحَاتِ الْبَرَاهِينِ**) هو منْ إضافةِ الصفةِ للموصوفِ، أي البراهينِ الواضحةِ التي لا إشكالَ فيها، جمعُ "برهانٍ"، وهو لغةً: الحُجَّةُ وإيضاحُها، منَ "البرهنة" وهي البيضاءُ منَ الجواري، واصطلاحًا: ما تَرَكَّبَ منْ تصديقَيْنِ متى سَلِما لَزِمَهما لِذاتِهما قولٌ ثالثٌ كـ: "العَالَمُ مُتغيِّرٌ"، و"كلُّ مُتغيِّرٍ حَادِثٌ"، يَنتجُ "العَالَمُ حَادِثٌ"، وعطفُهُ عَلى ما قبْلَه منْ عطفِ المغايرِ؛ لأنَّ البرهانَ لا يكونُ إلَّا مُركَّبًا والدليلُ بخلافِه.

***

أحمدُه على جميعِ نعمه، وأسألُه المزيدَ من فَضلِه وكَرمِه، ..

(**أَحْمَدُهُ**) أي أصِفُه بجميعِ صفاتِه الجميلةِ، وذَكَرَ الحمدَ مرتَيْنِ للجمعِ بينَ نوعَيْه، الواقعِ في مقابلةِ صفاتِه تَعالى، والواقعِ في مقابلةِ نعمِه، وخَصَّ الأوَّلَ بالجملةِ الاسميَّةِ الدالَّةِ على الثُّبُوتِ والاستمرارِ، والثانيَ بالجملةِ الفعليَّةِ الدالَّةِ على التجدُّدِ والتعاقبِ، لقدمِ الصفاتِ واستمرارِها، وتجدُّدِ النِّعَمِ وتعاقبِها.

(**عَلَى جَمِيعِ نِعَمِهِ**) جمعُ نِعْمَةٍ -بكسرِ النُّونِ- بِمَعْنَى المُنْعَمِ بِه، وأمَّا بِفَتْحِ النُّونِ فهي التَّنَعُّمُ، قالَ تعالَى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧]، وبضمِّها: السُّرورُ، وجعلَ بعضُ المُحَقِّقِينَ النِّعمةَ في كَلامِ المصنفِ بِمَعْنَى الإنعامِ لا بِمَعْنَى المُنْعَمِ بِه؛ لأنَّ الأوَّلَ وَصْفٌ قائمٌ بذاته تعالى دائمٌ مستمرٌّ، والثاني أثرُه، والحمدُ عَلَى الإنعامِ الذي هو من أوْصافِ المُنعِمِ أبلغُ منهُ على أثرِه الواصلِ إلَيْنا، وفي الحديثِ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يرى أَثَرَ نِعْمته على عَبْدِه)[1]، واختلفَ الناسُ في ذلك، فمذهبُ الصوفيَّةِ أثرُ النعمةِ في الإعطاءِ للخلقِ، وإنْ عَرِيَ هو وَجَاعَ، ومذهبُ الفقهاءِ حسنُ الملبسِ.

والنعمةُ هي المنفعةُ الخاليةُ من الضررِ، ولذا اختُلِفَ: هلْ للهِ نعمةٌ على كافرٍ في الدُّنيا؟ فقيلَ: نَعَمْ، وعلَيْه القاضي الباقلانيُّ[2]، وصوَّبَه الرازيُّ[3] لقولِه تَعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا

(١) أخرجه أحمد (٦٧٠٨) [مسند المكثرين من الصحابة- مسند عبد الله بن عمرو بن العاص]، والترمذيُّ (٢٨١٩) [أبواب الأدب- باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده]، والحاكم (١٣٥/٤) [كتاب الأطعمة - إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده]، وغيرهم من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وحسَّنه الترمذي وصحَّحه الحاكم، وفي الباب عن أبي الأحوص، عن أبيه، وعمران بن حصين، وابن مسعود.

(٢) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ابن، المعروف بالباقلاني البصري؛ من كتبه: إعجاز القرآن، والإنصاف، ومناقب الأئمة، ودقائق الكلام، والملل والنحل، وهداية المرشدين، والاستبصار، وغيرها، تُوفي سنة ٤٠٣. انظر: "تاريخ بغداد" (٤٥٥/٢)، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان (رقم ٦٠٨).

(٣) الإمام المفسِّر أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، فخر الدين الرازيّ، ولد سنة ٥٤٣، أو ٥٥٤، من تصانيفه: تفسير مفاتيح الغيب، ولوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات، والمحصول في علم الأصول، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، وغيرها كثير، تُوفِّي سنة ٦٠٦. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ص ٤٦٢)، وطبقات الشافعية للسبكيِّ (٨١/٨، رقم ١٠٨٩).

نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وذَكَرَ آياتٍ كثيرةً فيها دلالةٌ لذلك، وقيلَ: لا، وعُزِيَ للأشعريِّ؛ لأنَّه وإنْ وَصَلَ إليْه نعَمٌ لَكنَّها قليلةٌ حقيرةٌ لا اعتدادَ بها بالنسبة إلى الضرر الدائم في الآخرةِ، ومِنْ ثَمَّ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ...﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨].

قالَ بعضُ المُحَقِّقينَ: والخِلافُ لفظيٌّ؛ إذْ لا خِلافَ في وصولِ النِّعمِ إليه، وإنَّما النزاعُ في أنَّه إذا حَصَلَ عقِبَها ذلك الضررُ الأبديُّ، هلْ تُسمَّى حينئذٍ في العرفِ نعمًا، أو لا؟ فهو نزاعٌ في مُجرَّدِ التسميةِ، واستبْعَدَهُ بعضُهم، وقدِ اختُلِفَ أيضًا: هلْ هو مُنْعَمٌ عليه في الآخرةِ، أو لا؟ فذَهَبَ إلى الأوَّلِ المعتزلةُ رائينَ أنَّه ما مِنْ عذابٍ إلَّا وفي قدرةِ اللهِ ما هو أشدُّ منه، لَكِنْ لا يُقالُ إنَّه في نعمةٍ، وذَهَبَ غيرُهم إلى الثاني.

قالَ بعضُهم: وأوَّلُ نعمةٍ أنعمَ اللهُ بها على العبدِ المؤمنِ مِنَ النِّعَمِ الدنيويَّةِ الحياةُ التي تَوَصَّلَ بها إلى إدراكِ اللَّذَّةِ التي لا يَعقُبُها ضررٌ لِأجلِها، خِلافًا للمعتزلةِ في أنَّ أوَّلَها الحياةُ في الجملةِ، ويَلْزَمُهم أنَّ أصحابَ النَّارِ المقيمينَ فيها مُنعَّمونَ، والإجماعُ على خِلافِه، وأعظمُ النِّعمِ الدنيويَّةِ الإيمانُ -خِلافًا للمعتزلةِ في أنَّه ليسَ مِنَ النعمِ البتةَ- لِأنَّه سببُ الخلودِ في الجنَّةِ دونَ سائرِ الأعمالِ، فوَجَبَ كونُه أعظمَها، وأعظمُ النعمِ الأخرويَّةِ مشاهدةُ الذاتِ العَلِيَّةِ في جنةٍ عاليةٍ قطوفُها دانيةٌ.

(**وَأَسْأَلُهُ**) مِنَ السؤالِ، وهو -كمَا قالَ الراغبُ- استدعاءُ معرفةٍ أو ما يؤدِّي إلى معرفةٍ، واستدعاءُ مالٍ أو ما يؤدِّي إلى مالٍ، فاستدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللِّسانِ، واليدُ خليفةٌ له بالكتابةِ والإشارةِ، واستدعاءُ المالِ جوابُه على اليدِ، واللِّسانُ خليفةٌ لها إمَّا بِوَعْدٍ أو بِرَدٍّ. والسؤالُ إذَا كانَ للتعريفِ تَعدَّى للمفعولِ الثاني تارةً بنفسه، وتارةً بالجارِّ؛ نحو: سألتُه كذا، وسألتُه عن كذا، وبـ"عَنْ" أكثر، نحو: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وإذَا كانَ السؤالُ لاستدعاءِ مالٍ فإنَّه يَتعدَّى بنفسِه أو بـ"مِنْ" نحو: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]. اهـ.

والسؤالُ منَ الأدنى لِلأعلى دعاءٌ، وعكسُه أمرٌ، ومنَ المُساوي الْتِماسٌ، وقالَ بعضُهم: السؤالُ والدعاءُ مُترادِفانِ، وليسَ بيْنَهما وبيْنَ الأمرِ والالْتِماسِ فرقٌ مِنْ جهةِ الصيغةِ التي تدلُّ على طلبِ الفعلِ دَلَالةً وَضْعِيَّةً، وإنما يَحصُلُ الفرقُ بالمُقارَنِ، وذلك لأنَّها إنْ قارنتِ الاستعلاءَ فهيَ أمرٌ، وإنْ قارنتِ التساويَ فهي الْتِماسٌ، وإنْ قارنتِ الخضوعَ فهيَ سؤالٌ ودعاءٌ، فالسؤالُ ما دلَّ على طلبِ الفِعْلِ دَلَالةً وضعيَّةً مقارنةً للخضوعِ، وهكذا.

(**الْمَزِيدَ**) اللامُ عِوَضٌ عنِ المضافِ إليهِ، أيْ مزيدِ النِّعمِ.

(**مِنْ فَضْلِهِ**) هو لغةً: ضدُّ النَّقْصِ، واصطلاحًا: العطاءُ عنِ اختيارٍ لا عنْ إيجابٍ كما تقولُ الحكماءُ، ولا عنْ وجوبٍ كما تقولُ المعتزلةُ. اهـ. ومَعْنى "لا عنْ إيجابٍ" أنَّه تعالى تَصدُرُ عنْه أفعالٌ باختيارِه لا بِغَيْرِه -كما تقولُ الحكماءُ- فإنَّهم يَجعلونَه علةً أو طبيعةً تحصُلُ آثارُها منْ غيرِ اختيارٍ كالعلَّةِ ومَعْلولِها، والطَّبيعةِ ومَطْبوعِهَا. ومَعْنى قولِه "ولا عنْ وجوبٍ" أنَّه لا يَجبُ عليهِ تعالى ذلك خلافًا للمعتزلةِ القائلين بأنَّه يَجبُ عليه فعلُ الصَّلاحِ والأصلحِ، ورُدَّ بأنَّه لوْ وَجَبَ عليهِ ذلكَ لَمَا وقعتْ محنةُ دُنيا وأُخرى، ولا تكليفٌ بأمرٍ أو نَهْيٍ.

وعَلى هذا فـ"مِنْ" للتَّعْديةِ، ويَصِحُّ كونُها للتعليلِ أيْ منْ أجلِ اتصافِه بالفضلِ وسائرِ صفاتِ الكمالِ؛ إذْ لا يُسأَلُ حقيقةً إلَّا مَنْ هو كذلكَ.

(**وكَرَمِهِ**) فيه الوَجْهانِ المذكورانِ، وهو بذلُ أيْ إعطاءُ الكثيرِ لِغيرِ علةٍ أيْ دنيويَّةٍ أو أُخْرَوِيَّةٍ، وضدُّه اللُّؤمُ، ويُطلَقُ الكرمُ بِمَعْنى إيثارِ الصَّفْحِ عنِ الجاني، ومِنْ عجيبِ ما يُقالُ: كُلُّ عيبٍ يُغطِّيهِ الكرمُ إلَّا عيبَ الدِّينِ، وحَكى اليافعيُّ في "روضِ الرياحينِ" أنَّ شخصًا أنشدَ لِيَحيى بنِ خالدٍ هذَيْنِ البيتَيْنِ فأعطاهُ بكُلِّ حرفٍ منَ الحروفِ أَلْفَ درهمٍ

سَأَلْتُ النَّدَى هَلْ أنت حُرٌّ فقَالَ لَا * ولَكنَّني عَبْدٌ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدِ
فَقُلْتُ شِراءً قَالَ لَا بَلْ وِراثَةً * تَوارَثَني مِنْ وَالِدٍ بَعْدَ وَالِدِ

***

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ الواحدُ القهّارُ، الكريمُ الغفّارُ، ..

(**وَأَشْهَدُ**) أيْ أَعْلَمُ وأتحقَّقُ وأُذْعِنُ، فلا يَكفي العلمُ منْ غيرِ إذعانٍ، كما هو شأنُ كثيرٍ منْ أهلِ الكتابِ الَّذينَ كانوا في زمنِه ﷺ.

(**أَنْ لَا إِلَهَ**) أيْ لا معبودَ بحقٍّ موجودٌ أو في الوجودِ.

(**إِلَّا اللهُ**) بالرفعِ عَلى البدليةِ منَ الضميرِ المُستترِ في الخبرِ المُقدَّرِ العائدِ على اسمِ لا عَلى المختارِ عندَ أبي حيَّانَ، وهو الأشهرُ، وقيلَ: على البدليَّةِ منْ "لَا إِلَهَ"؛ لأنَّ محلَّ "لَا" معَ اسمِها رُفِعَ بالابتداءِ، ويَجوزُ نصبُه على الاستثناءِ لا عَلى البدلِ من اسمِها؛ لأنَّ "لا" إنَّما تعملُ في نكرةٍ منفيَّةٍ، ولفظُ اللهِ معرفةٌ مُثبَتٌ. وأَتى بالشهادةِ هنا لمَا رواه أبو داودَ وغيرُه عنهُ ﷺ أنه قالَ: (كُلُّ خُطْبةٍ ليس فيها تشهُّدٌ فهي كاليدِ الجَذماءِ)[1].

(**الْوَاحِدُ**) في ذاتِه، فلا يَتبَعَّضُ ولا يَتجزَّأُ، وصفاتِه وأفعالِه، بِمعْنى عدمِ مشاركةِ غيرِه لَهُ فيهما، فهو الغنيُّ على الإطلاقِ، الذي لا يَحتاجُ إلى غيرِه.

قالَ بعضُ المحقِّقين: فإنْ قلتَ نَطَقَ القرآنُ بالواحدِ والأحدِ، فقالَ تَعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقالَ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فهلْ بيْنَهما فرقٌ منْ جهةِ المَعْنى؟ قلتُ: مِنَ الناسِ مَنْ يُفرِّقُ بيْنَهما معنًى، وهو الحقُّ، ومِنْهم منْ قالَ: الوحدةُ راجعةٌ إلى الذاتِ، والأحديَّةُ راجعةٌ إلى الصفاتِ، أيْ واحدٌ في ذاتِه، واحدٌ في صفاتِه، ومنهم مَنْ عَكَسَ، ومنهم مَنْ قالَ: الوحدةُ راجعةٌ إلى نفيِ المِثْلِ، والأحديَّةُ إلى نفيِ الجزءِ، ومنهم مَنْ عَكَسَ، كذا في شرحِ "الرسالةِ القشيريَّةِ" لِشيخِ الإسلامِ الأنصاريِّ[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠١٨) [مسند المكثرين من الصحابة- مسند أبي هريرة]، وأبو داود (٤٨٤١) [كتاب الأدب- باب في الخطبة]، والترمذيُّ وحسَّنه (١١٠٦) [أبواب النكاح- باب ما جاء في خطبة النكاح]، وابن حِبَّان (٢٧٩٦) [باب صلاة الجمعة- ذكر تمثيل المصطفى ﷺ، الخطبة المتعرية عن الشهادة باليد الجذماء] و(٢٧٩٧) [ذكر الزجر عن ترك المرء الشهادة لله جل وعلا في خطبته]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) شيخ الإسلام زكريَّا بن محمَّد بن أحمد بن زكريَّا الأنصاريُّ القاهريُّ الأزهريُّ قاضي القضاة الشافعيُّ، وُلِدَ سنة ٨٢٦، قرأ في جميع الفنون وأَذِنَ له شُيُوخه بالإفتاء والتدريس، وله تصانيف مشهورة في كلِّ فنٍّ من الفُنُون=

(**الْقَهَّارُ**) مِنَ القهرِ؛ لأنَّه ما مِنْ موجودٍ إلَّا وهو مَقهورٌ تحتَ قدرتِهِ، ومسخَّرٌ بقضائِه، أو الذي قَهَرَ الجبابرةَ في الدُّنْيا بالدَّمارِ، وقَهَرَ جميعَ أعدائِه في الآخرةِ بالبوارِ.

(**الْكَرِيمُ**) المُنعِمُ المتفضِّلُ الذي يُعطي من غيرِ مُساءلةٍ ولا وسيلةٍ، أو المتجاوزُ الذي يُقيلُ العثراتِ ويُضاعِفُ الأجرَ على الحَسَناتِ، أو الذي يُعطي ولا يُكدِّرُ عَطاهُ بالمنِّ والأذى، أو السيِّدُ الذي يَمتنِعُ عنْ أنْ يُنالَ بامتهانٍ، من قولِهم: أكرِمْ نفسَكَ عنِ الهوانِ.

وقدْ سَمَّى اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- القرآنَ كريمًا؛ لامتناعِه عنْ أنْ يُعارَضَ بمثْلِه، والكريمُ يُطلَقُ على اللهِ تعالى بخِلافِ السَّخيِّ لِعدمِ ورودِه ولإشعارِه بجوازِ الشُّحِّ.

(**الْغَفَّارُ**) مِنَ الغَفْرِ، وهو سَتْرُ الشيءِ وتغطيتُه، أيْ ستَّارُ القبائحِ والذُّنوبِ بإسبالِ السترِ علَيْها في الدُّنيا، وتركِ المؤاخذةِ بِها في العُقْبى، ويُقالُ لِجُبَّةِ الرأسِ مِغْفَرٌ؛ لأنَّه يَغْفِرُ الرأسَ أيْ يُغَطِّيهِ، والعربُ تقولُ: اصبغْ ثوبَكَ فإنَّه أغْفَرُ للوَسَخِ.

واعلمْ أنَّ الغفورَ أبلغُ مِنَ الغافِرِ؛ لأنَّ "فَعُولًا" موضوعٌ لِلْمُبالغةِ، والغَفَّارُ أبلغُ مِنَ الغفورِ؛ لأنَّه للتكثيرِ بغيرِ حصْرٍ، فإذا سَتَرَ اللهُ علَى عبدِه مرةً فهو غافِرٌ له، وإنْ سَتَرَ عليه مرارًا فهو غَفُورٌ، وإنْ أَدامَ السَّتْرَ علَيْه فهو الغَفَّارُ لهُ، فإذا سَتَرَ على عبدِه في الدُّنْيا وعَفا عن عقوبتِه في الآخرةِ، ولم يفضَحْهُ بذنبِه فهو غَفَّارٌ له، وقيلَ: مَنْ غَفَرَ له بعضَ ذنوبِه في الآخرةِ وعاقَبَه على الباقي فهو غافِرٌ له، وإنْ غَفَرَ له أكثرَ ذنوبِه وعاقَبَه على القليلِ فهو غَفُورٌ له، وإنْ غَفَرَ له جميعَ ذنوبِه فهو غَفَّارٌ له.

وبينَ "الغَفَّارِ" و"القَهَّارِ" طِباقٌ معنويٌّ لِإشعارِ الأوَّلِ بالقهرِ، واستحضارُه يَبْعَثُ على الخوفِ، والثاني بالرحمةِ، واستحضارُها يَبعثُ على الرجاءِ.

***

=انتفع النَّاس بها وتنافسوا فيها، وكَثُرت تلامذته وألحق الأحفادَ بالأجداد، توفي سنة ٩٢٦. انظر: الضوء اللامع (٢٣٤/٣) وشذرات الذهب (١٨٦/١٠)، والبدر الطالع (٢٥٢/١).

وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه وحبيبُه وخليلُه، ..

(**وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا**) علمٌ منقولٌ لا مُرتَجَلٌ مِن اسم مفعولِ المضعّف. مُشتقٌ مِنَ الحمدِ الذي هو ضدُّ الذَّمِّ، سمَّاه به جدُّه عبدُ المطَّلبِ بإلهامٍ مِنَ الله ليكون على وِفْق تسميةِ الله تعالى له به قبلَ الخلقِ بألفَيْ عام -على ما وَرَدَ عندَ أبي نعيم[1]- وليُطابقَ اسمُه صفته لكثرةِ خصالِه المحمودةِ، ورجاءَ أنْ يحمدَه أهلُ السمواتِ والأرضِ، وقدْ حقَّق الله رجاءه. و"مُحمَّد" أبلغُ مِنْ "محْمُود" باعتبارِ فعْليهما، وإنْ تَساوى الاسمانِ في عددِ الحروفِ؛ إذ الأوَّلُ من الثُّلاثيِّ المضعَّفِ، والثاني مِنَ الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ، وذَكَرَ المصنِّفُ هذا الاسمَ دونَ غيرِه؛ لأنَّه أشهرُ أسمائِه، ولِذكرِه في القرآنِ مُتكرِّرًا دونَ غيرِه، ولِشرفِه؛ إذْ هو مشتقٌّ مِن اسمِه -تعالى- كما قال حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وشَقَّ لَهُ مِن اسْمِهِ لِيُجلَّهُ * فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ

رَوَى ابنُ عساكر عنْ كعبِ الأحبارِ: "أنَّ آدمَ رآه مكتوبًا على ساقِ العرشِ، وفي السمواتِ، وعلى كُلِّ قصرٍ وغرفةٍ في الجنةِ، وعلى نحورِ الحورِ العينِ، وعلى ورقِ شجرةِ طوبى، وسدرةِ المنتهى، وأطرافِ الحجبِ، وبينَ أعينِ الملائكة"[2]. ولم يُسَمَّ به أحدٌ قبلَه، لكنْ لما قَرُبَ زمنُه ﷺ ونَشَرَ أهلُ الكتابِ نعتَه، وشَاعَ قبلَ ظهورِه للوجودِ الخارجيِّ أنَّ نبيًّا يُبعثُ اسمُه محمدٌ سَمَّى قليلٌ مِنَ العربِ أولادَهم رجاءَ النبوَّةِ لهم، والله أعلمُ حيثُ يَجعلُ رِسالتَه، ومَنَعَ الله كُلًّا منهم أنْ يدَّعِيَ النُّبوَّةَ أو يدَّعيها له أحدٌ أو يَظهر عليه سببٌ يُشكِّكُ أحدًا في أمرِه، وعدتُهم إما خمسةٌ أو ستةٌ أو أربعةَ عشرَ أو خمسةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ، والذي اقتصرَ عليه الشارحُ الهيتميُّ أنهم خمسةَ عشرَ -كما بيَّنه بعضُ المحقِّقينَ. قالَ شيخُ الإسلامِ: وأمَّا "أحمدُ" فلمْ يَتَسَمَّ به أحدٌ قبلَه فيما أعْلَمُ.

(**عَبْدُهُ**) قدَّمَه امتثالًا لما في الحديثِ الصحيحِ: (ولكن قولوا عبد الله ورسوله)[3]، وللردِّ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٤٩٨) وأبو نعيم في الحلية (٧/٢٥٦) [ترجمة مسعر بن كدام] من حديث جابر.

(٢) "تاريخ دمشق" لابن عساكر (٢٣/٢٨١) [ترجمة: شيث بن آدم].

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٤٤٥) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب قول الله ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من=

على اليهودِ والنصارى حيثُ زعمتِ الأولى أنَّ العُزَيْرَ ابنُ اللهِ، والثانيةُ أنَّ المسيحَ ابنُ اللهِ، تعالى اللهُ عمَّا يقولُ الظالمونَ علوًّا كبيرًا، وانظرْ إلى أوَّلِ مقالةِ المسيحِ لمَّا طلبتْ منه أمُّه إجابةَ القومِ عنها وهيَ ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، ولأنَّ العبوديةَ أشرفُ أوصافِه -عليه الصلاةُ والسلامُ- ولذلك وُصِفَ بها في أشرفِ المقاماتِ فذكرَه في إنزالِ القرآنِ عليه في: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وفي مقامِ الدعوةِ [إليه] ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وفي مقامِ الإسراءِ والوحيِ في ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، فلو كانَ له وصفٌ أشرفُ منه لذَكَرَه في تلكَ المقاماتِ العليَّةِ.

العبودية أشرفُ أوصافِه ﷺ

وليسَ للمؤمنِ صفةٌ أتمَّ ولا أشرفَ منَ العبوديةِ، ولقدْ أحسنَ القاضي عياضٌ حيثُ قالَ:

وممَّا زادَني شرَفًا وتِيهًا * وَكِدْتُ بأَخْمَصِي أطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي * وأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَّا

وعنْ أحمدَ أخي الغزاليِّ أنَّ القارئَ قرأَ عندَه ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] فقالَ: شرَّفهم بياءِ الإضافةِ إلى نفسه بقولِه ﴿يا عبادي﴾، ثم أنشدَ:

وهَانَ عَلَيَّ الْيَوْمَ فِي جَنْبِ حُبِّهَا * وَقَوْلُ الأَعَادِي إِنَّهُ لَخَلِيعُ
أَصَمُّ إِذَا نُودِيتُ بِاسْمِي وَإِنَّنِي * إِذَا قِيلَ لِي يَا عَبْدَهَا لَسَمِيعُ

وقدْ خيَّرَه اللهُ تعالى بينَ أنْ يَكونَ نبيًّا مَلِكًا أو نبيًّا عَبْدًا، فاختارَ الثانيَ، ومِنْ ثَمَّ لَمْ يَقُلْ لِشيءٍ فعلَه خادمُه: أُفٍّ قطْ، ولا ضربَ عبدًا ولا أَمَةً[1]، وهذا شيءٌ لا يَسَعُه الطوقُ البشريُّ إلَّا بتأييدٍ إلهيٍّ.

=أهلها﴾]، وغيره من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) أخرج مسلم (٢٣٠٩) [كتاب الفضائل]، وغيره عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفا قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟)، وأخرج مسلمٌ أيضًا (٢٣٢٨) [كتاب الفضائل – باب مباعدته ﷺ للآثام ..]، وغيره من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله ...).

(وَرَسُولُهُ) الواوُ فيه للعطفِ، "فَعَولٌ" بِمَعْنى مَفْعُولٍ، وهو لغةً: المُرْسَلُ، واصطلاحًا: مرَّ تفسيرُه كالنبيِّ، وآثرَ ذكرَهُ إشارةً إلى ردِّ ما عليهِ ابنُ عبدِ السلامِ منْ تفضيلِ النبوةِ على الرِّسالةِ، وقدْ سَلَفَ ردُّه، والإضافةُ فيهِ وفيما قبلَه للتشريفِ.

(وَحَبِيبُهُ) "فَعِيلٌ" بِمَعْنى الفَاعِلِ، و"حَبِيب" يَأتِي بِمَعْنَى "مُحِبٌّ" كأليمٍ بِمَعْنى "مُؤلمٍ"، قالَ الشاعرُ:

الكلام عن المحبة والخِلة

إنِّي تودُّكم نَفسِي وأمنحُكم * حُبِّي وربَّ حبيبٍ غيرُ مَحْبُوبِ

وقيلَ: بِمَعْنى "المفعولِ" أيْ محبوبِه الأعظمِ، مأخوذٌ منَ الحبَّةِ، وهيَ خالصُ كُلِّ شيءٍ، وقيلَ: منْ "حَبَبِ الأسنانِ" وهو صفُّ بياضِها ونضارتِها، فهي صفاءُ المودَّةِ، وقيلَ: من الحُبابِ، وعليه فهي غليانُ القلبِ وثورانُه عندَ التعطشِ إلى لقاءِ المحبوبِ.

(وَخَلِيلُهُ) الأعظمُ، "فَعِيلٌ" بِمَعْنى مُفَاعِلٍ، وهو الذي يُخاللُكَ أيْ يُوافِقُكَ في خِلالِكَ أيْ خِصالِكَ، أوْ يُسايرُكَ في طريقِكَ، والخَلُّ الطريقُ في الرملِ، أو يَسُدُّ خللَكَ كما يَسُدُّ خَلَلَهُ، أو يُدخِلُكَ خِلالَ منزلِه، أو الذي تَخَلَّلَ الحُبُّ شغافَ قلبِه، مِنَ الخَلةِ -بالفتحِ- وهي الحاجةُ، لانقطاعِه إلى ربِّه وقصرِ حاجتِه عليه، ولذا وُصفَ بها إبراهيمُ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- لمَّا قصرَ حاجتَهُ عَلى ربِّه حينَ جاءَه جبريلُ -علَيْهِما الصلاةُ والسلامُ- وهو في المَنجنيقِ -بِفتحِ الميمِ وكسرِها- لِيُرمَى به في النَّارِ، فقالَ له: أَلَكَ حاجةٌ؟ فقالَ: أمَّا إليكَ فَلا[1].

أوْ مِنَ الخُلَّةِ -بالضمِّ- وهيَ صفاءُ المودَّةِ وتخلُّلُها في القَلْبِ فلا تدعُ فيه محلًّا إلَّا ملأَتْهُ، وهيَ تُوجِبُ الاختصاصَ بالأسرارِ كما قالَ أبو العلاءِ المعرِّي:

والخِلُّ كَالْمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ * مَعَ الصَّفَاءِ ويُخْفِيهَا مَعَ الْكَدَرِ

أوْ مِنَ الخِلَّةِ -بالكسرِ- وهي نبتٌ تَستحليه الإبلُ، ومنْ أمثالِهم: الخَلَّةُ خُبْزُ الإبلِ، والحِمضُ فاكهتُها. والثاني هو المختارُ - كما قالَ الواحديُّ -؛ لأنَّ اللهَ تعالى خليلُ محمدٍ،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الرِّقَّة والبكاء" (١٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠)، وغيرهما، عن مقاتل وسعيد من قولهما، وروي عن غيرهما، ولا أصل له مرفوعًا. وذكره البغويُّ في "التفسير" (٣/ ٢٩٤) بصيغة التمريض عن كعب.

ومحمدٌ خليلُ اللهِ، ولا يَجوزُ أنْ يُقالَ: اللهُ تعالى خليلُ محمدٍ مِنَ الخَلَّةِ -بالفتح- التي هي الحاجةُ.

واختُلِفَ: هلْ درجةُ المحبَّةِ أرفعُ أو الخلةِ؟ ثالثُها هما سواءٌ، واحتُجَّ للأولِ بخبرِ البيهقيِّ (أنَّه تعالى قالَ ليلةَ الإسراءِ: يا محمدُ سلْ تُعطَ، فقالَ: يَا رَبِّ إنَّكَ اتخذتَ إبراهيمَ خَليلًا، وكَلَّمتَ موسى تكليمًا، فقالَ له: ألمْ أُعطِكَ خيرًا منْ هَذا؟ ... إلى قولِه: واتخذتُكَ حبيبًا)، أو ما في معناهُ[1]، وبأنَّ الحبيبَ وُصِلَ بلا واسطةٍ بخلافِ الخليلِ، قالَ اللهُ تعالى في حقِّ نبيِّنا ﷺ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، وقالَ في حقِّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، والخليلُ قالَ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ [الشعراء: ٨٧]، والحبيبُ قِيلَ له: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ [التحريم: ٨]، والخليلُ قالَ في المحنةِ: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، والحبيبُ قِيلَ له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤]، والخليلُ قالَ: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، والحبيبُ قِيلَ له: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أُعطِيَ بلا سؤالٍ، والخليلُ قالَ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، والحبيبُ قِيلَ له: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ورجَّحَ الزركشيُّ تَبَعًا لابنِ القيِّمِ وغيرِه الثانيَ؛ لأنَّ المصطفى ﷺ أخبرَ أنَّ اللهَ اتخذَه خليلًا، ونَفَى أنْ يَكونَ له خليلٌ غيرُ ربِّه[2]، مع إخبارِه بحبِّه لعائشةَ وأَبيها[3]، ..

---

(١) ذكره بهذا اللفظ أيضًا ابن علَّان في "شرح رياض الصالحين" (٣١/١) نقلا عن ابن القيم يعزوه للبيهقيِّ، ولم أجده فيما اطلعت عليه من كتب البيهقيِّ. وأخرج البيهقيُّ في "الشعب" (١٤١٣) [باب في حب النبي ﷺ - فصل في براءة نبينا ﷺ في النبوة] عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: (اتَّخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلًا، وموسى نجيًّا، واتخذني حبيبًا، ثُمَّ قال: وعزَّتي وجلالي لأوثِرنَّ حبيبي على خليلي ونَجيِّي)، انفرد به مسلمة بن عليٍّ، وهو متروك، انظر: "تهذيب التهذيب" لابن حجر (١٤٧/١٠).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ واللفظ له (٣٦٥٤) [كتاب أصحاب النبي- باب قول النبي ﷺ: «سدوا الأبواب، إلا باب أبي بكر»]، ومسلمٌ (٢٣٨٢) [كتاب فضائلِ الصحابة - باب من فضائل أبي بكر الصديق]، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه: (ولو كنتُ متخذًا خليلًا غير ربِّي لاتخذتُ أبا بكر...) الحديث، وأخرجه مسلمٌ عن ابن مسعودٍ مرفوعًا بلفظ: (ألا إنِّي أبرأ إلى كلِّ خلٍّ مِن خلِه، ولو كنتُ متخذًا خليلًا، لاتخذتُ أبا بكر خليلًا، إنَّ صاحبكم خليل الله).

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٦٦٢) [كتاب فضائل الصحابة - باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»]، ومسلمٌ (٢٣٨٤) [كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي بكر الصديق]، وغيرهما من=

.. وفاطمةَ وبَنيها[1]، ولِعمرَ بنِ الخطابِ[2] وكثيرٍ منَ الصحابةِ وأهلِ بيته.

قالَ ابنُ القيِّم: وظنٌّ أنَّ المحبةَ أرفعُ، وأنَّ إبراهيمَ خليلٌ ومحمدٌ حبيبٌ غلَطٌ وجهلٌ، وأمَّا ما احتجَّ به الأوَّلون مما مرَّ فإنه إنَّما يَقتضي تفضيلَ ذاتِ محمدٍ عَلى ذاتِ إبراهيمَ -علَيْهما الصلاةُ والسلامُ- معَ قطعِ النظرِ عنْ وصفِ المحبَّةِ والخُلَّة، وهذا لا نزاعَ فيه، إنما النِّزاعُ في الأفضليَّةِ المستندةِ إلى أحدِ الوصفَيْن، والذي قامتْ عليهِ الأدلَّةُ استنادُها إلى وصفِ الخُلَّةِ الموجودةِ في كُلٍّ مِنَ الخلتينِ، فَخُلَّةُ كُلٍّ منهما أفضلُ مِنْ محبَّتِه، واختصَّا بها لتوفُّرِ مَعْناها السابقِ فيهما أكثرَ من بقيةِ الأنبياء، ولكونِ هذا التوفُّرِ في نبيِّنا أكثرَ منهُ في إبراهيمَ كانتْ خُلَّتُه أرفعَ مِنْ خُلَّةِ إبراهيمَ -صلَّى اللهُ عليْهِمَا وسلَّمَ. اهـ. وفيهِ دلالةٌ على ثبوتِ وصفِ الخُلَّةِ والمحبَّةِ لِكُلٍّ منهما لِقولِه: "فخُلَّةُ كلٍّ منْهما أفضلُ من محبَّته".

أفضلُ المخلوقين ..

(أَفْضَلُ الْمَخْلُوقِينَ) كُلِّهم مِنَ الجنِّ والإنسِ والملائكةِ حتَّى أمينِ الوحيِ لِخبرِ: (أنا أكرَمُ الأوَّلين والآخِرينَ على اللهِ ولا فَخْرَ)[3]، وفي رواية: (أنا أكرمُكم على رَبِّي)[4]، وقولِه: (أنا سيِّدُ الناسِ يومَ القِيامةِ)[5]، وقولِه: (أنا سيِّدُ ولَدِ آدمَ يومَ القيامة، ولا فَخْرَ، وبيدي لواءُ الحَمْدِ، ولا

=حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: (عائشة)، فقلت: من الرجال؟ فقال: (أبوها)، قلت: ثمَّ مَن؟ قال: (ثمَّ عمر بن الخطاب) فعدَّ رجالًا.

(١) أخرجه الترمذيُّ وحسَّنه (٣٨٧٤) [أبواب المناقب- باب ما جاء في فضل فاطمة]، وغيره عن جميع بن عمير التيمي، قال: دخلت مع عمتي على عائشة فسئلت أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة، فقيل: من الرجال؟ قالت: زوجها. وأخرج الترمذيُّ (٣٧٨٢) [أبواب المناقب]، وغيره عن البراء، أنَّ النبيَّ ﷺ أبصر حسنًا وحسينًا فقال: (اللهمَّ إني أحبهما فأحبهما).

(٢) تقدَّم في حديث السيِّدة عائشة المتقدِّم.

(٣) أخرجه الدارميُّ (٥١) [باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل]، والترمذيُّ (٣٦١٦) [أبواب المناقب- باب في فضل النبي]، وغيرهما من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البيهقيُّ بإسناد واه في الدلائل (١٠/١٧٠)، وفيه: (وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر).

(٥) أخرجه بهذا اللفظ البخاريُّ (٤٧١٢) [كتاب تفسير القرآن- باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا﴾]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَخْرَ، وما مِن نبيٍّ آدمَ فمَنْ سِواه إلَّا تحتَ لِوائي)[1]، ومنْ آخرِ هذا وصريحِ الأَوَّلَيْنَ عُلِمتْ أفضليَّتُه عَلى آدمَ، وقولُه: (أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ) إمَّا للتأدُّبِ معَ آدمَ أو أنه علِمَ فضلَ بعضِ بَنيه عليهِ كإبراهيمَ، فإذا فَضَلَ نبيُّنا الأفضلَ منْ آدمَ فقدْ فضَلَ آدمَ بالأَوْلى، ولفظُ "وَلَد" في الحديثِ يُطلق عَلى الواحدِ والجماعةِ فيعمُّ -كما قال التلمسانيُّ- فاندفعَ ما قيل إنَّه لا يَقْتضي العمومَ إلَّا لو قالَ "أَوْلاد"، وأمَّا التفضيلُ بينَ باقي الأنبياءِ والملائكةِ ففيهِ طرقٌ سَيأتي ذكرُها.

التفضيل بين الأنبياء

ولا يُنافي التفضيلُ بينَ الأنبياءِ -علَيْهم الصلاةُ والسلامُ- قولُه تَعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ولا قولُه ﷺ: (لا تُفضِّلُوني)، وفي رواية: (لا تُخيِّروني على الأنبياء)، ولا قولُه أيضا: (لا تُفضِّلُوني بينَ الأنبياء)[2]، ولا قولُه: (لا تُخَيِّروني على مُوسَى)[3]، ولا قولُه: (ما ينبغي لِعبدٍ أنْ يقولَ أنا خَيْرٌ مِن يُونُس بن مَتَّى)[4]، ولا قولُه: (مَن قالَ أنا خيرٌ مِن يُونس ابنِ متَّى فقَدْ كَذَب)[5]، وذلك لأنَّ عدمَ التفرقةِ بيْنَهم إنَّما هو في الإيمانِ بهم وبما جاؤوا به، وأما النهيُ فإنما هو عنْ تفضيلٍ في نفسِ النبوةِ أو الرسالةِ فإنَّ الأنبياءَ كُلَّهم مُشترِكونَ في ذلكَ من غيرِ تفاوتٍ، أو عنْ تفضيلٍ يُؤدِّي إلى تنقيصِ المفضولِ، أو يُؤدِّي إلى الخصومةِ والفتنةِ، أو قالَه ﷺ تواضعًا واحترامًا لإخوانِه الأنبياءِ، أو قالَهُ قبلَ أن يُعلِمَه اللهُ تعالى بتفضيلِه علَيْهم، وإنِ استُبْعِدَ بأنه رواهُ أبو هريرةَ، وما أسلمَ إلَّا سنةَ سبعٍ، فيُبْعُدُ أنَّهُ لم يُعْلِمْهُ اللهُ بتفضيلِه علَيْهم إلَّا بعدَ هذا.

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الترمذيُّ وحسَّنه (٣٦١٥) [أبواب المناقب].

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسيُّ (٢٤٨٧) [مسند أبي هريرة- ما روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: (لا تُفضِّلوا بين أنبياء الله)، والحديث متفقٌ عليه من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاريُّ (٦٩١٦) [كتاب الديات- باب إذا لطم المسلم يهوديا عند الغضب]، ومسلمٌ (٢٣٧٤) [كتاب الفضائل- باب من فضائل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ]، وغيرهما بلفظ: (لا تُخَيِّروا بين الأنبياء).

(٣) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٢٤١١) [كتاب الخصومات- باب ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود]، ومسلمٌ (٢٣٧٣) [كتاب الفضائل- باب من فضائل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ]، وغيرهما من حديث أبي هريرة.

(٤) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٣٤١٣) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب قول الله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾]، ومسلمٌ (٢٣٧٧) [كتاب المساقاة- باب كتابة القطائع]، وغيرهما من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ: البخاريُّ (٤٦٠٤) [كتاب تفسير القرآن- باب قوله: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾]، و(٤٨٠٥) [كتاب تفسير القرآن- باب ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾]، وغيره.

وأجابَ جمعٌ كمالكٍ وإمامِ الحرمينِ عنْ خبرِ يونسَ بما حاصِلُه نفيُ توهُّمِ التفاوتِ بيْنَهما في القُرْبِ لاختلافِ محلِّهما الصوريِّ برفعِ نبيِّنا ﷺ إلى قابِ قوسَيْنِ، ونزولِ يونسَ إلى قعرِ البحرِ، أيْ لا تتوهَّموا منْ هذا التفاوتِ تفاوتًا في القربِ والبعدِ منَ اللهِ تعالى، بل نِسبةُ كُلٍّ إليهِ واحدةٌ، وإنْ تَفاوَتَ مكانُهما لِتعاليه عنِ الجهةِ والمكانِ.

وحَكى السهيليُّ عنْ شيخِه القاضي أبي بكرِ بنِ العربيِّ[1] عنْ شيخه أبي المعالي[2] أنَّ سائلًا منَ العوامِّ سألَ أبا المعالي في مجلسه عنِ الدليلِ على أنَّ اللهَ تعالى لا يُوصفُ بالجهةِ ولا بحدودِها فقال: نَعَمْ، قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: (لا تُفضِّلوني على يُونُسَ بنِ مَتَّى)، فقالَ الرجلُ: أنا أريدُ أنْ أعرِفَ وجهَ الدليلِ، فقالَ ضافني الليلةَ ضيفٌ له عليَّ ألفُ دينارٍ، وقدْ شَغلتْ بالي، فلوْ قضيتَ عنِّي قُلتُه، فقامَ رجلانِ منَ التجارِ فقالا: في ذمتِنا، فقالَ أبو المعالي: لو كانَ رجلٌ واحدٌ ضمِنَها لكانَ أحبَّ إليَّ، فقالَ أحدُ الرجلَيْنِ أو غيرُهما: هيَ في ذِمتِي، فقالَ: نَعَمْ، إنَّ اللهَ -سبحانَهُ وتَعالى- أسرى بعبدِه إلى فوقِ سبعِ سمواتٍ حتى سمِعَ صريرَ الأقلامِ، فلمْ يكنْ سيدُنا محمدٌ ﷺ في علوِّ مكانه بأقربَ إلى اللهِ تعالى منْ يونسَ في بُعْدِ مكانِه، فإنَّ اللهَ تعالى لا يُتقرَّبُ إليه بالأجرامِ والأجسامِ، وإنما يُتقرَّبُ إلَيْه بأحسنِ الأعمالِ.

***

(١) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربيّ: ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨، من كتبه: العواصم من القواصم، وعارضة الأحوذي في شرح الترمذي، وأحكام القرآن، والقبس في شرح موطأ ابن أنس، والناسخ والمنسوخ، والإنصاف في مسائل الخلاف، وغيرها، توفي سنة ٥٤٣. انظر: وفيات الأعيان (٢٩٦/٤)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٦١/٤)، وشجرة النور (رقم ٤٤٤).

(٢) لعل العبارة "شيخ شيخه"، وهو أبو المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله، الجويني، الفقيه الشافعي، المعروف بإمام الحرمين؛ أعلم المتأخّرين من أصحاب الإمام الشافعي، ولد سنة ٤١٩، خرج إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين وبالمدينة، يدرِّس ويفتي، ومن تصانيفه: نهاية المطلب في دراية المذهب، الشامل في أصول الدين، والبرهان في أصول الفقه، وتلخيص التقريب وغيرها، توفي سنة ٤٧٨. انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٣/١٦)، وطبقات الشافعية للسبكي (١٦٥/٥).

المُكرَّمُ بالقرآنِ العزيزِ، المُعجزةِ المستمرةِ على تعاقُبِ السنين، ..

(**المُكَرَّم**) علَى غيرِه مِنْ سائرِ الرسلِ (**بالقُرْآنِ**) العظيمِ الذي لا يَأتيهِ الباطلُ مِنْ بَيْنِ يديْهِ ولا مِنْ خلفِهِ، وهو الكلامُ المُنزَّلُ عليهِ ﷺ للإعجازِ بسورةٍ منه، المُتعبَّدُ بتلاوتِه، مصدرُ "قَرأَ" إذَا جُمِعَ، لجمعِه السورَ المختلفةَ وعلومَ الأولينَ والآخرينَ، والمقرأةُ الحوضُ إذَا جُمِعَ فيه الماءُ، وسُمِّيَتِ القَرْيَةُ قَرْيَةً لِجَمْعِها أهلَها، وقيلَ: مصدرُ "قَرَأَ" إذَا أَلَّفَ، لِحُسْنِ نظمِه وتأليفِه.

(**العَزِيزِ**) مِنْ "عَزَّ الشيءُ يَعِزُّ" -بكسرِ العينِ في المضارِعِ- إذَا لَمْ يكنْ له نظيرٌ، فهو البالغُ في العزَّةِ والعظمةِ الغايةَ التي لا تُرتقى، أو بِمَعْنى الغالبِ مِنْ قولِهم: "عزَّ فلانٌ يعُزُّ" -بضمِّ العينِ- إذا غلَبَهُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي غلبني، وفي المثلِ: "مَنْ عَزَّ بَزَّ" أيْ مَنْ غَلَب سَلَب، لأنَّه غَلَبَ فصحاءَ العربِ وبلغاءَهم وأعجزَهم، أو بِمَعْنى المنيعِ، والعزَّةُ المَنَعَةُ، ومنهُ قولُه تَعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩] أي المَنَعَةَ، لامتناعِه لرصافةِ مبانيه وصحةِ معانيه مِنَ الطَّعنِ فيه.

(**المُعجزةِ**) اسمُ فاعلٍ مأخوذٌ مِنَ العَجْزِ المُقابِلِ لِلقُدرةِ، وهيَ مِنْ حيثُ هيَ -كما قال الرازيُّ-: "أمرٌ خارقٌ للعادةِ مقرونٌ بالتحدِّي معَ عدمِ المعارضة".

تعريف المعجزة

قالَ السعدُ: إنما قالَ "أمرٌ" لِيتناولَ الفعلَ كانفجارِ الماءِ مِنْ بينِ أصابعِه الشريفة، وعَدَمَهُ كعدمِ إحراقِ النارِ إبراهيمَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، ومَنِ اقتصرَ على الفعلِ جعلَ المُعجزَ ها هنا كونَ النارِ بردًا وسلامًا وبقاءَ الجسمِ عَلى ما كانَ عليهِ مِنْ غيرِ احتراقٍ.

واحترزَ بقولِه: "المقرونُ بالتحدِّي" عن الخارقِ الواقعِ من غيرِ تحدٍّ، فيُسمَّى كرامةً، والخارقِ المتقدِّمِ على التحدِّي كتسليمِ الحجرِ عليهِ[1] ﷺ وكإظلالِ الغمامِ لهُ[2]، ..

---

(١) تقدَّم تخريجه، انظر ص ٤٤.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنَّف" (٣٦٥٤١) [كتاب المغازي- ما رأى النبي ﷺ قبل النبوة]، والترمذيُّ (٣٦٢٠) [أبواب المناقب- باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ]، والحاكم في "المستدرك" (٢/٦١٥) [كتاب التاريخ] وغيرهم من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسَّنه الترمذيُّ وصحَّحه الحاكم.

.. فإنَّهُ لم يقعْ له ﷺ إلا قبلَ النُّبوَّةِ خلافًا لمنْ وَهَمَ فيه، فيُسمَّى إرهاصًا أيْ **تأسيسًا** للنبوَّةِ، مِنْ "أرهصتُ الحائطَ" إذا أسستُه، والمتأخرِ عنهُ نحو ما رويَ بعد وفاته منْ نُطقِ **بعضِ** الموتى بالشهادتَيْنِ وشبهه مما تواترَتْ به الأخبارُ(١)، فيُسمَّى كرامةً.

والتحدِّي دعوى الرسالةِ، وقيلَ: طلبُ المعارضةِ لشاهدِ الدعوى، والراجحُ الأولُ، **ولا** يُشترَطُ في صدقِ الدعوى تعيينُ الخارقِ، بل لو قالَ: "أنا آتي بخارقٍ لا يقدرُ عليهِ غيري" **كفى،** والمتبادرُ منَ السياقِ أن ذلك الخارقَ موافقٌ للدَّعوى، فيخرجُ الخارقُ المكذِّبُ للمتحدِّي **به،** كما وَقَعَ لمسيلمةَ اللعينِ أنَّه تَفَلَ في بئرٍ لِيكثُرَ ماؤها فغارَ، ودعى لِشخصٍ أعورَ فعميتْ **عينُهُ** الصحيحةُ(٢) فيُسمَّى استدراجًا وإذلالًا وإهانةً.

ويَخرُجُ به أيضًا ما إذا قال: معجزتي نُطْقُ هذا الحجرِ، فنطق بأنَّهُ مُفترٍ كذَّابٌ، **بخلاف ما** إذَا قالَ: إحياءُ هذا الميِّتِ فنَطَقَ بأنه كاذبٌ؛ لأنَّ المعجزةَ في إحيائِه، وهو بعدَه مختارٌ قدَّمَ **الكفرَ** على الإيمانِ. وقدْ يَظهَرُ الخارقُ على يدِ عاميٍّ تخليصًا له من فتنة، ويُسمَّى معونةً. واحترزَ **بِقيْدِ** عدمِ المعارضةِ عنِ السِّحرِ والشعبذةِ، فإنَّه يمكنُ مُعارَضتُهما بِتعلُّمِهما.

ثم إنَّ قيدَ التحدِّي لا بدَّ منه، لكن لا يُشترَطُ عندَ كلِّ معجزةٍ؛ لأنَّ أكثرَ معجزاتِه ﷺ صدرَ منْ غيرِ تحدٍّ، بلْ قِيلَ: لمْ يَتحدَّ بغيرِ القرآنِ وتمنِّي الموتِ، وإنما الشرطُ وقوعُها أي **المعجزةِ** **ممَّنْ** سَبَقَ منهُ دعوى التحدِّي، فتأمَّلْ ذلك لِيَندفعَ به ما أطالَ به النقاشَ في تفسيرِه منْ **إبطالِ** اشتراطِ ذلك وتزييفِه، ولا يَرِدُ ما سيقعُ على يدِ الدجَّالِ مِنَ الخوارقِ العجيبةِ؛ لأنَّه مدَّعٍ **للربوبيَّةِ** لا الرسالةِ، وقدْ دلَّتِ القواطعُ على كذبِه، وأنَّ ظهورَ ذلك عَلى يديْه لِمَحْضِ الفتنةِ **لا غيرُ.**

---

(١) أخرج ابن أبي الدنيا في جزء "من عاش بعد الموت" (٦)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٢٧٣) **[ترجمة:** عثمان ابن عفان رضي الله عنه]، وابن عبد البر في "الاستيعاب" (٥٤٧/٢) [ترجمة: زيد بن خارجة بن زيد]، **وغيرهم** أنَّ زيد بن خارجة تكلَّم بعد موته، وورد هذا عن آخرين، انظر جزء "من عاش بعد الموت" لابن **أبي الدنيا،** ولشيخ مشايخنا العلَّامة السيِّد عبدالله بن الصِّدِّيق الغُماريِّ -رحمه الله تعالى- كتابًا ماتعًا عن كرامات الأولياء **سمَّاه** "الحُجَجُ البيِّنات في إثباتِ الكرَامَات" ذكر فيه أمثلةً كثيرةً مِن كرامات الصحابة والتابعين وغيرهم.

(٢) ذكره السهيلي في "الروض الأنف" (٤٦٩/٧).

وقدْ عُلِمَ مما سبقَ اشتمالُ التعريفِ بالعنايةِ على القيودِ السبعةِ التي اعتبرَها المحقِّقونَ في المعجزةِ:

– أوَّلُها: أنْ تكونَ فعلًا للهِ تعالى أو ما يقومُ مقامَه كالتركِ، ليتصورَ كونُه تصديقًا منه تعالى للآتي به،

– وثانيها: أنْ يَكونَ خارقًا للعادةِ؛ إذْ لا إعجازَ دونَه،

– وثالثُها: أنْ يكونَ ظهورُه على يدِ مدَّعي النبوةِ ليُعلمَ أنَّه تصديقٌ له،

– ورابعُها: أنْ يكونَ مُقارنًا للدَّعْوى حقيقةً أو حُكْمًا، بأنْ تراخى التحدي عنْ زمانِ الخارقِ تراخيًا يسيراً بحيثُ لا يعدُّه العرفُ منفصلًا منه،

– وخامِسُها: أنْ يكونَ موافِقًا للدَّعوى؛ إذِ المخالِفُ لا يُعدُّ تصديقًا، كفتقِ الجبلِ عندَ دعوى مدَّعي الرسالةِ أنَّ معجزتَه فلقُ البحرِ حيثُ عيَّنَ الخارقَ،

– وسادسُها: أنْ لا يكونَ مكذِّبًا له إنْ كانَ مما يُعتبَرُ تكذيبُه، كقولِه: معجزتي نطقُ هذا الجمادِ فنَطَقَ بأنَّه مفترٍ كذابٌ، فإنَّه يدلُّ عَلى كذبِه بخلافِ ما إذا قالَ معجزتي نُطقُ هذا الإنسانِ الميِّتِ أو إحياؤه فحَيِيَ وشَهِدَ أنه مفترٍ كذابٌ؛ لأنَّه لا يدلُّ على كذبِه؛ لأنَّ المعجزةَ إنما هي نُطقُه أو إحياؤه، وبعدَ ذلك هو مكلَّفٌ مختارٌ، فربَّما اختارَ الكفرَ على الإيمانِ كما سَلَفَ،

– وسابعُها: أنْ تتعذَّرَ معارضتُه إلَّا منْ نبيٍّ مثلِه، فإنَّ هذا هو حقيقةُ الإعجازِ،

– وزادَ بعضُهم ثامنًا: وهو أنْ لا يكونَ الخارقُ واقعًا في زمانِ نقضِ العاداتِ، فما يقعُ عندَ قيامِ الساعةِ وفيها لا يُعدُّ مُصدَّقًا.

ثم إن هذه الشروطَ جميعَها موجودةٌ في القرآنِ، فكانَ معجزةً؛ لأنَّه ﷺ دَعاهم إلى معارضتِه بالإتيانِ بمثلِه فعَجَزوا، ثم بعشْرِ سُوَرٍ فعَجَزوا، ثم بالإتيانِ بمثْلِ أقصرِ سورةٍ منه فعَجَزوا، ثم نادى بذلكَ عَلى جميعِ البلغاءِ والفصحاءِ منَ العربِ العرباءِ معَ كثرتِهم كثرةَ رمالِ الدَّهناءِ وحَصى البَطحاءِ وشهرتِهم، فإنَّهم فرسانُ الفصاحةِ وشجعانُ البلاغةِ، وإفراطِهم في العصبيةِ وحميةِ الجاهليةِ فعَجَزوا حتى إنَّهم آثروا مقارعةَ السيوفِ عَلى معارضةِ الألفاظِ والحروفِ.

ووجهُ إعجازِه -كما قالَ الجمهورُ- كونُه في الطبقةِ العُلْيا منَ الفصاحةِ، والدرجةِ القصوى منَ البلاغةِ، على ما يعرفُه فصحاءُ العربِ بسليقتِهم، وعلماءُ العربِ بمهارتِهم في فنِّ البيانِ، وإحاطتِهم بأساليبِ الكلامِ، هذا معَ اشتمالِه عَلى الإخبارِ عنِ المغيباتِ الماضيةِ والآتيةِ، وعلى دقائقِ العلومِ الإلهيَّةِ وأحوالِ المبدأِ والمعادِ ومكارمِ الأخلاقِ، والإرشادِ إلى فنونِ الحكمةِ العلميةِ والعمليةِ والمصالحِ الدينيةِ والدنيويةِ عَلى ما يظهرُ للمتدبِّرينَ ويتجلَّى على قلوبِ المتفكِّرينَ.

ومما يدلُّ على أنَّ فصحاءَ العربِ إنما تقاعدوا عنهُ لخروجِه في فصاحتِه وبلاغتِه عنْ طاقتِهم أنَّهم كانوا إذا سَمِعوه تعجَّبوا مِنْ حُسْنِ نظمِه وبلاغتِه وفصاحتِه وسلاستِه وجزالتِه، ويُرقِّصونَ رؤوسَهم عندَ سماعِه، حتى إنَّ أعرابيًّا سَجَدَ عندَ سماعِ قولِه تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقالَ سجدتُ لفصاحةِ هذا الكلامِ.

وقالتْ جاريةٌ خماسيَّةٌ أو سداسيَّةٌ مِنْ فصحاءِ العربِ للأصمعيِّ لمَّا رأتْه تعجَّبَ مِنْ فصاحةِ حديثِها: أَوَيُعدُّ هذا فصاحةً بعدَ قولِه تَعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ...﴾ الآيةَ [القصص: ٧]، فقدْ جَمَعَ فيها بينَ أمرَيْنِ ونَهْيَيْنِ وخبرَيْنِ وبشارتَيْنِ(١).

وقالَ بعضُ بطارقةِ الرومِ بعدَ إسلامِه لعمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن آيةً منَ القرآنِ جمعتْ كلَّ ما أُنزلَ على عيسى مِنْ أحوالِ الدُّنيا والآخرةِ، وهي: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وستأتي هذه بأتمَّ من هذا في شرحِ قولِه "بجوامعِ الكلمِ".

(الْمُسْتَمِرَّةِ) أي الدائمةِ، وفي بعضِ النُّسخِ "الْمُسْتَمِرِّ" وضعًا له باعتبارِ لفظِه.

---

(١) ذكر هذه القصة وما سبقها القسطلاني في المنح المحمدية، وتعجُّبُ الأصمعي في هذه القصة من فصاحة الجارية حيث رآها تقول: أستغفر الله من ذنوبي كلها! فقال لها: ممن تستغفرين ولم يجر عليك قلم؟ فقالت:

أستغفرُ اللهَ لذنبي كُلِّه * قتلتُ إنسانًا بغيرِ حلِّه
مِثلَ غزالٍ ناعمٍ في دَلِّه * انتصفَ الليلُ ولم أُصَلِّه

فقال لها: قاتلكِ الله ما أفصحكِ.

وفي شرحه على القصة قال الزرقاني في معنى "جارية خماسية أو سداسية": أي صغيرة السن بلغت خمسا أو ستا.

(**عَلَى تَعَاقُبِ**) أيْ تَوالِي (**السِّنينَ**)، تَشهدُ بصدقِ دعواهُ فيما جاءَ به، وتُرشِدُ إلى الإيمانِ بهِ في كُلِّ زمانٍ، وأمَّا مَنْ قبْلَه مِنَ الأنبياءِ فخصَّه اللهُ تعالى مِنَ المعجزاتِ بما تثبتُ به دعواهُ بحسبِ زمانِه، فإذَا انقضى زمانُه انقضتْ معجزتُه كقلبِ العَصا ثعبانًا وإخراجِ اليدِ بيضاءَ في زمنِ موسى؛ لأنَّ الغلبةَ فيه كانتْ بالسِّحرِ، فأتاهم بما فوقَ ذلكَ، وفي زمنِ سليمانَ بالمُلْكِ فأتاهم بِمُلْكٍ لم ينلْهُ غيرُه، وفي زمنِ عِيسى بالطبِّ فأَتاهم بما هو أبهرُ منهُ، أعْني إحياءَ المَوْتى، وفي حديثِ البخاريِّ: (ما من نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله -تعالى- إليَّ)[1]، وفي معناه قولانِ غيرُ متنافيَيْنِ يرجعُ حاصلُهما إلى أنَّ معجزاتِ الأنبياءِ انقرضتْ بانقراضِ أعصارِهم معَ كونِها حسيَّةً تُشاهَدُ بالأبصارِ، كعَصَا موسى وناقةِ صالحٍ فلمْ يشاهدْها إلَّا مَنْ حَضَرَها، ومعجزةُ القرآنِ تُشاهَدُ بالبصيرةِ فيُشاهِدُها كُلُّ مَنْ جاءَ بعدَ الأوَّلِ، وإنَّما كانتْ أكثرُ معجزاتِ الأممِ السابقةِ حسيَّةً لِبَلادتِهم، وأكثرُ معجزاتِ هذه الأمةِ عقليَّةٌ لِفرطِ ذكائهم.

***

وبالسننِ المستنيرة لِلمُسترشِدين، ..

(و) المكرَّم (**بِالسُّنَنِ**) جمعُ سُنَّةٍ، "فُعْلَة" بِمَعْنى مفعولَةٍ، وهيَ لُغةً: الطريقُ القويمةُ، يُقالُ: فلانٌ على السُّنَّةِ أيْ على طريقِ الاستواءِ لا يَميلُ إلى شيءٍ مِنَ الأهواءِ، واصطلاحًا: أقوالُه ﷺ وأفعالُه وأحوالُه، والمرادُ بِها هنا ما سنَّهُ أيْ شرعَهُ ﷺ مِنَ الأحكامِ، فرضًا كانَ أو نفلًا، مِنْ "سَنَّ الماءَ يَسُنُّهُ" إذَا وَالَى صبَّه فكانَ إجراؤهُ على نهجٍ واحدٍ، أو مِنْ "سَنَنْتُ النَّصْلَ" إذَا أحدَدْتُه، أو مِنْ "سَنَّ الإبلَ" إذَا أحسنَ رعْيَها، وتُطلَقُ السُّنَنُ أيضًا عَلى الأممِ، قالَ بعضُهم:

ما عايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِهِمْ * ولَا رَأَوْا مِثْلَهُمْ في سَالِفِ السُّنَنِ

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٩٨١) [كتاب فضائل القرآن- باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل]، ومسلمٌ (١٥٢) [كتاب الإيمان- باب وجوب الإيمان برسالة نبينا إلى جميع الناس]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ونازعَ الزجّاجُ[1] في ذلك، وقالَ: المعنى "أهلُ السُّنَنِ"، فحُذفَ المضافُ.

(الْمُسْتَنِيرةِ) أيْ ذاتِ النُّورِ المُكنَى به عَمَّا تضمَّنتْهُ واشتملتْ عليه مِنْ هدايةِ **العالمينَ** وإيقاظِ الغافلينَ، بخلافِ غيرِ المستنيرةِ كالبدعِ فإنّها تُشبَّهُ بالظُّلُماتِ لما يُتخيّلُ فيها مِنْ **سوادٍ** وظلامٍ، أو هو لِلإيضاحِ تشبيهًا لَها لِوضوحِها واهتداءِ الناسِ بها وظهورِ أحكامِها بذاتِ **النُّورِ** لما يُتخيَّلُ فيها من بياضٍ وإشراقٍ، ثم إنَّ استنارتَها -وإنْ ظهرتْ لكلِّ أحدٍ- إلّا أنّها **لا تتَّضِحُ** كمالَ الاتِّضاحِ إلا **(لِلْمُسْتَرْشِدِينَ)** جمعُ مسترشِدٍ، وهو طالبُ الرشادِ، ضدّ الغيِّ.

***

المخصوصُ بجوامعِ الكلمِ، وسماحةِ الدينِ، ..

من جوامع كلمه ﷺ

(الْمَخْصُوصِ) مِنَ اللهِ تعالى عن سائرِ الأنبياءِ والرسلِ -علَيْهِمُ الصلاةُ والسلامُ- **(بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)** مِنْ إضافةِ الصفةِ للموصوفِ أي الكلمِ الجوامعِ كما في خبرِ مسلمٍ: **(أوتيتُ** جوامعَ الكَلِمِ)[2]، وفي خبرِ الصحيحَيْنِ (بُعِثْتُ بجوامعِ الكلِمِ)[3]، وفي خبرِ أحمدَ: (أوتيت **فَواتِحَ** الكلِمِ وخواتِمِه وجوامِعِه)[4]، وتخصيصُ الهرويِّ جوامعَ الكلمِ بالقرآنِ مردودٌ، وجوامعُ **واحدُها** "جامعةٌ"، والمرادُ أنه يجمعُ في القليلِ مِنْ كلامِه ما يُغْني عنِ الكثيرِ مِنْ كلامِ غيرِه، كقولِه **فيما** سيأتي:

- (إنّما الأعمالُ بالنِّياتِ)[5]،

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السرى بن سهل الزجاج النحوي؛ كان من أهل العلم بالأدب والدين **المتين،** وصنَّف كتاباً في معاني القرآن وله كتاب الأمالي، وكتاب الاشتقاق، وغير ذلك. أخذ الأدب عن المبرِّد **وثعلب،** وكان يخرط الزجاج، ثم تركه واشتغل بالأدب، فنسب إليه، توفي سَنَةَ ٣١١ وقيل غير ذلك. وفيات **الأعيان** (٤٩/١)، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة للسيوطي (٤١١/١).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٥٢٣) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٩٧٧) [كتاب الجهاد والسير- باب قول النبي ﷺ: «نصرت بالرعب **مسيرة** شهر»]، ومسلمٌ (٥٢٣) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) أخرجه أحمد (٦٦٠٦) [مسند المكثرين من الصحابة- مسند عبد الله بن عمرو بن العاص].

(٥) تقدَّم تخريجه، انظر ص ٤٩.

- وقولِه: (أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراه)[1]،
- وقولِه لمن سألَه الوصيةَ: (لا تَغضبْ)[2]،
- وقولِه: (اتقِ اللهَ حيثُ ما كنتَ وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمْحُها وخالِقَ الناسَ بخُلُقٍ حَسَن)[3]،
- وقولِه: (كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ)[4]،
- وقولِه: (ومَنْ بطَّأَ به عملُهُ لم يُسرِعْ بِه نسَبُه)[5]،
- وقولِه: (الناسُ كأسنانِ المُشْطِ)[6]
- و(المرءُ كثيرٌ بأخيه)[7]،
- و(المرءُ مع مَنْ أحبَّ)[8]،

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٠) [كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام]، و(٤٧٧٧) [كتاب تفسير القرآن- باب قوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾]، ومسلمٌ (٩) [كتاب الإيمان- باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله]، و(١٠) [باب الإسلام ما هو وبيان خصاله]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي الباب عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦١١٦) [كتاب الأدب- باب الحذر من الغضب]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٥٤) [مسند الأنصار- حديث أبي ذر الغفاري]، والترمذيُّ (١٩٨٧) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في معاشرة الناس]، والحاكم (٥٤/١) [كتاب الإيمان- حالق الناس بخلق حسن]، وغيرهم من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وصححه الترمذيُّ، والحاكم.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٦٤١٦) [كتاب الرقاق- باب قول النبي ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل]، وغيره من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) [كتاب الذكر والدعاء - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه الدولابيُّ في "الكنى والأسماء" (٩٤٩) [من كنيته أبو خزيمة- أبو خزيمة وبرة بن عبد الرحمن السلمي]، والقضاعيُّ في مسند الشهاب (١٩٥) [حديث: الناس كأسنان المشط]، وغيرهما من حديث سهل بن سعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب "الإخوان" (١٢٤)، والقضاعيُّ في "مسند الشهاب" (١٨٦)، وغيرهما من حديث سهل بن سعد الساعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعدَّه بعض الحفَّاظ في الموضوعات منهم ابن عديٍّ في الكامل (٢٢٥/٤)، وتعقبه السيوطي بأن له طرقا أخرى. انظر اللآلئ الموضوعة (٢٤٦/٢).

(٨) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦١٦٩) [كتاب الأدب- باب علامة حب الله عز وجل]، ومسلمٌ (٢٦٤٠) [كتاب البر والصلة والآداب- باب المرء مع من أحب]، وغيرهما من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- و(لا خيرَ في صُحْبةِ مَن لا يرى لكَ مِثلَ ما يرى لِنَفْسه)(١)،

- (الناسُ معادنٌ كمعادنِ الذَّهَبِ والفِضة)(٢)،

- (ما هَلَكَ امرؤٌ عرَفَ قَدْرَه)(٣)،

- (رحِمَ اللهُ عبدًا قال خيرًا فغَنِمَ أو سَكَتَ فسَلِمَ)(٤)،

- (جُبِلَتِ القُلوبُ على حُبِّ مَنْ أحْسَنَ إليها)(٥)،

- (الخُلُقُ السَّيِّئُ يُفسِدُ العمَلَ كما يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ)(٦)،

- (ليسَ الخَبَرُ كالمُعايَنة)(٧)،

(١) الدولابي في الكنى (٩٥٠) [من كنيته أبو خزيمة - أبو خزيمة وبرة بن عبد الرحمن السلمي].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٤٩٣) [كتاب المناقب- باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾]، ومسلمٌ، واللفظ له (٢٦٣٨) [كتاب البر والصلة والآداب - باب الأرواح جنود مجندة]، وغيرهما من طرقٍ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣٠٥/٥) [ترجمة: عمر بن عبد العزيز] من كلام عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله تعالى- بلفظ: (رحم الله امرأ عرف قدره)، وذكره القاضي عياض في "الشفا" (١٧٤/١)، وقال السيوطيُّ في "مناهل الصفا" (١٠٤): «ابن السمعاني في تاريخه من حديث علي بسندٍ فيه من لا يعرف حاله».

(٤) أخرجه البيهقي في "الشعب" (٤٥٨٩) [باب في حفظ اللسان - فضل السكوت عن كل ما لا يعنيه]، والقضاعي في "مسند الشهاب" (٥٨٢) [حديث: رحم الله عبدا قال فغنم، أو سكت فسلم]، والديلميُّ في "الفردوس" (٣٢٠٤)، وغيرهم من حديث أنسٍ مرفوعًا بلفظ: (رحَمَ الله امرءًا تكلَّم فغنم، أو سكتَ فسَلِم). وانظر "المقاصد الحسنة" (٥١٥).

(٥) أخرجه ابن حِبَّان في "روضة العقلاء" (ص ٢٤٣) [ذكر الزجر عن ترك قبول الهدايا من الإخوان]، وأبو نعيم (١٢١/٤) [ترجمة: خيثمة بن عبد الرحمن]، والخطيب في "التاريخ" (٣٥٨/٧)، والقضاعيُّ في "مسند الشهاب" (٥٩٩) [حديث: جبلت القلوب على حب من أحسن إليها]، وغيرهم عن عبدالله بن مسعودٍ مرفوعًا. ونصَّ على بطلانه مرفوعًا وموقوفًا السسخاويُّ في "المقاصد الحسنة" (ص ٢٨٠ رقم ٣٦٥).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٥٠) [باب الألف - من اسمه احمد]، والكبير (٣١٩/١٠) [حديث عبد الله بن عباس- حديث محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس]، والبيهقي في الشعب (٧٦٧٣) [باب في حسن الخلق]، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي الباب عن أنس، وأبي هريرة.

(٧) أخرجه أحمد (١٨٤٢) [من مسند بني هاشم- مسند عبد الله بن العباس]، وابن حِبَّان (٦٢١٣) [باب بدء الخلق- ذكر السبب الذي من أجله ألقى موسى الألواح]، والطبرانيُّ في "الأوسط" (٢٥) [باب الألف- من اسمه أحمد]، والقضاعيُّ (١١٨٢) [ليس الخبر كالمعاينة]، والخطيب (٥٤/٦) [ترجمة: إبراهيم بن حيان البيع] من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وصحَّحه ابن حِبَّان والحاكم. وفي الباب عن أنسٍ وأبي هريرة.

- (اليدُ العُليا خيرٌ مِن اليَدِ السُّفْلَى)[١]،
- (ما قلَّ وكَفى خيْرٌ مِمَّا كثُرَ وألْهَى)[٢]،
- (البلاءُ موكَلٌ بِالمنطِقِ)[٣]، وزَعْمُ ابنِ الجوزيِّ وضْعَه مردودٌ،
- (جمالُ الرَّجُلِ فصاحةُ لِسانِه)[٤]،
- (الحياءُ كُلُّهُ خَيْرٌ)[٥]،
- (الدَّالُّ على الخيرِ كفَاعِلِه)[٦]،

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاري (١٤٢٩) [كتاب الزكاة - باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى]، ومسلمٌ (١٠٣٣) [كتاب الزكاة - باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى]، وغيرهما، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الطيالسي (١٠٧٢) [أحاديث أبي الدرداء]، وأحمد (٢١٧٢١) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي الدرداء]، وابن حِبَّان (٦٨٦) [باب الفقر، والزهد، والقناعة- ذكر بعض العلة التي من أجلها فضل بعض الفقراء على بعض الأغنياء] و(٣٣٢٩) [باب صدقة التطوع- ذكر الإخبار عما يجب على المرء من توقع الخلاف فيما قدم لنفسه]، والطبرانيُّ في "الأوسط" (٢٨٩١) [باب الألف - من اسمه إبراهيم]، والحاكم (٢/٤٤٤-٤٤٥) [كتاب التفسير- ما قل وكفى خير مماكثر وألهى]، وأبو نعيم في "الحلية" (١/٢٢٦) [ترجمة: أبي الدرداء]، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه الحاكم.

(٣) أخرجه القضاعيُّ في "مسند الشهاب" (٢٢٧) [حديث: البلاء موكل بالمنطق] من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وله شواهد من عليٍّ، وابن مسعود، وابن عبَّاس، وأنس، وأبي الدرداء، والحسن مرسلًا، وعن أبي بكر موقوفًا، وإبراهيم النخعي وغيره من التابعين مقطوعًا، وطرقها كلها لا تخلو من ضعف وفي بعضها متهمين.

(فائدة): روى الدينوري في "المجالسة" (٧٧٥) ما يدل على أنَّ هذا مثلٌ قيل قَبل النبيِّ ﷺ واشتهر بين أهل ذلك العصر، وقائله عبيد بن شَرِيَّه -بوزن عطية- الجرهميُّ أحد المعمَّرين. وقد اقتبسه أحدهم فقال:

احْفَظْ لِسَانَكَ لاَ تَقُولُ فَتُبْتَلَى * إِنَّ الْبَلاَءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ

(٤) أخرجه القضاعي في "مسند الشهاب" (٢٣٣) [حديث: جمال الرجل فصاحة لسانه]، وفي إسناده أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي، قال الحافظ ابن حجر في "لسان الميزان" (١/٥٢٢): «كان كذَّابًا ومن بلاياه...» وذكر هذا الحديث، وانظر الكلام عليه وعلى طرقه في "المقاصد الحسنة" للسخاوي (٣٧٠).

(٥) أخرجه بهذا اللفظ مسلمٌ (٣٧) [كتاب الإيمان- باب شعب الإيمان]، وغيره من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والحديث متفقٌ عليه بلفظ: (الحَياءُ لا يَاتي إلَّا بخَيْرٍ) أخرجه البخاريُّ (٦١١٧) [كتاب الأدب- باب الحياء]، ومسلمٌ (٣٧) [كتاب الإيمان- باب شعب الإيمان].

(٦) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٢٣٦٠) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري]، والطبرانيُّ في "الكبير" (١٧/٢٢٧) [حديث أبي مسعود الأنصاري- حديث أبي عمرو الشيباني عن أبي مسعود]، وهو في صحيح مسلم (١٨٩٣) [كتاب الإمارة- باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله] بلفظ: (مَن دَلَّ على خيرٍ فلهُ مثلُ أجرِ فاعِلِه)، وفي الباب عن أنسٍ وبريدة، وسهل ابن سعدٍ، وابن عبَّاسٍ وعبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

- (كُلُّ معروفٍ صَدَقةٌ)[1]،

- (حُبُّكَ لِلشَّيءِ يُعمِي ويُصِمُّ)[2]، وليسَ بموضوعٍ بل حسنٌ خلافًا لِمَنْ وَهَمَ فيهِ[3]،

- (ما جُمِعَ شيءٌ إلى شيءٍ أحسنَ مِن حِلْمٍ إلى عِلْمٍ)[4]،

- (زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا)[5]،

- (القَناعةُ مالٌ لا ينفَدُ وكَنْزٌ لا يَفْنى)[6]،

- (الاقتِصادُ في النَّفَقةِ نِصْفُ المَعيشةِ)، و(التودُّدُ إلى الناسِ نِصْفُ العَقْلِ)، و(حُسْنُ السُّؤالِ نِصْفُ العِلْمِ)[7]،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٢١) [كتاب الأدب- باب: كل معروف صدقة]، وغيره من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي الباب عن حذيفة وأبي ذرٍّ، وحديث حذيفة عند مسلم (١٠٠٥) [كتاب الزكاة- باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف]، وغيره.

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢١٦٩٤) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي الدرداء] و (٢٧٥٤٨) [بقية حديث أبي الدرداء]، وعبد بن حميد (٢٠٥) [حديث أبي الدرداء]، والبخاري في "التاريخ الكبير" (١٠٧/٢) [ترجمة: بلال بن أبي الدرداء الأنصاري]، وأبو داود (٥١٣٠) [أبواب النوم- باب في الهَوَى]، والبزّار (٤١٢٥)، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وأخرجه موقوفًا البخاري في "التاريخ" (١٠٧/٢)، والبيهقيُّ في "الشعب" (٤٠٧) [باب في محبة الله عز وجل]، وأورده السيوطي في "الدرر المنتثرة" (١٨٦)، وقال: «الوقف أشبه».

(٣) زعم الصاغاني والسراج القزويني أنه موضوعٌ، وأعلّاه بأبي بكر بن أبي مريم، وتُعقِّبا على ذلك بأنه لم يتهم بكذب وإنما ضعِّف من أجل اختلاط وقع في عقله، وقد سكت عنه أبو داود في "سننه"، فأقل حاله أن يكون ضعيفًا.

(٤) أخرجه الطبرانيُّ في الأوسط (٤٨٤٦) [باب العين- من اسمه: عبد الوهاب]، وغيره من حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي الباب عن معاذ بن جبل، وأبي أمامة وغيرهما.

(٥) أخرجه الطيالسيُّ (٢٦٥٨) [مسند أبي هريرة - حديث: عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة]، والبزّار (٩٣١٥) [مسند أبي هريرة - ما روى عطاء بن أبي رباح عنه]، والطبرانيُّ في "الأوسط" (١٧٥٤) [باب الألف- من اسمه أحمد]، وأبو نعيم في"الحلية" (٣٢٢/٣) [ترجمة: عطاء بن أبي رباح]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الحافظ السخاويُّ في "المقاصد" بعد الكلام على طرقه (٥٣٧): أفرد أبو نُعيم طرقه ثم شيخنا في "الإنارة بطرق غِبِّ الزيارة"، وبمجموعها يتقوّى الحديث، وإن قال البزّار: إنه ليس فيه حديث صحيحٌ، فهو لا ينافي ما قلناه.

(٦) أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (٦٩٢٢) [باب الميم- من اسمه: محمد]، وغيره من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) أخرجه الطبرانيُّ في "مكارم الأخلاق" (١٤٠) [باب فضل التودد إلى الناس ومداراتهم]، والبيهقيُّ في "الشعب" (٦١٤٨) [باب: الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال الباطل]، والقضاعيُّ في "مسند الشهاب" (٣٣) [حديث: حسن السؤال نصف العلم]، وغيرهم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا، وله طرق وشواهد يقوّي بعضها بعضًا كما قال السخاويُّ في "المقاصد" (١٤٠).

- (النِّساءُ حبائِلُ الشَّيطانِ)[1]،

- (الظُّلْمُ ظُلماتٌ يومَ القِيامةِ)[2].

وجوَّزَ ابنُ حبيبٍ[3] أنْ يكونَ المرادُ بجوامعِ الكلمِ ما جاءَ أنّه ﷺ كانَ يُكلِّمُ كلَّ قبيلةٍ بِلسانِها، وإنْ لمْ يكنْ رآها قبلُ[4].

وجَنَحَ ابنُ العربيِّ إلى غيرِ ذلكَ فقالَ: اعلمْ أنَّ آدمَ -عليه الصلاةُ والسلامُ- حاملٌ لِلأسماءِ، ومحمدٌ ﷺ حاملٌ لِمعاني تلك الأسماءِ التي حَمَلَها آدمُ، وهي المرادُ بحديثِ (أوتيتُ جوامعَ الكلمِ). ثم قالَ: فاعلمْ أنَّ مَنْ حَصَّلَ الذواتِ فالأسماءُ تحتَ حُكْمِه، وليسَ كُلُّ مَنْ حَصَّلَ الأسماءَ يكونُ المُسمَّى مُحصَّلًا عندَهُ، ولِذلك فُضِّلَتِ الصحابةُ علَيْنا، لأنَّهم حصَّلُوا الذاتَ، وحصَّلْنا نحنُ الاسمَ، ولما راعيْنا الاسمَ مراعاةَ الذاتِ ضوعِفَ لنا الأجرُ، والمشهورُ الأوَّلُ.

ومِنَ القرآنِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، زادَ الحسنُ: لم تَتْرُكْ هذه الآيةُ خيراً إلّا أمرتْ به ولا شرًّا إلا نهتْ عنه.

---

(١) أخرجه القضاعيُّ مطوَّلًا في "مسند الشهاب" (٥٥) من حديث عبد الله بن مصعب بن زيد بن خالد الجهني، عن أبيه عن جده بإسنادٍ ضعيفٍ.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٧) [كتاب المظالم والغصب- باب: الظلم ظلمات يوم القيامة]، ومسلمٌ (٢٥٧٩) [كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٣) عبد الملك بن حبيب بن سُليمان بن هارون السُّلميُّ الفقيه العباسيُّ الأندلسيُّ القُرطُبيُّ المالكيُّ أحد الأعلام، ولد سنة ١٧٤، سكن قرطبة وزار مصر، ثم عاد إلى الأندلس، له مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ منها: كتاب الواضحة، والجامع في فضائل الصَّحابة، وحروب الإسلام، وغريب الحديث، وتفسير المُوطَّأ، وطبقات الفقهاء والتابعين، وغيرها تُوفِّي سنة ٢٣٨. انظر: ترتيب المدارك (١٢٢/٤)، والوافي للصفدي (١٠٨/١٩)، والديباج المذهب (٨/٢).

(٤) قال القاضي عياض في الشفا (١٦٧/١): "أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله، من تأمل حديثه، وسيره، علم ذلك وتحققه. وليس كلامه مع قريش والأنصار، وأهل الحجاز، ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النهدي وقطن بن حارثة العليمي والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي وغيرهم، من أقيال حضرموت، وملوك اليمن ...".

وذُكِرَ أَنَّ عمرَ بنَ الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بينما هو نائمٌ في مسجدِ النبيِّ ﷺ فإذا رجلٌ مِنْ بطارقةِ الرومِ عندَ رأسِه وهو يَقولُ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، فقالَ له عمرُ: ما شأنُكَ؟ قالَ: أسلمتُ للهِ، قالَ: هلْ لذلكَ سببٌ؟ قالَ: نَعَمْ، أنِّي قرأتُ التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ وكثيرًا مِنْ كتبِ الأنبياءِ فسمعْتُ أسيرًا يَقرأُ آيةً مِنَ القرآنِ جُمِعَ فيها كُلُّ ما في الكتبِ المتقدِّمةِ فعلمتُ أنَّه مِنْ عندِ اللهِ فأسلمتُ، قالَ: ما هذه الآيةُ؟ قالَ: قولُه تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، قالَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ النبيُّ ﷺ: (أوتيتُ جوامِعَ الكَلِمِ)[1]، ولبعضِهم:

وجوامعُ الكلمِ الذي فُتِحَتْ له * سجدتْ لها البلغاءُ والأقلامُ

أيْ خضعتْ.

***

(وَسَمَاحَةِ الدِّينِ) لقولِه ﷺ: (بُعِثْتُ بالحنيفيةِ السَّمحاءِ)[2]، أيِ السهلةِ لخلوِّها عنِ التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ الَّتي كانتْ عَلى اليَهودِ، كتعيُّنِ القِصاصِ في القتلِ عَمْدًا كانَ أو خطأً ولا تجزي الدِّيةُ، وقطعِ الأعضاءِ الخاطئةِ، وفقءِ العينِ في النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، وقتلِ النَّفْسِ في التَّوْبةِ، وقرضِ موضعِ النجاسةِ منَ الجِلْدِ والثَّوْبِ، وربعِ المالِ في الزكاةِ، واسترقاقِ السَّارقِ للمسروقِ منهُ، وتحريمِ الغنائمِ ومجالسةِ الحائضِ ومؤاكلتِها ومضاجعتِها، والاشتغالِ يومَ السبتِ، وإذَا أذنَبَ أحدُهم حُرِّمَ عليه أكْلُ الطيِّبِ -بتَشديدِ المثنَّاةِ التحتيَّةِ- منَ الطعامِ، وأصبحَ ذنبُه مكتوبًا على بابِه فيُحَدُّ، وخلوِّها عنِ التفريطِ المُفْرِطِ المُفوِّتِ لِمَحاسنِ الآدابِ الذي كانَ في النصرانيَّةِ مِنْ نحوِ مخامرةِ النَّجاسةِ وجماعِ الحائضِ وتَعيُّنِ العفوِ عنِ القَوْدِ.

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٢/٢٩٥).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٢٢٩١) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي أمامة الباهلي]، وغيره من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف، وأخرجه أحمد أيضًا (٢٤٨٥٥) [مسند النساء- مسند الصديقة عائشة بنت الصديق] عن السيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مرفوعًا بلفظ (إني أرسلت بحنيفية سمحة)، وإسناده حسن كما قال السخاويُّ، وانظر بقية الكلام عليه وعلى شواهده في "المقاصد الحسنة" (٢١٤).

والمرادُ بالحنيفيَّةِ المِلَّةُ الإبراهيميَّةُ، مُقْتَبَسًا مِنْ قولِه تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، والحنيفُ عندَ العربِ منْ كانَ عَلى مِلَّةِ إبراهيمَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- ثم سَمَّوْا مَن اختُتِنَ وحجَّ البيتَ حنيفًا، والحنيفُ المائلُ عنِ الباطلِ إلى الحقِّ، سُمِّيَ إبراهيمُ ﷺ حنيفًا؛ لأنَّه مالَ عنْ عبادةِ الأوثانِ، و"السَّمْحاءُ" في الحديثِ صفةُ الحنيفيَّةِ، ومَعْناها السهلةُ، والمِلَّةُ السَّمْحاءُ هي المِلَّةُ التي لا حَرَجَ فيها ولا تضييقَ عَلى النَّاسِ، وهي مِلَّةُ الإسلامِ، وجَمعَ كونَها حنيفيَّةً وكونَها سمحةً فهيَ حنيفيَّةٌ في التوحيدِ، سهلةٌ في العملِ.

***

صلواتُ الله وسلامه عليه، وعلى سائر النبيين والمرسلين، وآل كلٍّ وسائرِ الصالحين.

ولما صلَّى وسلَّمَ على جميعِ الرسلِ عمومًا[1] أعادَهما عليه ﷺ خصوصًا ثم على الأنبياءِ والرسلِ عمومًا فقالَ: (**صلواتُ اللهِ وسلامُه عليْه**) إظهارًا لعظمتِه، وأَداءً لبعضِ ما يَجبُ له ﷺ؛ إذْ هو الواسطةُ بينَ اللهِ وبينَ العبادِ، وجميعُ النعمِ الواصلةِ إليهم، التي أعظمُها الهدايةُ للإسلامِ، إنما هيَ ببركتِه ﷺ وعَلى يديهِ، وامتثالًا لقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، واغتنامًا للثوابِ الواردِ في قولِه ﷺ: (مَنْ صَلَّى عليَّ في كِتابٍ لم تَزَلِ الملائِكةُ تستغفِرُ له -وفي روايةٍ: تُصَلِّي عليه- ما دامَ اسْمِي في ذلِكَ الكِتابِ)[2]، قالَ الشيخُ أحمدُ زروقٍ: يُحتمَلُ أنْ يكونَ المرادُ "كَتَبَ"، وهو أظهرُ، أو قَرَأَ الصلاةَ المكتوبةَ، وهو أوسعُ وأرجى. اهـ. وذَكَرَ بعضُ شيوخِنا أنَّ صورَه أربعٌ، وأنَّ الفضلَ المذكورَ يَحصُلُ لِمَنْ كَتَبَ ذلكَ أو قَرَأَهُ إنْ كانَ مكتوبًا، وأمَّا مَنْ صَلَّى عليه باللَّفظِ في كتابٍ ولم يكتبْه ولم يكنْ مكتوبًا فيه فإنَّه لا يَحصُلُ له الفضلُ المذكورُ، وهو ظاهرٌ، ويدلُّ له قولُه: (ما دامَ اسمي ... إلخ)؛

(١) في قوله سابقا: "باعث الرسل -صلاتُه وسلامُه عليهم- إلى المُكلَّفين".

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (١٨٣٥) [باب الألف - من اسمه أحمد]، وأبو الشيخ في "الثواب"، والمستغفريُّ في "الدعوات" كما في "تخريج أحاديث الإحياء" للحافظ العراقي (٧٦٣/٢)، وقال الحافظ السيوطي في "تدريب الراوي" (٥٠٤/١): «وهذا الحديثُ وإن كان ضعيفًا فهو ممَّا يحسنُ إيرادُه في هذا المعنَى».

إذْ هو في هذه الحالةِ لَمْ يَدُم اسمُه في ذلك الكتابِ، فتأملْهُ، ويُفهَمُ مما ذُكِرَ أنّه لو جَمَعَ بينَ الكتابةِ والصلاةِ لفظًا يَحصُلُ له الفضلُ المذكورُ بالأولى.

فإنْ قيلَ لِمَ أكَّدَ "سَلِّموا" دونَ "صَلُّوا" في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، قيلَ: لِتأكيدِها بـ"إنَّ" ولتقدُّمِ ذِكْرِ الصلاةِ مِنَ اللهِ والملائكةِ أوَّلًا، ولأنَّ الصلاةَ مِنَ اللهِ رحمةٌ، ومِنَ الملائكةِ استغفارٌ، وذلك واقعٌ مِنْهمْ بلا تردُّدٍ، وأما البَشرُ فلما صدَرَ مِنْ بعضِهم ما صدَرَ مِنْ أذيَّتِهم وتَنقيصِهم أُمِرُوا معَ الصلاةِ بالتسليمِ مِنَ النقائصِ والانقيادِ، وأُكِّدَ لوقوعِ الإنكارِ.

والصلاةُ علَيْه ﷺ واجبةٌ في العمرِ مرةً كالشهادتَيْنِ، والذي يَظْهَرُ أنَّ حُكْمَ السَّلامِ في الوجوبِ في العُمرِ مرةً حُكْمُ الصلاةِ كما قالَه أبو عبدِ اللهِ محمدِ الرصاعُ[1].

***

تنبيه

الجمع بين الصلاة والسلام عليه ﷺ

قالَ ابنُ الجوزيِّ في "مفتاحِ الحصنِ": وأمَّا الجمعُ بينَ الصَّلاةِ والسَّلامِ فهو الأَوْلى والأكملُ والأفضلُ لقولِه تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ولوِ اقْتصرَ على أحدِهما جازَ مِنْ غيرِ كراهةٍ، فقدْ جرى عليه جمعٌ، منْهم مسلمٌ في صحيحِه، وهلمَّ جرًّا حتى الإمامُ الشاطبيُّ في قصيدتِه اللاميَّةِ والرائيَّةِ.

قالَ: وقولُ النوويِّ "وقدْ نصَّ العلماءُ عَلى كَراهةِ الاقتصارِ على الصَّلاةِ عليه مِنْ غيرِ تسليمٍ"، لا أعلمُ أحدًا نصَّ على ذلكَ مِنَ العلماءِ ولا مِنْ غيرِهم، وذكرَ شيخُنا أبو الفضلِ ابنُ الخطيبِ أنَّ الشافعيَّ اقتصرَ على الصلاةِ دون التسليمِ في خطبةِ "الرسالةِ"، وكذا الشيخُ أبو إسحاقَ الشيرازيُّ في تنبيهِه، وكذا النوويُّ في خطبةِ عقيدتِه، اهـ من أذكارِ الشاميِّ.

---

(١) قاضي الجماعة محمد بن قاسم أبو عبد الله الأنصاري التونسي، الشهير بالرصاع، أخذ عن جماعة من أصحاب ابن عرفة، من مصنفاته: تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين ﷺ، وشرح حدود ابن عرفة، والكلام على الآيات الواقعة في شواهد المغني لابن هشام، وجزء في إعراب كلمة الشهادة، وغيرها. توفي سنة ٨٩٤. انظر: الضوء اللامع (٢٨٧/٨)، ونيل الابتهاج (٥٦٠/١)

وقالَ الحطَّابُ[1] في شرحِ خطبةِ "المختصرِ": شاعَ في كلامٍ كثيرٍ منَ العلماءِ كراهةُ إفرادِ الصلاةِ عنِ السلامِ وعكسِه، وممنْ صرَّحَ بالكراهةِ المؤلِّفُ، قالَ السخاويُّ في القولِ البديعِ: وتوقَّفَ شيخُنا، يَعني الحافظَ ابنَ حجرٍ في إطلاقِ الكراهةِ، وقالَ فيه نَظَرٌ، نَعَمْ يُكرَه أنْ يُفْرِدَ الصلاةَ ولا يُسَلِّمَ أصلًا، أما لوْ صَلَّى في وقتٍ وسلَّمَ في وقتٍ آخرَ فإنَّه ممتثلٌ. اهـ.

ويتأكَّدُ بما في خطبةِ مسلمٍ والتنبيهِ وغيرِهما مِنْ مصنفاتِ أئمةِ السنةِ مِنَ الاقتصارِ على الصلاةِ فقطْ.

وقالَ قبلَه: استُدِلَّ بحديثِ كعبٍ وغيرِه على أنَّ إفرادَ الصلاةِ عنِ التسليمِ لا يُكرهُ، وكذا العكسُ؛ لأنَّ تعليمَ السلامِ تقدَّمَ قبلَ تعليمِ الصلاةِ، اهـ المرادُ منه.

وقالَ بعضُ شيوخِنا: وَقَعَ في كتبِ أهلِ المذهبِ المتقدِّمينَ وقوعًا شائعًا ذِكْرُ السلامِ دونَ الصلاةِ عليه، حتى أخبرَني مَنْ يُوثَقُ به أنَّه رأى نسخةً من "المنتقى" بخطِّ الباجيِّ[2] لم يُذكَرْ فيها سوى السلامِ في كلِّ محلٍّ ذُكِرَ فيه النبيُّ ﷺ، وهو يدلُّ على عدمِ كراهةِ إفرادِ السلامِ عنِ الصلاةِ خطًّا، وإذا كانَ لا يُكرَهُ إفرادُ السلامِ، فإفرادُ الصلاةِ أَوْلى؛ لأَنَّ الصلاةَ واجبةٌ قطعًا، وجَرَى خِلافٌ في وجوبِ السلامِ، وتَقَدَّمَ في كلامِ السخاويِّ أنَّ اقتصارَ مسلمٍ وصاحبِ التنبيهِ وغيرِهما على كتابةِ الصلاةِ فقطْ يدلُّ على عدمِ كراهةِ الإفرادِ.

***

(١) العلامة المحقق محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حسن الرعيني، المغربي الأصل المكي المولد، الشهير بالحطَّاب، ولد سنة ٩٠٢، وكان علامة متفننًا له تآليف بارعة منها: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، وقرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين، وتحرير الكلام في مسائل الالتزام، وهداية السالك المحتاج في مناسك الحج، وتفريح القلوب بالخصال المكفرة لما تقدم وما تأخر من الذنوب، وغيرها، تُوفي سنة ٩٥٤. انظر: شجرة النور الزكية (رقم ١٠٢٣)، ونيل الابتهاج لأحمد بابا (٧٢٧).

(٢) القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعدون بن أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي الباجي، ولد سنة ٤٠٣، نسبته إلى باجه الأندلس، رحل في طلب العلم إلى الحجاز وبغداد ودمشق، ثم عاد إلى الأندلس، وصنف كتباً كثيرة نافعة منها: التسديد إلى معرفة التوحيد، وسنن المنهاج وترتيب الحاج، وأحكام الفصول في أحكام الأصول، والتعديل والتجريح لما خرج عنه البخاري في الصحيح، وشرح الموطأ، وغيرها، توفي سنة ٤٧٤. تاريخ بغداد (٩٢/٢١)، ترتيب المدارك (١١٧/٨)

(وَعَلَى سَائِرِ) بِمَعْنى باقي، كما قالَه الأزهريُّ[1] والحريريُّ[2] والقاضي عبدُ الوهَّابِ[3] والشيخُ تقيُّ الدينِ ابنُ دقيقِ العيدِ[4] وابنُ الصَّلاحِ[5]، من السُّؤْرِ وهو بقيةُ نحو الماءِ، وهو المشهورُ فيها الذي عليه الأكثرُ، واختلفوا: هلْ هو الباقي مطلقًا قَلَّ أَوْ كَثُرَ أو الباقي الأقلُّ؟ والأوَّلُ هو الصحيحُ، وبِمَعْنى الجميعِ كما قالَه الجوهريُّ[6] والجواليقي[7] وابن بري[8]، من سورِ المدينةِ، وهو حائطٌ محيطٌ بها، وعليه قولُ القائلِ:

---

(١) أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي اللغوي الشافعي، الملقب بالأزهري، نسبة إلى جده الأزهر عالم من علماء اللغة العربية، ولد سنة ٢٨٢، ومن كتبه: تهذيب اللغة، غريب الألفاظ التي استعملها الفقهاء، وتفسير القرآن، وغيرها، توفي سنة ٣٧٠. انظر: إنباه الرواة (٤/١٧٧)، والوافي (٢/٣٤).

(٢) أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان بن الحريري، كان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة، وله تصانيف تشهد بفضله منها: المقامات الحريرية، ودرة الغواص في أوهام الخواص، وملحة الإعراب، وغيرها، توفي سنة ٥١٦. تاريخ بغداد (٢١/١٦٥)، وإنباه الرواة (٣/٢٣)، ومعجم الأدباء (٥/٢٢٠٢)

(٣) شيخ المالكية القاضي أبو محمَّد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي، ولد ٣٦٢، ولي قضاء الدينور، وخرج في آخر عمره الى مصر، وألَّف تآليف كثيرة منها: النصرة لمذهب مالك، والمعونة بمذهب عالم المدينة، والأدلة في مسائل الخلاف، وشرح رسالة ابن أبي زيد، وشرح المدونة، والإفادة في أصول الفقه، والإشراف على مسائل الخلاف، توفي سنة ٤٢٢. ترتيب المدارك (٧/٢٢٠)، وسير أعلام النبلاء (١٧/٤٢٩).

(٤) العلامة المجتهد شيخ الإسلام محمد بن علي بن وهب بن مطيع، أبو الفتح، المنفلوطي الأصل القوصي المنشأ، المالكي ثمَّ الشافعي، نزيل القاهرة، ولد سنة ٦٢٥، وتبحَّر في جميع العلوم الشرعية، وصنَّف التصانيف الفائقة فمنها: الإلمام في أحاديث الأحكام، وشرح العمدة، وتحفة اللبيب في شرح التقريب، وغيرها، وقال السبكي أنه المجدِّد على رأس السبعمائة، تُوفِّي سنة ٧٠٢. انظر: الوافي للصفدي (٤/١٣٧).

(٥) الإمام الحافظ المفتي شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان ابن المفتي صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان ابن موسى بن أبي نصر الكردي الشهرزوري، المعروف بابن الصلاح، وُلد سنة ٥٧٧، ووُلِّي دارالحديث الأشرفية وتخرَّج به الناس، تُوفِّي سنة ٧٥٣. انظر: وفيات الأعيان (٣/٢٤٣)، وتذكرة الحفَّاظ (٤/١٤٩).

(٦) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، من أعاجيب الدنيا؛ وذلك أنه من الفاراب، إحدى بلاد الترك، وهو إمام في علم اللغة؛ وخطُّه يضرب به المثل في الحسن، له كتاب الصحاح، وهو من أقدم ما صُنِّف في العربية من معاجم الألفاظ، توفِّي سنة ٣٩٣. انظر: يتمية الدهر للثعالبي (٤/٣٦٨)، وإنباه الرواة للقفطي (١/٢٢٩).

(٧) أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن بن محمد بن الجواليقي، إمام أهل عصره في معرفة اللغة وكلام العرب، ألف كتبًا منها: شرح أدب الكتاب، والمعرب، والتكملة فيما تلحن فيه العامة، توفي سنة ٥٣٩. تاريخ بغداد (٢١/١٧٧)، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري (ص٢٩٣)، وبغية الوعاة (٢/٣٠٨).

(٨) أبو محمد عبد الله بن بريِّ بن عبد الجبار بن بريّ النحوي، المصرى المولد والمنشأ، المقدسي الأصل، ولد سنة ٤٩٩، وكان قليل التصنيف؛ لم يشتهر له شيء سوى مقدّمة سماها اللّباب، وجواب المسائل العشر، وحاشيته على كتاب الصّحاح، توفي سنة ٥٨٢. انظر: إنباه النحاة (٢/١١١)، وسير أعلام النبلاء (١٥/٣٣٧).

أُلْزِمَ العَالَمونَ حُبَّكَ طُرًّا * * فهْو فَرْضٌ فِي سائِرِ الأَدْيانِ

(النَّبِيِّينَ) جمعُ نبيءٍ -بالهمزِ- مِنَ النبأِ، وهو الخبرُ؛ لأنَّه مُخبَرٌ -بفتحِ الباءِ- عنِ اللهِ بما يوحى إليه أو بنبوَّتِه، وبكسرِها على ما قالَه بعضُهم؛ لأنَّه يُخبِرُ نفسَه بذلك، ولقولِ بعضِهم: إنَّه يَجبُ عليه أنْ يُخبرَ غيرَه بنبوَّتِه وإنْ نُظِرَ فيه، وبتركِ الهمزِ، وهو الأكثرُ، إمَّا مخففًا منَ المهموزِ بقلبِ همزتِه ياءً، وإما منَ النَّبْوَةِ، وهي الرفعةُ؛ لأنَّ النبيَّ مرفوعُ الرتبةِ على غيرِه منَ الخلقِ، وبعضُهم رجَّحَ هذا.

(وَالْمُرْسَلِينَ) وأسماءُ الأنبياءِ كلِّهم أعجميَّةٌ إلَّا أربعةً، محمدٌ وشعيبٌ وهودٌ وصالحٌ، قالَه التتائيُّ[1] في شرحِ الرسالةِ القيروانيَّةِ، وزادَ ابنُ ناجي "إسماعيلَ"، وفيه نَظرٌ؛ إذْ لفظُ إسماعيلَ أعجميٌّ، نعم الأنبياءُ كلُّهم عجمٌ إلا خمسةً، محمدٌ وإسماعيلُ وهودٌ وصالحٌ وشعيبٌ، والحاصلُ أنَّ محمدًا وهودًا وصالحًا وشعيبًا ذواتُهم عربيَّةٌ، وكذا أسماؤهم، وأمَّا إسماعيلُ فذاتُه عربيَّةٌ، واسمُه أعجميٌّ.

(وَآلِ) أصلُه "أهلٌ"، أُبدلتِ الهاءُ همزةً فتوالتْ همزتانِ فقلبتِ الثانيةُ ألفًا، ويدلُّلُ له تصغيرُه على "أُهَيْل"، كذا قيلَ، وهو غيرُ متجهٍ؛ إذْ يجوزُ أنْ يكونَ "أُهَيْل" تصغيرَ "أهلٍ" لا تصغيرَ "آلٍ"، وقيلَ أصلُه "أَوَل" بفتحِ الواوِ، وتحركتِ الواوُ، وانفتحَ ما قبْلَها فقُلِبت أَلِفًا.

ولا يُضافُ إلَّا لِمَنْ له شرفٌ مِنَ العقلاءِ الذكورِ، فلا يُقالُ: آلُ الإسكافِ، ولا آلُ مكةَ، ولا آلُ فاطمةَ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ...﴾ الآية [غافر: ٤٦]، فلشرفِه الدنيويِّ، كذا قيلَ، والحقُّ أنَّ القيودَ كُلَّها أغلبيةٌ لِقولِهم: آلُ الله، وآلُ البيتِ، وقولِ عبدِ المطلبِ:

وانصُرْ على آلِ الصليـ * ـبِ وعابديه اليومَ آلَكْ

---

(١) قاضي القضاة بالديار المصرية أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي: من علماء المالكية، نسبته إلى "تتا" مِن قُرى المنوفية بمصر، تخلى عن القضاء وتصدر للتأليف والإقراء، أقام بمدرسة الشيخونية بمصر، له شرحان على المختصر وشرح على ابن الحاجب، وله شرح إرشاد ابن عسكر والجلاب، ومقدمة ابن رشد، وألفية العراقي، وحاشية على شرح المحلى على جمع الجوامع، وشرح على الرسالة، وغيرها. تُوفِّي سنة ٩٤٢، وقيل: ٩٣٠. الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للغزي (رقم ١٧٧)، وشجرة النور لمخلوف (رقم ١٠٣٣)

والصحيحُ إضافتُه للضمير، ومنه حديثُ: (اللهم صل على محمد وعلى آله)[1]، وقولُ عبدِ المطلبِ المتقدِّم.

(**كُلٌّ**) أيْ كُلِّ واحدٍ منَ النبيِّينَ، بحذفِ المضافِ إليْه لدلالةِ السياقِ علَيْه، والذي اختارَه الإمامُ مالكٌ والأزهريُّ، ورجَّحه النوويُّ في شرحِ مسلم أنَّ آله ﷺ أتباعُه، وهم أُمَّةُ الإجابةِ، وهو اللائقُ بمقامِ الدعاءِ، لكنْ قيَّدَه القاضي حسينٌ[2] وغيرُه بالأتقياءِ منهم، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، قيلَ: فيُحمَلُ كلامُ مَنْ أطلقَ عليه، وقيلَ: يَبْقى على إطلاقِه بأنْ يُرادَ بالصلاةِ الرحمةُ المطلقةُ، وخبرُ (آلِ محمدٍ كلُّ تقيٍّ)[3] سنَدُه واهٍ جِدًّا، ورويَ عنْ جابرٍ منْ قولِه بسندٍ ضعيفٍ، وجرى فيه خلافٌ في بابَيِ الزكاةِ والفيءِ، والمشهورُ مِنْ مذهبِنا اختصاصُه فيهما بأقاربِه المؤمنينَ منْ بني هاشمٍ، وزادَ الشافعيَّةُ "والمطَّلبَ".

(**وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ**) وهم القائمونَ بحقوقِ اللهِ تعالى وحقوقِ العبادِ، فدَخلَ الصحابةُ كلُّهم لِثبوتِ وصفِ الصلاحِ والعدالةِ لجميعِهم، ودَخلَ غيرُهم ممنِ اتَّصفَ بذلك، جَعَلَنا اللهُ تعالى منهم، آمينَ.

كذا في شرحِ الهيتميِّ، وأيضًا الصحابةُ داخلونَ في آلِه، سواءٌ فسَّرناهُ بمطلقِ أتباعِه أو بالأتقياءِ منهم.

***

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفا (٢/١٦٠)، وعزاه لمالك من حديث أبي مسعود.

(٢) شيخ الشافعية بخراسان أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد المروزي، المعروف بالقاضي، صنف في الأصول والفروع والخلاف، كان يحكم بين الناس ويدرس ويفتي، من كتبه: التعليقة الكبرى، والفتاوى، وغيرهما، توفي سنة ٤٦٢. وفيات الأعيان (٢/١٣٤)، سير أعلام النبلاء (١٨/٢٦٠)، طبقات السبكي (٤/٣٥٦).

(٣) أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (٣٣٣٢) [باب الجيم- من اسمه جعفر]، وتمّام في فوائده (٢/٢١٨)، والبيهقيُّ (٢٨٧٣) [جماع أبواب صفة الصلاة- باب من زعم أن آل النبي ﷺ هم أهل دينه عامة]، وغيرهم، وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (١١/١٦١): «سنده واهٍ جدًّا»، وقال الحافظ السخاويُّ في "المقاصد الحسنة" (ص ٤٠): «أسانيده ضعيفةٌ، ولكن شواهده كثيرةٌ»، وللسيد أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله كلام نفيسٌ عن هذا الحديث ردَّ فيه الاستشهاد له بأحاديث أخرى ليست في معناه وقال في ختام كلامه: «والمقصود أنَّ حديث الباب مُنكَرٌ واهٍ لا يعتضد بحديث: إنَّ أوليائي منكم المتقون؛ لأنه ليس في معناه». انظر "المداوي" (١/٤٣).

تتمةٌ: في منع الصلاةِ على غيرِ الأنبياءِ والملائكةِ استقلالًا، وكراهتِها وكونها خِلافَ الأَوْلى خِلَافٌ، والأصحُّ الكراهةُ، وقولُه ﷺ: (اللهم صل على آل أبي أوفى)[1]، فهو من خصائصِه، وأمَّا تَبَعًا -كما هنا- فجائزةٌ اتفاقا.

***

أما بعدُ،

(أَمَّا بَعْدُ) أيْ بعدَ البسملةِ والحمدلةِ والتشهدِ والصلاةِ والسلام على مَنْ تقدَّمَ، وأتى بها تأسيًا به ﷺ لأنَّه كانَ يأتي بها في خُطَبِه وكتبِه، وهِيَ يُؤتَى بها لِلانتقالِ مِنْ أسلوبٍ إلى آخرَ، وأصلُها: "مَهْمَا يكنْ مِنْ شيءٍ بعدَ البسملةِ والحمدلةِ وَمَا معهما فأقولُ قدْ روينا ..." إلخ.

فوقعتْ كلمةُ "أمَّا" موقعَ اسم هو المبتدأُ، وفعلٍ هو الشرطُ، وتضمَّنتْ مَعناهما، فلتضمُّنِها مَعْنى الشرطِ لَزِمَتْها الفاءُ اللازمةُ للشَّرطِ غالبًا، ولِتضمُّنِها مَعْنى الابتداءِ لَزِمَها لصوقُ الاسمِ اللازمِ للمبتدأِ قضاءً لحقِّ ما كانَ وإبقاءً له بقدرِ الإمكانِ، قالَه في "المطولِ"[2].

وقولُه "غالبًا" قيْدٌ لِقولِه "اللازمةِ للشرطِ"، لا لِقولِه "لَزِمَتْها الفاءُ"؛ لأنَّ لزومَ الفاءِ لـ "أَمَّا" كليٌّ؛ إذْ لا تحذفُ عنْ جزائِها إلَّا في ضرورةِ الشعرِ كقولِه[3]:

فأمَّا القِتَالُ لَا قِتَالَ لَدَيْكُمْ

وقولُه "لَزِمَها لصوقُ الاسمِ" يردُ علَيْه قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: ٨٨]، والجوابُ أنَّ في الكلامِ حذفَ مضافٍ أيْ: فأمَّا المتوفَّى إنْ كانَ ... إلخ، كما اختارَه صاحبُ "الكشَّافِ".

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٤٩٧) [كتاب الزكاة- باب صلاة الإمام، ودعائه لصاحب الصدقة]، ومسلمٌ (١٠٧٨) [كتاب الزكاة- باب الدعاء لمن أتى بصدقته]، وغيرهما من حديث عبدالله بن أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) المطول شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني.

(٣) البيت للحارث بن خالد المخزومي يهجو به بني أسد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وتمامه:

فأما القتال لا قتال لَديكم * ولكن سيرا في عراض المواكب

وأمّا الجوابُ بأنَّ الرضيَّ[1] وصاحبَ المُغْني[2] جوَّزا وقوعَ الشرطيَّةِ بعدَها فلا يتمُّ.

و"أمَّا" هذه حرفُ شرطٍ وتوكيدٍ دائمًا وتفصيلٍ غالبًا، و"بَعْدُ" ظرفٌ مبنيٌّ على الضمِّ كغيرِه منَ الظروفِ المقطوعةِ عنِ الإضافةِ لِمشابهتِه الحرفَ لِاحتياجِه إلى مَعْنى ذلك المحذوفِ، وإنما بُنِيَتْ عَلى حركةٍ تنبيهًا على أنَّ لها عرقًا في الإعرابِ، وعلى الضمِّ جبرًا بأقْوى الحركاتِ لِمَا لَحِقَها منَ الوهنِ بحذفِ ما يحتاجُ إليه، ولِيَكمُلَ لها جميعُ الحركاتِ؛ لأنَّها في الإعرابِ كانتْ إمَّا مجرورةً بـ"مِنْ" أو منصوبةً على الظرفيةِ، أو لِتخالِفَ حركةُ بنائِها حركةَ إعرابِها.

واختُلِفَ في أوَّلِ مَنْ تكلَّمَ بِها، فقِيلَ: داودُ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- وهو الأشهرُ، وهيَ فصلُ الخطابِ الذي أُوتِيَهُ؛ لأنَّها تَفصِلُ بين المُقدِّماتِ والمقاصدِ والخطبِ والمواعظِ.

وقيلَ: أوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِها يعقوبُ، وقِيلَ: أيوبُ، وقِيلَ: سليمانُ، وقِيلَ: قِسُّ بنُ ساعدةَ الإياديُّ، وقِيلَ: كعبُ بنُ لؤيٍّ، وقِيلَ: يعربُ بنُ قحطانَ، وقِيلَ: سحبانُ بنُ وائلٍ، وعلَيْها ففصلُ الخطابِ الذي أُوتِيَه داودُ "البيِّنةُ على المدَّعي، واليمينُ على مَنْ أنكرَ".

لكنَّ القولَ بأنَّ أوَّلَ منْ تكلَّمَ بها سحبانُ فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُها في خُطَبِه، وهو قبلَ سحبانَ إجماعًا؛ إذْ سحبانُ كانَ في زمنِ معاويةَ! وأجيبَ بأنَّ المرادَ أوَّلُ مَنْ قالَها بعدَ النبيِّ ﷺ وصِحَّةُ هذا الجوابِ تتوقَّفُ على أنَّها لَمْ تَصدُرْ منْ أصحابِه بعدَه، ولا مِنْ غيرِهم إلى زمنِ سحبانَ، والظنُّ خلافُ ذلك لِما عُلِمَ مِنْ كمالِ محافظتِهم على الاقتداءِ به في نحوِ ذلكَ،

---

(١) نجم الأئمة محمّد بن الحسن رضي الدين الأستراباذي، الإمام المشهور صاحب شرح الكافية والشافية لابن الحاجب، وقد اختلف المترجمون في سنة وفاته، وقال السيوطي في بغية الوعاه: "ولم أقف على اسمه ولا على شيء من ترجمته؛ إلا أنه فرغ من تأليف هذا الشرح سنة ثلاث وثمانين وستمائة"، توفي سنة ٦٨٤، وقيل: ٦٨٦ وقيل غير ذلك. انظر: بغية الوعاه للسيوطي (ت: ١١٨٨)، وشذرات الذهب لابن العماد (٦٩١/٧).

(٢) شيخ النحاة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام النحوي، وُلد سنة ٧٠٨، وتفقَّه للشافعي ثم تحنبل، وأتقن العربية ففاق الأقران بل الشيوخ، وله مصنفات جليلة نفع الله بها منها: أوضح المسالك على ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وعمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب، والإعراب عن قواعد الإعراب، وشذور الذهب، وقطر الندى، توفي سنة ٧٦١. انظر: "الدرر الكامنة" لابن حجر (٩٣/٣)، "أعيان العصر" للصفدي (٥/٣)

والأَوْلى في الجوابِ أنه أوَّلُ مَنْ تكلَّمَ بها في الشِّعرِ كقولِه:

لَقَدْ عَلِمَ الْقَوْمُ الْيَمَانُونَ أَنَّنِي * إِذَا قُلْتُ أَمَّا بَعْدُ أَنِّي خَطِيبُهَا

و"بَعْدُ" ظرفٌ زمانيٌّ باعتبارِ النطقِ، ومكانيٌّ باعتبارِ الرقمِ.

***

فقد رَوَيْنا عن عليٍّ بن أبي طالب، وعبدِ الله بن مسعود، ومُعاذِ بن جبل، وأبي الدرداء، وابنِ عُمرَ، وابنِ عباسٍ، وأنسٍ بن مالك، وأبي هُريرةَ، وأبي سعيدٍ الخُدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،

(**فَقَدْ رَوَيْنَا**): "قدْ" لِلتحقيقِ، وأتى بنونِ العظمةِ لإظهارِ نعمةِ التلبُّسِ بالعلم المتأكَّدِ تعظيمُ أهلِه، امتثالًا لقولِه تَعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، معَ الأمنِ منَ الإعجابِ ونحوِه، وإلَّا كانَ مذمومًا، وأيضًا العربُ تؤكِّدُ فِعْلَ الواحدِ فتجعلُه بلفظِ الجمعِ لِيكونَ أثْبَتَ وأوْكَدَ، وقدْ يُقالُ: النُّونُ ليستْ لِلعظمةِ بلْ لِلمتكلم معَ غيرِه إشارةً إلى أنَّ هذا الحديثَ قدْ تداولتْه الرواةُ الذينَ هُوَ مِنْهم طبقةً بعدَ طبقةٍ، وأنه متعارفٌ مشهورٌ بينهم لا تختصُّ روايتُه به، والروايةُ الإخبارُ عن أمرٍ عامٍّ لا ترافعَ فيه إلى الحكامِ.

و"رَوَيْنَا" بفتحِ أوَّلِه معَ تخفيفِ الواوِ المفتوحةِ عندَ الأكثرينَ مِنْ "رَوَى يَرْوِي" إذَا نَقَلَ عَنْ غيرِه، وقالَ جَمْعٌ: الأجودُ ضمُّ الرَّاءِ وكسرُ الواوِ مشددةً، أيْ صيَّرُونا رُواةً عنهم بإجازتِهم لنا.

من مناقب الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(**عَنْ عَلِيٍّ**) أوَّلِ مَنْ أسلمَ مِنَ الصِّبْيانِ، ولهُ سبعُ سنينَ أو ثمانٍ أو تسعٌ أو عشرٌ، وشهِدَ المَشاهِدَ كُلَّها معَ رسولِ اللهِ ﷺ سوى تبوك، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خلَّفَه في أهلِه، فقالَ: يا رسولَ اللهِ تُخلِّفني في النِّساءِ والصبيانِ؟ قالَ: (أما ترضى أنْ تكونَ مِنِّي بمنزلةِ هارونَ مِنْ موسى غيرَ أنَّه لا نبيَّ بعدي)[1].

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٧٠٦) [كتاب المناقب- باب مناقب علي بن أبي طالب]، ومسلمٌ (٢٤٠٤) [كتاب الفضائل- باب من فضائل علي بن أبي طالب]، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وعنه أنَّه قالَ: "انطلقتُ أنا والنبيُّ ﷺ حتى أتينا الكعبةَ فقالَ لي رسولُ الله ﷺ: اجلسْ، وصعدَ على منكبيَّ فذهبتُ لِأنهضَ به فرأى مِنِّي ضعفًا فنزَلَ، وجلسَ لي نبيُّ الله ﷺ وقالَ: اصعدْ على منكبيَّ، فصعدتُ عَلى منكبَيْه، قالَ: فنهضَ بي فإنه يُخيَّلُ إليَّ أنِّي لو شئتُ لَنلْتُ أفُقَ السماءِ حتى صعدتُ عَلى البيتِ وعليْه تمثالٌ من صُفْرٍ أو نُحاسٍ فجعلتُ أزاولُه عن يمينه وعنْ شمالِه وبينَ يديه ومن خلفِه حتى إذا استمكنتُ منه قالَ لي رسولُ الله ﷺ: اقذفْ به، فقذفتُ به فتكسَّرَ كما تتكسَّرُ القواريرُ، ثم نزلتُ فانطلقتُ أنا ورسولُ الله ﷺ نستبقُ حتى توارَيْنا بالبيوتِ منْ خشيةِ أنْ يَلقانا أحدٌ(1).

وعنْ سهلِ بنِ سعد أنَّ رسولَ الله -عليه الصلاةُ والسلامُ- قالَ يومَ خيبرَ: (لَأُعطِيَنَّ هذه الرايةَ غدًا رجلًا يفتحُ اللهُ على يدَيْه يُحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه)، قالَ: فباتَ الناسُ يذكرونَ أيُّهم يُعطاها، فلمَّا أصبحَ الناسُ غدَوْا علَى رسولِ الله ﷺ كُلُّهم يَرْجو أنْ يُعطاها، فقالَ: (أينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ؟) فقيلَ له: يا رسولَ اللهِ إنه يشتكي عينَيْه، قالَ: (فأرسِلوا إليه)، فأُتِيَ به فبَصقَ رسولُ اللهِ ﷺ في عينَيْه فبرِئَ حتى كأنْ لمْ يكنْ به وجعٌ فأعطاه الرايةَ، فقالَ عليٌّ: يا رسولَ اللهِ أقاتلُهم حتَّى يَكونوا مِثْلَنا، فقال: (انفذْ عَلى رِسْلِكَ حتى تنزلَ عَلى ساحتِهم، ثم ادعُهم إلى الإسلامِ، وأخبرِهم بما يَجبُ عليهم من حقِّ اللهِ، فواللهِ لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلًا واحدًا خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تكونَ لكَ حُمُرُ النعمِ)(2).

وكانَ لَهُ مِن الوَلَدِ أربعةَ عشرَ ذكرًا وتسعَ عشْرَةَ أنثى، وعنِ الأرقمِ أنه قال: رأيتُ عليًّا، وهو يَبيعُ سيفًا له في السوقِ، وهو يَقولُ: مَنْ يَشتري مِنِّي هذا السيفَ؟ فوالذي فَلَقَ الحبَّةَ لطالَما كشفتُ به الكربَ عنْ وجهِ رسولِ اللهِ ﷺ ولوْ كانَ عندي ثمنُ إزارٍ ما بعتُه.

(1) أخرجه أحمد (٦٤٤) [مسند الخلفاء الراشدين- مسند علي بن أبي طالب]، والبزّار (٧٦٩) [مسند علي بن أبي طالب]، وأبو يعلى (٢٩٢) [مسند علي بن أبي طالب]، والحاكم (٢/٣٦٦-٣٦٧) [كتاب التفسير- صعود علي على منكب رسول الله ﷺ]، والضياء في "المختارة" (٧٠٨) [من حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- حديث قيس الثقفي أبو مريم عن علي عليه السلام]، وغيرهم من حديث علي رضي الله عنه.

(2) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٠٠٩) [كتاب الجهاد والسير- باب فضل من أسلم على يديه رجل]، ومسلمٌ (٢٤٠٦) [كتاب الفضائل- باب من فضائل علي بن أبي طالب]، وغيرهما.

وجاءَ رجلٌ مِنْ مرادٍ إليه، وهو يُصلِّي في المسجدِ فقالَ: احترسْ فإنَّ أُناسًا مِنْ مرادٍ يُريدونَ قتلَك، فقالَ: إنَّ معَ كُلِّ رجُلٍ مَلَكَيْنِ يحفظانه ممَّا لَمْ يُقدَّرْ، فإذَا جاءَ القَدَرُ خلَّيَا بيْنَه وبيْنَه، فإنَّ الأجلَ جُنةٌ حصينةٌ. واستُشهِدَ غداةَ الجمعةِ سنةَ أربعينَ من ضربةِ عبدِ الرحمنِ بنِ مُلجمٍ المراديِّ لسبعٍ بقينَ منَ رمضانَ، وقيلَ: لثلاثَ عشرةَ بقينَ منه، وقيلَ: ليلةَ إحدى وعشرين، وقيلَ: يومَ الأحدِ، وله ثلاثٌ وستونَ سنةً، وغسَّلَهُ ابناهُ وعبدُ اللهِ بنُ جعفر، وصلَّى علَيْه ابنُه الحسنُ، ودُفِنَ في الصَّحْراء عندَ مسجدِ الجماعةِ في الرحبةِ مما يلي أبوابَ كنده، قالَه الصغانيُّ أو في قصرِ الإمارةِ عندَ المسجدِ الجامعِ، وغُيِّبَ قبرُه.

ومدةُ خلافته خمسُ سنينَ إلَّا ثلاثةَ أشهرٍ، ونَقْشُ خاتمِه اللهُ المَلِكُ، وكنيتُه أبو الحسنِ، وأبو ترابٍ كنَّاه بذلك النبيُّ ﷺ لمَّا وجَدَه نائمًا في المسجدِ وقدْ عَلِقَ الترابُ بجسمِه، فأيقظَه وقالَ له: قُمْ أبا ترابٍ[1]، ولُقِّبَ أيضا بحيدرةَ، ومروياتُه خمسةٌ أو ستةٌ وثمانونَ حديثًا.

(ابْنِ أبي طالبٍ) واسمُه عبدُ منافِ بْنِ عبدِ المطَّلبِ.

***

(وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ) الهذليِّ صاحبِ سواكِ رسولِ اللهِ ﷺ وطَهورِه ونعلَيْه، تُوفِّيَ بالمدينةِ سنةَ اثنَيْنِ وثلاثينَ، ودُفِنَ بالبقيعِ، وهو ابنُ بضعٍ وستينَ أو سبعينَ سنةً، ومروياتُه ثمانمائةٍ وثمانيةٌ وأربعونَ، وسيأتي عندَ ذكرِه شيءٌ مِنْ مناقِبِه.

***

(ومُعَاذِ) بضمِّ الميمِ وفتحِ المُهْمَلةِ وبالمعجمةِ **(بْنِ جَبَلٍ)** -بالتحريكِ- ضدُّ السهلِ، الأنصاريِّ، شَهِدَ مُعاذٌ بدرًا وما بعدَها، وبُعِثَ إلى اليمنِ قاضيًا ومُعلِّمًا، ماتَ في طاعونِ عمواسَ بالأُرْدُنِّ سنةَ ثمانِ عشرةَ، وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثينَ، ومروياتُه مائةٌ وسبعةٌ وخمسونَ، وسيأتي عندَ ذِكْرِه شيءٌ مِنْ مآثِرِه.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٤١) [كتاب الصلاة- باب نوم الرجال في المسجد]، ومسلمٌ (٢٤٠٩) [كتاب الفضائل- باب من فضائل علي بن أبي طالب]، وغيرهما من حديث سهل ابن سعدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

(وَأَبِي الدَّرْدَاءِ) بفتح المُهمَلتَيْنِ وسكونِ الراءِ، عويمرِ بنِ زيدٍ، وقيلَ: ابنُ عامرِ الأنصاريُّ الخزرجيُّ، كانَ فقيهًا عابدًا زاهدًا، شَهِدَ المشاهدَ كُلَّها، وهو حكيمُ هذه الأمةِ بإخبارِ المصطفى ﷺ[1]، وسَكَنَ الشامَ، وولَّاه عمرُ بنُ الخطابِ القضاءَ بدمشقَ.

من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه

وكانَ أبو الدرداءِ يَقولُ: "اطلبوا العلمَ فإنْ عَجَزْتم فأحِبُّوا أهلَه، فإنْ لَمْ تُحِبُّوهم فلا تبغُضوهم"، وعنه أيضا: "تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ منْ قيامِ ليلةٍ"، وكَتَبَ إلى مسلمةَ بنِ مخلدٍ الأنصاريِّ: "أمَّا بعدُ، فإنَّ العبدَ إذَا عَمِلَ بطاعةِ اللهِ أحبَّه اللهُ، فإذَا أحبَّه اللهُ حبَّبه إلى خلقِه، وإذَا عَمِلَ بمعصيةِ اللهِ أبغضَه اللهُ، فإذَا أبغضَه اللهُ بَغَّضَه إلى خلْقِه".

وعنه أيضًا: "استعيذوا باللهِ مِنْ خشوعِ النفاقِ"، قيلَ: وما خشوعُ النفاقِ؟ قالَ: "أنْ يُرى الجسدُ خاشعًا والقلبُ ليسَ بخاشعٍ".

وقيل له: لِمَ لا تَقولُ الشِّعرَ؟ فإنه ليسَ رجلٌ له بيتٌ في الأنصارِ إلَّا وقدْ قالَ شِعْرًا، قالَ: وأنا قدْ قُلْتُ فاسمعوا، فقالَ رضي الله عنه:

يُريدُ المرءُ أنْ يُعطَى مُناهُ * ويَأبى اللهُ إلَّا مَا أَرَادَا

يَقولُ المرءُ فَائِدَتِي وَمَالِي * وتَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

وعنه أيضًا: "أَدْرَكْتُ النَّاسَ وَرَقًا لَا شَوْكَ فيه، فأصبَحوا شوْكًا لا ورقَ فيه، إنْ فَقَدْتَهم فَقَدوكَ، وإنْ تركتَهم لا يَتركوكَ"، قالوا: فكيفَ نَصنعُ؟ قالَ: "تُقرِضُهم مِنْ عِرْضِكَ ليومِ فَقْرِكَ"، ولمَّا اشتكى دَخَلَ عليْه أصحابُه فقالوا: ما تَشتكي؟ فقالَ: "ذنوبي"، قالوا: فما تَشتهي؟ قالَ: "الجنةَ"، قالوا: أفلا نَدعو لك طبيبًا؟ قالَ: "هو الذي أضْجَعَني".

وماتَ بدمشقَ سنةَ اثنَيْنِ وثلاثينَ، وقيلَ: سنةَ إحدى وثلاثينَ في خلافةِ عثمانَ، ومروياتُه مائةٌ وتسعةٌ وعشرونَ.

***

(١) أخرجه الدينوريُّ في "المجالسة" (٤٠٥)، وابن عساكر في "التاريخ" (١١٣/٤٧) [ترجمة أبي الدرداء] من حديث جُبير بن نُفير مرسلًا بلفظ: (إنَّ لكلِّ أمَّةٍ حكيمًا، وحكيمُ هذه الأمَّة أبو الدرداء) وإسناده ضعيفٌ جدًّا.

(و) عبدِ اللهِ (**بنِ عمرَ**) بنِ الخطابِ الرجلِ الصالحِ بشهادةِ المصطفى ﷺ[1]، وكانَ ألْزَمَ الناسِ متابعةً للنَّبيِّ ﷺ في أفعالِه وآدابِه، توفِّيَ بمكةَ سنةَ ثلاثٍ أو أربعٍ وسبعينَ، ومروياتُه ألفانِ وسبعُمائةٍ وثلاثونَ، وسيأتي عندَ ذكرِه إيرادُ شيءٍ مِنْ مآثرِه.

***

(و) عبدِ اللهِ (**بنِ عباسٍ**) حبرِ الأمَّةِ وعالِمِها وترجمانِ القرآنِ، ودَعَا له النَّبيُّ ﷺ بقولِه: (اللهمَّ فقِّهْه في الدِّينِ، وعلِّمْه التأويلَ)[2]، وماتَ بالطائفِ سنةَ ثمانٍ وستينَ، وهو ابنُ سبعينَ سنةً، ومروياتُه ألفٌ وستُّمائةٍ وثمانيةٌ وستونَ، وسيأتي عندَ ذكرِه شيءٌ مما يتعلَّقُ به.

***

(و) أبي حمزةَ (**أنسِ بنِ مالكٍ**) الأنصاريِّ، مازَحَه النبيُّ ﷺ بقولِه له: (يا ذا الأُذُنَيْنِ)[3]، وخرجَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ إلى بدرٍ، وإنما لمْ يُعَدَّ في البدريِّينَ؛ لأنَّه لمْ يكنْ في سِنِّ مَنْ يُقاتلُ، ماتَ بالبصرةِ بعدَ أنْ عمَّرَ أكثرَ مِنْ مائةِ سنةٍ، وهو آخِرُ مَنْ ماتَ مِنَ الصحابةِ بها، وماتَ سنةَ إحدى أو اثنتَيْنِ أو ثلاثٍ وتسعينَ، ومروياتُه ألفانِ ومائتا حديثٍ وستةٌ وثمانونَ حديثًا، وسيأتي عندَ ذكرِه إيرادُ شيءٍ ممَّا يتعلَّقُ به.

***

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٠١٦) [كتاب التعبير - باب الإستبرق ودخول الجنة في المنام]، ومسلمٌ (٢٤٧٨) [كتاب الفضائل - باب من فضائل عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا ولفظ مسلم: (أرى عبد الله رجلًا صالحًا).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٣٩٧) [مسند عبدالله بن عباس]، والبزّار (٥٠٧٥) [مسند ابن عباس]، وابن حبّان (٧٠٥٥) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة- ذكر وصف الفقه والحكمة اللذين دعا المصطفى ﷺ لابن عباس بهما]، والحاكم (٣/٥٣٤) [كتاب معرفة الصحابة] من حديث ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، والجملة الأولى منه متفقٌ عليها؛ أخرجها البخاريُّ (١٤٣) [كتاب الوضوء- باب وضع الماء عند الخلاء]، ومسلمٌ (٢٤٧٧) [كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل عبد الله بن عباس]، وغيرهما. وورد بألفاظ أخرى متقاربة.

(٣) أخرجه أحمد (١٢١٦٤) [مسند أنس]، وأبو داود (٥٠٠٢) [كتاب الأدب- باب في المزاح]، والترمذيُّ (١٩٩٢) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في المزاح]، والبزّار (٦٤٧٤) [مسند أنس]، وغيرهم من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(**وأبي هريرةَ**) عبدِ الرحمنِ بنِ صخرٍ الدوْسيِّ عَلى الأصحِّ في اسمه واسم أبيه، **قالَ** الشافعيُّ: أحفظُ مَنْ رَوَى الحديثَ في دهرِه أبو هريرةَ، وكانَ صاحب قيام وصيام، **يُسبِّحُ في** اليومِ اثنَيْ عشرَ ألفَ تسبيحةٍ، وَلِيَ إمرةَ المدينةِ، وماتَ بها سنةَ سبعٍ أو تسعٍ وخمسين، وله **ثمانٍ** وستونَ سنةً، وأحاديثُه المرفوعةُ خمسةُ آلافٍ وثلاثُمائةٍ وستونَ حديثًا، وسيأتي عند ذكرِه شيءٌ مِنْ أمورِه.

(**وأبي سعيدٍ الخدريِّ**) بالمهملةِ نسبةً إلى "خدرةَ"، قبيلةٍ مِنَ الأنصارِ، ماتَ سنةَ أربعٍ وسبعينَ، وله أربعٌ وتسعونَ سنةً، ودُفِنَ بالبقيعِ، ومروياتُه ألفٌ ومائةٌ وسبعون، وسيأتي عندَ ذكرِه التعرُّضُ لِشيءٍ مما يتعلَّقُ به.

***

من طُرُقٍ كثيراتٍ بروايات مُتنوِّعات، أن رسولَ الله ﷺ قالَ: (مَنْ حفظ على أمتي أربعينَ حديثاً من أمرِ دينِها، بعَثَهُ اللهُ يومَ القيامة في زُمرة الفُقهاء والعُلماء)، وفي رواية: (بعثَه اللهُ فقيهاً عالِما)، وفي روايةِ أبي الدرداءِ: (وكنتُ له يومَ القيامةِ شافعاً وشهيداً)، وفي روايةِ ابنِ مسعود: (قيل له: ادخلْ من أيِّ أبوابِ الجنة شِئتَ)، وفي روايةِ ابنِ عمرَ: (كُتب في زُمرةِ العُلماءِ وحُشر في زُمرة الشهداء).

الترغيب في حفظ أربعين حديثا

(**مِنْ طُرُقٍ كثيراتٍ بروايات متنوعاتٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ**):

(**مَنْ**) اسمُ شرطٍ جازمٌ، (**حَفِظَ**) أيْ نَقَلَ، وإنْ لَمْ يَحْفَظِ اللَّفْظَ ولا عَرَفَ المعنى، إذْ به يَحصُلُ انتفاعُ المسلمينَ بخلافِ حفظِ ما لَمْ يُنقَلْ إليهم، قالَه المصنِّفُ، واعترِضَ تفسيرُه الحفظَ بما ذُكِرَ بأنَّ البعثَ في زمرةِ الفقهاءِ والعلماءِ يَستدعي معرفةَ المعاني؛ إذْ لا يُسمَّى فقيهًا عالمًا إلَّا به، وأجيبَ بأنَّ حُفَّاظَ الحديثِ تختلفُ درجاتُهم: فمنهم مقتصرٌ على الروايةِ دونَ الدرايةِ،

فهذا يُحشَرُ في زمرةِ الفقهاءِ والعلماءِ لقولِه ﷺ: (مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)[1]، فمَنْ تشبَّهَ بالعلماءِ يُكْرَمُ كما يُكرَمونَ، وإنْ لمْ يكنْ منهم حقيقةً، ومنهم مَنْ ضمَّ إلى الروايةِ الدرايةَ بأنْ نَقَلَ الأحاديثَ، وفَهِمَ ظواهرَ معانيها، وفهَّمَها لغيرِه، فهذا يُكتَبُ في زمرةِ العلماءِ، ويُحشَرُ مع الشهداءِ، ومنهم مَنْ فيه أهليَّةُ التخريجِ واستنباطِ الأحكامِ كالبخاريِّ ومسلمٍ وشبهِهما، فهذا فقيهٌ عالمٌ حقيقةً، فيُبعَثُ يومَ القيامةِ على ما ماتَ عليه.

وأما جوابُ الشارحِ الهيتميِّ بأنَّ بعثَ الحافظِ في زمرتِهم لا يَستدعي أنه مساوٍ لهم، بلْ يكفي أنَّه منسوبٌ إليهم نسبةً ما ... إلخ، فهو غيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّ قولَه في بعضِ طرقِ الحديثِ (كُتِبَ في زمرةِ العلماءِ)[2] يأباه؛ إذِ الكتابةُ في قومٍ تَقتضي أنَّه منهم.

ولا يعترضُ على المصنفِ بأنهم فسَّروا الإحصاءَ في حديثِ: (إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسمًا، مَنْ أحصاها دَخَلَ الجنةَ)[3] بمَنْ حَفِظَها مستظهِرًا، وبيَّنوا الاستظهارَ بأنَّ المُرادَ قراءتُها كلمةً كلمةً على سبيلِ الترتيلِ، أو عِلْمُها وتدبُّرُ معانيها، أو القيامُ بحقِّها والعملُ بمقْتضاها، وجَعَلوا الأوَّلَ للعوامِّ والثانيَ للعلماءِ والثالثَ للأولياءِ؛ لأنَّ القَصْدَ ثَمَّ التعبُّدُ باللَّفظِ، وهنا النفعُ المُتعَدِّي، وهو لا يَحصُلُ بمجرَّدِ اللفظِ بل بالنقلِ.

وصرَّحَ جَمْعٌ، منهم العلامةُ نجمُ الدينِ الطوفيُّ[4]، بعدمِ الاكتفاءِ بالكتابةِ ولو مِرارًا،

---

(١) أخرجه أحمد (٥١١٤) [مسند ابن عمر]، وأبو داود (٤٠٣١) [كتاب اللباس - باب في لبس الشُّهْرَة]، والطبرانيُّ في "مسند الشاميين" (٢١٦) [مسند عبد الرحمن بن ثابت]، وغيرهم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وإسناده ضعيفٌ.

(٢) أخرج هذا اللفظ الحافظ السلفي في "معجم السفر" (١٣٠٢) [حرف الميم]، و"الأربعين البلدانية" (ص ٣٦) [البلد الأول: مكة حرسها الله]، ورواه جماعة من طريقه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٧٣٦) [كتاب الشروط - باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار]، ومسلمٌ (٢٦٧٧) [كتاب الذكر والدعاء والتوبة - باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) نجم الدين سليمان بن عبد القوى بن عبد الكريم بن سعيد ابن الصفي الحنبلي، ولد سنة ٦٥٧، وهو الطُّوفي، أصله من طوف قرية ببغداد، ثم قدم الشام فسكنها مدة ثم أقام بمصر مدة واشتغل في الفنون، من مصنفاته: بغية السائل في أمهات المسائل، والرياض النواضر في الأشباه والنظائر، ومعراج الوصول في أصول الفقه، وغيرها، توفي سنة ٧١٦. انظر: الدرر الكامنة (٢/٢٩٧)، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٤/٤٠٤).

وحينئذٍ فمَنْ حَفِظَها بقلبِه ولَمْ ينقلْها لم يشملْه الوعدُ، وإنْ كتَبَها في عشرين كتابًا، ونَظَرَ فيه الهيتميُّ بأنَّ كتابتَها نَقْلٌ لها. اهـ.

والحفظُ ضبطُ الشيءِ ومنعُه مِنَ الضياعِ، والإنصافُ أنَّه لا يَدْخُلُ في الوعدِ إلَّا مَنْ حدَّثَ بأربعينَ له بها روايةٌ أو نَقَلَها لهم عنْ أحدِ دواوينِ الإسلامِ المعروفةِ المعوَّلِ عليها والمرجوعِ لها.

(**عَلَى أُمَّتِي**) الأُمَّةُ في الأصلِ الجماعةُ، قالَ الأخفشُ: هي في اللَّفظِ واحدٌ، وفي المعنى جَمْعٌ، وكُلُّ جنسٍ مِنَ الحيوانِ أُمَّةٌ، وفي الخبرِ: (لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا)(1)، والمرادُ بها هنا أُمَّةُ الإجابةِ.

(**أَرْبَعِينَ حَدِيثًا**) نَصَبَه على التمييزِ، وخصَّ هذا العددَ دونَ غيرِه؛ لأنَّه أقلُّ عددٍ له ربعُ عشرٍ صحيحٍ، وفي الحديثِ: (أدوا رُبْعَ عشرِ أموالِكم، مِنْ كُلِّ أربعينَ درهمًا درهمٌ)(2)، أي: بشرطِ بلوغِ الدراهمِ مائتَيْ درهمٍ؛ إذْ لا وجوبَ في أقلَّ مِنْ ذلك، فدلَّ حديثُ الزكاةِ على تطهيرِ رُبْعِ العشرِ لِلْباقي، فكذلكَ العملُ بربعِ عشرِ الأربعينَ حديثًا يُخرِجُ باقيَها عنْ كونِه غيرَ معمولٍ به، ولذا قالَ بِشرٌ الحافي(3): يا أهلَ الحديثِ اعملوا مِنْ كُلِّ أربعينَ حديثًا بحديثٍ.

(**مِنْ**) تبعيضيةٌ (**أَمْرِ**) أي شأنِ (**دِينِهَا**) احترَزَ به عنِ المتعلِّقِ بأمرِ دُنْياها، فلا يكونُ بهذه المثابةِ، (**بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَةِ**) الزمرةُ الجماعةُ مِنَ النَّاسِ، (**الْفُقَهَاءِ**) العارفينَ بالفروعِ الفقهيَّةِ مِنَ الفقهِ، وهو لُغَةً: الفهمُ، (**وَالْعُلَمَاءِ**) هو أعمُّ مِمَّا قبلَه؛ لأنَّه يَشمَلُ المُفسِّرينَ

---

(1) أخرجه أحمد (16788) [حديث عبدالله بن مغفل]، وأبو داود (2845) [كتاب الصيد- باب في اتخاذ الكلب للصيد وغيره]، والترمذيُّ (1486) [أبواب الأحكام والفوائد- باب ما جاء في قتل الكلاب]، والنسائيُّ (4280) [كتاب الصيد والذبائح- صفة الكلاب التي أمر بقتلها]، وابن ماجه (3205) [أبواب الصيد- باب النهي عن اقتناء الكلب إلا كلب صيد]، وغيرهم من حديث عبدالله بن مُغَفَّل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصحَّحه الترمذيُّ.

(2) أخرجه مطوَّلًا ومختصرًا: أحمد (1097) [مسند علي بن أبي طالب]، وأبو داود (1572) [كتاب الزكاة- باب في زكاة السائمة]، وابن ماجه (1790) [أبواب الزكاة- باب زكاة الوَرِق والذهب]، وغيرهم من حديث عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، بلفظ: «رُبْعُ العُشُور».

(3) الإمام الرباني أبو نصر بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، المعروف بالحافي، ولد سنة 152، له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل مرو، وسكن بغداد وتوفي بها سنة 227. انظر: طبقات الصوفية للسلمي (ص 42)، وتاريخ بغداد (7/71)، وفيات الأعيان (1/274).

والمُحدِّثينَ والفقهاءَ، مِنَ الْعِلْم، وهو صفةٌ تُوجِبُ تَمييزًا بينَ المعاني لا يَحتملُ النقيضَ، ومِنْ ثَمَّ قالَ النَّسَفيُّ: استفتيتُ شيخَنا أبا الحسنِ إلكيا الطبريَّ[1] في مَنْ أوصى بثُلث ماله للعلماء والفقهاءِ، هلْ يَدخُلُ فيهم كَتَبَةُ الحديث؟ فكتبَ: نَعَمْ، كيفَ لا يَدخُلُ وقدْ قالَ النبيُّ ﷺ: (مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنْ أَمْرِ دِينِهَا بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقِيهًا عَالِمًا)[2].

وأسندَ أبو الحسنِ القابسيُّ إلى عليِّ بنِ الجعدِ: "جاءَ رجلٌ إلى سفيانَ الثوريِّ[3] فقالَ: حلفتُ بالطلاقِ أنِّي عالمٌ، فقالَ: إنْ كانَ مُستندك عِلْمَ فلانٍ وأبي فلانٍ فقدْ حَنِثْتَ، وإنْ كانَ عندَكَ أربعونَ حديثًا مِنْ كلامِ رسولِ اللهِ ﷺ فأنتَ لَمْ تحنثْ".

ولمَّا كانَ البعثُ في زمرةِ الفقهاءِ والعلماءِ لا يَستَلزِمُ أنْ يَكونَ منهم بيَّنَ المرادَ بذكرِ الروايةِ الثانيةِ بقولِه، (**وَفِي رِوَايَةٍ**) ذَكَرَها أبو نعيم في الحليةِ (**بَعَثَهُ اللهُ فَقِيهًا عَالِمًا**).

وفي روايةِ أبي الدرداءِ (**وَكُنْتُ لَهُ يَوْمَ**)، اليومُ الشرعيُّ مِنْ طُلوعِ الفجرِ إلى الغروبِ، وليسَ مرادًا، وإنَّما المرادُ به القطعةُ مِنَ الزمانِ، ومنه قولُ الشاعرِ:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا ويومٌ لَنَا * ويومٌ نُسَاءُ ويَوْمٌ نُسَرُّ

(**الْقِيَامَةِ**) مصدرُ "قَامَ يَقُومُ" ودَخَلَها التأنيثُ للمبالغةِ، وسُمِّيَتْ بذلك لقيامِ الخلقِ مِنْ قبورِهم، وقِيلَ غيرُ ذلك.

---

(١) عماد الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، المعروف بالكيا الهراسي، الفقيه الشافعي، والفرس يقولون للكبير إلكيا -بكسر الهمزة-، تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد، وله مصنفات منها: الرد على الإمام أحمد، والأحكام، ومباحث المجتهدين وغيرها، توفي سنة ٥٠٤. انظر: وفيات الأعيان (٣/٢٨٦)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/٢٨٨).

(٢) هذا الحديث وما سيأتي من ألفاظ وروايات له انظرها في: "الحلية" لأبي نعيم (٤/١٨٩) [ترجمة زر بن حبيش]، و"شعب الإيمان" للبيهقي (١٥٩٦ - ١٥٩٨) [فصل في فضل العلم وشرف مقداره]، و"فوائد تمام" (١٣٦٨، و١٣٦٩)، و"الأربعين البلدانية" للحافظ ابن عساكر (من رقم ١- ٦) [الحث على حفظ أربعين حديثا].

(٣) أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، ولد سنة ٩٧، وكان ثقةً مأمونًا ثبتًا كثير الحديث حُجَّةً. له من الكتب: الجامع الكبير، والجامع الصغير كلاهما في الحديث، وكتاب في الفرائض، ولابن الجوزي كتابٌ في مناقبه، واختصره الحافظ الذهبي، تُوفِّي سنة ١٦١. وأفرده أيضا الدكتور عبد الحليم محمود بالتأليف. انظر: الطبقات لابن سعدٍ (٦/٣٧١)، وحلية الأولياء (٦/٣٥٦)، وتاريخ بغداد (٩/١٥٤).

(**شَافِعًا**) مِنَ الشفاعةِ، وهيَ سؤالُ الخيرِ للغيرِ، والمرادُ هنا سؤالُ التجاوزِ عنِ الذنوبِ والجرائمِ، (**وَشَهِيدًا**، وفي روايةِ ابنِ مسعودٍ: **قِيلَ لَهُ ادْخُلْ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ**، **وفي روايةِ ابنِ عمرَ: كُتِبَ في زُمْرَةِ العلماءِ**)، هذه الروايةُ مُغايِرةٌ للرِّوايةِ السابقةِ، وهيَ "بَعَثَهُ اللهُ في زمرةِ الفقهاءِ والعلماءِ".

(**وَحُشِرَ في زمرةِ الشهداءِ**) جَمْعُ شهيدٍ، وهو قتيلُ المُعْتَرَكِ، سُمِّيَ شهيدًا؛ لأنَّ اللهَ وملائكتَه يَشهدُونَ له يومَ القيامةِ بالجنةِ، أو لشهادةِ ملائكةِ الرحمةِ له، أو لشهادةِ حالِه بصدقِ نيَّتِه، أو لشهادتِه الحسابَ ولا يُحاسَبُ، أو لأنَّ معَه شاهدٌ هو الدمُ، لأنَّه يُبعثُ وجرحُه ينفثُ دمًا، أو لسقوطِه على الشاهدةِ، وهي الأرضُ، أو لأنَّه يُستشهَدُ به يومَ القيامةِ على الكفارِ، وهي غيرُ مُتباينةٍ، يمكنُ اجتماعُها إلَّا أنَّ الشهادةَ لا تختصُّ بالقتلِ في المُعترَكِ.

***

واتفق الحفَّاظُ على أنه حديثٌ ضعيفٌ، وإن كثُرت طُرقُه.

(**وَاتَّفَقَ الْحُفَّاظُ**) أيْ أكثرُهم (**على أنَّه**) أي الحديثَ المذكورَ (**حَدِيثٌ ضَعِيفٌ**)، وقالَ ابنُ حَجَرٍ[1]: وجَمَعْتُ طُرُقَه في جزءٍ ليسَ منها طريقٌ تَسلَمُ مِنْ علَّةٍ قادحةٍ، وأمَّا ذكرُ ابنِ الجوزيِّ[2] له في الموضوعاتِ فهو تَساهُلٌ منه، والصوابُ أنَّه ضعيفٌ لا موضوعٌ.

فإنْ قلتَ: سَلَّمْنَا عدمَ وضعِه، لكنه شديدُ الضعفِ، والحديثُ إذا اشتدَّ ضعفُه لا يُعمَلُ

(١) قاضي القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي بن أحمد، الشهير بابن حجر العسقلاني، ولد سنة ٧٧٣، وله مصنفات جليلة كثيرة منها: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ولسان الميزان، والإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام، وتهذيب التهذيب، و بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ورفع الإصر عن قضاة مصر، وإنباء الغمر بأنباء العمر، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري، والتلخيص الحبير، وغيرها وأفرده تلميذه الحافظ السخاوي في "الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر"، توفي سنة ٨٥٢. المنهل الوافي لابن تغري (٢/١٧)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٥٥٢).

(٢) الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله الجوزي، كان علّامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صنف في فنون عديدة، من كتبه: زاد المسير في علم التفسير، و"المنتظم" في التاريخ، والموضوعات، وصفوة الصفوة، وغيرها. تاريخ بغداد (٢١/١١٦)، وفيات الأعيان (٣/١٤١).

به، ولا في الفضائلِ كما قالَه ابنُ السبكيِّ وغيرُه، وحينئذٍ فكيفَ عَمِلَ به جَمْعٌ منَ الأئمةِ أتعبوا أنفسَهم في تخريجِ الأربعيناتِ اعتمادًا عليه؟! قلتُ: لا نُسَلِّمُ أنَّه شديدُ الضَّعْفِ؛ لأنَّه[1] هو الذي لا يَخْلو طريقٌ من طُرقِه مِنْ كذَّابٍ أو مُتَّهَمٍ بالكذبِ، وهذا ليسَ كذلك، كما دلَّ عليه كلامُ الأئمةِ، ولَئِنْ سلَّمْنا ذلك فهم لَمْ يَعتمِدوا في ذلك علَيْه بلْ على ما سيذكُرُه المصنفُ مِنَ الأحاديثِ الصحيحةِ. وأمَّا خبرُ: "مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي حَدِيثًا وَاحِدًا كَانَ لَهُ كَأَجْرِ أَحَدٍ وَسَبْعِينَ نَبِيًّا صِدِّيقًا"[2] فهو موضوعٌ، قالَه الشارح الهيتميُّ.

***

وقد صنَّف العلماءُ في هذا البابِ ما لا يُحصى من المُصنَّفات، فأوَّلُ مَنْ علِمتُهُ صنَّفَ فيهِ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ، ثم محمدُ بنُ أسلمَ الطوسيُّ العالمُ الربَّانيُّ، ثم الحسنُ بنُ سُفيانَ النسائيُّ، وأبو بكرٍ الآجُريُّ، وأبو بكرٍ محمدُ بنُ إبراهيمَ الأصفهانيُّ، والدارقُطنيُّ، والحاكمُ، وأبو نُعَيم، وأبو عبدِ الرحمنِ السلميُّ، وأبو سعيدٍ الماليني، وأبو عُثمانَ الصابونيُّ، وعبدُ اللهِ ابنُ محمدٍ الأنصاريُّ، وأبو بكرٍ البيهقيُّ، وخلائقُ لا يُحصَونَ مِنَ المُتقدِّمينَ والمُتأخِّرينَ.

(**وقدْ صنَّفَ العلماءُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ **في هذا البابِ ما لا يُحْصى مِنَ المُصَنَّفاتِ**)، أي: ولي بهم أُسوةٌ، (**فَأَوَّلُ مَنْ**) عَلِمْتُهُ (**صَنَّفَ فِيهِ**) أبو عبدِ الرحمنِ (**عبدُ اللهِ بنُ المباركِ**) بنِ واضحٍ الحنظليُّ التميميُّ مِنْ تابعِ التابعينَ، أحدُ الأئمةِ الأعلامِ، قالَ ابنُ مهديٍّ: الأئمةُ الأربعةُ سفيانُ ومالكٌ وحمادُ بنُ زيدٍ وابنُ المباركِ، وقالَ أحمدُ: لَمْ يكنْ في زمنِ ابنِ المباركِ أطلبَ للعلمِ منه،

(١) أي: الحديث شديد الضعف.

(٢) أخرجه ابن عساكر في "الأربعين البلدانية" (٨) [الحث على حفظ أربعين حديثا]، وذكره الذهبيُّ في "تذكرة الحفَّاظ" (٤/٢٦) [الطبقة الخامسة عشرة]، وقال: «هذا ممَّا تحرم روايته إلَّا مقرونًا بأنه مكذوبٌ من غير تردُّدٍ، وقبَّح الله مَن وضعه، وإسناده مظلمٌ، وفيه ابن رزام كذَّاب لعله آفته».

وكانَ صاحِبَ حديثٍ حافظًا، وقالَ ابنُ معينٍ: ما رأيتُ مَنْ يُحدِّثُ للهِ إلَّا ستةً، منهم ابنُ المباركِ، وكانَ ثقةً عالمًا مُستثْبِتًا صحيحَ الحديثِ، وكانَتْ كتبُه التي حدَّثَ بها عشرينَ ألفًا، وُلِدَ سنةَ تسعَ عشرةَ ومائةٍ، وقيلَ سنةَ ثمانٍ، وتُوفِّيَ مُنصرِفًا مِنَ الجهادِ سنةَ إحدى وثمانينَ ومائةٍ، وله ثلاثٌ وستونَ سنة، وكانَ أبوه مملوكًا لرجلٍ مِنْ همدانَ.

(**ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ**) بْنِ سَالِمِ بْنِ يَزِيدَ (**الطُّوسِيُّ**) -بضمِّ الطاءِ- نسبةً إلى قريةٍ مِنْ قُرى بُخارى، (**الْعَالِمُ الرَّبَّانِيُّ**) وصفه بذلك لِقولِ ابنِ خُزيمةَ: هو ربانيُّ هذه الأئمةِ، لم تَرَ عَيْني مثلَه، والربانيُّ منسوبٌ إلى الربِّ بزيادةِ الألِفِ والنُّونِ للدلالةِ على كمالِ الصفةِ، وهو شديدُ التمسُّكِ بدينِ اللهِ وطاعتِه، وعنِ المبردِ أنَّه منسوبٌ إلى "رَبَّان" الذي يُرَبِّي الناسَ بالتعليمِ وإصلاحِهم، وقالَ الصوفيَّةُ: إنَّه الكاملُ مِنْ كُلِّ الوجوهِ في جميعِ المعاني، وفي البخاريِّ: هو الذي يُربِّي بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه، وقالَ الشارحُ الهيتميُّ: هو مَنْ أُفيضَتْ عليه المعارفُ الإلهيَّةُ، فعَرَفَ بها ربَّه، وربَّى الناسَ بعِلْمِه. اهـ. صنَّفَ المُسْنَدَ وجوَّدَه، وكانَ مِنَ الثقاتِ الحُفَّاظِ والأولياءِ الأبدالِ، وأقدمُ شيخٍ له النضرُ بنُ شميلٍ، وكانَ شبيهًا بأحمدَ بنِ حنبلٍ، توفِّيَ في المحرمِ سنةَ اثنينِ وأربعينَ ومائتينِ.

(**ثُمَّ**) مُحَدِّثُ خُرَاسَانَ (**الْحَسَنُ**) رحَلَ البلدانَ، وسَمِعَ وصَنَّفَ، وكانَ له كراماتٌ، وتوفِّيَ سنةَ ثلاثٍ وثلاثِمائةٍ، (**ابنُ سفيانَ**) بتثليثِ السينِ (**النسائيُّ**) -بفتحِ النونِ- نسبةً إلى "نَسَا" مدينةٍ بخُراسانَ صاحبُ المُسندِ.

(**وأبُو بَكْرٍ**) محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عبدِ اللهِ البغداديُّ صاحبُ كتابِ "الشريعةِ" و"الأربعينَ"، وله تصانيفُ كثيرةٌ، كانَ عالمًا ثقةً ديِّنًا، حدَّثَ ببغدادَ ثم انتقلَ إلى مكةَ واستطابَها، فقالَ: اللهمَّ أحيِني في هذه البلدةِ ولو سنةً، فسَمِعَ هاتِفًا يَقولُ له: لِمَ سنةً؟ ولكنْ ثلاثينَ سنةً، فلمَّا كَمُلَتْ قِيلَ له: وفَّيْنا بالعهدِ، فماتَ بمكةَ في المحرمِ سنةَ ستينَ وثلاثِمائةٍ، (**الآجُرِّيُّ**) بهمزةٍ مفتوحةٍ ممدودةٍ.

(**وأبو بكرٍ محمدُ بنُ إبراهيمَ**) بنِ عليٍّ، كان ثقةً يُملي مِن حفظِه (**الإِصْفَهَانِيُّ**) -بكسرِ الهمزةِ وفتحِها وبالفاءِ لا بالباءِ كذا في الهيتميِّ، وقالَ السعدُ: بالباءِ والفاءِ معَ كسرِ الهمزةِ وفتحِها، والفتحُ

أفصحُ- وقالَ ابنُ رسلانَ: نسبةً إلى أصفهانَ بلدةٍ مِنْ بلادِ فارسَ، توفِّيَ في صفرٍ بأصفهانَ سنةَ ستٍّ وستينَ وأربعِمائةٍ.

(و) أبو الحسنِ عليُّ بنُ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ مهديٍّ صاحبُ "السننِ" و"العللِ" و"الأفرادِ" وغيرِ ذلك (**الدارَقطنيُّ**) -بفتح الراءِ- نسبةً إلى دارِ القطنِ محلةٍ كبيرةٍ ببغدادَ. قالَ الحاكمُ: كانَ أوحدَ عصرِه في الفهمِ والحفظِ والورعِ إمامَ القراءِ والمحدِّثينَ، لمْ يُخلَقْ على أديمِ الأرضِ مثلُه، قالَ الخطيبُ[1]: كانَ فريدَ عصرِه وإمامَ وقتِه، وانتهى إلَيْه عِلْمُ الأثرِ والمعرفةِ بالعللِ وأسماءِ الرجالِ معَ الصدقِ والثقةِ وصحةِ الاعتقادِ. قالَ رجاءُ بنُ محمدِ بنِ المعدلِ: قلتُ للدارقطنيِّ: هلْ رأيتَ مثلَ نفسِك؟ فقالَ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فألححتُ علَيْه، فقالَ لمْ أرَ أحدًا جَمَعَ مثلَ ما جَمَعْتُ. وقالَ أبو ذرٍّ الحافظُ: قلتُ للحاكمِ: هلْ رأيتَ مثلَ الدارَقطنيِّ؟ فقالَ: هو لمْ يرَ مثلَ نفسِه، فكيفَ أنا؟! وكانَ عبدُ الغنيِّ إذَا رأى الدارَقطنيَّ قالَ: أستاذي. وقالَ القاضي أبو الطيبِ: الدارَقطنيُّ أميرُ المؤمنينَ في الحديثِ. وقالَ البرقانيُّ: أملى عليَّ كتابَ العللِ مِنْ حفظِه. وُلِدَ في ذي القعدةِ سنةَ خمسٍ أو ستٍّ وثلاثِمائةٍ، وماتَ لثمانٍ خلونَ من ذي القعدةِ سنةَ خمسٍ وثمانينَ، وسِنُّه تسعٌ وسبعونَ سنةً.

(و) أبو عبدِ اللهِ (**الحاكمُ**) محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ [حمدويْه][2] بنِ نعيم الضبيُّ النيسابوريُّ، صاحبُ "المستدركِ" و"التاريخِ" و"علومِ الحديثِ" و"المدخلِ" و"الإكليلِ" و"مناقبِ الشافعيِّ" وغيرِ ذلك، وُلِدَ سنةَ إحدى وعشرينَ وثلاثِمائةٍ في ربيعِ الأوَّلِ، وكانَ يُعرَفُ بابنِ البَيِّعِ، رحل وسَمِعَ مِنْ نَحْوِ ألفَيْ شيخ. قالَ أبو عبدِ الرحمنِ السلميُّ: سألتُ الدارَقطنيَّ: أيُّهما أحفظُ ابنُ مَنْدَهْ أو ابنُ البَيِّعِ؟ فقالَ ابنُ البَيِّعِ أتقنُ حفظًا.

(١) الحافظ الإمام أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب، ولد سنة ٣٩٢، كان فقيهًا وغلب عليه الحديث والتاريخ، أكثر من التصنيف، ومن أشهر مصنفاته: تاريخ بغداد، والكفاية في علم الرواية، وشرف أصحاب الحديث، واقتضاء العلم العمل، وغيرها، تُوفِّي سنة ٤٦٣. وفيات الأعيان (٩٢/١)، وتذكرة الحفَّاظ (٢٢١/٣).

(٢) جاء في المخطوط: (بن روبة)، وفي المطبوع: (بن رؤبة)، ولعله تصحف على الناسخ، وإنما هو ابن حمدويه.

وقالَ ابنُ طاهرٍ: قلتُ لسعدِ ابنِ عليٍّ: أربعةٌ مِنَ الحُفَّاظِ تعاصروا، أيُّهم أحفظُ؟ قالَ: مَنْ؟ قُلْتُ: الدارَقطنيُّ ببغدادَ، وعبدُ الغنيِّ بمصرَ، وابنُ مَنْدَهْ بأصبهانَ، والحاكمُ بنيسابورَ، فسكتَ، فألحَحْتُ عليْه، فقالَ: أمَّا الدارَقطنيُّ فأعلمُهم بالعِللِ، وعبدُ الغنيِّ أعلمُهم بالأنسابِ، وأمَّا ابنُ مَنْدَهْ فأكثرُهم حديثًا مع معرفةٍ تامَّةٍ، وأمَّا الحاكمُ فأحسنُهم تصنيفًا. دخل الحاكمُ الحمَّامَ بنيسابورَ ثم خرجَ فقالَ: آه، وقُبِضَ وهو مؤتزرٌ، ولْم يلبسْ قميصَه، وذلك في صفرِ سنةَ خمسٍ وأربعِمائةٍ.

(وأبو نُعَيْم) أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أحمدَ بنِ إسحاقَ بنِ موسى بنِ مهران الأصبهانيُّ، أجازَ له مشائخُ الدُّنيا وله ستُّ سنينَ. قالَ الخطيبُ: لْم أرَ أحدًا أُطْلِقَ عليْه اسمُ الحافظِ غيرَ أبي نُعَيْم وأبي حازمٍ. وقالَ ابنُ مردويه: لْم يكنْ في أفقٍ منَ الآفاقِ أحفظَ منه، ولما اشتدَّ صنَّفَ "الحليةَ" و"المستخرجَ على البخاريِّ"، و"المستخرجَ على مسلم"، و"دلائلَ النبوةِ"، و"معرفةَ الصحابةِ"، و"تاريخَ أصبهانَ"، و"فضائلَ الصحابةِ"، وصنَّفَ في الطبِّ وغيرِه. وُلِدَ في رجبٍ سنةَ ستٍّ أو سبعٍ وثلاثينَ وثلاثِمائةٍ، وماتَ بُكرةَ يومِ الاثنينِ لعشرينَ منَ المحرمِ سنةَ ثلاثينَ وأربعِمائةٍ.

(وأبو عبدِ الرحمنِ) محمدُ بنُ الحسينِ صاحبُ "الحقائقِ" و"طبقاتِ الأولياءِ"، كانَ عدْلًا ثقةً، أستاذُ أبي القاسمِ القُشَيْرِيِّ، وشيخُ أبي سعيدِ بنِ أبي الخيرِ، وأثنى عليه الشيخُ عبدُ اللهِ الأنصاريُّ كثيرًا، وقدْ طَعَنَ فيه ابنُ الجوزيِّ كما هو دأبه في شأنِ الأئمةِ، **(السُّلَمِيُّ)** -بضمِّ السينِ وفتحِ اللامِ- نسبةً إلى سُلَيمِ بنِ منصورٍ، قبيلةٍ مشهورةٍ، توفِّيَ يومَ الأحدِ ثالثَ شعبانَ سنةَ اثنتَيْ عشرةَ وأربعِمائةٍ، ودُفِنَ بنيسابورَ.

(وأبو سعيدٍ) صوابُه -كما قالَ ابنُ الأثيرِ والسمعانيُّ- أبو سعد محمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ ابنِ عبدِ اللهِ بنِ حفصٍ، كانَ ثقةً متقنًا، صنَّفَ وحدَّثَ ورحلَ إلى مصرَ فماتَ بها في شوالٍ سنةَ اثنتَيْ عشرةَ وأربعِمائةٍ، **(المَالِينيُّ)** -بفتحِ الميمِ وكسرِ اللامِ ثُمَّ بتحتيَّةٍ ثم بنونٍ- نسبةً إلى مالينَ قرًى مجتمعةٍ منْ أعمالِ هراةَ، يُقالُ لجميعِها "مَالِينُ"، وأهلُ هراةَ يَقولونَ: "مَالَانُ".

(وأبو عثمانَ) إسماعيلُ **(الصابونيُّ)** نسبةً إلى عملِه.

(**وعبدُ اللهِ بنُ محمدٍ الأنصاريُّ**) الهرويُّ منسوبٌ إلى الأنصارِ، وهم الأوسُ والخزرجُ، وُلِدَ سنةَ خمسٍ وتسعينَ وثلاثمائةٍ، وكانَ كثيرَ السهرِ قويًّا في نصرةِ الدينِ، حدَّثَ وصنَّفَ وتوفِّيَ بهراةَ يومَ الجمعةِ منْ ذي الحجةِ سنةَ إحدى وثمانينَ وأربعمائةٍ.

(**وأبو بكرٍ**) أحمدُ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ بنِ موسى (**البيهقيُّ**) نسبةً إلى بيهقَ قريةٍ بناحيةِ نيسابور على عشرينَ فرسخًا منها. قالَ إمامُ الحرمينِ: كُلُّ شافعيٍّ فللشافعيُّ علَيْه المنةُ إلَّا البيهقيَّ فإنَّ له على الشافعيِّ المنَّةَ. وُلِدَ في شعبانَ سنةَ أربعٍ وسبعينَ، وقيلَ أربعٍ وثمانينَ وثلاثمائةٍ، وألَّفَ "شُعَبَ الإيمانِ"، وماتَ في جمادى الأولى سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وأربعمائةٍ بنيسابورَ، ونُقِلَ في تابوتٍ إلى بيهقَ مسيرةَ يومَيْنِ.

وأَوْرَدَ المصنِّفُ لفْظَ "ثُمَّ" في الأَوَّلينَ لِعلمِهِ بالتأخرِ الزمانيِّ فيهما بخلافِ الباقينَ، ولمَّا خَصَّصَ المشاهيرَ بالذكرِ عَمَّمَ فقالَ: (**وخلائقُ لا يُحصَون منَ المتقدمينَ والمتأخرينَ**).

***

وقد استخرتُ اللهَ تعالى في جمعِ أربعين حديثاً، اقتداءً بهؤلاء الأئمةِ الأعلامِ وحُفَّاظِ الإسلام.

ولمَّا كانتِ الاستخارةُ مطلوبةً في جميعِ الأمورِ لقولِه ﷺ: (مَا خَابَ مَنِ اسْتَخَارَ -أي اللهَ-، وَلَا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ -أَيْ مَنْ نَصَحَهُ-، وَلَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ، وَلَا افْتَقَرَ مَنِ اسْتَعْمَلَ الْقَصْدَ فِي نَفَقَةِ عِيَالِه)[1] قدَّمَها المُصنِّفُ على هذا التأليفِ لِتعودَ بركتُها عليه فقالَ: (**وَقَد استخرتُ اللهَ**) لأنَّه يُطلَبُ مِنْ كُلِّ قادمٍ على أمرٍ يَجهَلُ عاقبتَه أنْ يَستخيرَ اللهَ تعالى في الإقدامِ والإحجامِ.

(١) أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (٦٦٢٧) [باب الميم- من اسمه محمد]، و"الصغير" (٩٨٠) [باب الميم- من اسمه محمد]، ومن طريقه القضاعيُّ في" مسند الشهاب" (٧٧٤) [ما خاب من استخار]، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في "المجمع" (٩٦/٨) [كتاب الأدب- باب ما جاء في المشاورة]: «رواه الطبرانيُّ في "الأوسط" و"الصغير" من طريق عبد السلام بن عبد القدوس وكلاهما ضعيفٌ جدًّا».

وقدْ كانَ ﷺ يُعلِّمُ الناسَ دعاءَ الاستخارةِ كما يُعلِّمُهم السورةَ منَ القرآنِ، وكانَ يأمرُهم بذلك[1]، وفي الحديث الذي رواهُ ابنُ السنيِّ عنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَاسْتَخِرْ رَبَّكَ فِيهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ انْظُرْ إِلَى الَّذِي يَسْبِقُ إِلَى قَلْبِكَ، فَإِنَّ الْخَيْرَ فِيهِ)[2].

صفة صلاة الاستخارة

وصِفَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٨-٦٩]، وقيلَ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخرِها، وفي الركعةِ الثانيةِ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقيلَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرِها، ثم يَدعو بعدَ السلامِ منَ الركعتينِ بأنْ يقولَ:

"اللهمَّ إنِّي أستخيرُكَ بعلمِكَ، وأستقدرُكَ بقدرتِكَ، وأسألُكَ مِنْ فضلِكَ العظيمِ، فإنَّكَ تَقدرُ ولا أقدرُ، وتَعلَمُ ولا أعلَمُ، وأنتَ علَّامُ الغيوبِ، اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري -أو قالَ: عاجلِ أمري وآجلِه- فاقدُرْه لي ويَسِّرْه لي ثم باركْ لي فيه، وإنْ كنتَ تعلَمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري -أو قالَ: عاجلِ أمري وآجلِه- فاصرفْه عني واصرِفْني عنه، واقدُرْ لي الخيرَ حيثُ كانَ ثم رضِّني به". اهـ. قالَ: ويُسمِّي حاجتَه، قالَ الشيخُ خليلٌ في منسكِه ثم ليمضيَ بعدَ الاستخارةِ لما انشرحتْ له نفسُه.

قالَ ابنُ حجرٍ: ينبغي التفطُّنُ لدقيقةٍ يُغفَلُ عنها، ولمْ أرَ مَنْ نبَّهَ علَيْها، وهي أنَّ الواوَ في المتعاطفاتِ التي بعدَ "خيرٌ" على بابِها، والتي بعدَ "شرٌّ" على مَعْنى "أوْ"؛ لأنَّ المطلوبَ تيسيرُه لا بدَّ أنْ يكونَ كُلٌّ مِنْ أحوالِه المذكورةِ مِنَ الدينِ والدنيا والعاجلِ والآجلِ وغيرِها خيريَّةً، والمطلوبُ

(١) أخرجه البخاريُّ في عدة مواضع منها: (٧٣٩٠) [كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿قل هو القادر﴾]، وغيره من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن السني في "عمل اليوم والليلة" (٥٩٨) [باب كم مرة يستخير الله عز وجل]، وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح" (١١/١٨٧) [كتاب الدعوات- قوله باب الدعاء عند الوضوء]: «وهذا لو ثبت لكان هو المعتمد لكن سنده واهٍ جدًّا».

صرفُه يَكفي فيه أن يَكونَ بعضُ أحوالِه المذكورةِ شرًّا، وفي إبقاءِ الواوِ على حالِها إيهامُ أنَّه لا يُطلبُ صرفُه إلَّا إذا كانتْ جميعُ أحوالِه لا بعضُها شرًّا، وليسَ مرادًا كما هو ظاهرٌ.

قالَ النوويُّ: والظاهرُ أنَّ صلاةَ الاستخارةِ تحصلُ بركعتَيْنِ مِنَ الرَّواتبِ وبتحيةِ المسجدِ وغيرِها مِنَ النوافلِ.

واعتُرِضَ طلبُ الاستخارةِ هنا؛ إذْ لا يُستخارُ إلَّا في الأمورِ المُبهمة، وأمَّا هذه فطاعةٌ لا شكَّ فيها، والجوابُ أنَّه إنَّما استخارَ في هذه مخافةً مِنْ عدمِ إخلاصِ النيَّةِ فيها، أو لأنَّ غيرَها مِنَ الطَّاعاتِ قدْ يكونُ أَوْلى منْها لكونِه أهمَّ.

واعلمْ أنَّ الاستخارةَ لا تكونُ في واجبٍ ولا مُحَرَّمٍ ولا مكروهٍ ولا في فِعْلِ مندوبٍ وتَرْكِه، وإنَّما تُطلَبُ في الجائزِ وفي تقديمِ بعضِ المندوباتِ على بعضٍ.

(**في جَمْعِ أربعينَ حديثًا اقتداءً بهؤلاءِ الأئمةِ الأعلامِ**) جَمْعُ عَلَم بفتحتَيْنِ، وهو ما يُهتدَى به إلى الطريقِ، ويُطلَقُ العَلَمُ على الجبلِ؛ لأنَّه يُهتدَى به كما قالتِ الخَنْساءُ:

وإنَّ صَخْرًا لتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ *كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

وفي قولِها: "وإنَّ صَخْرًا" وهو اسمُ أَخيها لطيفةٌ اتفاقيَّةٌ لمُناسبةِ الجبلِ، وسُمِّيَ العالِمُ عَلَمًا؛ لأنَّه يَهتدي الناسُ بعلمِه، كما يُقالُ فلانٌ جَبَلٌ في العلمِ، أو لِعلوِّ قدرِه واشتهارِه، (**وحفَّاظِ الإسلامِ**).

***

فائدةٌ

قالَ السيوطيُّ: رُوينا عنِ البخاريِّ في آدابِ طالبِ الحديثِ أَثَرًا لطيفًا: أخبَرَني أبو الفضلِ الأزهريُّ وغيرُه سماعًا عن أبي العباسِ المقدسيِّ قالَ: أخبرَتْنا عائشةُ بنتُ عليٍّ عن أبي عيسى بنِ علاقٍ، أخبرَتْنا فاطمةُ بنتُ سعدِ الخيرِ عن أبي نصرٍ اليوناريِّ: سَمِعْتُ أبا محمدٍ الحسنَ بنَ أحمدَ السمرقنديَّ يَقولُ: سَمِعْتُ أبا بكرٍ محمدَ بنَ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ صالحِ بنِ خلفٍ يَقولُ:

سَمِعْتُ أبا ذرٍّ عمارَ بنَ محمدِ بنِ مخلدٍ التميميَّ يَقولُ: سَمِعْتُ أبا المظفرِ محمدَ بنَ أحمدَ بنِ حامدٍ البخاريَّ قالَ:

لمَّا عُزِلَ أبو العباسِ الوليدُ بنُ إبراهيمَ بنِ زيدٍ الهمدانيُّ عنْ قضاءِ الريِّ وَرَدَ بُخارى، فحَمَلَني معلِّمي أبو إبراهيمَ الخُتليُّ إليْه، وقالَ له: أَسأَلُكَ أنْ تُحدِّثَ هذا الصبيَّ بما سَمِعْتَ من مشايخِنا، فقالَ: ما لي سماعٌ، قالَ: فكيفَ وأنتَ فقيهٌ؟ قالَ: لأنِّي لمَّا بلغتُ مبلغَ الرجالِ تاقتْ نفسي إلى طلبِ الحديثِ فقصدتُ محمدَ بنَ إسماعيلَ البخاريَّ، وأعلمتُه مُرادي، فقالَ لي:

يا بُنيَّ لا تَدخُلْ في أمرٍ إلَّا بعدَ معرفةِ حدودِه والوقوفِ على مقاديرِه، واعلمْ أنَّ الرجلَ لا يصيرُ محدِّثًا كاملًا في حديثِه إلَّا بعدَ أنْ يَكتبَ أربعًا، معَ أربعٍ، كأربعٍ، مثل أربعٍ، في أربعٍ، عندَ أربعٍ، بأربعٍ، على أربعٍ، عنْ أربعٍ، لأربعٍ، وكلُّ هذه الرباعياتِ لا تتمُّ إلَّا بأربعٍ معَ أربعٍ، فإذا تمتْ له كُلُّها هانَ عليْه أربعٌ، وابتُلِيَ بأربعٍ، فإذَا صَبَرَ على ذلك أكرَمَه اللهُ في الدُّنيا بأربعٍ، وأثابَه في الآخرةِ بأربعٍ.

قلتُ له: فَسِّرْ لي -رَحِمَكَ اللهُ- ما ذُكِرَ مِنْ إجمالِ هذه الرباعياتِ!

قالَ: نَعَمْ، أمَّا الأربعُ التي يَحتاجُ إلى كتْبِها هي أخبارُ الرسولِ ﷺ وشرائعُه، والصحابةُ ومقاديرُهم، والتابعينَ وأحوالُهم، وسائرُ العلماءِ وتواريخُهم، (معَ) أسماءِ رجالِهم، وكناها، وأمكنتِهم، وأزمنتِهم، (كـ)التحميدِ معَ الخطبةِ، والدعاءِ معَ التوسلِ، والبسملةِ معَ السورةِ، والتكبيرِ معَ الصلواتِ، (مثل) المسنداتِ، والمرسلاتِ، والموقوفاتِ، والمقطوعاتِ، (في) صغرِه، وفي إدراكِه، وفي شبابِه، وفي كهولتِه، (عندَ) شغلِه، وعندَ فراغِه، وعندَ فقرِه، وعندَ غناه، (بـ)الجبالِ والبحارِ والبلدانِ والبراري، (على) الأحجارِ والأصدافِ والجلودِ والأكتافِ إلى الوقتِ الذي يمكنُه نقلُها إلى الأوراقِ، (عنْ) مَنْ هو فوقَه، ومَنْ هو مثلُه، وعمَّنْ هو دونَه، وعنْ كتابِ أبيه الذي يتيقَّنُ أنَّه بخطِّ أبيه دونَ غيرِه، (لـ)وجهِ اللهِ تعالى طالبًا لمرضاتِه، والعملِ بما وافقَ كتابَ اللهِ منها، ونشرِها بين طالبيها، والتأليفِ في إحياءِ ذكرِه بعدَه.

ثم لا تتمُّ هذه الأشياءُ إلَّا بأربعٍ هي من كسبِ العبدِ: معرفةُ الكتابِ واللغةِ والصرفِ

والنحوِ، معَ أربعٍ هيَ مِنْ إعطاءِ اللهِ تعالى: الصحةُ والقدرةُ والحرصُ والحفظُ، فإنْ صحَّتْ له هذه الأشياءُ هانَ عليه أربعٌ: الأهلُ والولدُ والمالُ والوطنُ، وابتُلِيَ بأربعٍ: شماتةُ الأعداءِ، وملالةُ الأصدقاءِ، وطعنُ الجهلاءِ، وحسدُ العلماءِ، فإذَا صَبَرَ على هذه المحنِ أكرمَه اللهُ في الدُّنيا بأربعٍ: بعزِّ القناعةِ، وبهيبةِ اليقينِ، وبلذةِ العلمِ، وبحسنِ الأدبِ، وأثابه اللهُ في الآخرةِ بأربعٍ: بالشفاعةِ لِمَنْ أرادَ مِنْ إخوانِه، وبظلِّ العرشِ حيثُ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه، وبِسَقْيِ مَنْ أرادَ مِنْ حوضِ محمدٍ ﷺ، وبجوارِ النبيِّينَ في أعلى علِّيِّينَ في الجنةِ. فقدْ أعلمتُكَ يا بُنيَّ بمجملاتِ جميعِ ما كنتُ سَمِعْتُ مِنْ مشايخي متفرِّقًا في هذا البابِ فأقْبِلِ الآنَ على ما قصدتَني لهُ أوْ دَعْ.

***

وقدِ اتفقَ العُلماءُ على جوازِ العملِ بالحديثِ الضعيفِ في فضائلِ الأعمالِ، ومع هذا فليسَ اعتمادي على هذا الحديثِ، بل على قولِه ﷺ في الأحاديثِ الصحيحةِ: (ليُبلِّغِ الشاهدُ منكمُ الغائبَ)، وقولِه ﷺ (نضَّرَ اللهُ امْرأً، سمِعَ مَقالتي فَوعَاها، فأدَّاها كما سمِعها).

العمل بالحديث الضعيف وشروطه

(**وقدِ اتفقَ العلماءُ على جوازِ العملِ بالحديثِ الضعيفِ في فضائلِ الأعمالِ**) في ذِكْرِ الاتفاقِ نَظَرٌ؛ لأنَّ ابنَ العربيِّ قالَ: إنَّ الحديثَ الضعيفَ لا يُعمَلُ به مطلقًا! قالَ المؤلِّفُ في "الأذكارِ": ذَكَرَ الفقهاءُ والمُحَدِّثونَ أنَّه يجوزُ ويُستحَبُّ العملُ في الفضائلِ والترغيبِ والترهيبِ بالحديثِ الضعيفِ ما لم يَكنْ موضوعًا، وأمَّا الأحكامُ كالحلالِ والحرامِ والمعاملاتِ فلا يُعمَلُ فيها إلَّا بالحديثِ الصحيحِ والحسنِ إلَّا أنْ يكونَ في احتياطٍ في شيءٍ مِنْ ذلك، كما إذَا وَرَدَ حديثٌ ضعيفٌ بكراهةِ بعضِ البيوعِ أوِ الأنكحةِ، فإنَّ المستحبَّ أنْ يُتنزَّهَ عن ذلك، ولكنْ لا يَجبُ. اهـ.

ومحلُّ كونِه لا يُعمَلُ بالضعيفِ في الأحكامِ ما لَمْ يَكنْ تلقتْه الناسُ بالقبولِ، فإنْ كانَ كذلك تعيَّنَ وصارَ حجةً يُعمَلُ به في الأحكامِ وغيرِها كما قالَ الإمامُ الشافعيُّ.

ومِنْ ذلك ما نَقلَه الحافظُ جلالُ الدينِ السيوطيُّ في الخصائصِ الصغرى (أنَّ رسولَ **الله** ﷺ ما وَطِئَ على صخرٍ إلَّا وأثَّرَ فيه)، وعزاه لِلحافظِ رزينِ العبدريِّ، انتهى. وقدِ اعتَضَدَ **هذا** الحديثُ بشواهدَ كثيرةٍ.

قالَ السخاويُّ في كتابه "القولُ البديعُ": سَمِعتُ شيخَنا ابنَ حجرٍ -رحِمَهُ اللهُ- مرارًا يَقولُ: شرائطُ العملِ بالحديثِ الضعيفِ ثلاثةٌ:

الأولُ متفقٌ عليه، وهو: أنْ يكونَ الضعفُ غيرَ شديدٍ، وشديدُ الضَّعْفِ هو الذي لا يَخْلو طريقٌ مِنْ طُرقِه مِنْ كذَّابٍ أو متهمٍ بالكذبِ.

والثاني: أنْ يَكونَ مُندرجًا تحتَ أصلٍ عامٍّ فيُخرجَ ما يُخترَعُ بحيثُ لا يَكونُ له أصلٌ أصلًا.

والثالثُ: أنْ لا يُعتقَدَ عندَ العملِ به ثبوتُه لِئلَّا يُنسَبَ إلى النبيِّ ﷺ ما لَمْ يَقُلْه.

والأخيرانِ عن ابنِ عبدِ السلامِ وابنِ دقيقِ العيدِ، والأولُ نَقَلَ العلائي الاتفاقَ عَلَيْهِ، وعنْ أحمدَ أنَّه يُعمَلُ به إذا لم يوجدْ غيرُه، وفي روايةٍ عنه: ضعيفُ الحديثِ أحبُّ إلَيْنا مِنْ رأيِ الرجالِ، وذَكَرَ ابنُ حزمِ الإجماعَ على أنَّ مذهبَ أبي حنيفةَ أنَّ ضعيفَ الحديثِ أَوْلى عندَه مِنَ الرأيِ والقياسِ إذَا لَمْ يوجَدْ في البابِ غيرُه، وقدْ تحصَّلَ أنَّ في العملِ بالحديثِ الضعيفِ **ثلاثةَ** مذاهبَ: الأوَّلُ: لا يُعمَلُ به مطلقًا. الثاني: يُعمَلُ به مطلقًا. الثَّالثُ: يُعمَلُ به في الفضائلِ بشروطِه.

***

(**وَمَعَ هَذَا**) الذي ذكرتُه مِنْ جوازِ العملِ بالحديثِ الضعيفِ في الفضائلِ (**فليسَ اعتمادي عَلى هذا الحديثِ**) وحدَه (**بلْ عَلى قولِه ﷺ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ: ليبلغ الشاهدُ**) السامعُ ما أقولُ (**منكم الغائبَ**)[1] عنه بالنَّصبِ على المفعوليَّةِ، وهذا تحريضٌ على **التعليمِ**

(١) متفقٌ عليه مخرج في عدة مواضع منها ما أخرجه البخاريُّ (١٠٤) [كتاب العلم- باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب]، ومسلمٌ (١٣٥٤) [كتاب الحج- باب تحريم مكة وصيدها]، وغيرهما من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وعدَّه بعضهم من المتواتر، انظر: نظم المتناثر للكتاني (٤) [كتاب العلم- فضل العلم والعلماء].

والتعلُّم، فإنَّه لولاهُ لانقطعَ العلمُ بينَ الناسِ، كذا في بعضِ النُّسخِ، وفي بعضِها تقديمُ حديثِ (نَضَّرَ اللهُ امرأً...) على هذا الحديث.

(وقولُه) ﷺ: **(نَضَّرَ اللهُ)** بفتحِ الضادِ المعجمةِ رويَ مخفَّفًا ومشدَّدًا، قالَ بعضُهم: أكثرُ الشيوخِ يُشدِّدونَ، وأكثرُ أهلِ الأدبِ يخفِّفون، قالَ في البحرِ: وهو أفصحُ؛ مِنَ النَّضارةِ، وهيَ حُسْنُ الوجهِ وبريقُه، ومعناه ألْبَسَه اللهُ النَّضْرةَ وخلوصَ اللونِ، يعني: جمَّلَه اللهُ وزيَّنه، أو معناه: أوصلَه إلى نَضرةِ الجنةِ، وهو نعيمُها، قالَ تعالى: ﴿تعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]، ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، وقالَ جريرٌ:

طَرِبَ الْحَمَامُ بِذِكْرِكُنَّ فَشَاقَنِي * لَا زِلْتُ فِي فَنَنٍ وأَيْكٍ ناضِرِ

أيْ مورقٍ غضٍّ، ومِنْ ثَمَّ قالَ سفيانُ بنُ عُيينةَ: إنِّي لأَرى في وجوهِ أهلِ الحديثِ نضرةً وجمالًا لِهذا الحديثِ، يعني لأنها دعوةٌ أجيبتْ.

وخصَّ حاملَ السُّنَّةِ بالدُّعاءِ؛ لأنَّه سعى في نضرتِها وتجويدِها فجازاه في دعائِه له بما يُناسِبُ حالَه، وذَكَرَ سيِّدي محمدٌ الشاذليُّ في كتابه "الْبَيَان" ما نَصُّه: اختُصَّ أهلُ الحديثِ مِنْ دونِ سائرِ العلماءِ بأنَّهم لا تَزالُ وجوهُهم نَضِرَةً لِدْعوةِ النبيِّ ﷺ لهم بقولِه: (نَضَّرَ اللهُ امرأً سَمِعَ منَّا حديثًا فحَفِظَه حتى يُبلِّغَه غيرَه، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه، ورُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيهٍ)، رواه الترمذيُّ، وحسنَّه عن زيدِ بنِ ثابتٍ[1].

والنَّضرةُ الحُسْنُ والرَّوْنقُ، والمعنى خصَّه اللهُ بالبَهْجةِ والسُّرورِ؛ لأنَّه سعى في نضارةِ العلمِ وتجويدِ السُّنةِ، فجازاهُ في دعائِه بما يُناسِبُ حالَه في المعاملةِ.

ومِنْ نظمِ الحافظِ جلالِ الدينِ السيوطيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- في فن الحديثِ:

(١) أخرجه الدارميُّ (٢٤٩) [كتاب العلم- باب الاقتداء بالعلماء]، وأبو داود (٣٦٦٠) [كتاب العلم- باب فضل نشر العلم]، والترمذي (٢٦٥٦) [أبواب العلم- باب ما جاء في الحثِّ على تبليغ السماع]، وابن ماجه (٢٣٠) [أبواب السنة- باب من بلَّغ علما]. وهو حديث متواتر أخرجه أصحاب السنن وغيرهم عن عدد من الصحابة انظر "الأزهار المتناثرة" للسيوطيِّ (٢) [كتاب العلم]، و"نظم المتواتر" للكتانيِّ (٣) [كتاب العلم].

مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ * ذُو نَضْرَةٍ فِي وَجْهِهِ نُورٌ سَطَعْ

إِنَّ النَّبِيَّ دَعَا بِنَضْرَةِ وَجْهِ مَنْ * أَدَّى الْحَدِيثَ كَمَا تَحَمَّلَ وَاتَّبَعْ

ومِنْ نَظْمِه أيضًا -رحمه الله تعالى-:

أَهْلُ الْحَدِيثِ لَهُمْ مَفَاخِرُ ظَاهِرَةْ * وَهُمْ نُجُومٌ فِي الْبَرِيَّةِ زَاهِرَهْ

فِي أَيِّ مِصْرٍ قَدْ ثَوَوا تَلْقَاهُمْ * حَقًّا لِأَعْدَاءِ الشَّرِيعَةِ قَاهِرَةْ

بِالنُّورِ قَدْ مُلِيَتْ حُشَاشَةُ صَدْرِهِمْ * فَكَذَا وُجُوهُهُمْ تَرَاهَا نَاضِرَةْ

وقيلَ: مَعْنى الحديثِ حَسَّنَ وجهُه في الناسِ أيْ جاهُه وقدرُه، فهو مثلُ قولِه ﷺ: (اطلُبوا الحوائجَ إلى حِسانِ الوجوهِ)(١)، يَعني الوجوهَ مِنَ الناسِ وذوي الأقدارِ، إلَّا أنَّ هذا بعيدٌ؛ لأنَّه مخالفٌ للظَّاهرِ مِنْ غيرِ حاملٍ عليْه، وليسَ نظيرَ "اطلبوا الحوائجَ.. إلخ" لذكرِ الوجوهِ فيه المُحتمَلِ لأنْ يُرادُ بها جمعُ وجهٍ مِنَ الوجاهةِ، وهيَ التقدُّمُ وعلوُّ القدرِ.

وحَكى ابنُ العربيِّ عن ابنِ بشكوالَ أنَّه بالصَّادِ المهملةِ وهو شاذٌّ، وقولُه "نَضَّرَ اللهُ" يَحتمِلُ الخبرَ والدعاءَ، وعلى كُلٍّ فيَحتمِلُ -كما قالَ الحافظُ العراقيُّ- كونَه في الدُّنيا، وكونَه في الآخرةِ وكونَه فيهما.

(.. امرأً سَمِعَ مَقالتي فوَعاها فأدَّاها كما سمِعَها) أيْ مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ، فمَنْ زادَ أو نَقَصَ فهو مُغيِّرٌ لا مؤدٍّ، فيكونُ الدعاءُ مصروفًا عنه، وليسَ في قولِه: "كما سَمِعَها" منعٌ لروايةِ الحديثِ بالمَعْنى خلافًا لِمَنْ زعَمَه؛ لأنَّ المرادَ أدَّى حُكمَها لا لَفظَها.

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٢٤٦) [فضائل علي عَلَيْهِ السَّلَامُ]، والبخاريُّ في التاريخ (ت: ١٠٦) [ترجمة محمد بن ثابت بن سباع]، وابن أبي الدنيا في "قضاء الحوائج" (٥١) [باب طلب الحوائج إلى حسان الوجوه]، وأبو يعلى (٤٧٥٩) [مسند عائشة]، والخرائطي في "اعتلال القلوب" (٣٤٢) [باب ذكر فضيلة الجمال]، وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وله طرقٌ عن أنس وجابرٍ وابن عبَّاسٍ وابن عمر ويزيد القسملي وأبي بكرة وأبي هريرة، وقال الحافظ السخاويُّ في "المقاصد الحسنة" (١٦١) [حرف الهمزة]: «وطرقه كلُّها ضعيفةٌ، وبعضها أشد في ذلك مِن بعضٍ»، وأشار إلى أنَّ أحسن طرقه حديث عائشة المتقدِّم تخريجه، وحديث ابن عبَّاسٍ عند تمام في الفوائد (٨٦٥) من طريق سفيان الثوري عن طلحة ابن عمر عن عطاء عن ابن عبَّاسٍ به مرفوعًا.

وقدْ رأى بعضُ العلماءِ المصطفى ﷺ في المَنام، فقالَ له: أنتَ قلتَ: نَضَّرَ اللهُ امرأً ...إلخ؟ قالَ: نَعَمْ، -ووجهُه يتهلَّلُ بالسُّرورِ- أنا قُلتُه، وكرَّره ثلاثًا. وفي الحديثِ: (مَنْ أدَّى إلى أمتي حديثًا واحدًا يُقيمُ به سُنَّةً، أو يَردُّ به بدعةً، فله الجنةُ)، رواه الحاكمُ في الأربعينَ[1].

فائدةٌ: اختُلِفَ هلْ ثوابُ قارئِ الحديثِ كثوابِ قارئِ القرآنِ أم لا؟! قالَ الجلالُ السيوطيُّ في ألفيةِ الحديثِ له:

وهَلْ ثَوابُ قَارِئِ الْأَخْبَارِ *كَقَارِئِ الْقُرْآنِ خُلْفٌ جَارِ

وانْظُرْ هَلْ ثَوَابُ مُسْتَمِعِهِ كَثَوَابِ مُسْتَمِعِ الْقُرْآنِ، وَقَدْ عُدَّ مِمَّنْ يُؤْتَى أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ أَمْ لَا!

***

ثُمَّ مِن العُلماءِ مَن جمعَ الأربعينَ في أصولِ الدين، وبعضُهم في الفُروعِ، وبعضُهُم في الجِهادِ، وبعضُهم في الزُّهدِ، وبعضُهم في الآدابِ، وبعضُهم في الخُطَبِ، وكلُّها مقاصدُ صالحةٌ رضي اللهُ عن قاصدِيها.

(**ثم منَ العلماءِ مَنْ جَمَعَ الأربعينَ في أصولِ الدينِ**)، الأصولُ جَمْعُ أَصْلٍ كفُلُوسٍ جمعُ فَلْسٍ، وهو في اللُّغةِ الأساسُ، وفي الاصطلاحِ ما يَنبني عليْه غيرُه، وإنْ شئتَ قُلْتَ: ما يتفرَّعُ عليه غيرُه، والمرادُ بها هنا الإلهيَّاتُ والنبواتُ والحشرُ والنشرُ.

(**وبعضُهم**) جَمَعَها (**في الفروعِ**) أيِ المسائلِ الفقهيَّةِ، (**وبعضُهم في**) فضلِ (**الجهادِ، وبعضُهم في**) فضلِ (**الزُّهدِ، وبعضُهم في الآدابِ**) بالمدِّ، جمعُ أدبٍ، كأسبابٍ جمعُ سببٍ، وهو استعمالُ ما يُحمَدُ قولًا وفعلًا، أي بحسنِ الأحوالِ والأخلاقِ واجتماعِ الخصالِ الحميدةِ مِنْ بسطِ الوجهِ، وحُسْنِ اللِّقاءِ، وحُسْنِ التناولِ والأخذِ، وبذلِ المجهودِ، وتركِ السَّفَهِ.

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (١٠/٤٤)، وابن شاذن في "المشيخة الصغرى" (٤٦)، وابن عساكر في "الأربعين البلدانية" (٧)، وغيرهم من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وفي إسناده إسماعيل بن يحيى التيمي قال الذهبي: كذَّابٌ، وانظر "لسان الميزان" لابن حجر (ت: ١٢٥٩).

وقالَ ابنُ عطاءِ الله[1]: الأدبُ الوقوفُ معَ المستحسناتِ، وقيلَ: الأخذُ بمكارمِ الأخلاقِ، وقيلَ: هو تعظيمُ مَنْ فوقَه، والرفقُ بمَنْ دونَه، وقيلَ غيرُ ذلك.

وينقَسِمُ -كما قالَ بعضُهم- إلى قسمَيْنِ: طبيعيٌّ كالكرمِ والشَّجاعة، وكَسْبِيٌّ كمعرفةِ النَّحْوِ واللُّغةِ والشِّعْرِ، وأضافَ بعضُهم إلى ذلك معرفةَ الكتابِ والسُّنَّةِ وعُلومِهما، وصُوفِيّ، وهو ضبطُ الحواسِّ ومُراعاتُ الأنفاسِ. اهـ. زادَ بعضُهم: وشَرْعِيّ، وهو امتثالُ المأموراتِ واجتنابُ المنهياتِ، ولبعضهم:

وَمَا كُلَّ وَقْتٍ تَرَى مُسْعِفًا * فَكُنْ حَافِظًا لِطَرِيقِ الْأَدَبْ
تَرَى اللهَ يَكْشِفُ مَا قَدْ خَفِيْ * فَتَحْظَى بِأَجْرٍ وَنَيْلِ الرُّتَبْ

قالَ بعضُ المتقدِّمينَ: كما أنَّ قوةَ الأجسادِ بالأطعمةِ المصنوعةِ، كذلك قوةُ العقلِ بالآدابِ المسموعةِ.

(وبعضُهم في الخُطَبِ) جمعُ خطبة، وهيَ كلامٌ يُليِّنُ القلوبَ القاسيةَ، ويُرغِّبُ الطبائعَ النافرةَ، مشتقٌّ مِنَ الخَطْبِ؛ لأنَّهم كانوا إذا أَلَمَّ بهم خَطْبٌ خَطَبُوا له ليجْتَمِعوا ويَحتالوا في دفْعِه، والمرادُ الخُطَبُ التي كانَ يَخْطُبُ بها النبيُّ ﷺ في نحوِ جمعةٍ وعيدٍ واستسقاءٍ وكسوفٍ وبعرفةَ وعندَ نزولِ الأمورِ المهمةِ وقدومِ الوفودِ عليهِ ونحوِ ذلك، وقولُه: "في الخُطَبِ" كالأربعينَ الودعانيَّةِ، وبعضُهم في التصوُّفِ.

(وكُلُّها مقاصدُ) جمعُ مقصِدٍ بكسرِ الصادِ **(صالحةٌ)** لِشمولِ الأحاديثِ السابقةِ لجميعِها **(رَضِيَ اللهُ عَنْ قاصِدِيها)**.

***

(١) العارف بالله تعالى تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندراني الشاذلي، صحب الشيخ أبا العباس المرسي صاحب الشاذلي، وصنَّف في مناقبه ومناقب شيخه، وكان المتكلِّم على لسان الصوفية في زمانه، له تصانيف منها: الحكم العطائية، وتاج العروس، ولطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن، وغيرها، تُوفِّي سنة ٧٠٩. انظر الدرر الكامنة (١/٣٢٤)، والديباج (١/٢٤٢).

وقد رأيتُ جمعَ أربعين أهمَّ مِن هذا كلِّه، وهي أربعون حديثاً مُشتملةٌ على جميعِ ذلك، وكلُّ حديثٍ منها قاعدةٌ عظيمةٌ من قواعِدِ الدِّين، قد وصفَه العلماءُ بأن مدارَ الإسلامِ عليه، أو هو نِصفُ الإسلام أو ثُلُثُه أو نحوُ ذلك.

(**وقَدْ رَأَيْتُ**) مِنَ الرَّأْيِ (**جَمْعَ أربعينَ أهمَّ مِنْ هذا كُلِّه، وهيَ أربعونَ حديثًا مشتملةٌ على ذلك**) أيْ على جميعِ أصولِ الشريعةِ وفروعِها، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، والزهدِ في الدُّنيا، والتخلُّقِ بالآدابِ الحسنةِ وغيرِ ذلك.

ولا يرِدُ على قولِه "وَقَدْ رَأَيْتُ جَمْعَ أربعينَ" زيادتُه حديثَيْنِ؛ لأنَّ مفهومَ العددِ لا يُفيدُ حصرًا على الصحيحِ، أو أنَّ ذكرَ القليلِ لا يَنفي الكثيرَ كما قيلَ به في روايةِ (صلاةُ الجماعةِ أفضلُ مِنْ صلاةِ الفذِّ بخمسٍ وعشرينَ)[1] مع روايةِ (سبعٍ وعشرينَ)[2]، أو أنَّه هنا كانَ عزمُه على الاقتصارِ على الأربعينَ، وعندَ فراغِها عَنَّ له زيادةُ الحديثَينِ الأخيرين لِمَا فيهما مِنَ المناسبةِ؛ لأنَّ أحدَهما فيه الوعظُ بمخالفة الهوى، وثانيهما من بابِ الرجاءِ، فكانَ ختمُ الكتابِ بهما مناسبًا.

(**وكُلُّ حديثٍ منها قاعدةٌ مِنْ قواعِدِ الدِّينِ**) القاعِدةُ مِنَ القُعودِ بمعنى الثباتِ، وهيَ لغةً: الأساسُ والعمدُ وخشباتٌ يُركَّبُ الهودجُ فيها، واصطلاحًا: أمرٌ كليٌّ يُتعرَّفُ منه أحكامُ جزئياتِ موضوعِها كالأمرِ للوجوبِ، فإنَّه دليلٌ إجماليٌّ، ومِنْ جزئياتِه ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، والنهيُ للتحريمِ دليلٌ إجماليٌّ، ومِنْ جزئياتِه ﴿لَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الإسراء: ٣٢].

---

(١) متفقٌ عليه؛ مخرَّج في الصحيحين في عدة مواضع مطوَّلًا ومختصرًا منها ما أخرجه البخاريُّ (٤٧٧) [كتاب الصلاة- باب الصلاة في مسجد السوق]، ومسلمٌ (٦٤٩) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤٥) [كتاب الأذان- باب فضل صلاة الجماعة]، ومسلمٌ (٦٥٠) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب فضل صلاة الجماعة]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وكيفيَّةُ استفادةِ الحكم مِنْ ذلك أنْ يُجعَلَ الدليلُ التفصيليُّ مُقَدِّمةً صُغْرى، والدليلُ الإجماليُّ مُقَدِّمةً كُبْرى، فينشأَ عنهما نتيجةٌ هي الحكمُ، كأنْ يُقالَ: "أقيموا الصلاةَ" أمرٌ، والأمرُ للوجوبِ، فينتجُ أنَّ الصلاةَ واجبةٌ، وبهذا يُعلَمُ أنَّ القاعدةَ بهَذا المعنى ليستْ مرادةً للمصنف؛ لأنَّ تلك الأحاديثَ كُلَّها مِنْ بابِ الأحكامِ التفصيليَّةِ دونَ القواعدِ الإجماليَّةِ، وإنَّما أرادَ بالقاعدةِ العُمدةَ والأصلَ الذي تَرجِعُ إليه الأحكامُ أو كثيرٌ منها.

(**قدْ وصفَه العلماءُ بأنَّ مَدارَ**) غالبِ أحكامِ (**الإسلام عليْه**) كحديثِ (إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ)[1]، و(الدِّينُ النصيحةُ)[2]. قالَ ابنُ رسلانَ[3]: كحديثِ (مَنْ رأى منْكم مُنكرًا فلْيُغيِّرْه بيدِه)[4]، لأنَّ أعمالَ الشريعةِ إمَّا معروفٌ يَجِبُ الأمرُ به أو مُنكرٌ يَجِبُ النهيُ عنه، فهو نصفٌ بهذا الاعتبارِ، (**أوْ هو نصفُ الإسلام أو ثلثُه**) كحديثِ (إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ)[5]، فإنَّ أبا داودَ قالَ: إنَّه نصفُ الإسلامِ، والشافعيُّ قالَ: إنَّه ثلثُه. قالَ ابنُ رسلانَ: لأنَّ كسْبَ العبدِ بقلبِه وجوارحِه ولسانِه، والنيةُ أحدُ الثلاثِ، (**أوْ نحو ذلك**) كالربعِ، كحديثِ (لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لِنفسِه)[6].

***

---

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٥٢) [كتاب الإيمان- باب فضل من استبرأ لدينه]، ومسلمٌ (١٥٩٩) [كتاب المساقاة- باب أخذ الحلال وترك الشبهات]، وغيرهما من حديث النُّعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلمٌ (٥٥) [كتاب الإيمان- باب بيان أن الدين النصيحة] وغيره من حديث أبي رقية تميم بن أوس الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن حسن بن علي بن أرسلان، ويعرف بابن رسلان، كان زاهدا متهجدا، له: الزبد منظومة في الفقه، وشرح سنن أبي داود، ومنظومة في علم القراآت، وشرح البخاري، وصل فيه إلى باب الحج، وغير ذلك، توفي سنة ٨٤٤. الضوء اللامع (٢٨٢/١)، والأعلام (١١٧/١).

(٤) أخرجه مسلمٌ (٤٩) [كتاب الإيمان- باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان،] وغيره، من حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٥) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (١) [بدء الوحي كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ]، ومسلمٌ (١٩٠٧) [كتاب الإمارة- باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية] من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٦) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (١٣) [كتاب الإيمان- باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه]، ومسلمٌ (٤٥)[كتاب الإيمان- باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لإخيه] من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

ثُمَّ ألتزمُ في هذهِ الأربعينَ أنْ تكونَ صحيحةً، ومعظمُها في صحيحَي البُخاريِّ ومُسلم، وأذكرُها محذوفةَ الأسانيدِ، ليسْهُلَ حِفظُها، ويعُمَّ الانتفاعُ بها إن شاءَ اللهُ تعالى، ثم أُتبِعُها بباب في ضبْطِ خفيِّ ألفاظِها.

(**ثُمَّ ألتزمُ في هذهِ الأربعينَ أنْ تكونَ صحيحةً**) لِيُعمَلَ بها في الفضائلِ وغيرِها، والمرادُ بالصحيحةِ غيرُ الضَّعيفةِ، فتَتَناوَلُ الحَسَنةَ، (**ومعظمُها**) أيْ غالبُها (**في صحيحَيْ**) شيخِ الحديثِ وطبيبِ عللِه في القديمِ والحديثِ أبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ بنِ المغيرةِ الجعفيِّ (**البخاريِّ**).

التعريف بالإمام البخاري ومناقبه

قالَ الشيخُ تاجُ الدينِ السبكيُّ في طبقاتِه: كانَ البخاريُّ إمامَ المسلمينَ وقدوةَ المؤمنينَ وشيخَ الموحِّدينَ والمعوَّلَ عليه في أحاديثِ سيِّدِ المرسلينَ. وقالَ ابنُ كثيرٍ: إمامُ الحديثِ في زمانِه، والمُقْتَدى به في أوانِه، والمقدَّمُ على سائرِ أقرانِه. قالَ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ: كَتَبَ أهلُ بغدادَ إلى محمدِ بنِ إسماعيلَ كتابًا فيه شِعْرٌ:

الْمُسْلِمُونَ بِخَيْرٍ مَا بَقِيتَ لَهُمْ * وَلَيْسَ بَعْدَكَ خَيْرٌ حِينَ تُفْتَقَدُ

قيلَ: إنَّهُ كانَ يَحفظُ وهو صبيٌّ سبعينَ ألفَ حديثٍ، وكانَ إذا نَظَرَ في الكتابِ مرةً واحدةً حَفِظَ ما فيه، وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَحْفَظُ مائةَ ألفِ حديثٍ صحيحٍ، وأَحْفَظُ مائتَيْ ألفِ حديثٍ غيرِ صحيحٍ، وكانَ يَختِمُ في رمضانَ كلَّ يومٍ ختمةً، ويقومُ بعدَ التراويحِ كُلَّ ثلاثِ ليالٍ بختمةٍ، وكانَ يُصلِّي وقتَ السَّحَرِ ثلاثَ عشرةَ ركعةً، وقالَ: دخلْتُ بَلْخَ فَسَألوني أنْ أُمْلِيَ لهم لِكُلِّ مَنْ كَتَبْتُ عنهُ، فأمليتُ ألفَ حديثٍ عنْ ألفِ شيخٍ.

ومِنْ أعجبِ العجبِ ما رَواهُ البغداديُّ الخطيبُ أنه قَدِمَ بغدادَ فَسَمِعَ به أصحابُ الحديثِ، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائةِ حديثٍ، فقلبوا متونَها وأسانيدَها، وجعلوا متنَ هذا الإسنادِ لإسنادٍ آخرَ، وإسنادَ هذا المتنِ لمتنٍ آخرَ، ودَفَعوها إلى عشرةِ أنفسٍ، ودَفَعوا لكُلِّ رجلٍ عشرةَ أحاديثَ، وأَمَروهم إذا حَضَرُوا الْمَجْلِسَ أنْ يُلقوا ذلك عَلى البخاريِّ، وأخذوا الموعدَ للمجلسِ،

فحضرَ المجلسَ جماعةُ أصحابِ الحديثِ مِنَ الغُرباءِ مِنْ أهلِ خراسانَ وغيرِهم ومِنَ البغداديِّينَ، فلمَّا اطمأنَّ المجلسُ بأهلِه انتُدبَ إليه رجلٌ مِنَ العشرةِ فسألَهُ عن حديثٍ مِنْ تلك الأحاديثِ، فقالَ البخاريُّ: لا أعرفُه، فما زالَ يُلقي عليه واحدًا بعدَ واحدٍ حتى فرغَ مِنْ عشرتِه، والبخاريُّ يَقولُ لا أعرفُه، فكانَ الفهماءُ يَلتفتُ بعضُهم إلى بعضٍ ويَقولونَ: فَهِمَ الرجلُ، ومَنْ كانَ مِنْهم غيرَ ذلكَ يَقضي عَلى البخاريِّ بالعجزِ والتقصيرِ وقلةِ الفهمِ.

ثم انتُدبَ إليه رجلٌ آخرُ مِنَ العشرةِ فسألَه عن حديثٍ مِنْ تلك الأحاديثِ المقلوبةِ، فقالَ البخاريُّ: لا أعرفهُ، فسألَه عنْ آخرَ، فقالَ: لا أعرفُه، فلمْ يزلْ يُلقي عليه واحدًا بعدَ واحدٍ حتى فَرَغَ من عشرتِه، والبخاريُّ يقولُ: لا أعرفُه، ثم انتُدبَ إليه الثالثُ والرابعُ إلى تمامِ العشرةِ، حتى فَرَغوا كُلُّهم مِنَ الأحاديثِ المقلوبةِ، والبخاريُّ يقولُ: لا أعرفُه.

فلمَّا عَلِمَ البخاريُّ أنَّهم قدْ فَرَغوا التفَتَ إلى الأولِ منهم فقالَ له: أمَّا حديثُك الأوَّلُ فهو كذا، وصوابُه كذا، والثاني والثالثُ والرابعُ على الولاءِ حتى أتى على تمامِ العشَرةِ، فردَّ كُلَّ متنٍ إلى إسنادِه، وكلَّ إسنادٍ إلى متنِه، وفَعَلَ بالآخرينَ كذلك، ردَّ متونَ الأحاديثِ كُلَّها إلى أسانيدِها، وأسانيدَها إلى متونِها، فأقَرَّ الناسُ له بالحفظِ، وأذْعَنوا له بالفضلِ.

وههنا تخضعُ للبخاريِّ الرقابُ، فما العجبُ مِنْ ردِّ الخطأِ إلى الصَّوابِ، بلِ العجبُ مِنْ حفظِه لِلْخطأِ القليلِ الفائدةِ على ترتيبِ ما ألقوه علَيْه، ولا عجبَ؛ لأنَّه في سرعةِ الحفظِ طويلُ الباعِ، وهو إمامُ الحُفَّاظِ والنُّقَّادِ بلا نزاعٍ.

ولما خرجَ من بغدادَ لحصولِ المحنةِ فيها بمَسألةِ خَلْقِ القرآنِ، وأرادَ الذهابَ إلى سمرقندَ فلما بلغ خَرْتَنكَ -بفتحِ الخاءِ المعجمةِ وفتحِ المثناةِ وسكونِ النونِ، وهيَ قريةٌ على فرسخَيْنِ مِنْ سمرقندَ بَلَغَه أنَّه افْتُتِنَ أهلُ سمرقندَ في دخولِه، فقومٌ يُريدونَ دخولَه، وقومٌ يَكرهونَ ذلكَ، فأقامَ بها حتَّى انْجَلى الأمرُ، فضجرَ ليلةً، فدَعا وقدْ فرغَ من صلاةِ الليلِ: "اللهمَّ قدْ ضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رحُبَتْ، فاقْبِضْني إليكَ"، فماتَ من ذلك الشهرِ.

فإنْ قُلْتَ: كيفَ أنَّه دَعا بالموتِ، وقدْ خَرَّجَ في صحيحِه (لا يَتمنينَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ

نزَلَ به)(١)؟ فالجوابُ أنَّ المرادَ بالضُّرِّ الضرُّ الدنيويُّ، وأمَّا إذا نَزَلَ به ضرٌّ دينيٌّ فإنه يَجوزُ تمنيه خوفًا من تطرقِ الخللِ للدِّين.

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ حمادٍ، وهو شيخُ البخاريِّ: ودِدْتُ أنِّي شعرةٌ في صدرِ محمدِ بنِ إسماعيلَ البخاريِّ. وقالَ أبو زيدٍ المروزيُّ وهو منْ كِبارِ الشافعيَّة، وأجَلُّ مَنْ روى البخاريَّ عَنِ الفرَبْري: كنتُ نائمًا بينَ الرُّكنِ والمقامِ فرأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقالَ: يا أبا زيدٍ، إلى متى تَدْرُسُ في كتابِ الشافعيِّ، ولا تدرسُ كِتابي؟ فقلتُ يا رسولَ اللهِ، وما كتابُكَ؟ قالَ: جامعُ محمدِ بنِ إسماعيلَ البخاريِّ، يَعني هذا الصحيحَ. وقالَ محمدُ بنُ يوسفَ الفِرَبْري: سمعتُ أبا جعفر محمدَ بنَ أبي حاتمٍ الوراقَ يقولُ: رأيتُ محمدَ بنَ إسماعيلَ البخاريَّ في النوم خلفَ النبيِّ ﷺ وكلَّما رفعَ النبيُّ ﷺ قدَمَه وَضَعَ البخاريُّ قَدَمَه موضعَه. وقالَ الفِرَبْري: رأيتُ النبيَّ ﷺ في النوم فقالَ لِي: أين تريدُ؟ قلتُ: أريدُ محمدَ بنَ إسماعيلَ البخاريَّ، فقالَ: أقرِئْهُ منِّي السلامَ.

وحُكِيَ عنه أنه كان يومًا في المسجدِ وحولَه أصحابُه للدَّرسِ في العلم فرأى بعضَهم عَلى لِحْيَتِه قشَّةً فرماها عن لحيتِهِ في المسجدِ، فأخذَها الإمامُ البخاريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وصرَّها في خرقة وأخرجَها ورَماها خارجَ المسجدِ، وقالَ لِلَّذي رَماها عنْ لِحيَتِه: أنتَ ما رَضِيتَ أنْ تَكونَ هذه القشَّةُ عَلى لِحْيَتي، وأنا عبدُ اللهِ وابنُ آدمَ، فكيفَ أرضى أنْ أرميَها في بيتِ ربِّي، وفي مسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما وضعتُ في كتابي حديثًا حتى استخرتُ اللهَ تعالى وتيقَّنْتُ صحتَهُ. وقالَ ما كتبْتُ في كتابي الصحيحِ حديثًا إلَّا اغتسلْتُ قبلَ ذلكَ، وصلَّيْتُ ركعتَيْنِ بينَ الروضةِ والمنبرِ، وقرأْتُه عَلى النبيِّ ﷺ ثم اضطجعْتُ، فيَأتيني رسولُ اللهِ ﷺ فأقولُ له: يا رسولَ اللهِ، بَلَغني عنكَ أنَّكَ قُلْتَ كذا وكذا، وأقْرأُ عليه ذلكَ الحديثَ، فيقولُ: نَعَمْ صحيحٌ ذلكَ، قالَ: وأرجو أنْ يُبارِكَ اللهُ فيهِ للمُسْلمينَ، فحقَّقَ اللهُ ظنَّه ورجاءَه.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه من طريقين البخاريُّ (٥٦٧١) [كتاب الدعوات- باب الدعاء بالموت والحياة]، ومسلمٌ (٢٦٨٠)، [كتاب الذكر والدعاء والتوبة- باب كراهة تمني الموت لضر نزل به] وغيرهما من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وكانَ إذا فَرَغَ مِنَ التحديثِ أو التصنيفِ قامَ فرَكَعَ، ورويَ أنه كان يَحْضُرُ مجلسه أكثرُ مِنْ عشرينَ ألفًا يَأخذونَ عنه، ومن كلامه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ * فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَة

كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ * ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَة

قالَ المؤلِّفُ: اتَّفقوا على أنَّ البخاريَّ وُلِدَ بِبُخارَى بعدَ صلاةِ الجمعة لثلاث عشرةَ ليلةً خَلَتْ مِنْ شوالٍ سنةَ أربعٍ وتسعينَ ومائة، وتوفِّي -رحِمَهُ اللهُ- ليلةَ السبتِ عندَ صلاةِ العشاءِ ليلةَ عيدِ الفطرِ، وقيلَ بعدَ الظهرِ بخَرْتنك، وهيَ قريةٌ مِنْ قُرى سمرقندَ على فرسخَيْنِ منْها، سنةَ ستٍّ وخمسينَ ومائتَيْنِ، وله مِنَ العمرِ اثنانِ وستونَ سنةً إلَّا ثلاثةَ عشرَ يومًا، قالَه في تهذيبِ الأسماءِ واللُّغاتِ. وما أحسنَ قولَ الكمالِ بن أبي شريفٍ: "وُلِدَ في صدقٍ، وماتَ في نورٍ"[(١)]، ولما دُفِنَ فاحَ مِنْ ترابِ قبرِه رائحةٌ غاليةٌ أطيبُ مِنَ المسكِ، واستمرتْ أيامًا كثيرةً حتى تواترَ عندَ جميعِ أهلِ البلادِ، وسيأتي أيضًا شيءٌ مما يتعلَّقُ به عندَ ذكرِه في استخراجِ الحديثِ الأوَّلِ.

(و) أبو الحسين (**مُسْلِم**) بنُ الحجاجِ بنِ مسلم القشيريُّ.[(٢)]

***

تعريف الإسناد وبيان أهميته

(وأذكرها محذوفة الأسانيد) جَمْعُ إسنادٍ، وهو حكايةُ طريقِ المتنِ، والسندُ الطريقُ الموصلةُ إلى المتنِ، فقولُك: أَخْبَرَنَا فلانٌ إلخ إسنادٌ، ونفسُ الرجالِ سندٌ، وقالَ البدرُ بنُ جماعةَ: الإسنادُ هو الإخبارُ عنْ طريقِ المتنِ، والسندُ هو رفعُ الحديثِ إلى قائله، قالَ: والمحدِّثونَ يَستعمِلونَهما لشيءٍ واحدٍ، وفيه نَظَرٌ، وأَخْذُه إمَّا مِنَ السندِ، وهو ما ارتفعَ وعَلا منْ سفحِ الجبلِ؛ لأنَّ المسندَ يَرفعُه إلى قائلِه، أو مِنْ قولِهم: فلانٌ سندٌ، أي معتمَدٌ، سُمِّيَ بذلك لاعتمادِ الحُفَّاظِ في صحةِ الحديثِ وضعفِه عليه، ولذا قالَ النوويُّ: السندُ سلاحُ المؤمنِ، فإذَا لَمْ يكنْ معَه سلاحٌ، فبِمَ يُقاتِلُ؟ وقالَ بعضُهم: إنَّه كالسيفِ للمُقاتِلِ، وقالَ بعضُهم مشيرًا إليه: إنَّه كالسُّلَّمِ يُصعَدُ علَيْه،

---

(١) وهو تاريخ ولادته ووفاته بحساب الجمل، فحساب كلمة صدق: ١٩٤، وحساب كلمة نور: ٢٥٦.

(٢) ترجم له الشيخ الشبراخيتي في نهاية شرحه على الحديث الأول.

وقالَ ابنُ عُيَيْنَةَ: حدَّثَ الزهريُّ بحديثٍ فقلتُ له: هاتِهِ بلا إسنادٍ، فقالَ: تَرْقَى السطحَ بلا سُلَّمٍ؟ وفي أولِ صحيحِ مسلمٍ عنْ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ: "الإسنادُ مِنَ الدِّينِ، ولولا الإسنادُ لقالَ مَنْ شاءَ ما شاءَ"، وقالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: الذي يَطلُبُ الحديثَ بلا سندٍ كحاطبِ ليلٍ، يحملُ الحطبَ وفيهِ أفْعى، وهو لا يدري. قالَ أبو عليٍّ الجياني: خصَّ اللهُ هذهِ الأمةَ بثلاثةِ أشياءَ لم يُعطِها مَنْ قبْلَها، الإسنادِ والأنسابِ والإعرابِ، ومنْ أدلةِ ذلكَ ما رواهُ الحاكمُ وغيرُه عنِ مطرٍ الوراقِ في قولِه تَعالى: ﴿أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، فقالَ: إسنادُ الحديثِ.

وأمَّا المتنُ فهو ألفاظُ الحديثِ الذي تَقومُ بها المعاني. قالَه الطيبيُّ، وقالَ ابن جماعةَ: هو ما ينتهي إليه غايةُ السندِ، وأخْذُه إمَّا مِنَ المتانةِ، وهيَ المباعدةُ في الغايةِ؛ لأنَّ المتنَ غايةُ السندِ، أو من مَتَنْتُ الكبشَ إذا شقَقْتُ جلدةَ بَيْضَتِه واستخرجتُها، فكأَنَّ المسندَ استخرجَ المتنَ بسندِه، أو مِن المتنِ، وهو ما صَلُبَ وارتفعَ مِنَ الأرضِ؛ لأنَّ المسندَ يقوِّيهِ بالسندِ ويرفعُه إلى قائلِه، أو مِنْ تمتينِ القوسِ أيْ شدِّها بالعصبِ؛ لأنَّ المسندَ يقوِّي الحديثَ بسندِه.

(**ليسهُلَ حفْظُها**) لقلَّةِ ألفاظِها، وإذا سَهُلَ حفْظُها كَثُرَ حُفَّاظُها فيَعُمُّ الانتفاعُ بها، ولِذا قالَ (**ويعمُّ الانتفاعُ بها إنْ شاءَ اللهُ تعالى**)؛ لأنَّه وليُّ كُلِّ شيءٍ والقادرُ عليْه، وقدْ حقَّقَ اللهُ ما أرادَه. وأتى بالمشيئةِ للتبرُّكِ امتثالًا لِأمرِه -تَعالى- أشرَفَ خلْقِه بالإتيانِ بها لذلك لِقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، ومِنْ ثَمَّ سُنَّتْ في الأمورِ المستقبَلَةِ دونَ الماضيةِ كما استُفيدَ مِنَ الآيةِ، فَلا يُقالُ: فعلتُ كذا أمسِ إنْ شاءَ اللهُ، والإسنادُ لفعلِ الغيرِ كهو لِفعلِ النفسِ، ومفعولُ "شاءَ اللهُ" محذوفٌ أيْ إنْ شاءَ اللهُ تعالى ذلكَ، وقدْ قيلَ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] ليسَ لأهلِ الحديثِ منقبةٌ أشرفُ من ذلكَ؛ لأنَّهُ لا إمامَ لهم غيرُه ﷺ؛ لأنَّ سائرَ العلومِ الشرعيَّةِ محتاجةٌ إليه، أما الفقْهُ فواضحٌ، وأمَّا التفسيرُ فلأن أول ما فُسِّرَ به كلامُ اللهِ تعالى ما ثَبَتَ عنْ نبيِّه ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. (**ثُمَّ أُتْبِعَها ببابٍ في ضبطِ خَفيِّ ألفاظِها**) منْ إضافةِ الصفةِ للموصوفِ أيْ ألفاظِها الخفيَّةِ.

وينبغي لكلِّ راغبٍ في الآخرةِ أن يعرفَ هذه الأحاديثَ، لِمَا اشتملتْ عليه من المُهِمَّاتِ، واحتوتْ عليهِ منَ التنبيهِ على جميعِ الطَّاعاتِ، وذلك ظاهرٌ لِمنْ تدبَّره، وعلى اللهِ اعتِمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وله الحمدُ والنِّعمةُ، وبه التوفيقُ والعِصمةُ.

(**وينبغي لِكُلِّ راغبٍ في**) عملٍ أو ثوابِ (**الآخرةِ أنْ يعرفَ هذهِ الأحاديثَ لِمَا اشتمَلَتْ عليْه مِنَ المهمَّاتِ واحتوتْ**) مِنَ "حَوَى" إذَا جَمَعَ (**عليْه مِنَ التنبيهِ**) أي الإيقاظِ والتفهيم (**عَلى جميعِ الطاعاتِ، وذلك ظاهرٌ لِمَنْ تدبَّرَه**) التدبُّرُ التفكرُ، وهو انتقالُ الذهنِ مِنَ التصديقاتِ الحاضرةِ إلى التصديقاتِ المستحضرةِ.

(**وعلى اللهِ**) لا عَلى غيرِه -كما أفادَه تقديمُ المعمولِ- (**اعتمَادِي**) في هذا الجمعِ وغيرِه.

ولا يَرِدُ على الحصْرِ الذي أفادَه تقديمُ المعمولِ أنَّ الاعتمادَ كثيرًا ما يَقعُ على غيرِه؛ لأنَّ المرادَ الاعتمادُ علَيْه في تحصيلِ الأسبابِ وتيسيرِها، والتحصيلُ والتيسيرُ مُختصَّانِ به تعالى، وفيه إشارةٌ إلى محضِ التوحيدِ الذي هو أقْصى مراتبِ العلمِ بالمبدأ.

(**وإلَيْهِ**) لا إلى غيرِه (**تَفويضي**)، التفويضُ إلى اللهِ هو ردُّ الأمرِ كُلِّه إلَيْه.

(**و**) **إلَيْهِ** (**اسْتِنادي**) أي الْتِجائي فيما يتعلَّقُ بتأليفِ العلمِ وغيرِه.

(**ولَهُ**) دونَ غيرِه (**الحمدُ**) مُلْكًا واستحقاقًا واختصاصًا، (**والنعمةُ**) إيجادًا وإيصالًا إلى خلقه بسائرِ أنواعِها -كما مرَّ- وإنْ وُجِدَ له حمدٌ أو منْهُ نعمةٌ فإنَّما هو باعتبارِ الصورةِ دونَ الحقيقةِ.

(**وبه**) لا بغيرِه، وفي بعضِ النسخ: "وبيدِه" أي قدرتِه، (**التوفيقُ**) وهو لغةً: جعلُ الأمرِ مُوافقًا لآخَرَ، واصطلاحًا: قالَ الأشعريُّ: خَلْقُ قدرةِ الطاعةِ في العبدِ، واعترضَه إمامُ الحرمَيْنِ بأنَّه يَشمَلُ الكافرَ والفاسِقَ؛ إذْ كُلٌّ مِنْهما خُلِقَ فيه قدرةُ الطاعةِ، فلا بُدَّ مِنْ زيادةِ قيدٍ في

التَّعريفِ، وهو "والداعية إليها"، وردَّه الدُّوانيُّ[1]؛ لأنَّ القدرةَ عندَ الأشعريِّ العرَضُ المقارِنُ للفِعْلِ، فلا تُوجَدُ قدرةُ الإيمانِ إلَّا معَ وجودِه، ولا توجَدُ قدرةُ الطاعةِ إلَّا معَ فِعْلِها.

(والعِصْمَةُ) بالكسرِ، وهيَ لغةً: المنعُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] أيْ لا مانعَ، ويُقالُ: عَصَمَهُ الطعامُ إذا مَنَعَهُ الجوعَ، وأبو عاصم كنيةُ السويقِ، واصطلاحًا: قالَ الأُبِّي[2]: عدمُ خلقِ القدرةِ على المعصيةِ، وهو منقوضٌ بالصبيِّ والميِّتِ ومَنْ مَعَهُ مِنَ المعصيةِ مانعٌ، والأحسنُ تعريفُها بأنَّها ملكةٌ نفسانيَّةٌ تمنعُ مِنَ الفجورِ والمخالفةِ.

ويجوزُ الدعاءُ بها مطلقةً ومقيدةً على المعتمدِ، وأنكرَ بعضُهمْ جوازَ الدعاءِ بها مطلقةً؛ لأنَّها إنما هي للأنبياءِ والملائكةِ، وأُجيبَ بأنها في حقِّ الأنبياءِ والملائكةِ واجبةٌ، وفي حقِّ غيرِهم جائزةٌ، وسؤالُ الجائزِ جائزٌ، وأنَّ الذي اختصَّ به الأنبياءُ والملائكةُ وقوعُها لهم لا طلبُها.

***

(١) جلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدُّواني، ولد في دوان من بلاد كازرون وسكن شيراز، وولي قضاء فارس وتوفي بها، له مصنفات منها: أنموذج العلوم، وتعريف العلم، وإثبات الواجب، وحاشية على شرح القوشجي لتجريد الكلام، وأفعال العباد، وشرح العقائد العضدية وغيرها، توفي سنة ٩١٨. الضوء اللامع (١٣٣/٧)، والنور السافر (٤٦٣/١).

(٢) محمد بن خليفة بن عمر التونسي الوشتاني الشهير بالأُبِّي، نسبة إلى قرية "أُبَّه" من تونس، من مصنفاته: "إكمال إكمال المعلم لفوائد كتاب مسلم" في سبعة أجزاء وهو شرح لصحيح مسلم، جمع فيه بين شروح المازري والقاضي عياض والقرطبي والنووي، مع زيادات من كلام شيخه ابن عرفة، و"شرح المدونة". توفي ٨٢٧. البدر الطالع (١٦٩/٢)، الإعلام (١١٥/٦).

الحديث الأول

١. عنْ أميرِ المؤمنينَ أبي حفصٍ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نَوى، فمَنْ كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسولِه فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه، ومَنْ كانتْ هجرتُه لِدُنيا يُصيبُها، أو امرأةٍ ينكِحُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه. رواهُ إماما المُحَدِّثينَ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ بنِ المُغيرةِ بنِ بَرْدِزبَهْ البُخاريُّ الجَعْفيُّ، وأبو الحُسينِ مُسلِمُ بنُ الحجاجِ بنِ مُسلم القُشيريُّ النيسابوريُّ في صَحيحَيْهِما اللَّذَيْنِ هُما أصحُّ الكُتبِ.

(**الحَديثُ**) ويُرادفُه الخبرُ على الصحيحِ، هو لغةً ضدُّ القديمِ، وقد استُعمِلَ في قليلِ الخبرِ وكثيرِه؛ لأنَّه يَحدثُ شيئًا فشيئًا، واصطلاحًا: ما أُضيفَ إلى النبيِّ ﷺ قولًا أو فعلًا أو تقريرًا أو صفةً، حتى الحركاتِ والسكناتِ، يقظةً أو منامًا، زادَ بعضُهم أوْ هَمًّا أو إيماءً، ويُعبَّرُ عن هذا بعلمِ الحديثِ روايةً، ويُحَدُّ بأنَّه عِلمٌ يُعرَفُ به أقوالُ رسولِ اللهِ ﷺ وأفعالُه وأحوالُه، وموضوعُه ذاتُ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ حيثُ إنَّه رسولُ اللهِ، وغايتُه الفوزُ بسعادةِ الدارَيْنِ. وأمَّا عِلْمُ الحديثِ درايةً، فهو عِلْمٌ يُعرَفُ به حالُ الرَّاوي والمَرْوِيِّ مِنْ حيثُ القبولُ والردُّ، وموضوعُه الرَّاوي والمَرويُّ مِنْ حَيْثُ ذلك، وغايتُه معرفةُ ما يُقبَلُ وما يُرَدُّ من ذلكَ.

وقالَ ابنُ حَجَرٍ في شرْحِ "النُّخْبَة": الخبرُ عندَ علماءِ الفنِّ مرادفٌ للحديثِ، فيُطلَقانِ على المرفوعِ وعلى الموقوفِ والمقطوعِ، وقيلَ: الحديثُ ما جاءَ عنِ النَّبيِّ ﷺ، والخبرُ ما جاءَ عنْ غيرِه، ومِنْ ثَمَّ قِيلَ لِمَنْ يَشتغِلُ بالسُّنَّةِ مُحدِّثٌ، وبالتواريخِ ونحوِها أَخْبارِيٌّ، وقيلَ: بَيْنهما عمومٌ وخصوصٌ مطلَقٌ، فكُلُّ حديثٍ خبرٌ، ولا عكسَ، وقيلَ: لا يُطلَقُ الحديثُ على غيرِ المرفوعِ إلَّا بشرطِ التقييدِ.

وقدْ ذكَرَ المؤلِّفُ أنَّ المُحَدِّثينَ يُسمُّونَ المرفوعَ والمَوْقوفَ بالأثرِ، وأنَّ فقهاءَ خراسانَ يُسمُّونَ المَوْقوفَ بالأثرِ والمرفوعَ بالخبرِ.

(الأَوَّلُ) المشهورُ أنَّ أصلَه "أَوْأَل" على وزنِ "أَفْعَل"، فقُلبتِ الهمزةُ الثانيةُ واوًا وأُدغمتْ فيها الأُولى، وهو اسمٌ إمَّا بمَعنى "قبلُ"، فيكونُ مُنصرفًا، ومنه قولُهم: "أوَّلًا وآخرًا"، أو صفةٌ أيْ أَفْعَلُ تفضيلٍ بمعنى "أَسْبَقَ"، فيكونُ غيرَ منصرفٍ للوزنِ والوصفِ.

وصَدَّرَ المصنِّفُ بهذا الحديثِ كالبخاريِّ؛ لأنَّ السلفَ الصالحَ كانوا يَستحبُّونَ تقديمَه أمامَ كُلِّ شيءٍ يُبتدَأُ مِنْ أمورِ الدِّينِ، لعمومِ الحاجةِ إلَيْه ولِتنبيهِ الطَّالبِ علَى مزيدِ الاعتناءِ والاهتمامِ بحسنِ النِّيَّةِ والإخلاصِ بالأعمالِ، فإنَّه روحُها الذي به قوامُها، وبفقده تصيرُ هباءً منثوراً، وقدْ قالَ الحافِظُ عبدُ الرَّحمنِ بنُ مهديٍّ[1]: مَنْ أرادَ أنْ يُصنِّفَ كِتابًا فَلْيبدأْ بهذا الحديثِ، وقالَ: لوْ صنَّفْتُ كتابًا لَبدأْتُ في كُلِّ بابٍ منه بهذا الحديثِ.

الكلام على لقب "أمير المؤمنين"

(عنْ أميرِ المؤمنينَ)، هو أوَّلُ مَنْ لُقِّبَ به على العمومِ، أو مِنَ الخلفاءِ لاستثقالِهم خليفةَ خليفةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ولقَّبَه بذلك عديُّ بنُ حاتمٍ ولبيدُ بنُ ربيعةَ حينَ وَفَدَا علَيْه مِنَ العراقِ، وقيلَ: لَقَّبَه به المغيرةُ بنُ شعبةَ، وقيلَ: إنَّه[2] قالَ للناسِ: "أنتمُ المؤمنونَ وأنا أميرُكم"، لا أنَّه أوَّلُ مَنْ لُقِّبَ به مطلقًا، فقدْ لُقِّبَ به عبدُ اللهِ بنُ جحشٍ حينَ بَعَثَه النبيُّ ﷺ في سريةِ اثني عشرَ رجلًا، وقيلَ: ثمانيةٍ، في أولِ مقدمِه المدينةَ، وكَتَبَ له كتابًا، وأمَرَه أنْ لا يَنظُرَ إلَيْه حتى يَسيرَ يومَيْنِ ثُمَّ يَنْظُرَ فيه، فيَمْضي لِمَا أُمِرَ به، ولا يَستكْرِهْ أحدًا مِنْ أصحابه. فلَمَّا سارَ يومَيْنِ فتَحَ الكتابَ فإذَا فيه "إذَا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تَنزلَ بنخلةَ بينَ مكةَ والطائفِ فتَرَصَّدْ بها قريشًا، وتعلَمْ لنَا أخْبارَهم"، فقالَ عبدُ اللهِ وأصحابُه: سمعًا وطاعةً، وقالوا له: ما نَدعوكَ؟ فقالَ: أنتمُ المؤمنونَ وأنا أميرُكم: قالوا: إذًا أنتَ أميرُ المؤمنينَ، ثُمَّ مَضَوْا، ولَقُوا عيراً لِقريشٍ،

---

(١) سيد الحفاظ أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري اللؤلؤي، وُلد سنة ١٣٥، قال الشافعيُّ: "لا أعرف له نظيراً في هذا الشأن"، وقال أحمد بن حنبل: "كأنَّ عبد الرحمن بن مهدي خُلق للحديث"، تُوفِّي سنة ١٩٨. "حلية الأولياء" (٩/٣)، و"تاريخ بغداد" (١٠/٢٩٣)، و"سير أعلام النبلاء" (٧/٥٨٩).

(٢) أي سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فقتلوا عمرَو بنَ الحضرميِّ في أوَّلِ يوم مِنْ رجبٍ كافرًا، وأسروا اثنَيْنِ، وغَنِموا ما كانَ مَعهم، فقالتْ قريشٌ قدِ استحلَّ محمدٌ الشهرَ الحرامَ، فأنْزَلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآيتينِ [البقرة: ٢١٧-٢١٨].

وإنَّما وَصَفَه بأميرِ المؤمنينَ لِمَا نَقَلَه في شرْحِ مسلم عنِ المُطرِّزِ وابنِ خالَوَيْهِ وغيرِهما "إنَّ كُلَّ مَنْ مَلَكَ المسلمينَ يُقالُ له أميرُ المؤمنينَ، ومَنْ مَلَكَ الرومَ قَيْصرُ، ومَنْ مَلَكَ الفرسَ كِسْرَى، ومَنْ مَلَكَ التُّركَ خاقانُ، ومَنْ مَلَكَ القِبْطَ فِرْعونُ، ومَنْ مَلَكَ مِصْرَ العزيزُ، ومَنْ مَلَكَ الحبشةَ النَّجاشِيُّ، ومَنْ مَلَكَ اليمنَ تُبَّعٌ، ومَنْ مَلَكَ حِمْيَرَ القَيْلُ -بفتحِ القافِ.

***

ثُمَّ إنَّ حديثَ النيَّةِ هذا فردٌ غريبٌ باعتبارِ أوَّلِه، مشهورٌ باعتبارِ آخرِه، وليسَ بمتواترٍ خِلافًا لِمَا زَعَمَه بعضُهم؛ لأنَّ شرطَه أنْ توجدَ عدةُ التواترِ في جميعِ طبقاتِه، فإنَّ الصحيحَ أنَّه لم يَرْوِهِ عن النبيِّ ﷺ إلا عمرُ، ولم يَرْوِهِ عنْ عمرَ إلَّا علقمةُ بنُ وقاصٍ الليثيُّ، ولمْ يَرْوِهِ عنْ علقمةَ إلَّا محمدُ بنُ إبراهيمَ التيميُّ، ولمْ يَرْوِهِ عنْ محمدٍ إلَّا يَحيى بنُ سعيدٍ الأنصاريُّ، ومنه اشتُهِرَ فرواه عن يَحيى بنِ سعيدٍ أكثرُ مِنْ ثلاثمِائةِ نَفْسٍ، وقيلَ: سبعمِائةٍ، إلَّا أنْ يُحمَلَ على التواترِ المعنويِّ فيَصِحَّ إذْ طلَبُ النِّيَّةِ في العملِ ثابتٌ في عدَّةِ أحاديثَ غيرِه، منها خبرُ البيهقيِّ: (لا عملَ لِمَنْ لا نيَّةَ له)[1]، و خبرُ غيرِه: (لَيْسَ للمرءِ مِنْ عَملِه إلَّا ما نواه)[2]، وخبرُ ابنِ ماجه: (إنَّما تُبعثُ الناسُ على نيَّاتِهم)[3].

---

(١) "سنن البيهقي" (١٧٩) [جماع أبواب السواك- باب ما جاء في الاستياك عرضا] عن أنس بن مالك، عن رجلٍ من الأنصار من بني عمرو بن عوف.

(٢) ذكره الرافعيُّ في "الشرح الكبير" (٣٢٠/٢) [كتاب الطهارة- باب التيمُّم]، وقال ابن الملقِّن في "البدر المنير" (٦٢٨/٢) [كتاب الطهارة- باب التيمُّم]: «هذا الحديث أورده هكذا الإمام الرافعيُّ بصيغة الجزم ولم أرَ مَن خرَّجه كذلك عوضًا عن صحَّته»، وقال أيضًا الحافظ ابن حجرٍ في "التلخيص الحبير" (٢٦٤/١) [كتاب الطهارة - باب التيمُّم]: «هذا الحديث بهذا اللفظ لم أجده».

(٣) أخرجه أحمد (٩٠٩٠) [مسند أبي هريرة]، وابن ماجه (٤٢٢٩) [أبواب الزهد- باب النية]، وأبو يعلى (٦٢٤٧) [مسند أبي هريرة] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**أبي حَفْص**)، الحفصُ الأسدُ، وكانَ سببُ ذلكَ ما كانَ علَيْه مِنَ الشدَّة كما رَواهُ زيدُ بنُ أسلمَ عنْ أبيهِ أنَّه قالَ: "رأيتُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُمسكُ أُذُنَ فرسِه بإحدى يدَيْه، ويُمسكُ بالأُخرى أُذُنَه، ثم يثِبُ حتى يَرْكَبَ"[١].

(**عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ**) بنِ نفيلِ بنِ عبدِ الْعُزَّى بنِ رِياحٍ -بكسرِ الراءِ، وفتحِ الياءِ آخرِ الحروفِ- ابنِ عبدِ اللهِ بنِ قُرطٍ -بضمِّ القافِ وبالطاءِ المهملةِ- ابنِ رَزاحٍ -بفتحِ الراءِ أوَّلَه ثُمَّ زايٌ مفتوحةٌ أيضًا- ابنِ عديِّ بنِ كعبِ بنِ لؤيٍّ العدويِّ القرشيِّ، يَجتمعُ معَ النَّبيِّ ﷺ في كعبٍ الأبِ الثامنِ، وأمُّهُ حنتمةُ -بالحاءِ المهملةِ- بنتُ هاشمِ بنِ المغيرةِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ مخزومِ بنِ يقظةَ بنِ مرةَ ابنِ كعبٍ، وكونُها بنتَ هاشمٍ هو الصحيحُ، وقيلَ: بنتُ هشامٍ، وعلى الأوَّلِ فهيَ بنتُ عمِّ أبي جَهْلٍ، وعلى الثاني فهيَ أختُه، فيكونُ أبو جهلٍ خالَه.

من مناقب سيدنا عمر

أَسْلَمَ سنةَ ستٍّ مِنَ النُّبوَّةِ، وقيلَ سنةَ خمسٍ بعدَ أربعينَ رَجُلًا وعشْرِ نسوةٍ، كما قالَه سعيدُ ابنُ المسيبِ، أو بعدَ خمسةٍ وأربعينَ رجلًا وإحدى عشرةَ امرأةً كما قالَه عبدُ اللهِ بنُ ثعلبٍ، أو بعدَ تسعةٍ وثلاثينَ رَجُلًا، كما قالَه غيرُهما، وكانَ ذلك بدعوةِ المصطفى ﷺ لما قالَ علَيْه أفضَلُ الصلاةِ والسلامِ: (اللهمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبِّ الرجُلَيْنِ إليكَ بعمرَ بنِ الخطابِ أو بعمرِو بنِ هشامٍ)[٢]، فكانَ أحبَّهما إلَيْه عمرُ بنُ الخطابِ.

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ: "خَرَجَ عمرُ متقلِّدًا سيفَه فلَقيَه رجلٌ مِنْ بَني زهرةَ فقالَ: أينَ تعمدُ يا عمرُ؟ فقالَ أريدُ أنْ أقتلَ محمدًا، قالَ: وكيفَ تأمنُ في بني هاشمٍ وبني زهرةَ، وقدْ قتلتَ محمدًا؟ فقالَ له عمرُ: ما أراك إلَّا قد صبأتَ وتركتَ دينَكَ الذي أنتَ علَيْه، قالَ: أفلا أدلُّكَ علَى العجبِ يا عمرُ، إنَّ أُختَكَ وختنَكَ -أيْ سعيدَ بنَ زيدٍ، أحدَ العشرةِ المبشرينَ بالجنةِ- قدْ أسلَمَا، فمَشى مُغضَبًا حتى أتاهما، وعندَهما رَجُلٌ مِنَ المهاجرينَ يُقالُ له خَبَّابٌ، فلمَّا سَمِعَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "مكارم الأخلاق" (٢٠١) [باب في صدق البأس، وما جاء فيه].

(٢) أخرجه أحمد (٥٦٩٦) [مسند عبدالله بن عمر]، والترمذيُّ وحسَّنه (٣٦٨١)، وابن حبَّان (٦٨٨١) [باب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة- ذكر البيان بأن عز المسلمين بإسلام عمر كان ذلك بدعاء المصطفى ﷺ] وغيرهم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفي الباب عن جماعة.

خَبَّابٌ حِسَّ عُمَرَ تَوَارى في البيتِ، فدَخلَ علَيْهما، فقالَ: ما هذه الهينمةُ التي سَمِعْتُها عندَكم؟ قال: وكانوا يقرءونَ "طه"، فقالَ: ما عدا حديثًا تحدَّثْناه بيْننا، قالَ: فلعلَّكُما قدْ صَبأتُما، فقالَ له ختنُه: أرأيتَ يا عمرُ إنْ كانَ الحقُّ في غيرِ دينِكَ! فوثبَ عمرُ علَى ختنه فوطِئَه وَطئًا شديدًا، فجَاءَتْ أختُه فدفَعَتْهُ عنْ زوجِها، فضَرَبَ رأسَها فأدْماهُ، فقالَتْ وهيَ غَضْبى: كانَ ذلك على رغمِ أنفِكَ، أشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأشْهَدُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، فلمَّا يَئِسَ عمرُ قالَ: أعطوني هذا الكتابَ الذي عندَكم فأقرأه، وكانَ عمرُ يَقرأُ الكتبَ، فقالتْ له أختُه: إنَّكَ رَجُلٌ رِجْسٌ ولا يَمَسُّه إلا المطَهَّرونَ، فقُمْ فاغتسلْ أو تَوضَّأْ، فقامَ فتوضأَ ثم أخذَ الكتابَ فقَرَأَ ﴿طه﴾ حتَّى انتهى إلى قولِه ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فقالَ عمرُ دُلُّوني علَى محمدٍ[1]، وفي روايةٍ[2]: أنَّه وَجَدَ في الكتابِ سورةَ الحديدِ فَقَرَأَ حتَّى بلغَ قولَه تعالى ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٧]، فقالَ: دلُّوني على محمدٍ.

فلمَّا سَمِعَ خبابٌ قولَ عمرَ خَرَجَ مِنَ البيتِ، فقالَ: أبْشِرْ يا عمرُ، فإني أرجو أنْ تكونَ دعوةُ رسولِ اللهِ ﷺ لكَ ليلةَ الخميسِ (اللهمَّ أعِزَّ الإسلامَ بعمرَ بنِ الخطابِ أو بعمرِو بنِ هشامٍ)، قالَ: وأينَ رسولُ اللهِ ﷺ؟ قالَ: في الدارِ التي أسفلَ الصفا.

فانطلقَ عمرُ حتى أتى الدارَ، قالَ: وعلى البابِ حمزةُ وطلحةُ وناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فلمَّا رأى حمزةُ وَجَلَ القومِ مِنْ عمرَ، قالَ حمزةُ: نَعَمْ، هذا عمرُ، فإنْ يُرِدِ اللهُ بعمرَ خيرًا يُسلِمْ ويتَّبِعُ النبيَّ ﷺ وإنْ يُرِدْ غيرَ ذلك يكنْ قتلُه علَيْنا هيِّنًا، قالَ: والنبيُّ ﷺ داخلٌ يوحى إلَيْه، فخَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ حتى أتى عُمرَ فأخذَ بمجامعِ ثوبِه وحمائلِ السيفِ، وقالَ: (أمَا أنتَ مُنتهٍ يا عمرُ حتى يُنزِلَ اللهُ بكَ مِنَ الخِزيِ والنَّكالِ ما أنْزَلَ بالوليدِ بنِ المغيرةِ، اللهمَّ هذا عمرُ بنُ الخطابِ، اللهمَّ أعِزَّ الإسلامَ بعمرَ بنِ الخطابِ)، فقالَ عمرُ: أشهدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ.

(١) أخرجه أبو يعلى كما في "المطالب العالية" (٢٥٩/١٧) [كتاب السيرة والمغازي- باب إسلام عمر]، والحاكم (٥٩/٤)، والبيهقي في "الدلائل" (٢١٩/٢) [جماع أبواب المبعث- باب ذكر إسلام عمر بن الخطاب]، وغيرهم.

(٢) أخرجها البزّار (٢٧٩) [مسند عمر]، والبيهقيُّ في "الدلائل" (٢١٦/٢) [جماع أبواب المبعث- باب ذكر إسلام عمر بن الخطاب]، وغيرهما من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولابنِ عباسٍ[1] أنَّه قالَ: أشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فكبَّرَ أهلُ الدارِ تكبيرةً سَمِعَها أهلُ المسجدِ، ثُمَّ قالَ: يا رسولَ اللهِ أَلَسْنَا على الحقِّ إنْ مُتْنَا وإنْ حَيينا؟ قالَ: (بَلَى، والذي نفسي بيدِه، إنَّكم على الحقِّ إنْ مِتُّمْ وإنْ حَيِيتمْ)، قالَ ففيمَ الاختفاءُ؟ والذي بعثَكَ بالحقِّ لَنخرُجَنَّ، فخرجَ في صفَّيْنِ، حمزةُ في أحدِهما، وعمرُ في الآخرِ حتى دخلوا المسجدَ، فنظرتْ قريشٌ إلى حمزةَ وإلى عمرَ فأصابتْهم كآبةٌ لم يصِبْهم مثلُها، فلقَّبَه رسولُ اللهِ ﷺ يومئذٍ بالفاروقِ. وفي روايةٍ أنَّه لما أظهرَ إسلامَه صاروا يَضربونَه ويَضربُهم حتى أجارهُ خالُه، قالَ: فما زلتُ أُضْرَبُ وأَضْرِبُ حتى أعزَّ اللهُ الإسلامَ.[2]

وصحَّ أنَّه لَمَّا أسلمَ نزلَ جبريلُ وقالَ: يا محمدُ قدِ استبشرَ أهلُ السماءِ بإسلامِ عمرَ، وإنَّ المشركينَ قالوا: قدِ انتصفَ القومُ منَّا اليومَ، وأُنْزِلَ على المصطفى ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].[3]

وروى شريحُ بنُ عبيدٍ عنه أنَّه قالَ: خرجْتُ أتعرَّضُ رسولَ اللهِ ﷺ فوجدتُه قدْ سبقَني إلى المسجدِ، فقمتُ خلْفَه فاستفتحَ سورةَ الحاقةِ، فجعلتُ أَعْجَبُ مِنْ تأليفِ القرآنِ، قالَ: فقلتُ: هذا واللهِ شاعرٌ كما قالتْ قريشٌ، قالَ: فقرَأَ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، قالَ: قلتُ: كاهن، فقرَأَ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣] إلى آخرِ السورةِ، فوقَعَ الإسلامُ في قلبي.[4]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٤٠/١) [ترجمة عمر بن الخطاب].

(٢) أخرجها البزّار (٢٧٩) [مسند عمر]، والبيهقيُّ في "الدلائل" (٢١٦/٢) [جماع أبواب المبعث- باب ذكر إسلام عمر بن الخطاب]، وغيرهما من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٠٣) [أبواب السنة- باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ]، وابن حبَّان (٦٨٨٣) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة- ذكر استبشار أهل السماء بإسلام عمر بن الخطاب]، والطبراني في "الكبير" (٨٠/١١) [باب العين- مجاهد عن ابن عباس]، والحاكم في "المستدرك" (٨٤/٣) [كتاب معرفة الصحابة] من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وفي إسناده عبدالله بن خراش ضعَّفوه، واتهمه الساجي وابن عمَّار الموصلي بالكذب، وانظر: "التهذيب" لابن حجر (١٩٨/٥).

(٤) أخرجه أحمد (١٠٧) [مسند عمر]، وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩ /٦٢) [كتاب المناقب- باب مناقب عمر بن الخطاب] وقال: رواه الطبرانيُّ في "الأوسط "، ورجاله ثقات إلَّا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر.

قالَ ابنُ مسعودٍ: ما زلنا أعزَّةً منذُ أسلمَ عمرُ[1]. وقالَ أيضًا: كانَ إسلامُه فتحًا، وهجرتُه نصرًا، وإمامتُه رحمةً، ولقدْ رأيْنا وما نَستطيعُ أنْ نُصلِّيَ إلى البيتِ حتى أسلمَ فقاتلَهم حتى تَركونا وسبيلَنا[2]. وقالَ صهيبٌ: لمَّا أسلمَ عمرُ جلَسْنا حولَ البيتِ وتحلَّقْنا وطُفْنا وانتصفْنا مِمَّنْ غَلَّظَ علَيْنا[3].

وحكَّمَه اللهُ في العناصرِ الأربعةِ، الريحِ والترابِ والماءِ والترابِ، بدليلِ قصةِ ساريةِ الجبلِ، فإنَّه وجَّهَ جيشًا وأمَّر علَيْهم ساريةَ فبَيْنَما هو يَخْطُبُ نادى: "يا ساريةَ الجبلَ الجبلَ! مَنِ استرعى الذِّئْبَ ظَلَم"، فاستندَ الجيشُ إلى الجبلِ فنصرَهم اللهُ[4].

وما روي عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّه قالَ: أتتْ زلزلةٌ عظيمةٌ في زمنِ عمرَ كادتِ الجبالُ أنْ تَقَعَ من على وجهِ الأرضِ، وذلك عقبَ الفصلِ الذي يُسمُّونَه فصلَ عمواسَ، فضربَ عمرُ الأرضَ بِدِرَّتِه، وقالَ لَها اسكُني، أنا عدلٌ، فويلٌ لعمرَ، فسكنتْ ولمْ تأتِ بعدَها مثلُها[5].

وما كَتبَه لنيلِ مصرَ لَمَّا كَتَبَ له عمرُو بنُ العاصِ أنَّ النيلَ لا يَزيدُ زيادتَه المعتادةَ إلَّا إنْ أُلْقِيَ فيه امرأةٌ بكْرٌ، فأَمَرَ أنْ يُلْقى فيه كتابُه بدلَ المرأةِ، ومما هو مكتوبٌ فيه "إنَّكَ إنْ تطلُعْ مِنْ عندِ اللهِ فاطلَعْ وإنْ كنتَ تطلُعُ مِنْ عندِ نفسِكَ فلا حاجةَ لنا بِكَ"، فلم يُلقَ فيه بعد ذلك امرأةٌ[6].

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٦٨٤) [كتاب أصحاب النبي ﷺ- باب مناقب عمر بن الخطاب]، و(٣٨٦٣)، وغيره.

(٢) أخرجه ابن سعد في" الطبقات الكبرى" [الطبقة الأولى- إسلام عمر] (٣/٢٧٠)، وغيره.

(٣) أخرجه ابن سعدٍ في "الطبقات الكبرى" [الطبقة الأولى- إسلام عمر] (٣/٢٦٩)، وغيره.

(٤) أخرجها أبو نعيم في "الدلائل" (٥٢٦) [الفصل التاسع والعشرون ما جرى على يدي أصحابه بعده- ما ظهر على يد عمر]، والسُّلَمي في "الأربعين" (ص ٣) [باب في جواز الكرامات للأولياء]، واللالكائي في "كرامات الأولياء" (٦٧)، والبيهقي في "الاعتقاد" (ص ٣١٤) [باب القول في كرامات الأولياء]، وابن عساكر في "التاريخ" (٢٠/٢٤) [ترجمة سارية بن زنيم]، وغيرهم من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ونقل السخاويُّ تحسينها كما في "المقاصد الحسنة" (١٣٣٣) [حرف الياء].

(٥) ذكره السبكي في "طبقات الشافعية" (٢/٣٢٤)، قال: قال إمام الحرمين رحمه الله في كتاب الشامل: إنَّ الأرض زلزلت في زمن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فحمد الله وأثنى عليه والأرض ترجف وترتج ثم ضربها بالدرة وقال: "أقري، ألم أعدل عليك؟! فاستقرَّت من وقتها".

(٦) أخرجه مطوَّلًا أبو الشيخ في "العظمة" (٤/١٤٢٤) [صفة النيل ومنتهاه]، وابن عبد الحكم في "فتوح مصر" (ص ١٧٦، ١٧٧)، واللالكائي في "كرامات الأولياء" (٦٦) [سياق ما روي من كرامات أمير المؤمنين أبي حفص=

وما قالَه ابنُ عباسٍ أيضًا: كانتْ تأتي نارٌ كُلَّ عامٍ إلى المدينةِ المشرَّفةِ، فشكى المسلمون ذلك لعمرَ، فقالَ لغلامِه خُذْ هذا الرداءَ فإذَا جاءتِ النّارَ فأفردْه في وجهِكَ، وقلْ يا نارُ هذا رداءُ عمرَ بنِ الخطابِ فهيَ ترجعُ لوقتِها، فلمَّا جاءتِ النارُ ضجَّ المسلمونَ فأخذَ الغلامُ الرداءَ وخَرَجَ به إلى ظاهرِ المدينةِ وفَرَدَه على وجهِه كما أمرَه سيِّدُه، وقالَ: يا نارُ ارجعي هذا رداءُ عمرَ بنِ الخطابِ، فرجعتْ في الحالِ، ولم تَعُدْ[1].

(رضيَ اللهُ عنه) أيْ حَفِظَهُ مِنْ سخطِه إذِ الرِّضا والرضوانُ ضدُّ السخطِ.

***

(قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ) مفعولُ "سَمِعْتُ" أيْ كلامَه؛ لأنَّ السمْعَ لا يتعلَّقُ بالذواتِ، والسمْعُ في الأصلِ مصدرٌ يُطلَقُ على الواحدِ وعلى الجمعِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧].

(يقولُ) جملةُ "يَقُول" مِنَ الفعلِ والفاعلِ محلُّها النَّصْبُ على الحالِ مِنْ "رسولِ اللهِ" أيْ قائلًا، وهيَ حالٌ مبنيَّةٌ لا يَجوزُ حذفُها، هذا ما عليْه الجمهورُ، واختارَ الفارسيُّ[2] أنَّ ما بعدَ "سَمِعْتُ" إنْ كانَ ممَّا يُسمَعُ كـ"سَمِعْتُ القُرْآنَ" تَعَدَّتْ إلى مفعولٍ واحدٍ، وإلَّا كما هنا تعدَّتْ إلى مفعولَيْنِ، فجملةُ "يَقُول" على هذا مفعولٌ ثانٍ.

=عمر بن الخطاب]، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٤/٣٣٦) [ترجمة عمر بن الخطاب]، وغيرهم من طريق عبد الله بن صالح، عن ابن لَهِيعَة عن قيس بن حَجَّاج عمَّن حدَّثهُ به. وهذا الإسناد لا يصح، ولكن يُتساهل في نقل السِّير والأخبار ما لا يُتساهل في غيرها كما هو مقرَّر معلوم.

(١) أخرجها بنحوها البيهقي في "دلائل النبوة" (٢٣٣٣) وأبو نعيم في الدلائل (٥١٨) من حديث معاوية بن حرمل قال: ... خرجت نار بالحرة فجاء عمر إلى تميم فقال: قم إلى هذه النار فقال: يا أمير المؤمنين من أنا؟ وما أنا؟ فلم يزل به حتى قام معه، قال: وتبعتهما فانطلقا إلى النار، قال: فجعل يحوشها بيده هكذا حتى دخلت الشِّعب ودخل تميم خلفها، وجعل عمر يقول: ليس من رأى كمن لم ير.

(٢) العلامة الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان، أبو علي الفارسي النحوي، إمام وقته في علم النحو، دار البلاد، وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة، له من الكتب: التذكرة، والإيضاح والتكملة، والمقصور والممدود، والحجّة في القراءات، وغيرها توفي ببغداد سنة (٣٧٧). تاريخ العلماء النحويين للتنوخي (ص ٢٧) تاريخ بغداد (٧/٢٨٥)، إنباه الرواة (١/٣٠٨).

(إنَّمَا) لِلْحَصْرِ باتفاقِ المُحَقِّقِينَ، وهو إثباتُ الحكمِ للمذكورِ ونفيُه عمَّا عداه، وإنَّما اختُلِفَ في وجهِ الحصرِ، فقيلَ بالمنطوقِ، وقيلَ بالمفهومِ بدليلِ أنَّه يُقالُ: "إنَّما زَيْدٌ قائمٌ لا قاعدٌ" بخلافِ "ما زيدٌ إلا قائمٌ لا قاعدٌ"؛ لأنَّه لو كانَ الحصرُ بالمنطوقِ لكانَ قولُه "لا قاعدٌ" تكرارًا.

ودعوى أنَّ "إنَّ" للإثباتِ و"مَا" للنَّفيِ كما زَعَمَه الرازي، وأنَّ الإثباتَ للمذكورِ، والنفيَ لما عداه غيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّ القاعدةَ أنَّ ما يلي حرفَ النفيِ منفيٌّ، ولأنَّه لو كانتْ "ما" للنفيِ لَصُدِّرتْ معَ كونِ "أنَّ" لَها الصدرَ، فيلزمُ اجتماعُ المُتصدِّرَيْنِ على صدرٍ واحدٍ، وأيضًا فيه اجتماعُ حرفَيِ الإثباتِ والنفيِ بلا فاصلٍ، فيَلْزَمُ اجتماعُ الضِّدَّيْنِ، وأيضًا يَلْزَمُ علَيْه جوازُ نصبِ "زَيد" في "إنَّما زيدٌ قائمٌ"؛ لأنَّها إذَا اقترنتْ بما يَجُوزُ إعمالُها، وإنْ كانَ نادرًا، والأَوْلى أنْ تُجعَلَ "ما" زائدةً لتأكيدِ الإثباتِ، وتضاعُفُ الإثباتِ يُفيدُ الحصرَ.

(الأَعْمَالُ) جَمْعُ عَمَلٍ، وهو حركةُ البدنِ فيَشمَلُ القولَ؛ لأنَّه عملُ اللِّسانِ، كما قالَه ابنُ دقيقِ العيدِ خلافًا لِمَنْ أخرجَه، وأوردَ على من سمَّى القولَ عملًا بأنَّ مَنْ حَلَفَ لا يَعمَلُ عملًا، فقالَ قولًا يَحنَثُ؟! وأُجيبَ بأنَّ مرجعَ اليمينِ إلى العُرفِ، والقولُ لا يُسمَّى عملًا في العُرْفِ.

وقدْ يُتجوَّزُ بالعملِ عنْ حركةِ النفسِ، فإنْ قُلْتَ: النيَّةُ أيضًا عَمَلٌ؛ لأنَّها مِنْ أعمالِ القلبِ، فإذَا احتاجَ كُلُّ عملٍ إلى نيَّةٍ، فالنيَّةُ أيضًا تَحتاجُ إلى نيَّةٍ، وهَلُمَّ جرًّا؟! فالجوابُ أنَّ المرادَ بالعملِ عملُ الجوارحِ نحوِ الوُضوءِ والصلاةِ، وأمَّا النيَّةُ فهيَ خارجةٌ عنْه بقرينةِ العقلِ دفعًا للتَّسَلْسُلِ، أو لأنَّ العُرفَ لا يُطلِقُ العاملَ على النَّاوي، عَلى أنَّ صاحبَ القاموسِ ذَكَرَ أنَّه حركَةُ المهنةِ فلا يَتناوَلُ توجُّهَ القلبِ.

وآثرَ ذِكْرَ الأعمالِ على ذِكْرِ الأفعالِ؛ لأنَّ لفظَ العملِ أخصُّ مِنْ لفظِ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ يُنسَبُ إلى البهائمِ والجماداتِ كما يُنسَبُ إلى ذَوِي العقولِ، بخلافِ العملِ، لأنَّه يُعتبَرُ فيهِ القَصْدُ، حتى قالَ بعضُ الأدباءِ: قُلبَ لفظُ العملِ مِنْ لفظِ العلمِ تنبيهًا على أنَّه مِنْ مقتضاهُ، قالَ الراغبُ: ولَمْ يُستعمَلِ العملُ في الحيوانِ إلَّا في قولِهم: البقرُ والإبلُ العواملُ. وأمَّا الصنعُ فهو أخصُّ مِنَ العملِ؛ لأنَّه لا يُقالُ إلا لِمَّا كانَ مِنَ الإنسانِ بقصدٍ واختيارٍ بعدَ فكرٍ وتحرٍّ.

و"ال" فيها للجنسِ، أوِ العهدِ الذهنيِّ أي غير العاديَّةِ لعدم توقُّفِ صحَّتِها على نيَّة، أو للاستغراقِ، وهو ما حُكِيَ عنْ جمهورِ المتقدِّمينَ، ولا يرد عليه نحو الأكلِ مِنَ العاديَّاتِ؛ لأنَّ مَنْ أرادَ الثوابَ علَيْه احتاجَ إلى نيَّةٍ -كما يَأتي- لا مطلقًا لحصولِ المقصودِ بوجودِ صورتِه.

(بِالنِّيَّاتِ) جَمْعُ نِيَّةٍ -بتشديدِ الياءِ- مِنْ "نَوَى" بمعنى "قَصَدَ"، والأصلُ "نِوْيَة" قُلِبَتِ الواوُ ياءً وأُدغِمتْ في الياءِ، وتخفيفُها لغةٌ مِنْ "وَنَى يَنِي" إذَا أبطأَ؛ لأنَّه يَحتاجُ في تصحيحِها إلى نوعِ إبطاءٍ، والألفُ واللامُ بدلٌ مِنَ الضميرِ أيْ بنِيَّاتِها، فيدلُّ على اعتبارِ نيَّةِ العملِ مِنَ الصلاةِ وغيرِها الفرْضيَّةُ والنَّفْليَّةُ، والتعيينُ مِنْ ظُهْرٍ أوْ عَصْرٍ، وإنَّما لَمْ يَجِبْ تعيينَ العددِ؛ لأنَّ تعيينَ العبادةِ لا ينفكُّ عنْهُ.

الكلام عن النية وأحكامها

والنيَّةُ محلُّها القلبُ لا الدماغُ، وهيَ لغةً: القصدُ، وشرعًا: توجهُ القلبِ نحوَ الفعلِ ابتغاءَ وجهِ اللهِ تعالى وامتثالًا لأمرِه، وجُمعتْ للإشارةِ على أنَّها تَتنوَّعُ كما تَتنوَّعُ الأعمالُ؛ لأنَّ المصدرَ إذَا اختلفتْ أنواعُه جُمِعَ كالعلومِ، وفي معظمِ الرِّواياتِ (بالنيَّةِ) مفردًا[1]؛ لأنَّها مصدرٌ، ولأنَّ محلَّها القلبُ وهو متَّحِدٌ فناسَبَ إفرادُها، بخلافِ الأعمالِ فإنَّها متعلقةٌ بالظواهرِ فناسَبَ جَمْعُها، ولأنَّ النيَّةَ تَرجِعُ إلى الإخلاصِ، وهو واحدٌ للواحدِ الذي لا شريكَ له، وأيضًا هو مُفردٌ مُحلًّى بالألفِ واللامِ فيَعُمُّ.

وفي صحيحِ ابنِ حِبَّانَ (الأعمالُ بالنيَّاتِ)[2] بحذْفِ "إنَّما"، وعندَ البخاريِّ في النكاحِ

(١) انظر: "صحيح البخاري" (٥٤) [كتاب الإيمان- باب ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة]، و(٢٥٢٩) [كتاب العتق- باب الخطإ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه]، و(٣٨٩٨) [كتاب مناقب الأنصار- باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة]، و(٦٦٨٩) [كتاب الأيمان والنذور- باب النية في الأيمان]، و"صحيح مسلم" (١٩٠٧) [كتاب الإمارة- باب قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنية]، و"مسند أحمد" (١٦٨) [مسند عمر]، و"سنن أبي داود" (٢٢٠١) [كتاب الطلاق- باب فيما عُني به الطلاق والنيات]، و"الترمذي" (١٦٤٧) [أبواب فضائل الجهاد- باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا]، و"النَّسائي" (٧٥) [كتاب الطهارة- باب النية في الوضوء]، و(٣٤٣٧) [كتاب الطلاق- باب الكلام إذا قصد به فيما يحتمل معناه]، و(٣٧٩٤) [كتاب الأيمان والنذور- النية في اليمين]، وغيرهم.

(٢) "صحيح ابن حِبَّان" (٣٨٨) [كتاب البر والإحسان- باب الإخلاص وأعمال السر]، و(٤٨٦٨) [كتاب السير- باب الهجرة].

(العملُ بالنيَّةِ)[1]، وكُلٌّ مِنْ روايةِ ابنِ حِبَّانَ والبخاريِّ في النِّكاحِ يُفيدُ الحصرَ لِعمومِ المبتدأ وخصوصِ الخبرِ، على حدِّ "صديقي زيدٌ"، فإنْ قُلْتَ: النيَّاتُ جمعُ قلَّةٍ كالأعمالِ، وهيَ العشرةُ فما دونَها معَ أنَّه لا بُدَّ في كُلِّ عملٍ منَ النيَّةِ سواءٌ كانَ قليلًا أو كثيرًا، فالجوابُ أنَّ القلَّةَ والكثرةَ إنَّما يُعتبرانِ في نكراتِ الجمعِ، أمَّا في المعارفِ فلَا فرقَ بيْنَهما.

قالَ البيضاويُّ: والنيَّةُ في الحديثِ محمولةٌ على المعنى اللُّغويِّ لِيحسُنَ تطبيقُه على ما بعدَه وتقسيمُه لقولِه "فَمَنْ كَانَتْ... إلخ" فإنَّه تفصيلٌ لِمَا أجْمَلَه. اهـ. وفيه شيءٌ إذْ لَوْ حُمِلَ على الشرعيِّ لَكانَ أنسبَ وأَوْلى؛ لأنَّه مُبيِّنٌ للشرعِ، ويَحسُنُ التطبيقُ ثانيًا، إذِ المعنى: كلُّ عملٍ شرعيٍّ فهو محسوبٌ بالنيَّةِ الشرعيَّةِ، وما ليسَ كذلكَ كالهجرةِ إلى الدُّنيا لا يُعتدُّ به شرعًا، على أنَّ قولَه "فَمَنْ كَانَتْ... إلخ" تفصيلٌ لقولِه "وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى".

وهذا الحديثُ متروكُ الظَّاهرِ؛ لأنَّ الذواتِ غيرُ منتفيةٍ؛ إذْ تقديرُ "إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ": لا عملَ إلَّا بالنيَّةِ، والفرضُ أنَّ ذاتَ العملِ الخالي عنِ النيَّةِ موجودةٌ، فالمرادُ نفيُ أحكامِها المتعلِّقةِ بوجودِها كالصحةِ والكمالِ، والحَمْلُ على الصحةِ أَوْلى؛ لأنَّها أكثرُ لُزومًا للحقيقةِ، وما كانَ ألزمَ للشيءِ كانَ أقربَ خُطورًا بالبالِ عندَ إطلاقِ اللَّفظِ، فلَا يصحُّ عملٌ كالوضوءِ عندَ الثلاثةِ -خِلافًا لأبي حنيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولا نُسلِّمُ أنَّ الماءَ مُطهِّرٌ بطبعِه-، وكالتَّيمُّمِ -خِلافًا للأوزاعيِّ-، وصومِ رمضانَ -خِلافًا لِعطاءٍ- إلا بنية.

وخروجُ بعضِ الأعمالِ عنِ اعتبارِ النيَّةِ فيه إمَّا بدليلٍ آخرَ كالعتقِ والوقفِ، فهو مِنْ بابِ تخصيصِ العمومِ، أوِ استحالةٍ ونحوِها كالنيَّةِ ومعرفةِ اللهِ تَعالى، أمَّا النيَّةُ فلِمَا سَبَقَ، وأمَّا معرفةُ اللهِ -تعالى- فلأنَّها لوْ توقفتْ على النيَّةِ معَ أنَّ النيَّةَ قصدُ المنويِّ بالقلبِ، ولا يُقصَدُ إلَّا ما يُعرَفُ، فيلزَمُ أنْ يكونَ الإنسانُ عارفًا باللهِ تعالى قبلَ معرفتِه له، فيكونَ عارفًا به غيرَ عارفٍ به في حالةٍ واحدةٍ، وهذا يَقتضي أنَّ معرفةَ اللهِ لا ثوابَ فيها؛ لأنَّ الثوابَ يتبعُ النيَّةَ، وقدْ صرَّحَ بذلك القرافيُّ وابنُ جماعةَ في شرحِ "بدءِ الأمالي"، وهو خلافُ ما ذَكَرَه الغزاليُّ.

(١) "صحيح البخاري" (٥٠٧٠) [كتاب النكاح- باب من هاجر أو عمل خيرا لتزويج امرأة فله ما نوى].

وإنَّما لَمْ تُشترَطِ النيَّةُ في إزالةِ الخَبَثِ؛ لأنَّه مِنْ قبيلِ التروكِ كالزنا، فتاركُ الزنا مِنْ حيثُ إسقاطُ العِقابِ لا يَحتاجُها، ومِنْ حيثُ تحصيلُ الثوابِ على التركِ يَحتاجُها، وكذا إزالةُ الخَبثِ لا يُحتاجُ فيه إليها مِنْ حيثُ التطهيرُ، ويَحتاجُها مِنْ حيثُ الثوابُ على امتثالِ أمرِ الشارعِ.

وشُرِعتْ تمييزًا للعبادةِ عنِ العادةِ كالغُسلِ يكونُ تنظيفًا وعبادةً، أو لِترتُّبِ العبادةِ بعضِها على بعضٍ كالتَّيمُّمِ يكونُ للجنابةِ والحدثِ وصورتُهما واحدةٌ، والصلاةُ تكونُ فرضًا ونفلًا، والغسلُ يكونُ فرضًا وسنَّةً ومستحَبًّا.

وقدْ جَمَعَ بعضُهم أحكامَها، وهيَ سبعةٌ بقولِه:

سَبْعُ شَرَائِطَ أَتَتْ فِي نِيَّهْ * تَكْفِي لِمَنْ حَاوَلَهَا بِلاَ وَسَنْ[1]

حَقِيقَةٌ حُكْمٌ مَحَلٌّ وَزَمَنْ * كَيْفِيَّةٌ شَرْطٌ وَمَقْصُودٌ حَسَنْ

حقيقتُها لُغةً: القصدُ، وشرعًا: قصدُ الشيءِ مقترنًا بفعلِه، وحكمُها الوجوبُ، ومحلُّها القلبُ، وزمنُها أوَّلُ العبادةِ، وكيفيتُها تختلفُ بحسبِ المنويِّ، وشرطُها إسلامُ الناوي، وتمييزُه، وتحقُّقُ الوجوبِ أو ظنُّه، وأنْ يكونَ المنويُّ مِنْ مكتسباتِ النَّاوي، أو يكونَ تابعًا لِمُكتسبه كنيَّةِ فرضيَّةِ الظُّهْرِ أو نفليَّةِ الضُّحى، فإنَّ الفرضيَّةَ والنفليَّةَ تابعانِ للأفعالِ التي يأتي بها الشخصُ، والمقصودُ مِنَ النيَّةِ تمييزُ العبادةِ عنِ العادةِ كالغُسْلِ فإنَّه يكونُ عبادةً وعادةً للتنظيفِ، أو تمييزُ رُتَبِ العبادةِ بعضِها عنْ بعضٍ كالغُسْلِ فإنَّه يكونُ واجبًا كغسلِ الجنابةِ، وسُنَّةً كغُسْلِ الجمعةِ، ومُستحَبًّا كغسلِ اليدَيْنِ.

***

والباءُ للمصاحَبةِ أو للاستعانةِ، وقالَ ابنُ فَرْحُون: للسببيَّةِ، أيْ إنَّما الأعمالُ ثابتٌ ثوابُها بسببِ النيَّاتِ.

***

(١) الوَسَنُ: النُّعاس.

ثم إنَّ هذا الحديثَ تَوَاتَرَ النقلُ عنِ الأئمة بتعظيم موقعِه وكثرةِ فوائدِه، وأنَّه أصلٌ عظيمٌ مِنْ أصولِ الدِّينِ، ومِنْ ثَمَّ خَطَبَ به رسولُ الله ﷺ كما في روايةِ البخاريِّ، فقالَ: (يا أيُّها الناسُ إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ)[1]، وخَطَبَ به عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على منبرِ رسولِ الله ﷺ كما أخرجَه أيضًا، ولذلك قالَ أبو عبيدٍ: "ليسَ في الأحاديثِ أجمعَ وأغْنَى وأكثرَ فائدةً منه.

عظم قدر حديث "الأعمال بالنيات"

ومِنْ ثَمَّ قالَ: بعضُهم: إنَّه نصفُ العلمِ، ووجهُه أنَّه أجلُّ أعمالِ القلبِ، والطاعةُ متعلِّقةٌ به وعلَيْه مدارُها، فهو قاعدةُ الدِّينِ -ومِنْ ثَمَّ كانَ أصلًا في الإخلاصِ أيضًا- وأعمالُ القلبِ تُقابِلُ أعمالَ الجوارحِ، بلْ تلك أجلُّ وأفضلُ، بَلْ هِيَ الأصلُ، فكانَ نصفًا بلْ أعظمَ النصفَيْنِ كما تقرَّرَ، وقِيلَ: لأنَّ النيَّةَ عبوديَّةُ القلبِ، والعملُ عبوديَّةُ القالَبِ -بفتحِ اللامِ-، أو لأنَّ الدِّينَ إمَّا ظاهرٌ وهو العملُ، أو باطنٌ وهو النيَّةُ.

وقالَ كثيرون، منهم الشافعيُّ وأحمدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إنَّه ثلثُ العلمِ؛ لأنَّ الأحكامَ تدورُ علَيْه وعلى حديثِ (مَنْ أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منه فهو ردٌّ)[2]، و(الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ)[3].

ووَجَّهَ البيهقيُّ كونَه ثلثًا بأنَّ كَسْبَ العبدِ إمَّا بقلبِه أو بلسانِه أو بجوارحِه، فالنيَّةُ أحدُها وأرجحُها؛ لأنَّهما تابعانِ لها صحةً وفسادًا، وثوابًا وحرمانًا، ولا يَتطرَّقُ إلَيْها رياءٌ ونحوُهُ بخلافِهما، ومِنْ ثَمَّ ورَدَ (نيَّةُ المؤمنِ خيرٌ مِنْ عملِه)[4] يَعني: نيَّةٌ بلا عملٍ خيرٌ مِنْ عملٍ بلا نيَّةٍ، وهذا على

---

(١) "صحيح البخاري" (٦٩٥٣) [كتاب الحيل- باب في ترك الحيل، وأنَّ لكلِّ امرئ ما نوى في الأيمان وغيرها].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٧) [كتاب الصلح- باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود]، ومسلمٌ (١٧١٨) [كتاب الأقضية- باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا.

(٣) تقدَّم تخريجه، انظر ص ١٠٨.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبرانيُّ في "الكبير" (٦/١٨٥) [باب السين]، وأبو نعيم في "الحلية" (٣/٢٥٥) [ترجمة سلمة بن دينار]، وغيرهما من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وأخرجه القضاعيُّ في "مسند الشهاب" (١٤٧) [نية المؤمن أبلغ من عمله]، والبيهقيُّ في "الشعب" (٦٤٤٥) [إخلاص العمل لله عز وجل وترك الرياء]، وغيرها من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وضعَّفه البيهقيُّ وعددٌ من الحفَّاظ. وقال السخاويُّ في "الأجوبة المرضية" (١/٣٤٦) بعد ذكر طرق الحديث: «وهذه طرقٌ فيها مقالٌ، لكن يتأكَّد بعضها ببعضٍ، ولا يبعد أن يرتقي بالنظر بمجموعها إلى الحسن».

معنى الاتساعِ أنَّ كُلَّ عملٍ بِلا نيَّةٍ لا خيرَ فِيه أصلًا، وفي روايةٍ: (أبلغُ مِنْ عَملِه)[1]؛ إذْ هيَ قطبُ عمله ومدارُه؛ لأنَّ بِها يَرتفِعُ أو يتضعُ علَى قدْرِ ما هيَ علَيْه مِنْ صحةٍ أو سقمٍ، وهوَ ضعيفٌ لا موضوعٌ خِلافًا لِمَنْ زَعَمَه. وفي أخرى زيادةٌ: (وإنَّ اللهَ لَيُعطي للعبْدِ على نيَّتِه ما لا يُعطيهِ عَلى عَمَلِه)[2].

قالَ بعضُهم: وإنَّما كانتْ خيراً مِنَ العملِ؛ لأنَّها تَحتمِلُ التعدُّدَ والتكثُّرَ في العملِ الواحدِ فيتضاعفُ أجرُ العملِ بقدرِ النيَّاتِ فيه، ولا يتأتَّى ذلك في العملِ، كما إذا جلسَ في المسجدِ بنيَّةِ الاعتكافِ، وانتظارِ الصلاةِ، والخلوةِ عنْ شواغلِ القلبِ، والعزلةِ، والذِّكرِ، وقراءةِ القرآنِ، ونيَّةِ حفظِ السمعِ والبصرِ واللِّسانِ عما لا يعنيه، وعمارةِ المسجدِ بالذكرِ، فإنَّه لا يكونُ كمَنْ جَلَسَ لأحدِها فقطْ، وقالَ بعضُهم: إنَّما كانتْ خيراً مِنَ العملِ؛ لأنَّه لا يتعبَّدُ إلا بطاقتِه ووسعِه كما إذَا نَوَى أنْ يَعتِقَ عبدًا أو يَتصدَّقَ بمالٍ كثيرٍ، وهو لا يَملِكُ شيئًا في الحالِ.

وهذا على تقديرِ رجوعِ الضميرِ للمؤمنِ كما هو الظاهرُ، وقدْ قيلَ: إنَّ النبيَّ ﷺ وَعَدَ بثوابٍ علَى حَفْرِ بئرٍ، فنوى عثمانُ أنْ يحفرَها فسبقَ إليها كافرٌ فحَفَرَها، فقالَ النبيُّ ﷺ: (نيَّةُ المؤمنِ -يَعني عثمانَ- خيرٌ مِنْ عملِه -يَعني الكافرَ-)[3]، وفي روايةٍ أخرى: أنَّ رجلًا مِنَ الصحابةِ نَوَى بناءَ قنطرةٍ في موضعٍ مهمٍّ فسبقَه يهوديٌّ لبنائِها فأُخبرَ بذلك بحضرةِ جماعةٍ، منهم عمرُ، فتأسَّفَ ذلك الرجلُ وافتعلَ، فقالَ عمرُ تسليةً له: نيةُ المؤمنِ خيرٌ مِنْ عملِه[4] أيْ مِنْ عملِ ذلك الكافرِ، لكن يخدشُه ما ذكَرَه أبو زرعةَ في البستانِ مِنْ أنَّ هذا القولَ صادرٌ عنْ صدرِ النبوة ثم صارَ مثلا من الأمثالِ السائرةِ.

وقالَ أبو داودَ: مدارُ الدينِ علَى أربعةِ أحاديثَ، وقدْ نَظَمَها طاهرُ بنُ معوذ فقال:

(١) تقدم تخريجها في الحديث السابق.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الديلمي في "الفردوس" (٦٨٤٣)، وفي سنده أحمد بن عبدالله الهروي وهو الجُوَيْبَاريُّ الوضَّاع، يُدَلِّسونه لوَهْنه.

(٣) لم أجدها فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٤) ذكره العيني في عمدة القاري (١/٣٥).

عُمْدَةُ الدِّينِ عِنْدَنَا كَلِمَاتٌ * أَرْبَعٌ مِنْ كَلَامِ خَيْرِ الْبَرِيَّةْ

اتَّقِ الشُّبُهَاتِ وَازْهَدْ وَدَعْ مَا * لَيْسَ يَعْنِيكَ وَاعْمَلَنْ بِنِيَّةْ

لكنَّ المعروفَ عن أبي داودَ (ما نهيتُكمْ عنْه فاجتنِبوه ...) الحديثُ[1] بدلَ (ازهدْ فيما في أيدي الناسِ)[2]، وذكرَ أبو بكرِ بنُ فراسةَ بدلَ حديثِ الزهدِ حديثُ (لا يكونُ المؤمنُ مؤمنًا حتَّى يَرضَى لأخيه ما يَرضَى لِنفْسِه)[3].

***

(وَإِنَّمَا لِكُلِّ) اسمٌ موضوعٌ لاستغراقِ أفرادِ المُنكَّرِ نحو ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ولاستغراقِ أجزاءِ المُعرَّفِ نحو"أكلتُ كُلَّ الرغيفِ" وحينئذٍ يُقالُ: "كُلُّ رُمَّانٍ مأكولٌ"، ولا يُقالُ: "كُلُّ الرُّمَّانِ مأكولٌ".

(امْرِئٍ) أيْ رَجُلٍ، وفِيهِ لُغتانِ "امْرِئٌ" نحو: زِبْرِج، و"مَرْء" بفتح الميم نحو فَلْس، وحُكِيَ الضَّمُّ، ولا جَمْعَ له مِنْ لفظِه، وعينُه تابعةٌ لِلامِه في الحركاتِ الثلاثِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم: ٢٨]، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٨) [كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة- باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ]، ومسلمٌ (١٣٣٧) [كتاب الفضائل- باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) [أبواب الزهد- باب الزهد في الدنيا]، وابن حِبَّان في "روضة العقلاء" (ص ١٤١)، والطبرانيُّ في "الكبير" (١٩٣/٦) [باب السين]، والقضاعيُّ في "مسند الشهاب" (٦٤٣) [ازهد في الدنيا يحبك الله..]، وأبو نعيم في "الحلية" (٢٥٢/٣) [ترجمة سلمه بن دينار]، و(١٣٦/٧) [ترجمة سفيان الثوري]، والحاكم (٣١٣/٤) [كتاب الرقاق]، وغيرهم من حديث سهل بن سعد. وفيه خالد بن عمرو القرشيُّ متروكٌ اتُّهم بالكذب. وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد»، وتعقَّبه الذهبيُّ بقوله: «خالدٌ وضَّاعٌ». وحسَّنه النوويُّ في "الأربعين" (ص ٩٦، الحديث رقم ٣١)، وقال الحافظ المنذريُّ في "الترغيب" (٧٤/٤، ٧٥) [كتاب التوبة والزهد- الترغيب في الزهد في الدنيا..]: رواهُ ابنُ ماجه وقد حسَّنَ بعضُ مشايخنا إسنادَه وفيه بُعدٌ؛ لأنَّه مِن رواية خالد بن عمرو القرشيِّ الأمويِّ، عن سفيان ... وخالد هَذَا قد تُرك واتُّهم ولم أرَ مَن وثَّقهُ، لكن على هذا الحديث لامعةٌ مِن أنوار النبوَّة، ولا يمنع كون راويه ضعيفًا أن يكون النَّبيُّ ﷺ قاله، وقد تابعه عليه مُحمَّد بن كثير الصَّنعانيُّ عن سفيان، ومُحمَّد هَذَا قد وُثِّق على ضعفه وهو أصلح حالًا مِن خالد، والله أعلم.

(٣) تقدم تخريجه بلفظ: (حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

[النور: ١١]، وفي مؤنثه أيضًا لغاتٌ: "امْرَأَةٌ"، و"مَرْأَةٌ" و"مَرَةٌ"، لكنْ في الحديثِ أطلقَه عَلى كلا النوعَيْنِ بدليلِ قوله بعد: "فَمَنْ" الدالةِ على العموم، بلْ قالَ الحراليُّ[1]: إنَّه يشترِكُ فيه الرجلُ والمرأةُ، على أنَّه يُمكنُ أنْ يُقالَ على الأوَّلِ إنَّما خصَّه بالذكرِ لِشرفِه وأصالتِه وغلبةِ دورانِ الأحكامِ عليه.

(ما) اسمٌ موصولٌ بِمَعْنى الذي، **(نَوَى)** صِلتُه، والعائدُ محذوفٌ، أيْ ما نواه مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، ويجوزُ أنْ تكونَ مصدريَّةً، أيْ جزاءَ نِيَّتِه.

***

فإنْ قُلْتَ: ما فائدةُ هذه الجملةِ بعدَ قولِه: "إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ"؟ فالجوابُ مِنْ وجوهٍ:

الأوَّلِ: أنَّ هذهِ الجملةَ تأكيدٌ للجملةِ الأُولَى، فذَكَرَ الحُكْمَ بالأُولى، وأكَّدَه بالثانيةِ تنبيهًا على شرفِ الإخلاصِ وتحذيرًا مِنَ الرياءِ المانعِ مِنَ الخلاصِ، لكنَّه يردُّ عليه أنَّ الإفادةَ خيرٌ مِنَ الإعادةِ.

الثاني: قالَ المصنِّفُ في شرحِ مسلم: قالَ الخطابيُّ[2]: إنَّ الجملةَ الثانيةَ أفادتِ اشتراطَ تعيينِ المنويِّ، فإذَا كانَ على الإنسانِ صلاةٌ فائتةٌ لا يَكفيه أنْ يَنويَ الصلاةَ الفائتةَ بلْ يُشترَطُ أنْ يَنويَ كونَها ظُهْرًا أو عَصْرًا أو غيرَهما محلَّه ما لم تنحصرِ الفائتةُ، ولولا هذه الجملةُ الثانيةُ لاقتضتِ الأولى الصحةَ بلا تعيينٍ أو أوهمتْ ذلك، وكأنَّه استنبطَه من "مَا" الموصولةِ؛ لأنَّها مِنَ المعارفِ المفيدةِ للتعيينِ، وفيه بحثٌ؛ لأنَّ اللامَ في قوةِ الإضافةِ المفيدةِ للتعيينِ؛ لأنَّها موضوعةٌ للعهدِ كما اختارَه صاحبُ "المفتاحِ".

---

(١) العلامة المتفنن، أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن التجيبي، الأندلسي الحرالي، نسبة إلى حرالة: قرية من عمل مرسية، ولد بمراكش، وأخذ العربية عن ابن خروف، وحج ولقي العلماء وجال في البلاد وشارك في عدة فنون، من كتبه: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل، والمعقولات الأول، و"الوافي" في الفرائض، والإيمان التام بمحمد ﷺ، وغيرها، توفي سنة ٦٣٧. سير أعلام النبلاء (٢٣/٤٧)، طبقات المفسرين للسيوطي (ص ٧٦).

(٢) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي؛ كان فقيهًا أديبًا محدِّثًا، له التصانيف البديعة منها: غريب الحديث، ومعالم السنن في شرح سنن أبي داود، وأعلام السنن في شرح البخاري، وإصلاح غلط المحدثين، وغير ذلك، توفي سنة ٣٨٨. وفيات الأعيان (٢/٢١٤)، تذكرة الحفاظ (٣/١٤٩).

الثالثُ: قالَ ابنُ عبدِ السلام: إنَّ الأولى لبيانِ ما يُعتبَرُ مِنَ الأعمالِ في سقوطِ الطلبِ، والثانيةُ لبيانِ ما يَترتَّبُ علَيْها مِنَ الثوابِ والعقابِ، وهذا في العبادةِ التي لا تتميزُ بنفسِها، وأمَّا ما يَتميَّزُ بنفسه فإنَّه يَنصرفُ بقولِه إلى ما وُضِعَ له كالأذكارِ والأذانِ والتلاوةِ.

الرابعُ: أنَّ الثانيةَ أفادتْ منعَ الاستنابةِ في النيَّةِ؛ إذْ لو نَوَى واحدٌ عَنْ غيرِه يَصدُقُ علَيْه أنه عَمِلَ بنيَّةٍ أفادت الثانيةُ منعه إلا في مسائلَ، كنيَّةِ الحاكمِ في الزكاةِ إذَا أخذَها كرهًا، وإحرامِ الوليِّ عنِ الصبي في الحجِّ ونحوِ ذلك لمدرَكٍ يخصُّها.

الخامسُ: قالَ السمعانيُّ في أماليهِ: إنَّ هذه الجملةَ دلَّتْ على أنَّ الأعمالَ العاديَّةَ التي لا تتوقفُ على النيَّةِ قدْ تُفيدُ الثوابَ إذَا نَوَى بها فاعلُها القُرْبَةَ، كالأكلِ والشربِ إذَا نَوَى بِهِما التَّقَوِّيَ على الطاعةِ، والنومِ إذَا قَصَدَ به ترويحَ البدنِ للعبادةِ، والوطءِ إذَا أُريدَ به التعفُّفُ عنِ الفاحشةِ، والتطيُّبِ إذَا قُصِدَ به إقامةُ السُّنَّةِ، والتنظيفِ إذَا قُصِدَ به دفعُ الروايحِ المؤذيةِ عنْ عبادِ اللهِ، لا استيفاءً لِلَّذاتِ والتودُّدِ إلى النِّسوانِ.

السادسُ: أنَّ الجملةَ الثانيةَ دلَّتْ على أنَّ مَنْ نَوَى شيئًا يَحصُلْ له ثوابُه وإنْ لَمْ يعملْه لمانعٍ شرعيٍّ كمريضٍ تخلَّفَ عنِ الجماعةِ، وقدْ وَرَدَ في مسندِ أبي يَعلى الموصليِّ مرفوعًا: (يقولُ اللهُ -سبحانَه وتعالى- للحفظةِ يومَ القيامةِ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأَجْرِ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَحْفَظْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَا هُوَ فِي صُحُفِنَا، فَيَقُولُ: إِنَّهُ نَوَاهُ)[1]، وفي "عقدِ الدررِ واللَّآلِئِ" أنَّه حَصَلَ في بني إسرائيلَ قَحْطٌ وغَلاءٌ فخَرَجَ أحدُهم للصحراءِ فَمَرَّ على كثيبِ رملٍ، فقالَ ودِدْتُ لَوْ كانَ هذا ذهبًا لَتصدَّقْتُ به، أو لَوْ كانَ طعامًا لقسَّمْتُه بينَ الناسِ، فأَوْحَى اللهُ تعالى إلى نبيِّ زمانِه أنْ قُلْ لِفلانٍ: إنِّي قبلتُ صدقتَه، ولَمْ يَتصدَّقْ بشيءٍ ولكنْ صحَّتْ منه النيَّةُ. اهـ.

ومِنَ الرقائقِ ما في "التَّحبيرِ" للقشيريِّ أنَّ بعضَهم رُئِيَ في المنامِ بعدَ موتِه، فقيلَ له: ما فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ قالَ: غَفَرَ لي ورَفَعَ لي دَرَجاتي، فقِيلَ له: بماذا؟ فقالَ: ههنا يُعامِلونَ بالجودِ لا

---

(١) ذكره ابن الملقِّن في "التوضيح" (١٨٥/٢) وعزاه لأبي يعلى، ولم أجده في المطبوع، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣١٣/٢) [ترجمة أبي عمران الجوني] من كلام أبي عمران الجوني، ولم أجده مرفوعًا، والله أعلم.

بالركوعِ والسجودِ، ويُعطون بالنيَّةِ لا بالخدمةِ، ويُغفَرُ لهم بالفضلِ لا بالفعلِ.

وحُكِيَ عنْ بعضِ فضلاءِ الصوفيَّةِ أنَّه كانَ مريضًا فدَخلَ عليه بعضُ إخوانه يُعودُه فقالَ لهم: انْوُوا بنَا حَجًّا، انْوُوا بنَا رِباطًا، وعدَّد لهم أنواعًا مِنَ البرِّ، فقالوا: كيفَ وأنتَ على هذه الحالةِ؟ فقالَ: إنْ عِشنَا وفَّيْنَا، وإنْ مِتْنَا حَصَلَ لنا أجرُ النيَّةِ.

في فضل النية

وقيلَ لبعضِ النُّساكِ: كيفَ الناسُ عندَ مليكِهم؟ فقالَ: على قدرِ نيَّاتِهم. وحُكِيَ عنْ أخوَيْنِ كانَ أحدُهما عابدًا والآخرُ مُسرفًا على نفسِه، وكان العابدُ يتمنَّى أنْ يَرى إبليسَ، قالَ: فظهرَ له إبليسُ يومًا، وقالَ له: واأسفًا عليكَ ضيعَّتَ مِنْ عمرِكَ أربعينَ سنةً في حصرِ نفسِكَ وإتعابِ بدنِكَ، وقدْ بَقِيَ منْ عمرِكَ مثلُ ما مَضى، فأطلَقْ نفسَهَ في شهواتِها، فقالَ العابدُ في نفسِه: لعلِّي أنزلُ إلى أخي في أسفلِ الدارِ وأوافقُه على الأكلِ والشربِ واللَّذاتِ عشرينَ سنةً ثم أتوبُ وأعبدُ اللهَ في العشرينَ التي تَبْقَى منْ عمري، فنزلَ على نيَّةِ ذلك، وأمَّا أخوهُ المُسرفُ فإنه استيقظَ من سُكْرِه فوجدَ نفسَه في حالةٍ رَدِيئةٍ، قدْ بالَ على ثيابه وهو مطروحٌ على التُّرابِ وفي الظلامِ، فقالَ في نفسِه: قدْ أفنيتُ عمري في المعاصي، وأخي يَتلذَّذُ بطاعةِ اللهِ تعالى ومناجاته فيدخلُ الجنةَ بطاعةِ ربِّه وأنا بالمعاصي أدخلُ النارَ، ثم عقدَ التوبةَ ونَوَى الخيرَ والعبادةَ، وطلعَ يوافقُ أخاه على عبادةِ اللهِ تعالى، فصَعَدَ على نيَّةِ الطاعةِ، ونَزلَ أخوه على نيَّةِ المعصيةِ فزلَّتْ رجلُه فسقطَ على أخيه فوقَعَا مَيِّتَيْنِ، فيُحشرُ العابدُ على نيَّةِ المعصيةِ، ويُحشرُ العاصي على نيَّةِ التوبةِ.

وصحَّ عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قالَ: كانتْ قريتانِ صالحةٌ وظالمةٌ، فخرجَ رجلٌ مِنَ الظالمةِ يُريدُ الصالحةَ، فأتاهُ الموتُ حيثُ شاءَ اللهُ تعالى، فاختصمَ فيه المَلَكُ والشيطانُ، فقالَ الشيطانُ: واللهِ ما عصاني قطُّ، وقالَ المَلَكُ: إنَّه خرجَ يُريدُ التوبةَ، فقضى اللهُ تعالى بينهما أنْ يُنظَرَ إلى أيِّهما أقربُ، فوجدَه أقربَ إلى القريةِ الصالحةِ[1].

---

(١) أخرجه معمر في جامعه (المصنف ٢٠٥٥٠) [باب الرخص والشدائد]، ومن طريقه الطبرانيُّ (١٧١/٩) عن ابن مسعود موقوفًا عليه، وقال الهيثمي في "المجمع" (٢١٣/١٠) [كتاب التوبة- باب منه في رحمة الله تعالى]: رجاله رجال الصحيح.

الثالثُ: قالَ ابنُ عبدِ السلامِ: إنَّ الأولى لبيانِ ما يُعتبَرُ مِنَ الأعمالِ في سقوطِ الطلبِ، والثانيةُ لِبيانِ ما يَترتَّبُ علَيْها مِنَ الثوابِ والعقابِ، وهذا في العبادةِ التي لا تتميزُ بنفسِها، وأمَّا ما يَتميَّزُ بنفسِه فإنَّه يَنصرِفُ بقولِه إلى ما وُضِعَ له كالأذكارِ والأذانِ والتلاوةِ.

الرابعُ: أنَّ الثانيةَ أفادتْ منعَ الاستنابةِ في النيَّةِ؛ إذْ لو نَوَى واحدٌ عَنْ غيرِه يَصدُقُ علَيْه أنَّه عَمِلَ بنيَّةٍ أفادت الثانيةُ منعَه إلا في مسائلَ، كنيَّةِ الحاكمِ في الزكاةِ إذَا أخذَها كرهًا، وإحرامِ الوليِّ عنِ الصبي في الحجِّ ونحوِ ذلك لمدرَك يخصُّها.

الخامسُ: قالَ السمعانيُّ في أماليه: إنَّ هذه الجملةَ دلَّتْ على أنَّ الأعمالَ العاديَّةَ التي لا تتوقفُ على النيَّةِ قدْ تُفيدُ الثوابَ إذَا نَوَى بها فاعلُها القُرْبَةَ، كالأكلِ والشربِ إذَا نَوَى بِهِما التَّقَوِّيَ على الطاعةِ، والنومِ إذَا قَصَدَ به ترويحَ البدنِ للعبادةِ، والوطءِ إذَا أُريدَ به التعفُّفُ عنِ الفاحشةِ، والتطيُّبِ إذَا قُصِدَ به إقامةُ السُّنَّةِ، والتنظيفِ إذَا قُصِدَ به دفعُ الروايحِ المؤذيةِ عنْ عبادِ اللهِ، لا استيفاءًا لِلَّذاتِ والتودُّدِ إلى النِّسوانِ.

السادسُ: أنَّ الجملةَ الثانيةَ دلَّتْ على أنَّ مَنْ نَوَى شيئًا يَحصُلْ له ثوابُه وإنْ لَمْ يعملْه لمانعٍ شرعيٍّ كمريضٍ تخلَّفَ عنِ الجماعةِ، وقدْ وَرَدَ في مسندِ أبي يَعلى الموصليِّ مرفوعًا: (يقولُ اللهُ -سبحانَه وتعالى- للحفظةِ يومَ القيامةِ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأَجْرِ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَحْفَظْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَا هُوَ فِي صُحُفِنَا، فَيَقُولُ: إِنَّهُ نَوَاهُ)[1]، وفي "عقدِ الدررِ واللآلِئِ" أنَّه حَصَلَ في بني إسرائيلَ قَحْطٌ وغَلاءٌ فَخَرَجَ أحدُهم للصحراءِ فَمَرَّ على كثيبِ رملٍ، فقالَ ودِدْتُ لَوْ كانَ هذا ذهبًا لَتصدَّقْتُ بِه، أو لوْ كانَ طعامًا لقسَّمْتُه بينَ الناسِ، فأَوْحَى اللهُ تعالى إلى نبيِّ زمانِه أن قُلْ لِفلانٍ: إنِّي قبلتُ صدقتَه، ولَمْ يَتصدَّقْ بشيءٍ ولكنْ صحَّتْ منه النيَّةُ. اهـ.

ومنَ الرقائقِ ما في "التَّحبيرِ" للقشيريِّ أنَّ بعضَهم رُئِيَ في المنامِ بعدَ موتِه، فقيلَ له: ما فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ قالَ: غَفَرَ لي ورَفَعَ لي دَرَجاتي، فقِيلَ له: بماذا؟ فقالَ: ههنا يُعامِلونَ بالجودِ لا

(١) ذكره ابن الملقّن في "التوضيح" (٢/١٨٥) وعزاه لأبي يعلى، ولم أجده في المطبوع، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٢/٣١٣) [ترجمة أبي عمران الجوني] من كلام أبي عمران الجوني، ولم أجده مرفوعًا، والله أعلم.

بالركوعِ والسجودِ، ويُعطون بالنيَّةِ لا بالخدمةِ، ويُغفَرُ لهم بالفضلِ لا بالفعلِ.

وحُكِيَ عنْ بعضِ فضلاءِ الصوفيَّةِ أنَّه كانَ مريضًا فدَخَلَ عليه بعضُ إخوانه يُعودُه فقالَ لهم: انْوُوا بنَا حَجًّا، انْوُوا بنَا رباطًا، وعدَّد لهم أنواعًا مِنَ البرِّ، فقالوا: كيفَ وأنتَ على هذه الحالةِ؟ فقالَ: إنْ عِشنَا وفَّيْنَا، وإنْ متْنَا حَصَلَ لنا أجرُ النيَّةِ.

من حكايات الصالحين في فضل النية

وقيلَ لبعضِ النُّساكِ: كيفَ الناسُ عندَ مليكِهم؟ فقالَ: على قدرِ نيَّاتِهم. وحُكِيَ عنْ أخوَيْنِ كانَ أحدُهما عابدًا والآخرُ مُسرِفًا على نفسه، وكان العابدُ يتمنَّى أنْ يَرى إبليسَ، قالَ: فظهرَ له إبليسُ يومًا، وقالَ له: واأسفًا عليكَ ضيعَّتَ مِنْ عمرِكَ أربعينَ سنةً في حصرِ نفسِكَ وإتعابِ بدنِكَ، وقدْ بَقِيَ منْ عمرِكَ مثلُ ما مَضى، فأطلَقْ نفسَهَ في شهواتِها، فقالَ العابدُ في نفسِه: لعلِّي أنزلُ إلى أخي في أسفلِ الدارِ وأوافقُه على الأكلِ والشربِ واللَّذاتِ عشرينَ سنةً ثم أتوبُ وأعبدُ اللهَ في العشرينَ التي تَبْقَى منْ عمري، فنزلَ على نيَّةِ ذلك، وأمَّا أخوهُ المُسرفُ فإنه استيقظَ من سُكْرِه فوجدَ نفسَه في حالةٍ رَدِيئةٍ، قدْ بالَ على ثيابه وهو مطروحٌ على التُّرابِ وفي الظلامِ، فقالَ في نفسِه: قدْ أفنيتُ عمري في المعاصي، وأخي يَتلذَّذُ بطاعةِ اللهِ تعالى ومناجاته فيدخلُ الجنةَ بطاعةِ ربِّه وأنا بالمعاصي أدخلُ النارَ، ثم عقدَ التوبةَ ونَوَى الخيرَ والعبادةَ، وطلعَ يوافقُ أخاه على عبادةِ اللهِ تعالى، فصَعَدَ على نيَّةِ الطاعةِ، ونَزَلَ أخوه على نيَّةِ المعصيةِ فزلَّتْ رجلُه فسقطَ على أخيه فوقَعَا مَيِّتَيْنِ، فيُحشرُ العابدُ على نيَّةِ المعصيةِ، ويُحشرُ العاصي على نيَّةِ التوبةِ.

وصحَّ عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قالَ: كانتْ قريتانِ صالحةٌ وظالمةٌ، فخرجَ رجلٌ مِنَ الظالمةِ يُريدُ الصالحةَ، فأتاهُ الموتُ حيثُ شاءَ اللهُ تعالى، فاختصمَ فيه المَلَكُ والشيطانُ، فقالَ الشيطانُ: واللهِ ما عصاني قطُّ، وقالَ المَلَكُ: إنَّه خرجَ يُريدُ التوبةَ، فقضى اللهُ تعالى بينهما أنْ يُنظَرَ إلى أيِّهما أقربُ، فوجدَه أقربَ إلى القريةِ الصالحةِ[1].

---

(١) أخرجه معمر في جامعه (المصنف ٢٠٥٥٠) [باب الرخص والشدائد]، ومن طريقه الطبرانيُّ (١٧١/٩) عن ابن مسعودٍ موقوفًا عليه، وقال الهيثمي في "المجمع" (٢١٣/١٠) [كتاب التوبة- باب منه في رحمة الله تعالى]: رجاله رجال الصحيح.

وأخرجَ الشيخانِ أنَّه كانَ فيمنْ قبلَكم رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على راهبٍ، فأتاهُ فقالَ له: أنَّه قَتَلَ تسعةً وتسعينَ نفسًا، فهلْ له منْ توبةٍ؟ فقالَ: لا، فقتلَه فكمَّلَ به مائةً، ثم سألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ فدلُّوه على رجلٍ عالمٍ، فقالَ له أنَّه قَتَلَ مائةَ نفسٍ، فهلْ له مِنْ توبةٍ؟ فقالَ: نعمْ، ومنْ يحولُ بينَكَ وبينَ التوبةِ، انطلقْ إلى أرضِ كذا وكذا، -وجاءَ في الطبرانيِّ أنَّ اسمَ الأرضِ نصرةُ[1]- فإنَّ بها ناسًا يَعبدون اللهَ تعالى فاعبدِ اللهَ معهم، ولا تَرجعْ إلى أرضِكَ فإنَّها أرضُ سوءٍ، فانطلَقَ حتى إذَا بَلَغَ نصفَ الطريقِ أتاه الموتُ فاختصمتْ فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ، فقالتْ ملائكةُ الرَّحْمةِ: جاءَ تائبًا، وقالتْ ملائكةُ العذابِ: إنَّه لمْ يعملْ خيرًا قطُّ، فأتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدميٍّ فجعلوه حكمًا بيْنَهم، وقالَ: قِيسُوا ما بينَ الأرضَيْنِ فإلى أيِّهما أدْنى كانَ له، فقاسوا فوجدوهُ أدْنى إلى الأرضِ التي أرادَ، فقبضتْهُ ملائكةُ الرحمةِ[2].

وفي روايةٍ لهما فكانَ إلى القريةِ الصالحةِ أقربَ بشبرٍ فجُعِلَ من أهلِها. وفي أُخْرى لهما فأوحى اللهُ تعالى إلى هذه أنْ تَباعَدِي، وإلى هذه أنْ تَقرَّبِي، وقالَ قِيسوا بيْنَهما فوجدوه إلى هذهِ أقربَ بشبرٍ، فغفرَ اللهُ -تَعالى- له. وللطبرانيِّ أنَّهم وجدوهُ أقربَ إلى دارِ التوَّابينَ بشبرٍ.

وحُكِيَ أنَّ رجلًا عبدَ اللهَ تعالى سبعينَ سنةً فبيْنَما هو في معبدِه ذاتَ ليلةٍ فوقفَتِ امرأةٌ جميلةٌ فسألَتْه أنْ يَفتحَ لها، وكانتْ ليلةً شاتيةً، فلمْ يَلتفتْ إليها، وأقبلَ على عبادتِه، فولَّتِ المرأةُ فنَظَرَ إليها فأعجبَتْه وملكَتْ قلبَه وسلبَتْ لبَّه، فتركَ العبادةَ وتبعَها، فقالَ: إلى أينَ؟ فقالتْ إلى حيثُ أُريدُ، فقالَ: هيهاتَ هيهاتَ، صارَ المرادُ مُريدًا، والأحرارُ عبيدًا، ثم جذبَها فأدخلَها مكانَه فأقامتْ عندَه سبعةَ أيامٍ، فعندَ ذلك تفكَّرَ فيما كانَ فيه منَ العبادةِ، وكيفَ باعَ عبادةَ سبعينَ سنةً بمعصيةِ سبعةِ أيامٍ، فبَكى حتى غُشِيَ عليه، فلَمَّا أفاقَ قالتْ له: يا هذا أنتْ ما عصَيْتَ اللهَ معَ غيْري، وأنا ما عصيتُ اللهَ معَ غيرِكَ، وإني أَرى في وجهِكَ أثرَ الصلاحِ، فباللهِ

(١) أخرجه الطبرانيُّ في "الكبير" (٣٤/١٣) من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٤٧٠) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب حديث الغار]، ومسلمٌ (٢٧٦٦) [كتاب التوبة- باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله]، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

عليكَ إذَا صالَحَكَ مولاكَ فاذكُرْني، فخَرَجَ هاربًا على وجهِهِ، فأواهُ الليلُ إلى خربةٍ فيها عشرة عميانٍ، وكانَ بالقربِ منهم راهبٌ يَبعثُ لهم في كُلِّ ليلةٍ عشرةَ أرغفةٍ فجاءَ غلامُ الراهبِ بالخبزِ على عادتِه، فمدَّ ذلك الرجلُ العاصي يدَه فأخذَ رغيفًا، فبَقِيَ رجلٌ منهم لم يأخذْ شيئًا، فقالَ: أينَ رغيفي؟ فقالَ: قدْ فرَّقْتُ علَيْكم العشرةَ، فقالَ: أبيتُ طاويًا، فبكى الرجلُ العاصي وناولَ الرغيفَ لصاحبِه، وقالَ لنفسِه: أنا أحقُّ أنْ أبيتَ طاويًا؛ لأنِّي عاصٍ، وهذا مُطيعٌ، فنامَ واشتدَّ به الجوعُ حتى أشرفَ على الهلاكِ، فأمرَ اللهُ ملكَ الموتِ بقبضِ روحِه، فاختلفتْ فيه ملائكةُ العذابِ وملائكةُ الرحمةِ، فقالتْ ملائكةُ الرحمةِ: إنَّه فرَّ منْ ذنبِه وجاءَ تائبًا، وقالتْ ملائكةُ العذابِ: بلْ ماتَ عاصيًا، فأوحى اللهُ إليهم أن زِنوا عبادَةَ السبعينَ سنةً بمعصيةِ السبعةِ أيام، فوزَنوها، فرَجَحَتِ المعصيةُ على السبعينَ سنةً، فأوحى اللهُ إليهم أنْ زِنوا معصيةَ السبعِ ليالٍ بالرغيفِ الذي آثرَ به على نفسِه، فرَجَحَ الرغيفُ، فتوفَّتْه ملائكةُ الرحمةِ، وقُبِلَتْ توبتُه وهروبُه إلى ربِّه[1].

ونَقَلَ الأستاذُ أبو القاسمِ أنَّ زبيدةَ[2] رُئِيَتْ في المنامِ فقيلَ لها: ما فعلَ اللهُ بِكِ؟ فقالتْ: غَفَرَ لي، فقيلَ لها: بكثرةِ عمارتِك الآبارَ والبركَ والمصانعَ في طريقِ مكةَ وإنفاقِك فيها، فقالتْ: هيهاتَ هيهاتَ، ذَهَبَ ذلك كُلُّهُ لأربابِه، وإنَّما نَفَعَنا منه النيَّاتُ، فغُفِرَ لي بها[3].

وحُكِيَ أيضًا أنَّه يُؤتى بالعبدِ يومَ القيامةِ فيُدفَعُ له كتابٌ فيأخذُه بيمينِه، فيجدُ فيه حَجًّا

---

(١) أخرجه ابن حِبَّان (٣٧٨) [كتاب البر والإحسان- ذكر الخبر الدال على أن الحسنة الواحدة قد يرجى بها للمرء محو جنايات سلفت منه] من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ، وصحَّ من حديث أبي موسى موقوفًا: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٢١٢) [كتاب ذكر رحمة الله- ما ذكر في سعة رحمة الله تعالى]، والدينوريُّ في "المجالسة" (٢٢١٦) [الجزء الخامس عشر]، وأبو نعيم (١/٢٦٣) [ترجمة أبي موسى الأشعري]، وفي الباب عن ابن مسعودٍ موقوفًا أيضًا.

(٢) زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، وتكنى أم جعفر، وأمة العزيز، زوجة هارون الرشيد، وأم الأمين، كانت معروفة بالخير والإنفاق على العلماء والفقراء، ولها آثار كثيرة في طريق مكة والمدينة، والحرمين، وساقت الماء من أميال حتى غلغلته بين الحل والحرم، ووقفت أموالها على عمارة الحرمين، توفيت سنة ٢١٦. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠/٢٧٦)، والبداية والنهاية (١٠/٢٧١).

(٣) "الرسالة القشيرية" (٢/٥٦٨) [باب رؤيا القوم].

وجهادًا وصدقةً ما فَعَلَها، فيقولُ: هذا ليسَ بكتابي، فإنِّي ما فعلتُ شيئًا مِنْ ذلك، فيقولُ اللهُ تعالى: هذا كتابُكَ؛ لأنَّك عِشتَ عُمْرًا طويلًا وأنتَ تَقولُ: لو كانَ لي مالٌ حججْتُ منه، لو كانَ لي مالٌ تصدَّقْتُ منه، فعرفْتُ ذلك من صدقِ نيَّتِكَ، وأعطيتُكَ ثوابَ ذلك كلِّه.

الهجرة في الإسلام ومعانيها

(**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ**) الفاءُ رابطةٌ لِلْجَوابِ، وهيَ واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ أيْ: وإذا كانَ لكلِّ امرئٍ ما نَوى فمن.. إلخ، وهو مِنْ عطفِ المُفَصَّلِ على المُجْمَلِ؛ لأنَّ هذا تفصيلٌ لما سَبقَ، والهجرةُ -بكسرِ الهاءِ- في اللغةِ التَّرْكُ، وفي الاصطلاحِ مفارقةُ دارِ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلامِ خَوْفَ الفتنةِ وطلبَ إقامةِ الدِّينِ، وفي الحقيقةِ مفارقةُ ما يَكرهُه اللهُ إلى ما يُحبُّه.

وقدْ وقَعَتْ في الإسلامِ عَلى وجْهينِ:

الأولُ: الانتقالُ منْ دارِ الخوفِ إلى دارِ الأمنِ كما في هجرةِ الحبشةِ، وابتداءِ الهجرةِ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ.

الثاني: الهجرةُ مِنْ دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإيمانِ، وذلكَ بعدَ أنِ استقرَّ ﷺ بالمدينةِ هاجرَ إليهِ مَنْ أمكنَهُ ذلكَ مِنَ المسلمينَ، فكانتِ الهجرةُ إليْها واجبةً إذْ ذاكَ؛ لتكثيرِ عَددِ المسلمينَ والفرارِ بالدِّينِ مِنَ الفتنِ إلى أنْ فُتِحتْ مكةُ، لما رواهُ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عنهُ ﷺ أنَّه قالَ: (لَا هجرةَ بعدَ الفتحِ، ولكنْ جهادٌ وَنيَّةٌ)[1]، لكنْ رَوى أبو داودَ والنَّسائيُّ مِنْ حديثِ معاويةَ عنهُ ﷺ أنَّه قالَ: (لَا تَنقطِعُ الهجرةُ حتَّى تَنقطِعَ التوبةُ)[2]، ووفَّقَ الخطابيُّ بيْنهما بأنَّ الهجرةَ كانتْ في أولِ الإسلامِ فرضًا ثُمَّ صارتْ بعدَ الفتحِ مندوبةً، عَلى أنَّهُ ورَدَ في الحديثِ الآخرِ ما يدلُّ عَلى أنَّ المرادَ بالهجرةِ الباقيةِ هجرةُ السيِّئاتِ[3].

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٧٨٣) [كتاب الجهاد والسير- باب فضل الجهاد والسير]، ومسلمٌ (١٣٥٣) [كتاب الإمارة- باب المبايعة بعد فتح مكة..] من حديث ابن عبَّاسٍ مرفوعًا، وفي الباب عن عددٍ من الصحابة في الصحيحين وغيرهما، وعدَّه بعضهم من المتواتر.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٠٦) [حديث معاوية بن أبي سفيان]، وأبو داود (٢٤٧٩) [كتاب الجهاد- باب في الهجرة هل انقطعت]، والنَّسائيُّ في "الكبرى" (٨٧١١) [كتاب السير- متى تنقطع الهجرة]، وغيرهم من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرج أحمد وغيره (١٦٧١) [مسند عبدالرحمن بن عوف] من حديث عبدالرحمن بن عوفٍ وغيره أنَّ النبيَّ ﷺ=

(إلى اللهِ ورسولِه فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِه)، فإنْ قُلْتَ: القاعدةُ تَغايُرُ الشَّرطِ والجزاءِ؛ لأنَّ الشرطَ سببٌ للجزاءِ، والسببَ غيرُ المُسبِّبِ، فلا يقالُ مثلًا: "مَنْ أطاعَ أطاعَ ومَنْ عَصى عَصى"، وإنَّما يُقالُ: "مَنْ أطاعَ نَجا ومَنْ عَصى عوقِبَ"، وقدِ اتَّحَدا في هذا الحديثِ؟! فالجوابُ: أنَّ التغايرَ يقعُ تارةً باللَّفظِ، وهو الأكثرُ وتارةً بالمعنى كما هنا، فالمعنى: فَمَنْ كانتْ نيَّتُهُ في الهجرةِ التقرُّبَ إلى اللهِ ورسولِهِ فهجرتُهُ مقبولةٌ عندَهما، فالجزاءُ كنايةٌ عنْ قبولِ الهجرةِ، وقالَ بعضُهم: الجزاءُ محذوفٌ تقديرُه: فلَهُ ثوابُ الهجرةِ إلى اللهِ ورسولِهِ، والمذكورُ مستلزمٌ لَهُ، دالٌّ عليهِ، فأُقيمَ السببُ مَقامَ المُسبِّبِ.

وقدَّرَ أبو الفتحِ القشيريُّ: فمَنْ كانتْ هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ نيَّةً وقَصْدًا؛ فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ حُكمًا وشَرعًا. وقدَّرَ غيرُهُ: ثوابًا وأجرًا بدلَ قولِهِ: حُكمًا وشَرعًا.

فإنْ قلتَ: فما فائدةُ الإتيانِ بهما بالاتِّحادِ؟ فالجوابُ: أنَّ الاتِّحادَ هنا للمُبالَغةِ في التَّعظيمِ، عَلى أنَّهُ قدْ يُقصَدُ بجوابِ الشَّرطِ بيانُ الشُّهرةِ وعدمُ التَّغيُّرِ، فيتَّحِدُ بفعلِهِ لفظًا نحو: "مَنْ قصدَني فقدْ قَصدَني"، أي: فقدْ قصدَ مَنْ عُرِفَ بإنجاحِ قاصدِهِ، ويَجري مثلُ ذلك في المبتدأِ والخبرِ كقولِ الشَّاعرِ:

خَليلي خَلِيلي دُونَ رَيْبٍ وَرُبَّمَا * أَلَانَ امْرُؤٌ قَولًا فَظَنَّ خَليلًا

وقولِهِ:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي

أيْ: خَليلي مَنْ لَا أَشُكُّ في صحَّةِ خُلَّتِهِ، ولَا يَتغيَّرُ في حضورِهِ وَغَيبَتِهِ، وشِعْري عَلى ما ثَبَتَ في النُّفوسِ مِنْ جزالتِهِ والتوصلِ بِهِ مِنَ المرادِ إلى غايتِهِ. وقدْ يُقصَدُ بِهِ التحقيرُ نحو قولِهِ الآتي: "فهجرتُهُ إلى ما هاجَرَ إليهِ".

=قال: (إنَّ الهِجْرةَ خَصْلتان: إحداهما أن تهجرَ السيِّئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولةً حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كلِّ قلبٍ بما فيه، وكُفي الناسُ العملَ).

قال الصفويُّ[1]: وبالحقيقةِ الإشكالُ مدفوعٌ مِنْ أصلِه؛ لأنَّ الهجرةَ هِيَ الانتقالُ، وهو أمْرٌ يَقتضي ما يُنتَقَلُ إليهِ ويُسمَّى مُهاجَرًا إليهِ، ومَا يَبعثُ عَلى الاستقبالِ هو المُهاجَرُ لَهُ، والفقرتانِ لبيانِ أنَّ العِبْرَةَ بالباعثِ، وذلكَ إنَّما يَظهرُ إذا كانتْ «إلى» في جُملَتَي الشَّرطِ بمَعْنى اللَّامِ، فإذَا تُرِكَتْ في الجزاءِ عَلى مَعناها الوضعيِّ الحقيقيِّ فلا اتِّحادَ، والمعنى: مَنْ هاجَرَ للهِ ولرسولِهِ أيْ لِاتباعِ أمرِهما وابتغاءِ مَرضاتِهما فقدْ هاجَرَ إليْهِما حقيقةً، وإنْ كانَ ظاهرًا مُنتقلًا إلى الدُّنيا ونعيمِها، ومَنْ هاجَرَ لِغيرِهما فالمُهاجَرُ إليهِ ذلكَ وإنِ انتقلَ إلى النبيِّ ظاهرًا، وقولُه: إلى اللهِ ورسولِهِ إشارةٌ لِتعظيمِ الهجرةِ والمُهاجَرِ إليهِ.

***

ثُمَّ إنَّ أصلَ الهجرةِ الانتقالُ مِنْ محلٍّ إلى محلٍّ كما تقرَّرَ، لَكِنْ كثيرًا ما يُستعمَلُ في الأشخاصِ والأعيانِ والمعاني، وذلكَ في حقِّه تعالى إمَّا عَلى التشبيهِ البليغِ، أيْ كأنَّه هاجَرَ إليهِ، أو هو عَلى حذفِ مضافٍ أي محلِ رضاهُ وثوابِهِ ورحمتِهِ، أو يُقالُ الانتقالُ إلى الشيءِ عبارةٌ عنِ الانتقالِ إلى محلٍّ يَجدُه فيهِ، ووجدانُ كُلِّ أحدٍ عَلى ما يليقُ بهِ، فالمرادُ الانتقالُ إلى محلِّ قُربِهِ المعنويِّ وما يليقُ بهِ، ألَا ترَى إلى ما اشْتُهِرَ عَلى ألسنةِ القومِ مِنَ السَّيْرِ إلى اللهِ تعالى ونحوِ ذلكَ، أو يقالُ: إنَّ ذكْرَ اللهِ لِلتَّعْظيمِ والتَّبرُّكِ، ومثلُهُ غيرُ عزيزٍ، ألَا تَرى إلى ما قرروهُ في ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ الآية [الفتح: ١٠] أنَّ المعاملةَ معَ حبيبِ اللهِ كالمعاملةِ معَ اللهِ، فيَدُهُ يَدُهُ، وبَيْعتُهُ بَيْعتُهُ، والهجرةُ إليهِ هجرةٌ إليهِ، وأمثالُ هذهِ المُسامَحاتِ في كلامِ الشارعِ كثيرةٌ، و﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، والحاصلُ أنَّهُ أُرِيدَ بالهجرةِ هُنَا مُطْلَقُ الانتقالِ والتجاوزِ مِنْ شيءٍ إلى شيءٍ صوريًّا أو معنويًّا.

---

(١) قطب الدِّين أبو الخير عيسى بن محمد بن عبيد الله بن محمد الشريف، الحسني الحسيني الأيجي الشافعي الصّوفي، المعروف بالصّفوي، نسبة إلى جدّه لأمّه السيد صفي الدّين، اشتغل بالهند وسمع بها ثم حجّ ودخل مكة والمدينة ثمّ بلاد الشام ودرّس بها، ثمّ دخل مصر واستوطنها. له مؤلّفات، منها: شرح مختصر على الكافية، وشرح الغرّة في المنطق، وشرح الفوائد الضيائية، وكان مِن أعاجيب الزّمان، توفي سنة ٩٥٣. "الشذرات" لابن العماد (٤٢٨/١٠)، "الكواكب السائرة" للغزي (٣٠/٢).

وإنَّما قالَ: "إلى اللهِ ورسولِه"، ولَمْ يَقُلْ: "إلَيْهِما"، معَ أنَّ المحلَّ لِلإضمارِ تبرُّكًا وتَلذُّذًا بذكرِ اللهِ ورسولِه، ولِئَلَّا يَجمَعَ بيْنَهما في ضميرٍ واحدٍ، ولِذَا قالَ لِلخطيبِ -حينَ قال: «مَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقدْ رَشَدَ ومَنْ يَعصِهما فقدْ غَوى»-: (بِئْسَ خطيبُ القومِ أنْتَ، قُلْ: ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ)[١].

فإنْ قيلَ: قدْ وردَ في حديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّهُ ﷺ جمَعَ بيْنَهما في الضميرِ حيثُ قالَ: (مَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقدْ رَشَدَ ومَنْ يَعصِهما فإنَّهُ لَا يَضرُّ إلَّا نفْسَهُ ولَا يَضرُّ اللهَ شيئًا)[٢]، فالجوابُ: أنَّهُ إنَّما كانَ إنكارُهُ عَلى الخطيبِ؛ لأنَّهُ لَمْ يكنْ عندَهُ مِنَ المعرفةِ بتعظيمِ اللهِ وجلالِه والوقوفِ عَلى دقائقِ الكلامِ ما كانَ يعلمُهُ -عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِنْ عظمتِه وجلالِه.

(ومَنْ كانتْ هجرتُه لِدُنيا) بضمِّ الدَّالِ عَلى الأشْهَرِ، عَلى وزنِ "فُعْلَى" مَقْصورةً غيرَ منونة؛ إذْ هِيَ غيرُ مُنصرفةٍ لِلوصفيَّةِ ولزومِ ألفِ التأنيثِ، وحَكى ابنُ قتيبةَ وغيرُهُ كسرَ الدَّالِ، مِنَ الدُّنوِّ، وهوَ القُربُ لِسَبْقِها الآخرةَ أو لِدُنوِّها إلى الزوالِ، أوْ مِنَ الدَّناءةِ أي الخِسَّة. قالَ الشاعرُ:

أَعَافُ دُنْيَا تُسَمَّى مِنْ دَنَاءَتِهَا * دُنْيَا وَإِلَّا فَمِنْ مَكْرُوهِهَا الدَّانِي

واللَّامُ فيها لِلتَّعليلِ، أو بِمَعنى "إلى" لِمقابلتِهِ لهُ بقولِه: «فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، قالَ بعضُهم: والأوَّلُ أشبهُ.

وحقيقتُها جميعُ المخلوقاتِ الموجودةِ قبلَ الآخرةِ، وقيلَ: الأرضُ معَ الهواءِ والجوِّ، قالَ النوويُّ: والأوَّلُ أظهرُ. واستُشكِلَ استعمالُها مُنكَّرةً؛ لأنَّها في الأصلِ مؤنَّثُ أدْنى، وأدْنى أفْعَلُ تفضيلٍ، فحقُّها تُستعمَلُ باللَّامِ نحو الكُبْرى والحُسْنى، وأُجِيبَ بأنَّ "دُنْيَا" خُلِعتْ عنِ الوصفيَّةِ وأُجرِيَتْ مُجْرى ما لم يكنْ وصفًا مِمَّا وزنُه فُعْلى اسمًا، كرُجْعى وبُهْمى.

(١) أخرجه مسلمٌ (٨٧٠) [كتاب الجمعة- باب تخفيف الصلاة والخطبة]، وغيره من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجها أبو داود (١٠٩٧) [في تفريع أبواب الجمعة- باب الرجل يخطب على قوس]، والطبرانيُّ في "الكبير" (٢١١/١٠) [باب العين]، و"الأوسط" (٢٥٣٠) [باب من اسمه إبراهيم]، والبيهقيُّ في "السنن" (١٣٨٣٠) [جماع أبواب اجتماع الولاة- باب ما جاء في خطبة النكاح]، وغيرهم من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقالَ آخَرُ:

إنَّ للهِ عِبَادًا فُطَنَا * طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا

نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا * أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا * صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

(أَوِ امْرَأَةٍ) وفي روايةٍ: «أوْ إلى امْرأةٍ» (يَنْكِحُها) أيْ يتزوَّجُها، كَمَا جاءَ في روايةِ البخاريِّ[1]

فإنْ قيلَ: لِمَ ذَمَّ الدُّنيا والتزوُّجَ وهُما مُباحانِ لَا ذَمَّ فِيهِما؟ فالجوابُ: أنَّهُ لَمْ يَخرُجْ في الظَّاهِرِ لِطلبِ الدُّنْيَا ولا لِلتَّزوُّجِ، بَلْ خَرَجَ في صورةِ طَلَبِ الهِجْرةِ فأبْطَنَ خِلافَ ما أظْهَرَ، فلِذلكَ ذُمَّ.

***

فإنْ قيلَ: فما فائدةُ التَّنصيصِ عَلى المرأةِ معَ كونِها داخلةً في مُسمَّى الدُّنيا لِقولِه ﷺ: (إنَّما الدُّنيا متاعٌ، وليسَ مِنْ متاعِ الدُّنيا شيءٌ أفضلَ مِنَ المرأةِ الصالحةِ)[2] فالجوابُ مِنْ وجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ "دُنْيَا" نكرةٌ في سياقِ الإثباتِ فلَا تعمُّ، فلَا يَلزَمُ دخولُها فيها، ورُدَّ ذلكَ بأنَّها واقعةٌ في سياقِ الشَّرْطِ فتعمُّ.

الثَّاني: أنَّهُ للتنبيهِ عَلى زيادةِ التحذيرِ فيكونُ مِنْ بابِ ذِكْرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ، كما في قولِه تَعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقولِهِ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ الآية [البقرة: ٩٨]، لكنْ يُعكِّرُ عليهِ قولُ ابنِ مالكٍ في شرحِ العمدةِ: إنَّ عطفَ الخاصِّ عَلى العامِّ يختصُّ بالواوِ، ونحوُهُ للشيخِ خالدٍ، وأُجيبَ بأنَّ الدَّمامينيَّ أشارَ إلى جوازِ عطْفِ الخاصِّ عَلى العامِّ وعكسِهِ بـ"أَوْ"، وذهَبَ بعضُهم إلى أنَّ الأَجْوَدَ جَعْلُ "أَوْ" لِلتقسيمِ، وجعْلُها قِسْمًا مُقابِلًا لِلدُّنيا إيذانًا بشدَّةِ فِتنَتِها.

(١) "صحيح البخاري" (١) [كيف كان بدء الوحي].

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٨٥٥) [أبواب النكاح- باب أفضل النساء]، وغيره من حديث عبدالله ابن عمرو رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا مرفوعًا، وهو في "صحيح مسلم" (١٤٦٧) [كتاب الرضاع- باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة] بأخصر من هذا.

وكذلكَ رَوَى أسامةُ بنُ زيدٍ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: (ما تركتُ في الناسِ بعدي فتنةً أضَرَّ عَلى الرِّجالِ مِنَ النِّساءِ)(١).

وقالَ بعضُ العارفينَ: "ما أَيِسَ الشيطانُ مِنْ إنسانٍ قَطُّ إلَّا أتاهُ مِنْ قِبَلِ النِّساءِ"، وقالَ سفيانُ: قالَ إبليسُ: "سهْمي الذي إذَا رميْتُ به لمْ أُخطِئ النساءُ"، وكذا في خبرِ أحمدَ: "النظرُ إلى محاسنِ المرأةِ مِنْ سِهامِ إبليسَ"(٢)، ومِنْ ثَمَّ جُعِلْنَ في القرآنِ عينَ الشهواتِ قالَ تَعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أَيُّها الناسُ لا تُطيعُوا لِلنساءِ أمرًا ولا تَدَعوهُنَّ يَدَّبَّرْنَ أمرَ عيشٍ، فإنَّهُنَّ إنْ تُرِكْنَ وما يُرِدْنَ أفسَدْنَ المُلْكَ وعَصيْنَ المالِكَ، وجَدناهُنَّ لا دِينَ لَهُنَّ في خَلواتِهِنَّ، ولا وَرَعَ لَهُنَّ عندَ شهواتِهِنَّ، اللَّذةُ بِهِنَّ يسيرةٌ، والحيرةُ بِهِنَّ كثيرةٌ، فأمَّا صوالِحُهنَّ فَفاجراتٌ، وأمَّا طوالِحُهنَّ فعاهِراتٌ، وأمَّا المعصوماتُ فهُنَّ المعدوماتُ، فيهِنَّ ثلاثٌ مِنْ خصالِ اليهودِ، يَتظلَّمْنَ وهنَّ الظَّالِماتُ، ويتمنَّعنَ وهُنَّ الراغباتُ، ويَحلِفْنَ وهنَّ الكاذِباتُ، فاستعيذوا باللهِ مِنْ شِرارِهِنَّ، وكُونوا عَلى حَذَرٍ مِنْ خِيارِهِنَّ، والسلامُ".

الثَّالثُ: أنَّ الحديثَ ورَدَ عَلى سببٍ وهو أنَّهُ لَمَّا أُمِرَ بالهجرةِ مِنْ مكَّةَ إلى المدينة تَخلَّفَ جماعةٌ عَنْها فذمَّهم اللهُ تعالى بقولِه: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النحل: ٢٨]، ولمْ يُهاجِرْ جماعةٌ لِفقدِ استطاعتِهم فعذَرَهم واستثناهم بقولِه: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ الآية [النساء: ٩٨]، وهاجَرَ جماعةٌ فمَدَحَهم اللهُ في غيرِ موضعٍ مِنْ كتابِه، وكانَ في المهاجرينَ رجُلٌ أرادَ أنْ يَتزوَّجَ امرأةً يُقالُ لَهَا أُمُّ قيسٍ، واسمُها آمنةُ، وقيلَ جذامةُ، وقالَ ابنُ

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٠٩٦) [كتاب النكاح- باب ما يتقى من شؤم المرأة]، ومسلمٌ (٢٧٤٠) [كتاب الرقاق- باب أكثر أهل الجنة الفقراء]، وغيرهما من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) أخرجه الخرائطي في "اعتلال القلوب" (٢٧٣) [باب غض البصر عن المحارم]، والحاكم (٣١٣/٤) [كتاب الرقاق]، والقضاعيُّ (٢٩٢) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (النظرة سهمٌ مِن سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه جلَّ وعزَّ إيمانا يجد حلاوته في قلبه). وصحَّحه الحاكم، وهو عند أحمد (٢٢٢٧٨) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي أمامه]، وغيره من حديث أبي أمامة مرفوعًا بلفظ: (ما مِن مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها)، وفي الباب عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

دحيةَ: قَيلةُ -بفتحِ القافِ وسكونِ المثناةِ التحتيَّةِ- فأبَتْ أنْ تتزوَّجَهُ حتَّى يُهاجرَ فهاجَرَ لأجلِها[1]، فعرضَ بهِ تنفيرًا عنْ مثلِ قصدِه.

وذِكْرُ الدُّنْيا مَعَها مِنْ بابِ زيادةِ النَّصِّ عَلى السَّببِ، كَما أنَّهُ لَمَّا سُئِلَ عنْ طهوريةِ ماءِ البحرِ قالَ: (هو الطَّهُورُ ماؤهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ)[2] فزادَ قولَهُ: «الحِلُّ مَيْتَتُهُ» تمهيدًا لقاعدةٍ أُخرَى، ويُحتَمَلُ أنْ يَكونَ هاجَرَ لِمالِها معَ نِكاحِها، ويُحتمَلُ أنَّهُ كانَ يَطلُبُ نِكاحَها، وغيرُه مِنَ النَّاسِ هاجَرَ لِتحصيلِ دُنْيَا مِنْ جهةِ مَا فعرَّضَ بِهمَا.

(**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**) مِنَ الدُّنيا أوِ المرأةِ، وإنْ كانتْ صورتُهُ صورةَ الهجرةِ للهِ ورسولِهِ، وتركَ الإتيانَ بالظَّاهرِ في هذهِ الجملةِ حثًّا عَلى الإعراضِ عنِ الدُّنيا والنِّساءِ وعدمِ الاحتفالِ بِشأنِهما، وتَنبيهًا عَلى أنَّ العدولَ عنْ ذكْرِهما أبلغُ في الزَّجْرِ عنْ قصْدِهما.

***

(**رَوَاهُ إِمَامَا الْمُحَدِّثِينَ**) عِلْمًا وإتقانًا وتحريرًا وورَعًا وزُهْدًا واجتهادًا واستنباطًا (**أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ إسماعيلَ**) كانَ مِنْ خيارِ النَّاسِ، وأخَذَ عنْ مالكٍ وحمَّادِ بنِ زيدٍ، وصَحِبَ ابنَ المباركِ، وروَى عنْهُ جماعةٌ منهُم مُسلِمٌ صاحبُ الصَّحيحِ، (**بنِ إبراهيمَ بنِ المُغيرةِ**) بضمِّ الميمِ، ويجوزُ كَسرُها، قالَهُ [السيوطيُّ][3] في شرْحِهِ عَلى البخاريِّ. (**بنِ بَرْدِزْبَهْ**) بموحَّدةٍ مَفتوحةٍ فراءٍ ساكنةٍ فدالٍ مُهمَلةٍ مكسورةٍ فزايٍ ساكنةٍ فموحَّدةٍ مفتوحةٍ، ومعناهُ بِلسانِ أهلِ بُخارى الزَّرَّاعُ.

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ (٩/١٠٣) [باب العين]، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٨٠١٤) [ترجمة أم قيس] من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.، وقال ابن رجب في "جامع العلوم" (ص ٧٤، ٧٥) [الحديث الأول]: «وقد ذكر ذلك كثيرٌ من المتأخِّرين في كتبهم ولم نرَ له أصلًا بإسنادٍ يصح».

(٢) أخرجه أحمد" (٧٢٣٣) [مسند أبي هريرة]، وأبو داود (٨٣) [كتاب الطهارة- باب الوضوء بماء البحر]، والترمذيُّ (٦٩) [أبواب الطهارة- باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور]، والنَّسائيُّ (٥٩) [كتاب الطهارة- باب ماء البحر]، وابن ماجه (٣٨٦) [أبواب الطهارة- باب الوضوء بماء البحر]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) جاء في الأصل: "قاله المصنف في شرحه على البخاري"، والعبارة وردت في "التوشيح شرح الجامع الصحيح" للحافظ السيوطي.

المزيد من مناقب الإمام البخاري

(**البُخَارِيُّ**) بضمِّ الباءِ الموحَّدةِ وفتحِ الخاءِ المُعجَمةِ وبالرَّاءِ بعدَ الألفِ، نسبةً إلى بُخَارَى بلدةٍ معروفةٍ وراءَ النَّهرِ[1]. عَمِيَ في صِغَرِهِ وهو ابنُ سَنتيْنِ، وكانتْ لهُ والدةٌ عابدةٌ، وكانتْ تَدعو اللهَ كثيرًا أنْ يَرُدَّ إليهِ بصْرَهُ فرأتْ إبراهيمَ الخليلَ -عَلى نبيِّنا وعليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ- في المنامِ فقالَ لَها: إنَّ اللهَ قدْ ردَّ بصرَ ابنِكِ عليهِ بكثرةِ دعائِكِ وبكائِكِ. فأصبحَ وقدْ رَدَّ اللهُ عليهِ بَصْرَهُ.

قالَ أبو جعفرَ محمدُ بنُ أبي حاتمٍ الورَّاقُ: قلتُ لأبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ إسماعيلَ البخاريِّ: كيفَ كانَ بدءُ أمرِكَ في طلَبِ الحديثِ؟ فقالَ: أُلْهِمْتُ حفْظَ الحديثِ وأَنَا في الكُتَّابِ. قلتُ: وكَمْ أَتى علَيْكَ إذْ ذاكَ؟ فقالَ: عشْرُ سنينَ؛ ثُمَّ خرجْتُ مِنَ الكُتَّابِ بعدَ العشْرِ فجعلْتُ أَختلِفُ إلى الدَّاخِليِّ وغيرِهِ. قالَ: فلَمَّا طَعَنْتُ في ستَّ عشْرَةَ سنةً حفِظْتُ كُتبَ ابنِ المُباركِ ووكيعٍ وعرفتُ كَلامَ هؤلاءِ، ثُمَّ خرجْتُ معَ أبي وأخي أحمدَ إلى مكَّةَ فلَمَّا حجَجْنا رجَعَ أخي وتَخَلَّفْتُ بها في طلبِ الحديثِ، فلَمَّا طعَنْتُ في ثماني عشرةَ سنةً جعَلْتُ أصنِّفُ فضائلَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأقاويلَهم، وصنَّفْتُ كتابَ التاريخِ إذْ ذاكَ عندَ قبرِ الرسولِ ﷺ في اللَّيالي المُقمِرةِ. وقالَ: قَلَّ اسمٌ في التاريخِ إلَّا لهُ عندي قصةٌ إلَّا أنِّي كرِهْتُ تطويلَ الكتابِ.

وعنِ الحَسَنِ بنِ الحَسَنِ البزَّازِ -بزايَيْنِ- قالَ: رأيتُ محمدَ بنَ إسماعيلَ البخاريَّ نحيفَ الجسمِ ليسَ بالطَّويلِ ولا بالْقصيرِ.

ورُوِيَ عنِ البخاريِّ أنَّهُ قالَ: أخرجْتُ هذا الكتابَ -يَعني الصحيحَ- مِن زُهاءِ ستِّمائةِ ألفِ حديثٍ، وزُهاءُ الشيءِ -بضمِّ الزَّايِ وبالمدِّ- قدْرُهُ تقريبًا لا تحقيقًا، مِنْ "زهوْتُهُ بكذا أيْ حَزَرْتُهُ" حكاهُ الصاغانيُّ، وصنَّفَهُ في ستَّ عشرةَ سَنَةً.

وقالَ محمدُ بنُ بشارٍ بندارٌ: حُفَّاظُ الدُّنْيا أربعةٌ: أبو زرعةَ بالريِّ، ومسلمٌ بنيسابورَ، وعبدُ اللهِ الدارميُّ بسمرقندَ، والبخاريُّ ببُخارى.اهـ وكتبَ عنْهُ زُهاءُ -أيْ قَدْرُ- ألفِ عالمٍ، وكتبَ عنهُ المحدِّثونَ وما في وجهِهِ مِنْ شعرةٍ، وكانَ يَحضُرُ مجلسَهُ زُهاءُ عشرينَ ألفًا، وسَمِعَ منه الصحيحَ سبعونَ ألفًا، ورَوَى عنهُ رجالٌ كثيرٌ نَحو مائةِ ألفٍ أو يَزيدونَ أوْ يَنقُصونَ، وروى عنْهُ مُسْلمٌ

(١) وتقع حاليا في جمهورية أوزبكستان.

خارجَ الصحيحِ، وكانَ يقولُ لهُ: دَعْني أُقَبِّلْ رِجْلَيْكَ يا طبيبَ الحديثِ في عِلَلِه، ويا أُستاذَ الأُستاذِينَ، ويا سيِّدَ المُحدِّثينَ.

ومناقِبُهُ كثيرةٌ أُفردتْ بالتأليفِ، منْها أنَّ كتابَهُ لمْ يُقرأْ في كربٍ إلَّا فُرِّجَ، ولا رُكِبَ بهِ في مركَبٍ فغَرِقَ.

والسببُ في تصنيفِهِ له ما رَواهُ عنْهُ إبراهيمُ بنُ معقلٍ النسفيُّ(1)، قالَ: كُنَّا عندَ إسحقَ بنِ راهويه فقالَ: لو جَمعْتُمْ كتابًا مختصرًا لِصحيحِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: فوقَعَ ذلكَ في قلبي فأخذْتُ في جمعِ الجامعِ الصحيحِ. وعنْهُ أيضًا قالَ: رأيتُ النبيَّ ﷺ وكأنَّني واقفٌ بينَ يديْهِ وبيَدِيَّ مروحةٌ أذبُّ بِها عنهُ، فسألتُ بعضَ المعبِّرينَ فقالَ لي: أنتَ تذبُّ عنهُ الكذبَ، فهو الَّذي حمَلَني عَلى إخراجِ الجامعِ الصحيحِ قالَ: وألَّفْتُه في بضعَ عشرةَ سنةً.

وكان في سعةٍ منَ الدُّنْيا قدْ وَرِثَ مالًا كثيرًا منْ أبيهِ وكانَ يتصدَّقُ بهِ، ورُبَّما كانَ يَمضي النهارُ ولا يأكلُ إلَّا لوزتينِ أو ثلاثًا.

دَخَلَ بغدادَ مراتٍ وله معَهم الحكايةُ المشهورةُ المُتقدِّمة في امتحانِهم لهُ بقلبِ الأسانيدِ والمتونِ فصحَّحَها كُلَّها في الساعةِ، ولما رجَعَ مِنْ بغدادَ إلى بُخارى تلقَّاهُ أهلُها في محفلٍ عظيمٍ وبَقِيَ مُدَّةً يُحدِّثُهم في مسجدِهِ، فأرسَلَ إليهِ أميرُ البلدِ خالدُ بنُ محمدٍ الذهليُّ يتلطَّفُ بهِ ويسألُهُ أنْ يَحملَ له الصحيحَ ويحدِّثُه في قصرِهِ، فامتنعَ البُخاريُّ منْ ذلكَ وقالَ: لا أَذلُّ العلمَ ولا أحملُه إلى أبوابِ النَّاسِ، فحصلتْ وحشةٌ بيْنَهما فأمرَه خالدٌ بالخروجِ مِنَ البلدِ، فيقالُ إنَّ البخاريَّ دَعا عليهِ فلمْ يَمضِ شهرٌ حتى وَرَدَ أمرُ الخليفةِ بأنْ يُنادى عليهِ في البلدِ، فنُودِيَ عليهِ وهو عَلى أتانٍ وحُبِسَ حتى ماتَ.

ولما خَرَجَ مِنْ بُخارى كَتَبَ إليهِ أهلُ سمرقندَ يَطلبونَهُ إلى بلدِهم فسارَ إليْهِم، فلمَّا كانَ بخَرْتنكَ بلغَهُ أنْ وقَعَ بينهم بسببِهِ فتنةٌ، فقومٌ يُريدونَ دخولَهُ، وقومٌ يَكرهونَهُ فأقامَ بِها حتَّى

---

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج القاضي النسفي، ثقة حافظ، له المسند الكبير، والتفسير، وغير ذلك، توفي سنة ٢٩٥. سير أعلام النبلاء (١٣/٤٩٣)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٣٠٢).

يَنْجلِيَ الأمرُ، ودَعا وقالَ: اللَّهُمَّ قدْ ضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رحُبَتْ فاقْبِضْني إليكَ، فماتَ في ذلكَ الشهرِ، وتقدَّمَ في الخُطبةِ ما يتعلَّقُ بمولِدِهِ وسِنِّهِ ووفاتِه.

(**الْجَعْفِيُّ**[1]) نسبةً إلى اليمانِ بنِ أخنسَ الجعفيِّ؛ لأنَّهُ أسْلَمَ على يديه.

(**وأَبُو الحُسينِ مُسْلِمُ بنُ الحجَّاجِ بنِ مُسْلِمِ القُشَيْرِيُّ**) -بضَمِّ القافِ مُصغَّرًا- نسبةً إلى قُشَيْرِ بنِ كعبِ بنِ ربيعةَ بنِ عامرِ بنِ صعصعةَ، قبيلةٍ كبيرةٍ يُنسَبُ إلَيْها جماعةٌ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وخَلْقٌ مِنَ العُلماءِ، ومَنْ نَسَبَهُ مِنَ الشُّرَّاحِ إلى قُشَيْرٍ -بَطْنٍ مِنْ أَسْلَمَ منهُم سَلَمَةُ بنُ الأكوعِ- فقَدْ وَهِمَ.

التعريف بالإمام مسلم

(**النَّيْسابورِيُّ**) -بفَتْحِ النُّونِ وسكونِ الْمُثنَّاةِ التَّحتيَّةِ- نسبةً إلى نَيْسابورَ أحسنِ مُدنِ خراسانَ وأجْمَعِها لِلْخيراتِ، سُمِّيَتْ به؛ لأنَّ سابورَ ذا الأكتافِ لَمَّا رأى موضعَها وكانَ قصبًا قالَ: يَصلُحُ أنْ يكونَ هنا مدينةٌ، فقطَعَ القصبَ وبَناها، فقيلَ نَيْسابورُ، والنَّي: القَصَبُ.

صنَّفَ مسلمٌ صحيحَهُ مِنْ ثَلاثمِائةِ ألفِ حديثٍ كما في تاريخِ ابنِ عساكرَ، وُلِدَ سنةَ أربعٍ ومائتَيْنِ، وتوفِّيَ عشيةَ الأحدِ لخَمْسٍ بَقِينَ مِنْ رجبٍ، ودُفِنَ يومَ الإثنينِ سنةَ إحدى وستينَ ومائتينِ، وهو ابنُ خمسٍ وخمسينَ سنةً، وقيلَ ستُّونَ، وقيلَ قارَبَها، ويؤيِّدُه أنَّ المعروفَ أنَّ مولدَه سنةَ أربعٍ ومائتينِ، وذَكَرَ الحاكِمُ أنَّ سببَ موتِهِ أنَّهُ ذُكِرَ له حديثٌ فلَمْ يَعرِفْهُ، فأوقَدَ له السِّراجَ وقالَ لِمَنْ بدارِهِ: لا يدخُلْ منكم أحدٌ، فقالوا: أُهدِيَتْ لنا سلةُ تمرٍ، وقدَّموها، فكانَ يَطلُبُ الحديثَ ويأخُذُ تمرةً، فأصبحَ وقدْ فَنِيَ التَّمرُ وَوَجَدَ الحديثَ.

***

(**في صحيحَيْهِما اللَّذيْنِ**) بلامَيْنِ لِيتميَّزَ عنِ "الَّذينَ" جَمْعًا، فإنَّهُ بلامٍ واحدةٍ، (**هُمَا أَصَحُّ الْكُتُبِ**[2]) والأوَّلُ أرجحُ مِنَ الثَّاني، وقولُ الشَّافِعِيِّ: "ما أَعْلَمُ على الأرضِ كتابًا أكثرَ صوابًا مِنْ كتابِ مالكٍ"، وفي لفظٍ عنْهُ: "ما بعدَ كتابِ اللهِ أصحُّ مِنَ المُوطَّأ" كانَ قبلَ وجودِهما.

---

(١) لم يرد لقب "الجعفي" في معظم نسخ الأربعين.

(٢) جاء في معظم نسخ الأربعين: "الكتب المصنفة".

واستشكَلَ بعضُ الأئمة إطلاقَ أصَحِّيَّةِ كتابِ البُخاريِّ عَلى الموطَّأ معَ اشتراكِهما في اشتراطِ الصِّحَّةِ والمبالَغةِ في التَّحرِّي والتَّثبُّتِ، وكونُ البخاريِّ أكثرَ حديثًا لا يَلزَمُ منهُ أفضليةَ الصِّحَّةِ؟! والجوابُ عنْ ذلكَ أنَّهُ محمولٌ على أصلِ اشتراطِ الصِّحَّةِ، فالإمامُ مالكٌ لا يَرى الانقطاعَ في الإسنادِ قادِحًا، فلِذلكَ يخرجُ في المراسيلِ والمُنقَطِعاتِ والبلاغاتِ في أصلِ موضوعِ كتابِه، والبُخاريُّ يَرى أنَّ الانقطاعَ عِلَّةٌ فلا يُخرِجُ ما هذا سبيلُهُ إلا في غيرِ أصلِ موضوعِ كتابِهِ كالتَّعليقاتِ والتَّراجمِ، ولا شَكَّ أنَّ المنقطعَ وإن كانَ عندَ قومٍ منْ قبيلِ ما يُحتَجُّ بهِ، فالمُتَّصِلُ أقوى منهُ إذا اشتركَ كُلٌّ مِنْ رُواتِهما في العدالةِ والحفْظِ.

***

الحديث الثاني

٢. عَن عُمرَ أيضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: بَينما نحنُ جلوسٌ عندَ رسولِ الله ﷺ ذاتَ يوم، إذْ طَلعَ علينا رجُلٌ شديدُ بياضِ الثِّيابِ، شديدُ سوادِ الشَّعرِ، لا يُرى عليه أثرُ السَّفَرِ، ولا يعرفُهُ مِنَّا أحدٌ، حتى جلسَ إلى النبيِّ ﷺ فأسندَ رُكبَتيْهِ إلى رُكبَتيهِ، ووضعَ كفَّيْهِ على فخِذيْهِ، وقالَ: يا مُحمدُ أخبرني عَن الإسلامِ! فقالَ رسولُ الله ﷺ: الإسلامُ أنْ تَشهدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ مُحمَّداً رسولُ اللهِ، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتِيَ الزَّكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتَحُجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليهِ سبيلاً. قال: صدقتَ. فعجِبْنا لَهُ يَسألُه ويُصَدِّقُه.

قالَ: فَأخبِرني عن الإيمانِ! قالَ: أنْ تُؤمِنَ باللهِ ومَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّه. قال: صَدقْتَ.

قالَ: فأخبِرني عن الإحسانِ! قال: أنْ تعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لمْ تكُنْ تَراه فإنَّه يَراك.

قال: فأخبِرني عن السَّاعةِ! قال: ما المسئولُ عنها بأعلمَ مِنَ السَّائِلِ. قال: فأخبِرني عنْ أَماراتها! قالَ: أنْ تلِدَ الأمةُ ربَّتها، وأنْ تَرى الحُفاةَ العُراةَ العالةَ رِعاءَ الشاءِ يتطاولون في البُنيانِ.

ثُمَّ انطلقَ، فَلبِثْتُ مَليًّا، ثُمَّ قال: يا عُمرُ أَتَدري مَنِ السَّائلُ؟ قُلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قالَ: فإنه جِبْريلُ، أتاكُم يُعلِّمُكم دِينَكُم. رواه مسلم.

المزيد من مناقب سيدنا عمر

(عنْ) أبي حفص (**عمرَ أيضًا** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) روى البخاريُّ وغيرُه أنَّه استأذنَ النبيَّ ﷺ في العمرةِ، فقالَ له: (يا أُخَيَّ أشْرِكْنا في صالحِ دعواتِكَ ولَا تَنْسَنا)[١]، و"أُخَيَّ" ضُبطَ بضمِّ الهمزةِ مُصغَّرًا، وقالَ له ﷺ: (والَّذي نفْسي بيدِهِ ما لَقِيكَ الشَّيْطانُ سالِكًا فجًّا إلَّا سلَكَ فجًّا غيرَ فجِّكَ)[٢]، وقال: (إنَّ اللهَ تعالى جعلَ الحقَّ عَلى لسانِ عُمَرَ وقلْبِه، وإنَّهُ ما نَزَلَ بالنَّاسِ أمرٌ قَطُّ فقالوا وقالَ إلَّا نَزَلَ القرآنُ عَلى نحْوِ ما قالَ)[٣].

وروَى الشيخانِ أنَّهُ ﷺ قال: (بَيْنا أنا نائمٌ شَرِبْتُ لَبَنًا حتَّى أنْظُرَ إلى الريِّ يَجْري في أظفاري فناولْتُه عُمَرَ)، قالوا: فما أوَّلْتَه يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: (العِلْمُ)[٤]، وأنَّهُ رآهُ وعليهِ قميصٌ يَجرُّه. قالوا: فما أوَّلْتَهُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: (الدِّينُ)[٥].

وقال ﷺ: (رأيتُ كأنِّي عَلى بئرٍ أسْقي الناسَ، فجاءَ أبو بكرٍ فأخذَ الدَّلْوَ منِّي لِيُريحَني، ففرَّغَ ذَنوبًا أو ذَنوبَيْنِ وفي نزعِهِ ضعْفٌ، واللهُ يَغفرُ لهُ، ثُمَّ جاءَ عُمرُ فأخذَها مِنْ أبي بكرٍ فاستحالتْ غَرْبًا -أي دلوًا كبيرةً جدًا- فلَمْ أرَ عَبْقريًّا يَفري فريَهُ حتَّى ضرَبَ الناسُ بِعَطَنٍ -أي ارْتَوَوْا-)[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٥) [مسند عبدالله بن عمر]، وأبو داود (١٤٩٨) [أبواب فضائل القرآن- باب الدعاء]، والترمذيُّ (٣٥٦٢) [أبواب الدعوات] وصحَّحه، ولم أجده في "صحيح البخاريِّ"، والله أعلم.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا: البخاريُّ (٣٢٩٤) [كتاب بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده]، ومسلمٌ (٢٣٩٦) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عمر]، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٥١٤٥) [مسند عبدالله بن عمر]، والترمذيُّ (٣٦٨٢) [أبواب المناقب- باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب]، وابن حبَّان (٦٨٩٥) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة- ذكر إجراء الحق على قلب عمر]، وغيرهم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، وصحَّحه الترمذيُّ. وفي الباب عن الفضل بن العباس، وأبي ذرٍّ، وأبي هريرة. وموافقات سيِّدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للقرآن جمعها العلماء، ومنها ما جمعه الحافظ السيوطي منظوما وسمَّاه: "قَطْفُ الثَّمَرِ في مُوافَقاتِ عُمَرَ"، انظر: الحاوي للفتاوي" (٤٥٢/١).

(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٨٢) [كتاب العلم- باب فضل العلم]، ومسلمٌ (٢٣٩١) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عمر]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٥) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٦٩١) [كتاب أصحاب النبيِّ ﷺ- باب مناقب عمر بن الخطاب]، ومسلمٌ (٢٣٩٠) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عمر]، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٦) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٦٨٢) [كتاب أصحاب النبيِّ ﷺ- باب مناقب عمر بن الخطاب]، ومسلمٌ (٢٣٩٣) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عمر]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقولُه: "ذَنُوبًا أو ذَنُوبَيْنِ" بفتح الذَّالِ فِيهما، والذَّنوبُ الدَّلْوُ العظيمُ، وقيلَ: لا يُسمَّى بذلِكَ إِلَّا إذا كانَ فيهِ ماءٌ. وقولُه: "أَر عبقريًّا"، قالَ أبو عبيدةَ: العبقريُّ مِنَ الرِّجالِ الَّذي ليسَ فوقَهُ شيءٌ، ويُطلَقُ عَلى السيِّدِ والكبيرِ والقويِّ، وقِيلَ: هو مَنسوبٌ إلى "عبْقر" موضع بِالبادية يَسكنُهُ الجنُّ فأطلَقَهُ العربُ عَلى كُلِّ مَنْ كانَ عظيمًا في نفسِهِ فائقًا في جنسِهِ. وقولُه: "حتَّى ضَربَ الناسُ بِعطنٍ"، أي رُووا ورُوِيَتْ إبلُهم فأقامتْ عَلى الماءِ، ومنْهُ أعطانُ الإبلِ أيْ مواطنُ إقامتِها عَلى الماءِ.

وكأنَّ ذلكَ مُنزَّلٌ عَلى حالِ أبي بكرٍ في الخلافةِ ثم عمرَ، والضَّعْفُ ليسَ مِنْ أبي بكرٍ ولكِنْ مِنَ الوقتِ لِأجْلِ الفِتَنِ التي اتفقَتْ في زمانِهِ مِنْ قتالِ أهلِ الرِّدَّةِ وقَتْلِ مُسَيْلِمَةَ، وفي استخلافِ عُمَرَ راقتْ وصفَتْ واتَّسَعتِ الفُتوحُ والأموالُ وكَثُرَ خيرُ اللهِ وطابَ.

وركِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرَسًا في بعضِ الأيامِ فانكشَفَ فخذُهُ فرأى نَصارى نجرانَ عَلى فخذِهِ شامةً سوداءَ، فقالوا: هذا الذي نَجدُ في كتابنَا أنَّهُ يُخرِجُنا مِنْ أرضِنا، وكانَ كَذَلِكَ، فإنَّهُ أجْلَاهم مِنْ بَلدَتِهم بعدَ ذلكَ، وكانَ أوَّلَ كلامٍ تكلَّمَ بِه بعدَ خِلافتِهِ حينَ صعدَ المنبرَ قالَ: "اللَّهم إِني شديدٌ فلَيِّنِّي، وإِنِّي ضعيفٌ فقوِّني، وإِنِّي بَخيلٌ فسَخِّني".

وعنِ الأوزاعيِّ أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ خرَجَ في سوادِ اللَّيْلِ فرآهُ طلحةُ فدَخَلَ بيْتًا ثم دَخَلَ بيتًا آخرَ، فلمَّا أصبحَ طلحةُ ذَهَبَ إلى ذلكَ البَيْتِ فإذا بعجوزٍ عمياءَ مُقْعدَةٍ، فقالَ لَها: ما بالُ هذا الرجلِ يَأتيكِ؟ فقالتْ: إنَّهُ يَتعهَّدُني منذُ كذا وكذا بِما يُصلِحُني ويُخرِجُ عنِّي الأذى، فقالَ طلحةُ: ثَكِلتْكَ أُمُّكَ يا طلحةُ، أَعوراتِ عُمَرَ تَتبَعُ؟!

وعنهُ أيضًا أنَّهُ قالَ: قدِمَتْ رُفقةٌ مِنَ التُّجارِ فنزَلوا بالمُصلَّى، فقالَ عمرُ لِعبدِ الرحمنِ: هلْ لَكَ أنْ تحرُسَهم الليلةَ مِنَ السرقِ؟ فباتا يَحرُسانِهم ويُصلِّيانِ ما كتَبَ اللهُ لَهُما، فسَمِعَ عُمَرُ بكاءَ صبيٍّ فتوجَّهَ نَحْوَه فقالَ لِأمِّهِ: اتَّقِ اللهَ وأَحْسِني إلى صبيِّكِ، ثم عادَ إلى مكانِهِ فسَمِعَ بكاءَهُ فعادَ إلى أُمِّهِ فقالَ لَها مِثْلَ ذلِكَ، ثم عادَ إلى مكانِهِ فلمَّا كانَ آخرُ اللَّيْلِ سَمِعَ بُكاءَهُ، فأتى أُمَّهُ وقالَ: ويْحَكِ، إِنِّي لَأراكِ أُمَّ سوءٍ، ما لي أَرى ابنَكِ لَا يَقرُّ منذُ الليلةِ، قالتْ: يا عبدَ اللهِ قدْ أبْرمْتَني

منذُ الليلةِ، إنِّي أُربعُه لِأجْلِ الفِطامِ فيأْبى، قالَ: ولِمَ؟ قالتْ: لأنَّ عُمَرَ لا يَفرِضُ إلَّا للفُطُم. قالَ: وكَمْ لهُ؟ قالتْ: كذا وكذا أشهرًا. قالَ لَها: ويْحَكِ، لا تُعجِّليه، فصلَّى الفجرَ وما يَستبينُ الناسُ قِراءتَهُ مِنْ غَلبةِ بُكائِهِ، فلمَّا سَلَّمَ قال: يا بؤسًا لِعُمَرَ، كَمْ قَتَلَ مِنْ أولادِ المُسلمينَ. ثُمَّ أَمَرَ مُناديًا فنادى: لا تُعَجِّلوا عَلى أولادِكم بالفطامِ فإنَّا نَفرِضُ لِكُلِّ مَولودٍ في الإسلامِ، وكَتَبَ بذلِكَ إلى الآفاقِ.

وكانَ لا يَجمعُ في سماطِهِ بينَ إدامَيْنِ، وقدَّمتْ له حفصةُ مَرَقًا باردًا وصبَّتْ عليهِ زيتًا فقالَ: إدامانِ في إناءٍ لا آكلُه حتى ألْقى اللهَ عزَّ وجَلَّ. وعنِ الحسَنِ أنَّهُ خَطَبَ للناسِ وعليهِ إزارٌ فيه ثنتا عشرَ رُقْعةً، وعنه أيضًا أنَّهُ كانَ بيْنَ كتِفَيْ عُمَرَ ثلاثُ رِقاعٍ، وقالَ الشَّعرانيُّ في الطبقاتِ: وكانَ في قميصِهِ أربعُ رقاعٍ بينَ كتفيهِ، وكانَ إزارُه مرقوعًا بقطعةٍ مِنْ جرابٍ، وعدُّوا في قميصِهِ مَرَّةً أربعَ عشرَةَ رُقعةً إحْداها من أَدَمٍ أحمرَ. وكانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَشتهي الشهوةَ وثمنُها درهمٌ فيؤخِّرُها سنةً كاملةً.اهـ.

وعنْ مصعبِ بنِ سعدٍ أنَّ حفصةَ قالتْ لِعُمَرَ: يا أميرَ المؤمنينَ لوْ لَبِسْتَ ثوبًا هو أَلْيَنُ مِنْ ثوبِكَ، وأَكَلْتَ طعامًا هو أطْيَبُ مِنْ طعامِكَ، فقدْ وسَّعَ اللهُ عليكَ مِنَ الرِّزقِ وأكْثَرَ علَيْكَ مِنَ الخيرِ. فقالَ: إنِّي سأخاصِمُكِ إلى نفسِكِ، أَمَا تَذكُرينَ ما كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَلْقى مِنْ شدَّةِ العَيْشِ، فما زالَ يذكِّرُها حتَّى أبْكاها، فقالَ لها: أَمَا واللهِ لَأُشارِكَنَّهُ في مِثْلِ عَيْشِهِ الشديدِ لَعلِّي أُدرِكُ عيشَهُ الرَّخيَّ.

وعنِ ابنِ عباسٍ أنَّهُ كانَ لِلعبَّاسِ ميزابٌ عَلى طريقِ عُمَرَ، فلَبِسَ عمَرُ ثيابَهُ يومَ الجمعةِ، وقدْ كانَ ذُبِحَ لِلعبَّاسِ فَرخانِ فلمَّا وافَى الميزابَ صُبَّ ماءٌ بدمِ الفرخينِ فأَصابَ عُمَرَ، فأمَرَ عمرُ بقلعِهِ، ثُمَّ رجعَ عمرُ فطرَحَ ثيابَهُ ولَبِسَ ثيابًا غيرَ ثيابِهِ ثُمَّ جاءَ فصلَّى بالناسِ، فأتاهُ العباسُ فقالَ: واللهِ إنَّهُ لَلمَوْضِعُ الذي وضعَهُ النَّبيُّ ﷺ فيه، فقالَ عمرُ لِلعبَّاسِ: وأَنا أعزِمُ عليكَ إلَّا صعدتَ عَلى ظهري حتى تضعَهُ في الموضعِ الذي وضعَهُ رسولُ اللهِ ﷺ فيه، ففَعَلَ ذلكَ العباسُ.

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ أنهُ قالَ: رأيتُ والدي أخَذَ تبنةً مِنَ الأرضِ فقالَ: لَيْتَني كنتُ هذهِ

التَّبْنَة، لَيْتَني لَمْ أُخْلَقْ، لَيتَ أُمِّي لَمْ تلدْني، لَيْتَني لَمْ أكنْ شيئًا مذكوراً، لَيْتَني كنتُ نَسيًا مَنْسيًّا.

وعنِ الأحنفِ أنَّهُ قالَ: قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا أحنفُ مَنْ كَثُرَ ضحكُه قلَّتْ هَيبتُهُ، ومنْ مزحَ استُخِفَّ به، ومَنْ أكثرَ مِنْ شيءٍ عُرِفَ به، ومَنْ كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، ومَنْ كَثُرَ سقَطُهُ قَلَّ حياؤهُ، ومَنْ قلَّ حياؤهُ قَلَّ ورعُهُ، ومَنْ قَلَّ ورعُهُ ماتَ قلبُهُ.

قتلَهُ أبو لؤلؤةَ المجوسيُّ غلامُ المغيرةِ بنِ شعبةَ في المدينةِ بعدَ رجوعِهِ مِنَ الحجِّ في آخرِ ذي الحجةِ لِأربَعِ ليالٍ بَقينَ منهُ سنةَ ثلاثٍ وعشرينَ، ورُوِي أنَّهُ لَمَّا طُعِنَ ودخَلَ بيتَهُ دَعا بقدحٍ مِنْ لَبَنٍ فشربَهُ فنزلَ مِنْ جراحتِهِ فعُلِمَ أنه يَموتُ لا محالةَ، فدخَلَ عليهِ عبدُ الرحمنِ فقالَ: الصلاةَ يا أميرُ المؤمنينَ، فقالَ: نَعَمْ، ولا حظَّ في الإسلامِ لِمَنْ تَرَكَ الصلاةَ. فقامَ وصلَّى وجرحُهُ يشغبُ -أي يَقطُرُ- دمًا.

فلمَّا تُوفِّيَ وجِيءَ بهِ وكانَ عَلى الروضةِ قفلٌ، فبَيْنَما عبدُ اللهِ يريدُ أنْ يَستأذنَ أوْ وهو يَستأذِنُ إذْ سَمِعوا انفتاحَ القُفلِ مِنْ غيرِ أنْ يَفتحَهُ أحَدٌ وقائلًا يقولُ مِنَ الروضةِ: أَدخلوهُ، فدُفِنَ.

وكانتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأتْ في المنامِ كأنَّ ثلاثةَ أقمارٍ سقَطْنَ في حُجرتِها، فقَصَّتْها عَلى أبي بكرٍ، فقالَ لها خيراً رأيتِ وخيراً يكونُ، سأخبرُكِ بها وبَكى، فلمَّا توفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ ودُفِنَ في حُجرتِها قالَ لها: أيْ بُنيَّةُ هذا أحدُ أقمارِكِ، وهو خيْرُها، فلمَّا احْتُضِرَ هو قالَ لَها: وهذا الثاني، والذي بعدُ ثالثُها، فكانَ عمرَ، رَضِيَ اللهُ تَعالى عنْهُم أجمعينَ.

ودُفِنَ يومَ الأحدِ صبيحةَ هلالِ المحرَّمِ وعمرُهُ ثلاثٌ وستونَ سنةً عَلى الصحيحِ، وغسَّلَه ابنُهُ عبدُ اللهِ، وصلَّى عليهِ صهيبٌ، ودُفِنَ عندَ النبيِّ ﷺ، ولَمَّا غُسِلَ وكُفِّنَ وحُمِلَ عَلى سريرِه قالَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: واللهِ ما عَلى وجهِ الأرضِ رَجُلٌ أحبُّ إليَّ أنْ ألْقَى اللهَ بِصحيفَتِهِ مِنْ هذا الْمُسَجَّى بالثوبِ.

وقالَ حذيفةُ: لمَّا أسلمَ عمَرُ كانَ الإسلامُ كالرجلِ المقبلِ لا يَزدادُ إلَّا قوةً، فلمَّا قُتِلَ كانَ الإسلامُ كالرجلِ المُدبرِ لا يَزدادُ إلَّا ضعفًا.

وكانَ العبَّاسُ خليلًا لهُ فلمَّا أُصيبَ جَعَلَ يَدعو ربَّهُ أنْ يريَهُ إيَّاهُ فرآهُ بعدَ حولٍ وهو يمسحُ العرقَ عنْ وجهِهِ فقالَ: ما فعلْتَ؟ قالَ: هذا أوانُ فرغْتُ مِنَ الحسابِ، إنْ كادَ عرشي ليُهَدُّ لَوْلا أنِّي لَقِيتُ رؤوفًا رحيمًا.

***

(**قَالَ**) أيْ عمرُ: (**بَيْنَمَا**) أصلُهُ "بَيْنَ" فزيدَتْ عليه "مَا" لتكُفَّها عنْ عملِها وهو الخفضُ، ويجوزُ أيضًا "بَيْنَا" بِلا ميم، وهو ظرفُ زمانٍ بمعنى المفاجأةِ، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ ذلكَ لمْ يكنْ عنْ ميعادٍ ولا استعدادٍ، (**نَحْنُ**) ضميرُ المتكلمِ مَعَ غيرِهِ بدليلِ قولِهِ في آخرِهِ: "أتاكُم يُعلِّمُكم دينَكم"، فلا اتجاهَ لجعْلِهِ ضميرَ المتكلمِ المعظمِ نفْسَهُ، (**جُلُوسٌ**) جَمْعُ "جَالِسٍ" كـ"شُهُودٍ" جمعُ "شَاهِدٍ" أوْ مَصدرٌ بِمعْنى جالسينَ، و"نَحْنُ" مبتدأٌ، و"جُلُوسٌ" خَبرُهُ.

(**عِنْدَ**) بتثليثِ العينِ ظرفُ مكانٍ، ومعناهُ القربُ إمَّا حِسًّا كما هُنا، وإمَّا معنًى كما في قولِهِ تَعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، ولَا يَدخُلُ عليهِ حرفُ جَرٍّ غيرُ "مِنْ"، (**رَسُولِ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ**) جمْعُهُ "أَيَّامٌ" وأصلُه "أَيْوَامٌ" فأُدغِمتْ، وأوردَ عليهِ أنَّ "ذَات" مؤنثةٌ؛ لأنَّها تأنيثُ "ذُو" بِمعنى صَاحِبٍ، و"يَوم" مذكرٌ فكيفَ أُضيفَ المؤنثُ إلى المذكَّرِ؟! وأُجيبَ بأنَّ الكلامَ فيهِ حذْفٌ، والتقديرُ: "في ساعةٍ ذاتِ مُدَّةٍ مِنْ يومٍ" فحُذِفَ ذلكَ لِظهورِ المُرادِ.

ولمَّا كانَ "بَيْنَما" ظرفًا مُتضمنًا معْنى الشَّرْطِ وهو يَحتاجُ إلى جوابٍ يَتِمُّ به أشارَ لهُ بقولِهِ: (**إِذْ طَلَعَ**) لمْ يَقُلْ "دَخَلَ" إشعارًا بتعظيمِهِ ورفعةِ قدرِهِ، وفيهِ استعارةٌ تبعيةٌ؛ لأنَّهُ شَبَّهَ ظهورَهُ في نباهةِ القدرِ وارتفاعِ الشأنِ بطلوعِ الشمسِ، ثم اشتقَّ منهُ الفعلَ فوقعتِ الاستعارةُ في المصدرِ أصليةً وفي الفعلِ تبعيةً، أو شَبَّهَهُ بالشمسِ استعارةٌ مكنيةٌ ثم أثبتَ له الطلوعَ تخييلًا، (**عَلَيْنَا رَجُلٌ**) أيْ مَلَكٌ في صورةِ رَجُلٍ، والتنوينُ فيه لِلتَّعظيمِ.

وفي روايةٍ لِلبُخاريِّ: (إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي)[1]، وأفادَ مُسلِمٌ في روايةِ عمارةَ بنِ القعقاعِ سببَ

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٧) [كتاب تفسير القرآن- باب قوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾] من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

ورودِ هذا الحديثِ، فعندَهُ في أوَّلِهِ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (سَلُوني)، فهَابوا أنْ يَسألوهُ، قالَ: فجاءَ رجُلٌ ... إلخ[1]، أيْ لأنَّهم كانوا أوَّلًا أكْثَروا المسائلَ عَلى النبيِّ ﷺ فزجَرَهم[2] كراهيةً لِمَا قدْ يَقعُ مِنْ سؤالِ تَعنُّتٍ ونحوِهِ، فلمَّا امتثَلوا قالَ لَهُم: (سَلُوني)، فهابوه وأحْجَموا عنِ المسألةِ فجاءَهم مَنْ تَعلَّموا سؤالَهُ.

قالَ السبكيُّ نقلًا عنِ ابنِ العربيِّ: لِلمَلَكِ أنْ يَتصوَّرَ في أي صورةٍ شاءَ وتَجري عليه أحكامُها، وحينئذٍ فلا يتكلَّمُ إلَّا بِما يليقُ بتلكَ الصورةِ، ومثلُ ذلك الجِنِّيُّ، فإذَا قتلْتَ تلكَ الصورةَ التي ظَهَرَ بِها ماتَ مَعَها، بخلافِ الإنسانِ فإنَّهُ إذا تَمثَّلَ بصورةٍ لا تحكم عليهِ، فإذا تكلَّمَ مِنْ تلكَ الصورةِ تَكلَّمَ بأيِّ لغةٍ شاءَ، وإذا قُتِلَ بِها لا يَموتُ. اهـ.

وبِما تَقرَّرَ مِنْ أنَّ لِلمَلَكِ أنْ يَتصوَّرَ في أيِّ صورةٍ شاءَ يندفعُ ترددُ إمامِ الحرمينِ في تَمثُّلِ المَلَكِ هَلْ معناهُ أنَّ اللهَ أفْنَى الزائدَ أوْ أزالَهُ عنْهُ ثُمَّ أعادَهُ إليه، وجزمُ ابنِ عبدِ السلامِ بالإزالةِ دونَ الفناءِ، وقولُ ابنِ جنِّي الظاهرُ أنَّ الزائدَ لا يَزولُ ولَا يَفْنى بَلْ يَخْفى عنِ الرَّائي، وقولُ البلقيني بالقبضِ والبسطِ، وذلكَ أنَّه يَجوزُ أنْ يكونَ أتى بشكلِهِ الأصليِّ مِنْ غيرِ فَناءٍ ولَا إزالةٍ إلَّا أنَّه انضمَّ فصارَ عَلى قدرِ هيئةِ الرَّجُلِ، وإذا تركَ ذلكَ عادَ إلى هيئتِهِ كالقُطنِ إذَا جُمِعَ بعدَ أنْ كانَ مُنتفشًا.

(شَديدُ بَياضِ الثِّيَابِ) فيهِ دليلٌ عَلى استحبابِ البياضِ مِنَ الثِّيابِ عندَ لقاءِ الرؤساءِ والجلوسِ في المحافلِ؛ لأنَّ مَرجعَ جميعِ الألوانِ إليه، وهذا في غيرِ العيدِ، وأمَّا فيهِ فالجديدُ ولوْ مِنْ غيرِ البياضِ أفضلُ مِنْ غيرِهِ لِلقادرِ عليهِ؛ لأنَّه يومُ زينةٍ وإظهارٍ لِلنِّعمةِ.

وفيهِ دليلٌ عَلى أنَّ السُّنَّةَ النَّظافةَ لِخَبرِ: (إنَّ اللهَ نظيفٌ يُحبُّ النَّظافةَ)[3]، وقالتْ عائشةُ

---

(١) صحيح مسلم (١٠) [كتاب الإيمان- باب الإسلام ما هو وبيان خصاله] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٨) [كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة- باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ]، ومسلمٌ (١٣٣٧) [كتاب الفضائل- باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، ولفظ مسلم: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ...) الحديث.

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٧٩٩) [أبواب الأدب- باب ما جاء في النظافة]، وأبو يعلى (٧٩٠) [مسند سعد بن أبي وقَّاص] وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كانَ النّبيُّ ﷺ يُحبُّ الثوبَ النظيفَ ويكرهُ الثوبَ الوسخَ)[١].

(**شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ**) فيهِ تنبيهٌ عَلى استحبابِ تحسينِ الشعرِ بالتسريحِ والدهنِ وغيرِهما عندَ الدخولِ عَلى الأكابرِ، وقولُه "الشَّعْر" أيْ شعرُ اللِّحيةِ كما وقَعَ مُصرَّحًا بهِ في روايةِ ابنِ حبَّانَ[٢]، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ زمانَ طلَبِ العلمِ زمنُ الشبابِ، فإنَّهُ إذا صَرَفَ أوَّلَ عمرِه في طلَبِ العلمِ يَصرِفُ باقيَهُ في العملِ بِمَا عَلِمَ، وقدَّمَ البياضَ عَلى السوادِ؛ لأنَّهُ خيرُ الألوانِ.

وفي روايةِ النسائيِّ: (أحسنُ الناسِ وجهًا وأطيبُ الناسِ ريحًا، كأنَّ ثيابَهُ لا يَمسُّها دَنَسٌ)[٣] وفيهِ استحبابُ تحسينِ الهيئةِ وتنظيفِ الثيابِ وتطييبِ الرائحةِ سيَّما لِلعالِمِ والمتعلِّمِ؛ لأنَّه مُعلِّمٌ بدليلِ: (أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)، ومُتَعَلِّمٌ بمقالِه وحالِه، وقدْ قالَ ابنُ عبدِ السلامِ: لا بأسَ بلباسِ شعارِ العلماءِ لِيُعْرفوا بذلكَ فيسألُوا، فإنِّي كنتُ مُحرِمًا فأنكرتُ عَلى جماعةٍ مُحرمينَ لا يَعرفونَ نَهيَ ما أخلُّوا بِهِ مِنْ آدابِ الطَّوافِ، فلَمْ يَقبلُوا، فلمَّا لَبستُ ثيابَ الفقهاءِ وأنكرتُ عليْهِم ذلكَ سَمِعوا وأطاعوا، وفيهِ رَدٌّ عَلى مَنْ آثرَ رثاثةَ الهيئةِ والملْبَسِ.

(**لَا يُرَى**) بِضَمِّ المُثنَّاةِ تحتُ مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعلُه، ورُوِيَ بالنُّونِ المفتوحةِ مبنيًّا لِلفاعلِ، والروايةُ الأولى أبلغُ مِنَ الثانيةِ، وعليهِ اقتصرَ النوويُّ في نكتِهِ، (**عَلَيْهِ أَثَرُ**) أيْ عَلامةُ (**السَّفَرِ**) مِنْ نحوِ غبرةٍ وشعوثةٍ، ولِسليمانَ التيميِّ: (ليسَ عليهِ سَحَنَا سَفَرٍ وليسَ مِنَ البلدِ)، والسَّحَنَا -بفتحِ السينِ والحاءِ المهملتينِ- الهيئةُ.

(**وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا**) أيْ معشرَ الصحابةِ وقدَّمهُ لِلاهتمامِ، (**أَحَدٌ**) لَا يُنافي أنَّهُ كانَ يَأتي لِلنبيِّ ﷺ في صورةِ دحيةَ الكلبيِّ[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأنَّ ذلكَ كانَ غالبًا لا دائمًا، وأيضًا زادَ في التعميةِ

---

(١) لم أجده بها اللفظ، وأخرج أبوداود (٤٠٦٢) [باب في غَسْل الثوب وفي الخُلْقان] وغيره عن جابر بن عبد الله، قال: أتانا رسولُ الله ﷺ فرأى رجُلاً شعثاً قد تفرَّقَ شعرُهُ، فقال: (أما كان هذا يَجِدُ ما يُسكِّنُ به شَعْرَهَ؟)، ورأى رجُلاً آخر عليه ثيابٌ وسِخَة فقال: (أما كان هذا يجدُ ما يَغسِلُ به ثوبَهُ؟)

(٢) صحيح ابن حِبَّان (١٦٨) [كتاب الإيمان- باب فرض الإيمان].

(٣) سنن النَّسائي (٤٩٩١) [كتاب الإيمان وشرائعه- صفة الإيمان والإسلام] من حديث أبي ذرٍّ وأبي هريرة.

(٤) أخرج الطبرانيُّ في "الأوسط" (٧) [باب الألف- من اسمه أحمد] عن أنس، أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: (يأتيني جبريل على صورة دحية الكلبي)، وفي الباب عن ابن عمر.

عليْهم حيثُ جاءَ ماشيًا في هيئةِ مُقيم. وما وَقَعَ في روايةِ النسائيِّ مِنْ طريقِ أبي فروةَ في آخرِ الحديثِ "أنَّهُ جبريلُ نزَلَ في صورةِ دحيةَ"[١] وَهْمٌ، لأنَّ دحيةَ معروفٌ عندَهم.

وإنَّما لم يَقُلْ "ولم يعرفْ" لِئَلَّا يُوهِمَ أنَّه ﷺ لا يَعرفُه، وليسَ كذلكَ، وهذا صريحٌ في أنَّهم رأوهُ. وما وقَعَ في روايةِ أحمدَ عنْ غيرِ عمرَ مِنْ أنَّهم (سَمِعوا كلامَهُ ولمْ يَروهُ)[٢] يُحْمَلُ عَلى أنَّ بعضَ القومِ كانَ جالسًا عندَه وبعضُهم كان خارجًا عن ذلِكَ فسَمِعوهُ مِنْ وراءِ نحوِ جدارٍ، جمعًا بينَ الحديثينِ الصحيحينِ. كذَا قرَّره بعضُهم، ولا حاجةَ إليه؛ لأنَّ المَلَكَ إذَا حضرَ بمجلسٍ قدْ يَراهُ بعضُ أهلِ المجلسِ دونَ بعضٍ بحسبِ حالِ الرائي في الصفاءِ والاستعدادِ وغيرِ ذلكَ.

وقدَّمَ لفظَ "منَّا" لِلاهتمام، والجملتانِ صفةُ "رجلٍ" أوْ حالٌ مِنْهُ، لأنَّهُ خُصِّصَ بالوصفينِ فإنْ قيلَ: كيفَ عَرَفَ عمرُ أنَّهُ لمْ يعرفْهُ أحدٌ منْهم؟ فالجوابُ أنَّه يُحتمَلُ أنَّه استندَ فيه إلى ظنِّه أوْ إلى صريحِ قولِ الحاضرينَ. قال الحافظُ أبو الفضلِ بنُ حجرٍ: ويُعيِّنُ الثاني أنَّه قدْ جاءَ كذلكَ في روايةِ عثمانَ بنِ غياثٍ (فنَظَرَ القومُ بعضُهم إلى بعضٍ وقالوا ما نَعرفُ هذا)[٣].

(**حتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ**)، قالَ الطيبيُّ[٤]: "حتَّى جَلَسَ" مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ يَدلُّ عليهِ "طَلَعَ" أي استأذنَ ودَنَا حتَّى جَلَسَ إلخ. اه. أيْ وبهِ يَندفعُ ما قيل أنَّهُ لَيْسَ في الكلامِ ما هذا غايةٌ لهُ، ثُمَّ إنَّ هذا التعبيرَ بـ"إِلَى" يردُ عليهِ أنَّها لانتهاءِ الغايةِ، وهو إنَّما يكونُ في ممتدٍّ كالسفرِ دونَ الجلوسِ إذْ لا امتدادَ فيه، فلتكنْ بمعنى "عِنْدَ" أوْ "مَعَ".

(**فَأَسْنَدَ**) أيْ ألصقَ (**رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ**)؛ لأنَّ الجلوسَ كذلكَ أقربُ لِلتواضعِ والأدبِ وأبلغُ في الإصغاءِ وحضورِ القلبِ والاستئناسِ، وهو صريحٌ في أنَّه جَلَسَ بينَ يديهِ؛ لأنَّه لو

---

(١) سنن النسائي (٤٩٩١) [كتاب الإيمان وشرائعه- صفة الإيمان والإسلام].

(٢) أخرج أحمد (١٧١٦٧) من حديث أبي عامر الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وفيه: (ونسمع رجع رسول الله ﷺ إليه، ولا يُرى الذي يُكلِّمه ولا يُسمع كلامه...) وهو مُشكل.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٤) [مسند عمر]، وغيره من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) الإمام الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، كان شديد الردّ على المبتدعة، آيةً في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، من كتبه: التبيان في المعاني والبيان، والخلاصة في معرفة الحديث، وحاشية على الكشاف، وشرح مشكاة المصابيح، توفي سنة ٧٤٣. الدرر الكامنة (٢/١٨٥).

جَلَسَ بجنبِهِ لَمْ يُمكِنْهُ إلَّا إسنادُ ركبةٍ واحدةٍ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّه يَنبغي لِلمُتعلِّم الجلوسُ بينَ يديْ شيخِهِ لا عنْ يمينِهِ ولا عنْ يَسارِهِ ولا خلفَهُ حيثُ كانَ الموضِعُ واسعًا، لكنْ لا يبالِغُ في القربِ منهُ بحيثُ يَسندُ ركبتَيْهِ إليهِ كما هنا؛ لأنَّه إنَّما فعَلَ ذلك هُنا جريًا عَلى ما بَيْنَهما قبلُ مِنْ مزيدِ الودِّ والأُنسِ حينَ يُلْقِي عليهِ الوحيَ.

(**وَوَضَعَ كَفَّيْهِ**) تَثْنِيَةُ "كفٍّ"، وهِيَ الرَّاحةُ معَ الأصابعِ، سُمِّيتْ بهِ لأنَّها تَكُفُّ الأذى عنِ البدنِ، (**عَلَى فَخِذَيْهِ**) -بِكَسْرِ الخَاءِ- أيْ فخذي النَّبيِّ ﷺ كما في حديثِ ابنِ عباسٍ[1] وأبي عامرٍ الأشعريِّ[2] وأبي هريرةَ وأبي ذرٍّ[3] حيثُ قالَ: (وَضَعَ يديهِ عَلَى ركبتي النبيِّ ﷺ)، خلافًا لِمَا جَزَمَ به النوويُّ ووافقَهُ عليهِ التوربشتيُّ[4] شارحُ "المصابيح" أنَّ الضميرَ راجعٌ إلى الرجلِ.

قالَ القرطبيُّ: وأرادَ بذلكَ المبالغةَ في تعميةِ أمرِهِ لِيَقوى الظَّنُّ أنَّهُ مِنْ جُفاةِ الأعرابِ فصنَعَ صنيعَهم؛ لأنَّ الصحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ استنكروا هيئتَهُ وجلوسَهُ كما ذُكِرَ. اهـ. وردَّهُ بعضُهم بأنَّهُ لا يكونُ صنعُهُ المذكورُ كصُنْعِ جُفاةِ الأعرابِ إلَّا لوْ لَمْ يفعلْه بإذنٍ، وهو قدْ أذنَ له مرارًا. اهـ. وفيهِ نظرٌ فإنَّ قُربَهُ وإنْ كانَ مأذونًا له فيهِ لكنْ وضعُهُ كفيهِ عَلى فخذي النَّبيِّ ﷺ لم يكنْ بإذنٍ، فصَحَّ قولُ القُرطبيِّ أنَّهُ صنعَ صنيعَ جُفاةِ الأعرابِ. وفي روايةِ أبي داودَ وغيرِه أنَّهُ ﷺ كانَ يجلسُ بينَ أصحابِهِ فيجيءُ الغريبُ فلا يَدري أيُّهم هو حتى يَسألَ، فبُنِيَتْ له مصطبةٌ مِنْ طينٍ يجلسُ عليْها، فجاءَهُ جبريلُ وهو عليْها فقالَ: "السلامُ عليكَ يا محمدُ"، فردَّ عليهِ السلامَ، فقالَ: "أَدْنُ يا محمدُ"، قالَ: (ادْنُ)، فما زالَ يقولُ "أدنُ" مِرارًا وهو يقولُ: (ادْنُ ادْنُ)[5].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩٢٤) [مسند عبدالله بن العباس]، والحارث في مسنده (٩) [كتاب الإيمان- باب في خصال الإيمان والإسلام]، وغيرهما.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٦٧) [مسند الشاميين- حديث أبي عامر الأشعري]، وغيره.

(٣) أخرجه النَّسائيُّ (٤٩٩١) [كتاب الإيمان وشرائعه- صفة الإيمان والإسلام]، والبزَّار (٤٠٢٥) [مسند أبي ذر الغفاري]، وغيرهما من حديث أبي ذرٍّ وأبي هريرة معًا.

(٤) فضل الله بن الحسن بن حسين بن يوسف، فقيه محدث من أهل شيراز شرح مصابيح البغوي، ذكره السبكي في الطبقات، توفي في حدود سنة ٦٦٠. طبقات السبكي (٣٤٩/٨)، الجواهر والدرر (٩١٣/٢).

(٥) سنن أبي داود (٤٦٩٨) [كتاب السن- باب في القدر]، وغيره من حديث أبي ذرٍّ وأبي هريرة.

واستنبطَ منهُ بعضُهم استحبابَ ابتداءِ الداخلِ بالسَّلامِ، وإقبالِه عَلى رأسِ القومِ، وجلوسِ العالِمِ بمكانٍ يَختصُّ بهِ ويكونُ مُرتفِعًا إذا احتاجَ إلى ذلكَ لِضرورةِ تعليمٍ ونحوِهِ، والاستئذانِ في القربِ منَ الإمامِ مرارًا وإنْ كانَ الإمامُ في موضِعٍ مأذونٍ في دخولِه، وتركِ الاكتفاءِ في الاستئذانِ مرةً أو مرتيْنِ عَلى جهةِ التعظيمِ والاحترامِ.

ووَقَعَ للشارحِ الهيتمي أنَّهُ عزا لِرواية النسائيِّ أنَّهُ خاطَبَهُ بقولِهِ: "السلامُ عليكُمْ يا محمدُ" بلفظِ الجمْعِ، ثم قالَ: فيهِ ندبُ السلامِ عَلى الواحدِ بصيغةِ الجمعِ، وهو زَلَلٌ فإنَّ روايةَ النسائيِّ ليسَ فيها "علَيْكم" بلفظِ الجمعِ، وإنَّما وقعَ ذلكَ في روايةِ القرطبيِّ، ثم استُنْبِطَ منهُ أنَّهُ يُسَنُّ لِلداخلِ أنْ يُعمِّمَ بالسلامِ ثُمَّ يُخصِّصَ مَنْ يُريدُ تخصيصَه، وتعقَّبَهُ خاتمةُ الحفاظِ ابنُ حجرٍ بأنَّ الذي وقفَ عليهِ مِنَ الرِّواياتِ إنَّما فيهِ الإفرادُ وهو"السلامُ عليكَ يا محمدُ"[1].

(**وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ**) عَلَمٌ منقولٌ مِن اسمِ مفعولِ الفعلِ المضعَّفِ -أي المكرَّرِ- العينِ، سُمِّيَ به نبيُّنا محمدٌ ﷺ بإلهامٍ مِنَ اللهِ تَعالى، تفاؤلًا بأنْ يَكثُرَ حمدُ الخلقِ لهُ لكثرةِ خصالِه الجميلةِ، ويأتي لذلكَ مَزيدُ بيانٍ[2].

وخاطبَهُ بهِ معَ أنَّهُ يَحرُمُ نداؤهُ ﷺ باسمِهِ لِقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، إمَّا لأنَّه كانَ قبلَ التحريمِ، وإمَّا لأنَّ الحرمةَ مختصَّةٌ بالآدميِّينَ دونَ الملائكةِ؛ لأنَّ الخِطابَ في الآيةِ للآدميِّينَ فلا يَشملُ الملائكةَ إلَّا بدليلٍ، وإمَّا جريًا على عادةِ العربِ مِنَ النداءِ بالاسمِ غالبًا قصدًا لِمزيدِ التعميةِ علَيْهم.

وفُهِمَ منهُ جوازُ نداءِ العالِمِ والرئيسِ باسمِهِ ولوْ مِنَ المُتعلِّمِ إنْ لَمْ تُعلَمْ كراهتُهُ لذلكَ، ولا كانَ على سبيلِ الوضعِ مِنْ قدرِهِ؛ لأنَّه أقربُ إلى التواضعِ وأولى بالصدقِ، وإلا فبلَقبِهِ أو كنيته توقيرًا له وتعظيمًا، وإنما خاطَبَهُ بهذا الاسمِ دونَ غيرِهِ مِنْ بقيةِ الأسماءِ؛ لأنَّ هذا هو أشهرُها.

(**أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ**) اللامُ فيهِ لِلحقيقةِ والماهيَّةِ الشرعيَّةِ، وكذا في نظائرِهِ، ولذا وقعَ في

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١٧/١) [قوله باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام].

(٢) يأتي عند قوله: (محمد رسول الله).

روايةِ أبي هريرةَ: (ما الإسلامُ) هنا و(ما الإيمانُ) فيما يأتي[1]، وهيَ تدلُّ عَلى أنَّهُ إنَّما سأَلَ عنْ شرحِ ماهيَّتِهما لا عن شرحِ لفظِهما لغةً وإلَّا لَمْ يُجِبْ بِما يَأتي، ولا عنْ حُكمِهما؛ لأنَّ "مَا" في أصلِها إنَّما يُسأَلُ بها عنِ الحقائقِ والماهيَّاتِ.

وقدْ سألَ رجلٌ آخرَ عنِ اللهِ فقالَ له: إنْ تسألْ عنِ اسمِه فالعزيزُ الحكيمُ، وإنْ تسألْ عنْ صفتِه فالرحمنُ الرحيمُ، وإنْ تسألْ عنْ فعْلِه فخالقُ المخلوقينَ، وإنْ تسألْ عنْ ماهيَّتِه فلا ماهيَّةَ لهُ نَعرفُها.

ولمَّا أقامَ موسى وهارونُ ببابِ فرعونَ سنةً ولمْ يُؤذَنْ لَهُما في الدخولِ عليهِ ثُمَّ دَخَلَ عليهِ البوابُ فقالَ هاهنا إنسانٌ يَزعمُ أنَّهُ رسولُ ربِّ العالمينَ، فقالَ فرعونُ: ائذنْ لهُ لَعلَّنا نضحكُ عليهِ، فدخَلَا عليهِ وأَدَّيَا الرسالةَ، قالَ فرعونُ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، و"مَا" يُستَفهَمُ بها عنِ الأجناسِ، ولا جنسَ للهِ تَعالى؛ لأنَّ الأجناسَ مُحدَثةٌ، فأجابَهُ موسى بالصِّفاتِ الدَّالةِ عَلى مخلوقاتِه التي لا يُشارِكُه فيها مخلوقٌ بقولِه: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، قالَ فرعونُ لِمَنْ حولَهُ ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فزادَ موسى بالبيانِ بقولِه ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، قالَ فرعونُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، قالَ موسى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

واعلمْ أنَّه بدأه في روايةِ مُسلم هذهِ بالسؤالِ عنِ الإسلامِ؛ لأنَّه الأمرُ الظَّاهرُ، وإشعارًا بأنَّ أوَّلَ واجبٍ على المُكلَّفِ النُّطقُ بكَلمةِ الشَّهادةِ عندَ القدرةِ، كما حقَّقه الدواني، وثنَّى بالإيمانِ؛ لأنَّه الأمرُ الباطنُ، ووجْهُ عكسِه الواقعُ في روايةِ البُخاريِّ[2] أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ فبدَأَ به وثنَّى بالإسلامِ؛ لأنَّه يَظهرُ به مصداقُ الدَّعوى، وثلَّثَ بالإحسانِ؛ لأنَّه مُتعلِّقٌ بهما.

ورجَّح الطيبيُّ الأوَّلَ لِما فيهِ مِنَ التَّرقي، فبدأَ بالظَّاهرِ وترقَّى إلى الأعْلى، والعلوُّ في الثاني

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٠) [كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان..]، ومسلمٌ (٩)، و(١٠) [كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان] وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) صحيح البخاري (٥٠) [كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان..].

لأنَّ السُّنَّةَ بيانٌ للكتابِ فأَوْلاها بالتقديمِ أَوْفَقُها لهُ، وقدْ قُدِّمَ فيه الإيمانُ على الإسلامِ في آياتٍ كثيرةٍ، هذا مُحصَّلُ ما وجَّهوا به الترتيبَ الواقعَ في الروايتيْنِ، وبدأَ في روايةِ مطرِ الوراقِ[1] بالإسلامِ، وثنَّى بالإحسانِ، وثلَّثَ بالإيمانِ[2]، ويمكنُ توجيهُها بأنَّ الإحسانَ هو الإخلاصُ، فكَمَا أنَّ محلَّه القلبُ ذَكَرَ ذلك في القلبِ، أيِ الوسطِ.

والحقُّ -كما قالَ ابنُ حجرٍ وغيرُه- أنَّ التقديمَ والتأخيرَ مِنَ الرواةِ؛ لأنَّ القصةَ واحدةٌ اختلفَ الرواةُ في تأديتِها.

وفيه دليلٌ عَلى أنَّ الاسمَ غيرَ المُسمَّى؛ لأنَّ جبريلَ سألَ: ما الإسلامُ، ما الإيمانُ، ما الإحسانُ، فأتى بأسمائِها، وأجابَهُ النبيُّ ﷺ بمعانيها، ولوْ كانَ الاسمُ هو المُسمَّى لم يَحتَجْ إلى السؤالِ عنهُ ولَمَا أجابَهُ النبيُّ ﷺ بهِ، بلْ كانَ يقولُ له إنكَ عالمٌ بمُسمَّى ما سألتَ عنهُ.

(**فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**) مجيبًا له عنْ ماهيَّةِ الإسلامِ وحقيقتِهِ.

تعريف الإسلام وذكر أركانه

(**الإِسْلَامُ**) هو لغةً: الدخولُ في السِّلْمِ، أيِ الانقيادُ والإذعانُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وشرعًا: الانقيادُ إلى الأعمالِ الواجبةِ الظاهرةِ كما بيَّنَ ذلك ﷺ بقولِه: (**أَنْ**) مَصدريَّةٌ، (**تَشْهَدَ**) منصوبٌ بها، وباقي الأفعالِ الآتيةِ من قولِه: (وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ) معطوفٌ عليْها، والشهادةُ الإخبارُ عنْ أَمْرٍ مُتيقَّنٍ قطعًا أيْ تُعْلِّمَ وتُحقِّقَ، (**أَنْ**) بفتحِ الهمزةِ مخففةٌ مِنَ الثقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشأنِ محذوفٌ أيْ أنَّه أيِ الشَّأنَ (**لَا إِلَهَ**) أيْ لا معبودَ بحقٍّ موجودٌ أو في الوجودِ (**إِلَّا اللهُ**)، و"لَا" نافيةٌ لِلجنسِ، و"إله" اسمُها مبنيٌّ عَلى الفتحِ، والخبرُ محذوفٌ تقديرُه "موجودٌ" أو"في الوجودِ" كما مرَّ. فإنْ قُلتَ: نفيُ الوجودِ لا يَستلزمُ نفيَ الإمكانِ بخلافِ العكسِ، فالجوابُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ:

---

(١) الإمام التابعي أبو رجاء مطر بن طهمان الوراق مولى علباء السلمي، أصله من خراسان وسكن البصرة، روى عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتوفي سنة ١٢٩. الثقات لابن حبان (٥/٤٣٥)، وسير أعلام النبلاء (٦/١٦٦).

(٢) أخرجها عبدالله بن أحمد في كتاب "السُّنَّة" (٩٠١)، وأبو عوانة في "المستخرج" (٦٤٧٠) [كتاب الحدود- باب السنة في الداخل على الإمام..]، وغيرهما.

الأولُ: أنه إنَّما قدَّرَ الوجودَ لأنَّهُ الذي ادَّعاهُ المشركونَ فأثْبَتوا وجودَ آلهةٍ متعددةٍ، وقولُه تَعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] نفيٌّ لِدعواهم.

الثاني: أنَّ "لَا" لِنفيِ الجنسِ وهي موضوعةٌ لِنفيِ الوجودِ لا لِنفيِ الإمكانِ.

الثالثُ: أنَّ نفيَ الوجودِ هو المُحصِّلُ للتوحيدِ صريحًا؛ لأنَّه لو قُدِّرَ "ممكنٌ" لزم أنَّ المثبتَ في "إِلَّا اللهُ" هو الإمكانُ فلا يحصلُ التوحيدُ بالصراحةِ، فلذلكَ اختيرَ تقديرُ الوجودِ دونَ غيرِه.

و"إِلَّا" أداةُ استثناءٍ، والاسمُ المُكرَّمُ الواقعُ بعدَها مرفوعٌ عَلى أنَّه بدلٌ مِنَ الضميرِ المستترِ في الخبرِ المُقدَّرِ، وهو الأصحُّ، وقيل: إنَّه بدلٌ مِنْ محلِّ "لَا" مَعَ اسمِها؛ لأنَّ محلَّها الرفعُ عَلى الابتداءِ، وقيلَ غيرُ ذلكَ.

(وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ) مُحمدٌ عَلَمٌ منقولٌ مِن اسم مفعولِ "حَمَّدَ" بتشديدِ العينِ، سُمِّيَ به نَبيُّنا ﷺ لِكثرةِ خصالِه المحمودةِ، أيْ سمَّاه به جدُّه عبدُ المطلبِ تفاؤلًا بأنْ يَكثُرَ حمدُ الخلْقِ لهُ كما رُوِيَ في السيرةِ أنَّهُ قيلَ لجدِّهِ عبدِ المطلبِ -وقدْ سمَّاه في سابعِ ولادتِه لِموتِ أبيه قبلَها عَلى الصحيحِ-: لِمَ سمَّيْتَ ابنَكَ -أي ابنَ ابنِكَ- بمُحمَّدٍ وليسَ مِنَ أسماءِ آبائكَ ولَا قومِكَ؟ قالَ: رجوتُ أنْ يُحمَدَ في السماءِ والأرضِ[1]، وقدْ حقَّقَ اللهُ تعالى رجاءَهُ، قالَ حسَّانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

وشَقَّ لَهُ مِن اسْمِهِ لِيُجلَّهُ * فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

ولِرُؤيا رآها[2] أنَّ سلسلةً مِنْ فِضةٍ خرجتْ مِنْ ظهرِه لَها طرفٌ بالمشرقِ وطرفٌ بالمغربِ ثم عادتْ كأنَّه شجرةٌ، عَلى كُلِّ ورقةٍ منها نورٌ، وأهلُ المشرقِ والمغربِ يتعلقونَ بها، فعُبِرَتْ بمولودٍ يتبعُه أهلُهما ويحمدُه أهلُ السماءِ والأرضِ.

قالَ بعضُ أهلِ المعاني: الميمُ الأُولى مَحْقُ الكُفرِ بالإيمانِ أو مَحْوُ سيِّئاتِ مَن اتَّبَعَهُ، أو منةُ اللهِ تَعالى عَلى المؤمنينَ به، والحاءُ حُكْمُهُ بَينَ الخلْقِ بحُكمِه تَعالى، والميمُ الثانيةُ مُلكه الذي أعطاهُ اللهُ تَعالى ولمْ يُعطِهِ لِأحدٍ قبْلَهُ، وذلكَ أنَّه قرَنَ اسمَهُ مَعَ اسمِهِ في المشرقِ والمغربِ، والدَّالُ

(١) أخرجه ابن عساكر في "التاريخ" (٣/٣٢) [باب معرفة أسمائه وأنه خاتم رسل الله وأنبيائه] عن ابن عباس.
(٢) ذكرها السهيلي في "الروض الأنف" (٢/٩٥) [ولادة رسول الله ﷺ ورضاعته]، وغيره.

دليلُ الخلقِ في الدُّنيا؛ لأنَّه الداعي إلى اللهِ تعالى ودليلُهم في الآخرةِ إلى الجنَّة. ويُقالُ إنَّ مما أُكرِمَ به الآدميُّ أنْ كانتْ صورتُهُ عَلى ترتيبِ اسمِهِ -عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- فالميمُ الأُولى بمنزلةِ رأسِ الإنسانِ، والحاءُ بمنزلةِ اليديْنِ، والميمُ الثانيةُ بمنزلةِ السُّرَّة، والدَّالُ بمنزلةِ الرِّجْلَيْن. قيلَ: ولا يَدخُلُ النارَ مَنْ يَستحقُّ دخولَها -أعاذنا اللهُ منْها- إلَّا مَمسوخُ الصُّورةِ إكرامًا لِصورةِ اللَّفظ.

ولا يُشترطُ معَ الإتيانِ بالشهادتَيْنِ البراءةُ مِنْ كلِّ ما يُخالفُ دينَ الإسلامِ عَلى الأصحِّ إلَّا أنْ يَكونَ مَنسوبًا لاعتقادِهم اختصاصُ رسالةِ نبيِّنا ﷺ بالعرب.

(**وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ**) إقامةُ الصلاةِ تعديلُ أركانِها وحفظُها مِنَ الزيغِ، مِنْ "أقامَ العودَ وقوَّمَه" أو الدوامُ والمحافظةُ مِنْ "قامتِ السوقُ" أيْ نَفقتْ، أو التشمُّرُ لِأدائِها مِنْ "قامَ في الأمر"، أو أداؤُها، كذا في الكشَّافِ، ولا يَخفى أنَّه عَلى الأوَّلِ استعارةٌ تَبعيةٌ، شبَّهَ تعديلَ أركانِها بتقويمِ الرَّجُلِ العودَ، واستُعيرَ له الإقامةُ، ثم اشتقَّ منهُ الفعلَ، وعَلى الثاني كنايةٌ عنِ الدَّوام، وعلى الثالثِ مَجازٌ في الإسنادِ بمعنى "نَجعلُها قائمةً" فيفيدُ التشمُّرَ، وعلى الرابعِ كذلك إذِ المعنى تُوجدُ قيامَها فيكونُ منْ بابِ إطلاقِ بعضِ الشيءِ عَلى كُلِّه، وأنَّه لو حُمِلَ على الثاني فقطْ كانَ أَوْلى لِدلالتِه عَلى جميعِ المعاني، وأَبْعَدَ مَنْ زَعَمَ أنَّ المرادَ بالإقامةِ أُخْتُ الأذان.

وأصلُ الصلاةِ في اللُّغةِ الدُّعاءُ، قالَ تَعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ٩٩] أي دعواتِه، وقالَ تَعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادعُ لهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أيْ دعواتُك طمأنينةٌ لهم، فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا جاءَهُ الناسُ بصدقاتِهم يَدعو لَهم[1]، وقالَ ﷺ: (مَنْ كانَ صائمًا فلْيُصلِّ)[2] أيْ فلْيَدْعُ، وقالَ الأعشى:

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٤٩٧) [كتاب الزكاة- باب صلاة الإمام، ودعائه لصاحب الصدقة]، ومسلمٌ (١٠٧٨) [كتاب الزكاة- باب الدعاء لمن أتى بصدقته]، وغيرهما من حديث عبدالله بن أبي أوفى بلفظ: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم، قال: (اللهمَّ صَلِّ على آل فلان)، فأتاه أبي بصدقته، فقال: (اللهمَّ صَلِّ على آل أبي أوفى).

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٤٣١) [كتاب النكاح- باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة]، وغيره من حديث أبي هريرة.

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرُبْتُ مُرْتَحِلًا * يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا

عَلَيْكِ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتِ فَاعْتَصِمِي * نَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَا

أيْ دعوتِ، وادَّعى السهيليُّ أنَّه لا يَصحُّ أنْ يكونَ معناها الدعاءَ؛ لأنَّه يُستعملُ في الخيرِ والشرِّ، بل هي راجعةٌ إلى معنى الحُنوِّ والانعطافِ، وتُستعمَلُ بمعنى البركة، ومنهُ عندَ بعضِهم: (اللَّهمَّ صَلِّ عَلى آلِ بني أوْفى)، وبِمعْنى الاستغفارِ قالَ ﷺ: (بُعِثْتُ لأهْلِ البقيعِ لِأُصلي عليهم)، وفي روايةٍ (لِأستغفرَ لهم)[1]، وفي الشرعِ قالَ ابنُ عرفةَ: قُربةٌ فعليَّةٌ ذاتُ إحرامٍ وتسليمٍ أو سجودٍ فقطْ، فيَدخلُ سجودُ التلاوةِ وصلاةُ الجنازةِ. اهـ.

واختلفوا في اشتقاقِها فقالَ النوويُّ: الأظهرُ الأشهرُ أنَّها مِنَ الصَّلَوَيْنِ -بفتحِ الصَّادِ واللَّامِ، وهُما عِرقانِ في الرِّدْفِ عنْ يمينِ الذَّنَبِ وشمالِهِ يَنحنيانِ في الركوعِ والسجودِ، ولذلكَ كَتبَ الصلاةَ في المصحفِ بالواوِ، وقيلَ: إنها مأخوذةٌ مِنْ قولِهم "صَلَيْتُ العودَ" إذا قوَّمْتَه؛ لأنَّ الصلاةَ تَحْمِلُ الإنسانَ عَلى الاستقامةِ وتَنهاهُ عنِ المعصيةِ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ورُوِي أنَّه كانَ فتًى مِنَ الأنصارِ يُصلِّي الصلواتِ معَ النبيِّ ﷺ ثم لا يدعُ شيئًا منَ الفواحشِ إلَّا ارتكبَهُ، فوُصفَ لرسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: إنَّ صلاتَهُ تنهاه يومًا، فلمْ يَلبَثْ أنْ تابَ وحسُنتْ توبتُه[2]، وقيلَ: إنَّها مأخوذةٌ مِنَ الصِّلةِ؛ لأنَّها تَصلُ بينَ العبدِ وخالقِه بِمعنى أنَّها تُدنيهِ مِنْ رحمتِهِ وتوصِلُه إلى كرامتِهِ وجنَّتِه.

وحكمةُ مشروعيَّتِها التذلُّلُ والخضوعُ بينَ يدي اللهِ تَعالى، ومناجاتُهُ بالقراءةِ والذِّكرِ والدعاءِ، وتعميمُ القلبِ بذكرِهِ، واستعمالُ الجوارحِ في خدمتِهِ. وفُرِضتْ في السماءِ ليلةَ المعراجِ[3]

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: مالك (٥٥) [كتاب الجنائز]، وأحمد (٢٤٦١٢) [مسند السيد عائشة]، والنَّسائيُّ (٢٠٣٨) [كتاب الجنائز- الأمر بالاستغفار للمؤمنين]، وابن حِبَّان (٣٧٤٨) [كتاب الحج- باب فضل المدينة]، وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا.

(٢) ذكره السفيري في "المجالس الوعظية" (٣٤١/١) [المجلس السادس عشر] عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا: البخاريُّ (٣٨٨٧) [كتاب مناقب الأنصار- باب المعراج]، ومسلمٌ (١٦٤) [كتاب الإيمان- باب الإسراء]، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بخلافِ غيرِها مِنَ الشرائعِ، قال بعضُهم: والحكمةُ في وقوعِ فرضِ الصلاةِ ليلةَ المعراجِ أنَّهُ ﷺ لَمَّا قُدِّسَ ظاهرًا وباطنًا حينَ غُسِلَ بماءِ زمزمَ ومُلِئَ بالإيمانِ والحكمةِ[١]، ومِنْ شرطِ الصلاةِ أنْ يَتقدَّمَها الطهورُ، ناسَبَ ذلك أنْ تُفرَضَ الصلاةُ في هذهِ الحالةِ.

والأصحُّ أنَّهُ لَمْ يُفرضْ عليهِ قبلَها صلاةٌ، وقيلَ كانَ الواجبُ قبلَها ركعتينِ بالغداةِ وركعتينِ بالعشيِّ ما كانَ بمكةَ تسعَ سنينَ[٢]، ثم فُرِضتِ الخمسُ ليلةَ الإسراءِ.

واختلفوا في كيفيَّةِ فرضِها، فروتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها فُرِضتْ ركعتينِ ركعتينِ ثم أُكملتْ صلاةُ الحَضَرِ أربعًا[٣]، قالَ الحسَنُ البصريُّ[٤] وجماعةٌ: وكانَ الإكمالُ بالمدينةِ[٥]، وقالَ ابنُ عباسٍ وغيرُه: فُرِضتْ أربعًا[٦] إلَّا المغربَ فثلاثًا وإلَّا الصبحَ فاثنينِ وهو طريقُ الجمهورِ، وأوَّلُ صلاةٍ صلَّاها جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنبيِّ ﷺ صلاةُ الظُّهرِ، وبذلكَ سُمِّيتْ؛ لأنَّها أوَّلُ صلاةٍ ظَهرتْ، ولذلكَ تُسمَّى الأُولى.

(وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ) أيْ تُعطيها لِمُستحقِّيها، أو للإمامِ ليدفعَها لَهُم، فحُذفَ المفعولُ الأوَّلُ لأنَّ الإيتاءَ يَتعدَّى لِمَفعولينِ أوَّلُهما فاعلٌ في المعنى، وأَوْلاها للصلاةِ مُوافقةً للقرآنِ[٧].

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا: البخاريُّ (٣٤٩) [كتاب الصلاة- باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟]، ومسلمٌ (١٦٣) [كتاب الإيمان- باب الإسراء]، وغيرهما من حديث أنس عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) أخرجه البيهقيُّ (١٦٨٨) [كتاب الصلاة- باب أول فرض الصلاة] عن قتادة مرسلًا.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٥٠) [كتاب الصلاة- باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟]، ومسلمٌ (٦٨٥) [كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب صلاة المسافرين وقصرها]، وغيرهما بلفظ: (فرض الله الصلاة حين فرضها، ركعتين ركعتين، في الحضر والسفر، فأقرَّت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر).

(٤) إمام أهل زمانه أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ولد بالمدينة سنة (٢١) في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكانت أمه خيرة مولاة لأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب، وكان من سادات التابعين وكبرائهم ومناقبه كثيرة، توفي سنة (١١٠). طبقات ابن سعد (١٦/٧)، وحلية الأولياء (١٣١/٢).

(٥) أخرج البخاريُّ (٣٩٣٥) [كتاب مناقب الأنصار- باب التاريخ..]، وغيره عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعا ...).

(٦) أخرجه مسلمٌ (٦٨٧) [كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب صلاة المسافرين وقصرها]، وغيره بلفظ: (فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعًا، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة).

(٧) قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وقال: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾، وقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾، وقال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، وغير ذلك من الآيات.

وهي لُغةً: النُّموُّ والزيادةُ، يُقالُ: زَكا المالُ إذا نَما وطابَ؛ لأنَّها تُنمِّي المالَ بالبركةِ، أو سببٌ في نموِّهِ وزيادتِه، ومنهُ قولُ النَّابغة:

وَمَا أَخَّرْتَ مِنْ دُنْيَاكَ نَقْصٌ * وَمَا قَدَّمْتَ عَادَ لَكَ الزَّكَاءُ

أي الزيادةُ والتطهيرُ؛ لأنَّها تُطهِّرُ المالَ مِنَ الخبائثِ الحسيَّةِ والمعنويَّةِ ونَفْسَ المُزكِّي مِنْ رذيلةِ البُخْلِ وغيرِهِ، والمدحُ، يُقالُ: زَكَّى نفْسَهُ تزكيةً مَدَحَها، والتنعُّمُ، يُقالُ: زَكا الرجلُ يزكو إذا تنعَّمَ وكانَ في خِصْبٍ، والتصدُّقُ: يُقالُ: زكَّى إذا تصدَّقَ، واللائقُ بالشيءِ يُقالُ: هذا الأمرُ يزكو لفلانٍ أيْ يَليقُ به.
وشرعًا: جزءٌ مِنَ المالِ شرْطُ وجوبِهِ لِمُستحقِّهِ بلوغُ المالِ نصابًا، وتُسمَّى صدقةً لقولِه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] مِنَ التصديقِ الذي هو الإيمانُ إذْ دافِعُها يَصدِّقُ بوجوبِها وحكمةُ وجوبِها مواساةُ الفقراءِ.

(وَتَصُومَ رَمَضَانَ) الصومُ في اللغةِ الإمساكُ والكفُّ عنِ الشيءِ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] أيْ صمْتًا وإمساكًا عنِ الكلامِ كما قالَهُ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقولُهم: "صامَ النهارُ" إذَا انتصفَ لِبطءِ مشي الشَّمسِ في وسطِ النهارِ فكأنَّها غيرُ متحركةٍ، و"صامَ الفرسُ" قامَ مِنْ غيرِ اعتلافٍ. وشرعًا: قالَ القرافيُّ: إمساكٌ عنْ شهوتَي الفمِ والفَرْجِ أوْ ما يقومُ مقامَهما، مخالفةً للهوى في طاعةِ المولى، في جميعِ أجزاءِ النهارِ بِنيَّةٍ قبلَ الفجرِ أو فيه إنْ أمكنَ، فيما عدا زمنَ الحيضِ والنفاسِ وأيامَ الأعيادِ. اهـ. وضميرُ التثنيةِ في قولِه: يَقومُ مقامَهما يعودُ عَلى الفمِ والفرجِ، ويقومُ مقامَ الفمِ الأنفُ ونحوُه، فإنَّ الواصلَ منهُ لِلجوفِ أو لِلحلقِ مُفطرٌ، ويقومُ مقامَ الفرجِ اللَّمسُ الموجِبُ لِلفطرِ.

وأخَّرَهُ عنِ الزكاةِ وإنْ كانَ أنسبَ بالصلاةِ لِكونِهِ بدنيًّا؛ لأنَّ اهتمامَ الشارعِ بالصلاةِ والزكاةِ أكثرُ، ولِهذا كرَّرَهما في القرآنِ كثيرًا، أو لأنَّهما إذا وَجَبَا لا يَسقُطانِ عنِ المُكلَّفِ أصلًا، والصَّوْمُ يَسقطُ بِنحْوِ الفديةِ، ذَكَرَهُ الكرمانيُّ[1].

(١) شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الكرماني ثم البغدادي، ولد سنة ٧١٧، وتصدى لنشر العلم ببغداد ثلاثين سنة، له: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، قال ابن قاضي شهبة: فيه أوهام وتكرار كثير ولا سيما=

ورمضانُ -كما قالَ الخليلُ- مأخوذٌ مِنَ الرَّمَضِ -أيْ بالتحريكِ- وهو مَطَرٌ يَأتي أيامَ الخريفِ سُمِّيَ هذا الشهرُ بِهِ؛ لأنَّهُ يَغسِلُ الأبدانَ مِنَ الآثام ويُطَهِّرُ قلوبَهم، وقيلَ سُمِّيَ بِهِ؛ لأنَّهُ يرمضُ الذنوبَ أيْ يَحرِقُها، وقيلَ مِنَ الارتماضِ؛ لأنَّهُ يَأخذُ فيهِ -أي في رمضانَ- مِنْ حرارةِ الموعظةِ والفكرِ في أمرِ الآخرةِ كما يأخذُ الرملُ والحجارةُ مِنْ حرِّ الشَّمْسِ، وقيلَ: لأنَّهم لما نَقلوا أسماءَ الشهورِ عنِ اللغةِ القديمةِ سمَّوْها بالأزمنةِ التي وقعتْ فِيها فوافقَ ابتداءُ الصوم زمنًا حارًّا فسُمِّيَ به.

قالَ السُّيوطيُّ في حاشيتِهِ عَلى البخاريِّ: قالَ بعضُهم: لَمَّا تابَ آدمُ مِنْ أَكْلِ الشَّجرةِ تأخَّرَ قبولُ توبتِهِ لِمَا بَقِيَ في جسدِهِ مِنْ تلكَ الأَكْلةِ ثلاثينَ يومًا فلمَّا صفَا جسدُه منْها تِيبَ عليهِ ففُرِضَ عَلى ذريَّتِه صيامُ ثلاثينَ، وكانَ فرضُه في السَّنةِ الثانيةِ مِنَ الهجرةِ. اهـ.

قالَ القرطبيُّ: فيهِ جوازُ استعمالِه غيرَ مضافٍ إلى شهرٍ، وهو مذهبُ البخاريِّ والمحقِّقينَ لِخَبرِ (إذَا دَخَلَ رمضانُ فُتِحتْ أبوابُ الجنةِ)[1]، وقيلَ: يُكرهُ استعمالُه بلا إضافةِ شهرٍ، ونقَلَه عياضٌ وغيرُه، وقيلَ: يَجوزُ بقرينةٍ كـ"صُمْنا رمضانَ"، ويُكرهُ بِدونِها كـ"جَاءَ رمضانُ" لِمَا قِيلَ: إنَّهُ مِنْ أسماءِ اللهِ، والمذهبانِ الأخيرانِ فاسدانِ كما قاله النوويُّ، ولا يَصِحُّ أنْ يَكونَ مِنْ أسمائِه تَعالى فقدْ صَنَّفَ جماعةٌ لا يُحصونَ في أسماءِ اللهِ تَعالى فلمْ يُثبتوه، وما رُوِي فيهِ مِنَ الحديثِ ضَعيفٌ[2].

وأوَّلُ ما فُرِضَ مِنْ رمضانَ خُيِّرَ بينه وبين الإطْعامِ لقولِه تَعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ..

=في ضبط أسماء الرواة، وله: ضمائر القرآن، والنقود والردود في الأصول، وشرح لمختصر ابن الحاجب، توفي سنة ٧٨٦. الدرر الكامنة (٦/٦٦)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٣/١٨٠).

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٨٩٨) [كتاب الصوم- باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان]، ومسلمٌ (١٠٧٩) [كتاب الصيام- باب فضل شهر رمضان]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن عديٍّ في الكامل (٨/٣١٣) [ترجمة نجيح أبي معشر]، ومن طريقه البيهقي في "السنن" (٧٩٠٤) [كتاب الصيام- باب ما روي في كراهية قول القائل جاء رمضان] عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: (لا تقولوا رمضان، فإنَّ رمضانَ اسمٌ من أسماءِ الله تعالى، ولكنْ قولوا شهر رمضانَ). وضعَّفه البيهقيُّ بأبي معشر، ثم قال: وقد قيل عن أبي معشر عن محمد بن كعب من قوله وهو أشبه، وذكره ابن الجوزيِّ في "الموضوعات" (٢/١٨٧)، وتعقب بأنَّ الحديث لم ينته إلى حدِّ الوضع بل هو ضعيفٌ فقط، انظر "اللآلئ المصنوعة" للسيوطيِّ (٢/٨٢، ٨٣).

.. ثُمَّ نُسِخَ ذلك بقولِه تَعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكانَ يُباحُ لِلمُكَلَّفِ الأكلُ والشربُ والجماعُ بعدَ الغروب إلى أنْ يَنامَ أو يُصليَ العشاءَ، فيَحرُمُ عليهِ ذلكَ، حتى وَقَعَ لقيسِ بنِ صِرْمَةَ -بكسرِ الصادِ المُهمَلةِ وسكونِ الراءِ- أنَّهُ طلَبَ مِن امرأتِهِ ما يُفطِرُ عليهِ فذهبتْ لتأتيَ به ثُمَّ أتتْ فوجدتْهُ قدْ نامَ فأصبحَ صائمًا، وكانَ يَعملُ في حائطِه فلمْ يَنتصِفِ النهارُ حتَّى غُشيَ عليهِ، وأرادَ عُمَرُ وطْءَ زوجتِهِ فزعَمَتْ أنَّها نامتْ فكذَّبَها ووطِئَها ثُمَّ خوَّنَ نَفْسَه، وذُكِرَ ذلكَ للنبيِّ ﷺ وذَكَرَه جماعةٌ مِنَ الصحابةِ عَنْ أنفسِهم فنزَلَ قولُه تَعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] الآية[1].

وحكمةُ مشروعيَّتِه مخالفةُ النَّفْسِ وكسرُها، وتصفيةُ مرآةِ القلبِ، والاتصافُ بِسيما الملائكةِ، والتنبيهُ عَلى مواساةِ الجائعِ.

(**وَتَحُجَّ الْبَيْتَ**) الحَجُّ لغةً القَصْدُ، وقالَ الخطابيُّ: القصدُ معَ التكرارِ، ومنْهُ قولُ الشاعرِ:

يَحُجُّونَ بَيْتَ الزِّبْرِقَانِ الْمُزَعْفَرَا

يُريدُ أنَّهم يَقصِدونَهُ في أمورِهم ويَختلِفونَ إليهِ في حوائجِهم مرةً بعدَ أُخرى.

واصطلاحًا: قالَ ابنُ عرفةَ[2]: يُمكِنُ رسْمُهُ بأنَّهُ عِبادةٌ يَلزمُها وقوفٌ بعرفةَ ليلةَ عاشرِ ذي الحجةِ وحدَهُ، بزيارةٍ وطوافِ ذي طُهْرٍ أخَصَّ بالبيتِ عنْ يسارِهِ سبعًا بعدَ فجرِ يومِ النَّحْرِ، والسعيِ مِنَ الصَّفا لِلمروةِ ومنهُ إليْها سبعًا، بعدَ طوافٍ كذَلكَ لا يُقيَّدُ وقتُه، بإحرامٍ في الجميعِ. اهـ. والمرادُ بالطهرِ الأخصِّ الطُّهرُ مِنَ الحدثِ الأصغرِ والأكبرِ -كما في شارحِه- أو من الحدثِ المذكورِ والخبثِ، وقولُه "لا يُقيَّدُ وقتُهُ" أي أنَّه لَا يُعتبَرُ في الطوافِ الذي لا يَتوقَّفُ عليهِ السعيُ

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٩٥) [مسند المكيين- بقية حديث كعب بن مالك الأنصاري]، وابن جرير في التفسير (٢٣٦/٣) [تفسير سورة البقرة- الآية ١٨٧]، وغيرهما من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) العلامة المحقق أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عرفة الوَرْغَمِّي، نسبة لـ"ورغمة" قرية من أفريقية، التونسي المالكي، ولد سنة ٧١٦، انقطع للاشتغال بالعلم والتصدر لتجويد القراءات، وصنف مجموعًا في الفقه جمع فيه أحكام المذهب سماه المبسوط، وله أيضا: الطرق الواضحة في عمل المناصحة، ومختصر الفرائض، وغير ذلك، توفي سنة ٨٠٣. الديباج المذهب (٣٣١/٢)، الضوء اللامع (٢٤٠/٩)، طبقات المفسرين للداودي (٢٣٦/٢).

حصولُه بعدَ فجرِ يومِ النَّحرِ كما في طوافِ الإفاضةِ، و"البيتُ" اسمُ جنسٍ ثم غلَبَ عَلى الكعبةِ كغَلبةِ النَّجم عَلى الثُّريَّا.

(إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ) أيِ الحجِّ أو البيتِ، (سَبِيلًا) مفعولٌ له، أو تمييزٌ عنْ نسبةِ الاستطاعةِ إلى البيتِ أيْ إنِ استطعتَ سبيلَ البيتِ، فأُخِّرَ ليكونَ أوقعَ، وتقديمُ "إليه" عليه للاختصاصِ، و"سبيلًا" أي طريقًا، وتنكيرُه للعمومِ؛ إذِ النكرةُ في الإثباتِ قدْ تعمُّ كما ذكرَهُ الزمخشريُّ في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، والسَّبيلُ يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، فمنَ التذكيرِ قولُه تَعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] ومثلُه ما هنا، ومنَ التأنيثِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والاستطاعةُ القدرةُ، وهي إمكانُ الوصولِ مِنْ غيرِ مشقةٍ عظيمةٍ مِنَ الأَمْنِ عَلى النَّفْسِ والمالِ، ولوْ بلا زادٍ وراحلةٍ لِذي صنعةٍ تَقومُ بِهِ وقَدَرَ على المشيِ، فالاستطاعةُ ولوْ بالبدنِ، وعندَ الشافعيِّ بالمالِ؛ لأنَّهُ فسَّرَها بالزادِ والراحلةِ، وعندَ أبي حنيفةَ بمجموعِ الأمرَيْنِ. وإنَّما قَيَّدَ بالاستطاعةِ في الحجِّ معَ أنَّ ما مَرَّ يُقيَّدُ بها أيضًا اتباعًا لِلفظِ القرآنِ، وفائدةُ التقييدِ لبيانِ أنَّ المشقةَ فيهِ ليستْ كَغيرِهِ، أوْ لأنَّ عدمَها في فرضٍ نحوَ الصلاةِ والصومِ لا يُسقطُ فرضَهما بالكليَّةِ، وإنَّما يُسقِطُ وجوبَ الأداءِ حالًا، بخلافِ الحجِّ، فإنَّ عدمَها يُسقِطُ وجوبَهُ رأسًا.

ومُقْتضى كلامِ القرطبيِّ أنَّ الصحيحَ أنَّ الحجَّ واجبٌ عَلى التراخي وهو تحصيلُ مذهبِ مالكٍ فيما ذكرَ ابنُ خويز منداد[1]، وهو قولُ الشافعيِّ، وذهَبَ بعضُ البغداديِّينَ إلى أنَّه عَلى الفورِ فلا يَجوزُ تأخيرُه معَ القدرةِ عليهِ، وذكرَ شيخُنا الأجهوريُّ[2] في شرحِهِ عَلى المختصرِ أنَّه

(١) أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عبد الله بن خويز منداد، له كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وفي أحكام القرآن، قال القاضي عياض: وعنده شواذ عن مالك. تدريب المدارك (٧/٧٧).

(٢) شيخ المالكية أبو الإرشاد نور الدين علي بن زين العابدين بن محمَّد بن زين العابدين، ابن الشيخ عبد الرحمن الأجهوري، ولد سنة ٩٦٧، عمّر فألحق الأحفاد بالأجداد، ألّف تآليف كثيرة منها: شرح الدرر السنية في نظم السيرة النبويّة، والأجوبة المحررة لأسئلة البررة، والمغارسة وأحكامها، وشرح رسالة أبي زيد، وشرح مختصر خليل، وشرح منظومة العقائد، وشرح مختصر ابن أبي جَمْرة، توفي سنة ١٠٦٦. انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/١٧٩)، والإعلام (٥/١٣)، وشجرة النور (١/٤٣٩).

المُعتَمَدُ. والدليلُ على الأوَّلِ إجماعُ العلماءِ عَلى تركِ تفسيقِ القادرِ عَلى الحجِّ إذا أخَّرَه العامَ والعامَيْنِ ونحوَهما، وأنَّه إذا حجَّ بعدَ أعوامٍ مِنْ حينِ استطاعتِه فقدْ أدَّى الحجَّ الواجبَ عليهِ في وقتِهِ، وكُلُّ مَنْ قالَ بالتراخي لا يَحُدُّ في ذلك حدًّا إلا ما رُوِيَ عنْ سحنون[1] مِنْ تحديدِه إلى الستينَ، فإنْ زادَ عَلى الستينِ فُسِّقَ وردَّتْ شهادتُهُ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: (أعمارُ أُمَّتي ما بينَ السِّتينَ والسبعينَ)[2] وقلَّ مَنْ يَتجاوزُها، وقولُه: (مُعتركُ المنايا ما بينَ الستينَ والسبعينَ)[3] ولا حُجَّةَ فيه لأنَّهُ كلامٌ خرَجَ عَلى الأغلبِ مِنْ أعمارِ أُمَّتِهِ لو صحَّ الحديثُ، ولَمْ يُقطَعْ بتفسيقِ مَنْ صحتُه عدالتُهُ وإمامتُهُ بمثلِ هذا مِنَ التأويلِ الضعيفِ. اهـ. وقدَّم الأشقَّ وأخَّرَ ما وجَبَ في العمرِ مرةً.

***

معاني "السبيل" في القرآن

تَنْبيهٌ: السبيلُ ورَدَ في القرآنِ عَلَى وجوهٍ:

الأوَّلُ: البلاغُ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] يَعْني بلاغًا.

الثَّاني: الطاعةُ كقولِه تَعالى في البقرةِ: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦١] يعني في طاعةَ اللهِ.

الثَّالثُ: المَخْرجُ كقولِهِ تَعالى في بني إسرائيلَ: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٤٨] يَعني مخرجًا مِنَ الحَبْسِ، ومِثلُه قولُه في النِّساءِ: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] يَعني مَخْرَجًا مِنَ الحبسِ.

---

(١) العلامة أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي المالكي، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب، روى المدونة في فروع المالكية عن ابن قاسم، توفي سنة ٢٤٠. ترتيب المدارك (٤/٤٥)، والديباج (٢/٣٠).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٥٥٠) [أبواب الدعوات]، وابن ماجه (٤٢٣٦) [أبواب الزهد- باب الأمل والأجل]، وابن حبَّان (٢٩٨٠) [كتاب الجنائز- فصلٌ في أعمار هذه الأمة]، والحاكم (٣٥٩٨) [كتاب التفسير]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وحسَّنه الترمذيُّ وصحَّحه الحاكم.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٦٥٤٣) [مسند أبي هريرة]، والبيهقي في الشعب (٩٧٧٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/١٧٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ.

الرَّابِعُ: المَسْلَكُ كقولِه تَعالى في النِّساء: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] أيْ مَسْلكًا.

الخامِسُ: العِلَلُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤] أيْ عِلَلًا.

السادسُ: الدِّينُ كقولِه تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] أي دينِ المؤمنينَ.

السابع: الهُدَى كقولِه تَعالى في النِّساءِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣] أيْ مَنْ يُضلِلِ اللهُ عَنِ الهُدى فلَنْ تجدَ له سبيلًا أيْ هُدًى.

الثَّامِنُ: الحُجَّةُ كقوله تعالى: ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] أيْ حُجَّةً.

التَّاسِعُ: الطريقُ كقولِه تَعالى في النِّساءِ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨] أي طريقًا إلى المدينة.

العاشِرُ: العدوانُ كقولِه تعالى في "حم عسق": ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أيْ مِنْ عدوانٍ، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ [الشورى: ٤١-٤٢].

الحادي عشر: الطاعةُ كقولِه تعالى في الفرقانِ: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧] أي طاعةً.

الثاني عشر: المِلَّةُ كقولِه تعالى في يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨] أي مِلَّتي.

(**قالَ**) السائلُ لِلمُصْطفى ﷺ (**صَدَقْتَ**) فيما أجَبْتَ بِهِ، قالَ عمرُ: (**فَعَجِبْنَا لَهُ**) أيْ مِنْهُ أوْ لِأجلِهِ، والتعجُّبُ حالةٌ تَعرِضُ لِلقلْبِ عندَ الجهلِ بِسببِ الشيءِ، (**يَسْأَلُهُ**) والسؤالُ قرينةُ عدمِ العِلْمِ، (**وَيُصَدِّقُهُ**) لأنَّ هذا خلافُ عادةِ السَّائلِ، والتصديقُ قرينةُ العلمِ، ثُمَّ زالَ تعجُّبُهم بإعلامِهِم أنَّهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنَّهُ ظَهَرَ أنَّهُ عالِمٌ في صورةِ مُتعلِّمٍ.

***

(**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ**) هو لغةً: مُطلَقُ التصديقِ، سواءٌ كانَ مُطابقًا للواقعِ أمْ لا، سواءٌ تَعلَّقَ بحُكمٍ شرعيٍّ أمْ لا. واصطلاحًا: تصديقُ النَّبيِّ ﷺ في كُلِّ ما عُلِمَ مجيئُهُ بهِ مِنَ الدِّينِ بالضرورةِ مِنَ التوحيدِ والبعثِ والجزاءِ وغيرِ ذلكَ، تفصيلًا في التفصيليِّ وإجمالًا في الإجماليِّ، فمَنْ عُلِمَ اسمُهُ كجبريلَ وجَبَ الإيمانُ بهِ عَيْنًا، ومَنْ لمْ يَعلم اسمَهُ آمنَ بهِ إجمالًا، وكذلكَ الكتبُ والأنبياءُ والرسلُ.

تعريف الإيمان وذكر أركانه

والمرادُ بالتصديقِ الإذعانُ والقبولُ لا مُجرَّدَ نسبةِ الصدقِ له ﷺ لئلَّا يَلزمَ الحكمُ بإيمانِ كثيرٍ مِنَ الكفارِ الذينَ كانوا في زمنِهِ ﷺ، فإنَّهم كانوا يَعرفونَ حقيقةَ نبوَّتِه ﷺ إلَّا أنَّهم لم يُذعِنوا ولم يَقبلوا ما جاءَ بهِ، قالَ تَعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

وأُورِدَ على التعريفِ أنَّ قولَهُ "بالضرورةِ" مُتعلِّقٌ بقولِهِ "عُلِم"، وهو يَقتضي أنَّ جميعَ ما جاءَ به النبيُّ ﷺ أمرٌ ضروريٌّ لا يَتوقَّفُ عَلى نَظَرٍ واستدلالٍ، وليسَ كذلكَ، فإنَّ فيهِ النظريَّ، وأُجيبَ بأنَّ المرادَ بقولِهِ "بالضرورةِ" أنَّهُ شاعَ واشتهرَ بينَ أهلِ الإسلامِ حتَّى صارَ العلْمُ به يُشابِهُ العلمَ الحاصلَ بالضرورةِ.

(**قَالَ**): الإيمَانُ (**أَنْ تُؤْمِنَ**) "أنْ" وصِلَتُها في موضعِ رفعِ خَبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي الإيمانُ هو أنْ تؤمنَ باللهِ، وظاهرُ الحديثِ تَغايُرُ الإيمانِ والإسلامِ؛ لأنَّ جبريلَ سألَ عنْهما سؤاليْنِ، وأُجيبَ عنْهما بجوابيْنِ، وفُسِّرَ الإسلامُ بأعمالِ الجوارحِ كالصلاةِ ونحوِها، والإيمانُ بأعمالِ القلبِ، وقدْ يُتوسَّعُ فيُطلَقُ الإيمانُ عَلى الإسلامِ كمَا في حديثِ وفدِ عبدِ القيسِ (فإنَّهُ أمرَهم بالإيمانِ ثم قالَ: أتدرونَ ما الإيمانُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قالَ: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ)[1].

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٣) [كتاب الإيمان- باب أداء الخمس من الإيمان]، ومسلمٌ (١٧) [كتاب الإيمان- باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ]، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

فإن قيلَ هذا تعريفٌ لِلشيءِ بنفسه؛ لأَنَّ "تُؤْمِن" مُشتقٌّ مِنَ الإيمانِ! فالجوابُ كما قالَ الكرمانيُّ: أنَّ المرادَ مِنَ المحدودِ الإيمانُ الشرعيُّ، ومِنَ الحدِّ الإيمانُ اللغويُّ، ويَظهرُ أنَّه إنَّما أعادَ لفظَ الإيمانِ لِلاعتناءِ بشأنِهِ تفخيمًا لِأمرِهِ، وهذا موافقٌ لِقولِ الطوفيِّ: هذا ليسَ مِنْ تعريفِ الشيءِ بنفسِهِ بل هو من تعريفِ الشرعيِّ باللغويِّ؛ لأَنَّهُ لغةً التصديقُ، وشرعًا تصديقٌ خاصٌّ، وهو الإيمانُ باللهِ وما ذكرَهُ بعدَهُ، فكأَنَّهُ قالَ الإيمانُ شرعًا التصديقُ بهذهِ الأشياءِ، كما يُقالُ الصلاةُ شرعًا هي الصلاةُ لُغةً، وهي الدعاءُ وزيادةُ أمورٍ أُخَرَ، وهو كلامٌ صحيحٌ، وقالَ الطيبيُّ: وقولُهُ: "الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ" يوهِمُ التكرارَ وليسَ كذلكَ، فإنَّ قولَه: "أنْ تُؤمِنَ" مُضمَّنٌ مَعْنى "أنْ تَعْتَرِفَ"، ولذلكَ عدَّاه بالباءِ، كأنَّه قِيلَ الإيمانُ اعترافٌ باللهِ ووثوقٌ به. وتعقَّبَهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ بأنَّ التصديقَ أيضًا يُعدَّى بالباءِ فلا حاجةَ إلى دعوى التضمُّنِ.

(**باللهِ**) أيْ بأنَّهُ واحدٌ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، موصوفٌ بصفةِ الكمالِ، مُنزَّهٌ عَنْ سمةِ الأجسامِ.

(**وَمَلائِكَته**) جمعُ مَلَكٍ على غيرِ قياسٍ، أو جَمْعُ مَأْلَكٍ بتقديمِ الهمزةِ؛ إذْ هو مِنَ الألوكةِ وهيَ الرسالةُ، ثُمَّ أُخِّرَتِ الهمزةُ عَنِ اللَّامِ وحُذِفتْ تخفيفًا لِكثرةِ الاستعمالِ ونُقلتْ حركتُها إلى اللَّامِ، وقالَ في النِّهايةِ: جَمْعُ مَلأكٍ في الأصلِ ثم حُذِفتْ همزتُهُ لِكثرةِ الاستعمالِ. اهـ.

والتأنيثُ لِلجمعِ، وقيلَ لِلمبالغةِ، وقدْ وَرَدَ بغيرِ تاءٍ كما قالَ القائلُ:

أَبَا خَالِدٍ صَلَّتْ عَلَيْكَ الْمَلَائِكُ

وهِيَ أجسامٌ لَطيفةٌ نورانيَّةٌ أُعطِيَتْ قدرةَ التشكُّلِ بأشكالٍ مُختلفةٍ، تَقدِرُ عَلى أفعالٍ شاقةٍ لَا يَقدِرُ علَيْها البَشَرُ، وهُمْ قِسمانِ: قِسمٌ شأنُهُ الاستغراقُ في معرفةِ الحقِّ، والتنزهُ عَنِ الشغلِ بغيرِهِ، وقِسمٌ يُدبِّرُ الأمرَ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ عَلى ما سَبَقَ به القَضاءُ وجَرى به القَدَرُ، لا يَعصونَ اللهَ ما أمَرَهُم ويَفعلونَ ما يُؤمَرونَ، وفي الحديثِ: (أَتاني مَلَكٌ لَمْ يَنزلِ الأرضَ قبْلَها قطُّ برسالةٍ مِنْ ربِّي فوَضَعَ رِجلَهُ فوقَ السماءِ الدُّنيا ورِجْلَهُ الأُخرى ثابتةٌ في الأرضِ لَمْ يَنْقُلْها)[1]،

(١) أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (٦٦٨٩) [باب الميم- من اسمه محمد] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وقدْ وَرَدَ أنَّ للهِ مَلكًا يَملأُ ثُلثَ الكونِ، وملكًا يَملأُ ثُلثَيْه، وملكًا يَملأُ الكونَ كُلَّهُ[1]، وقدْ وَرَدَ في عِظَمِ الملائكةِ ما هو فوقَ ذلكَ، لا يُقالُ إذا مَلأَ الكونَ كُلَّهُ فأينَ يَكونُ الآخرُ لأنَّا نَقولُ: الأنوارُ لا تتزاحمُ، ألَا تَرى أنْ لوْ وُضِعَ سِراجٌ في بيتٍ ملأَهُ نورًا، ولوْ أَتيْنا بعدَه بألفِ سراجٍ وَسِعَ البيتُ أنوارَهم، ذَكَرَهُ العارفُ باللهِ ابنُ عطاءِ اللهِ عنْ شيخِهِ المرسي.

وقدْ جاءَ في صفةِ الملائكةِ أحاديثُ مِنْها ما أخرجَهُ الترمذيُّ وابنُ ماجَه والبزَّارُ مِنْ حديثِ أبي ذرٍّ مرفوعًا (أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أنْ تَئِطُّ، ما فيها موضِعُ أربعِ أصابعَ إلَّا وعليهِ مَلَكٌ ساجِدٌ) الحديث[2]، ومنْها ما أخرجَهُ الطبرانيُّ مِنْ حديثِ جابرٍ مرفوعًا: (ما في السماواتِ السبعِ موضعُ قدمٍ ولا شبرٍ ولا كفٍّ إلا وفيهِ مَلَكٌ قائمٌ أو راكعٌ أو ساجدٌ)[3]، وللطبرانيِّ نحوُه مِنْ حديثِ عائشةَ[4] وذُكِرَ في ربيعِ الأبرارِ عنْ سعيدِ بن المسيبِ قالَ: "الملائكةُ ليْسُوا ذكورًا ولا إناثًا، ولا يأكلونَ ولا يشربونَ ولا يَتناكحونَ ولا يَتوالدونَ".

قلتُ: وفي قصةِ الملائكةِ معَ إبراهيمَ وسارةَ ما يؤيِّدُ أنَّهم لا يأكلونَ، وأمَّا ما وَقَعَ في قصةِ الأكلِ مِنَ الشجرةِ أنَّها شجرةُ الخُلْدِ التي يأكلُ مِنْها الملائكةُ فلَيْسَ بِثابتٍ[5] وفي هذا وما وردَ مِنَ القرآنِ الشريفِ رَدٌّ عَلى مَنْ أنْكرَ وجودَ الملائكةِ مِنَ المُلحِدَةِ. اهـ.

---

(١) ذكره المناويُّ في "فيض القدير" (١/١٠٥)، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥١٦) [مسند الأنصار- حديث أبي ذرٍّ]، والترمذيُّ (٢٣١٢) [أبواب الزهد- باب في قول النبي ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا]، وابن ماجه (٤١٩٠) [أبواب الزهد- باب الحزن والبكاء]، والبزَّار (٣٥٢٤) [مسند أبي ذرٍّ]، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (١١٣٥) [باب بيان مشكل ما روي من قوله ﷺ: أطت السماء]، والحاكم (٢/٥١٠ - ٥١١) [كتاب الأهوال] و(٤/٥٤٤) [كتاب الفتن والملاحم]، وغيرهم من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه الحاكم.

(٣) أخرجه الطبراني في "الكبير" (٣٥٦٨) [باب الجيم- ومن غرائب حديث جابر]، و"الأوسط" (١٧٥١) [باب الخاء- من اسمه خير].

(٤) عزاه الحافظ ابن حجر في "الفتح" (٦/٣٠٧) [قوله باب ذكر الملائكة] إلى الطبراني ولم أجده في المطبوع، وأخرجه بنحو حديث جابر: ابن نصر في "الصلاة" (٢٥٣) [سجود أهل السماء]، والطبري في "تفسيره" (١٩/٦٥١ و٦٥٢) [تفسير سورة الصافات: ١٦٤]، والدولابي في "الكنى" (١٨٢٤)، وأبو الشيخ في "العظمة" (٥٠٨) [ذكر خلق جبريل]، وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا.

(٥) انظر "فتح الباري" لابن حجر (٦/٣٠٦) [قوله باب ذكر الملائكة].

قالَ الطيبيُّ: الأَطيطُ صوتُ الأقتابِ[١]، وأطيطُ الإبلِ أصواتُها وحنينُها، أيْ أنَّ كثرةَ ما فِيها مِنَ الملائكةِ قدْ أثقَلَها حتَّى أطَّتْ، وهو مَثَلٌ وإيذانٌ بِكَثْرةِ الملائكةَ، وإنْ لمْ يكنْ ثَمَّ أطيطٌ، وإنما هو كلامُ تقريبٍ أُريدَ بهِ تقريرُ عظمةِ اللهِ.

والأشبهُ كما قالَ الحليميُّ[٢] أنْ لا يُكتَبَ لهم عَمَلٌ؛ إذِ المَلَكُ هو الذي يَكتبُ فكانَ يَحتاجُ كلُّ مَلكٍ إلى آخرَ، ولا يُحاسَبونَ أيضًا؛ إذْ لا سيئاتِ لهم، وأمَّا الإثابةُ فقدْ قيلَ يُثابونَ برفعِ التكليفِ عنْهم، ويُحتمَلُ أنْ يَكونَ وراءَ رفعِ التكليفِ عنْهم نعمةٌ أعدَّها اللهُ لَهُم ولا تَبْلُغها عقولُنا، فإنَّ اللهَ -تَعالى- يقولُ: (أعددتُ لِعبادي ما لَا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلْبِ بَشَرٍ)[٣]. اهـ. وذكرَ القرطبيُّ في تفسيرِ سورةِ القَدْرِ أنَّ الرُّوحَ طائفةٌ مِنَ الملائكةِ جُعلُوا حفظةً على غيرِهم، وقيلَ: إنَّ الملائكةَ ليْسُوا بحيوانٍ لِعدَمِ صدقِ تعريفِهِ عليْهم حيثُ قِيلَ فيهِ: "نَامٍ" وليسَ كذلكَ، وإنَّما خُلِقوا كذلكَ.

(**وكُتُبِهِ**) جمعُ كتابٍ، وهو لغةً: ضَمُّ الحروفِ الدَّالةِ عَلى معنى بعضِها إلى بعضٍ، مَصْدَرُ "كَتَبَ" أيْ جَمَع، والكُتُبُ اصطلاحًا: ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى الأنبياءِ إما مكتوبًا على الألواحِ أوْ مسموعًا مِنْ وراءِ حجابٍ أوْ مِنْ مَلَكٍ مُشاهَدٍ، وخُصَّ الإيمانُ بها لأَنَّها الكلامُ الأزليُّ القديمُ القائمُ بِذاتِهِ المنزهُ عنِ الحرفِ والصوتِ، أنزلَها على بعضِ رُسُلِهِ بألفاظٍ حادثةٍ في الألواحِ أو عَلى لسانِ مَلَكٍ، وعِدَّةُ الكُتُبِ المُنزَلَةِ مِنَ السَّماءِ إلى الدُّنْيا مائةٌ وأربعةٌ[٤]: صُحُفُ شيثَ ستُّونَ، وصُحُفُ إبراهيمَ ثلاثونَ، وصُحُفُ موسى قبلَ التوراةِ عشرةٌ، والتوراةُ والإنجيلُ والزبورُ والفرقانُ.

ومعاني الكتبِ مجموعةٌ في القرآنِ، ومعاني القرآنِ مجموعةٌ في الفاتحةِ، ومعانيها مجموعةٌ

(١) الأقتاب: الأمعاء. [الصحاح في اللغة، مادة "قتب"]

(٢) العلامة القاضي أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم الحليمي البخاري، وُلد سنة ٣٨٣، أوحد الشافعيين بما وراء النهر، وأنظرهم بعد أستاذيه أبي بكر القفَّال، وله مصنَّفاتٌ مفيدةٌ نقل منها الحافظ البيهقيُّ كثيراً، منها "شعب الإيمان"، تُوفِّي سنة ٤٠٣. "وفيات الأعيان" (١٣٨/٢)، و"سير أعلام النبلاء" (٣٥/١٣).

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٧٨٠) [كتاب تفسير القرآن- باب قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾]، ومسلمٌ (٢٨٢٤) [كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) ذكره ابن علان في "شرح رياض الصالحين" (٢٠٦/١)، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

في البسملةِ، ومعاني البسملةِ مجموعةٌ في بائِها، زاد بعضُهم: ومعاني الباءِ في نقْطتِها، أي ذلك إشارةٌ إلى الوحدةِ، فهو الواحدُ الذي لا نظيرَ له، قاله الخطيبُ.

وذكَرَ التتائيُّ في شرحِ "الرسالةِ" خلافَه، ونَصُّهُ: فائدة: جملةُ الكتبِ المُنزَّلةِ مائةُ كتابٍ وأربعةَ عشرَ كتابًا، خمسونَ على شيثَ، وثلاثونَ على إدريسَ، وعشرونَ على إبراهيمَ، ولا خلافَ في هذا، واختلفوا في عشرةٍ فقيلَ: أُنزلتْ عَلى آدمَ، وقيل على موسى قبلَ التوراةِ، والتوراةُ على موسى، والإنجيلُ على عيسى، والزبورُ على داودَ، والفرقانُ على محمدٍ ﷺ. اهـ. وفي شرحِ الشاذليِّ[1] ما يُوافِقُ الأوَّلَ، والحقُّ عدمُ حصرِهم في عددٍ مُعيَّنٍ.

(وَرُسُلِه) أي بأنَّهُ تعالى أرْسلَهم إلى الخلقِ لِهدايتِهم إلى طريقِ الحقِّ وتكميلِ معاشِهم ومعادِهم، وأنَّهم صادقون في جميعِ ما أَخْبَروا به عنِ اللهِ وبلَّغوا عنْهُ، وأنَّهم بيَّنُوا لِلمُكلَّفينَ ما أُمِروا ببيانِه، وأنَّه يَجِبُ احترامُهم وأنْ لا نفرقَ بينَ أحدٍ منْهم، وفي روايةٍ لِلبُخاريِّ (وبِرُسُلِه)[2]، وقدَّمَ الملائكةَ عَلى الرُّسُلِ والكُتُبِ نظرًا لِلتَّرْتيبِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أرسلَ الملَكَ بالكتابِ إلى الرسولِ، لا لأنَّهم أفضلُ مِنَ الأنبياءِ؛ لأنَّ الأصحَّ أنَّ الأنبياءَ أفضلُ مِنهم، وفي الأفضليَّةِ طرقٌ:

التفضيل بين الملائكة والرسل

الأُولى: طريقةُ ابنِ الحاجبِ[3] وجماعةٍ، وقولُ جماعةٍ مِنَ الأشاعرةِ وأهلِ الحديثِ والتَّصوُّفِ أنَّهم أفضلُ مِنَ الملائكةِ العلويَّةِ والسفليَّةِ لِقولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، والملائكةُ مِنْ جملةِ العالمينَ، وأنَّ الملائكةَ ولو غيرُ

---

(١) علي بن محمد بن خلف المنوفي، المصري مولدا، الشاذلي طريقة، وبها عرف (نور الدين، أبو الحسن) من فقهاء المالكية. ولد بالقاهرة سنة ٨٥٧ وتوفي بها سنة ٩٣٩. من تصانيفه: شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، عمدة السالك على مذهب مالك ومختصرها، تحفة المصلي وشرحها، وكلها في الفقه، شرح الآجرومية في النحو، شرحان على الجامع الصحيح للبخاري، وشفاء العليل في لغات خليل. انظر: نيل الابتهاج ٢١٢، الأعلام ٥/١١.

(٢) عزاها الحافظ ابن حجر في "الفتح" (١/١١٨) [قوله باب سؤال جبريل عن الإيمان..] للأصيلي.

(٣) أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر يونس، المعروف بابن الحاجب، الفقيه الأصوليُّ المتكلِّم النظَّار، وُلِد ٥٧٠ بإسنا مِن صعيد مصر، وكان أبوه حاجبًا للأمير عز الدّين موسك الصلاحي، وكان ركناً من أركان الدين عِلْمًا وعملًا، له التصانيف البالغة غاية التحقيق والإجادة، منها: الكافية في النحو، والشافية في الصرف، ومختصر في فقه المالكية، ويسمى جامع الأمهات، وغيرها، توفي سنة ٦٤٦. انظر: "الديباج" لابن فرحون (٢/٨٦)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/٢٦٤)، وشجرة النور (رقم ٥٦١).

رُسُلِ أفضلُ مِنْ غيرِ الأنبياءِ مِنَ البَشَرِ، ولوْ كانَ وليًّا كأبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. ويقابلُه قولُ مَنْ قالَ مِنْ أهلِ السُّنَّةِ كالباقلانيِّ والحليميِّ بأفضليَّةِ الملائكةِ العلويَّةِ والسفليَّةِ عَلى الأنبياءِ ما عَدا محمدًا ﷺ لأنَّهُ أفضلُ مِنَ الملائكةِ إجماعًا كما ذكرَهُ الفخْرُ الرازيُّ، والمرادُ إجماعُ مَنْ يُعتدُّ بإجماعِهِ، وما وَقَعَ في "الكشَّافِ" في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] مِنْ أفضليَّةِ جبريلَ عَلى نبيِّنا محمدٍ ﷺ فهو نزغةٌ اعتزاليَّةٌ.

الثَّانيةُ: طريقةُ الآمديِّ[1] والبيضاويِّ في قصْرِ الخلافِ عَلى الملائكةِ العلويَّةِ، وأمَّا السفليَّةُ فلا اختلافَ أنَّ الأنبياءَ أفضلُ مِنْهم لِقولِه تَعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، وقولِه تَعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

الثَّالثةُ: طريقةُ الماتريديةِ، وهي الراجحةُ عندَهم أنَّ خواصَّ البشرِ وهمُ الأنبياءُ أفضلُ مِنْ خواصِّ الملائكةِ كجبريلَ وميكائيلَ، وخواصُّ الملائكةِ أفضلُ مِنْ عامَّةِ البشرِ، والمرادُ بهم الصلحاءُ كأبي بكرٍ وعمرَ، وعامَّةُ البشرِ أفضلُ مِنْ عامَّةِ الملائكةِ، وهمْ غيرُ الرُّسلِ منهم كحَمَلةِ العرشِ والكروبيينَ، وأفضلُ الملائكةِ جبريلُ كما جزَمَ به السيوطيُّ، وقالَ بعضُهم: أفضلُهم إسرافيلُ، قالَ الشيخُ عزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلامِ بعدَما قرَّرَ أنَّ خواصَّ البشرِ أفضلُ مِنَ الملائكةِ ورسولَ اللهِ ﷺ أفضلُ مِنَ الأنبياءِ: "فقدْ سادَ ساداتِ الملائكةِ فصارَ أفضلَ مِنَ الملائكةِ بدرجتينِ وأعلى منهم بمرتبتينِ، لا يُعلمُ قدْرُ تلكَ المرتبتينِ وشرفُ تلك الدرجتينِ إلَّا مِنْ خاتمِ النبيِّينَ وسيدِ المرسلينَ المفضَّلِ على جميعِ العالمينَ".

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) وهو من وقتِ الموتِ أو الحشْرِ إلى ما لا يَتناهى، أو إلى أنْ يَدخُلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ، وقالَ البيضاويُّ: سُمِّيَ بذلك لأنَّهُ آخرُ الأوقاتِ المعدودةِ، وقالَ غيرُهُ لأنَّهُ لا ليلَ بعدَهُ، ولا يُقالُ "يوم" يَعني مِنْ غيرِ تقييدٍ إلَّا لِمَا يَعقبُه ليلٌ، وقيلَ لأنَّهُ آخرُ أيامِ الدُّنيا. والمرادُ الإيمانُ بما فيهِ مِنَ البعثِ والحسابِ وتطايرِ الصُّحفِ والميزانِ وإدخالِ البعضِ

(١) سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد الآمدي الفقيه الأصولي، كان حنبلي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعي، من تصانيفه: أبكار الأفكار، ودقائق الحقائق، ولباب الألباب، ومنتهى السول في علم الأصول، توفي سنة ٦٣١. وفيات الأعيان (٣/٢٩٣)، سير أعلام النبلاء (٢٢/٣٦٤).

الجنةَ بالفضلِ والبعضِ النارَ بالعدْلِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا وردَ النَّصُّ القاطعُ به، وفي روايةٍ: (والبعْث الآخر)(١) وصَفَهُ بالآخرِ إما تأكيدٌ كـ"أمسِ الدَّابر"، أو احترازٌ عنْ غيرِ الآخر؛ لأنَّهُ إحياءٌ بعدَ إماتةٍ، وقدْ كنَّا ميِّتينَ قبلَ نفخِ الروحِ فأُحْيينَا بنفخِها ثُمَّ مُتْنا ثُمَّ أُحْيينا لِسؤالِ المَلكَيْنِ ثم مُتْنا ثم أُحْيينا لِلحشْرِ فهذا هو الآخِرُ.

الكلام عن القضاء والقدر

(وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ) أعادَ العاملَ إمَّا لِبُعْدِ العهدِ وإمَّا لِلاهتمام بشأنِه؛ إذْ لا يعلمُهُ إلا حاذقٌ بأمورِ الدِّينِ بخلافِ الإيمانِ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ، و"القدَر" -بتحريكِ الدَّالِ المُهمَلةِ، وقدْ تُسكَّنُ- مِنْ "قَدَرتُ" الشيءَ -بفتحِ الدَّالِ مُخفَّفةً- إذا أحطتُ بمقدارِه، و"ال" فيهِ عوضٌ عنِ المضافِ إليهِ، أي بتقديرِ اللهِ سبحانَهُ الأمورَ وإحاطتِهِ بها علمًا، ثم قدَّره بالإبدالِ (خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) الخيرُ الطاعةُ، والشَّرُّ المعصيةُ، أيْ بأنَّ اللهَ تعالى قَدَّرَ الخيرَ والشَّرَّ في القدمِ، وأنَّ ذلك سيقعُ في أوقاتٍ معلومةٍ عندَه عَلى صفاتٍ مخصوصةٍ، والأظهرُ أنَّه بدلُ كُلٍّ، وأمَّا قولُ ابنِ مالكٍ إنَّهُ بدلُ بعضٍ فغيرُ ظاهرٍ إلَّا أنْ يُقالَ إنَّ ذلك باعتبارِ كُلِّ واحدٍ مِنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ.

وفي روايةٍ لِمُسلِم (وَبِالقَدَرِ كُلِّه)(٢)، وفي روايةِ عطاءٍ عنِ ابنِ عمرَ بزيادةِ (حُلْوِهِ وَمُرِّهِ)(٣)، والحلوُ ما تَستطيبُهُ النَّفْسُ وتَميلُ إليهِ كالغيْثِ والخصبِ والسعةِ والعافيةِ والسلامةِ مِنَ الآفاتِ، والمرُّ ما تَكرهُهُ النَّفْسُ وتَنفرُ منهُ كالجدْبِ والقحطِ والمرضِ والبلاءِ.

ولمَّا كانَ الإيمانُ بالقدرِ مُستلزمًا لِلإيمانِ بالقضاءِ لم يتعرضْ لهُ، وقدْ خاضَ فيه قومٌ وأمسَكَ عنهُ آخرون تمسكًا بقولِه ﷺ: (إذا ذُكِرَ القَدَرُ فأمسِكوا)(٤)، وبأنَّهُ سِرٌّ ليسَ لِمَنْ عرفَهُ أنْ يُفشيَهُ، ولِذا لَمَّا سُئِلَ عنه عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالَ: طريقٌ مُظلِمٌ لا سبيلَ إليهِ، فأُعيدَ

(١) متفقٌ عليها؛ أخرجها البخاريُّ (٤٧٧٧) [كتاب التفسير- باب قوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾]، ومسلمٌ (٩) [كتاب الإيمان- باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) "صحيح مسلم" (١٠) [كتاب الإيمان- باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله].

(٣) أخرجه الطبرانيُّ (١٢/٤٣٠) [باب العين].

(٤) أخرجه الطبرانيُّ (١٠/١٩٨) [باب العين]، وأبو نعيم (٤/١٠٨) [ترجمة شقيق بن سلمة]، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وحسَّن إسناده ابن حجر كما في "فتح الباري" (١١/٤٧٧) [كتاب القدر]، وله شواهد من حديث ثوبان وابن عمر وأبي ذرٍّ وطاووس مرسلًا.

السؤالُ فقالَ: بحرٌ عميقٌ لا نَلجُهُ، فأُعيدَ السؤالُ فقالَ: سِرُّ اللهِ قدْ خَفِيَ علَيْنا فلا نُفشيه.

وأمَّا مَنْ خاضَ فيهِ فقالَ: القضاءُ إرادتُهُ الأزليَّةُ المتعلِّقَةُ بالأشياءِ عَلى ما هِيَ عليْه، والقَدَرُ إيجادُهُ إيَّاها عَلى ما يُطابِقُ العِلْمَ، فالقضاءُ بمنزلةِ الأساسِ، والقَدَرُ بمنزلةِ البناءِ، والقضاءُ بمنزلةِ آلةِ الكيلِ، والقدرُ بمنزلةِ المَكيلِ، والقضاءُ بمنزلةِ ما أُعِدَّ للِّبْسِ، والقدرُ بمنزلةِ اللّبسِ، والقضاءُ بمنزلةِ تصويرِ النَّقَّاشِ الصورةَ في ذهنِهِ، والقدرُ بمنزلةِ رَسْمِها.

ونَظَمَ ذلك شيخُنا الأجهوريُّ فقال:

إرادَةُ اللهِ مَعَ التَّعَلُّقِ * في أَزَلٍ قَضَاؤُهُ فَحقِّقِ

والقَدَرُ الإيجَادُ للأَشْيَا عَلَى * وَجْهٍ مُعَيَّنٍ أَرَادَهُ عَلَا

وبَعْضُهُمْ قَدْ قَالَ مَعْنَى الأَوَّلِ * العِلْمُ مَعَ تَعَلُّقٍ في الأَزَلِ

والقَدَرُ الإيجَادُ للأُمُورِ * عَلَى وِفَاقِ عِلْمِهِ المَذْكُورِ

وفي الحديثِ الرَّدُّ عَلى القدريَّةِ، وهمْ قدريتانِ:

أُولَى: وهيَ تُنكِرُ ما ذَكَرْنا مِنْ سَبْقِ العلمِ بالأشياءِ قبلَ وجودِها، وتَزعُمُ أنَّ اللهَ لمْ يُقَدِّرِ الأمورَ أزلًا، ولمْ يتقدَّمْ علمُهُ بِها، وإنَّما يأتنفها علمًا حالَ وقوعِها، وهؤلاءِ انقرضوا قبلَ ظهورِ الشافعيِّ رَحِمَهُ اللهُ، وإيَّاهم عَنَى بقولِه: إنْ تُسلِّمِ القدريَّةُ العِلْمَ خُصِموا، إذ يُقالُ لهم أتجوِّزونَ أنْ يَقعَ في الوجودِ خِلافُ ما تَضمَّنَهُ العِلمُ، فإنْ مَنَعوا وافقُونا، وإنْ أجازوا لَزِمَهم نسبةُ الجهلِ إليهِ، تَعالى عنْ ذلكَ علوًّا كبيرًا.

وقدريَّةٌ ثانيةٌ: وهمْ مطبقونَ عَلى أنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بأفعالِ العبادِ قبلَ وقوعِها، وإنَّما خالَفوا السَّلَفَ في زعمِهم أنَّ أفعالَ العبادِ مُقدَّرةٌ لَهم واقعةٌ مِنْهم عَلى جهةِ الاستقلالِ بواسطةِ الإقدارِ والتمكينِ، وقدِ اتُّفِقَ لِشخصٍ منهم أنَّهُ رَفَعَ رجلَهُ بحضرةِ رَجُلٍ مِنْ أهْلِ السُّنَّةِ وقالَ: إنِّي رفعتُ رِجْلي عنِ الأرضِ بقُدرتي، فقالَ له السُّنِّيُّ: فإذنِ ارفعِ الأخرى، فلمْ يَرُدَّ له جوابًا.

وفيهِ ردٌّ أيضًا عَلى المعتزلةِ في زعمِهم أنَّه تَعالى لا يَخلقُ الشَّرَّ، إذْ لو كانَ العبدُ يَخلقُ الشَّرَّ

والمخالفاتِ وهيَ أكثرُ وقوعًا مِنَ الطاعاتِ لكانَ أكثرُ ما يَجري في الوجودِ عَلى خلافِ إرادةِ ربِّ الأرضِ والسماواتِ، وذلكَ أمرٌ لا يرضاهُ أميرُ بلدٍ ولا زعيمُ قريةٍ، تَعالى اللهُ عمَّا تَقولُ المعتزلةُ علوًا كبيراً.

وقدْ حُكيَ أنَّهُ دَخلَ القاضي عبدُ الجبار[1] المعتزليُّ عَلى الصاحبِ ابنِ عبَّادٍ[2] وكانَ وزيراً بالمغربِ، فرأى عندَه الأستاذَ أبا إسحاقَ الأسفرايينيَّ[3] إمامَ أهلِ السُّنَّةِ، فقالَ عبدُ الجبارِ: سبحانَ مَنْ تَنزَّهَ عنِ الفحشاءِ، فقالَ الأستاذُ على الفورِ: سبحانَ مَنْ لا يَجري في ملكِه إلَّا ما يَشاءُ، فالتفتَ إليه عبدُ الجبارِ وعَلِمَ أنَّه فَهِمَ مُرادَه، فقالَ لهُ: أفيريدُ ربُّكَ أنْ يُعصى؟ فقالَ له الأستاذُ: أفيُعصى ربُّنا قهراً؟ فقالَ له عبدُ الجبارِ: أرأيتَ إنْ منَعني الهُدى وقَضى عليَّ بالرَّدى أحْسَنَ إليَّ أمْ أَسَاءَ؟ فقال له الأستاذُ: إنْ كانَ مَنَعَكَ ما هو لكَ فقدْ أَسَاءَ، وإنْ كانَ مَنَعَكَ ما هو لهُ فيَختصُّ برحمتِهِ مَنْ يَشاءُ، فانصرفَ الحاضِرونَ وهم يَقُولونَ: واللهِ ليسَ عنْ هذا جوابٌ.

وفي "حياةِ الحيوانِ"[4] أنَّ ملكًا قالَ له منجِّموهُ إنَّكَ تَموتُ في اليومِ الفُلانيِّ في الوقتِ الفُلانيِّ بلدغةِ عقربٍ، فلمَّا آنَ الوقتُ تَجرَّدَ مِنْ ثيابِهِ ورَكِبَ فرسَهُ بعدَ غسْلِها وتسريحِ شعرِها ودخَلَ بِها البحرَ حذراً، فعطسَتْ فرسُهُ فخرجَ مِنْ منخرِها عقربٌ فمرَّ بِها الماءُ حتَّى تعلَّقَتْ بهِ فلسعَتْهُ فماتَ، وما أغناهُ الحذَرُ مِنَ القَدَرِ.

---

(١) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل، القاضي أبو الحسن الهمذاني الشافعي، قاضي الريّ، كان إمام أهل الاعتزال في زمانه، وله المصنفات الكثيرة في طريقتهم وفي أصول الفقه، قال ابن كثير في طبقاته: ومن أجل مصنفاته وأعظمها كتاب دلائل النبوة، توفي سنة ٤١٥. طبقات السبكي (٩٧/٥)، طبقات المفسرين للسيوطي (٥٩/١).

(٢) الوزير الكبير الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني، الأديب الكاتب، وزير الملك مؤيد الدولة بويه ابن ركن الدولة، له تصانيف منها في اللغة: المحيط، والكافي في الترسل، وله كتاب الإمامة وفيه مناقب الإمام علي، وكان شيعيا معتزليا، توفي سنة ٣٨٥. تاريخ بغداد (٦١/٢١)، وفيات الأعيان (٢٢٨/١)، سير أعلام النبلاء (٤٥٤/١٢).

(٣) ركن الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي، له التصانيف الجليلة، منها: الجامع في أصول الدين والرد على الملحدين، ومسائل الدور، وغيرها، توفي سنة ٤١٨. طبقات السبكي (٢٥٧/٤)، وفيات الأعيان (٢٨/١).

(٤) حياة الحيوان، لكمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري المصري، المتوفى سنة ٨٠٨.

وفي الصحيحيْن عنْ أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خُنْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ وَخطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي، قَالَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى[1]. وعنْ أنسٍ قالَ: (خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا أَرْسَلَنِي فِي حَاجَةٍ فَلَمْ تَتَهَيَّأْ إِلَّا قَالَ: لَوْ قُضِيَ كَانَ وَلَوْ قُدِّرَ كَانَ)[2]، وَعَنْ أنسٍ قالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَمَّا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي وَقَدَرِي فَلْيَطْلُبْ رَبًّا سُوَايَ)[3].

وعنْ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في تفسيرِ قولِه سُبحانَهُ وتَعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] قالَ: كانَ لوحًا مِنْ ذَهَبٍ مَكتوبٌ فيه: لَا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله، عجبًا لِمَنْ أيقَنَ بالموتِ كيفَ يَفرَحُ، وعجبًا لِمَنْ أيقَنَ بالنَّارِ كيفَ يَضحَكُ، وعجبًا لم أيقَنَ بالقَدَرِ كيفَ يَحزَنُ، وعجبًا لِمَنْ يَرى تَقلُّبَ الدُّنْيا بأهلِها حالًا بعدَ حالٍ كيفَ يَطمَئِنُّ إلَيْها.[4]

وعنْ عُثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ الكنزَ هو اللَّوحُ مِنْ ذَهَبٍ، فيهِ سبعةُ أسطرٍ مكتوبٌ فيها سبعُ كلماتٍ: عَجِبْتُ لِمَنْ عرفَ الدُّنيا وهو يَرغَبُ فِيها، وعَجِبْتُ لِمَنْ عَرَفَ الأمورَ بالقَدَرِ كيفَ يَغتمُّ بالفواتِ، وعجبتُ لِمَنْ عرفَ الحِسابَ وهو يَجمعُ المالَ، وعَجِبْتُ لِمَنْ عَرَفَ النَّارَ وهو يُذنِبُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ عَرَفَ الجنَّةَ يَقينًا وهو يَستريحُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ عَرَفَ اللهَ يقينًا وهو يَذكُرُ غيرَهُ.[5]

---

(١) متفقٌ عليه؛ ومخرَّجٌ في عدَّة مواضع في الصحيحين: البخاريُّ (٦٦١٤) [كتاب القدر- باب تحاج آدم وموسى عند الله]، ومسلمٌ (٢٦٥٢) [كتاب القدر- باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ]، وغيرهما من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: أبو نعيم في الحلية (١٧٩/٦) [ترجمة عمران القصير]، وأخرجه أحمد (١٣٤١٨) [مسند عبدالله بن العباس] بنحوه، وأصله في الصحيحين، وغيرهما.

(٣) أخرجه الطبرانيُّ في "الكبير" (٣٢٠/٢٢) [مسند من يعرف بالكنى]، وابن حبَّان في "الضعفاء" (٣٢٧/١) [باب الياء] من حديث أبي هندٍ الداريِّ، وفيه سعيدُ بنُ زيادِ بن هندٍ وهو متروكٌ كما قال الهيثمي في "المجمع" (٢٠٧/٧) [كتاب القدر- باب فيمن يعترض]، وله شاهد من حديث أنس وجابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البيهقيُّ في "الشعب" (٢٠٩)، وابن مردويه كما في "تخريج أحاديث الكشاف" للزيلعي (٣٠٧/٢)، وغيرهما من حديث عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ موقوفًا. وفي الباب عن جماعة.

(٥) أشار إليه القرطبي في التفسير، ولم أجده بهذا اللفظ من حديث عثمان فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ) أرادَ بِهِ الإخلاصَ فـ"ال" فيهِ للعهدِ الذهنيِّ المذكورِ في الآياتِ الشريفةِ نحو: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، إذْ إحسانُ العبادةِ الإخلاصُ فيها، والخشوعُ وفراغُ البالِ حالَ التلبُّسِ بها، ويتعدَّى بنفسِهِ كـ"أحسنتُ" كذا إذا أتْقنتُهُ وأكملتُهُ وأمكنتُهُ، وبحرفِ الجرِّ كـ"أحسنتُ إليه" إذَا أوصلتُ إليهِ النَّفْعَ، وأصلُه مِنَ الحُسْنِ خلافِ القُبْحِ، وما هُنَا مِنَ الأَوَّلِ؛ لأنَّ المقصودَ إتقانُ العبادةِ، وقدْ يُلحَظُ الثاني بأنَّ المُخلِصَ مثلًا يُحسِنُ بإخلاصِهِ إلى نفسِهِ.

معنى الإحسان

وسُئِلَ شقيقٌ[1] عنِ الإخلاصِ فقالَ: تمييزُ العملِ مِنَ الرِّياءِ كتمييزِ اللَّبَنِ مِنْ فرثٍ ودمٍ، سائغًا سهْلَ المرورِ في الحلْقِ، وقيلَ: تَرْكُ حُبِّ المدْحِ عَلى العملِ، وقيلَ: سرٌّ بينَ العبدِ وربِّه لا يَطَّلِعُ عليهِ مَلَكٌ مُقرَّبٌ فيكتبُه ولا شيطانٌ فيفسدُه.

جاءَ في الحديثِ المُسلسَلِ الربانيِّ: (الإخلاصُ سرٌّ مِنْ سرِّي استودعتُه قلبَ مَنْ أحببْتُ مِنْ عِبادي)[2]، وانظرْ قولَه "لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَلَكٌ مُقرَّبٌ فَيَكْتُبُهُ" هلْ هو مبنيٌّ على أنَّ عَمَلَ القلبِ لا يُكتَبُ، أو عَلى أنَّهُ يُكتَبُ ويُستثنى منهُ الإخلاصُ.

(قَالَ) ﷺ (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ) مِنْ "عَبَدَ": أطاعَ، والتعبُّدُ: التنسُّكُ، والعبوديَّةُ: الخضوعُ

(١) أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي؛ أحد شيوخ التصوف، من مشايخ خراسان، صحب إبراهيم بن أدهم، توفي شهيدا سنة ١٥٣. حلية الأولياء (٥٨/٨)، وفيات الأعيان (٤٦٧/٢)

(٢) أخرجه أبو القاسم القشيريُّ في "الرسالة" (٣٦٠/٢) [باب الرضا]، وغيره مِنْ طريق حمَّاد بن عطاء الهُجَيميِّ، قال: سألتُ عبدَالواحدِ بنَ زيدٍ عن الإخلاص: ما هو؟ قال: سألتُ الحَسَنَ البصريَّ عن الإخلاص: ما هو؟ قال: سألتُ حذيفةَ بنَ اليَمانِ عن الإخلاص: ما هو؟ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: (سألتُ جبريلَ عليه السَّلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألتُ ربَّ العزَّةِ عن الإخلاص ما هو؟ قال: سِرٌّ مِنْ أسرَارِي استودعتُه قلبَ مَنْ أحببتُه مِنْ عبادي).

وإسناده ضعيفٌ جدًّا؛ فيه أحمد بن عطاء الهُجيميُّ قال عنه الدارقطنيُّ: متروك. انظر "لسان الميزان" (٥٣٧/١)، وفيه أيضًا عبدالواحد بن زيد البصريُّ الزاهد، قال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه. انظر "اللسان" (٢٩٠/٥). والحَسَنُ لم يسمع مِنْ حذيفةَ. وقد ذكر هذا الحديثَ الإمامُ النَّوَوي في كتابه "بستان العارفين" (ص ٢٦) من غير أن يُنبِّه على مرتبته.

والذُّلُّ، يُقالُ: طريقٌ مُعبَّدٌ إذَا ذُلِّلَ بالأرجلِ، وفي روايةِ أبي هريرةَ وعمارةَ بن القعقاع (أنْ تَخْشى اللهَ)[1]، فعبَّرَ عنِ المُسَبَّبِ باسمِ السَّببِ توسعًا، والعبادةُ ما تُعُبِّدَ به بِشرطِ النِّيَّةِ ومعرفةِ المعبودِ كالصلاةِ، والقُربَةُ ما تُقُرِّبَ بهِ بِشرطِ معرفةِ المُتقرَّبِ إليه كالعتقِ والوقفِ، والطاعةُ امتثالُ الأمْرِ والنهْيِ كالنَّظرِ المؤدِّي إلى معرفةِ اللهِ تعالى، قالَه شيخُ الإسلامِ.

(**كَأَنَّكَ تَرَاهُ**) هذا مِنْ جوامعِ كلمِهِ ﷺ لأنَّا لوْ قَدَّرنا أنَّ أحدًا قامَ في عبادةِ ربِّه وهو يُعاينُه سُبحانَه وتَعالى لمْ يَترُكْ شيئًا مِمَّا يَقدِرُ عليهِ مِنَ الخضوعِ والخشوعِ وحسنِ السَّمْتِ وحفظِ القلبِ والجوارحِ واجتماعِهِ بظاهرِهِ وباطنِهِ إلَّا أَتى بِه.

قالَ الكرمانيُّ: فإنْ قُلْتَ: "كأنَّكَ تَرَاهُ" ما محلُّه مِنَ الإعرابِ؟ قُلْتُ: هو حالٌ مِنَ الفاعلِ، أيْ تَعبُدُ اللهَ مُشَبَّهًا بِمَنْ تَراهُ. اهـ، أيْ شبيهًا بِمَنْ تَنظُرُ إليهِ خوفًا منهُ وحياءً، والأَوْلى أنْ يُنزَّلَ عَلى معنى التشبيهِ ويَكونُ التقديرُ: الإحسانُ عبادتُكَ اللهَ تَعالى حالَ كونِكَ في عبادتِكَ مِثْلَ حالِ كونِكَ رائيًا لهُ، وهذا التقديرُ أحسنُ وأقربُ لِلمَعْنى مِنْ تقديرِ الكرمانيِّ؛ لأنَّ المفهومَ مِنْ تقديرِهِ أنْ يكُونَ هو في حالِ العبادةِ مشبَّهًا بالرائي إيَّاهُ، وفرقٌ بينَ عبادةِ الرَّائي بنفسِهِ وعبادةِ المشبَّهِ بالرَّائي بنفسِهِ.

(**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ**) فاستمِرَّ عَلى إحسانِكَ العبادةَ (**فَإِنَّهُ يَرَاكَ**) إذْ هو القائمُ عَلى كُلِّ نفْسٍ بِما كسَبَتِ، المُشاهِدُ لِكُلِّ أحدٍ مِنْ خلقِهِ في حركتِهِ وسكونِهِ.

و"إنْ" لِلشَّرطِ، و"إنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ" جملةٌ وَقعتْ فعْلَ الشَّرْطِ، فإنْ قُلْتَ: أينَ جزاءُ الشَّرطِ؟ قُلْتُ: محذوفٌ تقديرُه "فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَأَحسِنِ العبادةَ فإنَّهُ يراكَ"، فإنْ قُلْتَ: لِمَ لَا يَكُونُ قولُه: "فإنَّهُ يَراكَ" جزاءً لِلشَّرطِ؟ قُلْتُ: لَا يَصِحُّ؛ لأنَّهُ ليسَ مُسبَّبًا عنهُ، ويَنبغي أنْ يَكونَ فعْلُ الشَّرطِ سببًا لِوقوعِ الجزاءِ كَما تَقولُ في "إنْ جِئْتَني أَكْرَمْتُكَ" فإنَّ المجيءَ سببٌ لِلإكرامِ، وعدمَهُ سببٌ لِعدمِهِ، وههنا عدمُ رؤيةِ العبدِ ليستْ بسببٍ لِرؤيةِ اللهِ تَعالى، فإنَّ اللهَ -سُبحانَهُ وتَعالى- يَراهُ سواءٌ وُجدتْ مِنَ العبدِ رؤيةٌ أمْ لَمْ توجدْ.

(١) أخرجه مسلمٌ (١٠) [كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان] من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

وحُكِيَ عنْ محمدِ بنِ سكرانَ، وهو مِنْ مشاهيرِ مَشايخِ بغدادَ المتأخِّرينَ، أنَّهُ وَقفَ عَلى قولِه "فَإِنْ لَمْ تَكُنْ" وهو إشارةٌ إلى مقامِ المحْوِ والفناءِ، وتقديرُه: فإنْ لَمْ تكنْ أيْ لَمْ تصرْ شيئًا وفنيتَ عنْ نفسِكَ حتَّى كأنَّكَ لَيْسَ بموجودٍ فإنَّكَ حينئذٍ "تَراهُ"، فإنَّما الحجابُ بينَكَ وبينَ شهودِه، فإنَّ مَنْ ألْقى الحجابَ رَأى الجَنَابَ. وهو شبيهٌ بما يُحْكى عنْ أبي يزيدَ[1] فإنَّه قالَ: رأيتُ ربَّ العزةِ في المنامِ، فقُلْتُ: يا ربِّ كيفَ الطريقُ إليكَ؟ فقالَ: خَلِّ نفسَكَ وتَعالَ.

قالَ الصلاحُ الصفديُّ[2]: وغَفَلَ هذا القائلُ لِلجهلِ بالعربيَّةِ، عَلى أنَّهُ لو كانَ المُرادُ ما زَعَمَ لَكانَ قولُه: "تَراهُ" محذوفَ الألفِ؛ لأنَّهُ يَصيرُ مجزومًا لِكونِه على زعمِه جوابَ الشَّرطِ. وتعقَّبَه الدمامينيُّ بقولِه: إنَّما تَصحُّ هذهِ الدعوى التي عارضَ بها الصفديُّ لوْ كانَ الجوابُ في هذه الصورةِ مما يجبُ جزمُه وهو ممنوعٌ، فقدْ نصَّ الإمامُ جمالُ الدِّينِ ابنُ مالكٍ في التسهيلِ عَلى أنَّ الشرطَ إذا كانَ مَنْفيًّا بـ"لَمْ" جازَ رفعُ الجوابِ بكثرةٍ، وكفانا به حجةً، عَلى أنَّ الشُّرَّاحَ قَبِلوا هذا منهُ ولَمْ يتعقَّبوهُ، وعليهِ فيصحُّ قولُنا: "إنْ لَمْ يقمْ زيدٌ يَقومُ عمرٌو"، ويتخرَّجُ عليهِ الحديثُ، فلا يَكونُ رفعُ الفعلِ المضارعِ الذي هو"تَراهُ" مانعًا مِنْ دعْوى كونِه جوابًا للشَّرْطِ. اهـ.

وقولُهُ: "أَنْ تَعبدَ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ" إشارةٌ إلى حالِ المُشاهَدةِ، وقولُه "فإنْ لَمْ تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ" إشارةٌ إلى حالِ المراقبةِ، قالَ بعضُهم: مَنْ راقبَ اللهَ في خواطرِه عصَمَهُ اللهُ في جوارحِه، وسُئِلَ ابنُ عطاءٍ: ما أفضلُ الطاعاتِ؟ فقالَ: مراقبةُ الحقِّ عَلى دوامِ الأوقاتِ.

ورأى شخصٌ مسافرٌ غلامًا يَرعى غنمًا فقالَ له: تبيعُ مِنْ هذهِ الغنمِ واحدةً؟ فقالَ: إنَّها

---

(١) سطان العارفين، أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، نسبته إلى بسطام، بلدة بين خراسان والعراق، قال المناوي: "وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة"، ولشمس الدين الأطعاني "روضة الحبور ومعدن السرور في مناقب الجنيد البغدادي والعارف أبو يزيد طيفور"، وللشيخ عبد الحليم محمود "سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي"، تُوفِّي سنة ٢٦١، وقيل ٢٦٤. انظر: حلية الأولياء (١٠/٣٣)، وطبقات الصوفية (ص ٦٧، ٦٨)، ووفيات الأعيان (٢/٥٣١).

(٢) العلامة الأديب صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، قرأ يسيرا من الفقه والأصلين وبرع في الأدب نظما ونثرا وكتابة وجمعا وعني بالحديث، له زهاء مئتي مصنف، منها: الوافي بالوفيات، والشعور بالعور، ونكت الهميان، وألحان السواجع، والتذكرة، وأعيان العصر، وغيرها، وتوفي سنة ٧٦٤. طبقات السبكي (١٠/٥)، الدرر الكامنة (٢/٢٠٧).

ليستْ لي، فقالَ: قُلْ لِصاحبِها: إنَّ الذئبَ أخَذَ مِنْها واحدةً، فقالَ الغلامُ: وأينَ اللهُ؟!

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الرازيُّ: سمعتُ أبا عثمانَ يَقولُ: قال لي أبو حفصٍ: إذا جلستَ للنَّاسِ فكُنْ واعظًا لِقلبِكَ ولِنفْسِكَ، ولا يَغرنَّكَ اجتماعُهم عليكَ، فإنَّهم يُراقبونَ ظاهِرَكَ، واللهُ يُراقِبُ باطنَكَ.

***

الكلام عن الساعة وأماراتها

(قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ) أيْ عنْ زمنِ وجودِها ووقتِ قيامِها لا عنْها نفْسِها؛ لأنَّها مقطوعٌ بِها، وهِيَ لغةً: مقدارٌ ما مِنَ الزَّمانِ غيرُ مُعيَّنٍ ولا مُحدَّدٍ لِقولِه تَعالى: ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وفي عُرْفِ أهلِ الميقاتِ جزءٌ مِنْ أربعةٍ وعشرينَ جزءًا مِنْ أوقاتِ الليلِ والنهارِ، وفي عُرْفِ أهلِ الشَّرْعِ عبارةٌ عنِ القيامةِ، وهو المرادُ هنا، وأصلُها "سَوَعَةٌ" بتحريكِ الواوِ، وقُلِبَتْ "الْوَاوُ" ألِفًا لِتحرُّكِها وانفتاحِ ما قبْلَها.

وسُمِّيَتْ "ساعةً" معَ طولِ زمانِها إمَّا لِوقوعِها بغتةً؛ لأنَّها تَفجأُ الناسَ في ساعةٍ فتُموِّتُ الخلْقَ كُلَّهم بصيحةٍ واحدةٍ حتى أنَّ مَنْ تَناولَ لقمةً لا يُمهَلُ حتى يَبتلِعَها، وحتَّى أنَّ الرَّجُلَيْنِ يَكونُ بيْنَهما الثوبُ لا يَتبايعانِه ولا يَطويانِه[1]، ولِذا قالَ المفسِّرونَ في قولِه تَعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] أيْ يَتخاصمونَ في متاجرِهم ومعاملاتِهم فيَموتونَ في مكانِهم.

وإمَّا لِسُرعةِ حِسابِها، وإمَّا تسميةً لِلكُلِّ باسمِ البعضِ، والمرادُ أوَّلُ ساعاتِها، وإمَّا لأنَّها عَلى طولِها كَساعةٍ عندَ اللهِ عَلى الخلْقِ، وإمَّا لأنَّ طولَها عَلى الكُفَّارِ، وأمَّا المؤمنونَ فإنَّها تَكونُ عَلَيْهم كساعةٍ، لِحديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (في يومٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٥٠٦) [كتاب الرقاق- باب طلوع الشمس من مغربها]، ومسلمٌ (٢٩٥٤) [كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب قرب الساعة] وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا ولفظ البخاريِّ: (لتقومَنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، لتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يَطْعَمُه، ولتقومَنَّ الساعة وهو يَلِيطُ حَوْضَهُ فلا يسقي فيه، ولتقومَنَّ الساعة وقد رفع أحدكم أُكْلَتَه إلى فيه فلا يَطْعَمُها).

ألفَ سنةٍ، فقلتُ: ما أطْوَلَ هَذَا! فقالَ النبيُّ ﷺ: والذي نفْسِي بيدِه لَيُخفَّفُ عَلى المؤمِنِ حتَّى يَكونَ أخَفَّ عليهِ مِنْ صلاةِ المكتوبةِ يُصلِّيها في الدُّنيا)[1].

(**قَالَ: مَا الْمَسْؤولُ**) "ما" نافيةٌ بمعنى ليسَ، وفي روايةِ أبي فروةَ[2]: فنَكَسَ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ أعادَ فلَمْ يُجبْه، ثم أعادَ فلَمْ يجُبْهُ ثلاثًا، ثم رَفَعَ رأسَهُ فقالَ: ما المسؤولُ (**عَنْهَا**) أيْ عنْ زمنِها (**بأَعْلَمَ**) خبرُ "مَا" وزيدتِ الباءُ لتأكيدِ معْنى النَّفي (**مِنَ السَّائِلِ**) أيْ كلانا سواءٌ في عدمِ العِلْمِ بزمنِ وقوعِها ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي الصحيحِ: (مَفَاتِحُ الغيبِ خمسٌ لا يَعلمُهُنَّ إلَّا اللهُ تَعالى، وتَلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية)[3]. قالَ مُقاتِلٌ: نزلتْ هذه الآيةُ في رَجُلٍ مِنْ أهلِ الباديةِ اسْمُهُ عبدُ الوارثِ بنُ عمرِو بنِ حارثةَ أَتى النبيَّ ﷺ فقالَ لهُ: إنَّ امْرأتي حُبْلى فأَخْبِرْني ماذا تلدُ، وبلادُنا جدبةٌ فأخْبِرْني مَتَى يَنزلُ الغيثُ، وقدْ علِمتُ مَتى وُلِدْتُ فأخْبِرْني مَتى أموتُ، وقدْ علِمتُ ما عَمِلتُ اليومَ فأخْبِرْني ماذا أعْمَلُ غدًا، وأخبِرْني مَتى تَقومُ الساعةُ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧١٧) [مسند أبي سعيد الخدري]، وأبو يعلى (١٣٩٠) [مسند أبي سعيد الخدري] والطبري في "التفسير" (٧٢/٢٩) [تفسير سورة المعارج : ٤]، وابن حبَّان (٧٣٣٤) [كتاب إخباره عن مناقب الصحابة- باب إخباره ﷺ عن البعث] من طرق عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٣٧٠/١) [كتاب البعث- باب خفة يوم القيامة على المؤمنين]، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن على ضعف في راويه، وحسَّن الحافظ إسناده في "الفتح" (٤٤٨/١١) [قوله باب الصراط جسر جهنم].

(٢) أخرجها النَّسائيُّ (٤٩٩١) [كتاب الإيمان وشرائعه- صفة الإيمان والإسلام]، والبزَّار (٤٠٢٥) [مسند أبي ذر الغفاري]، وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٠) [كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان]، ومسلمٌ (١٠) [كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) انظر: "أسباب النزول" للواحدي (٣٤٧/١) [سورة لقمان: آية ٣٤].

فإنْ قُلْتَ: لِمَ قالَ: "مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ"، والمقامُ يَقتضي أنْ يُقالَ: "لَستُ بأعلَمَ بها مِنْكَ"، فالجوابُ أنَّه أتى بذلِكَ إشعارًا بالتعميم، تعريضًا للسَّامعينَ بأنَّ كُلَّ مسؤولٍ وكُلَّ سائلٍ كذلِكَ، ووَقَعَ هذا السؤالُ والجوابُ بينَ عيسى ابنِ مريمَ وجبريلَ لَكِنْ كانَ عيسى سائلًا وجبريلُ مسؤولًا كما أخرجَهُ الحميديُّ في أفرادِهِ عنِ الشَّعبيِّ قالَ: سَألَ عيسى ابنُ مريمَ جبريلَ عنِ الساعةِ فانتفضَ بأجنحتِهِ وقالَ: ما المسؤولُ عنْها بأعلَمَ مِنَ السائلِ.[1] اهـ.

فإنْ قيلَ قولُهُ ﷺ: (بُعِثْتُ أنا والساعةُ كَهاتَيْنِ)[2] يدلُّ عَلى أنَّ عندَهُ مِنْها علمًا، والآياتُ تَقتضي أنَّ اللهَ تعالى مُنفردٌ بعلْمِها، فالجوابُ كما قالَ الحليميُّ أنَّ معناه: أنَا النبيُّ الأخيرُ فلَا يَليني نبيٌّ آخرُ، وإنَّما تَليني القيامةُ، والحقُّ -كما قالَ جَمْعٌ- أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتَعالى لم يَقبِضْ نبيَّنا -عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- حتَّى أطلَعَهُ عَلى كُلِّ ما أبْهَمه عنْهُ، إلا أنَّهُ أمَرَهُ بكتْمِ بعضٍ والإعلامِ ببعضٍ. فإنْ قُلْتَ: ما الحكمةُ في أنَّهُ قالَ لهُ "صدَقْتَ" فيما سَبَقَ دونَ ما هُنا وما يأتي؟! فالجوابُ أنَّ مُسلِمًا زادَ في روايةِ عمارةَ بنِ القعقاعِ قولَ السائلِ "صدَقْتَ" عَقِبَ كُلِّ جَوابٍ[3]، فبعضُ الرواةِ اقتصرَ، وبعضُهم أتَمَّ.

وفي الحديثِ دلالةٌ عَلى أنَّهُ يَنبغي لِلعالِمِ إذَا سُئِلَ عمَّا لا يَعلَمُ أنْ يَقُولَ: لا أعْلَمُ، ولا يَكونُ ذلكَ مُنْقِصًا لِمَرتبتِهِ، بَلْ يُستدَلُّ به عَلى وَرَعِهِ وتقْواهُ، ومِنْ ثَمَّ سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ بقاعِ الأرضِ أفضلُ؟ فقالَ: لَا أدْري حتَّى أسألَ جبريلَ، فسألَهُ فقالَ: لا أدْري حتَّى أسألَ العالِمَ، ثُمَّ ذَهَبَ وأتاهُ فقالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُخبِرُكَ أنَّ خيرَ بقاعِ الأرضِ المساجدُ وشرَّ بقاعِها الأسواقُ. رَواهُ البزارُ[4].

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في "الفتح" (١/١٢١) [قوله باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام]، وعزاه للحميدي في نوادره.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاريُّ (٦٥٠٤) [كتاب الرقاق- باب قول النبي ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين)]، ومسلمٌ (٢٩٥١) [كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب قرب الساعة]، وغيرهما مِن حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي الباب عن عددٍ من الصحابة في الصحيحين وغيرهما.

(٣) تقدم تخريجها، انظر ص١٥٧.

(٤) أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٧١٤٠) [باب الميم- من اسمه محمد]، وغيره من حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ: ما أَبْرَدَها عَلى كبدي إذَا سُئلتُ عمَّا لا أعْلَمُ أنْ أقولَ: لا أعلَمُ. وقالَ الهيثَمُ بنُ جميلٍ: شهدتُ مالكًا رَضِحَالِلّهُعَنْهُ سُئِلَ عنْ ثمانٍ وأربعينَ مسألةً فقالَ في اثنينِ وثلاثينَ منْها لا أدْري، وقيلَ: سُئِلَ عنْ أربعينَ فأجابَ عنْ أربعٍ وقالَ في الباقي: لا أدْري، وكانَ يَقولُ: يَنبغي أنْ يُورِّثَ العالِمُ جُلساءَهُ قولَ "لا أدْري" حتَّى يكُونَ ذلكَ أصلًا في أيديهم يَفزَعونَ إليهِ، فإذَا سُئِلَ أحدُهم عمَّا لا يَدري قالَ: لا أدْري.

(**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا**) -بفتحِ الهمزةِ- بالجمعِ؛ إذْ هِيَ بكسرِها الولايةُ، أي علاماتُها، ومنهُ سُمِّيَ الشُّرَطُ، لأنَّهم يُعلِّمونَ أنفسَهم بعلاماتٍ يُعرَفونَ بِها، وقيلَ: مُقدِّماتُها، وقيلَ: صِغارُ أمورِها، وقيلَ: أوائلُها، ورُوِيَ "أَمارتُها" بالإفرادِ.

والمرادُ أشراطُها السابقةُ لا المُقارِنةُ والمضايقةُ كطلوعِ الشمسِ مِنَ المغربِ وخروجِ الدَّابَّةِ، ومِنْ ثَمَّ قالَ القرطبيُّ: أماراتُ الساعةِ قِسْمانِ ما يكونُ مِنْ نوعِ المعتادِ وغيرِه، والمذكورُ هنا الأوَّلُ، وأمَّا غيرُ المُعتادِ كطلوعِ الشَّمسِ مِنْ مغربِها، فتلكَ مُقارِنةٌ لها أو مضايقةٌ.

(**قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ**) أي الجاريةُ، وفي روايةِ البخاريِّ (إذَا ولدتِ الأَمةُ)[1]، وهِيَ كما قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ -كالكرمانيِّ- أَوْلى، لإشعارِها بتحقيقِ الوقوعِ، قالَ الكرمانيُّ: ولهذا يصحُّ أنْ يُقالَ: "إذَا قامتِ القيامةُ كانَ كذا"، لا "إنْ قامتِ القيامةُ كانَ كذا"، بلْ يُكفَّرُ قائلُهُ لإشعارِهِ بالشكِّ فيهِ. اهـ، ويتعيَّنُ حَمْلُ كلامِهِ عَلى مَنْ عَرَفَ هذا المعنى واعتقَدَهُ، وإلَّا فكثيرًا ما تُستعمَلُ "إنْ" مَوْضِعَ "إذَا" وبالعكسِ لِأغراضٍ، وقدْ ثَبَتَ في علمِ المعاني. و"ال" في "الأَمةِ" لِتعريفِ الماهيَّةِ أو لِلمعهودِ عندَ المُخاطَبِ دونَ الاستغراقِ لِعدَمِ اطِّرادِ ذلكَ في كُلِّ أُمَّةٍ.

(**رَبَّتَهَا**) بتاءِ التأنيثِ أيْ سيِّدَتَها، يُقالُ: فلانةُ ربَّةُ البيتِ أي سيِّدتُهُ، وهنَّ ربَّاتُ الحِجالِ، وفي روايةِ أبي فروةَ (رَبَّها)[2] أيْ سيِّدَها، وفي روايةِ عثمانَ بنِ غياثٍ (أربابَهُنَّ)[3] بلفظِ الجمعِ،

---

(١) صحيح البخاري (٥٠) [كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان].

(٢) صحيح البخاري (٥٠) [كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان]، ومسلمٌ (٩) [كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِحَالِلّهُعَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجا أحمد (١٨٤) [مسند عمر]، وغيره من حديث عمر رَضِحَالِلّهُعَنْهُ مرفوعًا.

وقدِ اختُلِفَ في معناهُ على أوجهٍ:

الأوَّلُ: قالَ الخطابيُّ: وأكثرُ العلماءِ أنَّهُ كنايةٌ عنْ كثرةِ السراري اللازمةِ لكثرةِ الفتوحِ والاستيلاءِ عَلى بلادِ الكُفرِ وسبي ذراريهم، حتَّى تلدَ السريَّةُ بنتًا أو ابنًا لسيِّدِها فيكونَ ولدُها سيِّدَها كَأبيهِ، أيْ لأنَّ قوةَ الإسلامِ وبلوغَ أمرِهِ غايتَهُ مُنْذِرٌ بالتراجعِ والانحطاطِ المؤذنِ بقُرْبِ القيامةِ.

وتعقَّبَه الحافظُ ابنُ حجرٍ بأنَّ إيلادَ الإماءِ كانَ موجودًا حينَ المقالةِ، والاستيلاءَ على بلادِ الكُفرِ وسبْيَ ذراريهم واتخاذَهم سراريَ كانَ أكثرُهُ في صدرِ الإسلامِ، والسياقُ يَقتضي الإشارةَ إلى وقوعِ ما لمْ يقعْ ممَّا سيقعُ قربَ قيامِ الساعةِ.

الثاني: قالَ الجرميُّ[1] إنَّه كنايةٌ عنْ كونِ الأرقَّاءِ يَلدْنَ الملوكَ، فتكونُ أُمُّ الملِكِ مِنْ جُمْلةِ رعيَّتِهِ، وهو سيِّدُها وسيِّدُ غيرِها من رعيَّتِه، ويؤيِّدُه أنَّ الرؤساءَ في الصدرِ الأوَّلِ كانوا يَستنكفونَ غالبًا عنْ وطْءِ الإماءِ ويَتنافسونَ في الحرائرِ، ثُمَّ انعكسَ الأمرُ سيَّما في أثناءِ دولةِ بني العبَّاسِ، لَكِنَّ روايةَ "ربَّتها" بالتأنيثِ لا تُساعدُه لِندورِ كونِ الأُنثى ملكةً.

الثَّالثُ: أنَّه كنايةٌ عنْ كثرةِ بيعِ المستولداتِ لِفسادِ الزَّمانِ حتَّى يشتريَ الولدُ أُمَّهُ وهو عارفٌ بِها أو حيثُ لا يَشعرُ، فالعلامةُ الاستهانةُ بالأحكامِ الشرعيَّةِ، أو غلبةُ الجهلِ الناشئِ عنهُ بيعُ أُمِّ الولدِ.

قالَ المؤلِّفُ[2]: وهذا لا يَختصُّ بأُمَّهاتِ الأولادِ بلْ يُتصوَّرُ في غيرِهِنَّ، فإنَّ الأَمَةَ قدْ تَلِدُ حُرًّا بوطْءِ غيرِ سيِّدِها بشبهةٍ أو ولدًا رقيقًا بنكاحٍ أو زِنًا، ثُمَّ تُباعُ بيعًا صحيحًا وتدورُ في الأيدي حتى يَشتريَها ولدُها.

الرَّابِعُ: أنَّ ولدَ أُمِّ الولَدِ لمَّا كانَ سببًا في عِتْقِها بموتِ أبيهِ أُطلِقَ عليهِ ذلك مجازًا.

---

(١) إمام العربية أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي النحوي، أخذ النحو عن الأخفش وغيره، وانتهى إليه علم النحو في زمانه، وله من التصانيف: التنبيه، وكتاب السير، وكتاب الأبنية، وكتاب العروض، ومختصر في النحو، وغريب سيبويه، وغير ذلك، توفي سنة ٢٢٥. أخبار النحويين للسيرافي (٥٧/١)، تاريخ بغداد (٣١٤/٩)

(٢) أي النووي في شرحه على صحيح مسلم.

الخامسُ: أنَّهُ كنايةٌ عنْ كثرةِ عقوقِ الأولادِ لأُمهاتهم، فيعاملونَهم معاملةَ السيِّدِ أَمَتَهُ مِنَ الإهانةِ والسَّبِّ، وأُطلِقَ عليه "ربُّها" مجازًا لذلكَ، ويُستأنَسُ له بروايةِ (أنْ تلدَ المرأةُ)[1]، وبخبرِ (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ الْوَلَدُ غَيْظًا)[2].

السَّادسُ: أنَّ المرادَ بالربِّ المُربِّي فيكونُ حقيقةً. قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ: وهذا أوجهُ الأوجهِ عندي لعمومِه، ومُحصِّلُه أنَّ الساعةَ يَقرُبُ قيامُها عندَ انعكاسِ الأمورِ، بحيثُ يَصيرُ المُرَبَّى مُربِّيًا والعالِمُ مُتعلِّمًا والسَّافِلُ عاليًا، وأُيِّدَ بأنَّهُ المُناسِبُ لقولِه في العلامةِ الأُخرى: (وَأَنْ تَصِيرَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ مُلُوكَ الْأَرْضِ)[3]، وحينئذٍ فقولُ بعضِهم في الردِّ عليه: "إنَّهُ ليسَ بأَوْجَهِ الأَوْجُهِ بل أضعفُها؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما عدَّ هذا مِنْ أشراطِ الساعةِ لكونِه عَلى نَمَطٍ خارجٍ عَلى وجْهِ الاستغرابِ دالٍّ عَلى فسادِ أحوالِ الناسِ، والذي ذكَرَهُ ليسَ مِنْ هذا القبيلِ" غيرُ ظاهرٍ، نَعَمِ الإنصافُ أنَّ قولَه "ربَّتها" بالتأنيثِ يُبْعِدُهُ.

ووقَعَ في بعضِ الرواياتِ (أنْ تلدَ الأَمَةُ بَعْلَها)[4]، والصحيحُ أنَّ البَعْلَ بمَعنى السيِّدِ فتكونُ بمعنى ربِّها عَلى ما سَلَفَ، قالَ أهلُ اللُّغةِ: بَعْلُ الشيءِ ربُّهُ ومالِكُه، قالَ تعالَى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ [الصافات: ١٢٥] أيْ ربًّا، قالَهُ ابنُ عباسٍ وغيرُه، وعنِ ابنِ عباسٍ: لَمْ أدْرِ معْنى البعْلِ حتى قُلْتُ لأعرابيٍّ: لِمَنْ هذه الناقةُ؟ قالَ أنا بعْلُها، وضلَّتْ ناقةٌ لبعضِ العربِ فجَعَلَ يُنادي: مَنْ رَأى ناقةً أنا بعْلُها، فجَعلَ الصبيانُ يَقُولونَ له: زوجُ النَّاقةِ، وقيلَ المرادُ هنا الزوجُ ويَكونُ معناهُ أنَّهُ يَكثُرُ بيعُ السَّراري حتى يَتزوَّجَ الإنسانُ أُمَّهُ وهو لا يَدري. وهذا أيضًا معْنًى صحيحٌ إلَّا أنَّ الأَوَّلَ أظهرُ؛ لأنَّه إذَا أمكَنَ حمْلُ الروايتينِ في القصةِ الواحدةِ عَلى معنًى واحدٍ كانَ أَوْلى.

---

(١) أخرجها البخاريُّ (٤٧٧٧) [كتاب تفسير القرآن- باب قوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا؛ بلفظ: (إذا ولدت المرأة ربَّتها).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٢٧) [باب الميم- من اسمه محمد]، والقضاعي في مسند الشهاب (٩٤٩)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا. وفي الباب عن آخرين.

(٣) أخرجها النَّسائيُّ (٤٩٩١) [كتاب الإيمان وشرائعه- صفة الإيمان والإسلام]، والبزَّار (٤٠٢٥) [مسند أبي ذر الغفاري]، وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) إحدى روايات مسلم (٩) [كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان].

فإنْ قيلَ: كيفَ أُطلِقَ الرَّبَّ عَلى غيرِ اللهِ وقدْ ورَدَ النَّهْيُ عنْهُ بقولِه: (لا يَقُلْ أحدُكم ربِّي وليَقُلْ سيِّدي ومَوْلايَ)[1]، فالجوابُ أنَّ الممنوعَ إطلاقُه على غيرِ اللهِ بدونِ الإضافةِ، وأمَّا بالإضافةِ فلا يُمنَعُ، يُقالُ: ربُّ الدارِ، وربُّ الناقةِ.

(**وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ**) جَمْعُ حافٍ بالمُهمَلةِ وهو مَنْ لا نَعْلَ برِجْلِه، (**الْعُرَاةَ**) مِنَ الثِّيابِ، جَمْعُ عارٍ، وهو المُتجرِّدُ مِنَ الثِّيابِ التي تُلبَسُ عَلى جسدِه، وفي روايةِ (الْحَفَدَة)[2] أي الخدَمَةُ، و"ال" للمفهومِ عندَ المُخاطَبِ أوْ لتعريفِ الماهيَّةِ، لا الاستغراقيةِ لقضاءِ العادةِ بأنَّ كلًّا منهم لا يَحصُلُ له ذلك، (**الْعَالَةَ**) بتخفيفِ اللَّامِ أي الفقراءَ جمعُ عائلٍ مِنْ "عَالَ": افْتَقَرَ، كَكاتبٍ وكَتَبةٍ، والألِفُ في العالةِ مُنقلبةٌ عنْ ياءٍ، والأصْلُ "عَيَلَة"، والعَيْلَةُ بإسكانِ الياءِ الفقْرُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة: ٢٨].

(**رِعَاءَ**) بكسرِ أوَّلِه وبالمدِّ جمعُ راعٍ، كجياعٍ جَمعُ جائعٍ، ويُجمَعُ أيضًا على "رُعَاة" بضمِّ أوَّلِه وهاءٍ آخرهُ معَ القصرِ كقضاةٍ جمعُ قاضٍ، وعَلى "رُعْيَان" كشابٌّ وشُبَّان، والرعيُ حفظُ الغيرِ لِمصلحةٍ، (**الشَّاءِ**) جمعُ شاةٍ، وهو مِنَ الجموعِ التي يُفرَّقُ بيْنها وبينَ واحدِها بالهاءِ، كشجرٍ وشجرةٍ وتمرٍ وتمرةٍ. زادَ الإسماعيليُّ في روايةِ (الصُّمّ البُكْم)[3] أيْ لم يَستعملوا أسماعَهم ولا ألسِنتَهم في علمٍ ونحوِه مِنْ أمرِ دينِهم، فلعدمِ حصولِ ثمرتي السمعِ واللسانِ صاروا كأنَّهم عَدِموهما، ومِنْ ثَمَّ قالَ اللهُ تعالى في حقِّهم: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وفي روايةٍ لِمُسلم (رِعَاء البَهْم)[4] بفتحِ الباءِ الموحَّدةِ جمعُ بهيمةٍ، وهِيَ صغارُ الضأنِ والمعزِ، وقيلَ: أولادُ الضأنِ والمَعزِ، وقيلَ: أولادُ الضأنِ خاصَّةً، واقتصرَ عليهِ الجوهريُّ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٥٥٢) [كتاب العتق- باب كراهية التطاول على الرقيق]، ومسلمٌ واللفظ له، واللفظ له (٢٢٤٩) [كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها- باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) ذكرها ابن حجر الهيتمي في "شرح الأربعين" (١٨١/١) [الحديث الثاني]، ولم يعزها، ولم أجدها فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٣) كما في "فتح الباري" لابن حجر (١٢٣/١) [قوله باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام].

(٤) "صحيح مسلم" (٩)، و(١٠) [كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان].

وفي روايةِ البخاريِّ (رِعَاء الْإِبِلِ الْبُهْم)[1] بضمِّ الباءِ لا غيرُ، جمعُ "أَبْهَم"، وهو الذي لا شَبَهَ له، قالَهُ الكرمانيُّ، وقالَ القاضي: جَمْعُ "بهيم"، وهو الأَسْوَدُ الذي لا يُخالِطُه لونٌ غيرُه، وعَلى روايةِ البخاريِّ فيهِ وجْهانِ: الرفعُ صفةً لِرعاءِ، والجرُّ صفةَ الإبلِ، والمعنى عَلى الرفعِ أنَّهم مجهولو الأنسابِ، وقيلَ سودُ الألوانِ، وقيلَ الذين لا شبهَ لَهُم، وعَلى الجرِّ الإبلِ السودِ؛ لأنَّها شرُّ الإبلِ عندَهم، وخيْرُها الحُمْرُ التي يُضرَبُ بها المَثَلُ، فيُقالُ: خيرٌ مِنْ حُمْرِ النَّعَم. قالَ في الفتح: ووقَعَ في روايةِ الأصيليِّ بِفتحِها، ولا يتجهُ معَ ذكْرِ الإبلِ، وإنَّما يَتَّجِهُ معَ ذِكْرِ الضأْنِ أو معَ عدمِ الإضافةِ.

وخصَّ مطلقَ الرعاءِ لأنَّهم أضعفُ النَّاسِ، ورعاءَ الشَّاءِ لأنَّهم أضعفُ الرعاءِ، ومِنْ ثَمَّ قيلَ "رعاء الشاءِ" أنسبُ بالسياقِ مِنْ روايةِ "رعاء الإبلِ البُهْم" فإنَّهم أصحابُ فخْرٍ وخُيَلاءَ، وليْسوا عالةً ولا فقراءَ غالبًا، ويُجابُ بأنَّ فخْرَهم إنَّما هو بالنسبةِ لِرعاءِ الشاةِ لا غيرِ الرعاءِ، فالقصدُ حاصلٌ بِذكْرِ مطلقِ الرعاءِ، ولكنَّه برعاءِ الشاءِ أبلغُ، فإنْ قُلْتَ: القصةُ غيرُ مُتعدِّدةٍ، فكيفَ الجَمْعُ بينَ الروايتيْنِ؟ فالجوابُ -كما قالَ الهيتمي- أنَّه يُحتَمَلُ أنَّهُ ﷺ جَمَعَ بيْنهُما فقالَ: "رعاءُ الإبلِ والشاءِ"، فحَفِظَ راوٍ الأوَّلَ وآخرُ الثانيَ.

(**يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**) أيْ يَتفاخَرونَ بِطولِ البناءِ وكثرتِهِ، وقدْ أخرَجَ ابنُ أبي الدُّنْيا عنْ عمَّارِ بنِ أبي عمَّارٍ أنَّهُ قالَ: إذَا رَفَعَ الرجُلُ بناءً فوقَ سبعةِ أذرعٍ نُودِيَ يا أفسقَ الفاسقينَ إلى أينَ؟[2]، ومثلُه لا يُقالُ مِنْ قِبَلِ الرأيِ. والتفاعلِ فيهِ بينَ أفرادِ العراةِ الموصوفينَ بما ذُكِرَ لا بيْنهم وبينَ غيرِهم ممَّنْ كانَ عزيزًا قبلُ، خلافًا لِمَنْ وَهَمَ فيهِ، وهو مفعولٌ ثانٍ إنْ جُعِلَتِ الرؤيةُ قلبيَّةً، وحالٌ إنْ جُعلتْ بصريَّةً، ومعناهُ أنَّ أهلَ الباديةِ وأشباهَهم تُبسَطُ لهم الدُّنيا ويَصيرونَ أهلَ ثروةٍ وشوكةٍ فيَملِكونَ البلادَ ويَتوطَّنونَها فيَبنونَ القصورَ المرتفعةَ ويَتباهونَ بِها، فهو إشارةٌ إلى كونِ الأسافلِ يَصيرونَ ملوكًا أو كالملوكِ، وتولي الرياسةِ مَنْ لا يَستحقُّها، وتَعاطي السياسةِ مَنْ لا يُحْسنُها.

---

(١) صحيح البخاري (٥٠) [كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان].

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في "قصر الأمل" (٢٥٠) [باب البناء وذمه].

وفي الحديثِ (يؤجَرُ ابنُ آدمَ في كُلِّ شيءٍ إلَّا ما يَضعُه في التراب)[1]، وماتَ رسولُ اللهِ ﷺ ولمْ يُشيِّدْ بُنيانًا ولا طوَّلَه[2]، وروَى البيهقيُّ في شُعَبِ الإيمانِ عنِ الأعمشِ عنْ مالكٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ بَنى بناءً أكثرَ ممَّا يَحتاجُ إليهِ كانَ عليْهِ وبالًا)[3]، وفي روايةِ عبدِ الرحمنِ ابنِ حميدٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: (كُلَّما أنْفقَ العبدُ مِنْ نفقةٍ فعَلى اللهِ خَلَفُها ضامنًا فيهِ إلا نفقةً في بنيانٍ أو معصيةٍ)[4].

وعنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّهُ كانَ لا يَبْني بيتًا ويقولُ: سنةُ رسولِ اللهِ ﷺ فإنَّهُ لمْ يضعْ لبنةً عَلى لبنةٍ ولا قصبةً على قصبةٍ. وعنْ ميسرةَ قالَ: ما بَنى عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بُنيانًا قطُّ، فقيلَ لهُ: ألَا تَبْني بيتًا، فقالَ: لا أتركُ بعْدي شيئًا مِنَ الدُّنيا أُذكَرُ به[5]. وعنِ ابنِ مُطيعٍ أنَّهُ نَظَرَ يومًا إلى دارِهِ فأعجَبَهُ حُسْنُها فبَكى ثُمَّ قالَ: واللهِ لولا الموتُ لَكنتُ بِكَ مسرورًا، ولولا ما نَصيرُ إليهِ مِنْ ضيقِ القبورِ لَقرَّتْ بالدُّنيا أعينُنا، ثُمَّ بَكى حتَّى ارتفعَ صوتُهُ.

ومِنْ ثُمَّ صحَّ (لا تقومُ الساعةُ حتَّى يَكونَ أسعدَ النَّاسِ بالدُّنيا لُكَعٌ ابنُ لُكَعٍ)[6]، قالَ أهلُ اللُّغةِ اللُّكعُ اللئيمُ، والمرأةُ لَكاعٌ، أيْ لَئيمٌ ابنُ لئيمٍ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٢) [كتاب المرضى- باب تمني المريض الموت]، وغيره من حديث خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: (إنَّ المسلم ليؤجر في كلِّ شيءٍ ينفقه، إلَّا في شيءٍ يجعله في هذا التراب) وأخرجه الترمذيُّ وصحَّحه (٢٤٨٣) [أبواب صفة القيامة والرقائق والورع]، عن حارثة بن مضرِّب بلفظ: (يؤجرُ الرجل في نفقته كلِّها إلا التراب) أو قال: (في البناء).

(٢) ذكره ابن دقيق العيد في "شرح الأربعين" (ص ٣٢) [الحديث الثاني]، قال: "ومات رسول الله ﷺ ولم يضع حجراً على حجرٍ ولا لبنةً على لبنةٍ: أي لم يشيِّد بناءه ولا طوَّله ولا تأنَّق فيه".

(٣) "شعب الإيمان" للبيهقي (١٠٢٢٦).

(٤) أخرجه عبد بن حميد (١٠٨٣) [مسند جابر]، وأبو يعلى (٢٠٤٠) [مسند جابر]، والحاكم (٢/٥٠) [كتاب البيوع]، والقضاعي في"مسند الشهاب" (٨٨)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٢٨)، وغيرهم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/٢٧٣) [ترجمة سفيان بن عيينة] عن سفيان بن عيينة.

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٣٠٣) [حديث حذيفة]، والترمذيُّ، وحسَّنه (٢٢٠٩) [أبواب الفتن]، والبغوي (٤١٥٥) [كتاب الرقاق- باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]، وغيرهم من حديث حذيفة ابن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي الباب عن أبي بردة بن نيار، وأنس بن مالك وأبي ذرٍّ وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وصحَّ أيضًا (مِنْ أشراطِ الساعةِ أنْ توضعَ الأخيارُ وترفعَ الأشرارُ)(١).

فإنْ قيلَ: الأماراتُ جَمْعٌ، وأقلُّهُ ثلاثةٌ عَلى الأصحِّ، ولم يُتكلَّمْ إلا عَلى اثنينِ، **فالجوابُ:** أنَّ هذا وَرَدَ عَلى مذهبِ مَنْ يَرى أنَّ أقلَّهُ اثنانِ، أو حُذِفَ الثالثُ لحُصولِ المقصودِ بما ذُكِرَ، كما قِيلَ في قولِه تَعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، أو أنَّ المذكورَ مِنَ الأشراطِ ثلاثةٌ، وإنَّما بعضُ الرواةِ اقتصرَ عَلى اثنينِ مِنْها، فذُكِرَ هنا الولادةُ والتطاولُ، وذَكَرَ البخاريُّ في التفسيرِ الولادةَ ورؤيةَ الحفاةِ(٢)، وذَكَرَ في روايةٍ أُخرى الثلاثةَ(٣).

وذَكَرَ هاتينِ العلامتينِ تحذيرًا للحاضرينَ وغيرِهم مِنْهُما، وإلَّا فالساعةُ لَها علاماتٌ كثيرةٌ كقبْضِ العلمِ، وكثرةِ الزَّلازلِ، وكثرةِ الفِتَنِ، وفيضِ المالِ حتَّى لا يَجدَ الرجلُ مَنْ يَدفعُ له زكاةَ مالِه، وكثرةِ الهَرْجِ يَعني القتلَ(٤)، وإضاعةِ الصلاةِ والأمانةِ(٥)، وأكلِ الرِّبا(٦)، وخروجِ الدَّجَّالِ(٧)،

---

(١) أخرجه الدارميُّ (٥١٥) [كتاب العلم- باب من لم ير كتابة الحديث]، والطبرانيُّ في "مسند الشاميين" (٤٨٢)، والحاكم (٤/٥٥٤) [كتاب الفتن والملاحم]، والبيهقيُّ في "الشعب" (٤٨٣٤)، وغيرهم من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وصحَّحه الحاكم.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٧٧) [كتاب تفسير القرآن- باب قوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجها مسلم (٩)، و(١٠) [كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان].

(٤) أخرج البخاريُّ، واللفظ له (١٠٣٦) [أبواب الاستسقاء- باب ما قيل في الزلازل والآيات]، ومسلمٌ (١٥٧) [كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: (لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج -وهو القتل القتل- حتى يكثر فيكم المال فيفيض).

(٥) أخرج البخاريُّ (٦٤٩٦) [كتاب الرقاق- باب رفع الأمانة] وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: (إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة، قالوا: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أُسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة).

(٦) أخرج الطبرانيُّ في "الأوسط" (٧٦٩٥) [باب الميم- من اسمه محمد] من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا : (بين يدي الساعة يظهر الرِّبا، والزِّنا، والخمر). وأخرج أحمد (١٠٤١٠) [مسند أبي هريرة]، وأبو داود (٣٣٣١) [كتاب البيوع- باب اجتناب الشبهات]، وابن ماجه (٢٢٧٨) [أبواب التجارات- باب التغليظ في الربا]، وغيرهم من حديث أبي هريرة مرفوعًا: (لَيأتينَّ على النَّاس زمانٌ لا يبقَى أحدٌ إلا أكل الرِّبا، فإن لم يأكله أصابه من غباره).

(٧) ذِكر الدَّجَّال وبعض أخباره واردٌ في الصحيحين في عدة مواضع، وبوَّب له البخاريُّ ومسلمٌ، منها ما أخرجه=

وخروج يأجوجَ ومأجوجَ، وطلوع الشمس مِنْ مغربِها، وخروج الدَّابَّة[1] المشارِ إليها بقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، قالَ الترمذيُّ: فتخرجُ ومعَها عَصا موسى وخاتمُ سليمانَ، فتَجْلو وجوهَ المؤمنينَ بالعَصا وتَختِمُ أنفَ الكافرِ بالخاتمِ، حتى إنَّ أهلَ المائدةِ الواحدةِ يَجتمعونَ للطَّعامِ فيُنادي بعضُهم لِبعضٍ يا مؤمنُ ويا كافرُ، لا يُدركها طالبٌ ولا يَنجو منها هاربٌ، حتى إنَّ الرجلَ لَيتعوَّذُ مِنْها بالصلاةِ فتأتيه مِنْ خلفِه وتقولُ: يا فلانُ الآنَ تُصلِّي[2].

قيلَ: وهذه الدَّابَّةُ هي الفصيلُ الذي كان لِناقةِ صالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فلمَّا عُقِرَتْ أُمُّها هربَتْ وانفتحَ لها حجرٌ فدخلتْ فيه فانطبقَ علَيْها، وهي فيه إلى وقتِ خروجِها، ولقدْ أحْسَنَ مَنْ قالَ:

وَاذْكُرْ خُرُوجَ فَصِيلِ نَاقَةِ صَالِحٍ * يَسِمُ الْوَرَى بِالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ

قالَ الشيخُ محمدٌ المصريُّ في تفسيرِه[3]: وهِيَ الجسَّاسةُ، رُوِيَ أنَّ طولَها ستونَ ذراعًا، ولها قوائمُ وزغَبٌ وريشٌ وجناحانِ، وتَسيرُ في الأرضِ لا يُدركُها طالبٌ ولا يَنجو منها هاربٌ.

وقيلَ هِيَ فصيلُ ناقةِ صالحٍ، ورُوِيَ أنَّها على خِلْقةِ الآدميِّينَ، وهِيَ في السَّحابِ وقوائمُها في الأرضِ، وأنَّها جَمَعَتْ من خَلْقِ كلِّ حيوانٍ، وأنَّها تَخرجُ ومعَها عصا موسى وخاتمُ سليمانَ فتجْلُو المؤمنَ بالعصا، وتَختمُ أنفَ الكافرِ بالخاتمِ فيُعلَمُ الكافرُ مِنَ المؤمنِ، ويَنقطعُ بخروجِها

=البخاري (١٨٨٢) [كتاب فضائل المدينة- باب: لا يدخل الدجال المدينة]، ومسلم (٢٩٣٨) [كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب في صفة الدجال وتحريم المدينة عليه].

(١) أخرج مسلمٌ (٢٩٠١) [كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب في الآيات التي تكون قبل الساعة]، وغيره من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري مرفوعًا: (إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات -فذكر- الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٣٧) [مسند أبي هريرة]، والترمذيُّ (٣١٨٧) [أبواب تفسير القرآن- باب: ومن سورة النمل]، وابن ماجه (٤٠٦٦) [أبواب الفتن- باب دابة الأرض]، وغيرهم من حديث أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: (تخرج الدابَّة معها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الخوان ليجتمعون فيقول: هاها يا مؤمن، ويقال: هاها يا كافر، ويقول هذا يا كافر، وهذا يا مؤمن) وحسَّنه الترمذيُّ.

(٣) لعله الخطيب الشربيني شمس الدين محمد (ت: ٩٧٧)، فقد ورد هذا الوصف في تفسيره "السراج المنير".

الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ، ولا يؤمنُ كافرٌ كما أوحى اللهُ إلى نوحٍ ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وقيلَ إنّها تخرجُ منَ الصَّفا، ورُوِيَ (أنّه ﷺ سُئِلَ عنْ مخرجِها، فقالَ: مِنْ أعظمِ المساجدِ حرمةً على اللهِ)[1] يعني المسجدَ الحرامَ، وقيلَ تخرجُ مِنْ تهامةَ، وقيلَ مِنْ مسجدِ الكوفةِ مِنْ حيثُ فارَ تنورُ نوحٍ، وقيلَ غيرُ ذلكَ.

ثم إنَّ أوّلَ الآياتِ العظامِ المؤذنةِ بتغيُّرِ أحوالِ العامَّةِ مِنْ مُعظمِ الأرضِ خروجُ الدَّجَّالِ ثمَّ بنزولِ عيسى وخروجِ يأجوجَ ومأجوجَ، والآياتُ العظامُ المؤذنةُ بتغيُّرِ أحوالِ العالمِ العلويِّ طلوعُ الشمسِ من مغربِها، ولعلَّ خروجَ الدابةِ في ذلكَ الوقتِ أو قريبًا منهُ، وأوّلُ الآياتِ المؤذنةِ بقيامِ الساعةِ النَّارُ التي تحشرُ الناسَ.

***

(**فانْطلَقَ**[2]) السائلُ أي ذهَبَ، (**فَلَبِثْتُ**) بضمِّ التاءِ للمُتكلِّمِ إخبارًا عن نفسِهِ **أيْ** مَكَثْتُ، وفي روايةٍ (فَلَبِثَ) أي النبيُّ ﷺ يعني أمسكَ عنِ الكلامِ (**مليًّا**) -بتشديدِ المثناةِ التحتيَّةِ مِنْ غيرِ همزٍ، ومنهُ: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي زمنًا طويلًا.

وجاءَ في روايةِ أبي داودَ والترمذيِّ أنَّهُ (لَبِثَ ثلاثًا)[3]، وظاهرُها أنّها ثلاثُ ليالٍ، **ولا** يُنافيها ما وردَ أنه ﷺ ذكرَهُ في المجلسِ[4]؛ لأنَّ عمرَ لمْ يحضُرْ قولَ النبيِّ ﷺ بلْ كانَ قامَ **إمَّا** معَ الذينَ توجَّهوا في طلبِ الرَّجُلِ أو لِشُغلٍ آخرَ، ولمْ يرجعْ معَ مَنْ رجعَ لِعارضٍ، فأخبرَ **النبيُّ**

---

(١) أخرجه مطوّلًا: الطيالسي (١١٦٥) [مسند حذيفة بن أسيد]، والطبراني (١٧٣/٣) [باب الحاء]، والحاكم (٤٨٤/٤) [كتاب الفتن والملاحم]، وغيرهم من حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب...) الحديث.

(٢) لفظ الحديث: (ثم انطلق).

(٣) سنن أبي داود (٤٦٩٥) [كتاب السُّنة- باب في القَدَر]، وسنن الترمذي (٢٦١٠) [أبواب الإيما - باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام]، وغيرهما.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠) [كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل]، ومسلم (٩)، و(١٠) [كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه: (ثم أدبر فقال: ردوه، فلم يروا شيئًا، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم).

ﷺ الحاضرينَ في الحالِ، ولم يتفقِ الإخبارُ لِعُمرَ إلا بعدَ ثلاثةٍ، و"مَليًّا" مِنَ الملاومةِ وهِيَ طولُ المدةِ، يُقالُ: غِبْتُ عنهُ ملاومةً مِنَ الدَّهْرِ -بالحركاتِ الثلاثِ، ومنهُ يُقالُ لِلَّيلِ والنهارِ: المَلَوانِ.

(ثُمَّ قَالَ) أي النَّبيُّ ﷺ **(يَا عُمَرُ)** تخصيصُهُ مِنْ بينِ الصحابةِ بالذِّكْرِ يدلُّ على جلالِه ورفعةِ مقامِهِ ومنزلتِهِ عندَ النبيِّ ﷺ **(أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ ورسولُهُ أعْلَمُ)** قالَ زينُ العربِ[1] في شرحِهِ لِلمصابيحِ: لمْ يَقُلْ "أعْلَما" لأنَّ "مِنْ" التفضيليَّةَ مُقدَّرةٌ، أي اللهُ ورسولُه أعلمُ مِنْ غيرِهما. اهـ، وفيهِ حُسنُ ما كان عليهِ الصحابةُ مِنْ مزيدِ الأدبِ معَهُ، لِردِّهم العلمَ إلى اللهِ وإليهِ، وكذا ذَكَرَهُ الشارحُ الهيتميُّ، ومِنَ المعلومِ أنَّ ذلكَ إنَّما يَحْسُنُ عدُّه مِنَ الأدبِ لو كانوا يَعلمونَ مَنِ السائلُ، وردُّوا العِلْمَ إليهِ إجلالًا له وهم كانوا غيرَ عالمينَ قطعًا إلَّا أنْ يُقالَ: إنَّ فيهِ حسنَ الأدبِ مِنْ جهةِ تفويضِ العلمِ إليْهِما بخلافِ "لَا نَعْلَمُ".

(قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ[2]) اسمٌ سُريانيٌّ غيرُ منصرفٍ لِلعلميَّةِ والعُجْمةِ، وهو مركَّبٌ مِنْ "جبْر" وهو العبدُ و"إيل" وهو اللهُ أو الرحمنُ أو العزيزُ، فمعناه عبدُ اللهِ أو عبدُ الرحمنِ أو عبدُ العزيزِ، وذَهَبَ ابنُ العربيِّ إلى أنَّ هذا وما شابَهَهُ إضافتُه مقلوبةٌ كما هِيَ في كلامِ العجَمِ، يقولونَ في غلامِ زيدٍ: زيدٌ غلامٌ، فيكونُ "أيل" عبارةً عنِ العبدِ، وأوَّله عبارةٌ عنِ اسمٍ مِنْ أسمائِهِ، والأكثرونَ علَى الأوَّلِ.

وجبريلُ له سِتُّمائةِ جناحٍ، ومِنْ وَراءِ ذلك جناحانِ أخضرانِ لا يَنشُرُهما إلَّا في ليلةِ القَدْرِ، وله جناحانِ آخرانِ لا يَنشُرُهما إلَّا عندَ هلاكِ القُرى، وقدْ وَرَدَ أنَّه اقتلعَ مدائنَ قومِ لوطٍ ورفَعها حتى سَمِعَ أهلُ السماءِ صياحَ الدِّيكةِ ونباحَ الكلابِ ثم جَعَلَ عالِيَها سافِلَها[3]، وفيهِ لُغاتٌ:

---

(١) علي بن عبيد الله بن أحمد بن الإمام زين الدين أبي المفاخر، الشهير بزين العرب، أحد شارحي المصابيح، صنف شرح الانموذج للزمخشري في النحو، وشرح كليات القانون لابن سينا، وشرح مصابيح السنة للبغوي فرغ منها سنة ٧٥١. ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة، ولم يذكر سنة وفاته. انظر: الدرر الكامنة (٤/٩٥)، وهدية العارفين (١/٧٢٠).

(٢) لفظ الحديث: (فإنه جبريل).

(٣) قوله: "له ستمائة جناح" متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٦) [كتاب تفسير القرآن- باب ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾] ومسلمٌ (١٧٤) [كتاب الإيمان- باب في ذكر سدرة المنتهى]، وغيرهما من حديث ابن مسعود،=

كسْرُ الجيمِ والراءِ فمثناةٌ تحتيَّةٌ ساكنةٌ، والثانيةُ كذلكَ لكنِ الجيمُ مفتوحةٌ، والثالثةُ فتحُ الجيمِ والراءِ وبهمزةٍ بعدَها مثناةٍ تحتيَّةٍ وبِلا مثناةٍ بعدَ الهمزةِ، وفيه لغاتٌ أُخَرُ أوصلَها بعضُهم ثلاثَ عشْرَةَ لغةً.

(أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ) بسببِ سؤالِه؛ لأنَّ الموصولَ بعدَ الطلبِ أعزُّ مِنَ المُساقِ بِلا تعبٍ، ونِسبةُ التعليمِ إليهِ مجازٌ وإلا فالمُعلِّمُ حقيقةً هو النبيُّ ﷺ، وقولُه "يعلِّمُكم" جملةٌ حاليَّةٌ لكنَّها حالٌ مُقدَّرةٌ؛ لأنَّه لم يكنْ وقتَ الإتيانِ معلمًا.

(دِينَكُمْ) أي قواعدَه وكليَّاتِه، واستفيدَ منه أنَّ الدينَ مجموعُ الإسلام والإيمانِ والإحسانِ، ولا يُنافيه أنَّ الدِّينَ وحدَه يُسمَّى إسلامًا كما يُصرَّحُ به: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ لأنَّه كما يُطلَقُ على الثلاثةِ يُطلَقُ على الأوَّلِ مِنْها وحدَه، وإطلاقُه عَلى هذينِ المعنيينِ إمَّا بالاشتراكِ أو بالحقيقةِ والمجازِ أو بالتواطؤِ، ففي الحديثِ أُطلقَ الدِّينُ على مجموعِ الثلاثةِ، وهو أحدُ مدلوليْه، وفي الآيةِ أطلقَهُ على هذا الفردِ وهو الآخرُ، وأمَّا الجوابُ بأنَّ "دينًا" لا عمومَ له؛ لأنَّه نكرةٌ ونصبَهُ على التمييزِ، والتقديرُ: رضيتُ لكم الإسلامَ مِنَ الدِّينِ، وهو خصلةٌ من الخِصالِ الثلاثةِ، فمُنعَ بقولِه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] فإنَّهُ صريحٌ في أنَّ الإسلامَ جميعُ الدِّينِ لا بعضُه.

(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) في كتابِ الإيمانِ.

***

=وقوله: "جناحان أخضران لا ينشرهما إلا في ليلة القدر" ورد نحوه في حديث منكر أخرجه العقيلي في الضعفاء (١٣٨/٣)، وغيره من حديث أنس مرفوعًا.

ورفعه لمدينة أهل لوط بجناحه.. أخرج خبره ابن جرير في التفسير (٥١٥/١٢) [سورة هود- الآية ٨١]، وغيره عن سعيد بن جبير.

الحديثُ الثالثُ

٣. عن أبي عبدِ الرحمنِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: بُنيَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وحجِّ البيتِ، وصوْمِ رمضان. رواه البخاريُّ ومُسْلِم.

التعريف بابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ومناقبه

(**عنْ أبي عبدِ الرحمنِ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ**) القرشيِّ العدويِّ المكيِّ، وأُمُّهُ زينبُ بنتُ مظعونِ بنِ حبيبِ بنِ وهبِ بنِ حذافةَ الجمحيِّ، أختُ عثمانَ بنِ مظعونٍ، أسلمَ بمكةَ قديمًا معَ أبيهِ وهو صغيرٌ وهاجَرَ معهُ، ولَا يصِحُّ قولُ مَنْ قالَ: إنَّهُ أسلمَ قبلَ أبيه وهاجرَ قبلَهُ، ولمْ يَشهَدْ بدرًا، وعُرِضَ عَلى النبيِّ ﷺ يومَ أُحُدٍ وهو ابنُ أربعَ عشرةَ فردَّهُ، ثُمَّ عُرِضَ عليهِ يومَ الخَنْدَقِ وهو ابنُ خمسَ عشرةَ فأجازَه[1]، ثم لم يَتخلَّفْ بعدُ عنِ النبيِّ ﷺ.

وهو أحدُ العبادلةِ الأربعةِ، وثانيهم ابنُ عباسٍ، وثالثُهم عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ، ورابعُهم عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ، ووقَعَ في مُبهَماتِ النوويِّ وغيرِها أنَّ الجوهريَّ أثبتَ أنَّ ابنَ مسعودٍ منْهم وحَذَفَ ابنَ عُمَرَ، وليسَ كذلكَ؛ لأنَّهُ ماتَ قبلَ اشتهارِ الأربعةِ بالعبادلةِ.

وأحدُ الستةِ الذين هم أكثرُ الصحابةِ روايةً، وثانيهم أبو هريرةَ، وثالثُهم ابنُ عباسٍ، ورابعُهم عائشةُ، وخامِسُهم جابرُ بنُ عبدِ اللهِ، وسادسُهم أنسُ بنُ مالكٍ، وزادَ العِراقيُّ في شرحِهِ لألفيَّتِه سابعًا هو أبو سعيدٍ الخدريُّ.

وذَكَرَ بعضُهم أنَّهم سبعةٌ، فزادَ الصدِّيقَ موضعَ أبي سعيدٍ، وذَكَرَ موضِعَ جابرٍ سعْدًا، ونَظَمَهم بقولِه:

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٦٦٤) [كتاب الشهادات- باب بلوغ الصبيان وشهادتهم]، ومسلمٌ (١٨٦٨) [كتاب الإمارة- باب بيان سنِّ البلوغ]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

سَبْعٌ مِنَ الصَّحْبِ فَوْقَ الأَلْفِ قَدْ نَقَلُوا * مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمُخْتَارِ خَيْرَ مُضَرِ
أَبُو هُرَيْرَةَ سَعْدٌ عَائِشٌ أَنَسٌ * صِدِّيقُهُ وَابْنُ عَبَّاسٍ كَذَا ابْنُ عُمَرِ

فيؤخَذُ مِنْ مجموعِ ذلكَ أنَّهم تسعةٌ. قلتُ: وفي ذكرِ الصدِّيقِ نظرٌ؛ لأنَّ جملةَ ما رُوي له مائةُ حديثٍ واثنانِ وأربعونَ حديثًا كما قاله المُصنِّفُ في تهذيبِه، والسببُ في قلَّةِ الروايةِ عنْهُ مع تقدُّمِه وسبْقِه وملازمتِه للنَّبيِّ ﷺ أنَّهُ تقدَّمتْ وفاتُه قبلَ انتشارِ الحديثِ واعتناءِ الناسِ بسماعِهِ وتحصيلِه وحفظِه. اهـ.

قالَ جابرٌ: ما مِنَّا إلا مَنْ نالَ مِنَ الدُّنْيَا ونالتْ منهُ إلَّا عُمَرَ وابنَهُ، وقالَ طاوسٌ: ما رأيتُ رجلًا أورعَ مِن ابنِ عُمرَ ولا أحدًا أعلمَ مِن ابنِ عباسٍ، وقالَ سعيدُ بنُ المسيبِ: لو كنتُ شاهدًا لأَحَدٍ مِنْ أهلِ العلمِ أنَّه مِنْ أهلِ الجنة لَشهدْتُ لعبدِ اللهِ بنِ عُمرَ، وجلسَ في الحِجْرِ هو ومصعبٌ وعروةُ وعبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ فقالَ: تمَنَّوْا، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ: أمَّا أنا فأتمنى الخلافةَ، وقالَ عروةُ: أمَّا أنا فأتمنى أنْ يؤخَذَ عنِّي العلمُ، وقالَ مصعبٌ: وأمَّا أنا فأتمنى إمارةَ العراقِ والجمعَ بينَ عائشةَ بنتِ طلحةَ وسكينةَ بنتِ الحسينِ، وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ: وأمَّا أنا فأتمنى المغفرةَ، فنالوا ما تمَنَّوْا، ولعلَّ ابنَ عُمَرَ قدْ غُفِرَ له.

ورُوِيَ عنه أنَّه قالَ: كانَ الرجلُ في حياةِ رسولِ اللهِ ﷺ إذا رأى رؤيا قَصَّها على رسولِ اللهِ ﷺ، فتمنَّيْتُ أنْ أرى رؤيا فأقصَّها عَلى النبيِّ ﷺ وكنتُ أنامُ في المسجدِ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ لأنِّي كنتُ غلامًا شابًّا عزبًا، فرأيتُ في النومِ كأنَّ ملكيْنِ أخذاني فذهَبا بي إلى النَّارِ فإذا هي مطويةٌ كطيِّ البئرِ، وأرى فيها ناسًا قدْ عرفتُهم فجعلتُ أقولُ: أعوذُ باللهِ مِنَ النَّارِ، أعوذُ باللهِ مِنَ النَّارِ، فلقِيَهما ملكٌ آخرُ فقالَ لي: لَنْ تُراعَ، فقصصْتُها على حفصةَ فقصَّتْها حفصةُ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: (نِعْمَ الرجلُ عبدُ اللهِ لو كانَ يُصلِّي مِنَ اللَّيْلِ)[1]، فكانَ عبدُ اللهِ بعدَ ذلك لا يَنامُ مِنَ اللَّيْلِ إلَّا قليلًا.

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١١٢١) و (١١٢٢) [كتاب التهجد- باب فضل قيام الليل] ومسلمٌ (٢٤٧٩) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عبد الله بن عمر]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وفي روايةٍ أخرى أنَّه قالَ رأيتُ في المنامِ كأنَّ بيدي قطعةَ إستبرقٍ ولا أشيرُ بها إلى مكانٍ مِنَ الجنةِ إلَّا طارتْ بي إليهِ، فقصَّتْها حفصةُ على رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: (إنَّ أخاكَ رجلٌ صالحٌ) أو (إنَّ عبدَ اللهِ رجلٌ صالحٌ)[1].

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ أبي عثمانَ قالَ: كانَ عندَ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ جاريةٌ يُقالُ لها رُميثةُ، فقالَ إني سمعتُ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإني واللهِ كنتُ لأُحبُّكِ في الدُّنيا، اذهبي فأنت حُرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالى، ولولا أنِّي لا أعودُ في شيءٍ جعلتُهُ للهِ لَنكحْتُها، فأنكحَها نافعًا، وهيَ أُمُّ ولدِهِ.

وقالَ نافعٌ: كانَ ابنُ عُمَرَ إذا اشتدَّ عَجَبُهُ لشيءٍ مِنْ مالِهِ قرَّبَه للهِ -عزَّ وجلَّ- وربَّما تصدَّقَ في المجلسِ الواحدِ بثلاثينَ ألفًا.

وحجَّ ستينَ حَجَّةً، واعتمرَ أَلْفَ عُمرةٍ، وحَمَلَ عَلى ألفِ فرسٍ في سبيلِ اللهِ، وأعتقَ ألفَ رقبةٍ، وكانَ رقيقُه قدْ عَرفوا ذلك منهُ، فربَّما شَمَّرَ أحدُهم فلَزِمَ المسجدَ فإذَا رآه ابنُ عُمَرَ عَلى تلكَ الحالةِ الحسنةِ أعتقَهُ، فيقولُ له أصحابُه: يا أبا عبدِ الرحمنِ، واللهِ ما بِهم إلَّا أنْ يَخدعوكَ، فقالَ ابنُ عُمَرَ: مَنْ خدَعَنا باللهِ انخدعْنا لهُ.

وراحَ على نجيبٍ له قد أخذَه بمالٍ، فلمَّا أعجبَهُ سيْرُهُ أناخَهُ مكانَهُ ثم أنزلَ عنهُ فقالَ: يا نافعُ، انزعوا زمامَهُ ورحْلَه وجلِّلوه وأشعِروه وأدخلُوه في البُدْنِ.

وعن أبي هلالٍ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ نزلَ الجحفةَ وهو شاكٍ فقالَ: إني لأشتهي حيتانًا، فالتمَسُوا له فلمْ يَجدوا إلا حوتًا واحدًا، فأخذتْه امرأتُه صفيةُ بنتُ أبي عبيدٍ وصنعتْه ثم قربتْهُ إليهِ، فأتى مسكينٌ حتى وقَفَ عليهِ فقالَ له ابنُ عُمَرَ: خُذْهُ، فقالَ أهلُه: سُبحانَ اللهِ قدْ عَنَّيتَنا ومعَنا زادٌ نعطيهِ، فقالَ: إنَّ شهوتي ما أريدُه.

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١١٢١) و(١١٢٢) [كتاب التعبير- باب باب الإستبرق ودخول الجنة في المنام]، ومسلمٌ (٢٤٧٨) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عبد الله بن عمر]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعنْ نافعٍ أنَّه اشتكى فاشترى له عنقودَ عنبٍ بِدرهمٍ، فجاءَ المسكينُ فقالَ: أَعْطُوه إيَّاهُ، فخالفَ إليهِ إنسانٌ فاشتراهُ منهُ بدرهمٍ ثم جاءَ بهِ إليهِ، فجاءهُ المسكينُ يَسألُ فقالَ: أَعْطُوه إيَّاه ثم خالفَ إليهِ إنسانٌ فاشتراهُ منه بدرهمٍ فأرادَ أنْ يَرجِعَ فمُنِعَ، ولوْ عَلِمَ ابنُ عُمَرَ بِذلك العنقودِ ما ذاقَهُ.

وأَعطاهُ ابنُ جعفرٍ في رقيقِهِ نافعٍ عشرةَ آلافِ دينارٍ، فقالَ له عاصمُ بنُ محمدٍ: يا أبا عبدِ الرحمنِ، فما تَنظرُ أنْ تبيعَ؟! فقالَ: فهلا ما هو خيرٌ مِنْ ذلك، هو حُرٌّ لوجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وعنْ ميمونِ بنِ مهرانَ قالَ: أتى ابنَ عمرَ اثنانِ وعشرونَ ألفَ دينارٍ في مجلسٍ فلمْ يَقُمْ حتى فرَّقَها، وبعَثَ إليهِ معاويةُ بمائةِ ألفٍ فما حالَ الحولُ وعندَه شيءٌ مِنْها، وكانَ لا يَسألُ أحدًا شيئًا، وكانَ يقولُ: لا أسألُ أحدًا شيئًا، ولا أردُّ ما رزقَني اللهُ.

وعنْهُ أيضًا أنَّ امرأةَ ابنِ عُمَرَ عوتبَتْ فيه، فقيلَ لَها: أمَا تُطلِّقِينَ هذا الشيخَ، قالتْ: فكيفَ أصنعُ بهِ؟! ما أصنعُ طعامًا إلا دَعا إليهِ مَنْ يأكلُه، فأرسلتْ إلى قومٍ من المساكينِ كانوا يَجلسونَ بطريقِه إذا خرجَ مِنَ المسجدِ فأطعمتْهم وقالتْ لهم: لا تَجلِسوا بطريقِه، ثم جاءَ إلى بيْتِه وقالَ: أرْسِلوا إلى فلانٍ وفلانٍ، وكانتِ امرأتُه قدْ أرسلتْ إلَيْهم بطعامٍ وقالتْ: إذا دعاكم فلا تَأْتُوه، فقالَ ابنُ عمرَ: أردتُم ألا أتعَشَّى الليلةَ، فلمْ يَتعشَّ تلكَ الليلةَ.

وعنْ أبي بكرِ بنِ حفصٍ أنَّه كانَ لا يأكلُ طعامًا إلَّا وعلى خوانِهِ يتيمٌ. وعنْ يَحيى الغسانيِّ أنَّه جاءَهُ سائلٌ فقالَ لابنِه: أعطِهِ دينارًا، فلمَّا انصرفَ قالَ له ابنُه: تَقبَّلَ اللهُ منكَ يا أبتاه، فقالَ: لوْ علمْتُ أنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- تَقبَّلَ منِّي سجدةً واحدةً أو صدقةً واحدةً بدرهمٍ واحدٍ لَمْ يكنْ غائبٌ أحبَّ إليَّ مِنَ الموتِ، أتدري مِمَّنْ يتقبلُ اللهُ، إنَّما يتقبلُ اللهُ مِنَ المتقينَ.

وشَربَ ماءً مبردًا فبَكى واشتدَّ بكاؤهُ فقيلَ له: ما يُبكيكَ؟ فقالَ: ذكرتُ آيةً في كتابِ اللهِ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] فعرفتُ أنَّ أهلَ النارِ لا يَشتهون شيئًا، شهوتُهم الماءُ الباردُ، وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وكانَ إذا قرأَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] بكى حتى يَغلبَهُ البكاءُ، وكانَ يقولُ: لا يُصيبُ عبدٌ شيئًا مِنَ الدنيا إلا انتقصَ من درجاتِه عندَ اللهِ -عزَّ وجلَّ- وإنْ كانَ على اللهِ كريمًا.

توفِّيَ بمكةَ عنْ أربعٍ وثمانينَ، وقيلَ: ستٌّ وثمانينَ سنةً، وذلك سنةَ أربعٍ وسبعينَ، وقيل سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ، شهيدًا، فإنَّ الحجاجَ خطَبَ يومًا فأخَّرَ الصلاةَ فقالَ له ابنُ عمرَ: إنَّ الشمسَ لا تنتظرُكَ، فقالَ له الحجَّاجُ: لقدْ هممْتُ أنْ أضربَ الذي فيهِ عيناكَ، فقالَ له عبدُ اللهِ: إنكَ سفيهٌ مسلطٌ، فتغيَّرَ مِنْ ذلك وأَمَرَ رجلًا فسَمَّ زُجَّ رمحِه أي الحديدةَ التي في أسفلِه فزَحَمَهُ في الطوافِ ووضَعَ الزُّجَّ عَلى قدمِه فمَرِضَ أيامًا، ولمَّا دخَلَ الحجَّاجُ لِيعودَه قالَ: لوْ أعْلَمُ الذي أصابَكَ لَضربْتُ عنقَه، فقالَ عبدُ اللهِ: أنتَ الذي أصبْتَني.

وأوصى أنْ يُدفَنَ في الحلِّ، فلَمْ تُنفَّذْ وصيَّته، وصلَّى عليهِ الحجَّاجُ، ودُفِنَ بِذي طوى في مقبرةِ المهاجرينَ، وقيلَ بفخٍّ -بفتحِ الفاءِ والخاءِ المعجمةِ- موضعٌ بقربِ مكةَ، وقيلَ بالمحصبِ، وقيل بسرفٍ، وكُلُّها مواضعُ بقربِ مكةَ، بعضُها أقربُ إلى مكةَ منْ بعضٍ.

رُوِيَ له عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ألفُ حديثٍ وستُّمائةٍ وثلاثونَ حديثًا، اتفقَ الشيخانِ منْها على مائةٍ وسبعينَ، وانفردَ البخاريُّ منْها بثمانينَ، ومسلمٌ بأحدٍ وثلاثينَ.

***

(**رضِيَ اللهُ عنهُما**) أشارَ به إلى أنه يَنبغي لِكُلِّ مَنْ ذَكَرَ صحابيًّا ولهُ أبٌ صحابيٌّ أنْ يَترضَّى عنْهما (**قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ**) أي كلامَهُ، وفي نُسْخةٍ النبيَّ ﷺ (**يَقُولُ**) فالمسموعُ الصوتُ لا الشخصُ كما مرَّ.

(**بُنِيَ**) بالبناءِ للمفعولِ أيْ أُسِّسَ (**الْإِسْلَامُ**) إذْ أصلُ البناءِ يكونُ في المحسوساتِ لا في المعاني، ففيهِ تشبيهُ معنويٍّ بحسيٍّ، فإنَّ المصطفى ﷺ لِبلاغتِه أرادَ أنْ يُفيدَ أصحابَه ما لا عهدَ لهم، فصاغَ لهم أمثلةً مِنْ أساليبِ كلامِهم ليفْهموا بما يَعرفونَ ما لا يَعرفون، ووجهُ الشبهِ أنَّ البناءَ الحسيَّ إذا انهدمَ بعضُ أركانِه لا يتمُّ فكذلكَ البناءُ المعنويُّ.

ولِذا قالَ ﷺ: (الصلاةُ عِمادُ الدِّينِ فمَنْ أقامَها أقامَ الدِّينَ ومَنْ تَرَكَها فقدْ هدَمَ الدِّينَ)[(١)]، وكذلكَ بقيةُ المباني.

وفي قولِه "بُنِيَ" استعارةٌ بالكنايةِ، وهيَ عندَ صاحبِ التلخيصِ[(٢)] أنْ يُضمرَ التشبيهَ في النَّفْسِ ولا يُصرَّحَ بشيءٍ مِنْ أركانِه سوى المشبَّهِ، والدَّلالةُ عَلى ذلك التشبيهِ بذكرِ شيءٍ مِنْ خواصِّ المشَبَّهِ بهِ يُسمى تخييلًا؛ لأنَّهُ يُخيِّلُ أنَّ المشبَّهَ مِنْ جنسِ المشبَّهِ به، فشبَّهَ الإسلامَ ببناءٍ عظيمٍ مُحكمٍ له دعائمُ، وأركانَه الآتيةَ بقواعدَ ثابتةٍ محكمةٍ حاملةٍ لِذلكَ البناءِ، فذَكَرَ المشبَّهَ وطوى ذِكْرَ المشبَّهِ به، وأسندَ إليهِ ما هو مِنْ خواصِّ المشبَّهِ به، وهو البناءُ، وهو تخييلٌ.

ويَجوزُ أنْ تكونَ استعارةً تبعيةً بأنْ تقدرَ الاستعارةُ في "بُنِيَ" والقرينةُ الإسلامُ، شبَّهَ ثباتَ الإسلامِ واستقامتَه على هذه الأركانِ ببناءِ الخباءِ على الأعمدةِ الحسيَّةِ، ثم اشتقَّ منه لفظَ "بُنِيَ" فوقعتْ أوَّلًا في المصدرِ ثُمَّ سرتْ في الفعلِ، والأوَّلُ أظهَرُ.

(عَلَى) مُتعلِّقٌ بقولِه "بُنِيَ" **(خَمْسٍ)** أيْ دعائمَ كما صرَّحَ به عبدُ الرزَّاقِ في روايتِه[(٣)]، وفي روايةِ مُسلم خَمْسة[(٤)] أي خمسةِ أشياءَ أو أركانٍ وأصولٍ، قالَ الكرمانيُّ: وهنا دقيقةٌ جليلةٌ وهيَ أنَّ أسماءَ العددِ إنَّما يكونُ تذكيرُها بالتاءِ وتأنيثُها بسقوطِها إذا كانَ المميَّزُ مذكورًا، وإلَّا جازَ الأمرانِ كما صرَّحَ به النحاةُ، وذكرَه النوويُّ في شرحِ مسلمٍ في حديثِ (مَنْ صامَ رمضانَ وأتبعَهُ ستًّا مِنْ شوالٍ فكأنَّما صامَ الدهرَ كلَّه)[(٥)].

---

(١) أخرجه البيهقي في"الشعب" (٢٥٥٠) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسنادٍ ضعيف، ونقل البيهقيُّ عن الحاكم: "عكرمة لم يسمع من عمر وأظنه أراد، عن ابن عمر"، وقال السخاوي في "المقاصد الحسنة" (٦٣٢) [حرف الصاد]: "ولم يقف عليه ابن الصلاح، فقال في مشكل الوسيط: إنه غير معروف، وقال النووي في التنقيح: منكر باطل، وهو عند الطبراني أيضًا، وكذا للديلمي عن عليٍّ رفعه: الصلاة عماد".

(٢) التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن.

(٣) مصنف عبدالرزاق (٥٠١٢) [كتاب الصلاة- باب من ترك الصلاة].

(٤) صحيح مسلم (١٦) [كتاب الإيمان- باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس].

(٥) أخرجه مسلم (١١٦٤) [كتاب الصيام- باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعا لرمضان]، وغيره من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

فإنْ قيلَ: قولُه "بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ" يلزمُ عليهِ بناءُ الشيءِ على نفسِه؛ لأنَّ الإسلامَ هو هذهِ الأمورُ الخمسةُ، والمبنيُّ لا بُدَّ أنْ يكونَ غيرَ المبنيِّ عليهِ؟! فالجوابُ أنَّ المرادَ بالإسلامِ التذللُ العامُّ الذي هو اللُّغويُّ لا الشرعيُّ الذي هو فعلُ الواجباتِ. الثاني: أنَّ "عَلَى" بمعنى الباءِ أو بمعنى "مِنْ" كما في قولِه تَعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٦] وقولِه: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢]، ولا حاجةَ إلى جوابِ بعضِهم بأنَّ الإسلامَ عبارةٌ عنِ المجموعِ، والمجموعُ غيرُ كلِّ واحدٍ مِنْ أركانِه، ومثالُه البيتُ مِنَ الشَّعْرِ يُجعَلُ على خمسةِ أعمدةٍ، أحدُها أوسطُ والبقيةُ أركانٌ، فما دامَ الوسطُ قائمًا فمُسمَّى البيتِ موجودٌ، ولو سَقَطَ مهْما سَقَطَ مِنَ الأركانِ، فإذا سقَطَ الأوسطُ سَقَطَ مُسمَّى البيتِ، فالبيتُ بالنظرِ إلى مجموعِهِ شيءٌ واحدٌ، وبالنظرِ إلى أفرادِه أشياء. اهـ.

فإنْ قيلَ: الأربعةُ الأخيرةُ مبنيةٌ على الشهادةِ؛ إذْ لا يَصِحُّ شيءٌ مِنْها إلَّا بعدَ وجودِها، فكيفَ يُضَمُّ مبنيٌّ إلى مبنيٍّ عليهِ، ويَدخُلانِ في سلكٍ واحدٍ، فالجوابُ أنَّه يجوزُ أنْ يُبنى أمرٌ على أمرٍ ويُبنى عَلى الأمرينِ أمرٌ آخرُ، الثاني: أنَّ الأربعةَ ليستْ مبنيَّةً عَلى الشهادةِ بلْ صحَّتُها موقوفةٌ علَيْها، وذلكَ غيرُ معنى بناءِ الإسلامِ عَلى الخمسِ.

ذكر أركان الإسلام الخمس

وقولُه "عَلى خمسٍ" وجْهُ الحصرِ في الخمسةِ أنَّ العبادةَ إما قوليَّةٌ أو غيرُها، الأُولى الشهادتانِ، والثانيةُ إما تَرْكيَّةٌ أو فعليَّةٌ، الأُولى الصَّوْمُ، والثانيةُ إما بَدنيَّةٌ أو ماليَّةٌ أو مركَّبةٌ مِنهما، الأُولى الصلاةُ، والثانيةُ الزكاةُ، والثالثةُ الحجُّ.

(**شَهَادَةِ**) بجرِّه معَ ما بعدَه بدلًا مِنْ "خمسٍ"، بدلُ كلٍّ مِنْ كُلٍّ، وهو الأحسنُ، ويجوزُ رفعُه بتقديرِ مبتدأٍ أي هِيَ أو أحدُها، أو خبرِ أيٍّ مِنْها، وهو أَوْلى لإيثارِهم حذْفَهُ على حذفِ المبتدأ؛ لأنَّ الخبرَ كالفضلةِ بالنسبةِ إليهِ، ويَجوزُ نصبُه بإضمارِ "أعْني" (**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**[1]) إضافةُ تشريفٍ، قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ: ولَمْ يذكرِ الإيمانَ بالملائكةِ وغيرِهم ممَّا في خبرِ جبريلَ؛ لأنَّه أرادَ بالشهادةِ تصديقَ الرسولِ في كلِّ ما جاءَ به، فيستلزمُ ذلكَ.

(١) لفظ الحديث: (وأن محمدًا رسول الله).

(وَإِقَامَ) أصلُه "إِقْوَام" فنُقِلَتْ فتحةُ الواوِ إلى الساكنِ قبْلَها فحُذِفتِ الواوُ لالتقاءِ الساكنين وعُوِّضَ عنْها التاءُ فيُقالُ "إقامَةُ" أو المضافُ إليهِ كما صرَّحَ به هنا بقولِهِ (الصَّلَاةِ) وإقامةُ الصلاةِ كنايةٌ عنِ الإتيانِ بِها بأركانِها وشروطِها.

(وَإِيتَاءِ) أي إعطاءِ (الزَّكَاةِ) إلى أهلِها أو الإمامِ ليدفعَها لهم فحُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ للعلمِ بهِ. وفي الحديثِ أنَّه ﷺ قالَ: مَنْ فرَّقَ بينَ ثلاثٍ فرَّقَ اللهُ بيْنَهُ وبينَ رحمتِهِ يومَ القيامةِ، مَنْ قالَ: أُطيعُ اللهَ ولا أطيعُ الرسولَ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، ومَنْ قالَ: أُقيمُ الصلاةَ ولا آتي الزكاةَ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ومَنْ فرَّقَ بيْنَ شُكْرِ اللهِ وشُكْرِ والدَيْهِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].[(١)]

ورَوى البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ مَنْ آتاهُ اللهُ مالًا فلَمْ يؤدِّ زكاتَه مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شجاعًا أقرعَ له زبيبتانِ يطوِّقُه يومَ القيامةِ ثم يأخذُ بلِهْزِمتَيْهِ -أي بكسرِ اللَّامِ والزاي بيْنهما هاءٌ ساكنةٌ- يَعني شِدْقَيْهِ -أي بكسرِ الشينِ المعجمةِ- وهيَ جانبَا الفمِ، ثم يقولُ: أنا مالُكَ أنا كنْزُكَ ثم تَلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠].[(٢)]

والشجاعُ مِنَ الحيَّاتِ هو الحيَّةُ الذَّكَرُ الذي يواثبُ الفارسَ والراجلَ، ويقومُ على ذَنَبِهِ، وربَّما بلعَ الفارسَ، وربَّما يكونُ في الصَّحاري، وقيلَ: كُلُّ حيَّةٍ شجاعٌ، والأقرعُ مِنَ الحيَّاتِ الذي تمعَّطَ رأسُه وابيضَّ مِنَ السُّمِّ، والزَّبيبتانِ -بزاي معجمةٍ مفتوحةٍ فموحَّدَتيْنِ بيْنهما تحتيَّةٌ ساكنةٌ- نقطتانِ منفتحتانِ في جانبِ شِدْقَيْهِ مِنَ السُّمِّ كالرغوتيْنِ، ويكونُ ذلك في شِدْقَي الإنسانِ إذا غَضِبَ وأَكْثَرَ مِنَ الكلامِ، وقالَ ابنُ دريدٍ[(٣)]: نقطتانِ سوداوان فوقَ عينَيْهِ، ويُقالُ بجانبِ فمِه، وهو

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٣) [كتاب الزكاة- باب إثم مانع الزكاة]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) ذكره القرطبي في التفسير (٨/٨١) [سورة التوبة- الآية: ١٢]، ولم يعزه.

(٣) شيخ الأدب أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد اللغوي البصري، إمام عصره في اللغة والآداب والشعر الفائق، من تصانيفه المشهورة كتاب الجمهرة، والاشتقاق، والسراج واللجام، والخيل والملاحن، والمجتبى، وغيرها، توفي=

أوحشُ ما يكونُ مِنَ الحيَّاتِ وأخبثُه، وفي تلاوةِ الرسولِ الآيةَ عقبَ ذلكَ دلالةٌ على أنَّها نزلتْ في مانعِ الزكاةِ.

وفي الحديثِ (ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ لا يُؤتي حقَّها إلا إذا كانَ يومَ القيامةِ صُفِّحتْ له صفائحُ مِنْ نارٍ فيُكوى بها وجهُهُ وجنباهُ وظهرُه، كلما بردتْ أُعيدَتْ له في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتَّى يَقضيَ اللهُ بينَ العبادِ فيرى سبيلَه إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ)[1]، وخُصَّتْ هذه الثلاثةُ بالكيِّ لِبَشاعتِهِ وشهرتِهِ في الوجهِ والجنبِ والظهرِ، ولأنَّه أوجعُ وأشدُّ ألمًا، وقيلَ: الوجهُ لِتعبيسِه في وجهِ السائلِ أوَّلًا، والجنبُ لِازورارِه عنِ السائلِ ثانيًا، والظهرُ لانصرافِهِ إذا ألَحَّ ثالثًا، وقيلَ غيرُ ذلك.

(**وَحَجِّ**) بفتح الحاءِ لغةُ الحجازِ وكسرها لغةُ نجدٍ، وكلاهما مصدرانِ، وقيلَ: المكسورُ اسمٌ، والمفتوحُ مصدرٌ، (**الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**) الإضافةُ فيهما من إضافةِ الحُكْمِ إلى سببِه؛ لأنَّ سببَ الحجِّ البيتُ، ولهذا لا يتكرَّرُ لِعدمِ تَكرُّرِ البيتِ، والشهرُ يتكرَّرُ فيتكرَّرُ الصومُ، ووَقَعَ في هذه الروايةِ تقديمُ الحجِّ على الصومِ، وفي روايةٍ لمسلمٍ عنِ ابنِ عُمَرَ تقديمُ الصومِ علَيْه[2].

وقدَّمَ الشهادتَيْنِ لأنَّهما ملاكُ الأمرِ كُلِّه وأصلُه؛ إذِ الباقي مبنيٌّ علَيْهما ومشروطٌ بهما، وبهما النجاةُ في الدارَيْنِ، ثم الصلاةُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَها في كتابِه العزيزِ تاليةً للإيمانِ بقولِه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، ولأنَّها عمادُ الدينِ، ويُقْتَلُ تاركُها، ولشدَّةِ الحاجةِ إلَيْها لِتكرُّرِها في كُلِّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مراتٍ، ثم الزكاةُ؛ لأنَّها قرينةُ الصلاةِ في أكثرِ المواضعِ، ولأنَّها فطرةُ الإسلامِ، ولاعتناءِ الشارعِ بها لِذكرِها أكثرَ مِنْ غيرِها مِنَ الصومِ والحجِّ في الكتابِ والسنةِ، ولِشمولِها المكلَّفَ وغيرَه، كما هو مذهبُ أكثرِ العلماءِ، ثم الحجُّ للتغليظاتِ الواردةِ فيه، من نحوِ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] ونحو قوله ﷺ:

=سنة ٣٢١. وفيات الأعيان (٣٢٣/٤)، وبغية الوعاة (٧٦/١).

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٩٨٧) [كتاب الزكاة- باب إثم مانع الزكاة]، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجها مسلمٌ (١٩-١٦) [كتاب الإيمان- باب قول النبيِّ ﷺ بُني الإسلام على خمس].

(مَنْ لَمْ تحبسْه حاجةٌ ولَمْ يحجَّ، وله جمعٌ فليمتْ إنْ شاءَ يهوديًّا وإنْ شاءَ نصرانيًّا)[1]، فبالضرورةِ يَقعُ الصومُ آخرًا، وقولُه: "منْ لم تحبسْه حاجةٌ" أيْ مِنْ مرضٍ أو ظالمٍ.

وعلى الروايةِ الثانيةِ قدَّمَ الصومَ على الحجِّ لِتقدُّمِ زمنِ وجوبِ الصومِ؛ لأنَّ وجوبه كانَ في السنة الثانيةِ، وفرضيةُ الحجِّ في سنةِ ستٍّ، وقيلَ تِسع بالمثناةِ الفوقيَّة، ولأنَّه أعمُّ وجوبًا، ولتكرُّرِه في كُلِّ عام، ولوجوبِه على الفورِ إجماعًا بخلافِ الحجِّ، ولأنَّ العبادةَ إمَّا بدنيَّةٌ محضةٌ أو ماليَّةٌ محضةٌ أو مركَّبةٌ منهما، والمُفردُ مقدَّمٌ على المُركَّبِ طبعًا، فقُدِّمَ علَيْه وضعًا لِيوافقَ الوضعُ الطبعَ.

وأفهمَ ظاهرُ الحديثِ أنَّ المكلَّفَ لا يكونُ مُسلِمًا عندَ تركِ شيءٍ مِنَ الأربعةِ الأخيرةِ، لكنْ صَرَفَه عنْ ظاهرِه انعقادُ الإجماعِ على أنَّ العبدَ لا يكفرُ بتركِ شيءٍ منها، وأمَّا قولُه -علَيْه الصلاةُ والسلامُ-: (مَنْ تَرَكَ الصلاةَ مُتعمِّدًا فقدْ كَفَرَ)[2] فهو محمولٌ على الزجرِ والوعيدِ أو مؤولٌ بما إذا كانَ مُستحِلًّا، أو محمولٌ على كفرانِ النعمةِ.

***

فائدةٌ: اعلمْ أنَّ الحجَّ يُكفِّرُ الصغائرَ اتفاقًا، وكذا الكبائرَ على الأظهرِ، كما قالَه الآبِّيُّ وابنُ حجرٍ، وأمَّا التبعاتُ فقالَ القرافيُّ: لا يُسقِطُها، وظاهرُ كلامِ ابنِ حجرٍ وغيرِه إسقاطُه إيَّاها لِلأحاديثِ الواردةِ في ذلك، وأجْمَعوا على عدمِ سقوطِ قضاءِ ما ترتَّبَ علَيْه مِنَ الصلواتِ والكفَّاراتِ وحقوقِ الآدميِّينَ مِنْ دَيْنٍ وغيرِه، اهـ. قالَه شيخُنا عليٌّ الأجهوريُّ في شرحِه على مختصرِ الشيخِ خليلٍ.

(١) أخرجه الدارميُّ (١٨٢٦) [من كتاب المناسك- باب من مات ولم يحج]، وأبو يعلى في معجمه (٢٣١) [باب العين]، وأبو نعيم (٢٥١/٦) [ترجمة محمد بن أسلم]، والبيهقي (٨٦٦٠) [كتاب الحج- باب إمكان الحج]، وغيرهم من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. قال البيهقي: «وهذا وإن كان إسناده غير قويٍّ فله شاهدٌ من قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (٣٣٤٨) [حرف الجيم- من اسمه جعفر]، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ كَفَرَ جِهارًا)، والحديث عند مسلم (٨٢) [كتاب الإيمان- باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة]، وغيره بلفظ: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة).

وقالَ الزياديُّ[1] في شرحِ المنهجِ: إنَّه يَغفرُ الصغائرَ والكبائرَ حتى التبعاتِ على المعتمدِ إذَا ماتَ في الحجِّ أو بعدَه، ولم يمكنْه أداؤُها.

ولمْ يُذكَرْ في الحديثِ الجهادُ معَ أنَّه المظهرُ للدينِ ومعَ كونِه ذروةَ سنامِ الأمرِ كما يأتي؛ لأنَّه فرضُ كفايةٍ يَسقُطُ بأعذارٍ كثيرةٍ ولا يتعيَّنُ إلَّا في بعضِ الأحيانِ، بخلافِ المذكوراتِ في الحديثِ فإنَّها فرائضُ أعيانٍ، بلْ قدْ ذهبَ جماعةٌ إلى أنَّ فرضَ الجهادِ قدْ سقطَ بفتحِ مكةَ، وذُكِرَ أنَّه مذهبُ ابنِ عمرَ والثوريِّ وابنِ سيرينَ ونحوِه لسحنون منْ أصحابِنا، إلَّا أنْ يَنزلَ العدوُّ بقومٍ أو يأمرَ الإمامُ بالجهادِ فيَلْزَمُ عندَ ذلك.

(**رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ**) في الإيمانِ والتفسيرِ رباعيًّا، (**وَمُسْلِمٌ**) في الإيمانِ والحجِّ خماسيًّا.

***

(١) الإمام الحُجَّة نور الدين علي بن يحيى الزِّيَادي المصري الشافعي، تصدَّر للتدريس بالأزهر وانتهت إليه في عصره رياسة العلم، ألَّف مؤلَّفاتٍ نافعةً منها: حاشية على شرح المنهج، وشرح على المحرر للرافعي، تُوفِّي سنة ١٠٢٤. خلاصة الأثر (١٩٥/٣)، الأعلام (٣٢/٥).

الحديثُ الرابعُ

٤. عن أبي عبدِ الرحمنِ عبدِ الله بنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ وهو الصادقُ المصدوقُ: إنَّ أحَدَكُم يُجمَعُ خَلقُهُ في بطنِ أُمِّه أربعينَ يوماً نُطْفةً، ثُم يكونُ عَلَقةً مثلَ ذلكَ، ثم يكونُ مُضْغَةً مثلَ ذلكَ، ثُم يُرسَلُ إليه المَلَكُ، فينفُخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤمَرُ بأربعِ كلماتٍ، بكَتْبِ: رِزقِه، وأجلِه، وعملِه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، فواللهِ الذي لا إلهَ غيرُه، إنَّ أحدَكُم ليَعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ حتَّى ما يكونُ بينَه وبينَها إلا ذراعٌ فيسبقُ عليه الكِتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدْخُلُها، وإنَّ أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ النارِ حتى ما يكونُ بينَه وبينَها إلا ذِراعٌ، فيسبقُ عليه الكِتابُ، فيعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ فيدْخُلُها. رواه البخاريُّ ومُسلمٌ.

التعريف بابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومناقبه

(**عنْ أبي عبدِ الرحمنِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ**) بنِ غافلٍ -بمعجمةٍ وفاءٍ- بنِ حبيبِ بنِ شَمْخ ابنِ فارسِ بنِ مخزوم بنِ صاهلةَ بنِ كاهلِ بنِ الحارثِ بنِ تميم بنِ سعدِ بنِ هذيلِ بنِ مدركةَ بنِ إلياسَ بنِ مضرٍ، وأمُّه أمُّ عبدٍ بنتُ عبدِ ودٍّ بنِ سوادِ بنِ هذيلٍ أيضًا، (**رضيَ الله عنه**).

أسلمَ لَمَّا مرَّ به النبيُّ ﷺ وهو يَرعى غنمًا لعقبةَ بنِ أبي معيطٍ فقالَ له: يا غلامُ، هلْ عندكَ مِنْ لبنٍ تَسقينا؟ قالَ: نعمْ، ولكنَّني مؤتمنٌ، قالَ: هلْ عندكَ جَذَعةٌ[1] لم يَنْزُ عَلَيْها الفحْلُ؟ قالَ: نعمْ، فأتاهُ بِها، فمَسَحَ ﷺ ضرعَها ودَعا فامْتَلأَ ضرعُها باللَّبنِ، ثم أتاهُ أبوبكرٍ بفخَّارةٍ منقعرةٍ فحلَبَ فيها، فشربَ منه وسَقى أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم قالَ للضرعِ: اقلُصْ، فقلصَ[2].

(١) الجذَعَةُ من الإبل: ما استكمل أربعة أعوام ودخل في السنة الخامسة، ومن الخيل والبقر: ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة، ومن الضأن: ما بلغ ثمانية أشهر أو تسعة. وقَلَصَ الشيءُ يَقْلِص قُلوصاً تَدانى وانضمّ.

(٢) أخرجه الطيالسي (٣٥١) [ما أسند عبدالله بن مسعود]، وأحمد (٤٤١٢) [مسند عبدالله بن مسعود]،=

ويُقالُ أنَّه كانَ سادسًا في الإسلام، وهاجرَ إلى الحبشةِ الهجرتَيْنِ، وشَهِدَ بدرًا والمشاهدَ كُلَّها، وكانَ صاحبَ سرِّ رسولِ اللهِ ﷺ ووسادِه ونعلَيْه وطَهُورِه في السفرِ[1].

وكان يُشبَّهُ بالنبيِّ ﷺ في هدْيِه وسمتِه، وكانَ خفيفَ اللَّحْمِ قصيرًا جدًّا نحو ذراعٍ، شديدَ الأُدمةِ، وكانَ مِنْ أجودِ الناسِ ثوبًا وأطيبِ الناسِ ريحًا، وكانَ دقيقَ الساقَيْنِ، أخذ يجتَني سواكًا مِنَ الأراكِ فجعلتِ الريحُ تكفؤه فضحِكَ القومُ منه، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ ممَّ تضحكونَ؟ فقالوا: يا رسولَ اللهِ منْ دقَّةِ ساقَيْه، فقالَ: (والذي نَفْسي بيدِه، لَهُمَا في الميزانِ أثقلُ من أُحُدٍ)[2]، وفي روايةٍ: أنَّه صعدَ شجرةً فانكشفَ ساقُه فضحِكَ بعضُ القومِ، فقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (لَساقُ عبدِ اللهِ في الميزانِ أثقلُ مِنْ أُحُدٍ)[3].

وكانَ ﷺ يُقرِّبُه ويُدنيه ولا يَحجبُه، فلذلكَ كانَ كثيرَ الولوجِ عليه ﷺ ويَمشي معه وأمامَه بالعَصا، ويَستره إذا اغتسلَ، ويوقِظُه إذا نامَ، ويُلبِسُه نعلَيْه إذا قامَ، فإذا جَلَسَ أدخلَهُما في ذراعَيْه[4]، قالَ أبو موسى الأشعريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقدْ رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وما أرى إلا أنَّ ابنَ مسعودٍ منْ أهلِ بيتِه[5].

=وأبو يعلى (٤٩٨٥) [مسند عبدالله بن مسعود]، وابن حِبَّان (٦٥٠٤) [كتاب التاريخ- باب المعجزات] والطبراني في "الكبير" (٧٨/٩) [باب العين]، وأبو نعيم (١٢٥/١) [ترجمة عبدالله بن مسعود]، وغيرهم.

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٧٤٢) [كتاب أصحاب رسول الله- باب مناقب عمار وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]، وغيره من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: (أوليس عندكم ابن أمِّ عبد صاحب النعلين والوساد، والمطهرة ...) الحديث. ثم ذكر صاحب السر وهو حذيفة ابن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٩١) [مسند عبدالله بن مسعود]، وابن حِبَّان (٧٠٦٩) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة]، وأبو يعلى (٥٣١٠) [مسند عبدالله بن مسعود]، وغيرهم من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجها البخاريُّ في "الأدب المفرد" (٢٣٧) [باب الخروج إلى الضَّيْعَة]، وأحمد (٩٢٠) [مسند علي بن أبي طالب]، وأبو يعلى (٥٣٩) [مسند علي بن أبي طالب]، وغيرهم من حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٥٣/٣) [ترجمة عبدالله بن مسعود]، والحارث كما في "بغية الباحث" (١٠١٤) [كتاب المناقب- باب فضل ابن مسعود]، وابن عساكر في "التاريخ" (٨٩/٣٣) [ترجمة عبدالله بن مسعود] عن القاسم بن عبدالرحمن.

(٥) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٣٨٤) [كتاب المغازي- باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن]، ومسلمٌ (٢٤٦٠) [كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه]، وغيرهما من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: (ما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل البيت، من كثرة دخولهم ولزومهم له).

وعنْ علقمةَ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى عُمَرَ وهو بعرفةَ فقالَ: جئتُ يا أميرَ المؤمنينَ منَ الكوفةِ وتركتُ بها رجلًا يُملي المصاحفَ عنْ ظَهْرِ قلبه، فغَضِبَ وانتفخَ حتى كادَ يملأُ ما بينَ شعبتَيِ الرجلِ، فقالَ: منْ هو؟ ويْحَكَ، قالَ: عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ، فما زالَ يُطْفَأُ ويُسَرَّى الغضبُ عنه حتى عادَ إلى حالته التي كانَ علَيْها، ثُمَّ قالَ: ويحكَ، واللهِ ما أعلمُ أحدًا بَقِيَ منَ النَّاسِ هو أحقُّ بذلك منه، وسأحدِّثُكَ عنْ ذلك، كانَ رسولُ اللهِ ﷺ لا يزالُ يسمُرُ عندَ أبي بكرٍ الليلةَ كذلك في الأمرِ من أمورِ المسلمينَ، وأنه سَمَرَ عندَه ذاتَ ليلةٍ وأنا معه، فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ وخرجْنَا معه فإذا رجلٌ قائمٌ يُصلّي في المسجدِ، فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ يَستمِعُ قراءتَه، فلمَّا كِدْنا نعرفُه قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ سرَّهُ أنْ يَقرَأَ القرآنَ رطْبًا كما أُنزِلَ فلْيقرأْهُ على قراءةِ ابنِ أمِّ عبدٍ)، قالَ: ثم جلسَ الرجلُ يَدعو فجَعَلَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: (سَلْ تُعْطَهُ، سَلْ تُعْطَهُ)، قالَ عمرُ: قلتُ: واللهِ لأغدونَّ عليه ولأبشرنَّه، قالَ: فغدوتُ إليه لِأُبَشِّرَه فوجدتُ أبا بكرٍ قدْ سبقَني إليه وبشَّرَه، ولا واللهِ ما سابقتُه إلى خيرٍ إلا سبقَني إليه[1].

وكانَ قليلَ الصومِ كثيرَ الصلاةِ، فقيلَ له في ذلك فقالَ: لأني إذا صمتُ ضَعُفْتُ عنِ الصلاةِ، والصلاةُ عندي أَوْلى.

وعنِ الشّعبيِّ قالَ: ذَكَروا أنَّ عُمرَ بنَ الخطابِ لَقِيَ رَكْبًا في سفرٍ له، فيهم عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ، فأمرَ عمرُ رجلًا يُناديهم، مِنْ أينَ القومُ؟ فأجابَه عبدُ اللهِ: أقبلْنا منَ الفجِّ العميقِ، فقالَ: أينَ تُريدونَ؟ فقالَ عبدُ اللهِ: البيتُ العتيقُ، فقالَ عمرُ: إنَّ فيهم عالمًا، فأمرَ رجلًا فناداهم، أيُّ القرآنِ أعظمُ؟ فأجابَه عبدُ اللهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى خَتَمَ الآيةَ [البقرة: ٢٥٥]، فناداهم، أيُّ القرآنِ أحكَمُ؟ فقالَ ابنُ مسعودٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]، فقالَ عُمَرُ: فناداهم أيُّ القرآنِ أجمَعُ؟ فقالَ ابنُ مسعودٍ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فقالَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٥) [مسند عمر]، والنَّسائيُّ في "الكبرى" (٨٢٠٠) [كتاب المناقب- عبد الله بن مسعود]، وابن خزيمة (١١٥٦) [كتاب الصلاة- باب الجهر بالقراءة في صلاة الليل]، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عمرُ: فناداهم أيُّ القرآنِ أخوفُ؟ فقالَ ابنُ مسعودٍ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ الآية [النساء: ١٢٣]، فقالَ عُمرُ: فناداهم أيُّ القرآنِ أرْجى؟ فقالَ ابنُ مسعودٍ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، فقالَ عُمرُ: فناداهم، أفيكم ابنُ مسعودٍ؟ قالوا: اللهُمَّ نَعَمْ[1].

وعنْ مسروقٍ، قالَ: قالَ عبدُ اللهِ: واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو، ما نزلتْ آيةٌ من كتابِ اللهِ، إلَّا وأنا أعلمُ أينَ نزلتْ، وفيمَ نزلتْ، ولوْ أعلمُ أنَّ أحدًا أعلَمُ بكتابِ اللهِ منِّي تنالُه المطيَّةُ لأتيتُهُ[2].

وعنْ مسروقٍ أنَّه قالَ: انتهى عِلْمُ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى ستةٍ، عُمَرَ وعليٍّ وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ وأُبَيِّ بنِ كعبٍ وأَبِي الدرداءِ وزيدِ بنِ ثابتٍ[3]، وجَعَلَ الشعبيُّ أبا موسى الأشعريَّ بدلَ أَبِي الدرداءِ، ثم انتهى عِلْمُ هؤلاءِ الستَّةِ إلى رجلَيْنِ عليٍّ وعبدِ اللهِ.

وعنْ عَمْرِو بنِ ميمونٍ قالَ: اختلفْتُ إلى عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ سنةً ما سمعتُه فيها يُحدِّثُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ولا يَقولُ فيها: "قالَ رسولُ اللهِ ﷺ" إلَّا أنَّه حدَّثَ ذاتَ يومٍ بحديثٍ فجرى على لسانِه "قالَ رسولُ اللهِ ﷺ"، فعلاه الكربُ حتَّى رأيتُ العرقَ يَتحدَّرُ مِنْ جبهتِه، ثم قالَ: إنْ شاءَ اللهُ إمَّا فوقَ ذلكَ وإمَّا قريبٌ مِنْ ذلكَ وإمَّا دونَ ذلكَ[4].

---

(١) أخرجه السلفي في "الطيوريات" (١٧٣) بإسنادٍ ضعيف جدًّا، وأخرجه عبدالرزاق في "المصنف" (٣٨١٣) [كتاب الصلاة- باب القوم يجتمعون من يؤمهم] عن عبيد بن عمير، مختصراً بنحوه، ولم يأت فيه ذكر ابن مسعود ولا السؤال عن الآيات.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٠٠٢) [كتاب فضائل القرآن- باب القراء من أصحاب النبي ﷺ]، ومسلمٌ (٢٤٦٣) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عبد الله بن مسعود]، وغيرهما من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبرانيُّ (٩/٩٤) [باب العين- من مناقب ابن مسعود]، والحاكم (٣/٤٦٥) [كتاب معرفة الصحابة]، والبيهقيُّ في "المدخل" (١٤٥) [باب أقاويل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ]، والخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (١٨٨٥) [معرفة الشيوخ الذين تروى عليهم الأحاديث] وابن عساكر في "التاريخ" (١٩/٣١٥) [ترجمة زيد بن أسلم] وغيرهم هن مسروق.

(٤) أخرجه أحمد (٤٣٢١) [مسند عبدالله بن مسعود]، وابن ماجه (٢٣) [باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ]، والحاكم (١/١٩٤) [كتاب العلم]، وغيرهم عن عمر بن ميمون.

كانَ يقولُ: وَدِدْتُ أنِّي إذَا مِتُّ لمْ أُبْعَثْ، وخَرَجَ ذاتَ يوم فاتَّبَعَه ناسٌ، فقالَ لهم: أَلَكُمْ حاجةٌ؟ قالوا: لا، ولكنْ أردْنَا أنْ نَمشيَ خلفَكَ، قالَ: ارْجِعوا فإنَّه مَذَلَّةٌ للتَّابِع وفتنةٌ للمتبوعِ.

وعنْ أبي الأحوصِ أنَّه قالَ: دَخَلْنَا على ابنِ مسعودٍ وعندَه بنونَ له ثلاثةُ غلمانٍ كأنَّهم الدنانيرُ حُسْنًا، فجَعَلْنا نَتعجَّبُ مِنْ حُسنِهم، فقالَ: كأنَّكم تَغبطوني بهم، قُلْنَا: أيْ واللهِ بمثلِ هذا يُغبَطُ المرءُ المسلمُ، فرفَعَ رأسَه إلى سقفِ بيتٍ له قدْ عَشَّشَ فيه خُطَّافٌ[1] وباضَ، فقالَ: والذي نفسي بيدِه لَأَنْ أكونَ نفضتُ يدَيَّ مِنْ تُرابِ قبورِهم أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يَسقُطَ عشُّ هذا الخُطافِ وينكسرَ بيضُه.

وعنِ الحسنِ أنَّه قالَ: قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: ما أُبالي إذَا رجعتُ إلى أهلي على أيِّ حالٍ أراهم، أَبِسَرَّاءَ أمْ بِضَرَّاءَ، وما أصبحتُ على حالٍ فتمنيتُ أنِّي على سواها.

وجاءَه رجلٌ فقالَ له: أَوْصِني يا أبا عبدِ الرحمنِ، فقالَ: لِيسعَكَ بيتُكَ، واكففْ لسانَكَ، وابْكِ على خطيئتِكَ.

ولِيَ قضاءَ الكوفةِ وبيتُ مالِها لِعُمَرَ، وصدرًا مِنْ خلافةِ عثمانَ، ثمَّ سارَ إلى المدينةِ، وتمرَّضَ بها، ودَخَلَ عليه عثمانُ بنُ عفانَ في مرضِ موتِه فقالَ له: ما تَشتكي؟ قالَ: ذُنوبي، قالَ: فما تَشتهي؟ قالَ: رحمةَ ربِّي، قالَ: آمرُ لكَ بطبيبٍ؟ قالَ: الطبيبُ أمرَضَني، قالَ: ما تركتَ لأولادِكَ؟ قالَ: إني لا أخْشى عَلَيْهم الفقرَ بعدَما علَّمْتُهم سورةَ الواقعةِ يَقرؤُونَها كلَّ ليلةٍ.

وماتَ بالمدينةِ على الأصحِّ، وقِيلَ ماتَ بالكوفةِ سنةَ اثنَيْنِ وثلاثينَ عنْ بضعٍ وستينَ سنةً، وكُفِّنَ في حلةٍ بمائتَيْ درهمٍ، وصلَّى علَيْه عثمانُ، وقِيلَ: عمارُ بنُ ياسرٍ، وقِيلَ: الزبيرُ، وهو الأشْهَرُ، وكانَ ﷺ قدْ آخى بيْنَهما[2]، وصلَّى علَيْه لَيْلًا، ودُفِنَ بالبقيعِ بإيصائِه بذلك، ولمْ يعلمْ به عثمانُ فعاتبَه على ذلكَ.

---

(١) الخُطَّافُ: العُصْفور الأَسودُ وهو الذي تَدْعُوه العامّةُ عُصْفُورَ الجنة وجمعه خَطاطِيفُ.

(٢) أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٩٢٩) [حرف الهمزة- من اسمه أحمد]، والحاكم في المستدرك (٣/٣١٤) [كتاب معرفة الصحابة]، وغيرهما من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وصحَّحه الحاكم، وفي الباب عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

رُوِيَ له ثمانمائةِ حديثٍ وثمانيةٌ وأربعونَ حديثًا، اتَّفقا منْها على أربعةٍ وستينَ، وانفردَ البخاريُّ بأحدٍ وعشرينَ، ومسلمٌ بخمسةٍ وثلاثينَ، روى عنه الخلفاءُ الأربعةُ وكثيرونَ مِنَ الصحابةِ ومَنْ بعدَهم.

***

(**قَالَ: حَدَّثَنَا**) أيْ أنشأَ لَنَا خَبرًا حادثًا، وهو بمعنى أخْبَرَنا وأنْبأَنا عندَ مالكٍ والشافعيِّ والجمهورِ، ولمتأخري المحدِّثينَ أنَّ "حدَّثنا" لِمَا سُمِعَ من الشيخِ، و"أَخْبَرَنَا" لِمَا قُرِئَ علَيْه، و"أَنْبَأَنَا" لِمَا أجازَه.

(**رسولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ**) في جميعِ ما يَقولُه حتَّى قبلَ النبوةِ، والصدقُ هو الخبرُ المُطابِقُ للواقعِ، (**الْمَصْدُوقُ**) أي المصدوقُ فيه، أو الذي يَأتيه جبريلُ بالصدقِ مِنْ عندِ اللهِ تعالى أو الذي صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، والجملةُ حاليَّةٌ أوِ اعتراضيَّةٌ، وهو كما قالَ الطيبيُّ أَوْلَى لِتعمَّ الأحوالَ كُلَّهَا وتؤذنَ بأنَّ ذلك من دأبِه وعادتِه بخلافِ الحاليَّةِ لإيهامِها اختصاصَ ذلك ببعضِ الأحوالِ، اهـ. وعَكْسُ ذلك ابنُ صيادٍ[1] فإنَّه كاذبٌ ومكذوبٌ، ولِذا وَرَدَ أنَّ عُمَرَ بنَ الخطابِ انطلقَ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ في رهطٍ من أصحابِه قِبَلَ ابنِ صيادٍ حتَّى وجدوهُ يَلعبُ معَ الصبيانِ في أطمِ بني مغالةَ، وقدْ قاربَ يومئذٍ الحُلُمَ، فلمْ يَشعُرْ حتى ضَرَبَ رسولُ اللهِ ﷺ ظهرَه بيدِه ثم قالَ لابنِ صيادٍ: ماذا ترى؟ قالَ: يأتيني صادقٌ وكاذبٌ، وأرى عرشًا على الماءِ، فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ خُلِطَ عليكَ الأمرُ[2].

***

(١) يهودي من يهود المدينة، وقيل: هو دخيل فيهم، وكان حاله في صغره حال الكهان يصدق مرة ويكذب مرارا، ثم أسلم لما كبر وظهرت منه علامات من الحج والجهاد مع المسلمين، ثم ظهرت منه أحوال، وسمعت منه أقوال تشعر بأنه الدجال. وقيل: إنه تاب ومات بالمدينة. وقيل: بل فقد يوم الحرة. انظر: [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الفتن، باب قصة ابن صياد].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٣٥٤) [كتاب الجنائز- باب إذا أسلم الصبي فمات..]، ومسلمٌ (٢٩٣٠)، (٢٩٣١) [كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب ذكر ابن صياد]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(إِنَّ) جَزَمَ ابنُ الجوزيِّ بأنَّ الروايةَ بالكسرِ فقطْ، وقالَ أبو البقاءِ[1]: لا يَجوزُ في "أَنَّ" هنا إلَّا الفتحُ؛ لأنَّها وما عمِلَتْ فيه مفعولُ "حَدَّثَنَا" فلوْ كُسِرَتْ لَكانَ مُنقطعًا عنْ قولِه "حَدَّثَنَا"، وجزَمَ النوويُّ في شرحِ مُسلِم بأنَّه بالكسرِ على الحكايةِ، وجوَّزَ الفتحَ، وحجةُ أبي البقاءِ أنَّ الكسرَ على خلافِ الظاهرِ، ولا يَجوزُ العدولُ عنه إلَّا لِمانعٍ، ولوْ جازَ مِنْ غيرِ أنْ يَثْبُتَ به النقلُ لَجازَ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ الآية [المؤمنون: ٣٥]، وقدِ اتفقَ العلماءُ على أنَّها بالفتحِ، وتعقَّبَه القاضي جمالُ الدينِ الجوينيُّ بأنَّ الروايةَ جاءتْ بالفتحِ والكسرِ، فلا معنَى للردِّ، قالَ: ولوْ لمْ تجئْ به الروايةُ لما امتنعَ جوازًا على طريقِ الروايةِ بالمعنى، وأجابَ عنِ الآيةِ بأنَّ الوعدَ مضمونُ الجملةِ، وليسَ مخصوصَ لفظِها، فلذلك اتَّفقوا على الفتحِ، وأمَّا هنا فالتحديثُ يكونُ بلفظِه ومعناه.

(أَحَدَكُمْ) أيْ معشرَ بني آدمَ، وخصَّهم بالذكرِ؛ لأنَّ الإنسانَ أشرفُ مِنَ البهائمِ؛ لأنَّه اجتمعَ فيه ما تفرَّقَ في غيرِه، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، و"أَحَد" هنا بمعنى واحدٍ، فلذلك استعملتْ في الثبوتِ، ويَجوزُ استعمالُها أيضًا في النفيِ، بخلافِ"أحد" التي للعمومِ فإنَّها لا تُستعمَلُ إلا في النفيِ نحوَ "لا أحدَ في الدارِ"، أصلُه "وَحَد" قُلِبتِ الواوُ المفتوحةُ همزةً على غيرِ قياسٍ، بخلافِ المضمومةِ كـ"وجوه وأجوه" فإنَّه مقيسٌ، والمكسورةُ كـ"وِسادةٍ وأُسادَةٍ" و"وِشَاحٍ وَأَشَاحٍ" فإنَّه قيلَ سماعيٌّ وقيلَ قياسيٌّ.

(يُجْمَعُ) -بضمِّ الياءِ وسكونِ الجيمِ وفتحِ الميمِ مبنيًّا للمفعولِ- مِنَ الجمعِ وهو ضمُّ ما شأنُه الافتراقُ والتنافرُ، وقيلَ تقريبُ الأشياءِ بضمِّ بعضِها إلى بعضٍ، أيْ يَضمُّ بعضَه إلى بعضٍ بعدَ انتشارِ النطفةِ في سائرِ البدنِ تحتَ كُلِّ شعرةٍ وظفرٍ؛ لأنَّ المنيَّ يَقعُ في الرحمِ حينَ انزعاجِه بالقوةِ الشهوانيةِ الدافقةِ متفرقًا، فيَجمَعُه اللهُ في محلِّ الولادةِ مِنَ الرحمِ في المدةِ المذكورةِ، وقالَ ابنُ الأثيرِ في النهايةِ: يَجوزُ أنْ يُريدَ بالجمعِ مُكْثَ النطفةِ في الرحمِ لِتتخمَّرَ فيه حتَّى تَتهيأَ للتصويرِ.

---

(١) محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين العكبري البغدادي الحنبلي الضرير، له من التصانيف: تفسير القرآن، وإعراب القرآن، ومتشابه القرآن، وإعراب الحديث، والناهض في علم الفرائض، وغيرها، توفي سنة ٦١٦. الوافي بالوفيات (٧٣/١٧)، معجم الأدباء (١٥١٥/٤)

(**خَلْقُهُ**) كذا رواه مسلمٌ[1]، ولفظُ البخاريِّ في التوحيدِ وأبي داودَ في السنة (خَلْقُ أحدِكم يُجْمَعُ)[2] بفتح فسكونٍ، وهو على حذفِ مضافٍ أيْ مادة خلْقه، وهو المنيُّ الذي يُخلَقُ منه، أو أنه عَبَّرَ بالمصدرِ عنِ الجثةِ، ومنْه قولُه تعالى: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤]، وقولُه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ويَجوزُ أنْ يُقالَ: "إنَّ اللهَ خلقَ الخلقَ"، خلافًا للكراميةِ الزاعمينَ منعَ ذلك، أو هو بمعنى المفعولِ كقولِهم: "هذا ضربُ الأميرِ" أيْ مضروبُه، و"هذا شهوةُ العليلِ" أي اشتهاؤُه.

(**فِي بَطْنِ**) أيْ "رَحِم"، فهُوَ منْ قبيلِ ذكرِ الكلِّ وإرادةِ الجزءِ، والرَّحِمُ جلدةٌ مستديرةٌ معلقةٌ بعرقٍ، فَمُها إلى أسفلَ، تَنقبضُ ولا تنحلُّ إلَّا عندَ شهوةِ الجماعِ، وأصلُه منَ الرحْمةِ؛ لأنَّه مما يُتراحَمُ به، وذكرَ ابنُ القيمِ أنَّه داخلُ الرحمِ خشنٌ كالسفنجِ، وجُعِلَ فيه قبولٌ للمنيِّ كطلبِ الأرضِ المعطَّشةِ للماءِ، فجعلَه اللهُ طالبًا مشتاقًا إليْه بالطبعِ، فلِذلك يُمسكُه ويشتمِلُ عليه ولا يُزْلِقُه بل ينضَمُّ عليه لئلَّا يُفسِدَه الهواءُ، قالَ عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنَّ للرحمِ أفواهًا وأبوابًا، فإذا دَخلَ المنيُّ الرَّحِمَ منْ بابٍ واحدٍ خلَقَ اللهُ -عزَّ وَجَل- منه جَنينًا واحدًا، وإذا دَخَلَ من بابَيْنِ خلَقَ منه ولدَيْنِ، وإذا دَخَلَ منْ ثلاثةِ أبوابٍ خَلَقَ ثلاثةَ أولادٍ فيكونُ عددُ الأجنةِ بعددِ دخولِ المنيِّ مِنْ أفواهِ الرحمِ.

الكلام عن النطفة والعلقة والمضغة

(**أُمِّه أَرْبَعِينَ يَوْمًا**)، زادَ البخاريُّ (ليلةً) على الشكِّ[3]، وفي روايةِ سَلَمَةَ بنِ كُهَيْلٍ (أربعينَ ليلةً) بغيرِ شكٍّ[4]، وجَمَعَ بأنَّ المرادَ يومٌ بليلتِه أو ليلةٌ بيومِها.

(**نُطْفَةً**) أصلُها الماءُ الصافي القليلُ، يُقالُ "نطفتْ قربتُكَ" أيْ قطرتْ، و"نَطَفَ الماءُ" قَطَرَ، سُمِّيَ المنيُّ بذلك لِقلَّتِه، وقيلَ: سُمِّيَ بذلك لِنطافتِه أيْ سيلانِه، منْ قولِهم "ماءٌ ناطفٌ"

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٤٣) [كتاب القدر- باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه].

(٢) صحيح البخاري (٧٤٥٤) [كتاب التوحيد- باب قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾]، وسنن أبي داود [كتاب السنة- باب في القَدَر].

(٣) صحيح البخاري (٧٤٥٤) [كتاب التوحيد- باب قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾].

(٤) أخرجها أحمد (٣٩٣٤) [مسند عبدالله بن مسعود].

أيْ سائلٌ، وأصلُ ذلك أنَّ ماءَ الرجلِ إذَا لاقى ماءَ المرأةِ بالجماعِ، وأرادَ اللهُ أنْ يَخْلُقَ منه جنينًا هيَّأَ أسبابَ ذلك؛ لأنَّ في رحمِ المرأةِ قُوَّتَيْنِ قوَّةَ انبساطٍ عندَ ورودِ ماءِ الرجلِ حتى ينتشرَ في جسدِها، وقوَّةَ انقباضٍ بحيثُ لا يَسيلُ من فرجِها معَ كونِه منكوسًا، ومعَ كونِ المنيِّ مقبولًا بطبعِه، وفي منيِّ الرجلِ قوَّةُ الفعلِ، ومنيِّ المرأةِ قوَّةُ الانفعالِ، فعندَ الامتزاجِ يَصيرُ منيُّ الرجلِ كالإنفحةِ للَّبنِ، وقيلَ: في كُلٍّ منهما قوَّةُ فعلٍ وانفعالٍ، لكنَّ الأوَّلَ في الرجلِ أكثرُ، والمرأةُ بالعكسِ.

وزعمَ كثيرٌ مِنْ أهلِ التشريحِ أنَّ مَنِيَّ الرجلِ لا أثرَ له في الولدِ إلَّا في عقدِه، وأنَّه إنما يتكوَّنُ مِنْ دمِ الحيضِ، وتردُّه أحاديثُ البابِ وحديثُ (إنَّ اللهَ تعالى يَخْلُقُ عظامَ الجنينِ[1] وغضاريفَه منْ منيِّ الرجلِ، وشحمَه ولحمَه منْ منيِّ المرأةِ)[2]، وما قِيلَ مِنْ أنَّ اللهَ تعالى لما أرادَ خلقَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخذَ الميثاقَ منْ ذريتِه جَعَلَ بعضَ الماءِ في أصلابِ الرجالِ وبعضَه في أرحامِ الأمهاتِ، فإذا اجتمعَ الماءانِ صارَ ولدًا، وهو صريحُ قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم إنَّه في الأربعينَ الأولى لا يختلطُ ماءُ الرجلِ بماءِ المرأةِ بلْ يكونانِ متجاورَيْنِ لا يُغيِّرُ أحدُهما الآخرَ، وذلك كجمعِه في البحريْنِ الماءِ العذبِ والمِلْحِ لا يغيرُ أحدُهما الآخرَ ولا يَختلطُ به، قالَ تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠]، وفي الأربعينَ الثانيةِ يختلطُ أحدُهما بالآخرِ، وفي الأربعينَ الثالثةِ تُصوَّرُ أعضاءُ الجنينِ، وسيأتي بعدَ ذلك ما يَتعلَّقُ بالتصويرِ. وقدْ وَرَدَ في الحديثِ[3] أنَّ النطفةَ إذَا استقرتْ في الرحمِ أَخذَها الملكُ بكفِّه، فقالَ يا ربِّ مخلَّقةٌ أم غيرُ مخلَّقةٍ، فإنْ قيلَ غيرُ مُخلَّقةٍ قذفَها في الأرحامِ دمًا، وإنْ قيلَ مخلَّقةٌ، فقالَ أيْ ربِّ ذكرٌ أمْ أُنثى؟ شقيٌّ أم سعيدٌ؟ ما الأجلُ؟ ما الأثرُ؟ بأيِّ أرضٍ تموتُ؟

---

(١) هكذا في الأصل المخطوط، وفي طبعة الخيرية "الولد".

(٢) ذكره بهذا اللفظ ابن عطية في التفسير (١/ ٤٠٠) [سورة آل عمران- آية ٥-٦] وعزاه لمسند ابن سنجر، وورد بألفاظ متقاربة منها ما أخرجه أحمد (٤٤٣٨) [مسند ابن مسعود]، والنَّسائيُّ في الكبرى (٩٠٢٧) [كتاب عشرة النساء- صفة ماء الرجل وصفة ماء المرأة]، وغيرهما عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧٨١) [سورة الحج- آية ٤].

فيَقولُ له: انطلقْ إلى أمِّ الكتاب، فإنَّكَ تَجِدُ قصةَ هذه النطفةِ، فيَنطلقُ فيَجدُ قصتَها في أمِّ الكتابِ، فتأكُلُ رزقَها وتطأُ أثرَها، فإذَا جاءَ أجلُها قُبِضَتْ فدُفِنَتْ في المكانِ الذي قُدِّرَ لها.

(**ثُمَّ**) بعدَ تمامِها (**يَكونُ**) أيْ يَصيرُ (**عَلَقَةً**) أيْ دمًا غليظًا، سُمِّيَ بذلك لعلوقه أي ارتباطه ببعضِه أو لرطوبتِه؛ لأنَّه يعلَقُ بما يَمُرُّ علَيْه، فإذَا جَفَّ لَمْ يَكُنْ علقةً، والتاءُ فيها للوحدةِ أيْ علقةٌ واحدةٌ، فإنْ قلتَ: قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢] والعلقُ جمعُ علقةٍ، فالجوابُ أنَّ الإنسانَ في معنى الجمعِ؛ فلذا قالَ "مِنْ عَلَقٍ"، وأيضًا لتوافقِ رؤوسِ الآيِ، (**مِثْلَ ذَلِكَ**) الزمنِ الذي هو أربعونَ يومًا، يُقرأُ بالنَّصبِ صفةً لـ"علقة".

(**ثُمَّ**) عَقِبَ الأربعينَ الثانيةِ (**يَكونُ مُضْغَةً**) أيْ قِطعةَ لحمٍ صغيرةً قدرَ ما يُمضغُ كالغَرْفَةِ أيْ ما يُغرَفُ، ومِنْ ثَمَّ سُمِّيَتْ مُضْغَةً (**مِثْلَ ذَلِكَ**) أيْ أربعونَ يومًا، وهيَ الأربعونَ الثالثةُ.

***

فائدتان

[الأولى]: ذَكَرَ الأطوارَ الثلاثةَ، وكذا في القرآنِ العظيمِ، فذَكَرَ النطفةَ والعلقةَ والمضغةَ، وذَكَرَ في موضعٍ آخرَ زيادةً علَيْها، فقالَ في سورةِ "المؤمنون": ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، ثم تُنْفَخُ الروحُ فيه، وكانَ ابنُ عباسٍ يَقولُ: خُلِقَ ابنُ آدمَ مِنْ سبعٍ ثم يَتلو الآيةَ(١).

وروى الضحاكُ عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "إنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ المولى منْ طينٍ، فأقامَ أربعينَ سنةً، ثم صارَ حمأً مسنونًا، فأقامَ أربعينَ سنةً، ثم صارَ صلصالًا أيْ طينًا يابسًا يُسمَعُ

(١) أخرجه مطوّلًا: أبو نعيم (١/٣١٧) [ترجمة ابن عباس]، والحاكم (١/٤٣٨) [كتاب الصوم]، والبيهقي (٨٥٥٩) [كتاب الصيام- باب الترغيب في طلبها ليلة سبع وعشرين.]، وغيرهم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وفيه: (وخلق الإنسان من سبع)، وصحَّحه الحاكم.

له صلصلةٌ أيْ صوتٌ إذا نُقِرَ، فأقامَ أربعينَ سنةً، فتمَّ خلقُه بعدَ مائةٍ وعشرينَ سنةً، ثم نُفِخَ فيه الروحُ"[1] اهـ. قالَ الصوفيَّةُ: خصوصيَّةُ الأربعينَ لِموافقةِ تخمُّرِ طينِ آدمَ وميقاتِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لاختصاصِها بالكمالِ لتركُّبِها من عشرةٍ وأربعٍ، ولِكُلٍّ خاصيةٌ في الكمالِ، أمَّا الأولُ فلأنَّه غايةُ الآحادِ من غيرِ تكرارٍ، وأمَّا الثاني فلأنَّه استقرَّ كُلُّ مستقيمِ البنيانِ على أربعةِ أركانٍ كالطبائعِ والفصولِ الأربعةِ والحيوانِ، اهـ. وحينئذٍ فتوافقُ العددِ بينَ مدةِ خلقِ آدمَ وخلقِ الجنينِ، وذلك بجعلِ الأيامِ التي في خلقِ الجنينِ في مقابلةِ السنينِ التي في خلقِ آدمَ فلِكُلِّ سنةٍ يومٌ، وموافقةُ الأطوارِ، فالنطفةُ في مقابلةِ الطينِ، والعلقةُ في مقابلةِ الحمأِ المسنونِ، والمضغةُ في مقابلةِ الصلصالِ، فتباركَ اللهُ أحسَنُ الخالقين.

الثانيةُ: قالَ مجاهدٌ: إذا حاضتِ المرأةُ في حملِها كانَ ذلكَ نقصانًا في ولدِها، فإنْ زادتْ على التسعةِ كانَ تمامًا لما نَقَصَ منه.

***

(ثم) إذا تمتْ وصارَ ابنَ مائةٍ وعشرينَ يومًا **(يُرسَلُ)** بالبناءِ للمفعولِ **(إليه المَلَكُ)**، وفي روايةِ البخاريِّ: (يُبعَثُ الملكُ)[2]، ولِمُسلم: (ثم يُرسِلُ اللهُ الملكَ)[3]، و"ال" فيه للعهدِ، والمرادُ ملكٌ مخصوصٌ، وهو الملكُ الموكلُ بالرحمِ.

قالَ ابنُ القيِّم: الملكُ وحدَه يُرسَلُ إليه، ولمْ يَقُلْ يُرْسَلُ الملكُ إلَيْه بالروحِ فيُدْخِلُها في بدنِه؛ [وإنما أُرسِلَ إليه المَلَكُ فأحدثَ فيه الرَّوحَ بنفْخَتِه فيه][4] لا أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ إلَيْه الروحَ التي كانتْ موجودةً قبْلَ ذلك بالزمنِ الطويلِ معَ الملكِ.

(١) ذكره بهذا اللفظ القرطبي في التفسير (١٩/١١٩) [سورة الإنسان ١- ٣]، وتعاقب على ذكره المفسِّرون دون عزوٍ، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٢) صحيح البخاري (٧٤٥٤) [كتاب التوحيد- باب قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾] بلفظ: (ثم يبعث إليه الملك).

(٣) صحيح مسلم (٢٦٤٣) [كتاب القدر- باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه] بلفظ: (ثم يرسل الملك).

(٤) ما بين المعقوفين تمام العبارة كما لدى ابن القيم، وبه تستقيم. انظر: الروح [المسألة الثامنة عشرة: تقدم خلق الأرواح على الأجساد].

فإنْ قلتَ: إذَا كانَ المرادُ بالملكِ مَنْ جُعِلَ إِلَيْه أمرُ تلكَ الرحمِ، فكيفَ يُرسَلُ أو يُبعَثُ؟!
فالجوابُ كما قالَ القاضي عياضٌ أنَّ المرادَ أنه يُؤمَرُ بذلك.

واختُلِفَ في أوَّلِ ما يتشكَّلُ مِنَ الجنينِ، فقيلَ: قلبُه؛ لأنَّه الأساسُ، وقِيلَ: الدماغُ؛ لأنَّه مجمعُ الحواسِّ، وجُمِعَ بيْنَهما بأنَّ أولَ ما يَتشكَّلُ منه مِنَ الباطنِ القلبُ، ومِنَ الظاهرِ الدماغُ، وقِيلَ: أوَّلُ ما يتشكَّلُ منه السُّرَّةُ، وقِيلَ: الكبدُ؛ لأنَّ منه النموَّ المطلوبَ أوَّلًا، ورجَّحه بعضُهم.

وفي إيجادِه على هذا الترتيبِ العجيبِ وانتقالِه مِنْ طورٍ إلى طورٍ مع قدرتِه تعالى على إيجادِه كاملًا كسائرِ المخلوقاتِ في طرفةِ عينٍ فَوائِدُ:

الأولى: أنَّه لو خَلَقَه دفعةً واحدةً لشقَّ على الأُمِّ لكونها لَمْ تكنْ معتادةً لذلك، وربَّما لم تُطقْهُ، فجُعِلَ أولًا نطفةً لتعتادَ بها مدةً، ثم علقةً مدةً وهلمَّ جرًّا إلى الولادة، ولذا قالَ الخطابيُّ: الحكمةُ في تأخيرِ كلِّ أربعينَ يومًا أنْ يَعتادَ الرحمُ؛ إذْ لوْ خُلِقَ دفعةً لَشَقَّ على الأمِّ، وربَّما لا تقدرُ عليه.

الثانيةُ: إظهارُ قدرتِه تعالى وتعليمِه لعبادِه التَّأَنِّيَ في أمورِهم.

الثالثةُ: إعلامُ الإنسانِ بأنَّ حصولَ الكمالِ المعنويِّ له تدريجيٌّ نظيرُ حصولِ الكمالِ الظاهرِ له.

نفخ الروح في الجنين المتشكل

(**فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ**) التي بها يَحيا الإنسانُ، وحقيقةُ النفخِ إخراجُ ريحٍ مِنَ النافخِ يتصلُ بالمنفوخِ، وقدِ اختُلِفَ في الرُّوحِ على أكثرَ مِنْ ألفِ قولٍ، والمعتمدُ أنَّها جسمٌ لطيفٌ سارٍ في البدنِ مشتبكٌ به اشتباكَ الماءِ بالوردِ وعروقِ الشجرِ، ولا يُلتفَتُ لقولِ مَنْ قالَ: إنَّها الدمُ؛ لأنَّ مِنَ الحيواناتِ ما لا دمَ له، ولا لِقولِ مَنْ قال: إنَّها النَّفَسُ الداخلُ الخارجُ؛ لأنَّ مِنَ الحيواناتِ ما لا يَتنفَّسُ إلا عندَ الموتِ كالسمكِ.

وإسنادُ النفخِ إلى الملكِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ ذلك مِنْ أفعالِ الله كالخلْقِ، وقولُه "فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ" أيْ ويتحرَّكُ فيما بين ذلكَ إلى عشرةِ أيامٍ، وتحسُّ أمُّه حينئذٍ بحركتِه، ولذلك صارتْ عدَّةُ الوفاةِ أربعةَ أشهرٍ وعشرًا.

وظاهرُ الحديثِ أنَّ الملكَ يَنفخُ الروحَ في المضغةِ، وليسَ مرادًا بَلْ إنَّما يَنفخُ فيها بعدَ أنْ تَتشكَّلَ بتشكُّلِ ابنِ آدمَ وتَتصوَّرَ بصورتِه كما قالَ تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي بِنفخِ الروحِ فيه، ولك أنْ تَقولَ: ليسَ ظاهرُه ذلك، وإنَّما ظاهرُه أنَّ الإرسالَ بعدَ الأربعينَ الثالثةِ المنقضي اسمُ المضغةِ بانقضائِها، وتلك البعديَّةُ لم تحددْ فيحتملُ أنَّهُ بعدَ الأربعينَ الثالثةِ تُصوِّرَ في زمنٍ يسيرٍ، وبعدَ تصويرِه يُرسلُ الملكُ فيَنفخُ فيه الروحَ.

وقَدْ صرَّحَ القرطبيُّ في "المفهم" بأنَّ التصويرَ إنَّما هو في الأربعينَ الرابعةِ، لكنْ يَرِدُ على هذا أنَّه جاءَ في حديثِ حذيفةَ بنِ أسيدٍ عندَ مسلم: (إذا مرَّ بالنطفةِ ثلاثٌ وأربعونَ)[١]، وفي روايةٍ (اثنانِ وأربعونَ ليلةً)[٢]، وفي روايةٍ (خمسةٌ وأربعونَ)[٣] بَعَثَ اللهُ إليها ملكًا فصوَّرَها، وخَلَقَ سمْعَها وبصرَها وجِلْدَها ولحمَها وعظْمَها، ثم قالَ: يا ربِّ أذَكَرٌ أمْ أُنثى؟ فيَقْضي ربُّكَ ما شاءَ، ويَكتُبُ الملكُ، ثم يَقولُ يا ربِّ أجَلُه؟ فيقولُ ربُّكَ ما شاءَ، ويَكتُبُ الملكُ، ثم يَقولُ يا ربِّ رِزْقُهُ؟ فيَقولُ ربُّكَ ما شاءَ، ويَكتُبُ الملكُ، ثم يُخرِجُ الملكُ الصحيفةَ فلا يُزادُ ولا يُنقَصُ.

وأخرجَه الفِرْيابيُّ عنِ الطفيلِ عنْ حذيفةَ أيضًا بلفظ: (إذَا وقعتِ النطفةُ في الرحمِ ثم استقرتْ أربعينَ ليلةً يجيءُ ملكُ الرحمِ فيَدْخلُ فيُصوِّرُ له عظْمَهُ ولحْمَهُ وشعْرَه وبشرَهُ ثم سمْعَه وبصرَه، ثم يَقولُ أيْ ربِّ ذكرٌ أمْ أُنثى؟ ...) الحديثُ[٤].

قالَ عياضٌ: وحَمْلُه على ظاهرِه لا يَصحُّ؛ لأنَّ التصويرَ بأثرِ النطفةِ وأوَّلِ العلقةِ في أولِ الأربعينَ الثانيةِ غيرُ موجودٍ ولا معهودٍ، وإنَّما يَكونُ في آخرِ الأربعينَ الثالثةِ، فمَعْنى قولِه: "يُصوِّرُها" إلى آخرِه، أنَّه يَكتُبُ ذلكَ، ويَفعلُه في وقتٍ آخرَ بعدَ ذلك بدليلِ قولِه: "أذكرٌ أم

---

(١) ذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/٤٨٤) [كتاب القدر]، وعزاها لمسلم.
(٢) صحيح مسلم (٢٦٤٥) [كتاب القدر- باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه].
(٣) صحيح مسلم (٢٦٤٤) [كتاب القدر- باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه].
(٤) أخرجه مسلمٌ (٢٦٤٥) [كتاب القدر- باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه]، وغيره من حديث حذيفة بن أسيد بلفظ: (صورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ...) الحديث.

أُنثى"، وأوردَ على قولِ القاضي أنَّ التصويرَ لا يَكونُ إلَّا في آخرِ الأربعينَ الثالثةِ أنَّه شوهدَ التصويرُ في كثيرٍ منَ الأجنةِ في الأربعينَ الثالثةِ.

والأشبهُ في الجمعِ أنْ يُقالَ: إنَّ روايةَ ابنِ مسعودٍ باعتبارِ الغالبِ، أو إنَّ ذلك يَختلفُ باختلافِ الأشخاصِ، فمنهم منْ يُصوَّرُ بعدَ الأربعينَ الأولى، ومنهم منْ لا يُصوَّرُ إلا في الأربعينَ الثالثةِ أو بعدَها، على أن حديثَ ابنِ مسعودٍ القضيةُ فيه مطلقةٌ لا عمومَ فيها، فتتأدَّى بصورةٍ وقدْ وقعتْ في صورٍ كثيرةٍ، أو أنَّه عَقِبَ الأربعينَ الأولى يُرسَلُ الملكُ لتصويرِ العلقةِ تصويراً خفيًّا، ثم يُرسَلُ في مدةِ المضغةِ أو بعدَها فيُصوِّرُها تصويراً ظاهراً، ولِذا قالَ بعضُهم: يُحتمَلُ أنَّ الملكَ عندَ انتهاءِ الأربعينَ الأُولى يُقسِّمُ النطفةَ إذا صارتْ علقةً إلى أجزاءٍ بحسبِ الأعضاءِ، أو يُقسِّمُ بعضَها إلى جلدٍ وبعضَها إلى لحمٍ وبعضَها إلى عظمٍ، فيُقدِّرُ ذلك كُلَّه قَبْلَ وجودِه ثم يَتهيَّأُ ذلك في آخرِ الأربعينَ الثانيةِ ويتكاملُ في الأربعين الثالثةِ. وأجابَ بعضُهم بأنَّ الجنينَ يَغلِبُ علَيْه في الأربعينَ الأُولى وصفُ المنيِّ، وفي الأربعينَ الثانيةِ وصفُ العلقةِ، وفي الثالثةِ وصفُ المضغةِ، وإنْ كانتْ خِلْقتُه قدْ تمتْ، وتمَّ تصويرُه.

ثمَّ إنَّ نسبةَ التصويرِ إلى الملكِ مجازيةٌ، والمُصوِّرُ في الحقيقةِ هو اللهُ تَعالى لقولِه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]. وذهبَ بعضُ الأطباءِ إلى أنَّ التصويرَ يكونُ يومَ السابعِ لِتصريحِهم بأنَّ المنيَّ إذَا نَزَلَ في الرحمِ أزبدَ وأرغى لستةِ أيامٍ أو سبعةٍ، وفيها يتصورُ مِنْ غيرِ استمدادٍ مِنَ الرحمِ ثم يستمدُّ منه، وتُبتدأُ خطوطُه ونقْطُه بعدَ ثلاثةِ أيامٍ مِنَ الاستمدادِ، ثم مِنَ الخامسَ عشرَ ينفذُ الدمُ إلى الجميعِ فيصيرُ علقةً، ثم تظهر الأعضاءُ ويتنحَّى بعضُها عنْ مماسةِ بعضٍ، وتُمَدُّ رطوبةُ النخاعِ، ثم بعدَ تسعةِ أيامٍ منْ صيرورتِه علقةً، يَنفصِلُ الرأسُ عنِ المنكبَيْنِ، والأطرافُ عنِ الأصابعِ، قالوا: وأقلُّ مُدَّةِ تصويرِ الذكرِ فيها ثلاثونَ يومًا، والزمانُ المعتدلُ في تصويرِ الجنينِ خمسةٌ وثلاثونَ يومًا، وقدْ يَتصوَّرُ في خمسةٍ وأربعينَ، وعلَيْه فما وَرَدَ مِنْ أنَّ التصويرَ يَكونُ بعدَ أربعينَ يومًا محمولٌ على أنَّ المرادَ ما قاربَ ذلك، والثلاثونَ وما بعدَها قريبةٌ منها.

وقالَ المقري[1] في قواعدِه: الولدُ يَتحرَّكُ لمثلِ ما يَتخلَّقُ له، ويوضَعُ لمثلِ ما يَتحرَّكُ فيه، وهو يَختلِفُ في العادةِ تارةً لِشهرٍ فيتحرَّكُ لشهرَيْنِ، ويوضعُ لستةٍ، وتارةً لشهرٍ وخمسةِ أيامٍ، فيتحرَّكُ لشهرَيْنِ وثلثٍ، ويوضعُ لسبعةِ أشهرٍ، وتارةً لِشهرٍ ونصفٍ فيتحرَّكُ لثلاثةٍ، ويوضعُ لتسعةٍ، فلذلك لا يَعيشُ ابنُ ثمانيةٍ، ولا يَنقُصُ الحملُ عن ستَّةٍ، اهـ.

ورُوِيَ أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ ولِدَ لستَّةِ أشهرٍ، وقالَ بعضُ الأطباءِ: إنَّ الولدَ عندَ استكمالِ سبعةِ أشهرٍ يَتحرَّكُ للخروجِ فإنْ تَهيَّأَ له الخروجُ خَرَجَ وعاشَ، وإنْ لَمْ يتهيَّأْ يَستريحُ في البطنِ عقِبَ الحركةِ المتعبةِ المضعفةِ فلا يَتحرَّكُ في الشهرِ الثامنِ للخروجِ، ولهذا يَقِلُّ تحرُّكُه في البطنِ أيضًا، وإنِ اتفقَ تحرُّكُه في الشهرِ الثامنِ للخروجِ فيضعُفُ الولدُ غايةَ الضعفِ، وهو في نفسِه في غايةِ الضعفِ، فلا يعيشُ.

وقالَ المنجِّمونَ: سببُه أنَّ في كُلِّ شهرٍ يَتولَّى الجنينَ كوكبٌ منَ الكواكبِ السبعةِ المجموعةِ في قولِ القائلِ:

زُحَلُ شَرَى مِرِّيخَهُ مِنْ شَمْسِهِ * فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدِ الأَقْمَارُ

ففي الشهرِ الأوَّلِ التدبيرُ فيه لِزُحَلَ، وفي الثاني للمُشترى إلى السابعِ، وفيه التدبيرُ للقمرِ، وهو رطبٌ مناسبٌ للحياةِ، وفي الثامنِ يَعودُ إلى زُحَلَ، وهو باردٌ يابسٌ بطيءُ الحركةِ، وهو على مزاجِ الموتِ فيموتُ في الثامنِ، وفي التاسعِ يَعودُ إلى المُشترى وهو نَيِّرٌ سعيدٌ فيكونُ خيرُ أوقاتِ الولدِ عندَ انتقالِه للتاسعِ.

ثم إنَّه رتَّبَ الأطوارَ في الآيةِ الشريفةِ بالفاءِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّه لا يَتخلَّلُ بينَ الطورَيْنِ طورٌ آخرُ، ورتَّبَها في الحديثِ بـ"ثُمَّ" إشارةً إلى المدَّةِ التي تَتخلَّلُ بينَ الطورَيْنِ ليتكاملَ فيها الطورُ، وإنَّما عبَّر بـ"ثُمَّ" بينَ النطفةِ والعلقةِ؛ لأنَّ النطفةَ قدْ لا تكونُ إنسانًا، وأتى بـ"ثُمَّ" في آخرِ الآيةِ عندَ قولِه:

---

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر، القرشي التلمساني، الشهير بالمقري، وهو جد المؤرخ الأديب صاحب نفح الطيب، له مصنفات، منها: "القواعد" اشتمل على ١٢٠٠ قاعدة، والحقائق والرقائق، والمحاضرات، والتحف والطرف، وأفرده بالترجمة ابن مرزوق الحفيد في كتاب سماه "النور البدري في التعريف بالفقيه المقري"، توفي سنة ٧٥٨. الإحاطة في أخبار غرناطة (١١٦/٢)، وشجرة النور (٣٣٤/١).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ ليدلَّ على ما يَتجدَّدُ له بعدَ الخروجِ مِنْ بطنِ أُمِّه، أمَّا الإتيانُ بـ"ثُمَّ" في أولِ القصةِ بينَ السلالةِ والنطفةِ فإشارةٌ إلى ما يتخلَّلُ بينَ خلقِ آدمَ وخلقِ ولدِه، وقولُه تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ وذلك لأنَّ اللحمَ يسترُ العظمَ بجَعْلِه كالكِسوةِ له.

***

تنبيهان

الأوَّلُ: اختُلِفَ في تقديمِ خلقِ الروحِ عنِ الجسدِ وتأخيرِها عنْهُ على قولَيْنِ مشهورَيْنِ، الأوَّلِ تقديمُ خلقِ الروحِ على الجسدِ، وبه جَزَمَ ابنُ حزم[1]، واستدلَّ له بحديثٍ إسنادُه ضعيفٌ جدًّا، وهو (أنَّ خَلْقَ أرواحِ العبادِ قبلَ العبادِ بألفَيْ عامٍ، فما تعارفَ منها ائتلفَ، وما تَناكَرَ منها اختلَفَ)[2]، والثاني ذَهَبَ إليه جماعةٌ واستدلُّوا بقولِه في هذا الحديثِ (إنَّ أحدَكم يُجمَعُ خلقُه في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا) إلى أنْ قالَ: (ثم يُرسَلُ الملكُ فيَنفُخُ فيه الروحَ)، وأُجيبَ بالفرقِ بينَ نفخِ الروحِ وخلقِه.

الثاني: مقرُّ الروحِ في حالةِ الحياةِ القلبُ على ما جَزَمَ به الغزاليُّ، قالَ السيوطيُّ: وقدْ ظفرتُ بحديثٍ يَشهَدُ له أخرجَه ابنُ عساكرَ في تاريخِه[3]، وانظرْ ما قالَه الغزاليُّ فإنَّه لا يَأتي

(١) الإمام الحافظ المجتهد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تفقه أولا للشافعي، ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليه وخفيه، والأخذ بظاهر النص، من مصنفاته: الفصل في الملل والأهواء والنحل، والمحلى، وجمهرة الأنساب، والناسخ والمنسوخ، وغيرها. جذوة المقتبس للأزدي (٣٠٩/١)، وفيات الأعيان (٣٢٥/٣).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن منده كما عند ابن القيم في "كتاب الروح" (ص ١٦٠) مسندًا، ومن طريقه أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في "الحجة في بيان المحجة" (٣١٠) من حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٩٢٨) [كتاب الأوائل- باب أول ما فعل ومن فعله] عن محمد بن كعب القرظي بلفظ: (خلق الله الأرواح قبل أن يخلق الأجساد فأخذ ميثاقهم). وأخرجه البخاري (٣٣٣٦) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب: الأرواح جنود مجندة] وغيره من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا بلفظ: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف). وأخرجه مسلم (٢٦٣٨) [كتاب البر والصلة والآداب- باب الأرواح جنود مجندة] وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه ابن عساكر في التاريخ (٣٧٤/١٦) [ترجمة خزيمة بن حكيم السلمي]، في حديث طويل سأل فيه خزيمة النبي ﷺ عن أمور منها موضع النفس في الجس)، فكان من جوابه ﷺ: (أما موضع النفس ففي القلب والقلب معلق بالنياط والنياط يسقي العروق فإذا هلك القلب انقطع العرق).

على قولِ جمهورِ المتكلمينَ مِنْ أنَّها جِسْمٌ لطيفٌ شفَّافٌ حيٌّ لِذاته سارٍ في البدنِ كماء الوردِ في الوردِ، وأمَّا مقرُّها فاستظهرَ بعضُ المتكلمينَ أنَّها بقربِ القلبِ، ومقرُّها بعدَ الوفاةِ فمُختَلَفٌ فيه، فأرواحُ الأنبياءِ -علَيْهم الصلاةُ والسلامُ- في الجنةِ لقولِه: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١١-١٢]، وأرواحُ السعداءِ مِنَ المؤمنينَ قِيلَ: إنَّها في أفنيةِ القبورِ كما قالَه ابنُ العربيِّ، وهو أصحُّ ما ذَهَبَ إليه المتكلِّمون، قالَ ابنُ عبدِ البَرِّ: وهيَ معَ ذلك مأذونٌ لها في التَّصرُّفِ، وتأوي إلى محلِّها في عِلِّيينَ أو سِجِّينَ.

***

كتابة الرزق والأجل والعمل والسعادة

(وَيُؤْمَرُ) الملكُ، وهوَ عطفٌ علَى "يَنْفُخُ" (بأربع كلمات) وفي روايةٍ بأربعٍ[1]، والمعدودُ إذَا أُبْهِمَ جازَ تذكيرُه وتأنيثُه، والمرادُ بالكلماتِ القضايا المقدورةُ، وكُلُّ قضيةٍ تُسمَّى كلمةً، وظاهرُ الحديثِ هذا أنَّ النفخَ قَبْلَ الكتابةِ، وظاهرُ روايةِ البخاريِّ[2] أنَّ النفخ بعدَها، والأَوْلى التعويلُ على روايةِ البخاريِّ؛ لأنَّها أصحُّ، ويُمكِنُ ردُّ هذا إلَيْه بأنَّ الواوَ بلا ترتيبٍ، أو أنَّ "ما" هنا مِنْ ترتيبِ خبرٍ على خبرٍ لا مِنْ ترتيبِ الأفعالِ المُخبَرِ عنها، أو أنَّ الكتابةَ تَقعُ مرتَيْنِ، الأولى في السماءِ، والثانيةُ في بطنِ المرأةِ، ويُحتمَلُ أنْ تَكونَ إحداهما في صحيفةٍ والأخرى على الجنينِ، أو أنَّ ذلك يَختلِفُ باختلافِ الأجنةِ، فمنهم مَنْ يُكتبُ له قبلَ النفخِ، ومنهم مَنْ يُكتَبُ له ذلك بعدَه، والأولُ أَوْلَى.

وظاهرُ هذا الحديثِ أنَّه يُؤمَرُ بِهذه الأربعةِ ابتداءً، ولَيْسَ كذلك، بل إنما يُؤمَرُ بها بعدَ أنْ يَسألَ عنها بقولِه: يا ربِّ ما الرزقُ؟ ما الأجلُ؟ ما العملُ؟ وهلْ هو شقيٌّ أو سعيدٌ؟

(بِكَتْبِ) ضُبِطَ بوجهَيْنِ أحدُهما بموحدةٍ مكسورةٍ وكافٍ مفتوحةٍ ومثناةٍ ساكنةٍ ثم موحدةٍ على البدلِ من قولِه "أربع"، والأخرى بتحتانيَّةٍ مفتوحةٍ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ على الاستئنافِ،

(١) البخاري (٦٥٩٤) [كتاب القدر- باب في القدر]، والترمذي (٢١٣٧) [أبواب القدر- باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم]، وغيرهما.

(٢) البخاري (٣٢٠٨) [كتاب بدء الخلق- باب ذكر الملائكة]، وفيه: (فيؤمر بأربع كلمات...، ثم ينفخ فيه الروح)، فذكر النفخ بعد الكتابة.

وفي روايةُ البخاريِّ (فَيَكْتُبُ)[1] بزيادةِ الفاءِ، ورُوِيَ بفتحِ الياءِ فيهما مبنيٌّ للفاعلِ أو للمفعولِ، وهو أوجهُ؛ لأنَّه وَقَعَ في روايةِ آدمَ وأبي داودَ وغيرِهما (فيُؤذَنُ بأربعِ كلماتٍ فيُكْتَبُ)[2] وقولُه "يُكْتَبُ" أي على جبهتِه أو بطنِ كفِّه أو ورقةٍ تُعلَّقُ بعنقِه، قاله مُجاهدٌ، وقالَ القسطلانيُّ: والظاهرُ أنَّ الكتابةَ هي الكتابةُ المعهودةُ في صحيفتِه، وقدْ جاءَ ذلك مصرَّحًا به في روايةٍ لمسلم في حديثِ حذيفةَ بنِ رشيدٍ: (ثم تُطوَى الصحيفةُ فلا يُزادُ فيها ولا يُنقَصُ)[3]، ووقعَ في حديثِ أبي ذرٍّ (فيَقضي اللهُ ما هو قاضٍ فيُكتَبُ ما هو لاقٍ بين عيْنَيْهِ)[4].

(رِزْقِهِ) أي تقديرُه قليلًا أو كثيرًا، وصفتُه حلالًا أو حرامًا أو مكروهًا، وهو عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ ما ساقَه اللهُ تعالى إلى الحيوانِ فانتفعَ به بالفعلِ سواءٌ كانَ مأكولًا أو غيرَه، فيتناولُ العلمَ ونحوَه؛ لأنَّ الرزقَ نوعانِ ظاهرٌ للأبدانِ كالقوتِ، وباطنٌ للقلوبِ والنفوسِ كالمعارفِ والعلومِ، وخرَجَ به ما لم يُنتفَعْ به، وعندَ المعتزلةِ أنَّه المملوكُ مطلقًا انتُفِعَ به أم لا، وهو فاسدُ الطردِ لدخولِ مُلكِ اللهِ -تعالى- فيه، ولا يُسمَّى رزقًا وفاقًا، وإلَّا لَكانَ مَرزوقًا، وفاسدُ العكسِ لِخروجِ رزقِ الدوابِّ، بلْ والعبيدِ والإماءِ عندَ بعضِ الأئمةِ الذينَ يَرونَ أنَّ الرقيقَ لا يَملِكُ، وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وَجلَّ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقالَ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وسببُ نزولِ هذه الآيةِ الثانيةِ أنَّه لما آذى المشركون المؤمنينَ بمكةَ قالَ لَهم النبيُّ ﷺ: هاجِروا إلى المدينةِ، فقالوا: كيفَ نَخرُجُ إلى المدينةِ وليسَ لنا بها دارٌ ولا مالٌ؟ فمَنْ يطعمُنا بها ويَسقينَا؟ فأنزلَها اللهُ تعالى[5].

---

(١) البخاري (٣٣٣٢) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته].

(٢) البخاري(٧٤٥٤) [كتاب التوحيد- باب قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾]. وأبو داود (٤٧٠٨) [كتاب السنة- باب في القدر]. وآدم: هو ابن أبي إياس الخرساني شيخ البخاري توفي سنة (٢٢٠).

(٣) مسلم (٢٦٤٤) [كتاب القدر- باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه]، ولفظه: (ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص)، وهو من حديث حذيفة بن أسيد، وليس ابن رشيد.

(٤) الفريابي في "القدر" (٣٦) [باب تقدير ما يجري على ابن آدم...]، وابن بطة في "الإبانة"(١٤١٧) [باب الإيمان بأن السعيد والشقي من سعد أو شقي في بطن أمه].

(٥) لم أقف عليه مسندًا، وذكره البغوي في "التفسير"، [سورة العنكبوت (٢٩)] ولم يعزه.

واختلفَ الأشاعرةُ والماتريديةُ في الشقاوةِ والسعادةِ، فقالَ الأشاعرةُ هما أزليَّتان أيْ مقدرتانِ في الأزلِ لا يتغيرانِ ولا يتبدلانِ، فالسعادةُ الموتُ على الإيمانِ لتعلُّقِ العلمِ الأزليِّ بها كذلك، والشقاوةُ الموتُ على الكفرِ لتعلُّقِ العلمِ الأزليِّ بها كذلك، والسعيدُ منْ عَلِمَ اللهُ في الأزلِ موتَه على الإيمانِ، وإنْ تقدَّمَ منه كفرٌ، والشقيُّ مَنْ عَلِمَ اللهُ موتَه في الأزلِ على الكفرِ وإنْ تقدَّمَ منه إيمانٌ، وعلى هذا فلا يُتصوَّرُ في السعيدِ أنْ يَشقى ولا في الشقيِّ أنْ يَسعَدَ. وقالَ الماتريديةُ: السعيدُ هو المسلمُ، والشقيُّ هو الكافرُ، والسعادةُ الإسلامُ، والشقاوةُ الكفرُ، وعليْه فيُتَصَوَّرُ أنَّ السعيدَ قدْ يَشقى بأنْ يرتدَّ بعدَ الإيمانِ، وأنَّ الشقيَّ قدْ يسعدَ بأنْ يُؤمِنَ بعدَ الكفرِ، وأنَّ السعادةَ والشقاوةَ غيرُ أزليَّتَيْنِ، بلْ يَتغيَّرانِ ويَتبدَّلانِ.

ويتفرَّعُ على ذلك مسألةُ الاستثناءِ في الإيمانِ، فعندَ الأشاعرةِ يَجوزُ أنْ يُقالَ: أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، نظرًا للمآلِ وهو مجهولُ الحصولِ في المستقبلِ، ووافقَهم الشافعيُّ على ذلك، وعندَ الماتريديةِ لا يَجوزُ ذلك نظرًا للحالِ، ووافقَهم إمامُنا مالكٌ والإمامُ أبو حنيفةَ وأحمدُ؛ لأنَّ الإيمانَ يَجبُ فيه الجزمُ، ولا جزمَ معَ التعليقِ، وقالَ ابنُ عبدوسَ[1] -من أتباعِ مالكٍ- بوجوبِ التعليقِ لما في ترْكِهِ مِنَ الجزمِ الذي فيهِ تزكيةُ النفسِ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] وقدْ نظَمَ ذلك بعضُ شيوخِنا معَ زيادةٍ فقالَ:

مَنْ قَالَ إِنِّي مُؤْمِنٌ يُمْنَعُ مِنْ * مَقَالَةِ إِنْ شَاءَ رَبِّي يَا فَطِنْ

وذَا لِمَالِكٍ، وبَعْضُ تَابِعِيهْ * يُوجِبُ أَنْ يَقُولَ هذَا يَا نَبِيهْ

ومِثْلُ مَا لِمالكٍ للحَنَفِيِّ * والشَّافِعيُّ جوَّزَ هذَا فاعْرِفِ

وامنعه إجْمَاعًا إذَا أُرِيدَ بِهْ * الشَّكُّ في إيمانِهِ يَا مُنْتَبِهْ

كَعَدَمِ الْمَنْعِ إذَا بِهِ يُرادْ * تَبَرُّكٌ بِذِكْرِ خَالِقِ الْعِبَادْ

فَالْخُلْفُ حَيْثُ لَمْ يُرِدْ شَكًّا ولَا * تَبَرُّكًا فَكُنْ بِذَا مُحْتَفِلا

---

(١) سعيد بن عبدوس من أهل طليطلة، لقي مالكاً فسمع منه الموطأ، وكان مفتي بلده في وقته، توفي سنة ١٨٠. ترتيب المدارك (١١٣/٣)

فإنْ قلْتَ: قدْ وَرَدَ في الحديثِ (جَفَّتِ الْأقلامُ وطُوِيَتِ الصُّحفُ)[1] أيْ مضَتِ المقاديرُ بمَا سبقَ بهِ علمُ اللهِ في الأزلِ، وإذَا كانَتِ السعادةُ والشقاوةُ أزليَّتَيْنِ فمَا معنَى قولِه في الحديثِ الآخرِ: (والشقيُّ مَنْ شَقِيَ في بطْنِ أمِّه)[2]؟ فالجوابُ أنَّ معناهُ مَنْ عَلِمَ الملكُ شقاوتَهُ حينَ السؤالِ عنْهُ، وهو في بطنِ أمِّه، والمرادُ أنَّ هذا أوَّلُ زمنِ اشتهارِ أمرِهِ بالشقاوةِ والسعادةِ لملائكةِ التخليقِ، وإلَّا فللهِ تعالى أنْ يُظهرَ سعادَتَهُ وشقاوتَهُ لمنْ شاءَ مِنْ عبادِهِ قبلَ ذلكَ، كمَا نُقلَ عنْ بعضِ العارفِينَ أنَّهُ كانَ يَقولُ لمْ أزلْ أعرفُ تلامذَتِي وأُربِّيهِمْ في الأصلابِ مِنْ يَومِ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

***

(**فوالَّذي**[3] **لَا إلهَ غيرُه**) فِيهِ الحلفُ مِنْ غيرِ استحلافٍ، ولَا كراهةَ فِيهِ لأنَّهُ تعظيمٌ للهِ تعالى، وأمَّا قولُ عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني إسرائيلَ: كانَ موسى يَنهاهُم أنْ لَا تحلفُوا باللهِ إلَّا وأنتمْ صادقُون، وأنَا أنهاكُمْ أنْ لَا تحلفُوا باللهِ صادقِينَ ولَا كاذبِينَ[4] فهو خلافُ شرعِنَا؛ لأنَّه صدَرَ منْهُ ﷺ كثيراً وأمرَهُ اللهُ بهِ[5] فلَا وجهَ لكراهتِه، ويُحتَملُ أنْ تكونَ كراهةُ عيسَى خوفَ الكثرةِ منْهُ فيؤولُ إلى حلفٍ كذبٍ أوْ تقصيرٍ في الكفارةِ.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في "الكبير" (١٢/٢٣٨) [باب العين]، والبيهقي في "الشعب" (١٩٢)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه أحمد (٢٦٦٩) [مسند عبدالله بن عباس]، والترمذي (٢٥١٦) [أبواب صفة القيامة والرقائق والورع]، وأبو يعلى (٢٥٥٦)، وغيرهم بلفظ: (رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٦٤٥) [كتاب القدر- باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه]، وغيره من كلام ابن مسعودٍ موقوفًا، وأخرجه البزار من حديثه مرفوعًا (١٤٤٧) [مسند عبدالله بن مسعود].

(٣) لفظ الحديث: (فوالله الذي).

(٤) أخرجه ابن عساكر في "التاريخ" (٦٨/٦٣) [أصحاب الألقاب] عن بعض من أسلم من أهل الكتاب.

(٥) من ذلك ما أخرج البخاريُّ (٦١٠٨) [كتاب الأدب- باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا]، ومسلم (١٦٤٦) [كتاب الأيمان- باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى]، وغيرهما من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: (فمن كان حالفا فليحلف بالله، وإلا فليصمت)، وفي صحيح مسلم (٢٧٠١) [كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر]، وغيره من حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: (ما أجلسكم؟) قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ به علينا، قال: (آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟) قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: (أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني، أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة).

وسرُّ الحلفِ هُنَا -واللهُ أعلمُ- التعجبُ منْ وقوعِ ذلكَ، والعربُ إذَا تعجَّبتْ مِنْ شيءٍ أقسمَتْ عليهِ، ومِنْ ذلكَ قولُ عروةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (إنَّ آدمَ أُدخِلَ الجنةَ يومَ الجمعةِ بعدَ العصرِ، واللهِ ما غربَتِ الشمسُ حتَّى أُخرِجَ منْهَا)[٦].

(**إنَّ أحدكُم لَيَعمَلُ**) بلامِ التأكيدِ (**بعمل**) الباءِ زائدةٌ؛ لأنَّ "عَمَل" إمَّا مفعولٌ مطلقٌ أوْ مفعولٌ بهِ، وكلَاهُمَا مستغنٍ عنِ الحرفِ، فزيادةُ الباءِ للتأكيدِ أوْ ضُمِّنَ "يَعْمَل" معنَى "يتلبَّسُ بعملِ" (**أهلِ الجنة**) يعني مِنَ الطاعاتِ الاعتقاديَّةِ والقوليَّةِ والفعليَّةِ، والجنةُ دارُ النعيمِ، وهيَ في الأصلِ الحديقةُ ذاتُ الشجرِ، سُمِّيَتْ جنةً لكثرةِ شجرِهَا ونَباتِهَا، ويُقالُ جنتِ الرياضُ جنونًا إذَا اغتَمَّ نبتُها حتى سترَ الأرضَ، ومنْهُ الجنينُ لاستتارهِ عنِ العيونِ، وتُسمَّى بالبستانِ لِمَا فيهَا منَ الأشجارِ المتكاثفةِ المُظلَّةِ.

(**حتَّى مَا يَكُونُ**) بالرفعِ؛ لأنَّ مَا كفَّتْ "حتَّى" قالَهُ الهيتميُّ، وقلَّدَ في ذلكَ قولَ الشارحِ الفاكهَانِيِّ: يَتعيَّنُ أنْ يَكونَ بالرفعِ؛ لأنَّ "مَا" النافيةَ قطعَتْ عملَ "حتَّى" عنْهُ، اهـ.

ومَا زَعَمَهُ منَ التعيينِ ممنوعٌ بلْ لَا يصِحُّ فقَدْ قالَ الطيبيُّ في شرحِ المشكاةِ: "حتَّى" هي الناصبةُ، و"مَا" نافيةٌ، ولمْ تَكُفَّها "مَا" عنِ العملِ، وقالَ غيرُهُ: لأنَّ معنَى "مَا" لنفيِ الحالِ فيتعيَّنُ رفعُهُ، وشرطُ نصبِهِ أنْ يكونَ مستقبلًا، ونازعَهُ غيرُهُ مِنَ الأشياخِ، وقالَ: الفعلُ هنا مستقبَلٌ قطْعًا، وشرطُ وجوبِ الرفعِ أنْ يَكونَ حالًا حقيقةً، وأنْ يَكونَ مُسبَّبًا عمَّا قبْلَهُ، وأنْ يكونَ فضلةً، فإنْ كانَ مستقبلًا حقيقة أوْ لمْ يكنْ مسببًا عمَّا قبلَه، أوْ كانَ عمدةً وجبَ النصبُ، وإنْ كانَ مستقبلًا مؤولًا بالحالِ جازَ فيهِ الوجهانِ، و"مَا" هنَا إمَّا مستقبلٌ حقيقةٌ، وهو الظاهرُ فيجبُ نصبُه، أو مؤولٌ به فيجوزُ نصبُه ورفعُه.

قالَ الأشمونيُّ: ولا يَرتفِعُ الفعلُ بعدَ حتَّى إلَّا بثلاثةِ شروطٍ: الأوَّلُ: أنْ يَكونَ حالًا إمَّا حقيقةً نحوَ "سرتُ حتَّى أَدْخُلُها" إذا قلتَ ذلكَ وأنتَ في حالةِ الدخولِ، والرفعُ حينئذٍ واجبٌ،

(٦) أخرجه الفريابي في "كتاب القَدَر" (٥) [باب ما روي أن النبي ﷺ قال: (احتج آدم وموسى)].

أو بتأويلِ نحو ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤] في قراءةِ نافع[1]، والرفعُ حينئذٍ جائزٌ. والثاني: أنْ يكونَ سببًا عمَّا قبْلَها فيمتنعَ الرفعُ ويتعيَّنَ النصبُ في نحوِ "لأسيرنَّ حتَّى تطلعَ الشمسُ". الثالثُ: أنْ يكونَ فضلةً فيجبَ النصبُ في نحو "سَيْرِي حتَّى أدخلَها" وكذلك في نحوِ "كانَ سيْرِي حتَّى أدخلَها" إنْ قُدِّرتْ "كانَ" ناقصةً، ولمْ يُقدَّرِ الظرفُ خبراً فتكونَ منصوبةً بـ"حتَّى". ولعلَّ لفظةَ "ما" لِمُجرَّدِ النفيِ فتسلخُه عن معنى الحاليَّةِ لتجامعِ أنَّ الَّتي لِلاستقبالِ، وأجازَ غيرُه أنْ تكونَ "حتَّى" ابتدائيَّةً.

(**بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا**) أيْ وَبيْنَ الجنَّةِ (**إِلَّا ذِرَاعٌ**)، زادَ البخاريُّ (أَوْ بَاعٌ)[2] وهو تمثيلٌ بشدَّةِ القُرْبِ (**فيسبق**) أيْ يَغْلِبُ (**عَلَيْهِ الْكِتَابُ**) أيْ مضمونُ الكتابِ، فهو على حذفِ مُضافٍ، أوْ أرادَ بالكتابِ المكتوبَ، والمعنى أنَّه يَتعارَضُ عملُه في اقتضاءِ السعادةِ والمكتوبَ في اقتضاءِ الشقاوةِ، فَيَتحقَّقُ مُقتَضى المكتوبِ، فعبَّرَ بذلك بالسبْقِ؛ لأنَّ السابقَ يَحصُلُ مرادُه دونَ المسبوقِ، ولأنَّه لو تمثَّلَ العملُ والكتابُ شخصَيْنِ ساعِيَيْنِ لَظفرَ شخصُ الكتابِ، وغلَبَ شخصَ العملِ.

(**فَيَعْمَلْ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلْهَا**) ظاهرُ هذا الحديثِ أنَّ هذا العاملَ كانَ عملُه صحيحًا، وأنَّه قَرُبَ مِنَ الجنَّةِ بسببِ عملِه حتَّى أشرفَ على دخولِها، وإنَّما مَنَعَه مِنْ دخولِها سابقُ القدرِ الذي يَظهَرُ عندَ الخاتمةِ، وعلَى هذا فالخوفُ علَى التحقيقِ إنَّما هو مما سَبَقَ؛ إذْ لا تبديلَ له ولا تغييرَ، فإذًا الأعمالُ بالسوابقِ، لكنْ لمَّا كانتِ السابقةُ مستورةً عنَّا، والخاتمةُ ظاهرةً لنَا قالَ ﷺ: (إنَّما الأعمالُ بالخواتيم)[3] أيْ عندَنا، وبالنسبةِ إلى اطلاعنا في بعضِ الأشخاصِ وفي بعضِ الأحوالِ، وفي روايةِ لمسلم (إنَّ الرجلَ لَيعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ فيما يَبدو للناسِ، وهو مِنْ أهلِ النارِ)[4] فعملُه لم يكنْ صَحيحًا في نفسِه، وإنَّما كانَ رياءً وسمعةً.

(١) برفع اللام: (يقولُ)، وقرأها الآخرون بنصب اللام.

(٢) صحيح البخاري (٦٥٩٤) [كتاب القدر- باب في القدر].

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠٧) [كتاب القدر- باب: العمل بالخواتيم]، وغيره من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٨٩٨) [كتاب الجهاد والسير- باب لا يقول فلان شهيد]، ومسلمٌ (١١٢) [كتاب الإيمان- باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه]، وغيرهما من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وقدْ وَرَدَ أنَّ راهبًا كانَ يُقالُ له بَرْصِيصَا، قدْ تعبَّدَ في صومعته سبعينَ سنةً لمْ يَعصِ اللهَ فيها طرفةَ عينٍ حتى أعْيَا إبليسَ، فجَمَعَ إبليسُ مَرَدَةَ الشياطينِ فقالَ: ألا أجدُ منكم مَنْ يَكفيني أمرَ بَرْصِيصَا، فقالَ الأبيضُ: أنا أكفيكَهُ -وهو الذي قَصَدَ النبيَّ ﷺ في صورةِ جبريلَ لِيُوسوسَ إليه على وجهِ الوحيِ، فدخَلَ جبريلُ بيْنَهما، ثم دَفعَه بيده حتَّى وَقَعَ بأقصى الهندِ- فانطلقَ فتزيَّا بزيِّ الرهبانِ، وحلَقَ وسطَ رأسِه حتى أتى صومعةَ بَرْصِيصَا، فناداه فلمْ يُجِبْهُ، وكانَ لا يَنفتلُ مِنْ صلاتِه إلا في كُلِّ عشرةِ أيامٍ يومًا، ولا يُفطِرُ إلَّا في كُلِّ عشرةِ أيامٍ، وكانَ يواصلُ العشرةَ الأيامَ والعشرينَ والأكثرَ، فلمَّا رأى الأبيضُ أنَّه لا يُجيبُه أقبلَ على العبادةِ في أصلِ صومعته فلمَّا انفتلَ مِنْ صلاتِه رأى الأبيضَ قائمًا يُصلِّي في هيئةٍ حسنةٍ مِنْ هيئةِ الرهبانِ فندمَ على عدمِ إجابتِه، وقالَ له: ما حاجتُكَ؟ فقالَ: أحبُّ أنْ أكونَ معكَ فأتأدَّبَ بآدابِكَ وأقتبسَ مِنْ علمِكَ، فقالَ: إنِّي في شغلٍ عنكَ، ثم أقبلَ على صلاتِه، وأقبلَ الأبيضُ على الصلاةِ، فلمَّا رأى بَرْصِيصَا شدَّةَ اجتهادِه وعبادتِه قالَ: ما حاجتُكَ؟ قالَ أنْ تَأذَنَ لي فأرتفعَ إليكَ، فأذنَ له، فأقامَ الأبيضُ معه حولًا لا يُفطِرُ إلَّا في كُلِّ أربعينَ يومًا يومًا، وربَّما مدَّ إلى الثمانينَ، فلمَّا رأى بَرْصِيصَا اجتهادَه تقاصرتْ إليه نفسُه، ثم قالَ الأبيضُ: عندي دعواتٌ يُشفَى بها السقيمُ والمبتلى والمجنونُ فعلَّمَه إيَّاها، ثم جاءَ إلى إبليسَ فقالَ: قدْ واللهِ أهلكتُ الرجلَ، ثم تعرَّضَ لرجلٍ فخَنَقَه، وقالَ لأهلِه، وقدْ تصوَّرَ في صورةِ الآدميِّينَ: إنَّ بصاحبِكم جُنونًا، فاذْهَبوا به إلى بَرْصِيصَا، فإنَّ عندَه اسمُ اللهِ الأعظمُ الذي إذَا سُئِلَ به أعْطى، وإذا دُعِيَ به أجابَ، فجاءُوهُ فدَعا بتلكَ الكلماتِ فذهَبَ عنهُ الشَّيْطانُ، ثم جَعَلَ الأبيضُ يفعلُ بالنَّاسِ ذلكَ ويُرشِدُهم إلى بَرْصِيصَا فيُعافَوْنَ، فانطلقَ إلى جاريةٍ مِنْ بناتِ الملوكِ بينَ ثلاثةِ إخوةٍ فعذَّبَها وخنَقَها ثم جاءَ إلَيْهم في صورةِ رجلٍ مُتطبِّبٍ لِيُعالجَها، فقالَ إنَّ شَيْطانَها ماردٌ لا يُطاقُ، ولكنِ اذهَبوا بِهَا إلى بَرْصِيصَا فدَعُوها عندَهُ، فإذا رأى شيطانُها دَعَا لها فبَرِئَتْ، فقالوا لا يُجيبُنا إلى هذا، قالَ فابْنُوا لَهَا صومعةً في جانبِ صومعتِه ثم ضَعوها فيها، وقُولوا لهُ هِيَ أمانةٌ عندَكَ فاحتسِبْ فيها، فسَألُوه ذلكَ فأَبى، فبَنَوْا صومعةً، ووضَعوا فيها الجاريةَ، فلمَّا انفتلَ مِنْ صلاتِه عاينَ الجاريةَ وما بِهَا مِنَ الجمالِ فأُسقِطَ في يدِه، فجاءَها الشيطانُ فخنَقَها، فانفتلَ مِنْ صلاتِه، ودعَا لها فذهبَ الشَّيْطانُ، ثم أقبلَ عَلى صلاتِه

فجاءَها الشَّيْطانُ وخنَقَها، وكانَ يكشِفُ عنها، ويتعرَّضُ بها لِبَرْصِيصَا، ثم جاءَهُ الشَّيْطانُ فقالَ: ويْحَكَ واقِعْها فما تَجِدُ مِثْلَها ثم تَتوبُ بعدَ ذلكَ، فلمْ يزلْ به حتى واقَعَها فحمَلَتْ وظَهَرَ حَمْلُها، فقالَ له الشيطانُ: ويْحَكَ قد افتَضَحْتَ، فهلْ لكَ أنْ تَقتُلَها ثم تتوبَ فلا تَفتَضِحُ، فإنْ جاءُوكَ فسَألوكَ فقُلْ جاءَها شَيْطانُها فذَهَبَ بها فقَتَلَها ليلًا ودَفَنَها، فأخَذَ الشَّيْطانُ طرفَ ثوبِها حتَّى بَقِيَ خارجًا مِنَ التُّرابِ ورَجَعَ بَرْصِيصَا إلى صلاتِه، ثم جاءَ الشَّيْطانُ إلى إخوتِها في المنامِ فقالَ: إنَّ بَرْصِيصَا فَعَلَ بأُختِكم كذا وكذا وقتلَها ودفنَها، فاستعْظَموا ذلك، فقالوا لِبَرْصِيصَا: ما فعلتَ بأُخْتِنا؟ فقالَ: ذهبَ بها شَيْطانُها فصدَّقوهُ وانْصَرَفوا، ثم جاءَهم الشَّيْطانُ في المنامِ فقالَ: إنَّها مدفونةٌ في موضعِ كذا وكذا، وإنَّ طَرَفَ ردائِها خارجٌ مِنَ التُّرابِ، فانطَلَقوا فوجَدوها، فهَدَموا صومعتَهُ، وأنْزَلوهُ وخنقُوهُ وحَمَلوهُ إلى الملكِ، فأقرَّ على نفْسِه، فأَمَرَ بقتلِه، فلمَّا صُلِبَ قالَ له الشَّيْطانُ: أتَعْرِفُني؟ قالَ: لا، قالَ: أنا صاحِبُكَ الذي علَّمْتُكَ الدَّعواتِ، أَمَا اتَّقَيْتَ اللهَ أَمَا استَحَيْتَ وأنتَ أعبدُ بَني إسرائيلَ، ثم لَمْ يكفِكَ صنيعُكَ حتى فَضَحْتَ نفسَكَ وأقرَرْتَ عليْها، وفضحْتَ أشباهَكَ مِنَ النَّاسِ، فإنْ مِتَّ على هذهِ الحالةِ لَمْ يُفلِحْ أحدٌ مِنْ نُظرائِكَ بعدَكَ، قالَ: فكيفَ أصنعُ؟ قالَ: تُطيعُني في خصلةٍ واحدةٍ وأُنجيكَ منهم، وآخذُ بأبصارِهم، قالَ: وما ذاكَ؟ قالَ: تَسجُدُ لي سجدةً، فأطاعَه وسجَدَ له من دونِ اللهِ! ورُوِيَتْ هذه القصةُ على غيرِ هذا الوجهِ[1].

(وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَغْلِبُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا) ثم إنَّ مِنْ لطفِ اللهِ تعالى وسعةِ رحمتِه أنَّ انقلابَ الناسِ مِنَ الشَّرِ إلى الخيرِ كثيرٌ، وأنَّ انقلابَهم مِنَ الخيرِ إلى الشرِّ ففي غايةِ الندورِ ونهايةِ القِلَّةِ، ولا يكونُ إلَّا لِمَنْ أصرَّ على الكبائرِ.

وحَكَى ابنُ الجوزيِّ في كتابِه "ذَمُّ الهوى" أنَّه كانَ رجلٌ مسلمٌ يَهوى امرأةً نصرانيَّةً فمَرِضَ مَرَضَ الموتِ، فقالَ في نفسِه: أنا أعشَقُ هذهِ، ولمْ أجتمعْ بها في الدُّنيا، وإنْ متُّ على الإسلامِ

(١) ذكرها ابن كثير في "البداية والنهاية" (٢/١٣٦، ١٣٧) بنحو هذا وغيره.

لَمْ أجتمعْ بها في الآخرةِ، فتنصَّرَ وماتَ على النَّصْرانيَّةِ، وكانتِ المرأةُ مريضةً فقالتْ: إنَّ فلانًا كانَ يَهْواني، ولَمْ يجتمعْ بي في الدُّنيا، وأخْشى إنْ متُّ على دينِ النصرانيَّةِ أنْ لا أجتمعَ به في الآخرةِ فأسلمتْ وماتتْ في مرضِها ذلك.

***

فائدةٌ: قالَ ﷺ: (علامةُ الشقاوةِ جمودُ العينِ، وقساوةُ القلبِ، وحبُّ الدنيا، وطولُ الأملِ)[1]، وقالَ ذو النُّونِ المصريُّ[2]: علامةُ السعادةِ حبُّ الصالحينَ، والدنوُّ منهم، وتلاوةُ القرآنِ، وسهرُ الليلِ، ومجالسةُ العلماءِ، ورقةُ القلبِ، اهـ.

وقالَ شيخُنا الأجهوريُّ في شرحِه لمختصرِ العلَّامةِ الشيخ خليلٍ ما نصُّه: مِنْ علاماتِ البُشْرى للميتِ أنْ يَصفَرَّ وجهُهُ، ويعرقَ جبينُه، وتذرفَ عيناهُ دموعًا، ومنْ علاماتِ السُّوءِ أنْ تَحْمرَّ عيْناهُ، وتَرْبَدَ شفتَاهُ ويَغطَّ كغطيطِ البَكْرِ، انتهى. و"تَرْبَد" بالراءِ المهمَلةِ، بعدَها باءٌ موحدةٌ، وفي آخرِه دالٌ مهمَلةٌ، قالَ في القاموسِ: الرُّبدةُ بالضمِّ لونٌ إلى الغبرةِ.

(رواه البخاريُّ ومسلمٌ) في صحيحَيْهما.

***

(١) أخرجه البزّار (٦٤٤٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه هانئ ابن المتوكل وهو ضعيف كما قال الهيثمي في المجمع (١٧٦٨٥) [كتاب الزهد- باب في جمود العين وقسوة القلب].

(٢) أبو الفيض ذو النون، وقيل: اسمه ثوبان بن إبراهيم، المعروف بالمصري، أصله من النوبة، وكان في إخميم بصعيد مصر، حمل إلى المتوكل فوعظه وأبكاه، ثم عاد إلى مصر، وكان حكيما فصيحا زاهدا، توفي سنة (٢٤٥). طبقات الصوفية (ص ٢٧). تاريخ بغداد (٨/٣٩٠)، وفيات الأعيان (١/٣١٦)

الحديثُ الخامسُ

٥. عنْ أمِّ المؤمنينَ أمِّ عبدِ اللهِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أحدَثَ في أمرِنا هذا مَا ليسَ منه فهو ردٌّ.

رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وفي روايةٍ لمسلِمٍ: (مَنْ عمِلَ عملاً ليسَ عليه أمرُنا فهو ردٌّ).

من مناقب السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

(**عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ**) في الاحترامِ والتعظيمِ وحرمةِ النكاحِ، دونَ الخلوةِ والنظرِ وتحريمِ البناتِ، وكذا يُقالُ في سائرِ أزواجه ﷺ. وهلْ يُقالُ لإخوتِهنَّ أخوالُهم، وأخواتِهنَّ خالاتُهم، ولبناتِهنَّ أخواتُهم؟! رجَّحَ جمعٌ المنعَ، ولا يُقالُ لآبائِهنَّ وأمهاتِهنَّ أجدادُ المؤمنينَ وجداتُهنَّ، ويُقالُ لهنَّ أمهاتُ المؤمناتِ أيضًا بناءً على أنَّ النساءَ يَدخُلْنَ في خطابِ الرجالِ تبعًا وتغليبًا. وهو ﷺ أبو المؤمنينَ في الرأفةِ والرحمةِ، ونَفْيُ أبوتِه في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، أُرِيدَ بها نفيُ أبوَّةِ النَّسبِ والتبنِّي، ولذلك لمْ يعشْ له ابنٌ حتَّى يصيرَ مِنَ الرجالِ.

(**أُمِّ عَبْدِ اللهِ**) كنَّاها النبيُّ ﷺ بابنِ أُختِها أسماءَ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ لمَّا سألَتْه في ذلكَ[1]، والصحيحُ أنَّها لمْ تلدْ قطُّ، وذَكَرَ السهيليُّ في الروضِ أنَّها ألقتْ سقطًا، ولمْ يَثْبُتْ.

(**عَائِشَةَ**) بالهمزةِ، وعوامُّ المحدِّثينَ يُبدلونَهُ ياءً، بنتِ أبي بكرٍ الصديقِ، واسمُه عبدُ اللهِ بنُ أبي قحافةَ، واسمُ أبي قحافةَ عثمانُ، وأمُّها أمُّ رُومانَ -بضمِّ الراءِ وسكونِ الواوِ على المشهورِ، وقالَ ابنُ عبدِ البرِّ في الاستيعابِ: يُقالُ بفتحِ الراءِ وضمِّها- بنتُ عامرِ بنِ عويمرِ بنِ عبدِ شمسٍ، (**رضيَ اللهُ عَنْها**).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٥٦) [مسند الصِّدِّيقة عائشة]، وأبو داود (٤٩٧٠) [كتاب الأدب- باب في المرأة تُكَنَّى]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

تزوَّجَها رسولُ اللهِ ﷺ بمكةَ في شوالٍ قبلَ الهجرةِ بسنتَيْنِ، وقِيلَ: بثلاثٍ، وقِيلَ: بنحوِ ثمانيةَ عشرَ شهراً، وهيَ بنتُ ستِّ سنينَ، وبنى بها بالمدينةِ في شوالٍ منصرفِهِ منْ بدرٍ، وهيَ بنتُ تسعٍ، وبقِيتْ عندَه تسعَ سنينَ[1]، وكانتْ أحبَّ النساءِ إلَيْه بعدَ خديجةَ، وعاشتْ بعدَه ﷺ أربعينَ سنةً.

وفي التفضيلِ بيْنها وبيْنَ خديجةَ أوجهٌ ذَكَرَها المصنِّفُ في "الروضةِ" ثالثُها الوقْفُ، واختارَ السبكيُّ في "الحلبيَّاتِ" تفضيلَ خديجةَ ثم عائشةَ ثُمَّ حفصةَ ثم الباقياتِ سواء.

واختُلِفَ في التفضيلِ بينَ عائشةَ وفاطمةَ على ثلاثةِ أقوالٍ ثالثُها الوقْفُ، والأصحُّ تفضيلُ فاطمةَ؛ لأنَّها بضعةٌ مِنْه، وقدْ صحَّحهُ السبكيُّ في الحلبياتِ وبالغَ في تصحيحِه، ولمْ يتزوجْ بِكْراً غيرَها.

ولَمَّا خَطَبَها مِنْ أبي بكرٍ قالَ له: يا رسولَ اللهِ إنَّها صغيرةٌ لا تَصلُحُ، ولكنْ أنا أرسلُها إلَيْكَ، فإنْ كانتْ تصلُحُ فهيَ السعادةُ الكاملةُ، فقالَ: إنَّ جبريلَ أتاني بصورتِها على ورقةٍ مِنَ الجنةِ، وقالَ: إنَّ اللهَ زوَّجَكَ بهذه، ثم ذهَبَ أبو بكرٍ إلى منزلِه ومَلأَ طبقًا مِنْ تمرٍ وغطَّاه، وقالَ: يا عائشةُ اذْهَبي بهذا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقولي له: يا رسولَ اللهِ هذا الذي ذكرتَه لأبي بكرٍ إنْ كانَ يصلحُ فمُبارَكٌ عَلَيْكَ، فمضتْ إلَيْه عائشةُ بالطَّبَقِ، وهيَ تظنُّ أنَّ أبا بكرٍ يَعني التَّمرَ، قالتْ عائشةُ: فدخلتُ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ وبلَّغْتُه الرسالةَ، فقالَ: قَبِلْنا يا عائشةُ قَبِلْنا، وجذبَ طرفَ ثوبي، قالتْ: فنظرتُ إلَيْه مُغضَبةً، ودَخَلْتُ عَلى أبي بكرٍ فأخبرتُه بما وَقَعَ، فقالَ يا بنيةُ لا تَظُنِّي برسولِ اللهِ ﷺ ظنَّ سوءٍ، إنَّ اللهَ تعالى قدْ زوَّجَكِ به، وإنِّي قدْ زوَّجْتُكِ منه، قالتْ عائشةُ: فما فرحتُ بشيءٍ أشدَّ مِنْ فَرَحي بقولِ أبي بكرٍ: "قدْ زوَّجتُكِ منهُ"[2].

(١) زواج النبيِّ ﷺ من عائشة أخرجه البخاري (٣٨٩٤) [كتاب مناقب الأنصار- باب تزويج النبيِّ ﷺ عائشة]، ومسلم (١٤٢٢) [كتاب النكاح- باب تزويج الأب البكر الصغيرة]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) ذكره السفيري في "شرح البخاري" (١/١٦٠) [المجلس السادس]، ولم يعزه. وأخرج الترمذيُّ (٣٨٨٠) [أبواب المناقب- باب من فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]، وغيره من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ جبريل، جاء بصورتها في خرقة حريرٍ خضراء إلى النبيِّ ﷺ فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

وقدْ ورَدَ أنَّها قالتْ للنبيِّ ﷺ: أرأيتَ لوْ نزلتَ واديًا فيه شجرةٌ قدْ أُكِلَ منْها، ووجدتَ شجرةً لمْ يؤكلْ منها، في أيهما كنت ترتع بعيرك؟ قال: (في التي لم يؤكل منها)، يَعني أنَّ النبيَّ ﷺ لمْ يَتزوَّجْ بِكرًا غيرَها[١].

وروِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عنْ قولِه تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٧]، فقالَ: نساءُ الدُّنْيا يَدخُلْنَ الجنةَ أبكارًا، فكُلَّما افتضَّها زوجُها تَرجعُ بِكرًا، فقالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: واوجَعاهُ، فقالَ -علَيْه الصلاةُ والسلامُ-: (لا وجعَ في الجنةِ يا عائشةُ)[٢].

وقالَ -علَيْهِ الصلاةُ والسلامُ-: (خُذوا شطرَ دينِكم عنْ هذه الحميراءِ)[٣]، والحميراءُ تصغيرُ حمراءَ. وأتى عَمرُو بنُ العاصي إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: أيُّ الناسِ أحبُّ إليكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: عائشةُ، قالَ: ومِنَ الرجالِ؟ قالَ: أبوها، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: عُمرُ.[٤]

وعنْ أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (كَمُلَ مِنَ الرجالِ كثيرٌ، ولمْ يَكمُلْ مِنَ النساءِ إلَّا مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ، وفَضْلُ عائشةَ على النِّساءِ كفضلِ الثَّريدِ على سائرِ الطعامِ)[٥].

وعنْ هشامِ بنِ عروةَ عنْ أبيه، قالَ: كانَ الناسُ يتحرَّوْنَ بِهداياهُمْ يومَ عائشةَ، فاجتمعَ صواحِباتُها إلى أمِّ سلمةَ، فقُلْنَ: يا أمَّ سلمةَ إنَّ الناسَ يتحرَّونَ بِهداياهُمْ يومَ عائشةَ، ..

(١) أخرجه البخاري (٥٠٧٧) [كتاب النكاح- باب نكاح الأبكار]، وغيره من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه الثعلبي في التفسير (٩/٢١٠).
(٣) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٣٢) [حرف الخاء]: قال شيخنا -يقصد ابن حجر- في تخريج ابن الحاجب من إملائه: لا أعرف له إسنادًا، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلَّا في "النهاية" لابن الأثير ذكره في مادة (ح م ر)، ولم يذكر من خرَّجه، ثم نقل عن ابن كثير أنه سأل الحافظين المزِّي والذهبي عنه فلم يعرفاه.
(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٦٦٢) [كتاب أصحاب النبي ﷺ- باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا]، ومسلمٌ (٢٣٨٤) [فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصِّدِّيق]، وغيرهما من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٤١١) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب قول الله تعالى ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون﴾]، ومسلمٌ (٢٤٣١) [كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل خديجة أم المؤمنين]، وغيرهما من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

.. وإنَّا نُريدُ الخيرَ كما تُريدُ عائشةُ، فمُري رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يَأمُرَ النَّاسَ أنْ يُهدوا له حيثُ ما كانَ وحَيْثُ ما دَارَ، قالتْ: فذكرتْ ذلك أمُّ سلمةَ للنبيِّ ﷺ فأعرضَ عنْها، فلمَّا عادَ إليْها ذكرتْ له ذلكَ فأعرضَ عنها، فلمَّا كان في الثالثةِ ذكرتْ له ذلكَ، فقالَ: يا أُمَّ سلمةَ لا تُؤذيني في عائشةَ، فإنَّه واللهِ ما نزلَ عليَّ الوحيُ وأنَا في لحافِ امرأةٍ منكنَّ غيرَها(١).

ووَهبَتْها سودةُ يومَها وليلتَها، فكانَ لها يومانِ وليلتانِ دونَ بقيةِ أمهاتِ المؤمنينَ(٢).

وعنْ أبي سلمةَ: قالتْ عائشةُ: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ واضعًا يديهِ على مَعْرَفَةِ فرسِ دحيةَ الكلبيِّ، وهو يُكلِّمُه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ رأيتُكَ واضعًا يديكَ على مَعْرَفَةِ فرسِ دحيةَ الكلبيِّ وأنتَ تكلِّمُه، قالَ: أَوَرَأيتِه؟ قلتُ: نَعَمْ، قالَ: ذاكَ جبريلُ، وهو يُقرئُكِ السلامَ، قالتْ: وعليْهِ السلامُ، جزاه اللهُ مِنْ صاحبٍ ودخيلٍ خيرًا، فنِعْمَ الصاحبُ [ونِعْمَ] الدخيلُ(٣). وقالَ سفيانُ: الدخيلُ هو الضيفُ.

***

ذكر حادثة الإفك

وروى سعيدُ بنُ المسيبِ وعلقمةُ بن وقاصٍ وجماعةٌ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذَا أرادَ أنْ يُسافِرَ أقْرَعَ بينَ نسائِه فأيَّتُهنَّ خَرَجَ سهمُها خَرَجَ بِها رسولُ اللهِ ﷺ معه، فأقرَعَ بينَهنَّ في غزوةٍ فخرَجَ سهمُ عائشةَ، فخرَجَتْ معَ رسولِ اللهِ ﷺ وذلك بعدما أُنزلَ الحجابُ وهيَ تُحمَلُ في هودَجِها، حتى إذَا فَرَغَ رسولُ اللهِ ﷺ من غزوتِه وقَفَلَ راجعًا ودَنا مِنَ المدينةِ آذَنَ ليلةً بالرحيلِ، فقامتْ ومشتْ حتى جاوزتِ الجيشَ، فلمَّا قضتِ شأنَها أقبلتْ إلى الرحلِ فلمَستْ صدْرَها فإذا عقدٌ من جَزَعِ أظفارَ كانَ معَها لأختِها أسماءَ قدِ انقطعَ، فرجعتْ في طلَبِه، فحُمِلَ هودجُها ظنًّا

(١) أخرجه البخاري (٣٧٧٥) [كتاب أصحاب النبي ﷺ- باب فضل عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا]، وغيره من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٢١٢) [كتاب النكاح- باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها]، ومسلمٌ (١٤٦٣) [كتاب الرضاع- باب جواز هبتها نوبتها لضرتها]، وغيرهما من حديث.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٤٦٢) [مسند الصديقة عائشة]، والحميدي (٢٧٩) [أحاديث عائشة أم المؤمنين]، والطبراني (٣٦/٢٣) [مسند النساء باب نظر عائشة إلى جبريل]، والحاكم (٧/٤) [ذكر الصحابيات من أزواج رسول الله ﷺ] وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

أنّها فيهِ وسارَ القومُ، فرجَعَتْ بعدَ أنْ وجدَتْهُ فلمْ تَرَ أحدًا فيمَّمتِ المكانَ الذي كانتْ فيه، وقالتْ: إنَّ القومَ سيَفقِدوني فيَرجعونَ إليَّ. فبيْنَما هيَ جالسةٌ غلَبَتْها عيناها فنامتْ، وكانَ صفوانُ بنُ المعطلِ السلميُّ متأخرًا وراءَ الجيشِ فمَرَّ بها فرأى سوادَ إنسانٍ نائم فأتاها فعرفَها فاسترْجَعَ فاستيقظتْ باسترجاعه، ولمْ تَسمَعْ منه كلمةً غيرَ استرْجاعِه، فأناخَ راحلتَه ووَطِئَ عَلى يدِها حتَّى ركِبَتْ وانطلقَ يقودُ بها الراحلةَ، وهو موليهَا ظهرَهُ حتَّى أدركَ بها الجيشَ بعدَما نَزلوا، فرَمَوْها به، وقالَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سلولَ رئيسُ المنافقينَ: واللهِ ما نجتْ منهُ وما نَجَا منْها، وشَرَعَ في ذلكَ حسانُ بنُ ثابتٍ، ومِسطحُ بنُ أُثاثَةَ، وحمنةُ بنتُ جحشٍ زوجةُ طلحةَ بنِ عبدِ اللهِ وغيرُهم.

فلمَّا قدمتِ المدينةَ اشتكتْ وأقامتْ شهرًا، والناسُ يفيضونَ في قولِ أهلِ الإفكِ، وهيَ لا تَشعرُ بشيءٍ مِنْ ذلك، إلَّا أنَّه كانَ يَريبُها في وجعِها أنَّها كانتْ لا تَعرفُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ التَّلطُّفَ الذي كانتْ تَراهُ منهُ إذَا اشتكتْ، وإنَّما كانَ يدخلُ علَيْها فيُسلِّمُ ثم يقولُ: كيفَ تِيْكُمْ؟ حتَّى خرجتْ معَ أُمِّ مسطحٍ قِبَلَ المناصعِ التي يَتبرَّزْنَ فيها قريبًا منَ البيوتِ، وذلكَ قبلَ أنْ تُتخذَ الكنفُ، فلمَّا فرَغَتا مِنْ شأنِهما رَجَعَتَا فعثرتْ أُمُّ مسطحٍ في مرطِها، فقالتْ: تَعِسَ مِسْطحٌ، فقالتْ لها عائشةُ: بِئْسَ ما قُلْتِ، أتَسُبِّينَ رجلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ قالتْ أيْ بنيةُ، ألمْ تَسمَعِي ما قالَ؟ قالتْ: وما ذاكَ؟ فأخبرتْها بقولِ أهلِ الإفكِ فازدادتْ مَرضًا عَلى مرضِها.

فلمَّا رجعتْ إلى بيتِها استأذنتْ رسولَ اللهِ ﷺ في أنْ تأتِيَ أبويْها، وأرادتْ تيقُّنَ الخبرِ مِنْ قِبلِهما، فأذنَ لها رسولُ اللهِ ﷺ فجاءتْ إليْهما وقالتْ لأمِّها: يا أماهُ، وما الذي يتحدثُ النَّاسُ؟ فقالتْ أيْ بنيةُ، هوِّني عليكِ، فواللهِ لقلَّما كانتِ امرأةٌ وضيَّةٌ عندَ رجلٍ يُحبُّها ولها ضرائرُ إلَّا أكثرنَ علَيْها، فقالتْ: سبحانَ اللهِ، وقدْ تحدَّثَ النَّاسُ بهذا؟ وبكتْ تلكَ الليلةَ حتَّى أصبحتْ وهيَ تَبْكي.

ودَعا رسولُ اللهِ ﷺ عليَ بنَ أبي طالبٍ وأسامةَ بنَ زيدٍ حينَ لبثَ شهرًا لا يُوحى إليْه في شأنِها ليَستشيرَهما في فراقِها، فأمَّا أسامةُ فأشارَ على رسولِ اللهِ ﷺ بما يعلَمُ مَنْ براءةِ أهلِه،

فقالَ: يا رسولَ اللهِ هُمْ أهلُكَ ولا نعلَمُ إلَّا خيراً، وأمَّا عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقالَ: لمْ يُضيِّقِ اللهُ عليكَ، والنساءُ سواها كثيرٌ، وإنْ تسألِ الجاريةَ تصدقْكَ، فدَعا رسولُ اللهِ ﷺ بريرةَ، فقالَ: أيْ بريرةُ، هلْ رأيتِ مِنْ شيءٍ يريبُكِ؟ فقالتْ له: والذي بعثَكَ بالحقِّ نبيًّا ما رأيتُ عليْها قطُّ أمراً أغمصُه عليْها أكثرَ مِنْ أنَّها جاريةٌ حديثةُ السنِّ تَنامُ عنْ عجينِ أهلِها فيأتي الداجنُ فيأكلُه، فانتهرَها بعضُ أصحابِه، وقالَ لها: اصدُقي رسولَ اللهِ ﷺ فقالتْ: سبحانَ اللهِ، واللهِ ما علمْتُ عليْها إلَّا ما يعلمُ الصائغُ على تِبْرِ الذهبِ.

فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ وصعدَ المنبرَ، واستعذرَ منْ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سلولَ، وقالَ: يا معشرَ المسلمينَ مَنْ يَعذرُني في رجلٍ قدْ بلَغني أذاهُ في أهلِ بَيْتي؟ فواللهِ ما علمْتُ على أهْلِ بيتي إلا خيراً، ولقدْ ذَكَروا رجلًا ما علمْتُ عليْه إلَّا خيراً، وما كانَ يَدخُلُ عَلى أهْلي إلَّا مَعي، فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ فقالَ: أنا أعذرُكَ منه يا رسولَ اللهِ إنْ كانَ مِنَ الأوسِ قبيلتِنا ضربْنَا عنقَه، وإنْ كانَ مِنَ إخوانِنا الخزرجِ أمرتَنا ففعلْنَا فيه أمرَكَ، فقامَ سعدُ بنُ عبادةَ، وهو سيدُ الخزرجِ، وكانَ رجلًا صالحًا، ولكنْ أدركتْه الحميةُ فقالَ لسعدِ بنِ معاذٍ: لَعمرُكَ لا تقتلُه ولا تقدرُ على قتلِه، فقامَ أسيدُ بنُ حضيرٍ، وهو ابنُ عمِّ سعدِ بنِ معاذٍ، وقالَ لسعدِ بنِ عبادةَ: كذبتَ لَعمرُ اللهِ لَنقتُلنَّه فإنكَ منافقٌ تُجادلُ عنِ المنافقينَ، فثارَ الحيَّانِ الأوسُ والخزرجُ حتَّى همُّوا أنْ يَقتَتِلوا، ورسولُ اللهِ ﷺ قائمٌ على المنبرِ فلمْ يزلْ يُخفِّضُهم حتَّى سَكَتوا وسكتَ.

واشتدَّ الأمرُ على عائشةَ فاستأذنتْ عليْها امرأةٌ مِنَ الأنصارِ فأذِنتْ لها فجلستْ تَبكي معَها، فبيْنَما هما على ذلكَ إذْ دخلَ رسولُ اللهِ ﷺ فسلَّمَ ثم جلَسَ، ولمْ يكنْ يجلسُ عندَها منذُ قِيلَ فيها ما قِيلَ، فتَشهَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ ثم قالَ أما بعدُ يا عائشةُ، فإنَّه قدْ بلغَني كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيبرئُكِ اللهُ، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري اللهَ وتُوبي، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبِه ثم تابَ تابَ اللهُ عليه، فقالتْ لِأبيها أجبْ عنِّي رسولَ اللهِ ﷺ، فقالَ: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ اللهِ ﷺ، فقالتْ لِأمِّها: أجيبي عنِّي رسولَ اللهِ ﷺ، فقالتْ: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ اللهِ ﷺ، فقالتْ عائشةُ: إني واللهِ قدْ عرفتُ أنَّكم قدْ سمِعْتم بهذا حتَّى

استقرَّ فِي أنفسكم وصدَّقْتم به، ولَئِنْ قلتُ لكم إنِّي بريئةٌ، واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةٌ لا تُصدِّقوني، ولَئِنِ اعترفتُ لكُمْ بأمرٍ واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةٌ صدَّقْتموني، وإنِّي واللهِ لا أجدُ لي ولكم مثلًا إلَّا كما قالَ أبو يوسفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم تحولتْ واضطجعتْ على فراشِها.

وما كانتْ تظنُّ أنَّ اللهَ يُنزلُ في شأنِها وحْيًا يُتلَى، وإنَّما كانتْ ترجو أنَّ اللهَ تعالى يُري نبيَّه في المنامِ براءَتَها، فما فارقَ رسولُ اللهِ ﷺ مجلسَه ولا خرجَ منَ البيتِ أحدٌ حتَّى أنزلَ اللهُ الوحيَ على نبيِّه، فأخذَه ماكانَ يأخذُه من البرحاءِ عندَ نزولِ الوحيِ حتى إنَّه لَيتحدَّرُ منه مثلُ الجمانِ منَ العرقِ في اليومِ الشاتي مِنْ ثِقَلِ القولِ الذي أُنزلَ عليه، فلمَّا سرِّيَ عنه ﷺ إذا به يَضحَكُ، فكان أولَ كلمةٍ تكلَّمَ بِها رسولُ اللهِ ﷺ أنَّه قالَ: أبْشري يا عائشةُ، فإنَّ اللهَ قدْ برَّأكِ.

فقالتْ لها أُمُّها: قومي إلَيْه، فقالتْ: لا واللهِ، لا أقومُ إلَيْه ولا أحمدُ إلَّا اللهَ -عزَّ وَجَلَّ- الذي أنزلَ بَراءتي، فأنزلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشرَ آياتٍ مِنْ سورةِ النورِ [النور: ١١-٢٠]، فقالَ أبو بكرٍ، وكانَ يُنفِقُ على مِسطحٍ لِقرابته منه وفقرِه وفاقتِه، واللهِ لا عدْتُ أُنفقُ عليه شيئًا أبدًا بعدَ أنْ قالَ في عائشةَ ما قالَ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وَجلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فقالَ أبو بكرٍ: واللهِ إني لأحبُّ أنْ يَغفرَ اللهُ لي، فأعادَ إلى مسطحٍ النفقةَ[1]، وأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بالذين رموا عائشةَ فجُلِدوا الحدودَ جميعًا ثمانينَ ثمانينَ[2].

***

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤١٤١) [كتاب المغازي- باب حديث الإفك]، ومسلمٌ (٢٧٧٠) [كتاب التوبة- باب في حديث الإفك..]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الطبراني مطوَّلًا (١١٦/٢٣) [مسند النساء- قصة الإفك، وما أنزل الله من براءتها]، وقال الهيثمي في المجمع (١٥٢٩٨) [كتاب المناقب- باب حديث الإفك]: ورجاله رجال الصحيح، إلا أن بعض هذا يخالف ما في الصحيح.

تنبيهٌ: في ضبطِ بعضِ ما تقدَّمَ قولِه مِنْ "جَزَعِ أظفارَ" خرزٌ ملونٌ -بفتحِ الجيمِ والزاي، وقدْ تسكنُ- وهو مضافٌ إلى أظفارَ مدينة باليمنِ، وقولُه: "هودجُها" هو مركَبٌ مِنْ مراكبِ النساءِ يُشبِهُ القبةَ، وقولُه: "سوادُ إنسانٍ" أيْ شخصُه، وقولُه: "يُفيضونَ" أي يَأخذونَ ويَرفعونَ في التحدُّثِ به، ومنه حديثٌ مستفاضٌ، وقولُه "الإفكُ" أيِ الكذبُ، وقولُه "يَريبُها" أيْ يُشكِّكُها، وقولُه "تَيْكم" إشارةٌ للمؤنثِ والخطابِ للجماعةِ الحاضرينَ، وقولُه "المناصع" مواضعُ التبرُّزِ للحدثِ، الواحدِ منصع، وكانتِ المناصعُ خارجَ المدينةِ، وهو صعيدٌ فسيحٌ، وقولُه "يَتبرَّزْنَ فيها" المُتبرَّزُ -بفتحِ الراءِ- موضعُ قضاءِ الحاجةِ، وقولُه "وضيئة" أيْ حسنةٌ، وقولُه "أغمصُه" أيْ أعيبُها به، والغمْصُ العيبُ والطعنُ في الناسِ، وقولُه "الداجن" وهو ما يألَفُ البيوتَ مِنَ الحيوانِ كالشاةِ، وقولُه "مَنْ يَعذرُني" أيْ مَنْ يَنصرُني عليْه، والعاذرُ الناصرُ أيْ مَنْ يَقومُ بعُذري إنْ عاقبتُهُ عَلى سوءِ فعلِه، وقولُه "ألممتِ بذنبٍ" أيْ قارفتِ ووقعتِ فيه، وقولُه "من البرحاءِ" أيْ شدةِ الحُمَّى، وقولُه "مثلُ الجمانِ" هو -بتخفيفِ الميمِ- حبوبٌ مدحرجةٌ مثلُ اللؤلؤِ تُصنعُ من فضةٍ وغيرِها، وقد سمَّوْا الدرَّ جمانًا، وقولُه "في اليومِ الشاتي" أيِ البارِدِ، اهـ.

***

وكانتْ عائشةُ صاحبةَ كرمٍ وزهدٍ، قالَ عطاءٌ: بعثَ لها معاويةُ بطوقٍ مِنْ ذهبٍ فيه جوهرٌ قيمتُه مائةُ ألفٍ، فقسَّمتْه بينَ أزواجِ النبيِّ ﷺ. وعنْ أمِّ درةَ وكانتْ تغشى عائشةَ أنَّه بعثَ إليْها عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ بمالٍ في غِرارتَيْنِ، قالتْ أراهُ ثمانينَ ومائةَ ألفٍ فدعتْ بطبقٍ، وهيَ يومئذٍ صائمةٌ فجلستْ تُقسِّمُه بينَ الناسِ فأمستْ وما عندَها مِنْ ذلك درهمٌ، فلمَّا أمستْ قالتْ يا جاريةُ هلُمِّي بفطرِي فجاءَتْها بخبزٍ وزيتٍ، فقالتْ لها أمُّ درةَ: ما استطعتِ مما قَسَّمْتِ اليومَ أنْ تشتريَ لنا بدرهمٍ لحمًا نُفطرُ عليْه، فقالتْ: لا تُعنِّفيني لو كنتِ أذكرتِني لفعلتُ[1]. وعنْ عروةَ قالَ: لقدْ رأيتُ عائشةَ تُقسِّمُ سبعينَ ألفًا، وهيَ تَرْقَعُ درعَها[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤٧/٢) [ترجمة السيدة عائشة].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٧٤٠) [كتاب الزهد- كلام عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا]، وأحمد في الزهد (٩١٦) [زهد عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا]، وأبو نعيم (٤٧/٢) [ترجمة السيدة عائشة].

وعنْ عوفِ بنِ مالكٍ أنَّ عائشةَ أُخبِرَتْ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ قالَ في بيعٍ أو عطاءٍ أعطتْه عائشةُ: لَتَنْتَهِيَنَّ عائشةُ أو لَأُحَجِّرَنَّ علَيْها، فقالتْ: أهوَ قالَ هذا؟ قالوا: نَعَمْ، فنذرتْ أنَّها لا تكلِّمُه أبدًا، فاستشفعَ ابنُ الزبيرِ إلَيْها حينَ طالَ ترْكُها له، فقالتْ: واللهِ لا أحنثُ في نَذْري، فلمَّا طالَ ذلك على ابنِ الزبيرِ كلَّمَ المِسْورَ بنَ مَخرمةَ وعبدَ الرحمنِ بنَ الأسودِ، وهما من بني زهرةَ، وقال أنشدُكما اللهَ إلَّا ما أدخلتُماني على عائشةَ فإنها لا يَحِلُّ لها أن تَنْذرَ قطيعَتي، فأقبلَ به المِسْورُ بنُ مَخرمةَ وعبدُ الرحمنِ مشتملَينِ بأرديتِهما حتى استأذَنا علَيْها فقالَا: السلامُ عليكِ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، أندخلُ؟ قالتْ عائشةُ: ادْخلوا، قالوا: كلُّنا؟ قالتْ: نَعَمْ، ادْخُلوا كلُّكم، ولا تعلمُ أنَّ معَهما ابنُ الزبيرِ، فلمَّا دَخَلوا خلعَ ابنُ الزبيرِ الحجابَ وطفِقَ يُناشِدُها ويَبكي، وطفِقَ المسورُ وعبدُ الرحمنِ يُناشدانِها إلَّا ما كلمته وقبلَتِ منه، ويقولانِ: إنَّ النبيَّ ﷺ نَهى عما قدْ علمتِ مِنَ التَّهاجرِ، وأنَّه لا يَحِلُّ لمسلمٍ أنْ يَهجُرَ أخاه فوقَ ثلاثِ ليالٍ، فلمَّا أكْثَروا على عائشةَ مِنَ التذكرةِ طفِقَتْ تَبكي وتقولُ: إنِّي نذرتُ، والنذرُ شديدٌ، فلم يَزالا بها حتى كلَّمَتِ ابنَ الزبيرِ، وأعتَقَتْ في نذرِها ذلك أربعينَ رقبةً، وكانتْ تَذكُرُ نذرَها بعدَ ذلك فتَبكي حتى تُبَلِّلَ خِمارَها[1].

وعنْ عبدِ الرحمنِ بنِ القاسمِ عن أبيه أنَّ عائشةَ كانتْ تصومُ الدَّهْرَ ولا تُفطِرُ إلا يومَ الأضحى ويومَ الفطرِ[2]. وعنِ القاسمِ قالَ: كنتُ إذا غدوتُ أبدأُ ببيتِ عائشةَ أسلِّمُ علَيْها، فغدوتُ يومًا فإذا هيَ قائمةٌ تُسبِّحُ وتَقرأُ: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وتَدعو وتَبكي، فقمتُ حتى مللْتُ القيامَ، فذهبتُ إلى السوقِ لحاجتي ثم رجعتُ فإذا هيَ واقفةٌ كما هيَ تُصلي وتَبكي. وعن عامرٍ أنَّها كتبتْ لمعاويةَ: أمَّا بعدُ فإنَّ العبدَ إذا عَمِلَ بمعصيةِ اللهِ عادَ حامدُه منَ الناسِ ذامًّا[3].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٧٣) [كتاب الأدب- باب الهجرة]، وغيره.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٢٥٩) [كتاب الصيام- باب الصيام في السفر]، والبيهقي في السنن (٨٤٨٣) [كتاب الصيام- باب من لم ير بسرد الصيام بأسا..]، وغيرهما عن عروة ابن الزبير: (أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تصوم الدهر، في السفر والحضر).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٠٠) [باب الإخلاص والنية]، والحميدي في مسنده (٢٦٨) [أحاديث عائشة أم المؤمنين]، وأحمد في الزهد (٩١٧) [زهد عائشة]، وغيرهم من طرق عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وعنْ أبي موسى أنّه قالَ: ما أَشكَلَ علَيْنا -أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ- حديثٌ قَطُّ فسألْنَا عنه عائشةَ إلا وجدْنا عندَها منه علْمًا[1]، وعنْ مسروقٍ قالَ يحلفُ باللهِ: لقدْ رأَيْنا الأكابرَ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ يسألونَ عائشةَ عنِ الفرائضِ[2]، وقالَ الزهريُّ: لو جُمِعَ علمُ عائشةَ إلى علمِ جميعِ أزواجِ النبيِّ ﷺ وجميعِ النساءِ كانَ علمُ عائشةَ أكثرَ.

ولَمَّا مرِضتْ جاءَها ابنُ عباسٍ يَستأذِنُ علَيْها فأخبرَها بذلك ابنُ أخيها عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمنِ فقالتْ دعْني مِنِ ابنِ عباسٍ، فقالَ لَها: إنَّه مِنْ صالحي بيتِك جاءَ لِيسلِّمَ عليكِ ويودِّعُكِ، فقالتْ: ائذنْ له إنْ شئتَ، فلمَّا جلَسَ قالَ: أبشري فما بيْنكِ وبيْنَ أنْ تَلقَيْ محمدًا ﷺ والأحِبةَ إلا خروجُ الروحِ منَ الجسدِ، كنتِ أحبَّ نساءِ رسولِ اللهِ ﷺ إليْه، ولم يكُن يُحِبُّ إلا طَيِّبًا، وسقطتْ قلادتُكِ ليلةَ الأبواءِ فأصبحَ رسولُ اللهِ ﷺ في مكانه والناسُ ليسَ معهم ماءٌ فأنزلَ اللهُ -عزَّ وَجلَّ-: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]، وكانَ ذلك بسببِكِ، وأنزلَ براءتَكِ معَ الروحِ الأمينِ فأصبحَ ذلك يُتلى في مساجدِ اللهِ، فقالتْ: دعْني منكَ يا ابنَ عباسٍ، والذي نفسي بيدِه لوددْتُ أنِّي كنتُ نسيًا منسيًّا[3].

قالَ الواقديُّ: توفِّيتْ عائشةُ ليلةَ الثلاثاءِ لسبعَ عشرةَ خَلتْ مِنْ شهرِ رمضانَ سنةَ ثمانٍ وخمسينَ، وهيَ ابنةُ ستٍّ وستينَ، وقالَ غيرُهُ: توفِّيتْ سنةَ سبعٍ وخمسينَ، وأوصَتْ أنْ تُدفنَ بالبقيعِ معَ صواحِباتِهَا، وصلَّى علَيْهَا أبو هريرةَ، وكانَ خليفةً لمروانَ بنِ الحكمِ على المدينةِ حينَ خرجَ لحجِّهِ. رُوِيَ لَها ألْفَا حديثٍ وعشرةٌ، وقِيلَ ألفٌ وعشرةٌ، اتفقَا منْهَا على مائةٍ وأربعةٍ وسبعينَ، وانفردَ البخاريُّ بأربعةٍ وسبعينَ، ومسلمٌ بثمانيةٍ وستينَ.

***

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٨٨٣) [أبواب المناقب- باب من فضل عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا]، وغيره.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٣١٠٣٧) [كتاب الفرائض ما قالوا في تعليم الفرائض]، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٨١/٢٣) [مسند النساء]، والحاكم في "المستدرك" (١١١/٤)، وغيرهم.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٩٦) [مسند عبدالله بن العباس]، وأبو يعلى (٢٦٤٨) [أول مسند ابن عباس]، والطبراني (٢٣١/١٠) [باب العين]، وغيرهم.

(قَالَتْ) عائشةُ: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: مَنْ أَحْدَثَ) أيْ أنشأَ واخترعَ مِنْ قِبَلِ نفسِهِ أمرًا حادثًا، وهو المُسمَّى بالبدعةِ، وهي لغةً: مَا كانَ مُخترَعًا علَى غيرِ مثالٍ سابقٍ، ومِنْهُ قولُه تعالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أيْ موجِدُهَا علَى غيرِ مثالٍ سابقٍ، وقولُه تعالَى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وتكونُ في الخيرِ والشرِّ، فمِنَ الأوَّلِ جَمْعُ القرآنِ في المصاحفِ، وإخراجُ اليهودِ والنَّصارى مِنْ جزيرةِ العربِ، ومِنَ الثاني: المَكْسُ.

تعريف البدعة وجريان الأحكام الخمسة عليها

ويقرُبُ مِنْ ذلكَ قولُ مَنْ قَالَ: هيَ مَا لَمْ يَقعْ في زمنِهِ ﷺ سواءٌ دلَّ الشرعُ على:

- حُرمتِه كالمكوسِ والاشتغالِ بمذاهبِ أهلِ البدعِ المخالفةِ لِما عليه أهلُ السُّنةِ،
- أوْ كراهتِه كزخرفةِ المساجدِ، وتزويقِ المصاحفِ، والزيادةِ على الذكرِ المحدودِ بعدَ الصلاةِ، والاجتماعِ للدعاءِ يومَ عرفةَ بغيرِها، وإنِ استحبَّهُ جماعةٌ،
- أوْ وجوبِه كالاشتغالِ بعلومِ العربيَّةِ المتوقِّفِ علَيْها فهمُ الكتابِ والسنةِ،
- أو ندْبِه كصلاةِ التراويحِ جماعةً، وإقامةِ صورِ الأئمةِ والقضاةِ وولاةِ الأمورِ بخلافِ مَا كانَ عليهِ الصحابةُ بسببِ أنَّ المصالحَ والمقاصدَ الشرعيَّةَ لا تحصلُ إلَّا بعظمةِ الولاةِ في نفوسِ الناسِ، وذلكَ في زمانِ الصحابةِ إنَّما كانَ بالدِّينِ، وفيمَا بعدَهم إنَّما كانُوا يُعظِّمُونَ بالصُّورِ فيُطلبُ تفخيمُهَا حتَّى تصلُحَ المصالحُ، وقدْ كانَ عُمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يأكلُ خبزَ الشعيرِ والملحَ، ويفرضُ لعاملِه نصفَ الشاةِ في كلِّ يومٍ لعلمِه بأنَّ الحالةَ الَّتي هو علَيْها لوْ عملَهَا غيرُهُ لهانَ في نفوسِ الناسِ، ولمْ يحترِمُوه، وتجاسرُوا عليه بالمخالفةِ، فاحتاجَ أنْ يضعَ غيرَهُ في صورةٍ تحفظُ النظامَ، ولذلكَ لمَّا قدمَ الشامَ ووجدَ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ قدِ اتخذَ الحُجَّابَ والمراكبَ النفيسةَ والثيابَ الهائلةَ العليَّةَ وسلكَ مسلكَ الملوكِ، فسألَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ ذلكَ، فقالَ لَهُ: إنَّا بأرضٍ نحنُ فيهَا مُحتاجُونَ إلى هذا، فقالَ لَهُ: لَا آمرُكَ ولَا أنهاكَ[1]، ومعناهُ أنتَ أعلمُ بحالِكَ، هلْ أنتَ محتاجٌ إلى هذا فيكونُ حسنًا أوْ غيرُ محتاجٍ،

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣٣١/٥)، والاستيعاب لابن عبد البر، ترجمة معاوية بن أبي سفيان (١٤١٧/٣) وتاريخ ابن عساكر (١١٢/٥٩).

- أو إباحة كاتخاذِ المناخلِ للدقيقِ، ففي الآثارِ (أوَّلُ شيءٍ أحدثَهُ الناسُ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ اتخاذُ المناخلِ)(١)؛ لأنَّ تليينَ العيشِ وإصلاحَهُ مِنَ المُباحاتِ، فوسائلُهُ مباحةٌ، وكذَا الأكلُ بالملاعقِ، وقدْ حضرَ أبو يوسفَ صاحبُ الإمامِ أبي حنيفةَ مائدةَ الخليفةِ هارونَ الرشيدِ فطلَبَ الملاعقَ، فقالَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ قدْ قالَ جدُّكَ ابنُ عباسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، أيْ جَعلْنَا لهم أصابعَ يأكلُونَ بها، ولَمْ نجعلْهُم كالدوابِّ تأكلُ بأفواهِها، فأبَى أنْ يأكلَ إلَّا بالملاعِقِ، هكذَا ذكرَهُ بعضُهُم، والَّذي في الكشَّافِ عنْ نقلِ بعضِهِم أنَّهُ لمَّا ذَكَرَ له أبو يوسفَ ما ذكرَهُ ابنُ عباسٍ ردَّ الملاعِقَ، وأكلَ بأصابعِهِ(٢).

وحينئذ فالبدعةُ تعتريهَا الأحكامُ الخمسةُ، وإليهِ ذهبَ ابنُ عبدِ السلامِ والقرافي وغيرُهُما، وشرعًا: ما لَمْ يقعْ في زمنِهِ ﷺ ودلَّ الشرعُ علَى حُرمتِهِ، وعليهِ فهي خاصَّةٌ بالحادثِ المذمومِ.

ولمَّا أرادَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقاءَ الخوارجِ قالَ لهُ مُسافرُ بنُ عوفٍ: يا أميرَ المؤمنينَ لا تَسِرْ في هذهِ الساعةِ، وسِرْ في ثلاثِ ساعاتٍ تمضي مِنَ النَّهارِ، فقالَ له عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولِمَ؟ قالَ: إنَّكَ إنْ سرْتَ في هذهِ الساعةِ أصابَكَ وأصابَ أصحابَكَ بلاءٌ وضُرٌّ شديدٌ، وإنْ سرْتَ في الساعةِ التي أمرْتُكَ بها ظفرْتَ وظَهَرْتَ وأصبْتَ ما طلبْتَ، فقالَ عليٌّ: مَا كانَ لمحمدٍ ﷺ منجِّمٌ، ولَا لنَا مِنْ بعدِهِ ... -في كلامٍ طويلٍ يحتجُّ فيه بآياتٍ مِنَ التنزيلِ- فمَنْ صدَّقَكَ في هذَا القولِ لَا آمنُ عليهِ أنْ يكونَ كمنِ اتَّخذَ معَ اللهِ ندًّا أوْ ضِدًّا، اللهمَّ لَا طيرَ إلَّا طيرُكَ، ولَا خيرَ إلَّا خيرُكَ، ولَا إلَهَ غيرُكَ، ثُمَّ قالَ لهُ: نُكذِّبُكَ ونُخالِفُكَ، ونسيرُ في هذه الساعةِ التي تنهَانَا عنْهَا، ثُمَّ أقبلَ علَى الناسِ فقالَ: يا أيُّها الناسُ إيَّاكُمْ وتعلُّمَ النجومِ إلَّا ما تهتدونَ به في ظلماتِ البرِّ والبحرِ،

---

(١) أخرج البخاري (٥٤١٣) [كتاب الأطعمة- باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون]، من حديث سهل ابن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سئل: هل كانت لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ قال: ما رأى رسول الله ﷺ منخلًا، من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله. قال الحافظ في الفتح (٩/٥٨٤) [قوله باب النفخ في الشعير]: وأظنه احترز عما قبل البعثة لكونه ﷺ كان سافر في تلك المدة إلى الشام تاجرًا وكانت الشام إذ ذاك مع الروم والخبز النقي عندهم كثير وكذا المناخل وغيرها من آلات الترفه. وفي مسند الحارث(١١١٢) [كتاب الزهد- باب في عيش السلف]، من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (فوالذي بعثه بالحق ما رأى المناخل بعينه حتى قبضه الله عز وجل).

(٢) الكشاف (٢/٦٨٠).

إنَّما المنجِّمُ كالساحرِ، والساحرُ كالكافرِ، والكافرُ في النارِ، واللهِ لئنْ بلَغَني أنَّكَ تنظُرُ في النجوم وتعملُ بِها لأُخلدنَّكَ في الحبسِ ما بَقيتُ وبَقيتَ، ولأَحْرِمنَّكَ العطاءَ ما كانَ لي مِنْ سلطانٍ، ثُمَّ سارَ في الساعةِ التي نَهاه عنها فلَقِيَ القومَ وقتَلَهم[1]، وهيَ واقعةُ النهروانِ.

(فِي أَمْرِنَا) أيْ دينِنا، ويُطلَقُ الأمرُ علَى القولِ، كقولِه تعالى في سورةِ الكهفِ: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف: ٢١] أي قولَهم فيما بيْنَهُم، وعلى العذابِ كقولِه تعالى في هودٍ: ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [هود: ١٤] بمعنى وَجَبَ علَيْهم العذابُ وسوءُ الغرقِ، وعلى فتحِ مكةَ كقولِه في سورةِ براءةٍ ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] يعني فتحَ مكةَ، وعلى يومِ القيامةِ كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] يعني يومَ القيامةِ، وكقولِه في الحديدِ: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤] يَعني يومَ القيامةِ، وعلى الوحيِ كقولِه تعالى في (الم تنزيل): ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] يَعني يُنزِّلُ الوحيَّ منَ السماءِ إلى الأرضِ، وعلى الخبرِ كقولِه تعالى في سورةِ النساءِ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ﴾ [النساء: ٨٣] أي خبرٌ، ويُطلَقُ ويُرادُ به الشأنُ كقولِه تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]. ويُطلَقُ ويُرادُ به مصدرَ "أَمَرَ"، وهذا يُجمَعُ على أوامرَ، والذي بمعنى الشأنِ يُجمَعُ على أمورٍ.

معاني كلمة "أمر" في القرآن

وعبَّرَ عنِ الدينِ بالأمرِ؛ لأنَّه الأمرُ المهتمُّ بشأنِه، ومِنْ ثَمَّ جاءَ في روايةِ (دِينِنا)[2] وهو تفسيرٌ له، لا الأمرُ المقابلُ للنهيِ، فإنَّه اقتضاءُ فعلٍ غيرِ كَفٍّ مدلولٍ علَيْه أيْ على الكفِّ بغيرِ لفظِ نحو "كُفَّ"، فقولُه "اقتضاء" أي طَلَب، وهو يَتناولُ الطلبَ الجازمَ وغيرَه إذا كان غيرَ كفٍّ، وكذا إذَا كانَ كفًّا مدلولًا علَيْه بـ"كُفَّ" ومرادفِه كـ"اتْرُكْ" و"ذَرْ" و"دَعْ" بخلافِ الكفِّ المدلولِ علَيْه بغيرِ ذلك، كـ"لا تفعلْ" فإنَّه نَهيٌ، وعرَّفوه بأنَّه اقتضاءُ كفٍّ عنْ فعلٍ لا بقولِ "كُفَّ" ونحوِه.

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة (٥٦٤) [كتاب الطب- باب ما جاء في النظر في النجوم].

(٢) البغوي في شرح السنة [باب رد البدع والأهواء- كتاب الإيمان] (١٠٣)، وفي جزء أبو جعفر محمد بن سليمان ابن حبيب المعروف بلوين (٧١).

(هَذَا) إشارةٌ إلى جلالته ومزيدِ رفعته وعظمته على حدِّ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢]، وإنِ اختلَفَا في أداةِ الإشارةِ؛ إذْ ذلكَ أدلُّ على ذلكَ مِنْ هذا، وإلى إحضارِهِ في ذهنِ السامعِ كأنَّه يُخبِرُه مُشاهدًا له لِيتَميَّزَ عندَه أكملَ تمييزٍ، ولهذا أَتَى بما يُشارُ به لِلقريب بيانًا لحالِه في القربِ.

(مَا لَيْسَ مِنْهُ) أيْ ما لَيْسَ له فيه مُستَنَدٌ مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ، سواءٌ كانَ قوليًّا أو فعليًّا أو اعتقاديًّا.

(فَهُوَ رَدٌّ) أيْ مردودٌ على فاعلِه لِبُطلانِه مِنْ إطلاقِ المصدرِ على اسمِ المفعولِ كـ"خَلْقٍ ومَخلوقٍ" و"نَسْجٍ ومنسوجٍ"، ومنه قولُ بعضِهم: "أنتَ رَجَائي" أي مرجوِّي، وكأنَّه قالَ فهو غيرُ معتدٍّ به، ولا معوَّلٌ علَيْه، وهو عامٌّ مخصوصٌ بالحادثِ الذي دلَّ الشرعُ على حُرمتِه، لكنْ يُقيَّدُ بما إذَا كانَت حُرمتُهُ لِذاتِه كصلاةٍ مِنْ غيرِ ركوعٍ، أو لخارجٍ عنه لازمٍ كصلاةٍ بلا طهارةٍ، وأمَّا لو كانتِ الحرمةُ لِخارجٍ عنهُ غيرِ لازمٍ كصلاةٍ في أرضٍ مغصوبةٍ فلا تكونُ باطلةً، وقولُه "فهو" أيِ المحدثِ -بالفتحِ، ويصحُّ الكسرُ ويكونُ راجعًا لـ"منْ"- أيْ ناقصٌ مطرودٌ، وانظرْ هَلْ يَجري هنا ما قِيلَ في "زَيْدٌ عَدْلٌ" مِنْ كونِه عَلى حذفِ مضافٍ، أو أنَّهُ عَلى وجهِ المبالغةِ.

قالَ أبو العباسِ الإبيانيُّ[1] -مِنْ علماءِ الأندلسِ-: ثلاثٌ لو كُتِبْنَ على الظفرِ لوسعهن، وفيهنَّ خيرُ الدُّنيا والآخرةِ، اتَّبِعْ ولا تبتدعْ، اتَّضِعْ ولا ترتفِعْ، مَنْ وَرِعَ لا يَتَّسِعُ.

وروى الديلميُّ عنِ ابنِ مسعودٍ: "عملٌ قليلٌ في سُنَّةٍ خيرٌ مِنْ عملٍ كثيرٍ في بدعةٍ"[2]، ورَوَى ابنُ ماجهْ عنْ حذيفةَ مرفوعًا: "لا يَقبلُ اللهُ لصاحبِ بدعةٍ صلاةً ولا صومًا ولا صدقةً ولا حجًّا ولا عمرةً ولا جهادًا ولا صرفًا ولا عدلًا، يَخرجُ مِنَ الدينِ كما تَخرجُ الشعرةُ مِنَ العجينِ"[3].

---

(١) أبو العباس عبد الله بن أحمد بن ابراهيم بن إسحاق، المعروف بالإبياني، عالم إفريقية، وحافظ مذهب مالك، توفي سنة ٣٢٥. ترتيب المدارك (٦/١٠)، والديباج (١/٤٢٥).

(٢) أخرجه الديلمي كما في "كنز العمال" [حرف الهمزة: في الإيمان والإسلام- فصل في البدع] (١٠٩٦) وابن بطة في الإبانة [باب ما أمر به من التمسك بالسنة والجماعة] (٢٤٥) موقوفا من حديث ابن مسعود، وللحديث ألفاظ وطرق عن ابن مسعود وغيره، موقوفا ومرفوعا، والوقف أشبه.

(٣) سنن ابن ماجه (٤٩) [باب اجتناب البدع والجدل].

ورَوَى الخطيبُ والديلميُّ عنْ أنسٍ: "إذَا ماتَ صاحبُ بدعةٍ فقدْ فُتِحَ في الإسلامِ فَتْحٌ"(١).

ورَوَى الطبرانيُّ عنْ عبدِ اللهِ بنِ بشرٍ: "مَنْ وَقَّرَ صاحبَ بدعةٍ فقدْ أعانَ على هدمِ الإسلامِ"(٢).

وقالَ أبو عثمانَ الحيريُّ: مَنْ صحَّ إيمانُه، يهدي اللهُ قلبَه لاتباعِ السُّنَّةِ، وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: مَنْ داهنَ مبتدعًا سلبَه اللهُ حلاوةَ السُّنَنِ.

ويُحكى عنْ أحمدَ بنِ حنبلٍ أنَّه قالَ: كنتُ يومًا معَ جماعةٍ يتجرَّدونَ ويَدخُلونَ الماءَ فاستعملتُ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ: (مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فلا يدخُلِ الحمامَ إلا بمئزرٍ)(٣) فلمْ أتجرَّدْ، فرأيتُ في تلكَ الليلةِ في المنامِ قائلًا يقولُ: أبشِرْ يا أحمدُ، فإنَّ اللهَ غفَرَ لك باستِعْمالِ السُّنَّةِ، فقلتُ مَنْ أنتَ؟ فقالَ: جبريلُ، وقدْ جعلَكَ اللهُ إمامًا يُقتدى بكَ.

***

(رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وفي روايةٍ لمسلمٍ) في صحيحِه (**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا**)(٤) أحدَثَه هو أو أحدَثَه غيرُه فعمِلَ به، فهو أعمُّ مِنَ الأولِ.

---

(١) الخطيب في "التاريخ" [ترجمة: أحمد بن روح أبو يزيد البزاز] (٢٥٦/٥)، والديلمي في "الفردوس" (١١١٨)، من حديث أنس بن مالك.

(٢) الطبراني في "الأوسط"(٦٧٧٢) [باب الميم- من اسمه محمد] مرفوعًا، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وله عن معاذ بن جبل، في "الكبير"(٢٢٥/٣) [معاذ بن جبل- حديث خالد بن معدان عنه] مرفوعًا: (من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام)، وليس فيه عبد الله بن بشر. ولعله تصحف عن عبدالله بن بسر، فقد أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٢١٨/٥) [ترجمة خالد بن معدان] من حديث عبدالله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات [كتاب السنة وذم البدع- باب إهانة أهل البدع] (٢٧١/١)، وتعقبه الحافظ السيوطي في اللآلئ [كتاب السنة] (٢٣١/١)، وذكر له متابعات وشواهد بما يقوي حاله.

(٣) أخرجه أحمد (١٤٦٥١) [مسند جابر بن عبد الله]، والترمذي (٢٨٠١) [أبواب الأدب- باب ما جاء في دخول الحمام]، والنسائي (٤٠١) [كتاب الغسل والتيمم- باب الرخصة في دخول الحمام]، وغيرهم، من حديث جابر بن عبد الله، مطولاً ومختصراً، وعند الترمذي: (فلا يدخل الحمام بغير إزار).

(٤) مسلم (١٧١٨) [كتاب الأقضية- باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور].

وفي روايةٍ للبخاريِّ[1]: مَنْ فَعَلَ أَمْرًا (**لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا**) أيْ حُكمُنا وإذْننا، (**فَهُوَ رَدٌّ**) **أيْ** مردودٌ علَيْه، وإنْ لمْ يكنْ هو المُحْدِثَ له.

وقيلَ: إماتةُ بدعةٍ خيرٌ مِنْ إحياءِ سُنَّةٍ؛ لأنَّ البدعةَ إذَا استمرتْ صارتْ سُنَّةً.

وقالَ ﷺ: (مَنْ أهانَ صاحبَ بدعةٍ أمَّنه اللهُ يومَ الفزعِ الأكبرِ، ومَنْ أحبَّ صاحبَ بدعةٍ لم يؤمِّنْه اللهُ يومَ الفزعِ الأكبرِ)[2].

وكانَ الإمامُ مالكٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثيرًا ما يُنشِدُ هذا البيتَ:

وخَيْرُ أُمُورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةً * وَشَرُّ الأُمُورِ المُحْدَثَاتُ البَدَائِعُ

***

(١) لم يخرجه البخاري بهذا اللفظ، وإنما ذكر في تخريجه بلفظ: (من أحدث في أمرنا...) قال: رواه عبد الله بن جعفر المخرمي، وعبد الواحد بن أبي عون، عن سعد بن إبراهيم. قال الحافظ في "الفتح" (٣٠٢/٥): قوله: «وعبد الواحد بن أبي عون» وصله الدارقطني من طريق عبد العزيز بن محمد عنه بلفظ: (من فعل أمرا ليس عليه أمرنا فهو رد)، وليس لعبد الواحد أيضًا في البخاري سوى هذا الموضع.

(٢) أخرجه القضاعي في "الشهاب"(٥٣٨) [من أهان صاحب بدعة] مرفوعًا من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولفظه: (من أهان صاحب بدعة أمنه الله يوم الفزع الأكبر).

الحديثُ السادسُ

٦. عن أبي عبدِ اللهِ النُّعمانِ بن بَشيرٍ رَضِوَاللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ، وبينهُما أمور مُشتبِهاتٌ لا يعلمُهُنَّ كثيرٌ من الناسِ، فمن اتَّقى الشُّبُهاتِ فقدِ استبرأَ لدينه وعِرضِه، ومن وقعَ في الشُّبُهاتِ وقعَ في الحرامِ، كالرَّاعي يَرْعى حولَ الحِمى يُوشِكُ أنْ يرتَعَ فيهِ، ألا وإنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمى اللهِ مَحارمُه، ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغَةً، إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسدتْ فَسدَ الجسدُ كلُّه، ألَا وهِيَ القلبُ. رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ.

التعريف بالنعمان ابن بشير رَضِوَاللَّهُ عَنْهُمَا

(**عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ**) بفتحِ الباءِ الموحَّدةِ وكسرِ الشينِ المُعجَمةِ، ابنِ سعدِ ابنِ ثعلبةَ بنِ خَلَّاسٍ -بفتحِ الخاءِ المعجمةِ وتشديدِ اللَّامِ كما ضَبَطَه ابنُ ماكولا، وضَبَطَه المقدسيُّ وغيرُه بضمِّ الجيمِ وتخفيفِ اللامِ- ابنِ كعبِ بنِ الحارثِ بنِ الخزرجِ الأنصاريِّ، وُلِدَ على رأسِ أربعةَ عشرَ شهرًا مِنَ الهجرةِ على الأصحِّ، وهو أوَّلُ مولودٍ وُلِدَ للأنصارِ بعدَ الهجرةِ، كما أنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ المولودَ مَعَه في عامِه أوَّلُ مولودٍ للمهاجرينَ. قِيلَ: ماتَ النبيُّ ﷺ وللنعمانِ ثمانِ سنينَ وسبعةُ أشهرٍ، وهذا يَقْتَضِي صِحَّةَ تَحَمُّلِ الصبيِّ المُمَيِّزِ. وأُمُّه عمرةُ بنتُ رواحةَ أختُ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ، سكَنَ الكوفةَ، وكانَ واليًا علَيْها زمنَ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ، وكانَ استعمَلَه على حمصٍ قبْلَها، ولَمَّا ماتَ معاويةُ استعمَلَه يزيدُ علَيْها، فلمَّا ماتَ يزيدُ تَمَرَّوْنَ[1] أهلُها، فدعَا لابنِ الزبيرِ فخالَفوه وأَرادوا قتلَه فخَرَجَ هاربًا فاتَّبَعَه خالدٌ الكلاعيُّ فقتَلَه بقريةٍ مِنْ قُراها يُقالُ لها حربُ نيسانَ غِيلةً سنةَ خمسٍ وستينَ، وقيلَ أربعٍ وستينَ، وقيلَ ستٍّ وستينَ، وله أربعٌ وستونَ سنةً.

(١) جاء في المخطوط والمطبوع "غزون"، وهو تصحيف، و"تَمَرَّوْنَ أهلُها" يعني به أن أهل حمص تبعوا مروان بن الحكم وبايعوا له؛ ولما أراد النعمان أن يبايع لابن الزبير، خالفوه وأرادوا قتله.

وهو صحابيٌّ ابنُ صحابيٍّ ابنُ صحابيَّة، وأبوه بَشيرٌ هو القائلُ: يا رسولَ الله عَلِمْنَا كيفَ نُسلِّمُ عليْكَ، فكيفَ نُصلِّي عليْكَ إذَا نحنُ صلَّيْنا عليْكَ؟ فقالَ: (قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ وبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ في العالمينَ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ)(1)، وليسَ في الصحابةِ مَن اسمُه النعمانُ بنُ بَشيرٍ غيرَ هذا، وفيهم النعمانُ جماعاتٌ فوقَ الثلاثينَ.

رُوِيَ له مائةُ حديثٍ وأربعةَ عشرَ حديثًا، اتفقا منها على عشرةٍ، وانفردَ البخاريُّ بحديثٍ ومسلمٌ بأربعةٍ، ورَوَى عنه ابنُه محمدٌ وحميدُ بنُ عبدِ الرحمنِ والشعبيُّ وسالمُ بنُ أبي الجعدِ وسماكُ بنُ حربٍ وعميرٌ، ولم ينفردِ بروايةِ هذا الحديثِ بل رَواه أيضًا سبعةٌ مِنْ أكابرِ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

***

(**قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ**) فيه ردٌّ على مَنْ قالَ إنَّه لمْ يَسمَعْ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، وقدْ وقعَ في روايةِ مسلمٍ والإسماعيليِّ مِنْ طريقِ زكريا (وأَهْوَى النُّعْمانُ بِأُصبَعْيه إلى أُذُنَيْهِ)(2) إشارةً إلى تأكيدِ التصريحِ بالسماعِ.

(**يَقُولُ: إِنَّ الْحَلَالَ**) هو كالحِلِّ ما انحلتْ عنهُ التَّبِعاتُ، ضدُّ الحرامِ، وهو مِنْ بابِ "ضَرَبَ يَضْرِبُ"، وأما حَلَّ بالمكانِ فهو مِنْ بابِ "نَصَرَ يَنْصُرُ"، (**بَيِّنٌ**) أيْ ظاهرٌ مُتَّضِحٌ لا يَخفى حِلُّه كأكلِ الخبزِ والفواكهِ والكلامِ والمشيِ وغيرِ ذلكَ.

واعْلَمْ أنَّ أخْذَ المالِ إمَّا أنْ يكونَ باختيارِ المكلَّفِ أو بغيرِ اختيارِه كالإرثِ، والذي باختيارِه إمَّا أنْ يكونَ مِنْ غيرِ مالِكٍ كالأشياءِ المُباحةِ التي لم يسبقْ عليها ملكٌ أو تكونَ

---

(1) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٦٣٥٧) [كتاب الدعوات- باب الصَّلاة على النبيِّ ﷺ]، ومسلمٌ (٤٠٦) [كتاب الصلاة- باب الصَّلاة على النبيِّ] من حديث كعب بن عُجْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، ورُوِي عن عددٍ من الصحابة في الصحيحين وغيرهما.

(2) أخرجها مسلمٌ (١٥٩٩) [كتاب المساقاة- باب أخذ الحلال وترك الشبهات]، والإسماعيلي كما في فتح الباري (١٢٦/١) [قوله باب فضل من استبرأ لدينه]، وغيرهما.

من مالِكٍ، والذي يؤخَذُ من مالِكٍ إمَّا أنْ يؤخذَ كرهًا أو تراضيًا، والمأخوذُ كرهًا إمَّا أنْ يكونَ لسقوطِ عصمةِ المالك كالغنائم أوِ الاستحقاقِ للآخذ كالزكاةِ مِنَ الممتنعينَ، ومِنَ المأخوذِ كرهًا النفقاتُ الواجباتُ، والمأخوذُ تراضيًا إمَّا بعوضٍ كالبيعِ والصداقِ، وإمَّا بغيرِ عوضٍ كالهبةِ والصدقةِ، وجميعُ هذه الأقسامِ حلالٌ إذَا رُوعِيتْ شروطُ الشرعِ في تحصيلِها.

تعريف الحلال والحرام وبيان المشتبه بينهما

ثُمَّ إنَّ الحلالَ فسَّرَهُ الإمامُ مالكٌ والشافعيُّ بما لَمْ يردْ بتحريمِه دليلٌ، وأبو حنيفةَ بما دلَّ دليلٌ على حلِّه، وثمرةُ الخلافِ تَظْهَرُ في المسكوتِ عنه الذي جُهِلَ أصلُه، فعندَ مالكٍ والشافعيِّ هو من الحلالِ؛ إذْ هو الأشبهُ بيُسرِ الدِّينِ، وعندَ الحنفيِّ مِنَ الحرامِ، ويُعضِّدُ الأولَ ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، وقولُه في روايةِ البخاريِّ: (وسَكَتَ عنْ أشياءَ رحمةً لَكُمْ غيرَ نسيانٍ فلا تَبْحثُوا عنْها)[1].

(وَإِنَّ الْحَرَامَ) وفي روايةِ الطبرانيِّ (حَلَالٌ بَيِّنٌ وَحَرَامٌ بَيِّنٌ)[2] بالتنكيرِ، وسوَّغَ الابتداءَ فيه بالنكرةِ أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: الأشياءُ حلالٌ بَيِّنٌ وحرامٌ **(بَيِّنٌ)** أيْ ظاهرٌ منكشفٌ، وهو ما مُنِعَ منه شرعًا إمَّا لصفةٍ في ذاتِه ظاهرةٍ كالسُّمِّ والخمرِ، أو خفيَّةٍ كالزِّنا ومُذكَّى المجوسِ، وإمَّا لخللٍ في تحصيلِه كالرِّبا والغَصْبِ والسَّرِقةِ.

(وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ) أيْ شؤونٌ وأحوالٌ **(مُشْتَبِهَاتٌ)** جَمْعُ مُشتَبِهة، وهو ما لَيْسَ بواضحِ الحلِّ ولا الحرمةِ، وَقَدْ اختُلِفَ فيها على أقوالٍ:

الأولُ: ما اختَلَفَ فيه العلماءُ كالخيلِ، فإنَّها محرمةٌ عندَ مالكٍ؛ لأنَّ لامَ العلةِ في قولِه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] تُفيدُ الحصرَ عندَه، ومباحةٌ عندَ غيرِه.

الثاني: المكروهُ، وبه قالَ الماورديُّ؛ لأنَّه عقبةٌ بينَ الحلالِ والحرامِ فالورعُ تركُه.

(١) أخرجه الدار قطني (٤٣٩٦) [كتاب الرضاع]، والحاكم (١١٥/٤) [كتاب الأطعمة]، وغيرهما من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وفي الباب عن أبي الدرداء، ولم أجد هذا اللفظ في صحيح البخاري، ولا عزاه أحد إليه.

(٢) أخرجها أحمد (١٨٣٤٧) [مسند الكوفيين- مسند النعمان بن بشير]، والبزار (٣٢٧٠) [مسند النعمان بن بشير]، وأبو عوانة (٥٤٦٦) [باب الخبر الدال على إيجاب اجتناب ما اختلف فيه من البيوع]، وغيرهم.

الثالثُ: معاملةُ الإنسانِ مَنْ في ماله شبهةٌ أو خالطَهُ حرامٌ، وبه قالَ الخطابيُّ، ومثلُ ذلكَ مَنْ أرادَ شراءَ شيءٍ، فقالَ له صاحبُه قبلَ الشِّراءِ: ذُقْهُ؛ لأنَّ إذنَه له بذلكَ لأجْلِ الشِّراءِ، وربما لا يقعُ بينهما بيعٌ، وكذا إذَا وَجَدَ في بيتِه مالًا لا يَدري أهو لَه أو لغيرِه، قالَ في حياةِ الحيوانِ: قيلَ: اختلطَ غنمُ الباديةِ بغنمِ الكوفةِ، فسألَ أبو حنيفةَ -رحِمَهُ اللهُ- كَمْ تعيشُ الشاةُ؟ فقيلَ لَهُ: سبعُ سنينَ، فتركَ أكلَ لحمِ الغنمِ سبعَ سنينَ.

الرابعُ: ما لَمْ يردْ فيه نصٌّ مِنَ الشارعِ بتحليلٍ ولا تحريمٍ، كنباتٍ غيرِ مألوفٍ لَمْ تَعرفِ العربُ هلْ هو مُضرٌّ أمْ لا، قالَ في مختصرِ إحياءِ علومِ الدينِ: ومِن جُملةِ المُتشابهِ أنْ يكونَ الشيءُ مِمَّا قدِ اشتُرِيَ في الذمةِ ولكنْ قُضِيَ ثمنُهُ مِنْ مالٍ حرامٍ، إلَّا أنْ يكونَ تسلَّمَ الطعامَ قبلَ دفعِ ثمنِهِ بطيبِ قلبٍ وأكلَهُ قبلَ قضاءِ الثمنِ فهو حلالٌ بالإجماعِ، ولا ينقلبُ بأداءِ المالِ في مقابلتِه مِنَ الحرامِ حرامًا، بل غايتُهُ أنَّهُ لا تَبرأُ ذِمتُهُ فكأنَّهُ لم يقضِ الثَّمَنَ، فلا يحرمُ ما أكلَ وإنْ أبرأَ ذمتَهُ معَ العلمِ بكونِ الثمنِ حرامًا فهو براءةُ الذمةِ والحلِّ، اهـ.

ومُحصَّلُهُ أنَّ الأقسامَ أربعةٌ فإنِ اشتراهُ في الذِّمَّةِ ودَفَعَ الثَّمَنَ مِنْ قبلِ أنْ يُسلَّمَ إليهِ فهو مِنَ المُتشابِهِ؛ لأنَّ الذِّمَّةَ لَمْ تَبرأْ بِدفعِ الثَّمَنِ، وإنْ سُلِّمَ لهُ الطعامُ قبلَ قبضِ الثَّمَنِ بطيبِ قلبٍ وانشراحِ صدرٍ وأكَلَهُ قبلَ دفعِ الثَّمَنِ أيضًا فهو حلالٌ، وإنْ أبرأَ ذمَّتَهُ في القِسمَيْنِ معَ العلمِ بكونِ الثَّمَنِ حرامًا فهو يوجبُ براءةَ الذمَّةِ مِنَ الثَّمنِ وحِليَّةَ الشيءِ المُشترَى، اهـ.

وأفضلُ كسْبِ الرجلِ ما أكلَ مِنْ زراعتِهِ ثُمَّ صناعتِهِ ثُمَّ تجارتِهِ، وقدْ وَرَدَ أنَّ آدمَ كانَ زرَّاعًا، وأنَّ إدريسَ كانَ خيَّاطًا، وأنَّ نوحًا كان نجَّارًا، وأنَّ إبراهيمَ كانَ بزَّازًا، وأنَّ مِنَ الأنبياءِ مَنْ رَعَى الغنمَ بالأجرةِ إلى غيرِ ذلكَ[1]، وقالَ ﷺ: (ما أكلَ أحدٌ طعامًا خيرًا مِنْ أنْ يَأكلَ مِنْ عملِ يدِهِ، وكانَ داودُ لا يأكلُ إلَّا مِنْ عَمَلِ يدِهِ)[2].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٥٩٦) [كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين]، وإسناده واهٍ كما قال الحافظ في "الفتح" (٤/٣٠٦) [قوله باب كسب الرجل وعمله بيده].

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٠٧٢) [كتاب البيوع- باب كسب الرجل وعمله بيده] وغيره، من حديث المقدام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفي الباب عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقولُه: "مُشْتَبِهات" بِضمِّ الميم وسكونِ الشينِ المعجمةِ وفتحِ المثناةِ الفوقيَّةِ وكسرِ الباءِ الموحَّدةِ عَلى وزْنِ "مُفْتَعِلَات" كذا عندَ مسلم والبخاريِّ في روايةِ الأصيليِّ، وهو روايةُ ابنِ ماجهْ[1]، وفي روايةٍ للطبرانيِّ: (مُتَشَبِّهات)[2] بفتحِ التاءِ والشينِ وتشديدِ الباءِ الموحَّدةِ المكسورةِ، وفي روايةٍ لِلسمرقنديِّ: (مُشَبَّهات)[3] بفتحِ الشينِ وفتحِ الباءِ الموحَّدةِ المشدَّدةِ، وفي روايةٍ بكسرِها على صيغةِ اسم الفاعلِ أيْ مشَبِّهاتٍ أنفُسَها بالحلالِ، وإسنادُ ذلكَ إليْها مجازٌ، وفي روايةٍ بضمِّ الميم وسكونِ الشينِ وكسرِ الباءِ الموحَّدةِ المخفَّفةِ، ومعْناها كالثالثةِ إلَّا أنَّ هذهِ مِنْ بابِ الإفعالِ، وتلكَ مِنْ بابِ التفعيلِ، وعندَ الدارميِّ (مُتَشابِهَات)[4]، وفي روايةٍ لِلبخاريِّ بالإفرادِ، وفي روايةٍ لِأبي داودَ: (مُشْتَبِهة)[5] بالإفرادِ أيضًا، فهذهِ ثمانِ رواياتٍ، قالَ العراقيُّ: والمشهورُ الروايةُ الأولى.

قالَ الخطابيُّ: معنى مُشْتَبِهاتٍ أنَّها تَشتَبِهُ عَلى بعضِ الناسِ دونَ بعضٍ، لا أنَّها في نفسِها مُشتبِهةٌ عَلى كلِّ الناسِ لا بيانَ لها بلِ العلماءُ يَعرفونَها؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ علَيْها دلائلَ يَعرفُها أهلُ العلمِ، ولِذا قالَ:

(**لَا يَعْلَمُهُنَّ**)، لفظُ ابنِ ماجهْ: (لَا يَعْلَمُهَا)[6] وهو أرجحُ عندَ أهلِ العربيةِ؛ لأنَّ الأُولى في جمعِ ما لا يعقلُ أنْ يُعامَلَ معاملةَ المؤنثِ.

(**كَثيرٌ مِنَ الناسِ**) أيْ لا يَعلمُ حُكمَهُنَّ مِنَ التحليلِ والتحريمِ، وإلَّا فالذي يَعلَمُ الشبهةَ يعلمُها مِنْ حيثُ إنَّها مشكلةٌ، ووقَعَ في روايةِ البخاريِّ (لا يَعْلَمُها)[7] أيْ لا يعلمُ حُكْمَها،

---

(١) "صحيح مسلم" (١٥٩٩) [كتاب المساقاة- باب أخذ الحلال وترك الشبهات]، ورواية الأصيلي كما في "الفتح" (١٢٧/١) [قوله باب فضل من استبرأ لدينه]، وسنن ابن ماجه (٣٩٨٤) [كتاب الفتن- باب الوقوف عند الشبهات].

(٢) عزاها العيني للطبري. انظر "عمدة القاري" (٢٩٧/١)[قوله باب فضل من استبرأ لدينه].

(٣) أخرجها البخاريُّ (٥٢) [كتاب الإيمان- باب فضل من استبرأ لدينه].

(٤) سنن الدارمي (٢٧٢٧) [كتاب البيوع- باب في الحلال بيِّن والحرام بيِّن].

(٥) صحيح البخاري (٢٠٥١) [كتاب البيوع- باب الحلال بيِّن، والحرام بيِّن]، وسنن أبي داود (٣٣٢٩) [كتاب البيوع- باب اجتناب الشبُهات].

(٦) سنن ابن ماجه (٣٩٨٤) [كتاب الفتن- باب الوقوف عند الشبهات].

(٧) صحيح البخاريِّ (٥٢) [كتاب الإيمان- باب فضل من استبرأ لدينه].

وجاءَ ذلك مُفسَّرًا في روايةِ الترمذيِّ، ولفظُه (لا يَدري كثيرٌ مِنَ الناسِ أَمِنَ الحلالِ هيَ **أمْ مِنَ** الحرامِ)[1]، وقولُه: لا يَعلمُهنَّ كثيرٌ ... إلخ، أي ويعلمُهنَّ القليلُ.

***

اتقاء الشبهات وفضله

(فَمَنِ اتَّقَى) مِنَ التَّقْوَى، وهي لغةً: قِلَّةُ الكلامِ، والحاجزُ بينَ الشيئَيْنِ، واصطلاحًا: التحرُّزُ بطاعةِ اللهِ عنْ مخالفتِه، وامتثالُ أمرِه، واجتنابُ نَهيِه، اهـ. وقولُه: وامتثالُ أمرِه واجتنابُ نهيِه، هذا غيرُ منفكٍّ عمَّا قبْلَه، كمَا أنَّ ما قبْلَه كذلكَ، فالاقتصارُ على أحدِهما كافٍ، وأصلُ "اتَّقَى" اوتَقَى؛ لأنَّه مِنْ وَقَى وِقايةً، فقُلبتِ الواوُ تاءً، وأُدغمتِ التَّاءُ في التَّاءِ، وعَدَلَ عنْ "تَرَكَ" إلى "اتَّقَى" لِيُفيدَ أنَّ ترْكَها إنَّما يُعتدُّ به إذَا خَلا عنْ نحوِ رياءٍ وسمعةٍ.

(الشُّبُهَاتِ) -بدونِ الميمِ معَ ضمِّ الشينِ والباءِ- كذا عندَ مسلمٍ والبخاريِّ[2] جَمْعُ "شُبْهَةٍ" وهيَ ما يُخَيَّلُ للناظرِ أنَّه حُجَّةٌ ولَيْسَ كذلكَ، والمرادُ بِها هنا المُشتَبَهُ، وفي روايةِ غيرِ الإسماعيليِّ (المُشْتَبِهَاتِ) بالميمِ، والاختلافُ في لفْظِها مِنَ الرواةِ كالتي سَلَفَتْ، وهوَ مِنْ وضعِ الظاهرِ موضعَ المضمرِ تفخيمًا لشأنِ اجتنابِها والحذرِ منْها.

(فَقَدِ اسْتَبْرَأَ) بالهمزِ، وقدْ يُخفَّفُ، والسينُ للمبالغةِ أيْ بالغَ في البراءةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦]، أو للتأكيدِ كما في قولِه تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ومِنْ قولِهم: "استبرأَ الجاريةَ" إذَا عَلِمَ براءةَ رحِمِها مِنَ الحملِ، فأطلقَ العلمَ بالحصولِ وأرادَ الحصولَ.

(لِدِينِهِ) ممَّا يشينُه، **(وَعِرْضِهِ)** مِنَ الطَّعنِ فيه، وهو في الأصلِ رائحةُ الجسدِ وغيرِه طيبةً كانتْ أو مُنْتِنَةً، يُقالُ: طيِّبُ العرضِ، ومُنتِنُ العرضِ، وسقاءٌ خبيثُ العرضِ: إذَا كانَ مُنتِنًا، والعِرضُ أيضًا الجسدُ، وفي صفةِ أهلِ الجنةِ (إنَّما هو عرَقٌ يَسيلُ مِنْ أعراضِهم)[3] أيْ مِنْ

---

(١) سنن الترمذي (١٢٠٥) [كتاب البيوع- باب ما جاء في ترك الشبهات].

(٢) صحيح مسلم (١٥٩٩) [كتاب المساقاة- باب أخذ الحلال وترك الشبهات]، ولم أجدها عند البخاري، وعزاه الشرَّاح لمسلم والإسماعيلي.

(٣) ذكره بهذا اللفظ البغوي في "شرح السُّنة" (٢١٧/٧) [كتاب الحج- باب الخطبة يوم النحر بمنى] بلفظ:=

أجسادِهم، وأمَّا في الاصطلاحِ فهوَ -كما في النِّهايةِ- موضعُ المدحِ والذمِ مِنَ الإنسانِ سواءٌ كانَ في نفسِه أوْ سلفِه أو أهلِه، ولمَّا كانَ موضعُه النَّفْسَ حُمِلَ عليْها إطلاقًا للحال على المحلِّ.

قالَ الشاعرُ:

صُنِ الْعِرْضَ وَابْذُلْ كُلَّ مَالٍ مَلَكْتَهُ * فَإِنَّ ابْتِذَالَ الْمَالِ لِلْعِرْضِ أَصْوَنُ

ولَا تُطْلِقَنْ مِنْكَ اللِّسَانَ بِسَوْءَةٍ * فَعِنْدَكَ عَوْرَاتٌ وِللنَّاسِ أَلْسُنُ

وعَيْنُكَ إِنْ أَهْدَتْ إِلَيْكَ مَعَائِبًا * لِقَوْمٍ فَقُلْ يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ

وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَفَارِقْ مَنِ اعْتَدَى * [ودافِعْ] ولَكِنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

وأشارَ في الحديثِ الأولِ إلى ما يتعلَّقُ بالحقِّ، وبالثاني إلى ما يتعلَّقُ بالخُلُقِ.

وقَدِمَ على عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِسْكٌ وعَنْبَرٌ مِنَ البحرينِ، فقالَ: واللهِ لَوددْتُ أنِّي وجدتُ امرأةً حسنةَ الوزنِ تزنُ لي هذا الطِّيبَ حتَّى أقسِّمَهُ بينَ المسلمينَ، فقالت امرأتُه عاتكةُ: أنا جيِّدةُ الوزنِ، فأنَا أزنُ لك، قالَ: لا، فقالتْ: لِمَ؟ قالَ: لأنِّي أخْشى أنْ تأخُذيه فتجعليه هكذا، وأدخلَ أصابعَه في صدغَيْه، وتمسحين به في عنقَكِ، فأصيبُ فضلًا مِن المسلمينَ.

وعنِ الفُضَيْلِ أنَّه كانتْ له شاةٌ فأكلتْ شيئًا يَسيرًا مِنْ علفٍ لبعضِ الأمراءِ، فلمْ يَشربْ مِنْ لبنِها مِنْ بعدِ ذلك، حكاه في "الحدائق". وقيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ: ألَا تشربُ مِنْ ماءِ زمزمَ؟ فقالَ: لو كانَ لي دلوٌ لَشربتُ، وهو إشارةٌ إلى أنَّ الدلوَ مِنْ مالِ السُّلطانِ، فهوَ مِنَ المشتبهِ. وقالَ ابنُ المباركِ: لَأنْ أرُدَّ درهمًا مِنْ شبهةٍ خيرٌ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بمائةِ ألفٍ ومائةِ ألفٍ ومائةِ ألفٍ، وقدْ جاءَ في الأثرِ: مَنْ وقفَ موقفَ تهمةٍ فلا يَلومَنَّ مَنْ أساءَ الظنَّ به[1].

=(لا يتغوَّطون ولا يبولون إنما هو عرقٌ يجري من أعراضهم، مثل ريح المسك)، وبنحوه في الصحيحين: البخاريُّ (٣٣٢٧) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته]، ومسلمٌ (٢٨٣٤) [كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب أول زمرة تدخل الجنة].

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٧٤٧) [باب ذَمِّ المِراء]، وابن عساكر في "التاريخ" (٣٥٩/٤٤) [ترجمة عمر ابن الخطاب]، وغيرهما من كلام عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ولهذا لمَّا مرَّ المصطفى ﷺ ومعَهُ امرأتُه صفيةُ، فرآه رجلانِ فأسرَعا، فقالَ لهما: **(على** رسلِكما، إنَّها صفيةُ بنتُ حييٍّ) خوفًا عليْهما أنْ يَظنَّا به شيئًا فيَهْلَكا، فقالا: سبحانَ **اللهِ،** فقالَ: (إنَّ الشيطانَ يَجري مِن ابنِ آدمَ مجرى الدمِ، وقدْ خَشيتُ أنْ يَقذِفَ في قلوبِكما شرًّا)[١]، وكذا لمَّا رأى تمرةً ملقاةً قال: (لولا أخشى أنَّها صدقةٌ لأكلتُها)[٢].

وفي عطفِ العِرضِ على الدينِ دليلٌ على أنَّ طلبَ براءتِه مطلوبٌ ممدوحٌ كطلبِ براءةِ الدينِ، ومِنْ ثَمَّ ورَدَ (ما وُقِيَ به العرضُ صدقةٌ)[٣]، وعَلى طلبِ نزاهتِه مما يظنُّه الناسُ شبهةً، **ولو** مِمَّنْ علِمَ عدمَها في نفسِ الأمرِ، ومِن ثَمَّ لمَّا خَرَجَ أَنَسٌ لِصلاةِ الجمعةِ فرأى الناسَ راجعِينَ **منها** فدَخَلَ محلًّا لا يرونهُ، وقالَ: مَنْ لا يَستحي مِنَ الناسِ لا يَستحي مِنَ اللهِ[٤].

ولو أَمَرَه أحدُ أبوَيْه بأخذِ أو أكلِ شبهةٍ؟! فقالَ أحمدُ: لا يُطيعُهما، وتوقَّفَ آخرونَ، وقالَ بعضُ السلفِ: يُطيعُهما، وتوقَّفَ آخرونَ، وقالَ شارحُ المشكاةِ: الذي يتجهُ أنَّ الشبهةَ إنْ خفتَ ولمْ يكنْ على الولدِ في ذلك ضررٌ، وكانَ إنْ لم يفعلْ ذلك تأذَّى الوالدُ أذًى لَيْسَ بالهيِّنِ، جازَ، وإلَّا فلا، ثُمَّ إنَّ مُتعاطيَ الحلالِ الصرفِ الذي لمْ يُخالطْه شبهةٌ مِنْ جملةِ الذين لمْ تُسلَّطِ الأرضُ على أجسامِهم، وقدْ ذَكَرْناهم في شرحِ المقدمةِ العشماويةِ في أولِ بابِ الجنائزِ.

***

(وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ) فيه مِنِ اختلافِ الرواةِ ما تقدَّمَ **(وَقَعَ فِي الْحَرَامِ)** المحْضِ، ويَحتمِلُ معنَيَيْنِ:

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٢١٩) [كتاب الأدب- باب التكبير والتسبيح عند التعجب]، ومسلمٌ (٢١٧٥) [كتاب السلام- باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة]، وغيرهما من حديث السيدة صفية أمِّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٤٣١) [كتاب في اللقطة- باب إذا وجد تمرة في الطريق]، ومسلمٌ (١٠٧١) [كتاب الزكاة- باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله]، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه الطيالسي (١٨١٩) [مسند جابر]، وأبو يعلى (٢٠٤٠) [مسند جابر]، والحاكم (٢/٥٠) [كتاب البيوع]، وغيرهم من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧١٥٩) [باب الميم- من اسمه محمد]، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

أحدُهما: مَنْ أكثرَ مِنْ تعاطي الشبهاتِ صادَفَ الحرامَ، وهو لا يَشعرُ به.

والثاني: أنَّه يعتادُ التساهلَ ويتمرَّنُ عليْه، ويَجْسُرُ على شبهةٍ ثُمَّ أخرى أغلظَ منها، وهكذا حتَّى يقعَ في الحرام عمدًا، ومِنْ ثَمَّ قِيلَ: الصغيرةُ تَجُرُّ للكبيرة، وهيَ تَجُرُّ لِلْكُفرِ، ولذا قالَ تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ [آل عمران: ١١٢]، أيْ تدرَّجوا بالمعاصي إلى قتلِهم، فيتدرَّجُ مِنْ درجةٍ إلى أخرى بالتَّساهُلِ والتسمحِ، ومنه ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] نَهى عن المقاربةِ حذرًا مِنَ المواقعةِ، وقليلُ الشربِ يدعو إلى كثيرِه، والخلوةُ بالأجنبيةِ تدعو إلى الفجورِ، والقبلةُ للصائم تدعو إلى الوطءِ، وقالَ ﷺ: (لَعَنَ اللهُ السارقَ يَسرِقُ البيضةَ فتُقطَعُ يدُه، ويَسرِقُ الحبلَ فتُقطَعُ يدُه)[1] أي يتدرَّجُ بذلك إلى نصابِ السرقةِ فتُقطَعُ يدُه.

الوقوع في الشبهات وخطره

وقالَ هشامٌ: كنتُ أمشي خلفَ العلاء فيتوقَّى الطينَ، فدفعَه إنسانٌ فوقعتْ رجلُه في الطينِ فخاضَه فلمَّا وصلَ إلى البابِ قالَ لي: رأيتَ يا هشامُ؟ قلتُ: نَعَمْ، قالَ: كذلك المرءُ المسلمُ يتوقَّى الذنوبَ فإذَا وَقَعَ فيها خاضَها.

وقولُه: "وَقَعَ في الحَرَامِ" أيْ سَقَطَ فيه؛ لأنَّ الوقوعَ في الشيءِ السقوطُ فيه، وكلُّ سقوطٍ شديدٍ يُعَبَّرُ عنه بذلك، وإنَّما قالَ هنا: "وَقَعَ" دونَ "يوشِكُ أنْ يَقَعَ" عَلى وزنِ قولِه: "يوشِكُ أنْ يرتعَ" إمَّا تحقيقًا للوقوعِ وإمَّا لأنَّ حِمى الأملاكِ حدوده محسوسَةٌ يُدركُها كُلُّ ذي بَصَرٍ، فيجوزُ أنْ يَتحرَّزَ عنْها إلَّا أنْ تَغلبَهُ الدابَّةُ الجموحُ، وأمَّا حِمى اللهِ فهو مَعقولٌ لَا يُدرِكُهُ إلَّا ذَوُو البصائرِ، فربَّما يَحسِبُ الشخصُ أنَّه يَرتعُ حولَ الحِمى فإذَا هو في وسطِ محارمِه.

وما أوْرَدَه المؤلِّفُ هنا مِنْ ثبوتِ جوابِ الشرطِ هو روايةُ مُسلم، وأمَّا في روايةِ البخاريِّ فمحذوفٌ حيثُ قالَ: (ومَنْ وَقَعَ في الشبهاتِ كراعٍ يَرعى حولَ الحِمى يوشِكُ أنْ يُواقِعَه)[2] وحينئذٍ فـ"مَنْ" فيها موصولةٌ، والتقديرُ والذي وَقَعَ في الشبهاتِ مثلُ راعٍ يَرعى.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٧٨٣) [كتاب الحدود- باب لعن السارق إذا لم يسم]، ومسلمٌ (١٦٨٧) [في الحدود باب حد السرقة ونصابها]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) "صحيح البخاريِّ" (٥٢) [كتاب الإيمان- باب فضل من استبرأ لدينه].

(كَالرَّاعِي) لفظُ روايةِ البخاريِّ "كراعٍ" **(يَرْعَى)** الماشيةَ **(حَوْلَ الحِمَى)** -بكسرِ الحاءِ وفتحِ الميمِ المخفَّفةِ- أيِ المحميِّ، فأُطلِقَ المصدرُ على اسمِ المفعولِ، كذا قيلَ، وفيه نَظَرٌ؛ لأنَّ مصدرَ "حَمَى يَحْمِي" حِمايةٌ، وحينئذٍ فهو اسمُ مصدرٍ، والحِمى هو المكانُ الْمَحظورُ على غيرِ مالِكِه، بأنْ يمنعَ الإمامُ أو نائبُه مِنْ رَعْيِ مكانٍ لأجلِ مواشي الصدقةِ أو خيلِ المجاهدينَ، ووجهُ التشبيهِ أنَّ الراعيَ إذَا جرَّه رعيُه حولَ الحِمى إلى وقوعِه في الحِمى استحقَّ العقابَ، فكذلك مَنْ أكثرَ مِنَ الشبهاتِ حتى وَقَعَ في الحرامِ فإنَّه يَستحِقُّ العقابَ بسببِ ذلك، فالربُّ -جَلَّ جلالُه- حِمَى محارمَه كالجرائمِ على النفسِ والمالِ والعرضِ ومطلقِ المحارمِ، وقدْ حرَّمَ إبراهيمُ مكةَ، والشارعُ المدينةَ[1]، وحرَّمَ عُمَرُ السرفَ والربذةَ[2].

(يُوشِكُ) -بضمِّ الياءِ وكسرِ الشينِ المعجمةِ- مِنْ أفعالِ الْمُقارَبةِ العشرةِ، أيْ يَقرُبُ، ويُقالُ في ماضِيه: أَوْشَكَ، ومَنْ أنكرَ استعمالَه ماضيًا فقدْ غلطَ، ويُستعمَلُ منه اسمُ فاعلٍ فيُقالُ: موشِكٌ، إلَّا أنَّه نادرٌ، **(أَنْ يَرْتَعَ)** بفتحِ التاءِ فيه وفي ماضيه، وأصلُه الإقامةُ والبسطُ في الأكلِ والشربِ، ومنه قولُ إخوةِ يوسفَ ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] أيْ نتنعَّمُ ونلْهو، ومَنْ قرَأَ "نُرتِعُ" -بضمِّ النُّونِ وكسرِ التاءِ- معناه نُرْتِعُ إبِلَنَا **(فِيهِ)** أيْ تأكلُ ماشيتُه مِنْهُ.

(أَلَا) -بفتحِ الهمزةِ وتخفيفِ اللامِ- حرفُ استفتاحٍ، ومثلُها "أَمَا"، فإنْ وقَعَتْ "أَنْ" بعدَ "أَلَا" هذه كانتْ مكسورةً لا غيرُ نحو قولِه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وإنْ وقَعَتْ بعدَ "أَمَا" كانَ فِيها الكسرُ والفتحُ، تقولُ: "أمَا إنَّ زيدًا قائمٌ" بكسرِ إنَّ وفتحِها، وكذلك إذَا وقَعَتْ بعدَ "إذَا" على ما تقرَّرَ في علمِ العربيَّةِ، وألا يدلُّ على تحقيقِ ما بعدَه، وتدخلُ على الجملتَيْنِ نحو ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨]، وإفادتُها التحقيقَ مِنْ جهةِ تركيبِها معَ همزةِ الاستفهامِ ولا النافيةِ،

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢١٢٩) [كتاب البيوع- باب بركة صاع النبي ﷺ ومده]، ومسلمٌ (١٣٦٠) [كتاب الحج- باب فضل المدينة]، وغيرهما من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لها، وحرَّمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكة...) الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٧٠) [كتاب المساقاة- باب لا حمى إلا لله ولرسوله ﷺ]، وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهمزةُ الاستفهامِ إذا دخلتْ على النفيِ أفادتِ التحقيقَ نحو ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، قالَ الزمخشريُّ: ولكونها بهذا المنصبِ لا تَقعُ الجملةُ بعدَها إلَّا مصدرةً بنحوِ ما يتلقى به القسم نحو ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢].

(وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ) مِنْ ملوكِ العربِ **(حِمًى)** يحميهِ عنِ الناسِ ويَمنعُهم مِنْ دخولِه، فمَنْ دخَلَه أَوْقَعَ به العقوبةَ، ومَنِ احتاطَ لِنفْسِه لا يُقاربُ ذلك الحِمى خوفًا مِنَ الوقوعِ فيه، وقدْ كانَ كُليبٌ[1] إذَا مرَّ بمرعًى وأعجَبَه حَماهُ، وعلامةُ ذلك أن يَأخذَ جرْوًا فيَقطَعُ أذنَه وذَنَبَه ويتركُه في ذلك المكانِ يَنبَحُ، فإذَا سمعتِ العربُ نباحَه تجنَّبَتْ ذلك المَرْعى، وقيلَ: إنَّه كان يَعمَدُ إلى الروضةِ فإذَا أعجبتْه كتعَ قوائمَ كلبِه وألقاهُ في وسطِها فَحَيْثُ بَلَغَ عواءُ الكلبِ كانَ حِمًى لا يُرْعى، وفيه يَقولُ الشاعرُ[2]:

أَبَحْتَ حِمَى تِهَامَةَ بَعْدَ نَجْدٍ * وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحِ

(أَلَا) كَرَّرَهَا للدلالةِ على فخامةِ شأنِ مدخولِها وعظمِ موقعِه، **(وَإِنَّ)** بإثباتِ الواوِ كما في روايةِ أبي فروةَ لِلبخاريِّ، وبحذفِها كما في روايةِ غيرِه[3]، فَإِنْ قُلْتَ: مَا وجهُ ذكرِ الواوِ هنا وتَرْكِها؟ وما وجهُ ذكرِها في قولِه: "أَلَا إِنَّ في الجسدِ مضغةً"؟ فالجوابُ: أمَّا وجهُ ذكرِها فبالنظرِ إلى وجودِ التناسبِ بينَ الجملتَيْنِ مِنْ حيثُ ذِكْرُ الحِمى فيهما، وأمَّا وجهُ حذفِها فبالنَّظَرِ إلى بُعْدِ المناسبةِ بَيْنَ حِمى الملوكِ وبينَ حِمى اللهِ تعالى الذي هو الملِكُ الحقُّ، لا مُلْكَ حقيقةً إلَّا لَهُ تَعالى وتَقدَّسَ، وأمَّا وجهُ ذكرِها في قولِه: "أَلَا وَإِنَّ فِي الجسدِ مضغةً" فبالنظرِ إلى وجودِ المناسبةِ بينَ الجملتَيْنِ نظرًا إلى أنَّ الأصلَ في الاتقاءِ والوقوعِ هو ما كانَ بالقلبِ؛ لأنَّه عمادُ الجسدِ وملاكُه، وبه قوامُه.

---

(١) هو كُليب بن ربيعة، واسمه وائل، وكان سيد ربيعة، وكانت رياسة مُضر وربيعة له، وكان قد بلغ من عزّه أنه إذا مر بروضة أعجبته أو غدير كَتَّعَ كُليباً ثم رمى به هناك، فلا يسمع عُواء ذلك الكُليب أحد فيقرب ذلك الموضع. فكان يقال: أعز من كليبِ وائل، ثم غلب الكُليبُ على اسمه فقيل: أعزّ من كُليب. [الفاخر للمفضل بن سلمة]

(٢) البيت لجرير في مدح عبد الملك بن مروان، وليس كليب التغلبي، ومطلع القصيدة:

أتصحو أم فؤادكَ غيرُ صاحٍ * عشية همَّ صحبكَ بالرواحِ

(٣) ذكر الشراح أن هذا من رواية المستملي، انظر: "عمدة القاري" (٢٩٩/١) [باب فضل من استبرأ لدينه].

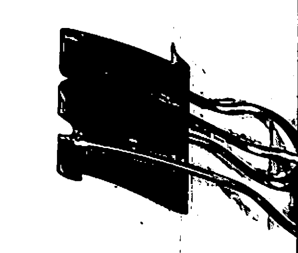
(**حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ**) أي المَعاصي التي حَرَّمَها، كذا في روايةِ الإسماعيليِّ، وفي روايةِ غيرِه (في أرضِه) بعدَ الجلالةِ، وفي روايةِ أبي فروةَ (معاصيه)[1]، ووقعَ في روايةِ الطبرانيِّ: (فإنَّ حِمى اللهِ في الأرضِ حلالُه وحرامُه)[2]، فزادَ الحلالَ، ومعناه -كما قالَ الحافظُ العراقيُّ- أنَّه حدَّ للحلالِ حدًّا وللحرامِ حدًّا، فلا إشكالَ فيه كما توهَّمه.

***

صلاح القلب وفساده

(**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ**) أي البدنِ؛ إذِ البدنُ هو الجسدُ ما سوى الأطرافِ أو ما سوى الرأسِ كما قالَ الأزهريُّ، (**مُضْغَةً**) أيْ قطعةَ لحم قدْرَ ما يُمضَغُ في الفم، لكنَّها وإنْ صَغُرتْ في الحجمِ والصورةِ عظُمَتْ في القدرِ والرتبةِ ومِنْ ثَمَّ كانتْ (**إِذَا صَلَحَتْ**) بالإيمانِ والعلمِ والعرفانِ، وهو بفتحِ اللامِ وضمِّها، والفتحُ أفصحُ وأشهرُ، (**صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ**) بالأعمالِ والإخلاصِ والأحوالِ (**وَإِذَا فَسَدَتْ**) بالجحودِ والكفرانِ، وهو بفتحِ السينِ وضمِّها أيضًا، والفتحُ أفصحُ وأشهرُ كذلكَ، (**فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ**) بالفجورِ والعصيانِ، ومِنْ ثَمَّ قِيلَ: إنَّ القلبَ كالمَلِكِ والجسدَ والأعضاءَ كالرعيةِ، ولا شكَّ أنَّ الرعيةَ تصلحُ بصلاحِ الملكِ وتفسدُ بفسادِه، وأيضًا هو كالأرضِ، وحركاتُ الجسدِ كالنباتِ، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] وأيضا هو كالعينِ، والجسدُ كالمزرعةِ، إنْ عَذُبَ ماءُ العينِ عَذُبَ الزرعُ، وإنْ ملُحَ مَلُحَ. ولمَّا سألَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رجلًا مِنْ رعيتِه: كيفَ حالُ أميرِكم؟ فقالَ له: يا أميرَ المؤمنينَ، إذَا طابتِ العينُ عذُبَتِ الأنهارُ.

وقدْ شُقَّ صدرُه ﷺ مراتٍ، وغُسِلَ قلبُه، واستُخرِجَ منه علقةٌ سوداءُ، وقيلَ هذا حظُّ الشيطانِ منْكَ، ثُمَّ طَهُرَ قلبُه وجسدُه[3] فصارَ فردًا.



---

(١) انظر فتح الباري (١/١٢٨) [قوله باب فضل من استبرأ لدينه].

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبوعوانة (٥٤٦٥) [باب الخبر الدال على إيجاب اجتناب ما اختلف فيه من البيوع]، والطبراني كما في كنز العمال (٧٣١٩) [الفصل الثاني: في تعديد الأخلاق المحمودة].

(٣) حادثة شقِّ الصدر واردةٌ عن عددٍ من الصحابة مخرَّجة في الصحيحين وغيرهما ثابتةٌ في ثلاثة مواضع:
الأول: وهو رضيع عند بني سعد: أخرجه مسلم (١٦٢) [كتاب الإيمان- باب الإسراء] وغيره عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
الثاني عند البعثة: أخرجه البزار (٤٠٤٨) [مسند أبي ذر]، وأبو نعيم في "الدلائل" (١٦٧) [الفصل الرابع عشر-

قالَ أحمدُ بنُ خضرويْه: القلوبُ أوعيةٌ، فإذَا امتلأتْ مِنَ الحقِّ أظهرتْ زيادةَ أنوارِها على الجوارحِ، وإذا امتلأتْ مِنَ الباطلِ أظهرتْ زيادةَ ظلمتِها على الجوارحِ.

وقالَ الغزاليُّ في الإحياءِ: القلبُ مثلُ قُبَّةٍ لها أبوابٌ تنصبُّ إلَيْها الأحوالُ مِنْ كُلِّ بابٍ، ومثلُ هدفٍ يُرمى إلَيْه بالسِّهامِ، ومثلُ مرآة منصوبة يجتازُ علَيْها الأشخاصُ فتَتَراءى فيها صورةٌ بعد صورةٍ، ومثلُ حوضٍ تنصبُّ إليه مياهٌ مختلفةٌ مِنْ أنهارٍ مفتوحةٍ، اهـ.

وقالَ بعضُهم: صلاحُ القلبِ في خمسةِ أشياءَ: قراءةِ القرآنِ بالتدبُّرِ، وخلاءِ الباطنِ، وقيامِ اللَّيْلِ، والتَّضرُّعِ عندَ السَّحَرِ، ومُجالَسةِ الصَّالحِينَ، ونَظَمَها بعضُهم فقالَ:

دَواءُ قَلْبِكَ خَمْسٌ عِنْدَ قَسْوتِهِ * فَدُمْ عَلَيْهَا تَفزْ بِالخَيْرِ والظَّفَرِ

خَلاَءُ بَطْنٍ وَقُرْآنٌ تَدَبُّرُهُ * كَذَا تَضَرُّعُ بَاكٍ سَاعَةَ السَّحَرِ

كَذَا قِيامُكَ جُنْحَ اللَّيْلِ أَوْسَطَهُ * وأَنْ تُجَالِسَ أَهْلَ الخَيْرِ والخَبَرِ

وزادَ بعضُهم العزلةَ والصمتَ وترْكَ خوضِ الناسِ، وزادَ آخرُ أكْلَ الحَلالِ، وهو رأسُها، فإنَّه يُنَوِّرُ القلْبَ ويُصلِحُه، فتزكو بذلك الجوارحُ، وتُدرأُ المفاسدُ وتَكثُرُ المصالحُ.

وأكلُ الحرامِ والشبهاتُ يُصْدِيه ويُظلِمُه ويُقْسِيه، وقدْ قِيلَ: إذَا صُمْتَ فَأَفْطِرْ عَلَى طعامِ مَنْ تَنظرُ، فإنَّ الرجلَ يأكلُ الأكلةَ فيشتعلُ قلبُه كالسُّمِّ فَلا يشبَعُ به أبدًا، وقيلَ: يُخافُ على آكلِ الحرامِ والشبهةِ أنْ لا يُقبَلَ له عملٌ ولا يُرفَعَ له دعاءٌ، ألَا تسمعُ قولَه تَعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وآكلُ الحرامِ والمسترسلُ في الشُّبهاتِ ليس بمتَّقٍ عَلى الإطلاقِ، ويعضِّدُه ما يأتي في حديثِ: (إن الله طيب ... إلخ)[1].

=في ذكر بدء الوحي]، وغيرهما من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

الثالث ليلة الإسراء: متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (رقم ٧٥١٧) [كتاب التوحيد- بابُ قوله: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)]، ومسلمٌ في صحيحه (رقم ١٦٢) [كتاب الإيمان- بَابُ الإسراء برسول الله ﷺ] من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وفي الباب عن أبي ذرٍّ ومالك بن صعصعة وأُبيِّ بن كعب.

(١) الحديث العاشر من الأربعين النووية.

حكايات في الورع

ولمَّا شَرِبَ أبو بكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جرعةً مِنْ لَبنِ استقاءها فأجهدَه ذلك حتى تقاياها، فقيلَ له: أَكُلُّ ذلك في شربةٍ؟ فقالَ: واللهِ لوْ لَمْ تَخرجْ إلَّا بنفسي لَأخرجتُها، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ كُلُّ لحمٍ نَبَتَ مِنْ سُحتٍ فالنارُ أَوْلَى به، فخَشيتُ أَنْ يَنبُتَ شيءٌ مِنْ جَسَدي من هذه الجرعةِ[1].

وروى أبو نعيم الأصفهانيُّ في حليتِه: أَنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانَ يَسأَلُ عَنْ طعامِه فجاءَ يومًا وهو جائعٌ، فقالَ لغلامِه: هلْ عندَكَ شيءٌ؟ فقالَ: نَعَمْ، قطعةُ لحمٍ، فقالَ اشْوِها وهاتِها، فلمَّا أَكَلَها قالَ له الغلامُ: ما لَكَ ما سألتَ عنْها على عادتِكَ، فقالَ كُنتُ جائعًا، فمِنْ أينَ هيَ؟ قالَ: مررْتُ على قومٍ مِنَ الجاهليةِ قدْ عمِلوا عُرْسًا فأَعْطوني هذه القطعةَ، فقامَ أبو بكرٍ فلمْ يزلْ يتقيَّأُ حتى أخرجَها، وهيَ مصبغةٌ بالدمِ، فقيلَ له: يا صاحبَ رسولِ اللهِ ﷺ وما مقدارُ هذه؟ فقالَ: واللهِ لوْ لَمْ تَخرجْ إلَّا بروحي لَأخرجتُها، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: كُلُّ لحمٍ نَشَأَ عن سُحْتٍ، فالنارُ أَوْلَى به[2].

وقالَ الأستاذُ أبو القاسمِ[3] القشيريُّ رحمه الله تعالى:

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ: الورعُ تركُ كُلِّ شبهةٍ، وتركُ ما لا يَعنيكَ، وهو تركُ الفضلاتِ. وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كُنَّا ندعُ سبعينَ بابًا مِنَ الحلالِ خوفًا أَنْ نقعَ في بابٍ مِنَ الحرامِ، وقالَ ﷺ لِأبي هريرةَ: (كُنْ وَرِعًا تكنْ أعبدَ الناسِ)[4]. وذكرَ بسندِه عنِ السري السقطيِّ أنَّه

---

(١) لم أقف على هذه القصة مسندة، وأخرجها بنحوها أبو نعيم وغيره كما في الحديث بعده، وقوله: «كُلُّ لحم نَبَتَ مِنْ سُحت فالنارُ أَوْلَى به» أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (٨٥٩٧) [باب الميم – من اسمه منتصر]، والحاكم في "المستدرك" (١٢٧/٤) [كتاب الأطعمة]، والبيهقي في "الشعب" (٥٣٧٥)، وغيرهم من حديث أبي بكرٍ رضي اله عنه مرفوعًا. وفي الباب عن عمر وحذيفة، وعبد الرحمن بن سمرة، وغيرهم.

(٢) "حلية الأولياء" (٣١/١) [ترجمة أبي بكر الصِّدِّيق].

(٣) جاء في المخطوط والمطبوع "أبو نعيم القشيري"، وصوابه: أبو القاسم القشيري، والنقل المذكور بطوله من "الرسالة القشيرية" (٢٣٣/١) [باب الورع].

(٤) "أخرجه أحمد (٨٠٩٥) [مسند أبي هريرة]، والترمذي (٢٣٠٥) [أبواب الزهد– باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس] وابن ماجه (٤٢١٧) [أبواب الزهد– باب الورع والتقوى]، وأبو يعلى (٥٨٦٥) [مسند أبي هريرة]، وغيرهم. ولفظ بعضهم: (اتق المحارم تكن أعبد الناس).

كانَ مِنْ أهلِ الورعِ في أوقاتهم أربعةٌ حذيفةُ المرعشيُّ، ويوسفُ بنُ أسباطٍ، وإبراهيمُ بنُ أدهمَ، وسليمانُ الخواصُ، فنظروا في الورعِ فلمَّا ضاقتْ عليْهم الأمورُ فزعوا إلى التقليل.

وقالَ الشبلي: الورعُ أنْ تتورَّعَ عمَّا سوى اللهِ تعالى. وقالَ إسحاقُ بنُ خلفٍ: الورعُ في المنطقِ أشدُّ منه في الذهبِ والفضةِ، والزهدُ في الرياسةِ أشدُّ منهُ في الذهبِ والفضةِ؛ لأنَّكَ تبذلُهما في طلبِ الرياسةِ. وقالَ أبو عبدِ اللهِ بنُ الجلاءِ: أعرفُ مَنْ أقامَ بمكةَ ثلاثينَ سنةً لم يشربْ مِنْ ماءِ زمزمَ إلَّا ما استقاهُ بركوته ورشائه، ولمْ يتناولْ منْ طعامٍ جُلِبَ مِنْ مِصْرَ. وقالَ يحيى بنُ معاذٍ: مَنْ لمْ يَنظرْ في دقيقِ مِنَ الورعِ لمْ يصلْ إلى جليلٍ مِنَ العطاءِ. وقالَ سفيانُ الثوريُّ: ما رأيتُ أسهلَ منَ الورعِ، ما حاكَ في نفسِكَ تركتَه.

وقيلَ: جاءتْ أختُ بِشْرِ الحافي إلى أحمدَ بنِ حنبلٍ، فقالتْ: إنَّا نغزلُ على سطوحنا، فتمرُّ بنا مشاعلُ الظاهريَّةِ، ويَقعُ الشعاعُ علَيْنا أفيجوزُ لَنا الغَزْلُ في شعاعِها، فقالَ لها: مَنْ أنتِ -عافاكِ اللهُ- قالتْ: أختُ بشرِ الحافي، فبَكى أحمدُ بنُ حنبلٍ، وقالَ مِنْ بيتِكم خَرَجَ الورعُ الصادقُ، لا تَغزلي في شعاعِها.

قالَ وسمعتُ أبا عليٍّ الدقاقَ[1] يَقولُ: كانَ الحارثُ المحاسبيُّ[2] إذَا مدَّ يدَه إلى طعامٍ فيه شبهةٌ ضَرَبَ على رأسِ أصبعِه عِرقٌ فيعلمُ أنه غيرُ حلالٍ.

وقالَ: إنَّ بشرًا الحافيَ دُعِيَ إلى دعوةٍ فوُضِعَ بيْنَ يدَيه طعامٌ، فجَهَدَ أنْ يمُدَّ يده إلَيْه فلمْ تمتدَّ ففعلَ ذلك ثلاثَ مراتٍ، فقالَ رجلٌ يعرفُ ذلك منه: إنَّ يدَه لا تمتدُّ إلى طعامٍ فيه شبهةٌ، ما كانَ أغنى صاحبَ الدعوةِ أنْ يَدعوَ هذا الشيخَ.

(١) شيخ الصوفية العارف الحسن بن علي بن محمد، الأستاذ أبو علي الدقاق النيسابوري، اشتهر ذكره في الآفاق وانتفع به الخلق ومنهم أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة وحكى عنه أحوالا وكرامات، توفي سنة (٤٠٦). تاريخ الإسلام (٩/١٠٤)، وطبقات السبكي (٤/٣٢٩)

(٢) أبو عبد الله الحارث بن أسد المُحَاسِبي البصري الأصل، عرف بهذه النسبة لكثرة محاسبته نفسه، من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات له التصانيف المشهورة منها "الرعاية لحقوق الله" وغيره وهو أستاذ أكثر البغداديين، مات ببغداد سنة (٢٤٣). حلية الأولياء (١٠/٧٣)، طبقات السلمي (ص ٥٨).

ودخلَ الحسنُ البصريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مكةَ فرأى غلامًا مِنْ أولادِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ أسندَ ظهرَه إلى الكعبةِ وهو يعظُ الناسَ، فوقفَ عليْه الحسنُ، وقالَ: ما ملاكُ الدِّينِ؟ فقالَ: الورعُ، فقالَ: فما آفةُ الدِّينِ؟ فقالَ: الطمعُ، فتعجَّبَ الحسنُ منه.

وقالَ الحسنُ: مثقالُ ذرةٍ مِنَ الورعِ خيرٌ مِنْ ألفِ مثقالٍ مِنَ الصومِ والصلاةِ، وأوحى اللهُ تعالى إلى موسى بنِ عمرانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا يتقرَّبُ إليَّ المُتقرِّبونَ بمثلِ الورعِ. وقالَ أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جلساءُ اللهِ غدًا أهلُ الورعِ والزُّهدِ. وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: مَنْ لَمْ يصحبْه الورعُ أكَلَ رأسَ الفيلِ ولَمْ يَشبعْ.

وقيلَ: حُمِلَ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مسكٌ مِنَ الغنائمِ، فقَبَضَ على مشامِّه، وقالَ: إنَّما يُنتفعُ مِنْ هذا بريحِه، وأنا أكرَهُ أنْ أجدَ رِيحَه دونَ المسلمينَ. وسُئِلَ أبو عثمانَ الحيريُّ عنِ الورعِ، فقالَ: كانَ أبو صالحٍ حمدونٌ عندَ صديقٍ له وهو في النزعِ فماتَ الرجلُ، فنفثَ أبو صالحٍ السراجَ، فقيلَ له: في ذلكَ؟ فقالَ: كانَ الدُّهنُ الذي في المسرجةِ له، ومِنَ الآنَ صارَ للوَرثةِ، اطلُبوا دهنًا غيرَه.

وقالَ كهمسُ[1]: أذنبتُ ذنبًا، فأنا أبْكي عليْه أربعينَ سنةً، وذلكَ أنَّهُ زارني أخٌ لي فاشتريتُ بدانقٍ سمكةً مشويةً، فلمَّا فرغَ أخذتُ قطعةَ طينٍ مِنْ جدارِ جاري حينَ غسلَ يدَه ولَمْ أستحلَّه.

وقيل كانَ رجلٌ يكتبُ رقعةً في بيتٍ بالكراءِ، فأرادَ أنْ يُتربَ الكتابَ مِنْ جدارِ البيتِ فخطرَ بباله أنَّ البيتَ بالكراءِ، ثُمَّ إنَّه خطرَ بباله أنه لا خطرَ لهذا فتربَّ الكتابَ، فسمعَ هاتفًا يقولُ: سينظرُ المستخفُّ بالترابِ ما يلقاهُ غدًا مِنْ طولِ الحسابِ.

ورَهَنَ أحمدُ بنُ حنبلَ سطلًا له عندَ بقَّالٍ بمكةَ، فلمَّا أرادَ فكاكَه أخرجَ البقَّالُ إليه سطلَيْنِ، وقالَ: خذْ أيَّهما لكَ، فقالَ أحمدُ: أُشكِلَ عليَّ سَطْلي، هو لكَ والدراهمُ لكَ، فقالَ البقَّالُ: سطلُكَ هذا، وإنَّما أردتُ أنْ أجرِّبَكَ، فقالَ: لا آخذُهُ، ومَضى وتركَ السطلَ والدراهمَ.

---

(١) أبو عبد الله كهمس بن الحسن العابد، أحد الثقات الأعلام، قال أحمد بن حنبل: ثقة وزيادة، وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، بارا بأمه، توفي سنة ١٤٩. حلية الأولياء (٦/٢١١)، سير أعلام النبلاء (٦/٣١٦).

وقيلَ: سيَّبَ ابنُ المباركِ دابةً قيمتُها كثيرةٌ، وصلَّى صلاةَ الظهرِ فرتعتْ في قريةٍ سلطانيَّةٍ، فتركَ ابنُ المباركِ الدابةَ ولَمْ يركبْها. وقيل: رجعَ ابْنُ المبارك مِنْ مروٍ إلى الشامِ في قلمٍ استعارَه، ولَمْ يردَّه على صاحبِه.

واستأجرَ النخعيُّ دابةً فسقطَ سوطُه منْ يدِه فنزلَ وربطَ الدابةَ، ورجعَ فأخذَ السوطَ، فقيلَ له: لو حولتَ الدابةَ إلى الموضعِ الذي سقطَ السوطُ فيه، فقالَ: إنَّما استأجرتُها لأمضيَ هكذا لا هكذا. وقالَ أبو بكرٍ الدقاقُ: تهتُ في تيهِ بَني إسرائيلَ خمسةَ عشرَ يومًا، فلمَّا وافيتُ الطريقَ استقبَلَني جنديٌّ فَسَقاني شربةً منْ ماءٍ فعادتْ قَسْوتُها على قَلْبي ثلاثينَ سنةً.

وقيلَ: خاطتْ رابعةُ شَقًّا في قَميصِهَا في ضَوْءِ شُعلةٍ سُلطانيَّةٍ، ففقدتْ قلبَها زمانًا حتى تفكَّرتْ فشقَّتْ قميصَها، فوجدتْ قلْبَها. ورُئِيَ سفيانُ الثوريُّ في المنامِ وله جناحانِ يطيرُ في الجنةِ مِنْ شجرةٍ إلى شجرةٍ، فقيلَ له: بمَ نلتَ هذا؟ قالَ: بالورعِ.

ومرَّ عيسى ابنُ مريمَ -علَيْه الصلاةُ والسلامُ- بمقبرةٍ، فنادى رجلًا منهم، فأحياه اللهُ -تعالى- فقالَ: مَنْ أنتَ؟ فقالَ: كنتُ حمَّالًا أنقلُ للناسِ، فنَقَلتُ يومًا لإنسانٍ حطبًا، فكَسَرتُ منه خلالًا تخلَّلتُ به، فأنا مطالبٌ به منذ متُّ. انتهى كلامُ القشيريِّ.

ولبعضِهم رَحِمَه اللهُ:

المرءُ إنْ كانَ عاقلًا ورعًا * أَشْغَلَهُ عَنْ عُيُوبِهِمْ وَرَعُهْ

كَمَا الْعَلِيلُ السَّقِيمُ أَشْغَلَهُ * عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَجَعُهْ

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (إنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ كانتْ نكتةٌ سوداءُ في قلبِه، فإذا تابَ ونزعَ واستغفرَ صقلَ قلبَه، وإنْ زادَ زادتْ حتى تعلو قلبَه، فذلكَ الرَّانُ الذي ذكرَهُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- في كتابِهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾)[1].

(١) أخرجه أحمد (٧٩٥٢) [مسند أبي هريرة]، والترمذي (٣٣٣٤) [أبواب تفسير القرآن- باب ومن سورة ويل للمطففين]، وابن ماجه (٤٢٤٤) [كتاب الزهد- باب ذكر الذنوب]، والحاكم (٥/١) [كتاب الإيمان]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصححه الترمذي والحاكم. والآية هي الرابعة عشر في سورة المطففين.

وعنِ الأعمشِ قالَ: كنَّا عندَ مجاهدٍ، فقالَ: القلبُ هكذا، وبَسطَ كفَّه، فإذا أذنبَ العبدُ ذنبًا قالَ هكذا، فعقد واحدًا، ثُمَّ إذَا أذنبَ -وعقدَ اثنين ثم ثلاثًا ثم ردَّ الإبهامَ على الأصابعِ في الذنبِ الخامسِ- يطبعُ اللهُ على قلبه، قالَ مجاهدٌ: فأيُّكم يَرى أنَّه لمْ يُطبَعْ على قلبِه.

وقالَ يَحيى بنُ معاذٍ: سقمُ الجسدِ بالأوجاعِ، وسقمُ القلبِ بالذنوبِ، فكما لا يَجدُ الجسدُ لذةَ الطعامِ عندَ سقمِه، فكذلك القلبُ لا يَجدُ حلاوةَ العبادةِ معَ الذنوبِ.

وقالَ خالدُ الربعيُّ: كانَ لقمانُ عبدًا حبشيًّا، فدفعَ مولاه إلَيْه شاةً، وقالَ: اذبحْها وأتني بأطيبِ مُضْغتَيْنِ منها، فأتاهُ باللِّسانِ والقلبِ، ثم دفعَ إليه شاةً أُخْرى وقال: اذْبحْها وأْتني بأخبثِ مضغتينِ منْها فأتاه باللِّسانِ والقلبِ، فسألَه مولاهُ عنْ ذلكَ، فقالَ: ما شيءٌ أطيبُ منْهما إذا طابَا، ولا أخبثُ منْهما إذا خَبُثا[1].

وقدْ قالَ زهيرٌ:

لِسَانُ الْفتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ * فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

(**أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**) وهو مضغةٌ في الفؤادِ معلقةٌ بالنياطِ، فهو أخصُّ مِنَ الفؤادِ كما قالَ الواحديُّ[2]، وقالَ البدرُ الزركشيُّ[3]: والأحسنُ قولُ غيرِه: الفؤادُ غشاءُ القلبِ، والقلبُ حبتُه وسُويْداؤُه، ويؤيدُ الفرقَ قولُه ﷺ: (ألينُ قلوبًا وأرقُّ أفئدةً)[4].

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٨/٥٤٨) [سورة لقمان- الآية: ١٢].

(٢) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، كان أوحد عصره وإمام وقته في التفسير، وهو صاحب"البسيط"، و"الوجيز"، و"الوسيط" في التفسير، وبهذه الأسماء سمَّى حجَّة الإسلام كتبه الثلاثة، ومن تصانيفه أيضًا "الدعوات" و"المغازى"، و"أسباب النزول"، و"شرح ديوان المتنبي"، وغير ذلك، توفي سنة ٤٨٦. انظر: و"فيات الأعيان" (٣/٣٠٣)، و"سير أعلام النبلاء" (١٣/٤٥٣).

(٣) بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، كان فقيها، أصوليا، أديبا، ودرّس وأفتى، وولي مشيخة خانقاه كريم الدين، له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ولقطة العجلان، في أصول الفقه، والبحر المحيط، وإعلام الساجد بأحكام المساجد، والديباج في توضيح المنهاج، وغير ذلك، توفي سنة ٧٩٤. طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٣/١٦٧)، والشذرات (٨/٥٧٢).

(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٣٨٨) [كتاب المغازي- باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن]، ومسلمٌ (٥٢) [كتاب الإيمان- باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي الصحاحِ أنَّهما مترادفانِ، فإن القلبُ يُعبَّرُ عنه بالفؤادِ، ومنه:

إنَّ الكلامَ لَفي الفؤادِ [1]

ويُعبَّرُ عنه بالصدرِ كما في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، ويُعبَّرُ عنه بالثيابِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، أيْ قلبَكَ فَطهِّرْ عَلى أحدِ التفاسيرِ، وقولُ الشاعرِ:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَهُ

أيْ قَلْبَه، وقدْ يُطلَقُ القلبُ على العقلِ مبالغةً كما في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أيْ عقلٌ، فلقيامِه به وعدمِ انفكاكِه عنه صارَ كأنَّه هو.

وسُمِّيَ القلبُ قلبًا لفرطِ تقلُّبِه، ولِذا وردَ في الحديثِ (إنَّ القلبَ كريشةٍ بأرضٍ فلاةٍ تُقلِّبُها الرياحُ بطنًا لظهرٍ)[2]، وقالَ بعضُهم:

ومَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ * فَاحْذَرْ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

وقالَ آخرُ:

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشُ بِهِ * قد ضَاعَ مِنِّي فِي تَقَلُّبِهِ

رَبِّ فَارْدُدْهُ عَلَيَّ فَقَدْ * عِيلَ صَبْرِي فِي تَطَلُّبِهِ

وأَغِثْ مَا دَامَ بِي رَمَقٌ * يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِ بِهِ

وقالَ آخرُ:

ومَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِنَسْيِهِ * ولَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

---

(١) جزء من بيت للأخطل، وتمامه:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا

(٢) أخرجه أحمد (١٩٧٥٧) [مسند الكوفيين- حديث أبي موسى]، وابن ماجه (٨٨) [باب في القدر]، والبزّار (٣١٩٠) [مسند أبي موسى]، وغيرهم من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أوْ لأنَّه خالصُ ما في البدنِ، وخالصُ كُلِّ شيءٍ قلبُه، أو لأنَّه وُضِعَ في الجسدِ مَقلوبًا، والقلبُ لغةً: صرفُ الشيءِ إلى عكسِه، ومنْه المقلوبُ.

فإنْ قُلْتَ هذا يَقتَضي أنَّ القلبَ هو أصلُ الصلاحِ والفسادِ، وقدْ نَرى الإنسانَ أوَّلًا ينظرُ ثمَّ يتأثرُ القلبُ كما قيلَ:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَؤُهَا مِنَ النَّظَرِ * وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

والْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا * فِي أَعْيُنِ الْغِيدِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ

كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا * فِعْلَ السِّهَامِ بِلَا قَوْسٍ ولَا وَتَرِ

يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ * لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ جَاءَ بِالضَّرَرِ

فهذا يدلُّ على أنَّ الجارحةَ تُفسِدُ القلبَ؟! فالجوابُ أنَّ الجوارحَ وإنْ كانتْ تابعةً للقلبِ فقدْ يتأثَّرُ القلبُ بأعمالِها للارتباطِ الذي بيْنَ الظاهرِ والباطنِ، فهوَ وإنْ كانَ صغيرَ الجرمِ، كبيرُ القدرِ، ولِذا سُمِّيَ الأعظمَ لكونِه عظيمَ القدرِ.

***

(رواه البخاريُّ) في كتابِ الإيمانِ والبيعِ **(ومسلمٌ)** في البيعِ، وهذا الحديثُ أصلٌ في القولِ بحمايةِ الذرائعِ الذي ذهبَ إليه إمامُنا مالكٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والله أعلمُ.

***

الحديثُ السابعُ

٧. عن أَبي رُقيَّةَ تميمِ بنِ أوسٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: الدِّينُ النصيحةُ، قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: للهِ، ولِكتابِهِ، ولِرسولِه، ولأئمةِ المسلمينَ وعامَّتِهم. رواه مُسلِمٌ.

التعريف بتميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومناقبه

(عَنْ أَبِي رُقَيَّةَ) -بضمِّ الرَّاءِ وتشديدِ المثنَّاة التحتيَّة مصغرًا- بنتِهِ لَمْ يولَدْ له غيرُها **(تميم بنِ أَوْسٍ)** -بفتحِ الهمزةِ وسكونِ الواوِ- ابنِ حارثةَ، وقيلَ: خارجةَ بنِ سويدٍ، وقيلَ: سوادِ بنِ خزيمةَ ابنِ ذراعِ بنِ عديٍّ بنِ الدارِ بنِ هانيِ بنِ حبيبِ بنِ نيمارةَ بنِ لخم، وهو مالكُ بنُ عديِّ بنِ الحرثِ بنِ مرةَ بنِ أددِ بنِ زيدِ بنِ يشخبَ بنِ يعربَ بنِ قحطانَ **(الداريِّ)** نسبةً إلى جدِّه الدارِ ابنِ هانئٍ، وقيلَ: إلى موضعٍ يُقالُ له دَارين، ويُقالُ له أيضًا الديريُّ نسبةً إلى دَيْرٍ كانَ يتعبَّدُ فيه **(رضي الله عنه)**.

كانَ نصرانيًّا فوفَدَ على رسولِ اللهِ ﷺ في جماعةٍ مِنَ الدارين منصرفِه مِنْ تبوكَ[1] فأسلمَ، وكانَ كثيرَ التهجُّدِ، يختِمُ القرآنَ في ركعةٍ، فنامَ ليلةً لَمْ يَقُمْ يتهجَّدُ فيها، فقامَ سنةً لَمْ يَنَمْ فيها عقوبةً لِلَّذي صَنَعَ، صلَّى ليلةً بـ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، وجَعَلَ يُرَدِّدُها ويَبكي حتَّى أصبحَ[2]. وعنْ صفوانَ بنِ سليم أنَّه قالَ: قامَ تميمٌ الداريُّ في المسجدِ بعدَ أنْ صلَّى العشاءَ فمرَّ بهذه الآيةِ ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] فما خَرَجَ مِنْها حتَّى سَمِعَ أذانَ الصبحِ. واشترى حُلَّةً بألفٍ كانَ يَقومُ فيها الليلَ[3].

(١) أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٣٤٣/١) [وفد الداريين].
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٨٣٣) [كتاب المواعظ]، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢٠٥٢) [كتاب الصلاة- باب جمع السور في ركعة]، وغيرهم عن مسروق، عن رجل من أهل مكة.
(٣) أخرجه ابن سعد في "الطبقات- متمم الصحابة" (٣٣٩)، وابن عساكر في التاريخ (٧٥/١١) [ترجمة تميم].

وعنْ محمدِ بنِ أبي بكرٍ عنْ أبيهِ قالَ: زارتْنا عَمْرةُ[1] فباتتْ عندَنا فقمتُ منَ الليلِ فلمْ أرفعْ صوتي بالقراءةِ، فقالتْ: يا أَخي ما منعَكَ أنْ ترفعَ صوتَكَ بالقراءةِ؟ فما كانَ يوقِظُنا إلَّا صوتُ معاذٍ القارئِ وتميمٍ الداريِّ[2].

ولقد قالَ عمرُ لِبَعضِ مَنْ قَدِمَ عَليهِ: اذهَبْ وانزلْ عَلى خيرِ أهْلِ المدينةِ، فنزلَ على تميمٍ، قالَ: فبيْنَما نحنُ نتحدَّثُ إذْ خَرَجَتْ نارُ الحَرَّةِ فجاءَ عُمَرُ إلى تميمٍ الداريِّ فقالَ: يا تميمُ اخرُجْ، فصَغَّرَ نفْسَهُ ثُمَّ قامَ فحاشَها حتَّى أدخلَها البابَ الذي خرجَتْ منْهُ، ثم اقتحمَ في إثْرِها ثم خَرَجَ فلمْ تَضُرَّهُ[3].

وهو أولُ مَنْ قَصَّ في المسجدِ بإذنِ عُمَرَ، وذَكَرَ لِلنَّبيِّ ﷺ قِصَّةَ الجسَّاسةِ والدَّجَّالِ إذْ وجدَه هو وأصحابُه فحدَّثَ النبيُّ ﷺ بذلكَ عَلى المنبرِ، وَعُدَّ ذلك مِنْ مناقبِهِ، ويدخلُ في ذلكَ روايةُ الأكابرِ عنِ الأصاغرِ، فقدْ قالتْ فاطمةُ بنتُ قيسٍ: سَمِعْتُ مناديَ رسولِ اللهِ ﷺ يُنادي: الصلاةُ جامعةٌ، فخرجتُ إلى المسجدِ فصلَّيتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ فلمَّا قضى صلاتَه جلَسَ على المنبرِ، وهو يضحَكُ، فقالَ: ليلزَمْ كُلُّ إنسانٍ مُصلَّاه، ثم قالَ: هلْ تَدرونَ لِمَ جمعتُكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قالَ: إنِّي -واللهِ- ما جمعتُكم لرغبةٍ ولا رهبةٍ، ولكنْ جمعتُكم لأنَّ تميمًا الداريَّ كانَ رجلًا نصرانيًّا فجاءَ وأسلمَ وحدَّثني حديثًا وافقَ الذي كنتُ أحدِّثُكم به عنِ المسيخِ الدَّجَّالِ.

---

(١) هي عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، الأنصارية النجارية المدنية، الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، حدثت عن عائشة، وأم سلمة، ورافع بن خديج، وحدث عنها ولدها أبو الرجال محمد بن عبد الرحمن، وابناه حارثة ومالك، وابن أختها القاضي أبو بكر بن حزم، وابناه عبد الله ومحمد، والزهري ، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وآخرون. وقد اختلفوا في وفاتها ، فقيل: توفيت سنة ثمان وتسعين، وقيل: توفيت في سنة ست ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء، الطبقة الثانية.

(٢) أخرجه ابن سعد في "الطبقات- متمم الصحابة" (٣٣٣) [ترجمة تميم]، وابن عساكر في التاريخ (١١/٧٩) [ترجمة تميم].

(٣) أخرجه أبو داود في الزهد (٣٨٠) [من أخبار جندب]، واللكائي في كرامات الأولياء (١١٣) [سياق ما روي في كرامات تميم الداري]، وغيرهما عن معاوية بن حرمل. وأفرد أخباره بالتصنيف المقريزي في "الضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري".

قصة الجسَّاسة والدجال

حدَّثني أنَّه رَكِبَ البحرَ في سفينةٍ بَحْرِيَّةٍ معَ ثلاثينَ رجلًا مِنْ لَخْمٍ وجذام، فلَعِبَ بِهِم الموجُ شهرًا في البحرِ، فأرفَئوا إلى جزيرةٍ -أيْ قارَبوها- حتَّى تغربَ الشمسُ، فجلَسوا في أقرُبِ السفينةِ -بضمِّ الرَّاءِ، جمعُ قارِبٍ بكسرِها، سفينةٌ صغيرةٌ يقالُ لها: سنبوكٌ- فدَخَلُوا الجزيرةَ فلَقِيَتْهم دابةٌ أهلبُ كثيرُ الشَّعرِ -وهو تفسيرٌ لِمَا قبْلَه-، لا يدرونَ ما قُبلُه مِنْ دُبرِهِ مِنْ كثرةِ الشَّعرِ، قالوا: ويلَكِ، ما أنتِ؟ قالتْ: أنَا الجسَّاسةُ -سُمِّيَتْ بذلكَ لتجسُّسِها الأخبارَ للدَّجَّالِ- قالوا: وما الجسَّاسةُ؟ قالتْ: أيُّها القومُ، انطلقوا إلى هذا الرجلِ في الدَّيرِ، فإنَّه إلى خبرِكم بالأشواقِ، قالَ: لمَّا سَمَّتْ لَنَا رجلًا فَرِقْنَا منها أنْ تكونَ شيطانةً، قالَ: فانطلَقْنَا سِراعًا حتَّى دخَلْنَا الديرَ، فإذَا فيه أعظمُ إنسانٍ، ما رأيْناه قطُّ خَلْقًا وأشدُّه وَثاقًا، مجموعةً يَداهُ إلى عُنُقِه، ما بينَ رُكبتَيْه إلى كعبَيْه بالحديدِ، قُلنَا: ويلَكَ، ما أنتَ؟ قالَ: قدْ قدرتُمْ على خَبَري، فأخبِروني، ما أنتمْ؟ قالوا: نحنُ أُناسٌ مِنَ العربِ، رَكِبْنا في سفينةٍ بحريةٍ، فصادفْنَا البحرَ حينَ اغتلمَ، فلعِبَ بنا البحرُ شهرًا، فدخلْنَا الجزيرةَ، فلَقِيَتْنَا دابةٌ أهلبُ كثيرُ الشَّعرِ، لا نَدري قُبُلَه مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كثرةِ الشَّعرِ، فقلْنا: ويلَكِ، ما أنتِ؟ فقالتْ: أنَا الجسَّاسَةُ، قُلْنا: وما الجسَّاسَةُ؟ قالتْ: أيُّها القومُ اعمدوا إلى هذا الرجلِ في الدَّيْرِ فإنَّه إلى خبرِكم بالأشواقِ، فأقبلْنا إليكَ سِراعًا، وفَرِقْنا مِنْها أنْ تكونَ شيطانةً.

فقالَ: أخبِروني عنْ نخلِ بيسانَ، قُلْنَا: عنْ أيِّ شأنِها تَستخبِرُ؟ قالَ: أسألُكم عنْ نخلِها، هلْ تُثمِرُ؟ قلنا: نعمْ، قالَ: أَمَا إنَّها يوشِكُ أنْ لا تُثمِرَ، قالَ: أخبِروني عنْ بُحيرةِ طبريَّةَ، هلْ فِيها ماءٌ؟ قُلْنا: هي كثيرةُ الماءِ، قالَ: إنَّ ماءَها يوشكُ أنْ يَذهَبَ، قالَ أخبِروني عنْ عَينِ زُغَرَ، هلْ في العَيْنِ ماءٌ؟ وهلْ يزرعُ أهلُها بماءِ العينِ؟ قلْنَا: نعمْ، هيَ كثيرةُ الماءِ، وأهلُها يَزرعونَ مِنْ مائِها، قالَ: أخبِروني عنْ نبيِّ الأُميِّينَ، ما فَعَلَ؟ قلْنا: خرجَ مِنْ مكةَ، ونَزَلَ يثربَ، قالَ: أقاتلَه العربُ؟ قُلْنا: نعمْ، قالَ: كيفَ صنعَ بِهم؟ فأخبرناه أنَّه قدْ ظَهَرَ على مَنْ يليه مِنَ العربِ وأطاعوه، قالَ: أمَا إنَّ ذلك خيرٌ لَهم أنْ يُطيعوه، وإنِّي مخبِرُكم عنِّي، إنِّي أنَا المسيحُ، وإنِّي يوشِكُ أنْ يؤذنَ لي في الخروجِ فأَخرجَ فأسيرَ في الأرضِ، فلا أدعَ قريةً إلا هبطتُها في أربعينَ ليلةً غيرَ مكةَ وطَيْبَةَ، هما مُحَرَّمتانِ عليَّ كلتاهما، كُلَّما أردتُ أنْ أدخلَ واحدةً مِنْهُما استقبلَني ملَكٌ بيدِه السيفُ صلْتًا يَصُدُّني عنْهما، وإنَّ على كُلِّ نقبٍ مِنهُما ملائكةً يَحرُسونَها.

قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ وطَعَنَ بمخصَرته في المنبرِ، هذه طيبةُ، هذه طيبةُ، هذه طيبةُ، يَعني المدينةَ، ألا هلْ كنتُ حدَّثتُكم، قالوا: نعمْ،[1] اهـ.

والنقبُ الطريقُ بينَ الجبلَيْنِ، وسكنَ تميمٌ بيتَ المقدسِ بعدَ قتلِ عثمانَ، وماتَ ودُفِنَ ببيتِ جبرينَ مِنْ أرضِ فلسطينَ سنةَ أربعينَ، وليسَ له في صحيحِ البخاريِّ روايةٌ ولا في مسلم إلَّا هذا الحديثَ.

***

(أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: الدِّينُ) -بكسرِ الدَّالِ- أيْ دينُ الإسلامِ، وهو ما شرعَه اللهُ لِعبادِه مِنَ الأحكامِ، وقدْ مرَّتْ معانيه في الخطبةِ.

تعريف النصيحة

(النَّصِيحَةُ) هِيَ كالنُّصحِ نقيضُ الغشِّ والخديعةِ، وهما لغةً: الإخلاصُ والتصفيةُ، مِنْ "نَصَحْتُ العسلَ" إذَا صفَّيْتُه مِنَ الشمعِ، شبَّهَ تخليصَ القولِ والفعلِ مِنَ الغشِّ بتخليصِ العسلِ مِنَ الشمعِ، أو مِنْ "نَصَحَ الرجلُ ثوبَه" إذا خاطَه بالمِنصحِ -بكسرِ الميمِ- وهيَ الإبرةُ التي يُخاطُ بها، والنِّصاحُ -بكسرِ النُّونِ وتخفيفِ الصادِ- الخيطُ، والنَّاصحُ الخيَّاطُ، شبَّهَ فِعْلَ الناصحِ فيما يتحرَّاه مِنْ صلاحِ المنصوحِ ولمِّ شعثِه بلمِّ الخيَّاطِ خللَ الثوبِ ولصقِ بعضِه ببعضٍ، ومنْه التوبةُ النَّصوحُ، كأنَّ الذنبَ يُمزِّقُ الدِّينَ، والتوبةَ تُخيطُه، و"نَصَحَ لَهُ" أفْصَحُ مِنْ "نَصَحَهُ". وشرعًا: إخلاصُ الرأيِ مِنَ الغشِّ للمنصوحِ، وإيثارُ مصلحتِه، وإنْ شئْتَ قلتَ: بذلُ المودةِ والاجتهادُ في المشورةِ.

وقولُه "الدِّينُ النَّصِيحَةُ" كرَّرَه ﷺ ثلاثَ مراتٍ، وهوَ: إمَّا على حذفِ مضافٍ أي عمادُ الدِّينِ وقوامُه، أي معظمُه النصيحةُ، على وزانِ (الحجُّ عرفةُ)[2]، ويدلُّ له روايةُ الطبرانيِّ (رأسُ

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٢) [كتاب الفتن وأشراط السَّاعة- باب قصة الجساسة]، وغيره من حديث فاطمة بنت قيس.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٧٧٤) [مسند الكوفيين- حديث عبدالرحمن بن يعمر]، وأبو داود (١٩٤٩) [كتاب المناسك- باب من لم يدرك عرفة]، والترمذي (٨٨٩) [أبواب الحج- باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج]، والنَّسائي (٣٠١٦) [كتاب مناسك الحج- فرض الوقوف بعرفة]، وغيرهم.

الدِّينِ النصيحةُ)[١] وإما على ظاهرِه إذِ النصيحةُ لم تُبْقِ مِنَ الدِّينِ شيئًا؛ لأنَّ مِنْ جُمْلَتِها الإيمانَ باللهِ ورسولِه وطاعتَهما والعملَ بما قالاهُ من كتابٍ وسنةٍ، وليس وراءَ ذلك مِنَ الدِّينِ شيءٌ، كيفَ وقدْ مرَّ في حديثِ جبريلَ إنَّ الدينَ هو الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ، وجميعُ ذلك مندرجٌ تحتَ ما ذُكِرَ مِنَ النَّصيحةِ، وهيَ تحري الإخلاصِ قولًا وفعلًا واعتقادًا، وبذلُ الجهدِ في إصلاحِ المنصوحِ سرًّا وجهرًا، وكُلُّ عملٍ لَمْ يُرِدْ به عاملُه الإخلاصَ فليسَ مِنَ الدِّينِ أصلًا، ومِنْ ثَمَّ لَمْ يكنْ في كلامِ العربِ أجمعَ مِنْها، كما أنَّ الفلاحَ ليسَ في كلامِهم أجمعَ لخيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ مِنْه.

(قُلْنَا) معشرَ السامعينَ: **(لِمَنْ)** فيه إشارةٌ أنَّ للعالمِ أنْ يَكِلَ فهمَ ما يُلقيه للسامعِ فلا يَزيدُ له في البيانِ حتَّى يسألَه، لِتشوُّفِ نفسه حينئذٍ إِلَيْه فيكونَ أوقعَ في نفسه مما إذَا فهمَه مِنْ أوَّلِ وهلةٍ. **(قَالَ)** ﷺ: **(للهِ)** بالإيمانِ به ونفيِ الشريكِ عنْهُ، وإخلاصِ الاعتقادِ في الوحدانيةِ، ووصفِه بصفاتِ الألوهيةِ، وتنزيهِه عنِ النقائصِ، والقيامِ بطاعتِه، واجتنابِ معصيتِه، وموالاةِ مَنْ أطاعَه، ومعاداةِ مَنْ عصاهُ، والاعترافِ بنعمتِه، وشكرِه علَيْها، والإخلاصِ في جميعِ الأمورِ.

معنى النصيحة لله ولكتابه ولرسوله

وفي حديثٍ رواه أحمدُ: قالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: (أحبُّ ما تعبَّدَ به عبدي النصحُ لي)[٢]، وروى الثوريُّ عن عليٍّ قالَ: قالَ الحواريُّون لِعيسى: يا روحَ اللهِ، مَنِ الناصحُ للهِ؟ قالَ: الذي يُقدِّمُ حقَّ اللهِ على حقِّ الخلْقِ[٣].

(١) المعجم الأوسط للطبراني (١١٨٤) [باب الهمزة- من اسمه أحمد].

(٢) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٢١٩١) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي أمامة] والطبرانيُّ في "الكبير" (٢٠٦/٨)، وابن المبارك في "الزهد" (٢٠٤) [باب الإخلاص والنية]، وأبو نعيم في "الحلية" (١٧٥/٨) [ترجمة ابن المبارك]، وغيرهم من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وذكره الهيثمي في "المجمع" (٢٨٩) [كتاب الإيمان- باب في النصيحة] وقال: وفيه عُبيد الله بنُ زَحْرٍ عن عليِّ بن يزيد، وكلاهما ضعيفٌ.
قلت: حسَّنه السيِّد أحمد بن الصِّدِّيق، وقال: «ليس كل ما يرويه الضعيف ضعيفًا، وعبدالله بن زَحْر صدوق يخطئ، وشيخه حافظ مُكثر ... » ثُمَّ قال: «وهذا حديثٌ أصله في الصحيح، وله طرقٌ متعدِّدةٌ شاهدةٌ له، وعلى متنه حلاوة النبوة وطلاوة الرسالة ... » وقال آخِرًا: «والمقصود أنَّ الحديث حسنٌ أو صحيحٌ؛ وعليُّ بن زيد لم يتفرَّد به، ومتنه شاهدٌ لصحَّته والله أعلم». انظر "المداوي" للسيِّد أحمد بن الصِّدِّيق (٦٠١/٤).

(٣) ذكره الحافظ في "الفتح" (١٣٧/١) [قوله باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة]، ولم يعزه.

وحقيقةُ هذه الإضافةِ راجعةٌ إلى العبدِ في نصحِه نفسه، فإنَّه -سبحانَه- غنيٌّ عنْ نصحِ الناصحينَ وعنِ العالمينَ.

(**وَلِكِتَابِهِ**) مفردٌ مضافٌ، فيعمُّ جميعَ كُتُبِهِ المنزَّلَةِ بأنْ يؤمنَ بأنَّها مِنْ عندِه وتنزيلُه، ويُميِّزَ القرآنُ بأنَّه لا يُشبِهُه شيءٌ مِن كلامِ الخلقِ، ولا يَقدِرُ أحدٌ منْهم على الإتيانِ بمثلِ أقصرِ سورةٍ منه، وتلاوتِهِ بخشوعٍ، وإقامةِ حروفِه في التلاوةِ، والتصديقِ بما فيه وتفهُّمِ علومِه وإكرامِهِ والاعتبارِ بمواعظِه والتفكُّرِ في عجائبِه، والعملِ بمحكمِه، والتسليمِ لمتشابِهِه، والبحثِ عنْ ناسخِه ومنسوخِه وعمومِه وخصوصِه وسائرِ وجوهِه، ونشرِ علومِه والدعاءِ إلَيْه.

(**وَلِرَسُولِهِ**) بتصديقِ رسالتِه، والإيمانِ بجميعِ ما جاءَ به، والتزامِ طاعتِه في أمرِه ونهيِه، ونُصرتِه حيًّا وميِّتًا، وإعظامِ حقِّه، فقدْ روى المسورُ بن مخرمةَ: أنَّ عروةَ بنَ مسعودٍ الثقفيَّ رمقَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ فوَاللهِ ما تنخَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ نخامةً إلَّا وقعتْ في كفِّ رجلٍ منهم، فدَلَكَ بها وجهَهُ وجلدَه، وإذَا أمرَهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضَّأَ كادوا يَقتتلونَ على وَضُوئِه، وإذَا تكلَّمَ خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ النظرَ إلَيْه تعظيمًا له، قالَ: فرجعَ عروةُ إلى أصحابِه فقالَ: يا قوم، لقدْ وفدتُ على الملوكِ، وفدتُ على قيصرَ وكِسْرى والنجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكًا قطُّ تعظِّمُه أصحابُه ما تعظِّمُ أصحابُ محمدٍ محمدًا، واللهِ إنْ يتنخَّمُ نخامةً إلا وقعتْ في كفِّ رجلٍ منهم فدلَكَ بها وجهَهُ وجلدَهُ... الحديث(١).

ومِنَ النصيحةِ لَهُ إحياءُ سنتِه، والتفقُّهُ فيها، والذبُّ عنْها، وإجلالُ أهلِها؛ لانتسابِهم إلَيْها، والتخلُّقُ بأخلاقِه، والتأدُّبِ بآدابِه، ومحبَّةُ آلِ بيتِه وأصحابِه، وتجنُّبُ مَنْ تَعرَّضَ لِأحدٍ مِنْ آلِه وأصحابِه.

***

(**وَلِأَئِمَّةِ**) جَمْعُ إمامٍ، وهو القائمُ بأمورِ المسلمينَ، والإمامةُ أعمُّ مِنَ الخلافةِ؛ إذْ كلُّ خليفةٍ إمامٌ، ولا يَنعكِسُ، قِيلَ: والإمامةُ على أربعةِ أوجهٍ، إمامةِ وحْيٍ وهيَ النبوةُ، ووراثةٍ وهيَ العلمُ،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) [كتاب الشروط- باب الشروط في الجهاد]، وغيره.

وعبادةٍ وهيَ الصلاةُ، ومصلحةٍ وهيَ الخلافةُ، (الْمُسْلِمِينَ) الأمراءِ، بمعاونتهم على الحقِّ، وأمرِهم به، وتذكيرِهم بلطفٍ ورفْقٍ، وإعلامِهم بما غفَلُوا عنْه مِنْ أمورِ المسلمينَ وحقوقِهم، والدعاءِ بالصلاحِ لهم، وتركِ الخروجِ علَيْهم، والجهادِ مَعَهم، وأداءِ الزكاةِ إليْهم، وامتثالِ أمرِهم في غيرِ المعاصي.

معنى النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم

فقدْ وَرَدَ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ حذافةَ السهميَّ بعثَه النبيُّ ﷺ في سَرِيَّةٍ، وأمَّرَه علَيْها، وكان فيه دعابةٌ، فأمرَهم أنْ يجمَعوا حطبًا ويوقدوه نارًا، فلمَّا أوقدوها أمرَهم بالتقحُّمِ فِيها، فأَبوا، فقالَ لهم: ألَمْ يأمرْكم رسولُ اللهِ ﷺ بطاعتي، وقالَ: مَنْ أطاعَ أميري فقدْ أطاعني، فقالوا: ما آمنَّا باللهِ، واتَّبعْنا الرسولَ إلا لننجوَ مِنَ النَّارِ، فصوَّبَ رسولُ اللهِ ﷺ قولَهم، وقالَ: (لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ)[1] اهـ.

والعلماءِ بقبولِ ما رَوَوْه، وتقليدِهم في الأحكامِ، ونشرِ مناقبِهم، وإحسانِ الظنِّ بهم، وليسَ المرادُ بهم مَنْ تزيَّا بزيِّهم وادَّعى العلمَ، وأكَلَ الدُّنْيا بالدِّينِ، فإنَّ نُصْحَهم نُصْحُ عامَّةِ المسلمينَ إن لم يَستَحِلُّوا، قالَ سهْلُ بنُ عبدِ اللهِ: لا يَزالُ الناسُ بخيرٍ ما عظَّموا السلطانَ والعلماءَ، فإذا عظَّموا هذَيْنِ أصلحَ اللهُ دُنياهم وأُخراهم، وإذَا استخفُّوا بهذَيْنِ أفْسَدَ دُنياهم وأُخراهم.

(وَعَامَّتِهِمْ) بإرشادِهم إلى ما يُصلِحُ أُخراهم ودُنياهم، وكفِّ الأذى عنْهم، وتعليمِهم ما جَهِلوه، وسترِ عورتِهم، وسدِّ خُلَّتِهم، ومحبَّتِه لَهُم ما يُحبُّ لِنفسِه، وعدمِ غشِّهم، وإذَا رأى مَنْ يُفْسِدُ وُضُوءَه أو صلاتَه أو غيرَ ذلك ولَمْ يُعلِّمْه فقدْ غشَّه، وعلَيْه الإثمُ، وقِيلَ: إلَّا أنْ يَعلمَ أنَّه لا يَسمَعُ مِنْه فإنَّه يسقطُ عنْه الإثمُ، قالَه الأقفهسيُّ[2] في شرحِه لرسالةِ ابنِ أبي زيدٍ القيروانيِّ،

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٣٤٠) [كتاب المغازي- باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي]، ومسلمٌ (١٨٤٠) [كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية]، وغيرهما من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلا أنه قال في آخره: (لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف).

(٢) القاضي عبد الله بن مقداد بن إسماعيل، جمال الدين الأقفهسي، ثم القاهري المالكي، يعرف بالأقفاصي، ولد بعد الأربعين وسبعمائة، وانتهت إليه رئاسة المذهب والفتوى بمصر. ولي القضاء وحمدت سيرته إلى آخر حياته، وهو من تلاميذ الشيخ خليل. شرح المختصر لشيخه، وله المقالة في شرح الرسالة، وصنف كتابا في التفسير، توفي سنة ٨٢٣. رفع الإصر عن قضاة مصر (ص ٢٠٣)، والمنهل الصافي لابن تغري (١٢٦/٧)

وظاهرُه سواءٌ كانَ هناكَ غيرُه يقومُ بذلكَ أمْ لا. وقدْ ذَكَرَ الحطابُ في شرحِه علَيْها ما يُفيدُ حُكْمَ ذلك، فقالَ الشاذليُّ: اختُلِفَ إذَا كانَ هناكَ مَنْ يُشارِكُ في النصيحة، فهلْ تَجبُ عليكَ النصيحةُ سواءٌ طُلِبتْ مِنْكَ أم لا، كمَنْ رأيتَهُ يُفسِدُ صلاتَه؟ فقالَ الغزاليُّ: يَجِبُ عليكَ النصحُ، وقالَ ابنُ العربيِّ: لا يَجِبُ.

قالَ بعضُ شيوخِنا: والذي أقولُ به ما قالَه الغزاليُّ، ويكونُ ذلك برفقٍ؛ لأنَّه أقربُ للقبولِ، ولذَا قالَ الشافعيُّ: مَنْ وعظَ أخاه سِرًّا فقدْ نصحَه وزانَهُ، مَنْ وعظَه علانيةً فقدْ فضَحَه وشانَهُ، ومِنْ ثَمَّ قالَ الفُضَيْلُ: المؤمنُ يَسترُ ويَنصحُ، والفاجرُ يَهتِكُ ويُعَيِّرُ.

وفي كلامِ الشيخِ مُحيي الدينِ أنَّ مِنْ شرطِ الناصحِ إذَا أرادَ أنْ يَنصحَ أحدًا أنْ يُمهِّدَ له بِساطًا قبلَ النصحِ، وأنْ يَرى نفسَه دونَ المنصوحِ، وأنْ يُوطِّنَ نفسَه على تَحمُّلِ الأذَى الحاصلِ من جهةِ النصحِ في العادةِ.

وقدَ حُكِيَ أنَّ الحسنَ والحسينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أقْبَلا على شيخٍ يُفسِدُ وُضوءَه، فقالَ أحدُهما للآخرِ: تعالَ نُرشِدْ هذا الشيخَ، فقالَ له أحدُهما: يا شيخُ، إنَّا نريدُ أنْ نتوضَّأَ بيْنَ يدَيْكَ حتَّى تَنظرَ إلَيْنا، وتعلمَ مَنْ يُحسِنُ منَّا الوُضوءَ، ومَنْ لا يُحسِنُه، ففَعَلا ذلكَ، فلمَّا فرَغَا مِنْ وُضوئِهما قالَ: أنا -واللهِ- الذي لا أُحسِنُ الوُضوءَ، وأمَّا أنتما فكُلُّ واحدٍ منكما يُحسِنُ وضوءَه، فانتفعَ بذلك منهما من غيرِ تَعْنيفٍ ولا تَوْبيخٍ.

وقدِ اتفقَ أنَّ رجلًا وَعَظَ المأمونَ وأغلظَ علَيْه، فقالَ له: خيرٌ مِنكَ وَعَظَ مَنْ هو شَرٌّ منِّي، فإنَّ موسى وهارونَ -على نبيِّنا وعلَيْهما أفضلُ الصلاةِ والسلامِ- لمَّا أرْسلَهما اللهُ تعالى إلى فرعونَ قالَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

***

وقدْ كانَ في السلفِ مَنْ بلغَتْ به النصيحةُ إلى الإضرارِ بدنياه، وقدْ وردَ أنَّ جَريرًا اشترى له فرسًا بثلاثمائةِ درهمٍ، فقالَ لصاحبِه: فرسُكَ خيرٌ مِنْ ثلاثمائةِ درهمٍ، أتبيعُه بأربعمائةِ درهمٍ؟ فقالَ: هو لكَ يا أبا عبدِ اللهِ، فقالَ هو خيرٌ مِنْ أربعمائةٍ، أتبيعُه بخمسمائةٍ؟ فقالَ: نعمْ، فلا

يزالُ يزيدُ مائةً بعدَ مائةٍ حتى أوصلَه ثمانمائةِ درهمٍ، فكُلِّمَ في ذلك، فقالَ: عاهدتُ رسولَ الله ﷺ على النُّصحِ لكلِّ مسلمٍ[1].

وورَدَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ لِبعضِ إخوانِه: أوصيكَ بِستَّةِ أشياءَ، إنْ أردتَ أنْ تقعَ في أحدٍ وتذمَّه، فذمَّ نفسَكَ فإنَّكَ لا تعلمُ أحدًا أكثرَ عيوبًا مِنْها، وإنْ أردتَ أنْ تُعاديَ أحدًا فعادِ البطنَ، فليسَ لكَ عدوٌّ أعدى مِنْها، وإنْ أردتَ أنْ تَحمَدَ أحدًا فاحمد الله تعالى فليْسَ أحدٌ أكثرَ مِنَّةً منه عليْكَ وألطفَ بِكَ مِنه، وإنْ أردتَ أنْ تترك شيئًا فاتركِ الدُّنْيا، فإنَّكَ إنْ تركتَها فإنَّك محمودٌ، وإلَّا تركتْكَ وأنتَ مذمومٌ، وإنْ أردتَ أنْ تَستعدَّ لشيءٍ فاستعدَّ للموتِ فإنَّكَ إنْ لمْ تستعدَّ له حلَّ بِكَ الخسرانُ والندامةُ، وإنْ أردتَ أنْ تطلُبَ شيئًا فاطلبِ الآخرةَ، فلَسْتَ تنالُها إلَّا بأنْ تطلُبَها.

***

وبدأَ في الحديثِ "بالله"؛ لأنَّ الدينَ له حقيقةٌ، وثنَّى بكتابه الصادع ببيانِ أحكامه المعجزِ ببديعِ نظامِه، وثلَّثَ بما يتلو كتابَه في الرتبةِ، وهو رسولُه الهادي إلى دينه، الموقفُ على أحكامه، المُفصِّلُ لجميعِ شرائعِه، وربَّعَ بأُولي الأمرِ الذين هم خلفاءُ الأنبياءِ القائمونَ بسُنَّتِهم، ثمَّ خمَّسَ بالتعميمِ، ولمْ يكرِّرِ اللَّامُ في "عامَّتِهم"؛ لأنَّهم كالأتباعِ للأئمةِ لا اشتغالَ لهم.

وإنَّما خصَّ أهلَ الإسلامِ بالنصحِ، لأنَّهم أقربُ إلى الإجابةِ مِنْ أهلِ الذمَّةِ أو لأنَّ النصيحةَ الكاملةَ إنَّما هيَ للمسلمينَ بخلافِ أهلِ الذمَّةِ؛ إذْ لا يُقالُ لهم صلُّوا ولا زكُّوا، أو إنَّ ذِكْرَ المسلمينَ مِنْ بابِ التغليبِ لشرفِهم على أهلِ الذمَّةِ، وإلَّا فنحنُ نَنصَحُ أهلَ الذمَّةِ بالإرشادِ للإيمانِ.

***

(١) أخرجه بهذا السياق الطبراني في الكبير (٢/٣٣٤)، وقوله: (النصح لكل مسلم) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٧) [كتاب الإيمان- باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة]، ومسلمٌ (٥٦) [كتاب الإيمان- باب بيان أن الدين النصيحة]، وغيرهما من حديث جرير بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(رَوَاهُ مُسْلِمٌ) في كتابِ الإيمانِ، وهو مِنْ أفرادِه.

تنبيهٌ: قالَ ثابتٌ: بلَغَني أنَّ إبليسَ ظهرَ لِبعضِ العبادِ فرأى علَيْه معاليقَ مِنْ كُلِّ شيءٍ، فقالَ له العابدُ: يا إبليسُ، ما هذهِ المعاليقُ الَّتي أرَى عليكَ؟ قالَ: هذه الشهواتُ أُصيبُ بهنَّ ابنَ آدمَ، قالَ: فهلْ لي فيها مِنْ شيءٍ؟ قالَ: رُبَّما شبعْتَ فثقلتْكَ عنِ الصلاةِ وعنِ الذكرِ، قالَ: هلْ غيرُ ذلكَ؟ قالَ: لا، قالَ: للهِ عليَّ أنْ لا أملأَ بَطْني مِنْ طعامٍ أبدًا، قالَ إبليسُ: وللهِ عليَّ أنْ لا أنصحَ أحدًا أبدًا.

***

الحديثُ الثامنُ

٨. عن ابنِ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: أُمرتُ أنْ أُقاتلَ النَّاسَ حتى يَشهدُوا أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ مُحمداً رسولُ اللهِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزكاةَ، فإذا فَعلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم، إلا بِحقِّ الإِسلامِ، وحِسابُهُم على اللهِ تعالى. رواه البُخاريُّ ومُسلِمٌ.

(عَنْ) عبدِ اللهِ **(ابنِ عمرَ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: أُمِرْتُ)** بالبناءِ للمفعولِ أيْ: أمرَني اللهُ -تعالى- فحُذِفَ الفاعلُ تعظيمًا وتفخيمًا، وقالَ بعضُهم: طَوَى ذكرَه لشهرتِه وتَعيُّنِه بذلك؛ إذْ لا آمرَ لرسولِ اللهِ ﷺ إلَّا هو سبحانَه وتعالى، ولذلك إذَا قالَ الصحابيُّ: أُمِرْنَا بكذا، يُفهَمُ منه أنَّ الآمرَ هو الرسولُ ﷺ لأنَّه هو المُشَرِّعُ والمبيِّنُ لهم، وأمَّا إذا قالَ التابعيُّ: أُمِرْنَا بِكذا فهو مُحتمِلٌ، وحقيقةُ الأمرِ القولُ الطالِبُ للفعلِ.

(أَنْ أُقَاتِلَ) أيْ: بأنْ أقاتلَ؛ لأنَّ الأصلَ في الأمرِ أنْ يَتعدَّى لمفعولينِ ثانيهما بحرفِ الجرِّ، ونحو"أمرتُكَ الخيرَ" نادرٌ، و"أَنْ" مصدريَّةٌ، والتقديرُ: بمقاتلة **(النَّاس)** مِنَ الإنسِ، فيختصُّ ببني آدمَ، أو مِنْ "نَوَسَ" إذَا تحرَّكَ فيعمُّ الجنَّ بالحقيقةِ أوِ الغلبةِ، والمرادُ هنا الإنسُ خاصةً، وإنْ كانَ مُرسَلًا إلى الجنِّ إجماعًا؛ إذْ لَمْ يَرِدْ أنَّه قاتَلَهُمْ، وإنْ أسلمَ منهم جمعٌ على يدَيْه كجنِّ نصيبينَ(١).

و"الناسُ" أصلُه "الأناسُ"، حُذفتِ الهمزةُ تخفيفًا، وتوهَّمَ أبو عليٍّ أنَّ "ال" عِوضٌ عنِ الهمزةِ؛ إذْ لا يَجتمعانِ في الأناسِ إلَّا ضرورةً، وردَّ بكثرةِ استعمالِ "ناس" مُنكَّرًا مِنْ غيرِ "ال" والهمزةِ، ولو كانتْ عِوضًا لم يَجُزْ ذلكَ؛ إذْ لا يَجوزُ الخلوُّ عنِ العوضِ والمعوضِ، وقالَ صاحبُ القاموسِ: الناسُ يكونُ مِنَ الإنسِ ومِنَ الجنِّ، جمعُ إنسٍ، أصلُه "أناسٌ" جَمْعٌ عَزيزٌ أُدخِلَ علَيْه "ال".

---

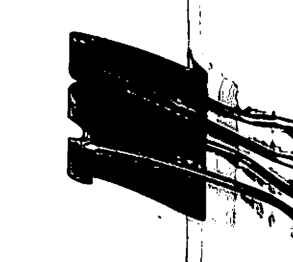
(١) أخرجه البخاري (٣٨٦٠) [كتاب مناقب الأنصار- باب ذكر الجن]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وفيه: (وإنه أتاني وفد جنِّ نصيبين، ونعم الجن، فسألوني الزاد ...) الحديث.

وفيما قالَه نَظَرٌ؛ إذْ جعْلُه شامِلًا للجنِّ معَ كونِ مفردِهِ "إنس" غيرَ متجه، ولذا قالَ: إنَّه جمعٌ عزيزٌ، ومخالفٌ لما صرَّحَ به صاحبُ الكشَّافِ في البقرةِ والأعرافِ مِنْ أنَّه اسمُ جمعٍ غيرِ تكسيرٍ، بدليلِ عوْدِ الضميرِ إليْه وتصغيرِه على لفظِه، ولأنَّه لمْ يُسمَعْ جمعٌ جاءَ على "فُعَالٍ" بالضمِّ إلا في ثمانيةِ ألفاظٍ، كما قالَه السعدُ، لكنْ زادَ عليْه صاحبُ المُزهِرِ وغيرُه ألفاظًا.

الأمر بالقتال والمراد منه

وقولُه: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ" إنَّما ذَكَرَ بابَ المفاعلةِ؛ لأنَّ الدينَ ما ظهرَ إلا بالجهادِ، والجهادُ لا يكونُ إلَّا بينَ اثنينِ، ثم إنَّ أمرَه ﷺ بالقتالِ كانَ بعدَ الهجرةِ فإنه ﷺ لما بُعِثَ أُمِرَ بالإنذارِ مِنْ غيرِ قتالٍ، ثم بعدَ الهجرةِ أُذِنَ له فيهِ إذَا ابْتدَأَهُ الكفارُ بِه، ثم أُحِلَّ له ابتداءً في غيرِ الأشهرِ الحُرُمِ ثم مطلقًا مِنْ غيرِ شرطٍ.

فائدةٌ: قالَ ابنُ عباسٍ وغيرُه: لمْ يُقتَلْ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ إلَّا مَنْ لمْ يُؤمَرْ بقتالٍ، وكُلُّ مَنْ أُمِرَ بالقتالِ نُصِرَ[1]، اهـ.



والناسُ المرادُ بهم جميعُ الخلقِ مِنْ بني آدمَ، وقدْ يُطلَقُ الناسُ على الإنسانِ الواحدِ كما في قولِه تعالى في النساءِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] يَعني النبيَّ وحدَه، ويُطلَقُ على المؤمنينَ خاصةً كقولِه تعالى في آلِ عمرانَ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١] يَعني لعنةَ المؤمنينَ خاصةً، ويُطلَقُ على أهلِ مكةَ خاصةً كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يَعني أهلَ مكةَ، ويُطلَقُ على بني إسرائيلَ كقولِه -عَزَّ وَجَلَّ- في المائدةِ: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] يَعني بني إسرائيلَ.

(حَتَّى) غايةٌ للقتالِ، ويُحتمَلُ كونُها غايةً لِلأمرِ به، **(يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ)**، وفي روايةٍ (وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ)[2] وفي روايةٍ (حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)[3].

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١/٤٣٢)،

(٢) أخرجها النَّسائيُّ (٣٠٩٤) [كتاب الجهاد - باب: وجوب الجهاد]، وابن ماجه (٧١) [أبواب السنة- باب في الإيمان]، وابن حبان (١٧٥) [كتاب الإيمان - باب فرض الإيمان]، وغيرهم.

(٣) متفقٌ عليها مخرجة في عدة مواضع في الصحيحين منها: ما أخرجه البخاريُّ (١٣٩٩) [كتاب الزكاة - باب=

وهذا الشرطُ مُشعِرٌ بمجموعِ الجملتَيْنِ فاستُغْني بإحْدَاهما عنِ الأُخرى لِارتباطِهما كما يُقالُ: قرأتُ (الم ذلك الكتاب)، والمرادُ كلُّ السُّورةِ. وقد استغنتِ العربُ بحرفٍ مِنَ الكلمةِ عنْ بقيَّتِها في نظمِها ونثرِها كقولِ القائلِ: "قُلْتُ لَهَا قِفِي فَقَالَتْ قَ" أَرَادَ: قَالَتْ وَقَفْتُ. وقولِ الآخرِ:

جَارِيَةٌ قَدْ وَعَدَتْنِي أَنْ تَأْ * تَدْهُنُ رأْسِي أَوْ تُفَلِّي أَوْ تا

أرادَ أنْ تأتِي وتدهُنَ رأسي وتفلِي أو تمسحَ، وكقولِ الآخرِ:

بالخيرِ خيرٌ وَإِنْ شَرًّا فَا * ولا أُريدُ الشَّرَّ إلا أَنْ تَا

أَرادَ إِنْ شَرًّا فَشَرًّا، وإِلَّا أنْ تشاءَ. وإذَا استغنتْ بحرفٍ عنْ بقيَّتِها فأَوْلى أنْ تَستغنيَ بإحدى الكلمتَيْنِ أو الجملتَيْنِ عن الأُخرى إذا كانَ فيها دلالةٌ عَلى ما لَمْ يذكرْ.

واعْلَمْ أنَّه لا يُشترَطُ في صحةِ الإيمانِ التلفظُ بالشهادتَيْنِ ولا النفيُّ والإثباتُ بلْ يَكفي أنْ يَقولَ اللهُ واحدٌ ومحمدٌ رسولُه، وانظرْ هلْ لا بدَّ في كفايةِ ذلك من الإتيانِ بلفظِ اللهِ وبلفظِ محمدٍ، فلو قالَ: الرحمنُ واحدٌ، وأحمدُ رسولُه، أو قالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الرَّحْمَنُ، وَأَحْمَدُ رَسُولُ اللهِ، هَلْ يكفي أمْ لا؟ وظاهرُ كلامِ الآبِّيِّ في شرحِ جمعِ الجوامعِ والمُتَيْطيِّ[1] الاكتفاءُ بذلك، وظاهرُ كلامِ الجمهورِ أنَّه لا يُشترَطُ الترتيبُ، وذهبَ القاضي أبو الطيبِ مِنَ الشافعيةِ وابنُ الطيبِ الشهيرُ بالباقِلَّاني مِنَ المالكيَّةِ إلى اشتراطِه، قالَ الكمالُ بنُ أبي شريفٍ: ولَمْ يُتابِعا مع أنَّه متجهٌ عندَ التأملِ، وظاهرٌ ما في "الهدايةِ" للأخنائي المالكيِّ[2] أنَّه يُشترَطُ الفورُ.

=وجوب الزكاة]، ومسلمٌ (٢٠) [كتاب الإيمان- باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله]، وغيرهما.

(١) علي بن عبد اللّه بن إبراهيم بن محمد، أبو الحسن المتيطى، نسبة إلى "مُتيطة" قرية من أحواز الجزيرة الخضراء بالأندلس، لازم بمدينة فاس خاله أبا الحجاج المتيطي وبين يديه تعلم عقد الشروط، ومهر في كتابة الشروط واستقل حتى لم يكن في وقته أقدر منه عليها. كتب بسبتة للقاضي أبي موسى عمران بن عمران وبإشبيلية، وناب عنه في الأحكام بإشبيلية، وولي قضاء شريش مستقلا، ومات سنة سبعين وخمسمائة. انظر: نيل الابتهاج (ت ٣٩٧).

(٢) إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن عيسى، برهان الدين ابن علم الدين، الإخنائي كان شافعيا ثم تحول مالكيا، له في أحكامه قضايا مشهورة في رد رسائل الرؤساء مع المروة والإفضال والجود، له مختصر سماه "الهداية والإعلام بما يترتب على قبيح القول من الأحكام"، توفي سنة ٧٧٧. الدرر الكامنة (٦٦/١)، الأعلام (٦٣/١).

قالَ ابنُ ناجي: هلِ الأفضلُ مدُّ ألفِ "لَا النافيةِ" أو القصرُ مِنْ "لا إله إلا الله"، فمِنْهم مَنِ اختارَ المدَّ ليستشعرَ المتلفظُ بها نفيَ الألوهيةِ عنْ كلِ موجودٍ سوى اللهِ تعالى، ومنْهم مَنِ اختارَ القصرَ لِئلَّا تخترمَهُ المنيةُ قبلَ التلفظِ بذكرِ اللهِ تعالى، وفرَّقَ الفخرُ بينَ أنْ تكونَ أول كلامِه فتُقْصرَ وإلَّا فتُمَدُّ، اهـ.

***

فإنْ قُلْتَ: قضيةُ الحديثِ قتالُ كلِّ مَنِ امتنعَ مِنَ التوحيدِ؛ إذِ الذي يُذاقُ مِنْ لفظِ الناسِ العمومُ والاستغراقُ كما في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فكيفَ تركَ قتالَ مؤدي الجزيةِ؟ فالجوابُ مِنْ وجوهٍ:

الأَوَّلُ: أنْ أخْذَ الجزيةِ وسقوطَ القتالِ بها كانَ مُتأخِّرًا عنْ هذا الحديثِ.

الثاني: أنَّ المرادَ بما ذُكِرَ مِنَ الشهادتَيْنِ وغيرِهما التعبيرُ عنْ إعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالى وإذلالِ المخالِفينَ، فيحصلُ في بعضٍ بالقتلِ وفي بعضٍ بأداءِ الجزيةِ.

الثالثُ: أن المرادُ بالقتالِ هو أو ما يقومُ مقامَه كالجزيةِ.

الرابعُ: أنَّ المرادَ اضطرارُهم إلى الإسلامِ، وسببُ السببِ سببٌ، فكأنَّه قالَ: حتَّى يُسلِموا أو يَلْتزموا ما يؤدِّيهم إلى الإسلامِ، وهو إعطاءُ الجزيةِ، فاكتُفيَ بما هو المقصودُ الأصليُّ مِنَ الخلقِ فتكونُ المقاتلةُ سببًا للقولِ والفعلِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] والمنزَلُ هو المطرُ، وهو سببٌ لإنباتِ العشبِ، وهو سببٌ لِتكثيرِ الحيوانِ فغلبَ في الحديثِ السببُ الأولُ، أعني المقاتلةَ، على السببِ الثاني، أعني أخْذَ الجزيةِ.

***

فائدةٌ: قالَ ابنُ جماعةَ في حاشيةِ شرحِ العقائدِ: لطيفةٌ: قالَ الرازيُّ في أسرارِ التنزيلِ: "لا إلهَ إلَّا اللهُ، محمدٌ رسولُ اللهِ"، سبعُ كلماتٍ، وأعضاءُ العبدِ سبعةٌ، وأبوابُ النارِ سبعةٌ، فكلُّ كلمةٍ تُغلقُ عنْ عضوٍ بابًا. قلتُ: ومِنَ المعلومِ أنَّ الأعضاءَ أكثرُ مِنْ سبعةٍ فلابدَّ لتحقيقِ كونِها سبعةً مِنَ الحملِ على خصوصٍ في الأعضاءِ، وهلْ هيَ الواردةُ في حديثِ السجودِ، وهو (أُمِرْتُ

أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُم)[1] الحديث، أو هي السبعةُ المتوصَّلُ بها إلى المقاصدِ والمفاسدِ غالبًا، وهيَ اليدانِ والرجلانِ والعينانِ واللسانُ أو غيرُ ذلكَ؟ محلُّ بحثٍ، انتهى مِنْ شرحِ شيخِنا على خطبةِ مختصرِ الشيخِ خليلٍ، قلتُ: والظاهرُ أنَّ المرادَ بها الأعضاءُ التي يُطلَبُ مِنَ الإنسانِ حراستُها، وهيَ الوجهُ والبطنُ والفرجُ واليدانِ والرجلانِ.

فضل "لا إله إلا الله"

وقالَ السمرقنديُّ في كتابِ الأربعينَ: ويقالُ: مَنْ قالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ هُدمتْ له أربعةُ آلافِ سيئةٍ، كُلُّ كلمةٍ تُكفِّرُ ألفَ سيئةٍ، وذكرَ ابنُ الفاكهانيِّ أنَّ ملازمةَ ذكرِها عندَ دخولِ المنزلِ تَنفي الفقرَ، وقالَ بعضُ العلماءِ: إذا قالَ القائلُ: لا إلهَ إلا اللهُ اهتزَّ لها العرشُ.

وفي الحديثِ عنْه ﷺ: (لِكُلِّ شيءٍ مصقلةٌ، ومصقلةُ القلبِ الذكرُ، وأفضلُ الذكرِ لا إلهَ إلَّا اللهُ)[2]، فجلاءُ القلبِ وبياضُه وتنويرُه بالذكرِ.

ورويَ أنَّ مَنْ قرأَ ﴿قل هو الله أحد﴾ في بدايتِه نوَّرَ اللهُ قلبَه، وقوَّى يقينَه.

وجاءَ في الأثرِ أنَّ العبدَ إذا قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ أعطاه مِنَ الثوابِ بعددِ كُلِّ كافرٍ وكافرةٍ، قيلَ: والسببُ أنَّه لمَّا قالَ هذه الكلمةَ فكأنَّه قدْ ردَّ علَيْهم، فلا جرمَ أنَّه يستحقُّ الثوابَ بعددِهم.

وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عنْ قولِه تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] فقالَ: البئرُ المعطلةُ قلبُ الكافرِ معطلٌ عنْ قولِ لا إلهَ إلا اللهُ، والقصرُ المشيدُ قلبُ المؤمنِ معمور بشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٨١٢) [كتاب الأذان- باب السجود على الأنف]، ومسلمٌ (٤٩٠) [كتاب الصلاة- باب أعضاء السجود]، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية، وأمَّا قوله: (أفضلُ الذكرِ لا إلهَ إلَّا اللهُ) فأخرجه الترمذي (٣٣٨٣) [أبواب الدعوات- باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة]، والنَّسائيُّ (١٠٥٩٩) [كتاب عمل اليوم والليل- أفضل الذكر، وأفضل الدعاء]، وابن حبان (٨٤٦) [كتاب الرقائق- باب الأذكار]، والحاكم (٥٠٣/١) [كتاب الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح والذكر]، وغيرهم من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذيُّ وصحَّحه الحاكم.

وقالَ ﷺ: منْ قالَ لا إلهَ إلا اللهُ، خَرَجَ مِنْ فيه طائرٌ أخضرُ له جناحانِ أبيضانِ مكلَّلانِ بالدرِّ والياقوتِ، يَصعَدُ إلى السماءِ فيُسمَعُ له دويٌّ تحتَ العرشِ كدويِّ النحلِ فيقالُ له: اسكُنْ، فيقولُ: لا حتى تغفِرَ لِصاحبي، فيُغفَرُ لقائلِها، ثم يُجعَلُ بعدَ ذلك للطائرِ سبعونَ لسانًا يَستغفِرُ لِصاحبِه إلى يوم القيامةِ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ جاءَ ذلك الطائرُ يَكونُ قَائِدَهُ ودَليلَهُ إلى الجنة[1].

حكايات في فضل الشهادتين

وعنْ عبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ أنَّهُ قالَ: كنتُ في مركبٍ، فطرحتْنَا الريحُ علَى جزيرةٍ، فخرَجْنَا إلَى الجزيرةِ، فرأيْنَا شخصاً يعبُدُ صنماً، فقلْنَا لهُ: تعبدُ هذا الصنمَ، وفينَا مَنْ يصنعُ مثلَهُ؟ فقالَ: أنتمْ من تعبدُونَ؟ فقلْنَا: نعبدُ إلهًا، في السماءِ عرشُهُ، وفي الأرضِ بطشُهُ، وفي البحرِ سبيلُهُ، قالَ: مَنْ أعلَمَكُم بهِ؟ قلْنَا: أَرْسلَ إليْنَا رسولاً، قالَ: مَا فَعَلَ الرسولُ؟ قلْنَا قبضَهُ الملكُ إليْهِ، قالَ: فهلْ تركَ عندَكُمْ مِنْ علامةٍ؟ قلْنَا: نعمْ، كتابَ الملكِ، قالَ: هلْ عندَكُمْ منْهُ شيءٌ؟ فشرعْنَا نقرأُ عليْهِ سورةَ الرحمنِ، فمَا زالَ يبكِي حتى خُتِمتْ، ثمَّ قالَ: ما ينبغِي أنْ يُعصى صاحبُ هذَا الكلامِ، ثمَّ عرضْنَا عليْهِ الإسلامَ، فأسلمَ، وحملْنَاهُ معَنَا في السفينةِ، فلمَّا جَنَّ اللَّيْلُ وَصَلَّيْنَا الْعِشَاءَ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا للنومِ، فقالَ لنا: هذا الإلهُ الذي دللتُمُوني عَلَيْه ينامُ؟ قُلْنا: بَل هُو حيٌّ قيومٌ لا ينامُ، قالَ: بئسَ العبيدُ أَنتُمْ، تنامُونَ ومَوْلاكُم لا ينامُ، فلَمَّا وصَلْنا البرَّ وأَرَدْنا الانصرافَ جَمَعْنَا له شَيْئًا منَ الدراهمِ، فقالَ: ما هذا؟ فقُلْنا: تَستَعِينُ بِه علَى نفسِكَ، فقالَ: دللْتُمُوني علَى طَريقٍ مَا أَراكُم سلَكْتُمُوهَا، أَنَا كنْتُ أعْبدَ غيرَه فلَم يُضَيِّعْني، أَفيُضَيِّعُني الآنَ بَعْدَ مَا عرَفْتُه؟

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلاثةِ أيامِ قيلَ لي إنَّهُ في النزعِ، فجئْتُ إلَيْه، وقُلْتُ لَهُ: هلْ مِنْ حَاجَةٍ؟ فقالَ: قَضَى حوائجي الذي أَخرجَني مِنَ الجزيرةِ، ونِمْتُ عندَهُ فرأيْتُ جَاريةً في روضةٍ خضراءَ، وهيَ تقولُ: عجِّلُوا بِهِ، فقَدْ طالَ شوقِي إلَيه، فاستيقظْتُ وقَدْ ماتَ، ودفنْتُهُ، ونِمْتُ تلْكَ الليلةَ، فرأيتُه في المنامِ وعلى رأْسه تاجٌ، وبينَ يديهِ الحورُ العينُ، وهو يَقرأُ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

(١) لم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية، ولوائح الوضع ظاهرةٌ عليه ويشبه كلام القُصَّاص.

وقالَ الحسنُ البصريُّ: رأيتُ مجوسيًّا يجُودُ بنفسه، فقلْتُ لَهُ: كيفَ أنتَ؟ وكيفَ حالُكَ؟ فقالَ لي: قلبٌ عليلٌ ولا قوةَ لي، وبدنٌ سقيمٌ ولا صحةَ لي، وقبرٌ موحشٌ ولا أنيسَ لي، وطريقٌ بعيدٌ ولا زادَ لي، وصراطٌ رقيقٌ ولا جوازَ لي، ونارٌ حاميةٌ ولا بدنَ لي، وجنةٌ عاليةٌ ولا نصيبَ لي، وربٌّ عادلٌ ولا حُجَّةَ لي، قالَ: فأقبلْتُ عليْه، وقُلْتُ لَهُ: لِمَ لا تُسْلِمُ؟ فقالَ: يا شيخُ، المفتاحُ بيدِ الفتَّاحِ، والقفلُ هَا هُنَا، وأشارَ إلى صدرِه، وغُشِيَ عَلَيه، فَقُلْتُ: إلهي وسَيدي، إنْ كانَ سبقَ لهذا المجوسيِّ حسنةٌ فعجِّلْ بها، فأفاقَ مِنْ غشيتِه، ثُمَّ أقبلَ عليَّ، فقالَ: يا شيخُ، إنَّ الفتَّاحَ أرسلَ بالمفتاحِ، مُدَّ يدَكَ، فأنَا أشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، وماتَ رحمَه الله تعالَى.

وروَى محمدُ بنُ آدمَ، قالَ: رأيتُ بمكةَ أُسقفًا يطوفُ بالكعبة، فقلتُ لهُ: ما الذي نزعَكَ من دينِ آبائِكَ؟ قال: تبدَّلتُ خيراً منْهُ، فقلْتُ: وكيفَ ذاكَ؟ قالَ: ركِبْتُ البحْرَ، فلَمَّا توسَّطْنَاه انكسرَتِ المركبُ، فلَمْ تزَلِ الأمواجُ تدافعُني حَتَى رَمَتْني في جَزيرةٍ مِنْ جزائرِ البحرِ، فيهَا أشجارٌ كثيرةٌ، ولَهَا ثمرٌ أحلى مِنَ الشَّهدِ، وأَلينُ مِنَ الزُّبْدِ، وفيها نهرٌ عذبٌ، فحمدْتُ اللهَ علَى ذلكَ، وقلتُ: آكُلُ مِنْ هَذَا الثمرِ، وأشربُ مِنْ هذا النهرِ حَتَى يَقْضِيَ اللهُ بأمرِه، فلَمَّا ذَهَبَ النهارُ خِفتُ علَى نفسِي مِنَ الوَحْشِ، فطلَعْتُ علَى شجرةٍ، ونِمتُ علَى غصنٍ مِنْ أغصانِهَا، فلمَّا كانَ في جَوفِ اللَّيلِ وإذَا بدابَّةٍ علَى وجهِ الماءِ تُسبِّحُ اللهَ تعالى، وتقولُ: "لَا إلَهَ إلَّا اللهُ العزيزُ الجبارُ، محمدٌ رسولُ اللهِ النبيُّ المختارُ، أَبُو بَكْرٍ الصدِّيقُ صاحبُهُ في الغارِ، عُمَرُ الفاروقُ فاتحُ الأمصارِ، عثمانُ القتيلُ فِي الدَّارِ، عَليٌّ سيفُ اللهِ علَى الكفارِ، فعَلَى مبغضِهِم لعنةُ العزيزِ الجبارِ، ومأواهُم النارُ، وبِئْسَ القرارُ"، ولَمْ تزَلْ تُكرِّرُ هَذه الكلماتِ إلَى الفَجْرِ، فلَمَّا طَلَعَ الفجرُ قالَتْ: "لَا إلَهَ إلَّا اللهُ الصادقُ الوعدِ والوعيدِ، محمدٌ رسولُ اللهِ الهادي الرشيدِ، أبو بكرٍ السديدُ، عمرُ بنُ الخطابِ سورٌ مِنْ حديدٍ، عُثمانُ الفضيلُ الشهيدُ، عَليُّ بنُ أَبي طالبٍ ذو البأسِ الشديدِ، فعَلَى مُبغضِهِم لعنةُ الربِّ المجيدِ"، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إلَى البَرِّ، فإذَا رأسُهَا رأسُ نعامةٍ، ووجهُهَا وجهُ إنسانٍ، وقوائمُهَا قوائمُ بعيرٍ، وذَنَبُها ذنبُ سمكةٍ، فَخَشيتُ علَى نفسِي الهلكةَ، فهربْتُ، فنطقَتْ بلسانٍ فصيحٍ فقالَتْ: يا هَذَا، قِفْ، وإلَّا تَهلَكْ، فوقفْتُ، فقالَتْ: ما دِينُكَ؟ فَقُلْتُ: دينُ النصرانيَّةِ،

فقالَتْ: ويلكَ، ارجعْ إلَى دينِ الحنيفيَّةِ، فَقَدْ حلَلْتَ بفناءِ قومٍ مِنْ مسلمي الجنِّ، لا ينجُو مِنْهم إلَّا مَنْ كانَ مسلمًا، فقلتُ: وَكيفَ الإسلامُ؟ قالَتْ: تشهدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، فَقُلْتُها، فقَالَتْ: أتمَّ إسلامَكَ بالترحُّم علَى أَبِي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فقلْتُ: مَنْ أتَاكُم بذَلِكَ؟ قالَتْ: قَوْمٌ مِنَّا حضرُوا عِنْدَ رسولِ اللهِ ﷺ سمعُوهُ يقولُ: إذَا كانَ يومُ القيامةِ تأتِي الجنَّة فتنادِي بلسانٍ طلقٍ فصيحٍ، إلهِي قدْ وعدتَنِي أنْ تشيدَ أركانِي، فيقولُ الجليلُ -جلَّ جلالُهُ-: قدْ شيدتُ أركانَكِ بأبِي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ، وزيَّنْتُكِ بالحسنِ والحسينِ، ثمَّ قالَتِ الدابةُ: أتريدُ أَنْ تَقعُدَ هَهُنَا أمِّ الرجوعَ إلَى أهلِكَ؟ فقلْتُ: الرجوعَ إلَى أهلِي، فقالَتْ: اصبرْ حتَّى تمرَّ بكَ مركبٌ، فبينَمَا نحنُ كذلِكَ وإذَا بمركَبٍ أقبلَتْ تجرِي، فأومأْتُ إلَيْهَا، فدفعوا إليَّ زورقاً، فركِبْتُ فيهِ، ثمَّ جئتُ إليْهِمْ، فوجدتُ المركَبَ فيهَا اثنا عشرَ رجلاً، كلُّهُمْ نصارَى، فقالُوا: مَا الَّذِي جاءَ بكَ إلَى هُنَا؟ فقصصْتُ عليْهِم قصتِي، فتعجَّبُوا عنْ آخرِهِم، وأسلمُوا كُلُّهمْ ببركةِ رسولِ اللهِ ﷺ.[1]

وفِي "المغنمِ فِي الوردِ الأعظمِ" لابنِ النحاسِ[2]، عنْ أبِي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ للهِ -عزَّ وَجلَّ- عموداً مِنْ نورٍ بينَ يديْهِ -سبحانَهُ وتعالَى- فإذَا قالَ العبدُ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، اهتزَّ العمودُ، فيقولُ اللهُ -تَبارَكَ وتعالَى- للعمودِ: اسْكُنْ، فيقولُ العمودُ: أيْ ربِّ، كيفَ أسكُنُ ولَمْ تغفرْ لِقائلِها، فيقولُ اللهُ -تَبارَكَ وتعالَى-: اسكنْ أيُّها العمودُ، فقدْ غفرتُ له، فيسكنُ العمودُ عندَ ذلكَ.[3]

وذَكَرَ أبو محمدٍ عبدُ اللهِ اليافعيُّ فِي كتابِه "الإرشادُ" عنِ الشيخِ أبِي عبدِ اللهِ القرطبيِّ: أنَّه قالَ: سمعتُ فِي بعضِ الآثارِ أنَّ مَنْ قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ سبعينَ ألفَ مرةٍ، كانتْ فداءً مِنَ النَّارِ،

(١) ذكره السفوري في نزهة المجالس (ص ١٢٢)، وقد ذكر العلماء أن كتابه هذا مشحونٌ بالموضوعات.

(٢) العلامة أبو زكريا محيي الدين أحمد بن إبراهيم بن محمد، الدمشقيّ ثم الدمياطيّ، المعروف بابن النحاس الشافعي، رحل إلى مصر ولازم المرابطة والجهاد بثغر دمياط، وقتل شهيدا في معركة مع الفرنج، له تآليف، منها: المغنم في الورد الأعظم، ومشارع الأشواق الى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام، وشرح المقامات الحريرية، توفي سنة (٨١٤). الضوء اللامع (٢٠٣/١)، الأعلام (٨٧/١).

(٣) لم أقف على هذا الكتاب، ولم أجد الحديث فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

فعملتُ على ذلكَ رجاءَ بركةِ الوعدِ أعمالًا ادخرتُها لنفسي وعملتُ بها لأهلي، وكانَ إذْ ذاكَ يبيتُ معَنَا شابٌّ كانَ يُقالُ إنَّه يكاشفُ في بعضِ الأوقاتِ بالجنةِ والنارِ، وكانَ في قلبي منه شيءٌ، فاتَّفقَ أنَّهُ استدْعانا بعضُ الإخوانِ إلى منزلِه، فنحنُ نتناولُ منَ الطعامِ والشابُّ معَنا، فصاحَ صيحةً مُنكَرةً، واجتمعَ في نفسِه وهو يقولُ: يا عمُّ هذهِ أُمِّي في النَّارِ، وهو يصيحُ بصياحٍ عظيمٍ لا يشكُّ مَنْ سمِعَه أنَّه مِنْ أمرٍ عظيمٍ، فلمَّا رأيتُ ما بِه قلتُ في نفسي: اليومَ أجرِّبُ، فقلتُ في نفسي: اللهمَّ إنِّي أهللتُ السبعينَ ألفًا وقدِ اشتريتُ بها أُمَّ هذا الشابِّ مِنَ النَّارِ، فما استتمَّ هذا الخاطرُ إلَّا وتبسَّمَ الشابُّ وسُرَّ، وقالَ: يا عمُّ، ها هيَ أُمِّي قدْ أُخرجتْ مِنَ النَّارِ، فحصَلَ لِي فائدتانِ، صِدْقُ الأثرِ، وعِلْمي بصدْقِ الشابِّ المذكورِ.[١]

***

(**وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ**) أيْ يَأتوا بها عَلى الوجْهِ المأمورِ بِه أو يُداوِموا علَيْها كما مرَّ، (**وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**) إلى مستحقِّيها أو إلى الإمامِ لِيدفعَها لَهُمْ، ولم يذكرِ الصومَ والحجَّ لِكونِهما لم يُفرضَا، أو لِكونِهما لا يُقاتَلُ على تركِهما.

(**فَإِذَا**) عبَّرَ بها معَ أنَّها لِلمحقِّقِ دونَ "إنْ" التي لِلمَشكُوكِ فيه، معَ أنَّ فعلَهم قدْ يكونُ وقدْ لا يكونُ؛ لأنَّه عَلِمَ أمانةَ بعضِهم فغلَّبهم لشرفِهم، أو تفاؤلًا بوقوعِ الفعلِ منهم فأشبهَ الدعاءَ بالماضي نحو "غفرَ اللهُ لكَ".

(**فَعَلُوا ذَلِكَ**) كُلَّهُ، أَيْ أتوا به قولًا كانَ وهو الشهادتانِ، أو فعلًا وقولًا وهو الصلاةُ، أو فعلًا محضًا وهو الزكاةُ، فإنْ قلتَ: المشارُ إلَيْه بعضُه قولٌ، فكيفَ أطلقَ الفعلَ علَيْه؟ فالجوابُ إمَّا باعتبارِ أنَّه فعلُ اللسانِ، وإمَّا على سبيلِ تغليبِ الاثنينِ على الواحدِ.

(**عَصَمُوا**) حَفظوا ومَنَعوا، مِنَ العصمةِ وهي لغةً: المنعُ، والعِصامُ: الخيطُ الذي يُشَدُّ به فَمُ القربةِ لِيمنعَ سيلانَ الماءِ، واصطلاحًا: مَلَكَةٌ نفسانيَّةٌ تمنعُ مِنَ الفجورِ والمخالفةِ، وقيلَ: صفةٌ توجبُ امتناعَ عصيانِ موصوفِها، والمرادُ بِها هنا المعنى اللغويُّ.

(١) "الإرشاد والتطريز" لليافعي (ص: ٢٠).

(**مِنّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**) فلا يَحِلُّ سفكُ دمائِهم، ولا أخذُ أموالِهم، والمرادُ بالدماءِ الأنفسُ، ففيه التعبيرُ بالبعضِ عنِ الكلِّ، فإنْ قيلَ: لِمَ لَمْ يكتفِ بذكرِ الشَّهادَتَيْنِ عن قولِه: "ويقيموا الصلاةَ ويؤتوا الزكاةَ"؟ فالجوابُ أنَّه ذَكَرَهما لِتعظيمِهما والاهتمامِ بشأنِهما دونَ غيرِهما.

(**إلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ**) فلا يُعصَمُ حينَئذٍ دمُهم ولا مالُهم، وفُسِّرَ هذا الحقُّ في حديثٍ بأنَّه زنًا بعدَ إحصانٍ، أو كفرٌ بعدَ إيمانٍ، أو قتلُ النفسِ التي حرَّمَ اللهُ تعالى[1]، وقضيتُه أنَّ الزانيَ والقاتلَ تُباحُ أموالُهما، وليسَ مرادًا، فكأنَّهُ غلَّبَ الكافرَ علَيْهِما.

ثم الحُكْمَ لهم بِعِصْمةِ الدماءِ والأموالِ إنما هو باعتبارِ الظَّاهرِ، (و) إمَّا باعتبارِ الباطنِ، فأمرُهم ليسَ إلى الخلقِ بَلْ (**حِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**) فِيمَا يُسِرُّونَهُ مِنْ كُفرٍ ومَعصيةٍ، وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ: (ما أُمِرتُ أنْ أشقَّ عنْ قلوبِ الناسِ ولا بُطونِهم)[2].

و"عَلَى" بمعنى اللَّامِ أو بمعنى "إلى"، فما أوهَمَه لفظُ العلويةِ مِنَ الوجوبِ غيرُ مرادٍ؛ إذْ لا يجبُ على اللهِ شيءٌ، هذا ما علَيْه أهلُ السُّنَّةِ، وأمَّا عندَ المعتزلةِ فهو ظاهرٌ؛ لأنَّ الحسابَ عندَهم واجبٌ عقلًا.

تَتِمَّةٌ: قالَ الإمامُ الرازيُّ في كلامِه عَلى هذا الحديثِ: قدْ جعلَ اللهُ تعالى العذابَ عذابَيْنِ، أحدُهما السيفُ من يدِ المسلمينَ، والثاني عذابُ الآخرةِ، والسيفُ في غلافٍ يُرى، والنارُ في غلافٍ لا تُرى، فقالَ لرسولِه مَنْ أخرَجَ لسانَهُ مِنَ الغلافِ المرئي، وهو الفمُ، فقالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، محمدٌ رسولُ اللهِ، أدخلْنَا السيفَ في الغمدِ الذي يُرَى، ومَنْ أخرجَ القلبَ مِنَ الغلافِ الذي لا يُرى وهو الشركُ أدخلْنَا سيفَ عذابِ الآخرةِ في غمدِ الرحمةِ.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢١٥٨) [أبواب الفتن- باب ما جاء لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث]، والدارمي (٢٤٧٩) [كتاب الحدود- باب ما يحل به دم المسلم]، والحاكم (٤/٣٥٠) [كتاب الحدود]، وغيرهم من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذي وصحَّحه الحاكم.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٣٥١) [كتاب المغازي- باب بعث علي بن أبي طالب]، ومسلمٌ (١٠٦٤) [كتاب الزكاة- باب ذكر الخوارج وصفاتهم]، وغيرهما مرفوعًا بلفظ: (إني لم أومر أن أنقِّب عن قلوب الناس ولا أشقَّ بطونهم).

(رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ) في كتابِ الإيمانِ، إلا أنَّ مُسلِمًا لم يذكرْ في حديثِه عنِ ابنِ عُمَرَ: (إلَّا بحقِّ الإسلام)، لكنَّه قالَ في روايةٍ له عنْ أبي هريرةَ: (إلَّا بحقِّها)[1]، وفي روايةٍ أخرى: (إلا بحقِّه)[2]، فنَسَبَه المؤلِّفُ إلى تخريجِه بالنظرِ لمجموعِ رواياتِه، وذلك يقعُ للمُحَدِّثينَ كثيراً، ولا يُنكِرُه إلا مَنْ لمْ يمارسْ فنَّهم، وبذلك زالَ العجبُ وبطلَ الشغبُ الذي صوَّل به الشارحُ الهيتميُّ عَلى المؤلِّفِ.

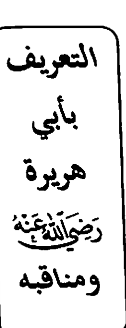
***

(١) صحيح مسلم (٢١) [كتاب الإيمان- باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٣٩٩) [كتاب الزكاة- بَابُ وُجُوبِ الزَّكَاةِ]، ومسلمٌ (٢٠) [كتاب الإيمان- باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله]، وغيرهما.

الحديثُ التاسعُ

٩. عن أبي هُريرةَ عبدِ الرحمنِ بنِ صخرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: ما نهيتُكُم عنهُ فاجْتنِبوهُ، وما أمرتُكم به فأْتُوا منه ما اسْتَطعتُم، فإنَّما أهلَكَ الذينَ مِنْ قبْلِكم كثرةُ مسائِلِهم واختِلافُهم على أنبيائِهم. رواه البخاريٌّ ومُسْلِمٌ.



(عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ) أخرجَ الترمذيُّ بسندٍ حسنٍ عن عبدِ اللهِ بنِ أبي رافعٍ قالَ: قلتُ لأبي هريرةَ: لِمَ كُنِّيتَ بِأبي هريرةَ؟ قالَ: كنتُ أَرْعى غنمَ أهلي، وكانتْ لي هِرَّةٌ صغيرةٌ، فكنتُ أجعلُها بالليلِ في شجرةٍ، وإذا كانَ بالنهارِ ذهبتُ بِها معي، فكُنِّيتُ بِها، فكَنَّوْني أبا هريرةَ[٣].

وروى ابنُ عبدِ البرِّ عن أبي هريرةَ أنَّه قالَ: كنتُ أحملُ يومًا هرةً في كُمِّي فرآني النبيُّ ﷺ فقال: ما هذهِ؟ فقلتُ: هِرَّةٌ، فقالَ: يا أبا هريرة[٤].

وفي صحيحِ البخاريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ له: يا أبا هرٍّ[٥]، وكانَ يُكَنَّى قبلَها أبا الأسودِ[٦].

فتحصَّلَ أنه كُنِّيَ بها؛ لأنَّه كان يصحَبُها إمَّا صغيراً يَلعَبُ بها، أو كبيراً يُحسِنُ إِلَيْها؛ لأنَّه الَّذي روى أنَّ امرأةً عُذِّبَتْ في هرةٍ[٧] فلعلَّه أخذَ بقياسِ العكسِ فرجى الثوابَ في الإحسانِ إِلَيْها.

(٣) سنن الترمذي (٣٨٤٠) [أبواب المناقب- باب مناقب أبي هريرة].

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١٧٧٠/٤) [ترجمة أبي هريرة].

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٥٢) [كتاب الرقاق- باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه]، وغيره، وسيأتي نص الحديث بتمامه فيما يلي.

(٦) أخرج ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٢٩٨/٦٧) [ترجمة أبي هريرة]: "كان أسم أبي هريرة في الجاهلية عبد شمس وكنيته أبو الأسود فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وكناه بأبي هريرة".

(٧) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٣٦٥) [كتاب المساقاة- باب فضل سقي الماء]، ومسلمٌ (٢٢٤٢) [كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم تعذيب الهرة]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(عَبْدِ الرَّحْمَنِ) وَنقلَ ابنُ إسحاقَ عنْ بعضِ أصحابِهِ عنْ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ كانَ اسمي في الجاهليةِ عَبْدَ شمسٍ فسَمَّاني رسولُ اللهِ ﷺ عبدَ الرحمنِ[1]، **(بنِ صخرٍ)** الدوسيِّ، قَدِمَ المدينةَ في سنةِ سبعٍ، ورسولُ اللهِ ﷺ بخَيْبَرَ، فسارَ إلى خيبرَ حتَّى قدِمَ معَ النَّبيِّ ﷺ المدينةَ، وعنْ قيسٍ عنْهُ أنَّهُ قالَ لَمَّا قَدِمنَا علَى رسولِ اللهِ ﷺ قلتُ في الطريقِ:

يَا ليلةً مِنْ طولِهَا وعنائِهَا * علَى أنَّهَا مِنْ دارةِ الكفرِ نَجَّتِ

قالَ: وأبقَ منِّي غلامٌ في الطريقِ فلمَّا قدِمْتُ علَى رسولِ اللهِ ﷺ فبايعتُهُ، فبينَمَا أنَا عندَهُ إذْ طلعَ الغلامُ فقالَ لِي رسولُ اللهِ ﷺ: يَا أبَا هُرَيرةَ، هذا غلامُكَ، فقلتُ: هوَ حرٌّ لوجهِ اللهِ -تعَالَى- فأَعْتَقْتُهُ[2].

وعنْ سليمِ بنِ حيانٍ قالَ: سمعتُ أبِي يقولُ: سمعتُ أبَا هريرةَ يقولُ: نشأتُ يتيمًا، وهاجرتُ مسكينًا، وكنتُ أجيرًا لبَسْرةَ بنتِ غزوانَ بطعامِ بطني وَعُقْبةِ رجلِي، وكنتُ أخدُمُ إذَا نزلُوا، وأَحدُوا إِذَا ركبُوا، فزوجْنيهَا اللهُ، والحمدُ للهِ الَّذي جعلَ الدِّينَ قوَّامًا، وأَبَا هريرةَ إماماً[3].

وعنْ أبِي كثيرٍ قالَ: حدَّثَني أبُو هريرةَ قالَ: مَا خلَقَ اللهُ مؤمناً يسمعُ بِي ولَا يرانِي إلَّا أَحَبَّنِي، قلتُ: ومَا أعلَمَكَ بهذَا يَا أبَا هريرةَ؟ قالَ: إنَّ أُمِّي كانَتْ مشركةً، وإنِّي كنتُ أدعُوهَا إلَى الإسلامِ، وكانتْ تأبَى علَيَّ، فدعوتُهَا يوماً فأَسْمَعَتْنِي في رسولِ اللهِ ﷺ مَا أكرهُ، فأتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وأنَا أبْكِي، فقلتُ: يَا رسولَ اللهِ، إنِّي كنتُ أدعُو أمِّي إلَى الإسلامِ، وكانتْ تأبَى عليَّ، وإنِّي دعوتُهَا اليومَ فأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أكرهُ، فادعُ اللهَ أنْ يهديَ أمَّ أبِي هريرةَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: اللهُمَّ اهدِ أمَّ أبِي هريرةَ.

فخرجْتُ أَعْدُو لِأبشِّرَها بدعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ فلمَّا أتيتُ البابَ إذَا هوَ مُجافٍ، وسمعتُ خضخضةَ الماءِ، وسمعتُ خشخشةَ رِجْلٍ، فقالَتْ: يَا أبَا هريرةَ، كَمَا أنتَ، ثمَّ فتحَتِ البابَ،

(١) سيرة ابن إسحاق (ص ٢٨٦) [إسلام أبي هريرة من دوس].

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٣١) [كتاب العتق- باب إذا قال رجل لعبده: هو لله]، وغيره من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٥) [الرهون- باب الرجل يستقي كل دلو بتمرة]، وأبونعيم (١/٣٧٩) [ترجمة أبي هريرة]، والبيهقي (٤٢٥٦)، وغيرهم.

وقدْ لبسَتْ درعَهَا، وعجَّلَتْ عنْ خمارِها، فقالتْ: إنِّي أشهدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، فرجعْتُ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ أبكي منَ الفرحِ كمَا بكيتُ منَ الحزنِ، فقلتُ: يَا رسولَ اللهِ، أبشرْ فقد استجابَ اللهُ دعاءَكَ، وقدْ هدَى أمَّ أبي هريرةَ، وقلتُ: يَا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ أنْ يُحبِّبَني وأمِّيَ إلَى عبادِهِ المؤمنينَ، ويُحبِّبهُم إليْنَا، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: اللهُمَّ حبِّبْ عبيدَكَ هؤلاءِ إلى عبادِكَ المؤمنينَ، فما خلقَ اللهُ منْ مؤمنٍ يسمعُ بي ولا يَراني أو يرى أُمِّي إلا وهوَ يُحبُّني(١).

وعنِ الأعرجِ أنَّهُ قالَ: قالَ أبو هريرةَ: إنَّكُمْ تقولونَ: ما بالُ المهاجرينَ لا يحدِّثونَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ بهذهِ الأحاديثِ، وما بالُ الأنصارِ لا يحدِّثونَ بهذهِ الأحاديثِ، وإنَّ أَصْحَابي منَ المُهاجرينَ كَانَتْ شغلَتْهُمْ صفقاتُهُمْ في الأسواقِ، وإنَّ أصحابِي منَ الأنصارِ كانتْ شغلَتْهُمْ أراضيهِمْ والقيامُ عليْهَا، وإنِّي كنْتُ امرأً معتكِفًا، وكنْتُ أكثرُ منْ مجالسةِ رسولِ اللهِ ﷺ، أحضرُ إذَا غابُوا وأحفظُ إذا نسُوا، وإن النبيَّ ﷺ حَدَّثَنَا يومًا فقالَ: مَنْ يبسطْ ثوبَهُ حتَّى أفرغَ مِنْ حديثي ثُمَّ يقبضُهُ، فإنَّهُ ليسَ ينسَى شيئًا سمِعَهُ منِّي أبدًا، فبسطْتُ ثوبِي أَوْ قالَ: ردائِي، ثُمَّ حدَّثَنَا فقبضْتُهُ إليَّ، فواللهِ مَا نسيتُ شيئًا سمِعْتُهُ منه، وَايمُ اللهِ لولا آيةٌ في كتابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ما حدَّثْتُكمْ بشَيْءٍ أبدًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].(٢)

وعنْ مُجاهدٍ أنَّ أبَا هريرةَ كانَ يقولُ: واللهِ إنْ كنْتُ لأعتمدُ بكبِدِي على الأرضِ مِنَ الجوعِ، وإنْ كنْتُ لأشُدُّ الحجرَ على بَطْني مِنَ الجوعِ، ولقدْ قعدْتُ يومًا على طريقِهم الَّذي يخرُجونَ منْهُ فمرَّ أبُو بكرٍ فسأَلْتُه عَنْ آيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ مَا سأَلْته إلَّا لِيَسْتَتْبِعَني، فلَمْ يفعلْ، فمرَّ عمرُ فسأَلْتُه عَنْ آيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ، مَا سأَلْتُه إلَّا لِيَسْتَتْبعَني، فلَمْ يفعلْ، فمرَّ أبُو القاسمِ محمدٌ ﷺ فعرفَ مَا في وَجْهي ومَا في نَفْسِي، فقالَ أبا هُريَرةَ، فقلْتُ لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ، قالَ: الْحقني، فتبعْتُهُ، فدخلَ، واستأذَنْتُ فأُذنَ لي، فوجدَ لبنًا في قدحٍ فقالَ مِن أينَ لكمْ هذا اللبنُ؟ فقالُوا: أهداهُ

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٤٩١) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل أبي هريرة الدوسي].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٣٥٠) [كتاب المزارعة- باب ما جاء في الغرس]، ومسلمٌ (٢٤٩٣) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل أبي هريرة]، وغيرهما.

لنَا فلانٌ أوْ آلُ فلان، قالَ: أبا هرٍّ، قلْتُ: لبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ، قالَ انْطلقْ إلى أهلِ الصُّفَّة، فادعُهُم، قالَ: وأهلُ الصُّفَّةِ أضيافُ الإسلامِ لم يَأْوُوا إلى أهلٍ ولا مالٍ، فإذَا جَاءَ رسولَ اللهِ ﷺ هديةٌ أصابَ منْهَا وبعثَ إليْهِم منها، وإذا جاءتِ الصدقةُ أرسلَ بها إلَيْهِم، ولمْ يُصِبْ، قالَ: فأحزَنَني ذلكَ، وكنتُ أرجو أنْ أُصيبَ منَ اللَّبنِ شربةً أقْوَى بها بقيةَ يَومي وليْلَتي، فقلتُ: أنا الرسولُ، فإذا جاء القومُ كنتُ أنا الَّذي أُعْطيهم، فلَمْ يبقَ لي من هذا اللَّبنِ، ولمْ يَكُنْ مِنْ طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه بُدٌّ، فانطلقتُ فدعوتُهم فأقْبَلوا، فاسْتَأْذَنُوا فأُذِنَ لهم، فأخَذُوا مجالِسَهم منَ البيتِ، ثمَّ قال: يا أبا هرٍّ، خُذْ فأَعْطِهم، فأخذتُ القدَحَ فجعلتُ أُعْطيهم، فيأخذُ الرجلُ القدحَ فيشربُ حتَّى يَرْوى، ثم يردُّ القدحَ، فأُعْطيهِ الآخرَ فيشربُ حتَّى يَروى، ثم يردُّ القدحَ حتى أتيتُ عَلى آخِرِهم، ودفعتُهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأخذَ القدحَ فوضعَه في يدِه، وقدْ بقيَ فيه فضلةٌ، ثم رفعَ رأسَه فنظرَ إليَّ وتبسَّمَ، فقال: يا أبا هرٍّ، فقلتُ: لبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ، قالَ: فاقْعُدْ فاشْرَبْ، قالَ: فقعدتُ فشربتُ، ثم قالَ لي: اشربْ فشربْتُ، ثم قالَ لي: اشربْ فشربْتُ، فما زالَ يقولُ: اشرَبْ وأشرَبُ، حتى قلتُ: والذي بعثكَ بالحقِّ ما أجدُ له مَسْلكًا، قالَ: ناولْني القدَحَ، فرددتُ إليه القدحَ، فشَربَ منَ الفضْلةِ[1].

وعنْ عبدِ الرحمنِ بنِ عبيدٍ، عن أبي هريرةَ قال: إني كنتُ لأتبعُ الرجلَ أسألُه عن الآيةِ من كتابِ اللهِ تعالى وأنا أعلمُ بها منه ومن عشيرتِه، وما أتبعُه إلَّا ليطعمَني القبضةَ من التمرِ والسفَّ منَ السويقِ أو الدقيقِ أسدُّ بها جوعَتي، فأقبلتُ أمشي معَ عمرَ بنِ الخطاب ذاتَ ليلةٍ أحدِّثُه حتى بلغَ بابَه، فأسندَ ظهرَه إلى البابِ، واستقبلني بوجهِه، وكُلَّما فرغتُ من حديثٍ حدَّثْته بآخرَ حتى إذا لَمْ أرَ شيئًا انطلقتُ فلمَّا كانَ بعدَ ذلك لَقِيَني، فقالَ: يا أبا هرٍّ، أمَا أنَّه لو كانَ في البيتِ شيءٌ لأطعمناكَ[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٢) [كتاب الرقاق- باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه]، وغيره.

(٢) أخرجه ابن عساكر في "التاريخ" (٣٢٣/٦٧) [ترجمة أبي هريرة]، وأخرج نحوه الترمذي من طريق ضعيف (٣٧٦٦) [أبواب المناقب- باب مناقب جعفر بن أبي طالب] وفيه أنه كان يسأل جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيجيبه ويطعمه.

وعنْ ثابتِ بنِ أبي رافعٍ أنَّ أبا هريرةَ قالَ: ما أحدٌ منَ الناسِ يُهدي إليَّ هديةً إلَّا قبلتُها، فأما أنْ أسألَ، فلمْ أكنْ لِأسألَ.(١)

وعنْ خالدِ بنِ عكرمةَ أنَّ أبا هريرةَ كانَ يُسبِّحُ كلَّ يوم اثنَيْ عشرَ ألفَ تسبيحةٍ، ويقولُ: أسبِّحُ بقدرِ ذنبي(٢). وعن نعيمِ بنِ المُحرَّرِ، عن أبي هريرةَ أنَّه كانَ له خيطٌ فيه ألْفَا عقدةٍ، فلا ينامُ حتى يسبِّحَ به(٣).

وعنْ محمدِ بنِ سيرينَ عن أبي هريرةَ قالَ: لقدْ رأيتُني أُصرعُ بين منبرِ رسولِ اللهِ ﷺ وبينَ حجرةِ عائشةَ، فيقولُ الناسُ إنَّه لمجنونٌ، وما بي جنونٌ، وما بي إلا الجوعُ.(٤)

وعن أبي المتوكلِ أنَّ أبا هريرةَ كانتْ له زنجيةٌ فرفعَ عليها السوطَ يومًا، فقالَ لولا القصاصُ لأغشيتُكِ به، ولكنْ سأبيعُكِ ممن يوفِّيني ثمنَكِ، اذهبي فأنتِ حُرَّةٌ لوجهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.(٥)

وعنِ العباسِ بنِ فروخ الحريريِّ قال: سمعتُ أبا عثمانَ النهديَّ يقولُ: تضيَّفتُ أبا هريرةَ، فكانَ هو وامرأتُه وخادمُه يعتقبونَ الليلَ أثلاثًا، يُصلِّي هذا، ثم يوقظُ هذا فيُصلِّي، ثم هذا يوقِظُ هذا فيُصلِّي.(٦)

وأخرجَ البيهقيُّ وغيرُهُ عنْ أبي هريرةَ قالَ: أصبْتُ ثلاثَ مصائبَ في الإسلام، موتَ النبيِّ ﷺ، وقتلَ عثمانَ، والمزودَ، قالُوا: ومَا المزودُ؟ قالَ: كنَّا معَ رسولِ اللهِ ﷺ في سفرٍ، فقالَ معَكَ شَيْءٌ؟ فقلْتُ: تمرٌ في مزودٍ، قالَ جئْ بهِ، فأخرجْتُ منْهُ تمرًا، وفي روايةٍ عشرينَ تمرةً، فسمَّى اللهَ ودَعَا وجعلَ يضَعُ كلَّ تمرةٍ ويسمِّي حتَّى أتَى إلَى آخرهنَّ، ثُمَّ قالَ: ادْعُ عشرةً، فدعوتُهُمْ حتَّى أكلَ الجيشُ كلُّهُ، وبقِيَ في المزودِ، فقالَ: إذَا أردْتَ أنْ تأخذَ منْهُ شيئًا فخذْ ولا تكبَّهُ، فأكلْتُ

(١) أخرجه ابن عبدالبر في "التمهيد" (٥/٨٨).
(٢) أخرجه ابن عساكر في "التاريخ" (٦٧/٣٦٣) [ترجمة أبي هريرة].
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٣٨٣) [ترجمة أبي هريرة]، وغيره.
(٤) أخرجه البخاري (٧٣٢٤) [كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة - باب ما ذكر النبي ﷺ وحض على اتفاق أهل العلم..]، وغيره ولفظه: "لقد رأيتني وإني لأخرُّ ..." الحديث.
(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٣٨٤) [ترجمة أبي هريرة]، وغيره.
(٦) أخرجه البخاري (٥٤٤١) [كتاب الأطعمة- باب الرطب بالقثاء]، وغيره.

منْهُ حياةَ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ، فلمَا قُتِلَ انتُهِبَ بيتِي، وانتُهِبَ المزودُ، فقال آخرُ: كَمْ أكلْتَ منْهُ، قال: أكلْتُ أكثرَ مِنْ مائتَيْ وسقٍ.(١)

وعَنْ ثعلبةَ بنِ أبِي مالكٍ القرظيِّ أنَّ أبَا هريرةَ أقبَلَ فِي السوقِ يحملُ حزمةً مِنَ الحطبِ، وهوَ يومئذٍ خليفةٌ لمروانَ(٢)، قالَ: أوسِعُوا الطريقَ للأميرِ، قالَ ابنُ أبِي مالكٍ: قلْتُ: أصلحَكَ اللهُ، تُكفَى هذَا، فقالَ: أوسعِ الطريقَ للأميرِ والحزمةُ عليهِ.

قالَ البُخاريُّ: رَوى عنْهُ أكثرُ مِنْ ثمانمائةٍ مَا بينَ صحابيٍّ وتابعيٍّ، استعملَهُ عمرُ علَى البحرينِ، ثُمَّ عزلَهُ، ثُمَّ أرادَهُ علَى العملِ فأبَى، ولَمْ يزلْ يسكنُ المدينةَ وبِهَا تُوفِّيَ، ويُقالُ: تُوفِّيَ بالعقيقِ سنةَ سبعٍ، وقيلَ ثمانٍ، وقيلَ تسعٍ وخمسينَ فِي آخرِ خلافةِ معاويةَ ولَهُ ثمانٍ وسبعونَ سنةً، رويَ عنْهُ خمسةُ آلافٍ وثلاثُ مائةِ حديثٍ، وأربعةٌ وسبعونَ حديثًا، اتَّفقَا منْها علَى ثلاثمائةٍ وخمسةٍ وعشرينَ، وانفردَ البُخاريُّ بثلاثةٍ وتسعينَ، ومسلمٌ بمائةٍ وسبعينَ.

***

اجتناب المنهي عنه وإتيان المأمور به

(قالَ: سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: مَا نهيْتُكمْ) هذَا الخطابُ ونحوُهُ يختصُّ لغةً بالموجودينَ عندَ ورودِهِ فلَا يتناولُ مَنْ حدَثَ بعدَهُم إلَّا بدليلٍ، وهوَ إمَّا مساواتُهم فِي الحكمِ الشرعيِّ لِانتفاءِ اختصاصِهِ بمكلفٍ دونَ مكلفٍ، وإما الإجماعُ، **(عنْهُ فاجتنبُوهُ)** كُلَّهُ حتَّى يوجدَ مَا يبيحُهُ كأكلِ الميتةِ عندَ الضرورةِ، وشربِ الخمرِ عندَ الإكراهِ ولإساغةِ الغصةِ؛ لأنَّ المكلفَ ليسَ منهيًّا فِي الحالِ علَى الصحيحِ، وأمَّا فِي التداوي فغيرُ جائزٍ، ولَوْ طلاءً؛ لحديثِ (إنَّ اللهَ لمْ يجعلْ شفاءَ أُمَّتِي فيمَا حُرِّمَ عليْهَا)(٣)، ومثلُ ذلكَ شُربُه للعطشِ إذْ لَا ينقطعُ بِهِ العطشُ.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٦/١١٠) [الشمائل ونحوها- باب ما جاء في مزود أبي هريرة]، وغيره.

(٢) هو مروان بن الحكم، كان كاتبا لعثمان بن عفان أثناء خلافته، وولاه معاوية على المدينة. بويع له بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد، فأصبح رابع الخلفاء الأمويين.

(٣) أخرجه أحمد في "الأشربة" (١٥٩)، وأبو يعلى (٦٩٦٦) [مسند أم سلمة]، وابن حبَّان (١٣٩١) [كتاب الطهارة- باب النجاسة وتطهيرها]، والطبرانيُّ (٢٣/٣٢٦) [مسند النساء]، وغيرهم من حديث السيدة أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا بلفظ: (إنَّ الله لم يجعل شفاءكم في حرام).

وقولُهُ "فاجتنبوهُ" حتمًا في الحرام، وندبًا في المكروه، قالَ الفاكهانيُّ: لَا يتصورُ امتثالُ اجتنابِ المنهيِّ عنْهُ حتَّى يُتركَ جميعُهُ، فلَو اجتُنِبَ بعضُهُ لَمْ يعدْ ممتثلًا، بخلافِ الأمرِ يعني المطلقَ، فإنَّ مَنْ أتَى بأقلِّ مَا يصدقُ عليْهِ الاسمُ كانَ ممتثلًا.

(وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا)، وفي روايةٍ: (فافعلوا)[1]، **(مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)** أيْ مَا أطقْتُم، وجوبًا في الواجبِ وندبًا في المندوبِ؛ كالصلاةِ قائمًا مستندًا فيمَا عدَا المضطرَّ فمستلقيًا فمُومئًا، ولوْ عجزَ عَنْ صاعِ الفطرِ أتَى بمَا قدرَ عليْهِ، وأمَّا مَنْ قدرَ علَى صيامِ بعضِ النهارِ فلَا يفعلُ؛ لأنَّ صومَ بعضِ اليومِ ليسَ بقربةٍ، وإذَا عجزَ عنْ بعضِ الفاتحةِ في الصلاةِ، أوْ قَدَرَ على غسلِ أوْ مسحِ بعضِ الأعضاءِ في الوضوءِ أتَى بالممكنِ وصحَّتْ عبادتُهُ.

وهذَا موافقٌ لقولِهِ تعالَى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وأمَّا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فقالَ قتادةُ والسديُّ وابنُ زيدٍ والربيعُ بنُ أنسٍ: إنَّهَا منسوخةٌ بالأولَى، والأصحُّ بلِ الصوابُ -وبهِ جَزمَ المحقِّقونَ- أنَّهَا ليسَتْ منسوخةً، بلْ قولُهُ تعالَى ﴿مَا استطعْتُمْ﴾ مفسرةٌ لَهَا ومبينةٌ للمرادِ منْهَا، قالُوا و﴿حقَّ تقاتِهِ﴾ هُوَ امتثالُ أمرِهِ واجتنابُ نهيِهِ، ولَمْ يأمرْ سبحانَهُ إلَّا بالمستطاعِ، قالَ تعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ المبالغةَ في التقوى تكونُ بأمرينِ، أحدُهمَا استصحابُ التقوى إلَى الوفاةِ، والأمرُ الآخرُ استيفاءُ جميعِ الطاعاتِ وحفظُ جميعِ الحدودِ والمحرماتِ، فتعرَّضَتْ آيةُ آلِ عمرانَ للمبالغةِ في استغراقِ العمرِ كلِّه إلى الوفاةِ بالتقوى، ويدلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالَى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وتعرَّضَتْ آيةُ التغابُنِ إلى الأمرِ الآخرِ.

فإنْ قلْتَ: الاستطاعةُ معتبرةٌ في النهيِ أيضًا، إذْ لَا يكلفُ اللهُ نفسًا إلَا وسعَهَا، فلِمَ قَيَّدَ الأمرَ دونَ النَّهْيِ؟ فالجوابُ أنَّ المأمورَ بِهِ متوقفٌ على فعلٍ بخلافِ المنهي عنْه فإنَّه كفٌّ محضٌ، فلهذا قالَ في الأولِ: (فاجتنبوه)، وقالَ في الثاني: (فأتوا منه ما استطعتم) فتركُ المنهيِّ عنه عبارةٌ

(١) أخرجها مسلم (١٣٣٧) [كتاب الفضائل- باب توقيره ﷺ].

عنِ استصحابِ حالِ عدمِه أو الاستمرارِ على عدمِه، فكلُّ مكلَّفٍ قادرٌ على التركِ، ولا داعيةَ للشهوةِ، فلا يُتصوَّرُ عدمُ الاستطاعةِ في الكفِّ، بخلافِ فعلِ المأمورِ بِهِ فإنَّهُ عبارةٌ عنْ إخراجِه منَ العدمِ إلى الوجودِ، وذلك يتوقَّفُ على شروطٍ وأسبابٍ، فلذلكَ قُيِّدَ بالاستطاعةِ دونَ النهيِ.

ونوزِعَ بأنَّ القدرةَ على استصحابِ عدمِ النهيِ عنْهُ قدْ يتخلفُ، واستُدِلَّ لَهُ بجوازِ أكْلِ المضطرِّ الميتةَ، وشُربِ المكْرَهِ الخمرَ، وردَّ بأنَّهُ لا نهيَ حينئذٍ.

وإنَّما قدَّمَ في الحديثِ النهيَ على المأمورِ بهِ؛ لأنَّ الأولَ أشدُّ منَ الثَّاني لأنَّهُ لَمْ يرخِّصْ في شيءٍ، والأمرُ مقيَّدٌ بالاستطاعةِ، ولذَا قالَ بعضُهُمْ: أعمالُ البرِّ يعملُها البارُّ والفاجرُ، والمعاصي لا يتركُهَا إلا صدِّيقٌ، ومِنْ ثَمَّ تُسومِحَ فِي تركِ الواجبِ كالقيامِ في الصلاةِ بحصولِ المشقَّةِ، ولَمْ يُتسامَحْ فِي الإقدامِ على بعضِ المنهيَّاتِ إلَّا بالاضطرارِ كأكلِ الميتةِ وإساغةِ الغصةِ بالخمرِ، أو لأنَّ المقامَ مقامُ نهيِ الأقرعِ ابنِ حابسٍ عَنْ مسألتِهِ كَمَا يأْتِي.

***

(**فإنَّمَا أهْلَكَ الَّذينَ مِنْ قبلِكُمْ**) مِنْ أُمَمِ الأنبياءِ (**كَثْرَةُ مَسَائلِهِمْ**) مِنْ غيرِ ضرورةٍ عمَّا لا يعنيهِمْ مِمَّا اقترحُوه عليْهِمْ، كقولِهِمْ لِعيسى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، ولموسى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٦٨].

قصة بقرة بني إسرائيل

فإنَّ بني إسرائيلَ لَمَّا أُمِرُوا بذبحِ بقرةٍ تعنَّتوا ولم يُبادِرُوا إلى مقتضى اللَّفظِ من ذبحِ أي بقرةٍ كانَتْ، بلْ شدَّدُوا على أنفسِهِمْ بكثرةِ السؤالِ عَنْ حالِ البقرةِ وصنفِهَا، فشدَّدَ اللهُ عليْهِمْ بزيادةِ الأوصافِ حتَّى لَمْ يجدُوا متصفًا بِهَا إلَّا بقرةً واحدةً، فاشترُوهَا بملءِ جلدِهَا ذهبًا، وقالَ السديُّ اشترُوهَا بوزنِهَا عَشْرَ مراتٍ ذهبًا. وكانَتْ تحتَهُ حكمةٌ عظيمةٌ، وذلكَ أنَّهُ كانَ في بني إسرائيلَ رجلٌ صالحٌ لَهُ ابنٌ طفلٌ، وكانَ لَهُ عِجْلَةٌ فأتَى بِهَا الغَيْضَةَ[1]، وقالَ: اللهُمَّ إنِّي استودعتُكها لابْني

(١) الغَيْضَة: مَغيضُ ماءٍ يجتمع فيَنْبت فيه الشجر، وجمعها غِياضٌ.

حتَّى يكبرَ[1]، وكانَ بارًا بوالدَيْه حَتَّى بلغ مِنْ برِّه أَنَّ رجلًا أتاهُ بمملوكةٍ بخمسينَ ألفًا، وكانَ فيهَا فضلٌ فاشتراهَا منْهُ، وقالَ لَهُ: إنَّ أَبِي نائمٌ، ومفتاحُ الصندوقِ تحتَ رأسِه فأمهلْني حتى يستيقظَ وأعطيكَ، فقَالَ لَهُ: أيقظْ أباكَ وأعطِني الثمنَ، فقالَ لَهُ: مَا كُنْتُ لأفعلَ، ولكنْ أزيدُكَ عشرةَ آلافٍ، وأنظرْنِي حتَّى ينتبهَ، فقالَ البائعُ: أَنَا أحطُّ عنْكَ عشرةَ آلافٍ إنْ أيقظْتَ أباكَ وعجَّلْتَ النقدَ، فقالَ لَهُ: وأَنَا أزيدُكَ عشرينَ ألفًا إنِ انتظرْتَ انتباهَهُ، فأبَى ولَمْ يوقظِ الرجلُ أباهُ.

وماتَ الأبُ بعدَ ذلكَ، وشبَّتِ العجْلةُ في الغَيْضةِ حَتَّى صارَتْ عوانًا، وكانَتْ مِنْ أحسنِ البقرِ وأَسمَنِه حَتَّى كانَتْ تُسَمَّى المُذهَّبَةَ لِحُسنِهَا وصُفرتِهَا، وكانَتْ تهربُ مِنْ كُلِّ مَنْ رآهَا، فلَمَّا كَبُرَ الابنُ كانَ يقسمُ الليلَ ثلاثةَ أقسامٍ، يصلِّي ثُلثًا، وينامُ ثلثًا، ويجلسُ عندَ رأسِ أمِّه ثلثًا، فإذَا أصبَحَ انطلقَ واحتطبَ على ظهرِهِ فأتَى بِهِ السوقَ ويبيعُهُ بما شاءَ اللهُ تعالَى، ثم يتصدَّقُ بثلثِه، ويأكلُ ثلثَهُ، ويُعطي أمَّهُ ثلثَهُ، فقالَتْ لَهُ أمُّهُ يومًا إنَّ أباكَ ورَّثَكَ عجلةً استودَعَها اللهُ في غيضةِ كَذَا، فانطلقْ فادعُ إلهَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ أَنْ يردَّهَا عليكَ، وعلامتُهَا أَنَّكَ إذا نظرْتَ إليْهَا يخيَّلُ لكَ أَنَّ شعاعَ الشمسِ يخرجُ مِنْ جِلْدِهَا، فأتَى الغيضةَ فرآهَا ترعَى فصاحَ بِهَا، وقالَ: أعزمُ عليكِ بإلهِ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فأقبلَتْ تَسْعَى حَتَّى قامَتْ بينَ يَدَيْه، فقبضَ علَى عنقِها يقودُهَا، فتكَلَّمَتِ البقرةُ بإذنِ اللهِ -تعَالَى- وقالَتْ: أيُّها الفتَى البارُّ بوالدتِه، اركبْنِي، فإنَّ ذَلكَ أهونُ عليكَ، فقالَ الفتى: إنَّ أمِّي لَمْ تأمرْنِي بذَلِكَ، ولَكِنْ قَالَتْ: خُذْ بعُنقِهَا، فقالَتِ البقرةُ: بإلَهِ بَنِي إسرائيلَ لَوْ ركبتَنِي مَا كنتَ تقدرُ عليَّ أبدًا، فانطلِقْ فإنَّكَ لَوْ أمرتَ الجبلَ أَنْ ينقطعَ مِنْ أصلِهِ وينطلقَ معَكَ لَفَعَلَ لبِرِّكَ بوالدتِكَ.

فسارَ الفتَى بِهَا، فاستقبلَهُ عدوُّ اللهِ إبليسُ في صورةِ راعٍ فقالَ: أيُّهَا الفتى إنِّي رجلٌ راعٍ مِنْ رُعاةِ البقرِ اشتقتُ إِلَى أَهْلِي، فأخذْتُ ثورًا مِنْ ثيرانِي فحمَلْتُ عليه زادي ومتاعي حتَّى إِذَا بلغْتُ شطرَ الطريقِ ذهبْتُ لأقضيَ حاجَتِي فعدَا وصعدَ الجبلَ، فمَا قدرْتُ عليْه، وإِنِّي أخشى علَى نفسِي الهلكةَ، فإنْ رأيْتَ أَنْ تحمِلَنِي عَلَى بقرتِكَ وتُحيِيَني مِنَ الموتِ وأعطيكَ أجرَهَا بقرتَيْنِ

(١) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور للسيوطي (١/١٧٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/١٧٦٥).

مِثْلَ بقرَتْكِ؟ فلَمْ يفعلِ الفتَى، وقالَ: اذهبْ وتوكَّلْ على اللهِ، فلَوْ عَلِمَ اللهُ مِنْكَ الصدقَ لَبلَّغَكَ بِلَا زادٍ ولَا راحلةٍ، فقالَ إبليسُ: إنْ شئتَ بِعْنيهَا بفمِكَ، وإنْ شئتَ فاحملْني علَيْهَا، وأَنَا أعطِيكَ عشرةً مِثْلَهَا، فقَالَ الفتَى: إنَّ أمِّي لَمْ تأمرْنِي بذلكَ، فبينَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَارَ طَائِرٌ بَيْنَ يَدَيِ الفتَى، ونفرَتِ البقرةُ هاربةً في الفلاةِ، وغابَ الراعي، فدعَا الفتى إلهَ إبراهيمَ، فرَجَعَتْ إلَيْهِ وقالَتْ: أيُّهَا الفتَى البارُّ بوالدتِهِ أَلَمْ تَرَ إِلَى الطائرِ الذي طارَ، إنَّهُ إبليسُ عدوُّ اللهِ اختلَسَني، أمَا إنَّهُ لَوْ ركِبَنِي مَا قدرتَ علَيَّ أبدًا، فلَمَا دعوتَ إلهَ إبراهيمَ جاءَ ملكٌ فانتزعَنِي مِنْ يدِهِ، وردَّنِي إليكَ لبرِّكَ بأمِّكَ.

فجاءَ بِهَا إلَى أمِّهِ، فقَالَتْ لَهُ: إنَّكَ فقيرٌ لا مالَ لكَ، ويشُقُّ عليكَ الاحتطابُ بالنَّهارِ والقيامُ بالليلِ، فانطلقْ فبِعْهَا وخذْ ثمنَهَا، فقالَ: بكَمْ أبيعُهَا؟ قالَتْ: بثلاثةِ دنانيرَ، ولا تَبِعْ بغيرِ رضايَ ومشورتِي، وكانَ ثمنُهَا ثلاثةَ دنانيرَ، فانطلقَ بِهَا إلَى السوقِ، فبعثَ اللهُ إليْهِ ملكًا فقَالَ لَهُ: بكَمْ تَبيعُ هَذِهِ البقرةَ؟ قالَ: بثلاثةِ دنانيرَ، وأشترطُ عليكَ رضا والدتي، فقالَ لَهُ الملكُ: لكَ ستةُ دنانيرَ ولا تشاورْ والدتَكَ، فقالَ الفتى: لَو أعطيتَنِي وزْنَهَا ذهبًا لَمْ آخذْهُ إلَّا برضا أُمِّي، فردَّهَا إلَى أمِّهِ وأخبرَهَا بذلِكَ، فقالَتِ ارجعْ فبعْهَا بستةِ دنانيرَ علَى رضًا مِنِّي.

فانطلقَ إلَى السوقِ بِها فأَتَى الملكُ فقالَ: استأمرتَ أمَّكَ، فقالَ الفتَى: إنَّهَا أمرتْني أَنْ لا أنقصَهَا عَنْ ستةِ دنانيرَ علَى أَنْ أستأمرَهَا، فقالَ الملكُ: إِنِّي أعطيكَ اثنَيْ عشرَ دينارًا ولا تستأمرْهَا، فأَبَى الفتى ورجعَ إلَى أمِّهِ فأخْبَرَهَا بذلكَ، فقالَتْ إنَّ الذي يأتيكَ مَلَكٌ، يأتيكَ فِي صورةِ بَنِي آدمَ ليختبرَكَ، فَإذَا أتاكَ فقلْ لَهُ: أتأمرُنَا أَنْ نبيعَ هذهِ البقرةَ أَمْ لَا؟ ففعلَ، فقالَ الملَكُ: اذهبْ إلَى أمِّكَ فقلْ لَهَا: أمسكِي هذهِ البقرةَ، فإنَّ موسَى بنَ عمرانَ يشتريهَا مِنْكِ لقتيلٍ يُقتلُ مِنْ بني إسرائيلَ بملْءِ جِلْدِهَا ذهبًا.

فأمسَكُوهَا حَتَّى وُجِدَ في بني إسرائيلَ قتيلٌ اسمُهُ عاميلُ، لَمْ يدرُوا مَنْ قتَلَه، وكَانَ سببُ قتله -كَمَا قالَ عطاءُ والسديُّ- أنَّهُ كانَ كثيرَ المالِ، ولَهُ ابنُ عمٍّ مسكينٌ لا وارثَ لهُ غيرُهُ، فلَمَّا طالَ علَيْهِ موتُهُ قَتَلَهُ ليَرِثَهُ.

وقَالَ بعضُهُمْ كَانَ تَحتَ عاميلَ بنتُ عمٍّ لَهُ ضُربَتْ مثلًا فِي بني إسرائيلَ فِي الحُسنِ والجمالِ، فقتلَ ابنَ عمِّهَا ليستنكِحَهَا قاتلهُ، وقالَ بعضُهُمْ: قَتَلَهُ ابنُ أخيهِ لينكحَ أمتَه، فلمَّا قتلَهُ حَمَلَهُ مِنْ قريةٍ إلَى قريةٍ أُخرَى فألقَاهُ هناكَ، وقيلَ: ألْقَاهُ بَيْنَ قريتَيْنِ.

وقَالَ عكرمَةُ: كَانَ لبَني إسرائيلَ مسجدٌ لَهُ اثْنَا عَشَر بَابًا، لكلِّ سبط مِنْهُمْ بَابٌ، فوُجِدَ قتيلٌ عَلَى بابِ سبطٍ، وجُرَّ إلَى بابِ سبطٍ آخرَ، فاختصمَ السِّبْطانِ فيه، وقَالَ ابنُ سيرينَ: قَتَلَهُ القَاتلُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ فوضَعَهُ عَلَى بابِ رجلٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أصبحَ يطلبُ ثأرَهُ ودَمَهُ ويدَّعيه عَلَيْه، فلَمَّا اشْتَبَهَ عَلَى الناسِ جَاؤوا إلَى مُوسَى وسَأَلُوهُ أَنْ يَدعُو اللهَ لَهُمْ أنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ بدُعَائِه، فأمرَهُمْ بذبحِ بقرةٍ، فقالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، أي أتستهزئُ بنَا ونَحْنُ نسألُكَ عَنْ أَمْرِ القتيلِ، وتأمرُنَا بذبحِ بقرةٍ؟ فقَالَ موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، أي مِنَ المستهزئينَ بالمؤمنينَ، وقيلَ مِنَ الجاهلينَ بالجوابِ علَى وفقِ السؤالِ.

فما زَالُوا يستوصفُونَ حَتَّى وصَفَ لَهُمْ تِلْكَ البقرةَ فأخذُوهَا وذبحُوهَا، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أيْ منْ شدَّةِ اضطرابِهِم واختلافِهِم فيهَا، وضربُوا القتيلَ ببعضٍ منْهَا، فقامَ القتيلُ حيًّا، وأوداجُهُ تشخُبُ دمًا، وَقالَ: قتلَني فلانٌ، ثُمَّ سقطَ وَماتَ مكانَهُ فَحُرِمَ قاتلُهُ الميراثَ.

(**وَاخْتِلَافُهُمْ**) بضمِّ الفاءِ؛ لأنَّهُ أبلغُ فِي ذمِّ الاختلافِ؛ إذْ لَا يتقيدُ حينئذٍ بكثرةٍ، بخلافِ كسرِها، وَقدْ نُهِيَ عنِ الأغلوطاتِ فِي العلمِ(١)، (**عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**) اختلافاً يُؤدِّي إلَى كفرٍ أَوْ بدعةٍ، وأمَّا اختلافُ استنباطِ فروعِ الدِّينِ ومناظرةُ أهلِ العلمِ فيهِ علَى سبيلِ الفائدةِ وإظهارِ الحقِّ فغيرُ منهيٍّ عنْهُ، بلْ مأمورٌ بهِ وفضيلتُه ظاهرةٌ، وَقدْ أجمعَ المسلمونَ منْ عهدِ الصحابةِ إلَى الآنِ علَى ذلكَ، ولَا شكَّ أنَّ الاختلافَ المذمومَ سببٌ لتفرُّقِ القلوبِ وَوهنِ الدِّينِ كمَا جرَى للخوارجِ حينَ تبرَّأَ بعضُهُم منْ بعضٍ وَوهنَ أمرُهم وَاندَحضُوا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٨٨) [أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ- حديث رجل من بني غفار]، وأبو داود (٣٦٥٦) [كتاب العلم- باب التَّوقِّي في الفتيا]، والطبرانيُّ واللفظ له (٣٨٩/١٩)، وغيرهم.

النهي عن كثرة السؤال

وكثرةُ السؤالِ منْ غيرِ ضرورةٍ تُشْعِرُ بالتعنتِ وتُفضي إليْهِ، وقدْ نَهى ﷺ عنْ قيلَ وقالَ وكثرةِ السؤالِ(١)، ومنْ ثمَّ لمَّا أكْثرُوا السؤالَ عليْهِ ﷺ غضبَ، ثمَّ صعدَ المنبرَ وهوَ غضبانُ، قالَ أنسٌ: ونحنُ نرى أنَّ معهُ جبْريلُ، فمَا رأيتُ يوماً كانَ أكثرَ بكاءً منْهُ، فقالَ رجلٌ: يَا رسولَ اللهِ، مَنْ أبي؟ قالَ أبوكَ حذافةُ، وكانَ الناسُ يسبُّونَهُ وينسُبُونَهُ لغيرِهِ، وقالَ آخرُ: مَنْ أبي؟ قالَ: أبوكَ سالمٌ موْلى شيْبَةَ، وقامَ آخرُ فقالَ: أينَ أبي؟ فقَالَ: في النارِ، ثمَّ قالَ: يَا أيُّها الناسُ، إنَّ اللهَ قدْ فرَضَ عليْكُم الحجَّ فَحُجُّوا، فقامَ إليْهِ الأقرَعُ بنُ حابسٍ فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، أكُلَّ عامٍ؟ فسكتَ حتَّى قالَهَا ثلاثاً، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوجبَ، ولَمَا استطعتُمْ، ثُمَّ قالَ: ذرُوني مَا تركْتُكُم، فإنَّما أهْلكَ الَّذينَ منْ قبلِكُمْ كثرةُ مسائلِهم واختلافِهم علَى أنبيائِهم، فإذَا نهيْتُكُم عنْ شيءٍ فاجتنِبوهُ، وإذَا أمرتُكم بشيءٍ فأْتُوا منْهُ مَا استَطعتُمْ، فجَثَا عمرُ علَى ركبتَيْهِ وقالَ: رَضينَا باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا، لَا تفضَحْنَا بسرائرنا، واعفُ عنَّا، عفَا اللهُ عنْكَ، قالَ: فسُرِّيَ عنْهُ ثمَّ التفتَ إلَى الحائطِ فقالَ: لمْ أرَ كاليومِ في الخيرِ والشرِّ، أُريت الجنةَ والنارَ وراءَ هذَا الحائطِ(٢)، اهـ.

***

حكايات عن الحج

فوائدُ: الأُولى: جاءَ قومٌ إلَى سعدونَ الخولانيِّ فحكَوْا أنَّ كنانةَ قتلُوا رَجُلاً وأضرمُوا عليْهِ النارَ طُولَ الليلِ فلمْ تعملْ فِيهِ، وبقِيَ أبيضَ اللونِ، فقالَ: لعلَّهُ حجَّ ثلاثَ حججٍ، قالُوا: نعمْ قالَ: حُدِّثْتُ أنَّ منْ حجَّ حجةً أدَّى فرضَهُ، ومنْ حجَّ ثانيةً فقدْ داينَ ربَّه، ومنْ حجَّ ثلاثَ حججٍ حرَّمَ اللهُ شعرَهُ وبشرَهُ علَى النَّارِ، ذكرَهُ القاضي عياضٌ في الشفا.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤٧٣) [كتاب الرقاق- باب ما يكره من قيل وقال]، ومسلمٌ (٥٩٣) [كتاب الأقضية- باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة..]، وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: ابن أبي شيبة (٣١٧٦٣) [كتاب الفضائل- باب ما أعطى الله تعالى محمدا ﷺ]، وأبو يعلى في مسنده (٣٦٩٠) [مسند أنس]، والحديث في الصحيحين بهذا السِّياق دون السؤال عن الحج أخرجه البخاريُّ (٧٢٩٤) [كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة- باب ما يكره من كثرة السؤال]، ومسلم (٢٣٥٩) [كتاب الفضائل- باب توقيره ﷺ]، وغيرهما، وفيه سؤال الرجل عن أبيه وجثي عمر على ركبتيه ... إلى آخر الحديث.

الثانيةُ: حُكِيَ عنْ محمدِ بنِ المنكدرِ أنَّه حجَّ ثلاثًا وثلاثِينَ حجةً، فلَمَّا كانَ فِي آخرِ حجةٍ قالَ وَهوَ فِي عرفاتٍ: اللهُمَّ إنَّكَ تعلَمُ أنِّي وقفتُ فِي موقفِي هذَا ثلاثاً وَثلاثِينَ وقفةً، فواحدةٌ عنْ فرضِي، والثانيةُ عنْ أبِي، والثالثةُ عنْ أمِّي، وَأشهدُكَ -يَا ربِّ- أنِّي وهبتُ الثلاثِينَ لِمَنْ وقفَ بِمَوقفِي هذَا ولمْ تَتَقَبَّلْ منْهُ، فلَمَّا دفعَ منْ عرفاتٍ نُودِيَ: يَا ابنَ المنكدرِ أتتكرَّمُ علَى منْ خلَقَ الكرمَ والجودَ! وعزَّتِي وَجلَالِي لقدْ غفرتُ لِمَنْ وقَفَ بعرفاتٍ قبلَ أنْ أخلقَ عرفاتٍ بألفِ عامٍ.

وعنْ عليِّ بنِ المُوَفَّقِ أنَّهُ حجَّ ثمانِينَ، فوهبَ مِنْهَا سبعينَ للنبيِّ ﷺ وَأربعةً للخلفاءِ الراشدينَ، وثلاثةً لأُمِّهِ واثنتَيْنِ لأبيهِ، ووهبَ الواحدةَ الباقيةَ لكلِّ منْ نوَى الحجَّ ولمْ يقدرْ عليهِ، فهتفَ بهِ هاتفٌ مِنْ زاويةِ البيتِ يَا ابنَ الموفقِ أتتسخَّى علَيْنَا! ونحنُ خَلَقْنَا السخاءَ، وعزَّتِي وجلالِي كلُّ منْ وهبتَهُ حجةً وهبْنَا لَهُ سبعينَ حجةً.

وعنْهُ أيضاً أنَّهُ قالَ: حجَجْتُ سنةً، فلَمَّا ذهبْتُ إلَى عرفةَ بِتُّ بِمِنَى، فرأيتُ فِي المنامِ كأنَّ ملَكَيْنِ قدْ نزلَا منَ السماءِ، فنادَى أحدُهُمَا صاحبَهُ، يَا عبدَ اللهِ، فقالَ: لَبَّيْكَ، فقالَ: أتدرِي كمْ حجَّ بيتَ ربِّنَا هذهِ السنةَ؟ قالَ: لَا أدرِي، قالَ: حجَّ بيتَ ربِّنَا هذهِ السنةَ ستُّمائةِ ألفٍ، فقُبِلَ مِنْهَا حجُّ ستَّةٍ، ثمَّ ارتفعَا فغابَا فِي السماءِ، فانتبهتُ فزِعًا، وغمَّنِي ذلكَ، وقلتُ فِي نفسِي: إذَا قُبِلَ حجُّ ستَّةٍ، فأيْنَ أكونُ أنَا؟ فلَمَّا أفضتُ منْ عرفاتٍ، وَصِرتُ عندَ المشعرِ الحرامِ جعلتُ أتفكَّرُ فِي كثرةِ الخلائقِ وقلَّةِ مَنْ قُبِلَ مِنْهُم، فغلَبَنِي النومُ، فإذَا الشخصانِ قدْ نَزلَا بعينِهِمَا، وَقالَ أحدُهُمَا لِصَاحِبِهِ المقالةَ الأُولَى، ثمَّ قالَ: أتدرِي مَا حكمُ ربِّنَا -عزَّ وَجلَّ- فِي هذهِ السنةِ؟ قالَ: لَا، قالَ: وهبَ لكلِّ واحدٍ منَ الستَّةِ مائةَ ألفٍ، فانتبهتُ وَقدْ داخلَنِي السرورُ.

وعنْ سفيانَ الثوريِّ -رحِمَهُ اللهُ- قالَ: حججْتُ سنةً، وَنَويْتُ أنْ أنصرفَ منْ عرفاتٍ ولَا أحجُّ بعدُ، فنظَرتُ فِي النَّوْمِ، فإذَا بشيخٍ متكئٍ عَلَى عصًا وهوَ ينظرُ إلَيَّ مليًّا، فقلتُ: السلامُ عليكَ يَا شيخُ، فقالَ: وعليكَ السلامُ يَا سفيانُ، ارجعْ عمَّا نويتَ، فقلتُ: سبحانَ اللهِ، مِنْ أيْنَ علمتَ نيَّتِي؟ قالَ: أَلْهَمَنِي ربِي، فوَاللهِ لقدْ حجَجْتُ خمسًا وَثلاثِينَ حجةً، وَكنتُ واقفًا بعرفاتٍ ها هُنَا فِي الحجَّةِ الخامسةِ وَالثلاثِينَ أنظرُ إلَى هذهِ الزحمةِ، وَبقيتُ منتظرًا حتَّى غابتِ

الشمسُ، وأفاضَ الناسُ منْ عرفاتٍ إلَى المزدلفةِ، وجنَّ الليلُ، ولمْ يبقَ معي أحدٌ، فنمتُ تلكَ الليلةَ، فرأيتُ فِي النَّوْمِ كأنَّ القيامةَ قدْ قامتْ، وَحُشِرَ الناسُ، وتطَايَرَتِ الكتبُ، ونُصبَ الميزانُ والصِّراطُ، وفُتِحَتْ أبوابُ الجنانِ وَالنيرانِ، فسَمِعْتُ النَّارَ تُنَادي وَتقولُ: اللهُمَّ قِ الحُجَّاجَ منْ حرِّي وبردِي، فنُودِيَتْ، يَا نارُ سَلِي غيرَهُم، فإنَّهم ذاقُوا عطشَ حرِّ الباديةِ، ورُزِقُوا الشفاعةَ، قالَ: فانتبهتُ وصليتُ ركعتينِ، ثمَّ نمتُ فرأيتُ ذلكَ، فقلتُ فِي نومِي هذَا مِنَ الرحمنِ أمْ منَ الشيطانِ؟ فقيلَ لِي: منَ اللهِ فمُدَّ يمينَكَ، فمددْتُ، فإذَا علَى كتفِي مكتوبٌ منْ وقفَ بعرفاتٍ وزارَ البيتَ شفَّعْتُهُ فِي سبعينَ منْ أهلِ بيتِهِ، قالَ سفيانُ: وَأَرانِي المكتوبَ حتَّى قرأتُهُ، ثمَّ قالَ الشيخُ: فلَمْ تمرَّ سنةٌ إلَّا وأنَا أحجُّ حتَّى تمَّ لِي ثلاثةٌ وَسبعونَ حجةً.

وعنْ عبدِ اللهِ ابنِ المباركِ قالَ: كانَ بعضُ المتقدِّمينَ قدْ حُبِّبَ إليْهِ الحجُّ فحدَّثْتُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ: وردَ الحاجُّ فِي بعضِ السنينَ إلَى بغدادَ، فعزمتُ علَى الخروجِ معَهُم علَى الحجِّ، فأخذتُ فِي كمِّي خمسَمائةِ دينارٍ إلَى السوقِ أشتري آلةَ الحجِّ، فبَيْنا أنَا فِي بعضِ الطريقِ عارَضَتْني امرأةٌ فقالتْ: رحِمَكَ اللهُ، أنَا امرأةٌ شريفةٌ، ولِي بناتٌ عراةٌ، واليومُ الرابعُ مَا أكلْنَا شيئاً، فوقعَ كلامُهَا فِي قلبِي، فطرحْتُ الخمسَمائةِ دينارٍ فِي طرفِ إزارِهَا، وقلتُ عودِي إلَى بيتِكِ فاستعيني بهذه الدنانيرِ علَى وقتِكِ، فحمدَتِ اللهَ -تعالَى- وانصرفَتْ، ونزعَ اللهُ منْ قلبِي حلاوةَ الخروجِ فِي تلكَ السنةِ، وخرجَ الناسُ وحجُّوا وعادُوا، فقلتُ: أخرجُ للقاءِ الأصدقاءِ والسلامِ عليْهِم، فخرجتُ فجعلتُ كُلَّمَا لقيتُ صديقاً وسلمتُ عليهِ وقلتُ لَهُ: قَبِلَ اللهُ حجَّكَ وشكرَ سعيَكَ، يقولُ: وأنتَ قبِلَ اللهُ حجَّكَ وشكرَ سعيَكَ، وطالَ علَى ذلكَ، فلمَّا كانتِ الليلةُ رأيتُ النبيَّ ﷺ فِي المنامِ يقولُ لِي: يَا فلانُ، لَا تعجَبْ منْ تهنئةِ الناسِ لكَ بالحجِّ، أغثْتَ ملهوفاً وأغنيتَ ضعيفاً، فسألْتُ اللهَ -عزَّ وَجلَّ- فخلقَ فِي صورتِكَ ملَكاً فهوَ يحجُّ عنْكَ فِي كلِّ عامٍ، فإنْ شئتَ فحُجَّ، وإنْ شئتَ لَا تحجَّ.

وروَى نحوَ هذهِ الحكاياتِ أبُو سعيدٍ عبدُ الملكِ بنُ أبِي عثمانَ عنِ ابنِ المباركِ، أنَّ عبدَ اللهِ ابنَ المباركِ دخلَ الكوفةَ وَهوَ يريدُ الحجَّ، فإذَا بامرأةٍ جالسةٍ علَى مزبلةٍ تنْتفُ بطةً، ..

.. فوقعَ في نفسِهِ أنَّهَا ميتةٌ، فوقفَ وَقالَ: يَا هذه، أهذه ميتةٌ أمْ مذبوحةٌ؟ قالتْ: ميتةٌ، وَأنَا أريدُ أنْ آكُلَهَا وَعِيَالي، فقالَ: إنَّ اللهَ حرَّمَ الميتةَ، وَأنتِ في هذا البلدِ، فقالَتْ: يَا هذَا انصرفْ عنِّي، فلمْ يزلْ يراجعُهَا الكلامَ إلَى أنْ تعرَّفَ منزلَهَا، ثمَّ انصرفَ فحَمَلَ عَلى بغلٍ نفقةً وكِسْوَةً وَزَادًا، وَجاءَ وَطرقَ البابَ فَفتحَتْ وَنزلَ عنِ البغلِ وَضربَهُ داخلَ البيتِ ثمَّ قالَ للمرأةِ: هذَا البغلُ ومَا عليْهِ منَ النفقةِ وَالكسوةِ وَالزادِ لكِ، ثُمَّ أقامَ حتَّى رجعَ الحاجُّ، فجاءَ قومٌ يهنِّئونَهُ بالحجِّ، فقالَ: مَا حججْتُ السنةَ، فقالَ لهُ بعضُهمْ: يَا هذَا سبحانَ اللهِ، ألَمْ أُودِعْكَ نفقَتِي وَنحنُ ذاهبونَ إلَى عرفاتٍ؟ وَقالَ لَهُ آخرُ: ألَمْ تَسْقِني بموضعِ كذَا؟ وَقالَ آخرُ: ألَمْ تشترِ لي كذَا؟ فقالَ: لَا أدري مَا تقولُونَهُ، أمَّا أنَا لَمْ أحجَّ العامَ، فلمَّا كانَ الليلةُ أُتِيَ إليْهِ في منامِهِ فَقيلَ لَهُ: يَا عبدَ اللهِ بنَ المباركِ إنَّ اللهَ -عزَّ وَجلَّ جَلالُهُ- قدْ قَبِلَ صدقَتَكَ، وَأنَّهُ بعثَ مَلَكاً علَى صورتِكَ يحجُّ عنْكَ. ذكرَهُمَا ابنُ الجوزيِّ.

وذكرَ ابنُ جماعةَ أنَّ بعضَ السَّلَفِ نوَى الحجَّ وَمعَهُ ثمانمائةِ درهمٍ فعرَضَتْ لَهُ ذاتَ يومٍ حاجةٌ، فبعثَ ولدَهُ إلَى بعضِ جيرانِهِ فرجعَ الولدُ يبكِي، فقالَ لَهُ: ما لَكَ يَا بُنَيُّ؟ قالَ: دخلْتُ علَى جارِنَا وَعندَهُم طبيخٌ فاشتَهَيْتُهُ فلَمْ يُطْعِمُونِي، فذهبَ الرجلُ إلَى جارِهِ يُعَاتِبُهُ علَى مَا فعلَ، فبَكَى الجارُ وَقالَ: ألجأْتَنِي إلَى كشفِ حالِي، إنَّا منذُ خمسةِ أيامٍ لَمْ نُطعمْ فطبخْتُ ميتةً وأكلنَاهَا، وَعلمْتُ أنَّ ولدَكَ يَجِدُ مالاً فلَا يحلُّ لَهُ أكلُ الميتةِ، فتعجَّبَ الرجلُ وَقالَ لنفسِهِ: كيفَ النجاةُ وَفي جوارِكَ مثلُ هذَا وَأنتَ تتأهبُ للحجِّ؟ فرَجَعَ إلَى بيتِهِ وَأعطاهُ الثمانمائةَ درهمٍ، فلَمَّا كانَ عشيَّةُ عرفةَ رأَى ذَا النُّونِ المصريَّ في منامِهِ وَهُوَ بعرفاتٍ كأنَّ قائلاً يقولُ: يَا ذَا النُّونِ ترَى هذَا الزحامَ عَلَى الموقفِ؟ قالَ: نَعَمْ، قَالَ مَا حجَّ منْهُم إلَّا رجلٌ تخلَّفَ عنِ الوقوفِ فحجَّ بِهمَّتِهِ، فوهَبَ اللهُ لَهُ أهلَ الموقفِ، قالَ ذو النونِ: مَنْ هُوَ؟ قيلَ: رجلٌ يسكُنُ دمشقَ، فبحثَ عنْهُ حتَّى عرفَهُ وَسلَّمَ عليْهِ وَبشَّرَهُ بذلِكَ، اهـ. ذكرَه في "مثيرِ شوقِ الأنامِ إلَى حجِّ بيتِ اللهِ الحرامِ"(١).

(١) كتاب "مثير شوق الأنام" من تأليف محمد علان بن عبد الملك بن علان البكري الصديقي المكي.

الثالثةُ: أخرجَ ابنُ عديٍّ في الكاملِ وَالدارقطنيُّ في الأفْرادِ وَالعقيليُّ وَابنُ عساكرَ عن ابن عباسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: يَلْتَقِي الخضرُ مَعَ إلياسَ في كلِ عامٍ في الموسمِ، فيَحْلِقُ كلُّ واحدٍ مِنْهُمَا رأسَ صاحبِه، وَيفترِقَانِ عنْ هذه الكلماتِ: "بسمِ اللهِ، مَا شاءَ اللهُ، لَا يسوقُ الخيرَ إلَّا اللهُ، مَا شاءَ اللهُ، لَا يصرِفُ السوءَ إلَّا اللهُ، مَا شَاءَ اللهُ، مَا كانَ مِنْ نعمةٍ فمِنَ اللهِ، مَا شاءَ اللهُ، لَا حولَ وَلَا قوةَ إلَّا باللهِ"، وَفِي بعضِ الرواياتِ زيادةُ "العليِّ العظيمِ"[1]، وَإسنادُ هذَا الحديثِ ضعيفٌ؛ لأنَّ فيهِ الحسنَ بنَ رزينٍ، وَهوَ ضعيفٌ، وَأخرجَهُ ابنُ الجوزيِّ مِنْ طريقِ أحمدَ بنِ عمارٍ عنْ محمدِ بنِ مهديٍّ عنْ مهديِّ بنِ هلالٍ، وزادَ: قالَ ابنُ عباسٍ: مَا مِنْ عبدٍ قالَهَا في كلِّ يومٍ ثلاثَ مراتٍ إلَّا أمِنَ الحرْقَ وَالغرَقَ وَالسرِقَ وَالسلطانَ وَالشيطانَ وَالحيَّةَ وَالعقربَ حتَّى يُمْسِيَ، وَكَذَلِكَ حتَّى يُصبحَ[2].

الرابعةُ: عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حجَّ أربعينَ حجةً منَ الهندِ ماشيًا علَى رجلَيْهِ[3]، قِيلَ لمجاهدٍ: أفلَا كانَ يركبُ؟ قالَ: وَأيُّ شيءٍ كانَ يحمِلُهُ؟ أخرجَهُ ابنُ الجوزيِّ[4]، وَقالَ سعيدُ بنُ سالمٍ: حجَّ سبعينَ حجةً ماشيًا.

(رَوَاهُ البخاريُّ وَمسلمٌ)، وَهُوَ حديثٌ عظيمٌ مِنْ قوَاعدِ الدينِ.

***

(١) أخرجه ابن شاذان في المشيخة الصُّغرى (ص ٤١ رقم ٥٢)، وابن عساكر في التاريخ (٤٢٧/١٦) [في ذكر الخَضِر عليه السلام] وابن عديٍّ في الكامل (١٧٥/٣) من حديث ابن عبَّاسٍ، وقال ابن عديٍّ: هذا الحديث بهذا الإسناد مُنكرٌ.

(٢) "الموضوعات" لابن الجوزي (١٩٥/١) [كتاب ذكر جماعة من الانبياء والقدماء].

(٣) أخرجه البيهقيُّ في "الشعب" (٣٧٠٢)، وابن عساكر في "التاريخ" (٤٢٢/٧) موقوفًا على ابن عباس.

(٤) ذكره ابن جرير في "التاريخ" (١٢٥/١) [القول في الموضع الذي أهبط آدم وحواء إليه من الأرض].

الحديثُ العاشرُ

١٠. عنْ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: إنَّ اللهَ تعالى طيِّبٌ لا يَقبلُ إلا طيِّباً، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنينَ بما أَمَرَ به المُرسلينَ فقالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحاً﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذكرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السفرَ أشعثَ أغبرَ يمدُّ يديْه إلى السماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعمُه حَرامٌ، ومَشربُه حَرامٌ، ومَلبسُه حَرامٌ، وغُذِّيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُستجابُ له. رواهُ مسلمٌ.

(عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ اللهَ طَيِّبٌ)، أيْ مُنَزَّهٌ عنِ النقائصِ ومُقَدَّسٌ عنِ الآفاتِ والعُيُوبِ وعَنْ كلِّ وصفٍ خلَا عنِ الكمالِ المطلقِ، كمَا قالَهُ القاضي عياضٌ، أوْ طيِّبُ الثناءِ مُستلَذُّ الأسماءِ عندَ العارفينَ بهَا، كمَا قالَهُ غَيْرُهُ.

معاني كلمة "الطيب" في القرآن

ثُمَّ إنَّ الطيِّبَ لَهُ إطْلَاقَاتٌ، فَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ الحلالُ كمَا في قولِهِ تعَالَى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وَقولِهِ تعَالَى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، وَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ الجَيِّدُ منَ الحلالِ، وهوَ المستلذُّ مِنْهُ كمَا في قولِهِ تعالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وَقولِهِ تعالَى: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] علَى أنَّهُ مِنْ بابِ التأسيسِ الَّذي هوَ الأصلُ لَا التأكيدِ، وَقيلَ إنَّهُ بمعنَى الطاهرِ، ومن ورودِه بمعنى الطاهرِ قولُهُ تعالَى ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]، وَيطلقُ وَيرادُ بِهِ المنبتُ كمَا في قولِهِ تعالَى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وَيطلقُ ويرادُ به الحَسَنُ كمَا في قولِهِ تعالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، أي الحَسَنُ، وَهوَ شهادةُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ، وَقولِهِ

تعالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] أيْ حسنةً، وَهِيَ الشهادةُ، وَيُطلَقُ وَيُرادُ بِهِ المؤمنُ كمَا فِي قولِهِ تعالَى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وَيطلقُ ويرادُ بِهِ مَا لَا أذَى فيهِ كقولِكَ: "هذَا يومٌ طيِّبٌ وليلةٌ طَيِّبَةٌ" أيْ ليسَ فِيهِمَا حرٌّ يؤذِي وَلَا بردٌ يؤذِي، وَيطلقُ ويرادُ بِهِ المُدرِكُ كقولِهِم: طابَ ثَمرُهَا أيْ أدركَ.

قالَ الشارحُ الهيتمي: وَهُوَ -أيْ طيِّبٌ- منْ أسمائِهِ الحُسْنَى لصحة الحديثِ بِهِ كالجميلِ[1]، وَمِثلُهُمَا النظيفُ، ورُدَّ بأنَّ حديثَهُ لَمْ يَصِحَّ[2]، اهـ. وبحثَ فيهِ بعضُهُم بأنَّهُ إنْ أرادَ بعدمِ صحَّةِ الثالثِ عدمَ ورودِهِ فممنوعٌ، بلْ فِي حديثٍ رواهُ ابنُ عديٍّ وغيرُهُ عنِ ابنِ عمرَ مرفوعاً (إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، نظيفٌ يُحبُّ النظافةَ)[3]، وَإنْ أرادَ بالصحةِ ونفْيَهَا الصحيحَ المصطلحَ عليْهِ فممنوعٌ أيضًا؛ لأنَّ الخبريْنِ المذكوريْنِ ضعيفانِ كمَا بيَّنَهُ جمعٌ مِنَ الحُفَّاظِ فتدبَّرْ.

(**لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا**) أيْ لَا يُقْبَلُ مِنَ الأعمالِ إلَّا مَا كانَ خالصًا مِنَ المفسداتِ كالرياءِ وَالعُجْبِ، وَلَا مِنَ الأموالِ إلَّا مَا كانَ حلالًا؛ لأنَّ لفظَ "طيِّب" يتضمَّنُ المدحَ وَالتشريفَ، فلَا يُتقرَّبُ إليْهِ -سبحانَهُ وَتعَالَى- إلا بما يُناسِبُهُ فِي ذلكَ المعنَى وَهُوَ الإخلاصُ فِي الأعمالِ وخيارُ الأموالِ كمَا قالَ تعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وَعَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (مَنْ أكلَ لقمةً مِنْ حرامٍ لَمْ يقبلِ اللهُ عملَهُ أربعينَ صباحاً)[4]،

---

(١) وهو حديث: (إن اللَّه جميل يحب الجمال) أخرجه مسلمٌ (٩١) [كتاب الإيمان- باب تحريم الكبر وبيانه]، وغيره من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٢٧٩٩) [أبواب الأدب- باب ما جاء في النظافة]، وأبو يعلى (٧٩٠) [مسند سعد بن أبي وقاص]، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفيه: (نظيفٌ يحبُّ النظافة). وقال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ وخالد بن إلياس يُضَعَّف.

(٣) أخرجه ابن عديٍّ في الكامل (٣/٤١٤)، وهو عند الترمذي، وغيره كما تقدَّم.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥) [باب الهمزة- من اسمه أحمد]، وغيره وفيه: (إنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ...).

و(مَن اكتسبَ مالاً حراماً فإنْ تصدَّقَ بِهِ لَمْ يُقبلْ منْهُ، وَمَنْ خَلَفَهُ مِنْ بعدِهِ كانَ دليلَهُ إلَى النارِ)[1]، و(مَنْ أكلَ الحلالَ أربعينَ صباحاً نوَّرَ اللهُ قلبَهُ وأجرَى ينابيعَ الحِكْمَةِ علَى لِسانِهِ، وَمَنْ سَعَى علَى عِيَالِهِ مِن حلِّهِ كانَ كالمجاهدِ فِي سبيلِ اللهِ)[2].

قالَ القرطبيُّ فِي شرحِ مسلمٍ مَا ملخصُهُ: الإخلاصُ شرطٌ فِي جميعِ العباداتِ، وذلكَ بأنْ يكونَ الباعثُ علَى عملِها التقرُّبَ إلَى اللهِ تعالَى وابتغاءَ مَا عندَهُ، فإنْ كانَ الباعثُ علَيْهَا شيئاً مِنْ أغراضِ الدُّنْيَا فلَا تكونُ عبادةً بلْ معصيةً، إمَّا كفرٌ، وإمَّا رياءٌ، وهذَا إذَا كانَ الباعثُ علَى تلكَ العبادةِ الغرضَ الدنيويَّ وحدَهُ بحيثُ لو فُقِدَ لَتُرِكَ العملُ، فلوْ أوقعَ العبادةَ بمجموعِ الباعثينَ، فإنْ كانَ باعثُ الدُّنيا أقوى أوْ مساويًا لَحِقَ بالقسمِ الأوَّلِ في الحكمِ أو بإبطالِ العملِ عندَ أئمةِ هذا الشأنِ لحديثِ (مَنْ عَمِلَ عملًا أشركَ فيه غيري تركتُه وشركه)[3]، فلوْ كانَ باعثُ الدِّينِ أقْوى فحَكَمَ المحاسبيُّ بإبطالِ ذلكَ العملِ متمسكًا بالحديثِ المتقدِّمِ وما في معناهُ، وخالَفَه الجمهورُ، وقالوا بصحَّةِ العملِ، وأمَّا لو انفردَ باعثُ الدِّينِ بالعملِ، ثم عَرَضَ باعثُ الدُّنيا في أثناءِ العملِ فهو أَوْلى بالصحَّةِ، اهـ.

وفي الحديثِ (مَنْ حَجَّ بِمَالٍ حَرَامٍ فَقَالَ لَبَّيْكَ، قَالَ اللهُ تعالى: لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدَيْكَ حَجُّكَ مَرْدُودٌ عَلَيْكَ)[4]، وَأَخْرَجَ أحمدُ عَنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (من اشترى ثوبًا بعشرةِ دراهمَ وفيها درهمٌ مِنْ حرامٍ لَمْ يقبلِ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- له صلاةً ما دامَ عليْه، ثُمَّ أدخلَ أصبعَيْه في أذنَيْه،

(١) أخرجه الحاكم (٤/٢) [كتاب البيوع]، وغيره بنحوه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وله شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه أحمد (٣٦٧٢) [مسند عبدالله بن مسعود]، وغيره.

(٢) أخرجه الإمام زيد في مسنده (٦٠٢) [كتاب الفرائض- باب الإخلاص] عن أبيه عن جده عن على عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: (من أخلص للَّه أربعين صباحًا يأكل الحلال، صائما نهاره، قائمًا ليله أجرى اللَّه سبحانه ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه). وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٨٩/٥) [ترجمة مكحول]، وغيره من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (من أخلص لله تعالى أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة على لسانه).

(٣) أخرجه مسلمٌ (٢٩٨٥) [كتابُ الزُّهدِ والرَّقائقِ- بابُ مَن أَشْرَكَ في عَمَلِهِ غير الله]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) أخرجه ابن مردويه في "ثلاثة مجالس من الأمالي" (٤٤) ومن طريقه الأصبهاني في "الترغيب" (١٠٧٦) [باب الترغيب في الحج] وغيرهما عن عمر بن الخطاب مرفوعا. وإسناده ضعيفٌ.

ثُمَّ قالَ: صُمَّتَا إنْ لمْ أكنْ سمعتُه منْ رسولِ الله ﷺ يقولُه)[1]، وأخرجَ الحاكمُ وابنُ خزيمةَ وابنُ حبانَ: (منْ جَمَعَ مالًا منْ حرامٍ ثُمَّ تصدَّقَ بهِ لمْ يكنْ لهُ فيهِ أجرٌ وكان إصرُهُ[2] عليهِ)[3]، وأخرجَ الطبرانيُّ: (منْ كسبَ مالًا منْ حرامٍ فأنفقَ منْهُ ووصَلَ رَحِمَهُ كانَ ذلكَ إصْرًا عليْهِ)[4]، وإنَّما لم تقبلِ الصدقةُ بالحرامِ؛ لأنَّه ممنوعٌ منَ التَّصرفِ فيه لكونِه ملكَ الغيرِ، فلو قُبِلَ لزمَ كونُه مأمورًا به منهيًّا عنْه منْ جهةٍ واحدةٍ وهو محالٌ.

وهذه الجملةُ توطئةٌ وتأسيسٌ لما هو المقصودُ بالذاتِ منْ سياقِ هذا الحديثِ، وهو طيبُ المطعمِ المستلزمِ لإجابةِ الدعاءِ غالبًا.

طيب المطعم يستلزم إجابة الدعاء

(**وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى**) لمَّا خلقَ لعبادِه ما في الأرضِ جميعًا وأباحَه لهم سوى ما حُرِّمَ عليْهم (**أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ**) أيْ والمؤمناتِ، فهو منْ بابِ التغليبِ، والأمرُ للوجوبِ (**بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ**) فسوَّى بَيْنَهم في الخطابِ بوجوبِ أكلِ الحلالِ، ففيه إشعارٌ بأنَّ الأصلَ استواؤهم معَ أممِهم في الأحكامِ إلَّا ما قامَ الدليلُ على اختصاصِهم به، (**فَقَالَ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ**) فيه تنبيهٌ على أنَّ إباحةَ الطيباتِ لهم شرعٌ قديمٌ، وردٌّ للرهبانيةِ في رفضِ الطيباتِ، (**واعمَلوا صالحًا**) وقدَّمَ أكْلَ الحلالِ على صالحِ الأعمالِ تنبيهًا على أنَّه لا يُتوصَّلُ للعملِ إلَّا بعدَ الانتفاعِ بالرزقِ، (**وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**) أيْ نَفَعْناكم، وهو جمعُ "طَيِّبٍ" بمعنى الحلالِ الخالصِ منَ الشبهةِ؛ لأنَّ الشرعَ طيَّبَهُ لآكلِه، وإنْ لمْ يستلذَّه، ولذيذُ الطعمِ منْ غيْرِه وبالٌ على آكلِه وندامةٌ وحسرةٌ، فقولُ الشافعيِّ: "الطيبُ المستلذُّ" أرادَ به المستلذَّ شرعًا، فهو بمعنى ما قبلَه، وقدْ خَفِيَ هذا على بعضِهم فظنَّ تغايُرَهما فاعترضَه بأنَّ الخنزيرَ ألذُّ اللحمِ على الإطلاقِ وهو حرامٌ إجماعًا، والصبرُ لا لذَّةَ فيه وهو حلالٌ إجماعًا.

---

(١) مسند أحمد (٥٧٣٢) [مسند عبدالله بن عمر] وإسناده ضعيف.

(٢) جاء في المخطوط والمطبوع -هنا وفي الحديث بعده- "أضراره" ولعله خطأ من النساخ.

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٢٤٧١) [كتاب الزكاة]، وابن حبان (٣٢١٦) [كتاب الزكاة- باب جمع المال من حِلّه]، والحاكم (١/ ٣٩٠) [كتاب الزكاة]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، ولفظهم: (وكان إصْرُه عليه).

(٤) أخرجه الطبراني كما في "مجمع الزوائد" (١٨١٠٦) [كتاب الزهد- باب النفقة من الحلال والحرام] من حديث الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (كان ذلك إصرًا عليه).

وأخرجَ ابنُ سعدٍ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّه قالَ يومًا: إنِّي أكلتُ الليلةَ حِمَّصًا وعدسًا فنفخَني، فقالَ له بعضُ القومِ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ اللهَ تعالى يقولُ في كتابِه ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فقالَ عمرُ: "هيهاتَ هيهاتَ، ذهبتَ به إلى غيرِ مذهبِه، إنَّما يُريدُ طيبَ الكسبِ، ولا يريدُ طيبَ الطعامِ". وأسندَ الرزقَ إلى نفسِه تحريضًا لهم، والأمرُ في هذه الآيةِ للإباحةِ، أو للوجوبِ كما لو أشرفَ على الهلاكِ مجاعةً، أو للندبِ بموافقةِ الضيفِ.

قال أبو هريرةَ: (**ثم**) إنَّ النبيَّ ﷺ استطردَ الكلامَ حتَّى (**ذكرَ الرجُلَ**) خصَّه بالذكرِ؛ لأنَّه الذي يُسافرُ السفرَ البعيدَ الطويلَ غالبًا، وإلا فالمرأةُ كذلكَ (**يُطيلُ السفرَ**) في وجوهِ الطاعاتِ مِنْ حجٍّ وجهادٍ وزيارةٍ مستحبَّةٍ وصلةِ رحمٍ وغيرِ ذلك مِنْ وجوهِ البرِّ، وذكرَ بعضُهم أنَّ قولَه: "أشعث أغبر" يفيدُ أنَّه سفرُ الحجِّ؛ لأنَّ الصِّفتَيْنِ المذكورتَيْنِ غالبًا لا يكونانِ إلا فيه، والأَوْلى التعميمُ الأولُ، وقولُه: "يُطيلُ السفرَ" محلُّه النّصبُ صفةً للرجلِ، لأن "ال" فيه جنسيَّةٌ، والجنسُ المعرَّفُ بمنزلةِ النكرةِ على حد قولِه[1]: "وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي"، قالَ الطيبيُّ: ولوْ حكى لفظَ رسولِ اللهِ رُفِعَ "الرجلُ" بالابتداءِ، والخبرُ "يُطيلُ ..." إلخ، (**أَشْعَثُ**) أيْ متلبِّدُ الشَّعْرِ لبُعْدِ عهدِه بالغسلِ والتسريحِ والدهنِ، وشَعِثَ الرجلُ شَعَثًا، مِنْ بابِ تَعِبَ، (**أَغْبَرُ**) أيْ غيَّرَ الغبارُ وجهَهُ وبقيةَ جسدِه.

(**يَمُدُّ يَدَيْهِ**) فيه إشارةٌ إلى أنَّ رفعَ اليدينِ مشروعٌ في الدعاءِ لِما فيه مِنْ إظهارِ شعارِ الذُّلِّ والانكسارِ والإقرارِ بسمةِ العجزِ والافتقارِ، ولأنَّ العربَ تَرفعُ أيديَها إذا استعظمتِ الأمرَ، فالداعي جديرٌ بذلك لتوجُّهِه بينَ يديْ أعظمِ العظماءِ، ولأنَّ العادةَ في سؤالِ المخلوقِ ذلك، فيضعُ في يدِه ما يسألُه فيه، فكأنَّ الداعيَ شبَّهَ المعقولَ بالمحسوسِ.

(**إِلَى**) جهةِ (**السَّمَاءِ**)؛ لأنَّها مخزنُ الأرزاقِ ومصعدُ أسرارِ الخلائقِ ومصعدُ الأعمالِ، وللإشارةِ إلى ما هو من وصفِ المدعوِّ مِنَ الجلالِ والكبرياءِ، وأنَّه فوقَ كلِّ موجودٍ بالقهرِ

---

(١) من قصيدة للشاعر الجاهلي شمر بن عمرو الحنفي، من شعراء بني حنيفة باليمامة، وتمام البيت:
وَلقدْ مررْتُ على اللَّئيمِ يسبُّني * فمضيْتُ ثُمَّت قُلْتُ لا يعْنيني

والاستيلاءِ، ولأنَّها قبلةُ الدعاءِ، ومنْ ثم كانتْ أفضلَ مِنَ الأرضِ على قولِ الأكثرِ، وهو الأصحُّ؛ لأنَّه لمْ يُعصَ اللهُ فيها، وقيلَ: الأرضُ أفضلُ؛ لأنَّ الأنبياءَ خُلِقوا مِنْها، وهي مدفنُهم ومستقرُّهم، وعدمُ العصيانِ في السماءِ مزيةٌ، وهي لا تَقتَضي الأفضليةَ، على أنَّه قدْ يكونُ في المفضولِ مزايا، وقدْ ينتقضُ بما وقعَ لآدمَ وحواءَ وإبليسَ، وادعاءُ أنَّهم لمْ يَكونوا في السماءِ يحتاجُ لدليلٍ.

(**يَا رَبِّ**) أعطني كذا (**يَا رَبِّ**) جَنِّبْني كذا، (**وَمَطْعَمُهُ**) هو مصدرٌ بمعنى المفعولِ، وكذا يُقالُ فيما بعدَه (**حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وَغُذِيَ**) بضمِّ الغينِ المعجمةِ وكسرِ الذَّالِ المعجمةِ المخفَّفةِ، وفي المصابيحِ وردتْ مشدَّدةً (**بِالحَرَامِ**) ذكرَ قولَه: "وَغُذِيَ بِالحَرَامِ" بعدَ قولِه: "وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ" إمَّا للتأكيدِ، وإمَّا للتنبيهِ على استواءِ حاليْه صِغرًا وكِبرًا، فأشارَ بقولِه: "وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ" إلى حالِ كبرِه، وبقولِه: "وَغُذِيَ بِالحَرَامِ" إلى حالِ صغرِه، وهذا دالٌّ على أنَّ لا ترتيبَ في الواوِ.

(**فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ**) أيْ فكيفَ، ومنْ أينَ يُستجابُ لِمَنْ هذه صفتُه؟ فهو استبعادٌ لإجابةِ دعائِه معَ قبحِ ما هو ملتبسٌ به، معَ ما هو عليْه مِنْ إطالةِ السفرِ في أنواعِ الطاعةِ، فكيفَ بِمَنْ هو منهمكٌ في ملاذِّ الدُّنيا وبمظالمِ العبادِ، أولئكَ كالأنعامِ بلْ هم أضلُّ، لكنْ يجوزُ أنْ يَستجيبَ اللهُ لطفًا منه وتفضلًا.

***

وقدْ عُلِمَ مِنْ هذا أنَّ تناولَ الحرامِ مانعٌ مِنْ إجابةِ الدعاءِ غالبًا، وبقيَ للدعاءِ شروطٌ، منها:

من شروط الدعاء

- أنْ لا يدعو بحرامٍ، كأنْ يدعو بالشرِّ على غيرِ مستحقِّه ولو بهيمةً،
- ولا بمُحالٍ ولوْ عادةً، فإنَّه تعالى أجرى الأمورَ على العادةِ، فالدعاءُ بخرقِها تحكُّمٌ على القدرةِ القاضيةِ بدوامِها، وذلك سوءُ أدبٍ على اللهِ، قيلَ: إلا بالاسمِ الأعظمِ فيجوزُ تأسيًا بالذي عندَه عِلْمٌ من الكتابِ دعا بحضورِ عرشِ بلقيسَ فأُجيبَ، وهو مبنيٌّ على أنَّ شرعَ مَنْ قبْلَنا شرعٌ لنا،

- وأنْ لا يكونَ فيما يسألُ غرضٌ فاسدٌ كمالٍ وطولِ عمرٍ للتفاخرِ،
- وأنْ لا يكونَ على وجهِ الاختبار،
- وأنْ لا يشتغلَ به عن فرضٍ،
- وأنْ لا يستعظمَ حاجتَه،
- وأنْ تكونَ الإجابةُ عندَه أغلبَ مِنَ الردِّ للخبرِ الآتي ولخبر: يقول الله -عَزَّ وَجَلَّ-: (أنا عندَ ظنِّ عبدي بي)[1]،
- وأنْ لا يضجرَ منْ تأخُّرِ الإجابةِ فيقولَ دعوتُ فلمْ يُستجَبْ لي[2]؛ لأنَّه سوءُ أدبٍ،
- وأنْ لا يدعوَ بدعاءٍ أَلَّفَه غيرُه ولَمْ يَرِدْ بِهِ أثرٌ، مَعَ الجهلِ بِمعناهُ أو انصرافِ الهمةِ إلى لفظِه؛ لأنَّه حاكٍ لكلامِ غيرِه لا سائلٌ،
- وأنْ يحترزَ عمَّا يعد إساءةً في المخاطباتِ، فلا يُصرِّحُ بجماعٍ ونحوِه،
- وأنْ يدعوَ بأسمائه الحسنى دونَ غيرِها وإنْ كانَ حقًّا كـ"يا خالقَ الخنازيرِ"،
- وأنْ لا يعلِّقَه بما هو شأنُه -تعالى- كـ"اللهمَّ افعلْ بي ما أنتَ أهلُه في الدُّنيا والآخرةِ"،
- وأنْ يكونَ حاضرَ القلبِ موقنًا بالإجابةِ لخبرِ (ادعوا اللهَ وأنتم موقنون بالإجابةِ، فإنَّ اللهَ لا يَسمعُ دعاءً مِنْ قلبٍ غافلٍ لاهٍ)[3]، وقدْ وَرَدَ أنَّ موسى -عَلَيْهِ الصلاةُ والسلامُ- مرَّ على رجلٍ يَتضرَّعُ إلى اللهِ -تعالى- فقال: يا ربِّ لو كانتْ حاجتُه بيدي لَقضيتُها، فقالَ اللهُ له: أنا أرْحَمُ به منكَ، لكنَّه يَدعوني وله غنمٌ وقلبُه عندَ غنمِه، ولا أستجيبُ لِمنْ يَدعوني وقلبُه عندَ

---

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (رقم ٧٤٠٥) [كتاب التوحيد- بابُ قولِ الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ومسلمٌ (رقم ٢٦٧٥) [كتاب التوبة- بابٌ في الحَضِّ على التَّوبَةِ والفَرَحِ بها]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٣٤٠) [كتاب الدعوات- باب يستجاب للعبد ما لم يعجل]، ومسلمٌ (٢٧٣٥) [كتاب الذكر والدعاء- باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل..]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعْجَل، يقول: دعوتُ فلم يُستجَبْ لي).

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٥٥) [مسند عبد الله بن عمرو]، وغيره من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، وحسَّنه الحافظ المنذري في "الترغيب" (٢/٤٩١-٤٩٢)، والهيثمي في "المجمع" (١٠/١٤٨). وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذيُّ (٣٤٧٩) [أبواب الدعوات]، والطبراني في الأوسط (٥١٠٩) [باب الميم – من اسمه محمد] والحاكم (١/٤٩٣) [كتاب الدعاء]، وغيرهم.

غيْري، فذكرَ موسى ذلك للرجلِ فانقطعَ إلى اللهِ فقُضِيَتْ حاجتُه[1]،

- وأنْ يتجنَّبَ اللَّحنَ فلا يدعو بالجرِّ فيما الصوابُ فيه الرفعُ أو النصبُ؛ لأنَّه يتضمَّنُ عدمَ مؤاخذةِ الحقِّ بالخطأِ، وسَمِعَ الأصمعيُّ رجلًا عندَ الملْتَزَمِ يقولُ: يا ذي الجلالُ والإكرامُ، فقالَ له: منذُ كمْ تدعوهُ؟ فقالَ: منذُ سبعِ سنينَ، فلمْ أرَ الإجابةَ، فقالَ: لأنَّكَ تلحنُ في الدعاءِ، فأنَّى يُستجابُ لكَ؟ قُلْ: يا ذا الجلالِ والإكرامِ، ففعلَ فاستُجيبَ له. لكنْ ذَكَرَ ابنُ الصلاحِ أنَّ الدعاءَ الملحونَ ممنْ لا يستطيعُ غيرَه لا يقدحُ فيه.

***

ومرَّ إبراهيمُ بنُ أدهمَ بسوقِ البصرةِ فاجتمعَ الناسُ عليْه، وقالوا له: يا أبا إسحاقَ ما لنا ندعو، فلا يستجابُ لنا، قالَ: لأنَّ قلوبَكم ماتتْ بعشرةِ أشياءَ:

الأولُ: عرفْتُم اللهَ فلمْ تؤدُّوا حقَّه.

والثاني: زعمتُم أنَّكم تُحبُّونَ رسولَ اللهِ ﷺ وتركتُم سنَّتَهُ.

والثالثُ: قرأتُمُ القرآنَ فلمْ تَعْمَلوا به.

والرابعُ: أكلتُم نعمةَ اللهِ فلمْ تؤدُّوا شُكْرَها.

والخامسُ: علِمْتُمْ أنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فلم تُخالِفوه.

والسادسُ: علِمْتُمْ أنَّ الجنةَ حقٌّ ولْم تعمَلوا لها.

والسابعُ: علِمْتُمْ أنَّ النَّارَ حقٌّ ولم تَهربوا منها.

والثامنُ: علِمْتُمْ أنَّ الموتَ حقٌّ ولم تستعدوا له.

والتاسعُ: انتبهتُمْ من النَّومِ فاشتغلتمْ بعيوبِ الناسِ ونسيتمُ عيوبَكم.

والعاشرُ: دَفَنْتُمْ موتاكمْ ولم تَعتبِروا بهِمْ.

***

(١) ذكره القشيري في الرسالة (١/٨٥) [باب الفتوة].

قالَ ابنُ عطاءِ اللهِ: إنَّ للدعاءِ شروطًا وأركانًا وأجنحةً ومواقيتَ وأسبابًا وأوقاتًا، فإنْ وافقَ أركانَه قَوِيَ، وإنْ وافقَ أجنحتَه طارَ إلى السماءِ، وإنْ وافقَ مواقيتَه فازَ، وإنْ وافقَ أسبابَه أنجحَ، وإنْ وافقَ أوقاتَه استقرَّ. فأركانُه حضورُ القلبِ والخشوعُ وقطعُه عنِ الأسبابِ، وأجنحتُه الصدقُ، ومواقيتُه الأسحار، وأسبابُه الحمدُ للهِ والصلاةُ والسلام على النبيِّ ﷺ، وأوقاتُه بعدَ الصلاةِ ومواضعُ إجابةِ الدعواتِ، انتهى من الشيرازيِّ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (خمسُ دعواتٍ لا تُردُّ، دعوةُ الحاجِّ حتى يُصدِرَ، ودعوةُ الغازي حتَّى يَرجِعَ، ودعوةُ المظلومِ حتى ينتصرَ، ودعوةُ المريضِ حتى يُشفى، ودعوةُ الأخِ لأخيهِ بظهرِ الغيبِ، وأسرعُ هؤلاءِ الدعواتِ دعوةُ الأخِ لأخيهِ بالغيبِ)[١]، أخرجَه الحافظُ أبو منصورٍ عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ الوليدِ، وصحَّحهُ المحبُّ الطبريُّ في كتابهِ المُسمَّى بـ"القرى لِقاصدِ أُمِّ القُرى"[٢].

ثم إنَّ الإجابةَ ليستْ منحصرةً في الإسعافِ بالمطلوبِ، بلْ هِيَ حصولُ واحدٍ منَ الثلاثِ المذكورةِ في قولِه ﷺ: (ما مِنْ داعٍ يدعو إلَّا كانَ بينَ ثلاثٍ، إمَّا أنْ يُستجابَ له، وإمَّا أنْ يُدَّخرَ له -يَعْني أفضلَ منه-، وإمَّا أنْ يُكفَّرَ عنه من ذنبِه)، وفي لفظٍ (أو يُدفَعُ عنه منَ السوءِ مثلُه)[٣].

(رواهُ مسلمٌ)، وهو أحدُ الأحاديثِ التي علَيْها قواعدُ الإسلامِ ومباني الأحكامِ.

***

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٨٧)، وفي إسناده عبد الرحيم بن زيد العمى متروك، وكذَّبه ابن معين انظر: "تهذيب التهذيب" لابن حجر (٦ /٣٠٥) . وقبول دعاء هؤلاء الأصناف مفرد ثابت في أحاديث أخرى، ومنها ما هو في الصحيحين.

(٢) "القرى لِقاصدِ أُمِّ القُرى (ص ٣٩) [ما جاء في إجابة دعاء الحاج والمعتمر]، ولم يعزه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩١٧٠)، وأحمد (١١١٣٣) [مسند أبي سعيد]، والبخاريُّ في "الأدب المفرد" (٧١٠) [باب ما يدخر للداعي من الأجر والثواب]، وأبو يعلى (١٠١٩) [مسند أبي سعيد]، والحاكم (٤٩٣/١) [كتاب الدعاء] وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وصحَّحه الحاكم.

الحديثُ الحادي عشَرَ

١١. عن أبي مُحمدٍ الحسنِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، سبطِ رسولِ اللهِ ﷺ وريحانتِه، قالَ: حفظتُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ: دعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ. رواهُ الترمذيُّ والنسائيُّ، وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

التعريف بالإمام الحسن ومناقبه

(عنْ أبي محمدٍ الحسنِ)، كنَّاه وسمَّاه بذلك النبيُّ[1] ﷺ ولقَّبَهُ بالتَّقيِّ والسيِّدِ، وُلِدَ بالمدينةِ في النصفِ منْ رمضانَ سنةَ ثلاثٍ منَ الهجرةِ، وأذَّنَ رسولُ اللهِ ﷺ في أُذُنِه، وكانَ له مِنَ الولدِ خمسةَ عشرَ ذَكَراً وثمانِ بناتٍ.

وعنِ البراءِ أنَّه قالَ: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ واضعًا الحسنَ على عاتقِه، وهو يقولُ: (اللَّهُمَّ إني أُحِبُّه فأحِبَّهُ)[2]، وصَحَّ: (مَنْ أَحَبَّنِي فلْيُحِبَّه، ولْيُعلِم الشَّاهدُ الغائبَ)[3]، (اللهمَّ إنِّي أُحبُّه فأَحِبَّه، وأَحِبَّ مَنْ يُحبُّه، اللهمَّ إنِّي أُحبُّه فأَحِبَّه، وأَحِبَّ مَنْ يُحبُّه، اللَّهُمَّ إني أُحِبُّه فأَحِبَّه وأَحِبَّ مَنْ يُحبُّه)[4] ثلاثَ مراتٍ، وفي روايةٍ (فجعلَ يفتحُ فمَهُ ثم يُدخِلُ فمَه في فمِه، ويقولُ ذلكَ)[5].

---

(١) أخرج أحمد (٧٦٩) [مسند علي بن أبي طالب]، والبزار (٧٤٢) [مسند علي بن أبي طالب]، وابن حِبَّان (٦٩٥٨) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة- ذكر الحسن والحسين]، والحاكم (١٦٥/٣) [كتاب معرفة الصحابة]، وغيرهم من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه: (لما وُلد الحسن سمَّيته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: أروني ابني، ما سمَّيتموه؟ قال: قلت: حربًا. قال: بل هو حسن).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٧٤٩) [كتاب أصحاب النبي ﷺ- باب مناقب الحسن والحسين]، ومسلمٌ (٢٤٢٢) [كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل الحسن والحسين]، وغيرهما.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة (٣٢١٨٨) [كتاب الفضائل- ما جاء في الحسن والحسين]، وأحمد (٢٣١٠٦) [حاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ]، والحاكم (١٧٣/٣) [كتاب معرفة الصحابة]، وغيرهم من حديث رجل من الأزد.

(٤) متفقٌ عليه بهذا اللفظ؛ أخرجه البخاريُّ (٥٨٨٤) [كتاب اللباس- باب السخاب للصبيان]، ومسلمٌ (٢٤٢١) [كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل الحسن والحسين]، وغيرهما.

(٥) أخرجه أحمد (١٠٨٩١) [مسند أبي هريرة]، وغيره.

وعنْ عقبةَ بنِ الحارثِ أنَّه قالَ: خرجتُ معَ أبي بكرٍ مِنْ صلاةِ الفجرِ بعدَ وفاةِ النبيِّ ﷺ بليالٍ، وعليٌّ يَمشي إلى جنبِه فمرَّ بالحسنِ بنِ عليٍّ يلعبُ معَ الغلمانِ فاحتمَلَهُ على رقبتِه، وهو يقولُ:

بأبي شبيه بالنبيِّ * ليسَ شبيهًا بعليٍّ

وعليٌّ يضحكُ[1].

وعنْ سعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّ الحسنَ سَمِعَ رجلًا يسألُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أنْ يرزقَه عشرةَ آلافٍ فانصرفَ الحسنُ فبعثَ بها إليه[2]. وعنِ الحسنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قالَ: إني لأستحي مِنْ ربِّي أنْ ألقاهُ ولمْ أمشِ إلى بيتِه، فمَشى خمسًا وعشرينَ مرةً منَ المدينةِ إلى مكةَ على قدميه[3]، وكانتِ الجنائبُ تُقادُ بينَ يدَيْه، وخرجَ عنْ مالِه مرتينِ، وقاسمَ اللهَ مالَه ثلاثَ مراتٍ حتى أنَّه كانَ لَيُعطي نعلًا ويُمْسِكُ أخرى[4].

وعنْ أبي العباسِ المرسيِّ -قدِّس سرُّه-: أوَّلُ الأقطابِ مطلقًا الحسنُ بنُ عليٍّ، ومِنْ تواضعِه أنَّه مرَّ بصبيانٍ معهم كسرُ خبزٍ فاستضافوه أدبًا معه فنزلَ وأكلَ معَهم.

وتزوَّجَ سبعَمائةِ امرأةٍ في حياةِ أبيه، فأمرَ مناديًا يُنادي في الناسِ لا تُزوِّجوا الحسنَ فإنَّه مطلاقٌ، فما مِنْ أحدٍ إلَّا قالَ "نُزوِّجُه، فما رَضِيَ أمسكَ، وما كرِه طلَّقَ"، وما طلَّقَ امرأةً إلَّا وهيَ تُحِبُّه[5]، ومتَّعَ امرأتينِ بعشرينَ ألفًا ونيفًا، فقالتْ إحداهما: "متاعٌ قليلٌ منْ حبيبٍ مفارقٍ".

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٠) [كتاب أصحاب النبي ﷺ- باب مناقب الحسن والحسين]، وغيره.

(٢) ذكره المزي في "تهذيب الكمال" (٢٣٤/٦) [ترجمة الحسن بن علي].

(٣) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣٧/٢) [ترجمة الحسن بن علي]، ومن طريقه ابن عساكر في التاريخ (٢٤٢/١٣) [ترجمة الحسن بن علي] عن محمد بن علي.

(٤) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣٧/٢) [ترجمة الحسن بن علي]، عن علي بن زيد بن جُدْعان.

(٥) قوله: «وتزوَّجَ سبعَمائةِ امرأةٍ» هذا واضح البطلان، ويُكذِّبه الواقع ولو صحَّ أقل من هذا العدد بكثيرٍ لكان له من الأولاد جمع غفير يتناسب معها، وقد ذكروا له اثنين وعشرين ولداً ما بين ذكر وأنثى، وهذا العدد يعتبر طبيعيًا بالنسبة لذلك العصر، ويتناقض كليًّا مع تلك الكثرة ولا يلتقي معها بصلة. قال ابن كثير رحمه الله: "قالوا: وكان كثير التزوج، وكان لا يفارقه أربع حرائر، وكان مطلاقا، مصداقا، يقال إنه أحصن سبعين امرأة" [البداية والنهاية ٤٢/٨]. وأما قوله: "لا تُزوِّجوا الحسنَ ..." فأخرجه ابن سعدٍ في الطبقات- متمم الصحابة (٣٠٢/١)، وغيره.

ولم يكنْ يُعرَفُ اسمُ الحسنِ في الجاهليةِ، وكذا الحسينُ، وأمَّا اللَّذانِ كانا باليمنِ فهما حسْنٌ -بإسكانِ السينِ وحَسِين بفتحِ الحاءِ وكسرِ السينِ، وفي طبقاتِ ابنِ سعدٍ عن غلمانَ بنِ سليمانَ: الحسنُ والحسينُ اسمانِ منْ أسماءِ أهلِ الجنةِ، ولمْ يَكونا في الجاهليةِ[1]، لكنْ في "الكشَّافِ" ما يخالفُه، وحينئذٍ فأوَّلُ منْ سُمِّيَ بهما منْ أهلِ الدُّنيا مَنْ ذَكَرَ، والمرادُ أولُ مَنْ سُمِّيَ بلفظِهما، فلا يَرِدُ أنَّ هارونَ سَمَّى ابنَيْه شَبَرًا -بفتحاتٍ- وشُبَيْرًا -بضمِّ الشينِ المعجمةِ-، ومعْنَى "شَبَر" حَسَنٌ، و"شُبَيْر" حُسَيْنٌ؛ لأنَّ هذا تسميةٌ بمعناهما، واللفظُ قدِ ادُّخِرَ لهما.

(**ابْنِ عَلِيٍّ**) بْنِ أبي طالبٍ القائلِ فيه المصطفى ﷺ: (مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه)[2]، ويُكَنَّى أبا الحسنِ، وأبا ترابٍ، كنَّاه بذلك النبيُّ ﷺ لمَّا وجدَه نائمًا وقدْ علاه الترابُ[3]، (**رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، سِبْطِ**) -بكسرٍ فسكونٍ- أيْ ولدِ بنتِ (**رسولِ اللهِ ﷺ وريحانَتِه**) شبَّهَهُ لسرورِه وفرحِه به وإقبالِه عليْه بريحانٍ طيبِ الريحِ يرتاحُ لرؤيتِه وشمِّه، أو لأنَّه كانَ له رائحةٌ طيبةٌ كرائحةِ الريحانِ، وهو نبتٌ معروفٌ طيبُ الرائحةِ، وقدْ قالَ ﷺ فيه وفي أخيه الحسينِ: (هما ريحانتايَ مِنَ الدُّنيا)[4].

وفي الصحيحِ أنَّ الحسنَ رَقَا المنبرَ ورسولُ اللهِ ﷺ يخطُبُ، فأمسَكَه وجَعَلَ يُقبلُ على الناسِ مرةً وعليْه أخرى، ثم قالَ: (إن ابْني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بينَ فئتَيْنِ عظيمتَيْنِ مِنَ المسلمينَ)[5]، وكانَ كذلكَ، فإنَّه لمَّا تُوفِّيَ أبوه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بايعَه أكثرُ منْ أربعينَ ألفًا، وفيهم كثيرٌ ممن تخلَّفَ عنْ أبيه وممن نكَثَ بيعتَه، فبَقِيَ خليفةَ حقٍّ نحو ستةِ أشهرٍ تكملةَ الثلاثينَ

(١) الطبقات الكبرى- متمم الصحابة (١/٢٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٩٥٠) [مسند علي بن أبي طالب]، وغيره من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وهو حديث متواتر، ورد عن أكثر من خمسة وعشرين صحابيا، وفي رواية لأحمد أنه سمعه من النبي ﷺ ثلاثون صحابيًّا. انظر "الأزهار" للسيوطي (١٠٢) [كتاب المناقب]، و"نظم المتناثر" للكتاني (٢٣٢) [كتاب المناقب].

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٤١) [كتاب الصلاة- باب نوم الرجال في المسجد]، ومسلمٌ (٢٤٠٩) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل علي بن أبي طالب]، وغيرهما من حديث سها بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥٣) [كتاب أصحاب النبي ﷺ- باب مناقب الحسن والحسين]، وغيره من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٥) أخرجه البخاري في عدة مواضع منها (٣٧٤٦) [كتاب أصحاب النبي ﷺ- باب مناقب الحسن والحسين].

سنةً التي أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّها مُدَّةُ الخلافةِ وبعدَها يكونُ مُلكٌ عضوضٌ[1]، أيْ يعضُّ الناسَ بجورِ أهلِه وعدمِ استقامتِهم.

فلمَّا تمتْ تلك المدَّةُ سارَ إلى معاويةَ في أهلِ الحجازِ والعراقِ لينتزِعَ منه الشامَ، وسار إليه معاويةُ فلمَّا تَراءَى الجيشانِ وتقاربَ الجمعانِ بموضعٍ منْ أرضِ الكوفةِ، -وقيلَ: نزلَ الحسنُ بالمراشِ ومعاويةُ سكن مِنْ ناحيةِ الأنبارِ- نَظَرَ الحسنُ إلى المعسكرَيْنِ وفكَّرَ فيما يكونُ بيْنَهما منَ القتلِ فعَلِمَ أنَّه لَنْ تُغلَبَ إحدى الفئتينِ حتَّى يَذهبَ أكثرُ الأخرى، فرأى أنَّ المصلحةَ في جمعِ الكلمةِ وتركِ القتالِ وطلبِ صلاحِ الأمةِ وحقنِ دماءِ المسلمينَ، فأرسلَ إلى معاويةَ يُخبرُه أنَّه يُسلِّمُ الأمرَ لهُ ويَنزِلُ له عنه على شرطِ أنْ لا يطلبَ أحدًا منْ أهلِ الحجازِ والمدينةِ والعراقِ بشيءٍ ممَّا كانَ في أيامِ أبيه، وأنْ يكونَ وليَّ الأمرِ من بعدَه، وأنْ يُمكِّنَه منْ بيتِ المالِ يأخذُ منْهُ حاجتَه.

ففَرِحَ معاويةُ وأجابَ إلى ذلك، إلَّا أنَّه قالَ: إلَّا عدةً لا أؤمنهم، فراجعَه الحسنُ فيهم، فكتبَ إليه معاويةُ: إني قدْ آليتُ على نفسي أني متى ظفرتُ بقيسِ بنِ سعدِ بنِ عبادةَ أنْ أقطعَ لسانَه ويدَه، فراجعَه الحسنُ، وقالَ إنِّي لا أبايعُكَ أبدًا وأنتَ تَطلُبُ قيسًا وغيرَهُ بتبعةٍ قلَّتْ أوْ كثُرتْ، فبعثَ إليه معاويةُ برقٍّ أبيضَ وقالَ: اكتبْ ما شئتَ فيه، وأنا ألتزمُه، فاصطلَحا على ذلكَ، فكتبَ الحسنُ كُلَّ ما اشترطَ عليه منَ الأمورِ المذكورةِ، والتزمَ ذلك كُلَّه معاويةُ، فخلعَ الحسنُ نفْسَه، وسلَّمَ الأمرَ إلَيْه تورُّعًا وقطعًا للشرِّ، وإطفاءً لثائرةِ الفتنةِ، وسُمِّي ذلك العامُ عامَ الجماعةِ لاجتماعِهم على خليفةٍ واحدٍ، وكانَ ذلكَ في سنةِ إحدى وأربعينَ في شهرِ ربيعِ الأولِ، وقيلَ جُمَادى الأُولى.

ثم إنَّ يَزيدَ بنَ معاويةَ دسَّ إلى زوجةِ الحسنِ جعدةَ بنتَ الأشعثِ الكنديةَ أنْ تَسمَّه

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩١٩) [تتمة مسند الأنصار- حديث سفينة]، والترمذيُّ (٢٢٢٦) [أبواب الفتن- باب ما جاء في الخلافة] والبزَّار (٣٨٢٨) [ما أسند سفينة]، وابن حِبَّان (٦٩٤٣) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة]، والحاكم (١٤٥/٣) [كتاب معرفة الصحابة]، وغيرهم من حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ مرفوعًا. وصحَّحه الإمام أحمد كما في "السنة" للخلال (٦٣٦) [تثبيت خلافة علي بن أبي طالب]، وغيره.

وَيَتزوَّجها، وبذلَ لها مائةَ ألفٍ، ففعلتْ، فلمَّا ماتَ الحسنُ بعثتْ إلى يزيدَ تسألُه فيما وعدَها فأبى وقال: إنَّا لم نرضكِ للحسنِ فنرضاكِ لأنفسِنا.

وعنْ عميرِ بنِ إسحاقَ أنَّه قالَ: دخلتُ أنا ورجلٌ على الحسنِ بنِ عليٍّ نعودُه، فقالَ: يا فلانُ سلني، قالَ: لا، واللهِ لا أسألُكَ حتَّى يعافيَكَ اللهُ، قالَ: ثُمَّ دخلَ وخرجَ إلَيْنا، فقالَ: سلْني قبلَ أنْ لا تسألَني، قالَ: لا، بلْ حتَّى يُعافيَكَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- قالَ: قدْ ألقيتُ طائفةً مِنْ كبدي، وإني قدْ سُقيتُ السُّمَّ مِراراً، فلمْ أُسْقَ مثلَ هذه المرةِ، ثمَّ دخلتُ علَيْه مِنَ الغدِ وهو يَجودُ بنفسِه، وأخوه الحسينُ عندَ رأسِه، فقالَ: يا أخي، منْ تَتَّهِمُ؟ فقالَ: لتقتلَه؟ قالَ: نعمْ، فقالَ: إنْ يكنِ الذي أظنُّ فاللهُ أشدُّ بأسًا وأشدُّ تنكيلًا، وإنْ لا يكنْ ذلك فلا أُحبُّ أنْ تَقتلَ بي بريءٌ.

ومنْ جملةِ كلامِه لأخيه لما احتُضِرَ: إنَّ أباكَ أشرفَ لهذا الأمرِ المرةَ بعدَ المرةِ فصرفَه اللهُ عنْهُ إلى الثلاثةِ قبْلَه، ثم وَلِيَ فنُوزِعَ حتَّى جرَّدَ السيفَ فما صفتْ له، وإنِّي واللهِ ما أرى أنْ يَجمعَ اللهُ فينا النبوةَ والخلافةَ، وربما يَستخفُّكَ سفهاءُ الكوفةِ فيُخرجونَكَ.

ولَمَّا نَزَلَ بهِ الموتُ قالَ: أخرجوا فِراشي إلى صحنِ الدَّارِ فأُخرِجَ، فقالَ: اللهمَّ إني أحتسبُ نفسي عندَكَ، فإني لم أُصَبْ بمثلِها. وكانتْ مدةُ مرضِه أربعينَ يومًا، وتوفِّيَ لخمسِ ليالٍ خلونَ منْ ربيعٍ الأولِ، وفي سنةِ موتِه أقوالٌ، والأكثرونَ أنها سنةُ خمسينَ، ودُفِنَ بالبقيعِ، وكانَ مِنَ الحكماءِ الكرماءِ، روى عن رسولِ اللهِ ﷺ ثلاثةَ عشرَ حديثًا.

***

(**قالَ: حفظتُ من رسولِ اللهِ ﷺ: دَعْ**) أي اتركْ، وهو أمرٌ لا ماضيَ له، ومضارعُه "يَدَعُ"، قالَ الصرفيُّونَ: وأماتوا ماضيَ "يَدَعُ" و"يذَرُ"، ولكنْ جاءَ عنْ عروةَ ومقاتلٍ وابنِ أبي عبلةَ أنَّهم قرؤوا ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣] بتخفيفِ الدَّالِ، وجاءَ ذلك في ضرورةِ الشعرِ، ومنه قولُ أنسِ بنِ رئيمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذي * غالهُ فِي الحُبِّ حَتَّى وَدَعَهْ

والأمرُ للندبِ؛ لأنَّ الأصحَّ أنَّ توقِّيَ الشبهاتِ مندوبٌ، بلْ جاءَ عنْ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مكسبةٌ فيها بعض الريبةِ خيرٌ مِنَ المسألةِ[1]، ومعناه كسبٌ فيه بعضُ الشكِّ أحلالٌ هو أمْ حرامٌ خيرٌ منْ سؤالِ النَّاسِ، وقدْ تكونُ للوجوبِ، كما لو رمى صيدًا فسقطَ في ماءٍ فماتَ أوِ اجتمعَ على قتلِه كلبُ مسلمٍ وكافرٍ فإنَّه يجبُ تركُه لِعدمِ تحققِ المُبيحِ.

الأمر بتوقِّي الشبهات

(**مَا يَرِيبُكَ**) بفتحِ أوَّله وضمِّه، والأوَّلُ أفصحُ وأكثرُ روايةً، والثاني لغةُ هذيلٍ، يُقالُ: رابَ يَريبُ ثلاثيًّا، وأَرابَ يُريبُ رُباعيًّا إذا شَكَّ وَتَردَّدَ في الشيءِ، وقيلَ: رابَ لما تيقَّنَ فيه الريبةُ، وأرابَ لما تُوهِّمَ فيه، فإذَا وجدتَ نفسَكَ ترتابُ منْ شيءٍ فاترُكْهُ فإنَّ نفسَ المؤمنِ الكاملِ تطمئنُّ إلى ما فيه النجاحُ والفلاحُ وترتابُ منْ ضدِّه، فقدْ قالَ أحمدُ بنُ نصرٍ الزقاقُ: تُهتُ مرةً في تيهِ بني إسرائيلَ فعطشتُ مقدارَ خمسةَ عشرَ يومًا، فلما وافيتُ الطريقَ لَقِيَني جنديٌّ فَسَقاني شربةَ ماءٍ فعادتْ قساوتُها على قلبي أربعينَ صباحًا، وفي روايةٍ ثلاثينَ سنةً كما تقدَّمَ، وفي روايةٍ فمكثتْ قساوتُها في قلبي ثلاثينَ سنةً.

وعنْ أبي سليمانَ الدارانيِّ أنَّه قالَ: قَدَّمَ إليَّ أهلي مرةً خُبزًا ومِلحًا، فكانَ في الملحِ سمسمةٌ فأكلتُها فوجدتُ رانَها على قلبي سنةً.

وحُكِيَ أنَّه كانَ رجلٌ منَ الأولياءِ قَصَدَ شخصٌ زيارتَه، فلمَّا وَصَلَ إلى بيتِه خرجَ شابٌّ علَيْه سيما المتكبِّرينَ فسلَّمَ على الشابِّ فلمْ يَردَّ علَيْه فتعجَّبَ وسألَ عنْه، فقيلَ له: إنَّه ابنُ الشيخِ، فلمَّا جاءَ الشيخُ رآه الزائرُ وعلَيْه سيما المتواضعينَ وكمالُ حسنِ الخلقِ فتعجَّبَ أشدَّ منْ ذلكَ، وقالَ في نفْسِه: يا عجبًا كيفَ يكونُ لمثلِ هذا الشيخِ مثلُ هذا الولدِ؟ فسألَه الزائرُ عنْ سوءِ خُلُقِ ابنِه، فقالَ الشيخُ: لا تعجبْ، فإنِّي جُعتُ مدةَ أيامٍ، فأُخبرَ بذلك جاري، وكانَ منْ خواصِّ السلطانِ، فجاءَني بطعامٍ مِن بيتِ السُّلطانِ، فلمَّا أكلْتُ ذلك الطعامَ غلبتْ عليَّ شهوةُ الجماعِ، فهذا الولدُ منْ نطفةِ ذلك الطعامِ.

(**إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**) أيْ دعْ ما تَشكُّ فيه مِنَ الشبهاتِ إلى ما لا تَشكُّ فيه من الحلالِ،

(1) أخرجه ابن عبد البر في "التمهيد" (١٨/٣٢٩).

لما مرَّ في الحديثِ السادسِ: (إنَّ مَنِ اتَّقى الشبهاتِ فقدِ استبرأَ لدينه وعرضِه)، وهذا أصلٌ في الورعِ حتى قالَ بعضُهم: الورعُ كلُّه في تركِ ما يَريبُ إلى ما لا يَريبُ، وقدْ وَرَدَ: لا يبلغُ العبدُ أنْ يكونَ مِنَ المتقينَ حتى يَتركَ ما لا بأسَ به حَذراً مما به بأسٌ، وقالَ حسانُ بنُ أبي سنانٍ: ما شيءٌ أهونُ مِنَ الورعِ، إذَا رابكَ شيءٌ فدَعْهُ، وهذا إنما يَسهُلُ على مَنْ سَهَّلَه اللهُ علَيْه، ومِنْ ثَمَّ تنزَّهَ يزيدُ بنُ زريعٍ عنْ خمسِمائةِ ألفٍ من ميراثِ أبيه فلمْ يأخذْها، وكان أبوه يلي الأعمالَ للسلاطينِ، وكانَ يَزيدُ يعملُ الخوصَ ويتقوتُ منه إلى أنْ ماتَ.

وسُئِلَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها عنْ أكلِ الصيدِ للمُحْرِمِ فقالتْ: إنَّما هي أيامٌ قلائلُ، فما رَابَكَ فدَعْهُ[1]، يَعني ما اشتَبهَ علَيْكَ هلْ هو حلالٌ أو حرامٌ فاتركْهُ، فإنَّ العلماءَ اختلفوا في إباحةِ الصيدِ للمُحرِمِ إذَا لم يَصِدْهُ أو يَصِدْ لأجلِه.

***

التعريف بالترمذي والنسائي

(رَوَاهُ) الحافظُ أبو عيسى محمدُ بنُ عيسى بنِ سَوْرَةَ -بفتحِ السينِ والراءِ وسكونِ الواوِ- ابنِ الضحاكِ، وقيلَ: ابنُ شدادٍ بدلَ الضحاكِ السلميِّ البُوغيِّ -بضمِّ الباءِ الموحدةِ وسكونِ الواوِ وغينٍ معجمةٍ- قريةٌ مِنْ قُرى ترمذ على ستةِ فراسخَ مِنْها، فلذلك قالَ (التِّرْمِذِيُّ) -بتثليثِ الفوقيةِ وكسرِ الميمِ أو ضمِّها كُلِّها مع إعجامِ الذالِ- نسبةٌ لمدينةٍ قديمةٍ على طرفِ جيحونَ وهو نهرُ بلخ على شاطئِه الشرقيِّ. قالَ أبو عبيدِ الأريسيُّ: كانَ الترمذيُّ أحدَ الأئمةِ الذين يُقتدى بهم في علمِ الحديثِ، صنَّفَ كتابَ الجامعِ والعللِ والتواريخِ تصنيفَ رجلٍ عالمٍ متقنٍ، وكانَ يُضرَبُ به المثلُ في الحفظِ، وكانَ مكفوفًا، قيلَ وُلِدَ أكمهَ، ونوزِعَ بقولِ الكشافِ لم يكن في هذه الأمة أكمهُ غيرَ قتادةَ ابنِ دعامةَ، وقدْ يُقالُ هذا نفيٌ، ومنْ حَفِظَ حُجَّةٌ علَى مَنْ لمْ يَحْفَظْ، ولا يرد على كلامِه الشاطبيّ؛ لأنَّ صاحبَ الكشافِ متقدِّمٌ عليه، وُلِدَ سنةَ تسعٍ ومائتينِ، وماتَ ببلدِه ليلةَ الاثنينِ الثالثةَ عشرَ مِنْ رجبٍ سنةَ تسعٍ وسبعينَ، وقيلَ تسعٍ وثمانينَ ومائتينِ.

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن رجب في جامع العلوم (١/٢٨٢) [شرح الحديث الحادي عشر] ولم يعزه، وأخرجه بنحوه عبدالرزاق في المصنف (٨٣٢٦) [كتاب المناسك - باب ما ينهى عنه المُحْرِم من أكل الصيد].

(و) الإمامُ الحافظُ أبو عبدِ الرحمنِ أحمدُ بنُ شعيبٍ **(النسائيُّ)** نسبةً إلى "نسا" مدينة بخراسانَ، وُلِدَ سنةَ أربعَ أو خمسَ عشرةَ ومائتينِ، رحلَ واجتهدَ وأتقنَ إلى أنِ انفردَ فقهًا وحديثًا وحفظًا وإتقانًا حتى قالَ الذهبيُّ: إنَّه أحفظُ مِنْ مُسْلِم، وكانَ مُنبسطًا في المآكلِ كثيرَ النساءِ مَعَ كثرةِ التعبدِ، دخلَ دمشقَ فذكرَ فضلَ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقيلَ له: فمعاويةُ؟! فقالَ ما كفاه أنْ يذهبَ رأسًا برأسٍ حتى تُذكرَ له فضائلُ، فدَفعَ في حضنيهِ -بالحاءِ المهملةِ- أي جَنْبَيْهِ حتَّى أشرفَ على الموتِ، فأُخرِجَ فماتَ بالرملةِ أوْ فلسطينَ سنةَ ثلاثٍ وثلاثمائةٍ، وحُمِلَ للقدسِ أو مكةَ فدُفِنَ بينَ الصفا والمروةِ.

***

(وَقالَ الترمذيُّ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ)، استشكلَ الجمعُ بيْنَهما معَ ما بيْنَهما مِنَ التَّضادِّ، فإنَّ راويَ الصحيحِ يُشترَطُ فيه أنْ يكونَ موصوفًا بالضبطِ الكاملِ، وراوي الحَسَنِ لا يُشترَطُ فيه أنْ يَبلُغَ تلك الدرجةَ، وإنْ كانَ ليسَ عريًا عنِ الضبطِ في الجملةِ، وأُجيبَ بأنَّ ما قيلَ فيه ذلك إنْ كانَ له إسنادانِ كانَ وصفُه بالحَسَنِ مِنْ جملةِ أحدِهما وبصحته مِنْ جهةِ الآخرِ، وحينئذٍ فما قيلَ فيه إنَّه حَسَنٌ صَحيحٌ أقوى مما قيلَ فيهِ صَحيحٌ؛ لأنَّ كثرةَ الطُّرُقِ تُقوِّيه، وإنْ كانَ له إسنادٌ واحدٌ كانَ وصفُه بهما مِنْ حيثُ ترددُ أئمةِ الحديثِ في حالةِ ناقلِه؛ لأنَّ ذلك يَحمِلُ المجتهدَ على أنْ لا يصفَه بأحدِ الوصفَيْنِ، بلْ يقولُ: حَسَنٌ أيْ باعتبارِ وصفِ ناقلِه عندَ قومٍ، صحيحٌ باعتبارِ وصفِه عندَ آخرينَ، وغايةُ ما فيهِ أنَّه حُذِفَ منه حرفُ التَّرَدُّدِ؛ لأنَّ حقَّه أنْ يقولَ: حَسَنٌ أو صحيحٌ، وعلى هذا فما قيلَ فيه حَسَنٌ صحيحٌ دونَ ما قيل فيه صحيحٌ؛ لأنَّ الجزمَ أقوى مِنَ التردُّدِ.

***

الحديثُ الثاني عشرَ

١٢. عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يَعنيه. حديثٌ حسَنٌ رواه الترمذيُّ وغيرُه هكذا.

العبرة في الأعمال بِحُسنها

(**عَنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: مِنْ حُسْنِ**) إنَّما أتى بلفظِ "حُسْنِ" ولَمْ يَقُلْ "مِنْ إسلام... إلخ"، للإشارةِ إلى أنَّه لا عبرةَ بصُوَرِ الأعمالِ فِعلًا وتَرْكًا إلَّا إذا اتَّصفَتْ بالحُسْنِ، بأنْ توفَّرتْ شروطُ مُكمِّلاتِها فضلًا عن مُصحِّحاتِها، وقيلَ: إنَّ تركَ ما لا يَعني ليسَ هو الإسلامَ ولا جزْءَهُ بلْ صفتُه، وهي حُسْنُهُ، وصفةُ الشيءِ ليسَ ذاتَه ولا جزءَه؛ لأنَّ الإسلامَ لُغَةً الانقيادُ، وشرعًا الأركانُ الخمسةُ، فهو كالجسمِ، وتركُ ما لا يَعني كالشكلِ واللونِ له، ذَكرَه بعضُ الشارحينَ.

فإنْ قيلَ: لَمِ قالَ "مِنْ حُسْنِ" على التبعيضِ، ولَمْ يَقُلْ: "حُسْنُ"؟ فالجوابُ: إنَّ تركَ ما لا يَعني ليسَ هو كلَّ حُسْنِ الإسلامِ بلْ بعضَه، وإنَّما جميعُ حُسْنِ الإسلامِ تركُ ما لا يعني وفعلُ ما يعني، فإذا فَعَلَ ما يَعنيه وتَرَكَ ما لا يَعْنيه فقَدْ كَمُلَ حُسْنُ إسلامِه، وعلى هذا فـ"مِنْ" لِلتَّبْعيضِ، وقالَ بعضُهم يجوزُ كونُها للبيانِ.

(**إسْلَامِ المَرْءِ**) آثره على الإيمانِ؛ لأنَّ الإسلامَ هو الذي يَظهَرُ؛ إذْ هو الأعمالُ الظاهرةُ التي يَتأتَّى فيها التركُ والفعلُ اختيارًا، (**تَرْكُه**) مصدرٌ مضافٌ لفاعلِه، (**مَا**) أيْ شيئًا أعمَّ مِنْ أنْ يكونَ قولًا أو فعلًا (**لَا يَعْنِيهِ**) بفتحِ أوَّلِه.

قالَ ابنُ عبدِ البَرِّ: وهذا مِنْ جوامعِ الكَلِمِ الذي لَمْ يَقُلْه أحدٌ قبلَه، واللهُ أعلمُ، وأمَّا ما رويَ في صحفِ إبراهيمَ -علَيْه الصلاةُ والسلامُ-: "مَنْ عَدَّ كلامَه مِنْ عملِه قلَّ كلامُه إلَّا فيما يَعنيه"، فهذا على تقديرِ صحتِه خاصٌّ بالكلامِ، وأمَّا تركُ ما لا يَعنيهِ فهو أعمُّ مِنَ الكلامِ مَعَ أنَّ لفظَه أبلغُ وأوجزُ.

وما لا يَعنيهِ هو ما لا تَدعو الحاجةُ إِلَيْه، وهو الفضولُ كُلُّه على اختلافِ أنواعِه مِنَ اللَّعِبِ والهزلِ وكُلِّ ما يُخِلُّ بالمروءةِ، والتوسُّعِ في الدنيا، وطلبِ المناصبِ والرياسةِ، وحُبِّ المحمدةِ ونحوِ ذلك مما لا يَعودُ عليْه منه نفعٌ أُخرَوِيٌّ، فإنَّه ضياعٌ للوقتِ النفيسِ الذي لا يُمكِنُ أنْ يُعوَّضَ فائتُه فيما لم يُخلَقْ لِأجْلِه، والذي يَعْنيه مِنَ الأمورِ ما يَتعلَّقُ بضرورةِ حياتِه في معاشِه مما يُشبِعُه مِنْ جوعٍ ويَرويهِ مِنْ عطشٍ ويَستُرُ عورتَه ويُعِفُّ فرجَه ونحو ذلك مما يدفعُ الضرورةَ دونَ ما فيه تلذُّذٌ وتَنعُّمٌ، وسلامتُه في معادِه من الإخلاصِ.

وقالَ الشيخُ يوسفُ بنُ عمرَ[1]: ما يَعنيه هو ما يَخافُ فيه فواتُ الأجرِ، والذي لا يَعنيهِ هو الذي لا يَخافُ فيه فواتُ ذلك. وقيلَ: ما يَعنيهِ ما يَعودُ عليه منه منفعةٌ لدينِه أو لِدُنياهُ الموصلةِ لآخرتِه، وما لا يَعنيه عكسُه، وهو ما لا يَعودُ عليه منه منفعةٌ لِدينِه أو لِدنياهُ الموصِّلَةُ لآخرتِه، ولعلَّه احترزَ بذلك عن دنيا تَقطعُه وتُفسِدُ آخرتَه.

حث المرء على ترك ما لا يعنيه

وفي الحديثِ إشارةٌ إلى أنَّ الشيءَ إمَّا أنْ يَعني الإنسانَ أو لا، وعلى كُلٍّ إمَّا أنْ يَترُكَهُ أو يفعلَه، فالأقسامُ أربعةٌ، فعلُ ما يَعني، وتَرْكُ ما لا يَعني، وهما حَسَنانِ، وتَرْكُ ما يَعني وفِعْلُ ما لا يَعني، وهما قَبيحانِ.

فإنْ قُلتَ: إسنادُ الاعتناءِ إلى المرءِ يَقتضي أنَّ كُلَّ ما لا يُعتنى به مطلوبٌ ترْكُهُ، ولو كانَ مُوافِقًا للشرْعِ، فالجوابُ أنَّه لمَّا كانَ المرءُ الكاملُ لا يَعتني إلَّا بما يَعتني به الشارعُ أُسنِدَ الاعتناءُ إلَيْه نَظرًا لِكمالِهِ، أو أنَّ المرادَ بقولِه: "ما لا يَعنيهِ" ما لا يَطلبُ الشارعُ الاعتناءَ به.

***

وقدْ قالَ مالكُ بنُ دينارٍ: إذا رأيتَ قساوةً في قلبِكَ، ووهنًا في بدنِكَ، وحرمانًا في رزقِكَ، فاعلمْ بأنَّكَ تكلَّمْتَ بما لا يَعنيكَ، فكلامُ الشخصِ فيما لا يَعنيه يُقْسِي القلبَ، ويُوهِنُ البدنَ، ويُعسِّرُ أسبابَ الرزقِ.

---

(١) لعله: يوسف بن عمر الأنفاسي أبو الحجاج، ولد سنة (٦٦١)، إمام جامع القرويين بفاس، له تقييد على رسالة أبي زيد القيرواني، توفي سنة (٧٦١). نيل الابتهاج (٦٢٧/١)، شجرة النور (رقم ٨٦٤).

ووَعَظَ عُمرُ بنُ الخطاب رجلًا فقالَ له: لا تتكلمْ فيما لا يَعنيكَ، واعتزلْ عدوَّكَ، واحذرْ صديقَكَ إلَّا الأمينَ، ولا أمينَ إلَّا مَنْ يخشى اللهَ، ولا تَمشِ مَعَ الفاجرِ فيُعلِّمَكَ مِنْ فجورِهِ، ولا تُطلِعْهُ على سرِّكَ، ولا تشاوِرْ في أمورِكَ إلا الذينَ يَخشونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وقالَ رجلٌ للأحنفِ بنِ قيسٍ: بمَ سُدْتَ قومَكَ؟ وأرادَ تنقيصَه وعيبَه، فقالَ الأحنفُ: بتركي مِنْ أمرِكَ ما لا يَعنيني، كما عناكَ مِنْ أمري ما لا يَعنيكَ. وروى أبو عبيدةَ عنِ الحسنِ أنَّه قالَ: مِنْ علامةِ إعراضِ اللهِ عنِ العبدِ أنْ يَجعلَ شُغْلَه فيما لا يَعنيهِ. وسُئِلَ لقمانُ الحكيمُ: أيُّ عملِكَ أوثقُ في نفسِكَ؟ قالَ: تركُ ما لا يَعنيني.

ورويَ أنَّ رجلًا وَقَفَ عليْه وهو يتكلمُ بالحكمةِ فقالَ: ألستَ عبدَ بني فلانٍ؟ وفي روايةٍ ألستَ عبدَ فلانٍ الراعي؟ قالَ: بَلى؛ لأنَّه كانَ عبدًا حبشيًّا -وما قيل إنَّه وبلالٌ نوبيَّانِ لم يَثبُتْ- وكانَ يَرعى الغنمَ، قال فما الذي بَلَغَ بِكَ إلى ما أرى؟ قالَ: قدرُ اللهِ، وصدقُ الحديثِ، وتركُ ما لا يَعنيني.

وفي الموطَّأ: بلغني أنه قيلَ لهُ: ما بلغَ بكَ ما تَرى؟ يُريدونَ الفضلَ، قالَ: صِدْقُ الحديثِ وأداءُ الأمانةِ وتركُ ما لا يَعنيني[1]. وقيلَ له: كيفَ أصبحتَ؟ قالَ: كيفَ أصبحَ مَنْ كانتْ نفسُه بيدِ غيرِهِ؟! ولبعضِهم:

لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ عَلِمْتُ مَكَانَهُ * أَحَقُّ بِسَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ مُذَلَّلِ

عَلَى فِيكَ مِمَّا لَيْسَ يَنْفَعُكَ قَوْلُهُ * بِقُفْلٍ شَدِيدٍ حَيْثُمَا كُنْتَ أَقْفَلِ

وقالَ أنسٌ: استُشهِدَ منَّا غلامٌ يومَ أُحُدٍ، فوُجِدَ على بطنِه صخرةٌ مِنَ الجوعِ، فَمَسحتْ أمُّهُ الترابَ عنْ وجهِه، وقالتْ هَنيًّا لكَ الجنةُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (وما يُدريكِ لَعلَّهُ كانَ يَتكلَّمُ بما لا يَعنيه، ويبخلُ بما لا يُغنيهِ)[2].

---

(١) الموطأ (١٧)، (كتاب الكلام- باب ما جاء في الصدق والكذب).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٦) [أبواب الزهد]، وأبو يعلى (٤٠١٧) [مسند أنس]، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٤٢٣) [قوله: لا يمنع أحدكم جاره أن يغرس خشبة في جداره]، وغيرهم.

ومنْ كلامِ بعضِ السلفِ: مَنْ سألَ عمَّا لا يَعنيهِ سَمِعَ ما لا يُرضيه. ومرَّ حسانُ بنُ أبي سنانٍ بغرفةٍ فقالَ: متى بُنيَتْ هذهِ؟ ثم أقبلَ على نفسه فقالَ: تسألينَ عمَّا لا يَعنيكِ، لأعاقبنَّكِ بصومِ سنةٍ، فصامَها. وعنْ يوسفَ بنِ عبيدٍ: تركُ كلمةٍ فيما لا يَعني أفضلُ مِنَ الصومِ يومًا.

وقالَ بعضُهم: مرَّ إبراهيمُ الخليلُ فرأى عبدًا في الهواءِ متعبِّدًا، فقالَ له: بمَ نلتَ هذه المنزلةَ مِنَ اللهِ تعالى؟ قالَ بأمرٍ يسيرٍ، فطمْتُ نفسي عنِ الدُّنْيا، ولَمْ أتكلَّمْ فيما لا يَعنيني، ونظرتُ فيما أمرَني فعملْتُ به، وفيما نَهاني عنه فانتهيتُ، فأنا إنْ سألتُه أعطاني، وإنْ دعوتُه أجابَني، وإنْ أقسمتُ علَيْه أَبرَّ قَسَمي، فسألتُه أنْ يُسكِنَني الهواء فأسكنَني.

وعنْ وهبِ بنِ منبهٍ قالَ: كانَ في بني إسرائيلَ رجلانِ بلغتْ بِهما عبادتُهما إلى أنْ مشَيَا على الماءِ، فبَيْنَما هما يَمشيانِ على البحرِ إذْ هما برجلٍ يَمشي في الهواءِ، فقالا له: يا عبدَ اللهِ بأيِّ شيءٍ أدركتَ هذه المنزلةَ؟ قالَ: بيسيرٍ مِنَ الدُّنيا، فطمتُ نفسي عنِ الشهواتِ، وكففتُ لساني عمَّا لا يَعنيني، ورغِبْتُ فيما دعاني إلَيْه، ولزمْتُ الصمتَ، فإنْ أقسمتُ على اللهِ أَبرَّ قَسَمي، وإنْ سألْتُه أعطاني.

***

وقولُه: "مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ" خَبَرٌ واجبُ التقدمِ لِمَا في المبتدأِ مِنْ ضميرٍ يَعودُ على متعلِّقِ الخبرِ: مِنْ بابِ "عَلى التَّمْرةِ مِثْلُها زُبْدًا"، وقولُه: "مَا لَا يَعْنِيهِ" مُبْتَدَأٌ.

(**حَدِيثٌ حَسَنٌ**) مِنْ طريقٍ، وصحيحٌ مِنْ أُخرى، (**رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ**) في جامِعِه (**وَغَيْرُهُ**) كابنِ ماجَهْ، (**هَكَذَا**) أيْ موصولًا، ورواهُ غيرُهما مُرسَلًا، والاتصالُ يُقدَّمُ على الإرسالِ، وهو أصلٌ كبيرٌ في تأديبِ النفسِ وتهذيبِها عنِ الرذائلِ والنقائصِ وتركِ ما لا جدْوى فيه ولا نفعَ، وهو مِنْ جوامعِ كلِمِه المختصةِ به ﷺ.

***

الحديثُ الثالثَ عشرَ

١٣. عن أبي حمزةَ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، خادمِ رسولِ اللهِ ﷺ، عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: لا يُؤمِنُ أحدُكُم حتى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِه. رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

(**عَنْ أَبِي حَمْزَةَ**) -بمُهْمَلةٍ فزاي- كنَّاه بذلكَ النبيُّ ﷺ لما رويَ عنه أنَّه قالَ: كنَّاني النبيُّ ﷺ ببقلةٍ كُنتُ اجتنيتُها[١]. قالَ الأزهريُّ: البقلةُ التي كُنِّيَ بها أنَسٌ كانَ في طعمِها لَذْعٌ فسُمِّيَتْ حمزةَ بفعلِها، يُقالُ: رُمَّانَةٌ حامزةٌ أيْ فيها حموضةٌ، ومنه حديثُ عمرَ (أنَّه شَرِبَ شرابًا فيهِ حمازةٌ)[٢] أيْ لَذَعٌ وحِدَّةٌ أوْ حموضةٌ.

التعريف بأنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومناقبه

(**أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ**) بْنِ النَّضْرِ -بالنُّونِ والضادِ المعجمةِ الساكنةِ- بْنِ ضَمْضَم -بفتحِ المعجمتينِ- ابنِ زيدِ بنِ حرامِ بنِ جندبِ بنِ عامرِ بنِ غَنْمٍ -بفتحِ الغينِ المعجمةِ وسكونِ النُّونِ- ابنِ عديِّ بنِ النجارِ الأنصاريِّ الخزرجيِّ.

وأمُّه أُمُّ سُلَيْم بنتُ ملحانَ بنِ خالدِ بنِ زيدِ بنِ حرامٍ، واختلفوا في اسمِها، فقيلَ: سَهْلَةُ، وقيلَ: رميلةُ، وقيلَ: رميثةُ، وقيلَ: أنيفةُ، تزوَّجها مالكُ بنُ النَّضْرِ، فولدتْ له أنسَ بنَ مالكٍ، ثم قُتِلَ، فخطبَها أبو طلحةَ قبلَ أنْ يُسلِمَ، فقالت: أمَا إنِّي فيكَ لراغبةٌ وما مثلُكَ يُرَدُّ ولكنَّكَ رجلٌ كافرٌ، وأنَا امرأةٌ مسلمةٌ، فإنْ تُسلِمْ فذلكَ مَهْري، لا أسألُكَ غيرَه، فأسلمَ أبو طلحةَ وتزوَّجَها، قالَ ثابتٌ: فما سَمِعْنا بمَهرٍ قَطُّ كانَ أكرمَ مِنْ مهرِ أُمِّ سُلَيْم، وهو الإسلامُ.

(**خَادِمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**) لأنَّ أُمَّهُ ذهبتْ بِهِ إلى النبيِّ ﷺ حينَ قَدِمَ المدينةَ، وقالتْ له:

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٨٦) [مسند أنس]، والترمذي (٣٨٣٠) [أبواب المناقب- باب مناقب أنس]، وغيرهما بإسناد ضعيف.

(٢) ذكره ابن الأثير في النهاية (١/ ٤٤٠) [باب الحاء مع الميم]، ولم يعزه.

خُذْهُ غلامًا يَخدمْكَ، فقبلَه، وكانَ له حينئذٍ تسعُ سنينَ، ويُقالُ: ثمانٍ، ويُقالُ: عَشْرٌ، قالَ أنسٌ: فخدمْتُه عشْرَ سنينَ، ويُروى تسعَ سنينَ، فما قالَ لي لشيءٍ فعلتُه لَمَ فعلتَه؟ ولا لشيءٍ تركتُه لَمَ تركتَه؟[1]، وكنتُ واقفًا أصبُّ الماءَ على يديهِ فرفَعَ رأسَهُ فقالَ: أَلَا أعلِّمُكَ ثلاثَ خصالٍ تَنتفِعُ بها، فقلتُ: بَلَى، بأبي وأمي أنتَ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: متى لَقيتَ أحدًا مِنْ أُمَّتي فسلِّمْ علَيْه يَطُلْ عُمُرُكَ، وإِنْ دَخَلْتَ بَيْتَكَ فسَلِّمْ عَلَيْهِمْ يَكثُرْ خيرُ بَيتِكَ، وصَلِّ صلاةَ الضُّحى فإنَّها صلاةُ الأبرارِ الأوَّابينَ[2].

وقالتْ أمُّهُ يومًا: يا رسولَ اللهِ خويدِمُكَ، ادعُ اللهَ لهُ، فقالَ: اللهم أكثِرْ مالَه وولدَه، وأطِلْ عُمُرَه، واغفِرْ ذنْبَه، ويروى بدلُ الأخيرةِ "وأدخلْه الجنةَ"، قالَ أنسٌ: فلقدْ رزقتُ مِنْ صُلْبي سِوى وَلدِ وَلَدِي مائةً وخمسةً وعشرينَ أي ذُكورًا، ولمْ يُرزقْ إلا ابنتَيْنِ عَلى ما قيلَ، وإنَّ بُستاني لَيُثمِرُ في السنةِ مرَّتَيْنِ، وفيه ريحانٌ يُجْنى منه ريحُ المِسكِ، ولقدْ بَقيتُ حتى سَئِمْتُ الحياةَ، وأنا أرجو الرابعةَ[3].

وكانَ يُصلِّي فيطيلُ القيامَ حتى تقطُرَ قدماهُ دمًا، وشَكى له قيِّمُهُ عطشَ أرضِهِ، فتوضَّأَ وخرجَ إلى البريةِ فصلَّى ركعتينِ ودَعا فسارتْ سحابةٌ حتى غَشيتْ أرضَه ومطرتْ حتى ملأَتْها، فأرسلَ غلامَه وقالَ: انظرْ أينَ بلغتْ هذه؟ فنظرَ فإذا هِيَ لَمْ تعدُ أرضَه، وفي روايةٍ لم تعدُها إلَّا يَسيرًا، وذلكَ في الصيفِ[4].

وكانَ إذا ختَمَ القرآنَ جَمَعَ ولدَه وأهلَ بيتِه ودَعَا لَهُم. وكانَ أبو غالبٍ يقولُ: لَمْ أرَ أحدًا

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الترمذي (٢٠١٥) [أبواب البرِّ والصِّلة- باب ما جاء في خلق النبي ﷺ]، وغيره. والحديث بنحوه في الصحيحين وغيرهما، أخرجه البخاري (٦٠٣٨) [كتاب الأدب- باب باب حسن الخلق والسخاء]، ومسلم (٢٣٠٩) [كتاب الفضائل- باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا].

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الشعب (٨٣٨٣)، وأبو يعلى (٤١٨٣) [مسند أنس] بنحوه.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الأدب (٦٥٣) [باب من دعا بطول العمر]، وأبو يعلى (٤٢٣٦) [مسند أنس] وغيرهما، والحديث متفق عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٣٣٤) [كتاب الدعوات- باب قول الله تعالى: ﴿وصل عليهم﴾..]، ومسلمٌ (٢٤٨١) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل أنس بن مالك] بلفظ: (اللهمَّ أكثر ماله، وولده، وبارك له فيما أعطيته).

(٤) أخرجها ابن عساكر في "التاريخ" (٣٦٥/٩) [ترجمة أنس].

كانَ أضنَّ بكلامِه مِنْ أنسِ بنِ مالكٍ.

وخرجَ معَ النبيِّ ﷺ إلى بدرٍ، وإنَّما لَمْ يُعَدَّ مِنَ البدريِّينَ؛ لأنَّه لَمْ يكنْ في سنِّ مَنْ يُقاتِلُ، وغزَا معَ النبيِّ ﷺ ثمانَ غزواتٍ، واستمرَّ في خدمةِ النبيِّ ﷺ إلى أنْ تُوفِّيَ وهو عنْهُ راضٍ، فأقامَ بالمدينةِ، وشَهِدَ الفتوحَ، ثم قَطَنَ بالبصرةِ، وماتَ بها سنةَ تسعينَ أو إحدى أو اثنينِ أو ثلاثٍ وتسعينَ -ورجَّحه المؤلِّفُ- زمنَ الحجاجِ، وهو ابنُ تسعٍ وتسعينَ أو مائةٍ وسنةٍ أو وثلاثِ سنينَ أو وعشرِ سنينَ أو وسبعِ سنينَ أو وعشرينَ سنةً.

وأوصى ثابتًا البنانيَّ أنْ يجعلَ تحتَ لسانِه شعرةً كانتْ عندَه منْ شعرِ رسولِ اللهِ ﷺ ففعَلَ، وغسَّلَه محمدُ بنُ سيرينَ، ودُفِنَ في قصْرِه على فرسخَيْنِ، وقيلَ فرسخٍ ونصفٍ منَ البصرةِ، وهو آخِرُ مَنْ ماتَ مِنَ الصحابةِ بها، وأمَّا آخرُ الصحابةِ موتًا مطلقًا فهو عامرُ بنُ واثلةَ الليثيُّ، رويَ لأنسٍ ألفانِ ومائتَا حديثٍ وستةٌ وثمانونَ، اتَّفقَا منْها على مائةٍ وثمانيةٍ وستينَ، وانفردَ البخاريُّ بثلاثةٍ وثمانينَ، ومسلمٌ بإحدى وسبعينَ.

***

(أنَّهُ ﷺ قالَ: لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ) وفي روايةِ الأصيليِّ (لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ)[1]، وفي روايةِ ابنِ عساكرَ (لَا يُؤمِنُ عَبْدٌ)[2]، وفي روايةٍ لِمُسلِمٍ (والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ لِجَارِهِ)[3]، على الشكِّ، وفي روايةِ أبِي نعيمٍ (لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ وَلِجَارِهِ) بِلَا شَكٍّ[4]، وذَكَرَ الجارَ معَ دخولِه فيما قَبْلَه لِشدَّةِ الاعتناءِ بِهِ لِخَبرِ (مَا زَالَ جبريلُ يُوصِينِي بِالجارِ حتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيُورِّثُه)[5].

(١) انظر "عمدة القاري" للبدر العيني (١/١٤١) [كتاب الإيمان].

(٢) "تاريخ دمشق" (٦/٢٧٢) [ترجمة إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء الوراق].

(٣) "صحيح مسلم" (٤٥) [كتاب الإيمان].

(٤) "المسند المستخرج على صحيح مسلم" لأبي نعيم (١٦٧) [باب في فضل الجود وإكرام الضيف] قال أبو نعيم: رواه مسلم عن أبي خيثمة زهير بن حرب مثله لفظهما سواء إلا أن مسدد لم يشك في أخيه.

(٥) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٠١٥) [كتاب الأدب- باب الوصية بالجار]، ومسلمٌ (٢٦٢٥) [كتاب البرِّ والصلة والآداب- باب الوصية بالجار والإحسان إليه]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

وعلى كُلٍّ فالمرادُ لا يُؤمنُ إيمانًا كاملًا، وإلَّا فأصلُ الإيمانِ حاصلٌ بدونِ ذلكَ؛ لأنَّ مَنْ لمْ يَتصفْ بهذه الصفةِ لا يكونُ كافرًا، وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ وابنِ حبانَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: (لا يَبلغُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ ...)[1] أيْ كمالَه، وقدْ مرَّ في حديثِ جبريلَ أنَّ الإيمانَ هو التصديقُ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ والقدَرِ، ولمْ يَذكرْ حُبَّ الإنسانِ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِه، فدلَّ على أنَّه مِنْ كمالِ الإيمانِ لا مِنْ أجزائِه بحيثُ تَختلُّ ذاتُه بعدَمِه، ونفيُ اسمِ الشيءِ على معنى نفيِ الكمالِ عنه شائعٌ مستفيضٌ في كلامِهم كقولِهم: فلانٌ ليسَ بإنسانٍ.

حب الخير للغير من كمال الإيمان

فإنْ قلتَ: إذَا كانَ المرادُ نفيَ كمالِ الإيمانِ يلزمُ أنْ يكونَ مَنْ حصلتْ له هذه الخصلةُ مؤمنًا كاملًا، وإنْ لمْ يأتِ ببقيةِ الأركانِ، فالجوابُ أنَّ هذا وَرَدَ موردَ المبالغةِ في تحصيلِ هذه الخصلةِ المحمودةِ حتى كأنَّ تلكَ المحبةَ ركنُه الأعظمُ، نحوَ (لا صلاةَ إلا بطهورٍ)[2]، أو هو مستلزمٌ لها؛ إذْ يُستفادُ من قولِه: "لِأخيه" المسلِم ملاحظةُ بقيةِ صفاتِ المسلمِ.

وأضافَ "أحدُ" المنفيَّ للعمومِ لضميرِ الذكورِ نظرًا للغالبِ، وإلَّا فالإناثُ كذلكَ، والضميرُ راجعٌ لأمةِ الإجابةِ.

(حَتَّى يُحِبَّ) بِالنَّصبِ؛ لأنَّ "حَتَّى" هنا جارَّةٌ لا عاطفةٌ ولا ابتدائيةٌ، و"أَنْ" بعدَها مضمرةٌ، والرَّفعُ بجعلِها عاطفةً يُفسِدُ المعنى؛ إذْ عدمُ الإيمانِ ليسَ سببًا للمحبةِ.

وقولُه "يُحبّ": المحبةُ الميلُ إلى ما يوافقُ المحبَّ، ثم الميلُ قدْ يكونُ بما يُستلذُّ بحواسِّه كحسنِ الصورةِ، وبما يُستلذُّ بفعلِه، إمَّا لذاتِه كالفضلِ والكمالِ، وإمَّا لإحسانِه كجلبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ.

(لِأَخِيهِ) أيْ كُلِّ أخٍ في الإسلامِ مِنْ غيرِ أنْ يَخُصَّ بمحبتِه أحدًا دونَ أحدٍ بشهادةِ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، والإضافةِ فإنَّ إضافةَ المفردِ تُفيدُ العمومَ.

---

(١) "صحيح ابن حبان" (٢٣٥) [كتاب الإيمان- باب ما جاء في صفات المؤمنين]، ولم أجده في مسند أحمد.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤) [كتاب الطهارة- باب وجوب الطهارة للصلاة]، وغيره بلفظ: (لا تقبل صلاة بغير طهور..) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا..

ووقعَ في روايةِ الإسماعيليِّ (حَتَّى يُحبَّ لِأَخيهِ المسلم مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه مِنَ الخَيْرِ)(١) والظاهرُ أنَّ التعبيرَ بالأخِ المسلمِ جَرْيٌ على الغالبِ؛ لأنَّه يَنبغي لِكُلِّ مسلم أنْ يُحبَّ للكافرِ الإسلامَ وما يَتفرَّعُ عليْه مِنَ الكمالاتِ، وقالَ ابنُ العمادِ: الأَوْلى أنْ يُحمَلَ على عمومِ الأخوَّة حتَّى يَشمَلَ الكافرَ والمسلمَ، فيُحِبَّ لِأخيه الكافرِ ما يُحِبُّ لِنفسِه من دخولِه في الإسلام، كما يُحبُّ لأخيه المسلمِ الدوامَ عليْه، ولذلك نُدِبَ الدعاءُ له بالهدايةِ، اهـ.

(**مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**) مِنَ الطاعاتِ والمباحاتِ الدنيويَّةِ، وسواءٌ كانَ ذلك في الأمورِ الحسيَّةِ كالغِنَى، أو المَعْنَوِيَّةِ كالعلم، فيكونُ معه كالنفسِ الواحدةِ كما حثَّ ﷺ على ذلك بقولِه في الحديثِ الصحيحِ أيضًا: (المؤمنونَ كالجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعى له سائرُ الجسدِ بالحُمَّى والسهرِ)(٢).

وقالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: "إنِّي لَأَمرُّ على الآيةِ مِنْ كتابِ اللهِ تعالى فأودُّ أنَّ الناسَ علموا منها ما أعلَمُ"(٣). وكانَ عتبةُ الغلامُ إذا أرادَ أنْ يُفطِرَ قالَ لبعضِ إخوانه المطلعينَ على عمله: أخرجْ لي تمرةً فيكونَ لكَ مثلُ أجري.

قالَ ابنُ بطالٍ وغيرُه: المحبةُ على ثلاثةِ أقسامٍ، محبةِ إجلالٍ وتعظيمٍ كمحبةِ الوالدِ، ومحبةِ شفقةٍ ورحمةٍ كمحبةِ الولدِ، ومحبةِ مشاكلةٍ واستحسانٍ كمحبةِ سائرِ الناسِ، اهـ.

واللامُ تدلُّ على أنَّ المرادَ الخيرُ والمنفعةُ؛ إذْ هيَ للاختصاصِ بالمنافعِ، وكذا محبتُه لنفسه تدلُّ عليه؛ إذ لا يُحبُّ لنفسه إلَّا الخيرَ، وقدْ تقدَّمَ التصريحُ به في روايةِ الإسماعيليِّ، فاندفعَ قولُ بعضِهم: "هذا عامٌّ مخصوصٌ"، فإنَّ الإنسانَ يُحبُّ لنفسه وطءَ حليلَته، ولا يَجوزُ أنْ يُحبَّه لأخيه حالَ كونِها في عصمتِه؛ لأنَّه محرَّمٌ عليْه، وليسَ له أنْ يُحبَّ لأخيه فعلَ مُحرَّمٍ عليْه.

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١/٥٧) [باب من الإيمان].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٥٨٦) [كتاب الأدب- باب رحمة الناس والبهائم]، ومسلمٌ (٢٥٨٦) [كتاب البر والصلة والآداب- باب تراحم المؤمنين..]، وغيرهما من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه الطبراني (١٠/٢٦٦) [باب العين- ومن مناقب عبدالله بن عباس]، وأبو نعيم (١/٣٢١) [ترجمة ابن عباس]، والبيهقي في "الشعب" (١٠٦٢٤)، وغيرهم.

وقولُه: "مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" أيْ مثلَ ما يُحبُّ لِنفسِه لا عيْنَه لا عيْنَه مع سلبِه عنهُ، ولا معَ قيامِه بمحلِّه؛ إذْ قيامُ الجوهرِ أوِ العرَضِ بمحلينِ محالٌ، وهو مساوٍ لقولِ بعضِهم: من جهةٍ لا يُزاحِمُه فيها.

قالَ البيضاويُّ: المرادُ المحبَّةُ منْ جهةِ العقلِ، وإنْ كانَ على خلافِ هوى النفسِ كالمريضِ يَعافُ الدواءَ بطبعِه فينفرُ منهُ ويَميلُ إليه بمُقْتَضى عقله، فيهوى تناولَهُ لِمَا يَعلَمُ أنَّ صلاحَه فيه.

وقالَ عياضٌ كبعضِهم: ظاهرُ الحديثِ طلبُ المساواةِ، وحقيقتُه تستلزمُ التفضيلَ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ يُحبُّ أنْ يكونَ أفضلَ الناسِ، فإذَا أحبَّ لِأخيه مثلَه دخلَ هو في جملةِ المفضولينَ، وتعقَّبَه الحافظُ ابنُ حجرٍ بأنَّ المرادَ الزجرُ عنْ هذهِ الإرادةِ، والحثُّ على التواضعِ، فلا يُحبُّ أنْ يكونَ أفضلَ مِنْ غيرِه لِيرى له علَيه مزيةً، ويُستفادُ ذلك من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، فهو مُستلزِمٌ للمساواةِ.

قالَ الكرمانيُّ: ومنَ الإيمانِ أنْ يَبغَضَ لِأخيه ما يَبغَضُ لِنفسِه مِنَ الشَّرِّ، ولمْ يذكرْهُ؛ لأنَّ حبَّ الشيءِ مستلزمٌ لبغضِ نقيضِه فتركَ النصَّ علَيْه، اهـ.

ومِنْ ثَمَّ قِيلَ للأحنفِ بنِ قيسٍ: مِمَّنْ تعلَّمْتَ الحِلْمَ؟ قال: من نفسي، قيل له: وكيف ذلك؟! قالَ كنتُ إذا كرِهْتُ شيئًا مِنْ غَيْري لا أفعلُ بأحدٍ مثلَه.

وقالَ السري(١): وقعَ ببغدادَ حريقٌ فاستقبلَني رجلٌ وقالَ لي: نَجَا حانوتُكَ، فقلتُ: الحمدُ للهِ، فمُذْ قلتُها وأنا نادمٌ، حيثُ أردتُ لِنفسي دفْعَ الضررِ دونَ المسلمينَ، ولي ثلاثونَ عامًا أستغفرُ اللهَ مِنْ ذلك.

(رَوَاهُ البُخاريُّ ومُسلِمٌ)، وفي مُسندِ الإمامِ أحمدَ عنْ يزيدَ بنِ أسدٍ القرشيِّ قالَ: قالَ لي

---

(١) أبو الحسن سري بن المغلس السقطي، أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة، كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد، وهو خال الجنيد وأستاذه، توفي سنة (٢٣٥). حلية الأولياء (١١٦/١٠)، طبقات الصوفية (ص ٥١)، طبقات الأولياء لابن الملقن (ص ١٦٠).

رسولُ اللهِ ﷺ: أتحبُّ الجنةَ؟ قلتُ: نعمْ، قالَ: فأحبَّ لأخيكَ ما تُحبُّ لنفسِكَ[1].

وأتى بهذا عقبَ السابقِ؛ لأنَّ ما قبْلَه وصفٌ للإسلامِ، وهذا وصفٌ للإيمانِ، وذكرَ فيما قبْلَه المطلوبَ تركُه، وذَكَرَ فيها المطلوبَ فعلُه.

***

وأمَّا الإيثارُ وهو تقديمُ الغيرِ على النفسِ فهو أمرٌ عظيمٌ مدحَ اللهُ أهلَه في كتابِه العزيزِ بقولِه ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

حكايات في فضل الإيثار

وسببُ نزولِها ما روي عنْ أبي هريرةَ أنَّه قالَ: جاءَ ثابتُ بنُ قيسٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: إنِّي مجهود، فأرسَلَ إلى بعضِ نسائِه فقالتْ: والَّذي بعثَكَ بالحقِّ ما عندَنا إلَّا ماءٌ، ثُمَّ أرسلَ إلى أخرى فقالتْ مثْلَ ذلك، ثم قلنَ كُلُّهُنَّ مثلَ ذلكَ، ما عندَنا إلَّا ماءٌ، فقالَ: مَنْ يُضيفُ هذا الليلةَ؟ فقامَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ يُقالُ له أبو المتوكلِ -وقيلَ: أبو طلحة- فقالَ: أنا يا رسولَ اللهِ، فانطلقَ به إلى رحلِه، فقالَ لامرأتِه: هلْ عندَكِ شيءٌ؟ فقالتْ: لا، إلَّا قوتَ صبياني، قالَ: فعلِّليهم بشيءٍ، فإذا دخلَ ضيفُنا فأطفئي السراجَ، ونوِّمي الأطفالَ، وقدِّمي للضيفِ ما عندَكِ، ففعلتْ، وأظهَرا له أنَّهما يأكلانِ مَعَهُ، فنزلَ قولُه تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فلمَّا أصبحَ غدا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: قدْ عجبَ اللهُ منْ صنيعكما الليلةَ بضيفكما[2].

فإنْ قلتَ: إذًا لَمْ يكنْ ثَمَّ عندَها إلَّا قوتُ الصبيانِ، وهو يدلُّ على أنَّ الصبيانَ كانوا جياعًا، فكيفَ ساغَ تنويمُهم طاوينَ. فالجوابُ أنَّ الصبيانَ لَمْ تشتدَّ حاجتُهم للأكلِ، وإنَّما خشِيَا أنَّ الطعامَ لوْ جيءَ به للضيفِ وهم مستيقظونَ لا يَتركونَ الأكلَ منه ولو كانوا شباعًا على عادةِ الصبيانِ فيشوشونَ على الضيفِ.

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في "زوائد المسند" (١٦٦٥٥) [مسند المدنيين- حديث أسد بن كرز]، والحاكم (١٦٨/٤) [كتاب البر والصلة]، وغيرها وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٠٥٤) [كتاب الأشربة- باب إكرام الضيف وفضل إيثاره]، وغيره.

وروى الحسنُ أنَّ رجلًا أصبحَ صائمًا على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا أمسى لم يجدْ ما يُفطِرْ عليْه إلَّا الماءَ ثم أصبحَ صائمًا، فلمَّا كانَ اليومُ الثالثُ أجهدَه الجوعُ ففطِنَ به رجلٌ منَ الأنصارِ، فلمَّا أمسى أتى به إلى منزلِه، وقالَ لأهلِه: هلْ عندَكم مِنْ طعامٍ؟ فقالَ أهلُه: عندنا مِنَ الطعامِ ما يُشبِعُ الواحدَ، وكانا صائمَيْنِ، ولهما صبيةٌ، فقالَ لزوجتِه: إذَا دخلَ الضيفُ فنوِّمي الصبيةَ قبلَ العشاءِ، وأطفئي السراجَ، ونظهرُ للضيفِ أنَّنا نأكلُ معه حتَّى يَشبعَ، فجاءتْ بثريدٍ ووضعتْه، ودنتْ مِنَ السراجِ كأنَّها تريدُ أنْ تصلحَه فأطفأتْه، فلمَّا أصبحَ الضيفُ غدا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فنزلتْ هذهِ الآيةُ[1].

وقالَ ابنُ عمرَ: أهديَ لرجلٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ رأسُ شاةٍ، فقالَ: إنَّ أخي فلانًا وعيالَه أحوجُ إلى هذا منَّا، فبعثَه إليْهم، فلمْ يزلْ يبعثُ به واحدٌ إلى آخرَ حتى تَداولَها سبعُ أبياتٍ حتى رجعتْ إلى الأولِ[2].

وتقدَّمَ ذِكْرُ قصةِ ابنِ عمرَ بنِ الخطابِ لَمَّا اشتهى عنقودًا منَ العنبِ[3].

وروِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخذَ أربعَمائةِ دينارٍ فجعلَها في صُرَّةٍ، ثم قالَ للغلامِ: اذهبْ بها إلى أبي عبيدةَ بنِ الجراحِ، ثم تلكَّأْ ساعةً في البيتِ حتى تنظرَ ما يَصنعُ بها، فذهبَ بها الغلامُ إليه فقالَ: يقولُ لك أميرُ المؤمنينَ: اجعلْ هذه في بعضِ حاجتِك، فقالَ: وصلَه اللهُ ورحِمَه اللهُ، ثم قالَ: تعالَي يا جاريةُ، اذهبي بهذه السبعةِ إلى فلانٍ وبهذه الخمسةِ إلى فلانٍ حتى أنفذَها، فرجعَ الغلامُ إلى عمرَ فأخبرَه فوجدَه قدْ أعدَّ مثلَها لمعاذِ بنِ جبلٍ، وقالَ: اذهبْ بها إلى معاذِ بنِ جبلٍ وتلكَّأْ في البيتِ ساعةً حتَّى تنظرَ ما يصنعُ، فذهبَ بها إليه فقالَ: يقولُ لك أميرُ المؤمنينَ: اجعلْ هذه في بعضِ حاجتِك، فقالَ: رحمه اللهُ ووصلَه، وقالَ: يا جاريةُ اذهبي

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٨٨٩) [كتاب تفسير القرآن– باب قوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾]، ومسلمٌ (٢٠٥٤) [كتاب الأشربة– باب إكرام الضيف وفضل إيثاره]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الحاكم (٤٨٣/٢) [كتاب التفسير]، ومن طريقه البيهقيُّ في "الشعب" (٣٢٠٤) من حديث عبدالله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وصحَّحه الحاكم وتعقَّبه الذهبي بأن في إسناده ضعيفٌ.

(٣) انظر ص ٢٠٢.

لبيتِ فلانٍ بكذا وبيتِ فلانٍ بكذا، فاطَّلعتِ امرأةُ معاذٍ وقالتْ: ونحنُ واللهِ مساكينُ فأعطنا، ولَمْ يبقَ فِي الخرقة إلا ديناران، فرمى بهما إلَيْها، فرجعَ الغلامُ إلى عمرَ فأخبرَه بذلك، فسُرَّ عُمَرُ بذلك، وقالَ: إنهم إخوةٌ بعضُهم مِنْ بعضٍ. ونحوه عن عائشةَ في إعطاءِ معاويةَ إياها كما مرَّ في مناقِبِها(١).

وقالَ أبو يزيدَ البسطاميُّ: ما غلَبَني أحدٌ ما غلَبَني شابٌّ مِنْ أهلِ بلخ قدِمَ إلَيْنا حاجًّا فقالَ لِي: يا أبا يزيدَ، ما حدُّ الزهدِ عندَكم؟ فقلتُ: إذَا وجدْنا أَكَلْنا، وإِذَا فقدْنا صبَرْنا، فقالَ: هكذا كلابُ بلخِ عندَنا، فقلتُ له: ما حدُّ الزهدِ عندَكم؟ فقالَ: إذَا فقدْنا شكرْنا، وإذَا وجدْنا آثرْنَا.

وحكيَ عنِ أبي الحسنِ الأنطاكيِّ(٢) أنَّه اجتمعَ عندَه نيفٌ وثلاثونَ رجلًا بِقُرى الريِّ ومعهم أرغفةٌ معدودةٌ لا تُشبِعُ جميعَهم، فكسروا الرغفانَ وأطفئوا السراجَ وجلسوا للطعام، فلمَّا رُفِعَ فإذا هو بحاله لم يأكلْ أحدٌ منهم شيئًا إيثارًا لِصاحبِه على نفسِه.

والإيثارُ بالنفسِ فوقَ الإيثارِ بالمالِ. قالَ حذيفةُ العدويُّ: انطلقتُ يومَ اليرموكِ أطلبُ ابنَ عمٍّ لي ومعي شيءٌ منَ الماءِ، وأنا أقولُ إنْ كانَ بهِ رَمَقٌ سقَيْتُهُ، فإذا أنا به فقلتُ: أسقيكَ، فأشارَ برأسِه أنْ نعمْ، فإذا برجلٍ يقولُ: آهٍ آهٍ، فأشارَ إليَّ ابنُ عمِّي أنِ انطلقْ إليه، فانطلقتُ إلَيْه، فإذا هو هشامُ بنُ العاصي، فقلتُ: أسقيكَ، فأشارَ أنْ نَعمْ، فسمِعَ آخرَ يقولُ: آهٍ آهٍ، فأشارَ هشامٌ أنِ انطلقْ إلَيْه، فجئتُه فإذَا هو قدْ ماتَ، فرجعتُ إلى هشامٍ فإذا هو قدْ ماتَ، ورجعتُ إلى ابنِ عمِّي فإذا هو قدْ ماتَ.

***

(١) انظر ص ٢٤٤.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل الأنطاكي المقرئ الشافعي، كان بصيرا بالعربية والقراءات والحساب وله حظ من الفقه، ورحل إلى الأندلس، فأدخل إليها علما كثيرا من القراءات والرواية توفي سنة (٣٧٧). الوافي (٢١/٢٧٩)، غاية النهاية لابن الجزري (١/٤٦٥).

الحَدِيثُ الرَّابِعَ عَشَرَ

١٤. عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ: الثيِّبُ الزَّاني، والنَّفْسُ بالنفْسِ، والتاركُ لدينِه المُفارِقُ للجماعةِ. رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

(**عَنْ**) عَبْدِ اللهِ (**بْنِ مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قالَ: قالَ رسولُ اللهِ** ﷺ: **لَا يَحِلُّ**) أيْ لا يجوزُ، فلا يُنافي وجوبَ القتلِ بإحدى الثلاثِ الآتيةِ؛ لأنَّ الجائزَ يصدقُ بالواجبِ.

وفي روايةِ مُسلم زيادةٌ على هذا في أوَّلِه، ولفظُه: (قامَ فينَا رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: والذي لا إلهَ غيرُه لَا يَحِلُّ...)[1] (**دَمُ**)، قالَ سيبويهِ: أصلُه "دَمْيٌ" علَى "فَعْل" بالتسكينِ؛ لأنَّه يُجمَعُ على "دِماء" و"دُمِي" أيْ بكسرِ الدَّالِ في الأوَّلِ وضمِّها في الثاني، مثل: ظَبْي، وظِباء وظُبِي، ودَلْو ودِلاء ودُلِي، ولا يُجمع على ذلك إلَّا "فَعْلٌ" بالتسكينِ، وقيلَ أصلُه "فَعَل" بالتحريكِ، وعلَيْه فهلِ الذاهبُ منه الياءُ؛ ويدلُّ علَيْه قولُهم في تثنيَتِه "دَمَيَان"، وإنْ جاءَ جمعُه مخالفًا لنظائرِه، وهو ما قالَه المبردُ[2]، أو الواو؛ لأنَّ بعضَ العربِ يقولُ في تثنيته "دَمَوَان"، وهو ما قالَه غيرُه، وعلى كُلٍّ فحُذِفَ المضافُ، وأقيمَ المضافُ إلَيْه مقامَه.

(**امْرِئٍ**) يُقالُ فيه: "مَرْء" أيضًا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، [الأنفال: ٢٤] ومؤنثُه امرأةٌ ومرأةٌ، وحكى بعضُهم أنَّه يجوزُ "مَرَةٌ" بفتحِ الرَّاءِ منْ غيرِ همزٍ، وخصَّ الذَّكَرَ هنا بالذِّكْرِ لِشرفِه وأصالتِه وغلبةِ دورانِ الأحكامِ علَيْه كما مرَّ، وإلَّا فالأُنْثى والخُنْثى

---

(١) "صحيح مسلم" (١٦٧٦) [كتاب القسامة- باب ما يباح به دم المسلم].

(٢) إمام النحو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عُمَيْر أبو العباس المبرِّد، شيخ أهل النحو والعربية، وإليه انتهى علمها بعد طبقة أبي عمر الجرمي، وأبي عثمان المازني، من كتبه الكامل، والمذكر والمؤنث، والمقتضب، والتعازي والمراثي، وشرح لامية العرب، وإعراب القرآن، وغيرها، توفي سنة (٢٨٦). طبقات النحويين لأبي بكر الإشبيلي (ص ١٠١)، إنباه الرواة (٣/٢٤١).

كذلكَ جريًا على طريقةِ الاكتفاءِ بأحدِ الضِّدَّيْن، كما في ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أيْ والبردَ، أو لأنَّه -كما قالَ الحراليُّ[١]- يَشترِكُ فيه الذكرُ والأُنثى.

وقولُه: "دمُ امرئٍ" كنايةٌ عنْ إزهاقِ روحِه، ولوْ لم يُرِقْ دمَه كما لو خنقَه أو سمَّه، أو بالنظرِ للغالبِ؛ لأنَّ الغالبَ في القتلِ إراقةُ الدم.

(**مُسْلِم**) خرَّجَ به الكافرَ، وسقطَ منْ كلام المصنِّفِ هنا ما رواه الشيخانِ في روايتِهما بعدَه (يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ)[٢] وهو صفةٌ كاشفةٌ.

الأصل في الدماء العصمة

واعلمْ أنَّ الأصلَ في الدماءِ العِصمَةُ عقلًا ونقلًا، أمَّا عقلًا فلأنَّ في القتلِ فسادَ الصورةِ الإنسانيةِ المخلوقةِ في أحسنِ تقويمٍ، والعقلُ يأباهُ، وأمَّا نقلًا فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، وقولِه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، وقولِ المصطفى -عليْه الصلاةُ والسلامُ-: (لِيَحْذَرْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ مِلْءُ كَفٍّ مِنْ دَمٍ يهرقُه بِغَيْرِ حَقٍّ)[٣] وقولِه: (فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا)[٤]، وقولِه: (مَنْ أعانَ على قتلِ مسلمٍ بشطرِ كلمةٍ لقيَ اللهَ مكتوبًا بينَ عينَيْه آيسٌ منْ رحمةِ اللهِ)[٥] وقولِه: (منْ هَدَمَ بنيانَ ربِّه فهو ملعونٌ)[٦] أيْ منْ قَتَلَ نفسًا بغيرِ حقٍّ؛ لأنَّ الجسمَ خَلَقَه اللهُ وركَّبَه.

---

(١) لعله الحراليُّ المفسر، أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن التُّجيبي الأندلسي (المتوفى سنة ٦٣٨)، من تصانيفه: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل".

(٢) البخاري (٦٨٧٨) [كتاب الديات- باب قول الله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس﴾]، ومسلم (١٦٧٦) [كتاب القسامة- باب ما يباح به دم المسلم].

(٣) أخرجه عبدالرزاق (١٨٢٥٠) [كتاب العقول- باب ملء كف من دم]، والطبراني في "الأوسط" (٨٤٩٥) [باب الميم- من اسمه معاذ]، والبيهقي في الشعب (٤٩٦٦)، وغيرهم.

(٤) تقدَّم تخريجه في شرح الحديث الثامن.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠) [أبواب الديات- باب التغليظ في قتل مسلم ظلما]، وأبو يعلى (٥٩٠٠) [مسند أبي هريرة]، وغيرهما. وذكره ابن الجوزي في "الموضوعات" (٣/١٠٣) [كتاب ذم المعاصي]، وتُعقِّبَ، والحديث ضعيفٌ كما قاله عددٌ من الحفَّاظ، انظر: تنزيه الشريعة لابن عراق (٢/٢٢٦).

(٦) ذكره الزيلعي في "تخريج أحاديث الكشاف" (٣٥٥) [سورة النساء] وقال: «غريبٌ جدًّا».

عنِ الإسلام، وأمَّا استثناءُ المرتدِّ فهو باعتبارِ ما كانَ قبلَ ردَّته سيما وعلاقةُ الإسلام مرتبطةٌ به بدليلِ أنَّه لا يُقتَلُ حتى يُستَتابَ ثلاثًا، ويُقتلُ الزاني والقاتلُ ولو تابا بخلافِ المرتدِّ؛ لأنَّ التوبةَ في الأخيرِ تُزيلُ عنه وصفَ الكفرِ بخلافِها في الأوَّلَيْنِ فإنها لا تزيلُ الوصفَ بالزنى والقتلِ.

(**المُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ**) تفسيرٌ للتاركِ لِدينِه، فهو صفةٌ مؤكِّدَةٌ؛ لأنَّ المرادَ بالجماعةِ جماعةُ المسلمينَ، وفراقُهم هو الردَّةُ عنِ الدِّينِ، فالمرادُ المفارقةُ بالقلبِ والاعتقادِ أوِ الفعلِ المكفِّرِ كالسجودِ للصنَمِ، لا المفارقةُ بالبدنِ إلا أنْ ينضمَّ له المفارقةُ باللسانِ.

والظاهرُ أنَّ اللامَ في قولِه "لِدينِه"، وفي قولِه: "للجماعةِ" زائدةٌ كما زيدتْ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النحل: ٧٢] وقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] ونحوِ ذلك، فإنَّ "تَرَكَ" و"فَارَقَ" يتعدَّيَانِ بنفسِهما، واسمُ الفاعلِ منَ الفعلِ المُتعدِّي متعدٍّ كفعلِه، كما أنَّ القاصرَ كذلك، زيدتْ في الفعلِ، وإلَّا فالأصلُ "التاركُ دينَهُ المفارقُ الجماعةَ"، كما تقولُ: "الضاربُ زيدًا" ولا تقولُ: "الضاربُ لزيدٍ"، وكأنَّ زيادتَها لتوكيدِ المعنى، قالَ الطوفيُّ: عمومُ قولِه: "التاركُ لدينِه" يقتضي أنَّه إذا تهوَّدَ نصرانيٌّ أو تنصَّرَ يهوديٌّ أنَّه يُقتَلُ؛ لأنَّه تاركٌ لدينِه، ولقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّ التاركَ لدينِه مستثنًى مِنَ المسلمِ كالزاني والقاتلِ، وحينئذٍ لا يدلُّ على ما ذُكِرَ.

(**رَوَاهُ البُخَارِيُّ**) في الدياتِ، (**وَمُسْلِمٌ**) في الحدودِ.

***

الْحَدِيثُ الخَامِسَ عَشَرَ

١٥. عن أبي هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: منْ كان يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فليقُلْ خيراً أو لِيصمُتْ، ومَنْ كانَ يُؤمِنُ بالله واليوم الآخرِ فليُكْرِم جارَه، ومَن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِم ضيفَه. رواه البخاريُّ ومسلِمٌ.

(**عَنْ أبي هريرةَ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **أنَّ رسولَ اللهِ** ﷺ **قالَ: مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله**) أيْ إيمانًا كاملًا مُنجِّيًا مِنْ عذابِه؛ لأنَّ المتوقِّفَ على هذهِ الأفعالِ كمالُ الإيمانِ لا حقيقتُه، أو هو على المبالغةِ في الاستجلابِ إلى هذه الأفعالِ كما يقولُ القائلُ لولدِه: "إنْ كنتَ ابني فأطعْني" ونحوه تحريضًا وتهييجًا له على الطاعةِ، لا على أنَّه بانتفاءِ طاعتِه يَنتفي أنَّه ابنُه، وعدَلَ إلى المضارعِ هنا وفيما بعدَه قصدًا لاستمرارِ الإيمانِ وتجدُّدِه بتجددِ أمثالِه وقتًا فوقتًا.

(**وَالْيَوْمِ الآخِرِ**) وهو يومُ القيامةِ سُمِّيَ به؛ لأنَّه لا ليلَ بعدَه ولتأخُرِه عنِ الدُّنْيا، وخصَّه بالذِّكرِ هنا دونَ نحوِ الملائكةِ مما ذُكرَ معه في الحديثِ السابقِ؛ لأنَّه محلُّ الجزاءِ على الأعمالِ حسنِها وقبيحِها.

(**فَلْيَقُلْ**) اللَّامُ لامُ الأمرِ، ويَجوزُ سكونُها وكسْرُها، حيثُ دخلتْ علَيْها الفاءُ أوِ الواوُ، وسكونُها أكثرُ، ومنْه قولُه تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦]، (**خَيْرًا**) أيْ كلامًا يُثابُ علَيْه.

(**أَوْ لِيَصْمُتْ**) ضَبَطَهُ النَّوويُّ بفتحِ الياءِ وضمِّ الميمِ، وقالَ الطوفيُّ: قدْ سمِعْناه بكسرِها، وهو القياسُ؛ لأنَّ قياسَ "فَعَلَ" بفتحِ العينِ ماضيًا "يَفْعِلُ" بكسرِها مضارعًا نحوَ "ضَرَبَ يَضْرِبُ" و"يَفْعُلُ" بضمِّ العينِ فيه دخيلٌ كما في الخصائصِ لابنِ جنِّي، اهـ.

فضيلة الصمت عما لا خير فيه

والصمتُ مجرَّدُ السكوتِ عنِ الكلامِ أيْ يسكتُ عمَّا لا خيرَ فيهِ، وهو شاملٌ للصمتِ عنِ الشَّرِّ وعنِ المكروهِ وعنِ المباحِ؛ لأنَّ المباحَ ربما جَرَّ إلى مكروهٍ أو مُحرَّمٍ، وعلى تقديرِ أنَّه لا يَجُرُّ إِلَيْهِما ففيهِ ضياعُ الوقتِ فيما لا يعني، وقدْ مرَّ[1]: (مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)، وآثر "يَصْمُتُ" على "يَسْكُتُ"؛ لأنَّه أَخصُّ؛ إِذْ هو السكوتُ معَ القدرةِ، وهذا هو المأمورُ به، أمَّا السكوتُ معَ العجزِ لِفسادِ آلةِ النطقِ فهو الخَرَسُ، أوْ لتوقُّفِها فهو العِيُّ.

و"الصمتُ قُفْلُ الفم" كما قالَ عُمَرُ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ، ولِذا قِيلَ:

وكَمْ فَاتِحٍ أَبْوَابَ شَرٍّ لِنَفْسِهِ * إِذْ لَمْ يَكُنْ قُفْلٌ عَلَى فِيهِ مُقْفَلُ

وقيلَ: "الصمتُ منامُ اللِّسانِ، والتكلُّمُ يَقظتُهُ"، و"المرءُ مخبوءٌ تحتَ طيِّ لسانِه لا طيلسانِه"، وفي الحديثِ: (مَنْ صمتَ نجا)[2].

واعلمْ أنَّ الإنسانَ إمَّا أنْ يتكلَّمَ أو يَسكُتَ، فإنْ تكلَّمَ فإمَّا بخيرٍ فهو رِبحٌ أو شَرٌّ فهو خُسران، وإنْ سكتَ فإمَّا عنْ شَرٍّ فَرِبْحٌ، وإمَّا عنْ خيرٍ فخسرانٌ، فلَه في كلامِه وسكوتِه رِبْحانِ يَنبغي تحصيلُهما، وخَسارتانِ يَنبغي التخلُّصُ منهما.

وذَكَرَ بعضُهم أنَّ الكلامَ أربعةُ أقسامٍ، ضررٍ محضٍ، ونفعٍ محضٍ، وضررٍ ومنفعةٍ، ولا ضررَ ولا منفعةَ، فالضررُ المحضُ لا بُدَّ منَ السكوتِ عنه، وكذلكَ ما فيه ضررٌ ومنفعةٌ، ولا تفي المنفعةُ بالضررِ، وأمَّا ما لا منفعةَ فيهِ ولا ضررَ فهو فضولٌ، والاشتغالُ به تضييعُ زمانٍ، وهو عينُ الخسرانِ، فلا يَبْقى إلا القسمُ الرابعُ فيُسقِطُ ثلاثةَ أرباعِ الكلامِ، وفيه خطرٌ إذا كان يجرُّ ما فيهِ إثمٌ من الرياءِ والتصنعِ ونحوِهما.

---

(١) الحديث الثاني عشر من الأربعين.

(٢) أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (٣٨٥) [باب حفظ اللسان]، وأحمد (٦٤٨١) [مسند عبدالله بن عمرو]، والدارمي (٢٩١٨) [كتاب الرقاق- باب في الصمت]، والترمذي (٢٥٠١) [أبواب صفة القيامة والرقائق]، والطبراني في "الكبير" (١٣/٤٧)، والأوسط (١٩٣٣) [باب الهمزة- من اسمه أحمد]، وغيرهم من حديث عبدالله ابن عمرو رَضِوَٱللَّهُعَنْهُمَا. وهو حسنٌ، وإن كان من حديث ابن لهيعة، لكن رواه عنه بعض العبادلة الذين حديثهم عنه صحيح.

وقالَ في الحديثِ: (أَلَا أُنبِّئكم بأمرَيْنِ خفيفينِ لم يُلْقَ اللهُ بمثلِهما الصمتُ وحسنُ الخلقِ)(١).

وقالَ لقمانُ لابنِه: "لوْ كانَ الكلامُ منْ فضةٍ كانَ السكوتُ مِنْ ذهبٍ"، وقيلَ مِنْ قولِ سليمانَ، ومعناه كما قالَ ابنُ المباركِ: لو كانَ الكلامُ في طاعةِ اللهِ منْ فضةٍ كانَ السكوتُ عنْ معصيةِ اللهِ منْ ذهبٍ، وما أحسنَ قولَ بعضِهم:

إِذَا مَا اضْطُرِرْتَ إِلَى كِلْمَةٍ * فَدَعْهَا وَبَابَ السُّكُوتِ اقْصِدِ
فَلَوْ كَانَ نُطْقُكَ مِنْ فِضَّةٍ * لَكَانَ سُكُوتُكَ مِنْ عَسْجَدِ

ولإبراهيمَ العتكيِّ رحِمَه اللهُ:

قَالُوا سُكُوتُكَ حِرْمَانٌ فَقُلْتُ لَهُمْ * مَا قَدَّرَ اللهُ يَأْتِينِي بِلَا نَصَبِ
وَلَوْ يَكُونُ كَلَامِي حِينَ أَنْشُرُهُ * مِنَ اللُّجَيْنِ لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ ذَهَبِ

وهو صريحٌ في أنَّ الكفَّ عنِ المعصيةِ أفضلُ مِنْ عملِ الطاعةِ، وفي أنَّ الصمتَ أفضلُ مِنَ الكلامِ، لكنْ ذَهَبَ جماعةٌ مِنَ السَّلَفِ إلى تفضيلِ الكلامِ؛ لأنَّ نفْعَه متعدٍّ، وعليْه فقولُ الخيرِ خيرٌ مِنَ الصَّمْتِ، والصمتُ خيرٌ منْ قولِ الشَّرِّ.

وتكلَّمَ قبيصةُ بنُ ذويبٍ عندَ عمرَ بنِ الخطابِ فقالَ: "يا قبيصةُ إنَّكَ فتقُ اللِّسانِ، فسيحُ الصدرِ فاحذرْ عثراتِ اللِّسانِ". وكانَ يُقالُ: "أدْنى نفعِ الصمتِ السلامةُ، وأدْنى ضررِ النطقِ الندامةُ".

وقالَ الأصمعيُّ: "سمِعتُ أعرابيًّا يقولُ: دعْ مِنَ الكلامِ ما تَعتذرُ منْهُ، وتكلَّمْ بما شئْتَ".

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (٢٧) [باب حفظ اللسان] عن صفوان بن سليم مرسلًا ورجاله ثقات. وأخرجه نحوه أبو الشيخ في "الثواب" بإسناد واهٍ كما ذكر المنذري في "الترغيب" (٢٢، ٢٣) [كتاب الأدب- الترغيب في الخلق الحسن وفضله]. وله شاهد من حديث أنس أخرجه أبو يعلى (٣٢٩٨) [مسند أنس]، والطبراني في الأوسط (٧١٠٣) [باب الهمزة- من اسمه أحمد]، وغيرهما عن أنس، قال: لقي رسول الله ﷺ أبا ذرٍّ فقال: (يا أبا ذر، ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر وأثقل في الميزان من غيرها؟) قال: بلى يا رسول الله، قال: (عليك بحسن الخلق وطول الصمت) فالحديث حسن بطرقه وشواهده، والله أعلم.

وقالَ سفيانُ: "الصمتُ أمانٌ مِنْ تحريفِ اللَّفْظِ، وعصمةٌ مِنْ زَيْغِ النُّطقِ، وسلامةٌ مِنْ فضولِ القولِ، وهيبةٌ لصاحبِه".

وقالَ بعضُ الحكماءِ: دبِّرْ كلامَكَ كما تَدَبَّرُ سهْمَكَ، وارفقْ لا تكسِرْهُ، واعلمْ أنَّ اللِّسانَ مُتَّهَمٌ يُخطِئُ ويُصيبُ، واغتنم السكوتَ فإنَّ أدْنى نفعِهِ السلامةُ، وإنَّ أشْقَى النَّاسِ مَنِ ابتليَ بلسانٍ مُطلَقٍ وقَلْبٍ مُطبَقٍ، فهو لا يُحسِنُ أنْ يَنطِقَ ولا يَقدِرُ أنْ يَسكُتَ. وقالَ آخرُ: مَنْ أطلقَ لسانَه بكلِّ ما يَعلَمُ كانَ أكثرَ منامِه حيثُ لا يُحِبُّ.

وسُئِلَ ابنُ المقفَّعِ: أيُّ شيءٍ أنفعُ للإنسانِ؟ قالَ: عقلٌ يولدُ بِهِ، قيلَ: فإنْ فاتَه ذاكَ؟ قالَ: أدبٌ يُقوِّمُه، قيلَ: فإنْ فاتَه ذاكَ؟ قالَ: مالٌ يَسترُهُ، قيلَ: فإنْ فاتَه ذاكَ؟ قالَ: صمتٌ يَلزَمُهُ، قيلَ: فإنْ فاتَه ذاكَ؟ قالَ: قبرٌ يَحبسُه.

وكانَ أبو بكرٍ الصديقُ يَجعلُ في فيه حجرًا لِيَقِلَّ كلامُه، وكذلك عمرُ بنُ الخطابِ.

ورويَ أنَّ رجلًا سألَ مالكَ بنَ أنسٍ -رحِمَه اللهُ تعالى- في مرضِ موتِه فقالَ: أوصِني، فقالَ: إنْ شئتَ جمعْتُ لكَ علمَ العلماءِ وحِكَمَ الحُكماءِ وطِبَّ الأطباءِ في ثلاثِ كلماتٍ، أمَّا عِلمُ العلماءِ فإذَا سُئِلتَ عمَّا لا تَعلَمُ فقلْ لا أعلمُ، وأمَّا حِكَمُ الحكماءِ فإذا كنتَ جليسَ قومٍ فكنْ أسْكَتَهم، فإنْ أصابوا كنتَ مِنْ جملتِهم، وإنْ أخطؤوا سَلِمْتَ مِنْ خطئِهم، وأمَّا طِبُّ الأطباءِ فإذا أكلتَ طعامًا فلا تَقُمْ إلَّا ونفسُكَ تَشتهيهِ، فإنَّه لا يَلُمُّ بجسدِكَ غيرُ مرضِ الموتِ.

وسُئِلَ إبراهيمُ بنُ الحسنِ عن سلامةِ القلبِ فقالَ: بالعزلةِ والصمتِ وتركِ استماعِ خوضِ الناسِ. وروي عنْ أبي بكرِ بنِ عياشٍ أنه قالَ: أربعةٌ مِنَ الملوكِ تكلَّمَ كُلُّ واحدٍ منهم بكلمةٍ كأنَّها رميةٌ مِنْ قوسٍ واحدةٍ، قالَ كِسرى: لا أندمُ على ما لم أقُلْ، وقدْ نَدمتُ على ما قُلْتُ، وقالَ مَلكُ الصينِ: ما لم أتكلَّمْ بكلمةٍ فأنا أملكُها، فإذا تكلَّمْتُ بها ملكَتْني، وقالَ قيصرُ ملكُ الرومِ: أنا على ردِّ ما لم أقُلْ أقْدَرُ منِّي على ردِّ ما قُلْتُ، وقالَ ملكُ الهندِ: العجبُ ممن يتكلَّمُ بكلمةٍ إنْ رُفِعَتْ ضرَّتْهُ، وإنْ لمْ تُرفَعْ لا تنفعُه.

وعنْ لقمانَ الحكيم أنَّه قالَ لابنه: يا بُنيَّ مَنْ يَصحَبْ صاحبَ السوءِ لا يسلمُ، ومنْ يدخلْ مداخلَ السوءِ يُتَّهمْ، ومنْ لا يَملكْ لسانَه يَنْدَمْ.

وقالَ أكثمُ بنُ صيفي:

مَنْ يَدَعْ لِسَانَهُ فَيُرْسِلْهُ * فَبَيْنَ فَكَّيْهِ يَكُونُ مَقْتَلُهُ

وقالَ بعضُ الحكماءِ: لسانُ المرءِ شفرةٌ يَمرُّها على أوداجه. وقالَ الحسنُ البصريُّ: منْ كَثُرَ كلامُه كَثُرَ سقطُهُ، ومنْ كَثُرَ مالُه كَثُرَ إثمُهُ، ومنْ ساءَ خلقُه عذَّبَ نفْسَه.

وعنْ ثابتٍ البنانيِّ -رحِمَهُ اللهُ- أنَّه قالَ: بلَغَني أنَّ العافيةَ في عشرةٍ، تسعةٌ منها في السكوتِ، وواحدةٌ في الفرارِ مِنَ الناسِ. وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ: كانَ الأبرارُ يتواصونَ بثلاثٍ، سجنِ اللسانِ، وكثرةِ الاستغفارِ، والعزلةِ. ومنْ وصايا بعضِ الكبارِ: إياكَ وكثرةَ الكلامِ فإنَّه يُظهرُ مِنْ عيوبِك ما بطنَ، ويُحرِّكُ منْ عدوِّكَ ما سَكَنَ.

وقالَ يَحيى القطان: إنما سادَ ابنُ عوفٍ الناسَ بحفظِ لسانِه. وقالَ خارجةُ بنُ مصعبٍ: صحبْتُ ابنَ عوفٍ ما يزيدُ على عشرينَ سنةً فما أعلمُ أنَّ الملائكةَ كتبتْ عليه خطيئةً. وقالَ مخلدُ بنُ الحسينِ: ما تكلمتُ بكلمةٍ أريدُ أنْ أعتذرَ منها منذُ خمسينَ سنةً.

وكانَ وهبُ بنُ منبهٍ يعدُّ كلامَه كُلَّ يومٍ ويحفظُه. وقالَ الفُضَيْلُ بنُ عياضٍ: كانَ بعضُ أصحابِنا يعدُّ كلامَه مِنَ الجمعةِ إلى الجمعةِ. وقيلَ في الحكمةِ: إنما جُعلَ لك لسانٌ واحدٌ وأذنانِ ليكونَ ما تَسمَعُ أكثرَ مما تقولُ. وعنِ الأصمعيِّ أنَّه قالَ: بلَغَني أنَّ رجلًا قالَ لآخرَ: واللهِ لَئِنْ قُلتَ لي واحدةً لَتسمعَنَّ عشرًا، قالَ: لكنَّكَ لو قلتَ عَشْرًا لم تَسمَعْ واحدةً.

وأنشدَ أبو بكرِ بنِ خلفٍ:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ * فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِه السُّكُوتُ

سَكَتُّ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنَّ أَنِّي * عَيِيتُ عَنِ الجَوَابِ وَمَا عَيِيتُ

ولَكِنِّي اكْتَسَيْتُ بِثَوْبِ حِلْمٍ * وَجَنَّبْتُ السَّفَاهَةَ مَا بَقِيتُ

وشتمَ رجلٌ الأحنفَ بنَ قيسٍ فسكتَ عنْهُ فأعادَ علَيْه وألحَّ والأحنفُ ساكتٌ فقالَ الرجلُ: والهفاهُ، ما يمنعُه منْ جوابي إلَّا هواني علَيْه.

ونقلَ البيهقيُّ عنْ ذي النونِ المصريِّ أنَّه قالَ: العزُّ الذي لا ذُلَّ فيهِ سُكوتُك عنِ السفيه، عَطَبُ السفيهِ بيدِه وفيهِ. وفيه أنشدَ الأصمعيُّ:

وَمَا شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَى لَئِيمٍ * إِذَا شَتَمَ الْكَرِيمَ مِنَ الْجَوَابِ

مُتَارَكَةُ اللَّئِيمِ بِلَا جَوَابٍ * أَشَدُّ عَلَى اللَّئِيمِ مِنَ السِّبَابِ

ومنْ ثَمَّ قالَ الأعمشُ: جوابُ الأحمقِ السكوتُ، والتغافلُ يطفئُ شَرَّ الشِّريرِ، ورِضا المُتجَنِّي غايةٌ لا تُدركُ، والاستعطافُ عونٌ للظفرِ.

وقيلَ: أوحى اللهُ إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا كنتَ وحدَكَ فاحفظْ قلبَكَ، وإذا كنتَ بيْنَ الناسِ فاحفظْ لسانَكَ، وإذا كنتَ على المائدةِ فاحفظْ بطنَكَ، وإذا كنتَ على الطريقِ فاحفظْ عينَكَ، فهذهِ تورثُ السلامةَ والصحةَ. وقالَ الغزاليُّ: لا تبسطن لسانَكَ فيُفسِدَنَّ عليكَ شأنَكَ.

وعنْ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ في وصيتِه لابنِه الحسينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا بُنَيَّ أمسكْ عليكَ لسانَكَ، فإنَّ إتلافَ المرءِ في منطقِه.

وعنْ بعضِهم: عِفَّةُ اللسانِ صمْتُه، فإنَّ اللسانَ سبُعٌ ضارٌّ فإنْ لمْ توثِقْهُ عدا عليكَ. وأنشدَ بعضُهم:

اغْتَنِمْ رَكْعَتَيْنِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْـ * ـلِ إِذَا كُنْتَ فَارِغًا تَسْتَرِيحَا

وَإِذَا هَمَمْتَ بِالْخَوْضِ فِي الْبَا * طِلِ فَاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبِيحَا

واغتنامُ السكوتِ أفضلُ مِنْ خو * ضٍ وإنْ كنتَ بالحديثِ فَصيحَا

واستثنى العلماءُ مِنَ الصمتِ أربعةَ أنواعٍ: العلمَ وجميعَ القرباتِ، والكلامَ معَ الضيفِ والعروسِ والمسافرِ. وأمَّا ما تَدعو الحاجةُ إلَيْهِ مَنْ قولِ "قُمْ" و"كُلْ" ونحوِ ذلك فإنَّه خارجٌ عنْ هذا.

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ[1]: إنَّ بالصمتِ والعزلةِ وقلةِ الطعامِ والمنامِ صارَ الأبدالُ أبدالًا، ومعنى الأبدال أنَّهم أبدلوا منَ الأقوالِ والأخلاقِ الذميمةِ أفعالًا حميدةً كالجهلِ بالعلمِ والشحِّ بالجودِ والشرهِ بالعفَّةِ والطيشِ بالتؤدةِ.

وعنْ ذي النونِ المصريِّ: أحسنُ الناسِ لنفسِه أملكُهم لِلسانِه، وعنه أيضًا أنَّه قالَ: بَيْنا أنا أسيرُ في نواحي الشامِ إذْ وقفتُ إلى روضةٍ خضراءَ وفي وسطِها شابٌّ قائمٌ يُصلِّي تحتَ شجرةِ تفاحٍ، فتقدمتُ إليْهِ وسلَّمْتُ عليْه فلمْ يَردَّ عليَّ السلامَ، فسلَّمْتُ عليْهِ ثانيًا فأوجزَ في صلاتِه ثم كَتَبَ في الأرضِ بأصبعِه:

مُنِعَ اللِّسَانُ مِنَ الكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ * هَدَفُ الْبَلَاءِ وَجَالِبُ الآفَاتِ
فَإِذَا نَطَقْتَ فَكُنْ لِرَبِّكَ ذَاكِراً * لَا تَنْسَهُ وَاحْمَدْهُ فِي الْحَالَاتِ

قالَ ذو النُّونِ: فبكيتُ طويلًا، وكتبتُ بِأُصْبُعِي في الْأَرْضِ:

ومَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَيَبْلَى * وَيُفْنِي الدَّهْرُ مَا كَتَبَتْ يَدَاهُ
فَلَا تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ * يَسُرُّكَ فِي الْقِيامَةِ أَنْ تَرَاهُ

قالَ: فصاحَ الشابُّ صيحةً فارقَ الدُّنْيا فيها، فقمتُ لآخذَ في غسلِه وكفنِه، وإذَا بقائلٍ يقولُ: خلِّ عنْهُ فإنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- وعدَ أنْ لا يَتولَّى أمرَه إلَّا الملائكةُ، قالَ ذو النُّونِ: فملْتُ إلى شجرةٍ فركعتُ عندَها ركعتَيْنِ، ثم أتيتُ الموضعَ الذي ماتَ فيه فلمْ أجدْ له أثرًا، ولا عرفتُ له خبرًا.

وقالَ الفُضَيْلُ بنُ عياضٍ: مَنْ عدَّ كلامَه مِنْ عملِه قَلَّ كلامُه فيما لا يَعنيهِ. وعنْ ذي النُّونِ: أصْوَنُ الناسِ لِنفْسِه أمْلَكُهم لِلسانِه.

---

(١) سهل بن عبد الله بن يُونُس بن عِيسَى بن عبد الله بن رفيع التُّستري الصَّالح المشهور، مولده سنة ٢٠٠ وقيل ٢٠١، لم يكن له في وقتِه نَظير في المعاملات والورع وكان صاحب كرامات، تخرَّج عن خاله محمَّد بن سَوَّار، ولقي ذا النُّون المصري بمكة، وكانَ عامَّة كلامه في تَصْفية الأعمال وتَنْقية الأحوال عن المَعايب والأَعْلال. وفاته سنة ٢٨٣ وَقيل ٢٧٣. "حلية الأولياء" لأبي نعيم (١٠/١٨٩)، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان (٢/٤٢٩).

وفي صحفِ إبراهيمَ -علَيْه الصلاةُ والسلامُ-: مَنْ عدَّ كلامَهُ مِنْ عَمَلِه قَلَّ كلامُه إلا فيما يَعنيه، وأنشدَ بعضُهم:

وسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقَبِيحِ *كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهْ

فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقَبِيحِ * شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ

وقالَ ابنُ المباركِ:

احْفَظِ لِسَانَكَ إِنَّ اللِّسَانَ * سَرِيعٌ إِلَى الْمَرْءِ فِي قَتْلِهِ

وإِنَّ اللِّسَانَ دَلِيلُ الفُؤَادِ * يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْلِهِ

وقالَ بعضُهم:

احْفَظْ لِسَانَكَ واسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهِ * إِنَّ اللِّسَانَ هُوَ الْعَدُوُّ الذَّابِحُ

وزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ بِمَجْلِسٍ *وزْنًا يَلُوحُ بِهِ الصَّوَابُ اللَّائِحُ

فَالصَّمْتُ مِنْ سَعْدِ السُّعُودِ بِمَطْلَعٍ * يَحْمِي الْفَتَى وَالنُّطْقُ سَبْعٌ ذَابِحُ

واختلفَ العلماءُ: هلْ يُكتَبُ كلُّ ما يتكلَّمُ بِهِ المرءُ حتى المباحُ، وهو ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٨] أوْ لا يُكتَبُ إلَّا ما فيه ثوابٌ أو عِقابٌ؟ وإلَيْهِ ذهبَ ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، وعلَيْه فتكونُ الآيةُ مخصوصةً، أي "ما يَلفِظُ مِنْ قولٍ يترتَّبُ عليه جزاءٌ"، وعلى أنَّه يُكتَبُ المباحُ، فالَّذي يكتبُه كاتبُ السيئاتِ.

***

(**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ**) ولفظُ روايةِ مسلم (فَلْيحسِنْ إلى جارِه)[١]، أيْ بالبِشْرِ وطلاقةِ الوجهِ وكفِّ الأذى وبذْلِ الندى وتحمُّلِ الجفاءِ وغيرِ ذلك لخَبَرِ (الجارُ أمينٌ على جارِه)[٢] فعلَيْه أنْ يُسدِلَ حجابَه علَيْه، ويَكُفَّ أذاه عنه، إنْ رأى عورةً سَتَرَها،

(١) صحيح مسلم (٤٧) [كتب الإيمان- باب الحث على إكرام الجار والضيف].

(٢) لم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

وإنْ رأى سيئةً غفَرَها، وإنْ رأى حسنةً أفشاها"، ولِخبرِ (مَنْ أرادَ أنْ يُحبَّهُ اللهُ فعلَيْه بصدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ، وأنْ لا يُؤذيَ جارَه)[1].

وقالَ بعضُهم: حسنُ الجوارِ في أربعةِ أشياءَ: أنْ يواسيَهُ بما عندَه، وأنْ لا يطمَعَ فيما لجارِه، وأنْ يمنعَ أذاه عنه، وأنْ يصبرَ على أذيَّتِه.

وقالَ الحسنُ: ليسَ حسنُ الجوارِ كفَّ الأذى، ولكنْ حسنُ الجوارِ احتمالُ الأذى.

الحث على إكرام الجار

ومنْ إكرامِه أنْ لا يَمنعَه من غرزِ خشبةٍ في جدارِه لِخَبَرِ الموطأِ والصحيحَيْنِ (لا يمنعْ أحدُكم جارَه أنْ يغرزَ خشبةً في جدارِه)[2] يقولُ أبو هريرةَ: ما لي أراكم عنها معرضِينَ، واللهِ لأرمينَّ بها بينَ أكتافِكم -بالتاءِ، ورُوِي بالنُّونِ[3]، [وعن] يونسُ بن عبدِ الأعلى عن ابنِ وهبٍ: سمعته من جماعةٍ "خشبةً" بلفظِ الواحدِ، قالَ عبدُ الغني: كُلُّ النَّاسِ يقولونَ "خَشبَه" على الجمعِ، غير الطحاويِّ قالَ على التوحيدِ[4].

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ[5] عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (ما زالَ جبريلُ يوصيني بِالجارِ حتَّى ظَنَنْتُ

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرج أحمد (٢٢٤٩٨) [تتمة مسند الأنصار- حديث جعفر بن أبي طالب]، وابن خزيمة (٢٢٦٠) [كتاب الزكاة- باب ذكر البيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة]، وأبو نعيم في الحلية (١/١١٥) [ترجمة جعفر بن أبي طالب] من حديث جعفر إلى النجاشي، وفيه: (وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار).

(٢) أخرجه مالك في "الموطأ" (٣٢) [كتاب الأقضية- باب القضاء في المرفق]، والبخاريُّ (٢٤٦٣) [كتاب المظالم والغصب- باب: لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره]، ومسلمٌ (١٦٠٩) [كتاب المساقاة- باب غرز الخشب في جدار الجار]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) قال ابن عبد البر: رويناه في "الموطأ" بالمثناة وبالنون. والأكناف بالنون جمع كنف بفتحها وهو الجانب، قال الخطابي: معناه إن لم تقبلوا هذا الحكم وتعملوا به راضين لأجعلنها أي الخشبة على رقابكم كارهين، قال: وأراد بذلك المبالغة، وبهذا التأويل جزم إمام الحرمين تبعا لغيره وقال: إن ذلك وقع من أبي هريرة حين كان يلي إمرة المدينة. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري.

(٤) قال القرطبي : وإنما اعتنى هؤلاء الأئمة بتحقيق الرواية في هذا الحرف؛ لأن أمر الخشبة الواحدة يخف على الجار المسامحة به بخلاف الأخشاب الكثيرة. [نيل الأوطار، كتاب الصلح وأحكام الجوار، باب ما جاء في وضع الخشب في جدار الجار وإن كره].

(٥) ذكره أبو الليث السمرقندي هكذا في تفسيره (١/٣٠٢) [سورة النساء- الآية: ٣٦ -٣٨]، وأظنه مركَّبٌ من عِدَّة أحاديث، نُخرجها فيما يلي.

أنَّه سيُورِّثُه)[1]، و(ما زالَ يوصيني بالنساءِ حتى ظَنَنْتُ أنه سيُحرِّمُ طلاقَهنَّ)[2]، و(ما زالَ يوصيني بالمماليكِ حتَّى ظَنَنْتُ أنَّه سيجعلُ لهم مُدَّةً إذا انتهوا إلَيْها عُتِقوا)[3]، و(ما زالَ يوصيني بالسِّواكِ حتَّى خشِيتُ أن يُحفِيَ فَمي) وروي "كادَ"[4]، و(ما زالَ يُوصِيني بقيامِ الليلِ حتى ظَنَنْتُ أنَّ خِيارَ أمتِّي لا يَنامونَ ليلًا)[5].

وقدْ كانَ لِمالكِ بنِ دينارٍ جارٌ يهوديٌّ، فحوَّلَ اليهوديُّ مُستَحَمَّه إلى جدارِ البيتِ الذي فيه مالكٌ، وكانَ الجدارُ مُنهدِمًا فكانتْ تدخُلُ منه النجاسةُ، وكانَ مالكٌ يُنظِّفُ البيتَ في كلِّ يوم، ولَمْ يَقُلْ شيئًا، وأقامَ على ذلك مُدَّةً وهو صابرٌ على الأذى، فضاقَ صدرُ اليهوديِّ مِنْ كثرةِ صبرِه على هذه المشقَّةِ، فقالَ له: يا مالكُ أذيتُكَ وأنتَ صابرٌ ولَمْ تُخبِرْني؟ فقال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (ما زالَ جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتَّى ظَنَنْتُ أنَّهُ سيُورِّثُه)، فنَدِمَ اليهوديُّ وأسلَمَ وحَسُنَ إسلامُه.

وعنِ ابنِ عُمَرَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: كَمْ مِنْ جارٍ يتعلَّقُ بجارِه يومَ القيامةِ يَقولُ: يا ربِّ هذا أغلقَ بابَه دوني فمَنَعَني معروفَه[6]، وعنْ أبي شريحٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (واللهِ لا يؤمنُ، واللهِ لا يؤمنُ، واللهِ لا يؤمنُ، قالوا: لقدْ خابَ وخَسِرَ، مَنْ هو يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: مَنْ لا يأمَنُ

(١) تقدم تخريجه، انظر ص ٣٣٣.

(٢) أخرجه بن أبي الدنيا في "كتاب النفقة على العيال" (٤٨٣) [باب العطف على الأزواج]، وأحمد بن منيع كما في "إتحاف الخيرة" للبوصيري (٣٣٠٤) [كتاب الخلع والطلاق- باب ما يكره للمرأة من مساءلتها طلاق زوجها]، و"المطالب العالية" لابن حجر (١٦٧٦) [كتال الوليمة- باب الوصية بالنساء] من حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وقال البوصيري: إسناده ضعيفٌ.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن(١٥٨٠١) [جماع أبواب نفقة المماليك- باب سياق ما ورد من التشديد في ضرب المماليك]، وفي "الشعب" (٨١٩٤)، مع الوصية بالجار. بلفظ: (وما زال يوصيني بالمملوك حتى ظننتُ أن يضرب له أجلًا أو وقتًا إذا بلغه عُتق) من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا. وصحَّحه البيهقي في "الشعب".

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٢٦٩) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي أمامة]، وابن ماجه (٢٨٩) [أبواب الطهارة- باب السواك]، والطبراني (٨/٢١٠)، وغيرهم من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي الباب عن جماعة.

(٥) أخرجه الديلمي في "الفردوس" (٦٣٠٦) [باب الميم] من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٦) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (١١١) [باب من أغلق الباب على الجار]، وابن أبي الدنيا في "مكارم الأخلاق" (٣٤٦) [باب التذمم للجار]، وهناد في "الزهد" (٥٠٨/٢) [حق الجار]، وغيرهم.

جارُه بوائقَهُ)[١]، أي غوائلَه وشرورَه، وفي البيهقيِّ عنه ﷺ: (مَنْ أحبَّ أنْ يُحبَّهُ اللهُ ورسولُه فلْيُصدِّقِ الحديثَ، ولْيؤدِّ الأمانةَ، ولا يؤذِ جارَه)[٢]، ورويَ أنَّ رجلًا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ يشكو جارَه، فقالَ النبيُّ ﷺ: (كُفَّ أذاكَ عنْهُ، واصبرْ على أذاه، فكفى بالموتِ مُفَرِّقًا)[٣].

وروي عن سفيانَ الثوريِّ أنَّه قالَ: عشرةُ أشياءَ منَ الجفاءِ: أوَّلُها: رجلٌ أو امرأةٌ يدعو لنفسِهِ ولا يدعو لوالدَيْه وللمؤمنينَ والمؤمناتِ، والثاني: رجلٌ يتعلَّمُ القرآنَ ولا يقرأُ منه كُلَّ يومٍ مائةَ آيةٍ، والثالثُ: رجلٌ دَخلَ المسجدَ وخرَجَ ولمْ يُصَلِّ ركعَتَيْنِ، والرَّابِعُ: شخصٌ يمُرُّ على المقابرِ ولمْ يُسلِّمْ على أهلِها ولمْ يدعُ لَهُمْ، والخامسُ: رجلٌ دخلَ المدينةَ في يومِ جمعةٍ ثم خرجَ ولم يُصَلِّ الجمعةَ، والسادسُ: رجلٌ أوِ امرأةٌ يَنْزِلُ في محلَّتِهم رجلٌ عالمٌ ولمْ يذهبْ إلَيْه ليتعلمَ منه شيئًا منَ العلمِ، والسابعُ: رجلانِ تَرافَقا ولمْ يسألْ كُلُّ واحدٍ منهما عن اسمِ صاحبِه، والثامنُ: رجلٌ دعاهُ رجلٌ إلى ضيافةٍ فأَجابَهُ ثم لمْ يَذهبْ إلى الضيافةِ، والتاسعُ: شابٌّ يَضيعُ شبابُه ولمْ يطلبِ العلمَ والأدبَ، والعاشرُ: رجلٌ شبعانُ وجارُه جائعٌ ولا يُعطِيه مِنْ طعامِه شيئًا.

وكانَ منْ دعاءِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنِّي أسأَلُكَ أربعةً وأعوذُ بِكَ مِنْ أربعةٍ، فأمَّا اللواتي أسأَلُكَ فإنِي أسأَلُكَ لِسانًا ذاكرًا، وقلْبًا شاكرًا، وبدنًا صابرًا، وزوجةً تُعينُني في دنيايَ وآخرتِي، وأمَّا اللواتي أعوذُ بِكَ منْهنَّ فإنِّي أعوذُ بكَ من ولدٍ يكونُ عليَّ سيِّدًا، ومِنِ امرأةٍ تُشيِّبُني قبلَ وقتِ المشيبِ، ومِنْ مالٍ يَكونُ عذابًا لي ووبالًا عَليَّ، ومِنْ جارٍ إنْ رأى منِّي حسنةً كتَمَها، وإنْ رأى منِّي سيئةً أفْشاها. وكانتِ الجاهليةُ تشدِّدُ أمرَ الجارِ ومراعاتَه وحفظَ حقِّه، وهو راجعٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، قالَ ابنُ عباسٍ وغيرُه: الجارُ القريبُ النسيبُ، والجُنُبُ الذي لا قرابةَ بينَكَ وبيْنَه، وقيلَ: القربى المسلمُ، والجنبُ الذِّميُّ، وقيلَ: القربى القريبُ المسكنِ منْكَ، والجنبُ بعيده.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٠١٦) [كتاب الأدب- باب إثم مَن لا يأمن جاره بوائقه]، ومسلمٌ (٤٦) [كتاب الإيمان- باب بيان تحريم إيذاء الجار]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه البيهقي في "الشعب" (٩١٠٤) عن رجل من الأنصار.

(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في "البغية" (٩٠٨) [كتاب البر والصلة- باب ما جاء في الجار].

وروى البزارُ عن جابرٍ مرفوعًا: الجيرانُ ثلاثةٌ: جارٌ له حقٌّ واحدٌ وهو أدنى الجيرانِ، وجارٌ له حقَّانِ، وجارٌ له ثلاثُ حقوقٍ وهو أفضلُ الجيرانِ، فأمَّا الجارُ الذي له حقٌّ واحدٌ فجارٌ مُشرِكٌ له حقُّ الجوارِ، وأمَّا الذي له حقَّانِ فجار مُسلِمٌ له حقُّ الإسلامِ وحقُّ الجوارِ، وأمَّا الذي له ثلاثةُ حقوقٍ فجارٌ مُسلِمٌ ذو رَحِمٍ، له حقُّ الإسلامِ وحقُّ الجوارِ وحقُّ الرحم[1].

ثم الجارُ يقعُ على الساكنِ معَ غيرِه، كقولِ الأعشى لزوجتِه: "أَجَارَتَنَا بِينِي فَإِنَّكِ طَالِقَة"، وعلى المُلاصقِ، وعلى أربعينَ دارًا منْ كُلِّ جانبٍ، ففي البخاريِّ في الأدبِ المُفْرَدِ منْ قولِ الحسنِ البصريِّ وقدْ سُئِلَ عنِ الجارِ، فقالَ: أربعونَ دارًا أمامَهُ، وأربعونَ دارًا خلْفَه، وأربعونَ عن يمينِه، وأربعونَ عنْ يسارِه[2]، ومثلُه للأوزاعيِّ، اهـ. ويُطلَقُ الجارُ على مَنْ بالبلدِ معَ غيْرِه، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٦]. وهنا تنبيهٌ وهو أنَّه إذا أَمَرَ بإكرامِ الجارِ معَ الحائلِ بينَ الإنسانِ وبينَه، فيَنبغي له أنْ يراعيَ حقَّ الحافظَيْنِ اللَّذَيْنِ ليس بينه وبينهما جدارٌ ولا حائلَ فلا يؤذيهما بإيقاعِ المخالفاتِ في مرورِ الساعاتِ، فقدْ وردَ أنهما يُسرَّانِ بوقوعِ الحسناتِ، ويَحزنانِ بوقوعِ السيئاتِ، فيَنبغي إكرامُهما ورعايةُ جانبِهما بالإكثارِ مِنْ عملِ الطاعاتِ والمواظبةِ على تجنبِ المعاصي، فهما أَوْلى بالإكرامِ مِنْ كثيرٍ منَ الجيرانِ.

***

الحث على إكرام الضيف

(**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**) الغنيَّ والفقيرَ، بالبِشْرِ في وجْهِه، وبَسْطِ شيءٍ تحتَه وإجلاسِه في صدرِ المجلسِ، وطيبِ الحديثِ معه، والمبادرةِ إلى إحضارِ ما تَيسَّرَ عندَه منَ الطعامِ منْ غيرِ كلفةٍ ولا إضرارٍ بأهلِه.

وفي كتابِ "المُنتخَبِ منَ الفردوسِ" عن أبي الدرداءِ مرفوعًا: إذَا أَكَلَ أحدُكم معَ الضيفِ فليُلقِمْهُ بيدِه، فإذَا فعَلَ ذلكَ كُتِبَ له بِهِ عَمَلُ سنةٍ، صيامُ نهارِها، وقيامُ ليلِها.

---

(١) أخرجه البزَّار كما في "كشف الأستار" (١٨٩٦) [كتاب البر والصلة- باب حقِّ الجار] من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الهيثمي في "المجمع" (١٣٥٣٦) [كتاب البر والصلة- باب حقِّ الجار]: رواه البزَّار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي، وهو وضَّاعٌ.

(٢) "الأدب المفرد" (١٠٩) [باب الأدنى فالأدنى من الجيران].

وفي حديثِ قيسِ بنِ سعدٍ: مِنْ إكرامِ الضيفِ أنْ يوضعَ له ما يَغسِلُ به حينَ يَدخُلَ المنزلَ، ومِنْ إكرامِه أنْ يُركِبَه إذَا انقلبَ إلى منزلِه إنْ كانَ بعيدًا[1].

والضيفُ يُطلَقُ على الواحدِ والاثنينِ والجمعِ، لأنَّه مَصدرٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ [الحجر: ٦٨].

ولابنِ الجوزيِّ:

مَاتَ الْكِرامُ وَوَلَّوْا وَانْقَضَوْا وَمَضَوْا * وَمَا مِنْ بَعْدِهِمْ تِلْكَ الكَرَامَاتُ

وخَلَّفُونِي فِي قَوْمٍ ذَوِي بُخْلٍ * لَوْ أَبْصَرُوا طَيْفَ ضَيْفٍ فِي الْكَرَى مَاتُوا

ورويَ أنَّ إبراهيمَ -على نبيِّنا وعلَيْه أفضلُ الصلاةِ والسلام- كانَ يُكَنَّى أبا الضيفانِ، وكانَ يَمشي الميلَ والميلَيْنِ في طلبِ الضيفِ، وكانَ لِقَصْرِه أربعةُ أبوابٍ، واتفقَ له قضيتانِ مُتعارِضتانِ شُكِرَ في واحدةٍ وأُدِّبَ في الأُخرى:

أمَّا الأولى فهي أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ نزلَ به رجلٌ مِنْ عبدةِ الأوثانِ فأكرَمَه فضجَّتِ الملائكةُ في السمواتِ، وقالوا: يا ربَّنا خليلُكَ يُكرِمُ عدوَّكَ، فقالَ لهم: أنا أعلمُ بخليلي مِنْكم، ثم أَمَرَ جبريلَ فنزَلَ وعَرَضَ علَيْه قولَ الملائكةِ فبكى، وقالَ: يا جبريلُ تعلَّمْتُ مِنْ مولايَ؛ لأنِّي رأيتُه يُحسِنُ إلى مَنْ يسيءُ.

وأمَّا الأخرى فإنَّه نَزَلَ به رجلٌ مِنْ عبدةِ الأوثانِ فاستضافَه فأبى علَيْه إلا أنْ يتركَ دينَه فانصرفَ، فأمرَ اللهُ جبريلَ أنْ يَنزلَ إلَيْه، فنزَلَ إلَيْه، وقالَ له: يقولُ لكَ ربُّكَ: استضافَكَ عبدي فأبَيْتَ إلا أنْ يَترُكَ دينَه، وأنا أرزقُه ثمانينَ سنةً على شِرْكِه، فبكى إبراهيمُ، وقام يَقفو أثرَ الوثنيِّ إلى أنْ لحِقَ به فعرضَ علَيْه الرجوعَ فأبى إلا أنْ يُخبِرَه بسببِ ذلك، فقالَ له إبراهيمُ: إنَّ اللهَ عاتَبَني فيكَ، وأخبرَه فبكى الوثنيُّ وقالَ: يا إبراهيمُ أسلمتُ للهِ ربِّ العالمينَ[2].

(١) لم أقف على هذا الكتاب، وعزاهما إليه أيضًا المناوي في "فيض القدير" (٦/٢٠٩).

(٢) ذكره السفوري في نزهة المجالس (ص ٢١٠) [باب الكرم والفتوة].

ثم إنَّ الأمرَ بالإكرام إنَّما هو منوطٌ بثلاثةِ أيام كما جاءَ مُصرَّحًا به في عِدَّةِ أخبارٍ[1]، وظاهرُها وجوبُ الضيافةِ، وبه قالَ أحمدُ.

وحَمَلَها الجمهورُ على أنه كانَ في صدرِ الإسلام ثم نُسِخَ، فإنَّها كانتْ واجبةً حينَ كانتِ المواساةُ واجبةً، فلمَّا ارتفعَ وجوبُ المواساةِ ارتفعَ وجوبُ الضيافةِ، أو على أهلِ الذمةِ المشروطِ علَيْهم ضيافةُ المارَّةِ إلا أنَّها تَسقُطُ عنْهم بالظلم أو في المضطرينَ، أو مخصوصٌ بالعمالِ المبعوثينَ لقبضِ الزكاةِ.

ثم إنَّ الأمرَ الندبيَّ إنما هو لِمَنْ عندَه فاضلٌ عن قوته وقوتِ عيالِه، أمَّا غيرُه فلا ضيافةَ عليهِ، بل ليسَ له ذلكَ، وأمَّا خبرُ الأنصاريِّ الذي سَلَفَ في الحديثِ المتقدِّم فقدْ سبقَ الجوابُ عنْهُ.

(**رَوَاهُ البُخَارِيُّ**) في الأدبِ، (**ومسلمٌ**) في بابِ الحثِّ على إكرامِ الجارِ والضيفِ من كتابِ الإيمانِ.

***

(١) منها ما أخرجه البخاريُّ (٦٠١٩) [كتاب الأدب- باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره]، ومسلمٌ (٤٨) [كتاب الإيمان- باب الحث على إكرام الجار والضيف]، وغيرهما من حديث أبي شريح العدوي مرفوعًا وفيه: (والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه).

الحديثُ السادسَ عشرَ

١٦. عَنْ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رجُلاً قالَ لِلنَّبيِّ ﷺ: أوْصِني قال: لا تغضبْ، فردَّدَ مِراراً قالَ: لا تغضبْ. رواهُ البخاريُّ.

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا) أبهمَهُ، وقدْ جزمَ القسطلانيُّ[(١)] في شرحِ البخاريِّ بأنَّ اسمَهُ جاريةُ -بالجيم- ابنُ قدامةَ كما عِنْدَ أحمدَ وابنِ حبانَ[(٢)]، اهـ. ونازعَ فيه يَحيى القطانُ والعجليُّ وغيرُهما بأنَّهم يقولونَ: إنَّ جاريةَ تابعيٌّ لا صحابيٌّ، وفي حديثِ الطبرانيِّ أنَّه سفيانُ بنُ عبدِ اللهِ الثقفيُّ (قالَ: قلتُ يا نبيَّ اللهِ، قُلْ لي قولًا أنتفعُ به وأَقْلِلْ، قالَ: لَا تَغْضَبْ)[(٣)]، وفي حديثٍ له آخرَ أنَّه أبو الدرداءِ، (قالَ: قلتُ يا رسولَ اللهِ، دُلَّني على عملٍ يُدخلُني الجنةَ، قالَ: لا تغضبْ ولكَ الجنةُ)[(٤)]، وفي حديثِ أبي يَعلى أنَّ ابنَ عُمَرَ (قالَ: قلتُ يا رسولَ اللهِ، قُلْ لي قولًا وأَقْلِلْ لعلِّي أعْقِلُه)[(٥)]، وفي حديثِ أحمدَ عنِ ابنِ عُمَرَ (دُلَّني على ما يُباعدُني مِنْ غضبِ اللهِ)[(٦)]، زادَ أبو كُرَيبٍ عنِ ابنِ عباسٍ عندَ الترمذيِّ (ولا تُكْثِرْهُ عليَّ لَعلِّي أَعِيه)[(٧)].

---

(١) العلامة الحافظ أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد بن حسين بن علي القسطلاني المصري الشافعي، من مؤلفاته المشهورة: شرح البخاري المسمى إرشاد الساري، والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ولطائف الإشارات في علم القراآت، وغيرها توفي سنة (٩٢٣). الضوء اللامع (١٠٣/٢)، والبدر الطالع (١٠٢/١).

(٢) "مسند أحمد" (١٥٩٦٤) [مسند المكيين- حديث جارية بن قدامة]، و"صحيح ابن حبان" (٥٦٨٩) [كتاب الحظر والإباحة- باب الاستماع المكروه]، وغيرهما.

(٣) "المعجم الكبير" للطبراني (٦٩/٧) [باب السين]، وقال الهيثمي في المجمع (١٢٩٩١) [كتاب الأدب- باب ما يقول ويفعل إذا غضب]: رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أبي داود ولم يعرف، وبقية رجاله ثقات.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣٥٣) [باب الهمزة- من اسمه إبراهيم] وقال الهيثمي في المجمع (١٢٩٩٠) [كتاب الأدب- باب ما يقول ويفعل إذا غضب]: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأحد إسنادي الكبير رجاله ثقات.

(٥) مسند أبي يعلى (٥٦٨٥) [مسند عبدالله بن عمر].

(٦) مسند أحمد (٦٦٣٥).

(٧) سنن الترمذي (٢٠٢٠) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في كثرة الغضب]، وغيره.

والظاهرُ كما قالَ الوليُّ العراقيُّ[١] أنَّ السائلَ عن ذلك تعدَّدَ.

(**قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ**) يُحتَمَلُ أنَّ المُرادَ لا تَفْعلِ الأسبابَ المقتضيةَ للغضبِ، وافعلِ الأسبابَ التي تَنفيهِ كالحلمِ والسخاءِ والحياءِ، ويُحتملُ أنَّ المرادَ لا تعملْ بمقتضى الغضبِ إذا حَصَلَ، بلْ جاهِدْ نَفْسكَ على تركِ تنفيذِه، وليسَ النَّهْيُ راجعًا إلى نفسِ الغضبِ؛ لأنَّه مطبوعٌ في الإنسانِ.

(**فردَّدَ**) أيْ كرَّرَ السائلُ السؤالَ (**مِرارًا**)، وقعَ في روايةِ عثمانَ بنِ أبي شيبةَ قالَ: لا تغضبْ ثلاثَ مراتٍ[٢]، فأفصحَ فيها ببيانِ عددِ المرارِ، وكأنه لم يقنعْ بقولِه: لا تغضبْ، فطلبَ وصيةً أبلغَ مِنْها وأنفعَ، فلمْ يَزدْه ﷺ علَيْها، وأعادَها له حيثُ (**قالَ**) له ثانيًا وثالثًا (**لَا تَغْضَبْ**) تنبيهًا له بتكرارِها على عمومِ نفعِها لِمَا فيها من جلبِ المصالحِ ودرءِ المفاسدِ.

فهو كما قالَ له العباسُ: علِّمْني دعاءً أدعو به يا رسولَ اللهِ، فقالَ: (سلِ اللهَ العافيةَ)، فعاودَه مِرارًا، فقالَ له: (يا عباسُ يا عمَّ رسولِ اللهِ ﷺ سلِ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ، فإنَّكَ إذا أُعطيتَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ أُعطيتَ كُلَّ خيرٍ)[٣]. كذلكَ لمَّا قالَ لأصحابه: (اجتمعوا فإني أتلو علَيْكم ثُلُثَ القرآنِ)، فاجتمعوا فتَلَا علَيْهم سورةَ الإخلاصِ، ثم دَخَلَ منزلَه فأقاموا ينتظرونَه ليُكمِلَ لهم ثُلُثَ القرآنِ، فخرجَ علَيْهم فقالَ: (ما تَنتظرونَ، أما إنَّها تَعدلُ ثُلُثَ القرآنِ)[٤]، يَعني سورةَ الإخلاصِ.

---

(١) الإمام الحافظ ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن الإمام العلامة الحافظ زين الدين أبي الفضل العراقي الأصل المصري، من مصنفاته: البيان والتوضيح لمن أخرج له في الصحيح وقد مُسّ بضرب من التجريح، والإطراف بأوهام الأطراف للمزي، ورواة المراسيل، وحاشية على الكشاف، وتحرير الفتاوى، وغيرها، توفي سنة (٨٢٦). طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٤/٨٠)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٥٤٨).

(٢) ذكرها الحافظ في الفتح (١٠/٥٢٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٨٣) [من مسند بني هاشم- حديث العباس بن عبد المطلب]، والبخاري في "الأدب المفرد" (٧٢٦) [باب من كره الدعاء بالبلاء]، والترمذي (٣٥١٤) [أبواب الدعوات]، وأبو يعلى (٦٦٩٦) [مسند العباس]، وغيرهم من حديث سيدنا العباس بن عبدالمطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصحَّحه الترمذي.

(٤) أخرجه بنحوه مسلمٌ (٨١٢) [كتاب صلاة المسافرين وقصرها- باب فضل قراءة قل هو الله أحد]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قيلَ: إنَّه يُحتمَلُ أنَّه ﷺ علِمَ مِنْ هذا الرجلِ كثرةَ الغضبِ فخصَّه بِهذِه الوصيةِ؛ لأنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ يأمرُ كُلَّ واحدٍ بما هو أولى به.

وروى أنسٌ أن رجلًا قالَ: يا رسولَ اللهِ، ما أشدُّ مِنْ كُلِّ شيءٍ، قال: غضبُ اللهِ تعالى، قالَ: فما يُنجي مِنْ غضبِ اللهِ؟ قالَ: لا تَغْضَبْ[1].

***

والغضبُ فورانُ دمِ القلبِ وغليانُه، وقيلَ: تغيرٌ يَتبَعُه غليانُ دمِ القلبِ لإرادةِ الانتقامِ، والغيظُ أصلُ الغضبِ، وكثيراً ما يَتلازمانِ، وقيل بالفرقِ بينهما، وهو أنَّ الغيظَ لا يَظهَرُ على الجوارحِ بخلافِ الغضبِ فإنَّه يَظهرُ على الجوارحِ معَ فعلٍ ما ولا بدَّ.

طبيعة الغضب وحركته في الجسد

وقدْ خلقَ اللهُ الغضبَ من نارٍ وعجَنَه بطينةِ الإنسانِ، فمَهْما نوزِعَ في غرضٍ من أغراضِه اشتعلتْ نارُ الغضبِ فيه، وفارتْ فورانًا يَغلي منه دمُ القلبِ، ويَنتشرُ في العروقِ ويَرتفعُ إلى أعلى البدنِ ارتفاعَ الماءِ في القدرِ ثم يَنصَبُّ في الوجهِ والعينينِ حتى يَحمَرَّا منه؛ إذِ البشرةُ لِصفائِها كالزجاجةِ تَحْكي ما وراءَها مِنْ لونِ الدمِ، هذا إذا غضبَ على من دونَه، واستشعرَ القدرةَ عليه، فإنْ كانَ عَلى مَنْ فوقَه وأَيِسَ مِنَ الانتقامِ منهُ انقبضَ الدمُ إلى جوفِ القلبِ وكَمَنَ فيهِ وصارَ حزنًا فاصفرَّ اللونُ، فإنْ كانَ عَلى من يُساويهِ الَّذي شكَّ في القدرةِ عليه تردَّدَ الدمُ بينَ انبساطٍ وانقباضٍ فيحمرُّ لونُه تارةً ويصفرُّ أخرى.

والغضبُ يتحرَّكُ مِنْ داخلِ الجسدِ إلى خارجِه، والحزنُ يتحركُ من خارجِه إلى داخلِه، ولِذلكَ يَقتلُ الحزنُ ولا يَقتُلُ الغضبُ لِبروزِ الغضبِ وكمونِ الحزنِ، فصارَ الحادثُ عنِ الغضبِ السطوةَ والانتقامَ، والحادثُ عن الحزنِ المرضَ والأسقامَ، ويترتَّبُ على الغضبِ تغيُّرُ الظاهرِ والباطنِ والرعدةُ في الأطرافِ، وخروجُ الأفعالِ من غيرِ ترتيبٍ، وقبحُ الصورةِ حتَّى لوْ رَأَى الغضبانُ نفسَه لَسَكَنَ غضبُه حياءً مِنْ قُبحِ صورتِه.

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (٤/٢٠٨).

الحث على كظم الغيظ

وعنِ ابنِ عباسٍ في قولِه تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] قالَ الرضا بغيرِ عتابٍ، وقد رويَ عنه ﷺ أنه قالَ: أشدُّكم مَنْ غلَبَ على نفسِه عندَ الغضبِ، وأحلمُكم مَنْ عَفا عندَ القدرةِ(١). وفي البخاريِّ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قولِه تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] هو الصبرُ عندَ الغضبِ، والعفوُ عندَ الإساءةِ(٢).

وعنه ﷺ أنه قالَ: (مَنْ دَفَعَ غيظَه دَفَعَ اللهُ عنه عذابَه، ومَنْ حَفِظَ لسانَه سَتَرَ اللهُ عورتَه)(٣). وعنه ﷺ أنه قالَ: (مَنْ كَظَمَ غيظَه وهو يَستطيعُ أنْ يُنفِذَه دَعاهُ اللهُ يومَ القيامةِ على رؤوسِ الخلائقِ حتى يخيِّرَه في أيِّ الحورِ شاءَ)(٤).

وعنه ﷺ أنه قالَ: (إذا كانَ يومُ القيامةِ نادى منادٍ: مَنْ كانَ أجرُه على اللهِ فلْيَدخُلِ الجنةَ، فيُقالُ: مَنْ ذا الَّذي أجرُه عَلى اللهِ؟ فيقومُ العافونَ عنِ الناسِ يَدخلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ)(٥).

وعنه ﷺ أنَّه قالَ: (ليسَ الشديدُ بالصُّرَعَةِ، إنما الشديدُ الذي يملِكُ نفسَه عندَ الغضبِ)(٦)، والصُّرَعَةُ -بضمِّ الصادِ وفتحِ الرَّاءِ المهملتَيْنِ- الذي يُكثِرُ صَرْعَ الناسِ.

---

(١) ذكره الديلمي في "الفردوس" (٨٥٠) عن سيدنا علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بنحوه.

(٢) "صحيح البخاري" (١٢٧/٦) [كتاب تفسير القرآن- بابُ قَوْلِه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ ...﴾] معلَّقًا.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٣٣٨) [مسند أنس] الدولابي في الكنى (١٠٨٢) [من كنيته أبو سليمان]، والطبراني في الأوسط، واللفظ له (١٣٢٠) [باب الهمزة- من اسمه أحمد]، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي إسناده عبدالسلام بن هاشم وهو ضعيفٌ كما قال الهيثمي في المجمع (١٢٩٨٣) [كتاب الأدب- باب فيمن يملك نفسه عند الغضب].

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦١٩) [مسند معاذ بن أنس]، وأبو داود (٤٧٧٧) [كتاب الأدب- باب من كَظَمَ غيظاً]، والترمذي (٢٠٢١) [أبواب البر والصلة- بابٌ في كظم الغيظ]، وابن ماجه (٤١٨٦) [أبواب الزهد- باب الحلم]، وغيرهم من حديث معاذ بن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذي.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوالِ (١٧٦) [ذكر البعث والنشور]، والطبراني في الأوسط (٧٩٦٠) [باب الهمزة- من اسمه أحمد]، وأبو نعيم في الحلية (١٨٧/٦) [ترجمة غالب القطان]، والبيهقي في الشعب (٧٩٦٠)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الهيثمي في المجمع (١٨٧١٤) [كتاب أهل الجنة]: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله وثِّقوا على ضعف يسير في بعضهم.

(٦) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦١١٤) [كتاب الأدب- باب الحذر من الغضب]، ومسلمٌ (٦١١٤) [كتاب البرِّ والصِّلة والآداب- باب فضل من يملك نفسه عند الغضب]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وقالَ عُمَرُ: مَنِ اتَّقى اللهَ لم يَشْفِ غيظَه، ومَنْ خافَ اللهَ تَعالى لَمْ يَفعلْ ما يُريدُ. وقالَ لقمانُ لابنِه: يا بُنَيَّ لا تُذهِبْ ماءَ وجهِكَ بالمسألةِ، ولا تَشْفِ غيظَكَ بفضيحتِكَ، واعرفْ قدْرَكَ تنفعْكَ معيشتُكَ. وقالَ أبو حاتم: حِلْمُ ساعةٍ يدفعُ شرًّا كثيراً. وقدْ وَرَدَ أنَّ أويسَ بنَ الصامتِ ظَاهَرَ مِنْ زوجتِه خولةَ بنتِ ثعلبةَ في حالِ غضبِه(1).

واجتمعَ سفيانُ الثوريُّ وأبو خيثمةَ اليربوعيُّ والفُضَيْلُ بنُ عياضٍ فتَذَاكَرُوا الزهدَ فأجْمَعوا على أنَّ أفضلَ الأعمالِ الحِلمُ عندَ الغضبِ، والصبرُ عندَ الطمعِ.

وقالَ ابنُ المباركِ: كنتُ عندَ المنصورِ جالسًا فأمرَ بقتلِ رجلٍ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، إذَا كانَ يومُ القيامةِ نَادى منادٍ بينَ يدي اللهِ تعالى: مَنْ كانتْ له عندَ اللهِ يَدٌ فلْيتقدَّمْ، فلا يَتقَدَّمُ إلَيْه إلا مَنْ عَفا عن ذنبٍ، فأَمَرَ بإطلاقِه. وقالَ الأصمعيُّ: سمعتُ أعرابيًّا يقولُ: لا يوجدُ العجولُ محمودًا ولا الغضوبُ مسروراً. وعنْ أبي الحسنِ المدائنيِّ أنَّه قالَ: لَقِيَ رجلٌ حليمًا فضربَه على قدمِه ضربةً موجعةً فلمْ يُرَ لِلغَضبِ فيه أثرٌ، فقيلَ له في ذلكَ، فقالَ: أقمتُ ضربتَه مقامَ حجرٍ أعثرُ بهِ.

وعنْ سهلِ بنِ عبدِ اللهِ: لا يَبلغُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يكونَ لِعبادِ اللهِ كأرضٍ أذاهم علَيْها، ومنافعُهم منها.

حكايات في كظم الغيظ

وعنْ ميمونِ بنِ مهرانَ أنَّ جاريتَه جاءتْ ذاتَ يوم بصحفةٍ فيها مَرَقٌ حارٌّ وعندَه أضيافٌ فعثرتْ فصُبَّ المرقُ على رأسِه، فأرادَ ميمونٌ أنْ يَضربَها فقالتِ له الجاريةُ: يا مولايَ، اعملْ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، قالَ لها: قدْ فعلتُ، فقالت: اعْمَلْ بما بعْدَه ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قالَ: قدْ عفوتُ عنكِ، قالتِ الجاريةُ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قالَ ميمونٌ: قدْ أحسنتُ إلَيْكِ، فأنتِ حُرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالى، ولكِ ألفُ درهمٍ.

---

(1) أخرجه مطوَّلًا: أحمد (٢٧٣١٩)، وابن حبان (٤٢٧٩) [كتاب الطلاق- باب الظهار]، وغيرهما من حديث خولة بنت ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه: (فدخل علي يوما فراجعته في شيء، فغضب، وقال: أنت علي كظهر أمي). وكان هذا أول ظهار في الإسلام، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ الآيات [المجادلة ١-٤].

وعنْ عبدِ الرزاقِ قالَ: صبَّتْ جاريةٌ لعليِّ بن الحسينِ الماءَ ليتهيَّأَ إلى الصلاةِ، فسقَطَ الإبريقُ مِنْ يدِ الجاريةِ على وجهِهِ فشجَّهُ، فرَفَعَ عليُّ بنُ الحسينِ رأسَهُ إليْها، فقالتِ الجاريةُ: إنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يقولُ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، فقالَ لها: قدْ كظمتُ غيظي، قالتْ له: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قالَ لها: قدْ عَفا اللهُ عنكِ، قالتْ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قالَ: اذهبي فأنتِ حُرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالى.

وحُكِيَ عن بعضِ الملوكِ أنَّه كَتَبَ في ورقةٍ: "ارحمْ مَنْ في الأرضِ يرحمْكَ مَنْ في السماءِ، ويلٌ لحاكمِ الأرضِ مِنْ حاكمِ السماءِ، اذْكُرْني حينَ تغضبُ أذكرْكَ حينَ أغضبُ"، ثم دفَعَها إلى وزيرِهِ، وقالَ: إذا غَضِبْتُ فادفعْها إليَّ، فكانَ كُلَّما غضِبَ رفَعَها إليْه، فينظرُ فيها فيسكنُ غضبُه.

وحُكِيَ عن بعضِ الصلحاءِ أنَّه رأى رجلًا حمَّالًا ذا قوةٍ شديدةٍ مُحمَّرًا وجهُهُ مزبدًا شدقاهُ معربدًا، فقالَ الصالحُ: ما لهذا؟ فقيلَ: إنَّه شتَمَه شخصٌ، فقالَ الصالحُ: واعجبًا، هذا الشخصُ يَقدرُ أنْ يَحملَ أحمالًا ثقيلةً ولا يُطيقُ أنْ يَحملَ كلمةً. وكانَ الشَّعبيُّ مولعًا بهذا البيتِ:

لَيْسَتِ الأَحْلَامُ فِي حِينِ الرِّضَا * إِنَّمَا الأَحْلَامُ فِي حِينِ الغَضَبِ

وكانَ معاويةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ أحلمِ العربِ، ومن ثم كانَ يقولُ: ما غضبي على مَنْ أقْدِرُ عليْه، ومَنْ لا أقْدِرُ عليْه! أيْ إنَّ الغضبَ تعبٌ محضٌ لا فائدةَ فيه؛ لأنَّ المؤذيَ لي إن قدرتُ عليْه عاقَبْتُه إنْ شِئْتُ بلا غضبٍ، وإلا كان مجردُ الغضبِ محضَ تعبٍ؛ لأنَّه وحدَه لا يَشفي، فلا فائدةَ فيه على كُلِّ تقديرٍ، والمرادُ ما تعاطيتُ أسبابَه ولا دفعتُه؛ لأنَّه جِبلِّيٌّ.

وحُكِيَ عنْ موسى -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليْه- أنَّه لما قيلَ له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١] لفَّ كُمَّه على يده وتناولَها، فقيلَ له: لوْ أذِنَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فبما تَحْذَرُ، هلْ كانَ ينفعُكَ ذلكَ، فقالَ: لا، ولكنِّي عبدٌ ضعيفٌ، ومنْ ضَعُفَ خافَ(١).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (١٦٨٩٢) [سورة القصص- آية: ٣٢]. والشاهد في هذه الحكاية هو غلبة الطبع، كما سيشار إليه فيما يلي.

وكانَ معروفٌ العجليُّ يقولُ: ما تكلَّمْتُ في غضبي بما أندمُ علَيْه إذَا رضيتُ.

وهذا كُلُّه في الغضبِ الدنيويِّ لا الدينيِّ، ولِهذا كانَ المصطفى ﷺ إذَا انتُهكتْ حرماتُ اللهِ لا يقومُ لِغضبِه شيءٌ حتَّى يَنتصِرَ لِلحَقِّ[1]، وكانَ بَيْنَ عيْنَيْهِ عرقٌ يُدِرُّه -أيْ يُظهِرُه- الغضبُ[2].

وقدْ كانَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رجلًا حديدًا مجبولًا عَلى الحدَّةِ والخشونةِ والتغلُّبِ في كُلِّ شيءٍ، شديدَ الغضبِ للهِ ولِدينِه، فلمْ يتمالكْ حينَ رأى قومَه يَعبدونَ العجلَ بعدَما رأوا منَ الآياتِ العظامِ فأخَذَ برأسِ أخيه ولحيته يَجرُّه إلَيْه.

ويُحكى أنَّ الخَضِرَ لمَّا خَرَقَ السفينةَ غَضِبَ موسى، وأخذَ برجلِ الخَضِرِ لِيلقِيَه في البَحْرِ حتَّى ذَكَّرَهُ يوشعُ عهدَهُ معَ الخضرِ فخَلَّاه.

ومِنْ ثَمَّ ضَرَبَ الحجرَ الذي فرَّ بثوبِه حياءً مِنْ أنْ يُرى عريانًا[3]؛ لأنَّه كانَ كثيرَ الحياءِ ستيرًا، فآذاه جماعةٌ منْ بني إسرائيلَ، وقالوا ما يَستتِرُ هذا التستُّرَ إلا لِعيبٍ في جسدِه، إمَّا برصٌ أو أدرةٌ، وهي كِبَرُ الأُنْثَيَيْنِ، فانطلقَ ذاتَ يومَ يَغتسلُ في عينِ حبارَ منَ الشامِ وجعلَ ثيابَه على صخرةٍ، ففرَّ الحجرُ بثوبِه فتبعَه موسى، وهو يقولُ: "ثَوْبِي حَجَرُ" حتى انْتَهى إلى ملأٍ مِنْ بني إسرائيلَ فرأوه عريانًا، أحسنَ ما خلقَ اللهُ وبرَّأه مما يقولونَ، وكانتْ بنو إسرائيلَ تَغتسلُ عراةً يرى بعضُهم سوءةَ بعضٍ، وقامَ على الحجرِ فطفِقَ به ضربًا بعصاهُ، فواللهِ إنَّ الحجرَ لَندِيَ مِنْ أثَرِ ضربِه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا؛ لأنَّ اللهَ -تعالى- خلقَ فيه حياةً فصارَ كدابةٍ نفرتْ منْ راكبِها.

---

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (٣٥٦٠) [كتاب المناقب- باب صفة النبي ﷺ]، ومسلمٌ (٢٣٢٧) [كتاب الفضائل- باب مباعدته ﷺ للآثام.]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفيه: (وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها).

(٢) أخرجه مطوَّلًا الترمذي (٧) [باب ما جاء في خَلْق رسول الله ﷺ]، والطبرانيُّ في الكبير (١٥٥/١٢)، والبيهقي في الشعب (١٣٦٢)، وغيرهم من حديث هند بن أبي هالة.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٧٨) [كتاب الغسل- باب من اغتسل عريانا في الخلوة]، ومسلمٌ (٣٣٩) [كتاب الحيض- باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويُحتمَلُ أنَّ غضبَه على الحجرِ منْ بابِ غلبةِ الطِّبَاعِ، كما غَلَبَ عليه الطبعُ البشريُّ حتى لَفَّ كُمَّهُ على يدِه حينَ أخذَ العَصا.

و"حجرُ" منادًى مفردٌ محذوفٌ منه ياء النداءِ، و"ثوبي" منصوبٌ بفعلٍ مُضمرٍ، والتقديرُ: أعطِني ثوبي، أو اتركْ ثوْبي، فحُذِفَ الفعلُ لِدلالةِ الحالِ علَيْه، فإنْ قلتَ: كيفَ نادى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الحجرَ نداءَ مَنْ يَعقِلُ؟ أجيبَ: لأنَّه صدرَ عنه فعلُ مَنْ يَعقِلُ.

وأمَّا ما وردَ مِنْ أنه لمَّا جاءَه مَلَكُ الموتِ وقالَ له: أجِبْ ربَّكَ، لَطَمَهُ فَفَقَأَ عيْنَهُ[1]، فلأنَّه دَخَلَ علَيْه في صورةٍ لا يَعرفُها، وقيلَ: المرادُ بفقءِ العينِ هنا المجازُ بمَعْنى أنه ناظرَه وحاجَّهُ فغلبَه موسى بالحُجَّةِ، وضَعُفَ لِقولِه: فردَّ اللهُ علَيْهِ عيْنَه؛ لأنَّه وَقَعَ في الروايةِ أنَّ الملكَ رَجَعَ إلى اللهِ وقالَ: إنَّكَ أرسَلْتَني إلى عبدٍ لك لا يُريدُ الموتَ وفقأَ عيني، فردَّ اللهُ عليه عينَه، ثم قالَ: ارجعْ إلى عبْدي فقلْ: ألحياةَ تُريدُ، فإنْ كنتَ تُريدُها فضعْ يدَكَ على متنِ أيْ ظهرِ ثورٍ فما وارتْ يدُكَ مِنْ شعرِه فإنَّكَ تَعيشُ بها سنةً، فرجَعَ وأخبرَهُ، فقالَ: ثُمَّ مَاذا؟ قالَ: الموتُ، قالَ: فالآنَ مَنْ قريبٌ؟ قالَ: ربِّ أدْنِني منَ الأرضِ المقدسةِ رميةَ حجرٍ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: لو أنني عندَه لأريتُكم قبرَه إلى جانبِ الطريقِ عندَ الكثيبِ الأحمرِ.

قالَ وهبٌ: خرجَ موسى لبعضِ حاجتِه فمرَّ برهطٍ من الملائكةِ يَحفرونَ قبراً لم يَرَ شيئًا قطُّ أحسنَ منه ولا مثلَ ما فيه منَ الخضرةِ والنضرةِ، فقالَ لهم: يا ملائكةَ اللهِ لِمَنْ تَحفرونَ هذا القبرَ؟ قالوا: لعبدٍ كريمٍ على ربِّه، فقالَ: إنَّ لهذا العبدِ عندَ اللهِ لمنزلةً! ما رأيتُ كاليوم مضجعًا، فقالتِ الملائكةُ: يا صَفيَّ اللهِ أتحبُّ أنْ يكونَ لك، قالَ: ودِدْتُ، قالوا: فانزلْ فاضطجعْ فيه، ففعلَ وتوجَّه إلى ربِّه ثم تنفَّسَ أسهلَ تنفسٍ فقبضَ اللهُ روحَه[2]، ثم سَدَّتْ عليه الملائكةُ. وقيلَ: إنَّ ملكَ الموتِ أتاه بتفاحةٍ منَ الجنةِ فشمَّها فقبضَ اللهُ روحَهُ، وكانَ عمرُه مائةً وعشرينَ سنةً.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٣٣٩) [كتاب الجنائز- باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها]، ومسلمٌ، واللفظ له (٢٣٧٢) [كتاب الفضائل- باب من فضائل موسى ﷺ]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٠) [كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين]، وغيره.

بعثَ هارونُ الرشيدُ ليلًا الربيعَ إلى الشافعيِّ، فهجَمَ عليه من غيْرِ إذنٍ، وقالَ له: أجبْ، فقالَ الشافعيُّ: في مثلِ هذا الوقتِ، وبغيرِ إذنٍ؟ فقالَ: بذلك أُمِرْتُ، قالَ: فخرجتُ معه، فلمَّا صِرتُ ببابِ الدارِ قالَ لي: اجلسْ، ودَخلَ فقالَ له الرشيدُ: ما فعلَ محمدُ بنُ إدريسَ؟ قالَ: أحضرتُه، قالَ: أدخلْهُ، فأدْخلَني فتأمَّلَني ثم قالَ: يا محمدُ، أرعبْناكَ فانصرفْ راشدًا، يا ربيعُ احملْ معه بدُرَّةٍ دراهمَ، فلمَّا خرجْتُ قالَ الربيعُ: بالذي سَخَّرَ لك هذا الرجلَ ما الذي قلْتَ؟ فإني أحضرتُكَ، وأنا أرى موضعَ السيفِ مِنْ قَفاكَ، فقلتُ: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ يقولُ: سمعتُ نافعًا يقولُ: سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقولُ: دعا رسولُ اللهِ ﷺ بهذا الدعاءِ يومَ الأحزابِ فكُفِيَ، وهو "اللهمَّ إني أعوذُ بنورِ قدسِكَ وبركةِ طهارتِكَ وعظيمِ جلالِكَ من كُلِّ طارقٍ إلَّا طارقًا يطرقُ بخيرٍ، اللهمَّ أنتَ غيَاثي فَبِكَ أغوثُ، وأنتَ عِياذي فَبِكَ أعوذُ، وأنتَ مَلاذي فَبِكَ ألوذُ، يا مَنْ ذَلَّتْ له رقابُ الجبابرةِ، وخضعتْ له مقاليدُ الفراعنةِ، أجرْني من خزيِكَ وعقوبتِكَ، واحفظْني في ليلي ونَهاري ونَوْمي وقَراري، لا إلَهَ إلا أنتَ تعظيمًا لوجهِكَ يا ربُّ، وتكريمًا وتشريفًا لسبحاتِ عرشِكَ، فاصرفْ عني شرَّ عبادِكَ، واجعلْني في حفظِ عنايتِكَ وسرادقاتِ حفظِكَ، وعُدْ عليَّ بخيرٍ يا أرحمَ الراحمينَ".

وفي روايةٍ عنِ الفضلِ بنِ الربيعِ صاحبِ هارونَ أنَّ الشافعيَّ قالَ له: قلتُ: "شهِدَ اللهُ أنَّه لا إله إلا هو، اللهمَّ إنِّي أعوذُ بنورِ قدسِكَ، وبركةِ طهارتِكَ، وبعظمةِ جلالِكَ، مِنْ كلِّ عاهةٍ وآفةٍ وطارقِ الإنسِ والجنِّ إلا طارقًا يَطرُقُ بخيرٍ يا أرحمَ الراحمينَ، اللهمَّ بِكَ ملاذي قبلَ أنْ ألوذَ، وبكَ غِياثي قبلَ أنْ أغوثَ، يا من ذلَّتْ له رقابُ الفراعنةِ، وخضعتْ له مقاليدُ الجبابرةِ، اللهمَّ ذكرُكَ شِعاري ودِثاري ونومي وقَراري، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، اضْربْ عليَّ سرادقاتِ حفظِكَ، وقِني وحُفَّني برحمتِكَ يا رحمنُ".

قالَ الفضلُ: فكتبتُها وجعلتُها في رِدائي، وكانَ الرشيدُ كثيرَ الغضبِ عليَّ، وكانَ كلَّما هَمَّ أنْ يَغضَبَ حرَّكْتُها في وجهِهِ فيَرضى[1].

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية (٩/٧٨) [ترجمة الإمام الشافعي].

واعلمْ أنَّ الغضبَ له دواءٌ مانعٌ ودواءٌ رافعٌ، فالمانعُ بذكرِ فضيلةِ الحلم، وما جاءَ في كظمِ الغيظِ من الفضلِ، وما وَرَدَ في عاقبةِ ثمرةِ الغضبِ مِنَ الوعيدِ، والرَّافِعُ بأنْ يَستعيذَ مِنَ الشيطانِ ويَتوضَّأَ ويَغتسِلَ بالماءِ البارِدِ؛ لأنَّه مِنَ الشيطانِ، والشيطانُ منَ النارِ، والنارُ يطفئُها الماءُ[1]، وإنْ غضِبَ وهو قائمٌ قَعَدَ أو اضطجعَ[2].

وأقوى الأشياءِ في منعِه ورفعِه التوحيدُ الحقيقيُّ، وهو اعتقادُ أنَّه لا فاعلَ حقيقةً في الوجودِ إلا اللهُ تعالى، وأنَّ الخلقَ آلاتٌ ووسائطُ كبرى، وهيَ من له عقلٌ واختيارٌ كالإنسانِ، وصُغْرى وهي ما انتفيَا عنهُ كالعصَا المضروبِ بها، ووُسْطى وهي مَنْ فيها الثاني فقطْ كالدوابِّ، ومنْ ثم قالَ أنسٌ: خدمتُ المصطفى ﷺ عشْرَ سنينَ فما قالَ لي لِشيءٍ فعلتُهُ: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيءٍ تركتُه لِمَ تركْتَه؟ ولكنْ يقولُ: قدَّرَ اللهُ وما شاءَ فعَلَ، ولوْ قَدَّرَ لَكانَ[3]، وما ذاكَ إلا لكمالِ معرفتِه بأنَّه لا فاعلَ، ولا معطيَ، ولا مانعَ، ولا نافعَ، ولا ضارَّ إلا اللهُ تعالى.

(رَوَاهُ البُخَارِيُّ) في الأدبِ، وهو مِنْ جوامعِ كلِمِه التي خُصَّ بها، ولهذا قالَ ابنُ السُّنِّيِّ: جُمِعَ في هذهِ اللفظةِ خيرُ الدُّنيا والآخرةِ.

***

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٢/١٣٠) [ترجمة أبي مسلم الخولاني].

(٢) أخرجه معمر بن راشد في جامعه (المصنف: ٧٩٣٧) [باب الغضب والغيظ وما جاء فيه]، ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٧٩٣٧) [فصل في ترك الغضب]، وغيرهما عن الحسن مرسلًا.

(٣) حديث متفق عليه، وتقدم تخريجه، انظر ص ٣٣٢.

الحديثُ السابعَ عشرَ

١٧. عنْ أبي يَعلى شدَّادِ بنِ أوسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عنْ النَّبيِّ ﷺ قالَ: إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلْتُم فأحْسِنوا القِتْلةَ، وإذا ذَبحْتُم فأحسِنوا الذِّبْحَة، ولْيُحِدَّ أحدُكُم شَفْرَتَه، ولْيُرِحْ ذَبيحَته. رواهُ مُسلِمٌ.

التعريف بشداد ابن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومناقبه

(**عَنْ أَبِي يَعْلَى**) وقيلَ: أبي عبدِ الرحمنِ (**شَدَّادِ**) بالتشديدِ (**ابنِ أَوْسٍ**) -بفتحٍ فسكونٍ فمهملةٍ- ابنِ ثابتِ بنِ المنذرِ بنِ حرامِ بنِ عمروِ بنِ زيدِ مناةِ بنِ عديٍّ بنِ عمروِ بنِ مالكِ ابنِ النجارِ الأنصاريِّ، وهو ابنُ أخي حسانِ بنِ ثابتٍ، قيلَ: إنه شَهِدَ بدراً، وهو غلطٌ، وإنما البدريُّ والِدُه.

وكانَ شدَّادٌ إذَا دخلَ الفراشَ يتقلَّبُ علَيْه ولا يأتيه النومُ، فيقولُ: اللهمَّ إنَّ النارَ قدْ أسهرتْني وأذهبتْ عنِّي النومَ، ثم يقومُ يُصلِّي حتَّى يُصبِحَ.

وكان يقولُ: إنَّكم لمْ تَروْا مِنَ الخيرِ إلَّا أسبابَه، ولمْ تَروْا مِنَ الشرِّ إلَّا أسبابَه، الخيرُ كلُّه بحذافيرِه في الجنَّة، والشرُّ كلُّه بحذافيرِه في النَّارِ، وإنَّ الدُّنيا عَرَضٌ حاضِرٌ، يأكلُ مِنْها البارُّ والفاجرُ، والآخرةُ وَعْدٌ صادقٌ، يَحكُمُ فيها ملكٌ قادر، ولِكُلٍّ بَنونَ، فكونوا مِنْ أبناءِ الآخرةِ، ولا تَكونوا من أبناءِ الدُّنْيا.

وروِيَ عنه أنه قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: إذا كَنَزَ النَّاسُ الذهبَ والفضةَ فاكنزوا هؤلاءِ الكلماتِ، اللَّهُمَّ إني أسأَلُكَ الثباتَ في الأمرِ، والعزيمةَ على الرُّشْدِ، وأسأَلُكَ شُكْرَ نعمتِكَ، وحُسْنَ عبادتِكَ، وأسأَلُكَ من خيرِ ما تَعْلَمُ، وأعوذُ بكَ من شرِّ ما تَعْلَمُ، وأستغفرُكَ لِما تَعْلَمُ، إنَّكَ أنتَ علَّامُ الغيوبِ[١].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٥٨) [كتاب الدعاء- ما ذكر فيمن سأل النبي ﷺ أن يعلمه ما يدعو به فعلمه]، وأحمد (١٧١١٤) [مسند الشاميين- حديث شداد بن أوس]، وأبو نعيم في الحلية (٦/٧٧)، وغيرهم.

وعنْ أبي الدَّرْداءِ أنه كانَ يقولُ: إنَّ لكلِّ أمةٍ فقيهًا، وإنَّ فقيهَ هذه الأمةِ شدَّادُ بنُ أوسٍ[1]، وإنَّ من الناسِ مَنْ يُؤتى عِلمًا، ولا يُؤْتى حِلمًا، وإنَّ أبا يَعلى قدْ أوتيَ عِلمًا وحِلمًا[2].

قالَ ابنُ سعدٍ: نزلَ شدَّادٌ فلسطينَ، وماتَ بها سنةَ ثمانٍ وخمسينَ، وقيلَ: سنةَ إحدى وأربعينَ، وقيلَ: سنةَ أربعٍ وستينَ، وهو ابنُ خمسٍ وسبعينَ سنةً، ولمَّا حضرتْهُ الوفاةُ قالَ: إنَّ أخوفَ ما أخافُ على هذهِ الأمةِ الرياءُ والشهوةُ الخفيَّةُ.

***

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللهَ كَتَبَ**) أيْ أوجبَ وفَرَضَ، نحو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أو طلَبَ، والأوَّلُ هو مَوْضوعُ "كَتَبَ" عندَ أكثرِ الفقهاءِ والأصوليِّينَ، والثاني: أَوْلى؛ لأنَّ الإحسانَ تارةً يكونُ واجبًا كقطعِ الحلقومِ والودجينِ في الذبحِ، وتارةً يكونُ مندوبًا كإحدادِ الشفرةِ.

(**الإِحْسَانَ**) مصدرُ "أَحْسَنَ" إذا أتى بالشيءِ حَسَنًا، وهو ما حسَّنَهُ الشرعُ لا العقلُ، خلافًا لِلمُعتزِلةِ، والمرادُ به هنا تحسينُ الأعمالِ المشروعةِ بأنْ يأتيَ بها عَلى الوجهِ المرضيِّ بأنْ يُوقِعَ الفعلَ على سُنَنِ الشرعِ لا مُجرَّدِ الإنعامِ على الغيرِ؛ لأنَّ الأوَّلَ أعمُّ نفعًا وأكثرُ فائدةً؛ لأنَّ الإحسانَ في الفعلِ يَعودُ منه نفعٌ علَيْهِ وعلى غيرِه.

الحث على الإحسان إلى كل شيء

(**عَلَى**) فِعْلِ (**كُلِّ شَيْءٍ**)، الأَوْلَى كما قالَ القرطبيُّ وغيرُه أنَّ "عَلَى" هنا بمعْنى "في" كما في قولِه ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي في ملكِه، ويقالُ: "كَانَ كذا على عهدِ فلانٍ" أيْ في عهدِه، ويُحتَمَلُ أنَّها على بابِها، والتقديرُ كَتَبَ الإحسانَ في الولايةِ على كُلِّ شيءٍ، أوْ أنَّ المرادَ بالشيءِ المكلَّفِ، أيْ كتبَ الإحسانَ على كُلِّ مُكلَّفٍ.

وقولُه "على كُلِّ شيءٍ" قضيةٌ كُلِّيَّةٌ مُسوَّرَةٌ بِـ"كُلّ" شاملةٌ لِجميعِ جزئيَّاتِ الدِّينِ:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٢٦٥/١) [ترجمة شداد بن أوس]، وغيره.

(٢) أخرجه ابن عساكر "تارخ دمشق" (٤١٠/٢٢) [ترجمة شداد بن أوس] من حديث أبي الدرداء.

فالإحسانُ إلى نفسِه أنْ لا يُورِدَها مواردَ السوءِ، ولا يَظلِمَها بمعصيةٍ، ولا يُطيعَها في كُلِّ ما تُريدُ، ولا يُهنِّيَها بشفاء غيظٍ. وإلى أهلِه أنْ يُحسِنَ عِشرتَهم، ولا يُكلِّفَهم ما لا يُطيقونَ، ولا يُضيِّعَهم، قالَ ﷺ: (كفى بالمرءِ إثمًا أنْ يُضيِّعَ من يعولُ)[1].

وإلى خَدَمِهِ بأنْ لا يُكلِّفَهم مِنَ العمل ما لا يُطيقونَ، ولا يُضيِّعَهم. وإلى إخوانه أنْ لا يَغشَّهم، بل ينصحُ لهم، ويُحسِنُ صحبتَهم، ويَحمِلُ أذاهم، ويُكرِمُ مَثْواهُمْ.

وإلى سائرِ النَّاسِ أنْ يُعلِّمَهم ما ينفعُهم في معاشِهم ومعادِهم، وإرشادَهم سبلَ الخيراتِ، واجتنابَ المنكراتِ، والدعاءَ لِهداتِهم بالتوفيقِ ولكفارِهم بالهدايةِ.

وإلى الأنبياءِ -صَلواتُ اللهِ وسلامُه علَيْهم- أنْ يؤمِنَ بِهم وبما جاءُوا بهِ عنْ ربِّهم، وأنْ يَعتقِدَ كَمالَهم وعِصْمَتَهم منَ الكبائرِ والصغائرِ، وأنَّهم صفوةُ اللهِ وخُلَّصُ عبادِه.

[ولما كان العلماءُ وَرثَةَ الأنبياءِ، ومِمَّا ورثوه منهُمْ تعليمُ الناسِ الإحسانَ وكيفيَّتَه، والأمرُ به إلى كلِّ شيءٍ][2] ألْهَمَ سبحانَه مخلوقاتِه بالاستغفارِ للعلماءِ، فإنَّ لَهُم بِمِثْلِ فِعلِهم، لِقولِه عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إنَّ العالِمَ لَيَستغفرُ له مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماءِ)[3]، وما في التنزيلِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴾ الآية [الشورى: ٥].

وإلى الملائكةِ أنْ يؤمِنَ بِهم، وأنهم عبادٌ مُكرَمونَ لا يَعصونَ اللهَ ما أمرَهم ويَفعلونَ ما يُؤمَرونَ، وأنْ يُحسِنَ عِشْرَةَ الحفظةِ مِنْهم بأنْ لا يَفعلَ بحضرتِهم ما يَكرهونَ.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ النَّسائيُّ في "الكبرى" (٩١٣١) [كتاب عشرة النساء- إثم من ضيع عياله]، والحاكم في "المستدرك" (٤/٥٠٠) [كتاب الفتن والملاحم]، وغيرهما. وأخرجه أبو داود (١٦٩٢) [كتاب الزكاة- باب في صلة الرحم]، من حديث: عبد الله بن عمرو ولفظه: (... أن يضيع من يقوت). والحديث عند مسلمٌ (٩٩٦) [كتاب الزكاة- باب فضل النفقة على العيال] بلفظ: (كفى بالمرء إثما أن يحبس عمَّن يملك قوته).

(٢) سقطت هذه العبارة من المخطوط والمطبوع، فأثبتناها كما في حاشية النبراوي على الأربعين النووية، وبدونها لا يستقيم السياق. أيضا فقد اختل موضع فقرتها بين الفقرات الأخرى في المخطوط والمطبوع.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٧١٥) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي الدرداء]، والترمذي (٢٦٨٢) [كتاب العلم- باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة]، وابن ماجه (٢٢٣) [أبواب السنة- باب فضل العلماء والحث على طلب العلم]، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإسناده حسن.

وإلى الجنِّ إنِ اتَّفقَ ظهورُهم بأنْ يَدعوهُمْ إلى الخيرِ وتركِ الشرِّ، وإلى شياطينِهم بالدُّعاءِ لهمْ كَكُفَّارِ الإنسِ بالإسلامِ، وقدْ أكرمَهم الشارعُ وأقْراهُمْ بأنْ جَعَلَ العظمَ زادَهم والروثَ لدوابِّهم[1]، ولنا فيهِ أسوةٌ حسنةٌ.

وإلى الحيوانِ بأنْ لا يُجيعَهُ ولا يُعطِشَه ولا يَضربَه بغيرِ موجبٍ، ولا يُكلِّفَه مِنَ العملِ ما لا يُطيقُه، ولا يَستمرَّ راكبًا على الدابَّةِ وهي واقفةٌ إلَّا لِحاجةٍ، وقدْ وَرَدَ أنَّه ﷺ رأى في النارِ امرأةً حميريَّةً سوداءَ طويلةً تُعذَّبُ بِسببِ هرةٍ رَبطتْها فلَمْ تُطعمْها، ولَمْ تَسقِها، ولم تَدَعْها تأكلُ مِنْ خشاشِ الأرضِ[2] حتَّى ماتتْ، وأنَّ تلكَ الهرةَ تَنهشُها في قُبُلِها ودُبُرِها، تنهشُها إذا أقبلتْ، وتنهشُها إذا أدبرتْ. و"خشاشُ الأرضِ" -بمعجماتٍ- حشراتُها.

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ: ركبتُ مرةً حِمارًا فضربتُه مرتيْنِ أو ثلاثًا فرفَعَ رأسَه ونَظَرَ إليَّ، وقالَ: يا أبا سليمانَ، القِصاصُ يومَ القيامةِ، فإنْ شئتَ فأَقلِلْ، وإنْ شئتَ فأَكثِرْ، قالَ: فقلتُ: لا أضرِبُ شيئًا بعدَه.

فمَنْ أحْسَنَ في ذلكَ كُلِّه فقدْ أوتِيَ خيراً كثيراً ووُقِيَ شرّاً كبيراً.

وقولُه: "عَلَى كُلِّ شَيْءٍ" قاعدةُ الحديثِ الكُلِّيَّةُ، ثم ذَكَرَ من جزئياتِهِ التخفيفَ في القتلِ والذبحِ، إمَّا لأنَّ سببَ الحديثِ الذي هو فعلُ الجاهليَّةِ اقتضاهُ؛ فإنَّهم كانوا يُمثِّلونَ في القتلِ بجَدْعِ الأنفِ، وصَلْمِ الأذنِ، وقطْعِ اليدِ والرجلِ، وبقرِ البطنِ، وشقِّ الكبدِ، وكانوا يذبحونَ بالمُدى الكالَّةِ والعظمِ والقصبِ، مما يُعذِّبُ الحيوانَ، وإمَّا لأنَّ القتلَ والذبحَ غايةُ ما يُفعَلُ مِنَ الأذى، فإذا طُلِبَ الإحسانُ فيهما، ففي غيرِهما أَوْلى.

***

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٨٦٠) [كتاب مناقب الأنصار- باب ذكر الجنِّ]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفيه: ما بال العظم والروثة؟ قال: (هما مِن طعام الجنِّ، وإنه أتاني وفد جِنِّ نَصِيبين، ونعم الجنُّ، فسألوني الزاد، فدعوتُ الله لهم أن لا يمرُّوا بعظم ولا بروثة إلَّا وجدوا عليها طعامًا).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٣٦٥) [كتاب المساقاة- باب فضل سقي الماء]، ومسلمٌ (٢٢٤٢) [كتاب السلام- باب تحريم قتل الهرة]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فقالَ (فَإِذَا قَتَلْتُمْ) قِصاصًا أَوْ حَدًّا؛ إِذْ لا قَتْلَ في الشرعِ غيرُ ذلك، (فَأَحْسِنُوا) يُستثنى منه قَتْلُ قاطعِ الطريقِ بالصبرِ، والزاني المُحْصَنِ بالرجْمِ لورودِ النص بذلك، قيلَ: ونحو حشراتٍ وسباعٍ والفواسقِ الخمسِ؛ لأنها مؤذيةٌ، وقدْ خرجَتْ بالنَّصِّ[1]، فلا حظَّ لها في الإحسانِ، وفيه نَظَرٌ؛ إِذْ جوازُ قتلِها أو وجوبُه لا يُنافي إحسانَ كيفيَّتِه.

الإحسان في القتل والذبح

(القِتْلَةَ) -بِكَسْرِ القافِ- هَيئةِ القَتْلِ، مثلِ الجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ -بِكَسْرِ الجيمِ والراءِ- هيئةِ الجلوسِ والركوبِ، وبالفتحِ المصْدَرُ، وإحسانُ القتلِ اختيارُ أسهلِ الطرقِ وأخفِّها إيلامًا، وأسرعِها إزهاقًا، وأسهلُ وجوهِ قتلِ الآدميِّ ضربُه بالسيفِ في العنقِ.

ولذا يُكرَهُ قتلُ القملِ والبقِّ والبراغيثِ وسائرِ الحشراتِ بالنَّارِ؛ لأنَّه مِنَ التعذيبِ، وفي الحديثِ: (لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ)[2]، قالَ الجزوليُّ[3] وابنُ ناجي: وهذا ما لَمْ يُضْطَرَّ لِكثرتِها فيجوزُ حرقُ ذلك بالنَّارِ؛ لأنَّ في تتبُّعِها بغيرِ النارِ حرجًا ومشقَّةً، ويَجوزُ نشرُها للشَّمْسِ، قالَ الأقفهسيُّ: وقتلُها بغيرِ النَّارِ بالعفصِ والعركِ جائزٌ لقولِه ﷺ وقدْ سُئِلَ عن حشراتِ الأرضِ تُؤذي أحدًا فقالَ: (ما يؤذيكَ فلكَ أذيتُهُ قبلَ أنْ يُؤذيَكَ)[4]، وما خُلِقَ للإذايةِ فابتداؤه بالإذايةِ جائزٌ.

---

(١) أخرج البخاري (٣٣١٤) [كتاب بدء الخلق- باب: خمس من الدواب فواسق، يقتلن في الحرم]، ومسلم (١١٩٨) [كتاب الحجِّ- باب ما يندب للمحرم وغيره قتله]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا بلفظ: (خمس فواسق، يُقتلن في الحَرَم: الفأرة، والعقرب، والحديا، والغراب، والكلب العقور)، وفي بعض الروايات: (يُقتلن في الحلِّ والحرم).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٩٤١٨) [كتاب الجهاد- باب القتل بالنار]، أحمد (١٦٠٣٤) [مسند المكيين- حديث حمزة بن عمرو الأسلمي]، وأبو داود (٢٦٧٣) [كتاب الجهاد- باب في كراهية حرق العدو بالنار]، وأبو يعلى (١٥٣٦) [مسند حمزة الأسلمي]، وغيرهم من حديث حمزة بن عمرو الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٢٩٥٤) [كتاب الجهاد والسير- باب التوديع]، وغيره، وفيه: (وإنَّ النَّار لا يُعذِّب بها إلا الله عزَّ وجلَّ)، وفي الباب عن ابن عبَّاس.

(٣) العلامة أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي، شيخ المدونة والرسالة، من أهل فاس، وكان أعلم الناس في عصره بمذهب مالك، وكان يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة، وقُيِّدت عنه على الرسالة ثلاثة تقاييد، انتفع الناس بها بعده، تُوفِّي سنة (٧٤١). انظر: نيل الابتهاج (١/٢٤٤)، شجرة النور (رقم ٨٠٣).

(٤) لم أجده بهذا اللفظ فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(**وَإِذَا ذَبَحْتُمْ**) ما يَحِلُّ ذَبْحُهُ مِنَ البهائمِ (**فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ**) بالكسرِ أيْ هيئةَ الذَّبْحِ، وجاءَ في بعضِ الرواياتِ (فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ)[1] بفتحِ الذَّالِ وبكسرِها، وهو المصدرُ، وهيَ الَّتي في أكثرِ نسخِ صحيحِ مسلمٍ، فلا تؤكلُ المنخنقةُ والموقوذةُ والمترديةُ والنطيحةُ وما ذُكِرَ معها.

وإحسانُ الذبحِ في البهائمِ الرِّفقُ بها، فلا يَصرَعُها بعنفٍ، وإيضاحُ المُحلِّ بأن يأخذَ بيدِه اليُسْرى جلدَ حلقِها مِنْ لَحْيِها الأسفلِ بالصوفِ أو غيرِه حتى يَظهَرَ مِنَ البشرةِ موضعُ الشفرةِ، وضَجْعُ ما يُرادُ ذبحُه على شقِّه الأيسرِ؛ لأنَّه أمْكَنُ للذابحِ حيثُ كانَ يَفعَلُ باليمينِ أكثرَ، أو كانَ أضْبَطَ، وهو الذي يَفعَلُ بيديه جميعًا، وأمَّا الأعسرُ فيُضجِعُها على الأيمنِ، والنيَّةُ والتسميةُ معَ الذِّكرِ وقطعِ الحلقومِ والودجينِ، ويكونُ ذلك مِنَ المقدمِ لا مِنَ القفا.

***

(**وَلْيُحِدَّ**) بسكونِ اللامِ للأمرِ، وبضمِّ الياءِ، مِنْ "أَحَدَّ"، وبفتحِها مِنْ "حَدَّ"، (**أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ**) -بفتحِ الشِّينِ المعجمةِ، وقدْ تُضمُّ- وهي السكينُ العريضةُ، وأصلُ الشفرةِ حدُّ السكينِ، وشفرةُ السيفِ حَدُّهُ، وشفيرُ جهنَّمَ حَرْفُها، وشفيرُ الوادي طرفُهُ، وشفيرُ العينِ منبتُ شعرِ الجفنِ، وحينئذٍ فتسميةُ السكينِ بالشفرةِ مِنْ بابِ تسميةِ الشيءِ باسمِ جزئِه.

والإحدادُ واجبٌ في الكالَّة[2] ومندوبٌ في غيرِها، ويَنبغي مواراتُها عنها في حالِ إحدادِها، فقدْ روى الخلالُ[3] والطبرانيُّ أنَّه ﷺ مرَّ برجلٍ واضعٍ رِجْلَه على صفحةِ شاةٍ، وهو يُحِدُّ شفرتَه، وهيَ تلحظُ إليه ببصرِها، قالَ: (أفلا قبْلَ هذا! تريدُ أنْ تُميتَها موتتينِ، هلَّا أحددْتَ شفرتَكَ قبلَ أنْ تُضجِعَها)[4].

---

(١) أخرجها مسلمٌ (١٩٥٥) [كتاب الصيد والذبائح- باب الأمر بإحسان الذبح والقتل]، وغيره.

(٢) الشفرة الغير حادة أو الغير قاطعة.

(٣) شيخ الحنابلة الحافظ الفقيه، أحمد بن محمَّد بن هارون أبو بكر المعروف بالخلال، له التصانيف الدائرة والكتب السائرة من ذلك: الجامع، والعلل، والسنة، والطبقات، وتفسير الغريب، وأخلاق أحمد وغير ذلك، توفي سنة (٣١١). طبقات الحنابلة (١٢/٢) سير أعلام النبلاء (١٨٣/١١).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٢/١١)، والأوسط (٣٥٩٠)، والبيهقي (١٩١٤١) [كتاب الضحايا- باب الذكاة بالحديد وبما يكون أخف على المذكي]، وغيرهما من حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

وعنْ مالكٍ أنَّ عُمَرَ رأى رجلًا يَحُدُّ شفرتَه، وقدْ أخَذَ شاةً لِيذبحَها فضربَه بالدُّرَّةِ وقالَ: أتعذِّبُ الروحَ؟! ألا فعلتَ هذا قبلَ أنْ تأخذَها، وقدْ نَهى ﷺ عنْ صبرِ البهائمِ(١)، ولَعَنَ مَنِ اتخذَ شيئًا فيه الروحُ غَرَضًا(٢).

***

(وَلْيُرِحْ) بضمِّ المثناةِ تحتُ (ذَبِيحَتَهُ) بِسَقْيِها عندَ الذبحِ، وإضجاعِها بمكانٍ سهلٍ غيرِ وعرٍ، وتعجيلِ إمرارِ السكينِ عَلَيْها بقوةٍ لِيَسرُعَ موتُها، وبالإمهالِ بِسلْخِها حتى تبردَ، وأنْ لا يُحِدَّ السكينَ بحضرتِها كما مرَّ.

ولا يُجرَّها مِنْ موضعٍ لآخرَ، فقدْ روى ابنُ ماجهْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مرَّ برجلٍ وهو يَجُرُّ شاةً بأُذنِها، فقالَ: (دعْ أُذنَها، وخذْ بسالفتِها)(٣) أيْ وهو مُقدَّمُ العنقِ.

وروى عبدُ الرزاقِ عنِ الوضينِ بنِ عطاءٍ أنَّ جزارًا فتحَ بابًا على شاةٍ لِيذبحَها فانفلتتْ منه حتَّى جاءتِ النَّبيَّ ﷺ، فاتَّبَعَها فأخذَ يسحبُها برجلِها، فقالَ لَها النبيُّ ﷺ: (اصبري لأمرِ اللهِ، وأنتَ يا جزَّارُ فسُقْها إلى الموتِ سوقًا رفيقًا)(٤).

ورويَ عنْ عُمَرَ أنَّه رأى رجلًا يَجُرُّ شاةً برجلِها لِيذبحَها فضربَه بالدُّرَّةِ، وقالَ: قُدْها للموتِ قودًا جميلًا(٥)، وعنِ الإمامِ مالكٍ جوازُ جرِّها إلى مذبحِها.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٥١٣) [كتاب الذَّبائح والصيد- باب ما يُكره مِن المُثلة]، ومسلمٌ (١٩٥٦) [كتاب الصيد والذبائح- باب النهي عن صبر البهائم]، وغيرهما من حديث أنسٍ رضي الله عنه. والمراد بصبر البهائم: حبسها وهي حية لتقتل بالرمي ونحوه.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٥١٥) [كتاب الذَّبائح والصيد- باب ما يُكره مِن المُثلة]، ومسلمٌ (١٩٥٨) [كتاب الصيد والذبائح- باب النهي عن صبر البهائم]، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهذا لفظ مسلم. ومعنى اتخاذ شيء فيه الروح غرضا أن يتخذ الحيوان الحي غرضا للرمي، أي للتصويب عليه.

(٣) سنَن ابن ماجه (٣١٧١) [أبواب الذبائح- باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح] من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) مصنف عبدالرزاق (٨٦٠٩) [كتاب المناسك - باب سُنَّة الذَّبح]، وهو مُعضَلٌ، والوضين بن عطاء تُكلِّم فيه. انظر: "تهذيب التهذيب" لابن حجر (١٢١/١١).

(٥) مصنف عبدالرزاق (٨٦٠٥) [كتاب المناسك - باب سُنَّة الذَّبح].

وعنْ أبي الحسنِ أنَّه يُكرَهُ ذبحُ شاةٍ وأخرى تَنظرُ سيَّما بنتُها أو أمُّها، فعنْ نوفٍ البكاليِّ أنَّ صِدِّيقًا ذبحَ عجلًا بين يدَيْ أُمِّه فحِيلَ، وفي روايةٍ فيَبِستْ يدُه، فبَيْنَما هو تحتَ شجرةٍ وفيها وكرٌ فيه فرخٌ، فوقعَ الفرخُ منه للأرضِ ففتحَ فاه وجعلَ يصي، فرَحِمه وأخذَه وأعادَه لِوكرِه، فردَّ اللهُ إلَيْه عقلَه أو يدَه كما كانتْ.

ومنَ الإحسانِ إلَيْها أنْ لا تُحمَّلَ فوقَ طاقتِها، ولا تُرْكَبَ واقفةً إلَّا لحاجةٍ، ولا يُحلَبَ منها ما يَضرُّ بولدِها، ولا يُشوى السمكُ والجرادُ حتى يموتَ.

والذبيحةُ "فَعِيلَةٌ" بمَعْنَى "مَفْعُولَةٍ" أيْ مذبوحة باعتبارِ ما تَؤولُ إلَيْه، وتاؤها للنقلِ منَ الوصفيةِ إلى الاسمية؛ لأنَّ العربَ إذا وصفوا بـ"فَعِيلٍ" مؤنثًا وذَكَّروا الموصوفَ حذفوا التاءَ مِنْ "فَعِيلٍ" اكتفاءً بتأنيثِ الموصوفِ فقالوا: امرأةٌ قتيلٌ، وعينٌ كحيلٌ، وشاةٌ ذبيحٌ، فإذَا حذفوا الموصوفَ أثبتوا التاءَ فقالوا: قتيلةُ بني فلانٍ وذبيحتُهم؛ لعدم دالٍّ على التأنيثِ حينئذٍ، ويُعرَبُ حينئذٍ اسمًا لا صفةً، فاتضحَ أنَّ التاءَ للنقلِ مِنَ الوصفيَّةِ إلى الاسميَّةِ، فهو مِنْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ إحدادَ الشفرةِ وإراحةَ الذبيحةِ منْ جملةِ الإحسانِ إلَيْها إلَّا أنَّه خصَّهُ بالذكرِ لبيانِ فائدتِه؛ إذِ الذبحُ بآلةٍ كالَّةٍ يُعذِّبُ الذبيحةَ، وربَّما أدَّى ذلك لِتحريمِها لِعدمِ حصولِ الذكاةِ الشرعيَّةِ.

(**رَوَاهُ مُسْلِمٌ**)، وكذا الإمامُ أحمدُ وأصحابُ السُّنَنِ الأربعةِ، وهو مِنْ قواعدِ الدِّينِ العامَّةِ.

***

الحديثُ الثامنَ عشرَ

١٨. عن أبي ذرٍّ جُندُبِ بنِ جُنادةَ، وأبي عبدِ الرحمنِ مُعاذِ بنِ جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: اتَّقِ اللهَ حَيثُمَا كُنتَ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحَسنَةَ تَمْحُها، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ. رواهُ الترمذيُّ وقالَ: حديثٌ حسنٌ، وفي بعضِ النُّسَخِ: حَسَنٌ صحيح.

التعريف بأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومناقبه

(عَنْ أَبِي ذَرٍّ) بالذَّالِ المعجمةِ المفتوحةِ وتشديدِ الراءِ (جُنْدُبِ بنِ جُنادةَ) بضمِّ الجيمِ فيهما وتثليثِ دالِ الأولِ، وقيلَ: اسمُه بُريرٌ -بضمِّ الباءِ الموحدةِ وراءٍ مكررةٍ، ابنُ جندبٍ، وقيلَ: جندبُ ابنُ عبدِ اللهِ، وقيلَ: جندبُ بنُ السكنِ، والمشهورُ جندبُ بنُ جُنادةَ بنِ سفيانَ بنِ عبيدِ بنِ الوقيعةِ بنِ حرامِ بنِ غفارِ بنِ مليلِ بنِ حمزةَ بنِ بكرِ بنِ عبدِ منافِ بنِ كنانةَ بنِ خزيمةَ بنِ مدركةَ ابنِ إلياسَ بنِ مضرِ بنِ نزارِ بنِ معدِ بنِ عدنانَ، قالَه ابنُ الكلبيِّ، ويُقالُ: جندبُ بنُ جنادةَ بنِ قيسِ بنِ عمرِو بنِ مليلِ بنِ صغيرِ بنِ حرامِ بنِ غفارٍ.

وتواضُعُهُ وزُهدُه مُشبَّهانِ في الحديثِ بتواضعِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وزُهْدِه[1]، وكانَ يتعبَّدُ قبلَ مبعثِ رسولِ اللهِ ﷺ قديمًا، ويتوجَّهُ أينما وجَّهَهُ اللهُ، فانطلقَ هو وأخوه أنيسٌ حتى نَزلا بحضرةِ مكةَ، فذهبَ أخوه وأبطأَ عليْه ثم جاءَ، فقالَ له: ما حَبَسَكَ؟ قالَ: لَقيتُ رجلًا يَزعُمُ أَنَّهُ أرسلَه اللهُ على دينِكَ، فقالَ له: ما تقولُ الناسُ فيه؟ قالَ: يقولونَ: إنَّه شاعرٌ وساحرٌ وكاهنٌ، ولكنْ سَمِعتُ قولَ الكهانِ فما هو بقولِهم، وقدْ وضعتُ قولَه على أقراءِ الشعرِ فواللهِ ما يَلتئِمُ، واللهِ إنَّه لَصادقٌ، وإنهم لَكاذبونَ.

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٨٠٢) [أبواب المناقب- باب مناقب أبي ذر الغفاري]، وابن حبَّان (٧١٣٥) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة- ذكر إثبات الصدق والوفاء لأبي ذر]، وغيرهم من حديث أبي ذرٍّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شبه عيسى ابن مريم...)، ثم قال الترمذي: "وقد روى بعضهم هذا الحديث فقال: أبو ذر يمشي في الأرض بزهد عيسى ابن مريم".

فقالَ له أبو ذرٍّ: هلْ أنتَ كافٍّ حتى أنطلقَ، فأنظرَ؟ قالَ: نعمْ، وكنْ مِنْ أهلِ مكةَ عَلى حذرٍ، فانطلقَ أبو ذرٍّ حتى قدِمَ مكةَ فلَقِيَ رجلًا فقالَ: أينَ هذا الرجلُ الذي تَدعونَه الصابئَ؟ فأغْرَى عليهِ مَنْ عِنْدَه فمَالوا عليهِ بكلِّ مَدَرةٍ(١) وعظم حتى أدْمَوْهُ وخرَّ مَغشيًّا علَيْه، فلمَّا أفاقَ أتى زمزمَ فشرِبَ مِنْ مائِها وغَسَلَ عنه الدمَ، ودخَلَ بينَ الكعبةِ وأستارِها، ولبثَ ثلاثينَ بينَ يوم وليلةٍ ما له طعامٌ إلا ماءَ زمزمَ، وسَمِنَ حتى تَكسَّرتْ عُكَنُ(٢) بطنِه، وما وَجَدَ جوعًا في تلكَ المُدَّةِ.

فبَيْنَما أهلُ مكةَ في ليلةٍ قَمْراءَ وَما يطوفُ بالبيتِ غيرُ امرأتينِ فأتَيَا عَلَيْه وهما يَدعوانِ أسافًا ونائلةَ، فقالَ: أنكحَا أحدَهما الآخرَ، فانطلقَتَا تُوَلْوِلانِ وتقولانِ لو كانَ ها هُنَا أحدٌ من أنفارِنا، فاستقبلَهُما رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ وهما هابطانِ منَ الجبلِ، فقَالَا: ما لَكُما؟ قالتَا: الصابئُ بينَ الكعبةِ وأستارِها، قالَ: ما قالَ لَكُما؟ قالتَا: قالَ لنا كلمةً تَملأُ الفمَ.

قالَ: فجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ هو وصاحبُه حتَّى استلمَ الحجرَ وطافَ بالبيتِ ثم صلَّى فأتاهُ وأسلَمَ عَلى يديهِ، وهو أوَّلُ مَنْ حيَّاهُ بتحيةِ الإسلامِ، فقالَ: وعليكَ السلامُ ورحمةُ اللهِ، فمنْ أنتَ؟ فقالَ: ابنُ غفارٍ، وأخبرَه بمُقامه بينَ الكعبةِ وأستارِها تلكَ المُدَّةَ، فقالَ له: فمَنْ كان يُطعِمُكَ؟ فقالَ: ما كانَ لي مِنْ طعامٍ إلَّا ماءَ زمزمَ، فقالَ أبو بكرٍ: ائذنْ لي يا رسولَ اللهِ في طعامه الليلةَ، فأذنَ له، وانطلقَ النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وهو مَعَهُما حتَّى فتحَ أبو بكرٍ بابًا فجَعَلَ يَقْبِضُ لَهُما مِنْ زَبيبِ الطائفِ، فكانَ ذلك أوَّلَ طعامٍ أكلَه بمكةَ، ثم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنِّي وُجِّهْتُ إلى أرضٍ ذاتِ نَخْلٍ، فلا أحسبُها إلا يثربَ، فهلْ أنتَ مُبَلِّغٌ عنِّي قومَكَ لعلَّ اللهَ -عزَّ وَجلَّ- أنْ ينفعَهم بِكَ فيأجرَك فيهم.

فانطلقَ حتى أَتى أخاهُ أُنيسًا فقالَ له: ما صنعتَ؟ فأخبرَه بأنَّه أسلمَ وصدَّقَ، فأسلمَ أخوه أنيسٌ وصدَّقَ، ثم أتى أُمَّهُما فأسلمتْ وصدَّقتْ، ثم أَتَوْا قومَهم غفارًا فأسلمَ بعضُهم قبلَ أنْ

(١) المَدَرَة: واحدةُ المَدَر، والمَدَر: قِطَعُ الطِّينِ اليابس المُتَماسك. [تاج العروس]
(٢) العُكْنَةُ: الطَّيُّ الذي في البطن من السِمَن، والجمع عُكَنٌ وأعْكانٌ. [الصحاح في اللغة]

يَقْدُمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ، وقالَ بقيَّتُهم: إذا قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ أسلمْنا، فقدمَ رسولُ اللهِ ﷺ فأسلمَ بقيَّتُهم، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (غفارُ غفرَ اللهُ لها، وأسلمُ سالَمَها اللهُ).[1]

ولمَّا أمرَه ﷺ بالرُّجوعِ إلى قومِه قالَ: والَّذي نَفْسي بيدِه لَأصرُخَنَّ بها بينَ ظَهْرانَيْهم، فخرَجَ حتى أتى المسجدَ ونَادى بأعلى صوتِه "أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ"، فقامَ القومُ وضربَوهُ حتَّى أضجَعوهُ، وأتَى العباسُ فأكبَّ عليهِ وقالَ: ويْلَكمْ، ألستُمْ تعلمونَ أنَّه مِنْ غِفارَ، وأنَّ طريقَ تجارتِكمْ إلى الشامِ علَيْها؟! فأنقذَهُ مِنْهم، ثُمَّ عادَ مِنَ الغدِ إلى مِثْلِها وثاروا إليهِ فضَربَوهُ، فأكبَّ عليهِ العباسُ فأنقذَه[2].

رويَ عنه أنَّه قالَ: أنا رابعُ أربعةٍ في الإسلامِ[3]، ويُقالُ: كانَ خامسَ خمسةٍ[4]، ولمَّا رَجَعَ إلى بلادِ قومِه أقامَ فيها حتَّى مضَتْ بدرٌ وأُحدٌ والخندقُ، ثم هاجرَ إلى المدينةِ، ووصفَهُ النبيُّ ﷺ في عدةِ أحاديثَ بأنَّهُ أصدقُ الناسِ لهجةً، وفي روايةٍ: (ما أظلَّتِ الخضراءُ -أيِ السماءُ- ولا أقلَّتِ الغبراءُ -أيْ حملتِ الأرضُ- أصدقُ لهجةً من أبي ذرٍّ)[5].

وقالَ عليٌّ في حقِّه: وعاءٌ مُلِئَ علمًا، ثم أُوكِيَ عليه فلمْ يخرجْ منهُ شيءٌ حتى قُبِضَ[6].

ورويَ أنَّ رجلًا منْ أهلِ البصرةِ ركبَ إلى زوجةِ أبي ذرٍّ بعدَ موتِه فسألَها عنْ عبادتِه، فقالتْ: كان نهارُه أجمعُ في ناحيةٍ يتفكرُ، وقامَ يومًا عندَ الكعبةِ فقالَ: يا أيُّها الناسُ أنا جندبُ

---

(١) أخرجه بطوله مسلمٌ (٢٤٧٣) [كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل أبي ذرٍّ]، وغيره.

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٤٧٤) [كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل أبي ذرٍّ]، وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الحارث كما في "البغية" (١٠٢٠) [كتاب المناقب- باب فضائل أبي ذرٍّ]، وابن حبَّان (٧١٣٤) [باب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة- ذكر البيان بأن أبا ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان ربع الإسلام]، وأبو نعيم في "الحلية" (١٥٧/١) [ترجمة أبي ذرٍّ]، والحاكم في "المستدرك" (٣٤٢/٣) [كتاب معرفة الصحابة]، وغيرهم.

(٤) ذكره النووي في "شرح مسلم" (٥١/٢)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (٣٧٥/١) [ترجمة أبي ذرٍّ].

(٥) أخرجه أحمد (٦٥١٩) [مسند عبدالله بن عمرو]، والترمذي (٣٨٠١) [أبواب المناقب- باب مناقب أبي ذر الغفاري]، وابن ماجه (١٥٦) [أبواب السُّنَّة- باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ]، والحاكم (٣٤٢/٣) [معرفة الصحابة]، وغيرهم من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٦) ذكره ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٨٨/٦٦) [ترجمة أبي ذرٍّ]، وذكره الحافظ في الإصابه (١٠٨/٧)، وعزاه إلى أبي داود بإسنادٍ جيِّدٍ.

الغفاريُّ، هَلُمُّوا إلى الأخِ الناصحِ الشفوقِ، فاكتنفَهُ الناسُ، فقالَ: أرأَيْتُمْ لو أنَّ أحدَكم أرادَ سفرًا أليسَ يَتَّخِذُ مِنَ الزادِ ما يُصلِحُهُ ويُبلغُه؟ قالوا: بَلى، قالَ: فسفرُ طريقِ القيامةِ أبعدُ ما تُريدونَ، فخُذوا ما يُصلِحُكم، قالوا: وماذا يُصلِحُنا؟ قالَ: حُجُّوا حجةً لعظائمِ الأمورِ، وصُوموا يومًا شديدًا حرُّه لِطولِ يومِ النُّشورِ، وصلُّوا ركعتَيْنِ في سوادِ الليلِ لِوحشةِ القبورِ، وكلمةُ خيرٍ تَقولونَها أو كلمةُ سوءٍ تَسكتونَ عنها لوقوفِ يومٍ عظيمٍ، تصدَّقْ بمالِكَ لعلَّكَ تَنْجو، اجعلِ الدنيا مَجلِسَيْنِ: مجلِسًا في طلبِ الحلالِ، ومجلِسًا في طلبِ الآخرةِ، والثالثُ يضرُّكَ ولا ينفعُكَ، لا تَرِدْهُ، اجعلِ المالَ درْهمَيْنِ: درهمًا تُنفقُهُ على عيالِكَ من حِلِّه، ودرهمًا تُقدِّمُهُ لآخرتِكَ، والآخرُ يضرُّكَ ولا ينفعُكَ، لا تَرِدْهُ، ثم نَادَى بأعْلَى صوتِه، يا أيُّها الناسُ، قدْ قتلَكم حِرصٌ لا تُدركونَهُ أبدًا.

ولَمَّا خَرَجَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةِ تبوكَ أبطأَ به جملُه لِمَا فيه مِنَ الإعياءِ والتَّعَبِ فتخلَّفَ عنِ الجيشِ، فأخَذَ متاعَهُ وحَمَلَهُ على ظهْرِه وسارَ حتى أدركَ رسولَ اللهِ ﷺ نازلًا بالجيشِ، وكانوا قبلَ وصولِه قالوا: يا رسولَ اللهِ تخلَّفَ أبو ذرٍّ وأبطأَ به بعيرُه، فقالَ: دَعوهُ فإنْ يكُ فيه خيرٌ فسيُلحِقُه اللهُ بكُمْ، وإنْ يكُ غيرَ ذلكَ فقدْ أراحَكُمُ اللهُ منهُ، فلمَّا أشرفَ على القومِ قالوا: يا رسولَ اللهِ إنَّ هذا الرجلَ يَمشي على الطريقِ وحدَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: كُنْ أبا ذرٍّ، فلمَّا تأمَّلَهُ القومُ قالوا: يا رسولَ اللهِ هو واللهِ أبو ذرٍّ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: رحِمَ اللهُ أبا ذرٍّ، يَمشي وحدَهُ، ويموتُ وحدَهُ، ويُبعَثُ وحدَهُ[1].

وكانَ في صدرِ الإسلامِ يَجِبُ على الشخصِ إنفاقُ ما فَضَلَ عنِ الحاجةِ في اليومِ والليلةِ، ثم نُسِخَ ذلك، وكانَ أبو ذرٍّ يَرى بقاءَ الوجوبِ، وأنَّ ما زادَ على حاجةِ اليومِ والليلةِ لا يَجوزُ ادِّخارُه، وأنَّه مِنَ الكَنْزِ الذي ذَمَّهُ اللهُ بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية [التوبة: ٣٤]، وكانَ يُنادي به في الأسواقِ في الشامِ؛ لأنَّه خَرَجَ إلَيْها بعدَ موتِ أبي بكرٍ فنَهاهُ معاويةُ فلمْ يَمتثِلْ فشكاهُ إلى عثمانَ، وأرْسَلَ إليه معاويةُ رجلًا بألفِ دينارٍ، وقالَ له: الأميرُ -أيْ معاويةُ- أرْسَلَ هذهِ، ففرَّقَها جميعًا، ولَمْ يَبِتْ عندَه مِنْها شيءٌ، ثم حَضَرَ له ذلكَ الرجلُ بأمرِ

(١) أخرجه الحاكم (٣/٥١) [كتاب المغازي والسرايا]، وغيره من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

معاويةَ، وقالَ له: إنِّي غلطتُ في إعطائي لكَ الألفَ دينارٍ، وإنَّما أرسَلَني لغيرِكَ، وأنا أخْشَى أن يُعاقبَني معاويةُ على ذلكَ، فقالَ له: يا هذا، واللهِ ما أَمْسى عندَنا مِنْ دراهمِكَ شيءٌ، ولكنِ اصبرْ حتى يَصيرَ عَطاؤنا نَدفعُ ذلكَ إليكَ، ثم إنَّ عثمانَ كَتَبَ له أنَّهُ يقدمُ عليهِ فقدمَ، فقالَ له: إنْ شئتَ تَنحَّيْتَ فكنت قريبًا، فأجابَه ونزلَ بالربذةِ.

ولمَّا حضرتْه الوفاةُ بكتْ زوجتُه، فقالَ لَهَا: ما يُبكيكِ؟ قالتْ: وما لي لا أبْكي، وأنتَ تموتُ بفلاةٍ مِنَ الأرضِ، ولا يَدانِ لي بنعشِكَ، وليس معنا ثوبٌ يَسعُكَ كفنًا، ولا لَكَ، فقالَ: لا تَبْكي، وأَبْشِري، فإني سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: لا يموتُ بينَ امرأيْنِ مُسلمَيْنِ ولدانِ أو ثلاثةٌ فيَصبرانِ ويَحتسبانِ فيريانِ النارَ أبدًا، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ لنفرٍ أنا فيهم، لَيموتَنَّ رجلٌ مِنْكمْ بفلاةٍ منَ الأرضِ يشهده عصابةٌ منَ المؤمنينَ، وليسَ من أولئكَ النفرِ أحدٌ إلا وقدْ ماتَ في قريةٍ وجماعةٍ، وإني أنا الذي أموتُ بفلاة منَ الأرضِ، واللهِ ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ فأبْصري الطريقَ، قالتْ: فقلتُ: أنَّى وقدْ ذهبَ الحاجُّ وانقطعتِ الطريقُ؟ فقالَ: انظري، فكنتُ أسندُ إلى الكثيبِ فأقومُ عليهِ ثُمَّ أرجعُ إليْه فأمرِّضُه.

فبَيْنَا أنا كذلكَ إذا أنا برجالٍ عَلى رواحلِهم كأنَّهم الرَّخَمُ(١)، فألحتُ بِثَوْبي فأَسْرَعوا إليَّ، ووَضَعُوا السِّياطَ في نحورِها يَستبقونَ إليَّ فقالوا: ما لكِ يا أمةَ اللهِ، فقلتُ: امرأٌ منَ المسلمينَ تُكفِّنونَه، فإنَّه يموتُ، قالوا: ومنْ هو؟ قلتُ: أبو ذرٍّ، قالوا: صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ قلتُ: نَعَمْ، قالتْ: فَفَدَوْهُ بآبائِهم وأمهاتِهم، وأسرعوا إليْه حتى دَخَلوا فسلَّموا فرحَّبَ بهم، وقالَ: أبْشروا فإني سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: لا يموتُ بينَ امرأينِ مسلمينِ ولدانِ أو ثلاثةٌ فيَصبرانِ ويحتسبانِ فيَريانِ النَّارَ أبدًا، وسمعتُه يقولُ لِنفرٍ كنتُ فيهم: ليموتَنَّ رجلٌ مِنكمْ بفلاةٍ منَ الأرضِ يَشهدُه عصابةٌ منَ المؤمنينَ، وليسَ مِنْ أولئكَ النَّفرِ أحدٌ إلَّا وقدْ هلَكَ في قريةٍ وجماعةٍ، وأنا الَّذي أموتُ بفلاةٍ منَ الأرضِ، واللهِ ما كذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ، وإنه لو كانَ عندي ثوبٌ يَسعُني كفنًا أوْ لامرأتي ثوبٌ يَسعُني كفنًا لَمْ أكفَّنْ إلَّا في ثوبٍ هو لي أو لَها، وإني أنشدُكم اللهَ لا يُكَفِّنَنِّي مِنْكُمْ رجلٌ

(١) جمع رَخَمَة، وهو طائر أبقعُ يُشبه النَسْر في الخلقة. [الصحاح في اللغة]

كانَ أميراً أو عريفًا أو وصيًّا أو نقيبًا، قالوا: وليسَ منَ القومِ أحدٌ إلا وقدْ قارفَ من ذلك شيئًا إلَّا فتًى منَ الأنصارِ، قالَ: أنا أكفنُكَ في رِدائي هذا، وفي ثوبَيْنِ من عَيْبَتي[1] منْ غزلِ أُمّي، قالَ: فكفِّنّي أنتَ، فكفَّنَهُ الأنصاريُّ، ودفَنَهُ هو والنفرُ الذينَ كانوا معهُ[2].

وفي روايةٍ أخرى أنَّهُ أوصى زوجتَه وغلامَه في مرضِه أنْ يُغسِّلاه ويُكفِّناه ويَجعلاهُ عَلى قارعةِ الطريقِ، فأولُ رَكْبٍ يَمرُّ بكما قُولا لهُ: هذا أبو ذرٍّ صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ فأعينونا على دفْنِه، فلمَّا ماتَ فعَلا ذلكَ، وأقبلَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ في رهْطٍ منْ أهلِ الكوفةِ فوجَدوا الجنازةَ على ظهرِ الطريقِ قدْ كادتِ الإبلُ تَطؤُها، فقامَ إليهم الغلامُ وقالَ: هذا أبو ذرٍّ صاحبُ رسولِ اللهِ ﷺ فأعينُونا على دفنِه، فاستهلَّ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ يَبكي ويَقولُ: صدَقَ رسولُ اللهِ ﷺ تَمشي وحدَكَ، وتَموتُ وحدَكَ، وتُبعَثُ وحدَكَ[3]، ثم نَزَلَ هو وأصحابُه فصلَّوْا علَيْه وواروْهُ.

رويَ له مائتا حديثٍ وأحدٌ وثمانونَ حديثًا، اتفقا منها على اثنيْ عشرَ، وانفردَ البخاريُّ بحديثَيْنِ، ومسلمٌ بسبعةَ عشرَ.

***

التعريف بمعاذ ابن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومناقبه

(وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ) بنِ عمرِو بنِ أوسِ بنِ عائذِ بنِ عديٍّ بنِ كعبِ بنِ عمرِو بنِ أدَّى الأنصاريِّ المدنيِّ، أسلمَ وعمرُه ثمانَ عشرةَ سنةً، وشهدَ العقبةَ معَ السبعينَ وبدراً والمشاهدَ كلَّها معَ رسولِ اللهِ ﷺ، وأردفَه رسولُ اللهِ ﷺ وراءَهُ، وبعثَه إلى اليمنِ بعدَ غزوةِ تبوكَ، وخرجَ معه يُشيِّعُه ويُوصيه ومعاذٌ راكبٌ ورسولُ اللهِ ﷺ يَمشي، فلمَّا فرَغَ قالَ: يا معاذُ إنَّك عسى أنْ لا تَلقاني بعدَ عامي هذا أو لعلَّكَ تَمرُّ بمسجدي هذا وقبري، فبكى معاذٌ[4].

---

(١) العَيْبَةُ: ما يُجْعَلُ فيه الثِّيَابُ، وَوِعَاءٌ من أَدَم يَكُونُ فيه المَتَاعُ. [تاج العروس]

(٢) أخرجه أحمد (٢١٤٦٧) [مسند الأنصار- حديث أبي ذرٍّ]، وابن حبَّان (٦٦٧١) [كتاب التاريخ- باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث]، والحاكم (٣٤٥/٣) [كتاب معرفة الصحابة]، وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٣٤/٤)، والطبراني في الكبير (١٤٨/٢)، والحاكم (٥٠/٣) [كتاب المغازي والسرايا]، وغيرهم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٠٥٢) [مسند معاذ]، وابن حبان (٦٤٧) [كتاب الرقائق- باب الخوف والتقوى]، والطبراني (١٢١/٢٠)، وغيرهم من حديث معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وعن أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أعلَمُ أُمَّتي بالحلالِ والحرام معاذُ بنُ جبلٍ[1]، وعنْ أبي مسلم الخولانيِّ أنَّهُ قالَ: أتيتُ مسجدَ دمشقَ فإذا حلقةٌ فيها كهولٌ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وإذا بشابٍّ فيهم أكحلَ العينِ برّاقِ الثنايا كُلَّما اختلَفُوا في شيءٍ ردُّوه إلى الفَتَى، قالَ: فقلتُ لجليسٍ لي: مَنْ هذا؟ قالَ: هذا معاذُ بنُ جبلٍ. وعنْ شهرِ بنِ حوشبٍ أنَّ أصحابَ النبيِّ ﷺ كانوا إذا تحدَّثوا وفيهم معاذٌ نظروا إلَيْه هيبةً له، وقدْ تقدَّمَ في الحديثِ الثالثَ عشرَ[2] ذكْرُ زهدِه وفعْلِه في الدنانيرِ التي أرسلَ بها سيدُنا عُمَرُ إلَيْه.

ورويَ أنَّ رجلًا جاءَ إلى عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، إني غِبْتُ عن امرأتي سنتين، فجئتُ وهيَ حُبلى، فشاورَ عمرُ الناسَ في رجْمِها، فقالَ معاذُ بنُ جبلٍ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنْ كانَ لكَ علَيْها سبيلٌ فليسَ لكَ على ما في بطنِها سبيلٌ، فاترُكْها حتى تضعَ، فتركَها، فولدَتْ غلامًا قدْ خرجتْ ثنيتُهُ، فعرَفَ الرجلُ الثنيةَ، فقالَ: ابني وربِّ الكعبةِ، فقالَ عُمَرُ: عجزتِ النساءُ أنْ يلدْنَ مثلَ معاذٍ، لولا معاذٌ هلكَ عمرُ.

وكانَ تحتَه امرأتانِ فإذا كانَ عندَ إحداهما لم يشربِ الماءَ منْ بيتِ الأخرى، ثمَّ توفِّيَتا في السُّقمِ الذي أصابَهم بالشامِ، والناسُ في شغلٍ، فدُفِنَتا في حفرةٍ، فأسْهَمَ بينهما أيَّتُهما تُقدَّمُ في القبرِ، وكانَ إذا تهجدَ منَ الليلِ قالَ: اللهمَّ قدْ نامتِ العيونُ وغارتِ النجومُ وأنتَ حيٌّ قيومٌ، اللَّهُمَّ طَلبي للجنةِ بطيءٌ، وهربي من النارِ ضعيفٌ، اللهم اجعلْ لي عندَكَ عهدًا تردُّهُ إليَّ يومَ القيامةِ، إنك لا تخلفُ الميعادَ.

وقالَ له النبيُّ ﷺ: يا معاذُ، إني لَأحبُّكَ، فقالَ: وأنا أُحِبُّكَ واللهِ يا رسولَ اللهِ، قالَ: فلا تدعْ أنْ تقولَ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ: اللهمَّ أعنِّي على ذكرِكَ وشكرِكَ وحسنِ عبادتِكَ[3].

---

(1) أخرجه مطوَّلًا: أحمد (١٢٩٠٤) [مسند أنس]، والترمذي (٣٧٩١) [أبواب المناقب- باب مناقب معاذ بن جبل..]، والنَّسائيُّ (٨١٨٥) في الكبرى [كتاب المناقب]، وابن ماجه (١٥٤) [أبواب السنة- باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ]، وغيرهم. وصحَّحه الترمذيُّ.

(2) انظر ص ٣٣٨.

(3) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٢١١٩) [مسند معاذ بن جبل]، وأبو داود (١٥٢٢) [أبواب فضائل القرآن- باب في الاستغفار]، والنَّسائيُّ (١٣٠٣) [كتاب السهو- نوع آخر من الدعاء]، وابن خزيمة في "صحيحه" (٧٥١)،=

وقالَ: (يأتي معاذٌ يومَ القيامةِ بينَ يدي العلماءِ برتْوةٍ)[1] أي برميةِ سهمٍ، وقيلَ: حجرٌ، وقيلَ: ميلٌ، وقيلَ: مدُّ البصرِ.

وروي أنَّ ابنَ مسعودٍ قالَ: إنَّ معاذًا كانَ أُمَّةً قانتًا للهِ حنيفًا، فقالَ له فَرْوَةُ بنُ نوفلَ: يا أبا عبدِ الرحمنِ، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]، فقالَ ما نسيتُه، هلْ تدري ما الأُمَّةُ؟ وما القانتُ؟ قالَ: اللهُ أعلمُ، قالَ: الأُمَّةُ الذي يُعلِّمُ الناسَ الخيرَ، والقانتُ المطيعُ للهِ -عزَّ وجلَّ- والرسولِ، وكانَ معاذُ بنُ جبلٍ يُعلِّمُ الناسَ الخيرَ، وكانَ مُطيعًا للهِ ورسولِه.

وجاءه رجلٌ وقالَ: علِّمْني، فقالَ: وهلْ أنتَ مُطيعي؟قالَ: إني على طاعتِكَ لَحريصٌ، قالَ: صُمْ وأفطِرْ، وصلِّ ونَمْ، واكتسبْ ولا تأثمْ، ولا تموتَنَّ إلا وأنتَ مسلمٌ، وإياكَ ودعوةَ المظلومِ.

وقالَ لِابنِهِ: يا بُنَيَّ، إذا صليتَ فصلِّ صلاةَ مودِّعٍ، لا تظنَّ أنَّكَ تعودُ إليها أبدًا، واعلمْ يا بني أنَّ المؤمنَ مَنْ يموتُ بينَ حَسنتَيْنِ، حسنةٍ قدَّمها وحسنةٍ أخَّرَها.

ولما أُصيبَ أبو عبيدةَ في طاعونِ عمواسَ استخلفَ معاذًا بنَ جبلٍ، واشتدَّ الوجعُ فقالَ الناسُ لمعاذٍ: ادعُ اللهَ أنْ يَرفعَ عنَّا هذا الرجزَ، قالَ: إنه ليسَ برجزٍ، ولكنَّهُ رحمةُ ربِّكم، ودعوةُ نبيِّكم، وموتُ الصالحينَ قبلَكم، وشهادةٌ يَخصُّ اللهُ بها من يشاءُ من عبادِه، أيُّها النَّاسُ، خافوا ما هو أشدُّ مِنْ ذلكَ، أن يغدوَ الرجلُ مِنْ منزلِه لا يَدري أمؤمنٌ هو أو منافقٌ، وخافوا أمارةَ الصبيانِ، اللهمَّ آتِ آلَ معاذٍ نصيبَهم الأَوْفى من هذهِ الرحمةِ فَطُعِنَ ابناهُ، فقالَ: كيفَ تَجدانِكما؟ قالا: يا أبانا، الحقُّ من ربِّكَ فلا تكونَنَّ من الممترينَ، قالَ: وأنا سَتَجداني إن شاءَ اللهُ مِنَ الصابرينَ، ثم طُعِنتِ امرأتاهُ فهلَكَتا، وطُعِنَ هو في إبهامه فجَعَلَ يمسُّها بفيهِ، ويقولُ: اللهمَّ إنَّها صغيرةٌ، فبارِكْ فيها، فإنَّكَ تُبارِكُ في الصغيرِ حتى هلَكَ.

=وابن حِبَّان في "صحيحه" (٢٠٢٠، ٢٠٢١) [كتاب الصلاة- فصل في القنوت]، والحاكم في "المستدرك" (٢٧٣/١) [باب التأمين] من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه ابن سعد (٣٤٨/٢)، وأحمد (١٠٨) [مسند عمر]، وأبو نعيم (٢٢٩/١) [ترجمة معاذ]، وغيرهم من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بألفاظ متقاربة. وهو حسنٌ لغيره، وفي أغلب طرقه انقطاع. وفي الباب عن جابر، وغيره.

وإنَّما نُسِبَ الطاعونُ إلى عمواسَ، وهي قريةٌ بينَ الرملةِ وبيتِ المقدسِ؛ لأنَّهُ أولُ ما بدأَ منها.

***

(رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: اتَّقِ اللهَ) الأمرُ لراويهِ أو لِكُلِّ مَنْ يَتأتَّى توجيهُ الأمرِ إليه لِيعُمَّ كُلَّ مأمورٍ حتى لا يَختصَّ به مخاطبٌ دونَ آخرَ، (حيثما كُنْتَ) حيثُ ظرفُ مكانٍ يُضافُ للجُمَلِ، والمُرادُ بِها هنا التعميمُ، أيْ في أيِّ مكانٍ، وأيِّ حالٍ كنتَ فيه، وقيلَ: إنَّما هنا ظرفُ زمانٍ أيْ بناءً على مجيئِها لِلزَّمانِ؛ لأنَّ التَّقْوى في جميعِ الأزمنةِ أعمُّ منها في جميعِ الأمكنةِ؛ لأنَّ الثَّاني يصدقُ عَلى ما إذا حصلَ منه تَقْوى ومعصيةٌ في المجلسِ الواحدِ بِخِلافِ الأوَّلِ، و"مَا" زائدةٌ بشهادةِ روايةِ حذفِها.

الأمر بتقوى الله

وهذا مِنْ جوامعِ كلمِه ﷺ فإنَّ التَّقْوى وإنْ قَلَّ لفظُها كلمةٌ جامعةٌ بأنْ يُطاعَ فلا يُعصى، ويُذكرَ فلا يُنسى، ويُشكرَ فلا يُكفرَ بقدرِ الإمكانِ، ومن ثَمَّ شملتْ خيرَ الدارَيْنِ؛ إذْ هي تَجنُّبُ كُلِّ منهيٍّ عنهُ، وفِعْلُ كُلِّ مأمورٍ به.

وسُئِلَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عنِ التَّقْوى، فقالَ: هي الخوفُ مِنَ الجليلِ، والعملُ بالتنزيلِ، والقناعةُ بالقليلِ، والاستعدادُ ليوم الرحيلِ.

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: التَّقْوى تركُ ما حرَّمَ اللهُ، وأداءُ ما افترضَه اللهُ، فما رزقَ اللهُ بعدَ ذلك فهو خيرٌ إلى خيرٌ.

وقيلَ: تَقْوَى اللهِ أنْ لا يَراكَ حيثُ نهاكَ، ولا يَفقِدَكَ حيثُ أمرَكَ، ولِهذا قالَ بعضُهم لشخصٍ: إذا أردتَ أنْ تعصيَ اللهَ فاعصِهِ حيثُ لا يَراكَ، أوِ اخرجْ مِنْ دارِه أو كُلْ غيرَ رزقِه.

وقالَ بعضُهم: مِنْ علامةِ التحققِ بالتَّقْوى أنْ يأتيَ المتَّقيَ رزقُه من حيثُ لا يَحتسِبُ، وإذا أتاهُ من حيثُ يحتسِبُ فما تحقَّقَ بالتَّقْوى، فإنه قيلَ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] أيْ فمنْ يتقِ اللهَ في الرزقِ بقطعِ العلائقِ يجعلْ له مخرجًا بالكفايةِ.

وقيلَ: (مَنْ يتَّقِ اللهَ) فيقفْ عندَ حدودِه ويجتنبْ معاصيَه (يَجعلْ له مخرجًا) بخروجِه مِنَ الحرامِ إلى الحلالِ، ومنَ الضِّيقِ إلى السَّعَةِ، ومنَ النَّارِ إلى الجنةِ، (ويرزقْه من حيثُ لا يَحتسِبُ) مِنْ حيثُ لا يَرجو.

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: ومنْ يتَّقِ اللهَ باتباعِ السُّنَّةِ يجعلْ له مخرجًا مِنْ عقوبةِ أهلِ البدعِ ويرزقْهُ الجنةَ مِنْ حيثُ لا يَحتسِبُ، وقيلَ: ومَنْ يتقِ اللهَ بالصبرِ يجعلْ له مخرجًا مِنَ الشدائدِ، وقالَ ابنُ عباسٍ: مخرجًا مِنْ شُبُهاتِ الدُّنْيا، ومن غمراتِ الموتِ، ومنْ شدائدِ يوم القيامةِ.

وقالَ أكثرُ المفسرينَ: إنَّها نزلتْ في عوفِ بنِ مالكٍ الأشجعيِّ، أَسَرَ المشركونَ ابنًا له يُسمَّى سالمًا، فأتى رسولَ اللهِ ﷺ وشكى الفاقةَ إليه، وقالَ: إنَّ العدوَّ أسرَ ابني، وجزعتِ الأمُّ، فما تأمرُنا؟ فقالَ -علَيْه الصلاةُ والسلامُ- اتقِ اللهَ، واصبرْ، وآمرُكَ وإيَّاها أنْ تَستكْثِرا منْ قولِ "لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم" فعادَ لبيته وقالَ لامرأتِه: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمرَني وإيَّاكِ أنْ نسْتَكْثِرَ من قولِ "لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ"، فقالتْ: نِعْمَ ما أمرَنا بِه، فجعَلا يَقولانِ فغفَلَ العدوُّ عنِ ابنِه، فساقَ غنمَهم وجاءَ بها إلى أبيه، وهيَ أربعةُ آلافِ شاةٍ، فنزلتِ الآيةُ، وفي روايةٍ أنَّه أصابَ إبلًا منَ القومِ خمسينَ بعيرًا، وفي أُخرى فأفلتَ ابنُه منَ الأسرِ وركب ناقةً للقومِ، ومرَّ في طريقِه بسرحٍ لهم فاستاقَه، وقالَ مقاتلٌ: أصابَ غنمًا ومتاعًا[1].

وكتبَ عُمَرُ لابنِه: أمَّا بعدُ فإني أوصيكَ بتَقْوى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فإنه منِ اتَّقاهُ وَقاهُ، ومنْ أقرضَه جازاه، ومنْ شكرَه زادَه، فاجعلِ التَّقْوى نصبَ عينيكَ وجلاءَ قلبكَ.

ولمَّا وليَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعثَ رجلًا على سريةٍ فقالَ: أوصيكَ بتَقْوى اللهِ الذي لا بُدَّ لكَ من لقائِه، ولا منتهى لكَ من دونِه، وهلْ تُمْلَكُ الدنيا والآخرةُ إلا بالتَّقْوى.

وقالَ رجلٌ ليُونسَ بن عبيدٍ: أوْصِني، فقالَ: أوصيكَ بتقْوَى اللهِ والإحسانِ، فإنَّ اللهَ معَ الذين اتَّقوا والذينَ هم محسنونَ. وقالَ له رجلٌ يُريدُ الحجَّ: أوصني، قالَ: اتقِ اللهَ، فمنِ اتقى اللهَ

---

(١) أخرجه الحاكم، وصحَّحه (٢/٤٩٢) [كتاب التفسير] من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٨٩١١) [سورة الطلاق] عن قيس بن مخرمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فلا وحشةَ عليه. وفي منهاج العارفينَ أنَّ بعضَ الصالحينَ قالَ لبعضِ أشياخه: أوصني بوصية، قالَ: أوصيكَ بوصيةِ ربِّ العالمينَ للأولينَ والآخرينَ، وهيَ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وفي الحديثِ عنه -عليْهِ الصلاةُ والسلامُ- أنه قالَ: (منْ أحبَّ أنْ يكونَ أكرمَ الناسِ فليتقِ اللهَ)[1]. ولبعضهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِه * مَعْرِفَةُ اللهِ فَذَاكَ الشَّقِيُّ
مَا يَصْنَعِ الْعَبْدُ بِعِزِّ الغِنَى * وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِي

وجاءتْ في القرآنِ لمعانِ الإيمانِ نحو قولِه تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] أي التوحيدِ، والتوبةِ نحو قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦] أيْ تَابُوا، والطاعةِ نحو قولِه تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وتركِ المعصيةِ نحو قولِه تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٩] أي لا تَعصوه، والإخلاصِ نحو قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] أيْ إخلاصِ القلوبِ، والخشيةِ نحو قولِه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦] أي اخشَوْهُ، ولقدْ أحْسَنَ القائلُ:

معاني "التقوى" في القرآن

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيابًا مِنَ التُّقَى * تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَلَوْ كَانَ كَاسِيَا
وَخَيْرُ لِبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ * وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ للهِ عَاصِيَا

ولأبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَوَدُّ الْمَرْءُ لو يُعْطَى مُنَاهُ * وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
يَقُولُ الْمَرْءُ فَائِدَتِي وَمَالِي * وَتَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

(١) أخرجه مطوَّلًا ومختصرًا: الحارث كما في البغية (١٠٧٠) [كتاب الأدعية- باب في المواعظ]، وأبو نعيم في الحلية (٣/٢١٨) [ترجمة محمد بن كعب]، والحاكم (٤/٢٧٠) [كتاب الأدب]، والقضاعي (٣٦٧)، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه.

ودَخَلَ شخصٌ غيضةً كثيرةَ الأشجارِ، وقالَ: لوْ خلوتُ هنا بمعصيةٍ مَنْ كانَ يَراني! **فسَمِعَ** هاتفًا بصوتٍ مَلَأَ الغيضةَ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. **وراودَ** شخصٌ أعرابيةً، وقالَ: لا يَراني إلا الكواكبُ، فقالتْ له: أينَ مكوكبُها؟

***

(وأَتْبِع) -بفتحِ الهمزةِ وسكونِ المثناةِ فوقُ، وكسرِ الموحدةِ- أَلْحِقِ **(السَّيِّئَةَ)** الصادرةَ منكَ صغيرةً وكذا كبيرةً كما اقتضاهُ ظاهرُ الخبرِ، والحسنةُ بالنسبةِ إِلَيْها التوبةُ منها، فلا ملجأَ لقَصْرِه على الصغيرةِ كما فَعَلَ الشارحُ الهيتمي، إلا أنَّه فرَّ منَ اعتقادِ المرجئةِ منْ أنَّ كلَّ حسنةٍ تُكَفِّرُ السيئةَ كبيرةً كانتْ أو صغيرةً، وأصلُ سَيِّئَةٍ "سَيْوِئَة" فقلبَتِ الواوُ ياءً وأُدغِمتْ في الأخرى، **(الْحَسَنَةَ)** صلاةً أو صومًا أو صدقةً -وإنْ قلَّتْ- أو تسبيحًا أو تهليلًا أو استغفارًا أو غيرَ ذلك، **(تَمْحُهَا)** أي السيئةَ المثبتةَ في صحفِ الكاتبينَ، وذلكَ لأنَّ المرضَ والشيءَ يُعالَجُ بضدِّه كالبياضِ يُزالُ بالسوادِ، وهو مجزومٌ بحذفِ الواوِ جوابًا لِلأمرِ.

والمرادُ بإتباعِها إيَّاها فعلُها بعدَها وجعلُها تابعةً لها أيْ واقعةً بعدَها بحيثُ تقربُ منها، وهذا مقيَّدٌ بغيرِ حقوقِ العبادِ كالغِيبةِ فإنَّه لا يَمْحُوها إلا الاستحلالُ إذا بلغتْ من قِيلَتْ فيه بعدَ بيانِ وجهِ الظُّلامةِ[١] إن أمكنَ، وإلَّا يَنبغي أن يُكثِرَ مِنَ الاستغفارِ والدعاءِ له لِحديثِ (إذا اغتابَ أحدُكم أخاه فلْيستغفرْ له فإنَّ ذلك كفارةٌ)[٢]، واعلمْ أنَّ الصغيرةَ تُكفِّرُها التوبةُ وحدَها واجتنابُ الكبائرِ امتثالًا وإنْ لم تَحصُلْ توبةٌ، والعباداتُ وإن لم تحصلْ توبةٌ أيضًا.

---

(١) جاء في الأصل المخطوط: "بعد ثبات وجه الطلوبة"، وفي المطبوع: "بعد ثبات وجه المطلوبة"، ولعله تصحيف، وما أثبتناه هو ما في حاشية النبراوي على الأربعين، ويؤيده قول المناوي في شرح هذا الحديث في الفيض القدير: " ثم إن ذا يخص من عمومه السيئة المتعلقة بآدمي، فلا يمحها إلا الاستحلال مع بيان جهة الظلامة إن أمكن".

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٢٢/٤) من حديث سهل بن سعد، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١١٨/٣)، وتعَّقبه السيوطي (٢٥٦/٢) بالآتي: أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (ص ١٧١) [باب كفارة الاغتياب] عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (كفارة من اغتبت أن تستغفر له)، وفي إسناده متروك، وأخرجه البيهقي في الشعب (٦٣٦٧) بنحوه عن عبدالله بن المبارك، ونقل عن الإمام أحمد: قد روينا في حديث مرفوع بإسناد ضعيف: (كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته). وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٥٣/٣): أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسندٍ ضعيف.

وقدْ وَرَدَ أنَّ رجلًا يُسمَّى بنهانَ التمارَ، وكنيتُه أبو مقيلٍ، كانَ له حانوتٌ يَبيعُ فيه تمرًا فجاءتْه امرأةٌ أجنبيَّةٌ حسناءُ تَشتري منه تمرًا فقالَ لها: إنَّ داخلَ الحانوتِ ما هو خيرٌ من هذا، فلمَّا دخلتْ أصابَ منها ما يُصيبُ الرجلُ من امرأتِه منَ الضمِّ والتقبيلِ غيرَ أنَّه لمْ يُجامعْها، ثُمَّ جاءَ إلى النبيِّ ﷺ وقالَ: يا رسولَ اللهِ، إني أصبتُ حدًّا فأقمْه عليَّ، فأعرضَ عنهُ، فقالَ له عُمَرُ: لقدْ سَترَكَ لو سترْتَ نفسَكَ، ثم كرَّرَ ذلك بنهانُ مرارًا، وهو يُعرِضُ عنهُ حتَّى ذَكَرَ له القصةَ، فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ توضأْ وضوءًا حسنًا، فتوضأَ وصلَّى معَ النبيِّ ﷺ فنزلَ قولُه تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤][(١)]، وقالَ ﷺ: (ما مِنْ رجلٍ يتطهر فيُحْسِنُ الطُّهْرَ، ثم يعمدُ إلى مسجدٍ من هذه المساجدِ إلا كَتَبَ اللهُ له بِكُلِّ خطوةٍ يَخطوها حسنةً، ويَرفعُه بها درجةً، ويَحطُّ عنه بها خطيئةً)[(٢)].

وروى البخاريُّ عنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلًا أصابَ مِنَ امرأةٍ قبلةً فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، فقالَ الرجلُ: إليَّ هذا، قالَ: لجميعِ أمتي كُلِّهم عظةً لِمَنِ اتعظَ، فقالَ معاذٌ: يا رسولَ اللهِ، هذا له خاصةً أمْ للناسِ عامَّةً؟ فقالَ: بلِ للنَّاسِ عامةً[(٣)].

ورُوي أنَّ رجلًا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ إني ألممتُ بذنبٍ عظيمٍ، فماذا يُكفِّرُ عنِّي؟ فقالَ: ذنبُكَ أعظمُ أم السمواتُ؟ فقالَ: ذنبي أعظمُ، فقالَ: ذنبُكَ أعظمُ أم الكرسيُّ؟ فقالَ: ذنبي أعظمُ، فقالَ: ذنبُكَ أعظمُ أم العرشُ؟ فقالَ: ذنبي أعظمُ، فقالَ: ذنبُكَ أعظمُ أم اللهُ، أي عفوُه؟ قالَ: بلْ عفوُ اللهِ أعظمُ، قالَ -علَيْه الصلاةُ والسلامُ-: عليكَ بالجهادِ

حكايات في إذهاب الحسنات للسيئات

---

(١) ذكرها الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٥٥/٨) [قوله باب وأقم الصلاة طرفي النهار]، وعزاه لابن مردويه، وهي بنحوها دون ذكر نبهان في السنن.

(٢) أخرجه مسلم (٦٥٤) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب صلاة الجماعة من سنن الهدى]، وغيره من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٢٦) [كتاب مواقيت الصلاة- باب: الصلاة كفارة]، ومسلمٌ (٢٧٦٣) [كتاب التوبة- باب قوله تعالى ﴿إن الحسنات﴾]، وغيرهما من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

في سبيلِ اللهِ تَعالى، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إني لَمِنْ أجبنِ النَّاسِ، ولولا أنَّ أهلي تؤنسُني إذا خرجتُ ليلًا ما كنتُ أفعلُه قطُّ، فقالَ: عليكَ بالصيامِ، فقالَ: واللهِ يا رسولَ اللهِ ما أشبعُ مِنْ خبزٍ قطُّ، فقالَ له: عليكَ بالصلاةِ في جوفِ الليلِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ لولا أنَّ أهْلي يوقظوني لِصلاةِ الصُّبْحِ ما قمتُ لها، فتبَسَّمَ ﷺ حتَّى بدتْ نواجذُه، ثم قالَ: عليكَ بكلمتينِ خفيفتينِ على اللِّسانِ ثقيلتينِ في الميزانِ حبيبتَيْنِ إلى الرحمنِ "سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيمِ"، فَفَعَلَ[1].

فلا تعجزْ أيها المسكينُ إذا أتيتَ سيئةً بقلبِكَ أو لسانِكَ أو جوارحِكَ أنْ تُتبِعَها بحسنةٍ من صلاةٍ، أو صدقةٍ وإنْ قَلَّتْ، أو ذِكْرٍ ولوْ بالباقياتِ الصالحاتِ "سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ؛ سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيمِ"، فإنَّها أحبُّ الكلامِ إلى اللهِ، وحبيبٌ إلى الرحمنِ، وخفيفٌ على اللِّسانِ، وثقيلٌ في الميزانِ.

رويَ عن منصورِ بنِ عمارٍ أنَّهُ قالَ: كانَ فتًى منَ الأنصارِ يقالُ له ثعلبةُ، وكانَ يَخدُمُ رسولَ اللهِ ﷺ ثم إنَّه ذاتَ يوم مرَّ بباب رجلٍ منَ الأنصارِ فاطَّلعَ عليْه فوجَدَ امرأتَه تَتَميَّلُ، فكرَّرَ النظرَ إلَيْها بعينَيْهِ، ثم خافَ أنْ يَنزلَ الوحيُّ على رسولِ اللهِ ﷺ فلمَّا أصبحَ خرجَ هاربًا منَ المدينةِ استحياءً منَ النبيِّ ﷺ حتى إذا لَقِيَ جبلًا بينَ مكةَ والمدينةِ، فنزلَ جبريلُ على النبيِّ ﷺ وقالَ: يا محمدُ إنَّ الهاربَ مِنْ أُمَّتِكَ بينَ الجبالِ يَتعوذُ مِنَ النَّارِ فبعثَ النبيُّ ﷺ عُمَرَ بنَ الخطابِ وسلمانَ الفارسيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وقالَ لَهُما: ائتيا بثعلبةَ بنِ عبدِ الرحمنِ!

فخرجَا فوجدَا راعيًا من رعاةِ المدينةِ فقالَ: يا عمرُ لعلَّكَ تُريدُ الهاربَ مِنْ جهنمَ، فقالَ عمرُ: وما علمُكَ أنه هاربٌ مِنْ جهنمَ؟ قالَ: لأنَّهُ إذا كانَ نصفُ الليلِ خرجَ علَيْنا من هذا الشِّعبِ واضعًا يدَه على أمِّ رأسِه وهو يَبكي ويُنادِي يا ليتكَ قبضتَ روحي معَ الأرواحِ وجسمي معَ الأجسامِ، فقالَ عمرُ: إيَّاهُ أريدُ، فانطلقَ بِهِما حتى إذا كانَ في بعضِ الليلِ خرجَ علَيْهما

---

(١) أخرجه بنحوه الفاكهي في "أخبار مكة" (١٥٢٣) [ذكر تحريم الحرم وحدوده] عن الهيكل بن جابر بإسناد موضوع، وفي إسناده حَمَّادُ بْنُ عَمْرٍو النَّصِيبِيُّ، وقد وصفه عددٌ من الحفَّاظ بالكذب، انظر: "لسان الميزان" لابن حجر (٢٧٤١)، وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٣/٢٥٥) [كتاب ذم البخل]: باطل لا أصل له.

وهو يُنادي يا لَيْتَكَ قبضتَ روحي معَ الأرواحِ وجسمي معَ الأجسامِ، فغدا عمرُ إلَيْه فلمَّا سمِعَ حسَّهُ قالَ: الأمانَ الأمانَ، متَّى الخلاصُ مِنَ النَّارِ؟ فقالَ له عمرُ: أجبْ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: لِمَاذا؟ فقالَ: لا لهَمٌّ إلَّا أنَّهُ ذكرَكَ بالأمسِ، فبَكَى وأرسَلَني إليكَ، فقالَ: يا عمرُ لا تُدخلْني عَلى رسولِ اللهِ ﷺ إلَّا وهو يُصلِّي، أو بلالٌ يَقولُ: قدْ قامتِ الصلاةُ، قالَ: أفعلُ.

فلمَّا أتَى عمرُ المدينةَ، وأَتى به إلى المسجدِ ورسولُ اللهِ ﷺ يُصلِّي، فلمَّا سَمِعَ قراءةَ النبيِّ ﷺ وأتمَّ صلاتَه قالَ: يا عمرُ ويا سلمانُ ما فَعَلَ ثعلبةُ بنُ عبدِ الرحمنِ؟ قالا: هو ذا يا رسولَ اللهِ، فقالَ ما الذي غَيَّبَكَ عنِّي؟ قالَ: ذَنْبي يا رسولَ اللهِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: أفلا أعلِّمُكَ كلماتٍ إنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ بهن والخَطايا؟ قالَ: بَلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: قُلِ "اللهمَّ ربَّنا آتنا في الدُّنْيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النارِ"، قال: ذَنْبي أعظمُ يا رسولَ اللهِ، فقالَ ﷺ: بلْ كلامُ اللهِ أعظمُ، ثم أمرَه بالانصرافِ إلى منزِله فانصرفَ.

فلما انصرفَ تمرَّضَ ثلاثةَ أيامٍ، وأتى سلمانُ الفارسيُّ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ ثعلبةَ يجودُ بنفسِه، فدخلَ علَيْه رسولُ اللهِ ﷺ، وأخذَ رأسَه ووضعَه في حجرِه، فأزالَه عنْ حجرِ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ له رسولُ اللهِ: ما تَجدُ؟ قالَ: مثلُ دبيبِ النَّمْلِ بينَ جلدي وعظمي، فنزلَ جبريلُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، يقولُ اللهُ: لو لَقِيَني بقُرابِ الأرضِ ذنوبًا لَلقيتُه بقُرابِها مغفرةً، فأعلمَهُ النبيُّ ﷺ بذلكَ فصاحَ صيحةً حتى غُشِيَ عليه، ثم توفيَ، فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ فغسَّلَه وكفَّنَه وصلَّى عليه، ثم احتُمِلَ إلى قبْرِه، فأقبلَ رسولُ اللهِ يَمشي على أطرافِ أناملِه، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، رأيناكَ تمشي على أطرافِ أناملِكَ، فقالَ: لمْ أستطعْ أنْ أمشي على الأرضِ مِنْ كثرةِ أجنحةِ الملائكةِ.[1]

وظاهرُ قولِه "تَمْحُهَا" أنَّها تُزالُ حقيقةً منَ الصحيفةِ، وهو المُتبادَرُ إلى الفهمِ؛ لأنَّ الأصلَ الحقيقةُ وجوَّزَ بعضُهم كونَهُ عبارةً عنْ تركِ المؤاخذةِ مَعَ بقائِها في الصحيفةِ وهو تجوُّزٌ يَحتاجُ

(١) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٢٧٩) [باب غض البصر عن المحارم]، وأبو نعيم في الحلية (٩/٣٢٩) [ترجمة منصور بن عمار].

لدليل، وظاهرُه أيضًا أنَّ الحسنةَ وإنْ كانتْ بعشرِ أمثالها لا تمحو إلا سيئةً واحدةً، والتضعيفُ لا يمحو شيئًا، وليسَ مُرادًا بل هي تمحو عشْرَ سيئاتٍ لما أخرجَه الطبرانيُّ عن أبي مالكٍ الأشعريِّ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: إذا نامَ ابنُ آدمَ قالَ الملكُ للشيطانِ: أعطني صحيفتَكَ، فيعطيه إيَّاها، فما وجدَ في صحيفتِه من حسنةٍ محا بها عشْرَ سيئاتٍ من صحيفةِ الشيطانِ، وكتبهن حسناتٍ[1]، وروى وكيعٌ عنِ ابنِ مسعودٍ أنَّه قالَ: ودِدْتُ أني صولحتُ أنْ أعملَ كُلَّ يومٍ تسعَ خطيئاتٍ وحسنةً[2]، فأشارَ إلى أنَّ الحسنةَ تمحو تسعَ خطيئاتٍ، ويفضلُ له واحدةٌ من ضعفِ ثوابِ الحسنةِ.

***

ثم إنَّ الحسنةَ والسيئةَ لهما إطلاقاتٌ: فتطلقُ الحسنةُ ويُرادُ بها التوحيدُ، والسيئةُ يُراد بها الشركُ، كما في قولِه تعالى في النملِ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يَعني التوحيدَ ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني الشرك ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٨٩-٩٠] نظير ما في القصصِ والأنعامِ[3].

إطلاقات الحسنة والسيئة

وتُطلقُ الحسنةُ على كثرةِ المطرِ والخصبِ والخيرِ، والسيئةُ على قحطِ المطرِ وقلةِ الخيرِ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يَعني قحطَ المطرِ وقلةَ النباتِ ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وقالَ تعالى ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ يعني قحطَ المطرِ وقلةَ الخصبِ ﴿الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥] كثرةَ المطرِ والخصبِ. وقالَ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ﴾ يَعني كثرةَ المطرِ والخصبِ ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] يَعني قلةَ المطرِ والجدبِ. وقالَ في الرومِ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يَعني قحطَ المطرِ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الروم: ٣٦].

---

(١) "المعجم الكبير" للطبراني (٣/٢٩٦) بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه وكيع في الزهد (٢٧٧) [باب قلة ذنوب]، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٥٤٣) [كتاب الزهد].

(٣) قال تعالى في سورة القصص: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وتُطلقُ الحسنةُ على العافيةِ، والسيئةُ على العذابِ في الدنيا، كقولِه تعالى في الرعدِ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦]، فالسيئةُ العذابُ في الدنيا، والحسنةُ العافيةُ.

وتُطلقُ الحسنةُ على العفوِ والقولِ المعروفِ، والسيئةُ على القولِ القبيحِ والأذى، كقولِه تعالى في القصصِ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤] أيْ يدفعونَ بالقولِ المعروفِ والعفوِ القولَ السيِّئَ والأذى.

وتُطلق الحسنةُ على النصرِ والغنيمةِ، والسيئةُ على القتلِ والهزيمةِ، كقولِه في آلِ عمرانَ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ يَعني النصرَ والغنيمةَ يومَ بدرٍ، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠] يَعني القتلَ والهزيمةَ يومَ أحدٍ.

***

(وَخَالِقِ النَّاسَ)، أيْ عاملَ الناسَ (بِخُلُقٍ) بضمتَيْنِ، ويسكنُ ثانيه تخفيفًا، وهو السجيةُ التي طُبِعَ علَيْها، وقد عرَّفوه بأنَّه ملكةٌ للنفسِ تَصدُرُ عنها الأفعالُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ فكرٍ ورَوِيَّةٍ، فخرَجَ بالملكةِ كُلُّ عارضٍ غيرِ قارٍّ منَ الأحوالِ، وبصدورِه عنِ النَّفْسِ ما يَصدُرُ عنِ الجوارحِ كالكتابةِ وغيرِها مِنَ الصنائعِ، وَبقيد السهولةِ ما كانَ بصعوبةٍ كالصبرِ على بعضِ النوائبِ، وكذا ما صَدَرَ بفكرٍ، فكُلُّه لا يُسمَّى خُلُقًا.

معنى حسن الخلق

(حَسَنٍ) والخُلُقُ الحسنُ ملكةٌ نفسانيةٌ تَحملُ صاحبَها على كُلِّ جميلٍ، وفي "المفهم"[1]: الخُلُقُ أيْ مِنْ حيثُ هو أوصافُ الإنسانِ التي يُعاملُ بها غيرَه، وهيَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فالمحمودةُ إجمالًا: أنْ تكونَ معَ غيرِك على نفسِكَ فتنتصفَ مِنْها ولا تنتصفَ لها، وتَفصيلًا: العفوُ والحلمُ والجودُ والصبرُ والرحمةُ ولينُ الجانبِ وتحمُّلُ الأذى، وقولُ الهيتمي في شرحِ الشمائلِ في تعريفِه: ملكةٌ نفسانيةٌ ينشأُ عنْها جميلُ الأفعالِ وكمالُ الأحوالِ، تعريفٌ للخلقِ الحسنِ فقطْ، وقدْ قالَ مجاهدٌ في تفسيرِ قولِهِ تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] إنَّهم إذا أوذوا صَفَحوا.

---

(١) المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، المتوفى سنة ٦٥٦، وهو غير أبي عبد الله القرطبي صاحب التفسير، والمتوفى سنة ٦٧١.

ووصفَ عبدُالله بنُ المباركِ الخُلقَ الحسنَ بقولِه: هو بَسْطُ الوجهِ وبذلُ المعروفِ وكفُّ الأذى.

وسُئِلَ سلَّامُ بنُ مطيعٍ عنْ حسنِ الخلقِ فأنشأَ يَقولُ:

تُراهُ إذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا * كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذي أَنْتَ سَائِلُهُ

وعنْ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذَا صافحَ رجلًا لمْ يَنزعْ يدَه من يدِه حتَّى يَكونَ الرجلُ هو الَّذي يَنزعُ، ولا يصرفُ وجهَهُ عنْ وجهِهِ حتَّى يَكونَ الرجلُ هو الذي يَصرفُ، ولمْ يُرَ مُقدِّمًا ركبتَيْهِ بينَ جليسٍ قطُّ[1].

والأحاديثُ في مدحِ الخُلُقِ الحسنِ كثيرةٌ، منها قولُه ﷺ: (ما مِنْ شيءٍ يوضَعُ في الميزانِ أثقلُ مِنْ حُسْنِ الخلقِ، وإنَّ صاحبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ درجةَ صاحبِ الصلاةِ والصومِ)[2].

ومنها قولُه ﷺ لمَّا سُئِلَ عنْ أكثرِ ما يُدخِلُ النَّاسَ الجنَّةَ، فقالَ: (تقوى اللهِ وحُسْنُ الخلقِ)، وسُئِلَ عنْ أكثرِ ما يُدخِلُ النَّاسَ النارَ، فقالَ: (الفمُ والفرجُ)[3]. ومنها قولُه -علَيْه الصلاةُ والسلام-: (خيارُكم أحسنُكم أخلاقًا)[4]. ومنها قولُه: (أفضلُ ما أُعطيَ المرءُ الخلقُ الحسنُ)[5].

وعنِ الحسنِ أنَّه قالَ: "منْ أعطيَ حسنَ صورةٍ وخلقًا حسنًا وزوجةً صالحةً فقدْ أُعطيَ خيرَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٠) [أبواب صفة القيامة والرقائق والورع]، وابن ماجه (٣٧١٦) [أبواب الأدب- باب إكرام الرجل جليسه]، وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود [كتاب الأدب- باب في حسن الخلق]، والترمذيُّ واللفظ له (٢٠٠٣) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في حسن الخلق]، وغيرهما من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه أحمد (٩٠٩٦) [مسند أبي هريرة]، والترمذي (٢٠٠٤) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في حسن الخلق]، وابن ماجه (٤٢٤٦) [أبواب الزهد- باب ذكر التوبة]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٥٥٩) [كتاب المناقب- باب صفة النبي ﷺ]، ومسلمٌ (٢٣٢١) [كتاب الفضائل- باب كثرة حيائه ﷺ]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٥) أخرجه البخاريُّ في "الأدب المفرد" (٢٩١) [باب حسن الخلق]، وأحمد (١٨٤٥٤) [مسند الكوفيين- حديث أسامة بن شريك]، وابن ماجه (٣٤٣٦) [أبواب الطب- باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء]، وغيرهم من حديث أسامة بن شريك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

الدنيا والآخرةِ"، وفي الحديثِ (خصلتانِ لا يكونانِ في مؤمنٍ، سوءُ الخلقِ والبخلُ)[1].

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ: "قالَ موسى: يا ربِّ أمهلتَ فرعونَ أربعَمائةِ سنة، وهو يَقولُ: أنا ربُّكم الأعلى، ويُكذِّبُ آياتِكَ ورسلَكَ، فقالَ اللهُ: إنَّه كانَ حَسَنَ الخلقِ سَهْلَ الحجابِ، فأحببتُ أنْ أكافئَهُ"[2].

وقيلَ لِذي النُّونِ المصريِّ: مَنْ أكثرُ الناسِ همًّا؟ قالَ: أسوؤُهم خُلُقًا، وقالَ ﷺ: (أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، وإنَّ العبدَ لَيبلغُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ القائمِ الصائمِ).

وحسنُ الخلقِ وإنْ كانَ جِبليًّا لَكِنْ في الحديثِ رَمْزٌ إلى أنَّهُ يُمكِنُ اكتسابُه، وإلَّا لَمْ يكنْ لِلأمرِ به فائدةٌ، كما وَرَدَ (يا معاذُ حَسِّنْ خُلُقَكَ مَعَ الناسِ)[3] أيْ عامِلْهم بطلاقةِ وجهٍ وجبرِ الخواطرِ وكفِّ الأذى، فإنَّ ذلك مؤدٍّ لاجتماعِ القلوبِ وانتظامِ الأحوالِ، وهو جماعُ الخيرِ وملاكُ الأمرِ، ثم إنَّ الأمرَ به عامٌّ خصَّصهُ مستحقُّه، فخرَجَ به الكُفَّارُ والظَّلَمَةُ، فأغلظْ علَيْهم.

***

(رواه الترمذيُّ) في البرِّ، **(وقالَ: حديثٌ حسنٌ)** فقطْ، **(وفي بعضِ النسخِ: حَسَنٌ صحيحٌ)**، وهو حديثٌ عظيمٌ، وقاعدةٌ منْ قواعدِ الدِّينِ.

***

(١) أخرجه البخاريُّ في "الأدب المفرد" (٢٨٢) [باب الشُّحِّ]، والترمذيُّ (١٩٦٢) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في البخيل]، وأبو يعلى (١٣٢٨) [مسند أبي سعيد]، وغيرهم.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٠٧٢)، و(٧٦٨٢).

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٢٤) [كتاب البر والإحسان]، والطبراني في الكبير (٣٩/٢٠)، والأوسط (٨٧٤٧)، والحاكم (٥٤/١) [كتاب الإيمان]، وغيرهم وفيه: (استقم ولتحسن خلقك) والحديث بنحوه في السنن.

الحديثُ التاسعَ عشرَ

١٩. عنْ أبي العباسِ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالَ: كنتُ خَلْفَ النبيِّ ﷺ يوماً فقالَ: يا غُلامُ، إني أُعلِّمُكَ كلماتٍ: احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوكَ بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كَتبه اللهُ لكَ، وإنِ اجتمعوا على أنْ يضرُّوكَ بشيءٍ لمْ يضرُّوكَ إلا بشيءٍ قد كتبَه اللهُ عليكَ، رُفِعت الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحُفُ. رواهُ الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي روايةِ غيرِ الترمذيِّ: احفظِ الله تجدْه أَمامَك، تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يعرِفْك في الشِّدةِ، واعلمْ أنَّ ما أخطأَكَ لمْ يكنْ لِيُصيبَكَ، وما أصابَكَ لمْ يكنْ لِيُخطِئَكَ، واعلمْ أنَّ النَّصْرَ مع الصبرِ، وأن الفرجَ معَ الكرْبِ، وأنَّ معَ العُسْرِ يُسْراً.

التعريف بابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ومناقبه

(**عنْ أبي العبَّاسِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ**) بنِ عبدِ المطلبِ، وُلِدَ في الشِّعْبِ، وبنو هاشم محصورونَ قبلَ خروجِهم منه بيَسيرٍ، وذلكَ قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنينَ، وتُوفِّيَ النَّبيُّ ﷺ وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، وقيلَ: ابنُ خمسَ عشرةَ سنةً، وصحَّحَهُ أحمدُ، وقيلَ: ابنُ عشرٍ، ويؤيدُ الأوَّلَ ما صحَّ عنْهُ مِنْ قولِه في حجةِ الوداعِ: "وأنا يومئذٍ قدْ ناهزتُ الاحتلامَ"[(١)].

وكانَ حَبْرَ الأُمَّةِ، ويُسمَّى البَحْرَ لِغزارةِ عِلْمِه، وصحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ دعا له بقولِه: (اللهمَّ

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٦) [كتاب العلم- باب متى يصح سماع الصغير؟]، ومسلمٌ (٥٠٤) [كتاب الصلاة- باب سترة المصلي]، وغيرهما.

فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْهُ التأويلَ)[1]، (اللهمَّ علِّمْهُ الحكمةَ وتأويلَ القرآنِ)[2]، (اللهمَّ باركْ فيه، وانشرْ منه، واجعلْه منْ عبادِكَ الصالحينَ)[3].

وكانَ عُمَرُ وعثمانُ يَدعوانِهِ فيشيرُ عليْهِما معَ أهلِ بدرٍ حتى قالَ بعضُهم لِعمرَ: أتَدْعو هذا الفَتى وفي أبنائِنا مَنْ هو مِثْلُه؟ فقالَ: إنَّه ممَّنْ قد عَلِمْتُم، فدَعاهم يومًا ودعاهُ معَهم فسألَهم عن هذهِ السورةِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ فقالوا: أمرَ اللهُ نبيَّه إذا فتَحَ اللهُ علَيْهِ أنْ يَستغفِرَ وأن يَتوبَ إليه، فقالَ له: ما تقولُ يا ابنَ عباسٍ؟ فقالَ: ليسَ كذلكَ، ولكنَّه أخبرَ نبيَّهُ بحضورِ أجلِه، فقالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أيْ فتحُ مكةَ، ﴿رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أيْ فعندَ ذلكَ علامةُ موتِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقالَ: كيفَ تَلومُوني علَيْه بعدَ ما تَرونَه؟[4]

وقالَ له عمرُ: واللهِ إنَّكَ لأَصبَحُ الفتيانِ وجهًا، وأحسنُهم عقلًا، وأفقهُهم في كتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وقالَ الحسنُ: كانَ ابنُ عباسٍ يَقومُ على منبرِنا هذا فَيَقرأُ البقرةَ وآلَ عمرانَ فيُفسِّرُهما آيةً آيةً.

وكانَ عمرُ إذا ذَكَرَه يقولُ: ذاكُمْ فَتى الكهولِ لهُ لسانٌ سؤولٌ وقلبٌ عقولٌ. وقالَ ابنُ مسعودٍ: نِعْمَ ترجمانُ القرآنِ ابنُ عباسٍ، لوْ أدركَ أسنانَنا ما عاشرَه منَّا أحدٌ.

---

(١) قوله: (اللهمَّ فقِّه في الدِّين) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٤٣) [كتاب الوضوء- باب وضع الماء عند الخلاء]، ومسلمٌ (٢٤٧٧) [كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل عبد الله بن عباس]، وغيرهما من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه بتمامه أحمد (٢٣٩٧) [مسند عبدالله بن العبَّاس]، والبزَّار (٥٠٧٥) [مسند ابن عبَّاس]، وابن حِبَّان (٧٠٥٥) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة- ذكر وصف الفقه والحكمة]، والحاكم (٥٣٤/٣) [كتاب معرفة الصحابة]، وغيرهم بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٦٦) [أبواب السنة- باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ] من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: (وتأويل الكتاب).

(٣) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣١٥/١) [ترجمة ابن عبَّاس]، وابن عديٍّ في "الكامل" (٥٥٠/٣) [ترجمة داود ابن عطاء]، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بدون قوله: (واجعله من الصالحين)، وذكره ابن عبدالبر في "الاستيعاب" (٩٣٥/٣) [ترجمة ابن عباس] بتمامه، وأشار لصحَّته.

(٤) أخرجه أحمد (٣١٢٧) [مسند عبدالله بن العباس]، والبزَّار (١٩٢) [مسند ابن عباس]، وغيرهما. والحديث في الصحيح أخرجه البخاري مختصراً (٣٦٢٧) [كتاب المناقب- باب علامات النبوة في الإسلام].

وقالَ مسروقٌ: أدركتُ خمسَمائة منَ الصحابةِ إذا خالَفوا ابنَ عباسٍ لم يزلْ يُقرِّرُهمْ حتى يَرجعوا إلى قولِه، قالَ: وكنتُ إذا رأيتُه قلتُ: أحلمُ الناسِ، وإذا تكلَّمَ قلتُ: أفصحُ الناسِ، وإذا حدث قلتُ: أعلمُ الناسِ. وقالَ عمرُو بنُ دينارٍ: ما رأيتُ مجلسًا أجمعَ لِكُلِّ خيرٍ منْ مجلسِ ابنِ عباسٍ.

وثَبتَ أنَّهُ رأى جبريلَ مرتَيْنِ[1]، وهذا سببُ عَماهُ في آخرِ عُمْرِه، فإنَّه وَرَدَ أنَّهُ سألَ النبيَّ ﷺ عمَّنْ رآه مَعَهُ ولمْ يعرفْهُ، فقالَ: ذاكَ جبريلُ، أما إنَّكَ ستَفقدُ بصرَكَ[2]، وفي ذلكَ يقولُ:

إنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا * فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ

قَلْبِي ذَكِيٌّ وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ * وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَسْلُولُ

وعنْه أنَّه قالَ: لما قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ قلتُ لرجلٍ منَ الأنصارِ: هَلُمَّ فلنسألْ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ فإنَّهم اليومَ كثيرٌ، فقالَ: واعجبًا لكَ يا ابنَ عباسٍ، أَترَى النَّاسَ يَفْتَقِرُونَ إليكَ وفي الناسِ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ مَنْ فيهِمْ، قالَ: فتركتُ ذاكَ، وأقبلتُ أسألُ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ عنِ الحديثِ، فإنَّهُ كانَ لَيَبلُغُني الحديثُ عنِ الرجلِ فآتي بابَه وهو قائلٌ فأتوسَّدُ الترابَ، فيخرجُ فيراني فيَقُولُ: يا ابنَ عمِّ رسولِ اللهِ: ما جاءَ بكَ؟ هلَّا أرسلتَ إليَّ فأتيتُكَ، فأقولُ: لا، أنا أحقُّ أنْ آتيكَ فأسألَكَ عنِ الحديثِ، فعاشَ ذلك الرجلُ الأنصاريُّ حتى رآني وقدِ اجتمعَ الناسُ حَوْلي يَسألوني فيقولُ: هذا الفَتَى كانَ أعقلَ منِّي.

وعنْ أبي صالحٍ قالَ: رأيتُ منِ ابنِ عباسٍ مجلسًا لو أنَّ جميعَ قريشٍ فخَرَتْ به لكانَ لها فخرًا، رأيتُ الناسَ اجْتَمعوا حتى ضاقَ بِهِمُ الطريقُ، فما كانَ أحدٌ يَقدرُ أنْ يجيءَ ولا يَذْهَبَ،

---

(١) أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (٢/٣٧٠)، وأحمد في "الفضائل" (١٥٦١) [فضائل عبد الله بن عباس]، والترمذي (٣٨٢٢) [أبواب المناقب- باب مناقب عبد الله بن عباس] من طريق سفيان الثوريِّ، عن ليث، عن أبي الجهضم موسى بن سالم: أنَّ ابن عبَّاس رأى جبريل مرَّتين، ودعا له النبيُّ ﷺ بالحكمة مرتين. وقال الترمذيُّ: هذا حديثٌ مرسلٌ، ولا نعرف لأبي جهضم سماعًا من ابن عبَّاسٍ. وأخرجه الطبراني (١٠/رقم ١٠٦١٥) عن مجاهد عن ابن عبَّاس.

(٢) أخرجه الطبراني في "الكبير" (١٠/رقم ١٠٥٨٤)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٦/٤٧٨)، وقال الهيثمي في المجمع (١٥٥١٩) [كتاب المناقب]: وفيه مَن لم أعرفهم.

قالَ: فدخلتُ عليه فأخبرتُه بمكانهم على بابه فقالَ: ضعْ لي وَضُوءا قالَ: فتوضَّأَ وجلسَ وقالَ: اخرجْ وقلْ لهم: مَنْ كانَ يُريدُ أنْ يسألَ عنِ القرآنِ وحروفه فلْيَدخُلْ! قالَ: فخرجتُ فأذنتُهم فدَخلوا حتَّى ملؤوا البيتَ والحجرةَ فما سَألوه عن شيءٍ إلا أخبرَهم عنه، وزادَهم مِثْلَ ما سألوهُ عنْهُ أو أكثرَ، ثم قالَ: إخوانَكم، فخرَجوا، ثم قالَ: اخرُجْ فقلْ: مَنْ أرادَ أنْ يَسألَ عنْ تفسيرِ القرآنِ أوْ تأويلِه فلْيدخُلْ!

قالَ: فخرجتُ فأذِنتُهم فدَخَلُوا حتَّى مَلَؤُوا البيتَ والحجرةَ، فما سألُوه عن شيءٍ إلا أخْبَرَهم بِهِ وزادَهم مثلَ ما سألُوهُ أو أكثرَ، ثم قالَ: إخوانَكم، فخَرَجُوا، ثم قالَ: اخرُجْ فقلْ: منْ أرادَ أنْ يسألَ عنِ الحلالِ والحرامِ والفقهِ فلْيدخُلْ! فخرجْتُ فقلتُ لَهُمْ، فدخَلُوا حتَّى مَلَؤُوا البيتَ والحجرةَ، فما سألُوهُ عنْ شيءٍ إلا أخبرَهم به وزادَهم مثلَه، ثم قالَ: إخوانَكم فخرجوا، وقالَ: اخرجْ وقُلْ: مَنْ أرادَ أنْ يَسألَ عنِ الفرائضِ وما أشبَهَها فلْيدخُلْ!

قالَ: فخرجتُ فأذِنتُهم فدَخلُوا حتَّى مَلَؤُوا البيتَ والحجرةَ فما سألُوهُ عن شيءٍ إلا أخبرَهُم به وزادَهم مثلَهُ، ثم قالَ: إخوانَكم فخَرَجوا، ثم قالَ: اخرُجْ فقُلْ: منْ أرادَ أنْ يَسألَ عنِ العربيَّةِ والشِّعْرِ والغَريبِ منَ الكَلامِ فلْيدخُلْ، قالَ: فدخَلُوا حتَّى مَلَؤُوا البيتَ والحجرةَ، فما سألوه عن شيءٍ إلا أخبرَهم به وزادهم عليهِ، قالَ أبو صالحٍ: فما رأيتُ هذا لِأحدٍ منَ النَّاسِ.

وعنِ ابنِ عُمَرَ أنَّ رجلًا أتاه يَسألُه عنْ قولِه تَعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فقالَ: اذهَبْ إلى ذلك الشيخِ فسَلْهُ، ثم تَعالَ فأخْبِرْني ما قالَ، فذهبَ إلى ابنِ عباسٍ فسأله فقالَ ابنُ عباسٍ: كانتِ السمواتُ رَتْقًا لا تُمطِرُ، وكانتِ الأرضُ رَتْقًا لا تُنبتُ، ففَتَقَ هذِه بالمطرِ وهذِه بالنَّباتِ، فرجعَ الرجلُ إلى ابنِ عمرَ فأخبرَه فقالَ: إنَّ ابنَ عباسٍ قدْ أُوتيَ عِلمًا، صَدَقَ هَكَذا كَانَتَا، ثم قالَ ابنُ عُمَرَ: قدْ كنتُ أقولُ ما تعجبني جَراءةُ ابنِ عباسٍ على تَفْسيرِ القرآنِ، فالآنَ قدْ علِمْتُ أنَّهُ أُوتيَ علمًا[1].

---

(١) أخرجه أبو نعيم (١/ ٣٢٠) [ترجمة ابن عباس]، ووالبيهقي في "الأسماء والصفات" (٣٩)، وابن عساكر في "التاريخ" (٧٣/ ١٩٠) [ترجمة ابن عباس]، وغيرهم.

وشَتَمَهُ رجلٌ فقالَ له: إنَّكَ تَشتمُني وفيَّ ثلاثُ خصالٍ، إني لَآتي عَلى الآيةِ مِنْ كتابِ اللهِ تَعالى فأودُّ أنَّ جميعَ الناسِ يَعلمُونَ مِنْها ما أعْلَمُ، وإني لَأسمعُ بالحاكمِ مِنْ حُكَّامِ المسلمينَ يَعدِلُ في حُكمِه فأفرَحُ به، ولَعلِّي لا أقاضِي إليهِ أبدًا، وإني لَأسمعُ بالغيثِ أصابَ البلدَ مِنْ بلادِ المسلمينَ فأفرَحُ بِهِ، وما لي به سائمةٌ(1).

وكانَ يقولُ: ما بلَغَني عنْ أخٍ لي مكروهٌ قط إلا أنزلتُه أحدَ ثلاثةِ منازلَ، إنْ كانَ فوقي عرفتُ له ذلكَ من قدرِهِ، وإنْ كانَ نظيري تفضَّلْتُ عليْه، وإنْ كانَ دوني لم أحتفِلْ به، هذه سِيرَتي في نفْسِي، فمَنْ رَغِبَ عنْها فأرضُ اللهِ واسعةٌ(2).

وعنْ طاووسٍ أنَّهُ قالَ: ما رأيتُ أحدًا كانَ أشدَّ تعظيمًا لحرماتِ اللهِ تعالى مِنِ ابنِ عباسٍ، واللهِ لو أشاءُ إذ ذكرتُه أنْ أبكيَ لبكيتُ(3). وكانَ ابنُ عباسٍ يقولُ: لأنْ أعولَ أهلَ بيتٍ مِنَ المسلمينَ شهرًا أو جمعةً أو ما شاءَ اللهُ أحبُّ إليَّ مِنْ حجةٍ بعدَ حجةٍ، ولَطبقٌ بدانقٍ أُهديهِ إلى أخٍ لي في اللهِ أحبُّ إليَّ مِنْ دينارٍ أُنفقُهُ في سبيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ(4). وكانَ يقولُ أيضًا: خُذِ الحكمةَ ممَّنْ سمعتَ، فإنَّ الرجلَ لَيتكلَّمُ بالحكمةِ، وليسَ بحكيمٍ، فتكونُ كالرَّمْيَةِ خرجتْ منْ غيرِ رامٍ(5).

تُوفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالطَّائفِ سنةَ ثمانٍ وستينَ في خلافةِ ابنِ الزبيرِ، وقيلَ: سنةَ تسعٍ، وقيلَ: سنةَ سبعينَ، وهو ابنُ إحدى وسبعينَ سنةً، وصلَّى عليْه محمدُ بنُ الحنفيَّةِ، وقالَ: اليومَ ماتَ ربانيُّ هذهِ الأُمَّةِ، ولمَّا وُضِعَ لِيُصلَّى عليه جاءَ طائرٌ أبيضُ حتى دَخَلَ في أكفانه فالتُمِسَ فلمْ يوجَدْ، فلمَّا سوِّيَ عليْه سُمِعَ قائلا يقولُ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/رقم ١٠٦٢١)، وأبو نعيم (٣٢١/١)، وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو نعيم (٨٥/٤) [ترجمة ميمون بن مهران]، وغيره.

(٣) أخرجه أحمد في الفضائل (١٨٣٨) [فضائل ابن عباس] أبو نعيم (٣٢٩/١) [ترجمة ابن عباس].

(٤) أخرجه أبو نعيم (٣٢٨/١) [ترجمة ميمون بن مهران]، وغيره.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٥٨٨) [كتاب الأدب]، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٧٨) [باب ما جاء في سوء الجوار من الكراهة والذم]، والبيهقي في المدخل (٨٤٣) [باب ما يخشى من زلة العالم في العلم أو العمل]، وغيرهم.

ولمَّا بلغَ جابرَ بنَ عبدِ اللهِ وفاتُه صفَّقَ بإحدى يديه على الأخرى، وقالَ: ماتَ أعلمُ النَّاسِ وأحلمُ الناسِ، ولقدْ أُصيبَتْ به هذهِ الأُمَّةُ مصيبةً لا تُرْتَقُ[1].

***

(قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ) أيْ على بغلةٍ لِمَا نقلَهُ الواحديُّ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّهُ قالَ: أَهْدَى كسرى لِلنبيِّ ﷺ بغلةً فرَكِبَها بحَبْلٍ مِنْ شَعْرٍ، ثم أردَفَني خلْفَه، وسارَ بي مليًّا، ثُمَّ التفتَ فقالَ: يا غلامُ ... إلخ[2]، وفيه جوازُ الإردافِ على الدابَّةِ إنْ أطاقَتْه، **(يَوْمًا)** أيْ في النهارِ دونَ اللَّيْلِ **(فَقَالَ يَا غُلَامُ)** بِضمِّ الميم؛ لأنَّه نكرةٌ مقصودةٌ، وخاطَبَهُ بذلك؛ لأنَّ سِنَّهُ إذْ ذاكَ كانَ نحوَ عشرِ سنينَ، وأصلُه مِنَ الاغتلام وهو شِدَّةُ الشَّبَقِ، ويُطلَقُ الغلامُ على الرجلِ مجازًا، باسم ما كانَ عليه، كما يُقالُ لِلصغيرِ شيخٌ مجازًا، ولفظُ روايةِ أحمدَ (يا غلامُ أوْ يا غُلَيِّمُ)[3] على الشكِّ.

(إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ) ذَكَرَ له ذلك قبلَ ذِكْرِ الكلماتِ ليكونَ ذلك أوقعَ في نفسه؛ إذْ حصولُ الشيءِ بشوقٍ وتنشيطٍ ألَذُّ مِنَ الماءِ الباردِ على الظمأ؛ لأنَّ الموصولَ بعدَ الطلبِ أعزُّ مِنَ المُساقِ بلا تَعَبٍ، والتعليمُ تنبيهُ النفسِ بتصورِ المَعاني، وربَّما استُعمِلَ في معنى الإعلام، لكنَّ الإعلامَ اختُصَّ بما إذا كانَ بإخبارٍ سريعٍ، والتعليمُ اختُصَّ بما يكونُ بتكريرٍ وتكثيرٍ حتَّى يَحصُلَ منه أثرٌ في نفسِ المتعلِّم، وفي روايةِ مسلم "يَنفعُكَ اللهُ بهنَّ أو بعلمِهنَّ أوْ بالعملِ بمقتضاهنَّ أو بها"[4]، وجاءَ "بها" بصيغةِ القِلَّةِ ليؤذنَه بأنَّها قليلةُ اللَّفْظِ فيسهُلُ حفظُها، وأعلَمَهُ بعِظَمِ خطرِها ورفْعةِ محلِّها بتنوينِها تنوينَ التعظيم، وتأهيلُه لهذهِ الوَصايا الخطيرةِ القدْرِ الجامعةِ مِنَ الأحكامِ والحِكَمِ والمعارفِ ما يَفوقُ الحصرَ دليلٌ على أنَّ المصطفى عَلِمَ ما يؤول إِلَيْه أمرُ ابنِ عباسٍ مِنَ العلمِ والمعرفةِ بكمالِ الأخلاقِ والأحوالِ الباطنةِ والظاهرةِ.

---

(١) أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (٣٧٢/٢)، وابن عساكر في "التاريخ" (١٩٠/٧٣) [ترجمة ابن عباس].

(٢) أخرجه الحاكم (٥٤١/٣) [كتاب معرفة الصحابة].

(٣) مسند أحمد (٢٨٠٣) [مسند عبدالله بن العباس].

(٤) أخرجه أحمد (٢٨٠٣) [مسند عبدالله بن العباس]، وغيره، ولم أجدها في صحيح مسلم.

حفظ الله في أوامره ونواهيه

(**احْفَظِ اللهَ**) أي احفظْ دينَ اللهِ مِنَ التضييعِ والتبديلِ بأنْ تَحفظَ أوامرَه الَّتي أوجبَها ونواهيَه التي حرَّمَها فتقِفَ عندَ أوامرِه بالامتثالِ وعندَ نواهيهِ بالاجتنابِ، فلا يَراكَ حيثُ نَهاكَ، فإذا أطعتَهُ بامتثالِ أوامرِه واجتنابِ نواهيهِ أحاطَكَ بمُعقِّباتٍ مِنْ بينِ يديكَ ومِنْ خلفِكَ يَحفظونَكَ مِنْ أمرِ اللهِ، وحقيقةُ الحفظِ صيانةُ المحفوظِ مِنَ الضياعِ أو أنْ يَصِلَ إليْه أذًى.

(**يَحْفَظْكَ**) في نفسِكَ وأهلِكَ ومالِكَ، ومصداقُ ذلك قولُه تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وما يُصيبُ الإنسانَ مِنْ نواكبَ ونوائبَ فإنَّما هو بتضييعِ أوامرَ اللهِ وتعديهِ حدودَه بشهادةِ قولِه تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وعبَّرَ بقولِه: "يَحْفَظْكَ" دونَ غيرِه؛ لأنَّ الجزاءَ مِنْ جنسِ العملِ، ألَا تَرى إلى قولِه تَعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقولِه: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقولِه: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، فمَنْ حَفِظَ اللهَ بما أمره حَفِظَهُ اللهُ مِنْ بينِ يديه ومِنْ خلفِه وعنْ يمينِه وعنْ شمالِه ومِنْ فوقِه ومِنْ تحتِه، وقدْ رأى إبراهيمُ بنُ أدهَمَ رجلًا نائمًا وعندَه حيَّةٌ في فمِها طاقةُ نرجسٍ، فما زالتْ تذبُّ عنه حتَّى استيقظَ.

ومَنْ حَفِظَ اللهَ في صِباهُ وقوتِه حَفِظَهُ اللهُ في كِبرِه، ومَتَّعَهُ بحولِه وقوتِه، وجاوزَ بعضُ العلماءِ كالقاضي الحسنِ البصريِّ والبغويِّ[1] والجوينيِّ مائةَ سنة، وهو ممتَّعٌ بعقلِه وقوَّتِه، ووثَبَ الجوينيُّ يومًا وثْبةً شديدةً فكُلِّمَ بسببِها، فقالَ: هذه جوارحُ حفِظْناها مِنَ المعاصي في الصِّغَرِ فحفِظَها اللهُ علَيْنا في الكِبَرِ، ونُقِلَ عنِ القاضي أبي الطيبِ[2] أنَّه عاشَ مائةً وستينَ سنةً ولمْ يَختَلَّ عضوٌ مِنْ أعضائِه، فقِيلَ له في ذلكَ، فقالَ: لمْ أعصِ اللهَ بعضوٍ منها.

(١) العلامة ظهير الدين أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي المعروف بالفراء، صنف كتبًا كثيرة، منها: كتاب التهذيب في الفقه، وشرح السنة، ومعالم التنزيل، والمصابيح، والجمع بين الصحيحين، وغير ذلك، توفي سنة (٥١٠). وفيات الأعيان (١٣٦/٢)، وطبقات المفسرين للداودي (١٦١/١).

(٢) العلامة القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري الشافعي، شرح المزني وصنف في الخلاف والمذهب والأصول والجدل كتبا كثيرة توفي سنة (٤٥٠). تاريخ بغداد (٣٦٤/٩)، ووفيات الأعيان (٥١٢/٢)، وطبقات السبكي (١٢/٥)

وقدْ يتعدَّى الحفظُ إلى ذريَّته كما في قوله تَعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وكانَ سعيدُ بنُ المسيبِ يقولُ لِابنه: إنِّي لأزيد في صلاتي مِنْ أجلكَ رجاءَ أنْ تُحفَظَ، ثم يَتْلُو ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

وكانَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ يَقولُ: ما مِنْ مؤمنٍ صالحٍ يموتُ إلَّا حَفِظَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- في عقبِه وعقبِ عقبِه.

وقدْ يتعدَّى الحفظُ إلى جيرانه وأهلِ ناحيتِه لقولِ ابنِ المباركِ: إنَّ اللهَ لَيحفَظُ بالرجلِ الصالحِ وَلَدَه وولدَ ولدِه والدويراتِ الَّتي حولَه. وعكسُ هذا أنَّ بعضَ السَّلَفِ رأى شيخًا يَسألُ الناس، فقالَ: هذا ضيَّعَ اللهَ في صِغَرِه فضيَّعَهُ في كِبَرِه.

(**احْفَظ اللهَ**) بما مرَّ (**تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**) بضمِّ التَّاءِ وفتحِ الهاءِ، أصلُه "وُجاهُكَ" بضمِّ واوِه وكسرِها، ثم قُلِبَتْ تاءً، وهو في الأصلِ بِمَعْنى "أَمَامَكَ" -بفتحِ الهمزةِ- المصرَّح به في الروايةِ الآتيةِ، لَكنَّهُ لاستحالةِ الجهةِ عَلَيْه تعالى بمعنى مَعَكَ حفظًا وإحاطةً وتأييدًا وإعانةً، فالمعيَّةُ معنويَّةٌ لا ظرفيَّةٌ، وأنْشَدَ بعضُهم:

إِذَا نَحْنُ أَدْلَجْنَا وَأَنْتَ أَمَامَنَا * كَفَى لِمَطَايَانَا بِذِكْرِكَ هَادِيَا

وهو تأكيدٌ لِما قبْلَه، ومِنْ ثم أوردَه بِلا عاطفٍ لِكمالِ الاتِّصالِ بَيْنهما، وخَصَّ الأَمَامَ مِنْ بينِ بقيةِ الجهاتِ الستِّ إشعارًا بشرفِ المقصدِ وبأنَّ الإنسانَ مسافرٌ إلى الآخرةِ غيرُ باقٍ في الدُّنْيا، والمسافرُ إنَّما يَطلُبُ أمامَه لا غيرُ، فكانَ المعنى: تَجِدُهُ حيثُما توجَّهْتَ وقصدتَ مِنْ أمرِ الدُّنيا والدِّينِ.

وقدْ رويَ أنَّ النبيَّ ﷺ أرسلَ سفينةَ مولاهُ في أمرٍ فنزَلَ في سفينةٍ فانكسرتِ بهم السفينةُ فخرجَ إلى البرِّ فَجاءَهُ الأسدُ فقالَ: أنا مولى رسولِ اللهِ ﷺ، فجعلَ الأسدُ يَمشي مَعَهُ حتى دلَّهُ على الطريقِ فلمَّا وقفه عليها جعلَ يُهمْهِمْ كأنَّهُ يودِّعُهُ[1].

(١) أخرجه الطبرانيُّ (٧/رقم ٦٤٣٢)، وأبو نعيم (١/٣٦٩) [ترجمة سفينة]، والحاكم (٣/٦١٩) [كتاب تواريخ المتقدمين]، وغيرهم.

ورويَ أنَّ ابنَ عُمَرَ كانَ في سفرٍ فلَقِيَ جماعةً قدْ وَقَفُوا علَى الطَّريقِ خوفًا مِنَ السبُعِ، فقالَ: إنَّما يُسلَّطُ على ابنِ آدمَ بما يَخافُ، ولو أنَّهُ لم يَخفْ غيرَ اللهِ لَمْ يُسلَّطْ علَيْه شيءٌ[1].

وقالَ المزنيُّ: قصدتُ السَّلامَ على أبي الخيرِ النيسابوريِّ، فلمَّا صلَّيْنا المغربَ خرجتُ لأتطهَّرَ فقصدني السبعُ، فعُدْتُ إلَيْهِ وأخبرتُه، فخرَجَ وصاحَ على الأسَدِ، وقالَ له: أَلَمْ أقلْ لكَ لا تَتعرَّضْ لِأضْيَافي، فتنحَّى عنِّي وتطهَّرْتُ، فلمَّا رجعتُ قالَ لِي الشيخُ: اشْتغلْتُمْ بتقويمِ الظَّاهرِ فخِفتُمُ الأسدَ، واشتغلْنَا بتقويمِ الباطنِ فخافَنَا الأسدُ.

***

الاستغناء بالله عن الناس

(**إِذَا سَأَلْتَ**) أيْ أردتَ أنْ تسألَ شيئًا (**فَاسْأَلِ اللهَ**) دونَ غيرِه أنْ يُعطيَكَ إيَّاهُ مِنْ فضلِه، فإنَّهُ الغنيُّ عَلى التَّحقيقِ والمولى لكلِّ خيرٍ وتوفيقٍ، وخزائنُ الوجودِ بيدِه وأمرُها إلَيْه، لا مُعطيَ ولا مانعَ سواه.

وأنشدَ بعضُهم:

سَلِّمِ الأَمْرَ إِلَى مَالِكِهِ * فَلَهُ الْعِلْمُ الْمُحِيطُ الوَاسِعُ
واطْلُبِ الْمَعْرُوفَ مِنْهُ دَائِمًا * فَهُوَ مُعْطِي ذَاكَ وَهُوَ الْمَانِعُ

وقالَ طاووسٌ لِعطاءٍ: إيَّاكَ أنْ تَطلُبَ حَوائجَكَ ممَّنْ يُغلِقُ بابَه دونَكَ، وعلَيْكَ بمَنْ بابُه مفتوحٌ إلى يومِ القيامةِ، أمرَكَ أنْ تسألَهُ، ووعدَكَ أنْ يُجيبَكَ.

وقالَ عامرُ بنُ قيسٍ: قرأتُ آياتٍ في كتابِ اللهِ فاستغنيتُ باللهِ عنِ الناسِ: قولَه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] فلمْ أسألْ غيرَه كشفَ ضُرِّي، وقولَه تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] فلمْ أُرِدِ الخيرَ أوِ الفضلَ إلا منْهُ،

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" (المسندة ١٨٢) [الأصل السادس والعشرون] من طريق بقية بن الوليد، عن بكر بن خذلم الأسدي: حدَّثنا وهب بن أبان، عن عبدالله بن عمر، به مرفوعًا. واتهم الذهبي به وهب بن أبان، وقال الحافظ: ذكره الأزدي فقال: متروك الحديث مجهول، غير مرضي، وقال أبو حاتم: ليس هذا إسنادٌ، وبكرٌ ليس بشيء. انظر" لسان الميزان" (ت: ٨٣٨٦) [وهب بن أبان]، وعلل ابن أبي حاتم (١٨٦٠) [علل أخبار رُويت في الزهد].

وقولَه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فلمْ أطلبِ الرزقَ من غيرِه، فأغناني اللهُ عنِ الناسِ بهذه الآياتِ.

وقالَ الفُضَيْلُ بنُ عياضٍ: أحبُّ النَّاسِ إلى النَّاسِ مَنِ استغنى عنِ الناسِ، وأبغضُ الناسِ إلى الناسِ مَنِ احتاجَ إلى النَّاسِ وسألهم، وأحبُّ النَّاسِ إلى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مَنْ سألَهُ واستغْنَى به عن غيرِهِ، وأبغضُ الناسِ إلَيْهِ منِ استغنى عنهُ وسألَ غيرَه.

وقالَ ابنُ السَّمَّاكِ: إنَّ في طلبِ الرجلِ الحاجةَ من أخيه فتنةً إنْ هو أعطاه حَمِدَ غيرَ الذي أعطاهُ، وإنْ منعَهُ ذمَّ غيرَ الذي منَعَهُ، أيْ لأنَّهُ لا مُعطِيَ ولا مانِعَ في الحقيقةِ إلا اللهُ تعالى.

وفي الحديثِ أنَّهُ ﷺ قالَ: (مَنِ استغْنَى باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أحوجَ النَّاسَ إليهِ)[1]، ومنْ دعاءِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اللهمَّ كما صُنْتَ وجْهي عنِ السجودِ لِغيرِكَ فصُنْهُ عنْ مسألةِ غيرِكَ.

وكانَ بعضُهم يَقَعُ سوطُه فلا يَسألُ أحدًا يُناوِلُه إيَّاهُ؛ لأنَّ السؤالَ فيه ذُلٌّ وافتقارٌ. وكانَ بعضُهم يقولُ: منِ احتجتُ إلَيْهِ هُنْتُ علَيْهِ.

وقالَ بعضُ العارفينَ: قيلَ لي في نومٍ كاليقظةِ أوْ يقظةٍ كالنومِ: لا تُبْدِيَنَّ فاقةً لِغيري فأضاعِفَها عليكَ مكافأةً بسوءِ أدبِكَ، إنَّما ابتليتُكَ بالفاقةِ وحكمتُ لنفسي بِالغِنَى لِتفزَعَ منها إليَّ وتتضرعَ منها لديَّ، فإنْ وصلتَها بي وصلتُها بِالغِنى، وإنْ وصلتَها بغيرِي قطعتُ عنكَ موادَّ معونَتي.

وسألَ رجلٌ الإمامَ أحمدَ أنْ يَعظَهُ فقالَ الإمامُ: إنْ كانَ اللهُ تكفَّلَ بالرزقِ فاهتمامُكَ لماذا؟ وإنْ كانَ الرزقُ مقسومًا فالحرصُ لماذا؟ وإنْ كانَ الخلفُ على اللهِ فالبُخْلُ لماذا؟ وإنْ كانتِ الجنةُ حقًّا فالراحةُ لماذا؟ وإنْ كانتِ النَّارُ حقًّا فالمعصيةُ لماذا؟ وإنْ كانتِ الدُّنيا فانيةً فالطمأنينةُ لماذا؟ وإنْ كانَ الحسابُ حقًّا فالجَمْعُ لماذا؟ وإنْ كانَ كُلُّ شيءٍ بقضاءِ اللهِ وقدرِه فالحزنُ لماذا؟

---

(١) أخرجه ابن المقرئ في معجمه (٢٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٢٧٣) [ترجمة سعيد بن المسيب]، وغيرهما، عن سعيد بن المسيب من كلامه، ولفظ أبي نعيم: "افْتَقَرَ النَّاسُ إليه".

وقالَ حاتمُ الأصمُّ لِزوجتِهِ لمَّا أرادَ أن يخرج للغزو: كمْ أعطيكِ لِنفقتِكِ؟ فقالتْ: على قدْرِ حَيَاتي، قالَ حاتمٌ: ليسَ هذا بيدي، قالتْ: أمرُ الرزقِ أيضًا ليسَ بيدِكَ، ثم بعدَما خرجَ سألتْها عجوزٌ وقالتْ لها: غابَ حاتمٌ عنْكِ، كمْ أبْقَى مِنَ النَّفَقةِ لكِ؟ فقالتْ لها: حاتمٌ كانَ مرزوقًا والرازقُ ما غابَ عنِّي.

(وَإِذَا اسْتَعَنْتَ) أيْ طلبْتَ الإعانَةَ على أمرٍ منْ أمورِ الدُّنْيا والدِّينِ، ولذا حذفَ المعمولَ المؤذنَ بالعموم **(فَاسْتَعِنْ بِاللهِ)**؛ لأنَّهُ القادرُ على كُلِّ شيءٍ، وغيرُه عاجزٌ عنْ كُلِّ شيءٍ، والاستعانةُ إنَّما تكونُ بِقادرٍ على الإعانةِ، وأمَّا مَنْ هو كَلٌّ على مولاهُ لا قدرةَ له عَلى إنفاذِ ما يَهواه لِنفسه فضلًا عن غيرِه فكيفَ يُؤهَّلُ لِلاستعانةِ بِهِ أو يُتمسَّكُ بسببِه، ومَنْ كانَ عاجزًا عنِ النَّفْعِ والدَّفْعِ عنْ نفسِه فهو عنْ غيرِه أعجزُ، لَيْتَ الفحلَ يَهضِمُ نفْسَهُ، فاستعانةُ مخلوقٍ بمخلوقٍ كاستعانةِ مسجونٍ بمسجونٍ، فلا تستعنْ إلا بمولاكَ، فهو وليُّكَ في أُخْراكَ وأُولَاكَ، كيفَ تَستعينُ بعبدٍ معَ علمِكَ بعجزِه؟ فمَنْ لا يستطيعُ دفعَ نازلةٍ عنْ نفسِه كيفَ يدفعُها عنْ غيرِه منْ أبناءِ جنسِه، فلا تستنصرْ إلَّا بِهِ، فهو الوليُّ النَّاصرُ، ولا تعتصمْ إلا بحبلِه، فإنَّهُ العزيزُ القادرُ.

وكتبَ الحسنُ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: لا تستعنْ بغيرِ اللهِ يَكِلْكَ اللهُ إليه، وما أحْسَنَ قولَ الخليلِ -على نبيِّنا وعلَيْهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ- لجبريلَ لما قالَ له: أَلَكَ حاجةٌ؟ حينَ وُضِعَ في المنجنيقِ: أمَّا إليكَ فلا، قالَ: سَلْ ربَّكَ، قالَ: حَسْبِي مِنْ سُؤالي عِلْمُهُ بحالي[1].

وقالَ بعضُ العارفينَ: لا تطلبْ معونةَ المخلوقِ فتتوجهُ عليكَ الحقوقُ، وقدْ لا تفي بها، وعليكَ بالافتقارِ والانكسارِ والذِّلةِ والاضطرارِ ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]. وقالَ بعضُهم: لا تكنْ عبدًا إلَّا لِمَنْ يقومُ بمصالحِكَ يُعينُكَ في مآربِكَ، وما يَقومُ بِأمورِكَ إلا اللهُ، فلا تستعنْ إلا بِهِ، ولا يستعبدْكَ سواهُ، فهو المُسخِّرُ لكَ عبادَه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠)، وغيره، عن مقاتل وسعيد من قولهما، وروي عن غيرهما، ولا أصل له مرفوعًا. وذكره البغويُّ في "التفسير" (٣/ ٢٩٤) بصيغة التمريض عن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو من الإسرائيليات.

الحث على التوكل

ثم أكَّدَ ﷺ ما تقدَّمَ وحثَّ على التَّوكُّلِ والاعتمادِ على اللهِ بقولِه: (وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ) خطابٌ لابنِ عباسٍ، والمرادُ العمومُ، وإنَّما أكَّدَ الأمرَ بـ"أنَّ" حثًّا على تَيَقُّنِ أنَّهُ لا نفعَ ولا ضرَّ إلا مِنَ اللهِ، والمرادُ بالأُمَّةِ هنا جَميعُ الخلقِ، كمَّا صرَّحَ به في روايةِ أحمدَ[1]، وأمَّا مدلولُها وضعًا فالجماعةُ كقولِه تعالى: ﴿أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وأتباعُ الأنبياء كما تقولُ: نحنُ مِنْ أمةِ محمدٍ ﷺ، والرجلُ الجامعُ للخيرِ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]، قالَ الشاعرُ:

وليْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ * أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي واحِدِ

والدِّينُ والمِلَّةُ كقولِه تَعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقولُ بعضِهم: وهلْ يَستوي ذو أمةٍ وكفورٌ، وقولُ الآخرِ:

كُنَّا عَلَى أُمَّةِ آبَائِنَا * وَيَقْتَدِي الآخَرُ بِالأَوَّلِ

والزمانُ كقولِه تَعالى: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]، وقولِه تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أيْ بعدَ حينٍ وزمانٍ، والقامةُ كقولِكَ: "فلانٌ حَسَنُ الأُمَّةِ" أيِ القامةِ، والرجلُ المنفردُ بدينِهِ الذي لَمْ يُشرِكْهُ فيه أحدٌ كقولِه ﷺ: (يُبعثُ زيدُ بنُ عمرِو بنِ نفيلٍ أُمَّةً وحدَهُ)[2]، والأُمُّ كـ"هذهِ أُمَّةُ زيدٍ" أيْ أمُّ زيدٍ، وأمَّا الإمةِ -بالكسرِ- فهي النِّعمةُ، كما قال الجوهريُّ: وأمَّا الأَمَّةُ -بالفتحِ- فهيَ شجةٌ في الرأسِ أفضتْ للدماغِ.

(لَوِ اجْتَمَعَتْ) أنَّثَهُ باعتبارِ اللَّفْظِ، وذَكَّرَ ما بعدَه باعتبارِ المعنى، ولفظُ "لَوْ" بمعنى "أَنْ"؛ إذِ المَعْنى عَلى الاستقبالِ كما في قولِه تعالى: ﴿لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩] ونكتةُ العدولِ هو أنَّ اجتماعَهم على الإمدادِ مِنَ المستحيلاتِ بخلافِ اتفاقِهم على الإيذاءِ فإنَّه ممكنٌ مِنْ غيرِ المعصومينَ، ولِذا قيلَ:

---

(١) "مسند أحمد" (٢٨٠٣) [مسند عبدالله بن العباس].

(٢) أخرجه مطوَّلًا ومختصرًا: أحمد (١٦٤٨) [مسند سعيد بن زيد]، والبزار (١٢٦٨) [مسند سعيد بن زيد]، وأبو يعلى (٩٧٣) [مسند سعيد بن زيد]، والحاكم (٣/٤٣٩) [كتاب معرفة الصحابة] من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

الظلمُ مِنْ شِيَمِ النُّفوسِ فإنْ تجدْ * ذَا عِفَّةٍ فلِعلَّةٍ لا يَظلِمُ

(**عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ**) مِنْ خيرِ الدنيا والآخرةِ (**لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ**) تَعالى (**لَكَ**) في الأزلِ (**وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ**) زادَ أحمدُ (لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ)[1] (**لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ**) تَعالى (**عَلَيْكَ**) كما يَشْهَدُ بذلك قولُه تَعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقولُه تَعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد: ٢٢].

وبيانُه أنَّ أزِمَّةَ الموجوداتِ بيدِهِ منعًا وإطلاقًا، فإذا أرادَ أحدٌ أنْ يَضرَّكَ بما لَمْ يُكتَبْ عليكَ دفَعَهُ اللهُ تعالى عنكَ بصرفِ ذلكَ الغيرِ عنْ مُرادِه بعارضٍ منْ عوارضِ القُدْرةِ الباهرةِ، مانعٍ مِنَ الفعلِ مِنْ أصلِه كمرضٍ أو شغلٍ أو نسيانٍ أو صرفِ قلبٍ، أو من تأثيرِه ككسرِ قوسٍ ومعارضةِ سهمٍ وفسادِ رميٍ، ومَنْ تَيَقَّنَ ذلكَ لَمْ يشهدْ نفعَه وضرَّه إلا منهُ، وما أَحْسَنَ ما قِيلَ:

أُفوِّضُ الأَمْرَ إِلَى خَالِقِي * فَحَسْبِي إِلَهِي وَنِعْمَ الوَكِيلْ
ولَا أَرْجِعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ * فَإِنَّ الإِلَهَ لِكُلٍّ كَفِيلْ

ولا يُنافي هذا قولَه تعالى حكايةً عنْ موسى -علَيْهِ الصلاةُ والسلامُ-: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ [طه: ٤٥]؛ لأنَّ الإنسانَ مأمور بالفرار مِن أسبابِ العَطَبِ إلى أسبابِ السلامة وإن لم يَسلَمْ، بدليلِ ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقولِ عُمَرَ: "إنَّما نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ"[2]، ولهذا قيلَ في المَعْنى:

عَلَى المَرْءِ أَنْ يَسْعَى لِمَا فِيهِ نَفْعُهُ * ولَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَاعِدَهُ الدَّهْرُ

***

(١) "مسند أحمد" (٢٨٠٣) [مسند عبدالله بن العباس].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٧٢٩) [كتاب الطب- باب ما يذكر في الطاعون]، ومسلمٌ (٢٢١٩) [كتاب السلام- باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها]، وغيرهما.

(رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ) أيْ تُركتِ الكتابةُ بها لفراغِ الأمرِ وانبرامه، وتَمَّتْ كتابةُ ما كانَ وما يكونُ إلى يوم القيامةِ، كما جاءَ في جامعِ الترمذيِّ: (أنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللهُ القلمُ، فقالَ: اكتُبْ، قالَ: ما أكتُبُ؟ قالَ: اكتُبِ القدرَ ما كانَ وما يكونُ)[1].

الروح المحمدي هو أول خلق الله

فإنْ قُلْتَ: فما التوفيقُ بيْنَه وبينَ ما أشبَهَهُ من قولِه ﷺ: (أوَّلُ ما خلقَ اللهُ جوهرةً أو دُرَّةً، فنظرَ إليها فذابتْ)[2]، و(أوَّلُ ما خلقَ اللهُ -تَعالى- نوري أو روحي)[3]، و(أوَّلُ ما خلقَ اللهُ -تعالى- اللَّوْحُ)[4]، و(أوَّلُ ما خلقَ اللهُ -تعالى- العقلُ)[5]، وما نُقِلَ عنِ السلفِ (أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ -تعالى- مَلَكُ الموتِ كَروبيٌّ)[6]؟!

فالجوابُ ما أفادَهُ بعضُ العارفينَ مِنْ أنَّ الأسماءَ مختلفةٌ، والمُسمَّى واحدٌ، وهو الروحُ المحمديُّ؛ لأنَّهُ باعتبارِ كونِهِ دُرَّةَ صدَفِ الوجودِ تسمى جوهرةً ودُرَّةً، وباعتبارِ نورانيَّتِه تسمى نوراً، وباعتبارِ وفورِ علْمِهِ تسمى عقلًا؛ (إذْ قالَ له: أقبلْ عَلى الدُّنيا رحمةً لِلعالمينَ فأقْبَلَ، ثم

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥) [تتمة مسند الأنصار- حديث عبادة من الصامت]، وأبو داود (٤٧٠٠) [كتاب السنة- باب القدر]، والترمذي (٣٣١٩) [أبواب تفسير القرآن- باب ومن سورة ن]، وغيرهم من حديث عبادة ابن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذيُّ، وفي الحديث قصةٌ.

(٢) أخرجه الواقدي في فتوح الشام (٢٧٢/١) [فتح عزاز] في قصة طويلة عن عبدالله بن قرط من كلام الفضل ابن العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، وذكره العلامة محمد عبدالحي اللكنوي في الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (ص ٤٣)، قال: وقد اشتهر بين القصَّاص حديث: (أول ما خلق الله نوري). وهو حديثٌ لم يثبت بهذا المبنى وإن ورد غيره مُوافقا له في المعنى. وذكره السيوطيُّ في قوت المغتذي (٥١٦/١) عِنْد شرح حَدِيث "إن أول مَا خلق الله الْقَلَم" نقلا عن زين العرب في شرح المصابيح في معرض الجمع بين أحاديث الأولية.

(٤) ذكره الدياربكري في تاريخ الخميس (١٨/١) [أول المخلوقات] عن ابن عباسٍ، ولم يعزه، وورد في حديث القلم المتقدِّم تخريجه ما يدل على أن اللوح من أول ما خلق.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣١٨/٧) [ترجمة سفيان بن عيينة] من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا. وفي الباب عن علي وأبي أمامة وأبي هريرة والحسن البصري مرسلًا وقال ابن حجر في الفتح (٢٨٩/٦): ليس له طريق ثبت.

(٦) ذكره النيسابوري في تفسيره (٣٨٨/٤) عن بعض السلف ولم يعزه، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية. وعبارة المخطوط والمطبوع: "أول ما خلق الله تعالى ملك الموت كروبي"، وصوابه ما أثبتناه استنادا لما ورد في تفسير النيسابوري (٣٨٨/٤): "أول ما خلق الله على الإطلاق ملك كروبي"، وما جاء في العبارة بعده من تسمية الروح المحمدي "ملك كروبي" بدون ذكر لملك الموت، والله أعلم.

قالَ له: ارجعْ إلى ربِّكَ فرجَعَ إلى المِعْراج، ثُمَّ قالَ: وعِزَّتي وجَلالي، ما خلقتُ خلقًا أحبَّ إليَّ منْكَ، بِكَ أُعْرَفُ، وبكَ آخُذُ -يَعْني عبادةَ منْ أخَذَ منكَ الشريعةَ-، وبكَ -أيْ بشفاعتِكَ- أُعْطِي الدرجاتِ العاليةَ، وبكَ أُعاقِبُ الكافرينَ، وبكَ أُثيبُ المؤمنينَ)[1]، وباعتبارِ جريانِ الأمورِ وفقَ متابعتِهِ والاقتداءِ بِهِ يُسمَّى عِلْمًا، وباعتبارِ مظهريَّتِهِ للعلومِ يُسمَّى لوحًا، وباعتبارِ غلباتِ الصِّفاتِ الملكيَّةِ مَلَكًا كَرُوبِيًّا.

(**وَجَفَّت**) بالجيم أيْ يَبِستْ (**الصُّحُفُ**) جَمعُ صحيفةٍ، وفيه حذفٌ أيْ كتابةُ الصحفِ أيْ فُرِغَ مِنَ الأَمْرِ، وجفَّتْ كتابتُهُ؛ لأنَّ الصحيفةَ حينَ كتابتِها لا بُدَّ أنْ تكونَ رَطْبَةَ المدادِ أو بعضِهِ بخلافِ ما إذا فَرَغَ مِنْها، وهذا مِنْ أحسنِ الكناياتِ وأرشقِ العباراتِ، فهو كنايةٌ عنْ قِدَمِ المقاديرِ، فلا تبديلَ ولا تغييرَ، ولا يُنافي هذا قولَه تَعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]؛ لأنَّ المحوَ والإثباتَ مما جفَّتْ به الصُّحفُ أيضًا كَمَا في تفسيرِ القاضي؛ لأنَّ القضاءَ قسمانِ مبرمٌ ومعلَّقٌ.

وحُكِيَ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ[2] دَعا الحسينَ بنَ الفضلِ[3] وقالَ له: أُشكِلَ عليَّ ثلاثُ

---

(١) ورد بألفاظ متقاربة عن جماعة من الصحابة، منها ما أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٣١٨/٧)، والديلميُّ في "الفردوس" (٤) عن السية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بإسنادٍ ضعيفٍ كما قال الحافظ العراقيُّ في "المغني" (الإحياء ٨٣/١)، وأخرجه الحكيم الترمذيُّ في نوادر الأصول (المسندة رقم ١٠٣٥) عن الحسن عن عِدَّة من الصحابة، وضعَّفه الحافظ العراقيُّ في "تخريج أحاديث الإحياء" (الإحياء ٨٦/١). وأخرجه الحكيم أيضًا (المسندة رقم ١٠٣٦) عن الأوزاعيِّ مُعضَلًا.

تتمة: الأحاديث الوارة في العقل لا تخلو من ضعف، وقال ابن عراق في "تنزيه الشريعة" (٢٠٤/١): "وبالجملة فقد قال الذهبيُّ في تلخيص الموضوعات بعد ذكر طرق الحديث المذكورة في الأصل: وله طُرُقٌ أُخرى لم تصح. انتهى، وقال ابن حِبَّان: ليس عن رسول الله خبرٌ صحيحٌ في العقل، وقال العقيليُّ: لا يثبتُ في هذا الباب شيءٌ".

(٢) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق، أبو العباس الخزاعي، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي، كان من أكثر الناس بذلا للمال، مع علم ومعرفة وتجربة . تاريخ بغداد (٤٩٠/٩)، وفيات الأعيان (٨٣/٣).

(٣) العلامة المفسِّر أبو علي الحسين بن الفضل بن عمير، إمام عصره في معاني القرآن، أقدمه ابن طاهر معه نيسابور، وكان من العلماء الكبار العابدين، توفي سنة (٢٨٢). سير أعلام النبلاء (٤١٤/١٣)، طبقات المفسرين (١٥٩/١).

آياتِ دعوتُكَ لِتكشفَها لي، قولُه تَعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]، وقدْ صحَّ أنَّ الندمَ توبةٌ[1]، وقولُه تَعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقدْ صحَّ أنَّ الصُّحفَ جَفَّتْ بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ[2]، وقولُه تَعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، فما بالُ الأضْعَافِ؟! فقالَ الحسينُ: يَجوزُ أنْ لا يكونَ الندمُ توبةً إذْ ذاكَ، وإنْ كانَ توبةً لَنَا؛ لأنَّ اللهَ تعالى خصَّ هذه الأمةَ بخصائصَ لمْ تُشارِكْها فيها الأممُ، وقيلَ إنَّ ندمَ قابيلَ لم يكنْ عَلى قتْلِ هابيلَ، ولكنْ على حملِهِ، وأمَّا قولُه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإنَّها شئونٌ يُبديها ولا يَبتديها، وأمَّا قولُه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فمعناهُ لَيسَ له إلا ما سَعى عدلًا، وله أنْ يُجازيَه على الواحدةِ ألفًا فضلًا، فقامَ عبدُ اللهِ وقبَّلَ رأسَهُ ووسَّعَ خراجَهُ، اهـ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: قولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ منسوخٌ بقولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ الآية [الطور: ٢١][3]، وقيلَ: هِيَ خاصَّةٌ بقومِ موسى وإبراهيمَ؛ لأنَّهُ وَقعَ حكايةً في صُحفِهما -عليْهما الصلاةُ والسلامُ- بقولِه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٣٧]، وقيلَ: أُرِيدَ بالإنسانِ الكافرِ، وأما المؤمنُ فلَهُ ما سعى أخوهُ.

وقيلَ: اللَّامُ في الإنسانِ بِمَعْنى "عَلَى" كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أيْ عَلَيْها، وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [غافر: ٥٢] أيْ عليْهِم.

وقامَ رجلٌ إلى بعضِ العلماءِ، وهو على كُرسيِّهِ لِلوعْظِ يُقرِّرُ تفسيرَ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فقالَ: يا هذا فما يفعلُ ربُّكَ الآنَ؟ فأُفحِمَ وباتَ مهمومًا فرأى المصطفى ﷺ وذَكَرَ له ذلكَ، فقَالَ له: إنَّهُ الخَضِرُ، وإنَّهُ سيعودُ، فقلْ: له شؤونٌ يُبديها ولا يَبتديها، يخفضُ أقوامًا،

---

(١) أخرجه الطيالسيُّ (٣٨٠) [مسند ابن مسعود]، وأحمد (٤٠١٢) [مسند ابن مسعود]، وابن ماجه (٤٢٥٢) [أبواب الزهد- باب ذكر التوبة]، وأبو يعلى (٥٠٨١) [مسند ابن مسعود]، وابن حبان (٦١٢) [كتاب الرقائق- باب التوبة]، وغيرهم من حديث عبدالله بن مسعود. وفي الباب عن عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧) [تتمة مسند الأنصار- حديث عبادة من الصامت]، وغيره في بعض روايات حديث: (أول ما خلق الله القلم..).

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٢/٨٠) [سورة النجم- آية: ٣٩].

ويَرفعُ آخرينَ، فأصبحَ مسروراً، فأتاه فأعادَ السؤالَ، فأجابَهُ، فقالَ لهُ الخَضرُ: **صَلِّ عَلى مَنْ عَلَّمَكَ**، وانْصَرَفَ مُسْرِعًا.

قِيلَ: وأوَّلُ من كتبَ العربيَّ وغيرَه آدمُ، وقيلَ إسماعيلُ هو أوَّلُ من كتبَ العربيَّ، **وقيلَ** غيرُهما، ولَمْ يَصِحَّ في ذلك شيءٌ، وقولُ الكلبيِّ: أوَّلُ مَنْ وَضَعَ الخطَّ نفرٌ مِنْ طيِّئٍ فساروا إلى مكةَ فتعلَّمَهُ منهم جماعةٌ، ثم أَتَوْا إلى الأنبارِ فتعلَّمَهُ نفرٌ منْهُم، ثم أتوا الحيرةَ وعلَّموهُ جماعةً- مَردودٌ بأنَّهُ لا يُوثَقُ بِنقْلِه، نَعَمْ يُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّهم أوَّلُ مَنْ تَعلَّمَ الخطَّ لا أنَّهم أوَّلُ مَنْ وضعوهُ.

(**رواهُ الترمذيُّ**) في جامِعِهِ (**وقالَ حسنٌ صحيحٌ**)، وهو حديثٌ عظيمٌ وأصلٌ كبيرٌ في رعايةِ حقوقِ اللهِ والتفويضِ لِأمرِهِ والتوكلِ عليْهِ.

***

(**وفي روايةِ غيرِ الترمذيِّ**)، وهو عبدُ بنُ حميدٍ في مسندِه، والإمامِ أحمدَ (**احفظ اللهَ يحفظْكَ، احْفظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمامَكَ**)[1] بفتحِ الهمزةِ بالمعنى المقرَّرِ فيما قبْلَهُ، فإنْ قيلَ: لَمَ خصَّ الأمامَ دونَ باقي الجهاتِ الستِّ؟ فالجوابُ أنَّ الإنسانَ سائرٌ ومسافرٌ إلى الآخرةِ، والمسافرُ إنَّما يطلبُ أمامَهُ لا غيرُ.

***

(**تَعَرَّفْ**) بتشديدِ الرَّاءِ المفتوحةِ أيْ تحبَّبْ وتقرَّبْ (**إلى اللهِ**) بلزومِ الطاعاتِ والإنفاقِ في القرباتِ والشكرِ على ما أولاكَ (**في الرخاءِ**) أيْ سعةِ الرزقِ وصحَّةِ البدنِ (**يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ**) بتفريجِ الهمومِ والغمومِ، ويجعلْ لكَ مِنْ كلِّ همٍّ فرجًا، ومن كُلِّ ضيقٍ مخرجًا بما سلفَ من ذلك التعرُّفِ، كما وقعَ للثلاثةِ الذين خرجوا يَرتادونَ لأهلهم، فبَيْنَما هم يَمشونَ إذْ أصابَهم المطرُ فآوَوْا إلى غارٍ في جبلٍ فانحدرتْ عليْهم صخرةٌ مِنَ الجبلِ فسدَّتْ عليْهم، فقالوا: انظُروا ماذا عمِلْتم مِنَ الأعمالِ الصَّالِحَةِ، فاسْأَلوا اللهَ بِهَا، فإنَّهُ يُنجِّيكم، فقالَ أحدُهم: اللَّهمَّ إنكَ

---

(١) مسند أحمد (٢٨٠٣) [مسند عبدالله بن العباس]، والمنتخب من مسند عبد بن حميد (٦٣٦) [مسند ابن عباس].

معرفة الله في الرخاء وفضلها

تَعلَمُ أنَّه كانَ لي وَالِدَانِ شيخانِ كبيرانِ، ولي صِبيةٌ صغارٌ، وكنتُ أرْعَى غَنَمًا لي فإذا رُحْتُ عليْهم فحلبتُ بدأتُ بوالديَّ فأسقيتُهما قبلَ وَلَدِي، وأنَّهُ نَأَى بي الشجرُ، وفي روايةٍ فأصابَنِي غيثٌ فحبَسَنِي، فما أتيتُ حتى أمسيتُ فحَلَبْتُ كما كنتُ أحلِبُ وجئتُ بالحِلابِ فوجدتُهما قدْ نامَا، فقمتُ عندَ رأسِهما أكرهُ أنْ أوقظَهما مِنْ نومِهما، وأكرهُ أنْ أبدأَ بالصِّبْيَةِ وهم يَتضاغَونَ -أي يَصيحونَ- عندَ قدميَّ، ومحْلَبِي عَلى يديَّ، فلمْ يزلْ ذلكَ دأْبي ودأبُهما حتَّى طلَعَ الفجرُ فانتبَها فسقيتُهما، فإنْ كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ فافرجْ عنا فرجةً نَرى مِنْها السماءَ، ففرَّجَ اللهُ عَنْهم فرجةً حتى رأَوْا السماءَ.

وقالَ الثاني: اللَّهمَّ إنَّه كان لي ابنةُ عَمٍّ أُحبُّها أشدَّ ما يُحِبُّ الرجالُ النساءَ، فراودتُها عن نفْسِها فأَبَتْ حتى آتيها بمائةِ دينارٍ، فسعيتُ حتى جَمَعْتُ مائةَ دينارٍ فأعطيتُها لها، فلمَّا قعدْتُ بينَ رجلَيْها قالتْ: يا عبدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، ولا تفتحِ الخاتمَ إلا بحقِّهِ، فقُمْتُ عنْها، وهيَ أحبُّ النَّاسِ إليَّ، وفي روايةٍ أخرى أنَّهُ قالَ: فراودتُها عنْ نفسِها؛ فأبت فأصابتْها حاجةٌ شديدةٌ فأَتَتْني فقلتُ لها حتَّى تُمكِّنيني مِنْ نفسِكَ، فأبتْ وذهبتْ ثم رجعتْ وقدْ أصابَها شِدَّةٌ، وفي روايةٍ أخرى أنَّ زوجَها كانَ مريضًا، وكانَ بيْنَهما أولادٌ صِغارٌ قدْ أصابَهم القحْطُ فأتتْ له، وهو يأبى علَيْها حتى تُمكِّنَهُ من نفْسِها، فذكرتْ ذلكَ لزوجِها، فقالَ مكِّنيه منْ نفسِكِ، وأَغيثي عيالَكِ، فأَتَتْهُ المرَّةَ الرابعةَ فقالتْ دونَكَ، فلمَّا قَعَدَ مِنْها مقعدَ الرجلِ مِنَ المرأةِ ارتعدَتْ منْ تحتِهِ فتركَها ودَفَعَ لها ما احتاجَتْ إليْه، ثُمَّ قالَ: فإنْ كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ فافرجْ عنا، فانفرجَ منها فرجةٌ أخرى.

وقالَ الثالثُ: اللهمَّ إنَّكَ تعلَمُ أني استأجرتُ عُمَّالًا يَعملونَ، كُلُّ رجلٍ منهم بمُدَّيْنِ منْ طعامِ الأرزِ، فعَملوا فوفَّيْتُهم أُجورَهم، فقالَ رجلٌ كانَ عَمَلي أفضلَ منهم فأَبَيْتُ أنْ أزيدَه؛ فغضبَ، وفي روايةٍ أخرى أنَّهُ جاءَ أحدُ الأجراءِ في نصفِ النهارِ فعَمِلَ في بقيةِ نهارِه مثلَ ما عَمِلَ غيرُه في يومِهِ كُلِّهِ فرأَيْتُ أنْ لا أنقُصَ مِنْ أجْرِهِ شيئًا، فقالَ رجلٌ مِنْهم: إنَّهُ جاءَ في نصفِ النَّهارِ، وأنا جئتُ في أوَّلِهِ فساويتَ بيْننا في الأجرةِ، فقلتُ: هلْ نقصتُكَ من شرطِكَ، فغضبَ

وتركَ أجرَه وذهبَ فوضعتُ حقَّهُ في جانبِ مِنَ البيتِ ما شاءَ اللهُ، ولمْ أزلْ أنميه له حتى جمعتُ له من ذلكَ إبلًا وبَقرًا وغَنَمًا، فمرَّ بي بعدَ حينٍ شيخٌ ضعيفٌ لا أعرفُه، فقالَ: إنَّ لي عندَكَ حقًّا فذكَرَه حتى عرفتُه فقلتُ له: إياكَ أبْغي، وهذا حقُّكَ فعرضتُهُ علَيْه، فقالَ: يا عبدَ اللهِ، لا تَسخرْ بي، إنْ لمْ تتصدَّقْ عليَّ فأعْطِني حقّي، قلتُ: واللهِ ما أسخرُ، إنَّهُ لحقُّكَ، ما لي فيه شيءٌ، فدفعتُ ذلك إلَيْه جميعًا، فإنْ كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهكَ فافرجْ عنَّا ما بقِيَ، ففرَّجَ اللهُ عنهم، اهـ. وقولُه: "فافرجْ" بالوصلِ وضمِّ الراءِ منَ الثلاثيِّ، وضبطَه بعضُهم بهمزةٍ وكسرِ الراء من الرباعيِّ.

وعنْ بكرِ بنِ عبدِ اللهِ المزنيِّ أنَّ قصَّابًا وَلِعَ بجاريةٍ لبعضِ جيرانِه، فأرسَلَها أهلُها إلى حاجةٍ لَهم في قريةٍ أخرى، فتَبعَها فراودَها عن نفسِها، فقالتْ: لا تفعلْ، وأنا أشدُّ حُبًّا لكَ منكَ لي، ولكنْ أخافُ اللهَ، فقالَ: أنتِ تخافيه، وأنا لا أخافُه، فرجَعَ تائبًا، فأصابَه العطشُ حتى كادَ أنْ يَنقطِعَ عنقُهُ، فإذا هو برسولٍ لبعضِ أنبياءِ بني إسرائيلَ فأخبرَه بما حصَلَ له مِنَ العطشِ، فقالَ تعالَ حتى نَدعوَ، قالَ: ما لي من عَمَلٍ، قالَ: فأنا أدْعو وأمِّنْ أنتَ، قالَ: فدعا الرسولُ، وأمَّنَ هو، فأظلَّتْهما سحابةٌ حتى انتَهَيا إلى القريةِ، فأخَذَ القصَّابُ إلى مكانِه، ومالتِ السحابةُ علَيْه فرَجَعَ إلَيْه الرسولُ وقالَ: زعمتَ أنْ ليسَ لكَ عَمَلٌ وأنا الذي دعوتُ وأنتَ أمَّنْتَ، فأظلَّتْنا سحابةٌ ثم تَبِعَتْكَ! لَتُخبرَنِي ما أمرُكَ، فأخبَرَهُ فقالَ: التائبُ مِنَ اللهِ بمكانٍ ليسَ أحدٌ مِنَ الناسِ بمكانِه.

وعنْ أبي إدريسَ الأوديِّ أنَّهُ قالَ: كانَ رجلانِ في بَني إسرائيلَ عابدانِ، وكانتْ جاريةٌ يُقالُ لها سوسنُ عابدةٌ، وكانوا يأتونَ بُستانًا فيتقرَّبونَ فيه فشُغفَ بها العابدانِ، وكتَمَ كُلُّ واحدٍ ذلكَ عن صاحِبِه، واختبأَ كُلُّ واحدٍ منهما تحتَ شجرةٍ يَنظُرانِ إلَيْها، فنَظَرَ كُلُّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ وهو مختبئٌ، فسألَ كُلُّ منْهما الآخرَ عنْ سببِ اختبائِه فأظهرَ كُلُّ واحدٍ منهما ما عندَهُ من حُبِّ سوسنَ، واتَّفقا على أنْ يُراوِدَاها، فلمَّا جاءتْ لِتتقرَّبَ، قالَا لَها: قدْ عرفتِ طوعَ بني إسرائيلَ لنا، وإنْ لم تُطيعِينا قُلْنا إذا أصبَحْنا: إنا أصبْنا مَعَها رَجُلًا، وأنَّ الرجلَ أفلتَ،

فقالتْ لهما: ما كنتُ لِأطيعَكما، فأخذاها وأخرجاها، وذَكرَا أنَّهما أصابَا مَعَها رجلًا، فجاءَ دانيالُ وهو ابنُ ثلاثةَ عشرَ سنةً، فوضَعُوا له كرسيًّا فجلَسَ عليه، وقالَ: قدِّموهما إليَّ، فجاءا كالمُستَهْزِئينَ، وقالا: اقضِ بيْنَنا، ففرَّقَ بيْنَهما، وقالَ لِأحدِهما: خلفَ أيِّ شجرةٍ رأيتَها؟ قالَ: وراءَ تفاحةٍ، وأحضَرَ الآخرَ فقالَ وراءَ غيرِها، واختلَفَا فنزلَتْ نارٌ منَ السماءِ فأحرقَتْهما، ونجتْ سوسنُ.

وعنْ أبي عبدِ اللهِ البلخيِّ أنَّ شابًّا كانَ في بني إسرائيلَ لمْ يُرَ أحْسَنَ منه، وكانَ يَبيعُ القفافَ، فبيْنَما هو ذاتَ يوم يَطوفُ بِقفافِهِ خرجتِ امرأةٌ مِنْ دارِ مَلِكٍ مِنْ مُلوكِ بَني إسرائيلَ، فلَمَّا رأتْهُ رجعتْ مُبادِرةً، فقالتْ لابنةِ المَلِكِ يا فلانةُ إنِّي رأيتُ شابًّا بالبابِ يَبيعُ القفافَ، لمْ أرَ شابًّا قطُّ أحْسَنَ مِنهُ، قالتْ لَها: أدْخليه، فخرجتْ إلَيْه فقالتْ: يا فَتى، ادخُلْ نَشترِ مِنكَ، فدَخَلَ، فأغلقتْ دونَهُ الأبوابَ، ثُمَّ استقبلَتْهُ ابنةُ المَلِكِ كاشفةً عنْ وجْهِها ونَحْرِها، فقالَ لَها: استتري عافاكِ اللهُ، فراوَدَتْهُ عنْ نفْسِه فأَبى، وقالَ لَها: اتَّقِ اللهَ، فقالتْ له: إنْ لمْ تطأني وإلَّا أخبرتُ المَلِكَ أنَّكَ دخلتَ لِتراوِدَني عنْ نَفْسي، فأَبى وَوَعَظَها، ثُمَّ قالَ: ضَعوا لي وَضُوءا -بفتحِ الواوِ- أيْ ماءً، فَوضَعوه له في مكانٍ لا يَستطيعُ أنْ يَفِرَّ منهُ، بيْنَهُ وبيْنَ الأرضِ أربعونَ ذِراعًا، فلَمَّا صارَ فيهِ ألْقى نَفْسَه مِنهُ، فأهبطَ اللهُ له مَلَكًا حتَّى أَخذَ بِضُبْعَيْه، ووَقَعَ قائمًا على رِجْلَيْه.

وكانَ في بَني إسرائيلَ رَجُلٌ -يُقالُ له: جُريجُ- يُصلِّي، جاءَتْهُ أُمُّهُ فدَعتْهُ، فقالَ: أُجيبُها أوْ أُصلِّي، وتَمادى في صلاتِهِ ولمْ يُجِبْها، فقالتِ: اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ حتَّى تُرِيَهُ وجوهَ المومساتِ، أي الزانياتِ، وكانَ جُريجُ في صومعتِهِ فتعرَّضَتْ لهُ امرأةٌ فراودتْهُ فأَبى، فأتتْ راعيًا ومكَّنَتْهُ مِنْ نفسِها، فولدتْ غُلامًا، وقالتْ: مِنْ جُريجَ، فأَتوه فهدَموا صومعتَهُ وأنزلوهُ وسَبُّوه، فتَوضَّأَ وصَلَّى ثم أتى بِالغلامِ فقالَ له: مَنْ أبوكَ يا غُلامُ؟ وفي روايةٍ "يابابوسَ" بباءَيْنِ موحدتَيْنِ بَيْنهما ألفٌ، وهو ولدُ الزانيةِ، فقالَ: الراعي، فقالوا: دَعْنَا نَبني صومعتَكَ بالذَّهبِ، فقالَ: لا إلَّا مِنْ طينٍ.

وعنْ وهبِ بنِ منبهٍ أنَّهُ قالَ: بيْنَما امرأةٌ مِنْ بني إسرائيلَ عَلى ساحلِ البحرِ تَغْسِلُ ثِيابًا، وصبيٌّ لَها يَدِبُّ بين يديها، إذْ جاءَ سائلٌ فأعطتْهُ لقمةً مِنْ رغيفٍ كانَ مَعَها، فما كانَ أسرعَ

مِنْ أنْ جاءَ ذئبٌ فالتقمَ الصبيَّ، فجعلتْ تعدو خَلفَهُ وهِيَ تَقولُ: يا ذئبُ، يا ذئبُ ابني، فبَعثَ اللهُ إلَيْها مَلَكًا انتزعَ الصبيَّ مِنْ فمِ الذئبِ ورَمى به إلَيْها، وقالَ: لُقْمَةٌ بلُقْمَةٍ.

وتقَدَّمَ ذِكْرُ قصةِ عوفِ بنِ مالكٍ الأشجعيِّ عندَ قولِه في الحديثِ السابقِ: (اتَّقِ اللهَ حيثُ ما كُنْتَ)[1]، بخلافِ فرعونَ فإنَّهُ لَمَّا تَنكَّر إلى ربِّهِ في حالِ رَخائِهِ لَمْ يَنفعْهُ الرَّجاءُ عندَ بلائِهِ بلْ قالَ له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١].

وقيلَ: يجوزُ أنْ يَكونَ عَلى حذفِ مضافٍ أيْ: تعرَّفْ إلى ملائكةِ اللهِ في الرخاءِ بالتزامِ الطاعاتِ وإظهارِ العِباداتِ يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ بواسطةِ شَفاعتِهم عندَهُ في تفريجِ غَمِّكَ وكرْبِكَ.

والأَوَّلُ أَوْلى لِاستغنائِه عنِ التقديرِ، ويُؤيِّدُ الثاني ما رويَ أنَّ العبدَ إذَا كانَ له دعاءٌ في الرخاءِ ودعا حالَ الشدَّةِ قالتِ الملائكةُ: ربَّنا هذا صوتٌ نَعرفُهُ، وإذَا لَمْ يَكنْ لهُ دعاءٌ في الرَّخاءِ ودعا حالَ الشدَّةِ قالتِ الملائكةُ: ربَّنا هذا صوتٌ لا نَعرفُهُ[2].

ولِذا وَرَدَ أنَّ يونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَعا في بطنِ الحوتِ قالتِ الملائكةُ: يا ربِّ هذا صوتٌ معروفٌ مِنْ بلادٍ غريبةٍ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: أما تَعرفونَ ذلك؟ قالوا: ومَنْ هو؟ قالَ: عبدي يونسُ، قالوا: عبدُكَ الذي لم يَزلْ يُرفَعْ له عَمَلٌ مُتقبَّلٌ ودَعوةٌ مُستجابَةٌ؟ قالَ: نَعَمْ، قالوا: يا ربَّنا أفلا تَرحَمُ مَنْ كانَ يَصنَعُ في حالِ الرَّخاءِ فتُنجيَهُ مِنَ البلاءِ؟ قالَ: بَلى، فأَمَرَ اللهُ -عزَّ وَجَلَّ- الحوتَ فطرَحَهُ بالعراءِ[3].

***

(١) انظر القصة ص ٣٨٦، في شرح الحديث الثامن عشر من الأربعين النووية.

(٢) ذكر نحوًا منه الحافظ ابن رجب الحنبلي "جامع العلوم والحكم" (٥٦٤/٢) [الحديث التاسع عشر].

(٣) أخرجه البزّار (٨٢٢٧) [مسند أبي هريرة]، وابن جرير في التفسير (٣٨٥/١٦) [سورة الأنبياء]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الهيثمي في "المجمع" (١١٣٠٢) [كتاب التفسير- سورة والصافات]: رواه البزار عن بعض أصحابه ولم يسمه، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، وبقية رجاله رجال الصحيح. وفي الباب عن أنسٍ أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (٣٢)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٣٧١١) [سورة الأنبياء]، والطبرانيُّ في "الدعاء" (٤٧) [باب الحثِّ على الدعاء في الرخاء]، وغيرهما.

(وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ) أيْ جاوزَكَ فلمْ يَصلْ إليكَ (لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ)؛ لأنَّهُ بانَ بِكونِهِ أخطأَكَ أنَّهُ غيرُ مُقدَّرٍ علَيْكَ، واستعمالُ الخطأِ فيهِ مجازٌ، لأنَّ حقيقتَهُ العدولُ عنِ الجهةِ أوِ الوقوعُ عَلى خلافِ المُرادِ، وفيهِ مُبالَغَةٌ مِنْ حيثُ دخولُ اللَّامِ المؤكِّدةِ للنَّفيِ عَلى الخبرِ وتَسليطُ النفيِ عَلى الكونيَّةِ وسريانُهُ للخبرِ، (وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ) قُدِّرَ (لِيُخْطِئَكَ)؛ إذْ لا يُصيبُ الإنسانَ إلا ما قُدِّرَ عَليهِ، وفي الحديثِ أنَّهُ ﷺ قالَ: (إنَّ لِكُلِّ شيءٍ حقيقةً، وما يَبلُغُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يَعلمَ أنَّ ما أصابَهُ لَمْ يَكُنْ ليخطئَهُ، وما أخطأَهُ لَمْ يَكُنْ ليصيبَهُ)[1]، وفيهِ الحثُّ عَلى التوكُّلِ والرِّضا، ونفيُ الحولِ والقوَّةِ عنه.

الاستسلام لجريان القضاء

قيلَ: علامةُ التوكُّلِ ثلاثٌ لَا يَسأَلُ، ولَا يَرُدُّ، ولَا يَحبسُ. وقيلَ: أوَّلُ مقامٍ في التوكُّلِ أنْ يَكونَ العبدُ بينَ يدي اللهِ تعالى كالميتِ بينَ يدي الغاسلِ يُقلِّبُهُ كيفَ أرادَ؛ إذْ لا يَكونُ له حركةٌ ولا تدبيرٌ، واعلمْ أنَّ التوكُّلَ محلُّهُ القلبُ، والحركةُ بالظاهرِ لا تُنافي التوكُّلَ. وقيلَ: التوكُّلُ هو التعلُّقُ باللهِ تعالى في كُلِّ حالٍ. وقيلَ: التوكُّلُ هو الاستسلامُ لجريانِ القضاءِ والأحكامِ. وقيلَ: هو الاكتفاءُ باللهِ تعالى معَ الاعتمادِ عليهِ.

***

(وَاعْلَمْ) تنبيهٌ عَلى أنَّ الإنسانَ في هذهِ الدارِ مُعرَّضٌ للمحنِ والبلاءِ سيَّما الصلحاءُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآياتِ، فيَنبغي لِلإنسانِ أنْ يَصبرَ ويَحتسبَ ويَرْضَى بالقضاءِ والقدرِ.

(أَنَّ النَّصْرَ) مِنَ اللهِ للعبدِ أي إعانتَهُ له، يُقالُ: نَصرَ الغيثُ البلدَ إذَا أعانَهُ عَلى النباتِ، والنصيرُ والنَّاصرُ في اللُّغةِ المُعينُ، والأوَّلُ منْهما أبْلَغُ في الإعانةِ مِنَ الثَّاني، (مَعَ الصَّبْرِ)؛ لأنَّهُ سببُ النَّصرِ، ومِنْ ثَمَّ كانَ الغالبُ عَلى المُنتصرِ لنفسِهِ عدمَ النَّصْرِ، ومَنْ صَبَرَ ورَضِيَ بحُكمِ القضاءِ كانَ له التأييدُ والظَّفَرُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٤٩٠) [مسند القبائل- من حديث أبي الدرداء]، والطبراني في مسند الشاميين (٢٢١٤)، وأبو نعيم (١٢/٢) [ترجمة عويم بن ساعدة]، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٩٧/٧)، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجاله ثقات.

وعنْ عَليٍّ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكرَّمَ اللهُ وجهَهُ- أنَّهُ قالَ: الصَّبْرُ مِنَ الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ مِنَ الجسدِ. ومِنْ كلامِ وهبٍ: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ أصابَ البِرَّ: سخاوةُ النفسِ، والصبرُ عَلى الأذَى، وطيبُ الكلامِ. وقيلَ: الصَّبْرُ تجرُّعُ المرارةِ مِنْ غيرِ تعبيسٍ. وقيلَ: هو الوقوفُ معَ اللهِ تعالى بحُسنِ الأدبِ. وقيلَ: هو الاستعانةُ باللهِ. وقيلَ: الصَّبْرُ عَلى الطلَبِ عُنوانُ الظَّفرِ، والصَّبْرُ في المِحنِ عُنوانُ الفَرَجِ. وقيلَ: حُبِسَ الشبليُّ في المارستانِ، فدَخَلَ عليهِ جماعةٌ فقالَ: مَنْ أنْتُمْ؟ فقالوا: أحبابُكَ، جئْنا زائرينَ، فأخَذَ يَرميهم بالحجرِ، فأخذوا يَهربونَ، فقالَ: لوْ كُنْتُمْ أحبابي لَصبرتُمْ عَلى بَلائي.

واعلمْ أنَّ الصَّبْرَ يَشمَلُ الصَّبْرَ عَلى العدوِّ الظاهرِ كالكُفَّارِ وأهلِ البدعِ والفسوقِ، والعدوِّ الباطنِ كالنفسِ الأمَّارةِ والهوى والشيطانِ؛ لأنَّ جهادَ ذلك أعْظمُ مِنْ جهادِ العدوِّ، ويدلُّ له ما جاءَ في حديثٍ ضعيفٍ أنَّهُ ﷺ قالَ لِقوم قَدموا مِنَ الجهادِ: (مَرْحبًا بِكُمْ، قَدِمتم مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ، قالوا: وما الجهادُ الأكبرُ؟ قالَ: مجاهدةُ العبدِ هواهُ)[1].

***

(**وأنَّ الْفَرَجَ**) بفتحتَيْنِ، وهو كشفُ الغمِّ، (**مَعَ الْكَرْبِ**) بمعنى أنَّهُ يُعقبُهُ لا محالةَ لِعدمِ دوامِه.

فَائدَةٌ مِنَ "الأنسِ الجليلِ"[2]: رويَ أنَّ مِفتاحَ بيتِ المقدسِ كانَ عندَ سليمانَ بنِ داودَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- لا يَأمَنُ عليه أحدًا، فقامَ ليلةً لِيفتحَهُ فتعسَّرَ عَليه، فاستعانَ بالإنسِ فتَعسَّرَ عَليهم، فاستعانَ بالجنِّ فتعسَّرَ عَليهم، فجَلسَ حزينًا كئيبًا، فظنَّ أنَّ ربَّهُ قدْ مَنعَهُ فتْحَهُ، فبَيْنما هو كذَلِكَ إذْ أقْبَلَ شيْخٌ مُتكئٌ عَلى عَصًا له، وقدْ طعَنَ في السِّنِّ، وكانَ مِنْ جُلَساءِ داودَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- فقالَ: يا نَبيَّ اللهِ ما لي أراكَ حزينًا، فقالَ: قُمْتُ لهذا البابِ أفتحُهُ فتعسَّرَ عليَّ، فاستعنتُ بالإنسِ والجنِّ فلمْ يَنفتِحْ، فقالَ الشيخُ ألَا أعلِّمُكَ كلماتٍ كانَ

(١) أخرجه الخطيب في "التاريخ" (١٣/٤٩٨) [ترجمة واصل بن حمزة]، والبيهقيُّ في "الزهد" (٣٧٣) [فصل في ترك الدنيا ومخالفة النفس والهوى] من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ.

(٢) "الأنس الجليل" للعليمي (١/١٢٣).

أبوكَ يَقولُهنَّ عندَ كربِهِ فيُكشفُ عنْهُ؟ قالَ: بلى، قالَ: قلْ: "اللهمَّ بنورِكَ اهتديتُ، وبفضلِكَ استغنيتُ، وبِكَ أصبحتُ وأمسيتُ، ذُنوبي بينَ يديكَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ"، فلَمَّا قالَها فُتِحَ، اهـ.

وذَكَرَ أبو نعيم في "الحليةِ" عنْ مسعرٍ أنَّ رَجُلًا رَكِبَ البحرَ فانكسرتْ سفينتُهُ، فوقَعَ في جزيرةٍ فمكَثَ ثلاثةَ أيامٍ لَمْ يأكلْ ولَمْ يشربْ فتمثَّلَ فقالَ:

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي * وَصَارَ القَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيبِ

فأجابَهُ مُجيبٌ لَمْ يرَهُ، وقالَ:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ * يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

قالَ: فجاءتْ سفينةٌ فحملتْهُ، وأصابَ خيراً كثيراً[1].

وأخرجَ ابنُ عساكرَ عنْ محمدِ بنِ عُمَرَ قالَ: أَمَرَ الحجَّاجُ بإحضارِ رَجُلٍ مِنَ السجنِ، فلمَّا أُحْضِرَ أَمَرَ بِضرْبِ عُنقِهِ، فقالَ: أيُّها الأميرُ أخِّرْنِي إلى غدٍ، قالَ: ويْحَكَ، وأيُّ فرجٍ في تأخيرِ يومٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِردِّهِ إلى السجنِ، فسَمِعَهُ الحجَّاجُ يَقولُ:

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللهُ إِنَّهُ * لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرُ

فَقَالَ الْحَجَّاجُ: واللهِ ما أخذَهُ إلَّا مِنَ القرآنِ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وأَمَرَ بإطلاقِهِ[2].

وأخرَجَ ابنُ النجارِ عنْ معروفٍ الكرخيِّ: مَنْ قالَ ثلاثَ مرات، وكانَ في غمٍّ فرَّجَ اللهُ عنهُ غمَّهُ: اللهمَّ احفظْ أُمَّةَ محمدٍ، اللهمَّ ارحمْ أُمَّةَ محمدٍ، اللهمَّ عافِ أُمَّةَ محمدٍ، اللهمَّ أصلِحْ أُمَّةَ محمدٍ، اللهمَّ فرِّجْ عنْ أُمَّةِ محمدٍ[3].

(١) حلية الأولياء (٢٨٩/٧) [ترجمة سفيان بن عيينة].

(٢) "تاريخ دمشق" (١٤٧/١٢) [ترجمة الحجَّاج بن يوسف الثقفي]

(٣) "تاريخ بغداد وذيوله" (ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٢٢٣/١٨) [ترجمة أبي الحسن القطان].

وأخْرَجَ البيهقيُّ عنْ حمادِ بنِ سلمةَ أنَّ عاصمَ بنَ إسحاقَ شيخَ القراءِ في زمانِه قالَ: أصابَتْني خصاصةٌ، فجئتُ إلى بعضِ إخواني فأخبرتُه بأمري، فرأيتُ في وجهِه الكراهةَ، فخرجتُ مِنْ منزلِه إلى الجبانةِ، وصلَّيْتُ ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ وضعتُ وجهي عَلى الأرضِ، وقلتُ: يا مُسبِّبَ الأسبابِ، يا فاتحَ الأبوابِ، يا سامعَ الأصواتِ، يا مُجيبَ الدعواتِ، يا قاضيَ الحاجاتِ، اكفني بحلالِكَ عنْ حرامِكَ، وأغنِني بفضلِكَ عمَّنْ سواكَ، قالَ: فواللهِ ما رفعْتُ رأسي حتى سَمِعْتُ وقعةً بقُربي، فرفعتُ رأسي فإذا بحدأةٍ طرحتْ كيسًا أحمرَ فإذا فيه ثمانونَ دينارًا وجوهرًا ملفوفًا في قطنةٍ، فبعتُ الجوهرَ بمالٍ عظيمٍ وفضلتِ الدنانيرُ فاشتريتُ منها عَقارًا، وحمدتُ اللهَ عَلى ذلكَ.

وفي الصحيحِ وغيرِه أنَّ أعرابيَّةً كانتْ تخدمُ نساءَ النبيِّ ﷺ وكانتْ كثيرًا ما تقولُ:

ويَوْمَ الوِشَاحِ مِنْ تَعَاجِيبِ ربِّنَا * على أنَّهُ مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفرِ نَجَّاني[1]

فسألتْها عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عنْ ذلك، فقالتْ: شهدتُ عروسًا تُجْلى ودَخلَتْ مَغْسَلًا وعَلَيْها وشاحٌ فوضعتْهُ، فجاءتِ الحدأةُ فأخذتْهُ، ففقدوهُ فاتَّهموني به، ففتَّشوني حتَّى قُبُلِي، فدعوتُ اللهَ تعالى أنْ يُبرِّئَني، فجاءتِ الحدأةُ بالوشاحِ فألقتْهُ بيْنَهم[2]، وفي روايةٍ: فرفعتُ رأْسِي وقلتُ يا غِيَاثَ المستغيثينَ.

***

(وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) لِقولِه تَعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وعنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: (لوْ جاءَ العسْرُ فدخَلَ هذا الجُحْرَ لَجَاءَهُ اليُسْرُ حتَّى يَدخُلَ عَليهِ فيُخرِجَهُ)[3].

وتنوينُ "يُسْرًا" لِلتعظيمِ مبالغةً معَ ما في "مَعَ" مِنَ المصاحبةِ في معاقبتِه واتصالِه به اتصالَ

---

(١) لفظ الصحيح وغيره من «بلدة الكفر نجاني».

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٣٩) [كتاب الصلاة- باب نوم المرأة في المسجد]، و(٣٨٣٥) [كتاب مناقب الأمصار- باب أيام الجاهلية]، وغيره.

(٣) أخرجه البزار (٧٥٣٠) [مسند أنس]، والحاكم (٢/٢٥٥) [كتاب التفسير]، والبيهقي في الشعب (٩٥٤٠)، وغيرهم. وفي الباب عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المتقاربينَ، واليُسْرُ السهولةُ، ومِنْهُ اليَسارُ للغنا؛ لأنَّهُ تسهلُ بهِ الأمورُ، واليدُ توصفُ باليُسرى؛ لأنَّ الأمورَ تسهلُ بمعاونتِها لليُمْنى.

فَإِنْ قُلْتَ: كيفَ الجمعُ بينَ قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وما لا يُريدُه تعالى لا يَكونُ ولا يَقعُ، إجماعًا مِنْ أهلِ السُّنَّة، فدلَّ عَلى عدم وقوعِ العُسرِ ضرورةً كونَه تعالى لم يُرِدْهُ، وقولُهُ تَعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] يدلُّ قطعًا عَلى وقوعِه؟!

فالجوابُ أنَّ المرادَ بالعُسرِ في الآيةِ الأُولى العُسْرُ في الأحكامِ فقطْ بدليلِ قولِه تَعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقولِهِ -عليْه الصلاةُ والسلامُ-: (بُعثْتُ بالحنيفيةِ السمحة)[1] معَ أنَّ صدرَ الآيةِ يدلُّ عَلى ذلك، وهو قولُه تَعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وأمَّا الآيةُ الثانيةُ فالمرادُ بالعسرِ فيها العُسرُ في الأرزاقِ والاكتسابِ دونَ الأحكامِ.

وروَى الحاكمُ عنِ الحسنِ البصريِّ مُرسلًا أنَّ المصطفى ﷺ قالَ: (لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ)[2]، أيْ كما دلَّ عليه قولُه تَعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾؛ لأنَّ النَّكرةَ المعادةَ غير الأُولى، والمعرفةُ المعادةُ عينُ الأُولى غالبًا فيهما، وما أحْسَنَ قولَ القائلِ:

لَا تَجزَعَنَّ لِعُسْرَةٍ مِنْ بَعْدِهَا * يُسْرَانِ وَعْدًا لَيْسَ فِيه خِلَافُ
كَمْ عُسْرَةٍ ضَاقَ الْفَتَى لِنُزُولِهَا * للهِ فِي أَعْطَافِهَا أَلْطَافُ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد مطولاً (٢٢٢٩١) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي أمامة]، وغيره من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وأخرجه عبد بن حميد (٥٦٩) [مسند عبدالله بن عباس]، وأحمد (٢١٠٧) [مسند عبدالله بن العباس]، والبخاري في "الأدب المفرد" (٢٨٧) [باب حسن الخلق إذا فقهوا]، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، ولفظه: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: (الحنيفية السمحة). وعلقه البخاري في "صحيحه" (١٦/١) [كتاب الإيمان- باب الدين يسر].

(٢) "مستدرك الحاكم" (٥٢٨/٢) [كتاب التفسير]. وأخرجه مالك في الموطأ (٦) [كتاب الجهاد- باب الترغيب في الجهاد]، وابن أبي شيبة (١٩٤٨٦) [كتاب الجهاد]، والحاكم (٣٠٠/٢) وغيرهم موقوفًا على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه الحاكم.

وقالَ الشَّاعِرُ أيضًا:

إِذَا اشْتَدَّتْ بِكَ الْبَلْوَى * فَفَكِّرْ فِي أَلَمْ نَشْرَحْ

فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ * إِذَا فَكَّرْتَهُ تَفْرَحْ

قالَ ابنُ أبي جمرةَ: كانَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذَا كانَ في شدَّةٍ استبشرَ وفرِحَ، وإذَا كانَ في رخاءٍ قَلِقَ، فقيلَ له في ذلكَ، فقالَ: ما من تَرحةٍ إلَّا وتَتْبعُها فَرْحةٌ، وما مِنْ فرحةٍ إلَّا وتَتْبعُها ترحةٌ، ثُمَّ تَلا الآيةَ.

وما أحْسَنَ حكايةَ العتبيِّ، قالَ: كنتُ ذاتَ يومٍ في باديةٍ وأنا بِحالةٍ مِنَ الغمِّ فأُلْقِيَ في رُوعي بيتٌ مِنَ الشِّعْرِ:

أَرَى الْمَوْتَ لِمَنْ أَصْبَحْ * مَغْمُومًا لَهُ أَرْوَحْ

فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ سَمِعْتُ هَاتِفًا يَهْتِفُ فِي الْهَوَاءِ:

أَلَا يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الْـ * ـلَذِي الْهَمُّ بِهِ أبرح

وأَنْشَدَ بَيْتًا لَمْ * يَزَلْ فِي فِكْرِهِ يَسْبَحْ

إِذَا اشْتَدَّتْ بِكَ الْعُسْرَى * فَفَكِّرْ فِي أَلَمْ نَشْرَحْ

فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ * إِذَا فَكَّرْتَهُ فَافْرَحْ

فَإِنَّ الْعُسْرَ مَقْرُونٌ * بِيُسْرَيْنِ فَلَا تَبْرَحْ

فَحفظتُها فَفُرِّجِ الهمُّ عنِّي.

***

الحديثُ المُوفي عِشرينَ

٢٠. عنْ أبي مسعودٍ عُقبةَ بنِ عمرو الأنصاريِّ البدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ مِمَّا أدركَ الناسُ مِنْ كلامِ النُّبوَّةِ الأُولى: إذا لَمْ تَسْتَحِ فاصنعْ ما شِئتَ. رواهُ البخاريُّ.

التعريف بعقبة بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(**عنْ أبي مسعودٍ عقبةَ بنِ عمرٍو**) ابنِ ثعلبةَ بنِ أَسيرةَ -قالَ صاحبُ الإِكْمالِ بفتحِ الهمزةِ وكسرِ السينِ- ابنِ عَسِيرةَ -بفتحِ العينِ وكسرِ السينِ المهملتينِ- ابنِ عطيةَ بنِ خُدارةَ بنِ عوفِ ابنِ الحارثِ بنِ الخزرجِ، كذا نَسَبَهُ الكلبيُّ[١] وابنُ سعدٍ[٢]، وتابعَهما ابنُ عبدِ البرِّ، وقالَ فيما حكاهُ عنِ الرشاطيِّ[٣]: أُسَيْرَةُ بنُ عُسَيْرَةَ بضمِّ أوَّلِهما وفتحِ ثانيهما، ويقالُ في أُسَيْرَةَ يُسَيْرَةُ بياءٍ مضمومةٍ، ومَنْ قالَ فيهِ بالنُّونِ فقدْ صحَّفَ، وخُدارةُ بخاءٍ مضمومةٍ كما قالَ ابنُ عبدِ البرِّ، ويُقالُ أيضًا جِدارةُ بجيمٍ مكسورةٍ.

(**الأنصاريِّ**) الخزرجيِّ (**البدريِّ**) نسبةً إلى بدرٍ نزولًا ومسكنًا؛ لأنَّهُ لَمْ يشهدْ وقْعتَها معَ رسولِ اللهِ ﷺ على الأصحِّ الَّذي قالَ به الجمهورُ، ولكنِ الَّذي ذَهَبَ إليهِ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما أنَّهُ شهِدَها، نَعَمْ شَهِدَ العقبةَ الثالثةَ معَ السَّبْعِينَ، وكانَ أصغرَهم، وشَهِدَ أُحُدًا وَمَا بعدَها مِنَ المشاهدِ، ونزلَ الكوفةَ وابْتَنى بِها دارًا.

---

(١) الأخباري النسابة أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبي، وهو الذي فتح الباب وضبط علم الأنساب، والناس بعد عيال عليه، من مصنفاته: المنزل، والجمهرة، والوجيز، والفريد، والمثالب، وأسواق العرب، وغيرها، توفي سنة (٢٠٤). تاريخ بغداد (١٤/٤٥)، سير أعلام النبلاء (١٠/١٠١)، كشف الظنون (١/١٧٨).

(٢) العلامة الحافظ أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، مولى بني هاشم، كاتب الواقدي، أشهر كتبه الطبقات المعروف بطبقات ابن سعد، توفي سنة (٢٣٠). تاريخ بغداد (٢/٣٦٩)، وفيات الأعيان (٤/٣٥١).

(٣) الحافظ النسابة أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن خلف اللخمي، المعروف بالرشاطي الأندلسي المريي؛ كانت له عناية كبيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ، وله كتاب سماه: اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار، أخذه الناس عنه، وكتاب الإعلام بما في كتاب المختلف والمؤتلف للدارقطني من الأوهام، وغير ذلك، توفي شهيدا سنة (٥٤٢). وفيات الأعيان (٣/١٠٧)، السير للذهبي (١٥/٧٥).

تُوفِّيَ بالمدينةِ، وقيلَ بالكوفةِ سنةَ إحدى -أو اثنتَيْنِ- وأربعينَ، وقيلَ: في خلافةِ عليٍّ، وقيلَ: آخرَ خلافةِ معاويةَ، وقيلَ: تُوفِّيَ بعدَ السِّتِّينَ، وقيلَ: سنةَ إحدى وثلاثينَ، والقولانِ الأخيرانِ ضعيفانِ. رويَ له مائةُ حديثٍ وحديثانِ، اتَّفقا عَلى تسعةٍ، وانفردَ البخاريُّ بواحدٍ ومسلمٌ بسبعةٍ.

***

(قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ) بالرفعِ في جميعِ الطرقِ، والعائدُ عَلى "مَا" محذوفٌ، والتقديرُ مِمَّا أدركَهُ الناسُ، ويَجوزُ النَّصبُ، والعائدُ ضميرُ الفاعلِ، و"أدركَ" بمعنى "بَلَغَ" أيْ مِمَّا بَلَغَ الناسُ، ثُمَّ إنَّ الجارَّ والمجرورَ في قولِهِ "مِمَّا" خبرُ إنَّ، واسمُها قولُه الآتي: إذَا لَمْ تَستحِ... إلخ، أيْ عَلى تقديرِ القولِ، أيْ قولِهم "إذَا لَمْ تَستحِ..."، كما قالَه الطِّيبي، وهو غيرُ مُتعينٍ، بلْ يَصحُّ أنْ تُجْعلَ الجملةُ هي الاسمَ عَلى إرادةِ اللَّفظِ أيْ هذا اللفظِ أو يُجعلَ الجارُّ هو الاسمَ فتكونَ "مِنْ" تبعيضيَّةً أيْ إنَّ بعضَ ما أدركَ، وجملةُ "إذَا لَمْ تَستَحِ... إلخ" هيَ الخبرُ.

(مِنْ كَلَامِ النُّبوَّةِ الْأُولَى) أيْ مِمَّا اتفقتْ عليهِ الأنبياءُ -علَيْهم الصلاةُ والسلامُ- لأَنَّهُ جاءَ في شريعةِ آدمَ، واتفقتْ عليهِ بقيَّتُها، فما مِنْ نبيٍّ مِنَ الأنبياءِ إلَّا ونَدَبَ إليهِ وحثَّ عليه، ولَمْ يُنسخْ في شريعةٍ مِنَ الشرائعِ؛ لأَنَّهُ أَمْرٌ قدْ عُلِمَ صوابُهُ وظَهَرَ فضلُه، واتفقتْ عليهِ العقولُ، وتلقَّتْهُ جميعُ الأُممِ بالقبولِ.

وإضافةُ الْكلامِ إلى النُّبوَّةِ لِلإشعارِ بأنَّ ذلك مِنْ نتائجِ الوحي، وقولُه "الأُولى" ليستْ في روايةِ البخاريِّ، وإنْ كانَ ظاهرُ كلامِ المؤلِّفِ خلافَهُ؛ لأَنَّهُ نَسَبَهُ كُلَّهُ لِروايةِ البخاريِّ، وهيَ ثابتةٌ في روايةِ أحمدَ وأبي داودَ وابنِ ماجهْ عنِ الصحابيِّ المذكورِ(١).

***

(١) قلت: بل هو كما قال الإمام النووي -رحمه الله- بهذا اللفظ في صحيح البخاري (٦١٢٠) [كتاب الأدب- باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت]، وأخرجه أيضًا بهذا اللفظ -كما قال الشارح- أحمد (١٧٠٩٠) [مسند الشاميين- بقية حديث أبي مسعود البدري]، وأبو داود (٤٧٩٧) [كتاب الأدب- باب في الحياء]، وابن ماجه (٤١٨٣) [أبواب الزهد- باب الحياء]، وغيرهم.

(**إذَا لَمْ تَسْتَحِ**) بحذفِ الياءِ وإثباتِها، ويكونُ الجازمُ حذفَ الياءَ الثانيةَ؛ لأنَّهُ مِنْ "اسْتَحْيَى" والأوَّلُ مِنْ "اسْتَحَى"، (**فَاصْنَعْ**) وفي روايةٍ "فَافْعَلْ" والصُّنْعُ أخصُّ مِنَ الفِعْلِ، (**مَا شِئْتَ**).

الأمرُ للتهديدِ والتوبيخِ أيْ إذَا نُزِعَ مِنْكَ الحياءُ، وكُنْتَ لا تَستحي مِنَ اللهِ تعالى ولا تُراقِبُهُ في فعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهيهِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ أيْ ما تهواهُ نَفْسُكَ مِنَ الرذائلِ، فإنَّ اللهَ مُجازيكَ عليهِ، ونظيرُهُ قولُه تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقولُه تعالى: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥]. فإذَا ارتفعَ الحياءُ صنعتِ النفسُ ما تهوى، وأنشدَ بعضُهم في هذا المَعْنَى قولَه:

إذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي * ولَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا واللهِ مَا في الْعَيْشِ خَيْرٌ * ولَا الدُّنْيَا إذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

وقالَ آخرُ:

إذَا لَمْ تَصُنْ عِرضًا ولَمْ تَخْشَ خَالِقًا * وتَسْتَحِ مَخْلُوقًا فَمَا شِئْتَ فَاصْنَعِ

أوْ هو للإباحةِ أيِ انظُرْ إلى ما تُريدُ أنْ تَفعلَهُ، فإنْ كانَ مِمَّا لا يُستَحى مِنَ اللهِ ومِنَ الناسِ في فعْلِه فافعَلْهُ، وإنْ كانَ مِمَّا يُستَحى مِنَ اللهِ ومِنَ الناسِ في فعْلِه فدعْهُ، وعلى هذا مدارُ الأحكامِ، مِنْ حيثُ إنَّ الفعلَ إمَّا أنْ يُستَحى مِنْهُ، وهو الحرامُ والمكروهُ وخلافُ الأَوْلى، واجتنابُها مشروعٌ، أو لا يُستَحى مِنهُ، وهو الواجبُ والمندوبُ والمباحُ، وفِعْلُ الأَوَّلَيْنِ مَطلوبٌ والثالثُ جائزٌ.

أو هو بمعنى الخبرِ كما في قولِه ﷺ: (مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمِّدًا فَلْيتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ)[1]، أيْ: صَنَعْتَ مَا شئتَ؛ لأنَّ ترْكَ الحياءِ يوجبُ الاستهتارَ والانهماكَ في هتكِ الأستارِ، أو المرادُ الحثُّ عَلى الحياءِ، والتنويهُ بفضلِهِ، أيْ: لمَّا لَمْ يَجُزْ صُنْعُ ما شِئْتَ لَمْ يَجُزْ تَرْكُ الاستحياءِ، والأَوَّلُ أَوْلى وأَظْهرُ.

---

(١) متفقٌ عليه أخرجه البخاري (١٠٨) [كتاب العلم]، ومسلم (٢) [المقدمة]، وغيرهما من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والحديث متواتر، وأُفرد بالتصنيف.

معنى الحياء وضوابطه

والحياءُ -بالمدِّ- لغةً: تغيُّرٌ وانكسارٌ يَعْتَرِي الإنسانَ مِنْ خوفِ ما يُعابُ به، وقيلَ: انقباضٌ وحشيةٌ يجدُها الإنسانُ مِنْ نفسِهِ عنْدَما يُطَّلَعُ منه عَلى قبيحٍ. واصطلاحًا: خُلُقٌ يَبعَثُ عَلى تَرْكِ القبيحِ ويَمنَعُ التقصيرَ في حقِّ ذي الحقِّ، وحدَّهُ أبو القاسمِ الجنيدُ بأنَّهُ: رؤيةُ الآلاءِ -أي النِّعَمِ- ورؤيةُ التقصيرِ فيتولَّدُ بيْنَهما حالةٌ تُسمَّى حياءً. وأمَّا الحَيَا -بالقصرِ- فيُطلَقُ عَلى المَطَرِ وعَلى فرْجِ الناقةِ.

وقدْ صحَّ أنَّهُ ﷺ قالَ: (الحياءُ خيرٌ كُلُّهُ، الحياءُ لا يَأتي إلَّا بخيرٍ)[١]، وحُكِيَ أنَّ رجلًا رأى النبيَّ ﷺ فقالَ له: أنتَ قُلْتَ: الْحَيَا خيرٌ كُلُّهُ، بالقصرِ، فقالَ: لا، ثُمَّ رآهُ ثانيًا فسألَهُ مثلَ ذلكَ، فقالَ: لا، فأَخْبَرَ بذلكَ بعضَ العلماءِ فقالَ له "الْحَيَا" بالقصرِ فرْجُ النَّاقةِ، والذي في الحديثِ إنَّما هو بالمدِّ، فرآهُ الثالثةَ وسألَهُ وقالَ: أنتَ قلتَ: الحياءُ خيرٌ كُلُّهُ، فقالَ: نَعَمْ.

ويَنْبَغي أنْ يُراعى فيه القانونُ الشرعيُّ، فإنَّ مِنْهُ ما يُذمُّ كالحياءِ المانعِ مِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ معَ وجودِ شروطِهِ، فإنَّ هذا جُبْنٌ لا حياءٌ. ومثلُه الحياءُ في العلمِ المانعُ مِنْ سؤالِه عنْ مُهمَّاتِ المسائلِ في الدِّينِ إذَا أُشكِلتْ عَليهِ، ومِنْ ثَمَّ قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصارِ لا يمنعُهنَّ الحياءُ أنْ يَسألْنَ عَنْ أمرِ دينِهنَّ[٢]، ولذا جاءتْ أُمُّ سُلَيمٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقالتْ: يا رسولَ اللهِ إنَّ اللهَ لا يَستحي مِنَ الحقِّ، هلْ عَلى المرأةِ مِنْ غُسْلٍ إذا هِيَ احتلَمَتْ؟ قالَ: (نَعَمْ، إذَا رأتِ الماءَ)[٣].

ورَوى البيهقيُّ عنِ الأصمعيِّ أنَّهُ قالَ: مَنْ لمْ يَتحمَّلْ ذُلَّ التعليمِ ساعةً بَقِيَ في ذُلِّ الجهلِ أبدًا[٤].

---

(١) متفقٌ عليه بلفظ (الحَياءُ لا يَأتي إلَّا بخَيْرٍ): البخاريُّ (٦١١٧) [كتاب الأدب- باب الحياء]، ومسلمٌ (٣٧) [كتاب الإيمان- باب شعب الإيمان] من حديث عمران بن حصين، وقوله: (الحياء خير كله) انفرد به مسلم.

(٢) أخرجه مسلم (٣٣٢) [كتاب الحيض- باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة]،وغيره. وذكره البخاري معلَّقًا (٣٨/١) [كتاب العلم- باب الحياء في العلم].

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٨٢) [كتاب الغسل- باب إذا احتلمت المرأة]، ومسلمٌ (٣١٣) [كتاب الحيض- باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها]، وغيرهما من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٤) "المدخل إلى السنن الكبرى" للبيهقي (٤٠٣) [باب فضل العلم].

ورُوِيَ أيضًا عنْ عُمَرَ قالَ: لا تَتعلَّم العلمَ لِثلاثٍ، ولا تتركْهُ لِثلاثٍ، لا تتعلَّمْهُ لِتُماريَ به، ولا لِتُرائيَ به، ولا لِتُباهِيَ به، ولا تتركْهُ حياءً مِنْ طلبِهِ ولا زهادةً فيه ولا رضًا بجهالةٍ[1].

وعنْ عُمَرَ أيضًا: مَنْ رَقَّ وجهُهُ رقَّ علمُه[2]. وقالَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ كُسِيَ بِالحياءِ ثوبُهُ لَمْ تَرَ الناسُ عيبَهُ[3]. وقيلَ لأبي سفيانَ: ما أَوَّلُ الحياءِ؟ قالَ: أَنْ تَستحيَ مِنَ اللهِ أَنْ يَراكَ حيثُ نَهاكَ، قيلَ: فما غايتُهُ؟ قالَ: أَنْ تَستحيَ منه أنْ يَعلَمَ أَنَّكَ تُريدُ بِقلبِكَ سواهُ. وقالَ بعضُ السَّلَفِ لِابنِهِ: يا بُنَيَّ إذا دَعتْكَ نَفسُكَ إلى معصيةٍ فارمِ بِبصرِكَ إلى السماءِ واستحِ مِمَّنْ فيها، وارمِ بِبصرِكَ إلى الأرضِ واستحيِ مِمَّنْ فيها، فإنْ لَمْ تَفعلْ فَعُدَّ نفسَكَ مِنَ البهائمِ.

وعنْ أبي أَيُّوبَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (أربعٌ مِنْ سننِ المرسلينَ: التَّعَطُّرُ والنِّكاحُ والسواكُ والحياءُ)[4]، وكانَ ﷺ أشدَّ حياءً مِنَ العذراءِ في خِدْرِها[5].

ورُوِيَ أَنَّهُ ﷺ قالَ لِأصحابِه: (استحْيُوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ)، وَرَدَّدَ ذلكَ مراراً، فقالوا: إنَّا نَستحيي والحمدُ للهِ، فقالَ: (ليسَ ذاك، ولكنَّ الاستحياءَ مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ أنْ تَحفَظَ الرأسَ وما وَعى والبطنَ وما حَوى، وأنْ تَذكُرَ الموتَ والبِلى، فَمَنْ فعلَ ذلك فقدِ استحيا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ)، وما زالَ يُكَرِّرُ ذلك حتَّى أبكاهم[6].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في "الصمت" (١٣١) [باب ذمِّ المراء]، والبيهقي في "المدخل" (٤١٤) [باب فضل العلم]، ويشهد له ما روي مرفوعًا من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: (لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس...) الحديث. أخرجه ابن ماجه (٢٥٤) [أبواب السنة- باب الانتفاع بالعلم والعمل به]، والحاكم (٨٦/١) [كتاب العلم]، وغيرهما. وفي الباب عن جماعة.

(٢) أخرجه الدارمي (٥٩١) [كتاب العلم- باب البلاغ عن رسول الله ﷺ]، وغيره، وروي عن آخرين.

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٤٢٧/٣)، ونسبه لبعض الحكماء، ولم يعزه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٥٨١) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي أيوب]، والترمذي (١٠٨٠) [أبواب النكاح- باب ما جاء في فضل التزويج..]، وغيرهما من حديث أبي أيوب الأنصاري مرفوعًا. وقال الترمذي: حسن غريب.

(٥) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٥٦٢) [كتاب المناقب- باب صفة النبي ﷺ]، ومسلمٌ (٢٣٢٠) [كتاب الفضائل- باب كثرة حيائه ﷺ]، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٦) أخرجه أحمد (٣٦٧١) [مسند عبدالله بن مسعود]، والترمذيُّ (٢٤٥٨) [أبواب صفة القيامة والرقائق]، والبزَّار (٢٠٢٥) [مسند عبدالله بن مسعود]، وأبو يعلى (٥٠٤٧) [مسند عبدالله بن مسعود]، وغيرهم من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي إسناده مقالٌ وضعَّفه بعض الحفَّاظ، وأشار الحافظ السيوطيُّ إلى صحَّته كما في=

وقالَ للذي رآه يُعاتبُ أخاهُ في الحياءِ: (دَعْهُ، فإنَّ الحياءَ مِنَ الإيمانِ)[1]، وجعلَهُ منْهُ وإن كان غريزةً لأنَّ استعمالَهُ عَلى قانونِ الشرعِ يَحتاجُ إلى قصدٍ واكتسابٍ وعِلْمٍ.

وعنِ الفُضَيْلِ: خمسةٌ مِنَ علاماتِ الشقاوةِ: القسوةُ في القلبِ، وجمودُ العَيْنِ، وقِلَّةُ الحياءِ، والرغبةُ في الدُّنيا، وطولُ الأملِ.

وقيلَ في قولِه تَعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]: إنَّ البرهانَ أنَّها ألقتْ ثوبًا عَلى وجهِ صَنَمٍ في زاويةِ البيتِ، فقالَ يوسفُ: ما الذي تَفعلينَ؟ فقالتْ: أستحي مِنْهُ، فقالَ يوسفُ: أنا أَوْلى أَنْ أستحيَ مِنَ اللهِ[2].

وقيلَ: إذَا جَلَسَ الرجلُ ليعظَ الناسَ ناداهُ ملكاهُ: عِظْ نَفْسَكَ بما تَعظُ به أخاكَ، وإلَّا فاستحي مِنْ سيِّدِكَ، فإنَّهُ يَراكَ.

وقالَ الحليميُّ: ويَدخُلُ في جملةِ الحياءِ مِنَ اللهِ ثُمَّ مِنَ الناسِ سَتْرُ العورةِ، فقدْ رَوى البيهقيُّ عنْ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى غَنَمٍ له، وفيها أجيرٌ له يَرعاها، وإذَا بالأجيرِ مُتجرِّدٌ فيها، فدعاهُ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ له: كَمْ لكَ عندَنا مِنْ أجرِكَ؟ فقالَ: يا رسولَ اللهِ أَلَمْ أُحْسِنِ الرعايةَ والولايةَ؟ قالَ: إنِّي لا أُحِبُّ أنْ يَكونَ فيها مَنْ لا يَستحي مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- إذَا خَلا[3].

ودَخَلَ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ الحَمَّامَ فرأى بعضَ إخوانِه عُريانًا فغمَّضَ عَيْنَيْهِ، فقالَ له العريانُ: مُذْ كَمْ عَميتَ؟ قالَ: منذُ هَتَكَ اللهُ سِتْرَكَ.

="الجامع الصغير"، وتعقَّبه المناوي في "الفيض"، وانتصر السيد أحمد بن الصِّديق للسيوطيِّ، وذكر للحديث شواهد وطرق من حديث عائشة والحكم بن عمير والحسن مرسلًا، وقال بعدها: «وبهذه الطرق لا يبعد الحكم بتصحيحه». انظر "المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحَي المناوي" لابن الصِّدِّيق (١/٥٢١ - ٥٢٣).

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٤) [كتاب الإيمان- باب الحياء من الإيمان]، ومسلمٌ (٣٦) [كتاب الإيمان- باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/١٨١) [ترجمة محمد الباقر] من طريق أهل البيت عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٣٧٠)، وغيره

وعنْ عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنَّها قالتْ: مكارمُ الأخلاقِ عَشْرٌ، تكونُ في الرجلِ ولا تكونُ في ابنه، وتَكونُ في الابنِ ولا تَكونُ في الأبِ، وتَكونُ في العبدِ ولا تَكونُ في سيِّدِه، يُقسِّمُها اللهُ لِمَنْ يُريدُ بِهِ السعادةَ: صِدْقُ الحديثِ، وصِدْقُ البأسِ، وإعطاءُ السائلِ، والمكافأةُ بالصنائعِ، وحفظُ الأمانةِ، وصِلةُ الرحمِ، والتذمُّمُ للجارِ، والتذمُّمُ للصاحبِ، وقِرى الضيفِ، ورأسُهُنَّ الحياءُ، اهـ[1]. ومَعْنى صِدْقِ البأسِ أي الصدقُ في مقابلةِ العدوِّ، ومعنى التذمُّمِ أنْ يَحفَظَ ذِمامَهُ أيْ حُرمتَهُ وحقَّهُ، ويَطرَحَ عَنْ نفسِهِ ذمَّ الناسِ.

ومِنْ علاماتِ الحياءِ أنْ لا يَخافَ غيرَ اللهِ، كما حُكِيَ عنْ بعضِهم أنَّهُ قالَ: خرجْنَا ليلةً فمرَرْنا بأَجمةٍ وإذا رجلٌ نائمٌ وفرسُه عندَ رأسِهِ تَرعى فحرَّكْناه، وقُلْنا له: أَلَا تخافُ أنْ تنامَ في هذا الموضعِ المُسبعِ المخوفِ؟ فوضعَ رأسَهُ وقالَ: أستحي منه أنْ أخافَ غيرَه، ووَضَعَ رأسَهُ ونامَ.

ورويَ عنْ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّهُ دَخلَ عَلى النبيِّ ﷺ فوجَدَه يَبكي فقالَ: ما يُبكيكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: أخبرَني جبريلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أنَّ اللهَ يَستحي مِنْ عبْدٍ يَشيبُ في الإسلامِ أنْ يُعذِّبَهُ، أفلا يَستحي الشيخُ مِنَ اللهِ تعالى أنْ يُذنِبَ وقدْ شابَ في الإسلامِ[2].

وفي الحديثِ أيضًا أنَّهُ يُؤتى بشيخٍ يومَ القيامةِ بينَ يدي اللهِ تعالى فيُقالُ له: ما فعلتَ من الحسناتِ؟ فيقولُ: يا ربِّ فعلتُ كذا وكذا، واللهُ يَعلَمُ أنَّهُ كاذبٌ، فيَأمُرُ اللهُ به إلى الجنةِ، فتقولُ الملائكةُ: يا ربِّ إنَّهُ كذَّابٌ، فيقولُ اللهُ: قدْ عَلِمْتُ ذلك منهُ، ولكنِ استحييتُ منه أنْ أُكذِّبَ شيبتَهُ[3].

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٣٢٣)، وتمام في الفوائد (١٧٧٠)، وغيرهما عن السيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مرفوعًا. وقال البيهقي: وقد روي ذلك بإسناد آخر ضعيف موقوفا على عائشة وهو به أشبه. ورُوي أيضًا عن جعفر الصادق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وانظر الكلام عليه في "المداوي" للسيد أحمد بن الصديق (٨/٦).

(٢) أخرجه بنحوه أبو يعلى (٢٧٦٤) [مسند أنس]، وأبو نعيم (٣٨٦/٢) [ترجمة مالك بن دينار] من طريقين عن أنس، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١٧٧/١)، وتعقّبه السيوطي في اللآلئ (١٢٤/١- ١٢٦)، وتوسَّع في الكلام على الحديث وذكر له طرقًا.

(٣) ذكره الشيخ محيي الدين في الفتوحات المكية (٣٣٥/٣، وفي عدة مواضع أخرى) ولم يعزه.

(رواه البخاريُّ) في ذِكْرِ بَني إسرائيلَ.

***

تنبيهٌ: حُكِيَ أنَّ بعضَهم وافى البصرةَ نحوَ شُعْبَةَ[1] يَسمَعُ منه ويُكثِرُ، فصادفَ المجلسَ قد انقضى وانصرفَ شُعْبَةُ إلى منزِلِه، فحَمَلَهُ السَّرَفُ إلى أنْ سأَلَ عنْ منزلِ شُعْبَةَ فأُرشِدَ إليه، فجاءَ فوجَدَ البابَ مفتوحًا فدَخَلَ مِنْ غيرِ استئذانٍ فوجَدَ شعبةَ عَلى البالوعةِ يَبولُ، فقالَ: السلامُ عليكُمْ، رجلٌ غريبٌ، قدمتُ مِنْ بلدةٍ بعيدةٍ لِتحدِّثَني بحديثِ رسولِ اللهِ ﷺ، فاستعظَمَ شعبةُ ذلك فقالَ: يا هذا دخَلْتَ مَنزلي مِنْ غيرِ إذني وتُكلِّمُني عَلى مِثْلِ هذا الحالِ! فقالَ: إني خَشيتُ الفوْتَ، فقالَ: تأخَّرْ عنِّي حتَّى أُصْلِحَ من شأني، فلمْ يفعلْ، واستمرَّ في الإلحاحِ، قالَ: وشعبةُ يُخاطِبُه وذَكَرُهُ في يَدِهِ يَستبرئُ، فلَمَّا أَكْثَرَ قالَ: اكتُبْ: حدَّثَنا منصورُ بنُ المعتمرِ عنْ ربعيِّ بنِ حراشٍ عنْ أبي مسعودٍ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: إنَّ ممَّا أدركَ الناسُ مِنَ كلامِ النبوةِ الأُولى إذَا لَمْ تَستحِ فاصنَعْ ما شِئْتَ، ثم قالَ: واللهِ لا أُحدِّثُكَ بعدَ هذا الحديثِ، ولا حدَّثْتُ قومًا تكونُ فيهم، اهـ.

***

(١) الإمام الحافظ، أمير المؤمنين في الحديث، أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي، عالم أهل البصرة وشيخها، كان من أوعية العلم، لا يتقدمه أحد في الحديث في زمانه، وكان عالما بالأدب والشعر، له كتاب الغريب في الحديث، توفي سنة (١٦٠). تاريخ بغداد (٩/٢٥٥)، تذكرة الحفاظ (١/١٤٤).

الحديثُ الحادي والعشرونَ

٢١. عنْ أبي عمرو، وقيل: أبي عمرةَ، سُفيانَ بنِ عبدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، قُلْ لِي في الإسلامِ قولاً لا أَسأَلُ عنه أَحداً غيرَك، قالَ: قُلْ آمنتُ باللهِ ثُمَّ استقِمْ. رواهُ مسلمٌ.

(**عَنْ أَبِي عَمْرٍو**) بالواوِ؛ لأنَّهم ذَكروا أنَّ اسمَ "عَمْرو" المفتوحَ العينِ يُكتبُ في حالِ الرفعِ والجرِّ بالواوِ للفرقِ بيْنهُ وبينَ "عُمَرَ" المضمومِ العينِ، ولا تُكتبُ فيه في النصبِ لحصولِ الفرقِ بالألفِ، وإنَّما جُعلتِ الواوُ فيه رفعًا وجرًّا لخفَّتِه منْ ثلاثةِ أشياءَ: فتحِ أوَّلِه وسكونِ ثانيه وصرْفِه، (**وَقِيلَ: أبي عَمْرَه**) بالهاءِ (**سفيانَ**) بتثليثِ أوَّلِه (**ابنِ عبدِ اللهِ**) بن أبي ربيعةَ، وقيلَ: ابن حطيطِ ابنِ الحارثِ الثقفيِّ معدودٌ منْ أهلِ الطائفِ، وكانَ عاملًا لعُمَرَ عليها حينَ عزلَ عنهُ عثمانَ بنَ أبي العاصِ، روى مسلمٌ عنه هذا الحديثَ فقطْ.

***

(**قالَ: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ قُلْ لِي فِي الإسلامِ**) أي في دينِهِ وشريعتِهِ (**قَوْلًا**) جامعًا لأُمورِهِ أَكتَفِي بِهِ بحيثُ (**لَا**) أحتاجُ بعدَهُ إلى أنْ (**أَسأَلَ عنهُ أحدًا غيرَكَ**) لكونِهِ واضحًا في نفسِه مُبيِّنًا لغيرِهِ، وفي روايةٍ بدلَ (غَيْرَكَ): (بَعْدَكَ)[1] أيْ بعدَ سؤالِكَ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] أيْ مِنْ بعدِ إمساكِه، وقولُه في الروايةِ الأولى: (غيرك) ملزوم هذا اللفظ؛ فإنه إذا لم يسألْ بعدَ سؤالِه أحدًا يلزمُ منه أنَّهُ لا يَسألُ غيرَه، ذَكَرَهُ الطيبيُّ.

(**قَالَ: قُلْ آمنْتُ باللهِ**) لفظُ الترمذيِّ (قُلْ رَبِّيَ اللهُ)[2]، (**ثُمَّ اسْتَقِمْ**) عَلى عملِ المأموراتِ عقدًا بالجنانِ وقولًا باللِّسانِ وفعلًا بالأركانِ واجتنابِ المنهياتِ.

(١) صحيح مسلم (٣٨) [كتاب الإيمان- باب جامع أوصاف الإسلام].

(٢) سنن الترمذي (٢٤١٠) [أبواب الزهد- باب ما جاء في حفظ اللسان].

وهاتانِ الجملتانِ مُنتزَعتانِ منْ قولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، والسينُ فيها سينُ الموافاةِ والمطاوعةِ كما يُقالُ: "أرضيتُه فاسترْضى"، قالَ ابنُ فورك[1]: هيَ سينُ الطلبِ والمعنى أنَّهم طَلبوا مِنَ اللهِ أنْ يُقيمَهم عَلى التوحيدِ وحفظِ الحدودِ.

معنى الاستقامة والحث عليها

والاستقامةُ لُغَةً: ضدُّ الاعوجاجِ أي الاستواءُ في جهةِ الانتصابِ. واصطلاحًا: قالَ بعضُهم: لا يُطيقُها إلَّا الأكابرُ؛ لأنها الخروجُ عنِ المألوفاتِ ومفارقةُ الرسومِ والعاداتِ، والقيامُ بينَ يدي اللهِ تعالى عَلى حقيقةِ الصِّدْقِ.

وقالَ البيضاويُّ: اتِّباعُ الحقِّ، والقيامُ بالعدلِ، ولزومُ المنهجِ المستقيمِ، وذلكَ خطْبٌ جسيمٌ لا يَحصُلُ إلَّا لِمَنْ أشرقَ قلبُه بالأنوارِ القدسيَّةِ وتخلَّصَ مِنَ الكدوراتِ البشريَّةِ والظلماتِ الإنسيَّةِ الطبيعيَّةِ، وأيَّدهُ اللهُ مِنْ عندِهِ، وقليلٌ ما هم، اهـ.

وقيلَ: أنْ لا يَختارَ العبدُ عَلى اللهِ شيئًا. وقيلَ: هِيَ لزومُ طاعةِ اللهِ. وقيلَ: هِيَ الإخلاصُ في الطاعةِ. وقيلَ: هِيَ أنْ تَشهدَ الوقتَ الذي أنتَ فيهِ قيامةً قامتْ، بأن تَستَشْعِرَ قيامَكَ بينَ يديْ مولاكَ فتُحْسِنَ استقامتَكَ له في دنياكَ. وقالَ ابنُ فورك: هِيَ سؤالُ اللهِ تعالى أنْ يُثبِّتَهم عَلى الدِّينِ.

وقالَ بعضُ العارفينَ: هِيَ توبةٌ بلا إصرارٍ، وعملٌ بلا فتورٍ، وإخلاصٌ بلا التفاتٍ، ويقينٌ بلا ترددٍ، وتفويضٌ بلا تدبيرٍ، وتوكُّلٌ بلا وهمٍ، وهذا مقامٌ عزيزٌ لا يَحكُمُه إلا مَنْ تَصفَّى كالإبريزِ. وقيلَ: هيَ المتابعةُ للسُّنَّةِ المحمديَّةِ معَ التخلقِ بالأخلاقِ المَرْضيَّةِ. وقيلَ: هِيَ الاتِّباعُ معَ تركِ الابتداعِ.

---

(١) شيخ المتكلمين الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك، المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ الأصبهاني بلغت تصانيفه في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن قريبا من المئة. منها: مشكل الحديث وغريبه، والنظامي، والحدود، وأسماء الرجال، والتفسير، وغريب القرآن، وغيرها، توفي سنة (٤٠٦). وفيات الأعيان (٤/٢٧٣)، طبقات السبكي (٤/١٢٧).

قالَ بعضُهم: والاستقامةُ أصعبُ المقاماتِ مُطْلَقًا، وهِيَ كمقامِ الشُّكْرِ؛ إذْ هو صرفُ العبدِ في كلِّ ذرةٍ ونَفَسٍ جميعَ ما أنعمَ اللهُ به عليهِ إلى ما خُلِقَ لِأجلِه مِنْ عبادةِ ربِّه بما يُطيقُ من جوارحِه عَلى الوجهِ الأقومِ.

ومِنْ ثَمَّ قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قولِهِ تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]: ما نَزَلَ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ في جميعِ القرآنِ آيةٌ كانتْ أشدَّ وأشقَّ عليه مِنْ هذه الآيةِ[١]، ولذلك قالَ ﷺ حينَ قالَ له أصحابُه: قَدْ أسرعَ إليكَ الشيبُ: (شَيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها)[٢]، وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ: لمَّا نزلتْ هذهِ الآيةُ شَمَّرَ رسولُ اللهِ ﷺ فمَا رُئِيَ ضاحكًا[٣].

وقالَ الشبليُّ: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في المنامِ فقلتُ له: رويَ عنكَ يا رسولَ اللهِ أنَّكَ قلتَ: شَيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها، فما الذي شيَّبَكَ منها، قصصُ الأنبياءِ وهلاكُ الأممِ؟ فقالَ: لا، ولكنْ إنَّما شيَّبَني منها قولُه تَعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ إلخ؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ يدلُّ عَلى أنَّ الاستقامةَ تَكونُ بحسبِ المعرفةِ، فمَنْ كَمُلَتْ معرفتُهُ بربِّه عَظُمَ عندَه أمرُه ونهيُه، فإذَا سَمِعَ ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ عَلِمَ أنَّه طولِبَ باستقامةٍ تَليقُ بمعرفتِهِ.

لكنْ قالَ في "فيضِ الجودِ عَلى حديثِ شيَّبَتْني هود"[٤] ما نصُّه: عدةُ السورِ الواردةِ في جملةِ الرواياتِ ثمانيةٌ: هودٌ، والواقعةُ، والحاقَّةُ، وسأَلَ سائلٌ، والمرسلاتُ، وعمَّ يَتساءلونَ، وإذا الشمسُ كوِّرتْ، والقارعةُ، ولا تَعارضَ بينَ الرواياتِ؛ لأنَّ روايةَ (شيَّبَتني هودٌ وأخواتُها) تعمُّ الجميعَ، وتعيينُ البعضِ في بعضِ الرواياتِ دونَ بعضٍ يُحمَلُ عَلى إسقاطِ بعضِ الرواةِ لِذلكَ البعضِ لِعدمِ سماعِه له، أو عَلى أنَّه ﷺ عيَّنه لبعضٍ دونَ بعضٍ فتكونُ الواقعةُ متعددةً، فظهرَ أيضا أنَّ القولَ بأنَّ المرادَ مِنْ سورةِ هودٍ آيةُ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ غير مستقيم؛ لأنَّ الاستقامة

---

(١) ذكره النووي في "شرح مسلم" (٢/٩)، ولم يعزه.

(٢) أخرجه الترمذيُّ في سننه (رقم ٣٢٩٧) [بابٌ: ومِن سُورةِ الواقِعَةِ] والبزّار في مسنده (رقم ٩٢)، والحاكم في المستدرك (٢/٣٤٣) [كتاب التفسير]، وغيرهم عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت... فذكره، وصحَّحه الحاكم. وفي الباب عن جماعة.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٨٠)، وعزاه لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٤) للزمزمي، عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز، المكي الشافعي، المتوفى سنة ٩٧٦.

لَمْ توجدْ في جميعِ السورِ الواردةِ في الطرقِ الصحيحةِ، ولَمْ يذكرِ الشورى في روايةٍ مِنَ الرواياتِ معَ اشتمالِها عَلى ما في هودٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥]، وليسَ لِلقائلِ بهذا القولِ حجةٌ يَستنِدُ إِلَيْها، اهـ. وقدْ يُقالُ: إنَّ الشُّورى متأخرةٌ في النزولِ عنْ هذا الإخبارِ، فلا يَرِدُ ما ذُكِرَ.

قالَ أبو عليٍّ الدقاقُ: الاستقامةُ لَها ثلاثُ مدارجَ، أوَّلُها التقويمُ ثُمَّ الإقامةُ ثُمَّ الاستقامةُ، فالتقويمُ يَكونُ مِنْ حيثُ تأدُّبُ النفوسِ؛ لأَنَّهُ عبارةٌ عنْ إصلاحِ الجوارحِ وتعديلِها بميزانِ الخوفِ والرجاءِ لِتسلَمَ مِنَ النهاياتِ وتَستقيمَ عَلى فِعْلِ الطاعاتِ، والإقامةُ تَكونُ مِنْ حيثُ تهذيبُ القلوبِ أي تطهيرُها مِنَ الآفاتِ الذَّميمةِ، والاستقامةُ مِنْ حيثُ تقريبُ الأسرارِ مِنَ القلوبِ بأنْ تَكونَ أفعالُ العبدِ كُلُّها موزونةً بميزانِ الشَّرْعِ مِنْ غيرِ تكلُّفِ تقويمٍ ولا إقامةٍ، فالمَعنى الأَوَّلُ تمحيصٌ، والثاني تحقيقٌ، والثالثُ توفيقٌ.

قالَ بعضُهم: وعلامةُ المستقيمِ أنْ يَكونَ مِثلَ الجبلِ؛ لأنَّ للجبلِ أربعةَ أوصافٍ: الأَوَّلُ: لا يذيبُهُ الحرُّ، الثاني: لا يَضرُّه البردُ، الثالث: لا يُحرِّكُه الريحُ، الرابع: لا يَذهَبُ به السيلُ، فكذلكَ المستقيمُ إذا أحسنَ إليه إنسانٌ لا يَحملُه الإحسانُ أنْ يَميلَ إليه بغيرِ الحقِّ، والثاني: إذا أساءَ إليهِ شخصٌ لا يَتشوَّشُ منهُ بلْ يَتجاوزُ عنهُ، ويَعُدُّ ذلكَ كالعدمِ، والثالثُ: أنَّ هوى نفسِهِ لا يُحوِّلُه عنْ أمرِ اللهِ، والرابعُ: أنَّ متاعَ الدُّنيا لا يَشغلُه عنْ طاعةِ اللهِ تَعالى.

وقالَ القشيريُّ: الاستقامةُ درجةٌ بِها كمالُ الأمورِ وتمامُها، وبوجودِها حصولُ الخيراتِ ونظامُها، ومَنْ لَمْ يكنْ مُستقيمًا ضاعَ سعيُهُ وخابَ جدُّه.

وقالَ بعضُهم: إنَّه لا يُطيقُها إلا الأكابرُ، لأنَّها الخروجُ عنِ المألوفاتِ، ومفارقةُ الرسومِ والعاداتِ، والقيامُ بينَ يدي اللهِ عَلى حقيقةِ الصدقِ، ولِعِزَّتِها أخبرَ ﷺ أنَّ الناسَ لنْ يُطيقوها فقدْ أخرجَ أحمدُ: (استَقيموا ولنْ تُحْصُوا)[1] أيْ لنْ تُطيقوا الاستقامةَ ولن تَبلغوا كنهَها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٧٨) [تتمة مسند الأنصار- ومن حديث ثوبان]، والدارمي (٧١٤) [كتاب الطهارة]، وابن ماجه (٢٧٧) [أبواب الطهارة- باب المحافظة على الوضوء]، وغيرهم من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**رواه مسلمٌ**)، وهو مِنْ بديع جوامع كلمِه ﷺ التي اختُصَّ بها، فإنَّه ﷺ جَمَعَ للسائلِ في هاتينِ الكلمتينِ معانيَ الإسلام؛ لأنَّه توحيدٌ وطاعةٌ، فالتوحيدُ حاصلٌ بالجملةِ الأُولى، والطاعةُ بجميعِ أنواعِها في ضمنِ الجملةِ الثانية؛ إذِ الاستقامةُ امتثالُ كُلِّ مأمورٍ واجتنابُ كُلِّ منهيٍّ.

وأعظَمُ ما يُراعى استقامتُه بعدَ القلبِ اللسانُ؛ لأنَّهُ ترجمانُ القلبِ المعبِّرُ عنهُ، ولذا زادَ الترمذيُّ في هذا الحديثِ: (قلتُ يا رسولَ اللهِ ما أخوفُ ما تخافُ على أُمَّتِكَ، فأخذَ بلسانِ نفسِهِ، وقالَ: هذا)[1]، وفي مسندِ أحمدَ: (لا يَستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يَستقيمَ قلبُهُ، ولا يَستقيمُ قلبُهُ حتَّى يَستقيمَ لسانُهُ)[2]، وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ مرفوعًا: (إذَا أصبحَ ابنُ آدمَ قالتِ الأعضاءُ لِلِّسَانِ: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنَّكَ إنِ استقمتَ استقَمْنا، وإنِ اعوجَجْتَ اعوجَجْنا)[3].

***

(١) سنن الترمذي (٢٤١٠) [أبواب الزهد- باب ما جاء في حفظ اللسان].

(٢) مسند أحمد (١٣٠٤٨) [مسند أنس].

(٣) أخرجه أحمد (١١٩٠٨) [مسند أبي سعيد الخدري]، والترمذيُّ (٢٤٠٧) [أبواب الزهد- باب ما جاء في حفظ اللسان]، وغيرهما، من حديث أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحديثُ الثاني والعشرونَ

٢٢. عنْ أبي عبدِ اللهِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رجلاً سألَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: أرأيتَ إذا صلَّيتُ المكتوباتِ، وصُمْتُ رمضانَ، وأحللتُ الحلالَ وحرَّمتُ الحرامَ، ولمْ أزِدْ على ذلك شيئاً، أدخُلُ الجنَّةَ؟ قالَ: نَعَم. رواهُ مسلمٌ، ومعنى «حرَّمتُ الحرامَ»: اجتنبتُه، ومعنى «أحللتُ الحلالَ»: فعلتُه مُعتقداً حِلَّه.

التعريف بجابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومناقبه

(**عنْ أبي عبدِ اللهِ**) قيلَ: كنيتُه أبو محمدٍ، وقيلَ: أبو عبدِ الرحمنِ (**جَابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ**) بنِ عمرِو بنِ حَرامٍ -بمهملتينِ مفتوحتَيْنِ- ابنِ عمرِو بنِ سوادٍ -بتخفيفِ الواوِ- ابنِ مسلِمةَ -بكسرِ اللَّامِ- ويقالُ: ابنِ حزامٍ، بنِ ثعلبةَ بنِ جابرِ بنِ حَرامِ بنِ كعبِ بنِ غنمِ بنِ كعبِ بنِ سلمةَ بنِ سعدِ بنِ عليِّ بنِ أسدِ بنِ ثاردةَ بنِ تزيدَ -بالمثناةِ فوقُ- بنِ حيثمِ بنِ الخزرجِ (**الأَنْصَارِيِّ**) السَّلَمِيِّ -بفتحِ السِّينِ واللَّامِ، وأُمُّه أنيسةُ بنةُ عقبةَ بنِ عديِّ بنِ سنانٍ، أسلمتْ وبايعتْ.

(**رضِيَ اللهُ عنْهُما**) فأبوه صحابيٌّ شهِدَ العقبةَ معَ السبعينَ، وهو أحدُ النقباءِ الاثنيْ عشرَ، وبدرًا وأُحُدًا، وقُتِلَ يومئذٍ، ولمَّا بَلَغَ ابنَه موتُه أقبلَ فإذا هو بيْنَ يدي النبيِّ ﷺ مُسجًّى، قالَ جابرٌ: فتناولتُ الثوبَ عنْ وجهِهِ، وأصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ ينهوني كراهيةَ أنْ أَرى ما بهِ منَ المُثلةِ، ورسولُ اللهِ ﷺ لا يَنهاني، فلَمَّا رُفِعَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (ما زالتِ الملائكةُ حافَّةً بأجنحتِها حتَّى رُفِعَ) ثم لَقِيَني بعدَ أيامٍ، فقالَ لي: (أيْ بُنَيَّ ألَا أُبَشِّرُكَ أنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أحْيا أباكَ فقالَ: تَمَنَّ، فقالَ: أتمنَّى يا ربِّ أنْ تُعيدَ رُوحي وتَرُدَّني إلى الدُّنْيا حتَّى أُقتَلَ مرةً أُخرى، قالَ: إنِّي قضيتُ أنَّهم إليها لا يَرجعونَ)[1].

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٢٩٣) [كتاب الجنائز- باب ما يكره من النياحة على الميت]، ومسلمٌ (٢٤٧١) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام]، وغيرهما دون ذكر الرؤيا،=

ولمَّا قُتِلَ -أيْ أبوه- كانَ عليه دَيْنٌ وتَرَكَ حائطًا فبَذَلَ جابرٌ لغُرَماءِ أبيه أصلَ ماله، وهو الحائطُ فلمْ يَقبلوهُ ولا رَضوا بالإمهالِ، ولمْ يَكنْ في ثمرها سنينَ كفافُ دَيْنِهم، فذَكَرَ ذلك للنبيِّ ﷺ فأمَرَه بجذِّها وجَعْلِ كُلِّ صِنْفٍ عَلى حِدَةٍ، ثُمَّ طافَ ﷺ بها، وأمَرَهُ أنْ يَكيلَ مِنْ كُلِّ واحدةٍ منها فوفَّى الدَّيْنَ وفضَلَ بعدَه آصعٌ كثيرةٌ[1]، وفي روايةٍ: وفَضَلَ مِثْلُ ما كانوا يَجدونَ كُلَّ سنةٍ، وفي روايةٍ: مِثْلُ ما أَعْطاهُم[2]، قالَ: وكان الغُرماءُ يَهودَ فعَجبوا مِنْ ذلكَ.

وشَهِدَ جابرٌ العقبةَ الثانيةَ معَ السبعينَ، قِيلَ: وكانَ أصغرَهم، واستغفرَ له المصطفى ﷺ في ليلةٍ واحدةٍ سبعًا وعشرينَ مرةً[3]، ورويَ عنه أنَّه قالَ: أقبلتْ عيرٌ يومَ الجمعةِ ونحنُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ فانفتلَ الناسُ، فلمْ يَبْقَ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ إلا اثنا عشرَ رَجُلًا، أنا فيهم، فأنزلَ اللهُ تَعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: ١١][4].

وأرادَ شهودَ بدرٍ فخلَّفَهُ أبوه عَلى أخواتِهِ، وكنَّ تِسعًا، وخلَّفَهُ أيضًا يومَ أُحُدٍ، ثُمَّ شَهِدَ ما بعدَ ذلكَ لَكنْ في البخاريِّ أنَّهُ كانَ يَنقُلُ الماءَ يومَ بدرٍ[5].

وماتَ بالمدينة بعدَ أنْ ذَهَبَ بصرُه سنةَ ثلاثٍ -أو ثمانٍ- وسبعينَ عنْ أربعٍ وسبعينَ سنةً، وصلَّى عليهِ أبانُ بنُ عثمانَ بن عفان، وهو يَوْمَئذٍ أميرُها، يُقالُ: إنَّهُ آخرُ مَنْ ماتَ مِنَ الصَّحابةِ بها. رويَ له ألفٌ وخمسُمائةِ حديثٍ وأربعونَ حديثًا، اتَّفقَا مِنْها عَلى ثمانيةٍ وخمسينَ، وانفردَ البخاريُّ بستَّةٍ وعشرينَ، ومسلمٌ بمائةٍ وسِتَّةٍ وعشرينَ.

=وأخرجه بتمامه أبو نعيم في الحلية (١٥٤/٣) [ترجمة محمد بن المنكدر].

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: (٢٦٠١) [كتاب الهبة- باب إذا وهب دينا على رجل]، وغيره.

(٢) أخرجها البخاري (٣٥٨٠) [كتاب المناقب- باب علامات النبوة في الإسلام]، وغيره.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٥٢) [أبواب الدعوات- باب مناقب جابر]، والنَّسائيُّ في الكبرى (٨١٩١) [كتاب المناقب- فضل جابر]، وابن حبان (٧١٤٢) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة]، والحاكم (٥٦٥/٣) [كتاب معرفة الصحابة]، وغيرهم بلفظ: (استغفر لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمسا وعشرين مرة).

(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٩٣٦) [كتاب الجمعة- باب: إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة]، ومسلمٌ (٨٦٣) [كتاب الجمعة- باب قوله تعالى ﴿وإذا رأوا ...﴾]، وغيرهما.

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير في ترجمة جابر (٢٢٠٨) (٢٠٧/٢) عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (كنت أمنح أصحابي الماء يوم بدر).

(أَنَّ رَجُلًا) هو النعمانُ بنُ قَوْقَلٍ -بقافينِ مفتوحتينِ بَيْنهما واوٌ ساكنةٌ وآخرُه لامٌ- الخزاعيُّ، شَهِدَ النعمانُ بَدْرًا، وقُتِلَ يومَ أُحُدٍ شهيدًا، وهو القائلُ يومَ أُحُدٍ: أقسمتُ عَلَيْكَ ربَّ العزةِ لا تغيبُ الشمسُ حتَّى أطأَ بعرْجَتي هذه خضراء الجنة، فقالَ النبيُّ ﷺ: (إنَّ النعمانَ ظَنَّ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- خيرًا فوجدَهُ عندَ ظنِّه، فلقدْ رأيتُهُ يَطأُ في خضرائِها ما بِهِ عَرَجٌ)[1].

(سأَلَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: أرَأَيْتَ) بهمزةِ الاستفهامِ أُدخِلتْ عَلى "رأَيْت"، وهو بمعنى تَرى أيْ تُفْتي بأنِّي **(إذَا صَلَّيْتُ المكتوباتِ)** وهيَ الصلواتُ الخمسُ، مِنْ "كَتَبَ" بمعنى "فَرَضَ"، واتَّفقَ أنَّ الشبليَّ جاءَهُ رجُلٌ وقالَ: يا سيِّدي أنا مُحبٌّ مَهجورٌ، فقالَ له الشبليُّ: الزمْ بابَ الحبيبِ، فمَضى الرَّجُلُ ولَزِمَ المسجدَ، فكانَ يُصلِّي اللَّيلَ كُلَّهُ، فإذَا صلَّى الفجرَ عَفَّرَ وجْهَهُ بالتُّرابِ وقالَ: إلهي، المحرومُ يَطلُبُ الوصالَ، قالَ: فلمَّا كانَ بعدَ أيامٍ حتَّى سَمِعَ مِنَ جانبِ المسجدِ: يا هذا قدْ غَفَرْنا لَكَ وأوْصلْناكَ.

(وَصُمْتُ) شهرَ **(رَمَضَانَ)** وهو عَلى أربعةِ أقسامٍ: صوم عوامِّ العوامِّ، وهو الكفُّ عنِ المُفْطِراتِ سواءٌ جعلَ الكفَّ عنِ المُحَرَّماتِ أم لا، وصومِ العوامِّ وهو الكفُّ عنِ المُفْطِراتِ والمُحَرَّماتِ، وصومِ الخواصِّ، وهو الكفُّ عنِ المُفْطِراتِ والمُحرَّماتِ والشُّبُهاتِ واللَّذَّاتِ، وصومِ خواصِّ الخواصِّ، وهو الكفُّ عمَّا سوى اللهِ تعالى، وأَنْشَدَ بعضُهم:

صُمْتُ عَنْ غَيْرِهِ فَلَمَّا تَجَلَّى *كَانَ شَاغِلًا عَنِ الإِفْطَارِ
وتَشَوَّقْتُ مَرَّةً ثُمَّ لَمَّا * زَارَنِي جَلَّ عَنْ مَدَى الأَنْظَارِ

(وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ) أي اعتقَدْتُ حِلَّهُ وفعَلْتُ واجبَهُ بقرينةِ السِّياقِ، **(وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ)** أي اجْتَنَبْتُهُ، والظَّاهرُ كما قالَ ابنُ الصلاحِ أنَّهُ قَصَدَ بِهِ اعتقادَ حُرمَتِه، وأنْ لا يَفعلَهُ، بخلافِ تحليلِ الحلالِ، فإنَّهُ يَكفي فيه مُجرَّدُ اعتقادِ كونه حَلالًا، وإنْ لَمْ يَفعلْهُ، اه. ويُوجَّهُ بأنَّا لَسْنا مُكلَّفينَ بفعلِ الحلالِ مِنْ حيثُ ذاتِه بَلْ لِمصالحَ تُرتَّبُ عَلى فِعْلِه، فلَمْ يكنْ فِعْلُه شَرْطًا في دخولِ الجَنَّةِ، بخلافِ الحرامِ فإنَّا مُكلَّفونَ باجتنابِه وباعتقادِ حُرمتِه لِذاتِه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٣٦٢) [ترجمة النعمان بن قوقل]، وغيره.

(**وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا**) مِنَ الطَّاعاتِ المندوبةِ، ولمْ يَذْكُرِ الزكاةَ والحجَّ، إمَّا لِعدمِ فرضِهما حينئذٍ، وإمَّا لِكونِهِ لمْ يُخاطَبْ بهما لِفقْدِ النِّصابِ والاستطاعةِ، وإمَّا لأنَّ قولَهُ: "وحرَّمْتُ الحرامَ" يَتناولُه؛ لأنَّ ترْكَ الفريضةِ مِنْ جُملةِ المحرَّماتِ (**أَدْخُلُ الْجَنَّةَ**) همزةُ الاستفهامِ فيه مُقدَّرةٌ، والمُرادُ مِنْ غيرِ عقابٍ، كما هو ظاهرُ السِّيَاقِ؛ لأنَّ مُطلَقَ دُخولِها إنَّما يَتوقَّفُ عَلَى التَّوْحيدِ.

جواز ترك التطوعات

قالَ المؤلِّفُ: مذهبُ أهلِ الحقِّ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ أنَّ مَنْ ماتَ مُوَحِّدًا دَخَلَ الجنةَ قَطْعًا عَلى كُلِّ حالٍ كيفَما كانَ، فإنْ كانَ سالمًا مِنَ المعاصي كَطِفْلٍ ومجنونٍ اتَّصَلَ جنونُه بالبلوغِ، وتائبٍ توبةً صحيحةً، ومُوَفَّقٍ ما أَلَمَّ بمعصيةٍ قطُّ، فإنَّهم يَدخُلونَ الجنةَ ولا يَدخُلون النَّارَ أصلًا، لَكنَّهم يَرِدونَها عَلى الخِلافِ في الوُرُودِ، والصَّحيحُ أنَّ المُرادَ به المرورُ عَلى الصِّراطِ، وهو منصوبٌ عَلى ظَهْرِ جَهنَّمَ، وأمَّا مَنْ عَمِلَ كبيرةً وماتَ بغيرِ توبةٍ فهو في المشيئةِ إنْ شاءَ جَعلَهُ كالقسمِ الأوَّلِ، وإنْ شاءَ عذَّبَهُ ثُمَّ يُدخِلُه الجَنَّةَ، ولا يُخلَّدُ في النَّارِ أحدٌ ماتَ مُوحِّدًا ولوْ عَمِلَ جميعَ المَعَاصِي، كما أنَّه لا يَدخُلُ الجنةَ أَحَدٌ ماتَ كافرًا ولوْ عَمِلَ مِنْ أعمالِ البِرِّ ما عَمِلَ، هذا مذهبُ أهلِ الحقِّ الذي تظاهرتْ أدِلَّةُ الكتابِ والسُّنةِ وإجماعُ مَنْ يُعْتَدُّ به عَلَيْه.

(**قَالَ: نَعَمْ**) تَدخُلُها كذلك، وظاهرُ الحديثِ يَقتضي أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ أسبابٌ لِدخولِ الجنَّةِ؛ لأنَّ تَعليقَ الحكمِ عَلى الوَصْفِ يُشعِرُ بالعِلِّيَّةِ، وقدْ ثَبَتَ في الصَّحيحِ أنَّهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «إنَّهُ لَنْ يُنجِّيَ أحدًا مِنكم عمَلُه، قالوا: ولا أنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أَنَا إلَّا أنْ يَتغمَّدَني اللهُ برحمتِهِ»[1]، فالجوابُ أنَّ دخولَ الجَنَّةِ بِمَحْضِ فضلِ اللهِ تعالى لَيْسَ إلَّا، وأمَّا اختلافُ مَراتبِها فبحسَبِ العملِ لَكنْ لا بُدَّ لِلعبْدِ أنْ يَستنِدَ لِفضلِه.

وهذا الحديثُ يَدلُّ عَلى جوازِ تَرْكِ التَّطوُّعاتِ في الجُملةِ، لكنَّ مَنْ تَركَها ولم يَعملْ شيئًا فقدْ فوَّتَ عَلى نَفْسِهِ ربحًا عظيمًا وثوابًا جَسيمًا، ومَنْ دَاوَمَ عَلى تَرْكِ شيءٍ مِنَ السُّنَنِ كانَ ذلك نقصًا في دينِه، وإنْ قَصَدَ بِتركِها الاستخفافَ والرَّغْبةَ عنْها كَفَرَ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤٦٣) [كتاب الرقاق- باب القصد والمداومة على العمل]، ومسلمٌ (٢٨١٦) [كتاب صفات المنافقين وأحكامهم- باب لن يدخل أحد الجنة بعمله]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وإنَّما تَرَكَ النبيُّ ﷺ تنبيهَه عَلَيْها تَيسيراً وتسهيلًا عَليه، وتأليفًا له لِقُرْبِ عهدِهِ بالإسلام، وخشيةً مِنْ نفرتِهِ لوْ أكْثَرَ عَلَيْه، مَعَ العِلْم بأنَّه إذَا تَمكَّنَ الإسلامُ مِنْ قلبِه شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ ورَغِبَ فيما رغِبَتْ فيه بقيَّةُ الصَّحابةِ مِنْ محافظتِهم عَلى التَّطَوُّعاتِ كَمحافظتِهم عَلى الفرائضِ اغتنامًا لِمَا جاءَ مِنْ تعظيم ثوابِها.

***

(**رَواهُ مُسْلِمٌ**) في كتابِ الإيمانِ.

(**وَمَعْنَى**) قولِه ("**حَرَّمْتُ الْحَرَامَ**": **اجْتَنَبْتُهُ**) أيْ تركْتُهُ، (**ومَعنى "أحللت الحلالَ": فعلْتُهُ مُعتقِدًا حِلَّهُ**) فيهِ نَظَرٌ، يُعلَمُ مِنْ كلام ابنِ الصلاحِ المتقدِّم، ولوْ قالَ: اعتقدتُ حِلَّهُ لَكانَ أَوْلى؛ لأنَّ كُلَّ حلالٍ لا يَلْزَمُ فِعْلُهُ، وَأَوَّلَهُ المؤلِّفُ لِامتناعِ إبقائِه عَلى ظاهرِهِ؛ لأنَّ النعمانَ لَيْسَ له تحليلٌ ولا تحريمٌ، وإنَّما ذلكَ لِلشارعِ فهو مُجازٌ مِنْ بابِ إطلاقِ الملزومِ وإرادةِ اللازمِ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ.

***

الحديثُ الثالثُ والعشرونَ

٢٣. عنْ أبي مالكِ ابنِ عاصمٍ[١] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ، و«الحمدُ للهِ» تَملأُ الميزانَ، و«سبحانَ اللهِ» و«الحمدُ للهِ» تَملآنِ -أو تملأُ- ما بينَ السماواتِ والأرضِ، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضِياءٌ، والقُرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ، كلُّ النَّاسِ يغدو فبائِعٌ نَفسَهُ فَمُعْتِقُها أو مُوبِقُها. رواهُ مسلمٌ.

(**عَنْ أَبِي مَالِكٍ**) وقيلَ: اسمُهُ عُبيدٌ، والمشهورُ أنَّ اسمَهُ كعبٌ (**بن عاصم**) وقيلَ: عَامِر، وقيلَ: عَمْرو، (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ماتَ في طاعونِ عمواسَ في خلافةِ عُمَرَ بنِ الخطابِ، وطُعِنَ هو ومعاذٌ وأبو عبيدةَ وشرحبيلُ بنُ عُتبةَ في يومٍ واحدٍ.

(**قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: الطُّهُورُ**) بالفتحِ: اسمٌ لِلماءِ الذي يُتطهَّرُ به، كَسَحورٍ وفَطورٍ ووَقودٍ لِمَا يُتسحَّرُ أو يُفطَر أو يوقَدُ به، وبالضَّمِّ: لِلفعْلِ، وهو المُراد هنا؛ إذْ لا دَخْلَ لِغيرِه في الشَّطْرِيَّةِ الآتيةِ إلا بتكلُّفٍ بأنْ يُقالَ: استعمالُ الطَّهورِ إلخ، وزَعْمُ أنَّ الروايةَ بالفَتحِ لا الضَّمِّ مَردودٌ؛ لأنَّ الضمَّ هو المختارُ، وقولُ الأكثرينَ؛ إذِ المرادُ الفعلُ كما قالَ المؤلِّفُ، وغايةُ ما فيهِ أنَّهم جَوَّزوا الفتحَ.

ثم إنَّ الطَّهورَ عندَ مالكٍ ما يَتكرَّرُ منهُ الطَّهارةُ كالصَّبورِ، فجوَّزَ الطَّهارةَ بالماءِ المُستعمَلِ، وعندَ الشَّافعيِّ هو الماءُ الطَّاهرُ في نفْسِهِ المُطهِّرُ لِغيرِهِ، ماءً كانَ أوْ ترابًا، وقالَ أبو حنيفةَ: إنَّهُ الطَّاهرُ، فجوَّزَ إزالةَ النجاساتِ بالمائعاتِ.

(١) الثابت في معظم نسخ الأربعين: "أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري"، وفي صحيح مسلم: "أبي مالك الأشعري"، وفي شرحه على صحيح مسلم قال الإمام النووي: "وَأَمَّا أَبُو مَالِكٍ فَاخْتُلِفَ فِي اسْمِهِ فَقِيلَ الْحَارِثُ وَقِيلَ عُبَيْدٌ وَقِيلَ كَعْبُ بْنُ عَاصِمٍ وَقِيلَ عَمْرٌو"

(**شَطْرُ**) -بتقديم الشِّينِ المعجمةِ عَلى الطَّاءِ- أيْ نِصْفُ (**الإيمانِ**) الكاملِ بالمعنى الأعَمِّ المُرَكَّبِ من التَّصْديقِ والإقرارِ والعملِ، وإنْ كانَ ذا خصالٍ كثيرةٍ وأحكامٍ متعددةٍ إلَّا أنَّها مُنحصرةٌ فيما يُطلَبُ التَّنَزُّهُ عنه، وهو كُلُّ مَنهِيٍّ عنه، وما يُطلَبُ التلبُّسُ به، وهو كُلُّ مأمورٍ به، وقيلَ: المرادُ بالإيمانِ الصلاةُ كقولِه تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أيْ صلاتَكم إلى بيتِ المقدسِ، وأطلقَ الإيمانَ عَلَيْها؛ لأنَّها أعظمُ آثارِه وأشرفُ نتائجِه، وإنَّما جَعَلَ الطُّهورَ شَطْرَها؛ لأنَّ صِحَّتَها باجتماعِ أمرَيْنِ، الأركانِ والشروطِ، وأظهرُ الشروطِ وأقواها الطهارةُ، فجُعِلَتْ كأنَّها الشروطُ كُلُّها، ونوزِعَ بأنَّ فيهِ تجوزًا في قصْرِ الإيمانِ عَلى الصَّلاةِ وإخراجِ الشطرِ عنْ حقيقتِه إلى مَعْنى المماثلِ له وهو الشَّرْطُ، والمجازُ لا بُدَّ له من قرينةٍ.

وأمَّا حَمْلُ المُصنِّفِ الطُّهُورَ عَلى معناهُ الشرعيِّ، وهو الوَضُوءُ فنُظِرَ فيه مِنْ وجهينِ، أحدُهما أنَّه لا يَتَّضِحُ حينئذٍ مَعْنى الشَّطْرِيَّةِ إلا بادعاءِ أنَّه يَنتهي تضعيفُ الأجرِ فيه إلى نصفِ الإيمانِ، وهذا وإن قيلَ به إلا أنَّه يَحتاجُ إلى دليلٍ، ثانيهما أنَّ الطُّهُورَ لا يَنْحَصِرُ في الوُضوءِ بلْ يَعمُّ الغسلَ والتيممَ والطَّهارةَ مِنَ الخبثِ.

وليسَ واحدًا مِنْ هذينِ النظرينِ في مَحِلِّه، كيفَ وروايةُ ابنِ ماجهْ وابنِ حِبَّانَ في صحيحِه (إسباغُ الوُضوءِ شَطْرُ الإيمانِ)(١)، وحينئذٍ فيُقالُ: يُحتَمَلُ أنَّ معناهُ أنه تمامُ الشَّطْرِ لا أنَّهُ كُلُّ الشَّطْرِ، أوِ المُرادُ بالوُضُوءِ فيه مَعناهُ اللُّغويُّ، وهو يَرجِعُ لِمَعنى الطهارةِ الذي قرَّرْناه أولًا، لَكِنْ يُعكِّرُ عليهِ روايةُ إسباغِ الوضوءِ فإنَّها نصٌّ في أنَّ المُرادَ الوضوءُ الشرعيُّ.

فبِحَملِ الطُّهورِ عَلى الوَضُوءِ، والوَضُوءِ عَلى معناهُ الشرعيِّ، والشَّطْرِ عَلى مطلقِ الجزءِ، اتَّضَحَ هذا المقامُ وزالَ الإشكالُ، وأمَّا قولُ مَنْ قالَ: إنَّ الإيمانَ يُطهِّرُ نجاسةَ الباطنِ، والوُضُوءَ يُطهِّرُ نجاسةَ الظَّاهرِ منه، ففيه بحثٌ؛ لأنَّه حينئذٍ ليسَ شَطْرَ الإيمانِ بلْ هو مماثلٌ له في التَّطْهيرِ.

تنبيهٌ: خصَّ اللهُ الأعضاءَ بالوضوءِ، قيلَ: لأنَّ آدمَ -صلَّى اللهُ عَلَيهِ وعَلى نبيِّنا وسَلَّمَ-

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٨٠) [أبواب الطهارة- باب الوضوء شطر الإيمان]، وصحيح ابن حبان (٨٤٤) [كتاب الرقائق- باب الأذكار]، وغيرهما من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعًا.

توجَّهَ إلى الشجرةِ بالوجهِ ومَشى إلَيْها بالرِّجْلِ ووضَعَ يدَه عَلى رأسِه، فأَمَرَه اللهُ بغَسْلِها تكفيراً لخطاياهُ. ثُمَّ إنَّ الطُّهورَ ورَدَ في القرآنِ لمعانٍ:

معاني "الطهور" في القرآن

الأَوَّلُ: الطُّهورُ مِنَ الشركِ كقولِه تَعالى في البقرةِ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] أيْ مِنَ الأوثانِ، فلا تدعْ حولَه وثنًا يُعبَدُ مِنْ دونِ اللهِ، وقالَ تَعالى في المفَصَّلِ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس: ١٣-١٤] يَعني مِنَ الشركِ والكفرِ.

والثاني: طهورُ القلبِ مِنَ الريبةِ كقولِه تَعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقالَ في الأحزابِ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] أيْ مِنَ الريبةِ.

الثالثُ: الطهورُ بمعنى الحلِّ كقوله تعالى في هودٍ: ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] يَعني أحَلُّ لَكم.

الرابعُ: الطهورُ مِنَ الذنبِ كقولِه في براءةٍ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] مِنَ الذنوبِ.

الخامسُ: الطهورُ مِنَ الحيضِ كقولِه تَعالى في البقرةِ ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧] أيْ مِنَ الحيضِ.

السادسُ: التنزهُ عنْ إتيانِ الرِّجالِ في الأدْبارِ كقولِه تَعالى في الأعرافِ ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] أيْ يتنزَّهون عنْ إتيانِ الرجالِ في أدبارِهنَّ.

السابعُ: الطُّهورُ مِنْ جميعِ الأحداثِ كقولِه تَعالى في الأنفالِ ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال: ١١] يَعني مِنَ الأحداثِ والجنابةِ.

الثامنُ: الاغتسالُ كقولِه تعالى في البقرةِ: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] أيِ اغتسلنَّ.

التاسعُ: بمعنى الاستنجاءِ كقوله تَعالى في براءةٍ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: ١٠٨] يعني يَغْسِلوا أثَرَ البولِ والغائطِ.

(**والحمدُ للهِ**) يَحتمِلُ هذا اللَّفْظَ وحدَه؛ لأنَّهُ أفضلُ جميعِ صيغِ الحمدِ كما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنةُ، ويَحتملُ هذا اللفظَ وكُلَّ ما اشتُقَّ منه كـ"حَمدْتُ اللهَ" وليسَ المُرادُ به الفاتحةَ بكمالها خِلافًا لِمَنْ زَعمه، (**تَمْلأُ**) بمثناةٍ فوقيَّةٍ أو تحتيَّةٍ، والأوَّلُ أرجَحُ ولفظُ ابنِ ماجهْ "مِلْءُ"[1] (**الْمِيزَانَ**)، أيْ ثوابُ التلفُّظِ بها معَ استحضارِ مَعناها والإذعانِ له يَملأُ كفَّةَ الميزانِ التي هي مِثْلُ طباقِ السمواتِ والأرضِ، وفيه -كالآياتِ والأحاديثِ الشهيرةِ- إثباتُ الميزانِ ذي الكفتيْنِ واللِّسانِ، ووزنُ الأعمالِ بها بعدَ أنْ تُجَسَّمَ، وتكونَ الحسناتُ جواهرَ بِيضًا مُشرقةً، والسيئاتُ جواهرَ سودًا مُظلمةً، أو توزنَ صحائفُها المشتملةُ عَلَيْها.

و"ميزانٌ" مِفْعَالٌ مِنَ الوزنِ، وأصلُهُ "مِوْزَانٌ" قُلِبَتِ الواوُ ياءً لِانكسارِ ما قبْلَها كميقاتٍ وميعادٍ؛ لأنَّهما مِنَ الوقتِ والوعدِ.

قيلَ: ولِكُلِّ إنسانٍ ميزانٌ لِظاهرِ قولِه تَعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، والأصحُّ أنَّهُ لَيْسَ إلا ميزانٌ واحدٌ خِلافًا لِمَنْ قالَ: لِكُلِّ أُمَّةٍ ميزانٌ ولِكُلِّ إنسانٍ ميزانٌ، والجمعُ إمَّا باعتبارِ الموزوناتِ أو لِكونِهِ ذا أجزاءٍ عَلى حدِّ قولِه: "شابتْ مفارقُه" معَ أنَّه لَيْسَ لِلإنسانِ إلا مفرقٌ واحدٌ، و"جملٌ ذو عثانينَ" معَ أنَّهُ ليسَ له إلا عثنونٌ واحدٌ، وهو شعيراتٌ طوالٌ تحتَ حَنَكِهِ، لَكنَّهم سَمَّوْا كُلَّ محلٍّ مِنَ التفرُّقِ مَفرقًا، وكُلَّ محلٍّ مِنَ العثنونِ عثنونًا، أو لِتعظيمِ شأنِهِ وتفخيمِهِ، أو لأنَّ كُلَّ واحدٍ يَتلوَّنُ له الميزانُ بِصورةِ ما كانَ العبدُ عَلَيْهِ في دارِ الدُّنيا.

والكافرُ كالمؤمنِ في وزنِ الأعمالِ، لكنْ يُؤتى بأعمالِه في أقبحِ صورةٍ، وقولُه تَعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] أيْ نافعًا أو قَدْرًا.

فَإنْ قِيلَ: إذَا وُزِنتِ الأعمالُ ورجحتْ أو خفتْ ماذا يُفعَلُ بها بعدَ ذلك؟ فَالْجَوَابُ: أنَّ مَنْ سَعِدَ وُضِعَتْ أعمالُه الصالحةُ عَلى بابِ دارِهِ في الجنةِ فيكونُ ذلك زيادةً في نعيمِهِ، وإن كان خاسرًا وضعتْ على بابِ دارِهِ في النَّارِ لِيكونَ ذلكَ زيادةً في عذابِهِ.

(١) تقدم في التخريج السابق.

تنبيهٌ: قالَ بعضُ الشَّافعيَّةِ: أفضلُ المحامدِ أنْ يُقالَ: "الحمدُ للهِ حمدًا يوافي نعمَهُ ويُكافئُ مزيدَه"، واحتُجَّ عَلى ذلك بما في بعضِ الأخبارِ أنَّ اللهَ تَعالى لمَّا أهبَطَ آدمَ -عَليه الصلاةُ والسلامُ- إلى الأرضِ قالَ: يا ربِّ علِّمْني المكاسِبَ، وعلِّمْني كلمةً تَجمَعُ لي فيها المحامدَ، فأوحى اللهُ تعالى إليه أنْ قُلْ ثلاثَ مراتٍ عندَ كُلِّ صباحٍ ومساءٍ: "الحمدُ للهِ حمدًا يوافي نِعمَكَ ويُكافئُ مزيدَكَ"، فقدْ جمعْتُ لكَ فيها جميعَ المحامدِ[1].

الكلام عن أفضل المحامد

وقيلَ: أفضلُ المحامدِ أنْ يُقالَ: "الحمدُ للهِ بجميعِ محامدِه كُلِّها ما علِمْتُ منها وما لم أعلمْ"، زادَ بعضُهم: "عددَ خلقِهِ كُلِّهم ما علمْتُ منهم وما لم أعلَمْ".

واحتُجَّ له بما رويَ أنَّ رجلًا قالَ هذهِ الكلماتِ بعرفاتٍ فلمَّا كانَ مِنَ العامِ المقبلِ حجَّ وأرادَ أنْ يقولَها فسَمِعَ قائلًا يقولُ: يا عبدَ اللهِ أتعبتَ الحفظةَ، فإنَّهم يَكتبونَ ثوابَ هذهِ الكلمةِ مِنَ العامِ الماضي إلى الآنَ[2].

ويَنبني عَلى ذلكَ مسألةٌ فقهيةٌ، وهيَ مَنْ حَلَفَ بالطلاقِ لَيحمَدَنَّ اللهَ بأفضلِ المحامدِ، فقالَ كلُّ فريقٍ: لا يَبْرأُ إلَّا بما قالَه من تلكَ المحامدِ، وقيلَ: لا يَبرأُ حتى يقولَ: "اللهمَّ لا أُحصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيْتَ عَلى نَفْسِكَ"، وقيلَ: لا يَبرأُ حتى يقولَ: "ليسَ كمثلِهِ شيءٌ".

(**وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ**) بالفوقيَّةِ باعتبارِ أنَّهما جُملتانِ أوْ بالتحتيَّةِ باعتبارِ أنَّهما لفظانِ أو ذِكْرانِ أو نَوْعانِ (**أَوْ**) شَكٌّ مِنَ الرَّاوي (**تَمْلأُ**) بالفوقيَّةِ أيْ هذه الكلمةُ؛ لأنَّهما يُطلَقُ عَلَيْهما كلمةٌ لغةً، كما يُقالُ في الخطبةِ والرسالةِ والقصيدةِ كلمةٌ، وبالتَّحتيةِ أيْ هذا اللَّفظُ أو هذا الذِّكْرُ (**مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**) وذلكَ؛ لأنَّ الحمد وحدَهُ يملأُ الميزانَ فإذا أضافَ إليه "سُبحانَ اللهِ" ملأَ زيادةً عَلى ذلكَ ما بينَ السماءِ والأرضِ إذِ الميزانُ مملوءٌ بثوابِ التحميدِ.

---

(١) قال ابن حجر في التخيص الحبير (٤/٣١٧): "وجدته عند ابن الصلاح في "أماليه"... ثم ذكره عن محمد بن النضر وقال: هذا معضل".

(٢) أخرجه الخرائطي في فضيلة الشكر (٩)، عن أبي سليمان الداراني. وأخرج أيضا الخرائطي (٨)، والبيهقي في الشعب (٤١٠٢)، وغيرهما عن ابن شهاب قال: "قال داود عليه السلام: الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهك، وعز جلاله، فأوحى الله إليه أنك أتعبت الحفظة يا داود".

وفي الحديثِ أنَّه ﷺ قالَ: (مَنْ قالَ: سبحانَ اللهِ فلهُ عشْرُ حسناتٍ، ومَنْ قالَ: لا إلهَ إلا اللهُ فلهُ عِشرونَ حسنةً، ومَنْ قالَ: الحمدُ للهِ كُتِبَ له ثلاثونَ حسنةً)[١]، وإنَّما كانَ كذلكَ لأنَّ الحمدَ في ضمنهِ التوحيدُ الذي هو"لا إلهَ إلا اللهُ"، ففي قولِهِ "الحمدُ للهِ" توحيدٌ وحمدٌ، وقولُه "لا إلهَ إلا اللهُ" توحيدٌ فقطْ. وأوردَ عَلى هذا قولُه -عَلَيْهِ الصلاةُ والسلامُ-: (أفضلُ ما قلتُهُ أنا والنبيُّونَ مِنْ قبْلي لا إلهَ إلا اللهُ)[٢]، وأجيبَ بأنَّهُ محمولٌ عَلى مَنْ أرادَ الخروجَ مِنَ الكفرِ إلى الإسلامِ بكلمةِ التوحيدِ، والأولُ لِمَنِ استقرَّ الإيمانُ في قلبِهِ.

وعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: (منْ قالَ "سبحانَ اللهِ وبحمدِه" في يومٍ مائةَ مرةٍ حُطَّتْ خطاياهُ، وإنْ كانتْ مِثْلَ زبدِ البحرِ)[٣]، وعنْهُ أيضًا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: (مَنْ قالَ حينَ يُصبحُ وحينَ يُمسي "سبحانَ اللهِ وبحمدِه" مائةَ مرةٍ لمْ يأتِ أحدٌ يومَ القيامةِ بأفضلَ ممَّا جاءَ بِهِ إلا أحدٌ قالَ مِثلَ ما قالَ أو زادَ عَليه)[٤].

وعنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عنْ جويريةَ بنتِ الحارثِ أنَّ النبيَّ ﷺ خرجَ ذاتَ غداةٍ مِنْ عندِها -وكانَ اسمُها بَرَّةَ فحوَّلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ فسمَّاها جويريةَ، وكرِهَ أنْ يُقالَ: خرجَ مِنْ عندِ بَرَّةَ- فخرجَ وهي في المسجدِ ورجعَ بعدَ ما تَعالى النهارُ فقالَ: ما زلْتِ في مجلسِكِ هذا منذُ خرجتُ بعدُ؟ قالتْ: نَعَمْ، فقالَ: لقدْ قلتُ بعدَكِ أربعَ كلماتٍ ثلاثَ مراتٍ لو وُزِنَّ بكلماتِكِ لَوزنَتْهنَّ "سبحانَ اللهِ وبحمدِه عددَ خلقِهِ ورضا نفسِهِ وزنةَ عرشِهِ ومدادَ كلماتِهِ")[٥].

(١) أخرجه أحمد (٨٠١٢) [مسند أبي هريرة]، والنسائي في الكبرى (١٠٦٠٨) [كتاب عمل اليوم والليلة]، والحاكم (٥١٢/١) [كتاب الدعاء]، وغيرهم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد مرفوعًا بلفظ: (إن الله اصطفى من الكلام أربعا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فمن قال: سبحان الله، كتب الله له عشرين حسنة، أو حط عنه عشرين سيئة، ومن قال: الله أكبر، فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله، فمثل ذلك، ومن قال: الحمد لله رب العالمين، من قبل نفسه، كتبت له ثلاثون حسنة، أو حط عنه ثلاثون سيئة) وصحَّحه الحاكم.

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٥٨٥) [أبواب الدعوات] وغيره، وهو حسنٌ بطرقه وشواهده.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤٠٥) [كتاب الدعوات- باب فضل التسبيح]، ومسلمٌ (٢٦٩١) [كتاب الذكر والدعاء والتوبة- باب فضل التهليل والتسبيح..]، وغيرهما.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٢) [كتاب الذكر والدعاء والتوبة- باب فضل التهليل والتسبيح..]، وغيره.

(٥) أخرجه مسلم (٢١٤٠) [كتاب الآداب- باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن]، وغيره.

قالَ الإمامُ فخرُ الدينِ: الحمدُ للهِ ثمانيةُ أحرفٍ، وأبوابُ الجنةِ ثمانيةٌ، فمَنْ قالَ هذه الثمانيةَ عنْ صفاءِ قلبِهِ استحقَّ ثمانيةَ أبوابِ الجنةِ، وقالَ بعضُهم: أوَّلُ كلمةٍ ذكرَها أبونا آدمُ "الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ"، وآخِرُ كلمةٍ ذَكَرها أهلُ الجنةِ "الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ"، أمَّا الأولُ فلأنَّ آدمَ لمَّا بَلَغَ الروحُ إلى سُرَّتِهِ عَطَسَ فقالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، فأجابَهُ اللهُ: يرحمُكَ اللهُ[1]، وأمَّا الثاني فلقولِهِ تعالى في حقِّ أهلِ الجنةِ: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

***

(وَالصَّلَاةُ) الجامعةُ لِشرائطِها المصححةِ والمكملةِ **(نُورٌ)**، مِنْ بابِ قولِهم: "زيدٌ عدْلٌ"، وفي ذلكَ ثلاثةُ أوجهٍ، إمَّا أنْ يكونَ جعْلُه نَفْسَ العدلِ مبالغةً في التشبيهِ، وإمَّا أنْ يكونَ معناهُ "ذو عدْلٍ" عَلى حذفِ المضافِ، وإمَّا أنْ يكونَ بمعنى عادلٍ.

وعَلى الأوَّلِ جَعَلَ الصلاةَ نَفْسَ النُّورِ مبالغةً في التشبيهِ مِنْ حيثُ إنَّها تَمنعُ عنِ المعاصي وتَنهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ وتَهدي إلى الصوابِ، كما أنَّ النورَ يُستضاءُ به، أو لأنَّها سببٌ في استنارةِ القلبِ وإشراقِه بأنوارِ المعارفِ ومكاشفاتِ الحقائقِ، أو لأنَّها تكونُ نوراً لِصاحبِها بالبهاءِ في الدنيا وبالأُنسِ في القبرِ لِقولِ أبي ذرٍّ: (صَلُّوا ركعتيْنِ في ظُلَمِ الليلِ لِظُلْمَةِ القبرِ)[2]، وفي عرصاتِ القيامةِ لِخَبَرِ (بَشِّرِ المشائينَ في ظُلَمِ الليلِ إلى المساجدِ بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ)[3]، وفي صحيحِ ابنِ حبانَ أنَّهُ ﷺ ذكرَ الصلاةَ وقالَ: (مَنْ حافظَ عَلَيْها كانتْ له نوراً وبُرهاناً ونجاةً يومَ القيامةِ)[4]، وفي الحديثِ: (إنَّ أُمَّتي يُدعونَ يومَ القيامةِ غُرّاً مُحجَّلينَ مِنْ آثارِ الوضوءِ)[5]، والغرةُ نورٌ يَخلقُه اللهُ في جِباهِ المؤمنينَ، والتحجيلُ نورٌ يَخلقُه اللهُ في أقدامِهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨) [أبواب تفسير القرآن]، والنسائي (٩٩٧٥) [كتاب عمل اليوم والليلة- باب ما يقول إذا عطس]، وابن حبان (٦١٦٤) [كتاب التاريخ- باب بدء الخلق]، وغيرهم من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

(٢) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف (ص ٤٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٦١) [كتاب الصلاة- باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظُّلَم]، والترمذي (٢٢٣) [أبواب الصلاة- باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة]، وغيرهما من حديث بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) صحيح ابن حبان (١٤٦٧) [كتاب الصلاة- باب الوعيد على ترك الصلاة]، وغيره.

(٥) متفقٌ عليه أخرجه البخاريُّ (رقم ١٣٦) [باب فضل الوُضوءِ]، ومسلمٌ (رقم ٢٤٦) [باب استحباب إطالة الغُرَّة والتَّحْجيلِ في الوُضُوءِ] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وعَلى الثاني يَكونُ المعنى: الصلاةُ ذاتُ نورٍ، ويؤيدُه ما رواه الطبرانيُّ عنْ عبادةَ بنِ الصامتِ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (إذا حافظَ العبدُ عَلى صلاتِه فأتمَّ وضوءَها وركوعَها وسجودَها والقراءةَ فيها قالتْ له: حَفِظَكَ اللهُ كما حَفِظْتَني، وصعدَ بها الملكُ إلى السماءِ، ولها نورٌ حتى تنتهيَ إلى اللهِ تعالى لِتشفعَ لِصاحبِها)[1].

وعَلى الثالثِ منوَّرةٌ لوجهِ صاحبِها لِمَا جاءَ: (مَنْ صَلَّى باللَّيْلِ صِينَ وجهُه بالنهارِ)[2]، وإنْ لم يثبتْ حديثًا، فهو أثرٌ عنْ شُريكٍ قالَه لِثابتٍ لمَّا دَخلَ عليه، وفي "روضِ الرياحينِ" لليافعيِّ عنْ شقيقِ البلخيِّ قالَ: طَلَبْنا ضياءَ القبورِ فوجدْناهُ في صلاةِ الليلِ، وطَلَبْنا جوابَ مُنكَرٍ ونَكيرٍ فوجدْناهُ في قراءةِ القرآنِ، وطَلَبْنا عبورَ الصِّراطِ فوجدْناهُ في الصومِ، وطلَبْنا ظِلَّ العرشِ فوجدْناه في الخلوةِ.

(**وَالصَّدَقَةُ**) أي الزَّكاةُ كما في روايةِ ابنِ حبانَ[3]، ويَصِحُّ حملُها عَلى المعنى الأعمِّ الشَّاملِ لِلواجبةِ والمندوبةِ وهو أتمُّ، (**بُرْهَانٌ**) هو لغةً: الشعاعُ الَّذي يَلي وجهَ الشمسِ، ومنه خبرُ: (إنَّ روحَ المؤمنِ تَخرجُ مِنْ جسدِه ولها برهانٌ كبرهانِ الشمسِ)[4]، ومنه سُمِّيتِ الحُجَّةُ القاطعةُ بُرهانًا لِوضوحِ دَلالتِها.

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (٥٨٦) [حديث عبادة بن الصامت]، والبزار (٢٦٩١) [حديث عبادة بن الصامت]، والشاشي (١٢٩٠) [حديث عبادة بن الصامت]، والطبراني في الأوسط (٣٠٩٥) [باب الباء- من اسمه بكر]، وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٣٣٣) [أبواب إقامة الصلوات- باب ما جاء في قيام الليل]، والبيهقي في الشعب (٢٨٣٠)، وابن عدي في الكامل (٣٠٤/٢)، وغيرهم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار)، وهو كما قال المؤلف، أي لم يثبت. قال العقيلي: حديثٌ باطلٌ لا أصل له ولم يتابع ثابتًا عليه ثقةٌ، وأطنب ابن عديٍّ في ردِّه وأنه منكر.

(٣) أخرجها النسائي (٢٤٣٧) [كتاب الزكاة- باب وجوب الزكاة]، وابن ماجه (٢٨٠) [أبواب الطهارة وسننها- باب الوضوء شطر الإيمان]، وابن حبان (٨٤٤) [كتاب الرقائق- باب الأذكار]، وغيرهم.

(٤) أخرجه اللالكائي بنحوه مُطوَّلًا في "أصول الاعتقاد" (٢١٦٣) [سياق ما روي عن النبي ﷺ في أن أرواح المؤمنين في حواصل طير] مُطوَّلًا، وأخرجه الحافظ أبو طاهر السلفي في "معجم السفر" (٣٣٣) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لكن بلفظ: (إن ذاكر الله يجيء يوم القيامة وله نورٌ كنور الشمس، أو برهانٌ كبرهان الشمس)، وذكره الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (٢٣/٢) من حديث سيدنا أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظه.

واصطلاحًا: الدَّليلُ والمرشدُ، فهيَ مفزوعٌ إليْها كما يُفزَعُ إلى البراهين؛ لأنَّهُ إذا سُئِلَ يومَ القيامةِ عنْ مصرِفِ مالِه كانتْ صدقاتُه براهينَ عَلى صِدْقِ جوابِه، ويَجوزُ أنْ يوسَمَ المتصدِّقُ بسيما يُعرفُ بِها فيكونَ برهانًا له عَلى حالِه، ولا يُسأَلُ عن مصرِفِ مالِه، أو هِيَ حجةٌ ودليلٌ عَلى إيمانِ المتصدِّقِ، فمَنْ تصدَّقَ استُدلَّ بصدقتِه عَلى صِدْقِ إيمانِه وعَلى صِحَّةِ محبَّتِه لِمَولاهُ، ولِمَا لديهِ مِنَ الثوابِ لِبذلِه محبوبِهِ بالجبلَّةِ والطَّبْعِ رجاءَ ثوابِه، فلَوْلا صحةُ إيمانِه لَمَا بذَلَ عاجلًا لآجلٍ.

الصدقة برهان الإيمان

وأمَّا المنافقُ فيمتنعُ منها لكونِه لا يَعتقدُها، كَقضيةِ ثعلبةَ الأنصاريِّ، فإنَّه قالَ للنبيِّ ﷺ: ادعُ اللهَ أنْ يَرزقَني مالًا، فقالَ النبيُّ ﷺ: ويلَكَ يا ثعلبةُ، قليلٌ تؤدِّي شُكرَه خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تُطيقُه، ثم عاودَ ثانيًا فقالَ النبيُّ ﷺ: أمَا تَرضى أنْ تكونَ مثلَ نبيِّ اللهِ، لوْ شئتُ أنْ تَسيرَ مَعِيَ الجبالُ ذهبًا لَسارتْ، فقالَ: والذي بَعثَكَ بالحقِّ لَئِنْ دعوتَ اللهَ فرزقَني مالًا لأُعْطِيَنَّ كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فدَعا له النبيُّ ﷺ، فاتَّخَذَ غنمًا فنمتْ كما يَنْمو الدودُ فضاقتْ عليهِ المدينةُ فتَنحَّى عنْها فنزلَ واديًا مِنْ أوْديتِها حتَّى جَعَلَ يُصلِّي الظهرَ والعصرَ في جماعةٍ وتَركَ ما سُواهما، ثُمَّ نَمَتْ وكثرتْ حتى تَرَكَ الصلواتِ إلا الجُمْعةَ، وهِيَ تَنمو حتَّى تَرَكَ الجمعةَ أيضًا، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (يا ويحَ ثعلبةَ) ثلاثًا. ثم نَزَلَ قولُه تَعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]، فبعثَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- رجُلَيْنِ عَلى الصدقةِ، وقالَ لهما: مُرَّا بثعلبةَ وفلانٍ رجُلٍ مِنْ بَني سليم فخُذَا صدقاتِهما، فأتَيا ثعلبةَ وأقرآهُ كتابَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: ما هذهِ إلَّا أختُ الجزيةِ، انطلقا حتَّى تَفرُغا ثُمَّ عُودا، فعَادَا عليهِ فامتَنَعَ فنَزَلَ قولُه تَعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ الآيات [التوبة: ٧٥-٧٧]، فكانَ شخصٌ مِنْ أقاربِهِ حاضرًا فذهبَ إليه وأخبَرَه، فجَمَعَ زكاةَ مالِه وأَتى بِها لِلنبيِّ ﷺ فلمْ يَقبَلْها، ثم أَتى بِها لأبي بكرٍ في خلافَتِه فلمْ يقبلْها، ثم لِعُمَرَ ثم لِعثمانَ، وهَلَكَ في خلافةِ عثمانَ[1]، وتقدَّمَ ما فيهِ مِنْ ردِّهِ، والَّذي عليهِ المفسرونَ أنَّهُ مِنَ المنافقينَ.

---

(١) أخرجه مطوَّلًا الطبرانيُّ في "الكبير" (٨/رقم ٧٨٧٣)، وابن جرير في "التفسير" (٥٧٨/١١)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (١٤٠٤)، والبيهقيُّ في "الشعب" (٤٠٤٨)، وغيرهم من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وحكيَ عنْ بعضِ المُذكِّرينَ أنَّهُ قالَ في مجلِسِه: إنَّ الرجلَ إذا أرادَ أنْ يتصدَّقَ فإنَّه يأتيه سبعونَ شيطانًا فيتعلقونَ بيديهِ ورجليهِ وقلبِهِ ويمنعونَهُ عنِ الصَّدقةِ، فلمَّا سَمِعَ بعضُ القومِ ذلكَ قالَ: إني أقاتلُ هؤلاءِ السبعينَ، وخرجَ مِنَ المسجدِ وأتى المنزلَ وملأَ ذيلَه مِنَ الحنطةِ وأرادَ أنْ يَخرُجَ ويتصدَّقَ، فوثبَتْ زوجتُهُ وجعلتْ تُنازِعُه وتُحاربُه حتى خرَّ ذلكَ من ذيلِه، فرجَعَ الرجلُ خائبًا إلى المسجدِ فقالَ له المُذكِّرُ: ماذا عمِلتَ؟ فقالَ: صرفتُ السبعينَ فجاءتْ أُمُّهم فهزمتْني.

(وَالصَّبْرُ) وهو لغةً: الحبسُ، ومنه المصبورةُ التي نُهِيَ عنها، وهيَ الدجاجةُ ونحوُها تُتَّخذُ غرضًا وتُرمى حتى تُقتلَ، وسُمِّيَ شهرُ رمضانَ شهرَ الصَّبْرِ؛ لأنَّهُ شهرٌ تُحبَسُ فيه النَّفْسُ عنْ شهواتِها مِنَ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والمَنكحِ، وسُمِّيَ الصابرُ في المصيبة صابرًا؛ لأنَّهُ حبَسَ نَفْسَه عنِ الجزعِ، وقيلَ: إنَّما سُمِّيَ الصبرُ صبرًا؛ لأنَّ تمرُّرَهُ في القلبِ وإزعاجَه لِلنَّفْسِ كتمرُّرِه في الفمِ.

وشرعًا: الثباتُ عَلى الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وقالَ ابنُ عطاءِ اللهِ: هو الوقوفُ معَ البلاءِ بحُسْنِ الأدبِ. وقالَ الأستاذُ أبو عليٍّ الدقاقُ: هو أنْ لا يَنفرَ مِنَ المقدورِ، وأمَّا إظهارُ البلاءِ لا عَلى وجهِ الشَّكْوى فلا يُنافي الصَّبْرَ. وقيلَ: حبسُ النَّفْسِ عَلى مُرادِ اللهِ تَعالى. وقيلَ: حبْسُ النَّفسِ بمشاقِّ التَّكْليفِ.

وهو مساوٍ لِقولِ بعضِهم: هو حبسُ النَّفْسِ عَلى العباداتِ ومشاقِّها والمصائبِ وحرارتِها، وعنِ المنهيَّاتِ والشهواتِ ولذَّاتِها، وأفضلُ أنواعِه الأخيرُ فالأوَّلُ، لِمَا جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه قالَ: الصَّبْرُ ثلاثةٌ، فصبرٌ عَلى المصيبةِ، وصبرٌ عَلى الطَّاعةِ، وصبرٌ عَلى المعصيةِ، فمَنْ صَبَرَ عَلى المصيبةِ حتَّى يَردَّها بحُسْنِ عزائِها كَتَبَ اللهُ له ثلاثَمائةِ درجةٍ ما بينَ الدرجةِ والدرجةِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، ومَنْ صَبَرَ عَلى الطَّاعةِ كَتَبَ اللهُ له سِتَّمائةِ درجةٍ ما بينَ الدَّرجةِ والدَّرجةِ كما بينَ تخومِ الأرضِ إلى مُنتهى العرشِ، ومَنْ صَبَرَ عَلى المعصيةِ كَتَبَ اللهُ له تسعَمائةِ درجةٍ ما بينَ الدرجةِ والدرجةِ كما بينَ تخومِ الأرضِ إلى منتهى العرشِ مرتينِ[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب"الصبر" (٢٤)، وغيره من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال السيد أحمد بن الصدِّيق في المغير (ص ٨٤): وهو كذبٌ جليٌّ لا يشك فيه مَن الحديث صناعته.

قالَ بعضُهم: الصَّبْرُ صَبْرانِ، فاللِّئامُ أصبرُ أجسامًا، والكِرامُ أصبرُ نفوسًا، وليسَ الصبرُ الممدوحُ أنْ يكونَ صاحِبُهُ قويَّ الجسدِ عَلى اللَّدِّ والكدِّ كما هو من صفاتِ البهائم، بلْ أنْ يكونَ للنفسِ غَلوبًا، ولِلْأمورِ مُحتمِلًا، ولِجَأْشِهِ عندَ الحفاظ مُرتبطًا. والفرقُ بينَ المُتصبِّرِ والصَّابرِ والصبَّارِ أنَّ الأوَّلَ هو الذي يَتحمَّلُ المشاقَّ وتَظهَرُ عَليه، وإنَّما يَمنعُه مِنَ السخَطِ خوفُ اللهِ، والثاني هو مَنْ تعوَّدَ حَمْلَ المشاقِّ فلَمْ تَظهَرْ عليه، والثالثُ هو الذي عوَّدَ نفْسَهُ الهجومَ عَلى المكارِهِ بِلا كلفةٍ في ذلكَ دونَ المرارةِ.

تنبيهان

الأوَّلُ: عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (لا يَزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِهِ وماله وولدِهِ حتَّى يَلقى اللهَ، وما عليهِ مِنْ خطيئةٍ)[١]. الثاني: عن عكرمةَ أنَّه قالَ طُفِئَ سراجُ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقيلَ له: يا رسولَ اللهِ أمصيبةٌ هِيَ؟ قالَ: نَعَمْ، كُلُّ شَيْءٍ يؤذي المؤمِنَ فهو مصيبةٌ[٢].

وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥] الصبرُ الجميلُ أنْ يكونَ صاحبُ المصيبةِ في القومِ لا يُدرى مَنْ هو.

(ضِيَاءٌ) فيهِ ما مَرَّ في "نُور"، وأصلُه "ضواء"، فقُلِبتِ الواوُ كما قُلِبتْ في الصيام والقيام، والضياءُ هو النورُ الذي فيه حرارةٌ واحتراقٌ كضوءِ الشمسِ، بخلافِ النورِ فإنَّه محضُ إشراقٍ، قالَ تَعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. ونحوه للزمخشريِّ: وإنَّما جَعَلَ الصلاةَ نورًا والصبرَ ضياءً؛ لأنَّه أخصُّ مِنْها لاشتماله علَيْها وعَلى غيرِها مِنَ الطاعاتِ لِمَا مَرَّ، فكانَ الضياءُ أخصَّ مِنَ النُّورِ الذي هو كالوصفِ الزائدِ عليهِ أولى به.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٨٥٩) [مسند أبي هريرة]، والترمذيُّ (٢٣٩٩) [أبواب الزهد- باب ما جاء في الصبر على البلاء]، وابن حِبَّان (٢٩١٣) [كتاب الجنائز- باب ما جاء في الصبر]، والحاكم (٣٤٦/١) [كتاب الجنائز]، وغيرهم. وقال الترمذي: حسن صحيح، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (٤١٢) [باب ما جاء في الجنائز] عن عمران القصير قال: طُفئ مصباح النبي ﷺ فاسترجع قالت عائشة: إن هذا مصباح، قال: (كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة).

وأُوردَ عَلى هذا قولُه تَعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وأجيبَ بأنَّ مَعنى قولِه "نُورٌ" أيْ مُنوِّرٌ، فأوردَ بقاء السؤالِ، ولِمْ يقلْ: "مضيءٌ"، وأُجيبَ بأنَّ النُّورَ أعمُّ وأشملُ، لأنْ يكونَ ليلًا ونهارًا، والضياءُ لا يكونُ إلا للنَّهارِ بالشَّمْسِ، عَلى أنَّ المرادَ بالنُّورِ الهديُ أيْ هادي أهلِهما.

ثم إنَّ جَعْلَ الضوءِ أبلغَ مِنَ النُّورِ أنكرَهُ ابنُ السكيتِ[١] في "الفلكِ الدائرِ" وقالَ: ليسَ له في اللُّغةِ شاهدٌ ولا في الاستعمالِ مُساعِدٌ ولا دليلٌ في الآيةِ، لجوازِ أنْ يَكونَ مِنَ التَّدْبيجِ ويُجْتنبَ التكريرَ، وأُجيبَ بأنَّ كلامَ ابنِ السكيتِ بِحَسَبِ أصلِ الوضعِ، وما ذُكِرَ بحَسَبِ الاستعمالِ كما في "الأساسِ".

فضل الصبر على البلاء

تنبيهٌ: وَرَدَ أنَّهُ ﷺ قالَ: (أيُّما رجلٍ صَبَرَ عَلى سوءِ خُلُقِ امرأتِهِ أعطاه اللهُ مِنَ الأجرِ مِثْلَ ما أَعطى أيوبَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- عَلى بلائِهِ، وأيُّما امرأةٍ صبرَتْ عَلى سوءِ خُلُقِ زَوْجِها أعطاها اللهُ مِنَ الأجرِ مِثْلَ ما أَعْطى آسيةَ بنتِ مُزاحِمٍ امرأةِ فرعونَ)[٢].

ورُوِيَ أنَّ رجُلًا جاءَ إلى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَشكو إليه خُلُقَ زوجتِهِ، فوقفَ يَنتظِرُهُ فَسَمِعَ امرأتَهُ تَستطيلُ عَليهِ بلسانِها وهو ساكتٌ لا يَرُدُّ عَلَيْها، فانصرفَ الرجلُ قائلًا: إذا كانَ هذا حالَ أميرِ المؤمنينَ فكيفَ حالي، فخَرَجَ عُمَرُ فرآه مولِّيًا فَناداهُ ما حاجتُكَ؟ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ جئتُ أشْكو إليكَ خُلُقَ زَوْجتي واستطالَتَها عَليَّ فسمِعْتُ زوجتَكَ كذلكَ، فرجعْتُ وقُلْتُ إذا كانَ هذا حالَ أميرِ المؤمنينَ مَعَ زوجتِهِ فكيفَ حالي، فقالَ له عُمَرُ: يا أَخي إني أحتمِلُها لحقوقٍ لَها عليَّ أنَّها طبَّاخةٌ لطعامي، خبَّازةٌ لِخُبزي، غسَّالةٌ لثيابي، مُرضِعةٌ لوَلَدي، ويسكُنُ قلْبي بِها عنِ الحَرامِ، فأنا أحتمِلُها لذلكَ، فقالَ الرجلُ: يا أميرَ المؤمنينَ، وكذلكَ زوجتي، قالَ: فاحتملْها يا أخي، فإنَّها مُدَّةٌ يَسيرةٌ.

---

(١) شيخ العربية أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السِّكِّيت، له مصنفات نافعة، منها: إصلاح المنطق، ومعاني الشعر، والقلب والإبدال. طبقات النحويين (ص ٢٠٢)، وفيات الأعيان (٦/٣٩٦).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٢/٤٢، ٤٣) وقال العراقي: لم أقف له على أصل.

وكان لِبعضِ الصَّالحينَ أخٌ صالحٌ يَزورُه في كُلِّ سنةٍ مرةً فجاءَ مرةً لِزيارتِهِ فَطَرقَ بابَهُ فقالتْ زوجتُهُ: مَنْ؟ فقالَ: أخو زوجِكِ في اللهِ تعالى جاءَ لزيارتِهِ، فقالتْ: ذَهَبَ لِيحتطِبَ لا ردَّهُ اللهُ، وبالغتْ في شتمِهِ وسبِّهِ، فَبَيْنَما هو كذلكَ وإذا بأخيهِ قدْ حَمَّلَ الأسدَ حزمةَ حطبٍ وهو مُقبلٌ بِهِ، فلمَّا وَصَلَ أخاه سَلَّمَ عليه ورحَّبَ به ثم أنزلَ الحطبَ عنْ ظهْرِ الأسدِ وقالَ: اذهبْ باركَ اللهُ فيكَ، ثُمَّ أدْخَلَ أخاهُ وهي تَسبُّه فلا يُجيبُها، فأطعَمَهُ ثم ودَّعَهُ، فانصرفَ علَى غايةٍ مِنَ التَّعجُّبِ مِنْ صبْرِهِ، ثُمَّ جاءَ في العامِ الثاني فدقَّ البابَ، فقالتِ امرأتُه: مَنْ؟ قالَ: أخو زوجِكِ في اللهِ جاءَ يَزورُه، قالتْ: مَرْحبًا، وبالغتْ في الثَّناءِ عليهِ، وأَمَرتْه بانتظارِهِ، فجاءَ أخوهُ والحطبُ عَلى ظهْرِهِ، فأدخَلَهُ وأطعَمَهُ وهِيَ تُبالغُ في الثَّناءِ، فلمَّا أرادَ مُفارقَتَهُ سَألَهُ عمَّا رَأى مِنْ تلكَ ومن هذِهِ، ومِنْ حَمْلِ الأسدِ وحَمْلِه هو لَها علَى ظهْرِهِ؟ فقالَ: يا أخي توفيتْ تلكَ الشريرةُ، وكنتُ صابرًا عَلى أذيَّتِها وبَغْيِها فسَخَّرَ اللهُ الأسدَ الذي رأيتَهُ يَحملُ الحطَبَ بِصبْري عَلَيْها، وصِرْتُ الآنَ أحْمِلُ الحطبَ عَلى ظهْري لِراحتي مَعَ هذِهِ.

وذَكَرَ بعضُ المُفسِّرينَ أنَّ أبا بكرٍ كانَ عندَ النبيِّ ﷺ ورجلٌ مِنَ المنافقينَ يسبُّهُ وأبو بكرٍ لا يُجيبُهُ، والنبيُّ ﷺ ساكتٌ يَبتسِمُ، فأجابه أبو بكرٍ فقامَ النبيُّ وذَهَبَ، فتَبِعَهُ أبو بكرٍ فقالَ يا رسولَ اللهِ ما دامَ يَسبُّني كُنْتَ ساكتًا فلمَّا أجبتُه قُمْتَ وذَهَبْتَ! فقالَ: إنَّ مَلَكًا كانَ يُجيبُه فلمَّا أجبتَهُ ذَهَبَ الملكُ وجاءَ الشيطانُ، وأنا لا أكونُ في مجلسٍ يَكونُ فيهِ شَيْطانٌ، فنَزَلَ قولُهُ تَعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠][1].

وعنْ بشرٍ الحافي قالَ: كانَ بِعَبادانَ رجلٌ قدْ قطعَهُ البلاءُ وسالتْ حدَقتاهُ عَلى وجهِهِ، وهو في ذلكَ كثيرُ الذكرِ عظيمُ الشكرِ للهِ تَعالى، فإذا هو مطروحٌ مِنْ جنَّتِهِ، فوضعتُ رأسَهُ عَلى حِجْري وجعلتُ أسألُ اللهَ تعالى أنْ يَكشِفَ ما بِهِ، فأفاقَ فسَمِعَ دُعائي فقالَ: مَنْ هذا الفضوليُّ الذي يدخل بيْني وبينَ ربِّي، ويَعترِضُ عليَّ في نِقْمتي؟ ونحَّى رأسَهُ مِنْ حِجْري، قالَ بِشرٌ: فعقدتُ معَ اللهِ عقدًا أنْ لا أعترِضَ أحدًا في نقمةٍ أَراها عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٢٤) [مسند أبي هريرة]، وأبو داود (٤٨٩٧) [كتاب الأدب- باب في الانتصار]، وغيرهما.

(وَالْقُرْآنُ) قيل: تَسْمِيَتُهُ بذلكَ توقيفيَّةٌ، وقيلَ: لجَمْعِه، والقرآنُ عَلى وزنِ "فُعْلَان" بِمعنى مَفْعُولٍ بِمعنى الأمرِ والنهيِ والاستخبارِ والوعدِ والوعيدِ والقصصِ والمواعظِ، مِنْ "قَرَأَ الماءَ في الحوضِ" إذا جَمَعَهُ، و"قرأتِ الناقةُ لَبَنَها في الضرعِ" جَمَعَتْهُ، أي امتثلتْ أمْرَه واجتنبتْ نَهيَهُ واتعظتْ بمواعظِهِ، وقيلَ: مِنْ "قرأْتُ الكتابَ قراءةً وقرآنًا" إذا تلوتُهُ؛ لأنَّهُ مجموعٌ ومَتلوٌّ.

***

فائدةٌ: عنْ عبدِ الأعلى بنِ النجم قالَ: بتُّ ليلةً في أيامِ ابنِ حريشٍ وابنِ خلفٍ المغافري بمِصرَ، وكانتْ ليلةَ جمعةٍ، وأنا أقولُ في نَفْسي: لا أدري مَنْ أَتَّبِعُ؟ هلِ ابنُ حريشٍ وأصحابُهُ، وهو يَقولُ بخلْقِ القرآنِ؟ أوِ ابنُ خلفٍ وأصحابُهُ، وهو يَقولُ: إنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ تعالى غيرُ مخلوقٍ؟ فلمَّا أويتُ إلى فِراشي رأيتُ شخصًا جاءَني وقالَ: قُمْ فقمتُ، وقالَ لي: قُلْ، قلتُ: وما أقولُ؟ قالَ:

سُبْحَانَ مَنْ رَفَعَ السما * ءَ بِلَا عِمَادٍ لِلنَّظَرْ
فتزيَّنَتْ بالسَّاطِعَا * تِ اللَّامِعَاتِ وَبِالْقَمَرْ
مَا قالَ خَلْقَ القرآ * نُ مِنْ خَلْقِهِ إِلَّا كَفَرْ
لَكِنْ كَلَامٌ مُنْزَلٌ * مِنْ عِنْدِ خَالِقِ الْبَشَرْ

وقَالَ: اكتبْهُ، فمدَدْتُ يَدي فكتبتُهُ فيه، فلمَّا استيقظتُ رأيتُهُ مَكتوبًا.

وقولُه في الحديثِ: (خيرُكم مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ)[1] صحيحٌ، وقالَ ﷺ: (لوْ كانَ القرآنُ في إهابٍ لما مسَّتْهُ النارُ)[2]، قيلَ: معناهُ مَنْ حَمَلَ القرآنَ وقرأَهُ لَمْ تَمَسَّهُ النارُ يومَ القيامةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) [كتاب فضائل القرآن- باب خيركم مَن تعلَّم القرآن وعَلَّمه]، وغيره من حديث ذي النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٦٥) [مسند الشاميين- حديث عقبة بن عامر]، والدارمي (٣٦٢٨) [كتاب فضائل القرآن- باب فضل من قرأ القرآن]، وأبو يعلى (١٧٤٥) [مسند عقبة بن عامر]، والطحاوي في مشكل الآثار (٩٠٦)، وغيرهم من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسناد ضعيفٍ، وله شاهدان عن عصمة بن مالك وسهل بن سعدٍ، وكلاهما ضعيفٌ أيضًا.

(**حُجَّةٌ لَكَ**) في المواطنِ التي تُسألُ فيها كالقبرِ والميزانِ والصِّراطِ، (**أَوْ**) حجةٌ (**عَلَيْكَ**) في تلكَ المواطنِ إن أعرضتَ عنهُ ولم تعملْ به.

القرآن شافع مشفع

وقدْ روى عمرو بنُ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدِّه عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: يمْثُلُ القرآنُ يومَ القيامةِ رجُلًا فيُؤتى بالرجُلِ قدْ حَمَلَهُ فخالفَ أمرَه فيَمْثُلُ له خصمًا فيقولُ: يا ربِّ قدْ حمَّلتَهُ إيَّاي فبئسَ حاملٌ، تعدى حُدودي وضيَّعَ فَرائضي ورَكِبَ مَعصيتي وتَركَ طاعَتي، فما يَزالُ يَقذفُ عَليهِ بالحُجَجِ حتَّى يَقولَ شأنكَ بِهِ، فيأخذُه بيدِه فَما يُرسِلُه حتَّى يَكُبَّهُ عَلى وجْهِهِ في النَّارِ. قالَ: ويُؤتى بالرجلِ الصالحِ يومَ القيامةِ قدْ حَمَلَهُ وحَفِظَ أمْرَه فيَمْثُلُ خصمًا فيقولُ: يا ربِّ قدْ حمَّلْتَه إيَّاي فخيرُ حاملٍ، حَفِظَ حدودي وعَمِلَ بِفرائضي واجتنبَ مَعْصيتي واتَّبعَ طاعتي، فما يَزالُ يَقذِفُ به الحججَ حتى يُقالَ شأنكَ به، فيأخذُه بيدِه فما يَزالُ به حتى يُلبِسَهُ حُلَّةَ الإستبرقِ، ويَعقِدَ عليهِ تاجَ المُلكِ، ويَسقيَهُ كأسَ الخمرِ.[1]

وفي الحديثِ: (القرآنُ شافعٌ مُشفَّعٌ -أي لِمَنْ عَمِلَ بهِ- وماحِلٌ مُصَدَّقٌ -أيْ لِمَنْ لم يَعملْ بهِ-، مَنْ قدَّمَهُ أمامَهُ قادَهُ إلى الجنةِ، ومنْ جَعلَهُ وراءَهُ دَفعَهُ في قفاهُ إلى النَّارِ)[2]، وماحِلٌ منَ المُماحَلةِ وهي المكابرةُ والمكابدةُ، ومنه ماحِلٌ إذا تَكلَّفَ الحيلةَ واجتهدَ فيها، ومَحَلَ بِفلانٍ إذا مَكرَ به وكادَهُ، وكأنَّ القرآنَ يَكيدُ مَنِ اتخذَهُ وراءَ ظهْرِهِ.

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَجيءُ القرآنُ يومَ القيامةِ فيَشفَعُ لِصاحبِه فيكونُ قائدًا لِصاحبِهِ إلى الجنَّةِ أو يَشهدُ عليهِ فيكونُ سائقًا له إلى النَّارِ[3]، وجاءَ في بعضِ الأحاديثِ: (مَنْ حَفِظَ القرآنَ أُعْطيَ ثُلُثَ النبوَّةِ)[4] أيْ أُعطيَ عِلمَ ثلثِ النبوةِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٠٤٤) [كتاب فضائل القرآن]، وابن الضريس في فضائل القرآن (٩١) [باب فيمن قال القرآن يشفع لصاحبه]، وغيرهما.

(٢) أخرجه البزار (١٢٢) [مسند جابر]، وابن حبان (١٢٤) [كتاب العلم]، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي الباب عن ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٠٥٣) [كتاب فضائل القرآن- من قال: يشفع القرآن لصاحبه يوم القيامة] والدارمي (٣٦٤٤) [كتاب فضائل القرآن- باب فضل من قرأ القرآن]، وغيرهما عن ابن مسعود موقوفًا.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (١٨٣٨)، وغيره من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: (من قرأ ثلث القرآن=

وقالَ بعضُ السلفِ: ما جالسَ أحدٌ القرآنَ فقامَ عنه خاليًا، بَلْ إمَّا أنْ يَربحَ وإمَّا أنْ يَخْسَرَ ثُمَّ تَلا قولَه تَعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقيلَ: لكَ أوْ عليكَ في المباحثِ الشرعيَّةِ والوقائعِ الحكمية؛ لأنه المرجعَ عندَ التنازعِ فتستَنِدُ بِهِ عَلى صحَّةِ دعواكَ أو يَستنِدُ به خصمُكَ عَليكَ.

***

فائدةٌ: كانَ بعضُ المُتصدِّرينَ للقراءةِ في الجامعِ العتيقِ قدْ حَلَفَ بالطلاقِ الثلاثِ أنَّهُ لا يُجيزُ أحدًا يَقرأُ عَليهِ فيستحقُّ الإجازةَ إلا بعشرةِ دنانيرَ، فاتَّفقَ أنَّه قرأَ عَليهِ رجلٌ فقيرٌ فلمَّا أكملَ سَأَلَهُ الإجازةَ، فأخبرَهُ بيمينِهِ، فتألَّمَ خاطرُه، فأخبرَ به أصحابَهُ، فجَمعوا له خمسةَ دنانيرَ، فأتَى بها الشيخَ، فلمْ يأخُذْها، فخرَجَ مِنْ عندِهِ فرأى المحملَ يُدارُ به، فقالَ: واللهِ لا أنفقتُ هذهِ إلَّا في الحجِّ، فاشْتَرى ما يَحتاجُه وسارَ حتى وَصَلَ إلى مكةَ، فلمَّا قَضى مناسِكَهُ رَحَلَ إلى المدينةِ الشريفةِ، فلمَّا وَصَلَ إلى قبرِ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ، ثم قرأَ عُشْرًا جَمَعَ فيهِ الأئمةَ السبعةَ، وقالَ: هذهِ قِراءَتِي عَلى فلانٍ عنْ فلانٍ عنكَ عنْ جبريلَ عَليْكُما الصلاةُ والسلامُ عنِ اللهِ سبحانَهُ وتَعالى، وقدْ سألتُ شيْخي الإجازةَ فأَبَى عليَّ، وقد استعنتُ بكَ يا رسولَ اللهِ في تَحْصيلِها، ثُمَّ نامَ فَرأَى النبيَّ ﷺ فقالَ له: سلِّمْ عَلى شيخِكَ، وقُلْ له: رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ لَكَ: أجزْني بلا شيءٍ، فإنْ لم يصدِّقْكَ فقُلْ له: بأمارةِ "زُمرًا زُمرًا".

فلمَّا وَصَلَ الفقيرُ إلى مصرَ أخبرَ شيخَهُ وبلَّغَهُ الرسالةَ بغيرِ أمارةٍ فلمْ يصدِّقْه فقالَ: بأمارةِ "زُمرًا زُمرًا"، فصاحَ الشيخُ وخرَّ مَغشيًّا عَليهِ، فلمَّا أفاقَ سألَهُ أصحابُهُ عنْ ذلك فقالَ: كنتُ كثيرًا ما أتْلو القرآنَ فمررْتُ يومًا عَلى قولِه تَعالى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] فحلفْتُ لا أقرأُ القرآنَ إلَّا متدبرًا فهِمًا، فأقمت لا أتجاوزُ

=أعطي ثلث النبوة، ومن قرأ نصفه أعطي نصف النبوة، ومن قرأ ثلثيه أعطي ثلثي النبوة، ومن قرأ القرآن كله أعطي النبوة كلها...) الحديث. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/١٥٢، ١٥٣)، وتعقَّبه السيوطي، وذكر له شواهد في اللآلئ (١/١٢١، ١٢٢) منها ما أخرجه الحاكم وصحَّحه (١/٥٥٢) [كتاب فضائل القرآن] وغيره عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله قال: (من قرأ القرآن فكأنما استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه).

مِنَ القرآنِ إلَّا اليسيرَ مدةً طويلةً حتَّى نسيتَه، فكفَّرْتُ عنْ يَميني، وشرَعْتُ في حِفظِهِ فحَفظْتُه، فبَيْنَما أنا أتلو ذاتَ يوم فمرَرْتُ عَلى قولِه تَعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فقلتُ: ليتَ شعري مِنْ أيِ الأقسامِ أنا، ثم قلتُ: لستُ مِنَ الثاني ولا مِنَ الثالثِ بيقينٍ، فيتعيَّنُ أنْ أكونَ مِنَ القسمِ الأولِ، فنِمْتُ تلكَ الليلةَ حزينًا، فرأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ لي: بشر قُرَّاءَ القرآنِ أنَّهم يَدخلونَ الجنةَ زمراً زُمراً. ثمَّ أقبلَ عَلى ذلكَ الفَقيرِ يُقَبِّلُ وجْهَهُ، وقالَ: أشهدُكم عَلى أنِّي قدْ أجزتُه لِيَقرأَ ويُقرِئَ مَنْ شاءَ، وكُلُّ ذلكَ ببركةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

***

(**كُلُّ النَّاسِ**) أيْ كُلُّ إنسانٍ (**يَغْدُو**) يُقالُ: غَدَا يَغْدُو إذا بَكَّرَ، أيْ كُلُّ إنسانٍ يُصبِحُ في أوَّلِ النَّهارِ ساعيًا في تحصيلِ أغراضِهِ، والغُدوُّ سيْرُ أوَّلِ النَّهارِ، ضدُّ الرَّواحِ، مأخوذٌ مِنَ الغُدوةِ بالضَّمِّ، ما بينَ الفجرِ وطلوعِ الشمسِ.

(**فَبَائِعٌ نَفْسَهُ**) خبرُ مبتدأ محذوف أيْ فهو بائعٌ نفسَهُ، والمبتدأُ يَكثُرُ حذفُهُ بعدَ فاءِ الجزاءِ، (**فَمُعْتِقُهَا**) مِنْ عذابِ النَّارِ، (**أَوْ مُوبِقُهَا**) مُهلِكُها، وقولُه: "فَمُعتِقُها" خبرٌ آخرُ أوْ بدلٌ مِنْ قولِهِ: "فبائع نفْسَهُ".

وأرادَ بِالبَيْعِ المبادلةَ فإنْ عَمِلَ خيراً وَجَدَ خيراً، فيكونُ مُعتِقَها مِنَ النَّارِ، وإنْ عَمِلَ شراً استحقَّ شرًّا فيكونُ مُوبِقَها، أوْ أرادَ بِالبيعِ الشراءَ بِقرينةِ قولِه "فَمُعْتِقُها"؛ إذِ الإعتاقُ إنَّما يَصِحُّ مِنَ المُشْتَري، أيْ فَمَنْ تركَ الدُّنيا وآثرَ الآخرةَ اشترى نَفْسَهُ مِنْ ربِّه بالدُّنيا، فيكونُ مُعتِقَها، ومَنْ تركَ الآخرةَ وآثرَ الدُّنيا اشْترى نَفْسَهُ بِالآخرةِ، فيكونُ مُهلِكَها، فجَعَلَ مرورَ الأزمانِ وانقضاءَ الأنفاسِ بِمنزلةِ بذلِ الثَّمَنِ بِمقابلةِ ما اختارَه مِنَ المثمنِ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ.

ولِبعضِهم:

نَفْسِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعِي * يُكثِرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي
كَيْفَ احْتِيَالِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا * كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي

وفي الحديثِ أنَّهُ ﷺ قالَ: (مَنْ قالَ حينَ يُصبِحُ: اللهمَّ إنِّي أصبحتُ أُشهِدُكَ وأُشهِدُ حَمَلَةَ عرشِكَ وملائكتَكَ وجميعَ خلقِكَ أنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلهَ إلا أنتَ وحدَكَ لا شريكَ لكَ، وأنَّ محمدًا عبدُكَ ورسولُكَ مرةً أعتقَ اللهُ رُبْعَهُ مِنَ النارِ، أو مرتينِ فنصفَهُ، أو ثلاثةً فثلاثةُ أرباعِهِ، أو أربعًا فكلَّه)[1]، وكذا إنْ أمسى لأنَّ بتكريرِ هذه الكلماتِ أربعَ مراتٍ تبلغُ حروفُها ثلاثمائةٍ وستينَ حرفًا، وابنُ آدمَ مُركَّبٌ مِنْ ثلاثمائةٍ وستينَ عضوًا، فأعتقَ اللهُ بكُلِّ حرفٍ عُضوًا.

فإنْ قلتَ: مَنْ أعتقَ بعضَ عبدِهِ كَمُلَ عَلَيْهِ، فكيفَ لا يَكمُلُ العتقُ لِمَنْ قالَ ذلكَ مرةً أو مرتينِ أو ثلاثًا؟ فالجوابُ أنَّ التكميلَ يَقعُ قهرًا، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عنْ ذلكَ، أوْ لأنَّ مِلْكَ اللهِ لعبادِهِ حقيقيٌّ، ومِلْكُ العبدِ لِمَنْ في رقِّهِ مَجازيٌّ، فيُزالُ بأَدْنى الأمورِ، أوْ لأنَّ العتقَ بالسرايةِ إنَّما يَكونُ في عتقٍ يَحصُلُ به الخروجُ مِنَ مِلْكِ المالكِ لا في العتقِ مِنَ النارِ، أوْ لأنَّ العتقَ بالسرايةِ رِفْقٌ بالمُعتِقِ بالكسرِ؛ لأنَّهُ يحصُلُ به عتقُ جميعِهِ مِنَ النَّارِ لحديثِ: (مَنْ أعتقَ رقبةً مؤمنةً أعتقَ اللهُ بكُلِّ عضوٍ مِنْها عضوًا مِنْهُ مِنَ النارِ، حتى الفرجُ بالفرجِ)[2]، وهذا لا يتأتى مثلُه في حقِّ اللهِ تَعالى.

(**رواه مسلمٌ**)، وكذا أحمدُ والترمذيُّ[3] باللَّفْظِ المذكورِ عن صَحابيِّهِ المذكورِ. قالَ ابنُ القطانِ: اكتفَوْا بكونِهِ في مسلمٍ فلمْ يَبْحثوا عنه، وقدْ بَيَّنَ الدارَقُطْنيُّ وغيرُه أنَّ فيهِ انقطاعًا[4].

***

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٩)، و(٥٠٧٨) [كتاب الأدب- باب ما يقول إذا أصبح]، والنَّسائيُّ في "الكبرى" (٩٧٥٣) [كتاب عمل اليوم والليلة]، والطبراني غي الأوسط (٧٢٠٥) [باب الميم- من اسمه محمد]، وأبو نعيم في الحلية (١٨٥/٥) [ترجمة مكحول الشامي]، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٧١٥) [كتاب كفارات الأيمان- باب قول الله تعالى: ﴿أو تحرير رقبة﴾]، ومسلمٌ (١٥٩٠) [كتاب العتق- باب فضل العتق]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) مسند أحمد (٢٢٩٠٢) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي مالك الأشعري]، وسنن الترمذي (٣٥١٧) [أبواب الدعوات]، وغيرهما.

(٤) انظره مع الجواب عليه في شرح النووي على مسلم (٩٩/٣).

الحديثُ الرابعُ والعشرونَ

٢٤. عَنْ أبي ذرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ فيما يَرويهِ عَنْ ربِّه -عزَّ وجلَّ- أنَّهُ قالَ:

(يا عِبادي إنِّي حرَّمتُ الظُّلْمَ عَلى نفْسي وجعلتُه بينَكم مُحرَّمًا، فلا تَظَالَموا، يا عِبادي كُلُّكُم ضالٌّ إلا مَن هَديتُه، فاسْتَهْدُوني أَهْدِكُم، يا عِبادي كلُّكُم جائِعٌ إلا مَنْ أطْعَمْتُه فاسْتَطعِموني أُطْعِمْكُم، يا عِبادي كلُّكُم عارٍ إلا مَن كَسَوتُه فاسْتكْسُوني أَكْسُكُم، يا عِبادي إنكم تُخطِئون بالليلِ والنَّهارِ وأنا أغْفرُ الذُّنوبَ جميعًا، فاسْتغفِروني أغفِرْ لكُم، يا عِبادي إنكم لنْ تَبْلُغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني، ولنْ تبلُغوا نَفعي فتنفعُوني، يا عِبادي لوْ أنَّ أوَّلكم وآخِرَكُم وإِنْسَكُم وجِنَّكُم كانوا على أتقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنكم، ما زادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئاً، يا عِبادي لوْ أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكُم وإنْسَكُم وجِنَّكُم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحِدٍ مِنكم، ما نقصَ ذلك مِن مُلكي شيئاً، يا عِبادي لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكم وإنْسَكُم وجِنَّكُم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فَسألوني، فَأعطيتُ كُلَّ واحِدٍ مَسْأَلَتَه، ما نَقصَ ذلك مِمَّا عِندي إلا كما ينقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ، يا عِبادي إنَّما هي أعْمالُكُم أُحصيها لكم، ثُمَّ أوفِّيكُم إيَّاها، فَمنْ وجَدَ خيراً فليَحْمَدِ اللهَ، ومنْ وجدَ غيرَ ذلِك فلا يَلومنَّ إلا نَفْسَه). رواه مُسلمٌ.

(**عَنْ أَبِي ذَرٍّ**) جُندبِ بنِ جنادةَ المُتخلِّي عنِ الدُّنْيا المُشمِّرِ للعُقبى (**الْغِفَارِيِّ**) -بِكسرِ الغينِ المعجمةِ وفتحِ الفاءِ- نسبةً إلى غِفَارَ قبيلةٍ مِنْ كنانةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[1].

---

(١) سبق التعريف به وذكر مناقبه في شرح الحديث الثامن عشر.

(**عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فيما يَروي**) بصيغةِ المضارعِ، أصلُه "يَرويه"، فحُذفَ عائدُ الموصولِ، وفي روايةٍ: فيما رَوَى[1] (**عَنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ**) فهو مِنْ جملةِ الأحاديثِ القدسيةِ، وكانَ أبو إدريسَ راويهِ عنْ أبي ذرٍّ إذَا حدَّثَ بهذا الحديثِ جَثَا عَلى رُكْبَتَيْهِ.

(**أنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي**) جَمْعُ عَبْدٍ، وهو لغةً: الإنسانُ؛ ليتناوَلَ الذَّكَرَ والأُنْثى، والحُرَّ والعبْدَ، لَكنَّ المُرادَ هنا بدلالةِ قولِه الآتي "إنْسكمْ وجنّكم" جميعُ الثَّقَلَيْنِ لِتَسَاوِيهم في التَّكْليفِ وتعاقُبِ التَّقْوى والعجزِ. وقالَ البيضاويُّ: يَجوزُ أنْ يكونَ عامًّا شامِلًا لِذوي العلمِ كُلِّهم مِنَ الثَّقَلَيْنِ والملائكةِ، ويَكونَ ذِكْرُ الملائكةِ مطويًّا مندرجًا في قولِه: "وجِنّكم"، وتوجُّهُ الخطابِ نحوَهم لا يتوقَّفُ عَلى الفجورِ منهم ولا عَلى إمكانِه؛ لأنَّهُ كلامٌ صادرٌ عَلى سبيلِ الفرضِ والتقديرِ، اهـ. وفيهِ بَحثٌ؛ لأنَّهُ صرَّحَ فيما يَأتي بالإنسِ والجنِّ دونَ المَلَكِ، فدلَّ عَلى إرادتِهما دونَه خصوصًا والملائكةُ لَيْسوا مِنْ أهلِ الضَّلالِ والطَّعامِ، وتقديرُ ذلك فيهم بعيدٌ.

و"يَا" حرفُ نداءٍ وُضِعَ لِنداءِ البعيدِ، وقدْ يُنادى بهِ القريبُ تنزيلًا لهُ منزلةَ البعيدِ إمَّا لِعظمتِهِ كـ"يا ربِّ، يا اللهُ"، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريدِ، أو لِغفلتِه كما هنا، فإنَّهم غافلونَ عنْ تلكَ الأمورِ العظيمةِ، أو لِلاعْتِناءِ بالمدعو إليه وزيادةِ الحثِّ عَليه كما في ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

تحريم الظلم والتحذير منه

(**إنِّي حَرَّمْتُ**) مِنَ التحريمِ، وهو لغةً: المنعُ، فشبَّهَ تعالى تَنَزُّهَهُ عنِ الظُّلمِ بتحرُّزِ المكلَّفِ عمَّا نُهِيَ عنه شرعًا في الامتناعِ عنه، واستعارَ له التحريمَ ثم اشتقَّ منه الفعلَ، ويكونُ استعارةً تبعيةً، (**الظُّلْمَ**) هو لغةً: وضعُ الشيءِ في غيرِ محلِّه، وشرعًا: التصرُّفُ في مِلْكِ الغيرِ بغيرِ حقٍّ، أو مجاوزةُ الحدِّ، وكلاهما مُحالٌ؛ إذْ لا مِلْكَ لِأحدٍ معَهُ، بَلْ هو الذي خَلقَ المالكينَ وأملاكَهم، وتَفضَّلَ عَلَيْهم بها، وحدَّ لهم الحدودَ، وحرَّمَ وأحَلَّ، فلا حاكِمَ يَتعقَّبُهُ، ولا حقَّ يَترتَّبُ عَلَيْهِ، تَعالى عنْ ذلكَ عُلوًّا كبيرًا، (**عَلَى نَفْسِي**) أيْ تنزَّهْتُ وتعالَيْتُ عنه لِقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]، فالظلمُ مُستحيلٌ في حقِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) [كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الظلم]، وغيره.

وذَهَبَ المعتزلةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ عَلى الظُّلم، وهو مُتصوَّرٌ منهُ، لكن لا يَفعلُه عدْلًا منه وتنزهًا، واحتجُّوا بقولِه تَعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وهو تمدُّحٌ بنفي الظلم، والحكيمُ لا يُتَمَدَّحُ إلا بما يَقدِرُ عَلَيْهِ ويَصِحُّ منه، ولوْ قالَ شخصٌ: "إنِّي منعْتُ نَفْسي مِنْ صعودِ السَّماءِ" لَسُخِرَ منهُ! وردَّ قولَهم بأنَّهُ لو جازَ أنْ يكونَ مقدوراً له لَجازَ أنْ يكونَ موصوفًا به، تَعالى اللهُ عنْ ذلك علوًّا كبيراً، وقولُهم: "إنَّ الحكيمَ لا يُمتدَحُ إلا بما يَقدِرُ عَليه" ممنوعٌ؛ لأنَّهُ قدْ يُمتدَحُ الإنسانُ بحُسْنِ القامةِ والخُلُقِ الحَسَنِ الذي هو جِبلةٌ فيه وغريزةٌ له.

فإنْ قيلَ: "ظَلَّامٌ" مِنْ صِيَغِ المُبالغةِ فيُوهِمُ أنَّ المَنْفيَّ المُبالغةُ في الظلم وكثرتُهُ، لا هو من أصلِه؟! فالجوابُ مِنْ عدَّةِ أوجُه: أنَّ هذه الصيغةَ، وهِيَ صيغةُ "فَعَّال" قدْ تَأتي للنسبةِ كـ"تمّار"، فقولُه "بِظَلَّام" أيْ منسوبٍ لِلظلم، وذلكَ نفيٌ له من أصلِه، وبأنَّه وإنْ كانَ للكثرةِ لكنْ جيءَ به في مقابلةِ العبيدِ الذي هو جَمْعُ كثرةٍ، ويُرشِّحُه قولُه تَعالى: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، حيثُ قابلَ في الأوَّلِ المبالغةَ بالجمعِ، وفي الثَّاني صيغةَ اسمِ الفاعلِ الدالَّةَ عَلى أصلِ الفعلِ بالواحدِ، وبأنَّ صيغةَ المبالغةِ وغيرَها في صفاته تعالى سواءٌ في الإثباتِ، فجَرى النفيُّ عَلى ذلك، وبأنَّهُ تعريضٌ بأنَّ ثَمَّ ظُلَّامًا لِلعبيدِ من ولاةِ الجورِ.

وقالَ بعضُهم: صفاتُ اللهِ تعالى بلغَتْ غايةَ الكمالِ، فلوِ اتَّصلَ بالظلمِ كانَ عظيمًا بقاؤه عَلى حدِّ عظمتِهِ لو كان ثابتًا، أو أرادَ نَفْيَ أصلِ الظلمِ، لَكِنَّ القليلَ منه بالنِّسْبةِ إلى رحمتِهِ العامَّةِ الذاتيَّةِ كثيرٌ.

وقضيةُ هذا الحديثِ جوازُ إطلاقِ النَّفْسِ عَلى اللهِ تَعالى عَلى غيرِ وجه المشاكلةِ، وهو الصَّحيحُ، كما قالَ إمامُ الحرمينِ: بدليلِ ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وادعاءُ أنَّهُ مُشاكلةٌ تقديريَّةٌ تكلُّفٌ، وقولُ أهلِ المعاني: إنَّها لا تُطلَقُ عَليه إلا مُشاكلةً كقوله تعالى ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] غيرُ صحيح كما قالَ السبكيُّ، وجَمَعَ بعضُ المحققينَ بينَ القولَيْنِ فقالَ: النَّفْسُ لها معنيانِ، الذاتُ وهذا يَصِحُّ إطلاقُه من غيرِ مُشاكلةٍ، والجِسمُ وهذا لا يُطلَقُ عليه إلا مشاكلةً.

وقدْ قالَ الزمخشريُّ في قولِه تَعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]: النَّهْيُ يَتناولُ الانخراطَ في هواهُم والانقطاعَ إليهم ومصاحبتَهم وزيارتَهم ومداهنتَهم والرضا بأعمالِهم والتشبُّهَ بِهم والتزيي بزيهم، ومدَّ العينِ إلى زهرتِهم، وذِكْرَهم بما فيه تعظيمٌ لهم.

وتأمَّلْ قوله: ﴿ولا تركنوا﴾ فإنَّ الركونَ هو الميلُ إلى الظالمينَ. وحُكِيَ أنَّ الواثقَ صلَّى خلفَ الإمامِ، فقرأَ الإمامُ هذه الآيةَ فغُشِيَ عليه، فلمَّا أفاقَ قالَ: هذا فيمن رَكَنَ، فكيفَ بالظَّالِمِ؟!

وعنِ الحسنِ: جعلَ اللهُ الدِّينَ بينَ لاءيْن: ﴿ولا تركنوا﴾، ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢].

ولمَّا خالطَ الزهريُّ[1] السَّلاطينَ كتَبَ إليه أخٌ له في الدِّينِ: عافانا اللهُ وإيَّاكَ أبا بكرٍ مِنَ الفِتَنِ، فقدْ أصبَحْتَ بحالٍ يَنبغي لِمَنْ عرَفَكَ أنْ يَدعو لكَ ويرحمَكَ، أصبحتَ شيخًا كبيرًا، وقد أثقلتْكَ نِعَمُ اللهِ بما فهَّمكَ مِنْ كتابِهِ وعلَّمَكَ مِنْ سُنَّةِ نَبيِّه، وَاعْلَمْ أنَّ أيْسَرَ ما ارتكبْتَ وأخفَّ ما احتملْتَ أنَّكَ آنستَ وحشةَ الظالمِ وسهَّلْتَ سبيلَ الغَيِّ بدنوِّك ممن لم يؤدِّ حقًّا، ولمْ يتركْ باطلًا حتى أدناكَ، اتخذوكَ قطبًا تَدورُ عليكَ رحى باطلِهم، وجسرًا يَعبرونَ عليكَ إلى بلائِهم، وسُلَّمًا يَصعدونَ فيك إلى ضلالِهم، يُدخلونَ الشكَّ بكَ عَلى العلماءِ، ويَصطادونَ بكَ قلوبَ الجهلاءِ، فما أيْسَرَ ما عمَّروا منكَ في جنبِ ما خرَّبوا عليكَ، وما أكثرَ ما أخذوا منكَ مِمَّا أفسَدوا عليكَ مِنْ دينِكَ، فما يؤمِّنُك أنْ تكونَ مِمَّنْ قالَ اللهُ فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية [مريم: ٥٩]، وإنكَ تُعاملُ مَنْ لا يُهمِل، ويحفظُ عليكَ مَنْ لا يَغفلُ، فداوِ دينَكَ فقدْ دخلَهُ سقمٌ، وهَيِّئْ زادَكَ فقدْ حضرَ السفرُ البعيدُ، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، والسلامُ.

ورويَ أنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العزيزِ لما استُخلِفَ قالَ رعاءُ الشاءِ: هذا العبدُ الصالحُ الذي قامَ عَلى النَّاسِ، قيلَ لهم: وما عِلمُكم بذلكَ؟ قالوا: إذَا قامَ عَلى النَّاسِ خليفةٌ عدْلٌ كفَّتِ الذئابُ عنْ شِياهِنَا.

---

(١) الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، تابعي، من أهل المدينة ثم سكن الشام، من أول مَن دوَّن الحديث، توفي سنة ١٢٤. وفيات الأعيان (١٧٧/٤)، تذكرة الحفاظ (٨٣/١).

(وَجَعَلْتُهُ) أيِ الظلمَ (بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا) أيْ حكمتُ بتحريمِهِ علَيْكم، ومنعْتُكم منه، سواءٌ كانَ كأخذِ مالِ غيرِهِ أوْ لا كَظُلْمِ النَّفْسِ.

ورَوى الشَّيْخان: (الظلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ)[1]، وروِيَ أيضًا: (إنَّ اللهَ لَيُملي لِلظَّالمِ حتَّى إذَا أخذَه لمْ يُفلِتْهُ، ثُمَّ قرَأَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢])[2].

وروى البخاريُّ (مَنْ كانتْ منه مظلمةٌ لِأخيه فلْيستحلَّهُ منْها، فإنَّهُ ليسَ ثَمَّ دينارٌ ولا درهمٌ، مِنْ قبلِ أنْ يؤخذَ لأخيه مِنْ حسناتِهِ، فإنْ لمْ يكنْ له حسناتٌ أُخذَ مِنْ سيئاتِ أخيهِ فطُرِحَتْ عليهِ)[3].

وفي الحديثِ الصحيحِ: (أتدرونَ مَنِ المُفلِسُ مِنْ أُمَّتي؟ قالوا: يا رسولَ اللهِ، المفلسُ فينا مَنْ لا دينارَ له ولا مَتاعَ، قالَ: المُفلِسُ مِنْ أُمَّتي مَنْ أتى يومَ القيامةِ بصلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ، وقدْ شَتَمَ هذا وضَرَبَ هذا وأَخَذَ مالَ هذا، فيأخذُ هذا مِنْ حسناتِهِ وهذا من حسناتِه، فإنْ فنيتْ حسناتُه قبلَ أنْ يَقضي ما عَليه أُخِذَ مِنْ سيئاتهم فطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النارِ)[4].

وقالَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-: (مَنْ دَعا للظالمِ بالبقاءِ فقدْ أحبَّ أنْ يُعصى اللهُ في أرضِهِ)[5].

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٧) [كتاب المظالم والغضب- باب الظلم ظلمات يوم القيامة]، ومسلمٌ (٢٥٧٩) [كتاب البر والصلة الآداب- باب تحريم الظلم]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٦٨٦) [كتاب تفسير القرآن- باب قوله: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى..]، ومسلمٌ (٢٥٨٣)[كتاب البر والصلة الآداب- باب تحريم الظلم]، وغيرهما من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٩) [كتاب المظالم والغصب- باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، هل يبين مظلمته]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨١) [كتاب البر والصلة الآداب- باب تحريم الظلم]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٣٠) [باب الغيبة التي يحل لصاحبها الكلام بها]، والبيهقي في الشعب (٨٩٨٦)، وغيرهما عن الحسن البصري. وأخرجه أبو نعيم (٧/٤٦) [ترجمة سفيان الثوري] من كلام سفيان الثوري، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١١٢١): لم نره في المرفوع، ثم ذكره من كلام الحسن وسفيان، وذكر أحاديث ضعيفه في معناه.

ولما ظَلَمَ أحمدُ بنُ طولونَ استغاثَ النَّاسُ مِنْ ظُلمِه، وتوجَّهوا إلى السيدةِ نفيسةَ، وشَكوا ذلك إليْها، فقالتْ لهم: مَتَى يركَبُ؟ قالوا في غدٍ، فكتبَتْ رقعةً، ووقفتْ في طريقِه، وقالتْ: يا أحمدَ بنَ طولونَ، فلمَّا رآها عرفَها فنَزَلَ عنْ فرسِهِ وأخذَ منْها الرقعةَ وقرأَها، فإذا فيها مَلكْتم فأسَرْتم، وقدَرْتم فقهَرْتم، وخُوِّلْتم فعسَفْتم، ورُدَّتْ إليكم الأرزاقُ فقطَعْتم هذا، وقدْ علِمتُم أنَّ سهامَ الأسحارِ نافذةٌ غيرُ مخطئةٍ لا سيَّما مِنْ قلوبٍ قدْ أوْجعتُموها، وأكبادٍ أجعتُموها، وأجسادٍ عرَّيْتُموها، اعْمَلوا ما شِئتُم فإنَّا صابرونَ، وجوروا فإنَّا للهِ مُستجيرونَ، واظلموا فإنَّا للهِ متظلِّمونَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، قالَ: فعَدَلَ لوقتِه.

وهذا وما قبْلَه توطئةٌ لِقولِه: (**فَلَا تَظَالَمُوا**) بتخفيفِ الظاءِ، أصلُه "تَتَظَالَمُوا" فحُذِفتْ إحْدى التاءَيْنِ تخفيفًا، ويَجوزُ تشديدُ الظاءِ بإدغامِ الأخرى فيها، وزَعَمَ بعضُهم أنَّ الروايةَ أي لا يَظلِمْ بعضُكم بعضًا، فإنَّ اللهَ يَقتصُّ لِلمظلومِ مِنَ الظالمِ بقدرِ ظلامتِه، وفي الحديثِ: (يُنادي منادٍ يومَ القيامةِ أينَ الظلمةُ وأشياعُ الظلمةِ، حتى مَنْ لاقَ لهم دواةً أو برى لهم قَلَمًا، فيُجمَعونَ في تابوتٍ مِنْ حديدٍ فيُرمى بهم في جهنَّمَ)[1]، ورويَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: (مَنْ مَشى معَ مظلومٍ لِيُعينَهُ عَلى مَظلَمَتِه ثبَّتَ اللهُ قدمَيْه عَلى الصِّراطِ يومَ تزلُّ فيهِ الأقدامُ، ومَنْ مَشى معَ ظالمٍ لِيُعينَهُ عَلى ظُلْمِه أزلَّ اللهُ قدمَيْه على الصراطِ يومَ تَدحَضُ فيهِ الأقدامُ)[2].

وبعثَ عبدُ الرحمنِ بنُ مسلمٍ[3] إلى الضحاكِ[4] بعطاءِ أهلِ بُخارى، وقالَ: أعْطِهم، فقالَ: اعفِني، فلمْ يَزلْ يَستعفِه حتَّى أعْفَاهُ، فقالَ: ما عليكَ أنْ تُعطيَهم أنتَ ولا تزرأَهم شيئًا، فقالَ: إنِّي لا أُحِبُّ أنْ أُعينَ الظَّلمةَ عَلى شيءٍ مِنْ أمرِهم.

(١) أخرجه ابن بشران في أماليه (١٢٠٥) من حديث ابن مسعود، والديلمي في الفردوس (٩٨٩) عن أبي هريرة.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في التفسير (١٣/٨٠٤).

(٣) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم، وقيل عثمان، الخراساني، هازم جيوش الدولة الأموية، والقائم بإنشاء الدولة العباسية، من ولد بزرجمهر بن البختكان الفارسي، توفي سنة ١٣٧. تاريخ بغداد (١٠/٢٠٥)، وتاريخ دمشق (٣٥/٤٠٨)، وفيات الأعيان (٣/١٤٥).

(٤) أبو محمد الضحاك بن مزاحم الهلالي، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، وتوفي سنة ١٠٥. طبقات ابن سعد (٧/٣٦٩)، سير أعلام النبلاء (٤/٥٩٨).

فائدةٌ: إنْ قيلَ: أيُّ آيةٍ في كتابِ اللهِ أخوفُ؟ فالجوابُ قيلَ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقيلَ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، وقيلَ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، وقيلَ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وقيلَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقيلَ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقيلَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

***

إحسان الله إلى العباد وفقرهم إليه

قالَ الهيتمي: ولمَّا ذَكَرَ ما أوجَبَهُ مِنَ العدلِ وحرمةَ الظلمِ عَلى نفْسِه وعَلى عبادِه، أَتْبَعَهُ بِذكرِ إحسانِه إليهِمْ وغناهُ عنْهم وفقْرِهم إلَيْهِ، وأنَّهم لا يَقدِرونَ عَلى جَلْبِ منفعةٍ لِأنفسِهم، ولا دفْعِ مضرَّةٍ عنْهم إلَّا أنْ يَكونَ هو المُيَسِّرَ لِذلكَ، مُشيراً إلى أنَّ ذلكَ الجلبَ والدفعَ إمَّا في الدِّينِ أو الدُّنْيا فصارتْ أربعةَ أقسامٍ، وهي الهدايةُ والمغفرةُ، وهما جلبُ منفعةٍ ودفعُ مضرةٍ في الدِّينِ، والإطعامُ والكسوةُ، وهما جلْبُ منفعةٍ ودفعُ مضرةٍ في الدُّنيا، وأهمُّ هذهِ الأقسامِ طَلَبُ الهدايةِ، ولِذا افتتحَ بِها فقالَ:

(يَا عِبَادِي) كرَّرَ النداءَ زيادةً لِشرَفِهم وتعظيمِهم، **(كُلُّكُمْ ضَالٌّ)** أصلُ الضلالِ في اللُّغةِ الغَيْبوبَةُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبنِ إذا غابَ فيه، ومنه قولُ الرجلِ الذي قالَ لِبَنيه: "إذا متُّ فأحْرقوني ثُمَّ ذرُّوني في الرِّيحِ لَعلِّي أُضِلُّ ربِّي"، أيْ يَخفى موضِعي علَيهِ[1]، وضَلَّ الكافرُ إذَا غابَ عنِ الحُجَّةِ.

ومِنْ هذا قولُه ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] غِبْنا فيها بالموتِ، وصِرْنا تُرابًا، ومنه قولُه في الأنعامِ ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] يَعني غابَ عنْكم ذِكْرُ ما كنتم تَزعمونَ، وقالَ في الأنعامِ أيضًا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] يَعني غابَ عنهم ذِكْرُ الآلهةِ، ويُطلَقُ الضَّلالُ بِمَعْنى النِّسْيانِ، ومنه قولُه تعالى:

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٤٨١) [كتاب أحاديث الأنبياء]، ومسلمٌ (٢٧٥٦) [كتاب التوبة- باب في سعة رحمة الله تعالى]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ مرفوعا.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وبمعنى تَضِلُّ تغفُلُ وتَسْهو، وضَلَّ أيْ لَمْ يَهتدِ، يُقالُ: رجلٌ ضالٌّ إذا أخطأَ الطريقَ، ورجلٌ مُضَلَّلٌ إذا لم يَتوجَّهْ لِخيرٍ، قالَ الشَّاعرُ:

أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الدِّيَارُ * عَنِ الْحَيِّ الْمُضَلَّلِ أَيْنَ سَارُوا

وليْسَ المرادُ بالضلالِ المحبَّةَ، كما في قولِه تعالى حكايةً عنْ إخوةِ يوسفَ ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أيْ في محبَّتِكَ القديمةِ ليوسُفَ، وكما قال بعضُ المُفسِّرينَ في قولِهِ تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أيْ مُحبًّا له فهداكَ.

ويُطلَقُ الضلالُ بمعنى عدمِ العِلْمِ بتفصيلِ الأمورِ، وعليهِ حَمَلَ أكثرُ المفسرينَ قولَه تَعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أيْ غيرَ عالمٍ تفصيلَ شريعتِكَ.

وقولَه: "كلكم ضال" أيْ فاقدٌ طريقَ الهدايةِ أو سالكٌ طريقَ غيرِها مِنَ الضلالةِ، وهيَ فقدانُ طريقٍ يوصِّلُ إلى المطلوبِ، وقيلَ سلوكُ طريقٍ لا توصِّلُ إليه، وضلالُ الطريقِ العدولُ عن سمتِه.

(**إلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ**) الهدايةُ هي لغةً: الدلالةُ بلطفٍ، ولذا لا تستعملُ في غيرِ الخيرِ إلا تهكمًا كقولِه تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وفي عُرْفِ أهلِ الحقِّ: الدلالةُ عَلى طريقٍ يوصِّلُ إلى المطلوبِ حَصَلَ أو لَم يَحصُلْ، وعندَ المعتزلةِ: الدلالةُ الموصِّلةُ إليه، قالَ بعضُهم: ولا نزاعَ بيْنهم في الحقيقةِ؛ لأنَّ الهدايةَ تَجيءُ تارةً بمعنى خلقِ الاهتداءِ نحوَ ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٤٢] فلِهذا نفى الهدايةَ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وتارةً بمعنى بيانِ طريقِ الحقِّ، فلِهذا نُسِبَتِ الهدايةُ إليه ﷺ في قولِه تَعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وذكرَ الخازنُ في تفسيرِ قولِه تَعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] ما نصُّه: وقيلَ بالفرقِ بينَ البيانِ والهُدى والموعظةِ؛ لأنَّ العطفَ يَقتضي المغايرةَ، فالبيانُ هو الدلالةُ التي تفيدُ إزالةَ الشبهةِ بعدَ أنْ كانتْ حاصلةً، والهدى هو طريقُ الرشدِ المأمورُ بِسلوكِه دونَ طريقِ الغيِ، والموعظةُ هيَ الكلامُ الذي يُفيدُ الزجْرَ عمَّا لا يَنبغي في طريقِ الدِّينِ.

(**فَاسْتَهْدُونِي**) أي اطلُبوا مِنِّي الهدايةَ أيِ الدلالةَ الموصِّلةَ إلى طريقِ الحقِّ، (**أَهْدِكُمْ**) بفتحِ الهمزةِ وكسرِ الدَّالِ أيِ الطريقَ المستقيمَ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لا يَجب عَليهِ شيءٌ خِلافًا لِلمعتزلةِ في قولِهم بوجوبِ الصَّلاحِ والأَصْلَحِ عليهِ، تَعالى عمَّا يَقولونَ علوًّا كبيرًا.

(**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ**) لأنَّ الخلقَ مِلكُه ولا مِلْكَ لَهم بالحقيقةِ، وهو الرازقُ وخزائنُ الرزقِ بيدِه، وهم عبيدٌ لا يَملِكونَ شيئًا، فمَنْ لم يُطعِمْهُ بِفضلِهِ بَقِيَ جائعًا بعدلِهِ؛ إذْ ليْسَ عَلَيْهِ إطعامُ أحدٍ.

فإنْ قُلتَ: كيفَ هذا معَ قولِه -عزَّ وَجلَّ-: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]؟ فالجوابُ أنَّ هذا الالتزامَ منه تفضُّلٌ لا أنَّ عليهِ للدَّابةِ حقًّا بالأصالةِ؛ إذْ لا يَجبُ عليه شيءٌ، وشِبْهُ هذا قولُه تَعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، ولا يَمنعُ من نسبةِ الإطعامِ إليهِ تَعالى ما يُشاهَدُ مِنْ ترتُّبِ الأرزاقِ عَلى أسبابِها الظاهرةِ كالصنائعِ؛ لأنَّهُ المُقدِّرُ لَها بحكمتِهِ الباطنةِ، فالجاهلُ محجوبٌ بالظاهرِ عنِ الباطنِ، والكاملُ لا يَحجبُه ظاهرٌ عنْ باطنٍ ولا عكسُه، بلْ يُعطي كُلَّ مقامٍ وحالٍ حقَّهُ.

واعْلَمْ أنَّ المُقرَّرَ في علمِ الكلامِ:

- أنَّ مَنِ اعتقدَ أنَّ شيئًا مِنَ الأسبابِ العاديَّةِ يؤثِّرُ بِطبعِهِ أيْ بِذاتِهِ وحقيقتِهِ فهو كافرٌ إجماعًا،
- وأنَّ مَنِ اعتقدَ أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ فيها قوةً تؤثِّرُ فيها فهو فاسِقٌ مُبتدِعٌ، وفي كُفْرِهِ قولانِ،
- وأنَّ مَنِ اعتقدَ أنَّها لا تؤثِّرُ بِطبعِها ولا بقوةٍ جَعلَها اللهُ فيها، وإنَّما المؤثِّرُ هو اللهُ -عزَّ وَجلَّ- ولكنَّ التلازمَ بيْنها وبيْنَ ما قارَنَها عقليٌّ لا يُمكِنُ تخلُّفُهُ، فهذا جاهلٌ بحقيقةِ الحُكْمِ العاديِّ، وربَّما جرَّهُ ذلكَ إلى الكُفْرِ،
- وأنَّ مَنِ اعتقدَ حدوثَ الأسبابِ وأنَّها لا تؤثِّرُ بِطبْعِها ولا بقوَّةٍ جَعلَها اللهُ فيها، ويَعتقِدُ صِحَّةَ التخلُّفِ بأنْ يوجدَ السببُ العاديُّ ولا يوجدُ المسببُ، وأنَّ المؤثرَ في السببِ والمسببِ هو اللهُ تعالى فهو الموحِّدُ الناجي.

فائدتان

الأُولَى: وَرَدَ في الحديثِ أنَّ مِنَ الملائكةِ مَلَكًا له أربعةُ أوجهٍ، وجهٌ كوجهِ الإنسانِ، وهو يَسألُ اللهَ تعالى الرزقَ لِبَني آدمَ، ووجهٌ كوجهِ الأَسَدِ، وهو يَسألُ اللهَ الرزقَ لِلسِّباعِ، ووجهٌ كوجهِ الثَّوْرِ، وهو يَسألُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- الرزقَ لِلبهائمِ، ووجهٌ كوجهِ النَّسرِ، وهو يَسألُ اللهَ تعالى الرزقَ لِلطيرِ[1].

وأخرجَ الشيخانِ وغيرُهما: (المسلمُ يأكلُ في مِعًى واحدٍ، والكافرُ يأكلُ في سبعةِ أمعاءٍ)[2]. وأخرجَ مسلمٌ: أضافَ رسولُ اللهِ ﷺ ضيفًا كافرًا، فأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بشاةٍ فحُلِبَتْ فشَرِبَ حِلَابَهَا، ثم أُخْرَى فشَرِبَ حِلَابَهَا حتى شَرِبَ حِلَابَ سبعِ شياهٍ، ثُمَّ إنَّه أصبحَ فأسلَمَ، فأَمَرَ له رسولُ اللهِ ﷺ بشاةٍ فحُلِبَتْ فشَرِبَ حِلَابَهَا، ثم أخرى فلمْ يَستَتِمَّهُ، فقالَ ﷺ: (إنَّ المسلمَ يَشربُ في معاءٍ واحدٍ والكافرُ في سبعةِ أمعاءٍ)[3]. وأخرجَ البزَّارُ بسندينِ أحدُهما رجالُه ثِقَاتٌ: (أكثرُ الناسِ شبعًا في الدُّنيا أكثرُهم جوعًا يومَ القيامةِ)[4]، قالَهُ لِأبي جحيفةَ لما تجشَّأَ، قالَ: فما ملأْتُ بَطْني منذُ ثلاثينَ سنةً.

الثانيةُ: أخرجَ البيهقيُّ بسندٍ فيه ابنُ لهيعةَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: رآني رسولُ اللهِ ﷺ وقدْ أكلْتُ في اليومِ مرتَيْنِ، فقالَ: أما تُحِبِّينَ أنْ يَكونَ لكِ شغلٌ إلَّا جوفَكِ، الأكلُ في اليومِ مرتَيْنِ مِنَ الإسرافِ، واللهُ لا يُحِبُّ المسرفينَ[5]، وصحَّ خبرُ: (مِنَ الإسرافِ أنْ تأكلَ كُلَّ ما اشتهيتَ)[6].

---

(١) لم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٣٩٣) [كتاب الأطعمة- باب المؤمن يأكل في معي واحد]، ومسلمٌ (٢٠٦٠) [كتاب الأشربة- باب المؤمن يأكل في معي واحد]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٣) صحيح مسلم (٢٠٦٣) [كتاب الأشربة- باب المؤمن يأكل في معي واحد]، وغيره من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الجوع (١٩)، والطبراني في الأوسط (٨٩٢٩)، وغيرهم من حديث أبي جحيفة.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٥٢٥٣)، وفي سنده ابن لهيعة وهو صدوق اختلط بعد احتراق كتبه، انظر: التقريب لابن حجر (ت: ٣٥٦٣).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٣٣٥٢) [أبواب الأطعمة- باب من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت]، وأبو يعلى (٢٧٦٥) [مسند أنس]، وغيرهم من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا.

(فَاسْتَطْعِمُونِي) أيْ سَلونِي الإطعامَ، ولا يُغرَّنَّ ذا الكثرةِ ما في يدِه، فإنَّه لَيْسَ بحولِه ولا قوَّته، بل اللهُ تعالى هو المُتفضِّلُ عَلَيه.

تَنبيهٌ: الطعامُ وَرَدَ في القرآنِ عَلى وجوه:

الأولُ: الطعامُ الذي يأكُله الناسُ كقولِه تَعالى: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، وقالَ في الأنعام: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

الثاني: الذبائحُ كقولِه تعالى في المائدةِ: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] بِمعنى ذبائحِهم، وذبائحُكم حِلٌّ لَهم.

الثالثُ: الطعامُ بِمعنى السَّمَك كقولِه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦] بمعنى السَّمك.

الرابعُ: بِمعنى الشُّرْبِ كما في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣] أيْ شَربوا مِنَ الخمرِ قبلَ التحريم، وكقولِه تعالى في البقرةِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] يَعني ومَنْ لم يَشربْهُ فإنَّه مِنِّي.

فَيَنبغي له معَ ذلك أنْ لا يَغفلَ عنْ سؤالِ إدامةِ اللهِ نعمتَهُ عَلَيْه، لأنه قلَّما نفرتْ عنْ إنسانٍ فعادتْ إليه، كمَا قالَ ﷺ: (ما نفرتِ النِّعمةُ عنْ قوم فعادتْ عَلَيْهم)[١].

(أُطْعِمْكُمْ) أيْ أُيسِّرُ لَكُم أسبابَ تَحصيلِه؛ لأنَّ العالَمَ كُلَّه حيوانَه وجمادَه مُطيعٌ للهِ، فيُسخِّرُ السَّحابَ يَسقي في بعضِ الأمكنة، ويُحرِّكُ قلبَ فلانٍ لإعطاءِ فلانٍ، ويُحوِجُ فلانًا إلى فلانٍ لينالَ منهُ نفعًا. والإنسانُ وإنْ صَبَرَ عَلى الجوعِ لا بُدَّ له مِنَ الطعام، فقدْ كانَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي نعيم لا يأكلُ في الشهرِ إلا مرةً فأدخلَهُ الحجاجُ بيتًا وأغلقَهُ ثم فتحَهُ بعدَ خمسةَ عشرَ يومًا ظانًّا أنَّهُ ماتَ فوجدَهُ قائمًا يُصلِّي، فقالَ: تُصلِّي بغيرِ وضوءٍ؟ فقالَ: إنَّما يَحتاجُ إلى الوضوءِ مَنْ يَأكلُ ويَشربُ، وأنا عَلى الطهارةِ التي أدخلتَني عليها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣٥٣) [كتاب الأطعمة- باب النهي عن إلقاء الطعام]، والطبراني في "الأوسط" (٧٨٨٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤٥٥٧)، وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا، وفي إسناده الوليد بن محمد الموقري وهو ضعيفٌ جدًّا متروكٌ، انظر "تهذيب التهذيب لابن حجر" (١١/١٥٠).

وأَسَرَ الرومُ امرأةً في زمنِ سيفِ الدولةِ فهربَتْ ومشَتْ مائَتَيْ فرسخ لم تأكلْ شيئًا، فقالَ لها سيفُ الدولةِ: كيفَ قويتِ عَلى المشي؟ فقالتْ: كُلَّما جُعْتُ قرأتُ ﴿قل هو الله أحد﴾ ثلاثَ مراتٍ فأشبعُ.

وفي الحديثِ: لا يَدخلُ ملكوتَ السماءِ مَنْ مَلأَ بطنَهُ(1). وقالَ لعائشةَ: أديموا قرعَ بابِ الجنةِ يُفتحْ لكم، قالتْ: وكيفَ نُديمُ؟ قالَ: بالجوعِ والظمأِ(2)، وقالَ أيضًا: ما مِنْ عَمَلٍ أحبُّ إلى اللهِ مِنَ الجوعِ والظمأِ(3).

فَائِدَةٌ: قالَ الزمخشريُّ: لوْ سُئِلَ أهلُ القبورِ، ما سببُ قِصَرِ آجالِكم؟ لقالوا: التخمةُ. ولقدْ أحسَنَ القائلُ فيمَنْ كثُرَ أكلُهُ:

يُمِيتُ الطَّعَامُ الْقَلْبَ إِنْ زَادَ كَثْرَةً * كَزَرْعٍ إِذَا بِالْمَاءِ قَدْ زَادَ سَقْيُهُ

وأيُّ لَبِيبٍ يَرْتَضِي نَقْصَ عَقْلِهِ * بِأَكْلِ لُقَيْمَاتٍ لَقَدْ ضَلَّ سَعْيُهُ

(**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ**) كما نَزَلَ مِنْ بطنِ أُمِّهِ مُحتاجًا إلى الكسوةِ، (**إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي**) أي اسألوني الكسوةَ وهِيَ اللباسَ (**أَكْسُكُمْ**) بفتحِ الهمزةِ وكسرِ السينِ وضمِّها، أيْ أُيسِّرُ لكم الأسبابَ المُحصِّلةَ لَها.

ومما نُقِلَ عنْ حِكَمِ عيسى -عَلى نبيِّنا وعليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ-: ابنَ آدمَ أنتَ أسْوأُ بربِّكَ ظنًّا حينَ كنتَ أكملَ الناسِ عقلًا؛ لأنَّكَ تركتَ الحرصَ حينَ كنتَ صبيًّا محمولًا ورضيعًا مكفولًا، ثم ادَّرعته عاقلًا قدْ أصبْتَ رشدَكَ وبلغْتَ أشُدَّكَ.

وذَكَرَ اللباسَ والطعامَ لِشدَّةِ الحاجةِ إليهما؛ إذْ لا مندوحةَ عنْهما، بلْ هما أصلٌ مِنْ أمورِ الدِّينِ، وتكمُلُ بِهما منافعُه.

---

(1) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (2350) مرسلًا. وذكره الغزالي في الإحياء (80/3) عن ابن عباس، وقال الحافظ العراقي: لم أجده.

(2) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (82/3): "لم أجده"، وكذلك السبكي في الطبقات (334/6).

(3) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (80/3): "لم أجده"، وذكره السبكي في الطبقات (333/6) في الأحاديث التي لم يجد لها إسنادًا.

(**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ**) بضمِّ التاءِ وكسرِ الطاءِ عَلى الأشْهَرِ، أيْ تَفعلونَ الخطيئةَ عَمْدًا، ورويَ بفتحِ التاءِ والطاءِ عَلى وزنِ "تَقْرَؤُونَ"، ويُقالُ: خَطَأَ إذَا فَعَلَ ما يأثَمُ به، فهو خاطِئٌ، ومنه ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، ويُقالُ في الإثمِ أيضًا: أخْطَأَ، فهُمَا صحيحانِ، قالَهُ المؤلِّفُ، وزَعَمَ بعضُهم أنَّهُ لا يَجوزُ أنْ يكونَ هذا مِنَ الرُّباعيِّ؛ لأنَّ الفِعْلَ عنْ غيرِ عمدٍ، وهو لا يؤاخَذُ به لِحديثِ: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ والنِّسْيانُ)[1]، والكلامُ إنَّما هو فيما فيه إثمٌ بدليلِ "فَاسْتَغْفِرُونِي" بخلافِه مِنَ الثلاثيِّ فإنَّهُ يَكونُ عن عمدٍ، ونوزِعَ بأنَّا لا نُسلِّمُ أنَّ "أخْطَأَ" مُنحصِرٌ في الفعلِ من غيرِ قصدٍ، بلْ يأتِي بمعنى الثلاثيِّ أيضًا أي فَعَلَ الخطيئةَ عمدًا.

(**بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ**) قدَّمَ الليلَ لِشرفِهِ وأصالتِه؛ لأنَّهُ وقتُ العبادةِ والخلوةِ، ولأنَّ الظلمةَ هي الأصلُ، والنورُ طارئٌ عَلَيْها يسترها، ولأنَّ الشهورَ غُررُها الليالي.

وقولُهُ "باللَّيْلِ والنَّهارِ" مِنْ بابِ مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ أيْ يَصدُرُ مِنكم الخطأُ لا دائِمًا، بل مِنْ بعضِكم ليْلًا، ومِنْ بعضِكم نهارًا؛ إذِ الغالبُ أنَّ العبدَ لا يستغرقُ الدَّهْرَ كُلَّهُ في الخطايا.

(**وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعًا**) هو كقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وهو عامٌّ مخصوصٌ بما عدا الشركِ وما لا يَشاءُ اللهُ مغفرتَهُ لِقولِه تَعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وسببُ نزولِ الآيتَيْنِ ما رويَ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: أتى وحشيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا محمدُ أتيتكَ مُستجيراً فأجِرْني حتَّى أسمعَ كلامَ اللهِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: قدْ كنتُ أحِبُّ أنْ أراكَ عَلى غيرِ جواري، فلما أن أتيتَني مُستجيراً فأنتَ في جواري حتَّى تَسْمعَ كلامَ اللهِ، فأنزلَ اللهُ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إلى قولِه ﴿مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩]، فقالَ: قدْ فعلتُ هذا كُلَّهُ، أنا في جوارِكَ حتَّى أسمعَ كلامَ اللهِ، فأنزلَ اللهُ تَعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (رقم ٢٠٤٥) [باب طلاق المُكرَه والنَّاسي]، والطبرانيُّ في الكبير (١١/١٣٣)، وابن حِبَّان في صحيحه (الإحسان رقم ٧٢١٩) [باب فضلِ الأمَّة]، والحاكم في المستدرك (٢/٢١٦) [كتاب الطلاق]، وغيرهم من حديث ابن عبَّاس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا بلفظ: (إنَّ الله تجاوز عن أُمَّتي الخَطَأَ، والنِّسْيَانَ، وما اسْتُكْرِهُوا عليه...) الحديث. وصحَّحه الحاكم وغيره.

فقالَ: أرى شرطًا فلعلِّي لا أعمَلُ صالحًا، أنا في جوارِكَ حتى أسمعَ كلامَ اللهِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، قال: فلعلي مِمَّنْ لا يشاء اللهُ، أنا في جوارِكَ حتَّى أسمعَ كلامَ اللهِ، فأنزلَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، قالَ: نَعَمْ، الآنَ لا أرى شرطًا فأسلَمَ[1].

وقولُه: "وأَنَا أغْفِرُ الذنوبَ جميعًا" أوردَ الخبرَ مضارعًا لإفادةِ الاستمرارِ التجدُّديِّ، وعرَّفَ الذنوبَ بلامِ الاستغراقِ، وأكَّدَها بقولِه "جَميعًا" المفيدِ كُلٌّ مِنهما للعمومِ لِيقوَى الرجاءُ فلا يقنط أحدٌ.

(**فَاسْتَغْفِرُونِي**) أي اطلُبوا مِنِّي مغفرةَ ذنوبِكم، وأصلُ الغَفْرِ السَّتْرُ، وغفرتُ المتاعَ سَتَرْتُهُ، والمغفرةُ وقايةٌ تَستُرُ الرأسَ في الحربِ، وغفرانُ الذنبِ سَتْرُهُ.

(**أَغْفِر لَكُمْ**) لقولِه ﷺ: (لولا تُذنِبونَ وتَستغفرونَ لَذهَبَ اللهُ بِكم ولَجاءَ بقومٍ غيرِكم فيُذنِبونَ ويَستغفِرونَ فيُغفرُ لَهُمْ)[2].

قيل: ومَنْ لَازَمَ عَلى هذهِ الأشياءِ السبعةِ عاشَ سعيدًا وماتَ شهيدًا، أحدُها أنْ يقولَ عندَ ابتداءِ كلِّ شيءٍ: بسمِ اللهِ، وعندَ الفراغِ منه: الحمدُ للهِ، وإذَا رأى ما يكرَهُ قالَ: لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ، وإذا رأى ما يَستعظِمُ قالَ: لا إلهَ إلا اللهُ، وإذا أصابَتْهُ مصيبةٌ قالَ: إنا للهِ وإنا إليه راجعونَ، وإذَا أذنبَ ذنبًا قالَ: أستغفِرُ اللهَ، وإذا أرادَ أنْ يفعلَ فِعْلًا قالَ: إنْ شاءَ اللهُ، فيَنبغي للإنسانِ أنْ يُعوِّدَ لسانَهُ عَلَيْها.

وذُكِرَ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أنَّ إبليسَ -عَلَيْهِ لعنةُ اللهِ- لَقِيَ يحيى بنَ زكريا -عَلَيْهِ الصلاةُ والسلامُ- فقالَ له يحيى: أخْبرني عنْ طبائعِ بني آدمَ عندَكم، فقالَ إبليسُ: أما صنفٌ منهم فهُم مثلُكَ معصومونَ لا نَقْدِرُ منهم عَلى شيءٍ، وصنفٌ ثانٍ فهُمْ في أيدِينا كالكرةِ في أيدي

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٣٨)، والطبراني (١١/رقم ١١٤٨٠) بنحوه. وانظر "أسباب النزول" للواحدي (ص ٣٣٦).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٧٤٩) [كتاب التوبة- باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة]، وغيره من حديث أبي هريرة.

الصِّبْيانِ، وقدْ كفَوْنا أنفسَهم، والصنْفُ الثالثُ فهُمْ أشدُّ الأصنافِ علَيْنا نُقْبِلُ عَلى أحدِهم حتَّى نُدْرِكَ منه حاجَتَنا ثم يَفرُغُ إلى الاستغفارِ فيُفسِدُ علَيْنا ما أدْرَكْنا منهُ، فنحنُ لا نيأسُ منهُ، ولا نُدرِكُ حاجَتَنا منه[1].

***

(**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي**) بِضمِّ الضادِ وفتْحِها (**فَتَضُرُّونِي**) بحذفِ نونِ الإعرابِ في جوابِ النفيِ، (**وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**) أيْ لا يَلحقُني ضَرَرٌ ولا نَفْعٌ فتَضرُّوني أو تَنفَعوني، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]،

غنى الله عن العباد

وما اقتضاهُ ظاهرُ الحديثِ أنَّ ضرَّهُ أو نفْعَهُ غايةٌ لَكنْ لا يَبلُغُها العبادُ.. غيرُ مرادٍ، بلْ هو مؤولٌ بما ذُكِرَ، من بابِ قولِهِ: "ولا تَرى الضبَّ بِها يَنجحِرُ"، وقولِه: "عَلى لاحبٍ -أي طريقٍ- لا يَهتدي لِمنارِهِ"، أي لا ضبَّ فيها فلا انحجارَ، ولا منارَ فلا اهتداءَ، والمعنى هنا: لا يَتعلَّقُ بي ضرٌّ ولا نفعٌ فتَضرُّوني أو تَنفعوني.

قالَ بعضُ الكاملِينَ: وفي قولِه: "لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي ..." إلى آخرِه إشعارٌ بأنَّ ما تقدَّمَ مِنَ الهدايةِ والإطعامِ والكسوةِ والغفرانِ ليسَ لِدفْعِ ضررٍ ولَا لِجلْبِ نَفْعٍ بل بمحضِ فضلٍ.

(**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ**) سُمِّيَ الإنسانُ إنسًا لِظهورِهم وأنَّهم يَرتسمونَ أيْ يَتصورونَ، وسُمِّيَ الجنُّ جِنًّا لِاجتنانِهم.

قالَ في شرحِ المقاصدِ: والجِنُّ أجسامٌ لطيفةٌ هوائيَّةٌ تُشكَّلُ بأشكالٍ مُختلِفَةٍ، ويظهر منها أحوال عجيبة، والشياطينُ أجسامٌ ناريَّةٌ شأنُها إلقاءُ الناسِ في الفسادِ والغوايةِ، اهـ. والظاهرُ أنَّ المُرادَ كُلٌّ مِنهما، كما يدلُّ عليهِ السياقُ.

تَتِمَّةٌ: قالَ المؤلِّفُ: الجنُّ مَوجودونَ، وقدْ يَراهمْ بعضُ الآدميِّينَ، وأمَّا قولُه تَعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] فمحمولٌ عَلى الغالبِ، ولوْ كانتْ

(١) لم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

رؤيتُهم مُحالًا لَمَا قالَ ﷺ في الشَّيْطانِ الذي تَفلَّتَ عليْه في صلاتِه: (لقدْ هَمَمْتُ أنْ أربطَهُ حتَّى تُصبحوا تَنظرونَ إليهِ كلُّكم وتَلعبُ به غلمانُ المدينة)[١]، وقالَ القاضي عياضٌ: قيلَ: رؤيتُهم عَلى خِلقتِهم وصُوَرِهم الأصليَّةِ ممتنعةٌ لِظاهرِ الآيةِ إلَّا على الأنبياءِ -علَيْهم الصلاةُ والسلامُ- ومَنْ خُرِقَتْ له العادةُ، وإنَّما يَراهم بَنو آدمَ في غيرِ صورِهم كَمَا جاءَ في الآثارِ[٢]، قُلْتُ: هذهِ دعوى مجردةٌ فإنْ لَمْ يصِحَّ لها مُستَنَدٌ فهِيَ مردودةٌ، انتهى كلامُ المؤلِّفِ، وجزَمَ شيخُ الإسلامِ بِما جَزَمَ به المؤلِّفُ.

وقولُه: "إنسكم وجنكم" بيانٌ وتفصيلٌ بعدَ إجمالٍ.

(كَانُوا) كُلُّهم تقاةً بَررةً **(عَلَى أتْقى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي)** بِضَمِّ الْمِيمِ **(شَيْئًا)** لَفْظُ الترمذيِّ: (مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ)[٣] ولفظُ ابنِ ماجهْ: (لَمْ يَزِدْ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ)[٤]، قيلَ: أرادَ بأتقى قلبِ رجلٍ محمدًا ﷺ.

(يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ آخِرَكُمْ وَأَوَّلَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا) كُلُّهم عُصاةً فَجَرةً **(عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي)** بِضَمِّ الْمِيمِ **(شَيْئًا)**، ولفظُ ابنِ ماجه: (وَلَوِ اجْتَمَعُوا وَكَانُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي لَمْ يَنقصْ مِنْ مُلْكِي جَنَاحُ بعوضةٍ) أيْ لا يَنقُصُ مُلكُهُ بكفرِ الكافرينَ ولا بمعصيةِ العاصينَ، بَلْ مُلْكُهُ كاملٌ لا نقصَ فيه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، وأرادَ بـ"أفْجرِ قلب رجل" الشيطانَ، وهو من الجنِّ عندَ أكثرِ المُتكلِّمينَ.

***

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٦١) [كتاب الصلاة- باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد]، ومسلمٌ (٥٤١) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) يتصورون في صور الحيوانات والهوام: كما أخرج مسلم (باب قدر ما يستر المصلي) [كتاب الصلاة- باب قدر ما يستر المصلي] من حديث أبي ذرٍّ مرفوعًا: (الكلب الأسود شيطان). وأخرج أبو داود (٥٢٥٦) [كتاب الأدب- باب في قَتل الحيّات]، وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: (إن الهَوامَّ مِنَ الجنِّ، فمن رأى في بيتِه شيئاً فليُحَرِّجْ عليه ثلاثَ مرات، فإن عادَ فليقتُلْه، فإنه شيطانٌ).

(٣) سنن الترمذي (٢٤٩٥) [أبواب صفة القيامة].

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٥٧) [أبواب الزهد- باب ذكر التوبة].

(يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا) ولِلترمذيِّ وابنِ ماجه: (اجْتَمَعوا) (فِي صَعِيد وَاحِدٍ) الصعيدُ وجهُ الأرضِ وظاهرُها، أيْ أرضٌ واحدةٌ ومقامٌ واحدٌ، (فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ) منهُم (مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ) الذي أَعْطَيْتُهُ (مِمَّا عِنْدِي)، ولفْظُ الترمذيِّ وابنِ ماجه: (مِنْ مُلْكِي)، أيْ لأنَّ أمْرَه بينَ الكافِ والنُّونِ، إذا أرادَ شيئًا قالَ: كُنْ فيكونُ، وفي مسندِ البزارِ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ أنه قالَ: (خزائنُ اللهِ الكلامُ، إذا أرادَ شيئًا قالَ له: كُنْ، فكانَ)[1]، وليسَ المرادُ أنَّ هناكَ قولًا يتوقَّفُ عليهِ الإيجادُ، وإنَّما هو كنايةٌ عنْ وجودِه في أسرعِ وقتٍ عقِبَ تعلُّقِ الإرادةِ به، فعبَّرَ عنْ تلكَ السرعةِ بزمنِ "كُنْ"، إذْ لا يُمكِنُ أقلُّ منه في القولِ، ولا يُستنكَرُ العطاءُ الكثيرُ معَ عدمِ النقصِ، فالنارُ والعلمُ يُقتبَسُ مِنهُما، ولا يَنقصُ مِنهما شيئًا بلْ يَزيدُ العلمُ بالعطاءِ.

وقالَ القاضي: قيَّدَ السؤالَ بالاجتماعِ في مقامٍ واحدٍ؛ لأنَّ تزاحمَ السؤالِ مما يَضجَرُ منْهُ المسئولُ ويُدهِشُه، تَعالى اللهُ عنْ ذلك علوًّا كبيرًا، (إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ) بكسرِ الْميمِ وسكونِ الخاءِ المعجمةِ وفتحِ المثناةِ التحتيَّةِ أي الإبرةُ آلةُ الخياطِ (إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ) المحيطَ بالدُّنيا أيْ بالنسبةِ إلى رأيِ العينِ؛ إذْ هو في رأيِ العينِ لا يَنقصُ مِنَ البحرِ شيئًا، فكذلكَ الإعطاءُ مِنَ الخزائنِ الإلهيَّةِ لا يَنقُصها شيئًا البتةَ.

وهذا بظاهرِه يُخالِفُ قولَ الخَضِرِ لِموسى: ما نَقَصَ عِلْمي وعلمُكَ من عِلمَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- إلَّا كما يَنقصُ هذا العصفورُ الذي رأياهُ يشربَ مِنَ هذا البحرِ، فإنَّ شُرْبَ العصفورِ مِنَ البحرِ لا بُدَّ وأنْ يَنقُصَهُ شيئًا، وإنْ قَلَّ، والإبرةُ يَتعلَّقُ بها ما تَبْتَلُّ بِهِ، إلَّا أنَّهُ بحسبِ الرؤيةِ لا تنقُصُ شيئًا. ويُحكى أنَّ رجلًا سألَ ابنَ الجوزيِّ عنْ شُربِ العصفورِ مِنَ البحرِ؟ فقالَ: أَفمعَهُ شيءٌ يَضعُهُ فيهِ؟ وهذا جوابٌ عَلى جهةِ التحقيقِ، وقولُ الخَضِرِ لِموسى عَلى جهةِ التقريبِ. وأمَّا لو فرضْنا الوجودَ مملوءًا حَبًّا وأخذَ العصفورُ مِنْهُ واحدةً لَنَقَصَهُ بالضرورةِ لكنْ ليسَ ثَمَّ ما يَنقُصهُ.

---

(١) مسند البزار (١٠٠٨١)، وغيره.

ولفظُ الترمذيِّ: (إلَّا كَمَا لوْ مَرَّ أحدُكم بالبحرِ فغمسَ فيهِ إبرةً ثُمَّ رَفَعَها إليهِ)، ولفظُ ابنِ ماجهْ: (إلَّا كَمَا لوْ أنَّ أحدَكم مرَّ بشفةِ البحرِ فغمَسَ فيها إبرةً ثم نزعَها)، و"نقصَ" يُستعملُ لازمًا كـ"نَقصَ المالُ"، ومتعديًا نحوَ "نَقَصْتُ زَيْدًا حَقَّهُ"، وهو هُنا متعدٍّ؛ لأنَّ محلَّ "إذَا دَخَلَ البحرَ" نُصبَ به.

***

(**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ**) الضميرُ راجعٌ إلى ما يُفهَمُ مِنْ قولِه: "أتْقى قلبِ رجُلٍ" و"أفجَرِ قلبِ رجُلٍ"، وهي الأعمالُ الصالحةُ والقبيحةُ، أو هِيَ ضميرُ الشأنِ يُفسِّرُه (**أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا**) أي أضبطُها وأَحْفَظُهَا (**لَكُمْ**) بعِلْمي ومَلائكتي الحفظةِ لا لاحتياجٍ لهمْ بلْ ليكونوا شهداءَ بينَ الخالقِ وخلقِه، ولهذا (يُقالُ يومَ القيامةِ لبعضِ الناسِ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عليك حَسيبًا، وبالكرامِ الكاتبينَ شُهودًا)[1].

(**ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**) أيْ أعطيكم جَزاءَها وَافيًا تامًّا، خيرًا كانَ أوْ شرًّا، فحذَفَ المفعولَ الثانيَ وهو المضافُ فانقلبَ الضميرُ المخفوضُ المتَّصلُ بالإضافةِ معنويًّا مُنفصلًا، والتوفيةُ إعطاءُ الحقِّ عَلى التمامِ والكمالِ، والتوفيةُ تكونُ في الآخرةِ لقولِه تَعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] أو في الدُّنيا أيضًا لِمَا روي أنَّهُ ﷺ فسَّرَ ذلك بأنَّ المؤمنينَ يُجازَوْنَ بسيئاتِهم في الدُّنيا ويَدخلونَ الجنةَ بحسناتِهم، والكافرُ يُجازى بحسناتِه في الدُّنيا ويدخلُ النارَ بسيئاتِه[2].

(**فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا**) أيْ ثوابًا ونعيمًا أو حياةً طيبةً هنيئة، (**فَلْيَحْمَدِ اللهَ**) تَعالى عَلى توفيقِه للطاعاتِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وعدلَ عنِ التَّكلُّمِ إلى الغيبَةِ كما في ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ١-٢] تجديدًا لِنشاطِ السامعِ، واهتمامًا بذكرِ اسمِ اللهِ دونَ الضميرِ، وتفخيمًا لشأنِه وإيقاظًا للإصغاءِ.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٩) [كتاب الزهد والرقائق]، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٠٧٤٦)، وابن جرير في التفسير (١٢/٣٤٨) عن قتادة في تفسير قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

(**وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ**) أيْ شرًا، ولمْ يَذكرْهُ بلفظِهِ تعليمًا لَنا كيفيَّةَ الأدبِ في النُّطقِ بالكنايةِ عمَّا يُؤذي أو يُستَهْجنُ أو يُستَحى منهُ، أو إشارةً إلى أنَّه إذَا اجْتُنِبَ لفظُهُ فكيفَ فِعْلُه، (**فَلا يَلُومَنَّ**) بالنُّونِ للتحذيرِ، (**إلَّا نَفْسَهُ**) لِتفريطِهِ بِكسْبِهِ القبيحِ المترتِّبِ عَلَيْهِ ذَلِكَ؛ لأنَّ للعبدِ جزءًا اختياريًّا وإن كان بخلقِهِ تَعالى وإيجادِهِ عَلى وَفْقِ إرادتِه. والمعتزلةُ قالوا: "فلا يَلومَنَّ إلا نَفْسَهُ" مؤذِنٌ بأنَّ العبدَ هو الخالقُ لأفعالِه القبيحةِ، ورُدَّ بما وردَ شاهدًا بإسنادِ جميعِ الكائناتِ إلى اللهِ -تَعالى- ابتداءً، فالمَعْنى هنا فَلا يَلومَنَّ إلا نَفْسَهُ، حيثُ آثرتْ شهواتَها عَلى رِضا خالِقِها، فكفَرَتْ بأَنْعُمِهِ، ولمْ تُذعِنْ لأحكامِهِ وحكمِهِ فاستحقَّتْ أنْ يُعامِلَها بمظهرِ عدلِهِ، وأنْ يَحرِمَها مَزايا جودِهِ وفضْلِهِ.

(**رواه مسلمٌ**) في كتابِ الأدبِ، ورواهُ أيضًا أحمدُ والترمذيُّ وابنُ ماجهْ عنْ صحابيِّهِ المذكورِ[1]، ولِجلالتِهِ وعِظَمِ فَوائِدِهِ كانَ أبو إدريسَ راوِيهِ عنْ أبي ذرٍّ إذَا حدَّثَ به جَثَا عَلى رُكْبتَيْهِ تعظيمًا لَهُ.

***

(١) مسند أحمد (٢١٣٦٧) [مسند الأنصار- حديث أبي ذرٍّ]، وسنن الترمذي (٢٤٩٥) [أبواب صفة القيامة]، وابن ماجه (٤٢٥٧) [كتاب الزهد- باب ذكر التوبة].

الحديثُ الخامسُ والعشرونَ

٢٥. عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ ناساً من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالوا للنَّبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، ذهبَ أهلُ الدُّثورِ بالأُجورِ، يُصَلُّون كما نُصَلِّي، ويَصُومونَ كما نصومُ، ويَتصدَّقُونَ بفُضولِ أموالِهم، قالَ: أوَليسَ قد جعلَ اللهُ لكم ما تَصَّدَّقون؟ إنَّ لَكم بِكلِّ تسبيحةٍ صَدَقةً، وكلِّ تكبيرةٍ صَدقةً، وكلِّ تَحْميدةٍ صَدَقةً، وكلِّ تَهليلةٍ صَدَقةً، وأمرٍ بالمعروفِ صدقةً، ونهيٍ عَن المُنْكَرِ صَدَقةً، وفي بُضْعِ أحدِكم صدقةً، قالوا: يا رسولَ اللهِ، أَيأْتِي أَحدُنا شهوتَه ويكونُ له فيها أجرٌ؟ قالَ: أرَأيتُمْ لو وضَعَها في حرامٍ أكان عليه وِزرٌ؟ فكذلك إذا وضَعَها في الحلالِ كان له أجرٌ. رواهُ مسلمٌ.

(**عَنْ أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا**) هُمْ فقراءُ المهاجرينَ كما بيَّنَهُ في روايةِ البخاريِّ مِنْ حديثِ أبي هريرةَ[١]، وسُمِّي مِنْهم في روايةِ أبي داودَ أبو ذرٍّ[٢]، وفي روايةِ النسائيِّ: أبو الدرداءِ[٣]، قالَ في الفتحِ: والظاهرُ أنَّ أبا هريرةَ مِنهم، وكذا زيدُ بنُ ثابتٍ، ولا تَنافِيَ بيْنَ روايةِ فقراءِ المهاجرينَ وعَدِّ زيدٍ معَ أنَّهُ أنصاريٌّ لِاحتمالِ التغليبِ، (**مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ**) الأصحابُ جَمْعُ صاحبٍ، وهو لغةً: مَنْ بيْنَكَ وبيْنَهُ مواصلةٌ -وإنْ قلَّتْ-، وعُرفًا: قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ: مَنْ لَقِيَ النبيَّ ﷺ مؤمنًا بِهِ وماتَ عَلى ذلكَ.

---

(١) متفقٌ عليها؛ أخرجها البخاريُّ (٨٤٣) [كتاب الأذان- باب الذكر بعد الصلاة]، ومسلمٌ (٥٩٥) [المساجد ومواضع الصلاة- باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته]، وغيرهما.

(٢) جاء في الأصل المخطوط والمطبوع "أبو بكر" ولعله تصحيف، والصحيح "أبو ذر" كما هو ثابت في رواية أبي داود (١٥٠٤) [أبواب فضائل القرآن- باب التسبيح بالحصى]، وعبارة الحافظ في الفتح: "سمي منهم في رواية محمد بن أبي عائشة عن أبي هريرة أبو ذر الغفاري أخرجه أبو داود ...، وسمي منهم أبو الدرداء عند النسائي وغيره من طرق عنه، ... والظاهر أن أبا هريرة منهم".

(٣) السنن الكبرى للنسائي (٩٨٩٩) [كتاب عمل اليوم والليلة].

المراد باللقاء في تعريف الصحابي

والمُرادُ باللِّقاءِ ما هو أعمُّ مِنَ المُجالسةِ والمُماشاةِ ووصولِ أحدِهما إلى الآخرِ، وإنْ لم يكلِّمْهُ، ويَدخُلُ فيه رؤيةُ أحدِهما لِلآخَرِ، وهو أَوْلى مِنْ قولِ بعضِهم "مَنْ رأى"؛ لأنَّهُ يُخرِجُ ابنَ أمِّ مكتومٍ ونحوَهُ مِنَ العميانِ، وهمْ صحابةٌ بِلا تردُّدٍ، وقولُه: "مُؤمِنًا بِهِ" يُخرِجُ مَنْ لَقِيَهُ كافرًا ثم أسلَمَ بعدَ موتِهِ كرسولِ قيصرَ، ومَنْ لَقِيَهُ مُؤمنًا بغيرِه فقطْ مِنَ الأنبياءِ، ونَقَلَ شيخُ الإسلامِ: إنَّ في كلامِ ابنِ حجرٍ ما يدلُّ عَلى أنَّهُ لَقِيَهُ في حالِ نُبوَّتِهِ، وحينئذٍ فَيُخرِجُ مَنْ لَقِيَهُ مؤمنًا بأنَّهُ سيُبعَثُ، ولَمْ يُدرِكِ البعثةَ، كزيدِ بنِ عمرِو بنِ نفيلٍ، وعدَّهُ ابنُ مَنْدَهْ في الصحابةِ، قالَ شيخُ الإسلامِ: ولا بُدَّ أنْ يَكونَ اللقا قبلَ وفاتِهِ لِيَخرُجَ مَنْ لَقِيَهُ بعدَها، كما وَقَعَ لِأبي ذؤيب خويلدِ بنِ خالدٍ الهذليِّ.

واشترطَ شيخُ الإسلامِ أيضًا في اللاقي أنْ يَكونَ مميِّزًا فيخرجُ عبدُ اللهِ بنُ عديٍّ بنِ الخيارِ الذي أُحْضِرَ إِلَيْهِ -عَلَيْهِ الصلاةُ والسلامُ- غيرَ مميزٍ، ومَنْ حنَّكَهُ مِنَ الأطفالِ كعبدِ اللهِ بنِ الحارثِ بنِ نوفلٍ[١]، وعبدِ اللهِ بنِ طلحةَ الأنصاريِّ[٢]، أوْ مَسَحَ وجْهَهُ كعبدِ اللهِ بنِ ثعلبةَ[٣] ابنِ صعيرٍ[٤]، فهؤلاءِ لهم رؤيةٌ، وليسَ لهم صحبةٌ، وهو ظاهرُ كلامِ أبي زرعةَ الرازيِّ وأبي حاتمٍ وأبي داودَ، وجَزَمَ ابنُ قاسمٍ تلميذُ المحليِّ في شرحِ جمعِ الجوامعِ بِعدمِ اشتراطِ التمييزِ، وبه جزمَ السنهوريُّ[٥] مصرِّحًا بأنَّ فيه خلافًا.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/٥٧)، وغيره.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٤٧٠) [كتاب العقيقة- باب تسمية المولود... وتحنيكه]، ومسلمٌ (٢١٤٤) [كتاب الآداب- باب استحباب تحنيك المولود..]، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٠٠) [كتاب المغازي] وغيره، وقال الحاكم في المستدرك (٣/٢٧٩) [كتاب معرفة الصحابة]: وعبد الله بن ثعلبة بن صعير بن أبي صعير العدوي ولد قبل الهجرة بأربع سنين وحمل إلى رسول الله ﷺ فمسح وجهه وبرك عليه عام الفتح، وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن أربع عشرة.

(٤) جاء في المطبوع "ظفر"، وفي المخطوط "ضفر"، والصواب -والله أعلم- "صعير" كما في الاستيعاب لابن عبدالبر، والإصابة لابن حجر.

(٥) الشيخ الفقيه المحدِّث مفتي المالكية أبو النجا سالم بن محمَّد السنهوري، وُلد بسنهور سنة (٩٤٥) وتعلَّم في القاهرة، من مصنفاته حاشية على مختصر الشيخ خليل، سماه (تيسير الملك الجليل لجمع الشروح وحواشي خليل)، ورسالة في ليلة نصف شعبان، وشرح رسالة الوضع، توفي سنة (١٠١٥). انظر: نيل الابتهاج (١/١٩١)، والأعلام (٣/٧٢)، وشجرة النور (رقم ١١٢٧).

وأمَّا مَن ارتدَّ بعدَ صحبَتِه فقضيةُ مذهبِ مالكٍ إحباطُ العملِ بمجردِ الرِّدَّة؛ لأنَّهم يَرونَ إحباطَ العملِ بها، فَلا يُسمَّى صَحابيًّا إلا إذا عادَ إلى الإسلامِ ولَقِيَ النبيَّ ﷺ كعبدِ اللهِ بنِ سرحٍ. وقضيةُ مَنْ لا يَرى الإحباطَ إلا بالموتِ كالشَّافعيَّةِ أنَّهُ يُسَمَّى صحابيًّا إذا عادَ للإسلامِ بعدَ موتِهِ ﷺ كما في الأشعثِ بنِ قيسٍ فإنَّه ارتدَّ وأُتِيَ به أسيرًا لأبي بكرٍ فعادَ للإسلامِ فقَبِلَ منه وزوَّجَهُ أختَهُ.

والظَّاهرُ اشتراطُ رؤيتِهِ في عالمِ الشهادةِ فلا يُطلَقُ اسمُ الصحبةِ عَلى مَنْ رآهُ مِنَ الملائكةِ والنبيِّينَ، واستشكلَ ابنُ الأثيرِ ذِكْرَ مؤمني الجنِّ في الصَّحابةِ دونَ مؤمني الملائكةِ وهمْ أَوْلَى بالذكرِ مِنْ هؤلاءِ، وأُجيبَ بأنَّ الجنَّ مِنْ جُملةِ المُكَلَّفينَ الذينَ شَملَتْهم الرسالةُ والبعثةُ، فكانَ ذِكْرُ مَنْ عُرِفَ اسْمُهُ مِمَّنْ رآه حسنًا بخلافِ الملائكةِ، والظاهرُ أنَّ عِيسى يُطلَقُ عَلَيْهِ اسمُ الصُّحْبَةِ أيضًا؛ لأنَّهُ رآه في الأرضِ.

***

(قَالُوا لِلنَّبِيءِ) بالهمزِ مِنَ النبأ، وهو الخبرُ، وعلَيهِ فَ"فَعِيلٌ" يَحتمِلُ أنْ يَكونَ بمعنى مفعولٍ؛ إذْ هو مُنبَّأ بالغيوبِ، أو بمعنى فاعلٍ أو مُفعِلٍ؛ إذْ هو مُنبِّئٌ بما أطلَعَهُ اللهُ عليْه، ويَصِحُّ تركُ الهمزِ في هذينِ الوجهينِ تَسهيلًا، وأمَّا في لُغةِ مَنْ لا يَهمِزُه فهو مأخوذٌ مِنَ النَّبْوةِ بفتحِ النونِ، وهيَ ما ارتفعَ مِنَ الأرضِ، يُقالُ: نَبَأَ الشيءُ إذَا ارتفعَ، فالمَعْنى عَلى هذا أنَّ النبيَّ مرفوعُ الرتبةِ.

ونَهيُهُ ﷺ عنِ المهموزِ بقولِهِ: لا تَقُولوا يا نَبِيءَ اللهِ -بالهمزِ-، بلْ قولوا يا نَبِيَّ اللهِ -بلا همزٍ-[1]؛ لأنَّهُ قدْ يَرِدُ بمعنى الطريق، فخشِيَ ﷺ في الابتداءِ سبْقَ هذا المعنى إلى بعضِ الأذهانِ، فنَهاهم عنهُ، فلمَّا قَوِيَ إسلامُهم وتواترتْ به القراءاتُ نُسِخَ النَّهْيُ عنه لِزوالِ سبَبِهِ.

(ﷺ، يا رسولَ اللهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ) الذهابُ المضيُّ، ويُستعمَلُ في المعاني والأعيانِ، يُقالُ "ذَهَبَ في الأرضِ ذَهابًا": مَضى، و"ذَهَبَ مذهبَ فلانٍ": قَصَدَ قصْدَه وطريقتَهُ، و"ذَهَبَ

(١) أخرجه الحاكم وصحَّحه (٢/٢٣١) [كتاب التفسير] من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيء الله. فقال رسول الله ﷺ: لست بنبيء الله، ولكني نبي الله.

في الدينِ مذهبًا": رأى فيه رأيًا، وأحدَثَ فيه بدعةً، والدُّثورُ بِضمِّ الدَّالِ المهملةِ والمثلثةِ جَمْعُ دَثْرٍ بفتحٍ فسكونٍ كفُلوسٍ جَمْعِ فَلْسٍ، وهو المالُ الكثيرُ، قالَ الخطابيُّ: وَقَعَ في روايةِ البخاريِّ "أهلُ الدُّورِ"(١)، وجرى عليْهِ صاحبُ المطالعِ، وهو غَلَطٌ والصوابُ "الدُّثورُ"، هكذا رواهُ النَّاسُ كُلُّهم.

(**بالأُجورِ**) جَمْعُ أَجْرٍ، وهو ما يَعودُ عَلى الإنسانِ مِنْ ثوابِ عَملِه الدنيويِّ أو الأُخرويِّ، والمرادُ هنا الثاني، ولا يُقالُ إلا في النَّفْعِ دونَ الضُّرِّ بخلافِ الجزاءِ، وروايةُ البُخاريِّ (بالدَّرَجاتِ العُلا والنعيمِ المقيمِ)(٢)، واحترزَ بالمقيمِ عن العاجلِ؛ فإنه قلَّما يَصفو وإنْ صَفَا قليلًا أعقَبَهُ الكدَرُ والزوالُ.

وزادَ البخاريُّ في الدعواتِ(٣): قالَ: وكيفَ ذلكَ؟ قالوا: (**يُصَلُّونَ كما نُصلِّي ويَصومونَ كما نَصومُ**) زادَ في حديثِ أبي الدرداءِ(٤): (ويَذكرونَ كما نَذْكُرُ)، (**وَيتصدَّقونَ بِفُضُولِ أمْوالِهِمْ**) أيْ بأموالِهم الفاضلةِ عنْ كفايتِهم، وقيَّدوا بذلكَ بيانًا لفضلِ الصدقةِ فإنَّها بغيرِ الفاضلِ عنِ الكفايةِ مكروهةٌ بلْ قدْ تَحرُمُ لِحديثِ: (كَفى بالمرءِ إثمًا أنْ يُضيِّعَ مَنْ يعولُ)(٥).

ولفظُ البخاريِّ في الدعواتِ: (وأَنْفَقُوا منْ فضولِ أموالِهم، وليسَ لنا أموالٌ)(٦)، ولِمُسلمٍ في الصلاةِ (ويَتصدقونَ ولا نَتصدَّقُ ويَعتِقونَ ولا نَعْتِقُ)(٧).

---

(١) انظر فتح الباري (٢/٣٢٧).

(٢) متفقٌ عليها؛ أخرجها البخاريُّ (٨٤٣) [كتاب الأذان- باب الذكر بعد الصلاة]، ومسلمٌ (٥٩٥) [المساجد ومواضع الصلاة- باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٢٩) [كتاب الدعوات- باب الدعاء بعد الصلاة]، وغيره.

(٤) أخرجه الطيالسي (١٠٧٥)، والسنن الكبرى للنسائي (٩٨٩٨) [كتاب عمل اليوم والليلة].

(٥) أخرجه بهذا اللفظ: النسائي في "الكبرى" (٩١٣١) [كتاب عشرة النساء- إثم مَن ضَيَّع عياله]، والحاكم في "المستدرك" (٤/٥٠٠) [كتاب الفتن والملاحم]، وغيرهما. وأخرجه أبو داود (١٦٩٢) [كتاب الزكاة- باب في صلة الرحم]، من حديث: عبد الله بن عمرو ولفظه: (... أن يضيع من يقوت). وأخرجه مسلمٌ (٩٩٦) [كتاب الزكاة- باب فضل النفقة على العيال]، من حديث عبد الله بن عمرو ولفظه: (كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمَّن يملك قوته).

(٦) صحيح البخاري (٦٣٢٩) [كتاب الدعوات- باب الدعاء بعد الصلاة]، وغيره.

(٧) صحيح مسلمٌ (٥٩٥) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته].

وقولُهم ذلك لَيْسَ حسدًا، بلْ تحسُّرًا عَلى ما فاتَهم مِنَ الصَّدَقَةِ والبرِّ مما لا يَقدِرونَ عَلَيْهِ وتَعذَّرَ عَلَيْهم فِعلُه لِفرَطِ حِرصِهم وقوةِ رغبتِهم في العملِ الصالحِ ظنًّا منْهم أنَّ الصدقةَ لا تكونُ إلا بالمالِ!

فأرشدَهم المصطفى إلى أنَّ بكلِّ نوعٍ صدقةً حيثُ (**قَالَ**) لَهُمْ جوابًا عنْ ذلك تطمينًا لِخاطرِهم وتقريرًا لِكونِهم ربَّما ساووا الأغنياءَ: (**أَوَلَيْسَ**) الهمزةُ للإنكارِ، وليسَ بمعنى "لَا" أيْ لا تَقولوا ذلكَ فإنَّه (**قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ**) -بتشديدِ الصادِ والدَّالِ كما هو الروايةُ- وأصلُه "تَتصدَّقونَ" فأُدْغِمَتْ إحْدَى التاءينِ في الصادِ بعدَ قلْبِها صادًا، وقدْ تُحذَفُ إحداهما فتُخَفَّفُ الصادُ، وحَذَفَ صلةَ "تَصَّدَّقُونَ" وهو الجارُّ والمجرورُ للعلمِ به.

تعدد أشكال الصدقة

وقدْ رويَ أنه -علَيْهِ الصلاةُ والسلامُ- قالَ: (مَنْ كانَ له مالٌ فلْيَتصدَّقْ منْ مالِه، ومَنْ كانَ له قوتٌ فلْيتصدَّقْ منْ قوتِه، ومَنْ كانَ له عِلْمٌ فليتصدَّقْ منْ عِلْمِه)[1]. وعنْهُ أيضًا: (أفضلُ الصَّدَقةِ صدقةُ اللِّسانِ، قيلَ يا رسولَ اللهِ وما صدقةُ اللِّسانِ؟ قالَ: الشفاعةُ تَفُكُّ بها الأسيرَ، وتَحقِنُ بِها الدَّمَ، وتَجُرُّ بها المعروفَ والإحسانَ إلى أخيكَ وتدفعُ عنه الكريةَ)[2].

وعنه أيضًا: (تبسُّمُكَ في وجهِ أخيكَ صدقةٌ، وأمرُكَ بالمعروفِ ونَهْيُكَ عنِ المنكرِ صدقةٌ، وإماطَتُكَ الحَجَرَ والشوكةَ والعَظْمَ عنِ الطريقِ صدقةٌ، وإفراغُكَ مِنْ دلوِكَ في دلوِ أخيكَ صَدقةٌ)[3].

(**إِنَّ بِكُلِّ تَسبيحَةٍ**) أيْ قولِ "سبحانَ اللهِ"، ومعناهُ تنزيهُ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ بِهِ منْ كُلِّ نقصٍ فيلزَمُ نفيُ الشريكِ والصاحبةِ والولدِ وجميعِ الرَّذائلِ، (**صَدَقَةٌ**) أيْ حسنةٌ.

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم (٢/٦٨٦) وعزاه لابن مردويه عن ابن عمر مرفوعًا، وقال: ولعله موقوف، وأخرجه ابن السني مختصرًا كما في كنز العمال (٢٩٢٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني (٧/رقم ٦٩٦٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٧٩)، والبيهقي في الشعب (٧٢٧٧)، وغيرهم من حديث سمرة بن جندب بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٥٦) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في صنائع المعروف]، والبزار (٤٠٧٠) [مسند أبي ذر]، وغيرهما من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الترمذي: حسن غريب، وفي الباب عن ابن مسعود، وجابر، وحذيفة، وعائشة، وأبي هريرة.

وعنْ خالدِ بنِ عُمَرَ أنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ عَلى أصحابِه فقالَ: خُذوا جنَّتَكم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ مِنْ عدوٍّ حَضَرَ، قالَ: بَلْ مِنَ النَّارِ، قالوا: وما جنَّتُنا مِنَ النَّارِ؟ قالَ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ، فإنَّهنَّ يأتينَ يومَ القيامةِ مُقدِّماتٍ ومُنْجياتٍ ومُعقِّباتٍ، وهنَّ الباقياتُ الصالحاتُ(١).

ومَعنى قولِه: "مُقدِّماتٍ" أنَّها تُقدِّمُ صاحبَها إلى الجنةِ، و"مُنجياتٌ" تُنجيه مِنَ النَّارِ، و"مُعقِّباتٌ" حافظاتٌ، والباء في قولِه "بِكُلِّ تسبيحةٍ" سبَبِيَّةٌ، ويَجوزُ أنْ تكونَ ظرفيَّةً مجازًا، فكأنَّ التسبيحةَ لمَّا كانتْ سببًا لها جُعلَتْ ظرفًا لَها، فتَشبيهُها بالظرفِ استعارةٌ مكنيَّةٌ، وإثباتُ ما هو مِنْ خواصِّ الظرفِ لها تخييلٌ بأنَّها مِنْ جنسِه تناسبًا لِلتشبيهِ، كما شبَّهَ الجذعَ لِتمكُّنِ المصلوبِ به في ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] استعارةٌ مكنيةٌ، وأثبتَ لَها ما هو مِنْ خواصِّه تخييلًا.

وقولُهُ: "صَدَقَةً" بالنَّصبِ اسمُ "إنَّ"، و"بِكُلِّ" مُتعلِّقٌ بجارٍّ ومجرورٍ هو الخبرُ المحذوفُ، تقديرُهُ "لَكُمْ"، وليْسَ بخبرٍ لِعدمِ الفائدةِ.

(وكُلِّ تَكْبِيرَةٍ) أيْ قولِ "اللهُ أكبرُ" **(صَدَقَةٌ)**، فيه وما بعدَهُ وجهانِ -كما قالَ ابنُ فرحٍ- الرفعُ عَلى الاستئنافِ، والنَّصبُ عطفًا عَلى صدقةٍ، وهو الأجودُ.

(وكُلِّ تَحْمِيدَةٍ) أيْ قولِ كُلِّ مَا اشتُقَّ مِنْ مَادَّةِ الحَمْدِ كـ"الحمدُ للهِ"، و"أَحْمَدُ اللهَ"، و"نَحمَدُ اللهَ"، و"حمدْتُ اللهَ"، ونحوِ ذلك **(صَدَقَةٌ)** وَتسميةُ هذا وما قبْلَهُ وما بعدَهُ صدقةً مِنْ مجازِ المشابهةِ أيْ أجرًا كأجرِ الصدقةِ، فحَذَفَ كافَ التشبيهِ لِلمبالغةِ، ثُمَّ حذَفَ أجرًا فبَقِيَ "أجرُ صدقةٍ"، ثُمَّ حُذِفَ المضافُ، وأُقيمَ المضافُ إلَيْه مقامَهُ وأُعرِبَ بإعرابِه، وقيلَ: معناهُ أنَّها صدقةٌ عَلى نفْسِه.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٦١٧) [كتاب عمل اليوم والليلة]، والطبراني في الأوسط (٣١٧٩) [باب الباء- من اسمه بكر]، والحاكم (٥٤١/١) [كتاب الدعاء]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(**وكُلُّ تَهْلِيلَةٍ**) أيْ قولِ "لا إلهَ إلا اللهُ" (**صَدَقَةٌ**) قالتْ أمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالبٍ: كنتُ آتي رسولَ اللهِ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ علِّمْني شيئًا أقولُه وأنا جالسةٌ، فقالَ: قولي "اللهُ أكبرُ" مائةَ مرةٍ، خيرٌ لكِ مِنْ مائةِ بدنةٍ مجللةٍ متقبلةٍ، وقولي "سبحانَ اللهِ" مائةَ مرةٍ، خيرٌ لكِ مِنْ مائةِ فرسٍ في سبيلِ اللهِ، وقولي "الحمدُ للهِ" مائةَ مرةٍ، خيرٌ لكِ مِنْ مائةِ رقبةٍ مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ تعتقينَهم، وقولي "لا إلهَ إلا اللهُ" مائةَ مرةٍ، لا يدركُها شيءٌ ولا يسبقُها[1].

وفي روايةِ أحمدَ والنسائيِّ أنَّهُ ﷺ قالَ لأمِّ هانئٍ: (سبِّحي اللهَ مائةَ تسبيحةٍ فإنَّها تَعدلُ مائةَ رقبةٍ مِنْ ولدِ إسماعيلَ، واحمدي اللهَ مائةَ تحميدةٍ فإنَّها تعدلُ مائةَ فرسٍ مُلجَّمةٍ مسروجةٍ تَحملينَ عليْها في سبيلِ اللهِ، وكبِّري اللهَ مائةَ تكبيرةٍ، فإنَّها تعدلُ لكَ مائةَ بدنةٍ مقلدةٍ متقبَّلةٍ، وهلِّلي اللهَ مائةَ تهليلةٍ، -ولا أحسبُ إلا قالَ- تملأُ ما بينَ السماءِ والأرضِ، ولا يُرفَعُ يومئذٍ لأحدٍ مثلُ عملِكِ إلا أنْ يَأتيَ بمثلِ ما أتيتِ به)[2]، وفي الحديثِ أيضًا: (مَنْ كبَّرَ مائةً، وسبَّحَ مائةً، وهلَّلَ مائةً كانَ له خيرٌ مِنْ عشرِ رقابٍ يعتقُها، ومِنْ سبعِ بدناتٍ يَنحرُها)[3].

وعنِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قالَ: إنِّي أُحدِّثُكم حديثًا أنبأْتُكم بمِصْدَاقِهِ مِنْ كتابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ما مِنْ عبدٍ مؤمنٍ يَقولُ خمسَ كلماتٍ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، وتباركَ اللهُ، إلا أخذَهنَّ مَلَكٌ فجعلَهُنَّ تحتَ جناحِهِ ثم يَصعَدُ بهنَّ فلا يَمُرُّ بهنَّ عَلى جمعٍ مِنَ الملائكةِ إلا اسْتَغْفَروا لِقائلِهنَّ حتَّى تَجيءَ بها وجهَ ربِّ العالمينَ، ومصداقُهُ مِنَ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠][4].

(**وَأَمْرٌ**) نكَّرَهُ إيذانًا بأنَّ كُلَّ فردٍ مِنْ أفرادِهِ صدقةٌ، وكذا "نَهْيٌ" ولَوْ عُرِّفَا لَاحْتَمَلَ أنَّ "ال" استغراقيَّةٌ أو عهديَّةٌ، فلا يُفيدُ النصَّ عَلى ذلكَ، وهو إمَّا مجرورٌ أو مرفوعٌ لِمَا سَلَفَ، وعَلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٣٩٣) [مسند القبائل- من حديث أم هانئ] والطبراني (١٠/رقم ١٠٦١)، وغيرهما.

(٢) مسند أحمد (٢٦٩١١) [مسند النساء- حديث أم هانئ]، وسنن النسائي (١٠٦١٣) [كتاب عمل اليوم والليلة- ثواب من سبح الله مائة تسبيحة..].

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٣٦) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) أخرجه الحاكم (٢/٤٢٥) [كتاب التفسير]، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٦١٦)، وغيرهما.

الثاني سُوِّغَ الابتداءُ بِهِ لِكونِهِ عامِلًا في الجارِّ والمجرورِ، وكذا "نهيٌ". (**بالمَعْروفِ**) عرَّفَهُ إشارةً لتعظيمِهِ ولِتقرُّرِهِ وثبوتِهِ، وأنَّهُ مألوفٌ معهودٌ في عرفِ الشرعِ، (**صَدَقَةٌ**) بِشروطِهِ الآتيةِ، (**وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ**) نكَّرَهُ لِتحقيرِهِ، ولأنَّهُ في حيِّزِ المعدومِ والمجهولِ الذي لا إِلْفَ لِلنَّفْسِ فيه، (**صَدَقَةٌ**) بِشروطِهِ الآتيةِ. ويَدخُلُ في الأمرِ بالمعروفِ الأمرُ بالإيمانِ وباتباعِ السُّنَّةِ، ويَدخُلُ في النَّهْيِ عنِ المنكرِ النَّهْيُ عنِ الكفرِ وعنِ البدعةِ، وأخَّرَهما عما قبْلَهما رعايةً للترقِّي لوجوبِهما بخلافِ ما قبْلَهما، والواجبُ أفضلُ مِنْ غيرِهِ، بلْ نَقَلَ إمامُ الحرمَيْنِ أنَّ ثوابَ الفرضِ يزيدُ علَى ثوابِ النَّفلِ بسبعينَ ضِعفًا لحديثٍ وَرَدَ فيه[1].

(**وَفِي بُضْعِ**) -بِضمٍّ فسكونٍ- يُطلَقُ ويُرادُ به الفرجُ، ويُطلَقُ ويُرادُ بِهِ الجماعُ، وإرادةُ كُلٍّ منْهما هنا صحيحةٌ، وعَلى الأوَّلِ يَكونُ عَلى حذفِ مضافٍ تقديرُهُ: وفي وطءِ بُضْعِ (**أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**) إذَا قارنتْهُ نيَّةٌ صالحةٌ كإعفافِ نَفْسِهِ أو زوجتِهِ عنْ نَظَرٍ أو فِكْرٍ مُحرَّمٍ، أو قضاءِ حقِّها مِنْ مُعاشرتِها بالمعروفِ المأمورِ به، أو طلبِ ولدٍ يوحِّدُ اللهَ تَعالى أَوْ يَكثُرُ به المسلمونَ أو يَكونُ له فرطًا إذَا ماتَ لِصبْرِهِ علَيْهِ، وقدْ كانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَتزوَّجُ المرأةَ لا قصْدَ لهُ فيها إلَّا إرادةَ الولدِ للمُكاثَرةِ أوْ لِيموتَ فيكونَ لهُ أجرُه.

فعُلِمَ أنَّ المباحَ يَصيرُ طاعةً بالنيَّةِ الصَّالحَةِ، وإنَّما أعادَ "في" هنا؛ لأنَّ هذا النوعَ مِنَ الصدقةِ أغربُ مِنَ الكُلِّ حيثُ جَعَلَ قضاءَ الشهوةِ ونيْلَ اللَّذْةِ بهذا الطَّريقِ صدقةً. وفي الحديثِ أنَّهُ ﷺ قالَ لِعُمَرَ: (ألَا أُخْبِرُكَ بخيرِ ما يَكْنِزُ المرءُ، المرأةُ الصالحةُ إذا نَظَرَ إلَيْها سرَّتْهُ، وإذا أَمَرَها أطاعتْهُ، وإذا غابَ عنْها حفِظَتْهُ)[2].

---

(١) قال السبكي في الأشباه والنظائر (١/١٨٦، ١٨٧): "وقال بعض علمائنا: الفريضة يزيد ثوابها على ثواب النفل بسبعين درجة وتمسكوا بما رواه سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال في شهر رمضان: (من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه)؛ فقابل النفل فيه بالفرض في غيره، وقابل الفرض فيه بسبعين فرضا في غيره فأشعر هذا بأن الفرض يزيد على النفل بسبعين درجة من طريق الفحوى، انتهى كلام الإمام في النهاية". أي إمام الحرمين في "نهاية المطلب".

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٦٤) [كتاب الزكاة- باب في حقوق المال]، وأبو يعلى (٢٤٩٩) [مسند ابن عباس]، والحاكم (١/٤٠٨) [كتاب الزكاة]، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

[و]عن زيدِ بنِ حارثةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: (يا زيدُ تزوَّجْ تزدَدْ عِفَّةً إلى عِفَّتِكَ، ولا تتزوَّجْ خمسًا لا شهبرةً ولا كهبرةً ولا نهبرةً ولا هندرةً ولا لفوتًا، أمَّا الشهبرةُ فهيَ الزرقاءُ البذيئةُ، والكهبرةُ الطويلةُ المهزولةُ، والنهبرةُ القصيرةُ الذميمةُ، والهندرةُ العجوزُ المدبرةُ، واللفوتُ ذاتُ الولدِ منْ غيرِكَ) رواه الديلميُّ في مسندِ الفردوسِ[1].

(**قَالُوا**) مُتعجِّبينَ من ذلك مُستَبْعِدينَ أنَّ الإنسانَ يَفعلُ ما لِلنَّفسِ فيه حظٌّ وفيهِ ثوابٌ: (**أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ فَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ**) أي بِسببِها كما في حديثِ (في النفسِ المؤمنةِ مائةٌ منَ الإبلِ)[2]، أو هِيَ باقيةٌ عَلى ظرفيَّتِها مجازًا جُعلتِ الشهوةُ كالظرفِ له من حيثُ كونُها مَنْشَأَهُ، وهو مرتَّبٌ عَلَيْها كما في ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

(**قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا**) أيْ شهوتَهُ (**في حَرَامٍ كان**)، قالَ الطيبيُّ: أقحَمَ همزةَ الاستفهامِ عَلى سبيلِ التقديرِ بيْنَ "لوْ" وجوابِها تأكيدًا للاستخبارِ في قوله "أَرَأَيْتُمْ"، (**عَلَيْهِ وِزْرٌ**) أيْ إثمٌ، وجوابُهُ محذوفٌ كأنَّهم قالوا "نَعَمْ"، فَقَالَ (**فَكَذَلِكَ**) أيْ فمثلُ حصولِ الوزرِ له بوضعِها في الحرامِ حصولُ الأجرِ (**إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**) بالرفعِ والنصبِ كما في شرحِ مسلمٍ، والرفعُ ظاهرٌ؛ لأنَّ "أَجْرٌ" اسمُ كانَ، و"لَهُ" خَبَرُها، وأمَّا النصبُ فتقديرُه كانَ ذلكَ الوضعُ أجرًا.

***

(**رواه مسلمٌ**)، وفي روايةٍ له: (فرَجَعَ الفُقَراءُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: سَمِعَ إخوانُنا أهلُ الأموالِ بما فعلنا ففعلوا فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يَشاءُ)[3].

وهذا مُشعِرٌ بتفضيلِ الغنيِّ الشَّاكرِ عَلى الفقيرِ الصَّابرِ، وبهِ قالَ الجمهورُ، واختارَهُ

---

(١) مسند الفردوس (٨٥٦١).

(٢) أخرجه مطوّلًا ومختصرًا: مالك في الموطأ (١) [كتاب العقول- باب ذكر العقول]، والدارمي (٢٤١٠) [كتاب الديات- باب كم الدية من الإبل] والنسائي [كتاب القسامة- ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول]، وابن حبان (٦٥٥٩) [كتاب التاريخ- باب كتب النبي ﷺ]، والحاكم (٣٩٧/١) [كتاب الزكاة]، وغيرهم.

(٣) صحيح مسلم (٥٩٥) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب استحباب الذكر بعد الصلاة..].

العسقلانيُّ والسيوطيُّ، وهو الأصحُّ؛ لأنَّ الغنيَّ يُؤجَرُ مِنْ وجوهٍ، منْها الشُّكرُ، ومنها الصَّبْرُ عَلى ما يُعطيهِ مِنَ الزَّكاةِ الواجبةِ، ومنها الإنفاقُ عَلى مَنْ يَلزمُهُ نَفقَتُه وغيرِ ذلكَ، والفقيرُ يؤجرُ مِنْ وجهينِ، الصَّبْرُ عَلى الفقْرِ مَعَ الرِّضا والشُّكْرِ، والثاني تصرُّفُه فيما لا بُدَّ منه مِنْ نفقةِ نفْسه ومَنْ يلزمُهُ، ولأنَّ الفقْرَ مَعَ الصبرِ هو أوائلُ أحوالِه ﷺ والغِنى مَعَ الشُّكرِ هو آخرها، وعادةُ اللهِ الجاريةُ مَعَ أنبيائِه ورسلِه أنَّهم لا يُختَمُ لَهم إلا بأفضلِ الأحوالِ، فختمُهُ لأفضلِ خلقِه بالغِنى مَعَ الشكرِ دليلٌ عَلى أنَّه أفضلُ مِنَ الفقرِ مَعَ الصَّبْرِ، ولحديثِ سعدٍ في الوَصايا: (إنك أنْ تذرَ ورثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِنْ أنْ تذرَهم عالةً)[1]، ولحديثِ كعبِ بنِ مالكٍ: حيثُ استشارَ في الخروجِ عنْ مالِه كُلِّه فقالَ ﷺ: (أمسِكْ عليكَ بعضَ مالِكَ، فهو خيرٌ لكَ)[2].

المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر

وقالَ العزُّ بنُ عبدِ السلامِ: الفقيرُ الصَّابرُ أفضلُ، وإليه ذهبَ جمهورُ الصوفيَّةِ لخبَرِ: (تَعِسَ عبدُ الدينارِ)[3]، ولأنَّ مدارَ الطريقِ على تهذيبِ النفسِ ورياضتِها، وذلكَ مَعَ الفقيرِ أكثرُ منهُ مَعَ الغنيِّ.

وقالَ الداوديُّ[4]: إنَّ الذي أُعطِيَ الكفافَ أفضلُ، والكفافُ حالةٌ متوسطةٌ بينَ الفقرِ والغِنى، وإنَّ الفقرَ والغِنى مِحْنَتانِ مِنَ اللهِ يَمتحِنُ بِهما مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِه لقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ولقولِه ﷺ: (اللهمَّ اجعلْ رزقَ آلِ محمدٍ كفافًا)[5]، وأمَّا الحديثُ الذي أخرجَهُ الترمذيُّ: (اللهمَّ أحيِني مِسكينًا وأمِتْني

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٢٩٥) [كتاب الجنائز- باب رثاء النبي ﷺ سعد ابن خولة]، ومسلمٌ (١٦٢٨) [كتاب الوصية- باب الوصية بالثلث]، وغيرهما.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٧٥٧) [كتاب الوصايا- باب إذا تصَدَّق، أو أوقف بعض ماله]، ومسلمٌ (٢٧٦٩) [كتاب التوبة- باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه]، وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٨٨٦) [كتاب الجهاد والسير- باب الحراسة في الغزو في سبيل الله] من حديث أبي هريرة.

(٤) أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي، من أئمة المالكية بالمغرب من كتبه: النامي في شرح الموطأ، والواعي في الفقه، والنصحية في شرح البخاري، والإيضاح في الرد على القدرية، وغير ذلك، توفي سنة (٣٠٧). ترتيب المدارك (١٠٢/٧)، والديباج (١٦٥/١).

(٥) متفقٌ عليه؛ البخاريُّ (٦٤٦٠) [كتاب الرقاق- باب كيف كان عيش النبي ﷺ]، ومسلمٌ (١٠٥٥) [كتاب الزهد والرقائق]، من حديث أبي هريرة بلفظ: (اللهمَّ اجعل رزق آل محمَّدٍ قوتًا)، وفي رواية عند مسلم: (كَفافًا).

مِسكينًا ...) الحديث[1]، فهو ضعيفٌ، وعَلى تقديرِ ثبوتِهِ فالمرادُ أنَّهُ لا يُجاوزَ بِهِ الكفافَ.

وقيلَ: متقابلانِ، وقيلَ بالوقفِ. ومحلُّ الخلافِ فيمنْ يَصلحُ حالُه بالغِنى والفقرِ بأنْ كانَ إذا استغْنى قامَ بجميعِ وظائفِ الغِنى مِنَ البذلِ والإحسانِ والمواساةِ وأداءِ حقوقِ المالِ وشُكْرَ الملِكِ الديَّانِ، وإذا افتقرَ قامَ بجميعِ وظائفِ الفقرِ كالرِّضا والصبرِ والقناعةِ، وأمَّا مَنْ يصلحُ حالُه بالغِنى فقطْ بأنْ يؤدي حقَّ اللهِ في حالةِ الغنى ولا يؤدِّيهِ في حالةِ الفقرِ، فالغنى أفضلُ اتفاقًا، ومن يَصلُحُ حالُه بالفقرِ فقط بأنْ يؤديَ حقَّ اللهِ في حالةِ الفقرِ ولا يؤديهِ في حالةِ الغِنى فالفقرُ أفضلُ اتفاقًا.

فَإنْ قُلْتَ: ما حقيقةُ الغِنى؟ وما المرادُ بالشاكرِ والصابِرِ؟ فالجوابُ كما قالَ الأفقهسيُّ: إنَّ الغِنى ما زادَ عَلى المُحتَاجِ إليه، والغنيُّ الشاكرُ هو الذي يَكْتسِبُ المالَ مِنَ المباحِ ويُنفِقُهُ في المباحِ والمندوبِ، والفقيرُ الصابرُ هو الذي لا يَشتكي فقْرَهُ، اهـ. فقدْ بيَّنَ أنَّ الغنى ما زادَ عَلى الحاجةِ، وبيَّنَ الغنيَّ الشاكرَ بأنَّهُ الذي يَكتسِبُ المالَ مِنَ المباحِ ويُنفقُه في المُباحِ والمندوبِ، ولوْ قالَ بدلَ المندوبِ "المطلوبَ" لِيشملَ الواجبَ كانَ أَوْلى، وقولُه: "ما زادَ عَلى المُحتاجِ إليهِ" يشمل ذلكَ حتى في اليوم، فإذا حصلتْ له زيادةٌ عَلى المحتاجِ إليهِ في كُلِّ يومٍ كانَ غنيًّا في ذلكَ اليومِ، وفي اليومِ الذي لا يَحصُلُ له فيه ذلك ليسَ بغنيٍّ.

وقيلَ: الغنيُّ الشاكرُ هو الذي لا يُبْقِي مِمَّا يَدخُلُ عَلَيْهِ مِنَ المالِ الحلالِ إلا ما يَحتاجُ إليه حالًا أو ما يَرصدُه لِحوجٍ ونحوِهِ.

***

---

(1) أخرجه الترمذي (٢٣٥٢) [أبواب الزهد- باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم]، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه وابن ماجه (٤١٢٦) [أبواب الزهد- باب مجالسة الفقراء]، والحاكم (٣٢٢/٤) [كتاب الرقّاق]، وغيرهما من حديث أبي سعيد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا الضياء، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات وتُعقِّب.

الحديثُ السادسُ والعشرونَ

٢٦. عنْ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: كلُّ سُلَامى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقةٌ كُلَّ يومٍ تطْلُعُ فيهِ الشَّمسُ، تعدلُ بينَ اثنَيْنِ صدقةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّته فتَحملُه عليْها، أو تَرفعُ لَهُ علَيْها مَتاعَه صدقةٌ، والكلِمَةُ الطيِّبةُ صَدَقةٌ، وبِكُلِّ خَطوةٍ تَمشيها إلى الصلاةِ صَدَقةٌ، وتُميطُ الأذى عنِ الطَّريقِ صَدَقةٌ. رواهُ البخاريُّ ومسلِمٌ.

كل سلامى من الناس عليه صدقة

(**عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ كُلُّ سُلامى**) بضمِّ السينِ وتخفيفِ اللَّامِ وفتحِ الميم مع قصرِ الألفِ، وهيَ في الأصلِ عظمٌ يَكونُ في فرسنِ البعيرِ كما قالَ أبو عبيدةَ، قالَ الجوهريُّ: والفرسنُ مِنَ البعيرِ بمنزلةِ الحافرِ لِلدَّابَّةِ، وقالَ بعضُهم: السُّلامى اسمٌ لِأصغرِ ما في البعيرِ مِنَ العظامِ، ثُمَّ عبَّرَ بها عنْ مُطلَقِ العظمِ مِنَ الآدميِّ وغيرِه.

وفي حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (خُلِقَ الإنسانُ عَلى ستينَ وثلاثِمائةِ مِفصلٍ، فَفي كُلِّ مفصلٍ صدقةٌ)[1].

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتريُّ: في الإنسانِ ثلاثُمائةٍ وستونَ عرقًا: مائةٌ وثمانونَ ساكنةٌ، ومائةٌ وثمانونَ مُتحرِّكةٌ، فلو سَكَنَ المتحرِّكُ أو تحرَّكَ الساكِنُ لَمْ ينمْ.

و"سُلامى" واحِدُهُ وجَمْعُهُ سواءٌ عندَ الأكثرِ، وقيلَ: جَمْعُهُ "سُلامَياتٌ" بفتحِ الميمِ وتخفيفِ الياءِ.

(**مِنَ النَّاسِ**) أيْ مِنْ كُلِّ واحدٍ مِنَ النَّاسِ (**عَلَيْهِ**) ظاهرُه الوجوبُ، ولَيْسَ كذلِكَ، بل هو مندوبٌ، وندبُهُ -كما قالَ ابنُ أبي جمرةَ- بالاستقراءِ مِنَ خارجٍ لا بالصيغةِ.

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٧) [كتاب الزكاة- باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف]، وغيره.

وذكَّرَ الضميرَ وإنْ كانتْ "سُلَامى" مؤنثةً باعتبارِ العَظْم والمفصلِ لا لرجوعِه لـ"كلّ" كما قيلَ به؛ لأنَّهَا بحسبِ ما تُضافُ إليْه كقولِه تَعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وهيَ في الحديثِ هنا أضيفتْ لمؤنثٍ فلو رجَعَ إليها لأنَّث.

(**صَدَقَةٌ**) شُكْرًا له تَعالى عليها؛ لأنَّ تركيبَ هذهِ العظامِ وسلامتَها مِنْ أعظمِ نِعَمِ اللهِ تعالى عَلى عبدِهِ فيَحتاجُ كُلُّ عظمٍ مِنْها إلى صدقةٍ عنهُ لخصوصِه ليتِمَّ شُكْرُ نعمتِهِ، إذْ لوْ غُيِّرَ واحدٌ مِنْها عمَّا هو عليهِ لاختلَّ نظمُه وتعطلتْ أحوالُه وتكدَّرَ عيشُه وضاقَ ذرعُه، كما لو قصرَ الطويلُ أو طالَ القصيرُ أو رقَّ الغليظُ أو غلظَ الرقيقُ.

وخصَّ السُّلامى بالذكرِ لِمَا في التصرفِ بِها مِنْ دقائقِ الصنائعِ التي اختُصَّ بِها الإنسانُ وتحيرتْ فيها الأفهامُ، ولِذا قالَ تَعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤] أيْ نجعلُ أصابعَ يديهِ ورجليهِ مستويةً شيئًا واحدًا كخفِّ البعيرِ وحافرِ الحمارِ، فلا يُمكِنُ أنْ يَعمَلَ بِها شيئًا مِمَّا يَعمَلُ بأصابِعِه المُفرَّقةِ ذاتِ المفاصلِ مِنْ فنونِ الأعمالِ دِقِّها وجلِّها، ولهذا السرِّ غلَّبَ الصغارَ مِنَ العظامِ عَلى الكبارِ.

وأيضًا فالصَّدَقةُ تَدفَعُ البلاءَ، فبوجودِها عنْ أعضائِكَ يُرجى اندفاعُ البلاءِ عنْها، فقدْ حُكِيَ أنَّه كانَ رجلٌ مِنْ قومِ صالحٍ قدْ آذاهم، فقالوا: يا نبيَّ اللهِ ادعُ اللهَ عليه، فقالَ: اذهبوا فقدْ كُفِيتُمُوهُ، وكانَ يَخرجُ كُلَّ يومٍ يَحتطِبُ، قالَ فخرجَ يومئذٍ ومَعَهُ رغيفانِ، فأكَلَ أحدَهما وتصدَّقَ بالآخرِ، ثُمَّ جاءَ بحطبِهِ سالِمًا لم يُصبْه شيءٌ، قالَ: فدعاه صالحٌ وقالَ: أيَّ شيءٍ صنعتَ اليومَ؟ قالَ: قدْ خرجتُ ومَعي قرصانِ فتصدَّقْتُ بأحدِهما وأكلتُ الآخرَ، فقالَ صالحٌ عليه السلام: حُلَّ حطبَكَ، فحلَّهُ فإذا فيهِ أسْودُ مثلُ الجذعِ عاضٌّ عَلى جذرٍ من حطبٍ، قالَ: بهذا دُفِعَ عنكَ، يَعني بالصَّدَقة.

ورويَ أنَّ قصَّارًا كانَ في زمنِ عِيسى عليه السلام وكانَ يُفسِدُ عَلى النَّاسِ أقْمِشتَهم، فسَألوا عيسى أنْ يَدعوَ عليهِ بالهلاكِ، فأقبلَ القصَّارُ عندَ غروبِ الشمسِ ورزمتُهُ عَلى رأسِهِ، فعجبوا

مِنْ ذلكَ وأخبَروا عيسى، فطلَبَهُ فحَضَرَ برزمتِهِ، فقالَ له: افتحْ رزمتَكَ، ففتَحَها، فإذا فيها ثُعبانٌ عظيمٌ قَدْ أُلجِمَ بلجامٍ مِنْ حديدٍ، فقالَ له عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما صنعتَ اليومَ مِنَ الخيرِ؟ فقالَ: ما صنعتُ شيئًا إلَّا أنَّ رجلًا نزَلَ إليَّ مِنْ صومعتِهِ فشَكا إليَّ جوعًا فدفعتُ له رغيفًا كانَ معي، فقالَ له عيسى: إنَّ اللهَ قدْ بعثَ لكَ هذا العدوَّ فلمَّا تصدَّقْتَ أمَرَ اللهُ مَلكًا فألجَمَهُ بهذا اللِّجامِ.

قالَ الطيبيُّ: و"كلُّ سُلامى" مبتدأٌ، و"مِنَ الناسِ" صِفَةٌ، و"عَلَيْهِ صدقةٌ" الجملةُ خَبَرٌ، والراجعُ عَلى المبتدأِ الضميرُ المجرورُ في الخبرِ.

(**كُلَّ يَوْمٍ**) منصوبٌ عَلى الظرفيَّةِ لإضافتِهِ إلى الظَّرْفِ.

ولمَّا كانَ اليومُ قد يُعبَّرُ بهِ عنِ المدَّةِ الطَّويلةِ المشتملةِ عَلى الأيامِ الكثيرةِ كما يُقالُ: "في يومِ صِفِّينَ" وهو مُدَّةُ أيامٍ، وعنْ مُطْلَقِ الزَّمانِ قليلًا كانَ أو كثيرًا ليلًا أو نهارًا، كما في قولِهِ تَعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقولِهِ: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨]، وعنِ الدَّوْلةِ، ومنه قولُه تَعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وعن مقابلِ الليلِ، ومنه قولُه تَعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧]، ولما كانَ الأخيرُ هو المرادَ بيَّنه بقولِهِ (**تَطْلُعُ**) بضمِّ اللَّامِ (**فِيهِ الشَّمْسُ**) حيثُ يُصبِحُ سليمًا مِنَ الآفاتِ باقيًا عَلى الهيئةِ الَّتي تَتِمُّ بِها منافعُه وأفعالُه، فالصدقةُ في مقابلِ ما في تلكَ السُّلامى مِنَ النِّعَمِ.

وفي بعضِ الآثارِ: كَمْ مِنْ نعمةٍ للهِ -عَزَّ وَجَلَّ- في عرقٍ ساكنٍ[1]، فإذَا كانَ ذلكَ في عرقٍ، فكيفَ بجميعِ العظامِ؟! وقالَ وهْبٌ: مكتوبٌ في حِكْمةِ آلِ داودَ: العافيةُ المُلْكُ الخَفيُّ أي فهيَ النعيمُ المسئولُ عنهُ يومَ القيامةِ المعنيُّ بقولِهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٠) [ترجمة أبي الدرداء] عن أبي الدرداء. وأخرجه أيضًا عن سفيان الثوري (٧/ ١١) [ترجمة سفيان الثوري]، قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ... فذكره.

وقالَ ابنُ مسعودٍ: النعيمُ الأمنُ والصحةُ، وقيلَ: صحةُ الجسمِ وشربُ الماءِ الباردِ، وقالَ ابنُ عباسٍ: صِحَّةُ الأبدانِ والأسماعِ والأبصارِ، يَسألُ اللهُ العبادَ فيما استعْمَلوها، وهو أعلمُ بذلكَ مِنْهم، وهو قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وشَكَا شخصٌ إلى يوسفَ بنِ عبيدٍ ضيقَ حالِه، فقالَ له يوسفُ: أَيَسُرُّكَ أن لكَ ببصرِكَ مائةَ ألفِ درهمٍ، فقالَ الشخصُ: لا، قالَ: فبيديكَ، قالَ: لا، قالَ: فبرِجْلَيْكَ، قالَ: لا، وعدَّدَ نِعَمَ اللهِ -عزَّ وَجَلَّ- عَلَيْه، فقالَ: أرى عندَكَ هَذا وأنت تَشْكو الحاجةَ.

وأخرجَ ابنُ أبي الدُّنيا بسندٍ فيه ضعفٌ: يُؤتى بالنِّعمِ يومَ القيامةِ وبالحسناتِ والسيئاتِ فيقولُ اللهُ لِنعمةٍ مِنَ نعمِهِ: خُذي حقَّكِ مِنْ حسناتِهِ، فلَمْ تتركْ له حسنةً إلا ذهبتْ بِها[1].

***

تعدد أشكال الصدقة

ولَمَّا كانَ المتبادرُ مِنَ الصدقةِ صدقةَ المالِ بَيَّنَ أنَّها لا تنحصرُ فيه بقولِه **(تَعْدِلُ)** أيْ "أن تَعْدِلَ" لأنَّهُ في محلِّ رفعِ مبتدأٍ، وخبرُهُ صدقةٌ، فحُذفَتْ "أنْ" فارتفعَ الفعلُ، كما في قولِه تَعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ [الروم: ٢٤]، والأصلُ أنْ يُريكم؛ لأنَّهُ في موضعِ رفعِ مبتدأٍ، خبرُه "مِنْ آيَاتِهِ"، أوْ أوقعَ الفعلُ فيه موضعَ المصدرِ معَ قطعِ النظرِ عنْ "أنَّ"، ونظيرُه "تسمعُ بالمعيدي خيرٌ مِنْ أنْ تَراهُ" أيْ سماعُكَ.

(بيْنَ الاثنينِ) المتحاكمينِ أو المتخاصِمَيْنِ أو المتهاجرَيْنِ إذَا كانَ حاكمًا أو مصلحًا إذا نَوى به رفْعَ المنافرة بيْنَهما ساعةً، وقولُه: "بينَ الاثنينِ" هذا لفظُ مسلم، ولفظُ البخاريِّ "بَيْنَ النَّاسِ"[2]. أخرجَ الأصبهانيُّ أنَّه ﷺ قالَ: يا أبا هريرةَ عدلُ ساعةٍ خيرٌ وأفضلُ مِنْ عبادةِ ستينَ سنةً قيامِ ليلِها وصيامِ نهارِها، يا أبا هريرةَ جورُ ساعةٍ في حُكْمٍ أشدُّ وأعظمُ عندَ اللهِ مِنْ معاصي ستينَ سنةً[3].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٤) وفي إسناده صالح بن موسى الطلحي، وهو متروك، انظر تهذيب التهذيب لابن حجر (٤/٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٧) [كتاب الصل - باب فضل الإصلاح بين الناس].

(٣) أخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٢١٧٨).

وفي الحديثِ: ألَا أنبِّئكم بصدقةٍ يَسيرةٍ يُحبُّها اللهُ تَعالى، قالوا: بَلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: إصلاحُ ذاتِ البينِ إذا تقاطعوا[1].

وعنِ الحسنِ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: أفضلُ الناسِ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ المصلحونَ بينَ الناسِ[2]، وروى الترمذيُّ أنَّهُ ﷺ قالَ: ألَا أخبرُكم بأفضل مِنْ درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ، قالوا: بَلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: إصلاحُ ذاتِ البينِ[3]. وعنْ بعضِ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أنَّهُ قالَ: مَنْ أرادَ فضْلَ العابدينَ فلْيُصلِحْ بينَ الناسِ. وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ: مَنْ أصلَحَ بيْنَ اثنينِ أعطاهُ اللهُ بِكُلِّ كلمةٍ عتْقَ رقبةٍ[4]. وما أحسنَ قولَ القائلِ حيثُ قالَ:

إنَّ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا لَوْ جُمِّعَتْ * رَجَعَتْ بِأَجْمَعِهَا إِلَى شَيْئَيْنِ

تَعْظِيمِ أَمْرِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ * وَالسَّعْيِ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ

(**صَدَقَةٌ**) عَلَيْهما لِوقايَتِهما مِمَّا يَترتبُ عَلى الخصامِ مِنْ قبيحِ الأقوالِ والأفعالِ، ومِنْ ثَمَّ عَظُمَ فضلُ الصلحِ، كما أشارَ له تَعالى بقولِه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وجازَ الكذبُ فيه مبالغةً في وقوعِ الألفةِ لِئلَّا تدومَ العداوةُ.

***

(**وَتُعِينُ**) فيه وما بعدَه ما مرَّ في "تَعْدِلُ" (**الرَّجُلَ**) وصفٌ طرديٌّ (**في دابَّته**) وفي معناها السفينةُ، (**فَيَحمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ لَهُ مَتَاعَهُ**)[5] أصلُهُ ما يَتبَلَّغُ به المسافرُ، (**صَدَقَةٌ**) منْكَ عَليه، قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ: قولُه "فيَحمِلُ عَلَيْها" أعمُّ مِنْ أنْ يُريدَ يَحملُ عليْها المتاعَ أو الراكبَ،

---

(١) ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين (٨٢٨) [باب إصلاح ذات البين].

(٢) ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين (٨٣٤) [باب إصلاح ذات البين].

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩١٩) [كتاب الأدب- باب في إصلاح ذات البين]، والترمذيُّ (٢٥٠٩) [أبواب صفة القيامة والرقائق]، وغيرهما من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه الترمذيُّ.

(٤) أخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب (١٨٦) [باب في الترغيب في الإصلاح بين الناس] من حديث أنس

(٥) اعتبر العلامة الشبراخيتي في هذا الحديث لفظ البخاري: (فيحملُ عليها أو يَرفعُ له مَتاعَه)، في حين أن الإمامَ النووي اعتمد لفظ مسلم: (فتَحملُه عليْها، أو تَرفعُ لَهُ عليْها مَتاعَه).

وحملُ الراكبِ أعمُّ مِنْ أنْ يَحمِلَه كما هو أو يُعينُهُ في الركوبِ. وقولُه: "أَوْ يَرْفَعُ عليها مَتاعَه" إما شكٌّ مِنَ الرَّاوي أو تنويعٌ.

***

(**وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**) مِنْ نحو ذِكْرٍ، ودُعاءٍ لِلنَّفْسِ والغيرِ، وثناءٍ بحقٍّ، وسلامٍ عليْه، وردٍّ وتشميتِ عاطسٍ، وشفاعةٍ عندَ حاكمٍ، ونصحٍ وإرشادٍ عَلى الطريقِ نَحوَ "سلامٌ عَليكم"، "حيَّاكَ اللهُ"، و"إنَّكَ لَمُحسنٌ"، و"أنتَ رجلٌ مُبارَكٌ"، و"قدْ أحسنْتَ جِوارَنا" وغيرَ ذلكَ؛ لأنَّه مِمَّا يَسرُّ السامعَ ويؤلِّفُ القلوبَ أو غير ذلك (**صَدَقَةٌ**) منه عَلى نفسِه لما فيه مِنْ سرورِ السامعِ، واجتماعِ القلوبِ، وقدْ وَرَدَ أنَّه إذا الْتَقى المسلمانِ تَنزلُ عَلَيْهما مائةُ رحمةٍ تسعونَ لِأكثرِهما بِشرًا وعشرةٌ لِأقلِّهما، رواهُ في "العوارفِ" مرفوعًا[1].

***

(**وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ**) بفتحِ الخاءِ، المرةُ الواحدةُ مِنَ المشيِ، وأمَّا بالضَّمِّ فما بينَ القدمينِ، وهو مبتدأٌ والباءُ زائدةٌ، (**تَمْشِيهَا**)، وفي روايةٍ: تَخطوها، (**إِلَى الصَّلاةِ**)، والظاهرُ أنَّ مِثلَها الاعتكافُ والطوافُ وعيادةُ المريضِ وغيرُ ذلكَ مِنْ وجوهِ الطاعاتِ (**صَدَقَةٌ**).

وفي الحديثِ: (إذا تَطهَّرَ الرجلُ ثم أتى المسجدَ يَرعى الصلاةَ كَتَبَ له كاتِباهُ -أو كاتِبُهُ- بِكُلِّ خَطوةٍ يَخطوها إلى المسجدِ عشْرَ حسناتٍ، والقاعدُ يَرعى الصلاةَ كالقانتِ -أيِ القائمِ في الصلاةِ- ويُكتبُ مِنَ المصلينَ مِنْ حينِ يَخرُجُ مِنْ بَيْتِهِ حتَّى يَرجِعَ إليه)[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المداراة (٣٠٨) [باب المداراة بطلاقة الوجه]، والبزَّار (٣٠٨) [مسند عمر]، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٤٩) [باب ما يستحق للمرء من مصافحة أخيه]، والأصبهاني في الترغيب (٤٢٦) [باب فضل المصافحة للإخوان]، والبيهقي في الشعب (٧٦٩٢)، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وإسناده ضعيف جدًّا.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤٤٠) [مسند الشاميين- حديث عقبة بن عامر]، وابن خزيمة (١٤٩٢) [كتاب الإمامة- باب ذكر كتابة الحسنات بالمشي إلى الصلاة]، وابن حبان (٢٠٤٥) [باب الإمامة والجماعة- فصل فضل الجماعة]، والحاكم (٢١١/١) [باب في فضل الصلوات الخمس]، وغيرهم.

وفيه أيضًا: (أعظمُ الناسِ أجرًا في الصلاةِ أبعدُهم إلَيْها ممشًى)[1]، وإنَّما كانَ أعظمَ أجرًا لِمَا يَحصُلُ في بُعْدِ الدَّارِ عنِ المسجدِ مِنْ كثرةِ الخُطا. فإنْ قيلَ: روى أحمدُ عن حذيفةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: فضلُ البيتِ القريبِ مِنَ المسجدِ كفضْلِ المجاهدِ عَلى القاعدِ عَنِ الجهاد[2]، فالجوابُ أنَّ هذا في نفسِ البقعةِ، وذاكَ في الفعلِ، فالأبعدُ دارًا مشيُهُ أكثرُ، وثوابُهُ أعظمُ، والبيتُ القريبُ أفضلُ مِنَ البيتِ البعيدِ.

واختُلِفَ فيمنْ قاربَ الخُطا بحيثُ يُساوي خُطا مَنْ دارُهُ بعيدةٌ، وإلى التساوي جَنَحَ الطبريُّ، والراجِحُ عدمُ المساواةِ لكثرةِ المشقَّةِ في البعيدِ دونَ القريبِ.

***

(وَتُمِيطُ) -بضَمِّ أوَّلِه وفتحِه- أيْ تُنحِّي وتُزيلُ، يُقالُ "ماطَ الشيءَ وأماطَه" بمعنى أزَالَهُ حقيقةً أو حُكمًا بأنْ يتركَ إلقاءَهُ في الطريقِ، لما رواه البيهقيُّ في الشعبِ عنْ أنسٍ أنَّ رجلًا رَأى في النومِ قائلًا يَقولُ له: بَشِّرْ عائذَ بنَ عمرٍو المزنيَّ بالجنة، فلمْ يَفعلْ فَأتاهُ في الثانيةِ فلَمْ يَفعلْ فَأتاه في الثالثةِ فَلَمْ يَفعلْ فأتاه في الرابعةِ فقالَ له: لِمَ ذلكَ؟ قالَ: إنَّهُ لا يُلقي أذاهُ في طريقِ المسلمينَ[3]، وكانَ عائذٌ لا يُخرِجُ مِنْ دارِهِ ماءً إلى الطَريقِ لا مِنْ مطرٍ ولا مِنْ غيرِهِ، وكانَ إذا ماتَ لَهُ سنورٌ دَفَنَهُ في دارِهِ، ولا يُخرِجُهُ اتِّقاءَ أَذًى للنَّاسِ، وكانَ عائذٌ هذا مِمَّنْ بايعَ تحتَ الشجرةِ.

(الْأَذَى) ما يُؤذي المارةَ كقذرٍ وشوكٍ وحجرٍ وحيوانٍ مخوفٍ؛ ودعم جدارٍ مائلٍ؛ لأنَّهُ نَفْعٌ عامٌّ، وقدْ رويَ أنَّ رجلًا رأى غُصنَ شوكٍ في الطريقِ فقَطعَهُ فشَكَرَ اللهُ ذلك فغفَرَ له[4]، **(عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)** مِنْهُ عَلى الناسِ وعَلى الحيوانِ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٥١) [كتاب الأذان- باب فضل صلاة الفجر في جماعة]، ومسلمٌ (٦٢٢) [كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد]، وغيرهما من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) مسند أحمد (٢٣٣٨٥) [حديث حذيفة بن اليمان] بلفظ: (إن فضل الدار القريبة -يعني من المسجد- على الدار البعيدة كفضل الغازي على القاعد) بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٦٧٢).

(٤) سيأتي في الفقرة التالية مع زيادة عليه.

وعنْ أبي برزةَ قالَ: قلتُ يا نَبيَّ اللهِ علِّمْني شيئًا أنتفعُ به، قالَ: (أزِلِ الأَذى عنْ طريقِ المسلمينَ)[١]، كالشوكِ المؤذي والحجرِ الذي يُعثَرُ به والحيوانِ المخوفِ ودعمِ الجدارِ ونحوه، فإنه نفعٌ عامٌّ. وفي الصحيحِ أنَّ رجلًا مِمَّنْ كانَ قبْلَكم رأى غصنَ شوكٍ في الطريقِ فنحّاهُ فشَكَرَ اللهُ ذلك فغَفَرَ له[٢]، ورأى رجلٌ فرخًا وقعَ مِنْ عشِّه فردَّه إلَيْه فغفَرَ اللهُ له[٣]، وآخرَ رأى كلبًا يأكلُ الثَّرى مِنَ العطشِ فسقاهُ فغفرَ اللهُ له[٤]، وامرأةٌ رأتْ كلبًا يَلهثُ عطشًا فأخرجَتْ خُفَّها فأخرجتْ له ماءً فغَفَرَ اللهُ لها[٥]، وعكسُ ذلك المرأةُ التي دخلتِ النارَ في هرةٍ لا هِيَ أطعمَتْها ولا هيَ أرسلَتْها تأكلُ مِنْ خشاشِ الأرضِ[٦]، وصحَّ (في كُلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ)[٧].

وروايةُ أحمدَ (عن طريقِ المسلمينَ)[٨] فغَلَّبَهم عَلى غيرِهم لِشرفِهم.

وأُخِّرَتْ هذه؛ لأنَّها دونَ ما قبْلَها كما يُشيرُ إلَيْه خبرُ: (الإيمانُ بِضعٌ وسبعونَ شعبةً أعلاها شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأَذى عنِ الطريقِ)[٩].

وقيلَ: وتُسَنُّ كلمةُ التوحيدِ عندَ إماطتِهِ لِيجمعَ بينَ أعلى الإيمانِ وأدناه، وحملَ بعضُ الصوفيَّةِ الطريقَ عَلى القلبِ، والأَذى عَلى الوساوسِ التي تعرضُ له وإماطتُها دفْعُها عنه،

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٨) [كتاب البر والصلة- باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم]، وغيره بلفظ: (اعزل الأذى ...).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٥٢) [كتاب الأذان- باب فضل التهجير إلى الظهر]، ومسلمٌ (١٩١٤) [كتاب الإمارة- باب بيان الشهداء]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) لم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٣٦٣) [كتاب المساقاة- باب فضل سقي الماء]، ومسلمٌ (٢٢٤٤) [كتاب السلام- باب فضل ساقي البهائم]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٥) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٣٢١) [كتاب بدء الخلق]، ومسلمٌ (٢٢٤٥) [كتاب السلام- باب فضل ساقي البهائم]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٦) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٣٦٥) [كتاب المساقاة- باب فضل سقي الماء]، ومسلمٌ (٢٢٤٢) [كتاب السلام- باب تحريم قتل الهرة]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٧) متفق عليه ذكر في آخر حديث سقيا الكلب المتقدم تخريجه.

(٨) مسند أحمد (٧٨٤١).

(٩) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٩) [كتاب الإيمان- باب أمور الإيمان]، ومسلمٌ (٣٥) [كتاب الإيمان- باب بيان عدد شعب الإيمان]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وهذا لفظ مسلم.

وهو تكلُّفٌ بعيدٌ، وكذا حملُ الأذَى على أذَى الظالمِ والطريقِ على طريقِه تعالى، وهو شرعُه وأحكامُه، بلْ روايةُ "وأدْناها" المذكورةُ صريحةٌ في ذلك؛ لأنَّ الإماطةَ بهذا المعنى مِنْ أفضلِ الشعبِ لا مِنْ أدناها.

***

(**رواه البخاريُّ**) في الصلحِ والجهادِ (**ومسلمٌ**)، وفي بعضِ طرقِ مسلمٍ: (يُصبِحُ عَلى كُلِّ سُلامى مِنْ أحدِكم صدقةٌ، فكلُّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلُّ تحميدةٍ صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، ويُجزِئُ عنْ ذلكَ ركعتانِ تَركعُهُما مِنَ الضُّحى)(١)، أيْ لأنَّ الصلاةَ عَمَلٌ بجميعِ الأبدانِ فتُحرِّكُ المفاصلَ كُلَّها فيها بالعبادةِ، فإذا صَلَّى العبدُ فقدْ قامَ عنْ كُلِّ عضوٍ منه بوظيفتِه، وأدَّى شكرَ نعمتِه، وكان وجهُ تخصيصِ الضُّحى بذلكَ مِنْ بينِ ركعتَي الفجرِ وغيرِها مِنَ الرواتبِ مَعَ أنَّها أفضلُ مِنْ ركعتَي الضُّحى تمحُّضَها للشُّكْرِ؛ لأنَّها لم تُشْرَعْ جابرةً لِنقْصِ غيرِها بخلافِ سائرِ الرواتبِ فإنها شُرِعتْ جابرةً لِنقصِ متبوعِها، فلمْ يتمحضْ فيها القيامُ بشكرِ تلكَ النِّعَمِ الباهرةِ، والضُّحى لَمَّا لمْ يَكنْ فيها ذلكَ تمحَّضتْ لِلقيامِ بذلكَ، كذا قيلَ، وفيه شيءٌ، والوجهُ ما قالَهُ الحافظُ العراقيُّ أنَّ الاختصاصَ بالضُّحى لخصوصيةٍ فيها، وسرٌّ لا يعلمُه إلَّا اللهُ -تَعالى- ورسولُه.

وأخرجَ أبو داودَ والنسائيُّ: (مَنْ قالَ حِينَ يُصبِحُ: اللهمَّ ما أصبحَ بي مِنْ نعمةٍ أو بأحدٍ مِنْ خلقِكَ فمِنكَ وحدَكَ لا شريكَ لكَ، فلكَ الحمدُ ولكَ الشكرُ، فقدْ أدَّى شكرَ ذلكَ اليومِ، ومَنْ قالَه حينَ يُمسي فقدْ أدَّى شكرَ ليلتِه)(٢).

***

(١) أخرجه مسلم (٧٢٠) [كتاب صلاة المسافرين- باب استحباب صلاة الضحى ...]، وغيره.

(٢) "سنن أبي داود" (٥٠٧٣) [كتاب الأدب- باب ما يقول إذا أصبح]، و"السنن الكبرى للنَّسائي" (٩٧٥٠) [كتاب عمل اليوم والليلة]، وغيرهما من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

الحديثُ السابعُ والعشرونَ

٢٧. عن النَّواسِ بنِ سمعانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ. رواهُ مسلمٌ.

وعن وابِصةَ بنِ معبدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: جئْتَ تَسْأَلُ عَنِ البرِّ؟ قُلتُ: نعمْ، قالَ: اسْتَفْتِ قلبَكَ، البِرُّ ما اطْمأنَّتْ إليهِ النَّفْسُ، واطمأنَّ إليهِ القلبُ، والإثمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وتردَّدَ فِي الصَّدْرِ، وإنْ أفتَاكَ النَّاسُ وأفتَوْكَ. حديثٌ حَسَنٌ، رَوَيناهُ فِي مُسْنَدَيِ الإمامَيْنِ أحمدَ ابنِ حنبلٍ والدارميِّ بإسنادٍ حسنٍ.

قالَ الشارحُ الهيتمي: وهو في الحقيقةِ حديثانِ لكنَّهما لمَّا تواردَا عَلى معنًى واحدٍ كانَا كالحديثِ الواحدِ، فجُعِلَ الثَّاني كالشَّاهدِ للأوَّلِ.

(عَنِ النَّوَّاسِ) بفتحِ النُّونِ وتشديدِ الواوِ، وآخرُه سينٌ مهملةٌ **(بنِ سِمْعانَ)** بكسرِ المهملةِ وفتحِها، واقتصارُ ابنِ الأثيرِ عَلى الكسرِ يَدلُّ عَلى أنَّهُ أرجحُ، ابنِ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ قريظةَ بنِ عبدِ اللهِ ابنِ أبي بكرِ بنِ كلابِ بنِ ربيعةَ بنِ عامرِ بنِ صعصعةَ بنِ عمروٍ الكلابيِّ العامريِّ **(رضي اللهُ عنه)** -كانَ يَنبغي "عنهما"؛ لأنَّ لأبيهِ وفادةً-، والنَّوَّاسُ مِنْ أهلِ الصُّفَّةِ، ووقَعَ فِي مسلمٍ أنَّهُ أنصاريٌّ، وحُمِلَ عَلى أنَّه حليفٌ لَهمْ، قالَ: أقمتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينةِ سنةً ما يَمنعُني مِنَ الهجرةِ -أي العودِ إلى الوطنِ- إلَّا الأسئلةُ الَّتي تَرِدُ عَلى المصطفى ﷺ مِنْ بعضِ أصحابِهِ[1]، فإقامتُه تلكَ السنةَ كانَتْ معَ عزمِهِ عَلى العودِ إلى وطنِهِ، لكنَّهُ أحبَّ أنْ يتفقَّهَ فِي الدِّينِ تلكَ المدةَ بسماعِ تلكَ الأسئلةِ التي تردُ عليهِ ﷺ وأجوبتِها.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) [كتاب البر والصلة- باب تفسير البر والإثم]، وغيره، بلفظ: أقمت مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة.

رويَ له سبعةَ عشرَ حديثًا، اقتصرَ مسلمٌ مِنها عَلى ثلاثةٍ.

(عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **الْبِرُّ**) بِكسرِ الموحَّدَةِ، وهو كما قالَ الزمخشريُّ: اسمٌ جامعٌ لِلخيرِ، وكلُّ فعلٍ مُرضٍ، وهو في تزكيةِ النَّفْسِ كالبُرِّ -بالضمِّ- في تغذيةِ البدنِ، والفِعْلُ منهُ بَرَّ يَبَرُّ عَلى "فَعِلَ يَفْعَلُ" كَـ"عَلِمَ يَعْلَمُ"، (**حُسْنُ الْخُلُقِ**) بِضمِّ اللَّامِ وسكونِها، أيِ التخلُّقِ مَعَ الخَلْقِ، وهو -كما مرَّ- طلاقةُ الوجهِ، وكفُّ الأَذَى، وبذْلُ النَّدَى، وقِلَّةُ الغَضَبِ، وأنْ يُحِبَّ لِلناسِ ما يُحِبُّ لِنفسِهِ، وهذا يَرجِعُ إلى تَفْسيرِ بعضِهم له بأنَّهُ الإنصافُ في المعاملةِ، والرِّفْقُ في المجادلةِ، والعدلُ في الأحكامِ، والإحسانُ في اليُسرِ، والإيثارُ في العُسرِ، وغيرُ ذلك مِنَ الصِّفاتِ الحميدةِ، وضدُّه الجورُ والإثمُ، ولذلكَ قابَلهُ به.

تعريف البر ومعانيه

وقولُه "البِرُّ" أي معظمُهُ، فالحصْرُ مَجازيٌّ كـ(الحجُّ عرفةُ)، و(الدِّينُ النصيحةُ)[1]، وإنْ أريدَ بحسنِ الخلقِ التخلقُ بالأخلاقِ الشريفةِ والتأدبُ بآدابِ اللهِ التي شرَعَها لعبادِهِ مِن امتثالِ أمرِهِ وتجنُّبِ نهيِهِ كانَ الحصرُ حقيقيًّا.

وقدْ يُطلَقُ البرُّ في مقابلةِ العقوقِ فيكونُ عبارةً عنِ الإحسانِ كما أنَّ العقوقَ عبارةٌ عنِ الإساءةِ، ويُطلَقُ على الصِّلَةِ، ومنه "بَرِرْتُ والِدَيَّ" بالكسرِ، وخبرُ (مَنْ أبرُّ الناسِ بي قالَ: أُمُّكَ، قالَ: ثم مَنْ؟ قالَ: أبوكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: الأقربُ فالأقربُ)[2]، وفي المثلِ: "أبرُّ مِنْ فلحس"، وهو رجلٌ مِنْ شيبانَ، ذَكروا أنَّهُ حَمَلَ أباهُ وكانَ كبيراً عَلى ظهرِهِ فحجَّ به، وفيه أيضًا "أبرُّ مِنَ العملس"، وهو أيضًا رجلٌ كانَ باراً بأمِّهِ، وكانَ يَحملُها عَلى عاتقِهِ إلى حيثُ أرادتْ.

وبِمعْنى الجَنةِ، ومنهُ قولُه: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] أيْ لنْ تَنَالوا الجنةَ... إلخ كما قالَ السديُّ، وبمعنى الصدقِ، ومنه "بَرَّ في يمينِه" أي صدَقَ فِيها.

---

(١) تقدَّم تخريجهما في شرح الحديث السابع.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٨) [مسند البصريين]، وأبو داود (٥١٣٩) [كتاب الأدب- باب في برِّ الوالدين]، والترمذي (١٨٩٧) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في برِّ الوالدين]، وغيرهم من حديث معاوية بن حيدة قال: قلت: يا رسول الله ﷺ، مَن أبرُّ؟ قال: (أمك)، قلت: ثم مَن؟ قال: (ثم أمك)، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مَن؟ قال: (أمك)، قال: قلت: ثم مَن؟ قال: (ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب). وحسنه الترمذي وصحَّحه الحاكم.

وبمعنى القَبُول، ومنه "بَرَّ اللهُ حجَّكَ وأبرَّهُ" أي قبلَهُ، وبمعنى اللُّطف وحُسْن العشرة والصحبةِ ولينِ الجانبِ واحتمالِ الأَذَى، ومنه قولُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بُنَيَّ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنْ * وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنْ

ويقالُ بدل قوله "وجهٌ طليقٌ ...إلخ": فِعْلٌ جميلٌ وكلامٌ ليِّن.

وبمعنى الطاعة بسائرِ أنواعِها الظاهرةِ والباطنة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قولِه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهذه الأمورُ كُلُّها مجامعُ حسنِ الخلقِ.

وإذا قُرِنَ البرُّ بالتَّقْوى كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، فُسِّرَ البرُّ بمعاملةِ الخَلْقِ بالإحسانِ، والتَّقْوى بمعاملةِ الحقِّ بطاعتِه، أو البرُّ بفعلِ الواجباتِ، والتَّقْوى باجتنابِ المحرماتِ.

وقدْ روى الحسنُ عنْ أبي الحسنِ عن جدِّ الحسنِ بسندٍ حسَنٍ (إنَّ أحسنَ الحسنِ الخلقُ الحسنُ) رواه الترمذيُّ، وقالَ: حديثٌ حَسَنٌ[١].

وقالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الخُلُقُ الحَسَنُ يُذيبُ الخطايا كما تُذيبُ الشمسُ الجليدَ، والخلقُ السيِّئُ يُفسِدُ العمَلَ كما يُفسِدُ الخلُّ العسلَ[٢]، وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ: آخرُ ما أوْصاني به رسولُ اللهِ ﷺ حينَ جعلْتُ رجْلي في الغرزِ -يَعْني الركابَ- أن قالَ: حسِّنْ خُلُقَكَ معَ النَّاسِ يا معاذُ[٣]، وعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالتْ: إنَّ حسنَ الخلقِ وحسنَ الجوارِ وصلةَ الرحمِ تُعمِّرُ الديارَ وتزيدُ في الأعمارِ، ولو كانَ القومُ فُجَّارًا[٤].

(١) لم أجده في سنن الترمذي، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٩٨٦) وغيره، وهو من الأحاديث المسلسلة، ومداره علي الحسن بن دينار، وهو ممَّن رماه أحمد وابن معين وغيرهما بالكذب، انظر ترجمته في "الميزان" (١/٤٨٧)، "لسان الميزان" (١/٤٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/رقم ١٠٧٧٧)، والأوسط (٨٥٠)، والخطيب في المتفق والمفترق (١٠٤٨)، وغيرهما عن ابن عباس مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ.

(٣) تقدم تخريجه في شرح الحديث السابع عشر.

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٢٥٩) [مسند الصِّدِّيقة عائشة بنت الصِّدِّيق]، وغيره.

ورويَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: (منْ لمْ يكنْ فيهِ ثلاثُ خصالٍ لم يجدْ طعمَ الإيمانِ، علْمٌ يردُّ به جهلَ الجاهلِ، وورعٌ يحجزُه عنِ المحارمِ، وخلقٌ يُداري به الناسَ)[1].

وقالَ عاصمُ بنُ المصطلقِ: دخلتُ المدينةَ فرأيتُ الحسنَ بنَ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فأعجبَني سمْتُهُ وحسْنُ رؤيتِهِ، فأثارَ منِّي الحسدُ ما كان يُجِنُّه -أي يُخفيه- صدري لِأبيهِ مِنَ البُغْضِ، فقلتُ: أنتَ ابنُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ؟ فقالَ: نَعَمْ، فبالغتُ في شتْمِهِ وشتمِ أبيهِ، فنَظَرَ إليَّ نَظَرَ عاطفٍ رؤوفٍ فقالَ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ، بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ فقرأَ إلى قولِه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠١]، ثم قالَ: خفِّضْ عليكَ، استغفرِ اللهَ لي ولكَ، إنَّكَ لو استعنْتَنا لَأعنَّاكَ، ولوِ اسْتَرْشَدْتَنا لَأَرْشَدْناكَ، قالَ: فنَدِمْتُ عَلى ما فرَطَ مِنِّي، فقالَ: لا تثريبَ -أيْ لا عتبَ- عليكَ اليومَ، يغفرُ اللهُ لكَ وهو أرحمُ الراحمينَ، أَمِنْ أهلِ الشامِ أنتَ؟ قلتُ: نَعَمْ، قالَ: حيَّاكَ اللهُ وبيَّاكَ وعافاكَ، ابسطْ لنَا في حوائجِكَ وما يَعرِضُ لكَ تجدْ عندَنا أفضلَ ظنِّكَ إنْ شاءَ اللهُ، قالَ عاصمٌ: فضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رحبتْ ووجدتُ أنَّها قدْ ساختْ بي، ثم انسلَلْتُ منهُ لِواذًا أي ذهبتُ مختبئًا مُسْتَتِرًا بشيءٍ، وما عَلى الأرضِ أحبُّ إليَّ مِنْ أبيهِ ومنهُ.

***

(وَالْإِثْمُ) يُطلقُ ويُرادُ به الذنبُ بسائرِ أنواعِهِ، وهو المرادُ هنا، ويُطلَقُ ويُرادُ به خصوصُ الخمرِ، ومنْهُ قولُهُ: شَرِبْتُ الْخَمْرَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي *كَذَاكَ الْإِثْمُ تَذْهَبُ بِالعُقُولِ

علامات الإثم

(مَا حَاكَ) بحاءٍ مهملةٍ وتخفيفِ الكافِ، مِنْ "حَاكَ يَحِيكُ"، ومنهُ قولُهم "ضربْتُه فما حاكَ فيه السيفُ" أيْ أثَّرَ، و"ما يَحيكُ كلامُكَ في فلانٍ" أيْ ما يؤثِّرُ فيه، و"ما تَحيكُ الفأسُ في هذهِ الشَّجَرةِ"، وفي بعضِ النسخِ "مَا حكَّ"، بتشديدِ الكافِ، وفي بعضِها "مَا حَاكَّ" بالتشديدِ مِنَ المحاكاةِ.

(١) أخرجه بلفظ المصنف الدينوري في المجالسه (٩) عن ضمرة، وأخرجه البزار (٦٤٤٣) [مسند أنس]، من حديث أنسٍ مرفوعًا والطبراني في الأوسط (٤٨٤٨) من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بألفاظ متقاربة.

(**فِي النَّفْسِ**)، وفي رواية: في نفْسِكَ، وفي رواية: في صدرِكَ[1]، والمعنى: أثَّرَ في القلبِ اضطرابًا وقلقًا، فلم يَنشرِحُ له ولم يطمئنَّ إليه، والحائكُ الراسخُ في قلبكَ الذي يهمُّكَ، وجاءَ في بعضِ الرواياتِ: (والإثم حزَّازُ القلوب)[2] -بتشديدِ الزاي- أيْ مؤثرٌ فيها كما يؤثِّرُ الحزُّ في الشيءِ، فهو بمعنى قولِه هنا: مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وفي أُخرى (حوَّازٌ) -بتشديدِ الواوِ- مِنْ "حَازَ يَحُوز" أيْ غلَّابٌ عَلى العقولِ.

(**وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**) لأنَّ النَّفْسَ بِطبعِها تُحِبُّ إطلاعَ الناسِ عَلى خيرِها وبرِّها، وتَكرهُ ضدَّ ذلكَ، إذ لها شعورٌ مِنْ أصلِ الفطرةِ بما تُحمَدُ أو تُذَمُّ عاقبتُه، ولكنْ غلبتْ علَيْها الشهوةُ حتَّى أوجبتْ لَهَا الإقدامَ عَلى ما يَضرُّها كما غلبتْ عَلى السَّارِقِ والزَّاني مثلًا فأوجَبَتْ لَهُمَا الحَدَّ، والمرادُ بالكراهةِ هنا الدينيَّةُ الجازمةُ لا العاديَّةُ كمَنْ يَكرهُ أن يُرى آكلًا لحياءٍ أو بُخلٍ، وغيرُ الجازمةِ كمنْ يكرَهُ أنْ يَركَبَ بينَ المشاةِ تواضعًا ونحو ذلكَ فإنَّه لو رُئِيَ كذلكَ لَمْ يُبالِ، والمرادُ بالناسِ وجوهُهم وأماثلُهم لا رعاعُهم، ولذا نَقَلَ الشارحُ الأشبيليُّ[3] عنْ صاحبِ الإفصاحِ[4]: "الناسُ" معرَّفٌ باللَّامِ فيَنصرِفُ إلى وجوهِهم وأماثلِهم لا العوامِّ.

وهلْ علامةُ الإثمِ مركَّبَةٌ مِنْ مجموعِ الأمرينِ أو كُلُّ واحدٍ منهما علامةٌ مستقلَّةٌ، ومُقتضى العطفِ بالواوِ الأوَّلُ، ومُقتضى الرِّوَايةِ الآتيةِ الثاني، وعَلى الأوَّلِ فالفعلُ إنْ وُجدَ فيه الأمرانِ كالزِّنا والرِّبا فهو إثمٌ قطعًا، وإنِ انْتَفَيَا عنهُ كالعبادةِ فَبِرٌّ قطعًا، وإنْ وجِدَ فيه أحدُهما احتملَ البِرَّ والإثمَ فيكونُ مِنَ المشتبهِ، والذي يتَّجهُ أنَّهما مُتلازمانِ؛ لأنَّ كراهةَ النَّفْسِ تَستلزِمُ كراهةَ النَّاسِ وعكْسُهُ.

---

(١) كلاهما في صحيح مسلم [كتاب البر والصلة- باب تفسير البر والإثم]، ١٤/١٥- (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/رقم ٨٧٤٨)، والبيهقي في الشعب (٥٠٥١)، وغيرهما من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وذكر ابن الأثير في النهاية (١/٣٧٧، ٣٨٧) ثلاث لغات: حَوَّازٌ، وَحَوَازٌ، وَحَزَّازٌ.

(٣) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فرح اللخمي الإشبيلي الشافعي، والمشهور بابن فرح، عُني بالحديث وأتقن ألفاظه وعرف رواته وحفاظه، له منظومة في ألقاب الحديث تسمى القصيدة الغرامية، وشرح على الأربعين النووية، ومختصر خلافيات البيهقي، توفي سنة ٦٩٩. تذكرة الحفاظ (٤/١٨٥)، والأعلام (١/١٩٥).

(٤) كتاب الإفصاح عن معاني الصحاح، ليحيى بن هُبَيْرَة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، المتوفى سنة (٥٦٠).

وعمومُ الحديثِ يَقتضي أنَّ الهمَّ بالمعصيةِ غيرَ الجازمِ إثمٌ، لَكِنْ خصَّ عمومَه خبرُ: (إنَّ اللهَ تَجاوَزَ لِأُمَّتي عمَّا وسوستْ به نفوسُها ما لَمْ تعملْ به أو تتكلمْ)[1]، فقولُه "ما لم تعملْ به" مثلَ أنْ توسوسَ له نفْسُهُ بالزِّنا مثلًا فيَزني، وقولُه "أو تتكلمُ" مِثْلَ أنْ توسوسَ له بالقذفِ فيقذفَ أو بالكذبِ أو بالنميمةِ فينمَّ.

(**رواه مسلمٌ**) في كتابِ البرِّ والصلةِ مِنْ صحيحِه.

***

(**وَعَنْ وَابِصَةَ**) بالصادِ (**ابنِ معبدٍ**) بِفتحِ الميمِ والموحَّدَةِ، ابنِ عتيبةَ بنِ الحارثِ بنِ بشيرِ بنِ كعبِ بنِ سعدِ بنِ الحارثِ بنِ ثعلبةَ بنِ داودَ بنِ أسدِ بنِ خزيمةَ الأسديِّ، يُكنَّى أبا سالمٍ، ويُقالُ: أبو الشعثاءِ، ويُقالُ: أبو سعيدٍ (**رَضِيَ اللهُ عنْهُ**) قدمَ على رسولِ اللهِ ﷺ في عشرةٍ مِنْ قومِه بني أسدِ بنِ خزيمةَ سنةَ تسعٍ فأسلَموا، ورَجَعَ إلى بلادِهِ، ثُمَّ نَزَلَ الجزيرةَ، وسكنَ الرَّقَّةَ -بفتحِ الرَّاءِ- ودمشقَ، وعُمِّرَ إلى قربِ التسعينَ، وأعقبَ بالرَّقةِ، وماتَ بِها، ودُفِنَ عندَ منارةِ جامعِها.

(**قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ جِئْتَ تَسْأَلُ**) استفهامٌ تقريريٌّ حُذفتْ همزتُه، أيْ: أجئتَ تَسأَلُ (**عَنِ البِرِّ**) أي الحلالِ (**قُلْتُ: نَعَمْ**) فيهِ مُعجزةٌ كُبرى له، حيث أخْبَرَهُ بما في نفسِهِ قبلَ أنْ يَتكلَّمَ به.

وفي روايةِ أحمدَ: (وأَنا أريدُ أنْ لا أدعَ شيئًا مِنَ البرِّ والإثمِ إلا سألتُ عنه، وإذا عندَهُ جَمْعٌ فذهبتُ أتخطَّى الناسَ، فقالوا: إليكَ يا وابصةُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فقلتُ: دَعُوني أدنُ مِنْهُ، فقالَ لي: ادنُ يا وابصةُ فدنوت حتى مست رُكبتاي ركبتيه، فقال: يا وابصةُ أُخْبِرُكَ بما جِئْتَ تَسألُ عنْهُ أو تَسألُني، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أخْبِرْني، قالَ: جئتَ تَسأَلُ عنِ البرِّ والإثمِ، فقلتُ: نَعَمْ، قالَ: فجَمَعَ أصابعَهُ الثلاثَ فجعَلَ يَنكتُ بِها في صدْري ويقولُ: يا وابصةُ استفتِ نفْسَكَ)[2].

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٦٦٤) [كتاب الأيمان والنذور- باب إذا حنث ناسيا في الأيمان]، ومسلمٌ (١٢٧) [كتاب الإيمان- باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٠١) [مسند الشاميين]، وأبو يعلى (١٥٨٦) [مسند وابصة]، وغيرهما بإسنادٍ ضعيفٍ.

(**قَالَ**) المصطفى ﷺ: (**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ**) أي اطلُبِ الفتوى مِنْ قلبِكَ وعوِّلْ عَلى ما فيه.

(**الْبِرُّ مَا**) أيْ شيءٌ أو الذي (**اطْمَأَنَّتْ**) أيْ سكَنَتْ (**إِلَيْهِ**) وفي روايةٍ "عَلَيْهِ"، (**النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**) لأنَّهُ تعالى فَطَرَ عبادَهُ عَلى معرفةِ الحقِّ والسكونِ إِلَيْهِ وقبولِه، وركَنَ في الطَّبائعِ محبتَهُ، والجمعُ بيْنَهُ وبيْنَ النَّفْسِ للتأكيدِ، وهذا مطابِقٌ لقولِهِ السابقِ: "البرُّ حسنُ الخلقِ"؛ لأنَّ حسْنَهُ تَطمئِنُّ إلَيْهِ النَّفْسُ والقلبُ.

وقَدْ حُكِيَ أنَّ أبا الحسينِ النوريَّ[1] لمَّا وُشِيَ به وبجَماعتِه إلى الخليفةِ ببغدادَ وقيلَ له: إنَّهم زنادقةٌ، وأحضرَهم وأمَرَ بقتلِهم، فجاءَ السَّيَّافُ فبادَرَ إليهِ النوريُّ فسُئِلَ عنْ مبادرتِه، فقالَ: أوثِر أصْحَابي بحياةِ لحظةٍ، فسألَ القاضي الخليفةَ أنْ يَنظُرَ في أمرِهم ويَبحَثَ عنْ حالِهم، فأَذِنَ فطلبَ القاضِي مِنْهم رجلًا لِيتكلَّمَ معَهُ، فتقدَّمَ إليه النوريُّ فسأَلَهُ عنْ مسائلَ فقهيَّةٍ، فنَظَرَ عنْ يمينِه ثم عنْ يسارِهِ ثم أطرقَ ساعةً ثم رَفَعَ رأسَهُ فأجابَ بجوابٍ صحيحٍ، فسألَهُ القاضي عن التفاتِه وإطراقِهِ فقالَ: سألْتَني عنْ تلكَ المسائلِ ولا عِلْمَ لي بها فسألتُ مَلَكَ اليمينِ فلمْ يُجبْني ثم مَلَكَ اليسارِ فلمْ يُجبْني، فسألتُ قلْبي فأخْبَرَني بما أجبْتُ بِهِ، فأخبرَ القاضي الخليفةَ وقالَ: إنْ كانَ هؤلاءِ زنادقةً فما عَلى وجهِ الأرضِ مسلمٌ.

(**وَالْإِثْمُ مَا**) أي شيءٌ أو الذي (**حَاكَ فِي النَّفْسِ**) أيْ أثَّرَ فيها اضطرَابًا، وفي الحديثِ الآخرِ: إيَّاكُمْ والمحاكاةَ فإنَّها المأثمُ[2]، (**وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ**) أيْ لمْ يَنشرِحْ لَهُ الصَّدْرُ أيِ القلبُ، والجمعُ بيْنهما للتأكيدِ أيضًا.

(**وَإِنْ**) وفي روايةٍ "وَلَوْ"، وهو غايةٌ لِمُقَدَّرٍ دلَّ عَليْهِ ما قبْلَهُ أيْ فالتزِمِ العملَ بما في قلبِكَ وإنْ (**أَفْتَاكَ النَّاسُ**) أيْ علماؤُهم كما في روايةِ "وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ"[3] أيْ قدْ أَعْطَيْتُكَ علامةَ

---

(١) شيخ الصوفية أبو الحسين أحمد بن محمد النوري البغدادي، لم يكن في وقته أحسن طريقة منه، ولا ألطف كلامًا، توفي سنة (٢٩٥). حلية الأولياء (١٠/٢٤٩)، طبقات الصوفية (ص ١٣٥)، تاريخ بغداد (٥/٣٣٨).

(٢) أظنه تصحيفٌ، وصوابه: « «إياكم والحكاكات فإنها المآثم» جمع حكاكة، وهي المؤثرة في القلب. ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (١/٤١٨)، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٣) أخرجها أحمد (١٧٧٤٢) [مسند الشاميين- حديث أبي ثعلبة الخشني]، وغيره عن أبي ثعلبة الخشني مرفوعًا،=

الإثم فاعتبِرْها في اجتنابه ولا تُقلِّدْ مَنْ أفتاكَ بمقارفته (وَأَفْتَوْكَ) بخلافِهِ فرخَّصوا لك فيه؛ لأنَّهمْ إنَّما يَطَّلِعونَ عَلى الظواهرِ لا عَلى السرائرِ، والجمعُ للتأكيد كما في قولِه تَعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧] فأتَى بالثَّاني تأكيدًا للأَوَّلِ لزيادةِ التنكيرِ، قالَ الطيبيُّ: هذا شرطٌ قُطِعَ عنِ الجزاءِ تتميمًا للكلامِ السابقِ وتقديرًا له عَلى سبيلِ المبالغة، وقالَ غيرُه: "إنَّ" وصلتُهُ معطوفٌ عَلى مقدَّرٍ أيْ إنْ لَمْ يُفتِكَ الناسُ وإنْ أفتوكَ، وقولُه: "وَإن أَفْتَوْكَ" تأكيدٌ.

وحُكِيَ عنْ بعضِ العارفينَ أنَّه أتاهُ رجلٌ يريدُ السلوكَ فأدخلَهُ الخلوةَ وتَركَهُ أيامًا، ثم دَخَلَ عليهِ فقالَ له: كيفَ تَرى صورتِي عندَكَ؟ قالَ: صورةُ خنزيرٍ، فقالَ: صدقْتَ، ثم تَرَكَهُ في الخلوةِ مدةً، ودخلَ عليهِ فسألَهُ كذلكَ: فقالَ: صورةُ كلبٍ، ثم كذلك إلى أنْ قالَ: أراكَ صورةَ القمرِ ليلةَ تمامِه فقالَ: صدقْتَ، الآنَ كَمُلَ حالُكَ وصَلحتَ أنْ تَرجعَ إلى قلبِكَ وأنْ تَستفتيَ نفْسَكَ وإنْ أَفْتَاكَ المفتونَ، وأخرجَهُ مِنَ الخلوةِ.

وما ذاكَ إلَّا لأنَّ النفسَ إذا كانتْ في رعونِها وشهواتِها كانتْ كالمِرْآةِ الصَّدِئة، فإذا قابلتْها الأشياءُ وقَعَ المثالُ فِيها مفسودًا، فإذا صُقِلَتْ بالمجاهدةِ وزالَ عنها الصدأُ ظَهَرَ مثالُ الأشياءِ مستويًا مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ، وجعلتْ تُميِّزُ كُلَّ خاطرٍ يَقعُ فيها لِصفائِها.

وقولُهُ "وَأَفْتَوْكَ" تأكيدٌ لِما قبْلَه، ولا يُعارِضُ قولَهُ في الحديثِ السابقِ: "فَمَنِ اتَّقَى الشبهاتِ... إلخ" فإنَّ مُقتضاهُ أنَّها ليستْ إثمًا، وأُجيبَ بأنَّ هذا محمولٌ عَلى ما إذا قويتِ الشبهةُ ويكونُ مِنْ بابِ تركِهِ الأصلَ الظاهرَ -يَعني أصلَ الحلالِ- لِأجلِ الشبهةِ وتَمكُّنِها، وما سلفَ محمولٌ عَلى ما إذَا ضعُفَتِ الشبهةُ فيَبْقى عَلى أصلِ الحلِّ ويجتنبُ محلَّها ورعًا.

وإنما وحَّدَ الفعلَ الأولَ لِإسنادِه إلى ظاهرٍ، وجُمِعَ الثاني لإسنادِه إلى ضميرٍ، والأصلُ أنَّ الفعلَ إنَّما يكونُ له فاعلٌ واحدٌ فإنْ كانَ ظاهرًا امتنعَ إيصالُ ضميرٍ بالفعلِ لئلَّا يتعددَ الفاعلُ، فلا يَسوغُ نحو "أَفْتَوْكَ النَّاسُ"، وأمَّا ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣] و﴿عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١] فمنْ بابِ البدلِ مِنَ الضميرِ، لا مِنْ بابِ تعدُّدِ الفاعلِ

=وأخرجها أبو يعلى (٧٤٩٢) وغيره من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا.

لامتناعِهِ إلَّا في لغةِ "أَكَلُونِي الْبَرَاغِيثُ"، وهِيَ لغةٌ ضعيفةٌ، وإنْ لَمْ يكنْ ظاهِرًا وجبَ إضمارُهُ لئلَّا يَتجرَّدَ الفِعْلُ عنِ الفاعلِ، وهو غيرُ جائزٍ.

***

التعريف بالإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومناقبه

(**حَدِيثٌ صَحِيحٌ**) وفي نسخةٍ حَسَنٌ، (**رَوَيْنَاهُ**) بالسندِ المتصلِ حالَ كونِهِ (**في مسندِ الإمامَيْنِ**) الجليلَيْنِ: أبي عبدِ اللهِ (**أَحْمَدَ بْنِ**) محمدِ بنِ (**حنبلِ**) بنِ هلالِ بنِ راشدٍ المروزيِّ، قَدِمَتْ به أُمُّهُ مِنْ مروزَ، وهِيَ حاملٌ به إلى بغدادَ فولدتْهُ بها سنةَ مائةٍ وأربعةٍ وستينَ، وكانَ يحفظُ ألفَ ألفِ حديثٍ، وماتَ ببغدادَ ضحوةَ الجمعةِ في ربيعِ الأوَّلِ سنةَ إحدى وأربعينَ ومائتينِ، وله سبعٌ وسبعونَ سنةً، ومسندُهُ فيه أربعونَ ألفَ حديثٍ، وقيلَ: ثلاثونَ، يتكرَّرُ منها عشرةٌ، جمعَهُ مِنْ سبعِمائةِ ألفِ حديثٍ وخمسينَ ألفًا، وقالَ: جعلتُهُ حجةً بيْني وبينَ اللهِ تَعالى.

وقالَ أبو زرعةَ: كانَ أحمدُ يَحفظُ ألفَ ألفِ حديثٍ، قيلَ: وما يُدريكَ؟ قالَ: ذاكرتُه فأخذتُ عليه الأبوابَ[1].

وقالَ الحارثُ بنُ عباسٍ: قلتُ لابنِ مسهرٍ: هلْ تحفظُ أحدًا يَحفظُ عَلى هذهِ الأُمَّةِ أَمْرَ دينِها؟ قالَ: إلَّا شابًّا في ناحيةِ المشرقِ، يَعني الإمامَ أحمدَ.

وقالَ أبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سلامٍ: انتهى علمُ الحديثِ إلى الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ وعليِّ بنِ المدينيِ ويحيى بنِ معينٍ وأبي بكرٍ، قالَ عبدُ الرزَّاقِ: أمَّا يَحيى بنُ معينٍ فما رأيتُ مثلَهُ ولا أعلَمَ بالحديثِ مِنْهُ من غيرِ سردٍ، وأمَّا ابنُ المدينيِ فحافظٌ سرَّادٌ، وأمَّا أحمدُ فما رأيتُ أفقهَ مِنْهُ ولا أوْرَعَ.

وقالَ الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجتُ مِنْ بغدادَ فما خلفتُ فيها أفقهَ ولا أزهدَ ولا أورعَ ولا أعلمَ منهُ.

***

(١) جاء في المخطوط: «فأجرب»، وفي المطبوع: «فأجرى»، ولعله تصحيف، وصوابه "فأخذت" كما في تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر، وفي طبقات الحفاظ للسيوطي، والله أعلم.

فائدةٌ: قالَ المناويُّ في طبقاتِهِ، وارْتَجَّتِ الدُّنْيا لِمَوْتِ أحمدَ بنِ حنبلٍ، وأُغْلِقَتْ بغدادُ لِمَشْهَدِهِ، ومُسِحتِ الأرضُ المبسوطةُ التي وقفَ الناسُ للصلاةِ عَلَيْها في سيرِ مقاديرِ الناسِ بالمساحةِ سِتُّمائةِ ألفٍ، وكانَ يقولُ للمُبْتَدِعةِ: بيْننا وبيْنكم الجنائزُ، وأسلمَ يومَ موتِهِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى عشرةُ آلافٍ، اهـ. وفي "حياةِ الحيوانِ" حُدِّدَ قدرُ مَنْ حضَرَ جنازةَ أحمدَ بنِ حنبلٍ مِنَ الرجالِ فكانوا ثمانمائةِ ألفٍ، ومِنَ النساءِ ستينَ ألفًا، وأسلمَ يومَ موتِهِ عشرون ألفًا مِنَ اليهودِ والنَّصارى والمجوسِ، اهـ. وقالَ النوويُّ في تهذيبِ الأسماءِ واللُّغاتِ: أمَرَ المتوكلُ أنْ يُقاسَ الموضعُ الذي وقَفَ فيه الناسُ للصلاةِ عَلى أحمدَ فبَلَغَ تمامَ ألفي ألفٍ وخمسينَ ألفًا.

***

(و) أبي محمدٍ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ الفضلِ التميميِّ (**الدَّارِمِيِّ**) نسبةً إلى دارمِ بنِ مالكِ بن حنظلةَ بنِ زيدِ بنِ مناةَ بنِ تميمٍ، وُلِدَ سنةَ إحدى وثمانينَ ومائةٍ، وماتَ يومَ الترويةِ سنةَ خمسٍ وخمسينَ ومائتَيْنِ.

***

(**بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ**) وفي نسخةٍ "حَسَنٍ"، فإنْ قلتَ: ما حكمةُ قولِ المصنِّفِ أولًا: حديثٌ صحيحٌ، وقولِهِ هنا: بإسنادٍ جيِّدٍ؟ فالجوابُ أنَّهُ لا تلازمَ بينَ الإسنادِ والمتنِ، فقدْ يَصِحُّ السندُ أو يَحْسُن لاستجماعِ شروطِهِ مِنَ الاتصالِ والعدالةِ والضبطِ دونَ المتنِ لِشذوذٍ فيه أو علةٍ، فنَصَّ المصنِّفُ أوَّلًا عَلى صِحَّةِ المَتْنِ بقولِهِ هنا: حديثٌ صحيحٌ، وثانيًا عَلى صِحَّةِ السَّنَدِ بقولِهِ: بإسنادٍ جيِّدٍ.

***

الحديثُ الثامنُ والعشرونَ

٢٨. عنْ أبي نَجيحِ العِرباضِ بنِ ساريةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: وَعَظَنا رسولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظةً وَجِلَتْ منها القُلوبُ، وذَرَفَتْ منها العُيونُ، فَقُلنا: يا رسولَ اللهِ، كأنَّها موعظةُ مُودِّعٍ، فأَوصِنا، قال: أُوصيكُم بتقوى اللهِ عزَّ وجَلَّ، والسمعِ والطَّاعةِ، وإنْ تأَمَّرَ عليكم عبدٌ، فإنَّه مَنْ يعِشْ منكم بَعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكُم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلفَاءِ الراشِدينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكم ومُحدَثَاتِ الأُمورِ، فإنَّ كلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ. رواهُ أبو داودَ والترمذيُّ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

التعريف بالعرباض ابن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

(**عَنْ أَبي نَجيحٍ**) بفتحِ النُّونِ وكسرِ الجيمِ المهملةِ (**العِرْبَاضِ**) بِكسرِ المُهمَلةِ وسكونِ الرَّاءِ وموحَّدةٍ وآخرُه معجمةٌ، وأصلُه الطويلُ مِنَ النَّاسِ، وغيرُهم الجَلْدُ المخاصِمُ (**بنِ ساريةَ**) -بسينٍ مهملةٍ ومثناةٍ تحتيةٍ- السُّلَميِّ -بضمٍّ ففتحٍ- مِنْ بني سُليمِ بنِ منصورٍ، صحابيٌّ مِنْ أهلِ الصُّفَّةِ، وهم كما قالَ النوويُّ: زُهَّادٌ مِنَ الصحابةِ فُقراءُ غرباءُ كانوا يأْوونَ إلى مسجدِ النبيِّ ﷺ وكانتْ لهم في آخرِهِ صُفَّةٌ، وهِيَ مكانٌ منقطِعٌ مِنَ المسجدِ مُظَلَّلٌ عَلَيْهِ يَبيتونَ فيهِ، وكانوا يَقِلُّونَ ويَكثُرونَ، ففي وقتٍ كانوا سبعينَ، وفي وقتٍ غير ذلكَ.

(**رضي اللهُ عنه**) نَزلَ الشامَ، وسَكَنَ حِمْصَ، وكانَ مِنَ البكَّائينَ الذينَ نَزلَ فيهم قولُه تَعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية [التوبة: ٩٢]، وكانَ مِنَ المُشْتاقينَ إلى اللهِ تَعالى، يُحبُّ أنْ يُقبَضَ إليهِ، يَقولُ في دعائِه: "اللهمَّ كَبُرَ سنِّي، ووهَنَ عظْمي فاقْبِضْني إليكَ". رويَ أنَّ معاويةَ أعطى المقدادَ حمارًا مِنَ المغنمِ فقالَ العرباضُ: ما كانَ لكَ أن تأخذَه، وما كان له أنْ يُعطيَكَ، وكأنِّي بكَ في النَّارِ تَحملُه عَلى عنقِكَ، فردَّهُ المقدادُ، ماتَ العرباضُ في فتنةِ ابنِ الزبيرِ سنةَ خمسةٍ وسبعينَ في خلافةِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ.

(**قَالَ: وَعَظَنَا رَسولُ اللهِ ﷺ**) مِنَ الوعظِ، وهو النُّصحُ والتذكيرُ بالعواقبِ، يُقالُ: وعظْتُهُ فاتَّعَظَ، أيْ قَبِلَ الموعظةَ، (**مَوْعِظَةً**) مَصدرٌ ميميٌّ، وتنوينُها للتعظيمِ أيْ موعظةً عظيمةً، وكانتْ هذهِ الموعظةُ بعدَ صلاةِ الصُّبحِ لِمَا في روايةِ الترمذيِّ (وَعَظَنَا رسولُ اللهِ ﷺ يومًا بعدَ صلاةِ الغداةِ موعظةً بليغةً)(1) أيْ بالغَ فيها بالإنذارِ والتخويفِ لأجلِ ترقيقِ القلوبِ، وكانَ ﷺ يَعِظُ أصحابَهُ في غيرِ الجُمَعِ والأعيادِ امتثالًا لِقولِهِ تَعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وفيهِ ندْبُ المبالغةِ فيها؛ لأنَّ لها وقعًا في النفسِ وتأثيرًا في القلبِ إذا صدرتْ مِنْ قلبِ ناصحٍ سليمٍ مِنَ الأدناسِ والقبائحِ، فالواعظُ ما لم يكنْ مَقالُه كفعالِهِ لا يُنتفعُ بوعظِهِ، ومنزلةُ الواعظِ مِنَ الموعوظِ منزلةُ الطبيبِ مِنَ المريضِ، فكما أنَّ الطبيبَ إذا قالَ للنَّاسِ "لا تأكُلوا كذا فإنَّهُ مُضرٌّ" ثم رأوهُ يأكلُه عُدَّ سخريةً، فكذا الواعظُ إذا أمرَ بما لا يَعمَلُه، فالواعظُ مِنَ الموعوظِ يَجري مجرى الطابعِ مِنَ المطبوعِ، فكما يَستحيلُ الطبعُ بما ليسَ منتقشًا في الطابعِ يَستحيلُ أنْ يَحصلُ في نفسِ الموعوظِ ما ليسَ في الواعظِ.

وقدْ حُكِيَ أنَّ العارفَ الكبيرَ سيِّدي أبا مدينَ المغربيَّ(2) مَكَثَ في بيتِه عامًا لا يَخرجُ منه، فاجتمعَ الناسُ ببابِهِ وقالوا: اخْرُجْ تكلَّمْ إلى الناسِ وأنفعْهم، وألْزَمُوهُ فخرَجَ، ففرَّ منه عصافيرُ عَلى صدرِهِ ببابِ دارِهِ، فرجَعَ وقالَ لوْ صلحتُ للكلامِ علَيْكم ما فرَّ مني الطيرُ، فقَعَدَ في بيتِهِ عامًا آخرَ، فأتوه فخرَجَ، فنزلَ الطيرُ عَليهِ في مجلسِ وعظِهِ يضربُ بأجنحتِهِ ويضطربُ حتى ماتَ منهُ كثيرٌ وماتَ رجلٌ منَ الحاضرينَ، اهـ.

وقيلَ: مَنْ وَعَظَ بقولِه ضاعَ كلامُه، ومَنْ وَعَظَ بِفِعْلِه نَفذَتْ سهامُهُ. وقيلَ: عَمَلُ رجلٍ في ألفِ رجلٍ أبلغُ مِنْ قولِ ألفِ رجلٍ في رجلٍ.

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٧٦) [أبواب العلم- باب ما جاء في الأخذ بالسُّنَّة واجتناب البدع]، وغيره.

(٢) شيخ الشيوخ وسيد العارفين شعيب بن حسين الأندلسي الزاهد أبو مدين، شيخ أهل المغرب، مناقبه شهيرة وكراماته كثيرة، تخرّج به جماعة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال، ومن أشهر تلاميذه الشيخ محيي الدين بن عربي، وترجمته واسعة أفردت بالتأليف، وأفرده من المعاصرين الشيخ عبدالحليم محمود في "شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث"، والعلاوي في "العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب"، تُوفّي سنة ٥٩٤. سير أعلام النبلاء (١٥/٣٨٠)، وطبقات الأولياء لابن الملقن (ص ٤٣٨).

(**وَجِلَتْ**) بكسرِ الجيم، أيْ خافتْ، ومنْهُ ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] مِنَ الوجلِ، وهو الخوفُ مِنْ عذابِ اللهِ (**منها**) أي مِنْ أجلِها، ويَصِحُّ كونُها لابتداءِ الغايةِ، (**القُلُوبُ**) وذلكَ لاستيلاءِ سلطانِ الخشيةِ عَلى القلوبِ وتأثيرِ الرِّقَّةِ فِيها وانزعاجِها مِنْ ذكرِ الساعةِ وأهوالِها والنَّارِ وعذابِها، يشهدُ لِذلكَ قولُ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا ذَكَرَ الساعةَ اشتدَّ غضبُهُ، وعلا صوتُه، واحمرَّتْ عيناهُ، كأنَّهُ منذرُ جيشٍ بقولِه صبَّحكم مسَّاكم)[1].

(**وَذَرَفَتْ**) بذالٍ معجمةٍ وراءٍ مهملةٍ وفاءٍ مفتوحةٍ (**مِنْهَا**) فيها ما مرَّ (**العيونُ**) أي سالتْ دموعُها وانصبَّتْ وكثُرَ جريانُها، وأخَّرَ هذا عمَّا قبْلَه؛ لأنَّهُ إنَّما يَنشأُ عنْهُ غالبًا، والعيونُ جمْعُ كثرةٍ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ تلكَ الموعظةَ أثَّرتْ فيهِمْ، وأخذتْ بمجامعهم ظاهرًا وباطنًا، وذلكَ دليلٌ على كمالِ معرفتِهم ومراعاتِهم لربِّهم، وفيهِ دليلٌ عَلى أنَّ البُكاءَ مِنْ خوفِ اللهِ وعذابِهِ محمودٌ، وقدْ قالَ ﷺ: (ابْكوا، فإنْ لَمْ تَبْكوا فتَبَاكَوْا، فإنَّ أهلَ النَّارِ يَبكونَ حتَّى تَسيلَ دموعُهم في وجوهِهم كأنَّها جداولُ حتى تَنقطِعَ الدموعُ فتَسيلَ الدماءُ فتقرحَ العيونُ، فلوْ أنَّ سفنًا أجريتْ فيها لجَرتْ)[2]، وقالَ ﷺ: (لا يلجُ النارَ مَنْ بَكى مِنْ خشيةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- حتَّى يعودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ)[3]، وقالَ ﷺ: (ما مِنْ قطرةٍ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ قطرةِ دمعٍ مِنْ خشيةِ اللهِ أوْ قطرةِ دمٍ أهريقتْ في سبيلِ اللهِ)[4]. وقالَ كعبُ الأحبارِ: والذي نفْسي بيدِه لأنْ أبكيَ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالى حتَّى تَسيلَ دموعي عَلى وجهي أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بجبلٍ مِنْ ذهبٍ. وقيلَ لِعطاءٍ السلميِّ: ما تَشْتَهي؟ قالَ: أَشْتَهي أنْ أبكيَ حتى لا أقدرَ أن أبكيَ.

وفيه أنَّه يَنبغي لِلعالِمِ أنْ يعظَ الناسَ ويذكِّرَهم ويخوِّفَهم، ولا يقتصرَ بِهم عَلى مجرَّدِ معرفةِ الأحكامِ والحدودِ.

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) [كتاب الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة]، وغيره.
(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبو يعلى (٤١٣٤) [مسند أنس]، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسناد ضعيف.
(٣) أخرجه أحمد (١٠٥٦٠) [مسند أبي هريرة]، والترمذي (١٦٣٣) [أبواب فضائل الجهاد- باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله]، والنسائي (٣١٠٨) [كتاب الجهاد] من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٦)، والبيهقي في الشعب (٧٩٥٥)، والقضاعي في مسنده (١٣٠٨) وغيرهم عن الحسن مرسلًا.

(**فقُلْنَا: يَا رَسولَ اللهِ كأنَّها مَوْعِظةُ مودِّع**) لعلَّهم فَهِموا ذلكَ مِنْ مبالغتِهِ في الموعظةِ واستقصائِهِ فِيها فوقَ العادةِ، فظنُّوا أنَّ ذلكَ لِقُرْبِ وفاتِهِ ومفارقتِهِ لَهُمْ.

وفيهِ جوازُ الحكمِ بالقرائنِ؛ لأنَّهم إنَّما فَهِموا ذلكَ مِنْ توديعِهِ إيَّاهم بإبلاغِهِ في الموعظةِ أكثرَ مِنَ العادةِ، واحتمالُ أنَّهُ عرَّضَ فيها بالتَّوْديعِ -كما عرَّضَ في خطبةِ حجةِ الوَدَاعِ بقولِهِ فيها: (لعلِّي لا ألْقاكم بعدَ عامي هذا) وطفِقَ يودِّعُ النَّاسَ[1]- بعيدٌ، بدليلِ قولِهِم "كأنَّها"، قالَ بعضُ الشُّرَّاحِ: لكنْ في بعضِ طرقِ الحديثِ أنَّ هذهِ موعظةُ مودعٍ[2]، وهِيَ شاهدةٌ بذلكَ الاحتمالِ.

(**فَأَوْصِنَا**) -بفتحِ الهمزةِ- أيْ وصيَّةً جامعةً كافيةً لمهماتِ الدِّينِ والدُّنيا، وفيهِ استحبابُ استدعاءِ الوصيةِ والوعظِ مِنْ أهلِها، واغتنامُ أوقاتِ أهلِ الخيرِ والدِّينِ قبْلَ فواتِها.

***

(**قالَ: أُوصيكُم بتقْوى اللهِ**)؛ لأنَّها زادُ الآخرةِ وكافلةٌ لِمَنْ تمسَّكَ بها بسعادةِ الداريْنِ لِمَا مرَّ مِنْ أنَّها امتثالُ الأوامرِ واجتنابُ النواهي، وتكاليفُ الشرعِ لا تخرجُ عنْ ذلكَ، ولذلكَ أوصى اللهُ تعالى بِها الأوَّلينَ والآخرينَ بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وأصلُها "وِقيَا" بكسرِ أوَّلِهِ وقدْ تُفتَحُ، مِنَ الوِقايةِ، قُلبتِ الواوُ تاءً، ك"تراث"، ثم أبدلتِ الياءُ واوًا. والوقايةُ ما سَتَرَ الرأسَ، فالتَّقيُّ قد جعَلَ بيْنَهُ وبينَ المعاصي وقايةً تَحولُ بيْنَهُ وبيْنَها مِنْ قوَّةِ عزمِهِ عَلى تركِها واستحضارِ علمِهِ بقُبْحِها، وأنْشدَ بعضُهم:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى * وَلَاقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ * وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ النَّسائيُّ في الكبرى (٤٠٠٢) [كتاب المناسك- الأمر بالسكينة في الإفاضة من عرفة]، وغيره من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والحديث في صحيح مسلم (١٢٩٧) [كتاب الحج- باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا..] بلفظ: (فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجَّتي هذه).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) [أبواب العلم- باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع]، وغيره.

(**وَالسَّمْعِ**) إنْ حُمِلَ عَلى أنَّ المُرادَ بِهِ الإصغاءُ إلى كلامِهِ لِيتَمكَّنَ مِنْ فهمِه ومعرفتِه كانَ ما بعدَهُ تأسيسًا لِمغايرتِهِ له، وإنْ حُمِلَ عَلى قبولِ المسموعِ وعبَّرَ عنهُ بالسمعِ؛ لأنَّهُ فائدتُهُ كانَ ما بعدَهُ تأكيدًا، وإليهِ جَنَحَ الدلجيُّ[1] والهيتمي.

(**وَالطَّاعَةِ**) بالفعلِ والاعتقادِ، وهِيَ الموافقةُ في الظاهرِ والباطنِ فيما يؤمَرُ بهِ ويُنهى عنْهُ، فإنْ أطاعَ بِظاهرِهِ دونَ باطنِهِ فهو عاصٍ، وهذا في غيرِ الإثمِ لِحديثِ (لا طاعةَ لِمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ)[2].

وعطفُ السمْعِ والطاعةِ عَلى التَّقْوى مِنْ بابِ عطفِ الخاصِّ عَلى العامِّ نَحوَ ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] لِاشتمالِ الوصيَّةِ بتقوى اللهِ عَلى السمعِ والطاعةِ لِولاةِ أمورِ المسلمينَ، وحكمةُ ذلكَ ترتُّبُ المبالغةِ الآتيةِ عليه، وبعكسِ نحوِ ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧]. وسألَ مسلمُ بنُ يزيدَ الجعفيُّ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: يا نبيَّ اللهِ أرأيتَ إنْ قامتْ علَيْنا أمراءُ يَسألونا حقَّهم ويمنَعونا حقَّنا، فما تأمُرُنا؟ فأعرَضَ عنه، ثم سألَهُ فقالَ: اسْمَعوا وأَطيعُوا، فإنَّما علَيْهم ما حُمِّلوا وعلَيْكم ما حُمِّلتم[3].

(**وَإِنْ تَأَمَّرَ**) وفي روايةِ "وإن استُعمِلَ" (**عَلَيْكُمْ عَبْدٌ**) ولِأحمدَ "حَبَشِيٌّ مُجدَّعٌ"[4]، وللبخاريِّ "حَبَشِيٌّ وإنَّ رأسَهُ زَبيبةٌ"[5]، ولِمسلم "ولَوْ كانَ عبدًا حبشيًّا مُجدَّعَ الأطرافِ"[6].

---

(١) العلامة شمس الدِّين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الدَّلَجيُّ العثمانيُّ الشافعيُّ له شروحٌ على "الخزرجية" و"الشِّفا" للقاضي عياض، و"الأربعين النواوية"، وغيرها تُوفِّي سنة (٩٤٧). انظر: "الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة" للغزي (٦/٢)، و"الشذرات" (٣٨٦/١٠).

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائده على المسند (١٠٩٥) [مسند علي بن أبي طالب] من حديث عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسنادٍ صحيح. وفي الباب عن ابن عمر، وعمران بن حُصين، والحَكم بن عَمرو الغفاريِّ.

(٣) أخرجه مسلمٌ (١٨٤٦) [كتاب الإمارة- باب في طاعة الأُمراء وإنْ منعوا الحُقوق]، وغيره

(٤) مسند أحمد (٢٧٢٦٢) [مسند القبائل- حديث أم الحصين الأحمسية] من حديث أم الحصين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا.

(٥) صحيح البخاري (٧١٤٢) [كتاب الأحكام- باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية] من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٦) صحيح مسلم (١٨٣٧) [كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية..]، وغيره من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وهذا لا يُنافي قولَه ﷺ: (لا يزالُ هذا الأمرُ في قريشٍ ما بَقِيَ منهم اثنانِ، الأئمةُ مِنْ قريشٍ)[١]، (الناسُ تبعٌ لِقريشٍ)[٢]؛ لأنَّ ولايةَ العبدِ قدْ تكونُ ناشئةً عنْ إمامٍ قرشيٍّ، بشهادةِ حديثِ الحاكمِ: (الأئمةُ مِنْ قريشٍ أبرارُها أمراءُ أبرارِها، وفُجّارُها أمراءُ فُجّارِها، ولكُلٍّ حقٌّ فآتوا كُلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، وإنْ أمَّرتْ علَيْكم قريشٌ عبدًا حبشيًّا مجدعًا فاسْمَعوا وأطيعُوا)[٣].

وقولُه "وإنْ تأمَّرَ علَيْكم عبدٌ" إما مِنْ بابِ ضرْبِ المثلِ بغيرِ الواقعِ عَلى طريقِ التقديرِ والفرضِ، وإلَّا فهو لا تَصِحُّ ولايتُهُ، ونَظيرُهُ (مَنْ بَنى للهِ مسجدًا ولوْ كَمفحصِ قطاةٍ بَنى اللهُ له بيتًا في الجنةِ)[٤]، وإمَّا مِنْ بابِ الإخبارِ بالغيبِ، وأن نظامَ الشريعةِ يختلُّ حتَّى توضعَ الولاياتُ في غيرِ أهلِها، والأمرُ بالطاعةِ حينئذٍ إيثارٌ لِأهونِ الضررينِ؛ إذِ الصبرُ عَلى ولايةِ مَنْ لا تجوزُ ولايتُهُ أهونُ مِنْ إيثارِ الفتنةِ التي لا دواءَ لها ولا خلاصَ منْها، ويُرشِدُ إلى هذا تعقيبُ ذلكَ بقولِه:

(فإنَّهُ) أي الشأنَ **(مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ)** بَعْدي **(فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثيرًا)** بينَ الناسِ في ظهورِ الفتَنِ، وفي ظهورِ البدعِ، والظاهرُ أنَّ هذا بِوَحْيٍ أُوحِيَ إليه، فإنَّهُ ﷺ كُشِفَ له عمَّا يكونُ إلى أنْ يَدخُلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، كَمَا صحَّ في حديثِ أبي سعيدٍ وغيرِه[٥]، ويجوزُ أنْ

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٥٠١) [كتاب المناقب- باب مناقب قريش]، ومسلمٌ (١٨٢٠) [كتاب الإمارة- باب الناس تبع لقريش..]، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن الأعرابي في "معجمه" (٢٣٢٠)، والحاكم في "المستدرك" (٧٥/٤) [ذكر فضائل قريش]، وغيرهما من حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والحديث له طُرقٌ وشواهد عن عددٍ من الصحابة بألفاظ مختلفة، وهو صحيحٌ بطرقه وشواهده، وقد أفرده الحافظ ابن حجرٍ بجزءٍ سمّاه "لذة العيش في طرق حديث الإئمَّة من قريش"، وهو مطبوع، وذكره الكتاني في "نظم المتناثر" (١٧٥) [كتاب الإمامة].

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٤٩٥) [كتاب المناقب]، ومسلمٌ (١٨١٨) [كتاب الإمارة- باب الناس تبع لقريش..]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٤) أخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (٣٣٢/١) [ترجمة إبراهيم بن نشيط]، وابن ماجه (٧٣٨) [أبواب المساجد- باب: ومن بنى لله مسجدا]، وابن خزيمة (١٢٩٢) [كتاب الصلاة- باب في فضل المسجد وإن صغر المسجد وضاق]، والطحاوي في "شرح المشكل" (١٥٥٧)، وغيرهم من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٥) أخرجه الترمذي (٢١٩١) [أبواب الفتن- باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة]، وغيره عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا وفيه: (ثم قام خطيبًا فلم يدع شيئًا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه...) الحديث. وقال الترمذي: وفي الباب، عن المغيرة بن شعبه، وأبي زيد ابن أخطب، وحذيفة، وأبي مريم، ذكروا: (أن النبي ﷺ حدثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة).

يَكونَ بنظرٍ واستدلالٍ، ولفظُ ابنِ ماجه "اختلافًا شديدًا"[1]، وقدْ كانَ ذلك، فهو مِنْ معجزاتِه، حيثُ أخبرَ عن غيْبٍ وَقَعَ.

وإتيانُهُ بالسِّينِ دونَ "سوفَ" يدلُّ عَلى قربِ الرؤيةِ، وكانَ الأمرُ كذلكَ، فظهرتْ فتنةُ عثمانَ، وواقعةُ الجملِ، ومحاربةُ معاويةَ لِعليٍّ عَلى الإمارةِ، ومحاربتُهُ لِلحسَنِ عَلَيْها فسلَّمَ الأمرَ إلَيْهِ لأجلِ إطفاءِ نارِ الفتنةِ، وظهرَ أعظمُ الفتنِ وهي قتلةُ الحسينِ، وظهرَ يومَ موتِهِ مِنَ الآياتِ أنَّ السماءَ أمطرتْ دمًا، وأنَّ أوانيَهم مُلئتْ دمًا، وأنَّ السماءَ اشتدَّ سوادُها لانكسافِ الشمسِ حينئذٍ حتَّى رُئِيَتِ النجومُ بالنهارِ، واشتدَّ الظلامُ حتَّى ظُنَّ أنَّ القيامةَ قدْ قامتْ، وأنَّ الكواكبَ ضرَبَ بعضُها بعضًا، ولمْ يُرفعْ حجرٌ إلَّا وُجِدَ تحتَهُ دمٌ غبيطٌ[2]، وأنَّ الوَرْسَ[3] انقلبَ رمادًا، وأنَّ الدُّنْيا أظلمَتْ ثلاثَ أيامٍ وظهرتْ في السَّماءِ الحمرةُ، وقيلَ: احمرَّتْ ثلاثةَ أشهرٍ، وقيلَ: ستَّةَ أشهرٍ، ثم لا زالتِ الحمرةُ تُرى بعدَ ذلكَ بها، وعنِ ابنِ سيرينَ أنَّ الحمرةَ التي معَ الشفقِ لم تكنْ حينَ قُتِلَ الحسينُ.

وفي الحديثِ: (النجومُ أمنةُ السماءِ فإذا ذهبتِ النجومُ أُتِيَ السماءُ ما توعدُ، وأنا أمنةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ أُتِيَ أصحابي ما يُوعَدونَ، وأصحابي أمنةٌ لِأُمَّتي فإذا ذَهبَتْ أصحابي أُتِيَ أُمَّتي ما يُوعَدونَ)[4]، ومعناهُ أنَّ النُّجومَ ما دامتْ باقيةً فالسماءُ باقيةٌ، فإذَا انكدرتْ وتناثرتْ في القيامةِ ذهبَتِ السماءُ فانفطرتْ وانشقتْ، وإذَا ذهبْتُ أُتِيَ أصحابي ما يُوعدونَ مِنَ الفتَنِ والحروبِ، وإذا ذهبتْ أصحابي أُتِيَ أُمَّتي ما يُوعدونَ مِنْ ظهورِ البِدَعِ والحوادثِ في الدِّينِ.

***

(١) سنن ابن ماجه (٤٢) [أبواب السنة- باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين].

(٢) جاء في غلط الفقهاء (ص: ٢١) لابن بَرّي: «ويقول بعضهم: دم غبيط؛ بالغين المعجمة، وصوابه: عبيط، بعين غير معجمة، للطري».

(٣) الوَرْس: نبت أصفر يكون باليمن، تتخذ منه الغُمرة للوجه، تقول منه: أَوْرَسَ المكان فهو وَارِسٌ، ووَرَّسَ الثوب تَوْريسا: صبغه بالوَرْس. [مختار الصحاح]

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٣١) [كتاب فضائل الصحابة - باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه..]، وغيره من حديث أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

الحث على التزام السنة

(**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**) أي الزَموا التَّمَسُّكَ بطريقَتِي وسيرَتِي القويمةِ الَّتي أنَا علَيْها ممَّا أصَّلْتُه لكم مِنَ الأحكامِ الاعتقاديَّةِ والعمليَّةِ الواجبةِ والمندوبةِ والمباحةِ، وما تقرَّرَ مِنْ أنَّ معْنى السُّنَّةِ الطريقةُ القويمةُ هو ما توافَقَ فيهِ اللغةُ والشرعُ، وتخصيصُها بما طُلِبَ طلبًا غيرَ جازمٍ اصطلاحٌ حادثٌ قَصَدوا به التمييزَ بَيْنَها وبيْنَ الفرضِ.

قالَ عبدُ الرحمنِ بنُ زَيدٍ: لَقِيَ ابنُ مسعودٍ رجلًا مُحرِمًا وعَلَيْهِ ثيابُهُ، فقالَ: انزعْ عنْكَ هذا، فقالَ الرجلُ: اقرأْ عَليَّ بهذا آيةً مِنْ كتابِ اللهِ، قالَ: نَعَمْ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، فامتثلَ ونزَعَ ثيابَهُ.

(**وَسُنَّةِ**) أيْ طريقةِ (**الْخُلَفَاءِ**) جَمْعُ خليفةٍ، وهو كُلُّ مَنْ قامَ مَقامَ غيرِهِ، وإنَّما أُطلِقَ عَلى الصحابةِ ذلكَ؛ لأنَّهم خلَفوا رسولَ اللهِ ﷺ في الأحكامِ، (**الرَّاشِدِينَ**) جَمْعُ راشدٍ، وهو مَنْ عَرَفَ الحقَّ واتَّبعه، والغاوي مَنْ عَرَفَهُ ولَمْ يتبعْهُ، والضالُّ مَنْ لَمْ يعْرِفْهُ بالمرَّةِ، (**الْمَهْدِيِّينَ**) جَمْعُ مَهْدِيٍّ، وهو مَنْ هَداهُ اللهُ لأقْومِ طريقٍ، و"الراشدينَ المهديِّينَ" لفظانِ مترادفانِ معناهما واحدٌ، يُحتمَلُ أنَّهما اسمَا مفعولٍ، أي الذينَ أرشدَهم اللهُ وهَداهم، ويُحتمَلُ أنَّهما اسما فاعلٍ أي المُرشدينَ الهادينَ لِغيرِهم، وهو عامٌّ أُريدَ به خاصٌّ، واللَّامُ للعهدِ، والمعهودُ أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ والحسنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فإنَّ ما عُرِفَ عنْ هؤلاءِ أو بعضِهم أَوْلى بالاتباعِ مِنْ بقيةِ الصحابةِ إذَا وَقَعَ بيْنَهم الخِلافُ فيه.

وقدْ وَرَدَ أنَّ رجلًا حَلَفَ أنْ لا يطأَ زوجتَهُ حينًا فأفتاهُ أبو بكرٍ بأنَّ الحينَ الأبدُ، وعمرُ بأنَّهُ أربعونَ سنةً، وعثمانُ بأنَّهُ سنةٌ واحدةٌ، وعليٌّ بأنَّهُ يومٌ وليلةٌ، فعرضَ الرجلُ ذلك عَلى النبيِّ ﷺ فدعاهم فقالَ لأبي بكرٍ: ما دليلُكَ عَلى أنَّ الحينَ الأبدُ؟ قالَ: قولُه في حقِّ يونسَ ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، وقالَ لعمرَ: ما دليلُكَ عَلى أنَّ الحينَ أربعونَ سنةً؟ قالَ: قولُه تَعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ...﴾ [الإنسان]، آدمُ أُلْقِيتْ طينتُه عَلى بابِ الجنةِ أربعينَ سنةً، وقالَ لِعثمانَ: ما دليلُكَ عَلى أنَّهُ عامٌ؟ قالَ: قولُه تَعالى ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وقالَ لِعليٍّ: ما دليلُكَ عَلى أنَّهُ يومٌ وليلةٌ؟ قالَ: قولُه تَعالى: ..

.. ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، فقالَ ﷺ: (أصحابي كالنجومِ بأيِّهم اقْتَدَيْتم اهْتَدَيْتم، وأمَرَ الرجلَ أنْ يأخذَ بقولِ عليٍّ تخفيفًا له)[١]، ومذهبُنا موافقٌ لِمَا أفْتى به عثمانُ.

وقالَ ﷺ: (الخلافةُ بعدي ثلاثونَ سنةً، ثم تَصيرُ مُلكًا عضوضًا)[٢]، وقدْ تَمَّتْ بولايةِ الحسنِ ستةُ أشهرٍ، وقالَ: (اقتدوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدي أبي بكرٍ وعُمَرَ)[٣]، فخصَّ مِمَّا تقدَّمَ اثْنَيْنِ، وقالَ للمرأةِ الَّتي سألتْهُ وأَمَرَها أنْ ترجعَ إليهِ، فقالتْ: فإنْ لمْ أجدْكَ؟! تُريدُ الموتَ، فقالَ: ائتي أبا بكرٍ[٤]، قالَ التوربشتي: وإنَّما ذكر سُنَّتَهم في مقابلةِ سُنَّتِه؛ لأنَّهُ عَلِمَ أنَّهم لا يُخطِئونَ فيما يَستخرِجونَهُ ويَستنبِطونَهُ مِنْ سُنَّتِهِ بالاجتهادِ، ولأنَّهُ عرفَ أنَّ بعضَ سنَّتِهِ لا تشتهر إلا في زمانِهم فأضافَ إليْهم أنَّ مَنْ ذهَبَ إلى ردِّ تلكَ السنَّةِ مخطئٌ، فأطلقَ القولَ باتباعِ سنَّتِهم سدًّا للبابِ، اهـ.

وقدْ وَرَدَ أنَّ العَوْلَ[٥] لمْ يكنْ في زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ ولا زمنِ أبي بكرٍ الصديقِ، وأوَّلُ مَنْ

(١) القصة لا أصل لها في كتب السنة، وقوله: (أصحابي كالنجوم): أخرجه عبد بن حميد في "مسنده" (٧٨٣) عن ابن عمر، ورواه القضاعي في "مسند الشهاب" (١٣٤٦) من حديث أبي هريرة. وأسانيده مُتكلَّمٌ فيها لا تقوم بها الحُجَّة كما قال ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" (٩٢٥/٢)، بل قال غير واحد من الحُفَّاظ ببطلانه، نعم قال البيهقيُّ: "ورد ما يؤدِّي بعض معنى الحديث" يعني تشبيههم بالنجوم فقط، وهو في "صحيح مسلم" (٢٥٣١): من حديث أبي موسى مرفوعًا بلفظ: (النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمَّتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمَّتي ما يوعدون). وانظر الكلام عليه بالتفصيل في كتاب "تخريج أحاديث المنهاج" (حديث رقم ٧٣) للسيِّد عبدالله ابن الصِّدِّيق الغماريِّ.

(٢) تقدَّم تخريجه في شرح الحديث السادس عشر.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٦) [حديث حذيفة بن اليمان]، والترمذي (٣٦٦٢) []، وابن ماجه (٩٧) [أبواب السنة- باب في فضائل أصحاب رسول الله - ﷺ]، والبزَّار (٢٨٢٧) [مسند حذيفة]، وابن حبَّان (٦٩٠٢) [كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة]، والطبرانيُّ (٧٢/٩)، وغيرهم من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٦٥٩) [كتاب المناقب- باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا]، ومسلمٌ (٢٣٨٦) [كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل أبي بكر الصديق]، وغيرهما من حديث جبير بن مطعم.

(٥) العول في اللغة: الزيادة، وعالت الفريضة في الحساب زادت. وفي الاصطلاح: زيادة سهام الفروض عن أصل المسألة، بزيادة كسورها عن الواحد الصحيح. ويترتب عليه نقصان أنصباء الورثة في التركة بنسبة هذه الزيادة.=

نزَلَ به ذلكَ عُمَرُ، فقالَ: لا أدْري من أخَّرَه الكتابُ فأؤخره ولا من قدَّمَهُ فأُقَدِّمُه، ولكنْ رأيتُ رأيًا فإنْ يكنْ صوابًا فمنَ اللهِ، وإنْ يكنْ خطأً فمنْ عُمَرَ، وهو أنْ يَدخُلَ الضررُ عَلى جميعِهم فحَكَمَ بالعولِ، ويُقالُ: إنَّ الذي أشارَ عَلَيْه بذلكَ العباسُ، ولمْ يُخالِفْهُ أحدٌ مِنَ الصحابةِ إلَّا ابنَ عباسٍ، لكنَّهُ لمْ يُظهِرْ ذلك إلَّا بعدَ موتِ عُمَرَ إجلالًا لهُ.

وهذا في حقِّ المقلِّدِ الصِّرْفِ في تلك الأزمنةِ القريبةِ مِنْ زمنِ الصحابةِ، أمَّا فيما بعدَ ذلك فلا يَجوزُ -كما قالَ ابنُ الصلاحِ- تقليدُ غيرِ الأئمةِ الأربعةِ، مالكٍ وأبي حنيفةَ والشافعيِّ وأحمدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لأنَّ هؤلاءِ عُرِفتْ قواعدُ مذاهبِهم، واستقرتْ أحكامُها، وخَدَمَها تابعوهم وحرَّروها فرعًا فرعًا وحكمًا حكمًا.

(عَضُّوا عَلَيْها) وحَّدَ الضميرَ؛ لأنَّ سُنَّتَهم كسُنَّتِهِ في وجوبِ الاتباعِ، **(بالنَّوَاجِذِ)** بذالٍ معجمةٍ، الأنيابُ، وقيلَ: الأضراسُ، أيْ عَضُّوا عَلَيْها بجميعِ الفمِ لا نَهْشًا بأطرافِ الأسنانِ، وهو كنايةٌ عنْ شدَّةِ التَّمَسُّكِ بها، لأنَّ النواجذَ محددةٌ إذا عضتْ شيئًا نشبتْ فيه فلَا يَكادُ يَتخلَّصُ، ومنهُ قولُهم: "ليسَ في الأمرِ بمعضٍّ" أيْ متمسكٍ.

***

(وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ) -بفتحِ الدَّالِ- جَمْعُ مُحْدَثَةٍ، **(الْأُمُورِ)** أي اتَّقوا الأمورَ المختَرَعَةَ في الدِّينِ المُخالِفةَ لِسُننِ الخلفاءِ الراشدينَ واحذَروها، وكثيرًا ما كانَ يَتمثَّلُ الإمامُ مالكٌ بِهذا البيتِ كما سَلَفَ:

وخَيْرُ أُمُورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةً * وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحْدَثَاتُ الْبَدَائِعُ

=قيل: إن أول مسألة عالت هي امرأةٌ توفيت عن زوج وأختين -وقد وقعت في صدر خلافة عمر- فاستشار الصحابة في ذلك وقال: والله ما أدري أيكم قدم الله وأيكم أخر؟ وإني إن بدأت بالزوج فأعطيته حقه كاملا لم يبق للأختين حقهما، وإن بدأت بالأختين فأعطيتهما حقهما كاملا لم يبق للزوج حقه. فأشار عليه بالعول العباس بن عبد المطلب على المشهور، أو علي بن أبي طالب، أو زيد بن ثابت في روايات أخرى. ويروى أن العباس قال: يا أمير المؤمنين أرأيت لو مات رجلٌ وترك ستة دراهم، لرجل عليه ثلاثةٌ، ولآخر عليه أربعةٌ كيف تصنع؟ أليس تجعل المال سبعة أجزاء قال: نعم ، قال العباس: هو ذلك، فقضى عمر بالعول. [الموسوعة الفقهية الكويتية].

(**فإِنَّ**) ذلكَ بدعةٌ، وَإِنَّ (**كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**) وجاءَ في بعضِ رواياتِ هذا الحديث: (فإِنَّ كُلَّ مُحْدَثٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ)[1]، وقالَ بعضُ المفسِّرينَ: المغضوبُ عَلَيْهم: أهلُ البِدَعِ.

التحذير من البدعة المحرمة

وعنْ عطاءِ الخراسانيِّ لَمَّا نَزَلَ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] صرَخَ إبليسُ صرخةً عظيمةً فاجتمعَ إليه فيها جنودُهُ من أقطارِ الأرضِ قائلينَ: ما هذهِ الصرخةُ التي أفزعتْنا؟ قالَ: أمْرٌ نَزَلَ بي لم يَنزلْ قطُّ أعظمُ منْهُ، قالوا: وما هو؟ فتَلا عليهم الآيةَ، وقالَ لهم: هلْ عندكم مِنْ حيلةٍ؟ قالوا: ما عندَنا منْ حيلةٍ، فقالَ لهم: اطلبوا فإني سأطلبُ، قالَ: فلَبثوا ما شاءَ اللهُ، ثم صرخَ أُخرى، فاجتمَعوا إليهِ، وقالوا ما هذه الصرخةُ الَّتي لم نَسمَعْ مثلَها إلَّا الَّتي قبْلَها؟ قالَ: وهلْ وجدْتم شيئا؟ قالوا: لا، قالَ: لكنِّي قدْ وجدتُ، قالوا: وما وجدتَ؟ قالَ: أُزيِّنُ لهم البِدَعَ الَّتي يَتخذونَها دينًا ثُمَّ لا يَستغفرونَ[2]، أيْ لأنَّ صاحِبَ البدعةِ يَراها بجهلِهِ حقًّا وصوابًا، ولا يَراها ذنبًا حتَّى يَستغْفِرَ.

وقدْ جاءَ في الحديثِ: (أبى اللهُ أنْ يَقبَلَ عملَ صاحبِ بدعةٍ حتَّى يَدعَ بِدْعتَهُ)[3]، أيْ لا يُثيبُهُ عَلى عملِهِ ما دامَ متلبِّسًا بتلكَ البدعةِ، وهو عامٌّ مخصوصٌ بالبدعةِ المحرَّمةِ؛ إذ البدعةُ تَعتريها الأحكامُ الخمسةُ كما سَبَقَ، فالمرادُ الكليَّةُ الأغلبيَّةُ، وفي بعضِ الرواياتِ: (فإنَّ كُلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ).

---

(١) أخرجها بهذه الزيادة النسائي (١٥٧٨) [كتاب صلاة العيدين- كيف الخطبة]، وابن خزيمة (١٧٨٥) [كتاب الجمعة- باب صفة خطبة النبي ﷺ]، وأبو نعيم (١٨٩/٣) [ترجمة محمد الباقر]، وغيرهم من حديث جابر.

(٢) ذكره الحلبي في سيرته (١٠٠/١).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٥٠) [أبواب السنة- باب اجتناب البدع والجدل]، وابن أبي عاصم في "السنة" (٣٩) [باب ما ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: لا يقبل الله عمل صاحب بدعة]، والخطيب في "تاريخ بغداد" (١٨٧/١٣) [ترجمة مهدي بن محمدالطبري]، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا بإسناد ضعيف جدًا مسلسل بالمجاهيل. وفي الباب عن أنس بن مالك عند أبي الشيخ في "طبقات المحدثين بأصبهان" ٣/٦١٠ - ٦١١، والطبراني في "الأوسط" (٤٢١٤)، والبيهقي في "الشعب" (٩٤٥٧) بلفظ: (إن الله احتجب التوبة عن كل صاحب بدعة)، وإسناده ضعيفٌ أيضًا.

وأخرجَ أبو نعيم: (أهلُ البدعِ شرُّ الخلْقِ والخليقة)[1]، والخلْقُ والخليقةُ مُترادفانِ، وقيلَ: المرادُ بالأوَّلِ البهائمُ وبالثاني غيرُهم. وأخرجَ غيرُه: (أصحابُ البدعِ كلابُ النَّارِ)[2]. وأخرجَ البيهقيُّ وابنُ أبي عاصمٍ في السُّنَّةِ: (أبى اللهُ أنْ يَقبَلَ عَملَ صاحبِ بدعةٍ حتَّى يَدعَ بِدْعتَهُ)[3].

قالَ بعضُهم: واعلمْ أنَّ أهلَ البدعِ ثمانيةٌ: المعتزلةُ القائلونَ بأنَّ العبادَ خالقُو أعمالِهم، وبنفي الرؤيةِ ووجوبِ الثوابِ والعقابِ، وهم عشرونَ فرقةً، والشيعةُ المُفرِطونَ في محبَّةِ عليٍّ، وهمُ اثنانِ وعشرونَ فرقةً، والخوارجُ المُفْرِطةُ المُكفِّرةُ لِمؤمنٍ أذْنَبَ ذنبًا كبيراً، وهمْ عشرونَ فرقةً، والمرجئةُ القائلونَ بأنَّهُ لا يَضرُّ معَ الإيمانِ معصيةٌ ولا يَنفعُ معَ الكفرِ طاعةٌ، وهمْ خمسُ فرقٍ، والبخاريَّةُ الموافِقةُ لِأهلِ السُّنَّةِ كما في خلْقِ الأفعالِ، ولِلمُعتزِلةِ في نفيِ الصفاتِ وحدوثِ الكلامِ، وهم ثلاثُ فرقٍ، والجبريَّةُ القائلونَ بسلبِ الاختيارِ عنِ العبادِ فرقةٌ، والمُشبِّهةُ الذينَ يُشبِّهونَ الحقَّ بالخلْقِ فرقةٌ أيضًا، فتلكَ اثنانِ وسبعونَ فرقةً، كُلُّهم في النَّارِ، والفرقةُ الناجيةُ همْ أهلُ السُّنَّةِ، وقدْ وَرَدَ: (ستَفْتَرِقُ أُمَّتي عَلى بضعٍ وسبعينَ فرقةً كُلُّهم في النَّارِ إلا فرقةً واحدةً، وهِيَ ما أنا علَيهِ وأصحابي)[4].

(رَواهُ أبو داودَ والترمذيُّ، وقالَ: حديثٌ حَسَنٌ)، وفي نسخةٍ: حسَنٌ صحيحٌ.

***

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٩٥٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢٩١/٨) [ترجمة أبي سعيد الموصلي]، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصححه ابن الصديق في "المداوي" (٩٤/٣)، وقال على شرط البخاري.

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٨١٠) وعزاه لأبي حاتم الخزاعي في جزءه من حديث أبي أمامة، وأشار إلى ضعفه. وأخرجه الرافعي في تاريخ قزوين (٤٥٨/٢) ووقع عند عن أبي أسامة، وأظنه تصحيف، والله أعلم.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) [أبواب الإيمان- باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله]، وغيره من حيث عبدالله بن عمرو مرفوعًا وفي الباب عن أبي هريرة، وسعد، وعوف بن مالك.

الحديثُ التاسعُ والعشرونَ

٢٩. عنْ مُعاذِ بنِ جَبلٍ رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ قالَ: قُلتُ: يا رسولَ الله، أخبرني بِعَمَلٍ يُدخِلُني الجنَّةَ ويُبَاعِدُني عَنِ النَّارِ، قالَ: لقدْ سألتَ عَنْ عَظيمٍ، وإنَّه لَيسيرٌ عَلى مَنْ يسَّرَه اللهُ تعالى عليه: تَعبُدُ الله لا تُشْرِكُ بِه شَيئا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتِي الزكاةَ، وتَصُومُ رمضانَ، وتَحُجُّ البيتَ. ثمَّ قالَ: ألا أدُلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصَّدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ كمَا يُطفِئُ الماءُ النَّارَ، وصلاةُ الرَّجُلِ في جوفِ الليلِ، ثمَّ تَلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧]. ثمَّ قالَ: ألا أخْبِرُك برأسِ الأمرِ وعمودِهِ وذِروةِ سنامِه؟ قُلتُ: بَلى يا رسولَ الله، قالَ: رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُه الصَّلاةُ، وذِروةُ سَنَامِه الجِهادُ. ثمَّ قالَ: ألا أُخبِرُك بِملاكِ ذلك كلِّه؟ فقلتُ: بلى يا رسولَ الله، فأخَذَ بِلِسَانِه، وقالَ: كُفَّ عليكَ هذا، قلتُ: يا نبيَّ الله وإنَّا لمُؤَاخَذونَ بما نتكَلَّم بِه؟ فقالَ: ثَكلتْكَ أمُّكَ، وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وجوهِهِم -أو قالَ: على مناخِرِهِم- إلا حَصَائدُ ألسنتِهِم؟. رواه الترمذيُّ وقال: حَديثٌ حَسَنٌ صَحيح.

(عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ) -بالتحريكِ- ضِدُّ السَّهْلِ، (رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ قالَ):

(قُلْتُ: يَا رسولَ اللهِ أخبِرْني)، وفي روايةٍ: "أَنْبِئْني"[١] (بعَمَلٍ) التنوينُ فيه للتعظيمِ أو النوعيةِ، أيْ عملٍ عظيمٍ أو معتبرٍ في الشَّرْعِ، فلا يَرِدُ ما قِيلَ: إنَّهُ إذَا جُعِلَ "يُدْخِلُني" جوابَ الأمرِ يَبْقَى "بعَمَلٍ" غَيْرَ موصوفٍ، والنكرةُ غيرُ الموصوفةِ لا تُفيدُ، (يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ) إمَّا أنْ

(١) أخرجها الطبراني (٢٠/رقم ٢٩٢)، والحاكم (٢/٤١٢) [كتاب التفسير].

يُجعَلَ مرفوعًا، والجملةُ في محلِّ جَرٍّ صِفَةٍ لقولِهِ: "بعمَلٍ"، أوْ مجزومًا، قالَ الطيبيُّ: وفي مثلِهِ مذهبانِ: أحدُهما: مذهبُ الخليلِ، وهو أنْ يُجعَلَ الأمرُ بمعنى الشرطِ وجوابُ الأمرِ جزاءً، والتقديرُ "إنْ تُخبرْني بعمَلٍ يُدخِلْني الجنَّةَ"، وفيهِ إقامةُ السببِ الَّذي هو الإخبارُ مقامَ المُسبِّبِ الذي هو العملُ؛ لأنَّ العملَ هو السببُ ظاهرًا لا الإخبارُ. الثاني: مذهبُ سيبويهِ أنَّ الجوابَ جزاءُ شرطٍ محذوفٍ، تقديرُه "أخبرْني بعمَلٍ إنْ عملتُهُ يُدخلْني الجنةَ".

(وَيُباعِدُنِي عَنِ النَّارِ)، وفي روايةِ أحمدَ: (إنِّي أريدُ أسأُلُكَ عنْ كلمةٍ قدْ أمرضتْني وأسقَمَتْني وأحزنتْني، قالَ: سَلْ عمَّا شِئْتَ، قالَ: أخبرْني بعمَلٍ يُدخلُني الجَنَّةَ لا أسأُلُكَ غيرَه)[1]، وفيهِ دليلٌ عَلى شِدَّة اعتنائِهِ بالأعمالِ الصالحةِ وعظيمِ فصاحتِهِ، فإنَّهُ أوجَزَ وأبلَغَ؛ ولهذا حَمِدَ المصطفى ﷺ مسألَتَه واستعظَمَها، وأنَّ الأعمالَ سببٌ لِدخولِ الجَنَّة، ويَشهَدُ له قولُه تَعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقولُه تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]. ولا يُنافيهِ حديثُ البخاريِّ: (لَنْ يَدخُلَ أحدُكم الجَنَّةَ بعمَلِهِ، قالوا: ولا أنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنَا، إلَّا أنْ يَتغمَّدَني اللهُ برحمتِهِ)، وفي روايةٍ: (لنْ يُدخِلَ أحدًا منكم الجنةَ عملُهُ)[2]؛ لأنَّ العملَ نفسَهُ لا يَستحِقُّ به أحدٌ الجَنَّةَ ما لم يكنْ مقبولًا، والقبولُ إنَّما يَحصُلُ برحمةِ اللهِ، أوِ المرادُ به جنةٌ خاصةٌ، أي تلك الجنةُ الخاصةُ الرفيعةُ بسببِ الأعمالِ، وأمَّا الدخولُ فبالرحمةِ، أو أنَّ الباءَ في "بما كنتم" لِلمُلابسةِ، أي أورثتموها ملابسةً لِأعمالِكم أي لِثوابِ أعمالِكم، أو للعوضِ والمقابلةِ، والمعطي لِعوضٍ قدْ يُعطي مجَّانًا، لا لِلسببيَّةِ؛ لأنَّ المُسبِّبَ لا يوجَدُ بدونِ السببِ خلافًا لِلمعتزلةِ القائلينَ بأنَّ العمَلَ سببٌ لِدخولِها، وأمَّا الباءُ في حديثِ "لنْ يدخُلَ أحدُكم الجنةَ بِعملِهِ" فهيَ سببيَّةٌ ولا كلامَ.

---

(١) مسند أحمد (٢٢١٢٢) [تتمة مسند الأنصار- حديث معاذ بن جبل].

(٢) الحديث متفقٌ عليه ومخرج في عدة مواضع في الصحيحين بألفاظ متقاربة؛ منها ما أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣) [كتاب المرضى- باب تمني المريض الموت]، و(٦٤٦٤) [كتاب الرقاق- باب القصد والمداومة على العمل]، ومسلمٌ (٢٨١٨) [كتاب صفات المنافقين وأحكامهم- باب لن يدخل أحد الجنة بعمله]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

فائدةٌ: أخرجَ الحاكمُ وصحَّحَهُ أنَّه ﷺ قالَ: خرَجَ مِن عندي خليلي جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ آنِفًا فقالَ: يا محمدُ، والذي بعثَكَ بالحقِّ إنَّ للهِ عبدًا مِنْ عبادِه عبدَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- خمسَمائةِ سنةٍ عَلى رأسِ جبلٍ في البحرِ عرضُهُ وطولُهُ ثلاثونَ ذراعًا في ثلاثينَ ذراعًا، والبحرُ المحيطُ به أربعةُ آلافِ فرسخٍ مِنْ كُلِّ ناحيةٍ، وأخرَجَ له عينًا عذبةً بعرضِ الأصبعِ تَبضُّ بماءٍ عذْبٍ فَتستنقِعُ في أسفلِ الجبلِ، وشجرةَ رمانٍ تُخرِجُ كلَّ ليلةٍ رمانةً، يَتعبَّدُ يومَهُ فإذا أمسى نَزلَ فأصابَ مِنَ الوضوءِ وأخذَ تلك الرُّمَّانَةَ فأكَلَها، ثم قامَ لِصلاتِه فسألَ ربَّه عندَ وقتِ الأجلِ أنْ يقبِضَهُ ساجدًا، قالَ: ففعَلَ، فنحنُ نَمُرُّ علَيْه إذا هَبَطْنا وإذا عَرَجْنا فنَجدُ لهُ في العِلْمِ أنَّه يُبعَثُ يومَ القيامةِ فيُوقَفُ بيْنَ يدي اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فيقولُ له الربُّ -جَلَّ جلالُه-: أدْخِلوا عبدي الجَنَّةَ برحمتي، فيقولُ: ربِّ، بَلْ بِعملي، فيقولُ اللهُ تعالى: قَايِسُوا عبدي بنعمتي عَليه وبعملِه، فتوجدُ نعمةُ البصرِ قدْ أحاطتْ بعبادةِ خمسمائةِ سنةٍ، وبقِيَتْ نِعَمُ الجَسَدِ فضلًا عَلَيْه، فيقولُ: أدخلوا عبدي النَّارَ، فيُجَرُّ إلى النَّارِ، فيُنادي: يا ربِّ برحمتِكَ أدْخِلْني الجنَّةَ، فيقولُ: رُدُّوه، فيوقَفُ بيْنَ يديه، فيقولُ: يا عبدي مَنْ خَلقَكَ ولمْ تَكُ شيئًا؟ فيقولُ: أنتَ يا ربِّ، فيقولُ: مَنْ قوَّاكَ لِعبادةِ خمسمائةِ سنةٍ؟ فيقولُ: أنتَ يا ربِّ، فيقولُ: ومَنْ أنزلَكَ في جبلٍ في وسطِ اللُّجةِ، وأخرجَ لكَ الماءَ العذبَ مِنَ الماءِ المالِحِ، وأخرجَ لكَ كلَّ ليلةٍ رمانةً، وإنَّما تَطرَحُ مرةً في السنةِ، وسألْتَهُ أنْ يَقبضَكَ ساجدًا ففعَلَ؟ فيقولُ: أنتَ يا ربِّ، قالَ: فذلكَ برحمتي، وبرحمتي أُدخِلُكَ الجنَّةَ، أدخلوا عبدي الجنَّةَ، فنِعْمَ العبدُ كُنْتَ يا عبْدِي، فأدخَلَهُ اللهُ الجنَّةَ، قالَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّما الأشياءُ برحمةِ اللهِ يا محمدُ.[1]

(قالَ) رسولُ اللهِ ﷺ لِمُعاذ: **(لَقَدْ)** اللَّامُ واقعةٌ في جوابِ مُقدَّرٍ، والتقديرُ "واللهِ" **لَقَدْ (سأَلْتَ عَنْ)** عَمَلٍ **(عَظيم)**؛ لأنَّ عِظَمَ الشيءِ بِعِظَمِ الأسبابِ، والنجاةُ مِنَ النَّارِ أمرٌ عظيمٌ، فكيفَ معَ دخولِ الجنة؟ **(وَإنَّه)** أي العملَ الذي يُدخِلُ الجَنَّةَ ويُباعِدُ عنِ النَّارِ **(لَيَسيرٌ عَلى مَنْ يسَّرهُ اللهُ)** تَعالى **(عَلَيْه)** بتوفيقِهِ وتهيئتِه أسبابَ الطاعةِ وشرحِ صدرِهِ لِلسَّعيِ فيما يؤدِّيه إلى

(١) "المستدرك" (٤/٢٥٠) [كتاب التوبة والإنابة]، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين.

السَّعادةِ الأبديَّةِ، ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، (اعْمَلُوا ما شِئتم فكُلٌّ مُيسَّرٌ لِما خُلِقَ له)[1]، وبالجُملةِ فالتوفيقُ إن ساعدَ على شيءٍ تيسَّرَ وإنْ كانَ ثِقلَ الجبالِ.

(تَعْبُدُ اللهَ) عدَلَ عنْ صيغةِ الأمرِ تنبيهًا عَلى أنَّ المأمورَ كأنَّهُ مُسارِعٌ إلى الامتثالِ، وهو يُخبِرُ عنهُ إظهارًا لرغبتِهِ في وقوعِهِ، والمرادُ بالعبادةِ النُّطقُ بالشهادتَيْن، ولمَّا عبَّرَ بالعبادةِ احتاجَ أنْ يُوضِّحَها بقولِهِ (لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا)، ومنهُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] أيْ وَحِّدُوهُ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أيْ يُوحِّدُونِ، ويُحتمَلُ أنَّ العبادةَ ها هنا تَتناولُ الإيمانَ الباطنَ والإسلامَ الظاهرَ، قالَ تَعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، والأقربُ الأوَّلُ كما قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ.

درجات العبادة

والعبادةُ -كما قالَ شيخُ الإسلامِ في شرحِ الرسالةِ القشيريَّةِ- لها ثلاثُ درجاتٍ: عُلْيا ووسطى ودُنْيا، فالعُلْيا أنْ يَعمَلَ العبدُ للهِ وحدَهُ امتثالًا لأمرِهِ وقِيامًا بحقِّ عبوديَّتِهِ، والوسطى أنْ يَعمَلَ لثَوابِ الآخرةِ، والدُّنْيا أنْ يَعمَلَ للإكرامِ في الدُّنْيا والسلامةِ مِنْ آفاتِها، وما عرى عنِ الثلاثِ فهو مِنَ الرِّياءِ، وإنْ تفاوتَتْ أفرادُهُ، واللَّامُ في قولِهِ: "للإكرام" لامُ العاقبةِ ولِلسَّلامةِ لا لامُ العلَّةِ، فالعملُ للهِ فقطْ، لكنَّهُ يؤُولُ عِندَ الاطِّلاعِ عليهِ إلى الإكرامِ.

وذَكَرَ بعضُ المفسرينَ عنْ بعضِ العارفِينَ ما مُحصَّلُه أنَّ العبادةَ لَها ثلاثُ درجاتٍ، أوَّلُها أنْ تَعبُدَ اللهَ تعالى طَمَعًا في الثَّوابِ وهَرَبًا مِنَ العِقابِ، وهذا هو المُسمَّى بالعبادةِ، وأوسَطُها أنْ تَعبُدَ اللهَ لِتتشرَّفَ بعبادتِهِ أو لِتَتَشرَّفَ بقبولِ تكاليفِهِ أو بالانتسابِ إليهِ، وهذهِ أعلى مِنَ الأولى، وأعلاها أنْ تَعبُدَهُ لِكونِهِ إلهًا واحدًا وخالقًا ولكونِكَ عبدًا لهُ. وهذا يُعكِّرُ على ما قالَهُ شيخُ الإسلامِ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٩٤٩) [كتاب تفسير القرآن- باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾]، ومسلمٌ (٢٦٤٧) [كتاب القدر- باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه]، وغيرهما من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**وتُقيمُ**) بالرَّفع (**الصَّلاةَ**) وهو وما بَعدَهُ مِنْ عطفِ المغايرِ عَلى المعنى الأَوَّلِ في "تَعْبُد"، وعليهِ فيكونُ قدْ ذكرَ له التوحيدَ وأعمالَ الإسلام، والخاصَّ عَلى العامِّ عَلى المعنى الثاني.

(**وتُؤتِي الزَّكاةَ**) وهِيَ القدْرُ المُخرجُ مِنَ النِّصابِ لِلمُستَحقِّ، وأَتى بالزَّكاةِ عَقِبَ الصلاةِ؛ لأنَّ الصلاةَ أعظمُ الطَّاعاتِ البدنيَّةِ، والزكاةَ أعظمُ الطاعاتِ الماليَّةِ، وقدْ كَتَبَ سلمانُ إلى أبي الدرداءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يا أخي، إيَّاكَ أنْ تجمَعَ مِنَ الدُّنْيا ما لا تُؤدِّي شُكْرَهُ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: يُجاءُ بصاحبِ الدُّنْيا الذي أطاعَ اللهَ فيها ومالُه بيْنَ يديهِ، كُلَّما تَكفَّأَ به الصراطُ -أيْ مالَ- قالَ لهُ مالُه: امضِ، فقدْ أدَّيْتَ حقَّ اللهِ فيَّ، ثُمَّ يُجاءُ بصاحبِ الدُّنيا الذي لَمْ يُطعِ اللهَ فيها ومالُه بيْنَ يديهِ، كُلَّما تكفَّأَ به الصِّراطُ قالَ له مالُهُ: ويلَكَ، ألَا أدَّيْتَ حقَّ اللهِ فيَّ، فما يَزالُ كذلكَ حتَّى يَدعوَ بالويلِ والثبورِ[1]. (**وتَصومُ**) شهْرَ (**رمضانَ، وتَحُجُّ البيْتَ**) الحرامَ إنِ استطعتَ إليهِ سبيلًا.

***

(**ثُمَّ قالَ**) ﷺ (**أَلَا أَدُلُّكَ**) أيْ أُرشِدُكَ، وهو عَرْضٌ مُتضَمِّنٌ لِلحثِّ، نحو ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ الآية [الصف: ١٠]، أيْ أعْرِضُ ذلكَ عليكَ، فهلْ تُحِبُّهُ، قَصْدُه التَّشويقُ إلى ما سيَذكُرُه له ليكونَ أوْقَعَ في نفْسِه وأبْلَغَ في ملازمتِهِ وأحَثَّ عَلى استفراغِها لإفادتِه، (**عَلى أبوابِ الخيرِ**) أيْ طُرُقِهِ وأسبابِهِ الموصِّلَةِ إلَيْهِ، ومِنْ ثَمَّ جَعَلَها أبوابًا له لِترتُّبِه علَيْها تَشبيهًا له بأمتعةٍ في مكانٍ له أبوابٌ، فهو استعارةٌ مكنيةٌ تخييليَّةٌ، ثُمَّ الإضافةُ إنْ كانتْ بيانيَّةً كانَ المرادُ به الأعمالَ الصالحةَ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى أعمالٍ أكملَ مِنْها كما استُفيدَ مِنْ تسميتِها أبوابًا، فهو مِنَ المجازِ البليغِ لِمَا فيه من تشبيهِ المعقولِ بالمحسوسِ، وآثرَ جَمْعَ القلَّةِ إشارةً إلى تسهيلِ الأمرِ عَلى السامعِ لِيزيدَ تَشوُّقَه وإقبالَه، وإنْ كانتْ بِمعنى اللَّامِ كانَ المُرادُ بِهِ الجزاءَ العظيمَ، وبِها جميعُ الأعمالِ الصالحةِ، ويدلُّ لِلثَّاني روايةُ ابنِ ماجه: (ألَا أدلُّكَ عَلى أبوابِ الجنةِ)[2]، ولِلأوَّلِ تخصيصُ بعضِ الأعمالِ بالذِّكْرِ بقولِهِ:

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠١٧٤).

(٢) سنن ابن ماجه (٤١٠٨) [كتاب الفتن- باب كَفِّ اللِّسَانِ فِي الْفِتْنَةِ].

(**الصَّوْمُ**) أيْ صومُ النَّفْلِ؛ لأنَّ الفرضَ تقدَّمَ، (**جُنَّةٌ**) -بضمِّ الجيم- أيْ وقايةٌ مِن استيلاءِ الشهوةِ والغفلةِ في العاجلِ ومِنَ النَّارِ في الآجلِ، قالَ الطيبيُّ: إنَّما جُعِلَ الصومُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ؛ لأنَّ في الجوعِ سدَّ مَجاري الشيطانِ كما في الحديثِ: (إنَّ الشيطانَ يَجري مِن ابنِ آدمَ مَجْرى الدَّمِ فسُدُّوا مَجارِيَهُ بِالجوعِ)[1]، فإذا سدَّ مجارِيَهُ لم يَدخُلْ فيه، فلمْ يَكُنْ سببَ العصيانِ الذي هو سببُ دخولِ النَّارِ، وفي خَبَرِ النسائيِّ: (الصومُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ كجُنَّةِ أحدِكم مِنَ القتالِ)[2].

(**والصَّدَقَةُ**) أيْ نفلُها؛ لأنَّ فرْضَها مرَّ ذِكْرُهُ (**تُطْفِئُ**) -بضَمِّ أوَّلِه وهمزِ آخرِه- أيْ تَمْحو، وفي روايةٍ: تُكَفِّرُ[3] (**الخَطِيئَةَ**) بالهمزِ بوزنِ "فَعِيلَةٍ"، ورُبَّما أُسقِطَتِ الهمزةُ وشُدِّدتِ الياءُ، والمرادُ الصغيرةُ المُتعَلِّقةُ بحقِّ اللهِ، أمَّا الكبيرةُ فلا يَمْحُوها إلَّا التوبةُ، وأمَّا حقُّ الآدميِّ فلا يَمحوه إلَّا رِضا صاحبِهِ.

حكايات في فضل الصدقة

ووَرَدَ أنَّ امرأةً جاءتْ إلى حسانَ بنِ سنانٍ فسألَتْه شيئًا فجَعَلَ يَنظُرُ إلَيْها، فإذا هِيَ امرأةٌ جميلةٌ فقالَ: يا غلامُ أعْطِها أربعَمائةِ درهمٍ، فقيلَ له: إنَّما تَسألُكَ درهمًا فأعطيْتَها أربعَمائةِ درهمٍ، فقالَ: لمَّا نظَرْتُ إلى جمالِها خشيتُ أنْ تَقَعَ في معصيةٍ فأحببتُ أنْ أُغنيَها عَسى أنْ يَرغَبَ فيها أحدٌ فيتزوَّجَها. ووجَّهَ رجلٌ ابنَهُ في تجارةٍ فمضتْ أشهرٌ ولمْ يَقَعْ له علَى خَبَرٍ، فتصدَّقَ برغيفَيْنِ وأرَّخَ ذلكَ اليومَ، فلمَّا كانَ بعدَ سنةٍ رَجَعَ ابنُهُ سالمًا فسألَهُ أبوهُ: هلْ أصابَكَ في سفرِكَ بلاءٌ؟ فقالَ له: غرقتِ السفينةُ بنا في وسطِ البحرِ وغرقتُ مع جُملةِ الناسِ، وإذا بشابَّيْنِ أَخَذاني فطَرَحاني عَلى الشطِّ وقالا لي: قُلْ لِوالدِكَ هذا بِرغيفَيْنِ، فكيفَ لَوْ تصدَّقْتَ بزائدٍ عَلى ذلكَ؟!

وأمَّا مَنْعُ الصدقةِ فيُصيِّرُ العزيزَ ذليلًا. وحُكِيَ أنَّ رجلًا جلسَ يومًا يأكلُ هو وزوجتُهُ وبيْنَ يديهما دجاجةٌ مشويَّةٌ، فوقَفَ سائلٌ ببابِهِ فخَرَجَ إليه ونَهَرَهُ، فاتَّفَقَ بعدَ ذلك أنَّ الرجلَ افتقَرَ وزالتْ نعمتُهُ وطلَّقَ زوجتَهُ، وتزوَّجتْ بعدَهُ برجلٍ فجلَسَ يأكُلُ في بعضِ الأيامِ هو وزوجتُهُ وبيْنَ

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٠٣٨) [كتاب بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده]، ومسلمٌ (٢١٧٥) [كتاب السلام]، وغيرهما من حديث السيدة صفية بنت حيي رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٢) سنن النسائي (٢٢٣١) [كتاب الصيام].

(٣) أخرجها أبو داود الطيالسي (٥٦١) [أحاديث معاذ بن جبل]، والطبراني في الكبير (٢٠/رقم ٣٠٤)، وغيرهما.

يديهما دجاجةٌ، وإذا بسائلٍ يَطرُقُ البابَ، فقالَ لزوجتِه: ادفعي له هذه الدجاجةَ فخرَجَتْ بها إليه، فإذا هو زوجُها الأوَّلُ فدفعتْ إليه الدجاجةَ ورجعَتْ باكيةً، فسألَها زوجُها عنْ بكائِها فأخبرَتْهُ أنَّ السائلَ كانَ زوجَها وذكرتْ له قصَّتَها معَ السائلِ الذي انتهرَهُ زوجُها، فقالَ لها زوجُها: أنا ذلك السائلُ.

(**كَمَا يُطْفِئُ الماءُ النَّارَ**) إذا أُلقِيَ علَيْها، وإنما استعارَ لفْظَ الإطفاءِ لمقابلتِه بقولِه: "كما يُطفِئ ...إلخ"، أو لأنَّ الخطيئةَ يَترتَّبُ علَيْها العقابُ الذي هو أثَرُ الغضبِ المستعملِ فيه الإطفاءُ، وفيهِ استعارةٌ تبعيةٌ؛ لأنَّهُ شبَّهَ إذهابَ الصدقةِ للخطيئةِ بالإطفاءِ واستعارَه له ثم اشتقَّ منه الفعلَ، أو تخييليَّةٌ؛ لأنه شبَّهَ الخطيئةَ بالنارِ، وأثبتَ لها ما هو منْ لَوازمِها منَ الإطفاءِ، وخُصَّتِ الصدقةُ بذلك لِتعدِّي نفعِها؛ لأنَّ الخلْقَ عيالُ اللهِ، وهيَ إحسانٌ إليهم، والعادةُ أنَّ الإحسانَ إلى عيالِ الشخصِ يُطفِئُ غضبَهُ، وسببُ إطفاءِ الماءِ النارَ أنَّ بيْنَهما غايةَ التَّضادِّ؛ إذْ هِيَ حارَّةٌ يابسةٌ والماءُ باردٌ رَطْبٌ، فقدْ ضادَّها بكيفيَّتِه، والضدُّ يَدفَعُ الضِّدَّ ويعدمُه، وإنَّما قالَ: الصومُ جُنَّةٌ والصدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ، ولمْ يَقُلْ: الصومُ والصدقةُ والصلاةُ في جوفِ الليلِ بدونِ ما ذِكرٍ للإشارةِ إلى اختلافِ أنواعِ الخيرِ.

فَإنْ قُلْتَ: ما إعرابُ ما ذُكِرَ؟ فالجوابُ أنَّ قولَه "الصومُ" مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ، تقديرُه منها الصومُ، وقولُهُ "جُنَّةٌ" خَبَرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ أيْ وهو جُنَّةٌ، وكذا قولُه: والصدقةُ تُطفِئُ الخطيئةَ.

وقدْ سُئِلَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أيُّ الصدقةِ أفضلُ؟ قالَ: الماءُ، أَلَمْ تَرَ إلى أهلِ النارِ حينَ استغاثوا بأهلِ الجَنَّةِ (أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله)[1] ورُوِيَ أنَّ سعدًا أتى إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: أيُّ الصدقةِ أعجبُ إليكَ؟ قالَ: الماءُ، فحَفَرَ بئرًا، وقالَ: هذه لأُمِّ سعدٍ[2]، وفي روايةٍ أخرى: أنَّهُ قالَ: يا رسولَ اللهِ إنَّ أُمَّ سعدٍ كانتْ تُحِبُّ الصدقةَ، أفيَنفَعُها أنْ أتصدَّقَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٨٥٣٣) [سورة الأعراف- آية ٥٠]، وأبو يعلى (٢٦٧٣) [مسند ابن عباس]، والطبراني في الأوسط (١٠١١)، وغيرهم.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: أبو داود (١٦٧٩) و(١٦٨١) [كتاب الزكاة- باب في فضل سقي الماء]، والحاكم (٤١٤/١) [كتاب الزكاة]، وغيرهما.

عنْها؟ قالَ: نَعَمْ، وعليكَ بالماءِ[1].

ورَوى البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: (بيْنَما رجُلٌ يَمشي بطريقٍ اشتدَّ علَيْهِ العَطشُ، فنزَلَ بِئرًا فشَرِبَ ثُمَّ خَرجَ، فإذا كَلْبٌ يأكُلُ الثَّرى مِنَ العطشِ فقالَ: لقدْ بَلغَ هذا الكلبُ مِثْلَ الذي بَلغْتُ، فمَلأَ خُفَّهُ ثم أمْسَكَهُ بِفيهِ ثم رقِيَ فسَقَى الكلبَ،فشَكَرَ اللهُ له فغَفَرَ له)، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وإنَّ لنا في البهائمِ أجرًا؟ قالَ: (في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجْرٌ)، وفي روايةٍ: (في كُلِّ كبدٍ حَرَّى أجْرٌ)[2].

وورد أنَّ امرأةً كانتْ بَغيَّةً فرأتْ كلبًا عطشانًا فانتزعتْ بخُفِّها ماءً فسقتْهُ فغَفَرَ اللهُ لَهَا[3]، وعنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (مَنْ سَقى مُسلمًا شربةً مِنْ ماءٍ حيثُ لا يوجدُ الماءُ فكأنَّما أعتقَ رقبةً، ومَنْ سَقى مسلمًا شربةً مِنْ ماءٍ حيثُ لا يوجدُ الماءُ فكأنَّما أحياها)[4].

وإخفاءُ الصدقةِ أَوْلى لِقولِه تَعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٧١]، ولِمَا رَواه أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ ﷺ قالَ: (إنَّ صدقةَ السِّرِّ تُطفِئُ غضبَ الرَّبِّ وتَدفعُ ميتةَ السُّوءِ)[5]، ولِذا كانَ عليُّ بنُ الحسينِ يَحملُ الخبزَ عَلى ظَهْرِهِ باللَّيْلِ ويَتتبَّعُ به المساكينَ، ويَقولُ: إنَّ الصدقةَ في سوادِ الليلِ تُطفِئُ غضبَ الرَّبِّ، ولَمَّا ماتَ وُجِدَ في ظهرِهِ أثرُ سوادٍ، فقالَ الغاسِلُ ما هذا؟ فقيلَ: إنَّه كانَ يَحملُ جرابَ الدقيقَ عَلى ظهرِهِ ويُعطيهِ لِفقراءِ أهلِ المدينةِ، وكانَ إذا أتاهُ سائلٌ رحَّبَ به وقالَ: مرحبًا بِمَنْ يَحملُ زادَنَا إلى الآخرةِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٤٥) [تتمة مسند الأنصار- حديث سعد بن عبادة]، والنسائي (٣٦٦٤) [كتاب الوصايا] وابن خزيمة (٢٤٩٦) [كتاب الزكاة- باب فضل سقي الماء إن صح الخبر] والطبراني في الأوسط (٨٠٦١)، وغيرهم.

(٢) تقدم تخريجه ص ٤٩٦. ومعنى حرَّى: عطشى، يقال: حَرَّ الرجلُ يحَرُّ حِرَّة وحَرارة، فهو حَرَّان، وهي حَرَّى.

(٣) تقدم تخريجه ص ٤٩٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٤٧٤) [أبواب الصدقات- باب المسلمون شركاء في ثلاث]، والطبراني في الأوسط (٦٥٩٢)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيف.

(٥) أخرجه الترمذي (٦٦٤) [كتاب الزكاة- باب ما جاء في فضل الصدقة]، وابن حبان (٣٣٠٩) [كتاب الزكاة- باب صدقة التطوع]، وغيرهما دون لفظ "السر". وحسنه الترمذي، وفي الباب عن أبي سعيد، ومعاوية بن حيدة.

فائدةٌ: أخرجَ الشيخانِ مِنْ جُملةِ حديثٍ طويلٍ: (وإنَّكَ إنْ تُنفقْ نفقةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إلا أُجرْتَ عَلَيْها حتَّى مَا تَجْعَلُ في فِي امرأتِكَ)[1]، وأخرجَ أحمدُ بإسنادٍ جيِّدٍ: (ما أطعمْتَ نفْسَكَ فهو لكَ صدقةٌ -أيْ إنْ كانَ مِمَّا لا بُدَّ مِنْهُ لقصدِ التقوِّي به عَلى الطاعةِ كما هو معلومٌ مِنَ القواعدِ الشرعيَّةِ- وما أطعمْتَ ولدَكَ فهو لَكَ صدقةٌ، وما أطعمْتَ زوْجَكَ فهو لكَ صدقةٌ، وما أطعمْتَ خادِمَكَ فهو لكَ صدقةٌ)[2].

وأخرجَ الطبرانيُّ بإسنادٍ حسنٍ: (مَنْ أنفقَ عَلى نفسِهِ يَستعِفُّ بِها فهي صدقةٌ، ومَنْ أنفقَ عَلى امرأتِهِ وولدِهِ وأهلِ بيتِهِ فهِيَ صدقةٌ)[3]، وهذا مُفسِّرٌ لِمَا قبْلَهُ.

وأخرَجَ الدارقطنيُّ والحاكمُ وصحَّ إسنادُهُ: (كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وما أنفَقَ الرجلُ عَلى أهلِ بيتِهِ كُتِبَ له صدقةٌ، وما وقى به المرءُ عِرْضَهُ كُتِبَ له به صدقةٌ، وما أنفَقَ المؤمنُ مِنْ نفقةٍ فإنَّ خَلْفَها على اللهِ، واللهُ ضامنٌ إلَّا ما كانَ في بُنْيانٍ أوْ مَعْصيةٍ)[4]، وفُسِّرتْ وقايةُ العرضِ بِما يُعْطى لِلشَّاعِرِ وذي اللسانِ المتَّقَى.

وأخرجَ الطبرانيُّ في الأوسطِ: (أوَّلُ ما يوضَعُ في ميزانِ العبدِ نفقتُهُ عَلى أهلِهِ)[5]. وأخرجَ الطبرانيُّ بسندٍ صحيحٍ: (كلُّ ما صنعتَ إلى أهلِكَ فهو صدقةٌ عَليْهِم)[6].

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٦) [كتاب الإيمان- باب ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة]، ومسلمٌ (١٦٢٨) [كتاب الوصية- باب الوصية بالثلث]، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) مسند أحمد (١٧١٧٩)، و(١٧١٩٢) [مسند الشاميين- حديث المقدام] بلفظ: (ما أطعمت نفسك، فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك، فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك، فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك، فهو لك صدقة).

(٣) المعجم الأوسط (٣٨٩٧) من حديث أبي أمامة.

(٤) المستدرك (٢/٥٠) [كتاب البيوع]، وسنن الدار قطني (٢٨٩٥) [كتاب البيوع]، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وقوله: (كل معروف صدقة) في الصحيحين، وعدَّه بعضهم من المتواتر انظر: نظم المتناثر للكتاني (١١٩) [كتاب الزكاة].

(٥) المعجم الأوسط (٦١٣٥) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٦) أخرجه النسائي في الكبرى (٩١٤٠) [كتاب عشرة النساء]، وابن حبان (٤٢٣٧) [كتاب الرضاعة- باب النفقة]، وأبو يعلى (٦٨٧٧) [حديث عمرو بن أمية الضمري]، وغيرهم من حديث عمرو بن أمية الضمري.

(وصَلاةُ الرجلِ) خُصَّ بالذِّكرِ؛ لأنَّ السائلَ رَجلٌ، ولأنَّ الخيرَ غالبٌ في الرجالِ؛ إذْ أكثرُ أهلِ النارِ النساءُ، لا للاحترازِ عنِ المرأةِ؛ لأنَّها مثلُهُ في ذلكَ، **(بِجَوْفِ اللَّيلِ)** أي «في» وبها عبَّرَ في بعضِ النسخِ، وحروفُ الجرِّ تَتناوبُ، أو لِابتداءِ الغايةِ فيكونُ مبدأُ الصلاةَ جوفَهُ، أو لِلتَّبعيضِ أيْ صلاةُ بعضِ جوفِ الليلِ؛ إذْ هي فيه مطلقًا أفضلُ مِنْها في النهارِ؛ لأنَّ الخشوعَ والتضرعَ فيه أسهلُ وأكملُ، ولِلإمامِ أحمدَ: (وقيامُ الرجلِ في جوفِ الليلِ يُكفِّرُ الخطيئةَ)[1].

فضل قيام الليل

قالَ ابنُ مسعودٍ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ: ذُكِرَ عند النَّبيِّ ﷺ أنَّ رجُلًا ينامُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فقالَ: ذاكَ رجُلٌ بالَ الشيطانُ في أذنِه[2]. وأَوْحى اللهُ إلى داودَ: يا داودُ، كَذَبَ في مَحبَّتي مَنْ إذا جَنَّ ليلُه نامَ عنِّي[3]. ولَمَّا قالَ الخليلُ لابنِه ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] قالَ: يا أبتِ هذا جزاءُ مَنْ نامَ عنْ حبيبِه، لوْ لمْ تَنَمْ ما أُمِرْتَ بالذبحِ[4].

وقيلَ لِلحَسَنِ البصريِّ: ما بالُ المتهجِّدينَ مِنْ أحسَنِ النَّاسِ وجوهًا؟ فقالَ: لأنَّهم خَلَوْا بالرحمنِ فأَلْبَسَهم نوراً مِنْ نورِه[5].

وعنْ أبي مالكٍ الأشعريِّ قالَ: قالَ ﷺ: (إنَّ في الجَنَّة غُرَفًا يُرى ظاهرُها مِنْ باطنِها، وباطنُها مِنْ ظاهرِها أعدَّها اللهُ لِمَنْ أَلانَ الكلامَ وأطعمَ الطعامَ وتابعَ الصيامَ وصلَّى باللَّيْلِ والناسُ نيامٌ)[6].

---

(١) مسند أحمد (٢٢٠٦٨).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٢٧٠) [كتاب بدء الخلق- باب صفة إبليس وجنوده]، ومسلمٌ (٧٧٤) [كتاب صلاة المسافرين- باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح]، وغيرهما.

(٣) ذكره القشيري في الرسالة (٥٦٠/٢) [باب المعرفة بالله]وغيره، بصيغة التمريض، ولم أجده مسندًا عن داود ٱلسَّلَامُ، وأخرجه أبو نعيم (٩٩/٨) [ترجمة الفضيل بن عياض]، والدينوري في المجالسة (١٣٢) من كلام فضيل بن عياض، وكذا نسبه ابن رجب في جامع العلوم (١٠٨٧/٣) للفضيل رحمه الله.

(٤) ذكره القشيري في الرسالة (٥٦٠/٢) [باب المعرفة بالله]، عن الأستاذ أبي عليٍّ الدقَّاق.

(٥) أخرجه الدينوري في المجالسة (١٣٣)، والآجري في فضل قيام الليل (٨)، وغيرهما.

(٦) أخرجه أحمد (٢٢٩٠٥) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي مالك الأشعري]، وابن خزيمة (٢١٣٧) [كتاب الصيام]، وابن حبان (٥٠٩) [كتاب البر والإحسان- باب إفشاء السلام]، والطبراني (٣/رقم ٣٤٦٦)، وغيرهم. وفي الباب عن علي وعبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

ويَحصُلُ فضلُ قيامِه بصلاةِ ركعتَيْنِ لخَبَرِ: (مَنْ قامَ مِنَ اللَّيْلِ ولوْ قدْرَ حَلْبِ شاةٍ كُتِبَ مِنْ قُوَّامِ اللَّيْلِ)[1]، وخبرِ: (مَنِ استيقظَ مِنَ الليلِ وأيقظَ امرأتَهُ فصلَّيَا ركعتَيْنِ جميعًا كُتبَا مِنَ الذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكراتِ)[2].

واختُلِفَ في فضْلِ أجزائِه، والصحيحُ الذي دلَّتْ عليه الأحاديثُ أنَّهُ إنْ جزَّأَه نصفَيْنِ، فالنصفُ الثاني أفضلُ، أو ثلاثًا فالثلثُ الأخيرُ أفضلُ، أو أسداسًا فالسدسُ الرابعُ والخامسُ أفضلُ، وهذا هو الأكملُ عَلى الإطلاقِ؛ لأنَّهُ الذي واظبَ عليهِ النَّبيُّ ﷺ وقالَ فيه: (أفضلُ الصلاةِ صلاةُ أخي داودَ، كانَ يَنامُ نصفَ الليلِ، ويَقومُ ثلثَهُ، ويَنامُ سُدسَهُ)[3].

ورُئِيَ الجنيدُ بعدَ موتِه فقيلَ له: ما فعَلَ اللهُ بِكَ؟ فقالَ: طاحتِ تلك الإشاراتُ، وغابتِ تلك العباراتُ، وفنيتِ العلومُ ونفدتِ الرسومُ، وما نَفَعَنَا إلا رُكَيْعاتٌ كنَّا نركعُها عندَ السَّحَرِ.

وكانَ أبو حنيفةَ يُحيي نِصفَ اللَّيْلِ، فأشارَ إليهِ إنسانٌ وهو يَمشي وقالَ لغيرِه: هذا يُحيي اللَّيْلَ كُلَّهُ، فلَمْ يزلْ بعدَ ذلك يُحيي الليلَ كُلَّه، وقالَ: إني استحييتُ مِنَ اللهِ أنْ أوصَفُ بما ليْسَ فيَّ مِنْ عِبادتِهِ. ولبعضِهم:

تَغَيَّرْتُمُو عَنَّا بِصُحْبَةِ غَيْرِنَا * وَأَظْهَرْتُمُ الْهِجرانَ ما هَكَذَا كُنَّا

وأَقْسمْتُمُو أَنْ لا تَحُولُوا عَنِ الْهَوَى * فحُلْتُمْ عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَمَا حُلْنَا

لَيَالِيَ كُنَّا نَشْتَفِي بِوِصَالِكُمْ * وَقَلْبِي إِلَى تِلْكَ اللَّيَالِي قَدْ حَنَّا

وقدِ اجتهدَ السلفُ الصالحُ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ مِنْ بعدِهم في قيامِ الليلِ:

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة (٦٦٠٨) [كتاب الصلوات]، والبيهقي في الشعب (٢٩٤٦) عن الحسن: (صلوا من الليل ولو قدر حلب شاة). وأخرجه ابن مردويه كما في كنز العمال (٤٦٨٢) [باب في القرآن] عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٥١) [كتاب الصلاة- باب الحثِّ على قيام الليل]، والنسائي في الكبرى (١٣١٢) [كتاب قيام الليل]، وابن ماجه (١٣٣٥) [أبواب إقامة الصلوات- باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل]، وابن حبان (٢٥٦٨) [كتاب الصلاة- باب النوافل]، والحاكم (٣١٦/١) [كتاب الوتر]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١١٣١) [كتاب التهجد- باب من نام عند السحر]، ومسلمٌ (١١٥٩) [كتاب الصيام- باب النهي عن صوم الدهر]، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

- كعثمانَ بنِ عفانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فإنَّهُ كانَ يَصومُ النهارَ ويقومُ الليلَ إلَّا ضجعةً أولَهُ، وكانَ يَجمعُ القرآنَ في ركعةٍ،

- وعبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاص، وكان زوَّجَهُ أبوه امرأةً مِنْ قريشٍ ثُمَّ جاءَ إِلَيْها فقالَ: كيفَ وجدتِ بعْلَكِ؟ قالتْ: خيرُ الرجالِ لم يَلْبَسْ لَنا كساءً ولمْ يَعرفْ لنا فِراشًا،

- وعبدِ اللهِ بنِ حنظلةَ قالَ مولى له يُقالُ له سعدٌ: لمْ يكنْ لِعبدِ اللهِ فراشٌ ينامُ عليهِ، إنَّما كانَ يُلْقِي نَفْسَه هَكَذا إذا أُعْيِيَ مِنَ الصلاةِ تَوَسَّدَ رداءَهُ وذراعَه ثم يَهجَعُ قليلًا،

- وصفوانِ بنِ سليمٍ كانَ أعطى للهِ عهدًا أنَّهُ لا يَضعُ جنبَهُ عَلى الأرضِ فلمَّا نَزَلَ به الموتُ قِيلَ له: رَحِمَكَ اللهُ ألا تَضطجِعَ، قالَ: ما وَفَّيْتُ بالعهدِ إذًا، فاستندَ وما زالَ كذلكَ حتَّى خرجتْ نفسُهُ، قالَ أهلُ المدينة: وتثقَّبتْ جبهتُهُ مِنْ كثرةِ السجودِ،

- وعروةَ بنِ الزبيرِ كانَ يَقرأُ القرآنَ كُلَّ يوم نظرًا في المصحفِ ويَقومُ به الليلَ، فما نَراهُ تَرَكَهُ إلا ليلةَ قُطِعَتْ رجلُهُ ثم أعادَهُ مِنَ اللَّيْلةِ الثانيةِ المقبلةِ،

- وسفيانَ الثوريِّ كانَ إذا جاءَ اللَّيْلُ يَقولُ: هذهِ لَيْلَتِي التي أموتُ فيها، فما ينامُ حتَّى يُصبِحَ، وإذا أصبحَ قالَ كذلكَ، ويَلبَسُ الثيابَ الرِّقاقَ في البردِ حتَّى يَمنعَهُ البردُ مِنَ النَّوْمِ،

- وعامرِ بنِ عبدِ قيسٍ كانَ إذا جاءَ اللَّيْلُ قالَ: أذهَبَ عنِّي النومَ حرُّ النارِ، فما يَنامُ حتى يُصبِحَ،

- وصهيبٍ حكى الإمامُ مالكٌ عنه أنَّهُ كانَ بمكةَ فقالتْ له امرأتُهُ: أفسدتَ نفسَكَ، نهارَكَ صائمٌ وليلَكَ قائمٌ، فقالَ: يا مَوْلاتي: إذا ذكرتُ النارَ طارَ نومي، وإذا ذكرتُ الجنةَ استقرَّ حُزني

- والسريِّ السقطيِّ كانَ وِردُهُ في اللَّيْلِ والنَّهارِ خمسَمائةِ ركعةٍ،

- والإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ أقامَ نيفًا وعشرينَ سنةً يُصلِّي الصبحَ بوضوءِ عشاءِ الآخرةِ،

- وعبدِ العزيزِ بنِ أبي روادٍ كانَ يأتي فِراشَهُ فيُمرُّ يدَهُ عليه ويقولُ: واللهِ إنكَ ليِّنٌ وفراشُ الجنةِ أَلْيَنُ منك، فيُدرجُهُ ويُصلِّي الليلَ كُلَّهُ،

وكانَ سيِّدي عبدُ الوهَّابِ الشعرانيُّ قبْلَ بلوغِهِ رُبَّما ختمَ القرآنَ في ركعةٍ واحدةٍ، وكانَ أبو بكرٍ كثيراً ما يَنشدُ ويَقولُ:

الشَّوْقُ وَالوَجْدُ فِي مَكَانِي * قَدْ مَنَعَانِي عَنِ الْقَرَارِ

هُمَا بِيَّ لَا يُفَارِقَانِي * فَذَا شِعَارِي وَذَا دِثَارِي

وكانَ سريٌّ السقطيُّ يُنشِدُ ويَقولُ:

لَا فِي النَّهَارِ ولَا فِي اللَّيْلِ لِي فَرَجٌ * فَلَا أُبَالِي أَطَالَ اللَّيْلُ أَمْ قَصُرَا

لِأَنَّنِي طُولَ لَيْلِي هَائِمٌ دَنِفٌ * وَبِالنَّهَارِ أُقَاسِي الْهَمَّ وَالْكَدَرَا

وعنْ عليِّ بنِ بكارٍ قالَ: لي منذُ أربعينَ سنةً ما أحزَنَني إلَّا طلوعُ الفجرِ، وكانَ سيِّدي أحمدُ الرفاعيُّ يقولُ:

إِذَا جَنَّ لَيْلِي هَامَ قَلْبِي بِذِكْرِكُمْ * أَنُوحُ كَمَا نَاحَ الْحَمَامُ الْمُطَوَّقُ

وَفَوْقِي سَحَابٌ تُمْطِرُ الْهَمَّ وَالأَسَى * وَتَحْتِي بِحَارٌ بِالأَسَى تَتَدَفَّقُ

فَلَا هُوَ مَقْتُولٌ فَفِي الْقَتْلِ رَاحَةٌ * وَلَا هُوَ مَمْنُونٌ عَلَيْهِ فَيُعْتَقُ

وقولُه: "وصلاةُ الرجلِ" قالَ البيضاويُّ: وهو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أيْ "كذلكَ تطفئُ الخطيئةَ"، أو"هِيَ مِنْ أبوابِ الخيرِ"، والأولُ أظهرُ لِاستشهادِهِ ﷺ بالآيةِ، وهيَ متضمنةٌ لِلصلاةِ والإنفاقِ، ونقلَهُ الطيبيُّ، ثمَّ قالَ: والأظهرُ أنْ يُقَدَّرَ الخبرُ "شعارُ الصالحينَ" كما في جامعِ الأصولِ ويفيدُ فائدةً مطلوبةً زائدةً عَلى القرينتينِ، وهيَ أنَّهما كما أفادتَا المباعدةَ عنِ النَّارِ فتفيدُ هذهِ الإدخالَ في الجنةِ ويتمُّ الاستشهادُ بالآيةِ؛ لأنَّ قرةَ العينِ كنايةٌ عنِ السرورِ والفوزِ التامِّ، وهو مباعدةُ النارِ ودخولُ الجنَّةِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

(ثُمَّ تَلا) لفظَ ابنِ ماجهْ[١]: "ثم قرأَ" يَعني احتجاجًا عَلى فضْلِ صلاةِ الليلِ ومدحًا لفاعل

(١) سنن ابن ماجه (٣٩٧٣) [أبواب الفتن- باب كف اللسان في الفتنة].

ذلك قولُه تَعالى: ﴿تَتَجَافَى﴾ أيْ تتنحى وتَرتفِعُ وتَنْبو ﴿جُنُوبُهُمْ﴾ جَمْعُ جنبٍ، وهوَ ما تَحتَ إبطِهِ إلى كشحِهِ ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي مواضعِ الاضطجاعِ لِلنَّوْمِ وهو الفرشُ؛ لأنَّهُ جَمْعُ مضجَع -بفتحِ الجيمِ- وهو موضعُ الاضطجاعِ للنومِ (حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾)، وروايةُ الترمذيِّ وابنِ ماجه: حتَّى بَلَغَ ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾[1]، وذلكَ لِمَا فيها مِنَ الثناءِ عَلَيْهم بِهجرِ النومِ وارتكابِ مشقةِ السهرِ، وظهورِ الخوفِ والاحتياجِ إلى اللهِ تَعالى، والإنفاقِ مما رزقَهم، المُرتَّبِ عليهِ ما أخْفى لهم مِنْ قُرَّةِ أعينٍ.

وجمهورُ المفسرينَ عَلى أنَّ ما في الآيةِ كنايةٌ عَنْ كثرةِ التَّنفُّلِ بالليلِ، فإنَّهم أخْفَوْا أعمالَهم فجُوزُوا بِمَا أُخْفِيَ لهم من قرةِ أعينٍ، وإنَّما يَتِمُّ إخفاؤه بالصلاةِ في جوفِ الليلِ، فما قيلَ إنَّه كنايةٌ عنِ الصلاةِ بينَ العشاءينِ يردُّه ظاهرُ سياقِ هذا الحديثِ.

وقدْ جاءَ أنَّ اللهَ تعالى يُباهي بِقُوَّامِ الليلِ في الظلامِ الملائكةَ يقولُ: انْظُروا إلى عِبادِي قدْ قاموا في ظُلَمِ اللَّيْلِ لا يَراهم أحدٌ غيري، أُشهِدُكم أني قد أَبَحْتُهم دارَ كرامتي[2].

وجاءَ: إذا جَمَعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخِرينَ نادى مُنادٍ بصوتٍ يُسمِعُ الخلائقَ: سيَعلَمُ أهلُ الجمعِ اليومَ مَنْ أوْلى بالكرمِ، لِيَقُمِ الذينَ كانتْ تَتجافى جنوبُهم عنِ المضاجعِ، فيقومونَ وهم قليلٌ، ثم يُنادي منادٍ لِيقُمِ الذين كانتْ لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ، فيقومونَ وهم قليلٌ، ثم يُنادي منادٍ: لِيقُمِ الذينَ كانوا يَحمدونَ اللهَ تعالى في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ فيقومونَ وهمْ قليل، ثُمَّ يُحاسَبُ سائرُ الناسِ[3].

وفي مسلمٍ: أفضلُ الصلاةِ بعدَ المكتوبةِ صلاةُ الليلِ[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٧٣) [أبواب الفتن- باب كف اللسان في الفتنة] بهذه الزيادة، ولم أجدها عند الترمذي.

(٢) ذكره ابن دقيق العيد في شرح الأربعين (ص ١٠٠)، ولم يعزه، وذكره الديلمي في الفردوس (٤٠٣٠) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: (عليكم بصلاة الليل فإنه قربة لكم إلى ربكم عز وجل وإن الله يباهي بكم ملائكته ويحببكم إلى خلقه ويدفع عنكم البلاء وميتة السوء ويطفىء عنكم حر النار).

(٣) أخرجه أبو نعيم (٢٩٧٦) [ترجمة عقبة بن عامر] والحاكم (٢/٣٩٩) [كتاب التفسير] والبيهقي في الشعب (٢٩٧٦)، وغيرهم من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح مسلم (١١٦٣) [كتاب الصيام- باب فضل صوم المحرم] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وفي بهجة ابنِ أبي الدنيا أنَّ يَحْيَى -عليه الصلاةُ والسلامُ- شَبعَ ليلةً فنامَ عنْ حزبِهِ حتى أصبحَ فأوحى الله تَعالى إليه: يا يَحْيَى هلْ وجدْتَ دارًا خيرًا مِنْ داري أو جوارًا خيرًا مِنْ جِواري، وعِزَّتي يا يَحْيَى لو اطلعْتَ عَلى الفردوسِ اطلاعةً لَذابَ جِسمُكَ وذهبَتْ نفْسُكَ اشتياقًا إليَّ، ولو اطلعتْ عَلى جهنمَ اطلاعةً لَبكَيْتَ الصديدَ بعدَ الدموعِ ولَلَبِسْتَ الجلودَ معَ المسوحِ[1].

وحَكى الحافظُ ابنُ رجبٍ في لطائفِهِ عنْ بعضِ العلماءِ أنَّهُ نامَ عنْ تَهجُّدِه ليالِيَ فرأى في منامِهِ رجلَيْنِ وَقَفا عَليهِ فقالَ أحدُهما لِلآخرِ: هذا كانَ مِنَ المُستغفرِينَ فترَكَ.

***

(ثُمَّ قَالَ) ﷺ **(أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ)** أي الدِّينِ أو العبادةِ أو الأمرِ الذي سألتَ عنْهُ **(وَعَمُودِهِ)** أي الذي يَعتمِدُ عليه كعَمودِ الخيمةِ **(وَذِرْوَةِ)** بتثليثِ الذَّالِ المعجمةِ والكسرِ أفصحُ **(سَنَامِهِ)** بفتحِ السينِ أعلاهُ؛ لأنَّ سنامَ البعيرِ ما ارتفعَ في ظهرِهِ، **(الْجِهَادُ)** لِمَا فيه مِنْ مُقاساةِ الأهوالِ وتركِ الاختلاطِ بالأهلِ والعيالِ.

وسقطَ منهُ هنا سطرٌ ثابتٌ في أصلِ الترمذيِّ لا يَتمُّ الكلامُ بدونِه، وكأنَّهُ انتقلَ نظرُهُ مِنْ سنامِهِ إلى سنامِهِ[2]، إذْ لفظُ الترمذيِّ بعدَ سنامِهِ المذكورِ: **(قلتُ: بَلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُهُ الصلاةُ، وذروةُ سنامِهِ الجهادُ)**، فيُحتمَلُ أنَّ السَّقْطَ مِنَ الأصلِ الذي نَقلَ منه المصنِّفُ، ويُحتمَلُ أنَّه هنا مِنْ بعضِ النُّسَّاخِ، وفي قولِهِ: رأسُ الأمرِ الإسلامُ ... إلخ استعارةٌ بالكنايةِ تتبعها استعارةٌ ترشيحيَّةٌ؛ لأنَّه شبَّهَ الأمرَ المذكورَ بِفحْلِ الإبلِ وبالبيتِ القائمِ عَلى عُمُدٍ، وأحضَرَ هذا التشبيهَ في النفسِ ثم ذَكَرَ ما يُلائِمُ المُشبَّهَ به وهو الرأسُ والسَّنَامُ والعمودُ.

والمرادُ بالإسلامِ النُّطقُ بالشهادتَيْنِ كما جاءَ مُفسَّرًا بِهما في روايةِ أحمدَ[3]، وإنَّما كما هو

---

(١) أخرجه أبو نعيم (١٠/١٤) [ترجمة أحمد بن أبي الحواري] عن علي بن أبي الحواري.

(٢) هذا الكلام متعلق بنسخة الأربعين التي اعتمد عليها العلامة الشبراخيتي حين شرحه لها، والنسخة التي اعتمدناها من الأربعين لا سقط فيها.

(٣) مسند أحمد (٢٢١٢٢) [تتمة مسند الأنصار- حديث معاذ بن جبل].

الرأسُ؛ لأنَّهُ لا حياةَ لشيءٍ مِنَ الأعمالِ بِدونِهِ كما أنَّ الحيوانَ لا حياةَ له بدونِ رأسِهِ، والصلاةُ العمودُ؛ لأنَّهُ الذي يُقيمُ البيتَ ويُهيِّئُهُ لِلانتفاعِ بِهِ، والصلاةُ هِيَ التي تُقيمُ الدِّينَ، والجهادُ هو ذِروةُ السنامِ؛ لأنَّ ذِروةَ الشيءِ أعلاهُ، والجهادُ أعْلى أنواعِ الطاعاتِ مِنْ حيْثُ إنَّ بهِ يَظهرُ الإسلامُ ويَعلو عَلى سائرِ الأديانِ.

الخلاف في أفضل أعمال البر

واعلمْ أنَّهُ اختُلِفَ في أفضلِ أعمالِ البرِّ بَعْدَ الفرائضِ، قالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ: العلمُ ثُمَّ الجهادُ لِقولِهِ ﷺ: (ما جميعُ أعمالِ البرِّ في الجهادِ إلَّا كنقطةٍ في بَحْرٍ، وما جميعُ أعمالِ البرِّ والجهادِ في طلبِ العلمِ إلَّا كنقطةٍ في بحرٍ)[1]، وقالَ الشافعيُّ: أفضلُها الصلاةُ فرضًا ونفلًا، وقالَ أحمدُ: أفضلُها الجهادُ.

وقد ورد أنَّه ﷺ سُئِلَ أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ فقالَ تارةً: الصلاةُ لِأوَّلِ وقتِها[2]، وتارةً: الجهادُ[3]، وتارةً: برُّ الوالدَيْنِ[4]، وحُمِلَ عَلى اختلافِ أحوالِ السائلينَ؛ لأنَّهُ ﷺ كانَ طبيبًا للخلقِ، فرُبَّ شخصٍ كانَ الغالبُ عليهِ تَرْكَ المحافظةِ عَلى الصلاةِ، فقالَ له: الصلاةُ في أوَّلِ وقْتِها، ورُبَّ شخصٍ كانَ الغالبُ عليهِ تَرْكَ الجهادِ فقالَ له: الجهادُ، ورُبَّ شخصٍ كانَ الغالبُ عليهِ تَرْكَ برِّ الوالدَيْنِ فقال له: برُّ الوالدَيْنِ، أو اختلافِ الأزمانِ، فرُبَّ عبادةٍ في زمنٍ أفضلُ مِنْ غيرِها، أو أنَّ "مِنْ" مقدرةٌ، أيّ مِنْ أفضلِ الأعمالِ.

وعنْ أبي أمامةَ الباهليِّ أنَّهُ قالَ: خرجْنا مَعَ النبيِّ ﷺ غزوةً مِنْ غزواتِهِ، فمَرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيءٌ مِنْ ماءٍ وحولهُ شيءٌ مِنَ البقلِ، فحدَّثَ نفْسَهُ بأنْ يُقيمَ في ذلكَ الغارِ يَشربُ مِمَّا فيهِ مِنَ

(١) عزاه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (الإحياء ٣/٣٠٨) إلى مسند الفردوس من حديث جابر وضعَّف إسناده، وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٠٦٢٨) [ترجمة أبي معن]، وقال: "تابعي، أرسل حديثا، ذكره المستغفري في الصحابة، وتبعه أبو موسى من طريق سعيد بن العلاء.." ثم ساق الإسناد، والحديث بلفظ: (أعمال البرّ كلّها مع الجهاد في سبيل الله كبصقة في بحر جرّار)، قال المستغفريّ: مع براءتي إلى الله من عهدة إسناده.

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخاري (٧٥٣٤) [كتاب التوحيد- باب وسمى النبي ﷺ الصلاة عملا]، ومسلم (٨٥) [كتاب الإيمان- باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال]، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن منده في "الإيمان" (٤٥٥)، وابن عبد البر في "التمهيد" (١٧/٤٤٩)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦٣/٢٧٦) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) انظر "فتح الباري" (٥/١٤٩).

الماءِ ويُصيبُ مِمَّا حولَهُ مِنَ البَقْلِ ويَتخلَّى عنِ الدُّنيا، قالَ: لوْ أنِّي أتيتُ النبيَّ ﷺ فذكرتُ له ذلكَ، فإنْ أذنَ لي فعلتُ، وإلَّا لمْ أفعلْ، فأتاهُ فقالَ: يا نبيَّ اللهِ، إنِّي مررتُ بغارٍ فيهِ ما يَقوتُني مِنَ الماءِ والبَقْلِ فحدَّثتْني نفْسي بأنْ أُقيمَ فيه وأتخلَّى عنِ الدُّنيا، فقالَ النبيُّ ﷺ: إنِّي لمْ أُبْعَثْ باليهوديَّةِ والنصرانيَّةِ ولكنِّي بُعثْتُ بالحنيفيَّةِ السمْحَةِ، والذي نفْسي بيده لَغدْوةٌ أو رَوْحَةٌ في سبيلِ اللهِ خيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها، ولَمُقامُ أحدِكم في الصفِّ خيرٌ مِنْ صلاتِه ستينَ سنةً(١).

وروَى الحاكمُ أنَّ عثمانَ بنَ مظعونٍ جاءَ إلى المصطفى ﷺ فقالَ: تُحدِّثُني نفْسي بأنْ أَخْتَصِيَ، فقالَ: خِصَاءُ أمتي الصَّوْمُ، فقالَ: تُحدِّثُني نفْسي بأنْ أترهَّبَ في رؤوسِ الجبالِ، فقالَ: ترهُّبُ أمتي الجلوسُ في المساجدِ وانتظارُ الصلاةِ، فقالَ: أريدُ أنْ أَسيحَ في الأرضِ، فقالَ: سياحَةُ أُمَّتي الغزوُ في سبيلِ اللهِ، فقالَ تُحدِّثُني نفْسي أنْ أطلِّقَ امْرأَتي، فقالَ: المُهاجرُ مِنْ أُمَّتي مَنْ هَجَرَ ما حَرَّمَ اللهُ، فقالَ: تُحدِّثُني نفْسي أنْ لا آكُلَ اللَّحْمَ، فقالَ: أنا أُحِبُّهُ وآكُلُه(٢). وقدْ قالَ بعضُهم في ذلك شِعراً:

الجُودُ بِالْمَالِ جُودٌ فِيهِ مَكْرُمَةٌ * وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

قالَ الطيبيُّ: وإنَّما خَصَّ هذه المرتبةَ بالباءِ، والأولى بـ"على"؛ لأنَّ هذه المرتبةَ أجمعُ وأشملُ؛ لأنَّ المعنى بأمرِ الدِّينِ وهو مشتملٌ عَلى أبوابِ الخيرِ وعَلى ما قبْلَهُ مِنْ نحوِ تعبُّدِ اللهِ... إلخ، ولِهذا أتى بالباءِ في المرتبةِ الثالثةِ الآتيةِ، وأكَّدَها بِـ"كُلِّه" لكونِه أجمعَ منْها، وهذا الترقِّي يُنبِّهكَ على جوازِ الزيادةِ في الجوابِ، والسؤالُ ضربانِ جدليٌّ وتعليميٌّ، وحقُّ الأَوَّلِ مطابقةُ الجوابِ مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نقْصٍ، وحقُّ الثاني أنْ يَتحرَّى المجيبُ الأصوبَ كالطَّبيبِ الرفيقِ يَتوخَّى ما فيه شفاءُ العليلِ طلَبَهُ أم لا.

***

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٩١) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي أمامة]، والطبراني في الكبير (٨/رقم٧٨٦٨)، وغيرهما من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن بشران في أماليه (١٦٣٦)، والبغوي في شرح السنة (٤٨٤) [كتاب الصلاة- باب فضل القعود في المسجد لانتظار الصلاة]، وغيرهما بإسناد ضعيف.

ولمَّا تكلَّمَ على جهادِ الكُفرِ أخَذَ يَتكلَّمُ عَلى جهادِ النَّفْسِ وقمْعِها عنِ الكلامِ فيما يُؤذيها ويؤذى بها بقولِه:

(**ثُمَّ قَالَ**) له ﷺ (**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ**) الأمرِ (**كُلِّه**) أيْ بمَا يَملُكه ويضبطُه، أو بمقصودِه وجماعِه، أو بما يَقومُ به بمعنى إذا وُجِدَ كانتْ تلكَ الأعمالُ كُلُّها عَلى غايةٍ مِنَ الكمالِ ونهايةٍ مِنْ صفاءِ الأحوالِ؛ لأنَّ الجهادَ وغيرَه مِنْ أعمالِ الطاعاتِ غنيمةٌ، وكفَّ اللسانِ عنِ المحارمِ سلامةٌ، ومِنْ ثَمَّ قالَ ﷺ: (مَنْ صمَتَ نَجا)[1]، والسَّلامَةُ في نَظَرِ العُقَلاءِ مُقدَّمَةٌ عَلى الغنيمةِ.

(**قُلْتُ: بَلَى يَا رَسولَ اللهِ، فَأَخَذَ بلسانِه**) الباءُ زائدةٌ مؤكِّدةٌ، والضميرُ راجعٌ إلى النبيِّ ﷺ أيْ: أمسَكَ النبيُّ ﷺ لسانَ نفسِه بيدِه، (**ثُمَّ قَالَ: كُفَّ**) مِنْ "كَفَّه": مَنَعَهُ، وفي روايةٍ: اكْفُفْ[2]، وفي روايةٍ: أَمْسِكْ[3] (**عَلَيْكَ**) أيْ عنكَ، أو ضَمَّنَ "كُفَّ" مَعْنى "احْبِسْ"، والمعنى احْبِسْ عليكَ لِسانَكَ لا يؤذيكَ بِالكلامِ، (**هَذَا**) أيْ عنِ الشَّرِّ فإنَّ آفتَهُ عظيمةٌ.

ولذا قالَ الغزاليُّ: اللِّسانُ مِنْ نعمِ اللهِ العظيمةِ ولَطَائفِ صُنْعِه القويمةِ، فإنَّهُ صغيرٌ جرْمُهُ وعظيمٌ طاعتُهُ وجُرْمُهُ؛ إذْ لا يَتَبَيَّنُ الكُفرُ والإيمانُ إلَّا بهِ، وكلُّ ما يَتناولُه القلمُ يُعرِبُ عنه اللِّسانُ إمَّا بحقٍّ أو باطلٍ، وهذه خاصيَّةٌ لا توجدُ في سائرِ الأعضاءِ، فإنَّ كُلَّ عُضوٍ يَقتصِرُ عَلى منفعتِه، فمَنْ أَطْلَقَ عذبةَ اللِّسانِ مَلَكَهُ الشَّيْطانُ، ولا يَنْجو مِنْ شرِّهِ إلَّا أنْ يُلجِمَه بلِجامِ الشَّرْعِ فلا يُطلقُه إلا فيما يَنفَعُ في الدُّنيا والآخرةِ ويكفُّه عنْ كُلِّ شيءٍ يُخشى غائلتُه، وأعْصَى الأعضاءِ مِنَ الإنسانِ اللسانُ، فإنَّهُ لا تَعَبَ في تحريكِه، ولا مؤونةَ في إطلاقِه، وقدْ تساهَلَ الخَلْقُ في الاحترازِ عنْ إقامتِه وغوائلِه، والحذرِ من مصائدِه وحبائلِه، اهـ.

وفي الحكمةِ: لسانُكَ أسدُكَ إنْ أطلقْتَهُ فَرَسَكَ، وإنْ أمْسكتَهُ حَرَسَكَ.

---

(١) تقدم تخريجه في شرح الحديث الخامس عشر.

(٢) أخرجها الطبراني في الكبير (٢٠/رقم ٢٢٦).

(٣) أخرجها البزار (٢٣٠٢) من حديث أبي اليسر، وقال: "إسناده حسنٌ ومتنه غريبٌ".

وكانَ أبو بكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُمسكُ لِسانَهُ ويَقولُ: هذا الذي أوْرَدَني المواردَ فلمَّا ماتَ رُئِيَ في المنامِ فقيلَ له: ما الذي أورَدَكَ لسانُكَ؟ قالَ: قالَ "لا إلهَ إلا اللهُ" فأوْرَدَني الجنةَ.

وفي الحديثِ: (طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ لِسانَهُ ووسعَه بَيْتُهُ وبَكى عَلى خطيئتِه)[1]. وقالَ بعضُ الحكماءِ: لا شيءَ أحقُّ بالسجنِ مِنَ اللِّسانِ، وقد جَعَلَهُ خلفَ الشَّفَتينِ والأسنانِ ومعَ ذلكَ يَكسرُ القُفْلَ ويفْتَحُ الأبوابَ.

وقالَ بعضُهم: في الصَّمْتِ سبعةُ آلافِ خيرٍ، وقدِ اجتمعَ ذلك كُلُّه في سبعِ كلماتٍ، في كُلِّ كلمةٍ مِنْها ألفٌ، أوَّلُها أنَّ الصَّمْتَ عِبادةٌ مِنْ غيرِ عناءٍ، والثاني: زينةٌ مِنْ غيْرِ حلي، والثالثُ: هيبةٌ مِنْ غيْرِ سُلطانٍ، والرابعُ: حِصْنٌ مِنْ غيرِ حافظٍ، والخامسُ: استغناءٌ عنِ الاعتذارِ إلى الناسِ، والسادسُ: إراحةُ الكِرامِ الكاتبينَ، والسابعُ: سترٌ لِعيوبِهِ؛ لأنَّ الصمتَ كما قيلَ زينٌ لِلعالِمِ وسَتْرٌ لِلجَاهِلِ.

وقيلَ: ثلاثةُ أشياءَ تُقَسِّي القلْبَ: الضَّحكُ مِنْ غيرِ عجبٍ، والأكلُ مِنْ غيْرِ جوعٍ، والكلامُ مِنْ غيرِ حاجةٍ. وذُكِرَ عَنِ الأوزاعيِّ أنَّهُ قالَ: المؤمنُ يُقِلُّ الكلامَ ويُكثِرُ العملَ، والمنافقُ يُكثِرُ الكلامَ ويُقِلُّ العملَ. وقدْ قالَ أبو بكرِ بنُ خلفٍ اللخميُّ:

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ مِنْ لِسَانِهِ * ولَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي برأْسِهِ * وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبرا عَلَى مَهَلِ

وعثرَ المتوكِّلِ بِالبساطِ فجلسَ وتمثَّلَ بهذينِ البيتينِ.

وقولُهُ: "كُفَّ" يَحتمِلُ عمومَهُ، وخُصَّ مِنْهُ الكلامُ بخيرِ لِحديثِ: (مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فَلْيقُلْ خيراً أو ليصمُتْ)[2]، ويُحتمَلُ أنَّهُ مِنْ بابِ المُطلَقِ استعمِلَ في الكفِّ عنِ الشرِّ فلا يَبْقى له دلالةٌ عَلى غيرِ ذلك، ومَنْشأ الاحتمالينِ أنَّ الفعلَ يَدلُّ عَلى المصدرِ، لكِنْ هلْ يُقدَّرُ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: ابن أبي عاصم في الزهد (٣٤) [كتاب فيه شيء من ذكر الدنيا، وفيه حفظ اللسان..] الطبراني في الأوسط (٢٣٤٠)، وغيرهما من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعا.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهو الحديث الخامس عشر من الأربعين النووية.

المَصدَرُ مُعرَّفًا فيَعُمَّ أو مُنكرًا فلا يَعُمَّ كـ"اكْفُفْ كفًّا" أو عَلى أنَّ المَصدَرَ جِنْسٌ فيَعُمُّ أو لا فلا؟!

(**قُلْتُ: يَا رسولَ الله، وإنَّا لَمُؤاخَذونَ بمَا نَتكلَّمُ بِهِ**) اللَّامُ للتأكيد، وهذا استفهامُ استِثباتٍ وتعجُّبٍ واستغرابٍ، فدلَّ عَلى أنَّ مُعاذًا لم يكنْ يَعلمُ ذلكَ، ولا يُنافي خفاءَ هذا عليه قولُه ﷺ في حقِّه: (أعلمُكم بالحلالِ والحرامِ معاذٌ)[1]، إمَّا بحمْلِ ذلكَ عَلى المعاملاتِ الظاهرةِ بينَ الناسِ، والمؤاخذةُ المذكورةُ في معاملةِ العبدِ معَ ربِّه، أو أنَّهُ إنَّما صارَ أعلمَهم بذلك بعدَ هذا السؤالِ وأمثالِه مِنْ طريقِ التَّعلُّمِ.

(**فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ**) بمُثلَّثةٍ وكافٍ مكسورةٍ ولامٍ مفتوحةٍ أيْ فَقَدَتْكَ (**أُمُّكَ**) زادَ ابنُ ماجه: "يا معاذُ"[2]، والثَّكَلُ -بسكونِ الكافِ وفتْحِها- فَقْدُ المرأةِ وَلَدَها، وليسَ المرادُ بِهِ حقيقتَهُ مِنَ الدعاءِ بالموتِ، بَلْ هو مِنَ الألْفاظِ الَّتي تَجري عليْها الألسُنُ في المحاوراتِ للتَّأديبِ والتنبيهِ مِنَ الغفلةِ، كـ"تَرِبَتْ يَدَاكَ"، أوْ أنَّ الموتَ لَمَّا كانَ يَعُمُّ كُلَّ أحدٍ كانَ الدعاءُ بِهِ عليهِ كَلَا دُعَاءٍ، أوْ أنَّ المرادَ إنْ قُلْتَ هذا كانَ الموتُ خيراً لكَ مِنَ الحياةِ.

(**وَهَلْ**) حرفُ استفهامٍ إنكاريٌّ بمعنى النفي، ومنْهُ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] (**يَكُبُّ**) -بِضمِّ الكافِ- أي يُلقي، قالَ الطيبيُّ: مضارعُ "كَبَّهُ" بمعنى صَرَعَهُ عَلى وجهِهِ، فانكبَّ وهذا مِنَ النَّوادرِ، فإنَّ ثُلاثيَّهُ مُتعَدٍّ، ورباعيَّهُ لازمٌ، تقولُ كَبَبْتُ الشيءَ فأَكَبَّ، (**النَّاسَ**) أيْ أكثرَهم (**فِي النَّارِ**) أيْ نارِ جهنَّمَ (**عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ**) شَكٌّ مِنَ الرَّاوي (**عَلَى مَنَاخِرِهِمْ**) جَمْعُ مَنخِرٍ -بفتحِ الميمِ وكسرِ الخاءِ المعجمةِ وفتحِها- ثُقبةُ الأنفِ، وليسَ في روايةِ البزَّارِ[3] إلَّا "المناخرُ" بلا شَكٍّ، (**إِلَّا حَصَائِدُ**) جَمْعُ حصيدةٍ بمعنى محصودةٍ مِنْ "حَصَدَ الزرعَ" إذا قَطَعَهُ، (**أَلْسِنَتِهِمْ**) أيْ ما تَكلَّمَتْ بِهِ مِنَ الإثمِ، كالكبرِ والقذفِ والسبِّ والنميمةِ وغيرِ ذلكَ.

---

(١) تقدم تخريجه في شرح الحديث الثامن عشر.

(٢) سنن ابن ماجه (٣٩٧٣) [أبواب الفتن- باب كف اللسان في الفتنة]، وهي أيضًا عند أحمد (٢٢٠١٦) [تتمة مسند الأنصار- حديث معاذ بن جبل]، والترمذي (٢٦١٦) [أبواب الإيمان- باب ما جاء في حرمة الصلاة].

(٣) مسند البزار (٢٦٤٣) [مسند معاذ]، وغيره.

وإضافةُ حصائدَ إلى الألسنةِ مِنْ إضافةِ اسم المفعولِ إلى فاعلِه أيْ محصوداتُ الألسنةِ، شبَّهَ ما تكتسبُه الألسنةُ مِنَ الكلامِ الحرام بحصائدِ الزرعِ بجامعِ الكسبِ والجمعِ، وشبَّهَ اللِّسانَ في تَكلُّمِه بذلك بحدِّ المنجَلِ الذي يَحصُدُ به الناسُ الزرعَ، ففيه استعارةٌ بالكنايةِ مِنْ حيثُ تشبيهُ ذلك الكلامِ بالزرعِ المحصودِ واللِّسانِ بالمنجلِ، ويتبعها استعارةٌ ترشيحيةٌ؛ لأنَّ الحصادَ يُلائمُ المشبَّهَ به دونَ المشبَّهِ، والحصرُ في ذلك إضافيٌّ؛ إذْ مِنَ الناسِ مَنْ يَكُبُّهُ في النَّارِ عملُه لا كلامُه، لكنْ خرجَ ذلك مخرجَ المبالغةِ في تعظيمِ جرائمِ اللسانِ كـ"الحجُّ عرفةُ"[1]، أي معظمُه ذلك، كما أنَّ معظمَ أسبابِ النَّارِ الكلامُ، ولأنَّ الأعمالَ يُقارِنُها الكلامُ غالبًا فأخصَّه مِنْ ترتُّبِ الجزاءِ عليه عقابًا وثوابًا.

وفي المعجم الكبيرِ للطبرانيِّ، وللبيهقيِّ في الشعبِ مِنْ حديثِ أبي وائلٍ عن ابنِ مسعودٍ قالَ: ارتقى ابنُ مسعودٍ الصَّفَا فأخذَ بلسانِه فقالَ: يا لسانُ، قلْ: خيرًا تَغنَمْ، واسكُتْ عنْ شرٍّ تسلمْ مِنْ قبلِ أنْ تَندَمَ، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: أكثرُ خطايا ابنِ آدمَ مِنْ لسانِه[2]، وللشَّافعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّها الإِنْسَانُ * لَا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ

كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ *كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

(رواه الترمذيُّ) في جامعِه، **(وقالَ: [حديثٌ] حَسَنٌ صَحِيحٌ)**، لكنْ في الجامعِ زيادةٌ عَلى ما ذكرَه المصنِّفُ هُنَا، ولفظُهُ: عنْ مُعاذٍ قالَ: كنتُ معَ النبيِّ ﷺ في سفرٍ فأصبحتُ يومًا قريبًا منهُ، ونحنُ نَسيرُ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أخبِرْني بعملٍ يُدخلُني الجنةَ... فذَكَرَهُ[3].

***

(١) تقدم تخريجه في شرح الحديث السابع والعشرين.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٠/رقم ١٠٤٤٦).

(٣) سنن الترمذي (٢٦١٦) [أبواب الإيمان- باب ما جاء في حرمة الصلاة]، وغيرهما.

الحديثُ الثلاثونَ

٣٠. عنْ أبي ثَعلبَة الخُشَنيِّ جَرثوم بنِ ناشرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: إنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ فَرائِضَ فلا تُضيِّعوها، وحدَّ حُدوداً فلا تَعتَدُوها، وحرَّم أشياءَ فلا تنتهِكُوها، وسكتَ عَنْ أشياءَ رحمةً لكُم غيرَ نسيانٍ، فلا تَبْحَثوا عنها. حديثٌ حَسَنٌ، رواهُ الدارَقُطنيُّ وغيرُه.

(**عنْ أبي ثعلبةَ**) بفتحِ المثلثةِ (**الخُشَنِيِّ**) بضمِّ المعجمةِ الأُولى وفتحِ الثانيةِ وكسرِ النُّونِ نسبةً إلى خُشَيْنَةَ مُصغَّراً، بَطْنٍ مِنْ قُضاعةَ ابنِ مالكِ بنِ حميرٍ.

(**جَرْثوم**) بفتحِ الجيمِ والمثلثةِ بيْنَهما راءٌ مهملةٌ، وقيلَ: جرثومةُ، وقيلَ: جرثُمُ، وقيلَ: غيرُ ذلكَ، قالَ ابنُ رسلانَ: والأكثرُ عَلى أنَّ اسمَهُ جُرهُم بضمِّ الجيمِ والهاءِ (**ابنُ ناشرٍ**) بالنُّونِ والشينِ المعجمةِ ثم راءٍ مهملةٍ، وقيلَ: ناشبٌ بباءٍ موحدةٍ في آخرِهِ، وقيلَ: لاسقٌ بالقافِ، وقيلَ: لاسرٌ، وقيلَ: لاشٌ، والأكثرُ عَلى أنَّ اسمَهُ ناشمٌ بالنُّونِ ومعجمةٍ مكسورةٍ وميمٍ، وقيلَ: جرثُمُ بنُ الأشترِ بنِ النضرِ، ونَسَبَهُ بعضُهم إلى لحافِ بنِ قضاعةَ بنِ مالكِ بنِ حميرٍ، وهو مشهورٌ بكنيتِهِ.

كانَ ممنْ بايعَ تحتَ الشجرةِ، وضربَ له ﷺ بسهمِهِ يومَ خيبرَ، وأرسلَهُ إلى قومِهِ فأسلَموا[1]، نزَلَ الشامَ، وماتَ أوَّلَ إمْرةِ معاويةَ، وقيلَ: في إمْرةِ يزيدَ، وقيلَ: في إمْرةِ عبد الملكِ سنةَ خمسٍ وتسعينَ، والأوَّلُ أكثرُ، وكانَ يقولُ: إني أَرْجو أنْ لا يَخْنُقَني اللهُ كما أراكم تُخنَقونَ عندَ الموتِ، فبيْنَما هو يُصلِّي قُبِضَ وهو ساجدٌ.

(رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: إنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ**) وافترَضَ بمعْنًى، (**فَرائِضَ**) أيْ أوْجَبَها، وألْزَمَ العملَ بِها.

(١) ذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/٢٧٠).

والفرضُ لُغةً: القطعُ والتقديرُ، واصطلاحًا: ما يُثابُ عَلى فعْله ويُعاقَبُ على تَرْكِه، ويُرادِفُهُ الواجِبُ إلَّا في الحجِّ فإنَّ الفرضَ ما لا يَنجَبرُ بالدَّم، والواجبُ ما يَنجبرُ به، وفرَّقَ الحنفيَّةُ بيْنَهما بأنَّ الفرضَ ما ثَبتَ بدليلٍ قَطْعيٍّ كالصَّلاةِ والزَّكاةِ، والواجبُ ما ثبَتَ بدليلٍ ظَنِّيٍّ كالثابتِ بالقياسِ وخَبَرِ الواحدِ كصدقةِ الفِطْرِ، وعنْدَ الشافعيِّ: الفرضُ والواجبُ معًا.

التزام أحكام الشرع

ثم الفرائضُ إمَّا فرائضُ أعيانٍ كالصلواتِ الخَمْسِ والزكاةِ والصوم، أو كفايةٍ كصلاةِ الجنازةِ وردِّ السلامِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ.

(فَلَا تُضَيِّعُوهَا) بالتركِ أو التهاونِ فيها حتَّى يَخرُجَ وقتُها بَلْ قوموا بها كما فَرضَ علَيْكم، وقدَ صَحَّ أنَّهُ ﷺ رأى ليلةَ الإسراءِ قَوْمًا تُرضَخُ رؤوسُهم، كُلَّما رُضِخَتْ عادتْ كما كانتْ ولا يفترُ عنْهم ذلكَ، فقالَ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قالَ: هؤلاءِ الذينَ تَتثاقَلُ رؤوسُهم عنِ الصَّلاةِ المكتوبةِ، وما ظلَمَهم اللهُ شيئًا[1].

***

(وحَدَّ حُدودًا) جَمْعُ حَدٍّ، وهو لغةً: الحاجزُ بيْنَ الشيئَيْنِ، الذي يمنَعُ اختلاطَ أحدِهما بالآخرِ، وشرعًا: عقوبةٌ مُقدَّرةٌ مِنَ الشارعِ تَزجُرُ عنِ المعْصيةِ، وسُمِّيَت العقوبةُ حدًّا لكونها تَحجزُ الفاعِلَ عنِ المعاودةِ، أيْ جَعَلَ لكم حواجزَ وزواجرَ مقدَّرةً تَحجزُكم عمَّا لا يَرضاهُ، وقدْ وردَ: (حَدٌّ يُقامُ في الأرضِ خيرٌ مِنْ مَطرِ أربعينَ صباحًا)[2].

وتُطلَقُ الحدودُ عَلى الوقوفِ على الأوامرِ كالمواريثِ المُقدَّرةِ وتزوُّجِ الأربعِ، والنواهي ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والمُرادُ الأوَّلُ؛ إذْ لوْ حُمِلَ على الثاني لَتكرَّرَ معَ ما قبْلَهُ، وتكرَّرَ معهُ ما بعدَهُ، ويَصِحُّ إرادةُ الثاني، ويكونُ ذِكْرُهُ معَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ مِنْ ذِكرِ العامِّ بعدَ الخاصِّ وعكسِه.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: ابن جرير (٤٢٤/١٤) مطوَّلًا من حديث أبي هريرة رَضِوَاللهُ عَنهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٣٨) [مسند أبي هريرة]، والنسائي (٤٩٠٥) [كتاب قطع السارق- الترغيب في إقامة الحد] وابن ماجه (٢٥٣٨) [أبواب الحدود- باب إقامة الحدود]، وابن حبان (٤٣٩٨) [كتاب الحدود]، وغيرهم عن ابن عمر رَضِوَاللهُ عَنهُمَا.

(**فَلَا تَعْتَدُوهَا**) أيْ لا تَتجاوزُوها وقِفُوا عندَها، ومَنْ تجاوَزَ فقدْ ظَلَمَ نفْسَهُ وأَوْرَدَها مواردَ المَهالِكِ، وجَلْدُ عُمَرَ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ في الخمرِ ثمانينَ ليسَ فيه زيادةٌ محظورةٌ، وإنِ اقْتصَرَ ﷺ وأبو بكرٍ فيهِ عَلى أربعينَ[1]؛ لأنَّ الناسَ لمَّا أكْثَروا مِنَ الشُّرْبِ زمنه ما لَمْ يُكثِروه قبْلَهُ استحقُّوا أنْ يَزِيدَ في جلدِهم تَنكيلًا وزَجرًا، فكانتِ الزيادةُ اجتهادًا منه لِمعْنًى صحيحٍ مُسوِّغٍ لها، ومِنْ ثَمَّ قالَ عليٌّ -كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ورضي عنه-: إنَّ كُلًّا مِنَ الزيادةِ وعدمِها سنةٌ[2]، أيْ لأنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ بالاقتداءِ بِعُمَرَ خصوصًا بقولِهِ: (اقتدوا باللَّذَيْنِ مِنْ بعْدِي أبي بكرٍ وعُمَرَ)[3]، وعمومًا بقولِه: (علَيْكم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديِّينَ) في الحديثِ السابقِ[4].

***

(**وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ**) كالميتةِ والدمِ وأكلِ مالِ اليتيمِ والربا، (**فَلَا تَنْتَهِكُوهَا**) أيْ لا تَتناولوها ولا تَقربوها، قالَ الجوهريُّ: انتهاكُ الحرمةِ تناوُلُها بِما لا يَحلُّ؛ لأنَّ انتهاكَ الشيءِ تناولُه.

وحُكِيَ عنْ بعضِ السَّلَفِ أنَّهُ قالَ: رأيتُ المعاصيَ تَزري فتركتُها مروءةً فصارتْ ديانةً.

وعنِ العوَّامِ بنِ حوشبٍ أنَّهُ قالَ: نزلتُ مرَّةً حيًّا وإلى جانبِ ذلكَ الحيِّ مقبرةٌ فلمَّا كانَ بعدَ العصرِ انشقَّ مِنْها قبرٌ فخرَجَ منه رجُلٌ رأسُه رأسُ حمارٍ، وجسدُهُ جسدُ إنسانٍ، فنهقَ ثلاثَ نهقاتٍ، ثُمَّ انطبقَ عليهِ القبرُ، فإذَا عجوزٌ تَغزلُ شعرًا أو صوفًا، فقالتِ امرأةٌ: ترى تلكَ العجوزَ؟ قلتُ: ما لها؟ قالتْ: تلكَ أُمُّ هذا؟ قلتُ: وما كانتْ قضيتُهُ؟ قالتْ: كانَ يَشربُ الخمرَ فإذَا أراحَ قالتْ له أمُّهُ: اتَّقِ اللهَ، إلى مَتى تَشربُ الخمرَ؟ فيقولُ لها: إنَّما أنتِ تَنهقينَ كما يَنهقُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٦) [كتاب الحدود- باب حد الخمر] عن أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ جلد في الخمر بالجريد، والنعال، ثم جلد أبو بكر أربعين، فلما كان عمر، ودنا الناس من الريف والقرى، قال: ما ترون في جلد الخمر؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أرى أن تجعلها كأخف الحدود، قال: فجلد عمر ثمانين.

(٢) أخرجه مطوَّلًا: مسلم (١٧٠٧) [كتاب الحدود- باب حد الخمر]، وغيره.

(٣) تقدم تخريجه في شرح الحديث الثامن والعشرين.

(٤) أخرجه أحمدُ (١٧١٤٤) [مسند الشاميين- حديث العرباض بن سارية]، وأبو داودَ (٤٦٠٧) [كتاب السنة- باب في لزوم السُّنَّة]، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦) [أبواب العلم- باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع]، وغيرهم من حديث العِرباض بن سارية رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، وصحَّحه الترمذيُّ.

الحمارُ؟ قالتْ: فماتَ بعدَ العصرِ، قالتْ: فهو يَنشَقُ بعدَ العصرِ كُلَّ يومٍ يَنهَقُ ثلاثَ نهقاتٍ ثُمَّ يُطبَقُ عليهِ القبرُ.

وعنْ بعضِهم: أنَّ رجلًا قالَ: يا ربِّ أذنبتُ ولا تُعاقبني، فأوحى اللهُ تعالى إلى نبيٍّ وقتِهِ: قُلْ لِصاحبِ هذا الكلامِ: كَمْ عاقبتُكَ ولَمْ تَشعُرْ، أعُقوبةٌ أشدُّ مِنْ أنْ خَلَّيْتُ بيْنَكَ وبيْنَ مُخالفتي.

وعنِ ابنِ شبرمةَ أنَّهُ قالَ: العجَبُ مِمَّنْ يَحتمي مِنَ الحلالِ مخافةَ الداءِ، ولا يَحتمي مِنَ الحرامِ مخافةَ النَّارِ.

***

(**وَسَكَتَ عَنْ**) ذكرِ حُكمِ (**أَشْيَاءَ**) فلمْ يَنُصَّ عَلى وجوبِها ولا حلِّها ولا تَحريمِها، لا أنَّهُ تعالى سَكَتَ عنْها حقيقةً؛ لأنَّ الكلامَ مِنْ صفاتِهِ القديمةِ المستمرةِ، فلا يَنقَطِعُ كلامُهُ ولا يَتَناهى؛ لأنَّ الانقطاعَ والتناهيَ مِنْ صفاتِ المحدثاتِ، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عنْ ذلكَ.

(**رَحْمَةً لَكُمْ**) مفعولٌ لِأجلِهِ أيْ لِأجلِ رحمتِهِ ورأفتِهِ بِكم وتخفيفِهِ عنْكم حالَ كونَ ذلكَ، (**غَيْرَ نِسْيَانٍ**) لِأحكامِها، (لا يَضِلُّ ربِّي ولا يَنسى)، (وما كانَ ربكَ نسيا)، والنِّسيانُ تركُ الفعلِ بلا قصدٍ بعدَ حصولِ العلمِ.

(**فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**) لأنَّ السؤالَ عمَّا سكتَ اللهُ عنه يُفضي إلى التكاليفِ الشاقَّةِ؛ لأنَّ البحثَ عنْها إنْ كانَ في زمنِ المصطفى ﷺ رُبَّما أفضى إلى تشديدٍ بإيجابٍ وتحريمٍ، وقدْ قالَ ﷺ: (إنَّ أعظمَ المسلمينَ جُرمًا مَنْ سألَ عنْ شيءٍ لَمْ يُحرَّمْ فحُرِّمَ لِأجلِ مسألتِهِ)[1]، وإنْ كانَ في غيرِهِ فهو مِنَ التعمُّقِ والتنطُّعِ والبحثِ عمَّا لا يَنبغي، وقدْ قالَ ﷺ: (مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يَعنيهِ)[2]، والبحثُ لُغَةً: التفتيشُ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٩) [كتاب الاعتصام بالسنة- باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه]، ومسلمٌ (٢٣٥٨) [كتاب الفضائل باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله...]، وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٧)، والترمذيُّ (٢٤٧٠)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حِبَّان (٢٢٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وهو الحديث الثاني عشر من الأربعين النووية، وهو حسنٌ بطرقه وشواهده.

لا حكم قبل ورود الشرع

ويُفهمُ مِنْ سكوته رحمةً لنا معَ النهي عنِ البحثِ عنْها أنَّهُ لا حُكْمَ قبْلَ ورودِ الشَّرعِ، وهو الأصحُّ عندَ المحقِّقينَ؛ لأنَّ الحُكمَ عندَ أهلِ السُّنَّةِ لا يكونُ إلَّا بالشرعِ، وقالَ أبو الزنادِ والأعرجُ: عَلى الإباحةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ لنا ما في الأرضِ جميعًا، فكُلُّ ما لم يُحرِّمْه فهو مباحٌ، وقالَ الأبهريُّ: على الحظرِ، وحكَّمَتِ المعتزلةُ العقلَ، فإنْ لم يقضِ أيْ كأكلِ الفاكهةِ، فثالثُها لهم الوقفُ عَلى الحظر والإباحةِ.

***

(**حَديثٌ حَسَنٌ**) بَلْ صحَّحهُ ابنُ الصَّلاحِ، وقولُ أبي حاتمٍ وأبي زرعةَ وابنِ مكحولٍ لم يُسمَعْ مِنْ أبي ثعلبةَ مُعارَضٌ بِقولِ ابنِ مَعينٍ: سُمِعَ، والمُثبِتُ مُقدَّمٌ عَلى النافي.

(**رواه**) الإمامُ الحافظُ عليُّ بنُ عمرَ (**الدَّارقطنيُّ**) نسبةً إلى دارقَطنَ مَحَلَّةٍ ببغدادَ (**وغَيْرُهُ**) كأبي نعيمٍ.

***

الحديثُ الحادي والثلاثونَ

٣١. عن أبي العباسِ سهلِ بنِ سعدِ الساعديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ دُلَّني على عملٍ إذا عَمِلته أحبَّني اللهُ وأحبَّني النَّاس، فقالَ: ازهدْ في الدُّنيا يُحِبَّكَ اللهُ، وازهدْ فيما عندَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ. حديثٌ حَسَنٌ، رواهُ ابنُ ماجهْ وغيرُه بأسانيدَ حَسَنةٍ.

(**عَنْ أبي العبَّاسِ**) وقيلَ: أبي يَحيى (**سَهْلِ**) وقيلَ: سعدٌ، وما قالَه المصنِّفُ أصحُّ، له ولأبيهِ صحبةٌ، (**ابنِ سَعْدِ**) بنِ مالكِ بنِ خالدِ بنِ ثعلبِ بنِ حارثةَ بنِ عمرِو بنِ الخزرجِ بنِ ساعدةَ بنِ كعبِ بنِ الخزرجِ (**السَّاعِدِيِّ**) بِكسرِ المهملةِ نسبةً إلى جَدِّه ساعدةَ بنِ كعبِ بنِ الخزرجِ، كانَ اسمُه حَزْنًا فسمَّاه النبيُّ ﷺ سَهْلا[1]، وكانَ يومَ ماتَ النبيُّ ﷺ ابنَ خمسَ عشرةَ سنةً، وماتَ سنةَ ثمانٍ وثمانينَ، وله مائةُ سنةٍ، وقيلَ: إحدى وتسعينَ، بالمدينةِ، وهو آخرُ مَنْ ماتَ بها مِنَ الصحابةِ عَلى قولٍ، وقيلَ: جابرٌ، كمَّا مرَّ، وأحصَنَ سبعينَ امرأةً، وشهِدَ قضاءَ النبيِّ ﷺ بينَ المتلاعِنَيْنِ[2]، (**رضِيَ اللهُ عنه**) يَنبغي عنْهما؛ لأنَّ والِدَهُ سعدَ بنَ مالكٍ صحابيٌّ أيضًا، رويَ له مائةُ حديثٍ وثمانيةٌ وثلاثونَ، اتَّفقا مِنها عَلى ثمانيةٍ وعشرينَ، وانفردَ البخاريُّ بأحدَ عشرَ.

(**قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ دُلَّنِي**) بِضَمِّ الدَّالِ وفتحِ اللَّامِ مُشدَّدةً (**عَلَى عَمَلٍ**) هو فِعْلٌ مِنَ الإنسانِ مَعَ قَصْدٍ واختيارٍ، كما مَرَّ، والمُرادُ هنا عَمَلٌ صالِحٌ، (**إِذَا عَمِلْتُهُ**) بِكسْرِ الميمِ (**أَحَبَّنِي اللهُ**) ومَحبَّةُ اللهِ للعبدِ رضاهُ عنْهُ وإحسانُهُ إليهِ؛ لأنَّ المحبةَ مَيلٌ طبيعيٌّ، وهو في حقِّهِ مُحالٌ، فالمُرادُ غايتُها، (**وَأَحَبَّنِي النَّاسُ**) لأنَّ محبَّتَهم تابعةٌ لِمحبَّةِ اللهِ، فإذَا أحبَّهُ اللهُ أَلْقَى محبَّتَهُ في قلوبِ خلقِهِ؛ لِقولِه تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٧١/٣) [كتاب معرفة الصحابة].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٧٤٦) [كتاب التفسير- باب ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾]، ومسلمٌ (١٤٩٢) [كتاب الطلاق- باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها].

الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، وقوله ﷺ: (إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا دَعا جبريلَ فقالَ: إنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّهُ، فيُحبُّه جبريلُ، ثُمَّ يُنادي في السماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يُحبُّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماءِ، ثُمَّ يوضَعُ له القبولُ في الأرضِ)[1].

(فَقَالَ: ازْهَدْ) مِنَ الزُّهْدِ -بضَمِّ أوَّلِه، وقدْ يُفتَحُ- وهو لُغَةً: الإعراضُ عنِ الشيءِ احتقارًا له، وشرْعًا: أخذُ قدرِ الضرورةِ مِنَ المالِ المتيقَّنِ الحِلِّ، فهو أخصُّ مِنَ الورعِ؛ إذْ هو تَرْكُ المُشتبهِ، وقيلَ: تركُ الدُّنيا عَنْ قُدرةٍ، ولذا قالَ الطيبيُّ: لا يُتصوَّرُ الزُّهدُ ممَّنْ لَيْسَ له مالٌ ولا جاهٌ.

تعريف الزهد في الدنيا وذكر فضله

وقيلَ لابنِ المباركِ: يا زاهدُ، قالَ: الزاهدُ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ؛ إذْ جاءَتْهُ الدُّنْيا راغمةً فتَركَها، أمَّا أنا ففيمَ زَهِدتُ؟! وقيلَ: تفريقُ المجموعِ وتَرْكُ طلبِ المفقودِ، والإيثارُ عندَ القوتِ. قالَ أبو يزيدَ: ما غلَبَني أحدٌ إلَّا شابًّا مِنْ أهلِ بلْخَ مرَّ علَيْنا حاجًّا فقالَ: يا أبا يزيدَ، ما حدُّ الزُّهدِ عندَكم؟ قلتُ: إذا وجدْنا أكلْنا، وإذا فقدْنَا صبَرْنا، فقالَ: هكذا كلابُ بلخَ عندَنا، فقلتُ: وما حدُّ الزهدِ عندَكم؟ فقالَ: إذا فقدْنَا شكرْنَا، وإذا وجدْنَا آثرْنَا، وقدْ تقدَّمَ هذا.

وقيلَ: النَّظرُ إلى الدُّنيا بعينِ الاحتقارِ فتصْغُرُ في عينِكَ يَسهُلُ عليكَ الإعراضُ عنْها. وقيلَ: سُلُوّ القلبِ عنِ الأسبابِ ونفضِ اليدِ مِنَ الأملاكِ. وقيلَ: قِصَرُ الأملِ، واليأسُ ممَّا في أيدي الناسِ، ومنْ ثَمَّ قالَ الضحَّاكُ إنَّهُ قيلَ: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أزْهَدُ الناسِ؟ قالَ: مَنْ لَمْ يَنْسَ المَقابرَ والبلى وتَرَكَ فضولَ زينةِ الدُّنيا، وآثَرَ ما يَبقى على ما يفنى ولَمْ يَعُدَّ مِنْ أيَّامِه غدًا، وعَدَّ نفْسَه مِنَ الموتى[2].

وقيلَ: أن لا تَأْسَى على ما فاتَ مِنَ الدُّنيا ولا تَفرحَ بما أتاكَ منْها. وقيلَ: خُلُوُّ اليدِ مِنَ الْملكِ والقلبِ مِنَ الشَّبعِ. وأحسَنُ حدودِهِ -كما قالَ ابنُ القيِّم- أنَّهُ فراغُ القلبِ مِنَ الدُّنْيا، لا فراغَ اليدِ، وهذا زهدُ العارفينَ، وأعْلى منهُ زهدُ المُقرَّبينَ وهو الزُّهْدُ فيما سوى اللهِ مِنْ دُنْيا وجنةٍ

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٤٨٥) [كتاب التوحيد- باب كلام الرب مع جبريل]، ومسلمٌ (٢٦٣٧) [كتاب البر والصلة- باب إذا أحب الله عبدا حببه لعباده]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣١٨) [كتاب الزهد- ما ذكر عن نبينا ﷺ في الزهد]، وابن أبي الدنيا في الزهد (١٠٠)، والبيهقي في الشعب (١٠٠٨١)، وغيرهم عن الضَّحَّاك مرسلًا.

وغيرِهما؛ إذْ ليسَ لِصاحبِ هذا الزهدِ مَقصِدٌ إلّا الوصولَ إليه تعالى، أو القربَ منه.

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ: الزهدُ ثلاثةُ أصنافٍ، زهدُ فرضٍ، وزهدُ سلامةٍ، وزهدُ فضلٍ، فالزهدُ الفرضُ الزهدُ في الحرامِ، وزهدُ السلامةِ الزهدُ في المشتبهاتِ، والزهدُ الفضلُ الزهدُ في الحلالِ. وعلى هذا فالزاهدُ في الحرامِ ليسَ زاهدًا، وقيلَ: لا يُسمَّاهُ إلا إذا انْضَمَّ لذلكَ الزهدُ بنوعَيْهِ الأخيرينِ مِنْ تَرْكِ الشبهاتِ رأسًا وفضولِ الحلالِ، ومِنْ ثَمَّ قالَ بعضُهم: لا زهدَ اليومَ لِفقْدِ الحلالِ المُحقَّقِ. وقالَ الإمامُ أحمدُ: هو عَلى ثلاثةِ أوجهٍ، تركُ الحرامِ وهو زهدُ العوامِّ، وتركُ الفضولِ مِنَ الحلالِ وهو زهدُ الخواصِّ، وتركُ ما يَشغلُكَ عنِ اللهِ وهو زهدُ العارفينَ.

وحُكيَ عنْ جماعةٍ مِنَ الصوفيَّةِ أنَّهم كانوا في موضعٍ عَلى التوكُّلِ فمضتْ عليهم مُدَّةٌ ولمْ يُفتَحْ عليهم بشيءٍ، فاتفقَ أنَّ أحدَهم خرجَ إلى الوضوءِ فخَطرَ ببالِ أحدِهم أنَّ في زاويةِ ذلكَ الفقيرِ شيئًا مِنَ الدُّنيا فنَهَضَ ففتَّشَها فوجَدَ فيها نصفَ درهمٍ أسودَ، فقالَ لأصحابه: كيفَ يُفتَحُ علَيْنا ومعَ صاحبِنا شيءٌ معلومٌ قدْ كتَمَه منا؟ فأشاروا عليهِ بسترِه كما كانَ، ثُمَّ دخَلَ الرجلُ مِنَ البابِ وجَمَعَ حوائجَهُ لِينصرِفَ فقيلَ له: لِمَ تَنْصَرِفُ؟ فقالَ: لأنَّكم أفسدْتم حُجَّتي، قالوا: وكيفَ؟ قالَ: لأنِّي ادَّخَرْتُ ذلكَ النصفَ درهمٍ لِسببٍ، وذلكَ أنَّ اللهَ إذا أحضرَ خلقَهُ لِلحسابِ أتيتُ بذلكَ النصفِ درهمِ الأسودِ أضعُهُ بينَ يديهِ وأقولُ هذا ما فتحتَ به عليَّ مِنَ الدُّنيا وأكتفي الحسابَ، فإني لمْ يُفتحْ عَليَّ مِنَ الدُّنيا بغيرِهِ، فتعجَّبتِ الجماعةُ مِنْ ذلكَ وطابتْ قلوبُهم.

(**فِي الدُّنْيَا**) باستصغارِ جملتِها والاحتقارِ لجميعِ شأنِها لِتصغيرِ اللهِ تعالى لها وتحقيرِهِ إيَّاها وتحذيرِهِ مِنْ غرورِها في غيرِ ما آيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ تعالى، نحو قولِهِ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقولِهِ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٤-٢٥]، وقولِهِ: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، قالَ بعضُهم: وصَفَها بالمتاعِ لِئلَّا يَركنوا إلَيْها، وبالقلَّةِ لِيهونَ علَيْهم تركُها.

والدُّنيا عبارةٌ عما حواه الليلُ والنهارُ وأظلَّتْهُ السماءُ وأقلَّتْه الأرضُ، واختُلِفَ في المزهودِ

منها، فقيلَ: الدينارُ والدرهمُ، وقيلَ: المطعَمُ والمشرَبُ والملبَسُ والمسكَنُ، وقيلَ: الحياةُ، والأَوْلى أنَّ دُنْيا كُلِّ إنسانٍ بِحسبِ حالِه، حتى إنَّ كلامَ الفقيهِ بينَ طلبتِهِ وكلامَ الشيخِ بيْنَ تلامذتِهِ وكلامَ الأميرِ بينَ أجنادِه وما أشبَهَ ذلك دُنيا بالنسبةِ لَهُم إلَّا أنْ يُقصَدَ بذلك وجهُ اللهِ والدارُ الآخرةُ، وهذا لا يكادُ يَصِحُّ إلَّا مِنْ موفَّقٍ.

الأشياء الحاملة على الزهد

ثم الحاملُ على الزهدِ أشياءُ مِنْها استحضارُ الآخرةِ، ووقوفُه بينَ يدي مولاهُ، وشاهِدُ ذلك ما رويَ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَمْشي في طريقِهِ إذْ لَقيَهُ حارثةُ فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ: كيفَ أصبحتَ يا حارثةُ؟ قالَ: أصبحتُ -واللهِ- مؤمنًا حقًّا، فقالَ ﷺ: انظُرْ ما تقولُ، فإنَّ لِكُلِّ حقٍّ حقيقةً، فما حقيقةُ إيمانِكَ؟ قالَ عرضتُ نفْسي على الدُّنيا فاستوى عندي حجرُها ومدرُها، وسهرتُ ليلي وظمِئتُ نَهاري، وكأنِّي أنظرُ إلى عرشِ ربِّي بارزًا، وكأنِّي أنظرُ إلى أهلِ الجنَّةِ في الجنةِ يَنعمونَ وإلى أهلِ النَّارِ في النَّارِ يُعذَّبونَ، قالَ: يا حارثةُ عرفْتَ فالزَمْ، ثُمَّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ سرَّهُ أنْ يَنظُرَ إلى رجلٍ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ بالإيمانِ فَلْيَنظرْ إلى هذا)[1]، ومِثلُ هذا تَكونُ الدُّنيا سجْنَهُ، كما قالَ ﷺ: (الدُّنيا سجْنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ)[2]، وقيلَ لِبعضِ النُّساكِ: ما بالُ أكثرِ النُّسَّاكِ مُحتاجينَ إلى ما في يدِ غيرِهم؟ فقالَ: لأنَّ الدُّنيا سجْنُ المؤمنِ، وهلْ يأكُلُ المسجونُ إلا مِنْ يدِ المُطلَقِ.

ومِنْها استحضارُ أنَّ لذاتِها شاغلةٌ للقُلوبِ عن اللهِ تعالى، وموجبةٌ لِطولِ الحبْسِ والوقوفِ في ذلك الموقفِ العظيمِ لِلحسابِ والسؤالِ عَنْ شكرِ نَعيمِها. ومِنْها كثرةُ الذُّلِّ والتَّعبِ في تحصيلِها، وكثرةُ غبنِها، وسرعةُ تقلُّبِها وفنائِها، ومزاحمةُ الأراذلِ في تحصيلِها وطلبِها. ومِنْها حقارتُها عندَ اللهِ تَعالى، ومِنْ ثَمَّ قالَ الفُضَيْلُ: لوْ أنَّ الدُّنيا بِحذافيرِها عُرِضَتْ عَليَّ حلالًا لا أُحاسَبُ بِها لَتقذَّرْتُها كما تُتقذَّرُ الجيفةُ.

ومِنْها استحضارُ أنَّها وما فيها ملعونٌ كما في الحديثِ الحَسَنِ: (الدُّنْيا ملعونةٌ مَلعونٌ ما

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣١٤) [باب الهرب من الخطايا والذنوب]، والبزّار (٦٩٤٨) [مسند أنس]، والطبرانيُّ (٣/رقم ٣٣٦٧)، والبيهقيُّ في "الشعب" (١٠١٠٦) وغيرهم بألفاظ متقاربة من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) [كتاب الزهد والرقائق]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

فيها إلَّا ذِكْرُ اللهِ وما والاهُ، وعالِمٌ أو متعلِّمٌ)[1]، وفي رواية: (إلَّا ما ابتُغِيَ به وجهُ اللهِ تعالى)[2].
ومِنْها أنَّ تَرْكَها موجِبٌ لرفعةِ الدرجاتِ وحلولِ الرضوانِ الأكبرِ منه تعالى في دارِ الكراماتِ، وفي الأثرِ: إذا كانَ يومُ القيامةِ جَمَعَ اللهُ الذهبَ والفضةَ كالجَبَلَيْنِ العظيمَيْنِ ثُمَّ يَقولُ: هذا ما لنا صارَ إلَيْنا، سَعِدَ به قومٌ وشَقِيَ بِهِ آخرونَ[3]، ومِنْ ثَمَّ قالَ ﷺ:

(يُحِبَّكَ) بفتحِ الباءِ المشدَّدةِ، والأصلُ يُحْبِبْكَ بكسرِ الأُولى وسكونِ الثانيةِ مجزومٌ في جوابِ الأمرِ الذي هو "ازْهَدْ"، فسُكِّنَتِ الباءُ الأُولى عندَ إرادةِ الإدغامِ بنقلِ حركتِها إلى الساكنِ قبْلَها، وهو الحاءُ فاجتمعَ ساكنانِ فحُرِّكَ الأخيرُ لِالتقائِهما بالفتحِ تخفيفًا، (اللهُ) لأنَّهُ تعالى يُحِبُّ مَنْ أطاعَهُ.

ومرَّ سليمانُ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- عَلى بُلبُلٍ بشجرةٍ يُحرِّكُ رأسَهُ ويُميلُ ذَنبَهُ فقالَ: أتدرونَ ما يَقولُ؟ قالوا: اللهُ ونبيُّه أعلَمُ، قالَ: يقولُ: أكَلْتُ نصفَ تمرةٍ فعَلى الدُّنيا العَفاءُ، وفي الحديثِ: (ابنَ آدمَ، إذا أصبحتَ مُعافًى في جسدِكَ، آمنًا في سِرْبِكَ، عندَكَ قوتُ يومِكَ، فعَلى الدُّنيا العَفاءُ)[4]، وسِرْبُكَ -بكسْرٍ فسكونٍ- نَفْسُكَ، أو -بِفتحٍ فسكونٍ- مَذْهَبُكَ ومسلكُكَ، أو -بفتحتَيْنِ- بَيتُكَ، والعَفاءُ الهلاكُ والدروسُ وذهابُ الأثرِ.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢٣٢٢) [أبواب الزهد]، وابن ماجه (٤١١٢) [أبواب الزهد- باب مثل الدنيا]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وحسَّنه الترمذيُّ، وفي الباب عن جابر وأبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجها الطبراني في مسند الشاميين (٦١٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٣) ذكره الهيتمي في شرح الأربعين (٥٠٨/١)، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.
(٤) أخرجه الطبرانيُّ في "الأوسط" (٨٨٧٥)، والقضاعيُّ في "مسند الشهاب" (٣٦١/١) وابن عديٍّ في "الكامل" (٢٣١/٥) والبيهقيُّ في "الشعب" (٩٨٧٦)، وأبو نعيم في "الحلية" (٩٨/٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ووقع عند الطبرانيِّ وأبي نعيم عن عمر. وذكره الهيثمي في "المجمع" (٢٨٩/١٠). وقال: رواه الطبرانيُّ في "الأوسط" وفيه أبو بكر الداهريُّ وهو ضعيفٌ. وأبو بكر الداهريُّ متهمٌ بالوضع، ولكنه لم ينفرد به؛ فقد رواه العسكريُّ في "الأمثال"، وابن عساكر في "معجم شيوخه" (٨٤٢/٢) كلاهما من طريق سلَّام بن سليمان المدائنيِّ، عن إسماعيل ابن رافع، عن خالد بن مهاجر، عن ابن عمر به مثله. وسلَّام بن سليمان المدائنيُّ، وإسماعيل بن رافع ضعيفان. وقال العجلونيُّ في "كشف الخفا" (٣٩/١): معناه صحيح. وقوله: (إذا أصبحتَ مُعافًى في جَسَدِكَ..) ورد عن أبي الدرداء، وعُبيد الله بن مِحْصَن، وحديث الثاني عند أبي الترمذيِّ (٢٣٤٦) [أبواب الزهد]، وغيره بإسنادٍ حسنٍ. وانظر "المداوي لعلل المناوي" (٩٢/١) للسيد أحمد بن الصِّدِّيق.

وقدْ صحَّ خبرُ: (ما شَبِعَ آلُ محمدٍ مِنْ طعامِ ثلاثةَ أيامٍ تِباعًا حتى قُبِضَ)(١)، وخَبَرُ: (كانَ النبيُّ ﷺ يَبيتُ الليالِيَ المتتابعةَ وأهلُهُ طاويًا لا يَجِدونَ عَشَاءً، وإنَّما كانَ خُبزُهم الشعيرَ)(٢)، وخبرُ النعمانِ بنِ بشيرٍ: لقدْ رأيتُ نبيَّكم ﷺ يَظَلُّ اليومَ يتلوَّى لا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ -بالتحريك أردأُ التَّمْرِ- ما يَملأُ بطنَهُ(٣)، وخبرُ: أنَّهُ كانَ يَمضي الشهرانِ ولا تُوقَدُ في أبياتِه ﷺ نارٌ، وإنَّما طعامُهم التَّمرُ والماءُ(٤)، وخبرُ: أنَّهُ ﷺ ماتَ ودِرعُهُ مرهونة عندَ يهوديٍّ عَلى ثلاثينَ صاعًا مِنْ شعيرٍ أخذَها قوتًا لِأهلِه(٥).

ودَخَلَ عُمَرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يومًا عَلى رسولِ اللهِ ﷺ وهو عَلى حصيرٍ وقدْ أثَّرَ في جنْبَيهِ، فبَكى عُمَرُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ما يُبكيكَ؟ فقالَ: ذكرتُ كِسرى وقيصرَ عدوَّيِ اللهِ في الخزِّ والقزِّ والحريرِ والديباجِ، وأنتَ رسولُ اللهِ ﷺ وخيرتُهُ مِنْ خلقِه عَلى هذا، فقالَ له: أفي شكٍّ أنتَ يا ابنَ الخطابِ، أمَا تَرضى أنْ تكونَ لهم الدُّنيا ولنا الآخرةُ، قالَ: بلى، قالَ: فهو كذلكَ(٦)، وقامَ الحسنُ عَلى قبرٍ فقالَ: إنَّ أمرًا هذا آخرُه لَحقيقٌ أنْ يُزهَدَ في أوَّلِه، وإنَّ أمرًا هذا أوَّلُهُ لحقيقٌ أنْ يَخافَ آخرَهُ(٧). وقالَ الحسنُ بنُ محمدٍ الجريريُّ: أسرعُ المطايا إلى الجنةِ الزُّهدُ في الدُّنيا، وأسرعُ المطايا إلى النَّارِ حُبُّ الشهواتِ. وقالَ الجنيدُ: ما أخذْنا التَّصوُّفَ عن القيلِ والقالِ، ولكنْ عن الجوعِ وتركِ الدُّنيا وقطعِ المألوفاتِ والمستحسناتِ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٤) [كتاب الأطعمة]، ومسلمٌ (٢٩٧٦) [كتاب الزهد والرقائق]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠٣) [مسند عبدالله بن العباس]، والترمذي (٢٣٦٠) [أبواب الزهد- باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله]، وابن ماجه (٣٣٤٨) [أبواب الأطعمة- باب خبز الشعير]، وغيرهم من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وصحَّحه الترمذيُّ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٧٧) [كتاب الزهد والرقائق]، وغيره.

(٤) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤٥٩) [كتاب الرقاق- باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه]، ومسلمٌ (٢٩٧٢) [كتاب الزهد والرقائق]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٥) أخرجه البخاري (٢٩١٦) [كتاب الجهاد والسِّير- باب ما قيل في درع النبي ﷺ]، وغيره من حديث عائشة.

(٦) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا: البخاريُّ (٥٨٤٣) [كتاب اللباس- باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس والبسط]، ومسلمٌ (١٤٧٩) [كتاب الطلاق- باب في الإيلاء]، وغيرهما.

(٧) أخرجه البيهقي في الزهد (٥٤٩).

وقالَ أبو بكرٍ الكناني: قالَ لي عليُّ بنُ سعيدٍ: رأيتُ في النوم امرأةً لا تشبهُ نساءَ الدُّنيا فقلتُ: مَنْ أنتِ؟ قالتْ: حوراءُ، فقلتُ: زوِّجيني نفْسَكِ، قالتْ: اخطبني إلى سيِّدي، قلتُ: فما مهرُكِ؟ قالتْ: حبْسُ نفْسِكَ عنْ مألوفاتها. وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ: تركُ الدُّنيا شديدٌ، وتركُ الجنَّةِ أشدُّ منه، وإنَّ مهْرَ الجنَّةِ تركُ الدُّنيا.

وقدْ قالَ ﷺ: (لوْ كانتِ الدُّنيا تُساوي -وفي روايةٍ تَعدلُ- عندَ اللهِ جناحَ بَعوضةٍ مَا سَقى كافرًا مِنها شرْبةَ ماءٍ)[1]، وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ: الزهدُ ثلاثةُ أحرفٍ زايٌ وهاءٌ ودالٌ، فالزايُ ترْكُ الزِّينةِ، والهاءُ ترْكُ الهوى، والدَّالُ ترْكُ الدُّنيا بجُملتِها، وأنْشَدَ بعضُهم فقالَ:

فَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا جَزَاءً لِمُحْسِنٍ * إِذًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَعَاشٌ لِظَالِمِ
لَقَدْ جَاعَ فِيهَا الأَنْبِيَاءُ كَرَامَةً * وَقَدْ شَبِعَتْ فِيهَا بُطُونُ البَهَائِمِ

وسُئِلَ معروفٌ الكرخيُّ عنِ الطائعينَ بمَ قَدَروا عَلى الطاعةِ، قالَ: بإخراجِ الدُّنيا مِنْ قلوبِهم، وقالَ الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ: جَعَلَ اللهُ الشرَّ كُلَّهُ في بيتٍ، وجَعَلَ مِفتاحَهُ حُبَّ الدُّنيا، وجَعَلَ الخيْرَ كُلَّهُ في بيتٍ، وجَعَلَ مِفتاحَهُ الزُّهْدَ. وقدِ اتفقَ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ قالَ: بِتُّ ليلةً تحتَ الصخرةِ ببيتِ المقدسِ، فلمَّا كانَ الليلُ نزَلَ ملكانِ فقالَ أحدُهما للآخرِ: مَنْ هذا؟ فقالَ لهُ الآخرُ: إبراهيمُ بنُ أدهمَ، فقالَ له: الَّذي حُطَّتْ درجةٌ مِنْ درجاتِه؟ فقالَ له: لمَ؟ فقالَ: إنَّهُ اشترى بالبصرةِ تمْرًا فوقعتْ تمرةٌ مِنْ تمرِ البَقَّالِ عَلى تمرِه. فرَجَعَ إلى البصرةِ واشترى تمرًا مِنَ الرجلِ ثُمَّ إنَّه قلَّبَ تمرَةُ عَلى التمرِ، ورجَعَ وباتَ في بيتِ المقدسِ تحتَ الصخرةِ فلمَّا كانَ بعضُ الليلِ نزَلَ ملكانِ مِنَ السَّماءِ فقالَ أحدُهما لِصاحبِه: مَنْ ها هنا؟ فقالَ له: إبراهيمُ بنُ أدهمَ، فقالَ له: ذاكَ الَّذي ردَّ التمرَ مكانَهُ ورُفِعتْ درجتُهُ.

***

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢٣٢٠) [أبواب الزهد - باب في قلة الكلام]، والطبرانيُّ في "الكبير" (١٥٧/٦)، وأبو نعيم (٢٥٣/٣) [ترجمة سلمة بن دينار]، والحاكم (٣٠٦/٤) [كتاب الرقاق]، وغيرهم من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصحَّحه الترمذيُّ والحاكم.

(وازْهَدْ فيمَا عِنْدَ النَّاسِ) بإعراضِكَ عمَّا في أيديهم مِنْها، (يُحِبَّكَ) بفتحِ الموحَّدةِ المُشدَّدةِ كَمَا سَبَقَ، (النَّاسُ) لِتركِكَ لَهُمْ ما أحبُّوهُ؛ إذْ قلوبُ أكثرِهم مجبولةٌ مطبوعةٌ عَلى حُبِّ الدُّنيا، ومَنْ نازَعَ إنسانًا في محبوبِهِ كرِهَهُ وقَلاهُ، ومَنْ لمْ يُعارِضْهُ فيهِ أحبَّهُ واصطفاهُ، و"النّاسُ" شاملٌ لِلإنسِ والجنِّ، فيُستفادُ منهُ أنَّ الزاهِدَ يُحِبُّهُ الإنسُ والجنُّ.

الزهد فيما عند الناس

قالَ الحَسَنُ: لا يَزالُ كريمًا الرجُلُ عَلى النَّاسِ حتَّى يَطمَعَ في دُنياهُمْ فإذَا فَعَلَ ذلكَ استخفُّوا بِهِ وكرِهوا حديثَهُ وأبْغَضوهُ. وقالَ أعرابيٌّ لِأهلِ البصرةِ: مَنْ سيِّدُكم؟ قالوا: الحَسَنُ، قالَ: بما سادكم؟ قالوا: احتاجَ النَّاسُ إلى علمِهِ، واستغْنى هو عنْ دُنياهم، فقالَ: ما أحْسَنَ هذا! وسألَ كَعْبُ الأحبارِ -وهو تابعيٌّ- عبدَ اللهِ بنَ سلام بحضرةِ عمرَ بنِ الخطابِ: ما يُذهِبُ العلمَ مِنْ قلوبِ العلماءِ بَعدَ ما حَفِظوهُ وعَقَلوه؟ فقالَ: يُذهِبُهُ الطمَعُ وشرَهُ النَّفْسِ وطلَبُ الحاجاتِ إلى الناسِ، فقالَ: صدَقْتَ.

وقالَ ابنُ عَطاءِ اللهِ: الزُّهدُ فيما في أيدي النَّاسِ سببٌ لِمحبَّةِ الخَلْقِ، والزُّهدُ فيما سوى اللهِ سبَبٌ لِمحبَّةِ الحقِّ، فمَنْ أحبَّ العطاءَ مِنَ الخَلْقِ دلَّ عَلى بُعدِهِ مِنَ اللهِ، فالعَطاءُ مِنْهم حِرمانٌ، والمنْعُ مِنْهم إحسانٌ. وذَكَرَ الغزاليُّ أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ قُبَيْلَ الصبحِ برجُلٍ نائمٍ مُلْتَفٍّ بِعباءةٍ فقالَ: يا نائمُ قُمْ فاذكرِ اللهَ، فقالَ: ما تريدُ منِّي يا روحَ اللهِ، وقدْ تركتُ الدُّنْيا لِأهلِها، قالَ: فنَمْ إذًا حَبيبي. وقالَ أبو الحسنِ الشاذليُّ: دَخَلَ عَليَّ بالمغربِ بعضُ الكبراءِ فقالَ: ما أرى لَكَ كبيرَ عمَلٍ، فبمَ فُقْتَ النَّاسَ وعظَّموكَ؟ فقلتُ: بِخَصْلةٍ واحدةٍ تمسَّكتُ بِها، الإعراضُ عنْهم وعنْ دُنياهم.

وذَكَرَ المناويُّ في شرْحِ الجامعِ الصغيرِ في تفسيرِ قولِهِ ﷺ: (اتَّخذوا الغَنَمَ فإنَّها بركَةٌ)[1]، أنَّهُ وَرَدَ في بعضِ الآثارِ أنَّ الخليلَ -عليهِ الصلاةُ والسلامُ- كانَ له أربعةُ آلافِ كلبٍ في عُنُقِ كُلِّ كلبٍ طوقٌ مِنَ الذهبِ الأحمرِ زنتُهُ ألفُ مثقالٍ، فقيلَ له في ذلك، فقالَ: إنَّما فعلتُ ذلكَ؛

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٣٨١) [مسند القبائل- من حديث أم هانئ]، وابن ماجه (٢٣٠٤) [أبواب التجارات- باب اتخاذ الماشية]، والطبرانيُّ (٢٤/رقم ١٠٣٩)، وغيرهم من حديث أمِّ هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا بإسناد صحيح.

لأنَّ الدُّنيا جيفةٌ وطُلَّابُها كلابٌ، فدفعتُها لِطُلَّابِها، اهـ. وذَكَرَ الشيخُ زرّوقٌ أنَّ شُعيبًا كانَ في غنمِه اثنى عشرَ ألفَ كلبٍ.

قالَ صاحبُ "الحقائقِ": إنَّ إبليسَ لمَّا أُخذتْ منه الدُّنيا اغتمَّ لَها، وقارونَ لمَّا أُعطيَها فَرِحَ بِها، فالَّذي اغتمَّ لَها صارَ ملعونًا، والَّذي فَرِحَ بِها صارَ تحتَ الأرضِ مسجونًا، ونبيُّنا ﷺ لمَّا عُرِضتْ عليه لمْ يأخذْها[1]، ولمَّا ردَّها لمْ يَغتمَّ لَها فصارَ إلى ما صارَ.

وأنشدَ الشافعيُّ رحِمَهُ اللهُ تعالى:

ومَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَإِنِّي طَعِمْتُهَا * وَسِيقَ إِلَيْنَا عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا

فَمَا هِيَ إِلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ * عَلَيْهَا كِلَابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا

فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سلمًا لِأَهْلِهَا * وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَازَعَتْكَ كِلَابُهَا

وفي "كشْفِ الأسرارِ":

كُنْ زَاهِدًا فِيمَا حَوَتْهُ يَدُ الْوَرَى * تَضْحَى إِلَى كُلِّ الْأَنَامِ حَبِيبَا

أَوَمَا تَرَى الْخُطَّافَ حَرَّمَ زَادَهُمْ * فَغَدَا رئِيسًا فِي الْجُحُورِ قَرِيبَا

ولِبَعضِهم:

تَوَرَّعْ عَنْ سُؤَالِ الْخَلْقِ طُرًّا * وَسَلْ رَبًّا كَرِيمًا ذَا هِبَاتِ

ودَعْ زَهَرَاتِ دُنْيَاكَ اللَّوَاتِي * تَرَاهَا لَا مَحَالَةَ ذَاهِبَاتِ

ولِأبي عبيدةَ:

الرِّزْقُ يَأْتِي وَإِنْ لَمْ يَسْعَ صَاحِبُهُ * حَتْمًا وَلَكِنْ شَقَاءُ الْمَرْءِ مَكْتُوبُ

وَفِي الْقَنَاعَةِ كَنْزٌ لَا نَفَادَ لَهُ * وَكُلُّ مَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ مَسْلُوبُ

---

(١) أخرج أحمد (٢٢١٩٠) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي أمامة]، والترمذي (٢٣٤٧) [أبواب الزهد- باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه]، وغيرهما من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا وفيه: (عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا. فقلت: لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما -أو نحو ذلك-، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك).

وسُئِلَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ عنْ زُهْدِهِ فقالَ: كُنتُ يومًا معَ إخواني في بستانٍ لنا، وذلكَ حينَ حَمَلتِ الأشجارُ بالثِّمارِ مِنْ ألوانِ الفواكِهِ، فأكلْنا وشربْنا حتَّى جاءَ الليلُ فنِمْنا، وكنتُ مولَعًا بضرْبِ العُودِ والطنبورِ فقمتُ في بعضِ الليلِ فضربتُ، وطائرٌ يَصيحُ فوقَ رأسي عَلى شجرةٍ، والعودُ بيديَّ ولَا يُجيبُني إلى ما أُريدُ، فإذا أنا بهِ نطَقَ كما يَنطقُ الإنسانُ، يَعني الذي بيدِه، وهو يقولُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] قلتُ: بلى، وكسرتُ العودَ وصرفتُ مَنْ كانَ عندي، فقدْ كانَ هذا أوَّلَ زهدي وتَشميري.

وقدْ قيلَ: مَنْ سُمِّيَ باسمِ الزُّهْدِ فقدْ سُمِّيَ بألفِ اسمٍ ممدوحٍ، هذا معَ ما لِلزَّاهدينَ مِنْ راحةِ القلبِ والبدنِ في الدُّنيا والآخرةِ، والزُّهادُ هم الملوكُ في الحقيقةِ كما قالَ بعضُهم:

أَرَى الزُّهَّادَ فِي رَوحٍ وَرَاحَهْ * قُلُوبُهُمْ عَنِ الدُّنْيَا مُزَاحَهْ

إِذَا أَبْصَرْتَهُمْ أَبْصَرْتَ قَوْمًا * مُلُوكَ الأَرْضِ سِيمَتُهُمْ سَمَاحَهْ

وقالَ الحَسَنُ: واللهِ ما أعزَّ الدراهمَ أحَدٌ إلَّا أذلَّهُ اللهُ. قيلَ: أوَّلَ ما ضُربَتِ الدَّراهمُ والدنانيرُ رفَعَهما إبليسُ إلى جبهتِهِ وقَبَّلَهُما وقالَ: مَنْ أحبَّكُما فهو عبْدي حقًّا، ومِنْ ثَمَّ قالَ بعضُهم: إنَّهما أزمَّةُ المنافقينَ يُقادونَ بهما إلى النَّارِ.

(**حَديثٌ حَسَنٌ**) بَلْ صحَّحهُ الحاكمُ في المستدركِ، (**رَواهُ**) الحافظُ الكبيرُ أبو عبدِ اللهِ بنُ يزيدَ (**ابنُ ماجَه**) القزوينيُّ صاحبُ السُّنَنِ، وُلِدَ سنةَ تِسعٍ ومائتينِ، وماتَ يومَ الإثنينِ لِثمانٍ بَقينَ مِنْ رمضانَ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ ومائتينِ (**وَغَيْرُهُ**) كالعقيليِّ وابنِ عديٍّ والطبرانيِّ والحاكمِ والبيهقيِّ[1] (**بأسانيدَ حسَنَةٍ**)، وهو أَحَدُ الأحاديثِ الأربعةِ الَّتي علَيْها مدارُ الإسلامِ كمَا مَرَّ.

***

---

(١) الضعفاء للعقيليِّ (٢/١٠)، والكامل لابن عديٍّ (٣/٤٥٨)، والمعجم الكبير للطبرانيِّ (٦/رقم ٥٩٧٢)، ومستدرك الحاكم (٤/٣١٣) [كتاب الرقاق].

الحديثُ الثاني والثلاثونَ

٣٢. عنْ أبي سعيدٍ، سعدِ بنِ سِنانٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: لا ضررَ ولا ضِرارَ.

حديثٌ حَسَنٌ رواهُ ابنُ ماجهْ والدارَقُطْنيُّ وغيرُهما مُسْنَداً، ورواهُ مَالكٌ في المُوَطَّأ مُرسلاً عنْ عمرِو بنِ يَحيى عنْ أبيهِ عنِ النَّبيِّ ﷺ، فأَسْقَطَ أبا سعيدٍ، وله طُرقٌ يُقوِّي بعضُها بعضاً.

(**عنْ أبي سعيدٍ سعدِ**) وقيلَ: سنانٍ، والمشهورُ الأوَّلُ (**ابنِ مالكِ بنِ سنانٍ**) بنِ عبيدٍ، وقيلَ: عبدِ بنِ ثعلبةَ بنِ عبيدِ بنِ الأبجرِ، وهو خدرةُ بنُ عوفِ بنِ الحارثِ بنِ الخزرجِ الأنصاريِّ، وزعمَ بعضُهم أنَّ خدرةَ هي أُمُّ الأبجرِ، (**الْخُدْرِيِّ**) بضمِّ الخاءِ المعجمةِ وسكونِ الدَّالِ المهملةِ، ووهمَ مَنْ أعجَمَ الدَّالَ، نسبةً إلى جدِّهِ خدرةَ بنِ عوفِ بنِ الحارثِ بنِ الخزرجِ، وقيلَ: نسبةً إلى حيٍّ مِنَ اليمنِ، أسلمَ أبو سعيدٍ، وبايعَ المصطفى ﷺ عَلى أنْ لا تأخذَهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ[1]، واستُصغرَ يومَ أُحدٍ فرُدَّ فخرَجَ فيمَنْ يَتلقَّى رسولَ اللهِ ﷺ حينَ رجعَ مِنْ أُحدٍ، فنَظَرَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ وقالَ: سعدُ بنُ مالكٍ، فقالَ: نَعَمْ، بأبي أنتَ وأُمِّي يا رسولَ اللهِ، فدَنَا منهُ وقبَّلَ رُكْبَتَهُ، فقالَ: آجَرَكَ اللهُ في أبيكَ[2]؛ لأنَّهُ قُتِلَ يومئذٍ شهيدًا.

التعريف بسعد ابن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

غَزا أبو سعيدٍ معَ رسولِ اللهِ ﷺ اثنيْ عشرَ غزوةً أوَّلُها الخندَقُ، وكانَ مِنَ الرُّماةِ المشهورينَ، وهو معدودٌ مِنْ أهلِ الصُّفَّةِ، رويَ عنه قالَ: أصبحتُ وليسَ عندَنا طعامٌ، وقدْ ربطْتُ حجَرًا مِنَ الجوعِ، فقالتِ امرأتي: ائتِ النبيَّ ﷺ فاسألْهُ، فقدْ أتاهُ فلانٌ فأعطاهُ، وفلانٌ فأعطاهُ، فقلتُ: لا، حتى لا أجِدَ شيئًا، فطلبْتُ فلمْ أجدْ شيئًا، فأتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يَخطُبُ فأدركتُ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/رقم ٥٧٢٥).

(٢) أخرجه ابن عساكر في التاريخ (٢٠/٣٨٥) [ترجمة سعد بن مالك].

مِنْ قولِهِ: مَنْ يَستغنِ يُغنِه اللهُ، ومَنْ يَستعففْ يُعفَّهُ اللهُ قالَ فما سألتُ أحدًا بعدَه، وما زالَ اللهُ يَرزقُنا حتَّى ما أعلَمُ أهلَ بيتٍ مِنَ الأنصارِ أكثرَ أموالًا منَّا. رويَ له عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ألفٌ ومائةٌ وسبعونَ حديثًا، اتَّفقا منْها عَلى ستةٍ وأربعينَ، وانفردَ البخاريُّ بستةَ عشرَ، ومسلمٌ باثنينِ وخمسينَ، تُوفِّيَ بالمدينةِ سنةَ أربعٍ وسبعينَ، وقيلَ: ثلاثٍ وسبعينَ، وقيلَ: ثلاثٍ وستينَ، والمشهورُ الأوَّلُ، وله أربعٌ وتسعونَ سنةً، ودُفِنَ بالبقيعِ.

(رضِيَ اللهُ عنه) يَنبغي عنْهما؛ لأنَّ أباهُ كانَ صحابيًّا أيضًا **(أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ)**:

***

(لَا ضَرَرَ) خبرُ "لَا" محذوفٌ أيْ في دينِنا، أو الخبرُ بمعْنى النهيِ أيْ لَا يَضُرَّ أحدٌ غيرَهُ، **(وَلَا ضِرَارَ)** فِعالٌ -بكسْرِ أوَّلِهِ- أيْ لا يُجازيهِ عَلى إضرارِهِ بَل يَعفو ويَصفَحُ، أي لا يَضرُّ مَنْ لا يَضرُّه ولَا يَضُرُّ مَنْ يَضُرُّهُ، فالضررُ ابتداءُ الفعلِ والضِّرارُ الجزاءُ علَيْه.

الفرق بين الضرر والضرار

وقيلَ: الضَّرَرُ ما يَضُرُّ به الإنسانُ غيْرَهُ ويَنتفعُ هو بِهِ، والضِّرارُ أنْ يَضرَّه مِنْ غيرِ أنْ يَنتفِعَ، وقيلَ: بِالعكسِ. وقيلَ: الأوَّلُ نَهيٌ لِلشخصِ عنْ تَعاطي ما يَضُرُّ نفْسَهُ، والثاني نَهيٌ له عنْ فعْلِ ما يَضُرُّ غيرَهُ. وقيلَ: الأوَّلُ عبارةٌ عنْ منْعِ ما يَنفَعُ الغيرَ، والثاني عبارةٌ عنْ فعلِ ما يَضرُّ به. وقيلَ: معْنى الأوَّلِ لا يَضُرَّ الشخْصُ أخاهُ فيَنتقِصَ شيئًا مِنْ حقِّهِ، ومعْنى الثاني لا يُضارَّ الرجُلُ جارَهُ بإدخالِ الضَّرَرِ عليهِ. وقيلَ: معْنى الأوَّلِ لا يَلزمُهُ الصبرُ عَلى الضررِ، ومعْنى الثاني لا يَجوزُ له إضرارُ غيرِهِ، وحينئذٍ فالجمعُ بيْنَهُما للتأسيسِ، وقيلَ: إنَّهما بمعنًى واحدٍ، جُمِعَ بيْنَهما لِلتأكيدِ، فكأنَّهُ قالَ: لا تَضُرَّ ولا تُضَرَّ، والأوَّلُ أَوْلى؛ لأنَّهُ إذَا دارَ الأمرُ بينَ الحَمْلِ عَلى التأسيسِ والتأكيدِ فحَمْلُه عَلى التأسيسِ أَوْلى، لا سيَّمَا في كلامِ الشارعِ -عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ- وقولُه "ولا ضِرارٌ"، وفي بعضِ الرواياتِ "إضرارٌ" بالهمزِ[1]، قالَ ابنُ الصَّلاحِ: ولا صِحَّةَ لَها، وبقيةُ الحديثِ (مَنْ ضارَّ ضارَّ اللهُ بِهِ، ومَنْ شاقَّ شاقَّ اللهُ عليهِ)[2].

(١) أخرجها الدارقطني في السنن (٤٥٤١) [كتاب في الأقضية والأحكام]، وغيره.

(٢) أخرجها الدارقطني (٣٠٧٩) [كتاب البيوع]، والبيهقي (١١٣٨٤) [كتاب الصلح- باب لا ضرر ولا ضرار].

وظاهرُ الحديثِ تحريمُ سائرِ أنواعِ الضَّررِ ما قلَّ منهُ وما كَثُرَ إلَّا لِدليلٍ؛ لأنَّ النكرةَ في سياقِ النفيِ تَعمُّ فيَحرُمُ عَلى الشخصِ فتحُ كوَّةٍ في جدارِهِ يَطَّلعُ مِنْها عَلى عوراتِ جارِهِ أوْ إحداثُ فُرْنٍ أو حمامٍ أو رَحًى أو معصرةٍ لِوجودِ الضررِ بالدخانِ وصوتِ الرَّحى وما أشبَهَ ذلكَ، ولا يَحرُمُ عليهِ تعليةُ بنائِهِ عَلى جدارِ جارِهِ وإنْ أظلَمَ عليهِ أبوابَ غُرفِهِ ومنَعَ الشمسَ أنْ تقَعَ في حُجرتِهِ، وإذا انهارتْ بئرُ جارِهِ وكانَ له فضلُ ماءٍ فإنَّهُ يَجبُ عليهِ إرسالُ مائِهِ إلى زرعِ جارِهِ بشروطٍ ثلاثةٍ، أحدُها أنْ يَكونَ قدْ زرَعَ عَلى أصلِ ماءٍ، الثَّاني أنْ يَتشاغَلَ بإصلاحِ بئرِهِ، الثالثُ: أنْ يُخشى عَلى زرْعِهِ الهلاكُ.

***

(**حَديثٌ حَسَنٌ**) لِذاتِهِ، وله طُرُقٌ مُتعدِّدةٌ يَرتقي بِمجموعِها إلى درجةِ الصِّحَّةِ، (**رَواهُ ابنُ ماجهْ والدارَقطنيُّ وغيْرُهما**) كالحاكمِ في مستدرَكِهِ والبيهقيُّ في شُعبِهِ، وظاهرُهُ أنَّ الكُلَّ رووهُ مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ، والأمرُ بخلافِهِ، بلِ ابنُ ماجه رواهُ مِنْ حديثِ ابنِ عباسٍ وعبادةَ (**مُسْنَدًا**) وهو المُتَّصلُ الذي لم يُحذَفْ مِنْ إسنادِهِ أحَدٌ.

***

التعريف بالإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(**ورَواهُ**) إمامُ الأئمةِ وناصرُ السُّنَّةِ أبو عبدِ اللهِ (**مَالِكُ**) بنُ أنسِ بنِ مالكِ بنِ أبي عامرِ ابنِ عمرِو بنِ الحارثِ (**بْنِ غَيْمَانَ**) بنِ خُثَيْلِ بنِ عمرِو بنِ الحارثِ، وهو ذو أصبحٍ، و"غَيْمَانُ" بالغينِ المعجمةِ مفتوحةً والياءِ باثنتينِ مِنْ أسفلِهِ ساكنةً ذَكَرَهُ غيرُ واحدٍ، و"خُثَيْل" بالخاءِ المُعجَمةِ مضمومةً وثاءٍ مثلثةٍ مفتوحةً وياءٍ باثنتينِ مِنْ أسفلِهِ ساكنةً، وقالَ أبو الحسنِ الدارَقطنيُّ: جُثَيْلٌ بالجيمِ، وحكاهُ عنِ الزبيريِّ، وأمَّا مَنْ قالَ: عثمانُ بنُ جبيلٍ أو ابنُ حبيلٍ[1] فقدْ صحَّفَ.

وأبو عامرٍ جدُّ أبي مالكٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وشهِدَ المغازيَ كُلَّها معَ رسولِ اللهِ ﷺ خَلا بدرًا، وابنُه مالكٌ جدُّ مالكٍ، كنيتُهُ أبو أنسٍ مِنْ كبارِ التابعينَ، وهو أحدُ الأربعةِ الذينَ حَملوا عثمانَ ليلًا إلى قَبْرِهِ وغَسَّلوهُ ودَفنوهُ.

---

(١) كذا عبارة المخطوطة، وفي المطبوع: "عثمان بن حيسلا وابن حنبل".

وعنْ أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: يوشكُ أنْ يَضربَ الناسُ أكبادَ الإبلِ في طلبِ العلْمِ، وفي روايةٍ: يَلتمسونَ العلْمَ، فلا يَجدونَ عالمًا أعلَمَ -وفي روايةٍ: "أفقهَ"- مِنْ عالمِ المدينةِ، وفي روايةٍ: "مِنْ عالمٍ بالمدينةِ"، وفي بعضِها: "أباطَ الإبلِ" مكانَ "أكبادِ الإبلِ"[1]، وقدْ ذكَرَ السلفُ أنَّ المرادَ بِهِ مالكٌ؛ لأنَّ طلبةَ العلمِ لمْ يَضربوا أكبادَ الإبلِ مِنْ مشرقِ الأرضِ ومغربِها إلى عالمٍ ولا رحَلوا مِنَ الآفاقِ رِحلتَهم إلى مالكٍ.

وقالَ الشافعيُّ: مالكٌ أستاذي، وعنهُ أخَذْنا العِلمَ، وما أحَدٌ أَمَنَّ عليَّ مِنْ مالكٍ، وجعلتُ مالكًا حُجَّةً بيْني وبيْنَ اللهِ تَعالى، وإذا ذُكِرَ العلماءُ فمالكٌ النجمُ الثاقبُ، ولمْ يبْلُغْ أحَدٌ مبلغَ مالكٍ في العلمِ بحفظِهِ وإتقانِهِ وصيانتِهِ، وقالَ: العلمُ يَدورُ عَلى ثلاثةٍ مالكٍ والليثِ وسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ. وحُكِيَ عنِ الأوزاعيِّ أنَّهُ إذَا ذَكَرَهُ قالَ: عالمُ العلماءِ وعالمُ أهلِ المدينةِ ومفتي الحرمَيْنِ، وقالَ ابنُ معينٍ: مالكٌ مِنْ حُجَجِ اللهِ عَلى خلقِهِ، إمامٌ مِنْ أئمةِ المسلمينَ مُجمَعٌ عَلى فضلِهِ.

واختُلفَ في حمْلِ أُمِّ الإمامِ به، فقالَ ابنُ نافعٍ الصائغُ والواقديُّ ومعنٌ ومحمدُ بنُ الضحَّاكِ: حمَلَتْ به أُمُّهُ ثلاثَ سنينَ، وقاله بكارُ بنُ عبدِ اللهِ الزبيريُّ، وقالَ: نضَّجَتْهُ -واللهِ- الرَّحِمُ، قالَ ابنُ منذرٍ: وهو المعروفُ، وروِيَ عنِ الواقديِّ: أنَّها حمَلَتْ به سنتَيْنِ، والأشهرُ أنَّهُ وُلِدَ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ مِنَ الهجرةِ، وقيلَ: سنةَ أربعٍ وتسعينَ في ربيعِ الأولِ في خلافةِ الوليدِ، وقيلَ: سنةَ تسعينَ، وقيلَ: سنةَ ستٍّ، وقيلَ: سنةَ سبْعٍ.

وكانَ طويلًا جسيمًا عظيمَ الهامةِ، شديدَ البياضِ إلى الصفرةِ، حسَنَ الصورةِ، عظيمَ اللحيةِ تامَّها تبلُغُ صدرَهُ ذاتِ سعةٍ وطولٍ، وكانَ يأخذُ أطرافَ شاربِهِ ولا يَحلِقُهُ ولا يُحفيه، ويَرى حلقَهُ مِنَ المُثْلةِ، وكانَ يَتركُ له سبلتَينِ[2] طويلتَينِ، ويَحتجُّ بفتْلِ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ [لِشاربِه] إذا أهمَّهُ أمرٌ، وقالَ بعضُهم: كانَ ربعةً، والأوَّلُ أشهرُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٨٠) [مسند أبي هريرة] والترمذيُّ (٢٦٨٠) [أبواب العلم- باب ما جاء في عالم المدينة]، والطحاويُّ في "شرح مشكل الآثار" (٤٠١٦)، والحاكم (١/٩٠) [كتاب العلم]، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذيُّ وصحَّحه الحاكم.

(٢) السَّبَلة: ما على الشارب من الشعر، وقيل طَرَفه. [لسان العرب]

وسألَهُ رجلٌ عنْ مسألةٍ فبادَرَهُ ابنُ القاسمِ فأفتاهُ، فأقبَلَ عليهِ مالكٌ كالمُغضَبِ وقالَ: جَسَرْتَ عَلى أنْ تُفتيَ يا عبدَ الرحمنِ، يُكرِّرُها عليْهِ، ما أفتيتُ حتَّى سألتُ: أنَا لِلفُتيا موضعٌ؟، فلمَّا سكنَ غضبُه قيلَ له: مَنْ سألتَ؟ قالَ: الزهريَّ وربيعةَ الرأيِ.

وذَكَرَ الدميريُّ[1] في شرحِ المنهاجِ أنَّ امرأةً غسَّلَتْ ميتةً فالتصقتْ يدُ الغاسلةِ بفرجِ الميتةِ فتحيَّرَ الناسُ في أمرِها، هَلْ تُقطَعُ يدُ الغاسلةِ أوْ فرْجُ الميتةِ؟ فاستُفْتيَ مالكٌ فقالَ: سلوهَا ما قالتْ لمَّا وضعَتْ يدَها عليْها، فسألُوها فقالتْ: قلتُ: طالَما عَصى هذا الفرجُ ربَّهُ، فقالَ مالكٌ: هذا قذفٌ، اجْلدوها ثمانينَ تَخلُصْ يدُها، فجَلَدوها ثمانينَ فخلصَتْ يدُها، فمِنْ ثَمَّ نودِيَ "لا يُفتى ومالِكٌ بالمدينةِ".

وكانَ إذا جلَسَ جلْسةً لمْ يتحركْ عنْها حتَّى يَقومَ. قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ: كنتُ عندَ مالكٍ وهو يُحدِّثُنا فلدَغَتْهُ عقربٌ ستَّ عشرةَ مرَّةً ومالكٌ يَتغيَّرُ لونُهُ ويَصفَرُّ ولا يَقْطَعُ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا فرَغَ منَ المجلسِ وتفرَّقَ الناسُ قلتُ له: يا أبا عبدِ اللهِ لقدْ رأيتُ اليومَ منكَ عجبًا، فقالَ: إنَّما صبرتُ إجلالًا لرسولِ اللهِ ﷺ.

وقالَ الهيثمُ بنُ جميلٍ: شهدتُ مالِكًا سُئِلَ عنْ ثمانٍ وأربعينَ مسألةً فقالَ في اثنينِ وثلاثينَ منْها: لا أدري، وكانَ يقولُ: يَنبغي لِلعالمِ أنْ يُورِّثَ جلساءَهُ قولَ: "لَا أدْري" حتَّى يَكونَ ذلك في أيديهِم يَفزعونَ إليهِ فإذَا سُئِلَ أحدُهم عمَّا لا يَدري قالَ: لا أدْري.

وقالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ: كانَ مالكٌ مَهيبًا في مجلسِه، لا يَرُدُّ عليهِ إعظامًا له، وكانَ الثَّوريُّ في مجلسِهِ فلمَّا رأى إجلالَ الناسِ له وإجلالَهُ للعلمِ أنشدَ يَقولُ:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَلَا يُراجَعُ هَيْبَةً * فَالْجَالِسُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ
أَدَبُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى * فَهُوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

(١) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري المصري، ولد سنة (٧٤٢)، وولي تدريس الحديث بالقبة الركنية بالقرب من باب النصر، وكان ذا حظٍّ في العبادة والتلاوة، لا يفترُ لسانه غالبًا عنهما، من مصنفاته: شرح المنهاج، والديباجة في شرح سنن ابن ماجه، وحياة الحيوان، وغيرها، توفي سنة (٨٠٨). طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٦١/٤)، وإنباء الغمر لابن حجر (٣٤٨/٢).

قالَ بِشرٌ الحافي: مِنْ زينةِ الدُّنيا أنْ يَقولَ الرجُلُ: حدَّثنا مالكٌ. وكانَ كثيراً ما يَتمثَّلُ الإمامَ -كَمَا سَلَفَ- بهذا البيت:

وخَيْرُ أُمورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةً * وَشَرُّ الأُمُورِ المُحْدَثَاتُ البَدَائِعُ

ولَمَّا قدِمَ المدينةَ المهديُّ جاءَهُ النَّاسُ مُسلِّمينَ عَليهِ، فلمَّا أخَذوا مجالِسَهم استأذَنَ، فقالَ الناسُ: اليومَ يَجلِسُ مالكٌ آخرَ الناسِ، فلمَّا دَنَا ورأى ازدحامَ الناسِ قالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، أينَ يَجلسُ شيخُكَ مالكٌ؟ فناداهُ: عندي يا أبا عبدِ اللهِ، فتخَطَّى الناسَ حتى وصلَ إليه، فرفَعَ المهديُّ رُكبتَهُ اليُمنى وأجلَسَهُ ثم أتى المهديُّ بالطشتِ والإبريقِ فغسَلَ يدَهُ ثُمَّ قالَ للغلامِ: قدِّمْهُ إلى أبي عبدِ اللهِ، فقالَ مالكٌ: يا أميرَ المؤمنينَ لَيْسَ هذا مِنَ الأمرِ المعمولِ بهِ، ارفعْ يا غلامُ، فأكَلَ مالكٌ غيرَ متوضِئ.

وقالَ القاضي عِياضٌ: قالَ الشافعيُّ: قالَ لي محمدُ بنُ الحسنِ: أيُّهما أعلَمُ صاحبُنا أمْ صاحبُكم، يَعني أبا حنيفةَ ومالكًا، قالَ: فقلتُ: على الإنصافِ؟ قالَ: نعمْ، قالَ: فقلتُ: فأُنشدُكَ اللهَ مَنْ أعلمُ بالقرآنِ صاحبُنا أمْ صاحبُكم؟ قالَ: اللهمَّ صاحبُكم، قالَ: فقلتُ: أُنشدُكَ اللهَ مَنْ أعلَمُ بالسُّنَّةِ صاحبُنا أمْ صاحبُكم؟ قالَ: اللهمَّ صاحبُكم، قالَ: فقلتُ: أُنشدُكَ اللهَ مَنْ أعلَمُ بأقاويلِ أصحابِ رسولِ اللهِ صاحبُنا أمْ صاحبُكم؟ قالَ: اللهمَّ صاحبُكم، قالَ الشافعيُّ: قلتُ: فلَمْ يَبقَ إلَّا القياسُ، فعَلى أيِّ شيءٍ نقيس؟!

قالَ في "مختصرِ المداركِ": قالتْ لي عمَّتي ونحنُ بمكةَ: رأيتُ في هذهِ الليلةِ عجبًا، قلتُ: وما هو؟ قالتْ كأنَ قائلًا يقولُ: ماتَ الليلةَ أعلمُ أهلِ الأرضِ، فحسَبْنا تلكَ الليلةَ، فإذا هيَ الليلةُ التي فيها ماتَ مالكٌ. ورأى عُمرُ بنُ يحيى بنِ سعدٍ الأنصاريُّ في الليلةِ التي ماتَ فيها مالكٌ قائلًا يقولُ:

لَقَدْ أَصْبَحَ الإسْلَامُ زُعْزِعَ رُكْنُهُ * غَدَاةَ ثوى الْهَادي إِلَى مَلْحَدِ الْقَبْرِ

إِمَامُ هُدًى ما زالَ لِلْعِلْمِ صَائنًا * عَلَيْهِ سَلَامُ اللهِ فِي آخِرِ الدَّهْرِ

قالَ: فانتبهتُ فكتبتُ البيتينِ عَلى السراجِ، وإذا الصارخةُ عَلى مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

واختُلِفَ في تاريخِ وفاتِه، والصحيحُ أنَّها كانتْ في ربيعِ الأوَّلِ لِتمامِ اثنينِ وعشرينَ يومًا مِنْ مرضِهِ في ربيعِ الأوَّلِ سنةَ تسعٍ وسبعينَ ومائةٍ، وقيلَ: لعشرٍ مَضَتْ منْهُ، وقيلَ: لأربعَ عشرةَ ولِثلاثَ عشرةَ ولإحدى عشرةَ، وقيلَ: لاثني عشرةَ مِنْ رجبٍ، وغسَّلَهُ ابنُ كنانةَ وابنُ الزبيرِ وابن يحيى، وكاتبُهُ حبيبٌ يصبُّ عليهِ الماءَ، ونزلَ في قبرِهِ جماعةٌ، وأوصى أنْ يُكفَّنَ في ثيابٍ بيضٍ، ويُصلَّى عليهِ في موضعِ الجنائزِ، وبلغَ كفنُهُ خمسةَ دنانيرَ، قالَ ابنُ القاسمِ: ماتَ مالكٌ عنْ مائةِ عمامةٍ فضلًا عن سواها.

***

(في) كتابه (**المُوطَّأ**)، وأنشدَ بعضُهم:

أَقُولُ لِمَنْ يَرْوِي الْحَدِيثَ وَيَكْتُبُ * وَيَسْلُكُ سَبِيلَ الْفِقْهِ فِيهِ وَيَطْلُبُ
إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى لَدَى الْخَلْقِ عَالِمًا * فَلَا تَعْدُ مَا تَحْوِي مِنَ الْعِلْمِ يَثْرِبُ
أَتَتْرُكُ دَاراً كَانَ بَيْنَ بُيُوتِهَا * يَرُوحُ وَيَغْدُو جِبْرَئِيلُ الْمُقَرَّبُ
ومَاتَ رَسُولُ اللهِ فِيهَا وَبَعْدَهُ * بِسُنَّتِه أَصْحَابُهُ قَدْ تَأَدَّبُوا
وفُرِّقَ شَمْلُ الْعِلْمِ فِي تَابِعِيهِمُ * فَكُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ لَهُ فِيهِ مَذْهَبُ
فَخَلَّصَهُ بِالسَّبْكِ لِلنَّاسِ مَالِكُ * وَمِنْهُ صَحِيحٌ فِي الْمَجَسِّ وَأَجْرَبُ
فَبَادِرْ مُوَطَّأَ مَالِكٍ قَبْلَ فَوْتِهِ * فَمَا بَعْدَهُ إِنْ فَاتَ لِلْخَلْقِ مَطْلَبُ
ودَعْ لِلْمُوَطَّأ كُلَّ عِلْمٍ تُرِيدُهُ * فَإِنَّ الْمُوَطَّأَ الشَّمْسُ وَالْغَيْرَ كَوْكَبُ
ومَنْ لَمْ يَحُزْ كَتْبَ الْمُوَطَّأِ بيتُهُ * فَذَاكَ مِنَ التَّوْفِيقِ بَيْتٌ مُخَيَّبُ
جَزَى اللهُ عَنَّا فِي الْمُوَطَّأ مَالِكًا * بِأَفْضَلِ مَا يَجْزِي اللَّبِيبُ الْمُهَذَّبُ
لَقَدْ فَاقَ أَهْلَ الْعِلْمِ حَيًّا وَمَيِّتًا * فَصَارَتْ بِهِ الأَمْثَالُ لِلنَّاسِ تُضْرَبُ
فَلَا زَالَ يَسْقِي قَبْرَهُ كُلُّ عَارِضٍ * بِمُنْدَفِقٍ ظَلَّتْ غَوَالِيهِ تَسْكُبُ

***

(**مُرْسَلًا**) وهو عندَ المحدِّثينَ ما حُذِفَ مِنْ إسنادِهِ الصحابيُّ (**عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحيى**) المازنيِّ (**عَنْ أبيهِ**) يَحيى بنِ عمارةَ (**عنِ النبيِّ ﷺ فأسقطَ**) مِنَ السنَدِ (**أبَا سعيدٍ**) الخدريَّ، (**ولَهُ طُرُقٌ**) ضعيفةٌ لَكِنْ (**يُقوِّي بعضُها بعضًا**)؛ لأنَّ الأسانيدَ الواهيةَ إذَا اجتمعتْ قوَّى بعضُها بعضًا، وفي المَثَلِ:

إنَّ الْقِدَاحَ إذَا اجْتَمَعْنَ فَرامَها * بِالْكَسْرِ ذُو حَنَقٍ وبَطْشٍ زائِدِ
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَإِنْ هِيَ بُدِّدَتْ * فَالْكَسْرُ والتَّوْهِينُ لِلْمُتَبَدِّدِ

وقالَ آخَرُ:

لَا تُخَاصِمْ بِواحِدٍ أَهْلَ بَيْتٍ * فَضَعِيفَانِ يَغْلِبَانِ قَوِيًّا

***

الحديثُ الثالثُ والثلاثونَ

٣٣. عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: لَو يُعطَى النَّاسُ بِدعْواهُم لادَّعى رِجالٌ أموالَ قومٍ ودِماءَهُم، لكنَّ البيِّنةَ عَلى المُدَّعي، واليَمِينَ على مَنْ أَنكَرَ. حديثٌ حسنٌ رواهُ البيهقيُّ وغيرُه هكذا، وبعضُه في الصَّحِيحَيْنِ.

(**عَنْ**) حَبْرِ الأمةِ مُفسِّرِ التَّنْزيلِ ومبينِ التأويلِ أبي العبَّاسِ عبدِ اللهِ (**ابنِ عباسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ**):

(**لَوْ**) حرفُ امتناعٍ لِامتناعٍ، أي امتناع الشيءِ لِامتناعِ غيرِه، أيْ تَقتضي امتناعَ الجوابِ لِامتناعِ الشرطِ، كمَا عليهِ جمهورُ النُّحاةِ، أوْ لِمَا كانَ سيقعُ لِوقوعِ غيرِه، كما علَيْهِ إمامُهم سيبويهِ، وعليهِ فلا إشكالَ؛ لأنَّ دعوى رجالٍ أموالَ قومٍ كانَ سيقعُ لِوقوعِ إعطاءِ الناسِ بدعاويهم، وكذا لا إشكالَ عَلى الأوَّلِ أيضًا، وإنْ وَقَعَ دعوى بعضِ النَّاسِ مالَ بعضٍ سواءٌ أُعطُوا بِدعاويهم أمْ لا؛ لِأنَّ المُرادَ بدعوى الرجالِ أموالَ قومٍ إعطاؤُهم إيَّاها ودَفْعُها إِلَيْهِمْ، أيْ لَوْ يُعْطى الناسُ بِدعواهم لأَخَذَ رجالٌ أموالَ قومٍ وسَفَكوا دِماءَهم، فوَضْعُ الدَّعْوى مَوْضِعَ الأخذِ لأنَّها سببُهُ. ولا شكَّ أنَّ أخْذَ مالِ المُدَّعى عليهِ ممتنعٌ لِامتناعِ إعطاءِ المُدَّعي بِمُجرَّدِ دَعْواهُ، وكذلكَ أخذُهُ لِمَا سيقعُ لو وقَعَ إعطاءُ المُدَّعي بِدعواهُ، ولا يَقعُ بِدونِ ذلكَ، فصحَّ مَعْنى "لَوْ" هُنا عَلى القولَيْنِ، قالَهُ الشارح الهيتمي.

(**يُعْطَى النَّاسُ**) المفعولُ الثاني محذوفٌ أي الأموالَ والدماءَ (**بِدَعْوَاهُمْ**) أيْ لَوْ كانَ كُلُّ مَنِ ادَّعى شيئًا عِنْد الحاكِم يُعطاهُ بمُجرَّدِ دَعْواهُ بِلا بينة (**لَادَّعَى**) جَوابُ "لَوْ"، وروايةُ ابنِ ماجهْ "ادَّعَى" بِحذْفِ اللَّامِ[١]، (**رِجَالٌ**) جَمْعُ رَجُلٍ، وهو الذَّكَرُ البالِغُ مِنْ بَني آدَمَ، وذَكَّرَهُمْ لا لِإخراجِ

(١) سنن ابن ماجه (٢٣٢١) [أبواب الأحكام- باب البينة على المدعي].

النِّساءِ بَلْ لأنَّ الدَّعْوى غالبًا إنَّما تَصدُرُ مِنْهم، أَوْ مِنْ بابِ الاكتفاءِ بأَحَدِ القبيلينِ كـ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ويؤيِّدُه روايةُ "لَادَّعَى نَاسٌ"(١)، وأَتى بصيغةِ الجمعِ لِلإشارةِ إلى إقدامِ غيرِ واحدٍ عَلى ذلك، والدَّعْوى -كما قالَ ابنُ عرفةَ- قولٌ هو بحيثُ لوْ سَلِمَ أوجبَ لِقائلِهِ حقًّا.

(أَمْوَالَ قَوْمٍ) اسمُ جمعٍ، وشذَّ مَنْ جَمَعَهُ عَلى "أقوام"، قيلَ: يَخُصُّ الرجالَ لِقولِهِ تَعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: ١١] فذِكْرُهنَّ دليلٌ ظاهرٌ عَلى أنَّ القومَ لَمْ يَشملْهُنَّ، وبِهِ صرَّحَ زهيرٌ في قولِهِ:

وَمَا أَدْرِي وَلَسْتُ أَخَالُ أَدْرِي * أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وسُمِّيَ الرِّجالُ قَوْمًا لِقيامِهم بِالْمُهِمَّاتِ وعَظائمِ الأمورِ، وقيلَ: يَعُمُّ الفريقَيْنِ؛ إذْ هُمُ المرادُ في نَحْوِ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، "ليس بأرض قومي"، ورُدَّ بأنَّ دخولَهُنَّ هنا ليسَ لغةً بل لِقرينةٍ نحو التكليفِ في الآيةِ. وحكمةُ التعبيرِ بـ"رجالٍ" ثم "قوم" عَلى الأوَّلِ تَفنُّنًا ودفعًا لِكراهةِ تكرارِ أحدِهما، وعَلى الثاني أنَّ المُدَّعي في الغالبِ أنْ يَكونَ رَجُلًا؛ إذِ المرأةُ لا يَليقُ بِها حُضورُ مجالسِ الحُكَّامِ، والمُدَّعى عليهِ يَكونُ رَجُلًا أوِ امرأةً.

(وَدِمَاءَهُمْ) قدَّمَ الأموالَ عَلى الدِّماءِ هنا مَعَ أنَّ الدِّماءَ أهمُّ وأعظَمُ خَطرًا، ولِذا وَرَدَ أنَّها أوَّلُ ما يُقْضى فيهِ بينَ الناسِ(٢)؛ لأنَّ الخُصوماتِ في الأموالِ أكثرُ وأغلبُ؛ إذْ أخذُها أيْسَرُ، وامتدادُ الأيدي إليْها أسْهَلُ، ومِنْ ثَمَّ تَرى العُصاةَ بالتعدِّي عليْها أضعافَ العصاةِ بالقَتْلِ، عَلى أنَّ العطفَ بِالواوِ لا يُفيدُ تَرتيبًا، وفي روايةِ الصَّحيحَيْنِ: (لادَّعى ناسٌ دماءَ رجالٍ وأموالَهم)(٣)، فقدَّمَ الدِّماءَ عَلَيْها لِشرفِها وعِظَمِ خَطرِها، عَلى أنَّ العطْفَ بِالواو لا يَقْتضي الترتيبَ.

---

(١) أخرجها مسلم (١٧١١) [كتاب الأقضية- باب اليمين على المدعى عليه].

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٥٣٣) [كتاب الرقاق- باب القصاص يوم القيامة]، ومسلمٌ (١٦٧٨) [كتاب القسامة- باب المجازاة بالدماء في الآخرة]، وغيرهما من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا ولفظ مسلم: (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء).

(٣) أخرجها بهذا اللفظ: مسلم (١٧١١) [كتاب الأقضية- باب اليمين على المدعى عليه].

البينة على من ادعى

(**لَكِنْ**) هِيَ ها هُنا للاستدراكِ، وإنْ لَمْ تأتِ لفظًا على قانونها مِنْ وقوعِها بيْنَ نفيٍ وإثباتٍ نحو: ما قامَ زيدٌ لَكِنْ عَمْرٌو، وهِيَ ههنا بعدَ إثباتٍ ولا نفيَ قبْلَها حتَّى يَصِحَّ معْنى الاستدراكِ الذي هو مُؤدَّاها، لَكِنَّها جاريةٌ عليْهِ تقديرًا؛ إذِ المعْنى لا يُعْطى الناسُ بدعواهم المجرَّدةِ لَكِنْ بالبيِّنَةِ، وهِيَ عَلى المُدَّعي، (**الْبَيِّنَةُ**) فَعيلَة مِنَ البَيِّناتِ (**عَلَى المُدَّعِي**) لأنَّ جانبَ المُدَّعي ضعيفٌ لِدعواهُ خِلافَ الأصْلِ، ولو كان فاضِلًا شريفًا أو حقًّا حقيقًا، والمُدَّعي كما قالَ ابنُ عرفةَ: مَنْ عَرِيَتْ دعواهُ عنْ مُرجِّحٍ غيرِ شهادةٍ، والمُدَّعى عليْهِ مَنِ اقترَنَتْ دَعواهُ بِهِ، والمُرَجِّحُ إمَّا مَعهودٌ كدَعْوى شخْصٍ عَلى آخرَ وديعةً أو عاريةً فيدَّعي ردَّها، فمُدَّعي الرَّدِّ هو المُدَّعى عليهِ لِمَا عُهِدَ في الشَّرْعِ أنَّ الرادَّ لا يَحتاجُ لإقامةِ بيِّنة، وإمَّا أصلٌ كمُدَّعي رِقِّ شخْصٍ فيُجيبُ الآخرُ بالحُرِّيَّةِ، فمُدَّعي الحُريةِ هو المُدَّعى عليْهِ؛ لأنَّها الأصلُ في النَّاسِ، وإنَّما عرَضَ لَهُمُ الرِّقُّ بِسببِ السَّبْيِ بِشرطِ الكُفْرِ.

ومَعْنى كونِ البيِّنةِ عَلى المُدَّعي أنَّهُ يَستحِقُّ بها؛ لأنَّها واجبةٌ عليْهِ، ثُمَّ إنَّ الدَّعْوى الصحيحةَ المسموعةَ هِيَ أنْ يَكونَ المُدَّعَى بِهِ مُحقَّقًا مَعلومًا، فلوْ قالَ: لي عليهِ شيءٌ، لَمْ تُسمَعْ دَعواهُ، وكَذا لوْ قالَ: أظنُّ أن لي عليهِ كذا.

***

(**وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ**) عبَّرَ بها هُنا دونَ الأوَّلِ معَ أنَّه كانَ يُمكِنُ أنْ يُؤتَى باسمِ الفاعلِ فيهما أوْ بِـ "مَنْ" فِيهما؛ لأنَّ المُدَّعيَ يَذكُرُ أمرًا خفيًّا لِعَرْوِ دعواهُ عنِ المُرجِّحِ، والمُدَّعى عليهِ يذْكُرُ أمرًا ظاهرًا لِاقترانِ دعواهُ بِهِ، ولا شكَّ أنَّ الموصولَ لِاشتراطِ كونِ صلتِهِ معهودةً أظهرُ مِنَ المعرفِ فأعطى الخفيَّ لِلخفيِّ والظاهرَ لِلظاهرِ، ويُحتمَلُ أنْ يُقالَ: إنَّ في المُدَّعي ضربًا مِنَ التَّعريفِ المعنويِّ لِظهورِهِ وإقدامِهِ عَلى الدَّعْوى فأتى فيه بلامِ التعريفِ المُناسبِ لهُ، والمُنْكَرَ فيه ضربٌ مِنَ الإيهامِ والتنكيرِ لاستخفائِهِ وتأخيرِهِ وكونِهِ إذَا سكتَ لا يُترَكُ فأتَى فيهِ بِـ "مَنْ" إذْ فيها إبهامٌ شبيهٌ بحالِهِ، وزعمُ أنَّ ذلك سؤالٌ دَوريٌّ غيرُ صحيحٍ.

(**أَنْكَرَ**) لأنَّ جانبَ المُنْكِرِ قويٌّ لِمُوافقتِهِ لِلأصْلِ في البراءةِ، والبيِّنةُ حُجَّةٌ قويَّةٌ لِبُعدِها عن

اليمين على من أنكر

التُّهمَةِ، واليمينُ حُجَّةٌ ضعيفةٌ لِقُربِها مِنْها، فجعَلَ القويَّ في جانبِ الضعيفِ والضعيفَ في جانبِ القويِّ، وهو جانبُ المُنكِرِ تعديلًا، وهو توجيهٌ حَسَنٌ، زادَ الدارَقطنيُّ: "إلَّا في القسامةِ"، أيْ لأنَّ اليمينَ فيها علَى المُدَّعي، وكذا اليمينُ مَعَ الشاهدِ الواحدِ في جانبِ المُدَّعي، وكذا يمينُ المُدَّعي إذَا ردَّها عليهِ المُنكِرُ، وكذا يخصُّ بمسألةِ الحيازةِ فإنَّ البيِّنَةَ لا تُسمَعُ مِنَ المُدَّعي ولا تَتوجَّهُ اليمينُ عَلى مَنْ أنْكرَ لِحَديثِ ابنُ المسيبِ وزيدِ بنِ أسلَمَ: (مَنْ حازَ شيئًا عشرَ سنينَ فهو لهُ)[1]، وكذا بِالطلاقِ والعتقِ والنكاحِ والقذفِ، فإنَّ اليمينَ لا تتوجَّهُ فيها عَلى المُنكِرِ لِمُجرَّدِ الدَّعْوى لِورودِ المُخَصِّصاتِ بِها.

وقولِهِ: "واليمينُ عَلى مَنْ أنْكَرَ" سواءٌ كانَ المُدَّعي بيْنَهُ وبيْنَ المُدَّعى عليهِ اختلاطٌ أمْ لا، فإنْ لَمْ يَحلِفْ لم يُقْضَ لِلطالبِ حتَّى يحلِفَ إذا كانتِ الدَّعْوى دعوى تحقيقٍ، وإنْ كانتْ دعوى اتهامٍ غُرِّمَ المطلوبُ بِمُجرَّدِ نُكولِه.

فإنْ قلتَ: ما الحكمةُ في أنَّ البيِّنةَ عَلى المُدَّعي واليمينَ عَلى مَنْ أنْكَرَ؟ فالجوابُ أنَّ جانبَ المُدَّعي ضعيفٌ لِعُروِّ قولِهِ عنِ المُرجِّحاتِ، وجانبُ المُنكِرِ قويٌّ لِمُوافقَتِهِ الأصلَ في براءةِ ذِمَّتِهِ؛ إذِ هو المعهودُ، والبيِّنَةُ حُجَّةٌ قويَّةٌ لِبُعدِها عنِ التُّهمَةِ، واليمينُ حُجَّةٌ ضعيفةٌ لِقُربِها مِنْها، فجُعِلتِ الحُجَّةُ القويَّةُ وهي البيِّنةُ في الجانبِ الضعيفِ، وهو جانبُ المُدَّعي والحجةُ الضعيفةُ في الجانبِ القويِّ وهو جانبُ المُنكِرِ تَعديلًا.

فائدةٌ: قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ فصلَ الخطابِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] هو البيِّنةُ عَلى المُدَّعي واليمينُ عَلى مَنْ أنْكَرَ.

نكتةٌ: في الحليةِ في ترجمةِ عكرمةَ، قالَ: كانَ القضاةُ في زمنِ بني إسرائيلَ ثلاثةٌ، فماتَ أحدُهم فولِيَ مكانَهُ غيرُه، ثُمَّ قضَوْا ما شاءَ اللهُ أنْ يَقْضُوا ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لهم مَلَكًا يمتحنُهم، فوجَدَ رجُلًا يَسقي بقرةً عَلى ماءٍ وخَلْفَها عجلةٌ، فدَعاها الملكُ وهو راكبٌ فرسًا فتبعتْها العجلةُ،

(١) أخرجه عبد الله بن وهب في الموطأ كتاب القضاء في البيوع (٢١٤)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٣٩٤) عن زيد بن أسلم بلفظ: (من احتاز ...).

فتخاصَما فقالَا: بيْنَنا القاضي، فجاءَ القاضي الأَوَّلُ فدَفَعَ إليهِ الملكُ دُرَّةً كانتْ معَهُ وقالَ له: احكُمْ بأنَّ العجلةَ لي، قالَ: بماذا أحكُمْ؟ قالَ: أرْسِلِ الفرسَ والبقرةَ والعجلةَ فإنْ تبعتِ الفرسَ فهِيَ لي، فأرسَلَها فتبعَتِ الفرسَ فحَكَمَ له بِها، وأتى إلى القاضيَ الثانيَ فحكَمَ له كذلكَ وأخَذَ دُرَّةً، وأمَّا القاضي الثالثُ فدَفَعَ له الملكُ دُرَّةً، وقالَ له: احكُمْ لي بِها، فقالَ: إنِّي حائضٌ، فقالَ الملكُ: سبحانَ اللهِ، أيحيضُ الذَّكَرُ؟ فقالَ له القاضي: سبحانَ اللهِ، أتلِدُ الفرسُ بقرةً، وحَكَمَ بِها لِصاحِبِها.

***

(**حَديثٌ حَسَنٌ**)، وصحيحٌ أيضًا، كما ذكَرَهُ المؤلِّفُ في موضِعٍ آخَرَ، وذَكَرَهُ غيرُه.

(**رَوَاهُ**) الإمامُ أبو بكرٍ أحمدُ بنُ الحُسَيْنِ (**البَيْهَقِيُّ**) بفتحِ البَاءِ والهاءِ نسبةً إلى بَيْهَقَ **قُرًى** مجتمعةٍ بناحيةِ نيسابورَ، بلغتْ تصانيفُهُ نحوَ الألْفِ. قالَ السبكيُّ: ولَمْ يتفقْ ذلك لأحَدٍ، واعتَنى بجمعِ نصوصِ الشافعيِّ وتخريجِ أحاديثِها حتى قالَ إمامُ الحرمَيْنِ: ما مِنْ شافعيٍّ إلَّا ولِلشافعيِّ عليهِ مِنَّةٌ إلَّا البيهقيَّ فإنَّ لَهُ عَلى الشافعيِّ المِنَّةَ. وُلِدَ سنةَ أربعٍ وثمانينَ وثلاثِمائةٍ، وماتَ بِنيسابورَ سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وأربعِمائةٍ.

(**وغَيْرُهُ هكَذَا**) أيْ بِهذا اللَّفظِ المذكورِ، (**وبعضُهُ في الصحيحَيْنِ**) إذْ لفظُهما -كما في الجمعِ بيْنَهما لِلجنديِّ- عنِ ابنِ عباسٍ: (لوْ يُعطى النَّاسُ بِدعواهم لادَّعى ناسٌ دماءَ رجالٍ وأموالَهم، ولَكِنَّ اليمينَ عَلى المُدَّعى عليهِ).

***

الحديثُ الرابعُ والثلاثونَ

٣٤. عنْ أبي سعيدِ الخُدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: مَن رأى مِنكم مُنكَراً فليُغيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يسْتَطِع فبِلسانِه، فإنْ لمْ يستطِعْ فبِقلبِه، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ. رواهُ مُسلِمٌ

(عنْ أبي سعيدِ الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ):

(مَنْ رَأى) أيْ عَلِمَ سواءٌ أبصرَ أمْ لا؛ لأنَّ الرؤيةَ بالبصرِ لا تُشترَطُ فَهِيَ قلبيَّةٌ، ويَصِحُّ كونُها بصريَّةً، ويُقاسُ غيرُ المُبصِرِ على حُكْمِ المُبصِرِ، والأوَّلُ أشبهُ.

وهذا الحديثُ قالَهُ أبو سعيدٍ الخدريُّ لَمَّا قَدَّمَ مروانُ خُطَبَ العيدِ، وقالَ له رجلٌ: الصلاةُ قبْلَها، فقالَ: قدْ تُرِكَ ما هنالِكَ، فقالَ أبو سعيدٍ: أمَّا هذا فقدْ قَضى ما عليهِ، سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ ... فذكرَ الحديثَ.

وهو أدلُّ دليلٍ عَلى أنَّ أوَّلَ مَنْ فَعَلَ هذا مروانُ لا عثمانُ ولا عُمَرُ؛ إذْ لمْ يَصِحَّ ذلكَ، لَكِنْ في الصحيحَيْنِ عنْ أبي سعيدٍ أنَّهُ هو الذي حدَّثَ بهِ مروانَ حينَ رآهُ يَصعَدُ المِنبَرَ فردَّ عليهِ مروانُ بِمثلِ ما رَدَّ عَلى الرجلِ[1]، فيَجوزُ أنْ تكونَ قصةً أُخرَى.

(مِنْكُمْ) أيْ معشرِ المُكَلَّفينَ القادرِينَ فخرَّجَ نحو صبيٍّ ومجنونٍ وعاجزٍ، والخِطابُ لجميعِ الأُمَّةِ لا الحاضرِ فقطْ، **(مُنْكَرًا)** أيْ شيئًا قَبيحًا قَبَّحَهُ الشرْعُ قولًا أوْ فِعلًا ولوْ صغيرة،

(فَلْيُغَيِّرْهُ) أيْ يُزيلُهُ وجوبًا عينيًّا إنِ انفردَ بِعلمِهِ، وكِفائيًّا إنْ شارَكَهُ غيرُهُ، والوجوبُ بالشرعِ لا بالعقْلِ خلافًا لِلمُعتزلةِ.

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٩٥٦) [أبواب العيدين- باب الخروج إلى المصلى بغير منبر]، ومسلمٌ (٨٨٩) [أوائل كتاب صلاة العيدين]، وغيرهما.

شروط تغيير المنكر

وله شروطٌ:

- الأوَّلُ: أنْ يَكونَ عالِمًا بذلكَ لِئَلَّا يَعكِسَ.
- الثاني: أنْ لا يؤدِّيَ نَهيُهُ إلى مَفْسدةٍ أعظمَ كنهْيِهِ عنْ زنًا فيؤدِّي لِقتلٍ.
- الثالثُ: أنْ يكونَ مُجمَعًا عَلى تحريمِهِ أو يَكونَ مُدْرَكُ القائلِ بحِلِّهِ ضعيفًا كشُربِ النبيذِ ونكاحِ المتعةِ.
- الرابعُ: أنْ يكونَ ظاهرًا في الوجودِ، فلا يَتجسَّسُ عَلى الناسِ ولا يَقتحِمُ الدورَ ولا يَبحَثُ عمَّا خَفيَ في كُمٍّ ونحوِهِ.
- الخامسُ: أنْ يَعلَمَ أو يَظُنَّ أنَّهُ يُفيدُ.

وبانتفاءِ الشرطِ الأوَّلِ يَنتفي الجوازُ، وبانتفاءِ الأخيرِ يَنتفي الوجوبُ ويبقى الجوازُ أو الندبُ.

ثُمَّ إنَّه لا يُشترَطُ في النَّهيِ عنِ المنكرِ أنْ يَكونَ المُتلبِّسُ به عاصيًا؛ كقاتلِ الباغي المتأوِّلِ، وضربِ الصبيانِ عَلى فِعْلِ الفواحشِ، وقتلِ الصائلِ مِنْ صبيٍّ أو مجنونٍ إذَا لَمْ يُمكِنْ دفعُهما إلَّا بِهِ.

***

وعُلِمَ ممَّا سَبَقَ أنَّ التَّجسُّسَ غيرُ مطلوبٍ بلْ هو مذمومٌ مَنْهيٌّ عنهُ لِقولِه تَعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، واستثنى الماورديُّ مِنْ ذلك ما إذَا أخبرَهُ مَنْ يثِقُ بقولِه: إنَّ رجُلًا خَلَا بِرجُلٍ لِيقتُلَهُ أو امرأةٍ لِيزنيَ بها، فإنَّهُ يجوزُ له في مثلِ هذهِ الحالةِ أنْ يَتجسَّسَ ويُقدِمَ عَلى الكشفِ والبحثِ حذرًا مِنْ فواتِ ما لا يَستدرِكُه، وأمَّا العدالةُ وإذنُ الإمامِ فالمشهورُ عدمُ اشتراطِهِما إلَّا أنْ يُخافَ مِنَ المفسدةِ فلا بُدَّ مِنْ إذْنِ الإمامِ.

ورويَ عنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّهُ أحسَّ مِنْ رَجلٍ بالخَنَا فتَسوَّرَ عليهِ، فرآهُ عَلى مُنكَرٍ فصاحَ عليهِ، فقالَ الرجُلُ: يا أميرَ المؤمنينَ أنَا عصيتُ اللهَ في واحدةٍ، وقدْ عصيتَهُ أنتَ في ثلاثٍ، قالَ: وما هُنَّ؟ فقالَ: تجسَّسْتَ وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقدْ نَهى، وأتَيْتَ البيوتَ مِنْ

ظُهورِها وقَدْ أَمَرَ اللهُ بإتيانِها مِنْ أَبوابِها ودخَلْتَ غيرَ بيتِكَ مِنْ غيرِ أَنْ تَستأذِنَ وتُسلِّمَ وقدْ أَمَرَ اللهُ بذلكَ، فقالَ له عُمَرُ: صدقْتَ واستغفِرْ لَنَا، فقالَ: غَفَرَ اللهُ لنَا ولكَ يا أميرَ المؤمنينَ[1].

وذَكَرَ بعضُهم أنَّهُ مَشى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالليلِ فرأى ناراً في بيتٍ فأتى إليْها فإذَا قومٌ يَشربونَ وشيخٌ بيْنهم، فاقتحَمَ عليْهم وقالَ: يا أعداءَ اللهِ أمكنَ اللهُ منْكم، فقالَ الشيخُ: ما نَحْنُ بأعظَمَ منْكَ ذنبًا يا أميرَ المؤمنينَ، إنْ عصيْنَا اللهَ في واحدةٍ فقدْ عصيتَهُ أنتَ في ثلاثٍ، فقالَ له عُمَرُ: وما هُنَّ؟ فقالَ: تجسَّستَ وقدَ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، وأَتيتَ البيوتَ مِنْ ظُهورِها وقدْ أمَرَ اللهُ بإتيانِها مِنْ أبوابِها، ودخلتَ بيتًا غيرَ بيتِكَ مِنْ غيرِ استئذانٍ ولا تسليم وقدْ أمرَ اللهُ -تعالى- بذلكَ، فاحتشَمَ عُمَرُ وقالَ: صدَقْتَ استغفرْ لي، فقالَ الشيخُ: غَفَرَ اللهُ لنا ولكَ يا أميرَ المؤمنينَ[2].

وقدْ كانَ الحسَنُ البصريُّ يَقولُ: إيَّاكم والتجسُّسَ، فواللهِ لقدْ أدركتُ ناسًا لا عيوبَ لَهم فتجسَّسوا عَلى عيوبِ الناسِ فأحدثَ اللهُ لَهُمْ عيوبًا.

***

مراتب تغيير المنكر

(**بِيَدِهِ**) لأَنَّها أبلغُ في تغييرِهِ كإراقةِ الخمْرِ وتفكيكِ آلةِ اللَّهْوِ والحيلولةِ بيْنَ الضاربِ والمضروبِ وردِّ المغصوبِ إلى مالِكِه ونزعِ الحريرِ مِنْ لابِسِهِ، فإنِ احتاجَ إلى إظهارِ سلاحٍ أو حربٍ رُفِعَ إلى السلطانِ. وقدْ حُكيَ أنَّ شجرةً كانَ يُعبدُها الناسُ فقصَدَ رجُلٌ قطْعَها، فلَمَّا شرَعَ في القطْعِ جاءَ الشيطانُ وأرادَ منعَهُ فلَمْ يَقدِرِ الشيطانُ عليهِ، فقالَ له: اترِكِ القطعَ وأعطيكَ كُلَّ يوم كذا وكذا مِنَ الدَّراهمِ تجِدُهُ في فراشِكَ، فامتنعَ مِنَ القطعِ ورجعَ فوجَدَ الدراهمَ يوْمينِ أو ثلاثةً ثم فقدَها في اليومِ الرابعِ، فغضبَ وأخذَ الفأسَ وتوجَّهَ إلى الشجرةِ، فلَقيَهُ الشيطانُ في الطريقِ فتصَارَعَ معَهُ فغَلَبَهُ الشيطانُ؛ لأنَّهُ في المرَّةِ الأُولى كانَ قصْدُهُ مُخلِصًا للهِ تَعالى، وفي المرَّةِ الثانيةِ إنَّما غَضِبَ لِأجلِ الدُّنيا.

---

(١) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٤٤٨) [باب ما يستحب للمرء من ستر عورة أخيه المسلم].

(٢) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٠٨) [باب النهي عن كشف عورات المسلمين].

(فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ) الإنكارَ بيدِهِ، (فَبِلِسَانِهِ) بأنْ يَمنعَهُ بالقولِ وتلاوةِ ما نزَّلَ اللهُ مِنَ الوعيدِ، والقولُ كَصياحٍ واستغاثةٍ وتوبيخٍ وتذكيرٍ باللهِ وأليمِ عقابِهِ، معَ لينٍ أو إغلاظٍ بحَسَبِ ما يَقتضيهِ الحالُ، وقدْ يُبلَغُ بالرِّفْقِ والسِّياسةِ ما لا يُبلَغُ بالسيفِ والرِّئاسةِ.

ولِذا قالَ بعضُ العلماءِ: مَنْ رأى عورةَ أحدٍ في الحَمَّامِ يَنبغي أنْ يكونَ إنكارُهُ عليهِ بهذهِ الصيغةِ، وهِيَ أنْ يَقولَ له: "اسْتُرْ سَتَرَكَ اللهُ".

وقدْ رُوِيَ أنَّ رجلًا مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أكثَرَ شربَ الخَمْرِ بالشامِ فبلَغَ ذلكَ عُمَرَ ابنَ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فكتَبَ له: ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣] فتركَ الرجلُ الخمرَ وتابَ[١].

وحَكى التاجُ السبكيُّ عنْ أبيهِ أنَّهُ كانَ يَجتمعُ ببعضِ الأمراءِ، وكانَ الأميرُ يُلازِمُ الحَريرَ، فقالَ: يا أميرُ بِكم الذراعُ مِنْ هذا؟ فقالَ: بدينارٍ، فقالَ: في الصُّوفِ ما يُساوي كُلُّ ذراعٍ مِنْهُ دنانيرَ، ومماليكُكَ وخدمُكَ يُشاركونَكَ في لبسِ الحريرِ، ولا يَليقُ بشهامتِكَ أنْ يُساووكَ، فاعدلْ إلى الصُّوفِ فإنَّه أعْلى وأغْلى معَ ما فيهِ مِنَ السَّلامةِ مِنَ العِقابِ الأخرويِّ، فاستحسَنَ كلامَهُ، ولوْ قالَ له ابتداءً: "هذا حرامٌ" لَمْ يُفِدْ.

قالَ العارفُ ابنُ العربيِّ: لوْ كُشِفَ لوليٍّ أنَّ فلانًا لا بُدَّ أنْ يَزنِيَ بِفُلانةَ أو يَشرَبَ الخَمْرَ لَزِمَهُ النَّهْيُ ولمْ يسقطْ عنه؛ لأنَّ نورَ الكشفِ لا يُطفِئُ نورَ الشرعِ، فمُشاهدتُهُ مِنْ طريقِ الكشْفِ لا تُسقطُ النَّهْيَ عنْهُ؛ لأنَّهُ تعالى تَعبَّدَنا بإزالةِ المُنكَرِ وإنْ شَهِدْنا كشفًا أنَّهُ مُحتَّمُ الوقوعِ.

وظاهرُ الحديثِ أنَّهُ يَلزمُهُ الأمرُ والنهيُ وإنْ كانَ هو لم يَمتثِلْ ذلكَ، وبهِ صرَّحَ في روايةِ الطبرانيِّ مِنْ حديثِ أنسٍ (قلتُ: يا رسولَ اللهِ لا نأمُرُ بالمعروفِ حتَّى نَفعلَهُ ولا نَنهى عنِ المُنكَرِ حتى نَجتنبَهُ، فقالَ: مُروا بالمعروفِ وإنْ لَمْ تَفعلوهُ، وانْهَوْا عنِ المنكرِ وإنْ لَمْ تَجتنبوهُ كُلَّهُ)[٢]؛ لأنَّهُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/٩٧) [ترجمة يزيد بن الأصم].

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٦٦٢٨). وفي إسناده عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب عن أبيه وهما ضعيفان=

يَجبُ تركُ المنكرِ وإنكارُهُ فلا يَسقُطُ أحدُهما بتركِ الآخرِ.

ولِهذا قيلَ لِلحسَنِ: فلانٌ لا يَعِظُ، ويَقولُ: أخافُ أنْ أقولَ ما لا أفعَلُ، فقالَ: وأيُّنا يَفعَلُ ما يَقولُ، ودَّ الشيطانُ لوْ ظَفَرَ بِهذا فلمْ يَأمُرْ أحدٌ بمعروفٍ ولمْ ينهَ عنْ منكرٍ.

ولوْ توقَّفَ الأمرُ والنهيُ عَلى الاجتنابِ لَرُفِعَ الأمرُ بالمعروفِ وتعطَّلَ النَّهيُ عنِ المنكرِ وانسدَّ بابُ النصيحةِ التي حثَّ الشارعُ علَيْها، سيَّما في هذا الزمانِ الذي صارَ التلبُّسُ فيه بِالمعاصي شعارَ الأنامِ ودثارَ الخاصِّ والعامِّ.

ولا يُعارِضُ هذا ما صَحَّ أنَّهُ ﷺ رأى في النَّارِ قومًا يَدُورونَ كما تَدورُ الرَّحى فسألَ جبريلَ عنْهم فقالَ: كانوا يأمرونَ بالمعروفِ ولا يَفعلونَهُ ويَنهونَ عنِ المنكرِ ويفعلونَهُ[1]؛ لأنَّ تعذيبَهم إنَّما هو عَلى فِعْلِ المنكرِ لا عَلى إنكارِهِ.

ولا يُنافي ما تَقرَّرَ مِنَ الوجوبِ قولَهُ تَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] لأنَّها محمولةٌ عَلى ما إذَا عَجزَ المُنْكِرُ عَنْ إزالةِ المُنْكَرِ، ولا شكَّ في سقوطِ الوجوبِ حينئذٍ، عَلى أنَّ معْناها عندَ المحقِّقينَ أنَّكم إذا فعَلْتُم ما كُلِّفتُم بِهِ لا يَضرُّكم تقصيرُ غيرِكم نحو ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وممَّا كُلِّفْنا به الأمرُ بالمعروفِ والنهي عنِ المُنكَرِ فإذَا لَمْ يَمتثِلْهما المُخاطَبُ فلا عتبَ حينئذٍ؛ لأنَّ الواجبَ الأمرُ بالمعروفِ لا القبولُ.

***

=كما في مجمع الزوائد (٧/٢٧٧).

(١) أخرج ابن حبان في "صحيحه" (٥٣)، وأبو يعلى (٣٩٩٢)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: (رأيت ليلة أسري بي رجالًا تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك؛ يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟!).

وأخرج البخاري (٣٢٦٧) [كتاب بدء الخلق- باب صفة النار، وأنها مخلوقة]، ومسلم (٢٩٨٩) [الزهد والرقائق باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله]، وغيرهما عن أسامة بن زيد وفيه: (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه).

(**فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِع**) الإنكارَ بلسانه لِوجودِ مانعٍ كَخوفِ فتنةٍ أو عَلى نفسٍ أو عضوٍ أو مالٍ محترمٍ (**فَبِقَلْبِهِ**) أيْ فيُنْكرُ بِقلبِهِ؛ إذْ لا تَغييرَ بالقلبِ.

ويُشبهُ هذا التركيبُ قولَهُ ﷺ لعمرانَ بنِ حصينٍ[1]: صَلِّ قائمًا، فإنْ لمْ تستطعْ فقاعِدًا، فإنْ لمْ تَستطِعْ فعَلى جَنْبٍ، فإنْ لَمْ تَستطِعْ فَمُستلقيًا، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فهو عَلى حدِّ "عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا" لكنْ فيه أنَّهُ مِنْ خصائصِ الواوِ، أَلَا تَرى قولَ ابنِ مالكٍ: "وهي انفردتْ * بعطفِ عاملٍ مزالٍ قدْ بَقِيَ * معمولُه"[2].

ومعْنى الإنكارِ بالقلبِ كراهةُ الفاعلِ لِلمُنكَرِ وظهورُ ذلكَ عَلى جوارحِهِ إنْ لمْ يَخَفْ عَلى نفْسِهِ، والعزمُ عَلى أنَّهُ لَوْ قَدَرَ عَلى تغييرِهِ بقولٍ أوْ فعْلٍ، وهذا واجِبٌ عينًا عَلى كُلِّ أحدٍ بخلافِ اللَّذينِ قبْلَهُ فإنَّهما قدْ يَكونانِ فرضَ كِفايةٍ كما سَلَفَ.

وذَكَرَ الشيخُ الشعرانيُّ في "المننِ" عنْ سيِّدي إبراهيم المتبوليِّ[3] أنَّ تغييرَهُ باليدِ يَكونُ لِلولاةِ الذينَ يَضربونَ ولا يُضربونَ، وتغييرَهُ باللِّسانِ للعلماءِ العامِلينَ فيؤثِّرُ زجرُهم باللِّسانِ في قلبِ ذلكَ المُنكَرِ عليه فيرجِعُ عنْ ذلك المُنْكَرِ، وتغييرَه بالقلبِ عَلى العارفينَ الذينَ غَلَبَ عليْهم شهودُ احتقارِهم نفوسَهم أنْ يَكونوا ناهينَ لِغيرِهم، فيتوجَّهُ أحدُهم بقلبِهِ إلى الله تعالى في تغييرِ ذلكَ المُنكَرِ، فيكفُّ الظالمُ عنْ ظلمِهِ وشاربُ الخمرِ عنْ شُربِهِ، فهذا هو التغييرُ حقيقةً، وأمَّا قولُ الإنسانِ: اللهمَّ هذا مُنكَرٌ لا أرْضاهُ فلَيْسَ فيهِ تغييرٌ قَلبيٌّ، اهـ.

والحقُّ أنَّ المراتبَ الثلاثَ تَكونُ عَلى واحدٍ مِنَ الثلاثةِ، فأوَّلُ المراتبِ المقاتَلَةُ والجهادُ، فإنْ عَجَزَ عنِ الجهادِ أنْكرَ باللَّفظِ لِيقبُحَ ذلكَ المُنْكَرُ عنْدَ فاعلِهِ وعندَ مَنْ رآهُ، وإنْ عَجَزَ بأنْ خافَ ضرراً مِنْ قَتْلٍ أوْ جَرْحٍ أو إخراجٍ مِنْ وطَنٍ فلْيَقُلْ: اللهمَّ هذا مُنْكَرٌ لا أرضَاهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٧) [أبواب تقصير الصلاة- باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب].

(٢) يقول السيوطي في شرحه على ألفية ابن مالك: (وهي) أي الواو (انفردت بعطف عامل مُزالٍ) أي محذوف (وقد بقي معموله) مرفوعا كان (ذلك المعمول الباقي) نحو ﴿اسكُنْ أَنتَ وزوجُكَ الجنةَ﴾ ... الخ.

(٣) العارف إبراهيم بن علي بن عمر برهان الدين الأنصاري المتبولي ثم القاهري الأحمدي، توفي سنة (٨٧٧). الضوء اللامع (٨٥/١).

(**وَذَلِكَ**) أيِ الإنكارُ بِالقلْبِ (**أَضْعَفُ الإيمانِ**) أيِ الأعمالِ، فلا يَرِدُ أنَّ المُنْكرَ بالقلبِ قدْ يكونُ أقْوى النَّاسِ إيمانًا، والإيمانُ قدْ يُطلَقُ عَلى الأعمالِ كما أُطلِقَ عَلى الصَّلاةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أيْ صلاتَكم لِبيتِ المقْدِسِ، أو المُرادُ به الإسلامُ، وهو عَلى حذفِ مُضافٍ أيْ أضعفُ خصالِ الإسلامِ، أو باقٍ عَلى حقيقتِهِ، والمرادُ أقلُّ آثارِ الإيمانِ وثمراتُهُ في النَّفعِ، وإطلاقُ الإيمانِ عَلى المعنيَيْنِ الأوَّلَيْنِ مجازٌ مُرسَلٌ عَلى طريقِ إطلاقِ اسمِ السببِ عَلى المُسَبِّبِ، فإنَّ الإيمانَ سببٌ لِلامتثالِ بالشرائعِ المأمورِ بها.

وإنَّما كانَ الإنكارُ بالقلبِ أضعفُ الإيمانِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ كراهتِهِ له بِقلبِهِ لا يَحصُلُ بها زوالُ مَفسدةِ المنكرِ المطلوبِ زوالُهُ، فهو قاصرٌ، بخلافِهِ باليدِ واللِّسانِ، فإنَّهُ مُتعدٍّ فإنَّه كراهةٌ وإزالةٌ، وقدْ قيلَ: التغييرُ باليدِ للأمراءِ، وباللِّسانِ للعلماءِ، وبالقلبِ للعامَّةِ. قالَ ابنُ الفاكهانيِّ[1]: وأعجبُ ما في زمانِنا أنَّ الذينَ يُظَنُّ بِهِمُ العلمُ والدِّينُ مِمَّنْ يَتعيَّنُ عَلَيْهِمُ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ مُتلبِّسونَ بِمناكرَ شَتَّى يَجِبُ إنكارُها عَلَيْهم شرعًا، ولقَدْ أحسَنَ مَنْ قالَ:

بِالْمِلْحِ يُصْلَحُ مَا يُخْشَى تَغَيُّرُهُ * فَكَيْفَ بِالْمِلْحِ إِنْ حَلَّتْ بِهِ الْغِيَرُ

وقالَ آخَرُ:

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَاذِرُهُ * فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ
دَهْرٌ بِهِ الْحَقُّ مَرْدُودٌ بِأَجْمَعِهِ * وَالْجَوْرُ فِيهِ أَذَاهُ غَيْرُ مَرْدُودِ
إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ يَحْدُثْ لَهُ غِيَرٌ * لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ

(**رَوَاهُ مُسْلِمٌ**) والنَّسَائِيُّ.

***

(١) العلامة تاج الدين أبو حفص عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي المالكي الإسكندري، الفاكهاني، كان فقيهًا فاضلًا متفننًا في الحديث والفقه والأصول والعربية، له كتب منها: الإشارة في النحو، والمنهج المبين في شرح الأربعين النووية، والتحرير والتحبير في شرح رسالة القيرواني، ورياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام، وغير ذلك، توفي سنة (٧٣٤). الديباج (٢/ ٨٠)، والدرر الكامنة (٤/ ٢٠٩)

الحديثُ الخامسُ والثلاثونَ

٣٥. عنْ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: لا تَحاسَدوا ولا تَناجَشوا ولا تباغَضوا ولا تَدابَروا، ولا يَبِعْ بعضُكُم على بيعِ بعضٍ، وكونوا عِبادَ اللهِ إخواناً، المُسلِمُ أخو المُسلِمِ: لا يظلِمُه، ولا يخذُلُه، ولا يكذِبُه، ولا يحقِرُه، التَّقوى ها هُنا، ويُشيرُ إلى صدرِه ثلاثَ مراتٍ، بِحسبِ امْرِئٍ مِنَ الشرِّ أنْ يَحقِرَ أخاه المُسْلِمَ، كلُّ المُسلِمِ على المُسلِمِ حرامٌ: دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُه. رواهُ مُسلِمٌ.

النهي عن التحاسد

(عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **لَا تَحَاسَدُوا**) خطابٌ لِكُلِّ مَنْ يَتأتَّى توجيهُ الخطابِ إِلَيْه، وأصلُه بتاءَيْنِ، حُذِفتْ إِحْداهُما تخفيفًا، وكذا فيما بعدَه، أي لا يَحسدُ بعضُكم بعضًا، وهو لغةً وشرعًا تمنِّي زوالِ نعمةِ الغَيْرِ، سواءٌ تمنَّى انتقالَها إِلَيْه أمْ لا، وهو قبيحٌ بالإجماعِ إلَّا أنَّ الثاني أقبحُ وأشدُّ حرمةً منَ الأولِ، وبعضُهم خصَّه بأنْ يَتمنَّى ذلك لنفسِه، والحقُّ أنَّه أعمُّ، وهو مذمومٌ وصاحبُه مغمومٌ، وكفاهُ ذمًّا أنه يُفسِدُ الطاعاتِ ويبعثُ على الخطيئاتِ، وهو الدَّاءُ العضالُ الذي ابتُلِيَ به كثيرٌ مِنَ العُلَماءِ فضلًا عنِ العامَّةِ حتى أهلَكَهم، وقالَ النبيُّ ﷺ: (إِيَّاكم والحسدَ، فإنَّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ، أو قالَ الخشبَ)[1]، ومنْ ثَمَّ قالَ ﷺ: (الحسدُ يُفسِدُ الإيمانَ كما يُفسِدُ الصبرُ العسلَ)[2]، وحسْبُكَ أنَّ اللهَ تعالى أمرَ بالاستعاذةِ مِنْ شرِّ الحاسدِ، كما أمرَ بها من شرِّ الشيطانِ.

ويكفيكَ في قُبْحِه أنَّه أولُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بِه؛ لأنَّ إبليسَ لَمْ يحمِلْه على تركِ السُّجودِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣) [كتاب الأدب- باب في الحسد]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي الباب عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث حسن لغيره.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس كما في كنز العمال (٧٤٤٠) عن معاوية بن حيدة، ويشهد له حديث أبي هريرة السابق، وفي الباب عن أنس.

إلَّا الحسدُ، كما أنَّ قابيلَ لم يحملْه على قتلِ هابيلَ إلَّا الحسدُ، وجاءَ أنَّ سببَ حسدِه له أنَّه تزوَّجَ أختَ هابيلَ التي تُسمَّى لبودا وكانت ليستْ كجمالِ أختِه أفليجا التي تزوَّجَها هابيلُ، فكانَ من شريعةِ آدمَ أنَّ اختلافَ بطونِ حواءَ بمنزلةِ اختلافِ الأنسابِ، فكانَ يزوِّجُ ذكورَ كُلِّ بطنٍ لإناثِ الأُخرى وبالعَكْسِ، وهذا لا يُخالفُ ما في الآيةِ الشريفةِ؛ لأنَّه جاءَ في القصةِ أنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا أَمَرَ قابيلَ أنْ يزوِّجَ أُختَه لهابيلَ فامتنعَ فأمرَهما أنْ يُقرِّبا قربانًا لله تعالى وكانت العلامةُ على قَبُولِه إذْ ذاكَ نزولَ نارٍ منَ السَّماءِ تَأْكُلُهُ، فقرَّبَ كُلٌّ منهما قُربانَه، فتُقبِّلَ قربانُ هابيلَ فزادَ حسدُه، وعلى هذا فيكونُ حسدُه بشيئينِ أُخرويٌّ وهو ما في الآيةِ، ودنيويٌّ وهو جمالُ أُختِه التي تزوَّجَها.

وجاءَ في عدَّةِ أخبارٍ وآثارٍ أنَّه يأكلُ الحسناتِ أيْ يحرقُها، ويُذهِبُ أثرَها كما تأكلُ النارُ الحطبَ أي اليابسَ، وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: لا تُعادُوا نِعمَ اللهِ، قيلَ له: ومنْ يُعادي نعمَ اللهِ؟ قالَ: الذينَ يَحسدونَ النَّاسَ على ما آتاهم اللهُ منْ فضلِه، ومن الحكمةِ أنَّ "الحسودَ لا يسودُ"، وقدْ رويَ أنَّ إبليسَ أتى بابَ فرعونَ فقرعَ البابَ، فقالَ فرعونُ: مَنْ هذا؟ فقالَ إبليسُ: لو كنتَ إلهًا ما جهلتَ، فلمَّا دخلَ قالَ لفرعونَ: أتعرفُ مَنْ في الأرضِ شرٌّ منْكَ ومنِّي؟ قالَ: منْ هو؟ قالَ: الحاسدُ، وبالحسدِ وقعْتُ في هذه المحنة.

وأمَّا حديثُ: (لا حسدَ إلا في اثنتَيْنِ، رَجُلٍ آتاه اللهُ مالًا فسلَّطَه على هلكتِه في الخيرِ، ورجلٍ آتاه اللهُ الحكمةَ فهو يَقضي بها ويُعلِّمُها الناسَ)[1]، فالمرادُ به الغِبْطةُ مجازًا، وهيَ أنْ يَتمنَّى أنْ يكونَ له مثلُ ما للغيرِ منْ غيرِ أنْ يريدَ زوالَه عنه. وقدْ قيلَ:إنَّ موسى -علَيْه الصلاةُ والسلامُ- رأى رجلًا عندَ العرشِ فغبطَه، وقالَ: إنَّ هذا لكريمٌ على ربِّه، فسألَ ربَّه أنْ يخبرَه باسمِه، فلمْ يُخبرْه، وقالَ: أحدِّثُك من عملِه بثلاثٍ، كانَ لا يحسدُ الناسَ على ما آتاهم اللهُ منْ فضلِه، وكانَ لا يعقُّ والدَيْه، وكانَ لا يَمشي بالنميمةِ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٣) [كتاب العلم- باب الاغتباط في العلم والحكمة]، ومسلمٌ (٨١٦) [كتاب صلاة- باب من يقوم بالقرآن ويعلمه]، وغيرهما من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

والغبطةُ مباحةٌ في الدنيويِّ مندوبةٌ في الأخرويِّ، وقالَ بعضُهم:

اصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْحَسُو * دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
النَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا * إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وقالَ بعضُهم:

الحَاسِدُ جَاحِدٌ لِأَنَّهُ * لَا يَرْضَى بِقَضَاءِ الْوَاحِدِ

وفي معناه قالَ منصورٌ الفقيهُ[1]:

أَلَا قُلْ لِمَنْ ظَلَّ لِي حَاسِدًا * أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْأَدَبْ
أَسَأْتَ عَلَى اللهِ فِي حِلْمِهِ * إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

ولأبي الطيِّبِ:

وأَظْلَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ كَانَ حَاسِدًا * لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

ولبعضِهم:

دَعِ الْحَسُودَ وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ كَمَدِهِ * يَكْفِيكَ مِنْهُ لَهِيبُ النَّارِ فِي كَبَدِهِ
إِنْ لُمْتَ ذَا حَسَدٍ فَرَّجْتَ كُرْبَتَهُ * وَإِنْ سَكَتَّ فَقَدْ عَذَّبْتَهُ بِيَدِهِ

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ما رأيتُ ظالمًا أشبهَ بمظلومٍ منَ الحاسدِ، غمٌّ زائدٌ ونفَسٌ مُتتابِعٌ، وفيه قالَ بعضُهم:

قُلْ لِلْحَسُودِ إِذَا تَنَفَّسَ طَبْعُهُ * يَا ظَالِمًا وَكَأَنَّهُ مَظْلُومُ

وقالَ بعضُهم:

إِنَّ الْغُرَابَ كَانَ يَمْشِي مِشْيَةً * فِيمَا مَضَى مِنْ سَائِرِ الْأَحْوَالِ
حَسَدَ الْقَطَاةَ فَرَامَ يَمْشِي مَشْيَهَا * فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ العقَّالِ

---

(١) أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي المصري الضرير، كان إماما في فقه مذهبه، أديبا شاعرا مجيدا متفننا، له حظّ من كلّ علم، أصله من رأس العين المشهورة بالجزيرة، وقدم مصر وبها توفي سنة (٣٠٦). معجم الأدباء (٢٧٢٣/٦)، وفيات الأعيان (٢٨٩/٥)

ورويَ أنَّه ﷺ أخبرَ عنْ رجلٍ منَ الأنصارِ أنَّه مِنْ أهلِ الجنةِ فباتَ عندَه عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا لينظرَ عملَه، فلمْ يرَ له كبيرَ عملٍ، فقالَ له: ما الذي بلغَ بكَ ما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ؟ قالَ له: ما هو إلَّا ما رأيتَ، غيرَ أنِّي لا أجدُ في نفْسي لِأحَدٍ منَ المسلمينَ غِشًّا ولا أحسدُ أحدًا على خيرٍ أعطاه اللهُ إيَّاه، فقالَ عبدُ اللهِ: هذهِ التي بلغتْ بكَ، وهيَ التي لا نطيقُ[1].

وحُكِيَ أنَّ بعضَ الصلحاءِ كانَ يجلسُ بجنبِ ملكٍ ينصحُهُ، ويقولُ له: "أحسنْ إلى المحسنِ بإحسانِه، كفى المسيءَ فعلُه"، فحسدَه بعضُ الجهلةِ على قربِه منَ الملكِ، وأعمَلَ الحيلةَ على قتلِه، فسعى به إلى الملكِ، وقالَ له: إنَّه يزعمُ أنَّك أبخرُ، وعلامةُ ذلك أنَّكَ إذا اقْتَرَبْتَ منْهُ يضعُ يدَه على أنفِه لِئَلَّا يَشمَّ رائحةَ البخرِ، فقالَ له:انصرفْ حتَّى أنظرَ، فخرجَ فدعَا الرجلَ لِمنزلِه وأطعمَه ثومًا، فخرجَ الرجلُ منْ عندِه، وجاءَ وقالَ للملكِ مثلَ قولِه السابقِ: "أحسنْ إلى المحسنِ بإحسانِه، كفى المسيءَ فعلُه" كعادتِه، فقالَ له الملكُ: ادْنُ منِّي، فدنَا منْه ووضعَ يدَه على فيهِ مخافةَ أنْ يَشمَّ الملكُ رائحةَ الثُّومِ، فقالَ الملكُ في نفسِه: ما أرى فلانًا إلَّا قدْ صدَقَ، وكانَ الملكُ لا يكتبُ بخطِّه إلَّا جائزةً، فكتبَ له بخطِّه لبعضِ عمالِه إذا أتاكَ صاحبُ كتابي هذا فاذبحْه واسلخْه واحشُ جلدَه تبنًا وابعثْ به إليَّ، فأخذَ الكتابَ وخرجَ، فلَقِيَه الرجلُ الذي سَعى به، فقالَ ما هذا الكتابُ؟ قالَ: خطُّ الملكِ لي بِصِلَةٍ، فقالَ: هبْهُ لي، فقالَ: هو لكَ، فأخذَه ومضى به إلى العاملِ، فقالَ له العاملُ: في كتابِكَ أنِّي أذبحُكَ وأسلخُكَ، فقالَ: إنَّ الكتابَ ليسَ هو لي، اللهَ اللهَ في أمري حتَّى أراجعَ الملكَ، فقالَ: ليسَ لكتابِ الملكِ مراجعةٌ، فذبحَه وسلخَه وحَشَى جلدَه تِبنًا وبعثَ به، ثُمَّ عادَ الرجلُ إلى الملكِ كعادتِه وقالَ مثلَ قولِه، فعجبَ الملكُ وقالَ: ما فعلتَ بالكتابِ؟ قالَ: لَقِيَني فلانٌ فاستوهبَه منِّي فدفعتُه له، فقالَ الملكُ: إنه ذَكَرَ لي أنَّك تقولُ: إنِّي أبخرُ، قالَ: ما قلتُ ذلكَ، قالَ: فلِمَ وضعتَ يدَكَ على أنفِكَ وفيكَ؟ قالَ: أطعَمَني ثومًا، فخشيتُ أنْ تَشمَّه، قالَ: صدقْتَ، ارجعْ إلى مكانِكَ، ..

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٩٧) [مسند أنس]، والنسائي في الكبرى (١٠٦٣٣) [كتاب عمل اليوم والليلة]، وفي عمل اليوم والليلة (٨٦٣) [مَا يَقُول إذا انتبه من مَنَامه]، وغيرهما من حديث أنسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

.. فقدْ كفى المسيءَ إساءتُه، كذا ذكرَه بعضُ الشرّاح.

وذُكِرَ في "المستطرِف" أنَّه حُكِيَ أنَّ رجلًا مِنَ العربِ دَخَلَ على المعتصم فقرَّبَه وأدناهُ وجعلَه نديمَه، وصارَ يدخلُ علَيْه مِنْ غيرِ استئذانٍ، وكانَ له وزيرٌ حاسدٌ، فغارَ مِنَ البدويِّ فحسَدَه، وقالَ في نفسِه: إنْ لَمْ أقتلْ هذا البدويَّ أخذَ بقلبِ أميرِ المؤمنينَ وأبعدَني عنه، فصارَ ذلك الوزيرُ يتلطَّفُ بالبدويِّ حتَّى انْتَهى به إلى منزِله، فطبخَ طعامًا وأكثرَ فيه مِنَ الثُّوم، فلمَّا أكَلَ البدويُّ منه قالَ له: احذرْ أنْ تقربَ مِنَ أميرِ المؤمنينَ يشمُّ منكَ رائحةَ الثوم فيتأذَّى بذلكَ، فإنَّه يكرهُ رائحتَه، ثمَّ ذهبَ الوزيرُ إلى أميرِ المؤمنينَ فخَلا بِه، وقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ البدويَّ يقولُ للنَّاسِ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ أبخرُ، وهلكتُ مِنْ رائحةِ فمِه، فلمَّا دخلَ البدويُّ جعلَ كُمَّه على فمِه مخافةَ أنْ يَشُمَّ منهُ رائحةَ الثوم، فلمَّا رآه أميرُ المؤمنينَ وهو يَسترُ فمَه بكُمِّه قالَ: إنَّ الذي قالَه الوزيرُ عنْ هذا البدويِّ صحيحٌ، فكتبَ أميرُ المؤمنينَ إلى بعضِ عُمَّاله يقولُ فيه: إذا وصلَ إليكَ كتابي هذا فاضربْ رقبةَ حامِله، ثُمَّ دَعَا البدويَّ فدفعَ له ما رسَمَ به أميرَ المؤمنينَ وخَرَجَ بِه من عندِه، فبينَما هو بالبابِ فقالَ الوزيرُ: أينَ تريدُ؟ فقالَ: أتوجَّهُ بكتابِ أميرِ المؤمنينَ إلى عامله فلانٍ، فقالَ الوزيرُ: إنَّ هذا البدويَّ يَحصُلُ له مالٌ جزيلٌ، فقالَ يا بدويُّ ما تقولُ فيمنْ يُريحكَ مِنْ هذا التَّعَبِ الذي يَلحقُكَ في سفرِكَ ويُعطيكَ ألفيْ دينارٍ، فقالَ البدويُّ أنتَ الكبيرُ، وأنتَ الحاكمُ، ومهما رأيتَه مِنَ الرأيِ أفعل، فقالَ: أعْطِني الكتابَ، فدفَعَه إلَيْه، فأعطاهُ الوزيرُ ألفيْ دينارٍ، وركبَ الوزيرُ وسارَ بالكتابِ إلى المكانِ الذي هو قاصدُه، وسلَّمَ الكتابَ للعاملِ، فلمَّا قرأَ العاملُ الكتابَ أمرَ بضربِ رقبةِ الوزيرِ، وبعدَ أيام تفكَّرَ الخليفةُ في أمرِ البدويِّ، وسألَ عن الوزيرِ، فأُخبرَ بأنَّ له أيامًا ما رُئِيَ، وأنَّ البدويَّ مقيمٌ بالمدينة فتعجَّبَ من ذلكَ، وأمرَ بإحضارِ البدويِّ فسألَه عن حالِه فأخبرَه بالقِصَّةِ التي اتفقتْ له مَعَ الوزيرِ من أوَّلها إلى آخرِها، فقالَ له الخليفةُ: أنتَ قلتَ: إني أبخرُ، فقالَ: معاذَ الله يا أميرَ المؤمنينَ أن أُحدِّثَ بشيءٍ ليسَ لي به علمٌ، وإنَّما كانَ مَكرًا منه وحَسَدًا، وأعلمَه كيفَ دخلَ به في بيتِه وأطعمَه الثومَ، وما جَرى له منه، فقالَ له أميرُ المؤمنينَ: قاتلَ اللهُ الحسدَ، ما أعدَلَهُ بدأَ بصاحبِه فقتلَه، ثم خلَعَ على البدويِّ، واتخذَه وزيرًا، وراحَ الوزيرُ بِحَسَدِه.

فتأملوا -رحمكم الله- شؤمَ الحسدِ وما جرَّ إليْه، وتعلَّموا منْ قولِه ﷺ: (لا تُظهِرِ الشماتةَ لأخيكَ فيعافيَه اللهُ ويبتليكَ)[1].

(وَلَا تَنَاجَشُوا) بجيم وشينٍ معجَمتين، منَ النَّجْشِ، وهو لغةً: الإغراءُ والإثارةُ، يقالُ: نجشتُ الصيدَ أثرتُه؛ لأنَّه يُثيرُ الرغباتِ في المبيعِ ويُغري عليها، واصطلاحًا: الزيادةُ في المبيعِ لأجلِ غرورِ الغيرِ، وإنَّما ذكرَه بصيغةِ التفاعلِ، لأنَّ التجارَ يتغارضونَ في ذلك، فيفعلُ هذا لصاحبِه على أنْ يُكافئَه بمثلِه، وهذا النهيُ لا يَقتضي الفسادَ؛ لأنَّه خارجٌ عنه غيرُ لازمٍ، وتفسيرُ النجشِ بما ذُكرَ هو ما عليْه الأكثرُ، وقيلَ: المرادُ في الحديثِ النهيُ عنْ إغراءِ بعضِهم بعضًا على الشرِّ والخصومةِ، حكاه القاضي وغيرُه، وقالَ الأقليشيُّ[2]: لا تَناجَشُوا معناهُ لا يكنْ بيْنَكم تنافرٌ ولا تباعدٌ.

والأصلُ في النجشِ تنفيرُ الوحشِ منْ مكانٍ إلى مكانٍ، فكأنَّه يَنهى عنْ أنْ يَسعى الإنسانُ في تغيُّرِ قلبِه بالقطيعةِ للناسِ حتَّى يَقعَ بينهم استيحاشٌ، ولا تطمئنَ قلوبُهم بالاستئناسِ الذي جعلَه اللهُ سببَ التحاببِ بينَ الناسِ.

(وَلَا تَبَاغَضُوا) أيْ لَا يَبْغضْ بعضُكم بعضًا، أيْ لَا تَتعاطَوْا أسبابَ البغضِ؛ لأنَّه قهريٌّ كالحُبِّ لا قدرةَ للإنسانِ عَلى اكتسابِه، ولا يَملِكُ التَّصرُّفَ فيه، وهو النَّفْرةُ مِنَ الشيءِ لِمعنًى مُستقبَحٍ فيهِ، ويُرادِفُهُ الكراهةُ، كقولِهِ ﷺ: (هَذا قَسْمي فيما أملِكُ، فَلَا تَلُمْني فيما تَملكُ ولَا أملِكُ)[3]، ثُمَّ هو بيْنَ اثنينِ إمَّا مِنْ جانِبَيْهما أوْ مِنْ جانبِ أحدِهما، وعَلى كُلٍّ فهو لِغيرِ

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه (٢٥٠٦) [أبواب صفة القيامة والرقائق]، وغيره من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أبو العباس أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمي الأقليشي الأندلسي، عالم بالقراآت، سكن قرطبة، ورحل إلى الشرق واستقر، وتوفي بطليطلة، له كتاب في معاني القراآت، توفي سنة (٤١٠). جذوة المقتبس (١/١٤٢)، طبقات القرّاء لابن الجزري (١/٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥١١١) [مسند الصديقة عائشة]، وأبو داود (٢١٣٤) [كتاب النكاح- باب في القَسم بين النساء]، والترمذي (١١٤٠) [أبواب النكاح- باب ما جاء في التسوية بين الضرائر]، والنسائي (٣٩٤٣) [كتاب عشرة النساء- ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض]، وابن ماجه (١٩٧١) [أبواب النكاح- باب القسمة بين النساء]، وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا.

اللهِ حرامٌ، وهو محملُ الحديثِ، وله واجبٌ أو مندوبٌ، كما قالَ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

وقالَ ﷺ: (مَنْ أحبَّ للهِ، وأبغضَ للهِ، وأعطى للهِ، ومنعَ للهِ، فقدِ استكملَ الإيمانَ)[١]، وقيلَ: معناهُ لا تُوقِعوا العداوةَ والبغضاءَ بينَ المسلمينَ.

(**وَلَا تَدَابَرُوا**) أيْ لَا تَتكلَّموا في أدبارِ إخوانِكم بالغِيبةِ والبُهتانِ، ويَحتمِلُ معناهُ لا تُولُّوا أدبارَكم استثقالًا، بل ابسُطوا وجوهَكم، وقيلَ: مِنَ الإدبارِ، وهو الإعراضُ المؤدِّي إلى التَّقاطُعِ والمُعاداةِ؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ يولِّي صاحِبَهُ دُبرَهُ، أيْ لَا يُعرِضْ بعضُكم عنْ بعضٍ كراهيةً فيهِ ونفرةً منهُ؛ لأنَّهُ يؤدِّي إلى تضييعِ ما يَجِبُ مِنْ حقوقِ الإسلامِ مِنَ الإعانةِ والنصرةِ ونَحْوِهِما، وقيلَ: معناهُ لا تُقاطِعْهُ لِلأبدِ، مِنْ قولِهم: قَطَعَ اللهُ دابِرَهُ، أيْ مَنْ بَقِيَ بعدَهُ.

وفي الحديثِ: (لَا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثةِ أيامٍ)[٢] وفي روايةٍ: (لَا يَحِلُّ لِرجُلٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ ليالٍ، يَلتقيانِ فيُعرِضُ هذا ويُعرِضُ هذا، وخيرُهما الذي يَبدأُ بالسَّلامِ)[٣]، و أخَذَ منهُ العلماءُ أنَّ السَّلامَ يَرفَعُ إثمَ الهجْرِ، وأنشَدَ بعضُهم:

هَجْرُكَ لِي يَا سَيِّدِي مَظْلَمَهْ * فَاسْتَفْتِ فِيهِ ابْنَ أَبِي خَيْثَمَهْ
فَإِنَّهُ يَرْوِيهِ عَنْ جَدِّهِ * وَجَدُّهُ يَرْوِيهِ عَنْ عِكْرِمَهْ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الْمُصْطَفَى * نَبِيِّنَا الْمَبْعُوثِ بِالْمَرْحَمَهْ
أَنَّ صُدُودَ الْخِلِّ عَنْ خِلِّهِ * فَوْقَ ثَلَاثٍ رَبُّنَا حَرَّمَهْ
وأَنْتَ مُذْ شَهْرٍ لَنَا هَاجِرٌ * فَمَا تَخَافُ اللهَ فِينَا فَمَهْ

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٦٣٨) [مسند المكيين- حديث معاذ بن أنس]، والترمذيُّ (٢٥٢١) [أبواب صفة القيامة والرقائق]، والحاكم (١٦٤/٢) [كتاب النكاح]، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٠٦٥) [كتاب الأدب- باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر]، ومسلمٌ (٢٥٥٨) [كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر]، وغيرهما من حديث أنس.

(٣) متفقٌ عليها؛ أخرجها البخاريُّ (٦٠٧٧)، ومسلمٌ (٢٥٦٠) [كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الهجر فوق ثلاث]، وغيرهما من حديث أبي أيوب الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأخرجَ مُسلِمٌ وغيرُهُ: (تُعرَضُ الأعمالُ في كُلِّ اثنينِ وخميسٍ فيَغفِرُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- في ذلكَ اليومِ لِكُلِّ امرئٍ لَا يُشرِكُ باللهِ شيئًا إلَّا امرأً كانتْ بينَهُ وبيْنَ أخيهِ شحناءُ، يقولُ: اترُكوا هذَينِ حتَّى يَصطَلِحا)، وفي روايةٍ لهُ: (تُفتَحُ أبوابُ الجنةِ يومَ الاثنينِ والخميسِ، فيُغفَرُ لِكُلِّ عبدٍ لَا يُشرِكُ باللهِ شيئًا إلَّا رجُلًا كانَ بيْنَهُ وبيْنَ أخيهِ شَحْناءُ فيقولُ أَنْظِرُوا هذينِ حتَّى يَصطَلِحا، أَنْظِرُوا هذينِ حتَّى يَصطَلِحا، أَنْظِرُوا هذينِ حتَّى يَصطَلِحا)[1]. وأخرجَ الطبرانيُّ وابنُ حِبَّانَ في صحيحِهِ والبيهقيُّ: (يَطَّلِعُ اللهُ تعالى إلى جميعِ خلقِهِ ليلةَ النِّصفِ مِنْ شعبانَ فيغفِرُ لجميعِ خَلْقِهِ إلَّا لِمُشرِكٍ أوْ مُشاحِنٍ)[2].

ووَجْهُ مغايرتِهِ لِمَا قبْلَهُ أنَّ الشَّخْصَ قَدْ يَبغضُ صاحبَهُ عادةً ويوفِّيهِ حقوقَهُ، وقدْ يُعرِضُ عنهُ لنحوِ تُهمةٍ أوْ تأديبٍ وهو يُحِبُّهُ، ومِنْ هذا القبيلِ قولُ بعضِهم: "لَا يُكتَمُ الحُبُّ إلَّا خشيةَ التُّهَمِ"، ولِذا وَرَدَ أنَّ عُمَرَ بنَ الخطابِ قال لِرجُلٍ: لَا أُحِبُّكَ، فقالَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ يَحمِلُكَ ذلكَ عَلى أنْ تَمنعَني حقًّا هوَ لي، قالَ: لا، قالَ: فلَا أُبالي إذَنْ، فإنَّ الحُبَّ مِنْ شأنِ النِّساءِ.

(**وَلَا يَبِعْ**) بالجزْمِ عَلَى النَّهْيِ (**بَعْضُكُمْ**) أيْ مَعشَرُ المُكلَّفينَ مِنَ المسلمينَ والذِّمِّيِّينَ، والتقييدُ بِالمُسلمِ في الإخبارِ للغالبِ خِلافًا لِمَنْ أخذَ بمفهومِهِ (**عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ**) لِمَا فيهِ مِنْ تغييرِ القلوبِ بأنْ يَقولَ لِمُشتري سلعةٍ في زمنِ الخيارِ: رُدَّ هذا المَبيعَ وأنا أبيعكَ مِثلَها بأنقصَ مِنْ ثمنِها أوْ أجودَ منْها بمِثلِ ثمنِها، ومِثلُهُ الشِّراءُ على الشِّراءِ بأنْ يَقولَ آخرُ للبائعِ في مُدَّةِ الخيارِ: افسخْهُ وأَنَا أشْتَريهِ منكَ بأزيد.

(**وكُونُوا عِبَادَ اللهِ**) مُنادى مُضافٌ أيْ يا عبادَ اللهِ، فحُذِفَ حرفُ النِّداءِ، (**إِخْوَانًا**) خبرُ "كَانَ"، زادَ مُسلِمٌ: (كَمَا أَمَرَكُم اللهُ)[3] ونَسبَها إلى اللهِ؛ لأنَّ الرسولَ مُبلِّغٌ عنِ اللهِ تَعالى،

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٦٥) [كتاب البرِّ والصِّلة والآداب- باب النهي عن الشحناء والتهاجر]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٦٦٥) [كتاب الحظر والإباحة- باب ما جاء في التباغض والتحاسد]، والطبراني (٢٠/ رقم ٢١٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٩١/٥) [ترجمة مكحول] والبيهقي في الشعب (٣٥٥٢)، وغيرهم من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي الباب عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥٩) [كتاب البر والصلة- باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر].

وهذه الجملةُ كالتَّعْليلِ لما قبْلَها كأنَّهُ قالَ: إذَا تركتُم التحاسُدَ وما بعدَه كُنتُم إخوانًا، وإلَّا كُنتُمْ أعداءً، ومعْنى "كُونُوا إِخْوَانًا" تعاطَوْا أسبابَ المودَّةِ، واكتَسِبوا ما تَصيرونَ بهِ إخوانًا مِنَ الأمورِ المقتضيةِ لِذلِكَ كابتداءِ السلامِ وردِّهِ، وتشميتِ العاطسِ، وعيادةِ المريضِ، وتشييعِ الجنائزِ، وإجابةِ الدعوةِ، والمعاونةِ عَلى البرِّ والتَّقْوى، وطلاقةِ الوجهِ، والمصافحةِ، والنُّصْحِ، وقدْ قيلَ لِخالدِ بنِ صفوانَ: أيُّ الإخوانِ أحبُّ إليكَ؟ قالَ: الذي يَغفرُ زَلَلي ويَسُدُّ خَلَلي ويَقبَلُ عِلَلي، وقالَ القُرطبيُّ: كُونوا كإخوانِ النَّسبِ في الشفقةِ والرحمةِ والمحبةِ والمواساةِ والمعاونةِ والنصيحةِ، ولِبعضْهم:

مَنْ لي بِإنْسَانٍ إذَا أَغْضَبْتُهُ * وَجَهِلْتُ كَانَ الْحِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ

وإذَا صَبَوْتُ إلَى الْمُدَامِ شَرِبْتُ مِنْ * أَخْلَاقِهِ وَسَكِرْتُ مِنْ آدَابِهِ

وتَرَاهُ يَصْغَى لِلْحَدِيثِ بِطَرْفِهِ * وَبِقَلْبِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

ورَوى الترمذيُّ: (تَهادَوْا، فإنَّ الهديةَ تُذهِبُ وحَرَ الصدورِ)[1]، والوحَرُ -بفتحِ الحاءِ المهملةِ- الغِشُّ والوَسواسُ، وقيلَ الحِقْدُ والغيظُ، وقيلَ العداوةُ، وقيلَ أشَدُّ البُغضِ.

***

حقوق الأخوة

(**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ**) يجمَعُهما دينٌ واحدٌ، ومِنْ ثَمَّ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فَهُمْ كالأُخوَّةِ الحقيقيَّةِ، وهو أنْ يَجمَعَ الشخصَيْنِ ولادةٌ واحدةٌ مِنْ صُلبٍ أو رَحِمٍ أو مِنهُما، والأُخوَّةُ الدينيَّةُ أعظمُ مِنَ الأُخوَّةِ الحقيقيَّةِ؛ لأنَّ ثَمرتَها أُخرويَّةٌ، وثمرةُ تلكَ دنيويَّةٌ.

(**لَا يَظْلِمُهُ**) أيْ لَا يُنقِصُهُ حقَّهُ ويَمنعُهُ إيَّاهُ؛ لأنَّ الظلمَ حَرامٌ ومُذهِبٌ للبرَكةِ، فقَدْ أخرَجَ ابنُ مُردَوَيْهِ والأصبهانيُّ في الترغيبِ، والبيهقيُّ عنْ مُجاهدٍ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ مَلكًا مِنَ الملوكِ خَرَجَ يَسيرُ في مَملَكتِهِ وهو مُستخْفٍ مِنَ النَّاسِ حتَّى نَزَلَ عَلى رجلٍ لَهُ بقرةٌ، فراحتْ عليه تلكَ البقرةُ فحلَبَتْ فإذَا حِلابُها مِقدارُ حِلابِ ثَلاثينَ بقرةً، فحَدَّثَ الملكُ نَفسَهُ بأخذِها، فلمَّا كانَ

(١) سنن الترمذي (٢١٣٠) [أبواب الولاء والهبة- باب في حث النبي ﷺ على التهادي] من حديث أبي هريرة.

الغدُ غدتِ البقرةُ إلى مَرعاها ثُمَّ راحتْ فحلَبتْ فنَقصَ لبنُها على النصفِ وجاءَ مقدارَ خمسَ عشرةَ بقرةً، فدَعى الملكُ صاحبَها فقالَ: أخْبرْني عنْ بقرتِكَ أَرعَتِ اليومَ في غيرِ مَرعاها بالأمسِ وشربتْ مِنْ غيرِ مَشربِها بالأمسِ؟ فقالَ: ما رعتْ في غيرِ مَرْعاها بالأمسِ ولا شَربتْ مِنْ غيرِ مَشربِها بالأمسِ، فقالَ: ما بالُ حِلابِها عَلى النِّصْفِ؟ فقالَ: أرى الملكَ همَّ بأخذِها فنَقصَ لبنُها، فإنَّ المَلكَ إنَّ ظَلَمَ أوْ همَّ بِالظُّلم ذهبتِ البركةُ، قالَ: وأنتَ مِنْ أينَ يعرفُكَ المَلكُ؟ قالَ: هو كما قلتُ لكَ، فَعاهَدَ المَلكُ ربَّهُ أنْ لا يَظلِمَ ولا يَأخُذَ البقرةَ، فغدَتْ فرعَتْ ثُمَّ راحتْ فحلَبَتْ فإذَا لبنُها قَدْ عادَ عَلى مقدارِ ثلاثينَ بقرةً فاعتبَرَ المِلكُ، وقالَ بيْنَهُ وبيْنَ نفسِهِ: أرى الملكَ إذا ظلَمَ أوْ همَّ بالظلمِ ذهبتِ البركةُ، لا جَرَمَ لَأعدلَنَّ فَلأكونَنَّ عَلى أفضلِ العدلِ[1].

ولِبعضِهم:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِراً * فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بِالنَّدَمِ
نَامَتْ عُيُونُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ * يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

ولِبعضِهم:

اصْبِرْ عَلَى الظُّلْمِ ولَا تَنْتَصِرْ * فَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى الظَّالِمِ
وكُنْ إِلَى اللهِ مَظْلُومًا فَمَا * رَبِّي عَلَى الظَّالِمِ بِالنَّائِمِ

(وَلَا يَخْذُلُهُ) أيْ لَا يَترُكُهُ لِمَنْ يَظلِمُهُ ولا يَنصُرُهُ، وقدْ قالَ ﷺ: (انصُرْ أخاكَ ظالمًا أوْ مَظلومًا، قيلَ لهُ: كيفَ يَنصرُهُ ظالمًا؟ قالَ: يَمنعُهُ مِنَ الظُّلْمِ)[2]. قالَ العراقيُّ: بِضمِّ الذالِ المعجمةِ، والخذلانُ ترْكُ الإعانةِ والنُّصرةِ، ذَكَرَهُ الطيبيُّ، والخذلانُ حرامٌ سواءٌ كانَ مُتعلَّقُه دنيويًّا مِثلَ أنْ يَقدرَ عَلى دفعِ عدوٍّ يُريدُ أنْ يَبطِشَ بِهِ فلا يدفعُهُ، أوْ دينيًّا مِثْلَ أنْ يقدرَ عَلى نُصحِهِ فيَترُكُهُ.

(١) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٦١٩)، وأبو نعيم في فضيلة العادلين من الملوك (٤٩)، والبيهقي في الشعب (٧٠٧١) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا موقوفًا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥٢) [كتاب الإكراه]، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**وَلَا يَكْذِبُهُ**) بفتحِ ياءِ المُضارَعةِ وتخفيفِ الذالِ المكسورةِ، وبضمٍّ فَسكونٍ، والأوَّلُ أشهرُ وأكثرُ بلِ اقتصرَ عليهِ الحافظُ العراقيُّ في شرحِ الترمذيِّ، لكنِ اقتصرَ المؤلِّفُ عَلى الثاني، أي لا يُخبِرُه بِأمرٍ عَلى خلافِ ما هو عليهِ؛ لأنَّهُ غشٌّ وخيانةٌ.

وفي الحديثِ: (إذَا كَذَبَ العبدُ تباعَدَ المَلَكُ عنهُ مِيلًا مِنْ نَتْنِ ما جاءَ به) رَواهُ الترمذيُّ وحسَّنَهُ[1]، ويَنبغي لِمَنِ اضْطُرَّ إلى الكذبِ أنْ يُعرِّضَ إلى المعاريضِ ما أمْكَنَ حتَّى لا يُعوِّدَ نفْسَهُ الكذبَ، وفي الخبرِ: إنَّ في المعاريضِ لَمَندوحةً عنِ الكذبِ[2]، وعنْ أبي بكرٍ أنَّهُ كانَ خلْفَ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ هاجرَ معهُ فتلقَّاهُ العربُ وهمْ يعرِفونهُ ولا يَعرِفونَ النبيَّ ﷺ فيقولونَ: مَنْ هذا؟ فيقولُ: يَهديني السبيلَ[3]، فيَظنونَ أنَّهُ يَعني هدايةَ الطريقِ، وهو يُريدُ سبيلَ الخيرِ، وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ إذَا طُلِبَ في البيتِ يَقولُ لِخَادمه قلْ له: انظرْهُ في المسجدِ، وقدْ وَرَدَ أنَّ أعرابيًّا بايعَ النبيَّ ﷺ عَلى تركِ خَصْلةٍ مِنَ الخصالِ المُحرَّمةِ كالزِّنا والسرقةِ والكذبِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: (دَعِ الْكَذِبَ)[4] فصارَ كُلَّما هَمَّ بزنًا أو سرقةٍ أو غيرِهما قالَ: كيفَ أصنعُ إنْ سألَني النبيُّ ﷺ فإنْ صدقْتُه حدَّني، وإنْ كذَبْتُه فقدْ عاهدَني عَلى تركِ الكذبِ، فكانَ ترْكُه سببًا لِتركِ الفواحشِ كُلِّها.

قالَ التادليُّ: والكذبُ خمسةُ أقسامٍ، واجبٌ لإنقاذِ مالِ مسلمٍ أو نفْسِهِ، وحَرامٌ وهو الكذبُ لغيرِ منفعةٍ شرعيَّةٍ، ومندوبٌ وهو الكذبُ لِلكُفَّارِ أنَّ المسلمينَ أخذوا في أهبةِ الحرْبِ،

---

(١) سنن الترمذي (١٩٧٢) [أبواب البر والصلة- باب ما جاء في الصدق والكذب]، وغيره من حديث ابن عمر.

(٢) رُوي هذا الحديث عن عِمران بن حُصَين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقوفًا ومرفوعًا: فأخرجه موقوفًا: ابن أبي شيبة (٢٦٠٩٦) [كتاب الأدب- من كره المعاريض ومن كان يحب ذلك]، والبخاريُّ في "الأدب المفرد" (٨٥٧) [باب من الشعر حكمة]، والطحاويُّ في "شرح مشكل الآثار" (٣٧٠/٧)، والبيهقيُّ في "السُّنن" (٢٠٨٤٢) [باب: المعاريض فيها مندوحة عن الكذب]. وأخرجه مرفوعًا: أبو الشيخ في "الأمثال" (٢٣٠)، وابن عديٍّ في "الكامل" (٥٦٧/٣)، والقضاعيُّ في "مسند الشهاب" (١٠١١)، والبيهقيُّ في "السنن" (٢٠٨٤٣) [باب المعاريض فيها مندوحة عن الكذب]. وصحَّح البيهقيُّ والهيثمي الموقوفَ، وقال الهيثمي في "المجمع" (١٣٠/٨): رواه الطبرانيُّ، ورجالُهُ رجالُ الصَّحيح.

(٣) أخرجه مطوَّلًا: البخاريُّ (٣٩١١) [كتاب مناقب الأنصار- باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة].

(٤) ذكره المبرد في الكامل (٧٤٨/٢)، ولم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

إذَا قُصِدَ بذلكَ إرهابُهم، ومكروهٌ وهو الكذبُ لِلزوجةِ تَطييبًا لِنفْسِها، ومباحٌ وهو الكذبُ لِلإصلاحِ بيْنَ الناسِ، وتعقَّبَ ابنُ ناجي القِسْمَ الرَّابعَ بأَنَّ السُّنَّةَ جوَّزتِ الكذبَ فيهِ، اهـ.

وقالَ قومٌ: الكذِبُ كُلُّهُ قبيحٌ، فقدْ سُئِلَ مالكٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنِ الرجُلِ يكذِبُ لِزوجتِهِ وابنِهِ تطييبًا لِنفْسِهما، فقالَ: لا خيرَ في الكذبِ. ولقدْ أحسَنَ القائلُ:

الصِّدْقُ فِي أَقْوَالِنَا أَقْوَى لَنَا * وَالْكَذِبُ فِي أَفْعَالِنَا أَفْعَى لَنَا

فَهُمْ يَقُولُونَ هم أَشْيَاخُنَا * فَمَا لَهُمْ قَدْ يَفْعَلُوا أَشْيَا خَنَا

(**وَلَا يَحْقِرُهُ**) بياءٍ مفتوحةٍ وحاءٍ مهملةٍ وقافٍ مكسورةٍ، أي لا يَستصغرُ شأنَهُ ويَضعُ مِنْ قدْرِهِ بالتَّرفُّعِ عَليهِ، ولا يَنظرُهُ بِعينِ القِلَّةِ والاستصغارِ، ومِنْ ذلكَ أَنْ لا يُسلِّمَ عليهِ إذَا مَرَّ بهِ ولا يَرُدَّ عليهِ السلامَ إذَا بدَأَ هو بِهِ، وهذَا إنَّما يَصدُرُ في الغالبِ مِمَّنْ غَلَبَ عليهِ الكِبْرُ والجَهْلُ، ولا يَنتقِصُهُ بالوقيعةِ فيهِ بالاستهزاءِ والسُّخريةِ بهِ وذِكْرِ معايبِهِ إذَا رآهُ رثَّ الحالِ أو ذا عاهةٍ في بدنِهِ أو غيرَ لَبِقٍ في محادثتِهِ لاحتمالِ أنْ يَكونَ أفضلَ وأقربَ عندَ اللهِ منْهُ.

النهي عن احتقار المسلم

وفي الحديثِ: (رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرَيْنِ -أيْ ثوبينِ خَلَقينِ- لا يُعبأُ بِهِ، لوْ أقْسَمَ عَلى اللهِ لأبرَّهُ)[1]، وفي الحديثِ: (لَا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يُشيرَ أو يَنظُرَ إلى أخيهِ بنظَرٍ يؤذيهِ) رَواهُ ابنُ المباركِ في كتابِ الزُّهدِ[2]. ومرَّ بعضُ أولادِ المهلبِ بمالكِ بنِ دينارٍ فقالَ لهُ مالكٌ: لوْ تركْتَ الخُيلاءَ لَكانَ أجملَ لكَ، فقالَ: أَمَا تَعرِفُني؟ فقالَ: واللهِ أعرِفُكَ معرفةً جيِّدةً، أوَّلُكَ نُطفةٌ مَذِرةٌ، وآخِرُكَ جيفةٌ قذِرةٌ، وأنتَ مَعَ ذلكَ تَحملُ العَذِرةَ، فأرْخى الفَتى رأْسَهُ، وكَفَّ عمَّا كانَ عليه. وقالَ أَفلاطونُ لِرجُلٍ جاهِلٍ مُعجَبٍ مُختالٍ في نفسِهِ: وَدِدْتُ أنِّي مِثلُكَ في ظنِّكَ، وأنَّ أعْدائي مِثلُكَ في الحقيقةِ. وقالَ في الأُمِّ[3]: عَجِبْتُ لِمَنْ جَرى مَجْرى البولِ مرَّتَيْنِ كيفَ يَتكبَّرُ!

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٢) [كتاب البر والصلة والآداب- باب فضل الضُّعفاء والخاملين]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد كما في تخريج أحاديث الإحياء للعراقي (الإحياء ٢/١٩٥).

(٣) هكذا في الأصل، وفي معظم المصادر: "وقال الأحنف"، والعبارة منسوبة للأحنف بن قيس!

ورويَ أنَّ رجُلًا قالَ لغلامِهِ: أَسْقِنِي، فقالَ: نَعَمْ، قالَ: إنَّما يَقولُ: نَعَمْ مَنْ يَقْدِرُ أنْ يَقولَ: لَا، اصْفَعُوهُ، فَصفعوهُ ثُمَّ دَعا بماءٍ فَتمضْمَضَ استقذارًا لِمُخاطبَتِه.

وقدْ حرَّمَ اللهُ الجنةَ عَلى المُتكبِّرينَ فقالَ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، فقَرَنَ الكِبْرَ بالفسادِ.

وأمَّا حديثُ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لمْ يَتعاظَمْ بالعِلمِ)[١] فمعناهُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَعتقِدْ أنَّ اللهَ جَعلَهُ عظيمًا لِكونِهِ جَعلَهُ مَحَلًّا للعلْمِ ومَوْصوفًا بِهِ، ولَمْ يَسترذِلْهُ بحيثُ حَظَرَهُ عليهِ ومَنَعَهُ منهُ كما وَرِدَ في الحديثِ (إذا استرذَلَ اللهُ عبدًا حَظَرَ عليهِ العلمَ والأدبَ)[٢]، أو مَا هذا معناهُ، ولَيْسَ المرادُ بِتعاظُمِهِ احتقارَ غيرِهِ.

ومِنْ جُملةِ احتقارِ المسلِمِ اغتيابُهُ، وهو ذِكْرُكَ إيَّاهُ بما يَكرَهُ، وهِيَ أي الغيبَةُ مُحرَّمَةٌ بالإجماعِ إلَّا ما استثناهُ العلماءُ، وقدْ جَمَعَ ذلكَ بعضُهم في بيتٍ فقالَ:

تَظَلَّمْ وَاسْتَغِثْ وَاسْتَفْتِ حَذِّرْ * وَعَرِّفْ بِدْعَةً فِسْقَ الْمُجَاهِرْ

فذَكَرَ سَبعَةً تُرخِّصُ الغيبَةُ فيهم:

الأَوَّلُ: التَّظلُّمُ لِمَنْ يَظُنُّ أنَّ لهُ قدرةً عَلى إزالةِ ظُلْمِهِ أوْ تخفيفِهِ،

الثاني: الاستعانةُ عَلى تغييرِ المُنكَرِ بِذكْرِهِ لِمَنْ يَظُنُّ قدرتَهُ عَلى إزالَتِهِ بِنَحوِ فلانٍ يَعمَلُ كَذا فازجُرْهُ عنْهُ،

الثالثُ: الاستفتاءُ بأنْ يَقولَ لِلمُفتي: ظَلَمَني فلانٌ بِكذا، فهلْ يَجوزُ لَهُ؟ ومَا طريقي في خَلاصي منْهُ أو تحصيلِ حقِّي، وقدْ رويَ عنْ هنْدٍ أنَّها قالتْ للنبيِّ ﷺ: (إنَّ أبا سفيانَ رجُلٌ شحيحٌ لا يُعطيني ما يَكفيني وَبَنِيَّ، أَفآخُذُ مِنْ غيرِ علمِهِ؟ فقالَ: خُذي ما يَكفيكِ وبَنيكِ

---

(١) ذكره بهذا اللفظ النفراوي في الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/١٨)، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٢) أخرجه ابن عديٍّ في الكامل (٣/١٩٧)، والقضاعي في الشهاب (٧٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وهو حديث موضوع باطل كما قال ابن عدي والذهبي وغيرهما، انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (١/١٥١).

بِالمعروفِ)[1]، فذكَرتِ الشُّحَّ ولَمْ يَزجُرْها النبيُّ ﷺ؛ إذْ كانَ قصدُها الاستفتاءَ،

الرابعُ: تحذيرُ المسلمينَ مِنَ الشَّرِّ، مِثْلَ أنْ يَشتريَ مملوكًا وعُرِفَ المملوكُ بالسَّرقةِ أوْ بالفسقِ أوْ بعيبٍ آخرَ، فلَكَ أنْ تَذكُرَ ذلكَ، فإنَّ في سكوتِكَ ضررًا علَى المُشتَري، وكَذلكَ المُستشارُ في تَزويجٍ أوْ إيداعٍ، لهُ أنْ يَذكُرَ لهُ ما يَعرِفُهُ علَى قصْدِ النُّصْحِ لِلمُتزوِّجِ لَا علَى قصْدِ الوقيعةِ، وإنْ عَلِمَ أنَّهُ يَترُكُ التزوُّجَ مَثلًا بمُجرَّدِ قولِهِ: لَا تَصلُحُ لَكَ، فهَذا الواجبُ، فإنْ عَلِمَ أنَّهُ لا يَترُكُهُ إلَّا بِالتصريحِ بِالعيبِ فلَهُ أنْ يُصرِّحَ بِهِ،

الخامسُ: أنْ يَكونَ الإنسانُ مَعروفًا بما فيهِ نقصٌ كَالأعرجِ والأعمشِ والأعورِ والأصمِّ والأقرعِ، فقدْ فَعَلَ العلماءُ ذلكَ لِضرورةِ التعريفِ، فإنْ أمكَنَ تعريفُهُ بِعبارةٍ أُخرى فهِيَ أَوْلى، ولِذلكَ قيلَ لِلأعْمى البصيرُ عُدولًا عَنِ النَّقصِ،

السادسُ: أنْ يَكونَ مُبتدِعًا،

السابعُ: أنْ يَكونَ متجاهرًا بِالفِسْقِ كالمجاهِرِ بِشُربِ الخَمْرِ ومصادرةِ الناسِ وأخْذِ المكسِ وجبايةِ الأموالِ ظُلمًا، فإنَّهُ إنْ ذَكَرَ منهُ ما يَتظاهَرُ منهُ فَلا إثمَ لِمَا وَرَدَ بسندٍ ضعيفٍ (مَنْ أَلْقَى جِلبابَ الحياءِ عنْ وجهِهِ فلا غِيبةَ فيهِ)[2]، وقالَ عُمَرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَيْسَ لِفاسِقٍ حرمةٌ[3]، والمرادُ بِهِ المجاهرُ بِفسقِهِ دونَ المُسْتَتِرِ؛ إذِ المُستَتِرُ لا بُدَّ مِنْ مراعاةِ حُرمتِهِ، وظاهِرُ هذا أنَّهُ يَجوزُ غِيبتُهُ بِما تَظاهَرَ بِهِ، وإنْ كانَ لا يَرضى ذلك.

وقدْ قالَ بعضُهم: لا يَكُنْ حظُّ المؤمنِ مِنْكَ إلَّا ثلاثَ خصالٍ، إنْ لَمْ تَنفعْهُ فلا تَضُرَّهُ، وإنْ لَمْ تَسُرَّهُ فلا تَغُمَّهُ، وإنْ لَمْ تَمدحْهُ فلا تَذُمَّهُ. وقولُه: "ولَا يَحقِرُهُ"، وفي روايةٍ "ولَا يَحتَقِرُهُ" وهِيَ

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٢١١) [كتاب البيوع]، ومسلمٌ (١٧١٤) [كتاب الأقضية]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (١٠٢) [باب ذكر الحياء وما جاء فيه]، ومؤمل في جزءه (ص ٩٩)، والبيهقي في السنن (٢٠٩١٥) [جماع أبواب من تجوز شهادته]، والشعب (٩٢١٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٢٦)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال البيهقي: ليس بالقوي.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٣٢) [باب الغيبة التي يحل لصاحبها الكلام بها]، وفي ذم الغيبة (٩٥) [باب الغيبة التي يحل لصاحبها الكلام بها] عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: "ليس لفاجرٍ حرمة".

بمعناها، وفي رواية بياءٍ مضمومةٍ وخاءٍ معجمةٍ ساكنةٍ وفاءٍ مكسورةٍ، بمعنى لا يَغدرُهُ ولا يَنقُضُ عهدَهُ[1]، قالَ أنسٌ: مَا خَطَبَنا رسولُ اللهِ ﷺ إلَّا قالَ: (لَا إيمانَ لِمَنْ لَا أمانةَ لهُ، ولا دينَ لِمَنْ لا عهْدَ لهُ)[2]، لَكِنْ قالَ عياضٌ: والصوابُ المعروفُ هو الأولُ وهو الموجودُ في غيرِ كتابٍ.

وتخصيصُ ذلكَ بالمُسلمِ لِمزيدِ حُرمتِهِ لا لِلاختصاصِ بهِ مِنْ كُلِّ وجهٍ؛ لأنَّ الذِّمِّيَّ يُشارِكُهُ في حرمةِ ظُلمِهِ وخذلانِهِ بنحوِ تركِ دفعِ عدوِّهِ عنهُ والكذبِ عليهِ، وأمَّا احتقارُهُ مِنْ حيثُ الكفرُ القائمُ بِهِ فجائزٌ قالَ تَعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

***

(**التَّقْوَى هٰهُنَا**) أيْ محلُّ سببِها الذي هو الخوفُ الحاملُ عَلَيْها القلبُ الذي في الصَّدْرِ، لا حقيقتُها الذي هو الاتِّقاءُ مِنَ العذابِ بِفعْلِ المأمورِ واجتنابِ المحظورِ، وفي الحديثِ: (إنَّ اللهَ لَا يَنظرُ إلى صُوَرِكُمْ وأموالِكمْ، ولَكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكمْ وأعمالِكُم)[3] ومَعْنى نَظَرِ اللهِ مُجازاتُهُ، ويَصِحُّ أنْ يُرادَ بالتَّقْوى هُنا الإخلاصُ، نَحو قولِهِ تَعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] أيْ مِنْ إخلاصِ القلوبِ، وقدْ تَقدَّمَ في حديثِ (اتَّقِ اللهَ حيثُما كُنتَ) أنَّها تَرِدُ لِعدَّةِ مَعانٍ.

(**وَيُشِيرُ**) رسولُ اللهِ ﷺ (**إِلَى صَدْرِهِ**)، فَعَلَ ذلكَ (**ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**) مِنْ كَلامِ الرَّاوي.

***

(**بِحَسْبِ**) بإسكانِ السينِ، ويَستوي فيهِ الواحدُ والمثنَّى والجمعُ والمؤنثُ والذكرُ، قالَ النحاةُ: إذَا كانَ ما بعدَهُ مَعْرِفةً رَفَعَهُ عَلى الخبريةِ، فالإضافةُ لفظيةٌ بدليلِ الابتداءِ، وإنْ كانَ ما بعدَهُ نَكِرةً فرفَعَهُ محلُّ الابتداءِ فقطْ، فالإضافةُ معنويَّةٌ، ولمَّا كانَ هنا مظنَّةُ سؤالٍ وهو أنْ يقالَ التحقيرُ لماذا؟ أحَرامٌ أو لا؟ فقالَ (**امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ**) أيْ كافيهِ منْهُ (**أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**) بِالنَّصبِ

(١) ذكرهما النووي في شرح مسلم.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (١٢٣٨٣) [مسند أنس]، والبزار (٧١٩٦) [مسند أنس]، وابن حبان (١٩٤) [كتاب الإيمان- باب فروض الإيمان] والطبراني في الأوسط (٢٦٠٦)، وغيرهم.

(٣) أخرجه مسلمٌ (٢٥٦٤) [كتاب البر والصلة- باب تحريم ظلم المسلم]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

صفةً لـ "أخاهُ"، وكرَّرَه لحُرمةِ المُسلِم، ففيه تحذيرٌ شديدٌ مِن احتقارِه قالَ تَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ إلى قولِه: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] أيْ لَا تَحتقِرْ غَيْرَكَ عَسى أنْ يَكونَ عِندَ اللهِ خيراً منْكَ، ويُحتمَلُ أنَّ المرادَ بـ"عَسَى": يَصيرُ، أيْ لَا تَحتَقِرْ غَيْرَكَ فإنَّهُ رُبَّما صارَ عزيزًا وصِرْتَ ذَليلًا فَينتقِمُ مِنْكَ، ولِذا قالَ بعضُهم:

لَا تُهِينَ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ * تَرْكَعَ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أيْ لا يَعِبْ بعضُكم عَلى بعضٍ، واللمْزُ بالقولِ وغيرِه، والهَمْزُ بالقولِ فقطْ، وروَى البيهقيُّ عنِ ابنِ جريجٍ: أنَّ الهَمْزَ بالعَيْنِ وَالشِّدْقِ وَالْيَدِ، واللَّمْزَ باللِّسَانِ. قالَ البيهقيُّ: وبَلَغَني عَنِ اللَّيْثِ أنَّهُ قالَ: اللُّمَزةُ الذي يَعيبُكَ في وجهِكَ، والهُمَزةُ الذي يَعيبُكَ في الغَيْبِ، ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ أيْ لا تُنادوهم بِما يَكرهونَ مِنَ الألقابِ، مِنَ "النَّبزِ" وهو الطَّرحُ، ونبَّهَ تَعالى بقولِه: ﴿أنفسكم﴾ على نُقْطةٍ دقيقةٍ يَنبغي التَّفطُّنُ لَها، وهِيَ أنَّ المؤمنينَ كُلَّهُمْ بمنزلةِ البدَنِ الواحِدِ إذَا اشْتَكى بعضُهُ اشتَكى كُلُّهُ، فمَنْ عابَ غيرَهُ ففي الحقيقةِ إنَّما عابَ نفسَهُ، ومَعْنى ﴿بئس الاسم الفسوق...﴾ إلخ، أيْ أنَّ مَنْ فَعَلَ واحِدًا مِنَ الثلاثةِ استحقَّ اسمَ الفسوقِ، وهو غايةُ النَّقْصِ بعدَ أنْ كانَ كامِلًا.

***

(**كُلُّ المُسلِمِ**) مُبتدأٌ، وإضافةُ "كُلّ" هُنا إلى المعْرفةِ دليلٌ عَلى جوازِهِ خلافًا لِمَنْ زَعَمَ أنَّها لا تُضافُ إلى نكرةٍ، (**عَلى المُسْلِمِ حَرَامٌ**) يُقالُ: أحْرَمَ الرجلُ إذا اعتصَمَ بحُرمةٍ تَمنَعُ عنْهُ، أيْ أنَّ المُسلِمَ مُعتصِمٌ بِحُرمةِ الإسلامِ مُمتنِعٌ به مِمَّنْ أرادَهُ، وقولُهُ "حَرامٌ" خبرُ المبتدأِ.

(**دَمُهُ**) بدَلُ بَعضٍ مِنْ كُلٍّ، (**ومَالُهُ**) الذي خَصَّهُ اللهُ بِهِ وجَعلَهُ مِلْكًا لهُ، فَلا يَحِلُّ أخذُهُ إلَّا بِحقِّهِ، وقَدْ أخْرَجَ ابنُ حِبَّانَ في صحيحِهِ عنِ أبي حميدٍ الساعديِّ: (لَا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يَأخُذَ عَصا أخيهِ بغيرِ طيبِ نفْسٍ منْهُ)[1].

(١) صحيح ابن حبان (٥٩٧٨) [كتاب الجنايات]، وغيره.

(**وَعِرْضُهُ**) وقولُهُ: "دمُهُ..." إلخ هذا هو المقصودُ مِنَ الحديثِ، ومَا سَبَقَ كَالتَّمْهيدِ له، وقَدْ وَرَدَ أنَّهُ ﷺ لمَّا أُسريَ بِهِ مَرَّ بقومٍ لَهُمْ أظفارٌ مِنْ نُحاسٍ يَخْمُشونَ وجوهَهُمْ وصُدورَهم فقالَ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قالَ: هؤلاءِ الَّذينَ يأكلونَ لحومَ الناسِ ويَقعونَ في أعراضِهم[1]، وقالَ بعضُهم: أدْرَكْنا السَّلَفَ وهُمْ لَا يرونَ العبادةَ في الصَّوْمِ ولا في الصلاةِ، ولَكِنْ في الكَفِّ عنْ أعراضِ النَّاسِ.

وجَعَلَ هذهِ الثلاثةَ كُلَّ المُسلمِ لِشدَّةِ احتياجهِ إلَيْها، واقتصَرَ عَلَيْها؛ لأنَّ ما سواها فَرْعٌ عنْها وراجِعٌ إلَيْها، ولمَّا كانتْ حُرْمَتُها هِيَ الأصلَ والغالبَ لَمْ يَحتَجْ إلى تَقييدِها بما إذا لم يَعرِضْ ما يُبيحُها شرعًا كالقتلِ قَوَدًا، وأخْذِ مالِ المُرتَدِّ فيْئًا، وتوبيخِ المُسلمِ تعزيرًا ونحوِ ذلكَ.

(**رَواهُ مُسلِمٌ**)، وَهُوَ حديثٌ كثيرُ الفوائدِ.

***

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٣٤٠) [مسند أنس]، وأبو داود (٤٨٧٨) [كتاب الأدب- باب في الغِيبَةِ]، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

الحديثُ السادسُ والثلاثونَ

٣٦. عنْ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: مَنْ نَفَّسَ عَنْ مؤمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يومِ القيامَةِ، ومَنْ يسَّر على مُعْسرٍ يسَّرَ اللهُ عليْهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ومَنْ سترَ مُسلماً سَتَرَه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه، ومَنْ سلَكَ طريقاً يلتمِسُ فيه عِلماً سهَّل اللهُ له بِه طريقاً إلى الجنَّةِ، وما اجتمَعَ قومٌ في بيتٍ من بُيوتِ الله يتلونَ كتابَ الله ويَتدارسُونه بينهم إلا نزلَتْ عليهِمُ السَّكينةُ وغَشيَتْهُم الرَّحمةُ وحَفَّتْهُم الملائكَةُ، وذكَرَهُم اللهُ فِيمنْ عِندَه، ومَنْ بَطَّأَ به عملُه، لم يُسرِعْ به نسبُه. رواهُ مسلمٌ بهذا اللَّفْظِ.

فضل التنفيس عن مكروب

(عَنْ أَبِي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنه قالَ: مَنْ نَفَّسَ)، أَيْ: أزالَ وَكَشَفَ وَفَرَّجَ، مِنْ "تنفيسِ الخِنَاقِ" أَيْ: إِرْخَائِهِ حَتَّى يَأْخُذَ لَهُ نَفَسًا، (عَنْ مُؤْمِنٍ) بِنَفْسِه أَوْ مَالِه أَوْ جَاهِه أَوْ دُعَائِه لَهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، وَآثَرَ ذِكْرَ "المؤمنِ" لشَرَفِهِ وَمَزِيدِ حُرْمَتِه، وَإِلَّا فَالذِّمِّيُّ كَذَلِكَ، وَعَبَّرَ هُنَا بِـ"مُؤْمِنٍ" عَلَى مَا فِي أَكْثَرِ النُّسَخِ، وفيما يأتي بِـ"مُسْلم" إِمَّا للتَّفَنُّنِ أو لأَنَّ الكُرْبَةَ تَتَعَلَّقُ بِالباطنِ، فناسبَ الإيمانَ المتعلقَ بِهِ أَيْضًا، (كُرْبَةً)، أَيْ: شِدَّةً عظيمةً؛ لأَنَّهَا مَا هَمَّ النَّفْسَ وَغَمَّ القلبَ، مِنْ "كَرَبَ" الَّتِي للمفاجأةِ؛ لأَنَّ الكُرْبَةَ تُقَارِبُ أَنْ تُزْهِقَ الرُّوحَ، فَكَأَنَّهَا لِشدَّةِ هَمِّهَا عَطَّلَتْ مَجَارِيَ التَّنَفُّسِ مِنْهُ، وَبِهِ يُعْلَمُ حِكْمَةُ إِيثَارِ "نَفَّسَ" عَلَى رَدِيفِهِ مِنْ "أَزَالَ" وَ"كَشَفَ" وَ"فَرَّجَ". وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ: (مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلمٍ كُرْبَةً، جَعَلَ اللهُ تعالى لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُعْبَتَيْنِ مِنْ نُورٍ عَلَى الصِّرَاطِ، يَسْتَضِيءُ بِضَوْئِهِمَا عَالَمٌ، لَا يُحْصِيهِم إِلَّا رَبُّ العِزَّةِ)[1].

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٥٠٤)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/٢٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ.

وروَى ابْنُ بشكوالٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ المُبَارَكِ، أنَّهُ قالَ: خَرَجْتُ إلَى الجِهَادِ وَمَعِي فَرَسٌ، فَبَيْنَما أنَا في الطريقِ إذْ صُرِعَ الفرَسُ، فَمَرَّ بِي رَجُلٌ حَسَنُ الوجهِ طَيِّبُ الرَّائحَةِ، فقَالَ: تُحِبُّ أنْ تَرْكَبَ فَرَسَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَةِ الفَرَسِ حَتَّى انْتَهَى إلَى مؤخّرِهِ، وَقَالَ: أقْسَمْتُ عَلَيْكِ هَذهِ العِلَّةُ، بِعِزِّ عِزَّةِ اللهِ، وبعظَمِ عَظَمَةِ اللهِ، وَبِجَلَالِ جَلَالِ اللهِ، وَبِقُدْرةِ قُدْرةِ اللهِ، وَبِسُلْطَانِ سُلْطَانِ اللهِ، وَبِلَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وَبِمَا جرَى به القلمُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وبلا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا باللهِ إلَّا انْصرَفْتِ، قَالَ: فَانْتَفَضَ الفرَسُ، وَأَخَذَ الرَّجُلُ بِرِكَابِي، وَقَالَ: ارْكَبْ، فَرَكِبْتُ، وَلَحِقْتُ بِأَصْحَابِي، فَلَمَّا كانَ غَدَاةُ غَدٍ، ظَهَرَ العَدُوُّ، وَإِذَا هُوَ بَيْنَ أيْدِينا، فَقُلْتُ له: ألَسْتَ صَاحِبِي بالْأَمْسِ؟ فقَالَ: بَلَى، فَقُلْتُ: سَأَلْتُكَ باللهِ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَثَبَ قَائِمًا، فَاهْتَزَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَهُ خضراءَ، فَإذَا هُوَ الخَضِرُ عليه السلام، قَالَ ابْنُ المُبَارَكِ: فَمَا قُلْتُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ عَلَى عَلِيلٍ إلَّا شُفِيَ بِإِذْنِ اللهِ تعالى.

وذَكَرَ بَعْضُهم أَنَّه يَقُولُ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ العَظِيمُ الكريمُ، لَا إلَهَ إلَّا اللهُ العَلِيُّ العَظِيمُ، لَا إلَهَ إلَّا اللهُ رَبُّ السَمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، اللهُ رَبِّي لَا شَرِيكَ لَهُ، يَا مَنْ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا هُوَ، يَا مَنْ لَا يَعرِفُ كيفَ هُوَ إلَّا هُوَ، يَا مَنْ لَا يَعْرِفُ قُدْرَتَهُ إلَّا هُوَ، فَرِّجْ عَنِّي كُرْبَتِي، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

وأَكْمَلُ أدعيةِ الكربِ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لَا إلَهَ إلَّا اللهُ رَبُّ العرشِ العظيمِ، لَا إلَهَ إلَّا اللهُ رَبُّ السمواتِ وَرَبُّ الأرضِ وَرَبُّ العرشِ الكريمِ، لَا إلَهَ إلَّا اللهُ الحليمُ الكريمُ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العرشِ العظيمِ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أستغيثُ، اللهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إلَى نفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّه، لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ، اللهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظالمينَ، تَوَكَّلْتُ عَلَى الحَيِّ الَّذي لَا يَمُوتُ، والحمدُ للهِ الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا، وَيَقْرَأُ آيَةَ الكُرْسِيِّ وَخَوَاتِيمَ البَقَرةِ.

وقَالَ بَعْضُ الفُضَلَاءِ: مَنْ تَوَسَّلَ بِهَذِهِ السادَةِ فِي قَضَاءِ حَاجَةٍ أَوْ دَفْعِ كُرْبَةٍ، اسْتُجِيبَ

لَهُ، وَقَدْ جُرِّبَ ذَلِكَ، وَهُمْ: سعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، وَأَبُو سليمانَ الدارانيُّ، وأَبُو جابرٍ، وسليمانُ التيميُّ، ومَالِكُ بنُ دِينَارٍ، وبشرُ الرقاشيُّ، وحبيبُ العجميُّ، ويحيَى البكاءُ، وكهمسُ، ورَابعَةُ العَدَوِيَّةُ. قَالَ التتائيُّ فِي شَرْحِ الجلابِ[1] ومِنْ خَطِّهِ نَقَلْتُ: ورأيتُ فِي بَعْضِ المَجَامِيعِ، عَنِ ابْنِ عبدِ البَرِّ: أَنَّ مَنْ كَتَبَ هَذِهِ الأَسْمَاءَ وَجَعَلَهَا فِي قَبْرِ مَيِّتٍ، حَاجَّتْ عَنْهُ المَلَكَيْنِ، وَهِيَ: أويسٌ القرنيُّ، معروفٌ الكرخيُّ، أَبُو مسلم الخولانيُّ، عامرُ بنُ عبدِ قيسٍ، مسروقُ بنُ الأجدعِ، هرمُ ابنُ حيانَ، الأسودُ بنُ يزيدَ، الربيعُ بْنُ خيثمٍ، الحسنُ بنُ أبي الحسنِ البَصْرِيِّ.

وقَدْ نَظَمَ بعضُهم أسماءَ هؤلاءِ؛ لقضاءِ الحوائجِ، فقالَ:

تَوَسَّلْ إِلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ * تَرُومُ قَضَاهَا بِالْكِرَامِ ذَوِي الزُّهْدِ

أُوَيْسٌ وَمَعْرُوفٌ الرَّبِيعُ وَهَارِمٌ * يَلِي الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَامِرُ ذو الرِفْدِ

أَبُو مُسْلِمِ الْخَوْلَانِ مَسْرُوقُ أَسْوَدُ * تَمَامُ التُّقَاةِ الزَّاهِدِينَ ذَوِي الْمَجْدِ

(**مِنْ كُرَبِ الدُّنيا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيامَةِ**) مُجَازَاةً وَمُكَافَأَةً لَهُ عَلَى فِعْلِهِ بِجِنْسِهِ. فَإِنْ قِيلَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وهَذَا الحديثُ يدلُّ عَلَى أَنَّ الحسنةَ بِمِثْلِهَا؛ لأَنَّهَا قُوبِلَتْ بِتَنْفِيسِ كُرْبَةٍ وَاحِدَةٍ، ولَمْ تُقَابَلْ بِعَشْرِ كُرَبِ يومَ القيامةِ؟! فالجوابُ مِنْ وَجْهَينِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذَا مفهومُ عَدَدٍ، وَهُوَ لَا يُفِيدُ حَصْرًا، بِمَعْنَى أَنَّه يَمْنَعُ النقصَ ولَا يَمْنَعُ الزيادةَ، الثَّانِي: أَنَّ كُلَّ كُرْبَةٍ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القيامةِ تشتملُ عَلَى أهوالٍ كثيرةٍ وأحوالٍ صعبةٍ ومخاوفَ جَمَّةٍ، وَتِلْكَ الأهوالُ إِمَّا عشرةٌ أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا.

وفِي الحديثِ سِرٌّ آخرُ مَكْتُومٌ، يَظْهَرُ بِطَرِيقِ فَهْمِ اللازمِ للملزومِ، وذَلِكَ أَنَّ فيهِ وَعْدًا بطريقِ إخبارِ الصادقِ، أَنَّ مَنْ نَفَّسَ الكُرْبَةَ عَنِ المُؤْمِنِ، يُخْتَمُ لَهُ بِالخيرِ ويموتُ مسلمًا؛ لأَنَّ الكافرَ لَا يُرْحَمُ فِي الدَّارِ الآخرةِ، ولَا يُنَفَّسُ عَنْهُ مِنْ كُرَبِهَا، وخَصَّ الجزاءَ هُنَا بِكُرَبِ يومِ القيامةِ، وعَمَّمَ فِي السَّتْرِ الآتِي؛ لأَنَّ الدُّنيا لَمَّا كَانَتْ مَحَلَّ العوراتِ والمعاصِي، احْتَاجَ إِلَى السَّتْرِ فيهَا، وَأَمَّا الكُرَبُ

---

(١) هو أبو القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن الجلاب البصري، المتوفى سنة ٣٧٨هـ، صاحب كتاب "التفريع" الذي يعد من أهم كتب المالكية في الفروع.

فَهِيَ وَإِنْ كَانَتِ الدُّنيا مَحَلًّا لَهَا أَيْضًا، لَكِنْ لَا نِسْبَةَ لِكُرَبِهَا إِلَى كُرَبِ الآخِرَةِ؛ حَتَّى تُذْكَرَ مَعْهَا.

فضل التيسير على معسر

(وَمَنْ يَسَّرَ) بإبراءٍ أو بِهِبَةٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نَظِرَةٍ إِلَى مَيْسَرَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، بِأَنْ يَكُونَ وَاسِطَةً فِي ذَلِكَ **(عَلَى مُعْسِرٍ)** وَهُوَ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ مِنَ العُسْرِ، وَهُوَ الضِّيقُ وَالشِّدَّةُ، **(يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ)** أُمُورَهُ وَمَطَالِبَهُ **(فِي الدُّنيا والآخرةِ)** مُجَازَاةً لَهُ عَلَيْهِ بِجِنْسِهِ؛ لأنَّه إحسانٌ إِلَى عِيالِ اللهِ تعالى، وَأَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ أنفعُهُم لِعِيَالِهِ.

وفي الحديثِ: (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عنه، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ)(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: (وَقَاهُ اللهُ مِنْ فيحِ جهَنَّمَ)(٢)، وَفِي حَدِيثٍ حَسَنٍ: (مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَا عَنْهُ، كَانَ فِي ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ القِيَامَةِ)(٣)، وَصَحَّ: (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يوم مِثْلُهُ صدقةٌ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ أَجَلُ الدَّيْنِ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَهُ كُلَّ يَوْمٍ مثلاه صَدَقَةٌ)(٤).

وروَى الشَّيْخَانِ: (أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاه: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا، فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَقِيَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- فتجاوزَ عَنْهُ)(٥)، وَفِي أُخْرَى لِلنَّسَائِيِّ: (... فَإِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى، قُلْتُ لَهُ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ، وَاتْرُكْ مَا تَعَسَّرَ، وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللهَ أن يَتَجَاوَزَ عَنَّا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ)(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٢١) [مسند المكيين- حديث أبي اليسر]، مسلمٌ (٣٠٠٦) [كتاب الزهد والرقائق]، وغيرهما من حديث أبي اليسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفي الباب عن جماعة.

(٢) أخرجها أحمد (٣٠١٥) [مسند عبدالله بن العباس]، وغيره من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: ابن أبي شيبة (٢٣٠١٧) [كتاب البيوع والأقضية- في ثواب إنظار المعسر والرفق به]، وأحمد (٢٢٥٥٩) [تتمة مسند الأنصار- حديث أبي قتادة]، والدارمي (٢٧٩٠) [كتاب البيوع- باب في إنظار المعسر]، وغيرهم من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. والحديث في صحيح مسلم (١٥٦٣) [كتاب المساقاة- باب فضل إنظار المعسر]، وغيره بلفظ: (مَن سَرَّه أن يُنجيه الله مِن كرب يوم القيامة، فلينفِّس عن مُعْسِرٍ، أو يضع عنه).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٠٤٦) [تتمة مسند الأنصار- حديث بريدة الأسلمي]، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٨١٠)، وأبو يعلى في معجمه (٢٥١) والحاكم (٢/٢٩) [كتاب البيوع]، وغيرهم من حديث بريدة الأسلمي.

(٥) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٤٨٠) [كتاب أحاديث الأنبياء- باب حديث الغار]، ومسلمٌ (١٥٦٢) [كتاب المساقاة- باب فضل إنظار المعسر]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٦) سنن النسائي (٤٦٩٤) [كتاب البيوع- حسن المعاملة والرفق في المطالبة]، وغيره.

أَخْرَجَ ابنُ أَبِي الدُّنيا، أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَرَادَ أَنْ تُسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ، وَتُكْشَفَ كُرْبَتُهُ، فَلْيُفَرِّجْ عَنِ المُعْسِرِ)(١).

تَنْبِيهٌ: وَرَدَ فِي الحديثِ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ)(٢). وَنَظَمَهَا بَعْضُهُم، فَقَالَ:

إِمَامٌ مُحِبٌّ نَاشِئٌ مُتَصَدِّقٌ * مُصَلٍّ وَبَاكٍ خَائِفٌ سَطْوَةَ الْبَاسِ

يُظِلُّهُمُ اللهُ العَظِيمُ بِظِلِّهِ * إِذَا كَانَ يَوْمَ الحَشْرِ لَا ظِلَّ لِلنَّاسِ

وَجَاءَتْ أَخبارٌ بِالزيادةِ عَلَى ذَلِكَ: كَمَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، وَمَنْ أَوْفَى دَيْنَ الغَارِمِ، وَمَنْ أَعَانَ مُكَاتِبًا، وَمَنْ قَتَلَهُ أَهْلُ الكِتَابِ عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَنْ أَعَادَ صَلَاتَهُ فِي جَمَاعَةٍ، وَمَنْ مَاتَ غَرِيقًا فِي البَحْرِ، وَمَنْ طَلَبَ عِلْمًا فَأَدْرَكَهُ المَوْتُ دُونَهُ، ومسبغُ الوُضُوءِ فِي وَقْتِ البَرْدِ، وَمَنِ اشْتَرَى أَمَةً فَأَدَّبَهَا وَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثم أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَ بِهَا، وَمَنِ انْفَرَدَ فِي عَصْرِهِ بِحِفْظِ السُّنَّةِ، والإمامُ المُؤَذِّنُ احْتِسَابًا، وَمَنْ أَخْفَى عَمَلَهُ الخَيِّرَ، وَإِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِ فَرِحَ وَاسْتَبْشَرَ بِتَوْفِيقِ اللهِ لَهُ، وَمَنْ جَامَعَ يَوْمَ الجُمُعَةِ مَنْ يَحِلُّ جِمَاعُهَا وَاغْتَسَلَ وَرَاحَ لِلصَّلَاةِ، وَمَنْ ذَهَبَ مَاشِيًا إِلَى صَلَاةِ الجُمُعَةِ، وَمَنْ عَادَ عَلَيْهِ سِلَاحُهُ فِي الجِهَادِ فَقَتَلَهُ، وَمَنْ أَعْجَلَهُ فِعْلُ الخَيْرِ عَنْ لِبْسِ نَعْلَيْهِ، وَالمَاشِي لِيُشَيِّعَ الجَنَازَةَ، وَمَنْ شَيَّعَ جَنَازَةً لِاسْتِحْيَائِهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَالمُجَاهِدُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وَمُسْتَمِعُ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، وَالقَارِئُ فِي المُصْحَفِ، وَمَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ، أَيْ: تَفَهَّمَهُ وَتَدَبَّرَهُ، والعبدُ المُؤَدِّي لِحَقِّ اللهِ وحقِّ مَوَالِيهِ، وَمَنْ جَدَّدَ الوضوءَ عَلَى الوضوءِ مِنْ غَيْرِ نقضٍ لِلأَوَّلِ،

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٤٩) [مسند عبدالله بن عمرو]، وعبد ابن حميد (٨٢٦)، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (٢٨)، وفي اصطناع المعروف (١٦٠) وغيرهم من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٦٠) [كتاب الأذان- باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة]، ومسلمٌ (١٠٣١) [كتاب الزكاة- باب فضل إخفاء الصدقة]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

وَأَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ، والمُتَصَدِّقَةُ عَلَى زَوْجِهَا، وَمَنْ صَدَقَ فِي تِجَارَتِهِ، وَمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ القُرْآنَ فِي صِغَرِهِ، وَيَتْلُوهُ فِي كِبَرِهِ، وَرَجُلٌ يُرَاعِي الشَّمْسَ لِمَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، وَرَجُلٌ إِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِعِلْمٍ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَنْ عِلْمٍ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَوْفَاهُ الحَافِظُ السَّخَاوِيُّ، فِي كِتَابِهِ المُسَمَّى بِـ "الخِصَالِ المُوجِبَةِ لِلظِّلَالِ"[1]، حَيْثُ نَقَلَ فِيهِ عَنْ شَيْخِهِ الحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ، ثلاثَ سبعاتٍ زِيَادَةً عَلَى السبعةِ المَذْكُورَةِ، وَأَكْمَلَهَا هُوَ اثنينِ وتسعينَ، بتقدمِ التَّاءِ عَلَى السِّينِ.

ولَا يبعدُ أَنْ يَدْخُلَ فِي قولِهِ: "وَمَنْ يَسَّرَ..." إلخ التيسيرُ بالعلمِ، مِثْلَ: أَنْ يقعَ فِي مسألةٍ يَحْسُنُ التخلصُ مِنْهَا شرعًا، فَيُبَيِّنُ لَهُ حُكمَها، وَيَهْدِيهِ إِلَى الصوابِ فِيهَا، فينشرحُ صَدْرُهُ لِذَلِكَ بِتَخليصِهِ مِنْهَا.

فضل ستر المسلم

(**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا**)، أَيْ: سَتَرَ عَوْرَتَهُ الحِسِّيَّةَ، بِأَنْ يَرَى عَوْرَةَ شَخْصٍ باديةً؛ لِعَدَمِ وُجُودِ مَا يَسْتُرُهَا بِهِ، فَيُعْطِيهِ مَا يَسْتُرُهَا بِهِ، وَالْمَعْنَوِيَّةَ: بإعانتِهِ على سَتْرِ دينِهِ كَأَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا لِنِكَاحٍ فَيَتَوَسَّلُ لَهُ فِي التَّزْوِيجِ، أَوِ الكَسْبِ فَيَتَوَسَّلُ لَهُ فِي بِضَاعَةٍ يَتَّجِرُ فِيهَا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: "وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا" أَيْ: سَتَرَ بَدَنَهُ بِاللِّبَاسِ أَوْ عيوبَهُ بِعَدَمِ الغِيبَةِ، والذَّبِّ عَنْ معايبِهِ.

قالَ ابنُ فرجٍ الأندلسيُّ، والمُرَادُ: السَّتْرُ عَلَى ذَوِي الهَيئَاتِ وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ لَيْسَ مَعْرُوفًا بِالأَذَى وَالفَسَادِ، وأَمَّا المعروفُ بِذَلِكَ، فَيُسْتَحَبُّ أَنْ لَا يُسْتَرَ عَلَيْهِ، بَلْ تُرْفَعُ قضيتُهُ إِلَى وَلِيِّ الأَمْرِ إِنْ لَمْ يُخَفْ مِنْ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ؛ لأَنَّ السَّتْرَ عَلَى هَذَا يُطْمِعُهُ فِي الإيذاءِ والفسادِ وانتهاكِ الحرماتِ، أَوْ جَسَارَةِ غَيْرِهِ عَلَى مِثْلِ فِعْلِهِ.

هَذَا كُلُّه فِي سَتْرِ مَعْصِيَةٍ وَقَعَتْ وانْقَضَتْ، أَمَّا معصيةٌ رَآهُ عَلَيْهَا وَهُوَ بعدُ مُتَلَبِّسٌ بِهَا، فتجبُ المبادرةُ بإنكارِها عَلَيْهِ وَمَنْعِهِ منْهَا، عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ، ولَا يَحِلُّ تَأْخِيرُهَا، فَإِنْ عَجَزَ لَزِمَهُ رَفْعُهَا إِلَى وَلِيِّ الأَمْرِ إِذَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَى ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ.

---

(١) وقد اعتنى كثير من العلماء بكتاب السخاوي، ومنهم العلامة الأزهري محمد بن عبد الباقي الزرقاني حيث اختصره في رسالة بعنوان "منتقى الخصال الموجبة للظلال"، سبق أن أصدرتها كشيدة للنشر والتوزيع ضمن سلسلة "تراث الأزهريين". وللحافظ السيوطي أيضا: «تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش»، ومختصره «بزوغ الهلال فى الخصال الموجبة للظلال»، وقد ضمَّنه جزء الحافظ ابن حجرٍ وخرج فيه هذه الأحاديث، والله أعلم.

قَالَ: وأمَّا جرْحُهُ الرُّوَاةَ والشُّهودَ والأمناءَ عَلَى الصدقاتِ والأوقافِ والأيتامِ ونحوهم، فيجبُ جرحُهم عِنْدَ الحاجةِ، ولَا يَحِلُّ السترُ عَلَيْهِمْ إِذَا رَأَى مِنْهم مَا يَقْدَحُ فِي أَهْلِيَّتِهِمْ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الغِيبَةِ المُحَرَّمَةِ، بَلْ مِنَ النَّصيحةِ الواجبةِ، وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ.

(**سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**)، بِأَنْ لَا يعاقبَهُ عَلَى مَا فرطَ مِنْهُ، وَقَالَ ﷺ: (مَنْ رأَى عَوْرَةً فَسَتَرَهَا، فَكَأَنَّمَا أَحْيَا مَوْءُودَةً)، رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ، زَادَ الحَاكِمُ: (مِنْ قَبْرِهَا) وَقَالَ: صَحِيحُ الإِسْنَادِ[1]، وقَالَ ﷺ: (لَا يَرَى امْرُؤٌ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً، فَيَسْتُرُهَا عَلَيْهِ، إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ)، رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ[2].

(**وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ**) الوَاوُ لِلاسْتِئْنَافِ، وَمَا عَدَا هَذِهِ وَالأَخِيرةِ لِلْعَطْفِ، وَهُوَ تَذْيِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ؛ لِشُمُولِهِ لِدَفْعِ المَضَرَّةِ، وَهُوَ مَا فِي الأَوَّلَيْنِ، وَجَلْبِ النَّفْعِ، وَهُوَ مَا فِي الثَّالِثِ، وَلِهَذَا عَدَلَ بِهِ عَنْ سِيَاقِ مَا قَبْلَهُ مِنَ الشَّرْطِيَّةِ إِلَى الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ؛ لِيُقَوِّيَ حُكْمَها ببناءِ الخَبَرِ فِيهَا عَلَى المُبْتَدَأ.

(**مَا كَانَ الْعَبْدُ**)، أَيْ: مُدَّةَ دَوَامِ كَوْنِهِ (**فِي عَوْنِ أَخِيهِ**) بِقَلْبِهِ أَوْ بَدَنِهِ أَوْ بِهِمَا، أَوْ مَالٍ أَوْ غَيْرِهَا، كَجَاهِهِ، كَمَا إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى النِّكَاحِ فَيُزَوِّجُهُ، أَوْ إِلَى مَالٍ فَيَشْتَرِي لَهُ بِضَاعَةً يَتَكَسَّبُ فِيهَا؛ لأَنَّ المجازاةَ مِنْ جنسِ العملِ.

وتَأَمَّلْ قِصَّةَ مُوسَى، لَمَّا خَرَجَ لِحَاجَةِ أَهْلِهِ، كَلَّمَهُ اللهُ فِي عَيْنِ حَاجَتِهِ، وَهِيَ النَّارُ، وَسَبَبُهُ أَنَّ مُوسَى -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَمَّا قَضَى الأَجَلَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ شُعَيْبٍ، اسْتَأْذَنَهُ فِي الرُّجُوعِ إِلَى مِصْرَ لِزِيَارَةِ وَالِدَتِهِ وأَخِيهِ هَارُونَ، فَخَرَجَ بِأَهْلِهِ وَأَخَذَ عَلَى غَيْرِ الطَرِيقِ، مخافةَ مُلُوكِ الشَّامِ، فَوَلَدَتِ امْرَأَتُهُ فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ، وَكَانَتْ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ، فَأَلْجَأَهُ السَّيْرُ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الغَرْبِيِّ الأَيْمَنِ، فقَدَحَ زندَهُ فلم يُورِهِ فبيْنَما هو مِنْ أيلةَ إِذْ أَبْصَرَ ناراً مِنْ بُعْدٍ عَنْ يسارِ الطريقِ مِنْ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٣٢) [مسند الشاميين]، وأبو داود (٤٨٩١) [كتاب الأدب- باب في السَّترِ على المسلم]، والنسائي في الكبرى (٧٢٤١) [كتاب الرجم- الترغيب في ستر العورة]، والحاكم (٣٨٤/٤)، وغيرهم من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٤٨٠) والصغير (١١١٨)، وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الهيثمي في المجمع (٢٤٦/٦): وإسنادها ضعيف.

جانبِ الطورِ، قالَ السديُّ: ظَنَّ أنَّها نارٌ مِنْ نيرانِ الرُّعاةِ فَأَتَاهَا، فَإِذَا هِيَ شجرةٌ خضراءُ، النارُ مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا، تَتَّقِدُ بيضاءَ كأضوءِ ما يكونُ، فَدَنا مِنْهَا، فَسَمِعَ تسبيحَ الملائكةِ، وَرَأَى نورًا عظيمًا، فظنَّ أنَّه نارٌ، فأخذَ مِنَ الحشيشِ اليابسِ؛ لِيَقْتَبِسَ مِنْ لَهَبِهَا، فَمَالَتْ إِلَيْهِ كَأَنَّهَا تُرِيدُهُ، فَتَأَخَّرَ عَنْهَا وهَابَهَا، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ بِأَسْرَعَ مِنْ خمودِها، كأنَّها لَمْ تَكُنْ، فَرَفَعَ رأسَه إِلَى فروعِها، فَإِذَا خضرتُها ساقطةٌ مِنَ السماءِ. وكذلكَ الخَضِرُ بَعَثَهُ أميرُ الجيشِ الَّذي كَانَ فيه يرتادُ لَهُ ماءً، وكانُوا قَدْ فَقَدُوا الماءَ، فوقَعَ بعينِ الحياةِ، فشربَ مِنْهَا، فعاشَ إِلَى الآنَ، وهُوَ لَا يَعْرِفُ مَا خصَّ اللهُ بِهِ شَارِبَ ذَلِكَ الماءِ مِنَ الحياةِ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّ مريمَ مَرَّتْ فِي طَلَبِهَا لِعِيسَى بِحَاكَةٍ[1]، فَطَلَبَتِ الطريقَ، فأرشَدُوهَا غيرَ الطريقِ، فقالَتْ: اللهُمَّ انْزِعْ مِنْ كَسْبِهِم البركةَ، وَأَمِتْهُم فقراءَ، وَحَقِّرْهُم فِي أَعْيُنِ الناسِ؛ فَاسْتُجِيبَ دُعَاؤُهَا.

وقَدْ وَرَدَ فِي الحديثِ: (مَنْ سَعَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ المُسْلِمِ، قُضِيَتْ لَهُ أَوْ لَمْ تُقْضَ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَكُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ)[2].

وبَعَثَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ جماعةً مِنْ أصحابه فِي حاجةٍ لِرَجُلٍ، وقالَ لَهُم: مُرُّوا بِثَابِتٍ البنانيِّ، فَخُذُوهُ مَعَكُم، فَأَتَوا ثابتًا، فقالَ: أَنَا مُعْتَكِفٌ، فَرَجَعُوا إِلَى الحَسَنِ، فَأَخْبَرُوهُ، فقالَ: قُولُوا لَهُ: يَا أَعْمَشُ، مَا تَعْلَمُ أَنَّ مَشْيَكَ فِي حاجةِ أَخِيكَ المُسْلِمِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حَجَّةٍ بَعْدَ حَجَّةٍ، فَرَجَعُوا إِلَى ثَابِتٍ، فَأَخْبَرُوهُ، فَتَرَكَ اعْتِكَافَهُ وَذَهَبَ مَعَهُم.

فضل طلب العلم

(وَمَنْ سَلَكَ)، أَيْ: دَخَلَ **(طَرِيقًا)** فعيلًا مِنَ "الطَّرْقِ" لأنَّ الأَرْجُلَ ونَحْوَهَا تَطْرُقُهُ، والطريقُ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وَالجَمْعُ: أطرقٌ وَطُرُقٌ، اهـ. لَكِنَّ جَمْعَهُ عَلَى "أَطْرُقٍ" مخصوصٌ بحالةِ التأنيثِ، كَمَا أنَّ جمعَه عَلَى "أَفْعِلَة" مخصوصٌ بحالةِ التذكيرِ، وأَمَّا جمعُه عَلَى "فُعُل" فَهُوَ فِي الحالتين، والتنوينُ فيه لِلشيوعِ، إِذِ النكرةُ فِي الإثباتِ تفيدُ العمومَ، كَقولِه تَعَالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤].

(١) جمع "حائك" مَن حرفته الحياكة، وهي نَسْج الثِّياب ونحوها، يجمع على: حائكون وحاكة وحَوَكة، مؤنثه: حائكة، وجمعه: حائكات وحوائك.

(٢) أخرجه ابن شجاع في فوائده (٣١) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**يَلْتَمِسُ**)، أيْ: يَطْلُبُ (**فِيهِ**)، أيْ: في غايته أوْ بسببه، أوْ فيه حقيقةً، لَكِنَّهُ نادرٌ جدًا، فَلَا يُحْمَلُ الحديثُ عَلَيْه، (**عِلْمًا**) شرعيًّا، بأيِّ سببٍ كانَ مِنَ التعلم والتعليم والتصنيفِ، وقوله "علمًا" حَصَّلَ أوْ لم يُحَصِّلْ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنيَّاتِ، ونَكَّرَهُ لِيتناولَ أنواعَ العلومِ الدينيَّة، ويندرجُ فيه القليلُ والكثيرُ.

(**سَهَّلَ اللهُ بِهِ**)، أَيْ: بِذَلِكَ السلوكِ، عَلَى حَدِّ ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، أَي العدلُ، (**طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**) يُحْتَمَلُ فِي الدُّنيا بأنْ يُوَفَّقَ لِلأعمالِ الصالحةِ، وَيُحْتَمَلُ فِي الآخرةِ بِأَنْ يُجَازَى عَلَى طلبِ العلمِ وتحصيلِه بتسهيلِ دخولِ الجنةِ، بِحَيْثُ لَا يَرَى مِنْ مَشَاقِّ المواقفِ الشاقَّةِ مِنَ العقباتِ، والجوازِ عَلَى الصراطِ، مَا يَرَاهُ غيرُه، وذَلِكَ بِأَنْ يُسَهَّلَ عَلَيْهِ الموقفُ فِي الحشرِ والجوازُ عَلَى الصراطِ، وهَذَا أقربُ لِظاهرِ الحديثِ.

وقَدْ رَوَى أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ: (مَنْ أَحَبَّ أنْ يَنْظُرَ إِلَى عُتَقَاءِ اللهِ مِنَ النَّارِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى المُتعَلِّمينَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه، مَا مِنْ مُتَعَلِّمٍ يَخْتَلِفُ إِلَى بَابِ عَالِمٍ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ عِبَادَةَ سَنَةٍ، وَيُبْنَى لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ مَدِينَةٌ فِي الجَنَّةِ، ويمشي على الأرضِ والأرضُ تَستغفرُ له، ويُمسِي ويُصبِحُ مغفوراً له)[1].

(**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ**) هُمُ الرِّجالُ فقَطْ، أَوْ مَعَ النِّساءِ، عَلَى مَا مَرَّ فيه مِنَ الخلافِ، وَيُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، مِثْلَ: رَهْطٍ وَنَفرٍ، قالَ اللهُ تَعالَى ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وقالَ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، واسْتُفِيدَ مِنْ تَنْكيرِهِ أَنَّ كُلَّ قومٍ اجْتَمَعُوا لِمَا ذُكِرَ، حَصَلَ لَهُم الأجرُ مِنْ غَيْرِ اشتراطِ وَصْفٍ خَاصٍّ فِيهِم، مِنْ عِلْمٍ أَوْ صلاحٍ أَوْ زُهْدٍ، وَكَرِهَ الإمامُ مالكٌ الاجتماعَ عَلَى القراءةِ والذِّكْرِ، إِلَّا أنْ يَكُونَ كُلُّ واحدٍ يقرأُ لِنَفْسِهِ عَلَى انفرادِه أَوْ يَذْكُرُ، وعَلَيْهِ حَمَلَ الحديثَ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الأحاديثِ الدالَّةِ عَلَى الاجتماعِ عَلَى التلاوةِ والذِّكْرِ.

---

(١) أخرجه السمرقندي في تنبيه الغافلين (٦٦٧)، وسئل عنه الهيتمي ضمن مجموعة أحاديث في الفتاوى الحديثية (ص ١٢٤) فقال: "كلها كذب موضوعة لا يحمل رواية شيء منها إلا لبيان أنها كذب مفترى على النبي ﷺ كما أفاد ذلك الحافظ السيوطي شكر الله سعيه".

(**فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ**)، مِمَّا بُنِيَ لِنَيْلِ ثَوَابِه وَرِضَائِه، مِنْ نَحْوِ مسجدٍ ورباطٍ ومدرسةٍ، وقولُه: "مِنْ بُيُوتِ اللهِ" ليسَ قيدًا، إذْ غيرُها كهِيَ، لَكِنَّهُ خرَجَ مخْرَجَ الغالبِ إظهارًا لشرفِها؛ إذِ العبادةُ فِيهَا أفضلُ مِنْ غيرِها.

(**يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَه بَيْنَهُم**)، يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ ذلكَ جُمْلَةً وَاحدَةً، كَمَا هُوَ الواقعُ فِي غالبِ البلادِ، ويُحْتَمَلُ أنْ يَقْرَأَ كُلُّ واحدٍ منفردًا شيئًا مِنْهُ، وَعَلَى هَذَا حَمَلَ إِمَامُنَا مَالكٌ الحديثَ؛ لِكَرَاهَةِ الاجتماعِ عَلَى القراءةِ جُمْلَةً واحدةً. وَأَصْلُ الدراسةِ: التَّعَهُّدُ لِلشيءِ، تَدَارَسُوا القرآنَ، أيْ اقْرَؤُوهُ وَتَعَهَّدُوهُ، وَقَوْلُه: "يَتْلُونَ...إلخ"، حَالٌ مِنْ "قوم" لِتَخْصِيصِه.

(**إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ**)، فَعِيلَة مِنَ "السُّكُون"، والمرادُ بِهَا هُنَا الوقارُ والطمأنينةُ وَكُلُّ مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ القَلْبُ وَيَسْكُنُ، وأيضًا اسمُ مَلَكٍ يَنزلُ لِتَسْكِينِ الرُّعْبِ والخوفِ، إِذْ بِذِكْرِهِ -تَعَالَى- تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ، لَا ضِدَّ الحركةِ، وَقِيلَ: هِيَ الرحمةُ، واخْتَارَهُ القَاضِي عِيَاضٌ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِعَطْفِ الرحمةِ عَلَيْهِ المُقْتَضِي لِلْمُغَايَرَةِ.

وأَمَّا السَّكِينَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، فقالَ ابنُ عَطِيَّةَ: قالَ عليُّ بنُ أَبِي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّهَا رِيحٌ لَهَا وَجْهٌ كَوَجْهِ الإنسانِ. ورُوِي أَنَّهَا رِيحٌ خجوجٌ[1] سريعةُ المرورِ، والخجوجُ كَمَا قالَ الجَوْهَرِيُّ: هِيَ الَّتِي تَلْتَوِي فِي هبوبِها. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: السَّكِينَةُ شَيْءٌ يُشْبِهُ الهِرَّةَ، لَهَا رأسٌ كَرَأْسِ الهِرَّةِ، وجناحانِ وذنبٌ، وقيلَ لهُ عينانِ لَهُمَا شعاعٌ وجناحانِ مِنْ زُمُرُّدٍ وَزَبَرْجَدٍ. وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ عنْ بعضِ علماءِ بَنِي إسرائيلَ: إِنَّهَا رأسُ هِرَّةٍ مَيِّتَةٍ كانت إِذَا صَرَخَتْ فِي التَّابُوتِ بِصُرَاخِ الهِرِّ أَيْقَنُوا بِالنَّصْرِ، وَقِيلَ: صورةُ هِرَّةٍ مَعَ بَنِي إسرائيلَ إِذَا ظَهَرَتِ انْهَزَمَتْ أَعْدَاؤُهُم.

وقالَ ابنُ عباسٍ والسديُّ: إِنَّهَا طَشْتٌ مِنْ ذَهَبٍ مِنَ الجَنَّةِ، كانَ يُغْسَلُ فيه قلوبُ الأنبياءِ. وقِيلَ: إِنَّهَا رُوحٌ مِنَ اللهِ تتكلمُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شيءٍ أخبرتْهم بِبَيَانِ مَا يُرِيدُونَ. وقالَ عطاءُ بنُ أَبِي رَبَاحٍ: هِيَ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الآياتِ فَيَسْكُنُونَ إِلَيْهَا. وقالَ النَّوَوِيُّ: هِيَ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، فِيهِ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٤/٤٦٨)، وذكره ابن عطية في تفسيره (١/٣٣٣).

طمأنينةٌ ورحمةٌ. وقالَ السُّيُوطِيُّ: إنَّها اسمُ مَلَكٍ مخصوصٍ، وقِيلَ: هِيَ شيءٌ كانَ يُلْقِي مُوسَى فِيهِ الألواحَ والعِصيَّ، وقِيلَ غَيْرُ ذلكَ.

(**وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ**)، أيْ علَتْهم وسَتَرَتْهُم وَشَمَلَتْهُم وَغَطَّتْهُم مِنْ كُلِّ جهةٍ، (**وَحَفَّتْهُمُ الملائكةُ**)، أيْ أَحْدَقَتْ وَطَافَتْ بِهِم، ورَفْرَفَتْ عَلَيْهِم، وَأَحَاطَتْ بِهِم مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ المُنَزَّلَةُ لِاستماعِ الذِّكْرِ؛ تعظيمًا لَهُ وإكرامًا للذاكرينَ، عَلَى غايةٍ مِنَ القُرْبِ والمُلَاصَقَةِ بِهِم، بحيثُ لَمْ يَدَعُوا للشيطانِ فُرْجَةً يَتَوصَّلُ مِنْهَا لَهُم، وَمِنْهُ "حَافَّةُ الطريقِ" أيْ جَانِبُهُ، وقولُه تَعَالَى: ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، أيْ طَائِفِينَ بِهِ، وأمَّا قولُه: ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، أيْ لطيفًا، وقِيلَ: بارًّا.

(**وَذَكَرَهُمُ اللهُ**)، أيْ: أَثْنَى عَلَيْهِم أَوْ أَثْبَتَهُم، كَمَا يقولُ الإنسانُ لأَخِيهِ: اذْكُرْنِي فِي كِتَابِكَ، أَوْ أَثَابَهُم، كَمَا قِيلَ بِهِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] اذْكُرُونِي بِالطاعةِ أَذْكُرْكُم بالجزاءِ، والمُتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ الأَوَّلُ، (**فِيمَنْ عِنْدَهُ**) مِنَ الأنبياءِ والملائكةِ الكروبيِّينَ والروحانيِّينَ؛ مُبَاهَاةً بِهِم، لِقولِه -تَعَالَى- فِي الحديثِ القدسيِّ: (مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيرٍ مِنْهُ)[1]، فَالْعِنْدِيَّةُ هُنَا عِنْدِيَّةُ شَرَفٍ وَمَكَانَةٍ، لَا عِنْدِيَّةَ مَكَانٍ؛ لِاسْتِحَالَتِهَا عَلَيْهِ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كبيرًا، وقَدِ اجْتَمَعَ مَالِكُ بنُ دِينَارٍ[2] بالبهلولِ، فقالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الأولياءِ، فقالَ لَهُ البهلولُ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَلْفِظُونَ لِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ لَفْظَةً، ولَا يَنْظُرُونَ إِلَى غَيْرِهِ نَظْرَةً.

(**وَمَنْ أَبْطَأَ**) مِنَ البُطْءِ، نَقِيضُ السُّرْعَةِ، أيْ: مَنْ قَصُرَ (**بِهِ عَمَلُهُ**) يَعْنِي: مَنْ أَخَّرَهُ عَمَلُهُ المُسِيءُ أَوْ تَفْرِيطُهُ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦٥٠) [مسند أبي هريرة]، والبزار (٨٢٧٤)، وابن حبَّان (٣٢٨) [كتاب البر والإحسان]، والطبرانيُّ في "الدعاء" (١٨٦٧) [باب ما جاء في فضل ذكر الله عز وجل] وغيرهم من حديث أبي هريرة بإسنادٍ صحيح.

(٢) أبو يحيى مالك بن دينار البصري، وهو من موالي بني أسامة بن لؤي القرشي، كان عالما زاهدا كثير الورع قنوعا لا يأكل إلا من كسبه، له مناقب عديدة وآثار شهيرة، توفي سنة (١٣١). تاريخ دمشق (٥٦/٣٩٣)، وفيات الأعيان (٤/١٣٩)

(**لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**)، أيْ لَمْ يَنْفَعْهُ شَرَفُ نَسَبِه، وَلَمْ يَنْجَبِرْ نَقْصُهُ به، فَلا يُلْحِقُهُ بِرُتَبِ أَصْحَابِ الأعمالِ الكاملةِ؛ لأنَّ المسارعةَ إِلَى السعادةِ إِنَّمَا هِيَ بالأعمالِ لَا بالأنسابِ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فَأَخْبَرَ -تَعَالَى- أَنَّ الفضلَ عِنْدَهُ بِالتُّقَى دُونَ النَّسَبِ، وَقَوْلِهِ ﷺ: (ائتوني بأعمالِكم لَا تأتوني بأنسابِكم". وأنشدَ الحريريُّ:

ومَا الفَخْرُ بالعَظْمِ الرَّمِيمِ وإِنَّمَا * فَخَارُ الَّذِي يَبْغِي الفَخَارَ بنَفْسِه

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، يدلُّ عَلَى أَنَّ شرفَ النَّسَبِ ينفعُ، فإِنَّ المفسِّرينَ فسَّرُوهُ بِأَنَّ ذُرِّيَّاتِ المؤمنينَ، صغارًا كانُوا أَوْ كِبَارًا يَلحقونَ بآبائِهم فِي المراتبِ، مِنْ غيرِ أَنْ ينقصَ مِنْ مراتبِهم شيءٌ، وفِي الحديثِ: (إِنَّ اللهَ يرفعُ ذريةَ المؤمنِ فِي درجتِه، وإِنْ كانُوا دُونَه؛ لِتَقَرَّ بِهِم عينُهُ)[1]، اهـ. ويُؤْخَذُ منْهُ أَنَّ الأبَ إِذَا كانَ دُونَ وَلَدِه فِي الدرجةِ، أَنَّه يُرْفَعُ فِي درجةِ وَلَدِه؛ لِلْعِلَّةِ المَذْكُورَةِ، فَمَا وَجْهُ التوفيقِ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا فِي الحديثِ هُنَا؟!

فالجوابُ: أَنَّ المذكورَ فِي الآيةِ الشريفةِ يكونُ فِي الجَنَّةِ، والحديثُ محمولٌ عَلَى الصراطِ، وفِي لفظِ الإبطاءِ والإسراعِ إشارةٌ إِلَيْه، ويؤيدُه مَا رُوِيَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: (يكونُ رَجُلٌ هُوَ آخِرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَى الصراطِ فَيَلْتَفِتُ فَلَا يَرَى وَرَاءَهُ أَحَدًا، فيقولُ: يَا رَبِّ، أَبْطَأْتَ بِي، فَيُنَادِيهِ: يَا عَبْدِي، عَمَلُكَ)[2]، أَوْ أَنَّ مَا فِي الحديثِ هُنَا محمولٌ عَلَى شَرَفِ النَّسَبِ مِنْ جِهَةِ الدُّنيا.

(**رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِهَذَا اللفظِ**)، وَهُوَ حديثٌ جليلٌ جامعٌ لِكثيرٍ مِنَ الفَوَائِدِ.

***

(١) أخرجه عبدالرزاق في التفسير (٣٠٠٩)، وابن أبي الدنيا في النفقة على العيال (٣٦١)، والبزار (كشف الأستار ٢٢٦٠) وابن جرير في التفسير (٢١/٥٧٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠٧٥)، والحاكم (٢/٤٦٨) [كتاب التفسير]، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) أخرجه مطولا: ابن أبي شيبة (٣٧٦٣٧) [كتاب الفتن- ما ذكر في فتنة الدجال]، والطبراني في الكبير (٩/رقم ٩٧٦١)، والحاكم (٤/٤٩٧) [كتاب الفتن والملاحم]، وغيرهم عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الحديثُ السابعُ والثلاثونَ

٣٧. عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ -فيما يَرويه عنْ ربِّه تباركَ وتعالى- قالَ: إنَّ الله كَتَبَ الحسناتِ والسيئاتِ، ثم بيَّنَ ذَلكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسنَةٍ فلمْ يعملْها كَتبَها اللهُ عِندَه حسنةً كَامِلةً، وإنْ هَمَّ بِها فَعمِلَها كتبَها الله عِندَه عَشْرَ حسناتٍ إلى سبعِمائةِ ضِعفٍ إلى أضْعافٍ كثيرةٍ، وإنْ همَّ بِسيِّئةٍ فلمْ يَعمَلْها كَتبَها اللهُ عِندَه حَسَنةً كامِلَةً، وإنْ همَّ بِها فَعمِلَها كتبَها اللهُ سَيِّئةً واحِدةً. رواه البخاريُّ ومُسلِمٌ في صحيحَيْهِما بهذه الحُروف.

فانظُرْ يا أخي، وفَّقنا الله وإياكَ إلى عَظيمِ لُطْفِ الله تعالى، وتأمَّلْ هذه الألفاظَ، وقولُه: (عِندَه) إشارةٌ إلى الاعتناءِ بها، وقولُه: (كاملةً) للتأكيدِ وشِدَّةِ الاعْتناءِ بها، وقالَ في السَّيِّئةِ التي هَمَّ بِها ثمَّ تركَها: (كتبَها الله عِندَه حسَنةً كامِلةً)، فأكَّدَها بِـ "كامِلة"، (وإنْ عَملها كَتبَها سيِّئةً واحِدةً) فأكَّد تقليلَها بِـ"واحِدَة"، ولم يؤكِّدْها بـ"كاملة"، فَلِلهِ الحمدُ والمِنَّةُ، سُبحانَهُ لا نُحصي ثناءً عليه، وبالله التوفيقُ.

(عَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيه عَنْ رَبِّه)، ظَاهِرُهُ أنَّه مِنَ الأحاديثِ القدسيَّةِ المنسوبةِ إِلَى كلامِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- نَحْوَ: (أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)[1]، وَيُحْتَمَلُ أنَّ المرادَ فِيمَا يَحْكِيهِ عَنْ فَضْلِ رَبِّهِ أَوْ حكمه أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (رقم ٧٤٠٥) [كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾]، ومسلمٌ (٢٦٧٥) [كتاب الذكر والدعاء والتوبة- باب الحث على ذكر الله تعالى]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**تَبَارَكَ**) تَفَاعَلَ، فِعْلٌ مَاضٍ لَا يَتَصَرَّفُ وَلَا يَجِيءُ مِنْهُ مُضَارِعٌ وَلَا اسْمُ فَاعِلٍ وَلَا مَصْدَرٌ، وَمَعْنَاهُ: تَعَاظَمَ وَتَقَدَّسَ، وَهُوَ جامعٌ لِأنواعِ الخيرِ، ومخصوصٌ بِالبارئِ كـ"سُبْحَانَ"، (**وَتَعَالَى**) أيْ: تَنزَّهَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِعَلِيٍّ كَمَالِهِ الأَقْدَسِ.

(**قَالَ: إِنَّ اللهَ**) تعالى (**كَتَبَ**)، مِنَ الكتابةِ، وهِيَ تَنْقِيشُ مَا فِي الذِّهْنِ مِنَ العلومِ بِالخَطِّ بِوَاسِطَةِ تركيبِ الحروفِ، (**الْحَسَنَاتِ**)، أيْ مَا يتعلقُ به الثوابُ، (**وَالسَّيِّئَاتِ**)، أيْ مَا يستحقُّ فَاعِلُهُ العقابَ، والمرادُ: أيْ أَمَرَ الحَفَظَةَ بِكِتَابَتِهِمَا، أَوْ قَدَّرَهُمَا فِي عِلْمِهِ عَلَى وَفْقِ الواقعِ، (**ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ**) المُكْتَتَبَ، والضميرُ فِي قولِه: "بَيَّنَ" رَاجِعٌ إِلَى اللهِ -تَعَالَى- إِنْ قُلْنَا إِنَّهُ مِنَ الأحاديثِ القدسيَّةِ، أيْ: بَيَّنَ مِقْدَارَهُمَا لِلْكِرَامِ الكَاتِبِينَ، مِنَ التضعيفِ فِي الحسناتِ مِنْ عشرةٍ أَوْ سبعينَ أَوْ سبعمائةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، والتخفيفِ فِي السَّيِّئَاتِ، أو لنا فِي التنزيلِ، أَوْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الاحتمالِ الثَّانِي، أيْ: فَصَّلَ ذَلِكَ الَّذِي أَجْمَلَهُ فِي قَوْلِهِ "كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ" بِقولِه:

(**فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ**)، أيْ: قَصَدَ فِعْلَهَا؛ لأَنَّ الهَمَّ قَصْدُ الفِعْلِ، والفَاءُ تفصيليَّةٌ؛ لأَنَّ مَا ذَكَرَهُ مُجْمَلٌ، لَا يُفْهَمُ مِنْهُ كَيْفِيَّةُ الكتابةِ، (**فَلَمْ يَعْمَلْهَا**) بجوارحِه، وَهُوَ بِفَتْحِ المِيمِ، (**كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ**)، هَذِهِ عِنْدِيَّةُ شَرَفٍ وَمَكَانَةٍ؛ لِتَنَزُّهِهِ -تَعَالَى- عَنْ عِنْدِيَّةِ المَكَانِ.

وَفِي هَذَا رَدٌّ لِمَقَالَةِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الحَفَظَةَ إِنَّمَا تَكْتُبُ مَا ظَهَرَ مِنْ أعمالِ العبادِ وَسُمِعَ مِنْ أَقْوَالِهِم، واحْتَجُّوا بِمَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: (لأن أَذْكُرَ اللهَ فِي قَلْبِي مَرَّةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَذْكُرَهُ بِلِسَانِي سَبْعِينَ مَرَّةً)[1]، وذَلِكَ لأَنَّ مَلَكًا لَا يَكْتُبُهَا، وَبَشَرًا لَا يَسْمَعُهَا، واطِّلاعُ المَلَكَيْنِ المُوَكَّلَيْنِ بِالْعَبْدِ عَلَى الهَمِّ، إِمَّا بكشفٍ عَنِ القلبِ ومَا يَحْدُثُ فِيهِ، كَمَا يَقَعُ لِبَعْضِ الأَوْلِيَاءِ، وإِمَّا بِإِعْلَامِ اللهِ إِيَّاهُمَا بِذَلِكَ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ ابنِ عُمَرَ: (فَيُنَادَى المَلَكُ: اكْتُبْ لِفُلَانٍ كَذَا وكَذَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّه لَمْ يَعْمَلْ، فَيَقُولُ: إِنَّه نَوَاهُ)[2]، وَإِمَّا بِرِيحٍ تَظْهَرُ لَهُمَا مِنَ القلبِ، فَرِيحُ الحَسَنَةِ طَيِّبَةٌ، وَرِيحُ السَّيِّئَةِ خبيثةٌ، تمتازُ بِهَا.

---

(١) ذكره ابن الملقن في "المعين على تفهم الأربعين" (ص ٤١٥) مسندًا.

(٢) ذكره ابن الملقِّن في "التوضيح" (١٨٥/٢) وعزاه لأبي يعلى، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" بنحوه (٣١٣/٢) من كلام أبي عمران الجوني، ولم أجده مرفوعًا، والله أعلم.

(**حَسَنَةً**)؛ لأنَّ الهَمَّ بالحسنةِ سببٌ إِلَى عَمَلِهَا، وَهِيَ خيرٌ، وسببُ الخيرِ خيرٌ، فَالهَمُّ بِهَا خيرٌ، (**كَامِلَةً**) مفعولٌ ثانٍ باعتبارِ تضمينِ مَعْنَى التَّصْيِيرِ، أَوْ حالٌ موطِّئةٌ، أيْ: لَا نَقْصَ فِيهَا، وَلَيْسَ المرادُ بكمالِها مضاعفاتِها؛ لأنَّ التَّضْعِيفَ مختصٌّ بالعملِ، ولو مرَّ عَلَيه أزمنةٌ متعددةٌ، وهُوَ يُحَدِّثُ نفسَه بعملِ تِلْكَ الحَسَنةِ، فإنَّ اللهَ يكتبُ لَهُ حسناتٍ بِعَدَدِ تِلْكَ الأزمنةِ.

(**وإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا**) بكَسْرِ الميم، (**كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ**)، لأنَّه أَخْرَجَهَا مِنَ الهَمِّ إِلَى دِيوَانِ العملِ، فَكُتِبَ لَهُ بها حَسَنَةٌ، ثُمَّ ضُوعِفَتْ، فَصَارَتْ عَشْراً، قالَ تَعَالَى ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وهَذَا أَقَلُّ مَا وَعَدَ بِهِ مِنَ التضعيفِ، وَقَدْ تُضَاعَفُ مُضَاعَفَةً أُخرَى (**إِلَى سبعمائةِ ضِعْفٍ**)، بِكَسْرِ الضَّادِ، أيْ: مِثْلٍ، وقِيلَ: مِثْلَينِ، على حَسَبِ مَا يكونُ فِيهَا مِنْ خلوصِ النِّيَّةِ، وإيقاعِها فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي هِيَ أَوْلَى بِهَا، (**إِلَى أضعافٍ كَثِيرَةٍ**)، بِحَسَبِ الزِّيادةِ فِي الإخلاصِ وصِدْقِ العَزْمِ وحضورِ القلبِ وتَعَدِّي النفعِ، كَالصَّدقةِ الجاريةِ، والعلمِ النافعِ، والسُّنَّةِ الحَسَنةِ، ونَحْوِ ذَلِكَ.

أنواع مضاعفة الأعمال

وذَكَرَ بعضُهم أنَّ اختلافَ المضاعفةِ باختلافِ الأعمالِ:

- فنوعٌ يُضَاعَفُ بِعَشَرةِ أَمْثَالِهِ، كَسُبْحَانَ اللهِ، كَمَا يَأْتِي بَيَانُه،

- ونوعٌ بِخَمْسَةَ عَشَرَ، كَصَوْمِ يَوْمَينِ مِنَ الشهرِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ لِعَبْدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ: (صُمْ يَوْمَيْنِ، ولكَ ما بَقِيَ مِنَ الشهرِ)[1]،

- ونوعٌ بعشرينَ، ونوعٌ بثلاثينَ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَلَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَمَنْ قَالَ: الحمدُ للهِ، كُتِبَ لَهُ ثَلَاثُونَ)[2]،

- ونوعٌ بِخمسينَ؛ لِخَبَرِ: (مَنْ قرأَ القرآنَ بإعرابِه، فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ خَمْسُونَ حَسَنَةً، لَا أَقُولُ:

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥٩) [كتاب الصيام- باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به]، وغيره بلفظ: (صم يومين، ولك أجر ما بقي)، والحديث في الصحيحين وغيرهما بألفاظ أخرى.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٦٠٨) [كتاب عمل اليوم والليلة]، وفي "عمل اليوم والليلة" (٨٤٠)، وغيره عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الم، حرفٌ ولَكِنْ أَلِفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ)[1]، وقالَ الغَزَاليُّ: وانْظُرْ مَا المُرَادُ بإِعْرَابِه؟ هَلِ المرادُ بِهِ عَدَمُ الخَطَأ فِي الإعرابِ أَوِ الإتيانُ بِهِ مُجَوَّدًا أَوِ الأَوَّلُ فَقَطْ؟ وعَدَّ الحافظُ السُّيُوطيُّ فِيمَنْ يُؤْتَى أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ: مَنْ قرأَ القرآنَ بإعرابه، قَالَ: والمرادُ بإعرابه: معرفةُ مَعَانِي ألفاظِه، ولَيْسَ المرادُ بِه المصطلحَ عَلَيْهِ فِي النَّحْوِ، وَهُوَ مَا يُقَابِلُ اللَّحْنَ؛ لأَنَّ القراءةَ مَعَ فَقْدِه لَيْسَتْ بِقِرَاءَةٍ، ولَا يُثَابُ عَلَيْهَا، اهـ. وذَكَرَ الثَّعَالِبيُّ[2] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- تفسيرَ الإعرابِ فِي حَدِيثِ (مَنْ قرأَ القرآنَ بإعرابِه، فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ...) إلخ، نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ عَنِ السُّيُوطِيِّ. وَمِنْ هَذَا النوعِ حديثُ: (مَنْ قَرَأَ القرآنَ بِوُضُوءٍ، فَلَهُ بِكُلِّ حرفٍ خمسونَ حسنةً)[3]،

- ونوعٌ بخمسمائةٍ؛ لِحَدِيثِ: (صلاةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ بِصَلَاةٍ، وَصَلَاتُه فِي المسجدِ الَّذِي يُجْمَعُ فِيهِ بخمسمائةِ صلاةٍ)[4]،

- ونوعٌ بسبعمائةٍ، وَهُوَ نَفَقَةُ الأموالِ فِي سبيلِ اللهِ، قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وفِي صحيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: جاءَ رجلٌ بناقةٍ مَخْطُومَةٍ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، هَذِهِ فِي سبيلِ اللهِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٩٣/٨)، والبيهقي في الشعب (٢٠٩٧)، وغيرهما عن عمر بن الخطاب مرفوعاً بلفظ: "من قرأ القرآن فأعربه كله فله بكل حرف أربعون حسنة، فإن أعرب بعضه ولحن في بعضه فله بكل حرف عشرون حسنة، وإن لم يعرب منه شيئا فله بكل حرف عشر حسنات"، وسئل الحافظ السيوطي عن هذا الحديث كما في الحاوي للفتاوي (٤٧٣/١) فذكر أنه ضعيفٌ من وجوه وأن فيه انقطاعًا وفي إسناده نوح بن أبي مريم الجامع الكذاب المعروف بالوضع، والظاهر أن هذا الحديث مما صنعت يداه.

وأما قوله: "لا أقول الم حرف..." إلخ فأخرجه الترمذي (٢٩١٠) [باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر]، وغيره من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، من أئمة اللغة والأدب. من أهل نيسابور، صنف كتبًا كثيرة منها: كتاب يتيمة الدهر، وسحر البلاغة، وكتاب فرائد القلائد، وكتاب سر الأدب؛ إلى غير ذلك، توفي سنة (٤٢٩). طبقات الأدباء للأنباري (ص ٢٦٥)، وفيات الأعيان (١٧٨/٣).

(٣) ذكره النفراوي في شرح الرسالة (٧٥/١)، ولم أجده مسندًا فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٤١٣) [أبواب إقامة الصلوات- باب ما جاء في الصلاة في المسجد الجامع]، والطبراني في الأوسط (٧٠٠٨)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وضعَّفه الحافظ البوصيري كما في "مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه" (١٥/٢).

لَكَ بِهَا يومَ القيامةِ سبعُمائةِ ناقةٍ كُلُّها مخطومةٌ)[١]،

- ونوعٌ بسبعمائةِ ألفٍ، لِمَا رَوَاهُ ابنُ ماجه، أنَّهُ ﷺ قالَ: (مَنْ أَرْسَلَ بنفقةٍ فِي سبيلِ اللهِ، وأقامَ فِي بيتِه، فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سبعُمائةٍ، وَمَنْ غَدَا بِنَفْسِهِ فِي سبيلِ اللهِ، وأَنْفَقَ فِي وَجْهِهِ، فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سبعُمائةِ ألفِ درهمٍ)[٢]، وذَكَرَ الحطابُ فِي حَاشِيَةِ الرِّسَالَةِ القَيْرَوَانِيَّةِ، أنَّ الصلاةَ فِي جماعةٍ بِمائتَيْنِ وخمسينَ حسنةً، فإنْ كَانَتْ بِمسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ فَبِمائتَيْ ألفٍ وخمسينَ ألفًا، واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ،

- ونوعٌ بِأَلْفِ أَلْفٍ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، فَقَالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ له ألفَ ألفِ حسنةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سيئةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ درجةٍ)، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حديثِ ابنِ عُمَرَ[٣]، وَقَدْ قِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: أَسَمِعْتَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: إنَّ اللهَ لَيَجْزِي عَلَى الحَسَنَةِ الواحدةِ ألفَ ألفِ حسنةٍ؟ فقالَ: سَمِعْتُهُ يقولُ: (إنَّ اللهَ لَيَجْزِي عَلَى الحسنةِ الواحدةِ أَلْفَيْ أَلْفِ حسنةٍ)[٤]، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ التضعيفَ يَنْتَهِي لِمَنْ يَشَاءُ اللهُ إِلَى أَلْفَيْ أَلْفٍ، وقَالَ ابنُ عَطِيَّةَ: وَلَيْسَ هَذَا ثَابتَ الإسنادِ عَنْهُ[٥].

وقالَ الشارحُ الهيتمي: وَمِنَ الفضلِ أيضًا أنَّ اللهَ تعالى إِذَا حَاسَبَ مَنْ لَهُ حَسَنَاتٌ متفاوتةُ المقاديرِ جَازَاهُ بِأَجْرِ رفعِها كـ"لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ..." إلخ، إِذَا قِيلَتْ فِي سُوقٍ، مَعَ رَفْعِ الصوتِ، فإنَّ فِيهَا أَلْفَيْ ألفِ حسنةٍ، وَمَحْوَ أَلْفَيْ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، مَعَ مَنَاصِبَ فِي الجَنَّةِ لِقَائِلِهَا،

---

(١) صحيح مسلم (١٨٩٢) [كتاب الإمارة- باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها]، وغيره من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧٦١) [أبواب الجهاد- باب فضل النفقة في سبيل الله تعالى].

(٣) أخرجه الدارمي (٢٨٩٦) [كتاب الاستئذان- باب ما يقول إذا دخل السوق]، والترمذي (٣٤٢٨) [أبواب الدعوات- باب ما يقول إذا دخل السوق]، والحاكم (١/٥٣٨) [كتاب الدعاء]، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب دون قوله: "بصوت مرتفع"، وقال الترمذي: حديث غريب. وحسَّنه المنذريُّ في الترغيب (٢/٣٣٧).

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٤٥)، و(١٠٧٦٠)، والبزار (٩٥٢٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الهيثمي في "المجمع" (١٠/ ١٤٥): رواه أحمد بإسنادين، والبزار بنحوه، وأحد إسنادي أحمد جيد.

(٥) تفسير ابن عطية (١/٣٥٦).

كَمَا ورَدَ، فإذَا كَانَتْ فِي حَسَنَاتِ عَبْدٍ، جُوزِيَ عَلَى سَائِرِ حَسَنَاتِه بأَجْرِهَا، كَمَا قالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وَهَذَا بِحَسَبِ مقدارِ معرفتِنا، وإلَّا فَفَضْلُهُ تعالى لا يُمكِنُ لأحَدٍ أنْ يَحْصُرَهُ، اهـ.

(**وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا**) أَيْ تَرَكَهَا امْتِثَالًا مَعَ القُدْرةِ على فعلها (**كَتَبَهَا اللهُ حَسَنَةً كَامِلَةً**) لأنَّهُ إنَّما تَرَكَها بعدَ أنْ هَمَّ بها خَوفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولِذَا جاءَ في بعْضِ طُرُقِ الحَديثِ (إنَّمَا تَرَكَها مِنْ جَرَّائِي)[1] أي مِن أجْلِي، وأمَّا لَوْ حالَ بَيْنَهُ وبَيْنَها حائلٌ كَأنْ يَذهَبَ إلى امْرَأةٍ لِيزْنِيَ بِها فَيَجِدَ البابَ مُغْلقًا ويَتَعسَّرَ عليه فتحُهُ فلَا يُكتَبُ لهُ حَسَنَةٌ، ومِثلُهُ مَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الزِّنَا فَلَمْ ينتشِرْ أو طرقَه مَنْ يَخافُ أذاهُ، وَحِينئذٍ فَإنَّهُ تَرَكَ السَّيِّئَةَ، فإنْ تَرَكَها امتِثالًا كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ، وإلَّا فَلَا.

(**وَإِنْ هَمَّ بِهَا فعمِلَها كَتَبَهَا اللهُ**) له (**سَيِّئَةً وَاحِدَةً**)، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وظاهرُ قولِه: "واحدة" أنه لَا يَكْتُبُ عَلَيْهِ الهَمَّ مَعَهَا، لَكِنَّ مَفْهُومَ الحديثِ الَّذي رَوَاهُ الشيخانِ خلافُهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ: (إنَّ اللهَ تجاوزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تتكلمْ أوْ تعملْ بِهِ)[2].

فَقَضِيَّةُ ذَلِكَ أنَّهُ إذَا تَكَلَّمَ بِمَا هَمَّ بِهِ كَالغِيبَةِ، أوْ عَمِلَهُ كَشُرْبِ المُسْكِرِ انْضَمَّ إِلَى المُؤَاخَذَةِ بِذَلِكَ المُؤَاخَذَةُ بِالهَمِّ، واعْتَمَدَهُ التقيُّ ابنُ رزينٍ، وتَنَاقَضَ فِيهِ كلامُ السُّبْكِيِّ، ورَجَّحَ وَلَدُهُ مَا يُوَافِقُ كلامَ ابنِ رزينٍ، نَعَمْ، إنْ جَعَلَ قَوْلَهُ فِي حديثِ النفسِ، مَا لَمْ تتكلمْ أوْ تَعملْ بِهِ، ليسَ لَهُ مفهومٌ، فَلَا يُقَالُ: إنَّهَا إذَا تَكَلَّمَتْ أوْ عَمِلَتْ، يُكْتَبُ عَلَيْهَا حديثُ النفسِ؛ لأنه إذَا كَانَ الهَمُّ لَا يُكْتَبُ فحديثُ النَّفْسِ أَوْلَى، وَوَافَقَ الحديثَ الَّذي هُنَا، إلَّا أنَّ فِيهِ بُعْدًا، واسْتَثْنَى بَعْضُهم الحَرَمَ الْمَكِّيَّ، فقال: إنَّ السَّيِّئَةَ فيه تُضَاعَفُ، وَفِيهِ مَا فِيهِ.

---

(١) أخرجها البيهقي في الشعب (٦٦٤٥).

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٦٦٤) [كتاب الأيمان والنذور- باب إذا حنث ناسيا في الأيمان]، ومسلمٌ (١٢٧) [كتاب الإيمان- باب تجاوز الله عن حديث النفس]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

واعْلَمْ أنَّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنْ قَصْدِ المَعْصِيَةِ لَهُ خَمْسُ مَرَاتِبَ:

مراتب قصد المعصية

الأُولَى: الهَاجِسُ، وهُوَ مَا يُلْقَى فِيهَا، وَلَا يُؤَاخَذُ بِهِ إِجْمَاعًا؛ لأَنَّه لَيْسَ مِنْ فِعْلِ العَبْدِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَارِدٌ لَا يستطيعُ دَفْعَهُ.

الثانيةُ: الخَاطِرُ، وَهُوَ جَرَيَانُهُ فِيهَا، وَهُوَ مَرْفُوعٌ أيضًا.

الثالثةُ: حديثُ النَّفْسِ، وَهُوَ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ التَّرَدُّدِ، هَلْ يَفْعَلُ أَمْ لَا، وَهُوَ مرفوعٌ أيضًا؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (إِنَّ اللهَ تجاوزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ به أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ).

الرابعةُ: الهَمُّ، وَهُوَ قَصْدُ الفِعْلِ، وَهُوَ مَرْفُوعٌ أيضًا، وَفِي هَذِهِ المَرْتَبَةِ تفترقُ الحسنةُ والسَّيِّئَةُ، فإنَّ الحسنةَ تُكْتَبُ لَهُ، والسَّيِّئَةَ لَا تُكْتَبُ عَلَيهِ، بِخِلَافِ الثَّلَاثِ الأُوَلِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا ثَوَابٌ وَلَا عقابٌ.

الخامسةُ: العَزْمُ، وَهُوَ قوةُ القصدِ والجزمِ بِهِ، قالَ بعضُهم: وَهُوَ كَالأَقْسَامِ السابقةِ. والمَحْكِيُّ عَنِ المُحَقِّقِينَ المؤاخذةُ بِهِ، وَهُوَ الصحيحُ، وَمِمَّنْ قالَ بِذَلِكَ القاضي أَبُو بَكْرٍ، قالَ القاضي عياضٌ فِي الإكمالِ: عامةُ السلفِ وأهلُ العِلْمِ مِنَ الفقهاءِ والمُحَدِّثِينَ والمُتَكَلِّمِينَ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ القاضي أَبُو بَكْرٍ، انْتَهَى.

ويدلُّ للمؤاخذةِ بِهِ: حديثُ: (إِذَا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالقاتلُ والمقتولُ فِي النارِ، قِيلَ: يَا رسولَ اللهِ، هَذَا القاتلُ، فَمَا بَالُ المقتولِ؟ قالَ: إِنَّه كانَ حريصًا عَلَى قتلِ صَاحِبِه)[1]، ثُمَّ إِنَّ العزمَ عَلَى الكبيرةِ، وإنْ كانَ سيئةً، فَهُوَ دُونَ فِعْلِ الكَبِيرَةِ المعزومِ عليْها، وتَرَدَّدَ فِي ذَلِكَ القاضي أَبُو بَكْرٍ.

(رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ [في صَحِيحَيْهِما] بِهَذِهِ الحُرُوفِ)، وَهُوَ حديثٌ عظيمٌ.

***

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣١) [كتاب الإيمان- باب ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾]، ومسلمٌ (٢٨٨٨) [كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما]، وغيرهما من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**فَانْظُرْ**) مِنَ النَّظَرِ، وَهُوَ كَمَا قالَ الجَوْهَرِيُّ: تَأَمُّلُ الشَّيْءِ (**يَا أَخِي**)، نِدَاءُ اسْتِعْطَافٍ وشفقةٍ؛ لِيَكُونَ أَدْعَى إِلَى الامتثالِ والقَبُولِ.

(**وَفَّقَنَا اللهُ**)، دُعَاءٌ بالتَّوفِيقِ لِعِزَّتِهِ، إِذْ لَمْ يُذْكَرْ فِي القرآنِ إِلَّا مَرَّةً واحدةً، فِي قولِه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]، وأَمَّا قولُه: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]، فَهُوَ مِنَ الموافقةِ، وقولُه: "وَفَّقَنَا" يُحْتَمَلُ أَنْ يريدَ بالضميرِ نَفْسَهُ فَقَطْ، أَوْ هُوَ وغَيْرَهُ، وَعَلَى الأَوَّلِ: أَتَى بِنُونِ العَظَمَةِ؛ لأَنَّه يجوزُ للإنسانِ تعظيمُ نَفْسِه، إِذَا بَلَغَ درجةَ التأليفِ، كَمَا نَصَّ عَلَيهِ شُرَّاحُ الرسالةِ القيروانيَّةِ، وَفِي الحديثِ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَاظَمْ بِالْعِلْمِ)، والعالمُ أشبهُ الناسِ بالجماعةِ، وتَقَدَّمَ المرادُ بِهِ[1]، عِنْدَ قولِه: "وَلَا يَحْقِرُهُ".

(**وَإِيَّاكَ**)، بَدَأَ بِنَفْسِهِ؛ لأَنَّه يُنْدَبُ للإنسانِ أَنْ يُقَدِّمَ نَفْسَهُ فِي الأمورِ الدينيَّةِ، وَمِنْ هَذَا يُعْلَمُ أَنَّ قَوْلَ بَعْضِ الناسِ: "وبدأَ بِكُمْ"، بَعْدَ قَوْلِ مَنْ قَالَ: "تَقَبَّلَ اللهُ مِنْكُمْ وَنَحْوَهُ"، مخالفٌ لِلسُّنَّةِ، قالَ أَبُو الحسنِ الشاذليُّ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ يَبْدَأُ بِنَفْسِه فِي الدُّعَاءِ نَدْبًا، مَا نَصُّهُ: "هَذَا فِي الدُّعَاءِ فِي الكتابِ، وأَمَّا إِنْ كَتَبَ كِتَابًا لِغَيْرِهِ وَأَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ بِالمَكْتُوبِ إِلَيْهِ"، وَقِيلَ: يَبْدَأُ بِنَفْسِهِ، وَقِيلَ: يُخَيَّرُ، وَجَاءَ عَنِ الإمامِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّه قالَ: "إِنْ كَانَ المكتوبُ إِلَيهِ أَكْبَرَ مِنَ الكاتبِ بَدَأَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الكاتبُ أكبرَ بَدَأَ بِنَفْسِه"، وَهِيَ فَائِدَةٌ حَسَنَةٌ، اهـ.

وقولُه "هَذَا فِي الدُّعاءِ فِي الكتابِ" أَيْ فِي الكتابِ الَّذِي يُؤَلِّفُهُ، وَكَذَا إِذَا لَفَظَ بِالدُّعَاءِ بِغَيْرِ كِتَابٍ، كَـ "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ"، كَمَا فِي الآيةِ الشريفةِ. فَإِنْ قُلْتَ: يَرِدُ عَلَى هَذَا قَوْلُ مَنْ سَمِعَ العَاطِسَ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَبْدَأْ بِنَفْسِه، فَالجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: الأَوَّلُ: أَنَّه لَمَّا كَانَ وسيلةً إِلَى دعاءِ الآخرِ لَهُ، اغْتُفِرَ ذَلِكَ. الثَّانِي: أَنَّ الأَوَّلَ يُحْمَلُ عَلَى مَنْ دَعَا لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ، والثَّانِي عَلَى مَنْ دَعَا لِغَيْرِهِ.

وانْظُرْ مَا المرادُ بِكَوْنِهِ أكبرَ، هَلْ فِي السِّنِّ أَوْ فِي النَّسَبِ أَوْ فِي العِلْمِ؟ والظاهرُ أَنَّ المرادَ فِي واحدٍ مِنْهَا، ورُبَّمَا يُشْعِرُ به قولُه ﷺ: (لَا تُوسَعُ المجالسُ إِلَّا لِثَلَاثٍ: لِذِي عِلْمٍ أَوْ ذِي سِنٍّ

---

(١) انظر تخريجه والمراد به ص ٥٨٨.

أَوْ ذي نَسَب)[1]، والظاهرُ أنَّه إذا كانَ مساويًا لَهُ يُخَيَّرُ، وذُكِرَ في "العقيدةِ البُرْهَانِيَّة"[2]: أَنَّهُ يُقَدِّمُ الدعاءَ لِلإخوانِ إيثارًا لهم، لِمَا وَرَدَ في الحديث: (إنَّ العَبْدَ إذَا دَعَا لأَخيهِ المُسْلِم، قالَ اللهُ -تَعَالَى-: عَبْدِي، وَبِكَ أَبْدَأُ)[3]، فَأَيُّ فَضيلةٍ تُلْتَمَسُ وَراءَ هَذه! وَهِيَ كَوْنُهُ مَبْدوءًا بِهِ في الإجابةِ، وَقَدْ يُجْمَعُ بِأَنَّ ذَلِكَ بِحَسَبِ المَقَامِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى.

(**إِلَى عَظِيم لُطْفِ اللهِ**)، قَالَ أهلُ اللغة: "اللُّطْفُ" بِضَمِّ اللامِ وَإِسْكَانِ الطَّاءِ، وَ"اللَّطَفُ" بِفَتْحِهِمَا، لُغَتَانِ فيه، كَمَا صَرَّحَ بِهِ النَّوَوِيُّ، وَهُوَ لُغَةً الرِّفْقُ وَصُنُوفُ البِرِّ؛ لِمَا في "النِّهَايَة"، يُقَالُ: لَطَفَ بِهِ وَلَهُ إذا رَفَقَ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ مَنْ قالَ: هُوَ اجتماعُ الرِّفْقِ في الفعلِ، والعِلْمُ بِدَقَائِقِ المَصَالِحِ، وَإِيصَالُهَا لِمَنْ قُدِّرَتْ لَهُ.

ويُطْلَقُ عَلَى الإقدارِ عَلَى الطاعةِ، وَهُوَ بِهَذَا المَعْنَى مُرَادِفٌ لِلتوفيقِ مَفْهُومًا ومَاصَدَقًا، وَيُطْلَقُ اصْطِلاحًا عَلَى مَا يَقَعُ بِهِ صَلاحُ العبدِ أخرةً، بِأَنْ تَقَعَ مِنْهُ الطاعةُ دُونَ المعصيةِ، أيْ: بَدَلَ المَعْصِيَةِ، وَعَلَيْهِ فَهُوَ مرادفٌ لَهُ مَاصَدَقًا، لَا مَفْهُومًا، وقولُه: "أخرةً" عَلَى وَزْنِ: دَرَجَة، ومَعْنَاهُ: أنه إذا هم بِالْمَعْصِيَةِ يَحْصُلُ لَهُ اللُّطفُ، فَيُوقِعُ بَدَلَهَا طاعةً، و"لَطُفَ" بضمِّ الطاءِ، بِمَعْنَى صَغُرَ ودَقَّ.

(**وَتَأَمَّلْ هَذِهِ الألفاظَ**) النَّبَوِيَّةَ، (**وقولُه "عِنْدَهُ" إشارةٌ إِلَى الاعتناءِ بِهَا**) وشرفِ فاعلها، (**وقولُه "كاملة" لِلتأكيدِ**)، أيْ: صِفَةٌ مؤكدةٌ، (**وشدةِ الاعتناءِ بِهَا، وقالَ فِي السَّيِّئَةِ، الَّتِي هَمَّ بِهَا، ثُمَّ تركَهَا "كَتَبَهَا اللهُ [عِندَه] حسنةً كاملةً"، فَأَكَّدَهَا بِـ"كاملة"، "وَإِنْ عملَهَا كتبَهَا سَيِّئَةً واحدةً"، فَأَكَّدَ تَقْلِيلَهَا بِـ"وَاحِدَة"**)؛ لأَنَّ مفهومَ الوَحْدَةِ مُشْعِرٌ بِالْقِلَّةِ، (**وَلَمْ يُؤَكِّدْهَا بِـ"كَامِلَة"**).

---

(١) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (١٥٠) [باب فضل توسعة المجالس للعلماء]، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٣٦٤/١)، والبيهقي في المدخل (٦٦٨) [باب توقير العالم والعلم]، وذكر البيهقي أن فيه انقطاع.

(٢) العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية، للإمام أبي عمرو عثمان السلالجي، المتوفى ٥٧٤هـ.

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٨٦/٢) "لم أجده بهذا اللفظ"، وله شاهد أخرجه أبو داود (١٥٣٥) [باب الدعاء بظهر الغيب]، والترمذي (١٩٨٠) [باب ما جاء في دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(**فَلِلَّه**)، دُونَ غَيْرِهِ، (**الْحَمْدُ**) عَلَى هَذَا الفَضْلِ العَظِيم (**وَالمِنَّةُ**)، أي النعمةُ المتقبلة، مِنَ المَنِّ، وَهُوَ الإنعامُ مُطْلَقًا، أوْ عَلَى مَا يُطْلَبُ وَيُطْلَقُ عَلَى تَعْدَادِ النِّعَم؛ استكثارًا لَهَا، وَهُوَ غَيْرُ مَحْمُودٍ، إِلَّا مِنَ اللهِ تعالى، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]؛ لأنَّه بمَنِّه يُذَكِّرُ العَبْدَ فَيَبْعَثُهُ عَلَى الشُّكْرِ، ومِنَ الخَلق قبيحٌ مُطْلَقًا، وَلِذَا قِيلَ: المِنَّةُ تَهْدِمُ الصدقةَ، كَمَا قالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقالَ بعضُهم:

وإِنِ امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيَّ صَنِيعَةً * وَذَكَّرَنِيهَا إِنَّهُ لَبَخِيلُ

ومَا أَحْسَنَ قَوْلَ الزَّمَخْشَرِيِّ:

طَعْمُ الْآلَاءِ أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ * وَهُوَ أَمَرُّ مِنَ الْآلَاءِ عِنْدَ الْمَنِّ

وأَرَادَ بالآلاءِ الأُولَى: النِّعَمَ، وبِالثَّانِيَةِ: الشَّجَرَ الْمُرَّ، وبالْمَنِّ الأَوَّلُ: مَا ذُكِرَ فِي قوله تَعَالَى: ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، وبالثَّاني: تَعْدِيدُ النِّعَم، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ -كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ- أَنَّه سُئِلَ عَنِ الحَنَّانِ المَنَّانِ، فقالَ: الحَنَّانُ هُوَ الَّذِي يُقْبِلُ عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، والْمَنَّانُ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ بِالنَّوَالِ قَبْلَ السُّؤَالِ[1].

(**سُبْحَانَهُ**) وَتَعَالَى، وَهُوَ مفعولٌ مُطْلَقٌ، أَيْ أُنَزِّهُهُ عَنِ النقائصِ، وَهُوَ عَلَمٌ لِلتَّسْبِيحِ لَا يُسْتَعْمَلُ غَالِبًا إِلَّا مُضَافًا، (**لَا نُحْصِي**) مَعْشَرَ الخلقِ (**ثناءً عَلَيه**) مُوفِيًا بِحَقِّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ، والثناءُ بتقديمِ المُثَلَّثَةِ والمدِّ، والمشهورُ في اللغةِ قَصْرُ استعمالِه في الخيرِ، واستعمالُه في الشَّرِّ مَجَازٌ، وأمَّا بِتقديمِ النُّونِ[2]، فَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الشَّرِّ، وذَكَرَ صاحبُ المِصْبَاحِ، أَنَّهُ يُسْتَعْمَلُ فِيهِمَا، وَهُوَ الصحيحُ، (**وبِاللهِ التوفيقُ**) إلى مَرْضَاتِه.

***

(١) ذكره القرطبي مسندًا في التفسير (١٦/٩٤).

(٢) أي "النثا" مقصورا. قال في الصحاح: النَّثا مقصورٌ مثل الثَّناءِ، إلا أنه في الخير والشر جميعاً، والثَّناءُ في الخير خاصّةً.

الحديثُ الثامنُ والثلاثونَ

٣٨. عن أبي هُريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: مَنْ عَادى لي وليًّا فقد آذنْتُهُ بالحربِ، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضْتُه عليه، ومَا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كُنتُ سَمعَهُ الذي يَسمعُ به، وبَصرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يَبطِشُ بِها، ورِجْلَه التي يَمشي بها، ولئِن سَألني لأُعْطينَّه، ولئِن استعاذَني لأُعيذَنَّه. رواه البُخاريُّ.

(**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ اللهَ تَعَالَى قالَ:**) عُلِمَ بهذا أنَّه مِنَ الأحاديثِ القدسيَّةِ، ووَقَعَ فِي حديثِ أَنَسٍ[1] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَدَّثَ بِهِ عَنْ جِبْرِيلَ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

(**مَنْ عَادَى**) مِنَ المُعَاداةِ، ضِدُّ المُوَالَاةِ والْمُصَادَقَةِ، والْعَدُوُّ ضِدُّ الوَلِيِّ، وَالأُنْثَى عَدُوَّةٌ، وَهُوَ مِنَ النوادرِ؛ لأنَّ "فَعُولًا" إِذَا كَانَ بِمَعْنَى "فَاعِلٍ" لَا تَلْحَقُهُ التَّاءُ؛ لِاستواءِ المُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ فِيهِ، كَصَبُورٍ. وَجَمْعُهُ "عُدًا" بِضمِّ أَوَّلِهِ وكَسْرِهِ، و"عُدَاةٌ" بِالضَّمِّ لَا غَيْرُ، وَفِي روايةِ "مَنْ أَهَانَ"، وفِي روايةِ أحمدَ "مَنْ آذَى"[2]، أَيْ: أَغْضَبَ بِالقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ، (**لِي**) متعلقٌ بقولِه (**وَلِيًّا**)، أَيْ: مِنْ أَجْلِ كَوْنِهِ وَلِيًّا للهِ، فَإِنَّهُ جَرَى بَيْنَ الصِّدِيقِ والفاروقِ خصومةٌ، وبَيْنَ العَبَّاسِ وعليٍّ وكثيرٍ مِنَ الصحابةِ مَا جرى، وَلِذَا قَالَ الكرمانيُّ فِي قولِهِ: "لِي" هُوَ فِي الأصلِ صفةٌ لِقولِه: "وَلِيًّا"، لَكِنَّهُ لَمَّا تَقَدَّمَ صَارَ حَالًا.

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ مختصرًا في "الأوسط" (٦٠٩) عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، عن جبريل، عن الله تعالى قال: (من أهان لي وليا، فقد بارزني بالمحاربة).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبو نعيم في الحلية (٤/١) [المقدمة]، وأخرجه أحمد (٢٦١٩٣) بلفظ: (من أذلَّ لي وليًّا) من حديث السيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مرفوعًا.

والوَلِيُّ مأخوذٌ مِن "الوَلْي" بسكونِ اللامِ، وَهُوَ القُرْبُ والدُّنُوُّ، يُقَالُ: "تَبَاعَدْنَا بعْدَ وَلْي"، وَمِنْهُ: (كُلْ مِمَّا يَلِيكَ)(١)، وَهُوَ "فَعِيلٌ" بِمَعْنَى فَاعِلٍ؛ لأنَّه وَالَى اللهَ بِالطاعةِ والتَّقْوَى، مِنْ غَيْرِ تَخَلُّلِ عِصْيَانٍ، أو بِمَعْنَى مَفْعُولٍ؛ لأنَّ اللهَ وَالاهُ بِالحِفْظِ وَمَزِيدِ الإمدادِ وَلَمْ يَكِلْهُ إِلَى نَفْسِهِ لحظةً، وضابطُ الوليِّ أنَّهُ المُوَاظِبُ عَلَى فِعْلِ الطاعاتِ واجتنابِ المنهياتِ، المُعْرِضُ عَنِ الانهماكِ فِي اللَّذَّاتِ.

تعريف الولي ومعانيه في القرآن

فإنْ قُلْتَ: المعاداةُ لَا تكونُ إِلَّا مِنْ جانبينِ، ومِنْ شَأْنِ الْوَلِيِّ الحِلْمُ والصَّفْحُ عَمَّنْ يَجْهَلُ عَلَيهِ؟! وَأُجِيبَ بِأَنَّ المعاداةَ لَا تنحصرُ فِي الخصومةِ والمعاملةِ الدنيويَّةِ، بَلْ قَدْ تَقَعُ مِن بغضٍ يَنْشَأُ عَنِ التَّعَصُّبِ، كَالرَّافِضِيِّ فِي بُغْضِهِ لِأَبِي بَكْرٍ، والمبتدعِ فِي بُغْضِهِ السُّنِّيَّ، فَتَقَعُ المعاداةُ مِنَ الجانبينِ، أَمَّا مِنْ جانبِ الوَلِيِّ فَللهِ وَفِي اللهِ، وأَمَّا مِنْ جانبِ الآخرِ فَلِمَا تَقَدَّمَ، وَكَذَا الفاسقُ المجاهرُ بِبُغْضِهِ الوَلِيَّ فِي اللهِ، وَبِبُغْضِهِ الآخرَ؛ لِإِنْكَارِهِ عَلَيْهِ وَمُلَازَمَتِهِ لِنَهْيِهِ عَنْ شهواتِه، وأيضًا المفاعلةُ قَدْ تَأْتِي لِلوَاحِدِ، كـ"سَافَرَ"، و"عَافَاهُ اللهُ".

قالَ عليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ: "أَوْلِيَاءُ اللهِ قومٌ صُفْرُ الوُجُوهِ مِنَ السَّهَرِ، عُمْشُ العيونِ مِنَ العَبَرِ، خُمْصُ البطونِ مِنَ الجوعِ، يُبْسُ الشفاهِ مِنَ الذُّوِيِّ"(٢).

وعنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ عِبَادًا مَا هُمْ بِأنبياءَ وَلَا شُهداءَ، يَغْبِطُهُمُ الأنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامةِ؛ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ -تَعَالَى-، قِيلَ يَا رسولَ اللهِ: أَخبِرْنَا مَنْ هُمْ، وَمَا أَعْمَالُهُمْ، فَلَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ، قَالَ: هُمْ قومٌ تَحَابُّوا فِي اللهِ عَلَى غَيْرِ أرحامٍ بَيْنَهم وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَ بِهَا، فَوَاللهِ إِنَّ وجوهَهم لَتَنَوَّرُ، وإِنَّهُم عَلَى منابرَ مِن نورٍ، لَا يخافونَ إِذَا خَافَ الناسُ، وَلَا يحزنونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ، ثُمَّ تَلَا: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ

---

(١) لفظ حديث متفق عليه أخرجه البخاريُّ (٥٣٧٦) [كتاب الأطعمة- باب التسمية على الطعام والأكل باليمين] ومسلمٌ (٢٠٢٢) [كتاب الأشربة- باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما]، وغيرهما من حديث عمرو بن أبي سلمة.

(٢) ذكره الثعلبي في التفسير (١٣٧/٥)، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩١/٤٢) بنحوه.
والعَبْرة الدَّمْعة، وقيل هو أن يَنْهمل الدمع ولا يسمع البكاء، والجمع عَبَرات، تقول منه: عَبِرَ الرجل بالكسر يَعْبَرُ عَبَراً، فهو عابرٌ، والمرأة عابرٌ أيضاً. وذوى العُودُ يذوي ذَيّاً، وذُوِيّاً: ذَبَلَ ويَبِسَ وضَعُفَ.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢])[1]، وَيَتَّجِهُ أن ذَلِكَ فِي الوَلِيِّ الكامل، وأمَّا أصلُ الولايةِ، فَتَحْصُلُ بالشهادتين، وَلِذَا قالَ بعضُ العارفينَ: إيَّاكَ وَمُعَادَاةَ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فإنَّ لَهم مِنَ اللهِ الولايةُ العامَّةُ، وهُمْ أولياءُ اللهِ وإنْ أَخْطَئُوا وَجَاؤُوا بِتُرابِ الأرضِ خَطَايَا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شيئًا، فإنَّ اللهَ -تَعَالَى- يَتَلَقَّاهُم بِمِثْلِهَا مَغْفِرةً.

تَنْبِيهٌ: "وَلِيٌّ" وَرَدَ فِي القرآنِ لِمَعَانٍ:

الأَوَّلُ: الوَلَدُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سورةِ مريمَ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، يَعْنِي وَلَدًا.

الثَّانِي: الصَّاحِبُ مِنْ غَيْرِ قرابةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١].

الثالثُ: القَرِيبُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان: ٤١]، أَيْ: لَا يَنْفَعُ الكافرُ القريبُ قريبَه الكافرَ.

الرابعُ: العَصَبَةُ، كَمَا فِي قولِهِ فِي سورةِ مريمَ، قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ [مريم: ٥]، يَعْنِي العَصَبَةَ.

الخامسُ: الولايةُ فِي الدِّينِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي المَائِدَةِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

السادسُ: الْوَلِيُّ الَّذِي يَعْتِقُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آلِ عُمْرَانَ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨.

(**فَقَدْ آذَنْتُهُ**) بِالْمَدِّ وَفَتْحِ المُعْجَمَةِ، بَعْدَهَا نُونٌ، أَيْ: أَعْلَمْتُهُ، وَالْإِيذَانُ: الإعلامُ وَنَظِيرُهُ: ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ [فصلت: ٤٧] أَيْ أَعْلَمْنَاكَ، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: ١٦٧] أَيْ أَعْلَمَ، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٢٧) [كتاب البيوع- باب في الرهن]، وأبو نعيم (٥/١) [المقدمة]، والبيهقي في الشعب (٨٥٨٥) وغيرهم. وفي الباب عن أبي هريرة، وأبي مالك الأشعري.

(**بِالْحَرْب**)، أيْ: أَعْلَمْتُهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ، واللامُ في قَوْلِهِ "بِالْحَرْبِ" لِلْجِنْسِ، فَيَنْصَرِفُ إِلَى أَكْمَلِه، فَإِنْ قُلْتَ: الْمُحَارَبَةُ مُفَاعَلَةٌ، وَهِيَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ الجانبين، مَعَ أَنَّ المخلوقَ في أَسْرِ الخالقِ؟! فالجوابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُخَاطَبَةِ بِمَا يُفْهَمُ، فَإِنَّ الحربَ تَنْشَأُ عَنِ العَدَاوَةِ، والعداوةَ تَنْشَأُ عَنِ الْمُخَالَفَةِ، وغايةُ الحربِ الهلاكُ، واللهُ -تَعَالَى- لَا يَغْلِبُهُ غالبٌ، فَكَانَ المَعْنَى: فَقَدْ تَعَرَّضَ لِإِهْلَاكِي إِيَّاهُ، فَأَطْلَقَ الحَرْبَ وَأَرَادَ بِهِ لَازِمَهُ، أَوْ أعمل به مُعَامَلَةَ الْمُحَارِبِ، مِنَ التَّجَلِّي عَلَيْهِ بِمَظَاهِرِ القَهْرِ وَالْجَلَالِ والعدلِ والانتقامِ.

وإِذَا ثَبَتَ هَذَا فِي جَانِبِ المعاداة، ثَبَتَ ضِدُّهُ فِي جَانِبِ الموالاة، فَمَنْ وَالَى أولياءَ اللهِ أَكْرَمَهُ اللهُ، وَفِي الحديثِ القُدُسِيِّ: (أَيْنَ المتحابُّونَ لِجَلَالِي؟ اليومَ أُظِلُّهُمْ تَحْتَ ظِلِّي يومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي)[1].

وقولُه: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا" أَيْ: مِنْ أَجْلِ ولايتِه وقُرْبِهِ مِنَ اللهِ -تَعَالَى- لا مُطْلَقًا، فَلَا تَدخُلُ مُنَازَعَةٌ فِي مُحَاكَمَةٍ أَوْ خُصُومَةٌ رَاجِعَةٌ إِلَى اسْتِخْرَاجِ حَقٍّ أَوْ كَشْفِ غامضٍ؛ لِجَرَيَانِ نَوْعٍ مَا مِنَ الخصومةِ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَبَيْنَ عَلِيٍّ والعَبَّاسِ، وبَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم مَعَ أَنَّ الكُلَّ أولياءُ اللهِ.

التقرب بالفرائض والنوافل

(**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ**) بِتَشْدِيدِ اليَاءِ (**عَبْدِي**) بالإضافَةِ للتشريفِ، مِنَ التَّقَرُّبِ، وَهُوَ طلبُ القُرْبِ مِنَ غَيْرِ تَخَلُّلِ مَعْصِيَةٍ. قالَ أَبُو القاسم القُشَيْرِيُّ -رحِمَهُ اللهُ-: قُرْبُ العَبْدِ مِنَ رَبِّهِ يَقَعُ أَوَّلًا بِإِيمَانِه، ثُمَّ بِإِحْسَانِه، وَقُرْبُ الرَّبِّ مِنْ عَبْدِهِ مَا يَخُصُّهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ عِرْفَانِهِ، وَفِي الآخرةِ مِنْ رضوانه، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ وجودِ لُطْفِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَلَا يَتِمُّ قُرْبُ العبدِ مِنَ الحقِّ إِلَّا بِبُعْدِهِ عَنِ الخَلْقِ، وَقُرْبُ الرَّبِّ بِالْعِلْمِ والقدرةِ عامٌّ لِلنَّاسِ، وباللُّطفِ والنصرةِ خاصٌّ بالخواصِّ، وبالتأنيسِ خاصٌّ بالأولياءِ. وَوَقَعَ فِي حديثِ أَبِي أمامةَ: "تَحَبَّبَ"[2] بَدَلَ "تَقَرَّبَ".

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٣) [كتاب الشِّعر- باب ما جاء في المتحابين في الله]، مسلمٌ (رقم ٢٥٦٦) [كتاب البر والصلة- بابٌ في فَضْلِ الحُبِّ في الله]،وغيرهما ولفظ مسلم: (أين المتحابُّون بجلالي...) الحديث. وفي الباب عن عددٍ من الصحابة.

(٢) أخرجه الطبراني (٨/رقم٧٨٨٠) وفي إسناده علي بن يزيد، وهو ضعيف كما قال الهيثمي في المجمع (٢/٢٨٤).

(**بِشَيْءٍ**)، أيْ عَمَلٍ (**أَحَبَّ**)، يَجُوزُ فِيهِ الرفعُ والنَّصْبُ، فَالنَّصْبُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِـ"شَيْءٍ" المَجْرُورِ، نَابَتْ فِيهِ الفتحةُ عَنِ الكسرةِ؛ لأنَّه لَا يَنْصَرِفُ لِوَزْنِ الْفِعْلِ، والرفعُ عَلَى أنَّه خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: هُوَ أَحَبُّ (**إِلَيَّ مِمَّا**) موصولةٌ أَوْ موصوفةٌ، والعائدُ محذوفٌ، وَفِيهِ حذفُ مضافٍ، أيْ: مِنْ أَدَاءِ مَا (**افْتَرَضْتُه عَلَيْهِ**) عَيْنًا أَوْ كِفَايَةً، كالطهارةِ، والصلاةِ، والزكاةِ، والصومِ، والحجِّ، وأداءِ الحقوقِ إِلَى أَرْبَابِهَا، وَبِرِّ الوالدينِ، والجهادِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عَنِ المُنْكَرِ، والحِرَفِ المُهِمَّةِ؛ لأنَّ الأمرَ بِهَا جازمٌ، فيتضمنُ أمرَيْنِ: الثوابَ عَلَى فِعْلِهَا، والعقابَ عَلَى تَرْكِهَا، بِخِلَافِ النَّوَافِلِ؛ لأنَّ الأمرَ بِهَا غَيْرُ جازمٍ، فَيُثَابُ عَلَى فِعْلِهَا، وَلَا يُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِهَا، وَلِذَلِكَ كَانَتِ الفرائضُ أَكْمَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللهِ، وَأَشَدَّ تَقْرِيبًا، وَرُوِيَ أَنَّ ثوابَ الفرضِ يَعْدِلُ ثَوَابَ النَّفْلِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةً[1]، وَبِالْجُمْلَةِ فَالْفَرْضُ كَالْأَسَاسِ والنَّفْلُ كالبناءِ عَلَى ذَلِكَ الْأَسَاسِ.

(**وَمَا يَزَالُ**) بِلَفْظِ المضارعِ، وفي روايةٍ بِلَفْظِ الماضِي (**عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ**)، أيْ: يُدَاوِمُ عَلَى التَّقَرُّبِ إِلَيَّ، زِيَادَةً عَلَى مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ (**بِالنَّوَافِلِ**) الزائدةِ عَلَى الفرائضِ، أيْ: تَطَوُّعَاتٍ مِنْ سَائِرِ أصنافِ العباداتِ، مِنْ صلاةٍ فِي الليلِ أو فِي النهارِ، وَلَا سِيَّمَا المؤكَّداتِ، وصدقةٍ أَوْ حجِّ تَطَوُّعٍ، أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنَ الناسِ، أَوْ جبرِ خاطرٍ بَيْنَهم، أَوْ إعانةِ مسلمٍ، أَوْ تيسيرٍ عَلَى معسرٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. ولفظُ الطَّبَرَانِيِّ: (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَحَبَّبُ إِلَيَّ)[2]، وَفِي روايةٍ لَهُ: لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَنَفَّلُ إِلَيَّ[3] (**حَتَّى أُحِبَّهُ**)، بِضَمِّ الهَمْزَةِ، وَفَتْحِ البَاءِ الموحَّدَةِ، وَيَجُوزُ فِي "حَتَّى" وَجْهَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى إِلَى، والثَّانِي: أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى كَيْ الَّتِي لِلتَّعْلِيلِ.

(**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ**) بِتَقَرُّبِهِ إِلَيَّ بِأَدَاءِ الفَرَائِضِ وَكَثْرَةِ النَّوَافِلِ، حَتَّى امْتَلَأَ قَلْبُهُ مِنْ مَعْرِفَتِي، وَأَشْرَقَتْ عَلَيْهِ أنوارُ وِلَايَتِي.

---

(١) تقدم نقل السبكي عن إمام الحرمين في الأشباه والنظائر (١/١٨٦، ١٨٧): وقال بعض علمائنا: الفريضة يزيد ثوابها على ثواب النفل بسبعين درجة، وتمسكوا بما رواه سلمان الفارسي، إن رسول الله ﷺ قال في شهر رمضان: (من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه).

(٢) أخرجه الطبراني (٨/رقم٧٨٨٠) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجها أبو نعيم في الحلية (١/٤) [المقدمة] من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا.

(**كُنْتُ سَمْعَهُ**)، السمعُ قُوَّةٌ رُتِّبَتْ فِي الْعَصَبِ المفروشِ عَلَى سَطْحِ بَاطِنِ الصماخ، حَتَّى يُدْرِكَ صورةَ مَا يَتَأَتَّى إِلَيْهِ بِتَمَوُّجِ الهواءِ، (**الَّذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ**)، البَصَرُ هُوَ قُوَّةٌ رُتِّبَتْ فِي العَصَبَيْنِ المُجَوَّفَيْنِ اللذَيْنِ يَتَلَاقَيَانِ مُتفرِّقَيْنِ إِلَى الْعَيْنَيْنِ، يُدرِكُ صُورةَ مَا يَنْطَبِعُ فِي الرطوبةِ الجليديةِ مِنْ أشباحِ الأجسامِ المتكونةِ، (**الَّذي يُبْصِرُ**) بضَمِّ أَوَّلِه (**بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ**) بفتحِ أوَّلِه وكسرِ ثالثِه أو ضمِّه، والكسرُ أَشْهَرُ (**بها، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**).

زَادَ عبدُ الواحدِ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عائشةَ، عِنْدَ أَحْمَدَ وَالْبَيْهَقِيِّ فِي الزُّهْدِ: (وَفُؤَادَهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ)[1].

***

فَإِنْ قُلْتَ كَيفَ يَكُونُ البَارِئُ -جَلَّ وَعَلَا- سَمْعَ العبدِ وَبَصَرَهُ... إلخ؟! فالجوابُ مِنْ أَوْجُهٍ:

تأويل ما في الحديث من مجاز

أَحَدُهَا: عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ: كُنْتُ حَافِظَ سَمْعِهِ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يَحِلُّ سَمَاعُهُ، وَحَافِظَ بَصَرِهِ، فَلَا يَنْظُرُ إِلَّا مَا يَحِلُّ إِبْصَارُهُ، وَحَافِظَ يَدِهِ، فَلَا يَبْطِشُ بِهَا فِيمَا لَا يَحِلُّ، وَحَافِظَ رِجْلِهِ، فَلَا يَمْشِي بِهَا إِلَّا فِيمَا يَحِلُّ الْمَشْيُ إِلَيْهِ، إِمَّا إِيجَابًا أَوْ نَدْبًا أَوْ إِبَاحَةً، وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَدُ.

ثَانِيهَا: قَالَ الفاكهانيُّ: يَحْتَمِلُ مَعْنًى آخرَ، أَدَقَّ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَهُوَ أَنْ يكونَ مَعْنَى سَمْعِهِ مسموعَهُ؛ لأنَّ الْمَصْدَرَ قَدْ جَاءَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ، مِثْلَ: أَنْتَ رَجَائِي، بِمَعْنَى: مَرْجُوِّي، وَفُلَانٌ أَمَلِي، بِمَعْنَى: مَأْمُولِي، وَالْمَعْنَى: لَا يَسْمَعُ إِلَّا ذِكْرِي، وَلَا يَتَلَذَّذُ إِلَّا بِتِلَاوَةِ كِتَابِي، وَلَا يَأْنَسُ إِلَّا بِمُنَاجَاتِي، وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا فِي عَجَائِبِ مَلَكُوتِي، وَلَا يَمُدُّ يَدَهُ إِلَّا لِمَا فِيهِ رِضَائِي وَمَحَبَّتِي، وَلَا يَمْشِي بِرِجْلِهِ إِلَّا لِذَلِكَ.

ثَالِثُهَا: كُنْتُ لَهُ فِي النُّصْرَةِ كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَرِجْلِهِ وَيَدِهِ فِي الْمُعَاوَنَةِ.

---

(١) أخرجه بهذه الزيادة: ابن أبي الدنيا في الأولياء (٤٥)، والبيهقي في الزهد (٦٩٨) و(٦٩٩)، وغيرهما، ولم أجده عند أحمد.

رابِعُهَا: قالَ أَبُو عُثْمَانَ الحيريُّ[1] -أَحَدُ أَئِمَّةِ الطَّرِيقِ-: مَعْنَاهُ: كُنْتُ أَسْرَعَ إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِهِ مِنْ سَمْعِهِ فِي الإِسْمَاعِ، وَعَيْنِهِ فِي النَّظَرِ، وَيَدِهِ فِي اللَّمْسِ، وَرِجْلِهِ فِي المَشْيِ.

خامِسُهَا: أَنَّه وَرَدَ عَلَى سبيلِ التمثيلِ، والْمَعْنَى: كنتُ كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ فِي إِيثَارِهِ أمري، فَهُوَ يُحِبُّ طَاعَتِي وَيُؤْثِرُ خِدْمَتِي، كَمَا يُحِبُّ هَذِهِ الجوارِحَ.

سَادِسُهَا: أَنَّ الْمَعْنَى: أَجْعَلُ لَهُ مَقَاصِدَهُ كَأَنَّهُ يَنَالُهَا بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ... إلخ.

سَابِعُهَا: قَدْ يَكُونُ عَبَّرَ بِذَلِكَ عَنْ سرعةِ إجابةِ الدعاءِ، والنُّجْحِ فِي الطلبِ، وَذَلِكَ أَنَّ مسائلَ الإنسانِ كُلَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِهَذِهِ الجوارحِ المذكورةِ.

وحَمَلَهُ بعضُ مُتَأَخِّرِي الصوفيَّةِ عَلَى مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ مَقَامِ الفناءِ والمَحْوِ، وَأَنَّهُ الغايةُ الَّتِي لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قائمًا بإقامةِ اللهِ -تَعَالَى- له، مُحِبًّا بِمَحَبَّتِهِ لَهُ، نَاظِرًا بنظره لَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْقَى مَعَهُ بَقِيَّةٌ تُنَاطُ بِاسْمٍ، أَوْ تَقِفُ عَلَى رَسْمٍ، أَوْ تَتَعَلَّقُ بِأَمْرٍ، أو توصفُ بِوَصْفٍ.

والتحقيقُ أَنَّه مجازٌ وكنايةٌ عنْ نُصْرَةِ اللهِ لِعَبْدِهِ المُتقرِّبِ إِلَيْهِ بِمَا ذُكِرَ، وتأييدِهِ وإعانتِه وتوليتِه فِي جميعِ أمورِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ -تَعَالَى- نَزَّلَ نَفْسَهُ مِنْ عَبْدِهِ منزلةَ الآلاتِ والجوارحِ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا، وَلِهَذَا جاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: (فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي)[2]، أَيْ: أَنَا الَّذِي أَقْدَرْتُهُ عَلَى هَذِهِ الأفعالِ، وخلقتُها فِيه، فَأَنَا الفاعلُ لِذَلِكَ، لَا أَنَّهُ يَخْلُقُ أفعالَ نفسه، خِلَافًا لِلمعتزلةِ.

وزَعْمُ الاتحاديةِ والحلوليَّةِ أَنَّ الحديثَ عَلَى حقيقتِهِ، وأَنَّ الحقَّ عَيْنُ العبدِ أَوْ حالٌّ فيه، فَهُوَ ضلالٌ مُكَفِّرٌ إجماعًا، ويَرُدُّ حَمْلَهُم قَوْلُهُ فِي بقيَّةِ الحديثِ: "وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ".

---

(١) أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور، الواعظ الحيري، ولد بالري ونشأ بها، ثم انتقل إلى نيسابور، وهو في وقته من أوحد المشايخ في سيرته، ومنه انتشر طريق التصوف بنيسابور، توفي سنة (٢٩٨). طبقات الصوفية (ص ١٤٠)، وتاريخ بغداد (٩/١٠١).

(٢) ذكرها الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" (١/٧١) في الأصل الحادي والخمسين، وانظر "فتح الباري" (١١/٣٤٤).

(**وَلَئِنْ**) بِلَامِ القَسَمِ، (**سَأَلَنِي**) شيئًا مِنْ أمورِ الدُّنْيَا والآخرةِ، فَحُذِفَ المفعولُ لِلتَّعْمِيمِ، وَكَذَا فِيمَا بَعْدَهُ.

(**لَأُعْطِيَنَّهُ**) مَا سَأَلَ. وَقَدْ كَانَ العلاءُ بنُ الحضرميِّ[1] في سَرِيَّةٍ فَعَطِشُوا فَصَلَّى وَقَالَ: اللَّهُمَّ، يَا عَلِيمُ يَا حليمُ، يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ، إِنَّا عَبِيدُكَ، وَفِي سَبِيلِكَ نُقَاتِلُ عَدُوَّكَ، فَاسْقِنَا غَيْثًا نَشْرَبُ مِنْهُ وَنَتَوَضَّأُ، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فيهِ نَصِيبًا غَيْرَنَا، فَسَارُوا قَلِيلًا، فَوَجَدُوا نَهْرًا مِنْ مَاءِ السماءِ يتدفقُ، فَشَرِبُوا وَمَلَوا أوعيتَهم، ثُمَّ سَارُوا، فَرَجَعَ بعضُ أصحابِهِ إِلَى مَوْضِعِ النَّهْرِ، فَلَمْ يَرَ شيئًا، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي موضعِهِ ماءٌ قَطُّ.

وَخَرَجَ قومٌ غُزَاةٌ فِي سبيلِ اللهِ -تَعَالَى- وَكَانَ لِبَعْضِهِمْ حمارٌ، فماتَ الحمارُ وارتحلَ الناسُ، فقامَ صَاحِبُهُ وتوضأَ وَصَلَّى، وقالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي خَرَجْتُ مجاهدًا فِي سبيلِكَ وابتغاءَ مرضاتِكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ تُحْيِي وَتُمِيتُ، وتبعثُ مَنْ فِي القبورِ، فَأَحْيِ لِي حِمَارِي، فقامَ إِلَى الحمارِ وَضَرَبَهُ، فقامَ الحمارُ يَنْفُضُ أُذُنَيْهِ، فَرَكِبَهُ وَلَحِقَ أصحابَهُ، ثُمَّ بَاعَ الحمارَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْكُوفَةِ.

فإنْ قُلْتَ: جماعةٌ مِنَ العبادِ والصلحاءِ دَعَوا وَبَالَغُوا فَلَمْ يُجَابُوا؟! فالجوابُ: أنَّ الإجابةَ تتنوعُ، فَتَارَةً يقعُ المطلوبُ بِعَيْنِهِ عَلَى الفَوْرِ، وَتَارَةً يتأخرُ لحكمةٍ فِيهِ، وَتَارَةً تقعُ الإجابةُ بِغَيْرِ المطلوبِ، حيثُ لَا يكونُ فِي المطلوبِ مصلحةٌ ناجزةٌ، وَفِي الواقعِ مصلحةٌ ناجزةٌ أَوْ أَصْلَحُ مِنْهَا.

(**وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي**) بالنُّونِ بَعْدَ الذَّالِ المعجمةِ، وَفِي روايةٍ: بالبَاءِ الموحدةِ، والأَوَّلُ أشهرُ، واستعاذَ بِمَعْنَى: اعْتَصَمَ واسْتَجَارَ، (**لَأُعِيذَنَّهُ**) مِمَّا يخافُ، واللَّامُ موطِّئَةٌ للقَسَمِ.

ودخلَ قومٌ عَلَى الحَسَنِ البصريِّ، فَشَكَوا الشيطانَ، فقالَ: خرجَ مِنْ عِنْدِي الساعةَ، وَشَكَا مِنْكُم، وقالَ: قُلْ لَهُم يتركونَ لِي دُنْيَايَ أتركْ لَهُم دِينَهُم.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الشيطانَ يغوصُ فِي باطنِ الإنسانِ، ويضعُ رأسَه عَلَى حَبَّةِ قَلْبِهِ، وَيُلْقِي إِلَيْهِ

---

(١) العلاء بن عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مقنع الحضرمي، كان من حلفاء بني أمية ومن سادة المهاجرين، ولاه رسول الله ﷺ البحرين، ثم وليها لأبي بكر وعمر، توفي سنة (٢١). طبقات ابن سعد (٣٥٩/٤)، الإصابة (٤٤٥/٤).

الوسوسةَ، ويدلُّ لِذَلكَ مَا رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: (إنَّ الشيطانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدمَ مَجْرَى الدَّم، فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ)[١]، وقالَ ﷺ: (لَوْلَا أنَّ الشياطينَ يحومونَ عَلَى قلوبِ بَنِي آدمَ، لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السمواتِ والأرضِ)[٢].

واختلفَ العلماءُ فِي الجنِّ، هَلْ لَهُمْ اطلاعٌ عَلَى بواطنِ البشرِ ونُفُوذٌ فِيهَا؟! فالمشهورُ: أنَّ لَهُم ذَلِكَ، وأنكرَ أكثرُ المعتزلةِ ذَلِكَ.

قالَ شَرَفُ الدِّينِ المرسي[٣] -رَحِمَهُ اللهُ-: اعْلَمْ أنَّ الَّذِي يستعيذُ العبدُ لأَجْلِهِ، يَجْرِي مَا لَانهايةَ لَهُ، أَوَّلُهَا الجهلُ، وَثَانِيهَا الفِسْقُ، وثالثُها المخالفاتُ والآفاتُ والمكروهاتُ.

وفِي الحديثِ: (مَا مِنْكُم أحدٌ إِلَّا وَلَهُ شيطانٌ، قِيلَ: وَلَا أنتَ يَا رسولَ اللهِ، قالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنَّ اللهَ -تَعَالَى- أَعَانَنِي عَلَيهِ، فَأَسْلَمَ)[٤] بِفَتْحِ الْمِيمِ، وَفِي روايةٍ بِضَمِّهَا، فالأَوَّلُ مِنَ الإسلامِ، والثَّانِي مِنَ السلامةِ، أيْ: أَسْلَمُ مِنْ كَيدِهِ.

وعَنْ مَعْقَلِ بنِ يَسَارٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: (مَنْ قالَ حِينَ يُصْبِحُ ثلاثَ مراتٍ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ، وقرأَ ثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ سورةِ الحَشْرِ، وَكَّلَ اللهُ بِهِ سبعينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيهِ حَتَّى يُمْسِي، فَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ اليومِ، مَاتَ شهيدًا، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ)[٥].

---

(١) تقدم تخريجه في شرح الحديث السادس.

(٢) أخرجه مطوَّلًا: ابن أبي شيبة (٣٦٥٧٤) [كتاب المغازي]، وأحمد كما في بعض النسخ (٨٦٤٠) [مسند أبي هريرة]، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا في مرائي المعراج، وفيه: « فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم , لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض , ولولا ذاك لرأوا العجائب...».

(٣) العلامة البارع شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي، عالم بالتفسير والحديث والفقه والأصول والنحو، من كتبه: التفسير الكبير، والأوسط، والصغير، والكافي في النحو، والإملاء على المفصل، وغيرها، توفي سنة (٦٥٥). سير أعلام النبلاء (١٦/٤٥٨)، بغية الوعاة (١/١٤٤)

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٤) [كتاب صفة القيامة- باب تحريش الشيطان..]، وغيره من ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي الباب عن السيدة عائشة وجابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وغيرهما.

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٣٠٦) [مسند البصريين]، والدارمي (٣٧٤٧) [كتاب فضائل القرآن]، والترمذي (٢٩٢٢) [أبواب فضائل القرآن]، وغيرهم.

وروَتْ خولةُ بنتُ حكيم، عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ نَزَلَ منزلًا، فَقَالَ: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ، لَمْ يَضُرَّهُ شيءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ ذَلِكَ المَنْزِلِ)[1].

وقَدْ ذَكَرَ القُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، أَنَّهُ حُكِيَ عَنْ بعضِ السَّلَفِ أنَّه قالَ لتلْميذه: مَا تصنعُ بالشيطان إذا سَوَّلَ لَكَ الخَطَايَا؟ قالَ: أُجاهِدُهُ، قالَ: فَإِنْ عَادَ؟ قالَ: أُجاهِدُهُ، قالَ: هَذَا يَطُولُ، وَلَكِنْ أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِغَنَمٍ فنبحَكَ كَلْبُهَا وَمَنَعَكَ مِنَ العُبُورِ، مَا تَصْنَعُ؟ قالَ: أُكَابِدُهُ وَأَرُدُّ عَلَيهِ جُهْدِي، قالَ: هَذَا يَطُولُ عَلَيكَ، وَلَكِنِ اسْتَغِثْ بِصَاحِبِ الْغَنَمِ يَكُفُّهُ عَنْكَ. وَالْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ الشيطانُ وأعوانُه والنَّفْسُ والهَوَى والدُّنْيَا، واقْتَصِرْ فِي الاستعاذةِ عَلَى الشيطانِ؛ لأنَّ هَذِهِ الأشياءَ كُلَّهَا مِنْ جُنُودِهِ وأشياعِه وأتباعِه، يَصْرِفُهَا فِي إغوائِه ووسوسته.

ومِمَّا قِيلَ فِي الأولياء:

لِي سَادَةٌ مِنْ عِزِّهِمْ * أَقْدَامُهُمْ فَوْقَ الْجِبَاهْ

إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ فَلِي * فِي ذِكْرِهِمْ عِزٌّ وَجَاهْ

(**رَوَاهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ**)، وَهُوَ أَصْلٌ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللهِ -تَعَالَى- وَالْوُصُولِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَطَرِيقَتِهِ.

***

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) [كتاب الذكر والدعاء- باب في التعوذ من سوء القضاء]، وغيره.

الحدِيثُ التَّاسِعُ وَالثَّلاثونَ

٣٩. عن ابنِ عباسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا عن رسولَ اللهِ ﷺ أنَّه قالَ: إنَّ اللهَ تجاوزَ لي عَنْ أُمَّتِي الخَطأَ والنِّسيانَ، وما اسْتُكرِهوا عليه. حديثٌ حسنٌ، رواهُ ابنُ ماجهْ والبيهقيُّ وغيرُهُما.

(**عَنِ ابْنِ عَباسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ**) أَيْ عَفَا وَسَامَحَ وَصفحَ، وَفِي رِوايَةٍ (عَفَا لِأُمَّتِي عَنِ الخَطَأِ)[1]، هُنَا "عَنْ" بِمعنَى "عن فِعْلِ".

التجاوز عن الخطأ والنسيان والإكراه

(**لِي**) أَيْ لأجلِي (**عَنْ أُمَّتِي**) أَيْ أُمَّةِ الإِجَابَةِ.

(**الخَطأَ**) هَذَا يَرجعُ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥] وَالخَطَأُ -بِفتحتَينِ مَهموزٌ مَقصورٌ- والمُرادُ به ضِدُّ العَمْدِ، وَهُوَ أَنْ يَقصدَ شَيْئًا فيخالفُ غَيْرَ مَا قصدَ، لا ضِدُّ الصَّوابِ خِلافًا لزاعِمِهِ؛ لِأَنَّ تعمُّدَ الإِثْمِ يُسمَّى خطأً بِالمَعْنَى الثَّانِي، وَلَا تمكنُ إرادتُهُ هُنَا، والخَطأُ يُمدُّ ويُقصرُ، وَقُرِئَ بِهِمَا فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢].

وَيُطلقُ عَلى الذَّنْبِ أَيْضًا، قَالَ أَبُو عُبيدةَ: خَطِئَ خَطَأً -مِنْ بَابِ "عَلِمَ"- وَأَخْطَأَ بِمعْنًى وَاحِدٍ لِمَنْ يُذنِبُ عَلَى غيرِ عَمْدٍ، وقَالَ غيرُهُ: خَطِئَ فِي الدينِ، وأخطأَ فِي كُلِّ شَيْءٍ عَامِدًا أَوْ غيرَ عَامِدٍ.

وقالَ الأمويُّ: الخَاطِئُ مَنْ فَعَلَ مَا لَا يَنبغِي، وَالمُخْطِئُ مَنْ أَرَادَ الصَّوابَ فَصارَ إِلى غَيْرِهِ، وَفِي الحَدِيثِ: (لَا يُحْتَكَرُ إِلَا خَاطِئٌ)[2].

---

(١) أخرجها الطبراني في الأوسط (٢١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٠٥) [كتاب المساقاة- باب تحريم الاحتكار في الأقوات]، وغيره من حديث معمر بن عبدالله رَضِيَاللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

وفي روايَةٍ (إنَّ اللهَ تجاوزَ لِأُمَّتي عَنِ الخطأ)[1]، وهِيَ أَظْهرُ، ووَجْهُ الأُولَى أَنَّ "تجاوزَ" ضُمِّنَ مَعنَى ترَكَ، أَيْ تَركَ لِي عَنْ أُمَّتي الخَطَأَ، وقولُهُ "تجاوزَ لأُمَّتي..." إلخ، أَيْ عَنِ الإثم فَقطْ فِي الخطأِ، لِأنَّ حُكْمَهُ مِنَ الضمانِ لا يَرتفِعُ؛ إِذِ الخطأُ والعمدُ في أَمْوَالِ النَّاسِ سواءٌ، وأَمَّا عَنِ النِّسيانِ والإكراهِ فتَارةً عَنِ الإثم فَقَطْ؛ لِأَنَّ مَنْ حَلفَ لَا أَفْعَلُ كذَا ففعَلَهُ نَاسِيًا يَحنَثُ، وكذَا لَوْ أُكْرِهَ عَلى فِعْلِهِ، حَيثُ كَانَتِ الصيغةُ صيغةَ حنثٍ، وتَارةً عن الإثم والحكم مَعًا كَمَنْ أُكْرِهَ عَلَى الطَّلاقِ والعتقِ لِقَوْلِهِ ﷺ: (لَا طلاقَ في إغلاقٍ)[2] أَيْ إِكراهٍ، وكذَا عَلَى فَعْلِ المحلُوفِ عَلَيهِ كَانَتِ الصيغةُ صيغةَ برٍّ.

***

(**والنِّسيانُ**) بِكسْرِ النُّونِ، وَهُوَ تَرْكُ التَّفكُّرِ بِلَا قَصد بعدَ حُصُولِ العلم، فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانَ الخَطَأُ والنِّسيانُ مُتَجاوزًا عَنهُمَا لهذه الأُمَّةِ، فمَا الحِكمَةُ فِي الأمرِ بالدُّعَاءِ فِي قوله تعالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؟! فالجَوَابُ: الأمرُ لِلاستدامةِ.

وقَدْ يُطلقُ عَلَى التَّرْكِ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وَيُطْلَقُ عَلَى التَّأخيرِ كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٩] أَيْ نُؤَخِّرْهَا.

واختُلِفَ فِي الخطأِ والنِّسيانِ المَذْكورَيْنِ في قولِهِ تَعالَى: ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قِيلَ: النِّسيانُ بمعْنَى التَركِ أَيْ تركْنَا شَيْئًا مِنْ طاعتِكَ، وقِيلَ: الذُّهولُ والخطأُ عَنِ المتعددِ، وَقَالَ ابنُ زيدٍ[3]: المَعْنَى إنْ نسِينَا المأمورَ أَوْ أخطأْنَا فِي المَنْهِيِّ، وَقالَ عَطَاءٌ: جهلْنَا وتَعمَّدْنَا، والمرادُ هُنَا الأَوَّلُ.

---

(١) أخرجها الطبراني في الكبير (١١/رقم ١١٢٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٣٦٠) [مسند الصديقة عائشة]، وأبو داود (٢١٩٣) [كتاب الطلاق- باب في الطلاق على غلط]، وابن ماجه (٢٠٤٦) [أبواب الطلاق- باب طلاق المكره والناسي]، والحاكم (١٩٨/٢) [كتاب الطلاق]، وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا بلفظ: (لا طلاق ولا عتاق في إغلاق).

(٣) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني، كان صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيرا في مجلد، وكتابا في الناسخ والمنسوخ، توفي سنة (١٨٢). السير للذهبي (٣٤٩/٨)/طبقات المفسرين للداودي (٢٧١/١).

قالَ في المصباح: ونسيتُ الشيءَ أنسَاهُ نسيانًا مشتركٌ بينَ معْنَيَيْنِ، أحدُهمَا: تركُ الشيْءِ عَلَى ذهولٍ وَغفلة، وَذلكَ خلافُ الذِّكْرِ، والثاني: التركُ على تَعَمُّدٍ، وعليهِ ﴿ولا تنسَوْا الفضلَ بينكُمْ﴾، أيْ لَا تَقْصِدُوا التركَ وَالإهمالَ. وَيتعَدَّى إلى ثانٍ بالهمزِ وَالتضعيفِ، وَنسيتُ ركعةً: أهملتُهَا ذهولاً، ورجلٌ نَسْيَانٌ -وِزَانَ "سَكْرَان"- [كثيرُ الغفلةِ][1].

الفرق بين النسيان والسهو والخطأ

والفرقُ بينَ النِّسْيانِ والسهْوِ أنَّ النِّسْيانَ زوالٌ عنِ الحافظةِ والمدركةِ؛ لأنَّهُ جهلٌ بعدَ العلمِ، والسهوُ زوالٌ عنِ الحافظةِ فقطْ، والفرقُ بينَ السهْوِ وَالخطأ أنَّ السهْوَ مَا يتنَبَّهُ صَاحِبُهُ بِأدْنَى تَنبُّهٍ، وَالخطأُ مَا لَا يُتَنَبَّهُ بِهِ.

ويُقالُ: المأتِيُّ بهِ إنْ كانَ عَلَى جهةِ مَا ينْبَغِي فهُوَ الصوابُ، وإنْ كانَ لَا علَى مَا ينْبَغِي نُظِرَ، فإنْ كانَ معَ قصدٍ منَ الآتِي بهِ يُسَمَّى الغلطَ، وإنْ كانَ مِنْ غيرِ قصدٍ منْهُ فإنْ كانَ يتنبَّهُ بأيسرِ تنبُّهٍ فهوَ السهْوُ، وإلَّا فهوَ الخطأُ.

والنِّسيانُ حالةٌ تَعْتَرِي الإنسانَ منْ غيرِ اخْتِيَارِهِ تُوجِبُ غفْلَتَهُ عنِ الحفظِ، والغفْلَةُ تركُ الالتفاتِ بسببِ أمرٍ عارضٍ، وقِيلَ: الغفلةُ تكونُ عمَّا لَا يَكُونُ، والسهْوُ يَكُونُ عمَّا يَكُونُ، تقول: غفَلْتُ عنْ هَذا الشيءِ حتَّى كانَ، ولَا تقولُ: سَهوتُ عنهُ حتَّى كانَ، وفرقٌ آخرُ وهوَ أنَّ الغفلةَ تكونُ عنْ فعلِ الغيرِ، تقولُ: كنتُ غافلاً عمَّا كانَ منْ فلانٍ، ولَا يجوزُ أنْ يُسْهَى عنْ فعلِ الغيرِ.

***

(وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) أيْ منْ صدرَ منْهُ الإكراهُ، فلا يكفرُ مَنْ أُكرِهَ على الردَّةِ، ولا يَصِحُّ إعتاقُه ولا طلاقُه ولا شيءٌ منْ تصرفاته، وهو مذهبُ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ خلافًا لأبي حنيفةَ في الطلاقِ، والحديثُ مخصوصٌ بما إذَا لم يكنْ بمُحَرَّمٍ، فإنْ أُكرِهَ بالقتلِ وجبَ القصاصُ على المُكرِهِ بالكسرِ والمُكرَهِ بالفتحِ أو بالزِّنى وغيرِ ذلكَ، وتجبُ العقوبةُ، مِنْ "أكرهْتُه على كذا" إذا حَمَلتُه علَيْه قهرًا.

(١) ساقط من الأصل، وأثبتناه كما في المصباح المنير.

و"الكُرْهُ" بالضمِّ المشقَّةُ، يُقالُ: قمتُ على كُرْهٍ -بالضَّمِّ- أيْ على مشقَّةٍ، وبالفتحِ الإكراهُ، يُقالُ: أَقامَني فلانٌ على كَرْهٍ -بالفتحِ- إذا أكرهَكَ عليه، وقالَ الكسائيُّ: هما لُغتانِ.

ومفهومُ هذا الخبرِ أنَّ الخطأَ والنِّسْيانَ والإكراهَ كانَ يؤاخذُ بها أولًا؛ إذْ لا تَمتنعُ المؤاخَذةُ بها عقلًا، فإنَّ الذنوبَ كالسمومِ، فكما أنَّ تناولَها يُؤدِّي إلى الهلاكِ وإنْ كانَ خطأً فتناولُ الذنوبِ لا يَبعُدُ أنْ يُفضي إلى العقابِ، وإنْ لم تكنْ عزيمةً، لكنَّه تعالى وعدَنا التجاوزَ عنْهُ رحمةً وفضلًا، ومنْ ثَمَّ أمرَ الإنسانَ بالدُّعاءِ به استدامةً واعتدادًا بالنعمةِ.

(**حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ**) مُحَمَّدُ (**ابْنُ مَاجَهْ، و**) أبو بكرٍ (**البيهقيُّ وغيرُهُما**).

***

فائدةٌ: لمَّا نَزَلَ قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] شَقَّ ذلك على الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فجاءَ جماعةٌ منهُمْ للنبيِّ ﷺ وقالوا: كُلِّفْنا مِنَ العملِ ما لا نُطيقُ، إنَّ أحدَنا لَيُحدِّثُ نفسَه بما لا يُحبُّ أنْ يثبُتَ في قلبِه، وإنَّ له الدنيا، فقالَ لهم ﷺ: فلعلَّكم تَقولونَ كما قالتْ بنو إسرائيلَ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، قولوا: سَمِعنا وأَطعْنا، فقالوا، فلمَّا زَلَقَتْ بها ألسنتُهم واطمأنتْ إلَيْها نفوسُهم أنزلَ اللهُ تعالى قولَه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ إلى قولِه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦][1] فتعلَّقَ بالكسبِ دونَ العزمِ، كذا في أكثرِ التفاسيرِ، وفي بعضِها أنَّها نُسِختْ بهذه، وأكثرُ المحقِّقينَ مِنْ أهلِ الأصولِ على أنَّ النَّسْخَ يكونُ في الأحكامِ دونَ الأخبارِ، وهذا خَبَرٌ.

***

(١) أخرجه مسلم (١٢٥) [كتاب الإيمان]، وابن حبان (١٣٩) [كتاب الإيمان- باب التكليف]، وغيرهما.

الحديثُ الأربعونَ

٤٠. عنِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بِمَنكِبيَّ فقالَ: كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ.

وكانَ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقولُ: إذا أمْسيتَ فلا تَنتظِرِ الصَّباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تَنتظِرِ المَساءَ، وخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرضِكَ، ومِن حياتِكَ لِموتِكَ. رواهُ البخاريُّ.

(**عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبَيَّ**) بفتحِ الميمِ وكسرِ الكافِ، مجمعُ العضُدِ والكتفِ، يُروَى بالتثنيةِ والإفرادِ، وفيه مسُّ المعلمِ بعضَ أعضاءِ المتعلِّمِ عندَ التعليمِ أوِ الموعوظِ عندَ الوعظِ؛ ليعيَ ما يُقالُ له فيكونَ أبعدَ لنسيانِه، وهذا كقولِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ: (علَّمَني رسولُ اللهِ ﷺ التشهدَ كَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ)[1]، وقدْ يَضمُّه كمَا فعلَ جبريلُ بالنبيِّ ﷺ حينَ قالَ له: (اقْرأْ)[2]، وذلك لإحضارِ القلبِ والتنبيهِ والتذكيرِ؛ إذْ مُحالٌ عادةً أنْ ينسى مَنْ فُعِلَ معَه ذلكَ، ويُقالُ له معهُ.

وهذا لا يُفعَلُ في الغالبِ إلَّا مع مَنْ يَميلُ إليْه الفاعِلُ، ففيه دليلٌ على محبَّتِه ﷺ لهما.

(**فَقَالَ: كُنْ فِي**) مُدَّةِ إقامتِكَ في (**الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ**) في محلِّ نصبِ خبرِ "كُنْ"، أيْ كُنْ في الدُّنيا مُشبَّهًا بالغريبِ الذي قاسى الذُّلَّ والمسكنةَ في غُرْبَتِه، وعلَقَ قلبُه بالرجوعِ إلى وطنِه، أيْ لا تركنْ إليْها ولا تَتَّخذْها وطنًا، ولا تتعلَّقْ بِها إلَّا بما يتعلَّقُ الغريبُ في غيرِ وطنِه.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٢٦٥) [كتاب الاستئذان- باب الأخذ باليدين]، ومسلمٌ (٤٠٢) [كتاب الصلاة- باب التشهد في الصلاة]، وغيرهما.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣) [كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟]، ومسلمٌ (١٦٠) [كتاب الإيمان- باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ]، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وفيه: (اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني...) يعني: ضمَّني.

(أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) أي طريقٍ، معطوفٌ على "غَريب" عطفَ خاصٍّ على عامٍّ، و"أَوْ" فيه بمعنى "بَلْ" كما ذَكرَهُ الجوهريُّ، وفيها معنى الترقِّي، والمعنى: كُنْ في الدنيا كغريبٍ بلْ عابرِ سبيلٍ أيْ لَا تَركَنْ إلى الدُّنْيا ولا تَتَّخذْها وطنًا، ولَا تُحدِّثْ نفْسَكَ بالبقاءِ فيها، ولا تتعلَّقْ مِنْها إلَّا بما يَتعلَّقُ بهِ الغريبُ في غيرِ وطنِهِ.

الحث على ترك الدنيا

فهو حثٌّ على احتقارِ الدُّنيا والفراغِ عنْها والزُّهدِ فيها، ولا يأخذُ منها إلَّا مقدارَ الضرورةِ المُعينةِ على الآخرةِ، فإنَّ الغريبَ مُنْكَمِشٌ مُستوحِشٌ، لَا يَجِدُ مَنْ يَعْرِفُه فَيَنبسطُ إليهِ ويأْنَسُ بِهِ، ولَا مَقصِدَ لَهُ إلَّا الخُروجُ مِنْ غُربتِهِ إلى وطنِهِ وَمَوضعِ إقامتِه، لَا يُبالي أَنْ يُرَى عَلَى خِلَافِ عَادَتِه فِي مَلْبُوسِه ونَحوِ ذلك، ولَا يَحسُدُ ولَا يُعادِي ولَا يَحقِدُ ولَا يُنافِسُ أحدًا فِي مَجلسٍ ولَا غَيرِه؛ لِقِلَّةِ إقامَتِه.

وكذلك عابرُ السَّبيلِ، أيْ: المَارُّ في الطريقِ، وهو المسافرُ؛ إذْ ليسَ لهُ أَرَبٌ إلَّا فيما يُعينُه على سفرِهِ وقفولِهِ إِلَى بلدِه واجتماعِه بأهلِه، فلَا يَتخذُ فِي بعضِ المراحلِ دارًا ولَا مسكنًا ولَا بُستانًا ولَا حَمَّامًا، ونَحوَ ذلكَ؛ لِعلمِه بِقِلَّةِ إقامتِه فِي سَفَرِه وأنَّهُ لَو أَمْكَنَه الطيرانُ لَطارَ، فَهُوَ لَا يَعْرُجُ على غيرِ ما يكونُ سببًا لِرحيلِه ومُعينًا علَى سَفَرِهِ ووُصولِه إِلَى وطنِه، وأيضًا فالإنسانُ إنَّما وُجِدَ لِيُمْتَحَنَ بِالطَّاعَةِ والمعصيةِ، فيكونَ مُثابًا أو مُعَاقَبًا، بِدَليلِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

قالَ ابنُ بطالٍ: لَمَّا كانَ الغريبُ قليلَ الانبساطِ إِلَى النَّاسِ، بَلْ هُوَ مُستوحِشٌ منهم لَا يكادُ يَمُرُّ بِمَنْ يَعْرِفُه ويَستأنِسُ بِهِ، فهُوَ ذَليلٌ فِي نَفْسِه خَائفٌ، وكَذَلِكَ عَابرُ السَّبيلِ لَا ينفذُ فِي سَفرِه إِلَّا بقوَّتِه عَلَيهِ وَتَخْفيفِه مِنَ الأَثْقَالِ، غَيرَ مُتشبِّثٍ بِمَا يَمنعُه مِنْ سَفرِه، مَعْهُ زَادُه وراحِلَتُه يُبْلِغَانِه إِلَى بُغْيَتِهِ مِنْ قَصْدِه، شُبِّهَ بِهِمَا، وَفِي ذلك إشارَةٌ إِلَى إِيثارِ الزُّهدِ فِي الدُّنيا وأخذِ البُلْغَةِ مِنْهَا والكَفَافِ، وكَمَا لَا يَحتاجُ المُسافرُ إلى أكثرَ مِمَّا يُبْلِغُه إِلَى غايةِ سَفَرِه، فَكَذَلِكَ لَا يَحتاجُ المؤمنُ فِي الدُّنيا إلى أكثرَ مِمَّا يُبْلِغُه إلى المَحَلِّ، اهـ.

وحِينَئِذ فهو كَعَبدٍ أَرسلَهُ سَيِّدُه فِي حاجةٍ إلى غيرِ بلدِه، فَشَأْنُه أنْ يُبادِرَ بفعلِ مَا أرسلَه سَيِّدُه فِيهِ، ثُمَّ يَعودَ إلَى وطنِه ولَا يَتعلَّقَ بِشيءٍ غيرِ مَا هُوَ فِيهِ.

ودخلَ رَجُلٌ عَلَى أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، أينَ مَتَاعُكم؟ فقالَ: إنَّ لَنَا بيتًا نُوَجِّهُ إِلَيهِ مَتَاعَنَا، فقَالَ: لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مَتَاعٍ مَا دُمْتَ هَا هُنَا، قالَ: نعلمُ أنَّ صاحِبَ المنزلِ لَا يَدَعُنَا فِيهِ.

وقالَ الحَسَنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: المُؤمِنُ فِي الدُّنيا كَالغَرِيبِ، لَا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّهَا ولا يُنَافِسُ فِي غَيرِهَا. ولِهَذَا أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ جَمَاعَةً مِنْ أَصحابِه أَنْ يَكونَ بَلَاغُهُم مِنَ الدُّنيا كَزَادِ الرَّاكِبِ[1].

وقِيلَ لِمُحَمَّدِ بنِ وَاسِعٍ[2]: كَيفَ أَصبَحتَ؟ قَالَ: مَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ يَرتَحِلُ إِلَى الآخِرَةِ كُلَّ يَوم مَرْحَلَةً؟

وقالَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ: إِنَّمَا اللَّيلُ والنَّهارُ مَراحلُ يَنزِلُهَا النَّاسُ مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً حَتَّى يَنْتَهِيَ ذَلكَ بِهِمْ إِلَى آخِرِ سَفَرِهم، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقَدِّمَ كُلَّ يوم زادًا لِمَا بينَ يديكَ فَافْعَلْ، وَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ مِنْ أُمُورِكَ، فَكَأَنَّكَ بالرَّحِيلِ وَقَدْ بَغَتَكَ، فكَيفَ يَركَنُ إِلَى الدُّنيا مَنْ يومُه يَهدِمُ شهرَه، وشهرُه يَهدِمُ سَنَتَه، وَسَنَتُه تَهدِمُ عُمْرَه، كَمَا قِيلَ:

وَمَا هَذِهِ الأَيَّامُ إِلَّا مَرَاحِلُ * تَمُرُّ وتُطوَى والمُسَافِرُ قَاعِدُ

وقِيلَ:

نَسيرُ إِلَى الآجالِ فِي كُلِّ لَحظةٍ * وأَيَّامُنَا تُطوَى وهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ * إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الأَمَانِيُّ بَاطِلُ

---

(١) منهم السيدة عائشة كما عند الترمذي (١٧٨٠) [أبواب اللباس- باب ما جاء في ترقيع الثوب]، وسلمان الفارسي كما عند أحمد (٢٣٧١١)، وانظر شعب الإيمان للبيهقي (٩٩٠٩- ٩٩١٦).

(٢) الإمام الرباني محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزدي، تابعي من أهل البصرة، وهو من أئمة الزهاد، توفي سنة (١٢٣). طبقات ابن سعد (٢٤١/٧)، تاريخ دمشق (١٣٨/٥٦)

وقالَ الشِّبلِيُّ[1]: مَنْ رَكَنَ إِلَى الدُّنيا أَحْرَقَتْهُ بنارِهَا، فصَارَ رَمَادًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، وَمَنْ رَكَنَ إِلَى الآخِرَةِ أَحْرَقَتْهُ بنُورِهَا، فَصَارَ ذَهَبًا أَحْمَرَ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَمَنْ رَكَنَ إِلَى اللهِ أَحرَقَهُ بنُورِ التَّوحِيدِ، فَصَارَ جَوهَرًا لَا قِيمَةَ لَهُ.

ورَوَى ابنُ أبِي الدُّنيا والبَيهَقِيُّ، مِنْ حديثِ عَائِشَةَ، أَنَّهُ ﷺ قَالَ: (الدُّنيا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، ومَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، ولَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ)[2].

وقَالَ ﷺ: (مَثَلُ هَذِهِ الدُّنيا كَمَثَلِ ثَوبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخرِهِ، فَبَقِيَ مُعَلَّقًا بخَيطٍ فِي آخِرِهِ فيُوشِكُ ذلكَ الخَيطُ أنْ يَنقَطِعَ)[3] رَوَاهُ أَبُو نعيمٍ وَالبَيهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأَنْشَدَ بَعضُهم:

أَيَا مَنْ لَهُ فِي باطِنِ الأرضِ حُفْرَةٌ * أَتَأْنَسُ بِالدُّنيا وأَنْتَ غَرِيبُ

ومَا الدَّهرُ إِلَّا كَرُّ يَوْمٍ ولَيلَةٍ * ومَا الموتُ إِلَّا نازِلٌ وقَرِيبُ

وأَنْشَدَ آخَرُ:

الموتُ فِي كُلِّ حِينٍ يَنشُرُ الكَفَنَا * ونَحنُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرادُ بِنَا

لَا تَطْمَئِنَّ إِلَى الدُّنيا وزِينَتِهَا * ولَو تَوَشَّحْتَ مِنْ أَثْوَابِهَا الْحَسَنَا

أينَ الأَحِبَّةُ وَالجيرانُ مَا فَعَلُوا * أينَ الَّذِينَ هُمْ كَانُوا لَنَا سَكَنَا

سَقَاهُمُ الْمَوْتُ كَأْسًا غَيْرَ صَافِيَةٍ * فَصَيَّرَتْهُمْ لِأَطْبَاقِ الثَّرَى رَهَنَا

وقَالَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "مَنْ جَمَعَ سِتَّةَ خِصَالٍ لَمْ يَدَعْ لِلْجَنَّةِ مَطْلَبًا، ولَا عَنِ

---

(١) أبو بكر الشبلي واسمه دلف، يقال ابن جحدر، ويقال ابن جعفر، ويقال اسمه جعفر بن يونس، خراساني الأصل بغدادي المنشأ والمولد، تاب في مجلس خير النساج، وصحب الجنيد، وصار أوحد وقته حالا وعلما وكان عالما فقيها على مذهب مالك. توفي سنة (٣٣٤). طبقات الصوفية (ص ٢٧٥)، تاريخ بغداد (١٤/٣٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤١٩) [مسند الصيقة عائشة]، وابن أبي الدنيا (٢٤٠)، والبيهقي في الشعب (١٠١٥٤)، وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (٣٥٠)، وقصر الأمل (١٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٣١)، والبيهقي في الشعب (٩٧٥٩)، وغيرهم.

النَّار مَهْرَبًا -يَعْني: لَمْ يَترك الجهدَ في طَلَبِ الجَنَّةِ والهَرَبِ مِنَ النَّارِ- عَرَفَ اللهَ فَأَطَاعَهُ، وعَرَفَ الشَّيطانَ فَعَصَاهُ، وعَرَفَ الحقَّ فاتَّبَعَهُ، وعَرَفَ الباطلَ فاتَّقَاهُ، وعَرَفَ الدُّنيا فَرَفَضَهَا، وعَرَفَ الآخرةَ فَطَلَبَهَا".

وقَالَ أيضًا: "ارْتَحَلَتِ الدُّنيا مُدْبِرَةً وارْتَحَلَتِ الآخرةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أبناءِ الدُّنيا، فإِنَّ اليومَ عملٌ ولَا حِسَابٌ، وغدًا حسابٌ ولَا عملٌ".

وعَنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَرفوعًا: (يُؤتَى بالدُّنيا يومَ القيامةِ عَلَى صُورةِ عجوزٍ شَمْطَاءَ زَرقَاءَ، أَنْيَابُهَا بَادِيةٌ، مُشَوَّهٌ خَلْقُهَا، لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا كَرِهَهَا، فَتُشرِفُ عَلَى الخَلائِقِ، فَيُقَالُ لَهُم: أتعرِفُونَ هَذِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ باللهِ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، فَيُقَالُ لَهُم: هَذه الدُّنيا الَّتي تَفَاخَرْتُم بِهَا وَتَقَاتَلْتُم عَلَيهَا)[١]، ورُوِي فِي خَبرٍ: أَنَّه يُؤمَرُ بِهَا فَتُلقَى فِي النَّارِ، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أينَ أَتْبَاعِي وَأَصْحَابِي، فَيَلْحَقُونَ بِهَا[٢].

***

(وَكَانَ) عَبدُ اللهِ (ابنُ عُمَرَ يَقُولُ) فِي بَعضِ وَصَايَاه:

الحث على تقصير الأمل

(إِذَا أَمْسَيتَ)، أَيْ دَخَلْتَ فِي وقتِ المساءِ، (فَلَا تَنْتَظِرْ) بِعَمَلٍ مِنْ أعمالِ البِرِّ (الصَّبَاحَ) وَهُوَ أَوَّلُ مَا يَبدُو مِنَ النَّهَارِ، (وَإِذَا أَصْبَحْتَ)، أَيْ دَخَلتَ فِي وقتِ الصَّبَاحِ، (فَلَا تَنْتَظِرْ) بِعَمَلٍ مِنْ أعمالِ البِرِّ (المَسَاءَ)؛ لِأَنَّه رُبَّمَا يَكُونُ تَأخيرُهَا سَببًا لِفَوَاتِهَا وعَدَمِ اسْتِدْرَاكِهَا، وَقَدَّمَ المَسَاءَ عَلَى الصَّبَاحِ؛ لِأَنَّ فِي المَسَاءِ النَّومَ الَّذي هُوَ أَحَدُ الوَفَاتَينِ، لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فالتَّرَاخِي فِيهِ أكثرُ.

والمُرادُ: إِذَا أَمْسَيتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بالبقاءِ إِلَى الصَّبَاحِ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بالبقاءِ إِلَى المَسَاءِ، انْتَظِرِ الموتَ فِي كُلِّ وقتٍ واجْعَلْهُ نُصْبَ عَينَيْكَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (٦٨)، وابن الأعرابي في الزهد (٧٠)، والبيهقي في الشعب (١٠١٨٩)، وغيرهم.
(٢) ذكره السمرقندي في تنبيه الغافلين (ص ٢٤٣).

وعَقَّبَ به المصنِّفُ مَا قَبلَهُ؛ لأنَّ ذَلكَ للحَثِّ عَلَى تَركِ الدُّنيا، وهَذَا للحَثِّ عَلَى تَقصيرِ الأمَلِ، وذَاكَ مُتَوقِّفٌ عَلَى هَذَا؛ لأنَّه المُصْلِحُ لِلعَمَلِ والمُنجِّي من أوقاتِ التَّراخي والكَسَلِ، وقد قِيلَ لِبعضِهم: مَا قَدْرُ أَمَلِكَ فِي الدُّنيا، فَقَالَ: هَلْ لِمَنْ نَفْسُهُ فِي يَدِ غَيرِهِ أَمَلٌ؟!

وكَانَ محمدُ بنِ واسِعٍ إذَا أرادَ النَّومَ، قَالَ لأهلِه: أَسْتَودِعُكُم اللهَ فَلعَلِّي لَا أَقُومُ مِنْ نَومَتِي، ولِهَذَا جَاءَ فِي الحديثِ: (لَا يَبِيتُ أَحَدُكُم إلَّا ووصِيَّتُه عِنْدَ رَأْسِه)[1]، فلعلَّه يَبِيتُ مِنْ أَهلِ الدُّنيا ويُصْبِحُ فِي أَهْلِ الآخرةِ، فَكَمْ مِنْ مُستقبِلٍ يومًا أو عملًا لَا يَسْتَكْمِلُهُ.

قالَ أبو نصرِ بنُ ودعانَ[2]: قِصَرُ الأملِ أَصْلُ كُلِّ خيرٍ، كَمَا أنَّ تطويلَه أَصْلُ كُلِّ شرٍ، فإنَّ مَنْ لَا يُقَدِّرُ فِي نَفْسِهِ أنَّه لَا يعيشُ غدًا، لَا يَسْعَى لِكفَايَةِ غدٍ، ولَا يهتمُّ لَهَا، فيَصِيرُ حُرًّا مِنْ رقِّ الحِرصِ والطمعِ والذُّلِّ وخدمةِ أبناءِ الدُّنيا، ويكفيه كلُّ شيءٍ، ومَنْ قَدَّرَ أنَّه يعيشُ عَشْرَ سِنِينَ مَثَلًا، فإنَّه يصيرُ عبدًا لهذهِ الأوصافِ الذَّميمَةِ، ولَا يَكفيهِ شيءٌ مِنَ الدُّنيا، ولا يَمْلأُ بَطْنَه وعَيْنَه إلَّا التُّرَابُ.

ولِبَعضِهم:

تَبْغِي مِنَ الدُّنْيَا الْكَثِيرَ وَإِنَّمَا * يَكْفِيكَ مِنْهَا مِثْلُ زَادِ الرَّاكِبِ
لَا تَعجَبَنَّ بِمَا تَرَى فَكَأَنَّه * قَدْ زَالَ عَنْكَ زَوَالَ أَمْسِ الذَّاهِبِ

ولِبعضِهم:

تَقَنَّعْ بِمَا يَكْفِيكَ وَاسْتَعْمِلِ الرِّضَا * فإنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصْبِحُ أَمْ تُمْسِي
فَلَيسَ الغِنَى مِنْ كَثْرَةِ الْمَالِ إِنَّمَا * يَكُونُ الْغِنَى والْفَقْرُ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٧٣٨) [كتاب الوصايا]، ومسلمٌ (١٦٢٧) [أول كتاب الوصية]، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مرفوعًا بلفظ: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده).

(٢) أبو نصر محمد بن علي بن عبيد الله بن أحمد بن صالح بن سليمان بن ودعان، من أهل الموصل؛ وكان يتولى القضاء بها، وله اشتغال بالحديث، قال السلفي: متهم بالكذب. وهو صاحب "الأربعين الودعانية" الموضوعة، توفي سنة (٤٩٤). تاريخ بغداد (٢٠/٢١)، والسير للذهبي (١٦٤/١٩)

والحقُّ أنَّه سَبَبٌ للزُّهدِ في الدُّنيا، وقولُ بعضِ الشُّرَّاحِ: أَنَّهُ نَفْسُ الزُّهدِ فيهَا، أرادَ بِهِ: أَنَّ بينَهُمَا تَلازُمًا صَيَّرَهُمَا كَالشَّيءِ الوَاحِدِ، فَمَنْ قَصُرَ أملُه زَهَدَ، وَمَنْ طَالَ أَمَلُه طَمِعَ وَرَغِبَ فِي الدُّنيا، وتَرَكَ الطَّاعةَ وسوَّفَ بالتوبةِ، ونَسِيَ الآخرةَ ومُقَدِّمَاتِهَا مِنَ الموتِ ومَا بَعدَه مِنَ الأهوالِ، فَيَقْسُو قلبُه ضرورةً؛ لِأَنَّ رِقَّةَ القلبِ وصفاءَه إِنَّما يكونُ بِذِكْرِ ذَلِكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، وقَالَ تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

وقَالَ ابنُ الجوزيِّ: "إِذَا رأيتَ قَبرًا فتوهَّمْه قَبرَكَ وعُدَّ بَاقِي الحَيَاةِ رُعبًا"، وَعَنْ أَبِي زَكَرِيَّا التَّمِيمِيِّ، قَالَ: بَينَمَا سُليمانُ بنُ عبدِ الملكِ فِي المسجدِ الحرامِ، إِذَا أُتِيَ بِحَجَرٍ مَنْقُورٍ فطَلَبَ مَنْ يَقْرَؤُه، فَأُتِيَ بِوَهْبِ بنِ منبهٍ، فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: "ابنَ آدمَ، إِنَّكَ لَو رأيتَ مَا بَقِيَ مِنْ أجلكَ لَزَهَدْتَ فِي طويلِ أملِكَ، ولَرَغِبْتَ فِي الزِّيادةِ مِنْ عملِكَ، ولَقَصَّرتَ مِنْ حِرصِكَ وحِيَلِكَ، فإنما يَلقَاكَ ندمُكَ إذا زلَّتْ بكَ قَدَمُكَ، وأَسْلَمَكَ أهلُكَ وَحَشَمُكَ، فَبَانَ مِنْكَ الولدُ القريبُ ورفضَكَ الوالدُ والنسيبُ، فَلَا أنتَ إِلَى دُنيَاكَ عائدٌ ولَا فِي حسناتِكَ زائدٌ، فاعْمَلْ لِيومِ القيامةِ قَبْلَ الحَسْرَةِ والندامةِ".

ولِبعضِهِم:

إِذَا هَبَّتْ رِياحُكَ فَاغْتَنِمْهَا * فإنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَ

ولَا تَغْفُلْ عَنِ الإِحْسَانِ فِيهَا * فَمَا تَدْرِي السُّكونُ مَتَى يكونُ

إِذَا ظَفِرَتْ يَدَاكَ فَلَا تُقَصِّرْ * فَإِنَّ الدَّهرَ عَادَتُه يَخُونُ

***

(**وَخُذْ مِنْ**) العَمَلِ زَمَنَ (**صِحَّتِكَ**) قَبْلَ أَنْ يُحالَ بَيْنَكَ وبَيْنَها (**لِمَرَضِكَ**)، أَيْ: اغْتَنِمِ العملَ حالَ الصحةِ، فإنَّه ربما عرضَ لكَ مرضٌ وسَقَمٌ مانعٌ مِنْهُ، فإذا كُنْتَ تعملُ فِي حالِ الصحةِ جَرَى لَكَ ثوابُه في حالِ المرضِ؛ لِخَبَرِ ابنِ عَسَاكِرَ عَنْ مَكْحُولٍ: ..

.. (إِذَا مَرِضَ العبدُ -أَيْ: الإنسانُ المُسْلِمُ- يُقَالُ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ: ارْفَعْ عَنْهُ القَلَمَ -أَيْ: عَنِ الضَّعِيفِ-، ويُقالُ لِصَاحِبِ اليَمِينِ: اكتبْ لَهُ أحسنَ مَا كَانَ يَعملُ، فَإِنِّي أعلمُ بِه)[1]؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ تَقْصِيرٌ.

(**وَخُذْ مِنَ**) العَمَلِ زَمَنَ (**حَيَاتِكَ لِمَوتِكَ**)، أَيْ: اغْتَنِمْ مَا تَلْقَى نَفْعَهُ بَعدَ موتِك مَا دُمتَ حَيًّا، فإِنَّ مَنْ مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، قَالَ الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ومَا ذَكَرَهُ ابنُ عُمَرَ مُسْتَنْزَعٌ مِمَّا وَرَدَ أَنَّه ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فقرِكَ، وفراغَكَ قَبْلَ شغلِكَ، وحياتَكَ قَبْلَ موتِك)[2].

(**رَوَاهُ البُخَارِيُّ**)، وأخرَجَهُ ابنُ ماجَهْ ولَمْ يذكرْ قولَ ابنِ عُمَرَ.

***

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن عساكر في التاريخ كما في كنز العمال (٦٦٨٥) عن مكحول مرسلًا. وأخرج البخاري (٢٩٩٦) [كتاب الجهاد والسير- باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة] من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: (إذا مرض العبد، أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٣٦٠) [كتاب الرقاق]، وغيره من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

الحَديثُ الحَادِي والأربعونَ

٤١. عنْ أبي مُحمَّدٍ عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العَاصِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (لا يؤمِنُ أحدُكُم حتَّى يكونَ هَواه تبعاً لِما جئتُ به).

حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، رويناهُ في كتابِ «الحُجَّة» بإسنادٍ صحيحٍ.

التعريف بعبدالله ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ومناقبه

(عَنْ) أَبِي محمدٍ، ويُقَالُ: أَبُو نَصْرٍ، ويُقَالُ: أَبُو عَبدِ الرَّحمنِ (**عَبْدِ اللهِ بن عمرو بن العاصِي**) -بإثباتِ اليَاءِ، وأَكْثَرُ المُحَدِّثِينَ يَحذفونَهَا وأَقَلُّهم يُثْبِتُهَا، قَالَ النَّوَوِيُّ: والصَّوَابُ جَوازُ الوَجْهَينِ، قالَ بعضُهم: وإثْبَاتُهَا يَدُلُّ عَلَى أنَّه مِنَ العِصْيَانِ، ويَدُلُّ لَهُ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يُنَادِيه بِقَوْلِه: يَا عَاصِيَ يَا ابْنَ العَاصِي، وحَذْفُهَا يَدُلُّ عَلَى أنَّه مِنَ العَوَصِ، وهُوَ تحريكُ الشيءِ[1]- ابنِ وائلِ بنِ هاشمِ بنِ سعيدِ بنِ سعدِ بنِ سهلِ بنِ عمرِو بنِ هُصيصِ بنِ كعبِ بنِ لُؤيِّ بنِ غالبٍ القُرَشِيِّ السَّهْمِيِّ، واسْمُ أُمِّه ريطةُ بنتُ منبه بنِ الحَجَّاجِ ابنِ عامرِ بنِ سعدِ بنِ سهلٍ.

ولَمْ يُسْلِمْ عَمْرٌو إلَّا بعدَ الحُدَيبِيَة؛ لأنَّه جَلَسَ فِي الحِجرِ مَعْ خَالدِ بنِ الوليدِ وعثمانَ الحجبيُّ، وقَالُوا: لا نَرى أمرَ مُحَمَّدٍ إلَّا فِي ازْدِيَادٍ، وأَمْرُ قُرَيشٍ فِي انْتِقَاصٍ، ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى الإسلامِ، وقِيلَ: إنَّهُ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ النَّجَاشِيِّ، ويُلْغَزُ بِهَا فَيُقَالُ: صَحَابِيٌّ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ تَابِعِيٍّ.

ولَمَّا أَنِ احْتَضَرَ عَمْرو قالَ لِوَلَدِه عَبْدِ اللهِ: "إنِّي قَبْلَ الإسلامِ كنتُ لَا أرفعُ طَرفِي للنَّبِيِّ ﷺ كراهيةً، ولو مُتُّ عَلَى ذَلِكَ لَدَخَلْتُ النَّارَ، وبَعْدَ الإسلامِ كُنْتُ لَا أرفعُ طرْفِي إليه حَيَاءً منه ﷺ".

(**رضِيَ اللهُ عنهما**) أَسْلَمَ قبلَ أبيه، وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُفَضِّلُهُ عَلَى أَبِيهِ، وكان أَبُوه أكبرَ مِنْهُ باثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وقِيلَ بإحْدَى عَشرةَ سَنَةً، وقِيلَ بثَلَاثَ عَشْرةَ سَنَةً.

---

(١) قال في تاج العروس: العَوَصُ: الحَرَكَةُ والقُوَّةُ، ومنه: عاوَصْتُهُ أي صارَعْتُهُ.

وهُوَ مِنْ أَجَلِّ العَبَادِلَةِ، وكان غزيرَ العلم مجتهدًا في العبادة، وكَانَ مِنْ زُهَّاد الصَّحابَة، وكَانَ يَقُولُ: لأَنْ تَدْمَع عَيني دمعةً مِنْ خشيةِ الله -عَزَّ وَجلَّ- أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أنْ أَتصدَّقَ بألفِ دينار، وكانَ يقولُ: لَوْ تَعلمونَ حَقَّ العِلم لَسَجدْتُمْ حَتَّى تَقَصَّفَتْ ظُهُورُكم ولَصَرَخْتُم حَتَّى تَنْقَطِعَ أصواتُكم، فابْكُوا فإنْ لمْ تجدُوا البكَاءَ فتَبَاكَوْا.

وكانَ واسعَ الرِّوايةِ، قالَ أَبُو هريرةَ رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ: "مَا أَحَدٌ أكثرُ حديثًا عنْ رسولِ الله ﷺ مِنِّي إلَّا عبدُ اللهِ بن عمرو بنَ العاصي، فإنَّه كانَ يَكْتُبُ ولَا أَكْتُبُ"[1]. رُوِيَ لَهُ عَنْ رسولِ الله ﷺ سَبْعُمائَة حديث، اتَّفقَا عَلَى سَبْعَةَ عَشَرَ حَديثًا، وانْفَرَدَ البُخَارِيُّ بثَمَانِيَةٍ، ومُسْلِمٌ بعِشْرِينَ حديثًا، ورِوَايَتُه أكثرُ مِنْ ذَلِكَ، وإنَّما توعَّرتِ الطُّرُقَ في الرِّوايةِ عَنْهُ فكانَ ذلك سَبَبًا في قِلَّةِ مَا نُقِلَ وصَحَّ عَنْهُ.

وكَانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرو قَدِ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ في الكِتَابَة عنهُ في حالِ الرِّضَا والغضبِ، فأَذِنَ لَهُ[2] حَتَّى كَانَ يُسَمِّي صَحِيفَتَهُ "الصَّادِقَة"، ويُقالُ: إنَّه حَفظَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَلْفَ مثلٍ، وكانَ قَدْ قَرأَ الكتبَ، وكانَ يصومُ النَّهارَ ويَقُومُ اللَّيْلَ ويرغبُ عَنْ غشيانِ النِّسَاءِ.

زَوَّجَه أبوه بامرأةٍ مِنْ قُرَيشٍ، ثُمَّ دَخلَ عَليهَا أبوه فَقَالَ: كيفَ وَجَدْتِ بَعْلَك، فَقَالَتْ: خَيرُ الرِّجَالِ أَوْ خَيْرُ البُعُولَةِ مِنْ رَجُلٍ، لَمْ يَغْشَ لَنَا كَنفًا، وَلَمْ يَعْرِفْ لَنَا فِرَاشًا، فَأَقْبَلَ عَلَيه وَالِدُهُ يَعظُه، وقَالَ لَهُ: زَوجْتُك امْرأَةً مِنْ قُرَيشٍ فَعَضَلْتَهَا، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَشَكَاهُ لَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيه النَّبِيُّ ﷺ فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: أَتَصُومُ النَّهارَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وتَقُومُ اللَّيلَ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَكِنِّي أصومُ وأُفطِرُ وأُصَلِّي وأَنَامُ وأَمَسُّ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي)[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣) [كتاب العلم- باب كتابة العلم]، وغيره.

(٢) أخرجه أحمد (٦٥١٠)، وأبو داود (٣٦٤٦) [كتاب العلم- باب في كتاب العلم]، والدارمي (٥٢٣) [كتاب العلم- باب من رخص في كتابة العلم]، والحاكم (١٠٥/١) [كتاب العلم]، وغيرهم من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ مطوّلًا أحمد (٦٤٧٧)، والبزار (٢٣٤٦)، وأبو نعيم (٢٨٥/١) وغيرهم، وهو في الصحيحين، وغيرهما بنحوه.

كَانَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ أَبُوهُ بِمِصْرَ، ثُمَّ انتقلَ إِلَى الشَّام إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ يَزِيدُ، ثُمَّ انتقلَ إِلَى مَكَّةَ وَمَاتَ بِهَا، وقِيلَ: مَاتَ بِالشَّامِ، وقِيلَ: مَاتَ بِالطَّائِفِ، وقِيلَ: مَاتَ بِمِصْرَ سَنَةَ خَمْسٍ أَوْ سَبْعٍ أَوْ تِسْعٍ وَسِتِّينَ عَنِ اثْنَتَيْنِ وسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ قَدْ عَمِيَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ.

ولَمَّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ، قَالَ: إِنَّه كانَ خَطَبَ مِنِّي ابنتي رَجُلٌ مِنْ قُرَيشَ، وقَدْ كَانَ مِنِّي إِلَيهِ شَبِيهٌ بِالوَعدِ، فوَاللهِ لَا أَلْقَى اللهَ بِثُلُثِ النِّفَاقِ، اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُهَا لَهُ.

***

الحث على الرجوع عن هوى النفس

(قَالَ: **قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكم**) إيمانًا كاملًا (**حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ**) بِالقَصْرِ، وهُوَ مَصْدَرُ "هَوَاهُ" أَيْ أحبَّه، وشَرعًا: مَيلُ النَّفْسِ إِلَى خِلَافِ مَا يَقْتَضِيهِ الشَّرعُ إلى ما تُحِبُّه نفْسُه وتميلُ إليهِ وتدعو إليه شهوتُها، ويُجمَعُ عَلى "أَهْوَاء"، وَأَمَّا المَمْدُودُ وَهُوَ مَا بَينَ السَّمَاءِ والأرضِ، فَجَمْعُهُ "أَهْوِيَة"، وجَمَعَهُمَا قولُ بَعْضِهِم:

سَكَنَ الهواءُ مَعَ الهوى فِي أَضْلُعِي * فَاسْتَجْمَعَتْ وَسَطَ الحشَا نَارانِ

فَقَصَرْتُ بِالْمَمْدُودِ عَنْ وَصْلِ الظِّبَا * وَدَرَجْتُ بِالْمَقْصُورِ فِي أَكْفَانِي

(**تبعًا لِمَا**) أيْ: لجميعِ مَا (**جِئْتُ بِهِ**) مِنَ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، والغالبُ أَنَّ الهَوَى لَا يُطلَقُ إِلَّا عَلَى المَيلِ إِلَى خِلَافِ الحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وقد يُطلَقُ عَلَى مُطْلَقِ المَيلِ، فَيَدخُلُ فِيهِ الميلُ إلى الحقِّ وغيرِهِ.

ولَا يَحصُلُ الرجوعُ عنْ هَوى النَّفْسِ ومحبوباتها الشَّهوانيَّة المطبوعة علَيْها إِلَّا بمُجاهَدَة وَتَصَبُّرٍ واحْتِمَالِ مَشَقَّةٍ، حَتَّى تَطْمَئِنَّ النَّفسُ، فَإِذَا اطْمَأَنَّتْ أَحَبَّتْ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وحِينَئِذٍ فَقَولُه "حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ"، أَيْ: بِأَنْ يَمِيلَ قَلْبُه وَطَبْعُه إِلَيهِ كَمَيلِه لِمَحْبُوبَاتِه الدُّنيويَّةِ الَّتِي جُبِلَتِ النَّفْسُ عَلَى المَيلِ إِلَيهَا مِنْ غَيرِ مُجاهَدَة وتَصَبُّرٍ واحتمالِ مَشَقَّةٍ أَوْ بعضِ كراهة ما، بل تهواها كَمَا تَهْوَى المَحْبُوباتِ والمُشتَهيَاتِ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئًا أتبعه هَوَاهُ ومالَ عَنْ غيرِه إِلَيهِ وَوَالَاهُ.

ولِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ ﷺ: لَا يُؤْمِنُ أحدُكم حتَّى يأتمرَ بما أمرتُه أو حتَّى يأتِيَ بكلِّ مَا جئتُ بهِ أو حتَّى يَتَّبِعَ مَا جئتُ به، ونَحْوَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ المأمورَ بالشيءِ الملزومِ بهِ أو المُتَّبِع لَهُ قد يفعلُه اضطراراً.

واعْلَمْ أنَّ الهَوَى يَميلُ الإنسانُ بطبعه إلى مُقْتَضَاهُ، ولَا يَقْدِرُ عَلَى جَعْلِه تابعًا لِمَا جاءَ به النَّبيُّ ﷺ إلَّا كُلُّ ضَامِرٍ مَهزُولٍ[1]، إذِ الهَوَى لغلبةِ الشهوةِ الطبيعيَّةِ يَملِكُ الإنسانَ؛ لقوله ﷺ: (تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ والدِّرهمِ، تَعِسَ عبدُ الخَميصَةِ)[2]، وقد يتغالَى الشخصُ في اتِّباعه حتَّى يجعلَه إلَهه، قال تَعالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، أَيْ: مَهْوِيَّه.

قالَ أبُو الدرداءِ: إذَا أصبحَ الرجلُ اجتمَعَ هواهُ وعملُه، فإنْ كانَ عملُه تبعًا لهواهُ فيومُه يومُ سوءٍ، وإنْ كانَ هواهُ تبعًا لِعَمَلِه فيومُه يومٌ صالحٌ.

وفِي الحديثِ: (الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نفسَه وعمِلَ لِمَا بعدَ الموتِ، والعاجزُ مَنْ أتبعَ نفسَه هواها وتمَنَّى علَى اللهِ الأمانِيَّ)[3]، وفِي روايةٍ: "والفاجرُ" بدلُ "العاجزِ".

وعَنْ سليمانَ بنِ داودَ: "إنَّ الغالبَ لهواهُ أشدُّ مِنَ الَّذي يفتحُ المدينةَ وحدَه".

وعن حذيفةَ بنِ قتادةَ، قالَ: "كُنْتُ فِي مركَبٍ فكُسِرَتْ بنَا، فَوَقَعْتُ أَنَا وامرأةٌ على لوحٍ، فَمَكَثْنَا سِتَّةَ أيامٍ، فقالتِ المرأةُ: أنا عطشانةٌ، فسألتُ اللهَ أنْ يسقيَها، فنزلتْ عليها مِنَ السَّماءِ سِلْسِلَةٌ فيها كوزٌ مُعَلَّقٌ فيه ماءٌ فشربتْ، فرفعتُ رأسِي أنظرُ إلى السلسلةِ، فرأيتُ رَجُلًا جالسًا فِي الهَوَى مُتَربِّعًا، فقلتُ مِمَّنْ أنتَ؟ قالَ: مِنَ الإنسِ، قلتُ: فَمَا الَّذي بَلَغَكَ هذه المنزلةَ؟ قالَ: آثرتُ مرادَ اللهِ على هَوَايَ، فأجلسَني كما تَراني.

(١) أي متخفف من الدنيا، والعبارة مقتبسة من حديث (إن بين أيديكم عقبة كؤودا لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول) [أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/٢٩٩)، وابن عساكر في التاريخ (٢٢/١٧) من حديث أبي هريرة]، وروي: (لا يجوزها إلا المخفون).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٨٨٧) [كتاب الجهاد والسير- باب الحراسة في الغزو في سبيل الله]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩) [أبواب صفة القيامة والرقائق]، وابن ماجه (٤٢٦٠) [أبواب الزهد- باب ذكر الموت والاستعداد له]، والطبراني في الكبير (٧/رقم ٧١٤١) و"الصغير" (٨٦٣)، والحاكم (١/٥٧) [كتاب الإيمان]، وغيرهم من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذيُّ.

وعَنْ وهبِ بنِ منبهٍ، قالَ كانَ فِي بَنِي إسرائيلَ رَجُلَانِ بَلَغَتْ بِهِمَا عبادتُهما إلى أنْ مَشَيَا على الماءِ، فبينما هُمَا يمشيانِ على الماءِ إذا هُمَا برَجُلٍ يَمْشِي فِي الهوَاءِ، فقالَا: يا عبدَ اللهِ، بأيِّ شيءٍ أدركتَ هذهِ المنزلةَ، فقالَ بيَسيرٍ مِنَ الدُّنيا، فَطَمْتُ نَفْسِي عَنِ الشهواتِ، وكَفَفْتُ لِسَانِي عمَّا لَا يَعنِينِي، ورغبت فيمَا دَعَانِي إليهِ، ولَزِمْتُ الصمتَ، فإنْ أقسَمْتُ على اللهِ بَرَّ قَسَمِي، وإنْ سألتُه أعطانِي.

وعَنْ عبدِ الواحدِ بن مُحَمَّدٍ الفارسيِّ، قالَ: سمعتُ بعضَ أصحابنا يقولُ: رأيتُ غرفةً فِي الهواءِ، وفيها رجلٌ، فسألتُه عَنْ حالتِهِ الَّتِي بَلَّغَتْهُ إِلَى تِلْكَ المنزلةِ، فقالَ: تركتُ الهوَى، فأُدْخِلْتُ فِي الهوَاءِ.

وقالَ رجلٌ لِلْحَسَنِ: يَا أبَا سعيدٍ، أيُّ الجهادِ أفضلُ؟ قالَ: جِهَادُ هَوَاكَ.

وقالَ الأَصْمَعِيُّ: مَرَرْتُ بأعرابِيٍّ به رَمَدٌ شديدٌ ودموعُه تسيلُ، فقلتُ: ألَا تمسَحُ عَينَيكَ؟ فقالَ: زَجَرَنِي الطبيبُ، ولَا خيرَ فِيمَنْ إذَا زُجِرَ لَا ينزجرُ، وإِذَا أُمِرَ لَا يَأْتَمِرُ، فقلتُ: أَمَا تَشْتَهِي شيئًا؟ فقالَ:أَشْتَهِي ولَكِنْ أَحْتَمِي، لأنَّ أهلَ النارِ غَلَبَتْ شهواتُهم فَلَم يَحْتَمُوا، فهَلَكُوا.

وقِيلَ لِيَحْيَى بنِ معاذٍ: مَنْ أَصَحُّ الناسِ عَزْمًا؟ قالَ الغالبُ لِهوَاهُ.

ودَخَلَ خلفُ بنُ خليفةَ عَلَى سليمانَ بن حبيبٍ، وعِنْدَهُ جاريةٌ يُقالُ لَهَا "البَدْرُ" مِنْ أَحْسَنِ الجَواري وجهًا وأَكْمَله، فقالَ سليمانُ لخلفٍ: كيفَ تَرَى هذه الجاريةَ؟ فقالَ أَصْلَحَ اللهُ الأميرَ، مَا رَأَتْ عينَايَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فقالَ: خُذْ بِيَدِهَا، فقالَ خَلَفٌ: مَا كُنْتُ لأفعلَ ولَا أَسْلُبُهَا الأميرَ وقد عَرفْتُ عَجَبَه بِها، فقالَ: خُذْهَا عَلَى عَجَبِي؛ لِيَعْلَمَ هَوَايَ أَنِّي غَالبٌ لَهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:

لَقَدْ حَبَانِي وأَعْطَانِي وفَضَّلَنِي * مِنْ غَيرِ مَسْأَلَةٍ مِنِّي سُلَيْمَانُ

أَعْطَانِيَ البَدْرَ جُودًا فِي مَحَاسِنِهَا * والْبَدْرُ لَمْ يُعْطِهُ إِنْسٌ ولَا جَانُ

ولَسْتُ حَقًّا بِنَاسٍ عُرْفَهُ أَبَدًا * حتَّى يُغَيِّبَنِي لَحْدٌ وأَكْفَانُ

ودخلَ الوليدُ بن يزيدَ بَعْضَ كَنَائِسِ الشَّام، فَكَتَبَ فِي حِيطانها: مَا أَرَى العيشَ غيرَ أنْ تُتْبِعِ النفسَ هَوَاهَا فمُخْطِئًا أَوْ مُصِيبًا، فرأَى ذلكَ عبدُ اللهِ بنُ عَلِيٍّ، فَكَتَبَ تَحْتَهُ:

إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ حِينَ تُصْبِحُ آمِنًا * أَنَّ المَنَايَا إنْ أَقَمْتَ تُقِيمُ

فَالْزَمْ هَوَاكَ لِمَا رَضِيتَ فَإِنَّهُ * لَا مِثْلَ ذَلِكَ فِي النَّعِيمِ نَعِيمُ

ولِبَعْضِهِمْ:

رُبَّ مَسْتُورٍ سَبَتْهُ صُورةٌ * فَتَعَرَّى سِتْرُهُ فَانْهَتَكَا

صَاحِبُ الشَّهْوَةِ عَبْدٌ فَإِذَا * غَلَبَ الشَّهْوَةَ صَارَ مَلِكا

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ حسنٍ يطوفُ بالبيتِ، فنَظَرَ إلى امرأةٍ جميلةٍ فَمَشَى إلى جَانِبِهَا، ثُمَّ قالَ:

أَهْوَى هَوَى الدِّينِ واللذَّاتُ تُعْجِبُنِي * فَكَيفَ لِي بِهَوَى اللذَّاتِ والدِّينِ

فقالَتْ له: دعْ أحدَهما تنلِ الآخرَ. وقِيلَ إنَّ سببَ ذلكَ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ حسنٍ لَقِيَ امرأةً جميلةً في الطوافِ، فلَمَّا نظرتْ إليهِ وإلى جمالِه مالتْ نحوَه وطَمِعَتْ فِيهِ، فأقبلَ عليهَا وأنشدَ البيتَ المذكورَ، فَتَرَكَتْهُ وانْصَرَفَتْ.

وقالَ الجُنَيدُ: إنْ خالفتِ النَّفْسُ هَوَاهَا صَارَ دَاؤُهَا دَوَاهَا. وقالَ بعضُ الحكماءِ: يَا بُنَيَّ اعصِ هَوَاكَ والنساءَ، وَأَطِعْ مَنْ شِئْتَ، ويُروَى: واصنعْ مَا شِئْتَ.

وقالَ ابنُ دريدٍ:

وآفَةُ الْعَقْلِ الْهَوَى فَمَنْ عَلَا * عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

ويُقَالُ: إنَّ هشامَ بنَ عبدِ المَلِكِ لم يَقُلْ في عُمْرِهِ إلَّا بيتًا واحدًا:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الهَوَى قَادَكَ الهَوَى * إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

وقَالَ غَيرُه:

إِنَّ الهوانَ هُوَ الهَوَى قُصِرَ اسْمُهُ * فَإِذَا هَوِيتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانَا

وقالَ آخرُ:

نُونُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ * وَصَرِيعُ كُلِّ هَوًى صَرِيعُ هَوَانِ

ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ مَنْ كانَ هواهُ تابعًا لجميعِ مَا جاءَ بِهِ النبيُّ ﷺ كانَ مؤمنًا كاملًا، وضِدُّهُ الكافرُ، وهُوَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ جميعِ مَا جاءَ بِهِ، ومِنْهُ الإيمانُ، وأمَّا مَنْ تَبِعَ البعضَ فإنْ كانَ مَا تَبِعَهُ أصلُ الدِّينِ، وهُوَ الإيمانُ دُونَ مَا سِوَاهُ، فهُوَ الفاسقُ، وعَكْسُهُ المنافقُ.

***

(**حديثٌ صحيحٌ رَوَيْنَاهُ**) حَالَ كونِه (**فِي كتابِ الحُجَّةِ**) فِي اتِّبَاعِ المحجة، تأليفِ الفقيهِ الزاهدِ أبِي القاسمِ إسماعيلَ بنِ محمدِ بنِ الفضلِ الأصفهانِيِّ، نَزَلَ دِمَشْقَ وصنَّفَ هذَا الكتابَ فِي عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ.

(**بإسنادٍ صحيحٍ**) وخَرَّجَهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ عُقبةَ بنِ أوسٍ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عَمرو، ولكنْ زادَ بعدَ "مَا جئتُ بهِ": (لَا يَزِيغُ عَنْهُ)، قَالَ ابنُ عبدِ البَرِّ: وعقبةُ بنُ أوسٍ مجهولٌ.

***

الحديثُ الثاني والأربعونَ

٤٢. عنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: قالَ اللهُ تعالى: يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لكَ على ما كانَ منكَ ولا أُبالي، يا ابنَ آدم، لو بلغتْ ذُنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثُمَّ استغْفرتَني غفرتُ لكَ، يا ابنَ آدمَ، إنَّك لو أَتَيْتَني بِقُرابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئًا، لأتيتُكَ بِقُرابِها مَغفِرةً. رواه الترمذيُّ، وقال: حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ.

(**عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ**):

(**قالَ اللهُ تَعالَى: يَا ابنَ آدمَ**)، أصلُه "أَأْدَم" بهمزتينِ على وزنِ "أَفْعَل"، لكنَّهم سَهَّلُوا الثانيةَ بِقَلْبِهَا أَلِفًا تخفيفًا لاستثقالِ اجتماعِ الهمزتينِ، وهوَ غيرُ منصرفٍ للعَلَميَّةِ ووزنِ الفِعْلِ، مشتقٌّ من "الأُدْمَة" بالسكونِ أو الفتحِ، وهيَ حمرةٌ تميلُ إلى سوادٍ، أو مِنْ أَدِيمِ الأرضِ، وهُوَ ظاهرُ وجهِها، كَمَا صَحَّ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١]، وَوَرَدَ عنْ عليٍّ وابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٢]، ولَا يُنَافِي هَذَا مَا وَرَدَ مِنْ براعةِ جمالِه، وأنَّ يُوسُفَ -عَلَيه الصلاةُ والسلامُ- كَانَ عَلَى الثُّلُثِ مِنْ جَمَالِهِ[٣]؛ لأنَّ الجمالَ لَا يُنافِي السُّمرةَ، إذْ سُمرتُه بينَ البَيَاضِ والحُمْرَةِ.

واخْتُلِفَ فِي لفظِه هَلْ هُوَ أعجميٌّ أوْ لَا، فَذَهَبَ أبُو البقاءِ وغيرُه إِلَى أنَّه ليسَ بأعجميٍّ،

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (٥٥٨٠) [كتاب الجمعة- باب الساعة في يوم الجمعة]، وابن جرير في التفسير (١/٥١٢)، والحاكم (٢/٣٨٠)، وغيرهم بلفظ: (بعث رب العزة ملك الموت، فأخذ من أديم الأرض من عذبها ومالحها، فخلق منه آدم، ومن ثم سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١/٥١٢) عن ابن مسعود، وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وفي الباب أيضًا عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرج الحاكم (٢/٥٧٢) [كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء] عن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "ثم ولد ليعقوب، يوسف الصِّدِّيق الذي اصطفاه الله واختاره وأكرمه، وقسم له من الجمال الثلثين وقسم بين عباده الثلث، وكان يشبه آدم يوم خلقه الله وصوره ونفخ فيه من روحه..." وقال الذهبي: إسناده واهٍ.

وأنَّ مَنْعَ صَرْفِهِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَوَزْنِ الفِعْلِ، واشْتِقَاقُهُ مِمَّا ذُكِرَ يَرُدُّ القولَ بأنَّهُ عربيٌّ، وبِهِ صَرَّحَ الجَوَالِيقِيُّ وغيرُه، وذَهَبَ الثَّعَالِبِيُّ إِلَى أَنَّهُ أعجميٌّ وأَنَّ مَنْعَ صَرْفِهِ لِلْعَلَمِيَّةِ والعُجْمَةِ، وصَحَّ أنه كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَكِنِ الغَالِبُ أَنَّه كانَ يتكلمُ بالسُّرْيَانِيِّ.

وفِي الحديثِ: (خَلَقَ اللهُ آدمَ مِنْ أَدِيمِ الأرضِ كلِّها، فخَرَجَتْ ذُرِّيَّتُهُ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ، مِنْهم الأبيضُ والأسودُ والأحمرُ والسهلُ والحزنُ والطَّيِّبُ والخبيثُ)[1].

وقالَ وَهْبٌ: خلقَ اللهُ رأسَ آدمَ مِنَ الأرضِ الأُولَى، وعُنُقَهُ مِنَ الثَّانِيَةِ، وصَدْرَهُ مِنَ الثَّالثَةِ، وَيَدَيهِ مِنَ الرَّابعةِ، وبَطْنَهُ مِنَ الخَامِسَةِ، وعَجُزَهُ ومَذَاكِيرَهُ وفَخْذَاهُ مِنَ الأرضِ السَّادِسَةِ، وَسَاقَهُ وقَدَمَيْهِ مِنَ السَّابِعَةِ.

ونَقَلَ ابنُ الحسنِ فِي شرحِه لعقيدةِ الرسالةِ القيروانيَّةِ، عَن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قالَ: رُفِعَتْ تُرْبَةُ آدمَ مِنْ سِتَّةِ أَرْضِينَ، وَأَكْثَرُهَا مِنَ السَّادِسَةِ، ولَمْ يَكُنْ فيها مِنَ الأرضِ السابعةِ شيءٌ؛ لأنَّ فيها نارَ جهنَّمَ، اهـ. ورُوِيَ أيضًا عنهُ أَنَّهُ قالَ: خَلَقَهُ اللهُ مِنْ أقاليمِ الدُّنيا، فَرَأْسُهُ من تربةِ الكعبةِ، وصدرُه مِنْ تربةِ الدهناءِ، وظهرُه وبطنُه مِنْ تُرْبَةِ الهِنْدِ، ويَدَاهُ مِنْ تُرْبَةِ المَشْرِقِ، ورِجْلَاهُ مِنْ تُرْبَةِ المَغْرِبِ.

وقالَ غَيْرُه: خَلَقَ اللهُ آدمَ مِنْ سِتِّينَ نَوعًا مِنْ أنواعِ الأرضِ وطبائِعِها، فجاءَ أولادُه مُخْتَلِفِي الأَلْوَانِ والطَّبَائِعِ، قِيلَ: ولِهَذَا المَعْنَى أَوْجَبَ اللهُ فِي الكَفَّارَةِ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا بِعَدَدِ أنواعِ بَنِي آدمَ؛ لِيَعُمَّ الجميعَ الصدقةُ.

وكانَ طُولُه سِتِّينَ ذِرَاعًا، والذِّراعُ ثَمَانِيَةُ أَشْبَارٍ بهذا الشِّبْرِ، هَكَذَا ذكروا، فجملةُ الأشبارِ: أربعُمائةٍ وثمانونَ شِبْرًا، وعاشَ آدمُ أَلْفَ سَنَةٍ.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان (٦١٨١) [كتاب التاريخ- باب بدء الخلق]، والحاكم (٢/٢٦١) [كتاب التفسير]، والبيهقي (١٧٧٠٧) [كتاب السير- باب مبتدأ الخلق]، وأخرجه أبو داود (٤٦٩٣) [كتاب السنة- باب في القدر]، والترمذي (٢٩٥٥) [أبواب تفسير القرآن- باب ومن سورة البقرة]، وغيرهما بلفظ: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب).

(**إِنَّكَ مَا دَعَوتَنِي**) ليلًا أوْ نهارًا، سرًّا أوْ علانيةً، وَ"مَا" مصدريَّةٌ ظرفيَّةٌ، أَيْ: مُدَّةَ دوام دُعَائِكَ إِيَّايَ، كَمَا تَقُولُ: لَأُحْسِنَنَّ إِلَيكَ مَا خَدَمْتَنِي، أَيْ: مُدَّةَ دَوَامِ خِدْمَتِكَ إِيَّايَ، وَغَلط مَنْ جَعَلَهَا شرطيَّةً، والدُّعَاءُ: رَفْعُ الحاجاتِ إلى رفيعِ الدرجاتِ، ويُقَالُ: هُوَ إظهارُ العجزِ والمسكنةِ بلسانِ التضرعِ، وهُوَ بِلَا واسطة مِنْ خصوصياتِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وأَمَّا الأُمَمُ السابقةُ فكانتْ تَفِرُّ فِي حوائجِهم إِلَى الأنبياءِ، تسألُ لَهُم اللهَ تعالى.

الحث على الدعاء والرجاء

وقد رَوَى معمرُ عَنْ قتادةَ أَنَّهُ قالَ: أُعْطِيَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ ثلاثًا لَمْ يُعْطَهَا إِلَّا نبيٌّ، كَانَ يُقَالُ لِلنَّبِيِّ: "اذْهَبْ فَلَيسَ عليكَ حَرَجٌ"، وقَالَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وكَانَ يُقال لِلنَّبِيِّ: "أَنْتَ شهيدٌ عَلَى قومِكَ"، وقالَ لِهَذِهِ الأمة: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكَانَ يُقَالُ: "سَلْ تُعْطَ"، وقالَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

واعْلَمْ أَنَّ المَذْهَبَ المُخْتَارَ الَّذِي عَلَيهِ الفقهاءُ والمُحَدِّثُونَ وجَماهيرُ العلماءِ مِنَ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ: أَنَّ الدُّعَاءَ مُسْتَحَبٌّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقَالَ تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، والآياتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وأَمَّا الأَحَادِيثُ الصَّحِيحةُ فَهِيَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ.

وقَدْ سُئِلَ الشيخُ عِزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلامِ فِي الفَتَاوى المُوصِلِيَّةِ، هَلْ يَعْصِي مَنْ يَقُولُ لَا حاجةَ بِنَا إلى الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرُدُّ مَا قُدِّرَ وقُضِيَ؟

فَأَجَابَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّه لَا يَحتاجُ إِلَى الدُّعاءِ فَقَدْ كَذَبَ وعَصَى، وَيَلْزَمُهُ أَنْ يَقُولَ لَا حاجةَ بِنَا إِلَى الطاعةِ والإيمانِ؛ لأنَّ مَا قضاهُ اللهُ مِنَ الثَّوابِ والعقابِ لَا بُدَّ مِنْهُ، ومَا يَدْرِي هَذَا الأخرقُ الأحمقُ أنَّ اللهَ -تعَالَى- قَدْ رَتَّبَ مصالحَ الدُّنيا عَلَى الأسبابِ، ومَنْ تَرَكَ الأسبابَ وبَنَى على أَنَّ مَا سَبَقَ به القضاءُ لَا يُغَيَّرُ، لَزِمَهُ أَنَّه لَا يأكلُ إِذَا جاعَ، ولَا يشربُ إِذَا عَطِشَ، ولَا يَلْبَسُ إِذَا بَرَدَ، ولَا يَتَدَاوَى إِذَا مَرِضَ، وأَنْ يَلْقَى الكُفَّارَ بِلَا سِلَاحٍ، ويَقُولُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ: مَا قَضَاهُ اللهُ لَا يُرَدُّ، وهَذَا لَا يقولُه مُسْلِمٌ ولَا عاقلٌ.

وقَوْلُهُ: "مَا دَعوتَنِي"، أَيْ: مَا دُمْتَ تَعْبُدُنِي أو تَسْأَلُنِي؛ لأنَّ الدُّعاءَ قَدْ فُسِّرَ فِي القرآنِ بالعبادةِ والسؤالِ، وقِيلَ: مَا دَعَوْتَنِي (وَرَجَوْتَنِي)؛ لِإجَابَةِ دُعَائِكَ؛ لأنَّه تعالى يقولُ: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عبدِي بِي"، وعِنْدَ ذَلِكَ تَتَوجَّهُ رحمةُ اللهِ -تَعَالَى- إلى العبدِ، وإذَا تَوجَّهتْ لَا يَتَعَاظَمُهَا شَيْءٌ؛ لأنَّها وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ، والرجاءُ -بالمدِّ- لُغَةً: الأملُ، واصْطِلاحًا: تَعَلُّقُ القلبِ بمرغوبٍ فِي حصولِه فِي المستقبَلِ مَعَ الأَخْذِ فِي أسبابِ الحصولِ، فإنْ لَمْ يأخذْ فِي الأسبابِ فَهُوَ طَمَعٌ، وَلِذَا قالَ ابنُ الجوزيِّ: إنَّ مَثَلَ الراجِي مَعَ الإِصْرَارِ على المعصيةِ، كَمَثَلِ مَنْ رَجَا حَصَادًا وَمَا زَرَعَ، أَوْ وَلَدًا وَمَا نَكَحَ. قالَ عبدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ:

مَا بالُ دِينِكَ تَرْضَى أَنْ تُدَنِّسَهُ * وَثَوبُكَ الدَّهْرَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ

تَرْجُو النجاةَ ولمْ تَسْلُكْ طَرِيقَتَهَا * إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ

ويُطْلَقُ الرَّجَاءُ عَلَى الخَوْفِ، وَمِنْهُ قَوْلُه تَعَالَى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]، ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، أَيْ لَا تخافونَ عظمةَ اللهِ، وقَالَ فِي "عَمَّ يتساءلونَ": ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧]، أَيْ: لَا يَخَافُونَه، ويصحُّ إرادتُه أيضًا، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ الطمعُ بِمَعْنَى الرَّجاءِ، كَمَا فِي قولِه تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي﴾ [الشعراء: ٨٢]، وأمَّا الرَّجا -بالقَصْرِ- فَهُوَ النَّاحِيَةُ، ومنهُ رَجَا البئرِ، أَيْ نَاحِيَتُه.

وهَلِ الأفضلُ للشخصِ تغليبُ الرجاءِ، لِئَلَّا يَغْلِب عَلَيْه داءُ اليَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أو الخوفِ لِئَلَّا يَغْلِبَ عَلَيه داءُ الأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ -تَعَالَى-، أو إِنْ كانَ عاصيًا فالخوفُ أفضلُ، وإنْ كانَ مُطيعًا فالرجاءُ أفضلُ، أو إِنْ كانَ قبلَ الذنبِ فالخوفُ أفضلُ، وإنْ كانَ بعدَه فالرَّجاءُ أفضلُ، أو إنْ كانَ صحيحًا فالخوفُ أفضلُ، وهُوَ المختارُ عِنْدَنَا، ولكنَّ الراجحَ عندَ الشافعيَّةِ أنْ يكونَ رجاؤُه وخوفُه مستويَيْنِ، وإنْ كانَ مريضًا فالرجاءُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (لَا يموتَنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحْسِنُ الظنَّ باللهِ)[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) [كتاب الجنة وصفة نعيمها- باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت]، وغيره من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

ومِنْ مقطعاتِ شِعْرِ عبدِ القاهرِ بنِ طاهرٍ:

يَا فَاتِحًا لِي كُلَّ بَابِ مُرْتَجي * إنِّي لِعفْوِ مِنْكَ عَنِّي مُرْتَجِي

فَامْنُنْ عَلَيَّ بِمَا يُنِيلُ سَعَادَتِي * فَسَعَادَتِي طَوْعًا مَتَى تَأْمُرْ تَجِي

قالَ الدميريُّ: وفِي "مُرُوجِ الذَّهَبِ" عن فقيرِ بنِ مسكينٍ، قالَ: دخلتُ على الشافعيِّ أَعُودُه فِي مَرَضِ موتِه، فقلتُ لهُ: كيفَ أصبحتَ يَا أبَا عبدِ اللهِ؟ قالَ: أصبحتُ مِنَ الدُّنيا راحلًا، ولإخوانِي مُفارقًا، ولكأسِ المَنِيَّةِ شاربًا، ولَا أَدْرِي إلَى الجَنَّةِ تصيرُ رُوحِي فَأُهَنِّيهَا، أَمْ إلَى النارِ فَأُعَزِّيهَا، ثُمَّ قالَ:

ولَمَّا قَسَا قَلْبِي وضَاقَتْ مَذَاهِبِي * جعلتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ * بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

(غفَرْتُ لَكَ) ذُنوبَكَ، أَيْ سَتَرتُهَا عَلَيكَ بِعَدَمِ العِقَابِ عَلَيْهَا فِي الآخرةِ، ويُرادِفُه العفوُ، ومُقْتَضَى كَلَامِ ابنِ عطيةَ، أنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا، وهُوَ أَنَّ الغفرانَ لِمَا لم يَطَّلِعْ عليهِ أحدٌ، والعفوُ لِمَا اطُّلِعَ عليهِ، فإنَّه قَالَ فِي تفسيرِ قولِه تَعَالَى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾، أَيْ فِيمَا وَاقَعْنَاهُ وانكَشَفَ، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] اسْتُرْ عَلَينَا مَا عَلِمْتَ مِنَّا. قَالَ بعضُهم: وهُوَ بالتحكمِ أشبهُ، اهـ.

وقَالَ بعضُهم: إنَّ بَيْنَ مَفْهُومَيْهِمَا بِحَسَبِ الوضعِ عمومًا وخُصُوصًا مِنْ وَجْهٍ، فإنَّ المغفرةَ مِنَ الغَفْرِ وهو السَّتْرُ، بِمَعْنَى المَحْوِ، ولَا يَلْزَمُ مِنَ السَّتْرِ المَحْوُ، ولَا عَكْسُهُ، بِأَنْ يُحَاسِبَهُ بذنبٍ عَلَى رُؤُوسِ الأَشهادِ ثُمَّ يَعْفُوَ عنهُ، أوْ يسترَهُ ويجازِيَهُ عَلَيْهِ، أمَّا بالنظرِ لِكَرَمِ اللهِ -تَعَالَى- فَهُوَ إِذَا سَتَرَ عَفَا، فَبَيْنَهُمَا عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ، ولِذَا يُقَالُ فِي مَقَامِ المُلَاطَفَةِ فِي الأَكْثَرِ: عَفَا اللهُ عَنْه.

(مَا كَانَ مِنْكَ) مِنَ المعاصِي وإنْ تَكَرَّرَتْ، **(ولَا أُبَالِي)**، أَيْ لَا أَكْتَرِثُ بِذنوبِكَ ولو كَثُرَتْ؛ لأنَّه -تَعَالَى- لَا حَجْرَ عَلَيهِ فِيمَا يَفْعَلُ ولَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه ولَا مانعَ لعطائه، ومَعْنَى "لَا أُبَالِي": لَا يَشْتَغِلُ بَالِي بِهِ، فإنَّ أجرامَ العبادِ فِي جَنْبِ رحمتِه كذرَّةٍ حقيرةٍ، بلْ أَقَلَّ مِنْهَا.

فإنْ قُلْتَ: ثَبتَ أنَّهُ جفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فالدعاءُ لَا يُزِيدُ ولَا يَنْقُصُ شيئًا، وأيضًا المطلوبُ إنْ كانَ مِنْ مصالحِ العبدِ، فالجوادُ المُطلقُ لَا يبخلُ بِهِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَمْ يجزْ طلبُه، وإلَّا فالرِّضَا بالقضاءِ بابُ اللهِ الأعظمُ، والاشتغالُ بالدعاءِ يُنَافِيه؟! فالجوابُ: أنَّ الدعاءَ مِنْ شِعَارِ المُرْسَلِينَ ودثار الصَّالِحِينَ ودأبِ الصِّدِّيقِينَ.

(**يَا ابنَ آدمَ**) إنَّكَ (**لَوْ بَلغَتْ**) أَيْ وَصَلَتْ (**ذُنُوبُكَ**)، أَيْ لو فَرَضْتَهَا أَجْرَامًا (**عَنَانَ السَّمَاءِ**)، بِأَنْ مَلَأَتْ مَا بينَهَا وَبَيْنَ الأرضِ، و"العَنَانُ" بفَتْحِ العَيْنِ المُهْمَلَةِ وتَخْفِيفِ النُّونِ: السَّحَابُ، والواحدةُ "عَنَانَةٌ"، وهَلْ هُوَ اسْمٌ لِلسَّحَابِ مُطْلَقًا أَوْ بِقَيْدِ كَوْنِه مُمْتَلِئًا بالماءِ؟ قَوْلَانِ، وقِيلَ: العَنَانُ اسمٌ لِمَا عَنَّ لَكَ مِنَ السَّمَاءِ، أَيْ ظَهَرَ لَكَ إذَا رَفَعْتَ رأسَكَ إليها، ويُرْوَى: أعنانُ السماءِ[1]، أَيْ نَوَاحِيهَا ومَا اعْتَرَضَ مِنْ أقطارِها، كَأَنَّهُ جَمْعُ "عَنَنٍ"، وأَمَّا "العِنَانُ" بِكَسْرِ العَينِ، فَهُوَ اسْمٌ لِمَا تُقَادُ بِهِ الدَّابَّةُ، الأسفلُ للأسفلِ والأَعْلَى للأَعْلى، كـ"المَلِكُ" بِكسرِ اللامِ وفتحِها، و"الجِنَازَةِ" بِكسرِ الجيمِ: اسمٌ لِلسَّرِيرِ الَّذِي يُحْمَلُ عَلَيْهِ المَيِّتُ، وبفتحِها: اسمٌ لِلمَيِّتِ المحمولِ.

***

الكلام عن ماهية السماء

تَنْبِيهٌ: نُقِلَ عَنْ بعضِهم أنَّ سماءَ الدُّنيا أفضلُ مِمَّا سِوَاهَا؛ لقولِه تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الشعراء: ٨٢]، قَالَ الجَلَالُ السُّيُوطِيُّ: قُلْتُ: قَدْ وَرَدَ الأثرُ بخلَافِه، أَخْرَجَ عثمانُ بنُ سعدٍ الدَّارِمِيُّ فِي كتابِ "الرَّدُّ عَلَى الجَهْمِيَّةِ" عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قالَ: "سَيِّدُ السمواتِ السماءُ الَّتِي فِيهَا العَرْشُ، وسَيِّدُ الأرضينَ الَّتِي نَحْنُ عَلَيهَا"[2]، اهـ.

وَهَا هُنَا فَوائِدُ:

الأُولَى: مَذْهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والأَشَاعِرَةِ، كَمَا دَلَّتْ عَليهِ الأحاديثُ: أَنَّ السَّحَابَ مِنْ شجرةٍ مثمرةٍ فِي الجنةِ، والمطرَ بحرٌ تحتَ العرشِ، خلافًا للحكماءِ والمعتزلةِ، فِي أَنَّ مَنْشَأَ المطرِ البحرُ، وأَنَّ السحابَ أجسامٌ ذواتُ خراطيمَ تأخذُ الماءَ مِنَ البحرِ المِلْحِ، ويَقْصُرُهُ الرِّيحُ فَيَعْذُبُ.

---

(١) أخرجه البزار (٦٤٩٨)، وغيره.

(٢) الرد على الجهمية (٩٠) [باب الإيمان بالعرش].

الثَّانِيَةُ: قالَ الحكماءُ: الأرضُ طَبَقٌ واحدٌ، وَمَذْهَبُ الأَشَاعِرَةِ أنَّ الأرضَ طبقاتٌ متفاصلةٌ بالذاتِ، بينَ كلِّ أَرْضَينِ مَسِيرةُ خَمْسِمِائَةِ عامٍ، كما وردتْ بِهِ الأخبارُ[1]، وعَلَيهِ إنَّمَا جُمِعَتِ السماءُ وأُفْرِدَتِ الأرضُ فِي بعضِ الآياتِ؛ لأنَّ السمواتِ مختلفةُ الأجناسِ، بخلافِ الأرضينَ لاتحادِ جِنْسِهَا، وهُوَ الترابُ، وذَكَرَ بعضُهم: أنَّ الحِكْمَةَ فِي إفرادِ الأرضِ، ثِقَلُ جَمْعِهَا لفظًا، وهُوَ "أَرْضُونَ".

الثالثةُ: الأرضُ العُلْيَا أفضلُ مِمَّا تحتَهَا؛ لاستقرارِ ذريَّةِ آدمَ فِيهَا ولِانتفاعِهَا بِهَا، وهِيَ مَهْبطُ الوَحْيِ وغَيْرِهِ مِنَ المَلائِكَةِ، قالَه فِي "كَشْفِ الأَسْرَارِ".

***

(ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي) مِنْ هَذِهِ الذنوبِ الكثيرةِ استغفارًا يَثْبُتُ معناهُ فِي القلبِ ويحصُلُ مَعَهُ النَّدَمُ لينحَلَّ بِهِ عقدُ الإصرارِ، وحينئذٍ فالمرادُ بِهِ التوبةُ، وهِيَ لُغَةً: الرجوعُ عَنِ الشيءِ، يُقَالُ: تَابَ وثَابَ بالمثلثة، بمعنى: رَجَعَ، وشرعًا: الرجوعُ عمَّا لَا يُرضِي اللهَ تَعَالَى إِلَى مَا يُرْضِيهِ، مِمَّا هُوَ محمودٌ شرعًا، ولَهَا أركانٌ ثلاثةٌ: اثنانِ عامَّان:

- الأول: الندمُ عَلَى الذنبِ، مِنْ حيثُ هُوَ ذنبٌ وخوفُ عقابٍ، بخلافِ الندمِ عليهِ لنحوِ هَتْكٍ أو صرفِ مالٍ أو تعبِ بدنٍ أو لِكَوْنِ مَقْتُولِهِ وَلَدَهُ، أو نَدَمٌ عَلَى شُرْبِ الخمرِ لِمَا فِيهِ مِنَ الصداعِ والإخلالِ بالمالِ أو العرضِ، فإنَّ ذلكَ لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَمَعْنَى النَّدَمِ: تَحَزُّنٌ وَتَوجُّعٌ عَلَى أنْ فَعَلَ، وتمنِّي كونِهِ لَمْ يَفْعَلْ.

- الثَّانِي: العَزْمُ عَلَى أنْ لَا يعودَ إليهِ مَا عاشَ، كَمَا لَا يعودُ اللبنُ إِلَى الضَّرْعِ، لَا لِنَحْوِ عدمِ انتشارِ ذِكْرِهِ بَعْدَ الزِّنَا.

الثالثُ: وهُوَ خاصٌّ، الإقلاعُ عَنِ الذَّنْبِ فِي الحالِ، بأنْ يتركَه إنْ كانَ مُتَلَبِّسًا بِهِ أو مُصرًّا عَلَى المعاودةِ إِلَيهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٨) [أبواب تفسير القرآن- باب ومن سورة الحديد]، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الترمذي: حديث غريب من هذا الوجه.

– فإنْ كَانَتِ المعصيةُ تتعلقُ بآدميٍّ فَلَهَا شرطٌ رابعٌ، وهُوَ رَدُّ الظُّلَامَةِ إِلَى صَاحِبِهَا أو تحصيلُ البراءةِ مِنْهُ إِنْ قَدَرَ، فَيَرُدُّ المظالمَ ويتحللُ فِي الأعراضِ ويسلمُ نفسَه لِلقصاصِ إِنْ أَمْكَنَ.

وفِي الحديثِ: (المُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وهُوَ مُقِيمٌ عَلَيهِ كَالمستهزِئِ بِرَبِّه)[1]، وقولُه فِي الحديثِ: (الندم توبة)[2]، أي معظمُ شروطِها الندمُ، كما فِي الحديثِ الآخرِ (الحجُّ عرفةُ)[3]، ولأنَّ الندمَ يستلزمُ الشرطينِ الآخرينِ عادةً، قالَ الحطَّابُ فِي حاشيتِه على الرسالةِ القيروانيَّة: وإذَا لَمْ يَرُدَّ المظالمَ إِلَى أهلِها مَعَ الإمكانِ، فَصَحَّحَ الإمامُ توبتَه مَعَ الجمهورِ، وقِيلَ: إنَّهَا لَا تَصِحُّ، اهـ.

شروط صحة التوبة

وفِي شرحِ العقيدةِ لِلسنوسيِّ: التوبةُ مِنَ الغصبِ والسرقةِ والحرامِ ونحوِ ذلكَ، يُشْتَرَطُ فِي صِحَّتِهَا ردُّ المغصوبِ الموجودِ الَّذِي لَمْ يتعلَّقْ بالذِّمَّةِ، وأمَّا مَا تعلَّقَ بالذِّمَّةِ لاستهلاكِه ونَحْوِه، فَرَدُّ عِوَضِه ليسَ بشرطٍ فِي صحةِ التوبةِ عندَ الجمهورِ، وإنَّمَا هُوَ واجبٌ آخرُ مستقلٌّ بِنَفْسِه يحتاجُ إِلَى توبةٍ، ومَعْنَى النَّدَمِ: تَحَزُّنٌ وتوَجُّعٌ عَلَى مَا فَعَلَ، وتَمَنِّي كَوْنِه لَمْ يفعلْ لا مجردَ قولِه: نَدِمْتُ.

وأُطْلِقَ الاستغفارُ عَلَى الصَّلَاةِ، كَقولِه فِي آلِ عمرانَ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، يَعْنِي: المُصَلِّينَ فِي الأسحارِ، وكَقولِه فِي سُورةِ الذارياتِ: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، يَعْنِي: يُصَلُّونَ، وكَقولِه فِي الأنفالِ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، يَعْنِي: يُصَلُّونَ.

قالَ العَلَّامَةُ ابنُ العمادِ: وشروطُها المذكورةُ مأخوذةٌ مِنَ القرآنِ:

– أمَّا الندمُ فمأخوذٌ مِنْ قولِه تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ وذَلِكَ لأنَّ العبدَ إِذَا أَذْنَبَ ذنبًا وذَكَرَ اللهَ نَدِمَ عَلَى فِعْلِ مَا يَسْتَوْجِبُ العقوبةَ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة (٨٥) [حكم المستغفر وهو مقيم على الذنب]، والبيهقي في السنن (٢٠٥٦٣) [كتاب الشهادات- باب شهادة القاذف]، والشعب (٦٧٨٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس وقال البيهقي: هذا إسنادٌ فيه ضعفٌ، ورُوي من وجهٍ آخر ضعيفٍ، عن أبي سعدة الأنصاري عن النبيِّ ﷺ.

(٢) تقدَّم تخريجه في شرح الحديث التاسع عشر.

(٣) تقدَّم تخريجه في شرح الحديث السابع والعشرين (توبةَ العبدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ).

- وأمَّا الإقلاعُ وتركُ العَوْدِ وردُّ المظلمةِ، فمُستفَادٌ مِنْ قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥]؛ لأنَّ مَنْ لَمْ يُقْلِعْ عَنِ الذنبِ مُصِرٌّ عَلَيه، ومَنْ أَقْلَعَ وعَزَمَ عَلَى العَوْدِ بعدَ مُدَّةٍ، فَهُوَ مُصِرٌّ أيضًا، وكَذَا مَنْ عَزَمَ عَلَى تَرْكِ العَوْدِ مُطْلَقًا، لَكِنْ أَمْسَكَ مَا غَصَبَهُ مَثَلًا ولَمْ يَرُدَّهُ، فهُوَ قَدْ أَصَرَّ عَلَى مَا فَعَلَ.

وزادَ بعضُهم فِي الشُّروطِ: وقوعَ التوبةِ فِي وقتِها، وهُوَ مَا قَبْلَ الغرغرةِ، لِمَا رَوَاهُ الترمذيُّ وحَسَّنَهُ عَنْهُ ﷺ: (إنَّ اللهَ يَقْبَلُ توبةَ العبدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)[1] أيْ: تَبْلُغُ روحُه حلقومَه، وهِيَ حالةُ النزعِ لَهُ؛ لأنَّ الغرغرةَ: أنْ يُجْعَلَ المشروبُ فِي فمِ المريضِ فيُرَدِّدَهُ فِي الحلقِ ولَا يصلُ إليهِ ولَا يَقْدِرُ عَلَى بلْعه، هَذَا عندَ الأشاعرةِ، وأمَّا عندَ الماتريديَّةِ فإنَّما يُشْتَرَطُ: عدمُ الغرغرةِ فِي الكافرِ دُونَ المؤمنِ العاصِي، عملًا بالاستصحابِ فِي الموضعينِ، وقيلَ: طلوعُ الآياتِ كطلوعِ الشمسِ مِنْ مغربِهَا.

ولَا يُشترَطُ التلفظُ بالاستغفارِ، لِمَا رواهُ الحاكمُ وصَحَّحَهُ، لَكِنْ فيهِ ساقطٌ: (مَا عَلِمَ اللهُ -تعَالَى- مِنْ عبدٍ ندامةً عَلَى ذنبٍ إلَّا غَفَرَ لَهُ قبلَ أنْ يستغفرَ منْهُ)[2]، خلافًا للبلقينيِّ القائلِ: بأنَّه لَا بُدَّ أنْ يقولَ "أستغفرُ اللهَ مِنْ ذَنْبِي" أَوْ "رَبِّ اغفرْ ذَنْبِي" أو نَحْوَ ذَلِكَ، وكَذَا لا يَشترطُ مفارقةَ مكانِ المعصيةِ، خِلَافًا للزمخشريِّ، ولَا تجديدَ التوبةِ كُلَّمَا ذَكَرَ المعصيةَ، خلافًا للقاضِي أبِي بكرٍ البَاقِلَّانِيِّ.

وأمَّا التوبةُ النصوحُ فإنَّها أخصُّ مِنْ ذلكَ؛ لأنَّها تُكَفِّرُ السيئاتِ وتُبَدِّلُها بحسناتٍ، وقَدِ اخْتُلِفَ فِيهَا، فقالَ بعضُهم: التوبةُ النصوحُ يجمعُها أربعةُ أشياءَ: الاستغفارُ باللسانِ، والإقلاعُ بالأبدانِ، وإضمارُ تَرْكِ العَوْدِ بالجنانِ، ومهاجرةُ سيِّئِ الخِلَّانِ. وهُو قريبٌ مِنْ قولِ بعضِهم: هِيَ

---

(١) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، والترمذي (٣٥٣٧) [أبواب الدعوات- باب في فضل التوبة والاستغفار]، وابن ماجه (٤٢٥٣) [أبواب الزهد- باب ذكر التوبة]، وابن حبان (٦٢٨) [كتاب الرقائق- باب التوبة]، وغيرهم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٣/٤) [كتاب التوبة والإنابة]، وصحَّحه، وردَّه الذهبيُّ بأنَّ في إسناده هشام بن زياد وهو متروك، وقال المنذري في الترغيب (٩٨/٤): رواه الحاكم من رواية هشام بن زياد، وهو ساقط، وقال: صحيح الإسناد.

تَقَدُّمُ أربعةِ أشياء: الندمِ بالقلبِ، والاستغفارِ باللسانِ، وإضمارِ أنْ لَا يَعُودَ، ومجانبةِ خُلَطَاءِ السوءِ.

وقال أبُو بكرٍ الوَرَّاقُ[1]: هُوَ أنْ تضيقَ عليكَ الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ، وتضيقَ عَلَيْكَ نفسُك، كَالثلاثةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا. وقالَ بعضُهم: أنْ يكونَ لِصاحبِها دمٌ مسفوحٌ، وقلبٌ عَنِ المعاصِي جَمُوحٌ. وقالَ ذو النُّونِ: علامتُها ثلاثةٌ: قلةُ الطعامِ، وقلةُ الكلامِ، وقلةُ المنامِ.

وقالَ فتحٌ الموصليُّ[2]: علامتُها ثلاثةٌ: مخالفةُ الهَوَى، وكثرةُ البكاءِ، ومُكَابَدَةُ الجوعِ والظمأ. وقال عُمَرُ وأُبَيٌّ ومُعَاذٌ: التوبةُ النصوحُ أنْ يتوبَ ثُمَّ لَا يعودَ إلَى الذنبِ، كَمَا لَا يعودُ اللبنُ إلَى الضَّرْعِ. وقالَ الكَلْبِيُّ: أنْ يَسْتَغْفِرَ باللِّسانِ ويندَمَ بالقلبِ ويُمسكَ بالبدنِ.

(**غَفَرْتُ لَكَ**) وَإنْ تكرَّرَ الذنبُ والتوبةُ مِنْكَ مراراً فِي اليوم الواحدِ؛ لأنَّ معاودةَ الذنبِ لَا تُبْطِلُ التوبةَ، ومِنْ ثَمَّ قَالَ -عَلَيهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ-: (مَا أَصَرَّ مَن استغفرَ -أَيْ: تَابَ- ولَوْ عادَ فِي اليومِ سبعينَ مرةً)[3]، وأَخْرَجَ الأصبهانيُّ، أنَّه ﷺ قالَ: (إِذَا تَابَ العبدُ مِنْ ذُنُوبِه أَنْسَى اللهُ حَفَظَتَهُ ذُنُوبَهُ، وأنْسى ذلكَ جَوَارِحَهُ ومَحَالَّه مِنَ الأرضِ، حَتَّى يَلْقَى اللهَ يومَ القيامةِ وليسَ عَلَيهِ شاهدٌ مِنَ اللهِ بذنبٍ)[4]، وتَصِحُّ التوبةُ مِنَ الذنبِ ولَوْ كانَ مُصِراً عَلَى الآخرِ، وخَالَفَتِ المعتزلةُ فِيهِمَا.

---

(١) أبو بكر محمد بن عمر بن علي بن خلف الوراق الحكيم، صنف في الرياضيات والمعاملات، وتوفي سنة (٣٩٦). طبقات الصوفية (ص ١٧٨)، وتاريخ بغداد (٣/٢٤٦).

(٢) أبو نصر فتح بن سعيد الوصلي، من أقران بشر الحافي، وسري السقطي، كبير الشأن في باب الورع والمعاملات، توفي سنة (٢٢٠). تاريخ بغداد طبقات الأولياء لابن الملقن (ص ٢٧٦).

ويوجد موصلي أقدم من هذا، وهو: فتح بن محمد بن وشاح الأزدي، الموصلي أحد الأولياء، له أحوال ومقامات، وقدم راسخ في التقوى، توفي سنة (١٧٠). تاريخ بغداد (١٢/٣٧٩)، والسير للذهبي (٧/٣٤٩).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥١٤) [أبواب فضائل القرآن- باب في الاستغفار]، والترمذي (٣٥٥٩) [أبواب الدعوات]، وغيرهما من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وليس إسناده بالقوي. وقد تعقَّبه الزيلعي في "تخريج أحاديث الكشاف" (١/٢٧٧) بقوله: فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر لأنه تابعي كبير، ويكفيه نسبته إلى أبي بكر، فهو حديث حسن، والله أعلم. وقد حسَّنه أيضاً الحافظ ابن حجر في الفتح (١/١١٢)، وغيرهما.

(٤) أخرجه الأصبهاني (٧٧٨) [باب في الترغيب في التوبة].

ثُمَّ إنَّ توبةَ الكافرِ مِنْ كُفْرِهِ مقطوعٌ بقبولِها، ومَا سِوَاهَا مِنْ أنواعِ التوبةِ، هلْ قبولُه قطعيٌّ أوْ ظنِّيٌّ؟! خلافٌ بينَ أهلِ السُّنَّةِ، والأصَحُّ كَمَا اختارَه إمامُ الحرمينِ أنَّه ظنِّيٌّ.

وكانَ سببُ توبةِ الفُضَيلِ بن عياضٍ أنَّه عَشِقَ جاريةً فَوَاعَدَتْهُ ليلةً، فَبينَمَا هُوَ يترقَّى الجُدْرَانَ إليهَا، إذْ سَمِعَ قارئًا يقرأُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فَرَجَعَ القَهْقَرَى، وهُوَ يقولُ: بَلَى، واللهِ قَدْ آنَ، فَآوَاهُ اللَّيْلُ إلَى خَرِبَةٍ، وفيهَا جماعةٌ مِنَ السَّائِلَةِ، وبعضُهم يقولُ لبعضٍ: إنَّ فلانًا يَقْطَعُ الطريقَ، فقالَ الفُضَيْلُ: "أَرَانِي بِاللَّيْلِ أَسْعَى فِي معصيةِ اللهِ وقومٌ مِنَ المسلمينَ يَخَافُونَنِي، اللهُمَّ إنِّي قَدْ تُبتُ إليكَ، وجعلتُ تَوْبَتِي إليكَ جِوَارَ بَيْتِكَ الحَرَامِ".

وإنَّما حَمَلْنَا الاستغفارَ عَلَى التوبةِ؛ لأنَّ الاستغفارَ المطلوبَ هُوَ الَّذي يَحُلُّ عُقَدَ الإصرارِ ويَثْبُتُ مَعْنَاهُ فِي الجَنَانِ، لَا مُجَرَّدَ التلفظِ باللِّسانِ مِنْ غيْرِ أنْ يكونَ للقلبِ فيه شِرْكَةٌ، فَلِذَا رُوِيَ عَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: استغفارُنا يحتاجُ لِاستغفارٍ، لَكِنْ قالَ الغزاليُّ: لَا تَظُنَّ أنَّه يَذمُّ حركةَ اللسانِ مِنْ حَيْثُ إنَّها ذِكْرٌ، بَلْ يَذمُّ غَفْلَةَ القَلْبِ، فَهُوَ يحتاجُ إلَى الاستغفارِ مِنْ غفلةِ قلبِه، لَا مِنْ حركةِ لسانِه.

وفِي الحديثِ: (مَنِ استغفرَ للمؤمنينَ والمؤمناتِ كتبَ اللهُ لهُ بِكُلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ حسنةً)[١]، وفِيهِ أيضًا: (مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ، جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فرجًا، ومِنْ كُلِّ ضيقٍ مَخْرَجًا، ورَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ والنَّسَائِيُّ وابنُ ماجهْ[٢]، ورَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قالَ: (مَنْ قَالَ أستغفرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ، غفرَ اللهُ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ)[٣].

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في مسند الشاميين (رقم ٢١٥٥). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢١٠): إسنادُهُ جَيِّدٌ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٤)، وأبو داود (١٥١٨) [أبواب فضائل القرآن- باب في الاستغفار]، والنسائي في الكبرى (١٠٢١٧) [كتاب عمل اليوم والليلة]، وابن ماجه (٣٨١٩) [أبواب الأدب- باب في الاستغفار] وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وصححه الحاكم (٢٦٢/٤) [كتاب التوبة] وتعقبه الذهبي بأن أحد رواته فيه جهالة. ووقع عند بعضهم بلفظ: (من أكثر الاستغفار...) الحديث.

(٣) سنن الترمذي (٣٥٧٧) [أبواب الدعوات]، وغيره من حديث زيد مولى رسول الله ﷺ مرفوعًا.

(يَا ابنَ آدمَ إنَّك لَوْ أَتيْتَني بقُرَاب الأرض) بِضَمِّ القاف وكَسْرِهَا، والضَّمُّ أشهرُ، أَيْ: بقُرْب مِلْئِهَا أَوْ مِلْئِهَا، وهَذَا أبلغُ مِمَّا قَبْلَهُ، (خطَايَا ثُمَّ لَقِيتَني)، أَيْ مُتَّ حَالَ كَوْنكَ (لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا)، أَيْ بِذَاتِي وَصِفَاتِي وَأَفْعَالِي، أَيْ مُستمراً عَلَى الإيمانِ؛ لاعتقادكَ توحيدي والتصديقَ بِرُسُلِي وبِمَا جَاءُوا بِهِ، (لأَتَيْتُك بقُرَابِهَا)، عَبَّرَ بِهِ لِلمُشَاكَلَةِ، وإلَّا فَمَغْفِرَةُ اللهِ أَعْظَمُ وَأَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ (مَغْفِرَةً).

وفِي خَبَرٍ مُسْنَدٍ: (أَنَّ رَجُلًا يُؤْمرُ بِهِ إِلَى النَّارِ، فَإِذَا بَلَغَ ثُلُثَ الطريقِ الْتَفَتَ، فَإِذَا بَلَغَ نِصْفَ الطريقِ الْتَفَتَ، فَإِذَا بَلَغَ ثُلُثَي الطريقِ الْتَفَتَ، فَيَقُولُ اللهُ: رُدُّوهُ، ثم يسأله فَيَقُولُ: لِمَا الْتَفَتَّ؟ فَيَقُولُ: لَمَّا بَلَغْتُ ثُلُثَ الطريقِ تَذَكَّرْتُ قَوْلَكَ: ﴿وربُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، فَقُلْتُ: لَعَلَّكَ تَغفرُ لِي، فَلَمَّا بَلَغْتُ نِصْفَ الطريقِ تَذَكَّرْتُ قَوْلَكَ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فَقُلْتُ: لَعَلَّكَ تَغْفرُ لِي، فَلَمَّا بَلَغْتُ ثُلُثَي الطريقِ تَذَكَّرْتُ قَوْلَكَ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فَازْدَدْتُ طَمَعًا، فيقولُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: اذْهَبْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[١].

(رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ) فِي الدَّعَوَاتِ، وخَرَّجَهُ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ[٢]، والتِّرْمِذِيُّ بِتَثْلِيثِ الفوقيَّةِ وَكَسْرِ المِيمِ أَوْ ضَمِّهَا، وإِعْجَامِ الذَّالِ، (وقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ)، وَأَخْرَجَهُ أَبُو عوانة فِي مُسْنَدِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ[٣].

***

(١) أخرجه أحمد بنحوه (٢٢٢٩٣)، وغيره من حديث فضالة بن عبيد وعبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.
(٢) أخرجه الطبراني في الثلاثة: الكبير (١٢/رقم ١٢٣٤٦)، والأوسط (٥٤٨٣)، والصغير (٨٢٠)، وغيره.
(٣) أخرجه أحمد (٢١٤٧٢)، والدارمي (٢٩٩٥) [كتاب الرقاق- باب إذا تقرب العبد إلى الله]، وأبو عوانة في البر والصلة كما في "إتحاف المهرة" (١٤/١٩٥)، وغيرهم.

[خاتمة الشارح]

قَالَ بَعْضُ الشُّرَّاحِ:

ويَظْهَرُ أَنَّ مَعَانِيَ هَذِهِ الأَحَادِيثِ كُلِّهَا وَإِنْ كَثُرَ تَعْدَادُهَا وجَلَّ مِقْدارُها وعَظُمَ مَحَلُّهَا واشْتَمَلَ علَى كُلِّ الشريعةِ المحمَّديَّة شملُها، تَرْجِعُ إِلَى:

- تَقْوَى اللهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ والعلانية،
- مع قِصَرِ الأملِ،
- والزُّهْدِ فِي الدُّنيا،
- وتَرْكِ مَا لَا يَعْنِي مِنْ فُضُولِهَا،
- والشُّغْلِ بِذِكْرِ اللهِ،
- وحُسْنِ التَّخَلُّقِ مَعَ الخَلْقِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ،
- والانقباضِ عنهم فِيمَا لَا يَعْنِي،
- وإرادةِ الخيرِ لهم بالباطنِ،
- ومُساعدتِهم بِالظاهرِ فِيمَا أَمْكَنَ.

***

وهَذَا آخرُ مَا سَهَّلَ اللهُ تَحْصِيلَهُ، عَلَى حَسَبِ الإمكانِ،
والحمدُ لله الكَرِيمِ المَنَّانِ الَّذي هَدَانَا لِهَذَا،
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ،
والصَّلَاةُ والسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالَاهُ،
وَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِمَّا يَعْلَمُهُ مِنِّي
مِنَ الجراءةِ عَلَى شَرْحِ قَوْلِ مَنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى،
مَعَ قُصُورِي فِي هَذِهِ المَادَّةِ، وَقِلَّةِ سُلُوكِي فِي هَذِهِ الجَادَّةِ،
وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِتَوْبَةٍ تَمْحُو عَنَّا كُلَّ جَرِيمَةٍ،
وَأَنْ يَخْتِمَ لَنَا بِالْحُسْنَى، وَيَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْمَطْلُوبِ الأَسْنَى،
وَأَنْ يَشْمَلَ فِي ذَلِكَ جَمِيعَ أَهْلِنَا وَمَشَايِخِنَا وَأَحْبَابِنَا،
وَمَنْ أَمَّنَ عَلَى هذا الدُّعاءِ مِمَّنْ سَمِعَهُ، وَمَنْ دَعا لنَا بِمِثْلِهِ وَكُلِّ المسلمينَ.
وَقَدْ قِيلَ:

يَا مَنْ غَدَا نَاظِرًا فِيمَا جَمَعْتُ وَقَدْ * أَضْحَى يُرَدِّدُ فِي أَفْنَائِهِ النَّظَرَا
سَأَلْتُكَ اللهَ إِنْ عَايَنْتَ مِنْ خَطَأٍ * فَاسْتُرْ عَلَيَّ فَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ سَتَرَا

وحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ،
وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يومِ الدِّينِ،
والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

***

٢٠٢٣/١١/١٧م - ١٧/ربيع الآخر/١٤٤٥هـ

فهرس المحتوى

***

صدر في هذه السلسلة

١- شرح الهمزية المسمى "الفتوحات الأحمدية بالمنح المحمدية"

.... للشيخ سليمان العجيلي الأزهري

٢- التحفة البهية في طبقات الشافعية

.... للإمام الشيخ عبد الله بن حجازي الشرقاوي

٣- الكشف الرباني عن المورد الرحماني

.... للعلامة الشيخ أحمد الطاهر الحامدي

٤- المواكب العلية شرح الكواكب الدرية في الضوابط العلمية

.... للعلامة الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري

٥- شرح مختصر الشمائل المحمدية

.... للإمام الشيخ عبد الله بن حجازي الشرقاوي

٦- إتمام الدراية لقراء النقاية

.... للعلامة الحافظ جلال الدين السيوطي

٧- المدد الفياض بنور الشفا للقاضي عياض

.... للعلامة الشيخ حسن العدوي الحمزاوي

٨- الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين النووية

.... للعلامة الشيخ إبراهيم بن مرعي الشبراخيتي

***

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٨/٨٠١٣

الترقيم الدولي ISBN
978-977-848-011-5

الناشر: كشيدة للنشر والتوزيع
العاشر من رمضان - مصر
info@kasheeda-publishing.com
www.kasheeda-publishing.com



لما كانت السنة النبوية مفسرة ومفصلة لكتاب الله الكريم، تبارى حفاظ الأمة وأئمتها في توثيق متونها وأسانيدها، وجمع ذلك في الدواوين الحديثية المختلفة، من صحاح وسنن ومسانيد وغيرها، كما اعتنوا بالأحاديث المتعلقة بموضوع واحد، فجمعوها في مؤلفات حديثية مستقلة، كان منها الأربعينيات التي جمعها أصحابها استجابة لقول المصطفى ﷺ: (من حفظ على أمتي أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله في زمرة الفقهاء والعلماء).

وتعد "الأربعون" التي جمعها الإمام النووي من أشهر تلك الأربعينيات، حيث تلقتها الأمة بالقبول، وحظيت بعناية العلماء والدارسين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتجلى ذلك في كثرة ما كتب حولها من شروح، كان منها هذا الشرح للعلامة الشبراخيتي.

وفي هذا الشرح النفيس للأربعين النووية، حرص العلامة الشبراخيتي على شرح مفردات وعبارات كل حديث بصورة مستفيضة، والتعريف بالرواة وذكر مناقبهم، مع إدراج العديد من التنبيهات والفوائد، والحكم والمواعظ.




ISBN 978-977-848-011-5